

دراسات تاريخية

مجلة علمية فصلية محكمة



دراسات تاريخية

مجلة علمية فصلية محكمة

تعنى بالدراسات حول تاريخ العرب

تصدرها لجنة كتابة تاريخ العرب بجامعة دمشق

السنة التاسعة ، العددان ٢٩ و ٣٠ ، آذار ـ حزيران ١٩٨٨

DIRASAT TARIKHIYYAH

Revue historique trimestrielle

S'interesse a L'histoire des Arabes

Pubièe par la Commission de Redaction de l'Histoire des Arabes

9e année, N° 29 - 30, Mars - Juin 1988

● بدل الاشتراك السنوي :.

للافــراد : (٥٠) ل.س خمسون ليرة سورية

للمؤسسات : (١٠٠) ل.س مائة ليرة سورية
(تضاف اليها اجور البريد)

في البلاد الاجنبية : (١٠) عشرة دولارات اميركية
(بما فيها اجور البريد)

● يتم تسديد بدل الاشتراك بحوالة بريدية الى :

جامعة دمشق ــ لجنة كتاب تاريخ العرب ــ مجلة دراسات تاريخية

او :

● بتحويل القيمة الى حساب جامعة دمشق المفتوح في مصرف سورية المركــزي تحت رقم ٢٣/٣٣٢٣ .

● يمكن للراغبين باقتناء مجموعات الاعداد الصادرة في السنوات السابقــة الاشتراك بالبدل نفسه لكل سنة من السنوات : (١٩٨١ ، ١٩٨٢ ، ١٩٨٣ ، ١٩٨٤ ، ١٩٨٥، ١٩٨٦ ، ١٩٨٧ ، ١٩٨٨) .

المراسلات : مجلة دراسات تاريخية

جامعة دمشق ــ لجنة كتابة تاريخ العرب

المكاتب : جامعة دمشق ــ كلية طب الاسنان ط ٣ ــ هاتف ٢٢٢٤٦١

دراسات تاريخية

السنة التاسعة ، ٢٩ و ٣٠ ، آذار ــ حزيران ١٩٨٨

* الخراج والجزية في عهد الرسول (ص) ٩
د. صالح موسى درادكة

* العشور ــ ضرائب التجارة في صدر الاسلام ٣٣
د. فالـح حسـين

* الادارة المالية في المملكة السورية السلوقية ٥٣

* مدينة حمص في العهد الروماني ٨٥
عبد الحميد عز الدين

* ادريمي ملك الالاخ ١٠٣
د. عيـد مرعي

تنويــه

- الآراء الواردة في المجلة تعبر عن وجهة نظر صاحبها
- ترتيب البحوث يخضع لاعتبارات فنية

* بعض الاسس النظرية للصناعات الحربية في العهد الايوبي والمملوكي ١٢٧
آزاد علي

* ابن فضل الله العمري
وكتابه مسالك الابصار في ممالك الامصار ١٣٧
سيف الدين القصير

* نظام الحسبة في الاســلام ١٤٩
د. محمد زيــود

* مؤسسة الطلبة في دولة الموحدين ١٧١
فارس بــوز

* من تاريخ حلب ــ حكم قسيم الدولة آق سنقر ١٨٩
محمد ضامــن

شروط النشر في المجلـة

أن مجلـة دراسـات تاريخيـة هي جزء مـن **مشروع كتابـة تاريخ العـرب** ، وخطـوة من خطوات تخدم كلهـا وبمجموعهـا الغرض الاساسـي : كتابـة تاريـخ العرب من منطلق وحدوي ، وضمن منظوري الفهم الحضاري للتاريخ والتقيد باسلوب البحث العلمي ، فتحاول طرح الجديد في ميدان البحث في التاريـخ العربي وتسليط الضوء على التيارات العامة التي حركت تاريخ الامة العربية واعطته خط مسار خاص به ، وايضاح ما لفّه الغموض وتصحيح ما شوه وكشـف الزيف ان وقع ، وكل ما يمكن أن يثير جدلا علميا واعيا ينتهي عند الحقيقة الموضوعية .

والمجلة ترحب بكل قلم يشارك في أغنـاء فكرتهـا وبكل مقترح وراي يساعد في مسيرتها ، وتنشر البحوث والدراسات في تاريخ العرب وما يتصل به ، على أن يراعى فيها مايلي :

آ ـ ان تتوافر في البحث الجدة والاصالة والمنهج العلمي .

ب ـ أن لا يكون البحث منشورا من قبل .

ج ـ أن يكون مطبوعا على الآلة الكاتبة ، خاليا من الاخطاء الطباعية .

د ـ تعرض البحوث ، في حال قبولها مبدئيا ، على محكمين متخصصين لبيان مـدى صلاحيتها للنشر ، وفق المعايـير المذكورة اعـلاه ، والتعديلات اللازم ادخالهـا عليها عند الاقتضاء . وتبقى عملية التحكيم سرية .

وتحتفظ المجلة بحقها في الحذف أو الاختزال ، بما يتوافق مع أغراض الصياغة.

ولا تنشر المجلة قوائم المصـادر والمراجع ، ولذلك يحسـن أن يتقيد السـادة الباحثون بشكليات التوثيق المتعارف عليها ، على النحو التالي :

آ ــ في ذكر المصدر أو المرجع (للمرة الاولى) :

ذكر اسم المؤلف كاملا وتاريخ وفاته بين قوسين (   ) ان كان متوفى ، اسم المصدر او المرجع وتحته خط ، عدد المجلدات أو الاجزاء ، اسم المحقق ان وجد ، الناشر ، المطبعة ورقم الطبعة ان وجدت ، مكان النشر وتاريخه ، الصفحة .

مع ذكر ما يشار به الى المصدر او المرجع في المرات التالية .

ب ــ في محاضر المؤتمرات :

ذكر اسم الباحث كاملا ، عنوان الدراسة كاملا بين قوسين مزدوجين «   » ، عنوان الكتاب كاملا ، اسم المحرر أو المحررين ، الناشر ، المطبعة ورقم الطبعة ان وجدت ، مكان النشر وتاريخه ، الصفحة .

ج ــ في المجلات :

اسم الباحث كاملا ، عنوان البحث بين قوسين مزدوجين «   » اسم المجلة كاملا وتحته خط ، رقم المجلد أو السنة ، رقم العدد وتاريخه ، الصفحة .

مع ذكر الرمز الذي يشار به الى المجلة في المرات التالية .

د ــ في المخطوطات (للمرة الاولى):

اسم المؤلف كاملا ، عنوان المخطوط كاملا ، الجهة التي تحتفظ به ، تاريخ النسخة وعدد أوراقها ، رقم الورقة مع الاشارة الى وجهها (آ) وظهرها (ب) . مع ذكر ما يشار به الى المخطوط في المرات التالية .

وتكتب الاسماء الاجنبية بالعربية واللاتينية بين قوسين (   ) ، ويشار الى الملاحظات الهامشية بنجمة * . **وترقم الحواشي بارقام تتسلسل من أول البحث الى اخره ، دون التوقف عند نهاية الصفحات .**

يمنح الباحث نسخة من العدد الذي نشر فيه بحثه ، مع عشرين (مستلة) من البحث .

نـدوة علمية متخصصـة

تعقد لجنة كتابة تاريخ العرب بجامعة دمشق ، في الفترة من ٢٨ الى ٣٠ تشرين الثاني ١٩٨٨ ، ندوتها الثالثة ، والاولى في سلسلة الندوات العلميـة المتخصصـة ، ومحـورها :

مَلكيّـة الأرض
وأثرها في التبدلات الاجتماعية والاقتصادية
في الوطن العربي

ويشارك في هذه الندوة مؤرخون وباحثون من القطر العربي السـوري والاقطار العربية : الجزائر وتونس ومصر والاردن ولبنان ، تنشر وقائعها في مجلة دراسـات تاريخيـة .

الخراجُ والجزيةُ في عهدِ الرّسول (ص)

د. صالح درادكة
الجامعة الاردنية

تهدف هذه الدراسة الى التعرف على الضرائب في عهد الرسالة النبوية ــ فترة تاسيس الدولة ــ من خلال استقصاء المدلول اللفظي والعملي لكل من مصطلحي «الخراج» و «الجزية» .

فالدراسات الكثيرة في مجال الاقتصاد الاسلامي والمالية ، والضرائب بشكل خاص ، لم تعط هذه الفترة ما تستحقه من عناية ، مع ان مثل هذه الدراسة تشكل الاساس الذي قامت عليه التشريعات المالية في الدولة الاسلامية . وتصبح الحاجة اكثر الحاحاً اذا ادركنا أن فريقا من المستشرقين ممن اهتموا بهذا الجانب ، ذهبوا الى ان العرب لم تكن لهم سابق معرفة بانظمة المال والضرائب والادارة ، وكل الذي فعله العرب انهم فرضوا اتاوة (tribute) على سكان البلدان المفتوحة كيفما اتفق ، ثم بعد ذلك اعطوا هذه الاتاوات تسميات الضرائب التي كانت معروفة عند الروم والفرس، أي أن العرب استعاروا التسميات دون المضامين(١) .

تواجه هذه الدراسة مجموعة من الاشكاليات ، منها أن الباحث المحدث يتطلع الى نظام مالي كامل في هذه الفترة المبكرة من عمر الدولة ، وربما ادى هذا الطموح الى عقد مقارنة ولو ذهنية ، بين ذلك النظام القديم والنظم الحديثة ، مع ما في هذه المقارنة من ظلم للحقيقة . والنظم شأنها شأن الكائنات تولد طفلة غضة وضعيفة ثم تنمو مع حسن الرعاية عبر الزمن حتى تكبر ويشتد عودها . ولم تخرج الدولة الاسلامية عن سنة الحياة هذه في تطورها في البيئة الاسلامية ، فنشأت أنظمتها ومؤسساتها نشأة طبيعية حتى شمخ بنيانها وبلغ أوجه في العصور اللاحقة . ومن هنا

قدم هذا البحث في ندوة مالية الدولة في صدر الاسلام ، مركز الدراسات الاسلامية ــ جامعة اليرموك، ٧ــ١٠ شعبان ١٤٠٧ هـ/ ٥ــ٨ نيسان ١٩٨٧ .

يجب ان لا تغرب عن اعيننا صورة مجتمع الرسالة ، المجتمع البسيط القريب العهد بالبداوة ، البعيد عن أمور الحسبان والمال كما يقول ابن خلدون(٢) .

مصادر هذه الدراسة هي القرآن الكريم والسنة بالدرجة الاولى ، ومن ثم كتب اللغة والسير والتفسير ، ويتسم المصدران الاول والثاني بالصدق والمعاصرة ، لذلك يحتل القرآن والسنّة أعلى مراتب الاهمية في هذا البحث ، وتجيء المصادر الاخرى لتوضح وتفصل وتبين المقاصد فيما ورد في هذين المصدرين . ومن المعلوم أن المصادر الاخرى ، بما في ذلك المصادر الفقهية ، جاءت متأخرة بعد القرن الاول الهجري حيث كانت التنظيمات الادارية والمالية قد قطعت شوطا في تطورها ، وتلاقحت مع نظم البلدان المفتوحة ، لذلك نجد هذه المصادر تعكس هذا التلاقح المتمثل بتفاعل العناصر العربية الاسلامية مع عناصر التراث المحلي للبلدان المفتوحة . ويظهر هذا التفاعل في آراء الفقهاء والمحدثين والمفسرين وحتى في المصادر التاريخية والادبية وغيرها من كتب هذه الفترة وما بعدها . ولذلك ستقف هذه الدراسة عند المادة التاريخية في هذه المصادر دون ان تغرق نفسها في اجتهاداتها .

ومن مصاعب هذه الدراسة أيضا ان الامم التي عاصرت نشأة الدولة الاسلامية ــ الفرس والروم ــ لم يكن لها استقرار في أنظمتها ، بمعنى أن قوانينها المالية كانت عرضة للتبديل والتغيير ، فكانت الضرائب تبعا لذلك تزداد وتنقص وتتنوع . وهذا الاضطراب لابد من ان يعكس اثره على التنظيمات المالية العربية . ولقد جاء هذا التأثير بعد فترة الرسالة مع عصر الفتوح والتدوين ، وأصبح من الصعب التمييز في أصول الانظمة بين ما هو عربي وما هو أعجمي . ويزيد الامر صعوبة أن فترة الرسالة خلت من أية وثائق عملية تتعلق بالضرائب ، كتلك البرديات(٣) التي اكتشفت في مصر والقت بعض الضوء على نظام الضرائب في عهد الخليفة عمر بن الخطاب رضي اللهعنه، وذلك لان فترة الرسالة تقتصر على الجزيرة العربية قبل الفتوحات والتدوين كما أشرنا . وبناء على ما تقدم فاننا لا ننتظر من هذه الدراسة حسم كل الاشكاليات والاجابة عن كل التساؤلات، بل هي مجرد مجموعة ملاحظات لاثارة بعض النقاط ، واعادة النظر في بعض المصطلحات التي تشكل الاساس في الدراسات المالية .

ان من حقائق التاريخ أن جميع الدول التي قامت وتقوم على هذه الارض ، تعنى بالمال ، فالمال والشريعة والعدل والرجال اسس الملك لا يقوم بدونها ، كما يرى ابن خلدون(٤) . لهذا لا نجد دولة في القديم والحديث لم تفرض الضرائب وتجمع الاموال لتصريف شؤونها ، وانما اختلفت الدول بمقادير الضرائب وتعددها واساليب جمعها، فالروم مثلا كانوا يأخذون ضريبة الارض نقدا من جميع الولايات ما عدا مصر التي كانت

تؤدي ما عليها عينا تبعا لقيمة الارض وخصوبتها ، ولذلك كانت اراضي مصر تقوم كل خمسة عشر عاما(٥) . وكانت المواد العينية المصرية تبحر لتطعم سكان العاصمة «رومة» واحيانا القسطنطينية والاسكندرية، المدن الرومانية الرئيسة(٦). وعندما كانت تنخفض قيمة العملات كان بعض الاباطرة يلجأون الى فرض الضرائب العينية عوضا عن النقدية، كما فعل الامبراطور «دقلطيان» Diocletian (٢٨٤ـ٣٠٥م) الذي عمم الضرائب العينية على ولايات الامبراطورية(٧) . وعلى اي حال فقد بقيت الارض المصدر الاول للضرائب ، والفلاح دائما محورها . وعرفت الدولة الرومانية الضرائب الشخصية (ضريبة الرؤوس Capitation - tax) التي تفرض على الافراد ، وكانت هذه الضريبة معروفة في الفترة البيزنطية والاكثر شيوعا في الولايات الغربية في العهد العربي ،بعكس الولايات الشرقية التي شاعت فيها ضريبة « الخراج »(٨) . وكانت هذه الضريبة ترتفع وتنخفض تبعا لاحوال الدولة ، فبعد ان كانت ستة عشر درهما للشخص الواحد في القرن الاول الميلادي ، ارتفعت في القرن الثاني الى عشرين درهما ، وكان يدفعها جميع السكان الذين تتراوح اعمارهم ما بين الرابعة عشرة والستين(٩) .. ومن أجل هذا كانت الدولة تجري احصاء للسكان كل اربع عشرة سنة للوقوف على اي تغيير(١٠) . وكانت جميع فئات الشعب تدفع هذه الضريبة باستثناء الفئات الممتازة ، ففي مصر ، مثلا كان يعفى منها مواطنو الاسكندرية والروم وأبناء الجند الاغريق الذين جلبهم البطالمة، وعدد من القسس في كل معبد (١١) ويدفعها الرعايا غير المسيحيين واوردت المصادر اشارة تفيد أن عمرو بن العاص أخبر الخليفة عمر بن الخطاب انه وجد اربعين الفا من اليهود يدفعون الجزية(١٢) .

ومما يجدر ذكره أن هذه الضريبة (ضريبة الرؤوس) فرضت تحت اسم Kapnikon على ارقاء الارض في السلم ، وحتى على الاحرار في زمن الحرب(١٣) .

وكانت ضريبتا الارض والرأس أهم موارد الدولة الفارسية بالاضافة الى ضرائب اخرى تتزايد بحسب الظروف والاحوال(١٤) ، وغالبا ما كانت هذه الضرائب الفادحة تقع على الاقاليم العربية الغنية وبخاصة العراق(١٥) .

لما اعتلى كسرى الاول عرش فارس ، كان الملوك يقاسمون الفلاحين غلال أرضهم بنسب متفاوتة(١٦) . ولو قارنا بين ضريبة الارض الفارسية وضريبة الخراج التي فرضها العرب على بعض الاراضي المفتوحة ، لوجدنا أن ضريبة الخراج اقل بكثير من الضريبة الفارسية التي كانت تصل عندهم في بعض الاحيان الى النصف .. فقد ذكرت بعض المصادر ان ملوك الفرس قبل كسرى كانوا يقاسمون الزراع محاصيلهم . وقد استدعت وطأة هذه الضريبة القيام ببعض الاصلاحات في عهد قباذ (٤٨٧ـ٥٣١)

وكسرى انوشروان (٥٣١ـ٥٧٨)(١٧) . أما ضريبة الراس فقد فرضت في زمن كسرى على الرجال من سن العشرين الى سن الخمسين ، واعفيت منها فئات من اهل اليونان والعظماء وبعض رجال الدين ، والكتاب ، والاشراف ، والوجهاء ، ورجال الجيش ، وموظفي الدواوين ، وحاشية الملك وخدمه. وقد راعت الادارة الفارسيةفي عهد كسرى مقدار دخل الفرد عند تقرير هذه الضريبة وأعفت منها الصغار والشيوخ ، وما كان يعيبها في عهد كسرى انو شروان ، سوى اعفاء ذوي النفوذ من رجال الدولة . ومما تقدم نرى ان تعدد الضرائب كان معروفا عند الفرس والروم قبل الاسلام بما في ذلك ضرائب الارض والرؤوس .. ويبدو أن هذا التعدد والاضطراب في نظام الضرائب في الدولتين الرومية والفارسية أوجد التداخل بدءا في مفهوم كل من الجزية والخراج .

وليس صحيحا ما ذكره بعض المستشرقين من ان كلمة الخراج ليست عربية الاصل ، وانما هي من مصطلحات الروم او الفرس الادارية ، اقتبسها العرب منهم بعد ذلك ، في حين يرى آخرون انها مقتبسة من لفظة « خورجيا » اليونانية(١٨) ، وكذلك القول بأنها من اصل آرامي Halak واصبحت في الفارسية Harak او haraq واصبح معناها في عهد الفرس الاخمينيين ضريبة الارض ، ثم استعارها العرب من اللغة الادارية الفارسية اثناء حكمهم للولايات الشرقية(١٩) . ومن هذا القبيل قول الخوارزمي ومونتغمري وات(٢٠) . والثابت ان لفظة « خراج » وردت على لسان العرب قبل اختلاطهم بالامم الاخرى بعد الفتوحات الاسلامية ، ويؤيد هذا انها عندهم تحمل معنى عاما لا يرادف مدلولها لدى غيرهم من الامم(٢١) . ولتوضيح هذه القضية نسوق الادلة الاتية :

١ ــ ورد ذكر « الخرج » و « الخراج » في القرآن الكريم في قوله : « ان يأجوج وماجوج مفسدون في الارض ، فهل نجعل لك خرجا على أن تجعل بيننا وبينهم سدا »(٢٢) وقوله تعالى : « أم تسألهم خرجا فخراج ربك خير وهو خير الرازقين»(٢٣).

٢ ــ حديث ابن عباس ، أن رسول الله لم ينه عن المزارعة ولكن قال : «لأن يمنع احدكم ارضه خير من ان يأخذ عليها خراجا معلوما »(٢٤) .

٣ ــ جاء في كتاب الرسول صلى الله عليه وسلم الى اهل نجران قوله « فما زادت حلل الخراج او نقصت عن الاواقي فبالحساب»(٢٥) .

٤ ــ حديث اسيد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذهب الى سوق فقال : « هذا سوقكم فلا ينقصن ولا يضربن عليه خراج »(٢٦) .

ورويت عدة أحاديث اخرى عن الصحابة والتابعين ذكرت الخراج ليس هنا مجال تفصيلها(٢٧) .

وجاء لفظ الخراج في المعاجم وكتب اللغة بمعنى الاتاوة ، والجزية ، والمال المضروب على الارض(٢٨) . والخرج والخراج واحد ، وهو شيء يخرجه القوم في السنة من مالهم بقدر معلوم ، والخراج، غلة العبد والامة(٢٩) . قال الزجاج ، الخراج : الفيء . والخراج الضريبة والجزية . وقيل الجزية التي ضربت على رقاب أهل الذمة «خراج»لانه كالفعلة الواجبة عليهم(٣٠). ومن معانيه ايضا ، الكراء والاجر والثواب(٣١). وكما هو واضح من الامثلة السابقة ، فان لفظ الخراج يحمل معنى عاما مشتركا يفيد معنى الجزية والفيء ، ولا يتخصص معناها الا مع وجود القرينة الدالة على خصوصيته(٣٢) . والمعاني اللغوية للخرج والخراج لا تخرج عن ظاهر المعاني لهاتين اللفظتين في القرآن الكريم كما اشار المفسرون(٣٣) وفيها وفي غيرها من المصادر الاولية نجد ان معنى الخراج يفيد ضريبة الرأس والامثلة على ذلك كثيرة..

أما المدلول الاصطلاحي لكلمة « الخراج » فلا يخرج عما سبق ذلك أن الكلمة جاءت على السنة الفقهاء بمعنى الفيء ، ومن ذلك قول ابي يوسف : « فاما الفيء يا أمير المؤمنين فهو الخراج عندنا ، اي خراج الارض »(٣٤) . ووردت في مكان آخر من كتابه بمعنى جزية الراس(٣٥) . وحتى يتوضح هذا الاشكال الناتج عن اشتراك اللفظين في المعنى يقول ابن القيم الجوزية : « الخراج هو جزية الارض كما ان الجزية خراج الرقاب(٣٦) . ومثل ذلك فعل الماوردي فقال : « واما الخراج فهو ما وضع على رقاب الارض من حقوق تؤدي عنها »(٣٧) . ويبدو أن تخصيص ضريبة الخراج بالارض بدأ يشق طريقه منذ عهد الخليفة عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) ، حيث وضعت ضريبتان : الخراج والجزية ،ومنذ ذلك التاريخ أخذت كل من الكلمتين تستقل عن الاخرى ، حتى أصبحنا نجد أن الجزية تدل على ضريبة الراس والخراج تدل على ضريبة الارض بعد عهد عمر ، واخذت تتميز الاراضي الخراجية والاراضي العشرية بعضها عن بعض ، رغم ما صاحب ذلك من اشكالات(٣٨) ..

ان الاستعراض اللغوي لكلمة خراج في العهد الاسلامي المبكر، يفيد معنى مشتركا تقيده القرينة الدالة عليه ، وهو لفظ عربي باصوله ، وصيغه واشتقاقاته ، والسؤال الذي يطرح نفسه في هذا المقام ، هل كان فعل النبي صلى الله عليه وسلم في خيبر وفدك ووادي القرى (قبل تبوك) من قبيل الخراج . ولتوضيح الاجابة على هذا التساؤل نستعين بأبي عبيد ، الذي يقول : « ان الاموال صارت بعد الرسول صلى الله عليه وسلم ثلاثة اصناف : الفيء والخمس ، والصدقة ، وهي التي نزل بها الكتاب

وجرت بها السنة وعملت بها الأئمة ، واياها تأول عمر بن الخطاب ــ رضي الله عنه ــ حين ذكر الاموال »(٣٩) .

وقد عرّف أبو يوسف الفيء بأنه الخراج ، أي خراج الارض واستشهد على ذلك بقوله تعالى : « ما افاء الله على رسوله من اهل القرى ، فلله وللرسول ولذي القربى واليتامى . . »(٤٠) لقد استخدم ابو يوسف الخراج لفظا بدلالته العامة ، فهو يقول في معرض تقديم أسباب تأليفه كتاب « الخراج » : « ان أمير المؤمنين أيّده الله تعالى سألني ان اضع له كتابا جامعا يعمل به في جباية الخراج والعشور ، والصدقة، والجوالي(٤١) ، وغير ذلك مما يجب عليه النظر فيه والعمل به»(٤٢) فالخراج من الاسماء المجملة ، يجمع كل واحد منها أنواعا من المال(٤٣) ، وحسبنا دليلا على عمومية الدلالة أن أبا يوسف جعل « الخراج » اسما لكتابه الذي ألفه للخليفة العباسي هارون الرشيد وعالج فيه انواع المال المختلفة .ومثله فعل يحيى بن آدم(٤٤)، وجعل أبو عبيد «الاموال» اسما لكتابه ، وموضوعه لا يخرج عما في كتابي ابي يوسف ويحيى بن آدم ، ولا في كتب غيرهم ممن الفوا في الاموال والخراج . وعليه يمكننا أن نقبل أن الفيء والخراج تعني ، في فترتنا ، الشيء نفسه في مدلولها العام .

وفي مسألة خيبر ، ذكرت المصادر أن الرسول صلى الله عليه وسلم حاز اموالها كلها بعد ان افتتحها عنوة(٤٥) ، وبعدها سأل اليهود الرسول صلى الله عليه وسلم أن يسيرهم ويحقن دمهم ، ويخلوا له الاموال ، ففعل ، ولما نزل اهل خيبر على ذلك طلبوا من الرسول ان يعاملهم في الاموال على النصف واشترط عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أنه متى ماشاء اخرجهم . وصالحعلى مثل ذلك أو نحوه أهل فدك ووادي القرى(٤٦) . ووصفت بعض المصادر فعل الرسول هذا مع أهل خيبر ، بأنه من قبيل المساقاة والمزارعة . فقال ابن شبّة : « بقيت أموالهم بايديهم على النصف مساقاة»(٤٧) وذكر ابو عبيد ان معاملة عمر بن الخطاب للسواد في العراق كالمزارعة ، وهي التي يسميها أهل المدينة «المساقاة»(٤٨) ، وجاء في الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم ساقى يهود خيبر على النصف من سوادها والنصف من بياضها ، وهو الاصل في المساقاة(٤٩) . ولعل اصل هذه الاحاديث المتعلقة بمعاملة يهود خيبر ، هو حديث ابن عمر : « ان رسول الله صلى الله عليه وسلم اعطى خيبر لليهود ، على ان يعملوها ويزرعوها ولهم شطر ما خرج منها »(٥٠) .

وقال الشافعي : « اذا دفع الرجل الى الرجل النخل او العنب يعمل فيه ، على أن للعامل نصف الثمر ، أو ثلثها أو ما تشارطا عليه من جزء منها فهذه (المساقاة) الحلال التي عامل الرسول صلى الله عليه وسلم اهل خيبر واذا دفع الرجل ارضا

بيضاء (غير مزروعة باشجار) على ان يزرعها المدفوعة اليه بالحبوب وما شاكلها ، فهذا من المزراعة »(٥١) .

وقد اعتبر الفقهاء ما جرى في خيبر تشريعا بنـوا أحكامهم عليـه في المساقـاة والمزارعة . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يبعث عبد الله بن رواحة فيتقاسم التمر معهم ويخيّرهم في القسمة بقوله : « ان شئتم فلكم وان شئتم فلي »(٥٢). ويذكر ابن اسحاق أن خيبر كانت فيئا للمسلمين(٥٣) ، وقد اسلفنـا أن مـن معاني الفيء ، الخراج ، وأن الخراج في اللغة يعني الاجر والكراء والغلة ، ومن ذلك حديث النبي صلى الله عليه وسلم ، انه قضى أن « الخراج بالضمـان »(٥٤) . وما فعله الرسـول صلى الله عليه وسلم لا يخرج عن هذا ، فقد دفع الرسول صلى الله عليه وسلم النخل والزرع الى يهود خيبر مقابل نصف ثمرها كراء لها منهم . وعليه فخيبر أرض عنوة صولـح اهلها عليها ومسحت(٥٥) ارضها فهي والحالة هذه من الفيء الـذي يعني فيمـا يعني الخراج والجزية ، ويعزز هذا قول ابن قيم الجوزية : « واهل خيبر وغيرهم من اليهود في الذمة والجزيـة سواء ، لا يعلم نزاع بين الفقهاء في ذلك »(٥٦)، وكذلك قول يحي بن آدم : « انما ارض الخراج ما كان صلحا على خراج يؤدونه الى المسلمين»(٥٧) وما ذكره الشعبي من أن : « اول من فرض الخراج رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فرض على أهل هجر ، على كل محتلم ذكرا كان أو انثى»(٥٨) . واذا اخذنا ما قاله الكاساني ، مـن أن : « الخراج نوعان ، خراج وظيفة ، وخراج مقاسمة ، وخراج الوظيفة يفرض على الارض بالنسبة الى مساحتها ، ونوع زراعتها ، وخراج المقاسمة أن يكون الواجـب شيئا من الخارج نحو الخمس والسدس وما أشبه ذلك ، وهذا النوع جائز ، فقـد فعله الرسول صلى الله عليه وسلم مع أهل خيبر لما افتتحها »(٥٩) .

وننتهي من المناقشات السابقة الى تقدير ان ما فعله الرسول صلى الله عليـه وسلم بأهل خيبر هو الخراج بمفهومه العام ، اذ أن هذا المصطلح لم يكن شائعا كضريبة على الارض ومن مواصفات معينة ،لان هذا لم يعرف الا في زمن عمر ، الا ان الضريبـة التي اطلق عليها عمر اسم : « الخراج » اخذها الرسول صلى الله عليه وسلم من أهل الذمة قبل نزول آية الجزية ، وقبـل فرض عمر بن الخطاب لها في سواد العراق ، وأن هذا الاضطراب في فهم هذه المسألة مرجعه الى كثرة الاراء الفقهية التي ظهرت حـول أنواع الضرائب ، وانواع الاراضي ما بين خراجية وعشرية وغيرها(٦٠) . وهناك سبب آخر ادى الى هذه البلبلة التي نراها في مصادرنا ، وهو تعدد الضرائب بعد ان كانت في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ضريبة واحدة على اهل الذمة، بالاضافة الى مجموعة الالفاظ القريبة الدالة على الضريبة الواحدة .

والمسألة الثانية التي يتناولها هذا البحث هي الجزية . وقد وردت هذه الكلمة في القرآن الكريم بقوله تعالى : « قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الاخر ، ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين اوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون »(٦١) . وقد اعتبرت هذه الاية ايذانا بأخذ الجزية من أهل الكتاب ، وممن تنطبق عليهم الاوصاف الواردة فيها .

وقد اختلف في زمن نزول هذه الاية ، والذي عليه الجمهور انها قريبة من غزوة تبوك ، أي السنة التاسعة للهجرة ، وقد ربط أغلب الذين تعرضوا لهذه المسألة بين هذه الاية وبين غزوة تبوك(٦٢) ومما يقوي هذا الاتجاه أن عهود الامان وكتب الصلح التي جرت بين الرسول صلى الله عليه وسلم والاقوام من أهل الذمة ، وتضمنت شرط الجزية ، انما جرت أثناء اقامة الرسول بتبوك أو بعدها . وفي تأكيد هذا الرأي قال السيوطي في الدر المنثور والطبرسي في مجمع البيان وأبو عبيد في الاموال وغيرهم ، انه لما نزلت هذه الآية ، أمر الرسول صلى الله عليه وسلم بغزوة تبوك(٦٣) .

ويعترض هذا الاتجاه الذي تؤيده الاغلبية اربع مسائل : الاولى تتمثل ببعض الروايات التي تقول بأن آية الجزية نزلت في قريظة والنضير من اليهود (٦٤) ، والثانية : ما جاء في احدى نسخ كتب الرسول صلى الله عليه وسلم الى قيصر الروم وفيها طلب الجزية ، والاستشهاد بالاية التي وردت فيها(٦٥) ، والثالثة : ما روي عن الرسول صلى عليه وسلم من احاديث ذكر فيها لفظ الجزية ، ويوحي سياقها بانها قيلت في وقت سابق على نزول آية الجزية ، كقوله صلى الله عليه وسلم لعمه وبعض قومه : « قولوا معي لا اله الا الله تدين لكم بها العرب ، وتؤدي لكم العجم الجزية»(٦٦) وروي عنه أيضا أنه قال : « لو عاش ابراهيم لاعتقت أخواله ولوضعت الجزية عن كل قبطي »(٦٧) . والمسألة الرابعة تتمثل في ما روي عن الرسول صلى الله عليه وسلم أنه صالح أهل تيماء على الجزية مع صلح خيبر وفدك ووادي القرى(٦٨) وذلك قبل غزوة تبوك ونزول آية الجزية .

أما المسألة الاولى فتقوم على رواية الكلبي ، وهي رواية ضعيفة ومرسلة ومتفردة ولا تؤيدها السنن العملية . ويؤخذ على المسألة الثانية (كتاب الرسول الى قيصر)انها ليست من مجموعة الكتب التي بعث بها الرسول صلى الله عليه وسلم الى الملوك والامراء بعيد الحديبية ، وكانت خلوا من ذكر الجزية ، وانما تعود هذه الرسالة ، التي انفرد بها أبو عبيد ، الى فترة اقامة الرسول صلى الله عليه وسلم بتبوك حيث ذكرت المصادر المراسلات بين الرسول صلى الله عليه وسلم وقيصر الروم من تبوك(٦٩) . وأما ما روي من أحاديث مبكرة عن الرسول صلى الله عليه وسلم ذكرت الجزية ، فقد

جاءت في السياق اللغوي بمدلولها العام ، أي ضريبة ، لان هذه الكلمة من العربيـة ، وليس غريبا أن ترد على اللسان العربي .. وبعد نزول آية الجزية أخذت تتخصص هذه الضريبة بأفراد أهل الذمة ممن لهم كتاب أو ليس لهم كتاب . وأما رواية البلاذري عن جزية تيماء فهي رواية انفرد بها ، ومع أن البلاذري مؤرخ محقق ، الا أن هذه الرواية لم تؤيد من أي مصدر اخر معاصر ، ولا سيما ان اسلوب كتاب الرسول صلى اللهعليه وسلم الىيهود تيماء « بني غاديا »يشابه أسلوب كتب الامان التي اشترط فيها الجزية وكتبت بعد نزول براءة ، وعلى الرغم من أن المصادر التي أوردت كتاب صلـح يهـود تيماء قليلة ، فان بعضها صرح بأن هذا الصلح قد تم في السنة التاسعة(٧٠) . ولا يخرج المعنى اللغوي للجزية عن خراج الارض وما يؤخذ من الذمي ، والجزية مثل القعـدة والجلسة ، وقيل سميت كذلك لانها طائفة مما على أهل الذمة أن يجزوه ، اي يقضوه، ومن هذا القبيل ما ذكره ابن قدامة(٧١) الجزية : هي الوظيفة المأخوذة من الكافر لاقامته بدار الاسلام في كل عام وهو فعلة ، من جزى يجزي اذا قضى قال تعالى : « واتقـوا يوما لاتجزي نفس عن نفس شيئا »(٧٢) . والراجح ان الجزية شرعت بدلا من الحماية والامان الذي تتكفل به الدولة بموجب عقد الذمة ، الذي يتضمن أمان أهل الذمـة في أنفسهم واموالهم وأديانهم ، وهذا ما أيدته اقوالالرسول صلى الله عليهوسلم واعماله، وأعمال خلفائه من بعده(٧٣) . والجزية من غـير المسلمين انما تقـوم مقام الزكاة مـن المسلم ، ذلك أن كل فردمن افراد الدولة الاسلامية عليه واجبـات وله حقوق ، ومـن واجباته أن يؤدي قسطا مما يصرف في المصالح العامة ، مقابل واجب التمتع بالحقوق، فان كان هذا الفرد من المسلمين فالواجب عليه معين في امواله وهو الزكاة ، وان كان من غير المسلمين فالواجب عليه معين على رأسه وهو بمنزلة الزكاة من المسلم ، ولـذا لا تجـب على الذمي زكاة في أموالـه ولا سوائمـه . واذا أسـلم سقطت عنه الجزيـة ووجبت في ماله الزكاة ، وذلك لانه لا يجمع بين واجبين(٧٤) . وفي هذا المعنى نقل ابـو عبيد عن الحسن قوله « ليس على أهل الذمة صدقـة في أموالهم ، وليـس عليهم الا الجزية »(٧٥) ويمكن تسمية ذلك بحقوق المواطنة . وعليه فانني لا اجد سندا لاولئك الذين ذهبوا في ايراد معاني الذلة والاستكانة والخضوع ، واعتبار الجزية مـن باب العقوبة لغير المسلمين . فالسنة العملية واقوال الرسـول صلى الله عليـه وسـلم واصحابه ، واتباعه ، في حقوق أهل الذمة ، وضرورة الرفق بهم والاحسان اليهم وعدم اخذهم بالعسف بالجباية ، هي أكثر من أن تحصى .

ومما تقدم ، نرى ان الجزية تستمد مشروعيتها من القرآن والسنة واجماعالامة، المتمثل بجواز اخذ الجزية في الجملة(٧٦) بينما نجد أن الخراج مبني على الاجتهاد .

وقد اختلف في أول جزية أخذها الرسول صلى الله عليه وسلم بعد نزول الآية،

فقال الزهري وآخرون غيره : « اول من أعطى الجزية أهل نجران»(٧٧) .. وفي رواية الشعبي أن أول ما فرض الرسول صلى الله عليه وسلم الخراج على اهل هجر (٧٨) ، وقد دأبت المصادر التي اوردت عقود الجزية أو كتب الصلح والامان ، أن تبدأ بصلح يحنه بن رؤبة وأهل أيلة « العقبة » ، فقد قدم وفدهم على الرسول في تبوك بزعامة يحنه صاحب أيلة ، وعقدوا الصلح واخذوا كتابا تضمن الامان ليحنة بن رؤبة وأهل أيلة « سفنهم وسيارتهم في البر والبحر ، لهم ذمة الله وذمة محمد النبي ، ومن كان معهم من أهل الشام وأهل اليمن وأهل البحر ، فمن أحدث منهم حدثا ، فانه لا يحول ماله دون نفسه وانه طيب لمن أخذه من الناس. وانه لا يحل أن يمنعوا ماء يردونه، ولا طريقا يريدونه من بر أو بحر » . وذيل الكتاب باسمي كاتبيه : باذن رسول الله صلى الله عليه وسلم — جهيم بن الصلت وشرحبيل بن حسنة . وكان قد سبق هذا الكتاب ، كتاب آخر من الرسول صلى الله عليه وسلم الى يحنه بن رؤبة وسروات أهل أيلة ، فيه انذار ووعيد بوجوب الاسلام أو الجزية ، فكان أن قدم وفدهم الى تبوك وتعهد بتأدية جزية مقدراها ثلاثمائة دينار في السنة أي بمعدل دينار واحد لكل حالم في أيلة(٧٩) .. وتتابعت بعد ذلك عقود الصلح وفيها شرط الجزية مع جرباء وأذرح ومقنا وتيماء ودومة الجندل . وكان مقدار جزية أذرح مائة دينار في كل رجب(٨٠). أما الصلح مع أهل مقنا فكان مختلفا ، اذ نص على تجريد أهل مقنا من السلاح الا ما عفا عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفيه أيضا : « وان عليكم بعد ذلك ربع ما اخرجت نخلكم وما صادت عروككم وما غزلت نساؤكم وانكم برئتم بعد من كل جزية او سخرة»(٨١) . ولم تصلنا تفاصيل الصلح مع بقية مراكز اهل الذمة في شمال الجزيرة ، أي جرباء وتيماء ، ودومة الجندل . وصالح خالد بن الوليد صلوبا بن نسطونا صاحب قس الناطف على شط الفرات ، وكتب اليهم كتابا فيه « اني عاهدتكم على الجزية والمنعة على كل ذي يد بانقيا وبسما جميعا ، على عشرة الاف دينار سوى الخرزة ، القوي على قوته ، والمقل على اقلاله في كل سنة .. ومما جاء فيه : « فان منعناكم فلنا الجزية والا فلا حتى نمنعكم »(٨٢) .

ومن عقود الصلح المشهورة ، صلح أهل نجران ، وهم قوم من النصارى تضمن صلحهم أمان المسلمين لهم وحمايتهم بوصفهم اهل ذمة ، شاهدهم وغائبهم ، وكل ممتلكاتهم ، ولا يغير أسقف من اسقفيته ولا راهب من رهبانيته ، ولا كاهن من كهانته، وليس عليهم ربية(٨٣) ، ولا دم جاهلية ، ولا يحشرون ولا يعشرون ، ولا يطأ أرضهم جيش . ومن سأل منهم حقا ، فبينهم النصف غير ظالمين ولا مظلومين ، ومن كل ربا من ذي قبل ، فذمة الرسول صلى الله عليه وسلم ، معه بريئة ، ولا يؤخذ رجل منهم بظلم آخر .

وجاء في كتاب الصلح أن على اهل نجران تقديم الفي حلة من حلل الاواقي(٨٤) في كل رجب الف حلة ، وفي كل صفر الف حلة ، وقيمة كل حلة أوقية من الفضة ، فما زادت على الخراج ،او نقصت عن الاواقي فبالحساب . وما قضوا من دروع ، أوخيل، أو ركاب او عروض اخذ منهم بالحساب .. وعلى نجران مؤونة الرسل ومنعتهم ما بين عشرين يوما فما دون ذلك ، ولا تحبس رسل رسول الله صلى الله عليه وسلم فوق شهر ، وعليهم عارية(٨٥) ثلاثين درعا ، وثلاثين فرسا ، وثلاثين بعيرا اذا كان كيدباليمن ومعرة(٨٦) وتعهد عليه السلام أن يرد عماله العارية كاملة أو عوض ما ينقضي منها .

وكاتب الرسول صلى الله عليه وسلم أهل البحرين وأزد عمان ومجوس هجر ، وقد تعددت عقود الصلح مع هذه الاقوام وغيرها على شرط الجزية وذلك بعد رفضهم قبول دعوة الاسلام التي كانت تعرض على الاقوام بدءا . وقد أثار أخذ الجزية من المجوس وعبدة الاوثان من العجم الجدل بين الفقهاء لتعليل فعل النبي هذا .واشترط في صلح المجوس وعبدة الاوثان : ان لا تؤكل لهم ذبيحة ولا تنكح لهم امرأة . وذكرت بعض المصادر ان مقدار الجزية على المجوس مثل مقدارها على غيرهم من أهل الذمة ، سواء كانوا من أهل الكتاب أم الصابئة ، او أهل الوثنية من العجم ومقدارها في الاغلب: « دينار على كل حالم » . وقد ثبت أخذ الجزية من هذه الاقوام بالسنة العملية ، وبحديث عبد الرحمن بن عوف عن الرسول صلى الله عليه وسلم انه قال في امر المجوس « سنّوا بهم سنّة اهل الكتاب »(٨٧). وقدم على الرسول صلى الله عليهوسلم وهو في المدينة وفد قبيلة تغلب بن وائل العربية ، فصالح النصارى منهم على أن « لا يعمدوا أبنائهم » ولم يفرض عليهم جزية(٨٨) . وفي عهد عمر ابن الخطاب دفعت تغلب الصدقة مضاعفة على ان لا يسمى ما يدفعونه جزية ، وقبل منهم عمر ذلك لاظهارهم الحمية العربية(٨٩) . وقد ادى اجراء الخليفة عمر هذا الى كثير من المناقشات ، فيما اذا كان ما دفعه بنو تغلب جزية أم لا ؟ وفيما اذا كانت الجزية تقبل من العرب غير المسلمين أم لا ؟ثم مدى التطابق بين ما جاء في آية الجزية وبين الاجراءات العملية التي تمت في الفترة الاولى من عمر الدولة الاسلامية ؟ ويبدو ان الجزية أخذت من غير المسلمين على اختلاف دياناتهم واوطانهم ، فقد جاء في كتاب الرسول صلى الله عليه وسلم الى المنذر بن ساوي حاكم البحرين : « ان من أقام على يهوديته أو مجوسيته فعليه الجزية »(٩٠) .

ومن بين الوثائق المهمة في بحثنا ، كتاب الرسول صلى الله عليه وسلم الى معاذ بن جبل واليه على اليمن ، وقد امره فيه : أن يأخذ من كل حالم دينارا أو عدله من المعافر ، من الذين بقوا على دينهم وقبلوا تأدية الجزية(٩١) . وجاء في بعض روايات الكتاب السابق ان : «على كل حالم وحالمة دينارا » .. وهذه رواية ضعيفة وتخالف

المالوف في جمع الجزية في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم وخلفائه من بعده . وقد روى الامام احمد وابو داود والترمذي والنسائي وابن ماجة ، وغيرهم ، هذا الحديث، فاقتصروا على ذكر الحالم دون الحالمة(٩٢) .

وفي ختام هذا البحث نستخلص جملة من الحقائق التالية :

١ ـ أن الجزية ضريبة خاصة بغير المسلمين ممن هم في دار الاسلام أو من المعاهدين خارج هذه الدار ، ويجوز أن تؤدى هذه الضريبة نقدا، بمعدل دينار للفرد الواحد في السنة ، أو قيمة الدينار من المواد العينية المتيسرة .

٢ ـ يراعى في جباية هذه الضريبة أحوال المكلفين بها من حيث الغنى والفقر ، ومن حيث مصلحة الدولة ، ثم من حيث نوع العمل ومادة الانتاج الاكثر يسرا للمكلف ، فلهذا وجدنا اختلافا في نوعية الجزية المتفق عليها في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم من منطقة الى اخرى ، ففي صلح أيلة واذرح كانت نقدا بالدينار، وفي صلح مقنا كانت من المواد العينية التي ينتجها أهل مقنا ، وفي صلح نجران، كانت الجزية حللا ، وهي ملابس اشتهر النجرانيون بصنعها .

٣ ـ يستفاد من السنة العملية أن بامكان المكلفين استبدال موادا عينية بجزيتهم ان كانت نقدا ، أو نقدا ان كانت موادا عينية ، كما جاء في امر الرسول صلى الله عليه وسلم لمعاذ في اليمن « دينار أو عدله من المعافر » ، وما جاء في صلح نجران: « حلل او قيمتها من الاواقي »(٩٣) .

٤ ـ اختلف الفقهاء تبعا لتباين عقود الصلح في تقدير الجزية فقال بعضهم أقلها دينار، ولا حد لاكثرها ، ورأى بعضهم غير ذلك ، والاصح ما قاله بعض الفقهاء : « أن ينظر في كل بلد الى حال أهله ، وما يعتبرونه في ذلك ، فان عادة البلاد في ذلك مختلفة »(٩٤) . وقد أخذ الرسول صلى الله عليه وسلم في الاعتبار المكنة والقدرة عند تقدير الجزية ، حتى وجدناه لا يفرض شيئا ماديا على نصارى تغلب بينما رأينا تفاوت مقدار الجزية في العقود الاخرى من بلد الى اخر .

٥ ـ اتسمت عقود الجزية في عمومها ، بالتسامح والحرية والمرونة وتضمنت كفالة دولة الرسول صلى الله عليه وسلم لامن الرعايا من اهل الذمة وحمايتهم وممتلكاتهم وأماكن عبادتهم ، وحتى في بعض الاحوال ترك حكمهم لانفسهم بشرط التزام النصفة والعدل في احكامهم ، كما راينا في صلح نجران .

٦ ـ وقد راى بعض الفقهاء نتيجة لتفاوت مقدار الجزية المضروبة على أهل الذمة وشروطها ، ان الجزية قسمان : الاول ويقوم على الصلح والتراضي في تحديد شروط الجزية ، وغالبا ما تتصف بالتسامح والمبالغة في ضمان الامن والحماية من طرف المسلمين . والثاني : ما يفرض من طرف المسلمين لعدم اذعان الطرف الاخر ثم يضطرون الى الاذعان قهرا بعد مقاومة ، وفي هذه الحالة تتزايد شروط الصلح عن النوع الاول ، ولكن دون أن تخرج عن حدود المكنة والقدرة .

٧ ـ يستدل من السيرة العملية أيضا ، ان أهل الشرك في الجزية سواء .

٨ ـ نظر الاسلام للعرب نظرة خاصة تقوم في الاساس على اعتبارهم عصب الدولة ، ولذلك لم يقبل من أهل الوثنية منهم الا الاسلام او السيف ، كما خففت شروط الجزية عنهم ان كانوا أهل الكتاب .

٩ ـ يجوز اضافة شروط استثنائية على أهل الذمة ، تبعا للدواعي التي تهم الدولة، كضيافة الجند في حال مرورهم ، أو عمال الدولة عند قيامهم بواجباتهم ، والاصل ان لاتزيد الضيافة عن ثلاثة أيام لقوله صلى الله عليه وسلم : « الضيافة ثلاثة أيام »(٩٥) ، وأن يكون القِرى من قِرى القوم برضى دون عسف(٩٦)، أو اعارة المقاتلة من المسلمين بعض أدوات القتال ان حدث ما يستدعي القتال، مع ضمان عمال الدولة لاعادة المستعار او عوضه كاملا غير منقوص ، كما جاء في كتاب الصلح مع أهل نجران .

وقد وقع خلط في كتب الصلح التي اسندت للعلاء الحضرمي لاهل البحرين، فجاء فيها شرط مقاسمة التمر ، وتقديم جزية الرأس(٩٧) ، ويبدو أن هذا جمع للعشر من التمر ، المطلوب من المسلمين عن أرضهم ، والجزية المطلوبة من غيرهم من سكان البحرين الذين كان فيهم المسلم والمجوسي والكتابي وغيرهم .

١٠ ـ خلص بعض الائمة الى انه يشترط ان تؤخذ من الذكور دون الاناث ، فقال الشافعي : هي دينار واحد على الرجال الاحرار دون العبيد . وذلك استدلالا بلفظ « أن على كل حالم دينارا »(٩٨) . واقتضى شرط الحلم أنها لا تؤخذ الا من البالغ العاقل القادر ، فلا جزية على شيخ فان ولا زمن ولا أعمى ولا مريض لا يرجى برؤه ، هذا مذهب الامام احمد واصحابه وابي حنيفة ومالك والشافعي في احد اقواله ، لان هؤلاء لا يقتلون ولا يقاتلون ، فلا تجب عليهم الجزية كالنساء والذرية(٩٩) . وذهب ابن قدامة الى الجزم بأن الجزية لا تؤخذ الا ممن اكتلمت فيه الشروط السابقة قائلا : « ولا نعلم

بين أهل العلم خلافا في هذا»(١٠٠) . ورأى بعض الفقهاء ان الجزية تؤخذ من الرهبان اذا خالطوا السكان ، وأما اذا انقطعوا في الصوامع والديارات فلا تجب عليهم ، لانها انما تجب على المعتمل والقادر على القتال(١٠١) .

وتدل السيرة النبوية في معاملة أهل الذمة ، ان الجزية مفوضة الى رأي الامام وتؤخذ الجزية في آخر الحول ، فهي ضريبة سنوية ، يشترط عند جبايتها أخذ اصحابها باليسر والرفق ، اذ كان الرسول صلى الله عليه وسلم اذا بعث الجباة قال : « خففوا فان في المال العربة والوطية »(١٠٢) . كما روى عنه أنه قال : « لعلكم تقاتلون قوما، فيتقونكم باموالهم دون انفسهم وابنائهم ويصالحونكم على صلح ، فلا تأخذوا منهم فوق ذلك فانه لا يحل لكم »(١٠٣) والاحاديث التي تنهي عن ظلم الذمي وعدم رعاية عهده كثيرة ليس هنا مجال تفصيلها .. وكان جباة المسلمين يجمعون الزكاة من المسلمين والجزية من غيرهم . وتسقط الجزية عن المكلف بها في حالات : الاسلام ، او الموت ، أو عدم القدرة ، أو التكرر (أي اذا تراكمت بالسنين) أو عجز الدولة عن الحماية ،وفي هذا المعنى قال الماوردي(١٠٤) : « ان غرض الجزية » الكف والحماية ، ليكونوا (أي أهل الذمة) بالكف آمنين وبالحماية محروسين . وقد روى نافع عن ابن عمر انه قال: كان آخر ما تكلم به النبي صلى الله عليه وسلم ان قال : « احفظوني في ذمتي »(١٠٥).

المصادر والمراجع :

(١) د. دينيت ، **الجزية والاسلام** ، ترجمه وقدمله الدكتور فوزي فهيم جاد الله ، راجعه الدكتور احسان عباس ، منشورات دار مكتبة الحياة- بيروت (انظر المقدمة القيمة للمترجم) . سيشار اليه : دينيت .

(٢) ابن خلدون ، عبد الرحمن ، **المقدمة** ، دار الكتاب اللبناني – مكتبة المدرسة . بيروت – لبنان ١٩٨٢ ، ص ٤٢٠ ، ٤٩٣ – ٤٩٥ . سيشاراليه : مقدمة ابن خلدون .

(٣) انظر دينيت ص ١٥–٢٢ .

(٤) المقدمة ص ٥٠٨ .

(٥) عبد العزيز النعيم ، **نظام الضرائب في الاسلام**، ومدى تطبيقه في المملكة العربية السعودية ، دار الاتحاد العربي – القاهرة ١٩٧٤ ، ص ٢٢. سيشار اليه : عبد العزيز النعيم .

(٦) A. Johnson, **Byzantine Egypt** Princeton, 1949 pp. 239-240

سيشار اليه :.Johnson وانظر محمد ضياء الريس ، **الخراج والنظم المالية للدولة الاسلامية** ، ط ٤ القاهرة ، ١٩٧٧ ص ٤٥ . سيشار اليه : محمد ضياء الريس .

(٧) N.H. Baynes, A.H. St. Moss (Editors)**Byzantium,** An introduction to East Roman Civilization, Oxford, 1948, P. 100.

سيشار اليه : Baynes وانظر محمد ضياء الريس ، ص ٤٤–٤٥ .

(٨) انظر : A.S.Tritton, **the khalifs and thier non- Muslim Subjects,** Oxford,. 1930P. 197 .

سيشار اليه : Tritton

(٩) J.G. Milne, **A History of Egypt Under Roman Rule,** London, 1898 P. 121-122 .

سيشار اليه : Milne

وانظر : صبحي الصالح ، **النظم الاسلامية**،نشأتها وتطورها ، ط١ بيروت ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م . ص ٢٥ . سيشار اليه : صبحي الصالح . ومحمد ضياء الريس ص٥٠ . عبد العزيز النعيم، ص ٤٧ .

(١٠) Milne, P. 120-121. Johnson, p. 260 - 264 .

(١١) عبد العزيز النعيم ص ٤٧ .

(١٢) انظر : E. Gibbon, **The Decline and fall ot iheRoman Empire.**E.M.S. Lib (London) 1911. Vol. 5 p. 344.

سيشار اليه : Gibbon

وانظر صبحي الصالح ، ص ٢٥ . ومحمد ضياء الريس ص ٥١ .

لم اعثر على هذه الرسالة في المصادر العربية المتوفرة وأسندها المحدثون الذين أشاروا اليها الى جيبون . وقد ذكر البلاذري في فتوحه(ص ٢٢٥) أن جزية الاسكندرية كانت ثمانية عشر الف دينار ، فلما كانت ولاية هشام بن عبدالملك بلغت ستة وثلاثين الف دينار . وجاء في النجوم الزاهرة (جمال الدين ابي المحاسن يوسف بن تغري بردي الاتابكي ٨١٣–٨٧٤هـ) ، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية ، وزارة الثقافة والارشاد القومي – المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر القاهرة د.ت. ص١–١٨ أن جميع من احصي يومئذ بمصراعلاها واسفلها من جميع القبط فيما احصواوكتبوا أكثر من ستة الاف نفس ، فكانت فريضتهم يومئذ اثني عشر الف دينار. وهذا يدعو للشك بالرقم الذي أورده (جيبون) .

(١٣) Baynes. p. 82 .

(١٤) عبد العزيز النعيم ص ٨٠ .

(١٥) أ.كريستنسن ، **ايران في عهد الساسانيين**،ترجمة الخشاب وعزام دار النهضة العربية ، بيروت، د.ت، ص ١١١–١١٢ . سيشار اليه : كريستنسن .

(١٦) الطبري ، ابو جعفر محمد بن جرير (ت.٣١٠ هـ) **تاريخ الرسل والملوك** ، تحقيق ابو الفضل ابراهيم ، دار المعارف بمصر ١٩٦٢ ، ص٢/١٥٠ . سيشار اليه : الطبري ، تاريخ .

(١٧) Sykes. A History of persia, London, 1930 Vol . Ip. 462.
سيشـار اليـه : Sykes

وانظر الطبري ، تاريخ ١٥٠/٢ .والجهشياري ، محمد بن عبدوس **الوزراء والكتاب** ، تحقيق مصطفى السقا وزميليه ، طبعـة الحلبي ،ط١ ، القاهرة ١٣٥٧/٩٣٨ ، ص٤ . سيشار اليه : الجهشياري . وانظر محمد ضياء الريس ص ٧١ .

(١٨) دائرة المعارف الاسلامية ، الترجمة العربية،مادة « خراج ».

(١٩) دينيت ص ٢ ٢. دائرة المعارف الاسلامية «خراج » محمد ضياء الريس ص ١٢٣ .

(٢٠) الخوارزمي ، ابي عبد الله محمد بن أحمـد ، **مفاتيح العلوم** ، بيروت ـ لبنـان د.ت ، ص ٣٩ . سيشار اليه : الخوارزمي .م. وات ،**محمدفي المدينة** ،تعريب شعبان بركات ، منشورات المكتبة العصرية ـ صيدا بيروت ، لبنان د.ت.ص٣٨٨ . سيشار اليه : وات .

(٢١) الرحبي ، عبد العزيز بن محمد (ت: بعدسنة١١٨٤ هـ) **فقه الملوك ومفتاح الرتاج المرصد على خزانة كتاب الخراج** ، تح الدكتور احمد عبيـد الكبيسي ، مطبعة الارشاد ، بغداد ٩٧٣ ، صأ من المقدمة . سيشار اليه : الرتاج .

(٢٢) سورة الكهف ، اية : ٩٤ .

(٢٣) سورة المؤمنون ، آية : ٧٢ . وانظر تفسيرما ورد في : الطبري ، محمد بن جرير (ت.٣١٠) **جامع البيان في تفسير القرآن** ، المشهور بتفسـير الطبري م٩ دار المعرفة،بيروت ١٤٠٠هـ/١٩٨٠ جـ١٨ ص ١٣. سيشار اليه الطبري ، تفسير . الزمخشري ، ابي القاسم جاد الله محمـود بن عمـر، (٤٦٧ـ٥٢٨) الكشاف عن **حقائق التنزيـل وعيون الاقاويل في وجوه التاويل** ، دار المعرفة ،بيروت لبنان ص ٤٩٩/٢ ، ٣٨/٣ . سيشار اليـه:الزمخشري . القرطبي ، ابي عبد الله محمد بن احمد الانصاري ، **الجامع لاخبار القرآن** ، مطبعـةدار الكتب ـ القاهـرة ١٣٨٣هـ / ١٩٦٤ م جـ ١٢ ص ١٤١ . سيشار اليه : القرطبي ..

(٢٤) سنن أبي داود ، باب المزارعة ٢٣١/٢ . انظر الرتاج ، المقدمة صرب وما بعدها .

(٢٥) الرتاج .نم. ستـرد هذه العبارة في كتب الصلح مع نجران .

(٢٦) سنن ابن ماجة ، باب التجارات ٧٥١/٢ .انظر الرتاج ن.م.

(٢٧) حول هذه الاحاديث انظر مقدمة كتاب الرتاج .

(٢٨) الفيروزابادي ، **القاموس المحيط** « الخراج»(فصل الخاء باب الجيم). ابن منظور ، **لسـان العرب** ، مادة « الخراج ».

(٢٩) ن.م.

(٣٠) ن.م.

(٣١) الماوردي ، ابي الحسن بن محمد بن حبيب(ت.٤٥٠هـ)، **الاحكام السلطانية** ، دار الكتب العلمية ـ بيروت ١٣٩٨ هـ / ١٩٨٧م ص ١٤١ سيشار اليه : الماوردي . انظر ايضا ابو عبيد ، القاسم بن سلام (ت٢٢٤)، **كتاب الاموال** ، تحقيقمحمد خليل هراس ، ط١ ، القاهرة ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م ص ٧٣ . سيشار اليه : أبو عبيد. الزبيدي**تاج العروس** ، « الخراج» (فصل الخاء باب الجيم).

أبو يوسف يعقوب بن ابراهيم (١١٣ ـ ١٨٢)، **كتاب الخراج** ، المطبعة السلفية ، ط ٢ القاهرة ١٣٨٢هـ ص ٢٣ . سيشار اليه : ابو يوسف . قدامة بن جعفر ، **الخراج وصناعة الكتابة،** تح محمد حسين الزبيدي ، بغداد ١٩٨١ص٢٠٧ . سيشار اليه : قدامة بن جعفر الخراج . وانظر محمد ضياء الريس ١٢١-١٢٢ . عبدالكريم زيدان ، **احكام الذميين والمستأمنين في دار الاسلام** ، ط ٢ بغداد ١٣٩٦/١٩٧٦ م ص١٣٧. سيشار اليه : زيدان .

(٣٢) الرتاج ، المقدمة ص ب .

(٣٣) انظر الطبري ، تفسير ، جـ١٨ ص ١٢ ، الزمخشري ٤٩٩/٢ ، ٢٨/٣. القرطبي ١٤١/١٢٤ .

(٣٤) ابو يوسف ،الخراج ص ٢٣.

(٣٥) الخراج ص ١٢٢ .

(٣٦) شمس الدين ، ابي عبد الله محمد بن ابي بكر بن قيم الجوزية ، **احكام اهل الذمة**، تح صبحي الصالح ، دار العلم للملايين ،ط٣ ، بيروت ـ لبنان ١٩٨٣ . ص ١٠. سيشار اليه : ابن قيم الجوزية ، احكام .

(٣٧) الاحكام السلطانية ، ص ١٤١ .

(٣٨) **F. Lokkegaard, Islamic Taxation,** Cambridge, 1950, p. 72-73.

(٣٩) الاموال ص ٢٣ .

(٤٠) سورة الحشر ، آية : ٧ . ابو يوسف ص٢٣.

(٤١) الجوالي : جمع جالية وتطلق على أهل الذمة ، الرتاج ص ٤١ .

(٤٢) مقدمة كتاب ابي يوسف ص ٣.

(٤٣) ابو عبيد ص ٢٥ .

(٤٤) يحيى بن آدم (ت ٢٠٣) **كتاب الخراج** ،تح الشيخ احمد محمد شاكر ، المطبعة السلفية ،ط٢، القاهرة ١٣٨٤ ، سيشار اليه : يحيى بن آدم .

(٤٥) هكذا اعتبرت ولا يضير القول بأن بعضها فتح صلحا .

(٤٦) اعتبرت فدك فيئا خالصا للرسول صلى الله عليه وسلم فصالح أهلها على النصف . حول خيبر وفدك ووادي القرى انظر : ابن هشام، **السيرة النبوية** ، تح مصطفى السقا وزميليه ، ط٢، القاهرة ١٣٧٥هـ /١٩٥٥ ، ٣٣٧/٢ ،٣٥٢. (رواية ابن اسحق) سيشار اليه : ابن هشام . ابن شبة ، ابو زيد عمر (١٧٣-٢٦٢هـ) **تاريخ المدينة** ، تحقيق فهيم محمد شلتوت ،ط٢، (طبع على نفقة السيد حبيب محمود احمد)الرياض ص١٧٦/١-١٩٣ . سيشار اليه : ابن شبة. البلاذري ، ابي الحسن / **فتوح البلدان**،عني بمراجعته والتعليق عليه : رضوان محمد رضوان ، المكتبة التجارية الكبرى ، م. السعادة بمصر ص ٣٦-٤٧ . سيشار اليه : البلاذري فتوح. الديار بكري ، حسين بن محمد بن الحسن، **تاريخ الخميس في احوال انفس نفيس**، المطبعة الوهبية، القاهرة ١٢٨٣هـ ص٤٤٣/٢-٤٨ سيشار اليه: الديار بكري . ابو الفداء ابن كثير (ت ٧٧٤ هـ) **البداية والنهاية** ، ط١ مكتبة المعارف ـ مكتبة النصر ، بيروت ١٩٦٦ ، ص ٢١٩/٤ . سيشار اليه: **البداية والنهاية** . وانظر : محمد حميد الله ، **مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي**

والخلافة الراشدة ، دار الارشاد ط٣، بيروت١٣٨٩هـ / ٩٦٩ ١م ص ٦٨-٧٢ الوثائق رقم (١٥ - ١٨ أ) سيشار اليه : حميد الله . الاحمدي، على ابن حسينعلي ،**مكاتيب الرسول** ، دار صعب بيروت د.ت.ص١٧٣/١-١٧٤ سيشار اليه :الاحمدي .

(٤٧) تاريخ المدينة ١٧٦/١-١٩٣ .

(٤٨) الاموال ص ١٠٩ .

(٤٩) ابن العطار ، محمد بن احمد الاموي (٣٣٠-٣٩٩) **كتاب الوثائق والسجلات** ، تحقيق شالميتا كورنيطى المعهد الاسباني العربي للثقافة ،مدريد ١٩٨٣ ص ٨٦ . سيشار اليه : ابن العطار .

(٥٠) صحيح البخاري ، طبعة دار الجيل ١٢٨/٣جمله في باب المزارعة واخرجه مسلم في المساقاة، والترمذي في الاحكام ، وكذلك اخرجه ابوداود . انظر ابن تيمية ، تقي الدين احمد (٦٦١ - ٧٢٨هـ) **الحسبة في الاسلام** ، تحقيق سيدبن محمد بن أبي سعود ، ط١ ، مكتبة دار الارقم - الكويت (١٤٠٣/١٩٨٣م) . ص ٢٩ حا ١:.

(٥١) الشافعي ، ابي عبد الله محمد بن ادريس،**كتاب الام** ، وبهامشه مختصرالامام الجليل ابيابراهيم اسماعيل بن يحيى المزني الشافعي (ت٢٦٤هـ)كتاب الشعب. ص١٠١/٧ (باب المزارعة). سيشار اليه : الام . ابو يوسف ص٨٨-٨٩.

(٥٢) الامام مالك بن أنس ، **الموطأ** ، ومعه كتاباسعاف المبطأ برجال الموطأ ، منشورات دار الافاق الجديدة ط٢ بيروت ١٤٠١هـ/١٩٨١م ص ٥٩٢(ما جاء في باب المساقاة) . وانظر أيضا قدامة بن جعفر الخراج ص ٢٥٨ . ابن القيم الجوزية،**زاد المعاد** ، المطبعة المصرية ومكتبتها ، القاهرة ،د. ت. ص٢ /١٤٣ . سيشار اليه :زادالمعاد. الحنبلي ، ابن الفرج بن رجب ، **الاستخراج لاحكام الخراج** ، صححه وعلق عليه : عبد اللهالصديق ، ط١ ، بيروت ١٩٨٢ ، ص ٤٣. سيشار اليه : الاستخراج . ابو يوسف ص٥٠،٨٩.

(٥٣) السيرة النبوية ٣٣٧/٢ .

(٥٤) ابو عبيد ص ١٠٤ وجاء في حا : ٢ من نفسالصفحة (الحديث رواه ابو داود والطيالسي عن ابن أبي ذئب) . انظر قدامة بن جعفر الخراج ص ٢٠٧ .

(٥٥) جاء في رواية عن الحسن بن صالح : « أرضالخراج ما وقعت عليه المساحة » وقد مسح رسول الله صلى الله عليه وسلم خيبر وقسمها ، انظر ابو عبيد ص ١٠٢ .

(٥٦) ابن القيم الجوزية ،احكام ص٥١

(٥٧) الخراج ص ١٤.

(٥٨) ابو يوسف ص ١٢٩ . وانظر زيدان ص ١٥٩.

(٥٩) الكاساني ، علاء الدين ابي بكر بن مسعود،(ت: ٥٨٧) **بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع** ، المطبعة الجمالية ، ط١ ، مصر (١٣٢٧-١٣٢٨هـ)ص٦٣/٢ . سيشار اليه : الكاساني . زيدان ص١٦١.

(٦٠) **Lokkegaard, p. 72-73.**

(٦١) سورة التوبة ، آية : ٢٩.

(٦٢) انظر على سبيل المثال :: **اليعقوبي تاريخ**،طبع النجف ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤ م‍ص ٦٥/٢ - ٦٦.

الطبري، تفسير ١٩٨/١٤وما بعدها .القرطبي١١٠/٨ . السرخسي ، شمس الائمة ابي بكر محمد المتوفي في حدود ٤٩٠ هـ ، **كتاب المبسوط**،مطبعة السعادة ، مصر ١٣٢٤ هـ ، ص ٧٧/١٠ وما بعدها . سيشار اليه : السرخسي،المبسوط. السهيلي ، ابي القاسم عبد الرحمن ابن عبد الله (٥٠٨–٥٨١هـ / ١١١٤–١١٨٥) ، **الروض الانف** ، ومعه السيرة النبوية لابن هشام(ت٢١٣) قدم وعلق عليه وضبطه ، طه عبد الرؤوف سعد،مكتبة الكليات الازهرية ، مصر د.ت.ص٢٠١/٤ سيشار اليه : السهيلي . وانظر الزمخشري، ١٨٤/٢ . وانظر :

الخازن ، علاء الدين بن محمد ابراهيم البغدادي ، **لباب التأويل في معاني التنزيل**، وبهامشه تفسير البغوي المسمى : معالم التنزيل، دارالفكر ، بيروت – لبنان د.ت ٦٤/٤–٦٥ . سيشار اليهما : الخازن ، البغوي.

(٦٣) انظر الاحمدي ، ص١١٤/١ . ابو عبيد ص ٢٩« كانت تبوك اخر غزاة غزاها رسول الله صلى الله عليه وسلم » . الصولي ، ابو بكر محمد بن يحي ، **أدب الكتاب** نسخه وعني بتصحيحه وتعليق حواشيه محمد بهجة الاثري ، دارالكتب العلمية ، بيروت – لبنان ص ٢١٤ « وضع الرسول – ص – الجزية بعد تبوك » سيشار اليه : الصولي . زاد المعاد ٧٩/٢ (نزول آية براءة في السنة الثامنة من الهجرة) .تفسير البغوي ٦٤/٣ (نزلت آية الجزية حين امر الرسول ((ص)) بقتال الروم ، فغزا بعد نزولها تبوك) .

(٦٤) انظر رواية الكلبي في تفسير الخازن ٦٤/٣.والبغوي ٦٤/٣ .

(٦٥) ابو عبيد ص٣٢ رقم (٥٥) .

(٦٦) جاء هذا الحديث بصيغ متعددة لا تخرج عن المعنى المثبت . انظر ابن سعد ٢٠١/١ – ٢٠٢ . الطبري ، تفسير ح ١٢٥/٢٣ . أحمد ابن حنبل ، المسند ، وبهامشة كنز العمال في سنن الاقوال والافعال للشيخ الامام العارف بالله تعالى علاء الدين علي بن حسام الدين الشهير بالمتقي الهندي، المكتب الاسلامي للطباعة والنشر – بيروت١٣٩٨ – ١٩٧٨ م ، ٢٥٨/١٨–٢٥٩ . الحاكم ، المستدرك على الصحيحين ٤٣٢/٢ . السيوطي، **الدر المنثور** ٢٩٥/٥ . انظر الطبري ، **تاريخ** ٣٢٥/٢ ، ابن الاثير ، عز الدين ابي الحسن علي بن ابي الكرم ، **الكامل في التاريخ** ، دار صادر – بيروت ١٤٠٢ هـ – ١٩٨٢ م ص٣٢٤/٢. سيشار اليه : ابن الاثير ، الكامل . الترمذي ، السنن ص ٩٠، ١(ابواب التفسير) طبعة ١٩٢٤ .

(٦٧) ابن عبد البر ، ابي عمر يوسف بن عبد الله ، **الاستيعاب في معرفة الاصحاب** ، تحقيق علي محمد البجاوي ، مكتبة نهضة مصر ومطبعتها، القاهرة د.ت ٥٩/١ . سيشار اليه : ابن عبدالبر. ابن الجوزية . احكام ص٩١.

(٦٨) انظر البلاذري ، فتوح ص ٤٧ . وقدامه بن جعفر ، الخراج ص٢٦١ .

(٦٩) انظر الاحمدي ، ١١٦/١ . وحول كتب الرسول صلى الله عليه وسلم انظر : ابن سعد ،**الطبقات الكبرى** ، دار بيروت – دار صادر ، بيروت١٣٧٦هـ/١٩٥٧ م ص ٢٥٨/١–٢٩١ . سيشار اليه : ابن سعد . الطبري ، تاريخ ٢٨٨/٢، ٦٤٤/٢ .. المسعودي ، ابي الحسن علي بن الحسين (ت٣٤٦) **مروج الذهب ومعادن الجوهر** ، تح محمد محي الدين عبد الحميد ، ط٤م . السعادة

بمصر ١٣٨٤هـ –١٩٦٤م. ص٢ / ٢٩٦ . سيشار اليه : مروج الذهب . الاصفهاني، ابو الفرج علي بن الحسين (ت٣٥٦/٩٧٦م) **الاغاني** نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية ، مؤسسة

جمال للطباعة والنشر ـ بيروت ص٣/٩٢ . سيشار اليه : الاغاني . الشافعي ، علي بن برهان الدين الشافعي ، **انسان العيون في سيرة الامين والمامون** ، المعروفة بالسيرة الحلبية ، وبهامشها: **السيرة النبوية والاثار المحمدية** لمفتي السادة الشافعية بمكة المشرفة ، السيد احمد زيني المشهور بدحلان . المطبعة الازهرية بمصر ط٣، ١٣٥١ هـ ١٩٣٢م ص ٢/٣٦٦ . سيشار اليه : السيرة الحلبية . ابن الاثير الكامل ٢/٨١ . محمد حميد الله ، انظر الفهرس . عون الشريف قاسم ، **نشاة الدولة الاسلامية على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم** ط٢ ، دار الكتاب اللبناني ـ بيروت ١٤٠١هـ/١٩٨١م . ص٢٩٩ـ٣٠٨ . سيشار اليه : عون الشريف .

(٧٠) انظر الحموي ، شهاب الدين ابي عبد الله، **معجم البلدان** . دار الكتاب العربي ، بيروت ـ لبنان د.ت. ص ٢/٦٧ « تيماء» . وانظر حميدالله ص ٧٣ رقم (١٩) . عون الشريف ص ٣١٢ . ابن سعد ١/٢٧٩ (لم يذكر تاريخ الصلح) . الواقدي، محمد بن عمر (ت٢٠٧هـ)، **كتاب المغازي** تحقيق مارسدن جونس ، مؤسسة الاعلمي للمطبوعات ، بيروت ـ لبنان د.ت ٣/١٠٣١ (ذكرها مع دومة الجندل وأيلة وهو ما جرى في السنة التاسعة للهجرة) انظر مناقشة صلح أيلة وما بعده في : صالح درادكة، لمحات من تاريخ ايلة «العقبة» في العصر الاسلامي ، **مجلة دراسات تاريخية** ، دمشق ، العدد ١٥ـ١٦، كانون الثاني ـ ايار ١٩٨٤) ص٦٧ـ١١٠) ص ٧٤ـ٧٥ .

(٧١) ابن قدامة ، ابي محمد عبد الله بن احمد بن محمد بن قدامة المقدسي (ت٦٣٠هـ) ، **المغني على مختصر ابي القاسم عمر بن حسين بن عبد الله بن احمد الخرقي** ، ج٨ ، مكتبة الجمهورية العربية ومكتبة الرياض الحديثة الرياض ، د.ت ص ٤٩٥. سيشار اليه : المغني .

(٧٢) سورة البقرة ، آية : ٤٨ . وانظر القاموس المحيط «جزى» ولسان العرب « جزى » والطبري ، تفسير ١٤/١٩٩ . والزمخشري ٢/١٨٤ وابن القيم الجوزية ، احكام ص١ وما بعدها .والصولي ص ١٩٨ . والماوردي ص ١٤٢ .

(٧٣) كتب خالد بن الوليد لصلوبا بن نسطونا وقومه (في قس الناطف على شط الفرات) :« ان منعناكم فلنا الجزية ، والا فلا حتى نمنعكم »الطبري ، تاريخ ٣/٣٦٨ . وكتب سويد بن مقرن الى أهل دهستان وسائر أهل جرجان في زمن عمر: « ان لكم الذمة وعلينا المنعة » الطبري ، تاريخ ٤/١٥٢ ، وانظر عبد العزيز النميم ص ٣٧٥. وجاء في كتب الامان التي اعطاها النعمان بن مقرن لاهل ماه بهراذان « لهم المنعة ما ادوا الجزية» وحذيفة بن اليمان لاهل ماه دينار : « لهم المنعة ما ادوا الجزية » انظر الطبري، تاريخ ص٤/١٢٦ـ١٢٧ . وقد اعاد ابو عبيدة بن الجراح الجزية التي اخذها من أهل حمص عندما انسحب جيش المسلمين من حمص الى اليرموك ، والحادثة مشهورة ومعروفة .

(٧٤) انظر عبد الوهاب خلاف ، **السياسة الشرعية او نظام الدولة الاسلامية في الشؤون الدستورية والخارجية والمالية** ، دار الانصار القاهرة ١٣٩٧/١٩٧٧ ص ١٢٣ . سير توماس ارنولد ، **الدعوة الى الاسلام** ، ترجمة حسن ابراهيم حسن وزميليه ، القاهرة ١٩٧٠ ص ٧٨ . سيشار اليه: توماس ارنولد . ابن القيم الجوزية ، احكام ص ٣٧٥ .

(٧٥) الاموال ص ١٣١ـ١٣٢ .

(٧٦) عبد الخالق النواوي ، **النظام المالي في الاسلام** ، منشورات المكتبة العصرية ، ط٢ ، صيدا، لبنان ١٩٧٣ ص ١٥٢ .

(٧٧) ابو عبيد ص ٤٦ . البلاذري ، فتوح ص٧٩. الصولي ص٢١٤. ابن قيم الجوزية ، احكام ص٣٠

(٧٨) ابو يوسف ص ١٢٩ .

(٧٩) انظر ابن سعد ١/٢٨٩-٢٩٠ . ابو عبيد ٢٨٧ -٢٨٨ . ابن زنجوية ، حميد (ت٢٥١) **كتاب الاموال**، تحقيق شاكر ذيب فياض ، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الاسلامية ، الرياض ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م ص ٤٦٣/٢ . ابن الاثير الكامل ٢٨٠/٢ . ابن حبان ، الحافظ محمد بن حبان بن احمد ابي حاتم التميمي البستي ، **كتاب الثقات** ، الطبعة الهندية بعناية الدكتور محمد عبد المعيد خان ، مدير دائرة المعارف العثمانية، ط ١ ١٣٩٣ هـ - ١٩٧٣م . ص ٩٤/٢ . المسعودي، **التنبيه والاشراف** ، دار التراث - بيروت ١٣٨٨ هـ ، ١٩٦٨ م ص ٢٣٦ ، سيشار اليه :التنبيه والاشراف . السيرة الحلبية ٧١/٣ . البداية والنهاية ١٦/٥-١٧ . حميد الله ص ٨٨ رقم (٣١-٣١ الف) . الاحمدي ١٦٤/١ . صالح درادكة ، لمحات من تاريخ ايله « العقبة » في العصر الاسلامي ، **مجلة دراسات تاريخية** ، دمشق العدد ١٥-١٦ عام ١٩٨٤ ص ٧٥-٧٨ .

(٨٠) ابن سعد ٢٧٧/١ ، ٢٩٠ ، الواقدي ،مغازي ١٠٣١/٢ . الطبري تاريخ ١٥/٢-١٧ . حميد الله، ص ٩١-٩٢ احمد زكي صفوت ، **جمهرة رسائل العرب** ، المكتبة العلمية ، بيروت - لبنان د.ت ١/ ٢٠-٢١ . سيشار اليه : صفوت .

(٨١) انظر المصادر السابقة . حميد الله ص ٩١ رقم (٣٣) .

(٨٢) الطبري ، تاريخ ٣٦٧/٣ - ٣٦٩ . البلاذري، فتوح (رواية اخرى) ص ٢٤٦ . حميد الله ص ٣١٩ رقم (٢٩٣) جرى هذا الصلح بعيدوفاة الرسول صلى الله عليه وسلم ، والخرزة :نوع من جزية الرؤوس في ايران زمن الاكاسرة .يؤديها كل من لم يكن في جند الحكومة ، وذكر الطبري أنها كانت اربعة دراهم على كل رأس .

(٨٣) قال أبو عبيد في غريب الحديث : « في حديثه صلى الله عليه وسلم في صلح نجران ، انه ليس عليهم (ربية ولا دم) اراد بها الربا أي انه صالحهم على وضع ربا الجاهلية والدماء التي كانوا يطلبون بها » . انظر حميد الله ص ٤٥٠-٤٥١ . الطبري ، تاريخ ص ٤٤٥ . ابن حبان ١٨٣/٢ .

(٨٤) الاواق : جمع اوقية ، وهي زنة سبعة مثاقيل ، وقيل زنة اربعين درهما ، وهي بالفرنسية Once وبالانجليزية Ounce وباللاتينية Uncia وهذا يشير الى ان قيمة الحلل متفاوتة بحسب جودتها ، نضبطت القيمة بحساب الاواق . أي ان قيمة الجزية تساوي الفي اوقية من الفضة تؤدى على مرحلتين في العام . انظر ابي عبيد ، الاموال ص ٤٥٢ (رقم ٧٣٤) حميد الله، ص ٤٣١ « أوق » .

(٨٥) عارية : من الاعارة .

(٨٦) المعرة : من عاره اذا قاتله ومنه المعرة بمعنى قتال الجيش دون اذن الامير . والمقصود ان يقدم اهل اليمن ما ذكر في الكتاب لتجهيز ثلاثين فارساعلى سبيل الاعارة المردودة اذا حصل كيد وفتنة في في اليمن . وفي القرآن : « نصيبكم منهم معرة بغير علم » انظر لسان العرب : « عر » وحميد الله ص ٤٦٧ «عر» انظر صلح نجران بنسخه المتعددة في : حميد الله ص ١٢٦-١٥٨ (الارقام ٩٢-٩٨)، ابو يوسف ص ٧٢-٧٣ . ابن شبة ،تاريخ المدينة ٥٨٤/٢-٥٨٥ . ابن سعد ٢٦٦/١ - ٢٦٧ و ٢٨٧/١-٢٨٨ . البلاذري ، فتوح ص ٧١ . اليعقوبي ص ٢ /٧١-٧٢ . ابن زنجوية ، ٤٤٩/٢-٤٥٢ . المسعودي ، التنبيه ص ٢٣٩. ابن قيم الجوزية ، زاد المعاد ص ٤٠/٢ . السيرة الحلبية ٧٥/٣ . ياقوت الحموي، معجم البلدان ، مادة « نجران » . القلقشندي ، ابي العباس،

احمد بن علي (ت ٨٢١هـ/ ١٤١٨م) **صبح الاعشى** نسخة مصورة عن الطبعة الاميرية ، وزارة الثقافة والارشاد القومي ، المؤسسة المصريةالعامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر ، القاهرة د.ت ص ٦/٣٨٠–٣٨١ . أحمد زكي صفوت ص١ / ٧٥–٧٨ . الاحمدي ص ١ / ١٧٥–١٨٢ . عون الشريف ١٢٧–١٣٠ .

(٨٧) ابن سعد ٢٦٣/١ . ابو يوسف ص ١٣٠ .ابو عبيد ص ٤٥ . مالك بن انس ، الموطأ ص ٢٢٤. البلاذري ، فتوح ص٨٦–٨٧ . ابن زنجوية ١١٨/١، (رقم ٩٨) و ١٣٧/١ (رقم ١٢٣ – ١٢٤) و ٢٢٨/١ (رقم ١٢٥) و ١٤٣/٢ (رقم ١٣٠، ١٣١) . الشيرازي ، ابي اسحق ابراهيم بن علي، **المهذب في فقه مذهب الامام الشافعي** ، وبهامشه النظم المستعذب في شرح غريب المهذب للعلامة محمد بن احمد بن بطال الركبي ، طبع الحلبي– مصر د.ت. ص ٢٥٠/٢ . سيشار اليه الشيرازي. السرخسي ، محمد بن احمد ، **شرح السير الكبير** لمحمد بن حسن الشيباني ، تحقيق صلاح الدين المنجد ، **القاهرة** ١٩٥٨ ، ص ١٤٨/١، ١٨٦/١ . سيشار اليه : السرخسي . ابن قدامة المغني ص ٤٩٨ . **الحموي** ، معجم البلدان، مواد : البحرين ، عمان ، هجر . ابن عبد البر، **الاستيعاب** ١١٩٦/٣ . احمد زكي صفوت ٣٦/١ ، ٤٦–٤٨ .

(٨٨) **انظر ابن سعد** ٣١٦/١ . ابو يوسف ص ٦٧، ١٢٠ . ابو عبيد ص ٣٩–٤٠ (رقم ٧٠–٧١) . يحيى بن ادم ص ٦٢ . قدامة بن جعفر ، الخراج ص ٢٢٤ . ابن زنجوية ، ١\١٣٠ – ١٣٢ (الارقام ١١١– ١١٥) .

(٨٩) المصادر السابقة .

(٩٠) انظر المصادر في الحاشية ٨٧ .

(٩١) يحيى بن ادم ص ٦٨. ابو عبيد ص ٥٢. البلاذري ، فتوح ص ٧٨. ابن زنجوية ١٦١/٢ (رقم ١٦١) .

(٩٢) انظر على سبيل المثال ، ابو عبيد ص ٣٨ (رقم ٦٦) .

(٩٣) انظر ابن زنجوية ١٦٨/٢ .

(٩٤) ابن قيم الجوزية ، احكام ص٢٦ .

(٩٥) الشيرازي ، ص٢٥١/٢ . ابو يعلى ، **الاحكام السلطانية** ، صححه وعلق عليه حامد الفقي ،ط٣، اندونيسيا ، ١٣٩٤هـ/١٩٧٤ م ص ١٥٧ –٥٨ ،١ سيشار اليه : ابو يعلي .

(٩٦) انظر أبو يوسف ص ١٢٨–١٢٩ . يحيى بن ادم ص ٢٦. ابو عبيد ص ٤٣ (رقم ٧٣) . واختلف في امر اكيدر صاحب دومة الجندل فقد ذكرت المصادر انه كان نصرانيا ، في حين جاء في بعض كتب الصلح معه انه : « خلع الانداد والاصنام» مما يوحي انه كان وثنيا ولعل نصرانية دومة الجندل كانت ممزوجة بالوثنية ، حيث كانت قبيلة كلب المشهورة تعبد الصنم (ود) المقام في دومة الجندل انظر عون الشريف ص٢١٤–٢١٥ .

(٩٧) انظر رسالة المنذر بن ساوى ، والتي بعثها الرسول من البحرين يفيد فيها جمع الضرائب المختلفة من عشور الارض والزكاة والجزية . انظر حميد الله ص ١١٤–١١٥. (رقم٥٨).

(٩٨) ابن القيم /احكام ص ٤٧ . الشيرازي ، المهذب ٢٥٠/٢ . وانظر سنن ابي داود مع حاشية عون المعبود / المجلد الثالث ، عني بنشره الحاج حسن ايراني – صاحب دار الكتاب العربي – بيروت لبنان ص١٣٢/٣ .

(٩٩) انظر في ذلك: الماوردي، الاحكام السلطانية،١٤٢–١٤٤ . ابو يعلى ص١٥٣–١٥٥ . انظر ابن القيم ص ٣٩. النواوي ص ١٦١ .. وعبد العزيزالنعيم ٢٤٦ .

(١٠٠) المغني ص ٥٠٧ . وانظر ابن القيم / احكام ص ٤٩٠ .

(١٠١) انظر اختلاف الفقهاء في ابن القيم / احكام ص ٤٩–٥٠ . المبسوط ٧٨/١٠. الكاساني ١١١/٧–١١٢ . ابن الهمام ، كمال الدين محمد بن عبد الواحد السيواسي (ت٨٦١) **فتح القدير** مطبعة مصطفى محمد – مصر د.ت ٣٧٠/٤ – ٣٧١. تفسير الالوسي ٧٩/١٠ . **الام** للشافعي ١٠١/٤ . المهذب ٢٦٧/٢. المغني ٥٠١/٨–٥٠٣ . ابو عبيد ص ٤١ . الشوكاني ، محمد بن علي بن محمد ، **نيل الاوطار** ، ط٣ مطبعة البابي الحلبي ، القاهرة ١٣٨٠هـ /١٩٦١م ص ٥٨/٨ –٥٩. زاد المعاد ٨٠/٢ . عبد الكريم زيدان ص ١٤٦–١٤٧.

(١٠٢) ابو عبيد ص ٦٥٦،٦٦١ ويقصد ان في المال النفيس والبخيس – القاموس .

(١٠٣) قدامة بن جعفر / الخراج ص ٢٠٩ .

(١٠٤) الاحكام السلطانية ص ١٤٣ . البلاذري فتوح ص ٩٠ .وانظر عبد العزيز النعيم ص ٢٦٧.

(١٠٥) ابو يوسف ص ٢٥. الماوردي ن.م . وقارن توماس ارنولد ص ٨٠ .



المخطوطات في الغرب الاسلامي

وضعية المخطوطـات وآفاق البحث

في الفترة من ١٩ـ٢١ شعبان ١٤٠٨ هـ / ٧ـ٩ نيسان / ابريل ١٩٨٨ ، عقـدت **مؤسسة الملك عبد العزيز آل سعود للدراسات الاسلامية والعلـوم الانسانية** بالـدار البيضاء **ندوة دولية** حول المخطوطات في الغرب الاسلامي ، دارت بحوثها حول ثلاثـة محـاور :

١ ـ تقارير عن وضعية مخطوطات الغرب الاسلامي عبر العالم .

٢ ـ عروض حول مشكلات توثيق وفهرسة وتصنيف وتصوير المخطوطات العربية .

٣ ـ محاضرات حول اشكاليات تحقيق ودراسـة التراث المخطوط للغرب الاسـلامي من النواحي النظرية المنهجية .

شارك في الندوة باحثون متخصصون من الوطن العربي وأوربا وامريكا الشمالية، أكدوا في بحوثهم ومداخلاتهم اهمية التراث العربي المخطوط بخزانات الغرب الاسلامي وخاصة الخزانات المغربية ، مما يستدعي زيادة الاعتناء بهذا التراث ، واجمعـوا على ضرورة توفير مراكز متخصصة لصيانة وترميم المخطوطات بالوطن العربي ، وفهرستها، واتاحة الفرص أمام الباحثين للاطلاع عليها وفق قواعـد سليمـة مدروسة ، وسن القوانين لحمايتها ومنع تسربها الى الخارج .

العُشور
ضرائب التجارة في صدر الإسلام

د. فالح حسين
الجامعة الاردنية

كثيرا ما يصطدم الباحث في شؤون النظم الاسلامية بقضية التفريق بين النظرية والتطبيق ، وخاصة اذا كان الامر متعلقا بالحياة الاقتصادية في المجتمع الاسلامي، الامر الذي يجعله مضطرا للنظر في المصادر التاريخية والفقهية عند المسلمين على حد سواء، دون اهمال احدهما على حساب الاخر . لان المصادر الفقهية والتي يبدو لاول وهلة انها تنصب على النظرية فقط لا تخلو من الواقع التاريخي ، ولصعوبة فهم النظرية الفقهية بدون العودة للمصادر التاريخية التي تتحدث عن الواقع الذي طبق في المجتمع في الفترات المتلاحقة ، هذا الواقع الذي اجاز والغى واوجب بناء على الظروف التي مرت بالمجتمع والدولة سواء بسواء . ولكن ومع الاحتفاظ باهمية المصادر الفقهية ، يجب على الباحث ان يضع نصب عينيه قضية التمييز بين النظرية والتطبيق ، بحيث لا تطغى النظرية على التطبيق في مجال البحث التاريخي ، والا يهمل الواقع الفعلي بحجة مخالفته للمثالية النظرية .

وفيما يتعلق بالبحث في عشور التجارة في صدر الاسلام نود ان نشير الى الراي القائل بان الفترة الاولى لنشأة الدولة العربية الاسلامية شهدت تراجع حركة التجارة في المنطقة العربية ، او التي وصل اليها العرب ، لان حروب الفتح وتنظيمها وتسخير قوى الدولة والمجتمع لانجاحها مثلت الاولوية المسيطرة على الدولة وابنائها . فكان تراجع التجارة وخاصة التجارة الخارجية أمرا متوقعا في ظروف العلاقات الحربية بين العرب ومجاوريهم الى ان هدأت حروب الفتح ، وعليه فلم تشهد التجارة العربية الاسلامية ازدهارها من جديد الا بعد استقرار الوضع وابتداء من العصر العباسي(١).

ورغم معقولية هذا الراي وجدية الكتاب الذي ورد فيه ، الا ان الاشارات الواردة في المصادر الاولية تقلل من فرص الاخذ به دون تردد ، اذ ان المعلومات عن ضرائب التجارة الداخلية والخارجية تعود الى فترة مبكرة ، فالبصرة اقيمت لانها واقعة على طريق الهند مثلا ، وسرعان ما اصبح الميناء المسمى بالابلة مركزا تجاريا هاما كما سميت

دراسات تاريخية ، ٢٩ و ٣٠ ، آذار - حزيران ١٩٨٨

البصرة ب (أرض الهند)(٢) والابلة (مرفأ السفن من الصين) (٣) . وذكر البلاذري ان معاوية بعث ايام خلافته ببضاعة للتجارة الى صاحب العشور في السلسلة «فمرت بها سفائن فيها أصنام من صفر تماثيل الرجال فسألهم عنها فقالوا : بعث بها معاوية الى أرض السند والهند تباع له »(٤) . وكان على الابلة نفسها صاحب عشور هو امية بن عبد الله بن خالد في ايام ولاية زياد بن ابي سفيان على المصرين البصرة والكوفة (٤٥ ـ ٥٣ هـ) (٥) .

وقبل المضي قدما في توضيح القضايا المتعلقة بالعشور نود ان نبين ان الغاية هنا هي محاولة تكوين صورة عن ضرائب التجارة (العشور) التي لمسنا ان البحث فيها كثيرا ما كان نظريا ، أو متأثرا بالنظرية دون الالتفات الى التطبيق في كثير من نواحيها، أو تطرق الحديث اليها عرضا عند بحث النظم الاقتصادية في الدولة الاسلامية(٦). ولذلك فان مناقشة الرأي النظري فيما يجب وما لا يجب وما يجوز وما لا يجوز نتركه للابحاث النظرية ، ومحاولتنا تنصب على تتبع التطبيق العملي مع الاستفادة من الاشارات الفقهية . فما ذكره الماوردي مثلا الذي يستنكر بعضا من أصول العشور نظري محض لا ينم عن تطبيق معين بل عن رفض مبدأ قائم ، اذ يقول « وأما اعشار الاموال المتنقلة في دار الاسلام(٧) من بلد الى بلد فمحرمة لا يبيحها شرع ولا يسوغها اجتهاد ولا هي من سياسات العدل ولا من قضايا النصفة وقل ما تكون الا في البلاد الجائرة »(٨) .

لم ينظر فقهاء المسلمين أحيانا لهذه الضريبة نظرة ارتياح ، كما رأينا عند الماوردي ، فقد جاءت (أحاديث كثيرة بكراهة أخذ العشر وذم العاشر وصاحب المكس وهو صاحب العشر ايضا)(٩) ولكن ما سبب هذه النظرة السلبية ؟ والاجابة على هذا السؤال تأتي من ابي عبيد ، وتابعه قدامة ، الذي يرد السبب الى ان ضريبة كانت تفرض على التجار قبل الاسلام ولان العشور تؤخذ من التجار بعد الاسلام فكان الربط بينهما سببا لكراهية العشور اذ يعلق ابو عبيد على الاحاديث التي تذكر المكس والعاشر بقوله (وجوه هذه الاحاديث التي ذكرنا فيها العاشر . وكراهة المكس والتغليظ فيه انه كان له اصل في الجاهلية يفعله ملوك العرب والعجم جميعا فكانت سنتهم ان يأخذوا من التجار عشر اموالهم اذا مروا بها عليهم)(١٠) ، ونراه يدافع عن العشور بقوله (وكيف يكون هذا مكروها وقد فعله عمر بن الخطاب والائمة من بعده ثم لا نعلم احدا من علماء الحجاز والعراق والشام ولا غير ذلك كرهه ولا ترك الاخذ به) (١١) .

بالعودة الى ايام رسول الله (ص) نجد ذكرا لاسقاط العشور عن بعض من صالحهم من الجماعات في الجزيرة العربية ، اي ان الرسول (ص) الغى هذه السنة

الجاهلية ، فاعتبر ذلك الغاء لها في الاسلام . ويقول قدامة في بيان ذلك « والدليل على ان أخذ العشر كان قديما في الاسلام ما كتب عن النبي (ص)لمن اسلم من أهل الامصار مثل ثقيف وأهل البحرين ودومة الجندل وغيرهم انهم لا يحشرون ولا يعشرون فان ذلك لو لم يكن سنة جاهلية يعرفونها لم يكونوا يتخوفون من المسلمين مثلها حتى يكون في اماناتهم ابطالها او حذفها »(١٢) .. ويزودنا صاحب كتاب المحبر عن العشور والتعشير في اسواق العرب قبل الاسلام كسوق صحار وسوق دبا في عمان التي كان يعشرها الجلندي بن المستكبر (١٣) ، ودومة الجندل التي كانت السيطرة عليها تتأرجح بين الغسانيين والعباديين فيعشرون من يأتيها (١٤)، وكذلك سوق صنعاء التي كانت الابناء تعشر التجار الذين يقصدونه(١٥) . ولكن الغاء رسول الله (ص) للعشور عن بعض الجماعات يشعر بأنه اعتبرها سنة جاهلية كما سماها قدامة اذ لم يؤثر عنه (ص) انه أخذ شيئا من التجار ، وهذا مرد كراهيتها برأي قدامة الصريح الذي ذكرناه آنفا ، كما لم تؤخذ ايام ابي بكر .

لكن حياة المجتمع الجديد واتساع الدولة الاسلامية في ايام عمر بن الخطاب واختلاط العرب بمجاوريهم ونقل حدودهم الى حدود البيزنطيين مباشرة ربما دعاه الى التفكير من جديد ، لا سيما وان تجار المسلمين دفعوا هذه الضريبة لاهل الحرب (الروم) كما تصرح بذلك بعض الروايات التي تتحدث عن بداية فرض العشور في الدولة الاسلامية وكأنها ردة فعل من عمر على بيزنطة ، او شعور بعض الولاة بضرورة فرضها على تجار الروم لان دولة الروم كانت تأخذها من تجار المسلمين ، اذ يرد في هذا الصدد ان ابا موسى الاشعري كتب الى عمر بن الخطاب « ان تجارا من قبلنا من المسلمين يأتون ارض الحرب فيأخذون منهم العشر ، قال : فكتب اليه عمر ، خذ انت منهم كما يأخذون من تجار المسلمين وخذ من أهل الذمة نصف العشر ومن المسلمين من كل اربعين درهما درهما »(١٦) .

وفي رواية اخرى تأتي المبادرة من غير المسلمين ، اذ كتب اهل منبج لعمر بن الخطاب « دعنا ندخل ارضك تجارا وتعشرنا ، قال : فشاور عمر أصحاب رسول الله (ص) في ذلك فأشاروا عليه به فكانوا أول من عشر من أهل الحرب »(١٧) . ومما يضعف هذه الرواية انها تجعل أهل منبج « من أهل الحرب وراء البحر » وهذا غير صحيح لان منبج تقع الى الغرب من مجرى نهر الفرات بينه وبين حلب(١٨) . ولكن عودة متأنية الى النصوص الاسلامية تشعرنا ان فرض الضريبة وبداية تطبيقها يذكر في المدينة نفسها ولم يكن نتيجة رد فعل من عمر فحسب ، فقد ورد عن السائب بن يزيد قوله « كنت عاملا مع عبد الله بن عتبة على سوق المدينة في زمان عمر بن الخطاب فكان يأخذ من النبط العشر »(١٩) . ولدى يحي بن آدم ترد الرواية ان عمر « كان يأخذ من أهل الذمة

انصاف عشور اموالهم فيما تجروا فيه »(٢٠) ومرة اخرى يرد ان عمر كان يأخذ من الزيت والحنطة نصف العشر « لكي يكثر الحمل الى المدينة » بينما يأخذ من القطنية العشر »(٢٢) .

هذه الروايات تنقض قضية رد الفعل لدى عمر ، حتى ان رواية ابي يوسف التي ذكرناها تجعل فرق العشر على المسلمين وأهل الذمة وأهل الحرب بنسب متفاوتة رغم انها ترد في مجال الاخبار عن تعشير أهل الحرب لتجار المسلمين فيفترض ان يكون رد الفعل مقتصرا على معاملة تجار اهل الحرب ، فما الذي ادخل تكليف المسلمين واهل الذمة اذا كان الامر مجرد رد فعل من عمر على ما يفعله أهل الحرب بتجار المسلمين .. وروايات اخرى تجعل فرض العشر من صلب سياسة عمر بن الخطاب ، فعلى رأي ابن شهاب الزهري ان عمر وضعه لان صلحه مع أهل الذمة ان تعشر تجارتهم ، في حين ذكر مالك بن انس عندما سئل عن العشر بأنه « كان يؤخذ منهم في الجاهلية فأقرهم عمر على ذلك »(٢٢) . ويبدو ان رأي الزهري لا يعبر عن الواقع كرأي مالك لان التغليظ الذي روي حول العشر او المكس قديكون لان مرده جاهلي كما ذكر ابو عبيد وتابعه قدامة ، ونقل الراي نفسه المقريزي فيما بعد ، ولان جميع عهود الصلح سواء في الشام أم العراق ام مصر لم تشر اطلاقا الى وجود ضريبة على تجارة اهل الذمة ، وما ورد في حالة واحدة يعودالىمابعد الفتح وما بعد عقد عهود الصلح وهو ان عمر بن الخطاب كلف عثمان بن حنيف بمسح سواد الكوفة فوضع على ارضها ما وضع «وجعل في أموال اهل الذمة التي يختلفون بها من كل عشرين درهما درهما .. ثم كتب بذلك الى عمر فأجازه »(٢٣) .

ويرى السرخسي (ت ٤٩٠ هـ) ان فرض العشر كان (لاجل الحماية)(٢٤) لان الخارج بمال التجارة بحاجة الى الحماية عندما يخرج التاجر الى المفاوز والمسلم والذمي بذلك سواء لاحتياجهم الى حماية تجارتهم وهذا مسوغ لم نطلع عليه الا لدى السرخسي وهو يستبعد قضية المعاملة بالمثل كما نرى اضافة الى استبعاده مبدأ وجود العشر في الصلح أو انه سنة قديمة .

هذه الروايات تجعلنا نقول ان فرض العشر لم يكن بتأثير التعامل مع اهل الحرب كردة فعل ، ويصعب القول ايضا ان عمر فرضه على أهل الذمة في صلحه معهم لافتقار جميع عهود الصلح الى الاشارة لذلك ، وكذلك الحال بالنسبة لكونه بدل الحماية اذ ان صاحب العشور لم توكل اليه مهمة حماية طرق التجارة كما نعلم حتى تكون العشور كرسم الحماية . ونستطيع القول ان فرض العشور يشير الى التطور الطبيعي الذي مرت به الدولة الاسلامية ونظمها التطبيقية عبر الفترة الاسلامية الاولى ، وربما ربط

فيما بعد بين واجبات أهل الذمة وبين دفع هذه الضريبة وفي هذا السياق يمكن فهم مقولة عمر بن عبد العزيز الذي جعل ما يدفعه التاجر كجزء متعلق بالجزية ، فقد ورد عنه قوله فيما يتعلق بدافعي الجزية انهم « صاحب ارض يعطي جزيته وصانع يخرج جزيته من كسبه وتاجر يتصرف بماله يعطي جزيته من ذلك » (٢٥) .

وقبل الدخول في تفصيلات احكام هذه الضريبة وطرق جبايتها لننظر من اين جاءت الكلمة المرادفة للعشر في المصادر الاسلامية ، وهي « المكس » . يعود أصل كلمة « مكس » في العربية الى الارامية « مكسا » والسريانية « مكسوا » ، ولما كان العرب على معرفة بها في الجاهلية فان دخول الكلمة العربية جاء في وقت مبكر قبل الاسلام ، فقد ظهر الاسلام والكلمة معروفة على انها من كلام العرب(٢٦) ، لذلك فليس غريبا ان نجد نظام المكس منذ بدايات الادارة العربية للامصار خارج الجزيرة العربية. وترد الكلمة نفسها عند الحديث عن متولي جبايتها « صاحب المكس »(٢٧) وقد وجدت مراكز لجباية العشور أو المكس في كل مصر وسورية والعراق(٢٨) كما جبيت في المدينة المنورة نفسها نسبة من أموال التجار القادمين اليها من الامصار الاخرى ، وهنا ترد اشارات الى القادمين من الشام ومصر(٢٩) كما وجدت مراكز جباية العشور (المآصر)في اليمن أيضا(٣٠) .

وجاءت المكس مرادفة لكلمة العشر او عشور التجارة لانها كانت في الاصل تؤخذ في الاسواق العربية من التجار الذين يمرون بها(٣١) . ويقول المقريزي (الماكس هو العاشر وأصل المكس في اللغة الجباية)(٣٢) . ويعرف صاحب مفاتيح العلوم المكس بأنه « ضريبة تؤخذ من التجار في المراصد »(٣٣) .. وفي لسان العرب نجد ما يجعل المكس الجباية : المكس « دراهم كانت تؤخذ من بائع السلع في الاسواق في الجاهلية » وتعريف آخر : المكس « ما يأخذه العشار والماكس العشار ويقال له صاحب مكس »، ويزيد على ما سبق قوله « المكس دراهم كان يأخذه المصدق بعد فراغه »(٣٤) .. وقد يكون هذا الاخير هو الذي رفض اصلا لانه درهم يؤخذ بغير حق لان ابن منظور يعلق على الحديث « ان لقيتم عاشرا فاقتلوه » أي ان وجدتم من يأخذ العشر على ما كان يأخذه اهل الجاهلية مقيما على دينه فاقتلوه لكفره او لاستحلاله لذلك .. وكل ما ورد في الحديث عن عقوبة العشار محمول على هذا التأويل(٣٥) ثم أصبح مثل هذا الحديث حجة فيما بعد ضد سوء تصرف الجباة ، وقد شكى بعض الشعراء من المكس فقال :

أفي كل أسواق العراق أتاوة ... وفي كل ما باع امرؤ مكس درهم(٣٦)

* * *

راينا ان فرض هذه الضريبة جرى في أيام عمر بن الخطاب ، اذ لاشك انـه هو الذي فرض عشور التجارة التي لم تعرف عند المسلمين في مجال التطبيق العملي فيايام رسول الله (ص) ولا في أيام ابي بكر . وجبت الدولة العشور في عاصمتها المدينة عندما كلف عامل سوق المدينة بجباية العشر من التجار القادمين اليها من أهل الذمة، والمتوقع ان نسمع بموظفي العشور (العشارون) في بقية الامصار الاسلامية ابتـداء من عهـد عمر بن الخطاب وخلال الفترة الاموية ، وبالفعل فان اسماء موظفي العشور في كل مـن العراق والشام ومصر وكذلك في اليمن ترد في المصادر الاسلامية(٣٧) وقد سميتمراكز جباية العشور بالمراصد والمآصر وبيوت المكس ، كما سمي صاحبها بصاحب المكس والعاشر ، والعامل على المكس .

وأول من نسمع به من الشخصيات التي عملت على العشور خارج الجزيرةالعربية ايام عمر بن الخطاب هو زياد بن حدير الاسدي الذي كان على عشور الشـام والعراق وقصته مع بني تغلب(٣٨) . وتدل رواية لابي يوسف ان عمر بعث مالك بن انـس على العشور دون ان يبين مكان عمله(٣٩) ، وان كنا نظن ان عمله كان في العراق.. وعين لهذا العمل بمصر أحد جند الفتح وهو ربيعة بن شرحبيل بن حسنة الذي كان على المكس كما يذكر ابن لهيعة(٤٠) ، وقد اتخذ من قرية ام دنين شمال الفسطاط مركزا لعمله ، وذكر المقريزي عن القضاعي انه المكان الذي كان يقيم فيه صاحب المكس وصار يعرف باسـم المقس وانما سميت كذلك « لان العاشر كان يقعد بها وهو صاحب المكس »(٤١). واورد ياقوت أن « المقس كان في القديم يقعـد عندها العامل على المكس فقلب وسـمي المقس وهو بين يدي القاهـرة على النيل وكان قبل الاسلام يسمى ام دنـين »(٤٢) . وقـد استعمل زياد بن ابي سفيان ايام ولايته (٤٥-٥٣هـ) « مسروقا على السلسلة »(٤٣)، وهو مسروق بن الاجدع كان فقيها من التابعين ومات بها سنة ٦٣هـ ، والسلسلة هنا هي اسم المكان الذي مارس فيه مسروق عمله في جباية العشور ، وتقع في منطقة واسط اذ يذكر ابن سعد « كان مسروق على السلسلة سنتين » ثم يبين انه « مات بالسلسلة بواسط »(٤٤) . وقد أخطأ الرحبي صاحب الرتاج في فهم معنى السلسلة هنا ولم يدرك انها المكان الذي عمل فيه مسروق كصاحب العشور وخلط بمعنى السلسلة فاعتبرها انها الحبل الذي يمد عبر النهر او الطريق لاعتراض المرور لمراقبة المارين ودفع العشور على اموالهم واعتبرها كالمآصر(٤٥) التي يعرفها الخوارزمي بأنها « سلسلة او حبل يشد معرضا في النهر يمنع السفن من المضي »(٤٦) . وقد روى ابو عبيد عن شخص رافـق مسروق قوله : « كنت مع مسروق بالسلسلة فما رايت اميرا قط كان اعف منه »(٤٧). والسلسلة كما يتبين هي المكان ويفترض وقوعها جنوب العـراق أو ما بـين البصرة وواسط ، ومن رواية البلاذري لابد ان السلسلة كانت تقع على الطريق التجاري مـع

ألهند لان مفادها انه اثناء عمل مسروق على السلسلة جاءتها سفن من قبل معاوية « ارسل بها معاوية الى ارض السند والهند تباع له »(٤٨) . وقال ابن سعد انها بواسط. ولا سبيل ان تكون السلسلة المقصودة هنا ما يفهم من كلام الطبري انها بلدة قريبة من ميارفاقين في الجزيرة الفراتية لقوله في معرض حديثه عن اضطراب حدث سنة ٢٤٩ « فنفر اليهم في جماعة من أهل ميافارقين والسلسلة »(٤٩) ، اذ يبدو ان هناك تشابها بين اسماء الموقعين . وتذكر اسماء اناس آخرين عملوا على العشور بالسلسلة كحميد ابن عبد الرحمن الحميرى(٥٠) ، وعبد الله بن معقل(٥١) .

وممن استعملهم زياد بن ابي سفيان على العشور في الابلة امية بن عبد الله بن خالد(٥٢) ويذكر اسمه مرة اخرى انه عمل على عشور السوس ثم على الابلة وكور دجلة(٥٣) .

ومما رواه ابو يوسف حول نية ابن الزبير الغاء المكس ابان ثورته (٦٤ـ٧٣هـ) نعلم ان مركزا لجباية العشور كان في اليمن أيضا اذ قال ابن الزبير « ان هذه المآصر والقناطر سحت لا يحل اخذها وبعث عمالا الى اليمن ونهاهم ان يأخذوا من مأصرة او قنطرة او طريق شيئا ، فقدموا فاستقل المال فقالوا : نهيتنا فقال: خذوا كما كنتم تأخذون»(٥٤) . وهذه الرواية العملية تعني أن جباية العشور كانت مطبقة في هذه الفترة ، وان قيمة الجباية من العشور كانت كبيرة لدرجة انها اثرت تأثيرا بينا في وارد الجباية العامة الامر الذي دعاه الى اعادة فرضها بعد نية الالغاء ، وقد يعني ذلك ان التجارة كانت رائجة مزدهرة لذا كانت جبايتها كبيرة لكن ما قاله بعد ذلك المقدسي في كتابه احسن التقاسيم عن المكوس في بعض نواحي الجزيرة قد يرجح حجم الضريبة نفسها بل وثقلها فقال « فقد رووا انه يصل الى خزانة السلطان ثلث أموال التجار » (٥٥) .

ونسمع بورود اسماء بعض من عينوا على عشور الابلة ، كانس بن سيرين، ولكنه رفض هذا العمل فبين له انس بن مالك شرعية العشور (٥٦). كما يرد اسم خالد بن ثابت الفهمي الذي استدعاه عمرو بن العاص ليجعله على المكس لكنه استعفاه(٥٧). ويرد هذا ضمن الحديث عن النظرة السلبية للعشور .

وتعتبر فترة خلافة عمر بن عبد العزيز (٩٩ـ١٠١ هـ) غنية في الحديث عن العشور لكن وصفها بالمكوس يبدو أكثر وضوحا . ونسمع عن المكوس عندما ارسل الخليفة الى العامل على المكوس في مصر وهو زريق بن حيان اذ كتب اليه « انظر من مر عليك من المسلمين فخذ مما ظهر من أموالهم العين ومما ظهر من التجارات من كل اربعين

درهما درهما وما نقص فبحساب ذلك حتى يبلغ عشرين دينارا، فان نقصت تلك الدنانير فدعها ولا تأخذ منها شيئا واذا مر عليك أهل الذمة فخذ مما يديرون من تجارتهم من كل عشرين دينارا دينـارا فما نقص فبحساب ذلك حتى تبلغ عشـرة دنانير ثم دعها فلا تأخذ منها شيئا . واكتب لهم بما تأخذ منهم الى مثلها من الحول »(٥٨) .

ويجعل الشافعي فترة عمل زريق على العشور ايام الوليد وسليمان وعمر بن عبد العزيز مما يعني استمرارية التطبيق العملي لها(٥٩) . ويحدد المقريزي مكان عملـه انه كان « على مكـس ايلة في خلافة عمر بن عبـد العزيز »(٦٠) ، في حين يروي ابو عبيـد ان زريق بن حيان الدمشقي كان على جواز مصر ايام عمر بن عبد العزيز ولكنه يجعل موضوع كتاب الخليفة تجار اهل الذمة فقط دون ذكر تجار المسلمـين(٦١) . كما كتب عمر نفسه الى عـدي بن ارطـأه كتابا يأمره فيه بأخـذ العشور ثـم يكتب بما يأخذ البراءة(٦٢) التي يعرفها الخوارزمي بأنها « حجة يبذلها الجهبذ او الخازن المؤدي بما يؤديه اليه »(٦٣) وهنا لابد ان نشير الى الروايات التي تنسـب الى عمر بن عبد العزيز مهاجمة هذه الضريبة بشدة ثم الغاءها فقد ذكر صاحب سيرتـه عنه قوله : « وأمـا العشور فأرى ان توضع الا عن أهل الحرث فان أهل الحرث يؤخـذون بذلك »(٦٤). لكن هـذه اشارة واضحة الى عشور المحاصيل فقط ، وذكر ابن سعد عن الواقـدي انه « لما ولي عمر بن عبد العزيز وضع المكس عن كل ارض »(٦٥) ، واورد مالك في المدونة ان عمر كتب الى « عامل المدينة ان يضع المكس فانه ليس بالمكس ولكنه البخس »(٦٦). وذكر ابو عبيد ان كتاب عمر الى عدي بن أرطأة تضمـن امره له « وضع المكـس عن الناس(٦٧) ، كما كتب الى عبد الله بن عوف القاري : « ان اركب الى البيت الذي برفح الذي يقال له بيت المكس فاهدمـه ثم احمله الى البحر فانسفه فيه نسفا »(٦٨) . وهذا يعني ان مدينة رفح بين مصر وفلسطين كانت مركزا من مراكز جباية المكوس . ويعد ان اسهم المقريزي في الحديث عن مزاولة جباية العشور واحكامها ومـن عمل عليها علـق بقوله : « ومع ذلك فقد كان أهل الورع من السلف يكرهون هذا العمل » (٦٩).

ويبدو لنا أن مسألة التنفير من المكس انما هي تعبير عن معارضة سوء استخدام المنصب وسوء الجباية بعدم الالتزام باحكام العدالة وهذا نلمحه من نصيحة ابي يوسف للرشيد عند حديثه عن العشور بقوله : « واما العشور فرايت ان توليها قوما من أهل الصلاح والدين وتأمرهم ان لايتعدوا على الناس فيما يعاملونهم بـه ولا يظلمـون ولا يأخذوا منهم اكثر مما يجب وان يمتثلوا ما رسمناه لهم ثم تتفقد بعد امرهم وما يعاملون به من يمر بهم »(٧٠) . ويقول مرة اخرى: « فان عمر بن الخطاب وضع العشور فلا بأس بأخذها اذا لم يعتد فيها على النـاس ويؤخـذوا بأكثر مما يجب عليهـم »(٧١) ، فهو

لا يناقش شرعية هذه الضريبة ولكنه يشدد على قضية الالتزام بالصواب في طريقة الجباية ولعله علم بظلم الجباة وتعسفهم لذا وجه النصيحة لتلافي هذا العسف . وقد يكون جل الاعتراض على العشور مرده سوء تصرف العمال لا اعتراضا على المبدأ ، فكل المصادر التاريخية والفقهية تحدثت عن العشور واحكامها فنجد ابو يوسف مثلا يخصص فصلا بعنوان « فصل في العشور »(٧٢) ووضع قدامة بن جعفر بابا بعنوان « فيما يؤخذ من أموال تجار المسلمين وأهل الذمة والحرب التي يمرون بها على العاشر »(٧٣) .

ولكن ما هي احكام جباية العشور ؟

ابتداء يجب ان نشير الى اجماع المصادر الى انها تجبى من أموال التجارة على المسلمين وأهل الذمة وأهل الحرب(٧٤) ، كما تتفق أغلب الروايات على اشتراط النصاب ويشعرنا ابو يوسف بوحدة النصاب بغض النظر عن المكلفين فيقول في مجال حديثه عن تنظيم جباية العشور « واذا مر عليه بمائتي درهم مضروبة اخذ من ذلك ربع العشر من المسلم ونصف العشر من الذمي والعشر من الحربي ، ثم لا يؤخذ منها شيء الى مثل ذلك من الوقت وكذا اذامر بمتاع قد اشتري للتجارة فان كان المتاع يساوي مائتي درهم أو عشرين مثقالا اخذ منه وان كان لا يساوي وكانت قيمته تنقص عن مائتي درهم أو عشرين مثقالا لم يؤخذ منه شيء »(٧٥) . الا ان مالك بن انس ينفي اشتراط النصاب بالنسبة للذمي فقد اجاب عن سؤال هو « اذا خرج بمتاع الى المدينة فباع بأقل من مئتي درهم . ايؤخذ منه العشر قال نعم ، قلت : ايؤخذ منه مما قل أو كثر قال نعم »(٧٦). وهذا يعني أيضا أن رعايا الدولة الاسلامية يدفعون العشر ضمن حدود الدولة الاسلامية لان مالك يقول : « اذا اكرى الذمي ابله من المدينة الى الشام يؤخذ منه العشر .. لانه خرج من بلاده الى بلاد اخرى »(٧٧) . وهو لا يدفع ضمن حدود بلاده الاصلية لكنه اذا خرج الى مصر آخر من امصار الدولة الاسلامية فعليه الدفع . هذا بالنسبة للذمي وبالنسبة للمسلم أيضا فانه اذا « خرج من مصر بتجارة الى المدينة ايقوم ما في يديه فتؤخذ من الزكاة ، فقال لا يقوم عليه ولكن اذا باع ادى الزكاة »(٧٨) ، وهذا يعني انه مكلف بالدفع ضمن حدود الدولة الاسلامية . رواية اخرى يبدو انها تقع ضمن التطبيق العملي وليس ابداء رأي كما ظهر من الروايتين السابقتين اذ نجد في المدونة « حدثني ابن وهب عن ابن لهب ويحي بن ايوب عن عمارة بن غزيه حدثهما عن ربيعة(٧٩) ان عمر بن الخطاب قال لاهل الذمة الذين كانوا يتجرون الى المدينة ان تجرتم في بلادكم فليس عليكم في اموالكم زكاة وليس عليكم الا جزيتكم التي فرضنا عليكم وان خرجتم وضربتم في البلاد وادرتم اموالكم اخذنا منكم وفرضنا

عليكم كما فرضنا جزيتكم فكان يأخذ منهم من كل عشرين نصف العشر كلما قدموا من مرة ولا يكتب لهم براءة مما أخذ منهم كما تكتب للمسلمين الى الحول فيأخذ منهم كلما جاءوا وان جاءوا في السنة مئة مرة ولا يكتب لهم براءة بما أخذ منهم »(٨٠) . وهذا يتمشى مع مبدأ فرض الضريبة على أموال التجار لغير المسلمين لان المسلمين تكتب لهم البراءة لربط العشور بالنسبة اليهم بالزكاة التي لا تؤخذ من أموالهم الا مرة واحدة بينما يؤدي أهل الذمة الضرائب على تجارتهم ، فكل تجارة لهم يجب تعشيرها بغض النظر عن المرات التي يجرون بها على العاشر لان كل مرة يفترض ان يحمل التاجر معه مالا جديدا فلا ضرورة لان تكتب له البراءة في هذه الحالة لانها شهادة لدى المسلم انه ادى زكاة ماله لكن مأخذنا على هذه الرواية ان المسلم قد يمر أيضا بمال جديد فلا بد من تعشيره ولكن الربط بين العشر والزكاة هنا أدى الى اغفال مسألة مرور المسلم بمال جديد على العاشر . أما وضع الحربي فلا خلاف عليه من انه يدفع العشر « كلما دخل دار الاسلام حتى لو دخل وخرج عدة مرات في اليوم الواحد »(٨١) وانه يدخل دائما بمال جديد فلا بد من تعشيره .

أما مقدار جباية العشور فهو متدرج حسب المكلفين اذ جعلوه ثلاث طبقات مع ان التسمية العامة هي العشور .

فالمسلمون يدفعون ربع العشر (٥ر٢٪) وهذا ما ربط العشر بالزكاة بالنسبة لهم(٨٢)، وعلى أهل الذمة نصف العشر (٥٪) وأهل الحرب العشر (١٠٪)(٨٣)، وذكر مالك في المدونة انه فيما يتعلق بالتاجر الحربي وما يؤخذ منه على سبيل العشور « ليس في ذلك حد معلوم »(٨٤) ، وان المبدأ هو المعاملة بالمثل لذلك يجوز ان تزيد هذه الضريبة أو تنقص .

أما النصاب وهو الحد الادنى الذي تجبى منه العشور فيتبع حال المكلف ايضا، فنصاب المسلم اربعون دينارا الى العشرين « وليس فيما دون المائتين شيء »(٨٥) ، وقيمة نصاب الذمي عشرون دينارا الى العشرة(٨٦) . وذكر ابو يوسف على لسان زيادة بن حدير قوله « وما مر علي من شيء اخذت من حساب اربعين درهما درهما واحدا من المسلمين ومن اهل الذمة من كل عشرين واحد وممن لاذمة له العشر »(٨٧). هذا مع اعتقادنا ان النصاب قضية فقهية بالنسبة للذمي والحربي على الاقل فالرواية التي تتحدث عن تعشير تجار الذمة في المدينة ايام عمر تذكر العشر تارة ونصف العشر تارة اخرى(٨٨) ، وفيما يتعلق بجواز تفتيش الامتعة او عدم جوازه يبدو الخلاف نظريا ايضا(٨٩) ويستعاض عن التفتيش بالنسبة للمسلم والذمي بحلف اليمين كما فعل عشاروا السلسلة عبد الله بن معقل وحميد بن عبد الرحمن الحميري(٩٠) .

ونجد صدى لما يروى حول جباية عشور المحاصيل في رواية ابي عبيد « قالوا ، يؤخذ العشر من الصامت والمتاع والرقيق وما أشبه من الاموال التي تبقى في أيـدي الناس فانه اذا امر بالفواكه واشباهها التي لا تبقى في ايدي الناس فانه لا يؤخـذ فيها منه شيء »(٩١) . ونرى ان هذا رأي فقهي فأبو يوسف وقياسا على رأيه بزكاة المحاصيل يبين بوضوح ان التاجر اذا مر على العاشر بالعنب أو الرطب أو الفواكـه الرطبة قـد اشتريت للتجارة وبلغت النصاب أخذ منه العشر او نصف العشر او ربـع العشـر حسب مبدأ التكليف(٩٢) ، وترد احيانا اشارات الى اعفاء الملوك اذا مر بمال سيـده، أو المدين ، من العشور (٩٣) ..

وفي الاصل ان المال الواحد لا يعشر الا مرة واحدة قياسا على القصة التي تروى انهـا جـرت بين زيـاد بن حديـر والنصراني التغلبـي فقد مد زيـاد « حبلا على الفرات فمر عليه رجل نصراني ثم انطلق فباع سلعته فلما رجع مر عليه فأراد ان يأخذ منه فقال : كلما مررت عليك تأخذ مني ؟ فقال نعم »(٩٤) ، فرفع الامر الى عمـر بن الخطاب فأمر ان المال لا يدفع الا مرة واحدة ، والمقصود هنا ان نفس المـال لا يدفع الا مرة واحدة(٩٥) . ولكن اذا مر التاجر بتجارات مختلفة فيفترض ان يدفع عن كل مال يمر به على العاشر وليس كقصة صاحب الفرس التغلبي(٩٦) التي يشوبها الغموض فهل كانت الفرس اصلا للتجارة ، مما يوحي ان الغاية من القصة اظهار ان المال الواحد لا يعشر الا مرة واحدة . وبراي ابي يوسف ان « كل ما اخذ من المسلمين فسبيله سبيل الصدقة وسبيل ما يؤخذ من أهل الذمة جميعا وأهل الحرب سبيل الخراج »(٩٧) . ويبين يحيى بن ادم انه « ليس على أهل الذمة عشور الا فيما تجروا فيه »(٩٨).

ومما سبق يتبين للباحث ان العشور لم تكن ضريبة على التجارة الخارجية فحسب بل انها تعتبر ضريبة بينية أيضا اي انها ضريبة على التجارة الداخلية يدفعهـا المكلف ضمن حدود الدولة الاسلامية بل ان ذكرها كضريبة داخلية تكاد تطغى على التجـارة الخارجية ، واضافة لما مر علينا من شواهد فان لدينا دليل وثائقي يوضح بما لا لبس فيه انها اخذت كضريبة داخلية في مصر ففي رسالة من والي مصر قروة بن شريك مؤرخة سنة ٩١ هـ موجهة الى احد عماله في الصعيد يطلب فيها منه تشجيع التجار بارسال ما لديهم من القمح من الصعيد الى الفسطاط ويعلمه فيها انه اسقط عنهم المكس مقابل ذلك وكان الامر كما يلي : « فاني قد وضعت عنهم مكسه فليبيعـوه في الفسطاط وعجل ذلك فاني قد خفت غلاء الطعام في الفسطاط واني اذا وضعت للتجار مكسهم اصابـوا ربحا حسنا »(٩٩) . وفي رسالة اخرى مؤرخة في شهر ربيع الاول سنة ٩١ هـ مـن الوالي نفسه الى العامل يقول فيها حاثا التجار على احضار الطعام وهو القمح هنا ليباع

بالفسطاط « فاني قد أمرت صاحب المكس ان يعلم ما يقدمون به من ذلك فان الطعام نافق في الفسطاط ليس يقدم احد بطعام الا انفقه »(١٠٠) .

فهل من دليل أكثر قطعا انها ضريبة على التجارة الداخلية اضافة لما مر من روايات ، ولذلك فان اقوال البعض بشأن العشور انها لم تفرض على التجارة الداخلية ينقصها الكثير من الدقة(١٠١) لان رسالة الوالي لا تترك مجالا للشك ان المكس وهو عشور التجارة جبيت من الامصار الاسلامية على التجارة الداخلية بل وضمن الولاية الواحدة بعكس ما قيل فقهيا بان لا عشور عليهم اذا ما تجروا في بلادهم وأكثر من ذلك فان الرسالة تجعلنا نعتقد ان العشر على الذمة قد يصل الى اكثر من ٥٪ لان الوالي يصرح بأن اسقاط المكس يؤدي بالتجار لان يربحوا ربحا حسنا .

ونود ان نبين انه لا مجال لتحديد مقدار الضريبة وثائقيا في فترة صدر الاسلام، في حين ان المصادر المتأخرة تسهب في وصف هذه الجباية التي يبدو انها كانت ثقيلة ومرهقة الامر الذي دعاها الى اظهار شكواها من ثقل المكوس(١٠٢) حتى ان بعضهم عد من محاسن صلاح الدين الغاءه للمكوس عندما دخلت جيوشه مصر وكثيرا من مدن الشام(١٠٣) .

واخيرا تجدر الاشارة الى النقاط التالية في نهاية الحديث عن العشور :

- انها ضريبة معروفة في أسواق العرب قبل الاسلام ظهرت في التطبيق عند المسلمين ايام عمر بن الخطاب وعمل في جبايتها تابعون وفقهاء، وان الرأي السلبي نحوها انما يعبر عن الاحتجاج على عدم تقيد الجباة بالعدل خاصة وان هذه الضريبة اصبحت عبئا ثقيلا مع الزمن .

- انها ضريبة على اموال التجارة عامة يكلف بها المسلم والذمي والحربي .
- ان أكثر مراكز جبايتها (المراصد ، المآصر ، بيوت المكس) لم تكن مناطق حدود مع جيران الدولة الاسلامية بل ان جلها كان مراكز داخلية أو على سواحل البحار .

- الامر الهام هو توضيح انها ضريبة على التجارة الداخلية على الاكثر ، لذا فان شعور المكلف بثقلها كان أوضح لانها تجبى من رعايا الدولة الاسلامية .

- على الرغم وجود هذه الضرائب الا ان ذلك لا يعني ان الدولة الاسلامية لم تشكل وحدة ضريبية .

- ان الدولة الاسلامية قامت بفرض ضرائب جديدة بناء على تطور اوضاعها .

مصـــادر البحث(١)

ابن الاثير ، علي بن محمد الشيباني (ت٦٣٠) الكامل في التاريخ ، ١٢ ج ، دار صـــادر ــ دار بيروت ، بيروت (أوفست بريل ١٨٥٣) .

الاصفهاني ، عماد الدين محمد بن محمد ،(ت ٥٩٧هـ) ، البرق الشامي ، جـ٥، تح فالح صالح حسين ، مؤسسة عبد الحميد شومان ، عمان ١٩٨٧.

البسوي ، ابو يوسف يعقوب بن سفيان الفارسي (ت٢٧٧هـ) ، المعرفة والتاريخ ، جزءان ، تحقيق اكرم ضياء العمري ، بيروت ، مؤسسة الرسالة طبعة ثانية ١٩٨١،.

البلاذري ، احمد بن يحيى (ت٢٧٩ هـ) :

ــ فتوح البلدان ، تحقيق م. دي غويه . بريل١٨٩٥ .

ــ انساب الاشراف ، القسم الرابع الجزء الاول ، تح احسان عباس ، النشرات الاسلامية ٤/٢٨ ، المطبعة الكاثوليكية ــ بيروت ١٩٧٨ .

ابن جبير ، محمد بن احمد (ت٦١٤)، رحلة ابن‌جبير ، دار صادر ، بيروت ١٩٦٤ .

جروهمان ، ادولف ، أوراق البردى العربية بدار الكتب المصرية ، جـ ٣ ، ترجمة حسن ابراهيم حسن ، القاهرة ١٩٦٢ .

ابن حبيب ، محمد بن حبيب (ت ٢٤٥) ، المحبر ، تح ايلزة ليختن شتيتر . دار الافاق‌الجديدة ــ بيروت (اوفست مطبعة دائرة المعارف النظامية ــحيدر اباد ١٣٦٣) .

ابن حجر العقلاني ، احمد بن علي (ت ٨٥٢)،تهذيب التهذيب ، جـ ١٠ ، مطبعـة مجلس دائـرة المعارف النظامية ، حيدر آباد الدكن ، ١٣٢٧ هـ .

الحيدر ابادي ، محمد حميد الله ، الوثائق‌السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشـدة . دار النفائس ، الطبعة الرابعة ، بيروت ١٩٨٣ .

الخوارزمي ، محمد بن احمد بن يوسف (ت٣٨٧هـ) ، مفاتيح العلوم ، دار الطباعة المنيرية ــ القاهرة ١٣٤٢ هـ .

الرحبي ، عبد العزيز بن محمد (ت١١٨٤ هـ)، فقه الملوك ومفتاح الرتاج المرصد على خزانـة كتاب الخراج ، جزءان ، تح احمد عبيد الكبيسـي وزارة‌الاوقاف العراقية ، مطبعة الارشاد ، بغداد ١٩٧٣ــ ١٩٧٥ .

السرخسي ، ابو بكر محمد بن ابي سهل (ت ٤٩٠) ، المبسوط ، تح محمد راضي الحنفـي ، دار المعرفة ــ بيروت ، بدون تاريخ .

ابن سعد ، محمد بن سـعد (ت ٢٢٠ هـ) ،الطبقات الكبرى ، دار صادر ، دار بيروت (اوفست طبعة سخاو) ١٩٥٨ .

الشافعي ، محمد بن ادريس (ت٢٠٤هـ)، الام، ٨ج ، تح حمدي زهري النجار ، القاهرة ١٩٦١. ودار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، ط ثانية ١٩٨٣.

الطبري ، محمد بن جرير (ت٣١٠ هـ) ، تاريخ الرسل والملوك ، ١٠ج ، تح محمد ابو الفضل ابراهيم ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٦٦–١٩٧٠ .

ابن عبد الحكم ، ابو محمد عبد الله بن عبد الحكم (ت٢١٤) ، سيرة عمر بن عبد العزيز على ماروا مالك بن انس واصحابه . تح احمد عبيد المكتبة العربية – دمشق ، المطبعة الرحمانية – القاهرة ١٩٢٧.

ابن عبد الحكم ، عبد الرحمن بن عبد الله (ت٢٥٧) ، فتوح مصر واخبارها ، تح تشارلس توري، نيوهافن ١٩٢٢ .

ابو عبيد ، القاسم بن سلام (ت ٢٢٤ هـ)، الاموال ، تح محمد خليل هراس ، القاهرة ١٩٦٨ .

قدامة بن جعفر الكاتب (ت٣٢٩) ، **الخراج وصناعة الكتابة** ، تح محمد حسين الزبيدي ، وزارة الاعلام العراقية ، دار الرشيد للنشر ، بغداد ١٩٨١ .

مالك بن انس (ت١٧٩هـ)، المدونة الكبرى، ٦ج، اوفست ، مكتبة المثنى – بغداد ١٩٧٠ ، عن مطبعة بولاق – القاهرة ١٢٩٤ هـ .

الماوردي ، علي بن محمد بن حبيب (ت٤٥٠هـ) **الاحكام السلطانية والولايات الدينية**، البابي الحلبي، القاهرة ١٩٦٦ .

المقدسي ، محمد بن احمد البشارى (الفه ٣٧٥هـ) ، احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ، تح م. دي غويه ، ليدن – بريل ١٩٠٦ .

المقريزي ، تقي الدين أحمد بن علي (ت٨٤٥هـ)، الخطط المقريزية ، جزءان ، بولاق ، ١٢٧٠ هـ/ ١٨٥٣ م (اوفست ، دار صادر – بيروت).

ابن منظور ، ابو الفضل محمد بن مكرم، ت٧١١ هـ ، لسان العرب ، ١٥ جزءا ، دار صادر – دار بيروت (اوفست الجوائب ١٣٠٠ هـ) .

الحموي ، ياقوت بن عبد الله (ت٦٢٦هـ) معجم البلدان ، ٥ اجزاء ، دار صادر بيروت ، ١٩٧٩.

يحيى بن ادم القرشي (ت٢٠٣هـ) ، الخراج ، تح احمد محمد شاكر ، المطبعة السلفية ، طبعة ثانية، القاهرة ١٣٨٤هـ .

ابو يوسف ، يعقوب بن ابراهيم (ت١٨٢هـ) ، الخراج ، تح احسان عباس ، دار الشروق (بيروت– القاهرة ١٩٨٥) .

(١) في الهوامش ذكر لبعض المؤلفات الاخرى .

المراجع باللغات الاجنبيـــة

Aghnides, N.

Mohammedan Theories of Finance, Lahore - Pakistan, 1961, p. 336.

Becker, C.H.

— Papyri Schott - Reinhardt 1, Veroffentlichung aus der Heidelberger , Papyrussammlung II, Heidelberg, 1906 .

— **Ne e Arabische** Papyri des Aphroditofundes , Der Islam, B. II, 1911.

— Arabische Papyri des Aphrodtiofundes , Zeitschrift fur Assyriologie n. Ver . Gebiete, ZA, Vol. 20, 1907.

Heyd .w.

Geschichte des Levantehandels im Mittelalter,2 Vol Stuttgart. 1879.

Hussein, F.

Das Steuersystem in Agypten ..,Hos -3- peter lang,Frankfurt /M-Bern 1982 .

Encyclopaedia of Islam, New Edition, 1936, Art. Makcs Vol. 3, p. 176-177.

(١) Heyd, Wilhelm, Geschichte des Levantehandels im Mittelalter, Stuttgart, 1879, Vol. 2, p. 30-31.

(٢) الطبري ، تاريخ الرسول والملوك ، جـ ٣، ص ٥٩١، ٥٩٣ ، انظر : ابن الاثير، الكامل في التاريخ، جـ٢ ، ص ٤٨٦ .

ياقوت ، معجم البلدان ، جا، ص٤٣٢.

(٣) الطبري ، تاريخ ، جـ٣ ، ص ٥٩٤ ، ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١، ص ٤٨٧ .

(٤) البلاذري ، أنساب الاشراف ، قسم ٤ ، جـ١ ، ص ١٣٠

(٥) البلاذري ، انساب الاشراف ، قسم ٤ ،جـ١، ص ٤٥٩ .

(٦) انظر مثلا : محمود لاشين ، التنظيم المحاسبي للاموال العامة للدولة الاسلامية، دار الكتاب اللبناني، بيروت ١٩٧٧ ، ص ١٥٨ .

عبد الخالق النواوي ، النظام المالي في الاسلام ـ القاهرة ١٩٧٣ ، ط٢ ، ص ١٠٧ ـ ١١٥.

عون الكفراوي ، سياسة الانفاق العام في الاسلام ، الاسكندرية ١٩٨٢ ، ص ٢٩٨ـ٣٠١ . ابراهيم فؤاد احمد علي ، الموارد المالية في الاسلام، القاهرة ، دار الشرق ١٩٦٩، ص ٢٣٠ .

توفيق اليوزبكي ، دراسات في النظم العربية الاسلامية ، جامعة الموصل ، ١٩٧٩ ، ص ١٦٠ .

ضياء الدين الريس ، الخراج والنظم المالية للدولة الاسلامية ، القاهرة ، دار المعارف ، ط٣، ١٩٦٩ ، ص ١٣٨ـ١٣٩ .

علي الصوا ، ضريبة العشور في الدولة الاسلامية ، بحث قدم لندوة مالية الدولة في صدر الاسلام ، جامعة اليرموك ، نيسان ١٩٨٧.

(٧) في الاصل (السلام) وهي تصحيف .

(٨) الماوردي ، الاحكام السلطانية ، ص ٢٠٨.

(٩) قدامة بن جعفر ، الخراج وصنعة الكتابة، ص ٢٤١ . وانظر : ابو عبيد ، الاموال ، ص ٧٠٣ـ ٧٠٥ ، وانظر ما ذكروه في مجال كراهية المكس ابن عبد الحكيم ، فتوح مصر ، ص١١٢، ٢٣١، ٢٣٩ ،

(١٠) ابو عبيد ، الاموال ، ص ٧٠٧ .

قدامة ، الخراج ، ص ٢٤١ .

(١١) ابو عبيد ، الاموال ، ص ٧٠٩ .

(١٢) قدامة بن جعفر ، الخراج ، ص ٢٤١ ،انظر: صلح ثقيف ٢٦٩ ، وصلح نجران ص ٢٧٢، ولدى البلاذري ، فتوح البلدان ، ١٨٩٥ ، ص ٦٤ـ٦٥ . ابو يوسف ، الخراج ، ١٩٨٥ ، ص١٩٢ـ ١٩٣ . ابو عبيد ، الاموال ٢٧٣ ، ٢٧٧، ٧٠٧. ابن منظور، لسان العرب، ج ٤، ص ٥٧١ .الرحبي فقه الملوك ومفتاح الرتاج المرصد على خزانة كتاب الخراج ، جا ، ص ٤٨١ .

(١٣) ابن حبيب ، المحبر ، ص٢٦٥ ـ٢٦٦ .

(١٤) ابن حبيب ، ص ٢٦٣-٢٦٥ .

(١٥) ابن حبيب ، ص ٢٦٦.

(١٦) أبو يوسف ، الخراج ، ص٢٩٣ ، انظر يحيىبن ادم ، الخراج ، ١٦٦.

(١٧) ابو يوسف ، الخراج ، ص ٢٩٤ .

(١٨) انظر ياقوت ، معجم البلدان ،جـ ٥ ،ص٢٠٥- ٢٠٦ .

(١٩) الشافعي ، الام ، جـ٤ ، ص ٢١٧ . انظر :ابو عبيد ، الاموال، ص٧١١ ، المقريزي ، الخطط المقريزية ، ص١٢١ .

(٢٠) يحيى بن أدم ، الخراج ، ص٦٤.

(٢١) الشافعي ، الام ، جـ ٤ ، ص ٢١٧ ،انظر:ابو عبيد ، الاموال ، ص ٧١٨ .

(٢٢) ابو عبيد ، الاموال ، ص ٧١٣ . المقريزي،الخطط ، جـ٢ ، ص ١٢١ .

(٢٣) ابو عبيد ، الاموال ، ص ٧١٠ ، مع انه يذكر(ان ذلك في صلحهم) ص ٧٠٩ .

(٢٤) السرخسي ، المبسوط ، مجلد ٢ ، جـ ١،ص ١٩٩ .

(٢٥) ابن عبد الحكم ، عبد الله ، سيرة عمر بن عبد العزيز ، ص٩٩.

(٢٦) انظر : جروهمان ، أوراق البردي العربية،جـ ٣ ،ص ١٠ .

Becker, PSR 1, p. 53. Ency. of Islam Vol. 3, Maks, p. 176.

(٢٧) انظر : ابن منظور ، لسان العرب ، جـ٦،ص ٢٢١.

Becker, PSR 1, p. 64.

(٢٨) Ency, of Islam. Vol. 3, p. 176.

(٢٩) انظر : الشافعي ، الام ، جـ ٤ ، ص ٢١٧.يحيى بن ادم ، الخراج ٦٤ ، ابو عبيد ، الاموال، ص ٧١١-٧١٢ . المقريزي ، الخطط ،جـ٢،ص ١٢١ .

(٣٠) ابو يوسف ، الخراج ، ص ٢٩٦-٢٩٧.

(٣١) انظر : Becker. PSR 1, p. 53.

(٣٢) المقريزي ، الخطط ، جـ ٢، ص١٢١

(٣٣) الخوارزمي ، مفاتيح العلوم ، ص ٤٠ .

(٣٤) ابن منظور ، لسان العرب ، مادة مكس ، جـ٦ ، ص ٢٢١. انظر : المقريزي ، خطط ، جـ٢، ص ١٢١ .

(٣٥) ابن منظور ، لسان العرب ، مادة عشر ،جـ٤ ، ص ٥٧٠ .

(٣٦) المقريزي ، خطط ، جـ ٢ ، ص ١٢١ . ابن منظور ، لسان العرب ، مادة مكس ، جـ ٦،ص٢٢١.

(٣٧) ولذلك نستطيع القول ان فهم ما ينسب لرسول الله (ص) مثل (اذا لقيتم عاشرا فاقتلوه) أو (لا يدخل الجنة صاحب مكس) ابو عبيد،ص ٧٠٧ ، لا يكون الا في نطاق كراهية الفقهاء لهذه

الضريبة ربما نتيجة سوء تعرف الجباة في وقت لاحق ، خاصة اذا ما اعتبرنا قول الشاعر (وفي كل ما باع امرؤ مكس درهم) فمن سوء الجباية .

(٣٨) انظر : ابو يوسف ، الخراج ، ص ٢٧٠،٢٩٢–٢٩٤ . يحيى بن أدم ، الخراج ، ص ٦٤ . البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ١٨٣ . ابوعبيد ، الاموال ، ص ٧١١ . انظر : ٧٠٦ الرحبي، الرتاج ج٢ ، ص ٩٠ ، انظر : ص ١٧٣ .

(٣٩) ابو يوسف ، الخراج ، ص ٢٩٣ ، انظر :السرخسي ، المبسوط ، بيروت مجلد ١ ، ج٢ ، ص ١٩٩ .

(٤٠) ابن عبد الحكم ، فتوح مصر ، ص ١٠٩ ، انظر ٢٣١ .

(٤١) المقريزي ، خطط ، ج٢ ، ص ١٢٣ .

(٤٢) ياقوت ، معجم البلدان ، ج ٥ ، ص١٧٥.

(٤٣) ابو عبيد ، الاموال ، ص ٧٠٦ . انظر ابويوسف ، الخراج ، ٢٩٦ .

(٤٤) ابن سعد ، الطبقات الكبرى ، ج ٦، ص٨٤ ، انظر : البلاذري ، الانساب ، قسم ٤، ج١، ص١٩٩، انظرص ١٣٠ ، ابن حجر العسقلاني، تهذيب ، ج١٠ ، ص ١١١.

(٤٥) الرحبي، الرتاج ، ج٢ ، ص١٨٤.

(٤٦) الخوارزمي ، مفاتيح العلوم ، ص ٤٦ ، انظر:ابو يوسف ، الخراج ، ص ٢٩٦ ابن منظور ، لسان العرب ، مادة أصر ، ج٤ ، ص٤ ٢.

(٤٧) ابو عبيد ، الاموال ، ص٧٠٥ .

(٤٨) البلاذري ، أنساب قسم ٤، ج١ ، ص١٣٠.

(٤٩) الطبري ، تاريخ ، ج٩ ، ص ٢٦١ .

(٥٠،٥١) ابو عبيد ، الاموال ، ص ٧١٩–٧٢٠ .

(٥٢) البلاذري ، أنساب ، قسم ٤، ج١ ، ص١٩٩.

(٥٣) المصدر السابق ص ٤٥٩ .

(٥٤) ابو يوسف ، الخراج ، ص ٢٩٦–٢٩٧ . انظر : المقريزي ، خطط ، ج٢ ، ص ١٢٢، الحنفي الرتاج ، ج ٢ ، ص ١٨٥–١٨٦ .

(٥٥) المقدسي ، احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم، ١٩٠٦ ، ص١٠٤ ، هنا يجب ان نتذكر النظرة السلبية ضد المكوس على انها ظلم اوضرائب غير شرعية او كما سماها Aghnides « extra-Shariah taxes » في كتابه : **Mohammedan Theories of Finance , Lahore 1961**

(٥٦) ابو يوسف ، الخراج ، ص ٢٩٧، المقريزي، خطط ، ج ٢ ، ص ١٢٣ ، الحنفي ، الرتاج، ج٢، ص١٨٦–١٨٧ .

(٥٧) ابن عبد الحكم ، فتوح مصر، ص١١٢

(٥٨) ابو يوسف ، الخراج ، ص ٢٩٥-٢٩٦،انظر: المقريزي ، خطط ، جـ ٢ ،ص١٢٢ .

(٥٩) الشافعي ، الام ، جـ٧، ص ٢٤٥.

(٦٠) المقريزي ، خطط ، جـ٢، ص١٢٣.

(٦١) ابو عبيد ، الاموال ، ص ٧١٢ .

(٦٢) ابو عبيد ، الاموال ، ص٧١٨

(٦٣) الخوارزمي ، مفاتيح ،ص٣٧-٣٨.

(٦٤) ابن عبد الحكم ، سيرة عمر بن عبد العزيز،٩٩ .

(٦٥) ابن سعد ، الطبقات ، جـ٥ ،ص٢٥٤.

(٦٦) مالك بن انس ، المدونة ، جـ١ ، ص٢٧٩-٢٨ ، انظر : ابن عبد الحكم ، سيرة عمر بن عبد العزيز ، ص ٩٩.

(٦٧) ابو عبيد ، الاموال ، ص ٧٠٤ .

(٦٨) ابو عبيد ، الاموال ، ص ٧٠٢ ، انظـر : البسوي ، المعرفة والتاريخ ، جـ١ ، ص ٦٠٧ . الطبعة الثانية ، ١٩٨١ ، جـ١، ص٦٠٧.

(٦٩) المقريزي ، خطط ، جـ ٢ ص١٢٣

(٧٠) ابو يوسف ، الخراج ، ص ٢٨٨-٢٨٩،وانظر ايضا ص ١٥٢ ، ٢٦٩.

(٧١) ابو يوسف ، الخراج ، ص ٢٩٢ .

(٧٢) ابو يوسف ، الخراج ، ص ٢٨٨

(٧٣) قدامة بن جعفر ، الخراج ، ص ٢٤١ .

(٧٤) ابو يوسف ، الخراج ، ص ٢٨٩ . قدامة،الخراج ، ص ٢٤١ . السرخسي، المبسوط ، مجلد ١ ، جـ٢ ، ص ١٩٩-٢٠٠ .

(٧٥) ابو يوسف ، الخراج ، ص ٢٨٩ ، فيمايتعلق بالنصاب للحربي انظر ص ٢٩٠ ، اذ ان حد المائتي درهم هو الواجب توفره بالنسبةللجميع ولكن نسبة الدفع من المائتين هي المختلفة.

(٧٦) مالك بن انس ، المدونة ، جـ١ ، ص ٢٨٠،انظر ابو عبيد ، الاموال ، ص ٧١٤ .

(٧٧) مالك بن انس ، المدونة ، جـ١، ص ٢٨٠.

(٧٨) مالك بن انس ،المدونة ،جـ ١ ،ص٢٨١ ،انظر المقريزي ، خطط ، جـ٢ ،ص ١٢٢ .

(٧٩) قد يكون ربيعة بن شرحبيل بن حسنة اول صاحب مكس في مصر .

(٨٠) مالك بن انس ، المدونة ، جـ١ ، ص٢٨١.

(٨١) السرخسي ، المبسوط ، مجلد ١ ، جـ ٢،ص ٢٠١ ، انظر : ابو يوسف ، الخراج ، ص٢٩٠ - ٢٩١ ، يحيى بن ادم ، الخراج ، ص ٦٥،ابو عبيد ، الاموال ، ص٧١٨-٧١٩.

(٨٢) انظر : ابو يوسف ، الخراج ، ص ٢٩٢.ابو عبيد ، الاموال ،ص ٧٥٨-٧٥٩ . السرخسي ، المبسوط ، مجلد ١ ، جـ٢ ، ص ١٩٩ .

(٨٣) انظر ابو يوسف ، الخراج ، ص ٢٧٠، ٢٨٩، ٢٩٢-٢٩٤ . يحيى بن ادم ، الخراج ، ص١٦٩. ابو عبيد ، الاموال ، ص ٧٠٦، ٧٠٨ ، ٧١١. قدامة بن جعفر ، الخراج وصنعة الكتابة ، ص ٢٤١-٢٤٢ ، ٢٤٣، المقريزي الخطط ، جـ٢، ص١٢٢

(٨٤) مالك بن انس ، المدونة ، جـ١، ص ٢٨١ ، انظر يحيى بن ادم ، الخراج، ١٦٨-١٦٩ ، السرخسي المبسوط ، مجلد ١ ، جـ٢ ، ص١٩٩ .

(٨٥) ابو يوسف ، الخراج ، ص ٢٩٣.

(٨٦) ابو عبيد ، الاموال ، ص ٧١٦ ، انظر يحيى بن ادم ، ص ٦٦، انظر ايضا ص٦٥.

(٨٧) ابو يوسف ، الخراج ، ص ٢٩٢ .

(٨٨) انظر الشافعي ، الام، جـ٤ ، ص ٢١٧، ابوعبيد ، الاموال ، ص ٧١٨.

(٨٩) انظر ابو يوسف ، الخراج ، ٢٩٢، السرخسي ، المبسوط ، مجلد ١، جـ٢ ، ص ٢٠٠.

(٩٠) ابو عبيد ، الاموال ، ص ٧١٩-٧٢٠.

(٩١) ابو عبيد ، الاموال ، ص ٧١٤، السرخسي، المبسوط ، مجلد ١، جـ٢ ، ص٢٠٤-٢٠٥ .

(٩٢) انظر : ابو يوسف ، الخراج ص ٢٩١ ، أبوعبيد ، الاموال ، ص ٧١٤ .
المبسوط ، مجلد ١، جـ٢، ص ٢٠٢ .

(٩٣) انظر أبو يوسف ، الخراج ، ص ٢٩١ ، ٢٩٦، يحيى بن ادم ، الخراج ص٦٥. السرخسي .

(٩٤) ابو يوسف ، الخراج ، ص ٢٩٥

(٩٥) يحيى بن ادم ، الخراج ، ص ٦٤.

(٩٦) ابو يوسف ، الخراج ، ص ٢٩٤.

(٩٧) ابو يوسف ، الخراج ، ص ٢٩٢.

(٩٨) يحيى بن ادم ، الخراج، ص٦٤.

(٩٩) جروهمان ، أوراق البردى العربية ، جـ٣، ص٨، لوحة رقم ٢ .

Becker, Der Islam, Vol. 2, (Neue arabische Papyri des Aphrodito-fundes) p. 256.

Becker , Zeitschrift fur Assyriologie..Vol . 20, Arabische Papyri des Afroditofundes, p. 83.

Hussein, F. Das Steuersystem in Agypten... Bern 1982. p. 82.

(١٠٠) Becker, Papyri Schott - Reinhardt 1, Heidelberg. 1906 , p. 64; Das Steuersystem in Agypten, p. 82.

(١٠١) انظر الريس ، الخراج والنظم المالية ١٣٩، اليوزبكي ، دراسات ، ص١٦١.

(١٠٢) انظر مثلا المقدسي ، احسن التقاسيم ، ص١٠٤-١٠٥ ، ١٢٣-١٣٤ ، ٢١٣ . ابن جبير ، الرحلة ص٣٠-٣٩، ٤٥ ، ٥٤-٥٦ ، المقريزي ، خطط ، جا ، ص ١٠٤-١٠٥ .

Heyd, Geschichte... Vol. 2, p. 448 ff.
Ency. of Islam, Vol. 3, p. 177.

(١٠٣) الاصفهاني ، البرق الشامي ، جـ٥ ، ص٢٩، ١٠٥ ، ١٢١، ١٢٣، ١٣٢ ، ابن جبير ، الرحلة، ص ٤٥، المقريزي ، خطط ، جـ٢، ص١٠٤-١٠٥.

الإدارة الماليّة
في المملكة السوريّة السلوقيّة

د. مفيد رائف العابد

جامعة دمشق

تحولت الدراسات التاريخية الحديثةمؤخرا نحو المظاهر الاجتماعية والاقتصادية للعصور المختلفة ، بعد ما اشبع التاريخ السياسي عرضا وتفسيرا . وقد ساهم في هذا التحول عدة عوامل أولها غنى المكتبات بالدراسات السياسية التي افترقت حسب مدارس العرض والتفسير التاريخي ، مما ادى الى تشوش الفكر التاريخي ، وقلة الثقة بهذه الدراسات نتيجة لذلك . وثانيها قرب الدراسات الاجتماعية الاقتصاديةمن الواقع المعاش وسهولة اجراء الاسقاطات التاريخية التي تكفل مراقبة التطور التاريخي عبر العصور المتعددة . وثالثها ، مصداقية هذه الدراسات، أي الاجتماعيةالاقتصادية، وبعدها عن الهوى والتحيز بالمقارنة مع الدراسات السياسية ، فالمؤرخ الذي يتعامل مع المعلومة الاجتماعية الاقتصادية ، والتي نعتمد في استنباط معظم اجزائها على الاثار، يبتعد بحكم التخصص عن المعلومة السياسية التي قد تخضع في فترة من الفترات لهوى المؤرخ المعاصر او هوى الكاتب الذي يتحدث عنها .

لكن الدراسات الاجتماعية الاقتصادية ، على مصداقيتها وبعدها عن الهوى، لا تخلو من صعوبة تتجاوز في معظم الحالات صعوبة البحث في التاريخ السياسي . فهي متناثرة في المصادر تناثرا يجعل من الصعوبة بمكان الاحاطة بها جميعا . فنادرا ما كان المؤرخ في أي عصر من العصور ، وبخاصة في التاريخين القديم والوسيط ، يتجشم عناء الكتابة حول طريقة معيشة زوجين ، أو اية حادثة اقتصادية اجتماعية ، كانخفاض سعر القمح او ارتفاع سعر الفائدة ، او غير ذلك من الامور . فقد كانت مثل هذه الامور المعاشة يوميا اقل اهمية ،في نظر مؤرخ القديم والوسيط ، من أن يفرد لها صفحات أو فقرات في مؤلفه .

ولهذا يعتبر البحث في هذين الموضوعين عملا يحتاج الى صبر واناة كبيرين، كما يعتبر على جلال قيمته غير متكامل الصورةنظرا للنقص في الوثائق فيما يتعلقبالتاريخ الحضاري لاية فترة زمنية دون استثناء.

ويكاد مثل هذا القول ينطبق بشكل كبير على التاريخ الهلنستي ، وبشكل اخص على تاريخ سورية في تلك الفترة ، وبشكل أكثر تخصيصا على الادارة المالية التي لا تكاد المعلومات المتوافرة عنها تصل الى نسبة العشر قياسا على مثيلاتها في تاريخ مصر في العصر البطلمي . ولهذا السبب درج مؤرخو الفترة على اجراء مقارنات مع المعلومات المتوافرة عن مصر ، بناء على مقولة منطقية وهي ان التشابه في النظم والتسميات السياسية لابد أن يستتبعه تشابه الى حد ما في التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية ، وبخاصة ان ملوك مصر وسورية انحدورا من منطقة واحدة هي مقدونية ، وان الدولتين متجاورتين وان مناطقهما خضعت في فترة سابقة ولمدة طويلة لحكم امبراطورية واحدة هي الامبراطورية الفارسية .

وعلى هذا سندرج في هذا البحث ، على ما درج عليه المؤرخون المعنيون ، في حين سنحاول الاكتفاء بالاشارة الى ما لم يرد له ما يماثل المعلومات من مصر البطلمية .

اولا ـ التنظيمات والسياسة المالية :

بالرغم من اعترافنا السابق بتعذر تبين معالم النظم المالية في سورية بالوضوح نفسه الذي تيسره وفرة المصادر البطلمية ، وما يمكن ان يقال من ان اتساع رقعة الامبراطورية السلوقية وكثرة اوجه النشاط العسكري والعمراني التي حفلت بها الفترة ، ادت الى انه لم تتوافر لمعظم ملوك سورية فرص كافية للعناية بالنواحي التنظيمية ، فانه لا يمكننا ان نتصور ان هؤلاء الملوك قد اخلدوا الى السكينة بعد خوض حروبهم ، وانهم لم يقدموا على وضع اسس جديدة للادارة المالية في امبراطوريتهم او على اقل تقدير ، تطوير الاسس القديمة لهذه الادارة في الاقاليم الرئيسة الثلاث (سورية وبابل وآسية الصغرى) والتي كان لكل منها مقومات اقتصادية تختلف وتتشابه .

واذا كان من المؤسف اننا لا نستطيع تبيان خطوات كل ملك سوري في تلك الفترة لان تقص معلوماتنا عن التنظيمات المالية الفارسية ، التي لا نستطيع ان نتبين معالمها بشكل واضح قبل انطيوخس الثالث (٢٢٣ ـ ١٨٧ ق.م)«(١)» يزيد الامر غموضا ، فاننا على الاقل نستطيع ان نعرض عموميات النظام ، ونبدأ البحث في الادارة المالية.

١ ـ الادارة المالية :

كانت الادارة المالية في سورية السلوقية تسمى (تو باسيليكون)(٢) to Basilikon وتعني (الملكية) باليونانية ، في حين احتفظت الخزانة الملكية بالاسم الفارسي

(غازو فولاكيون) Gazophylakion ويعني (خزانــة الدولــة) (٢). وقــد اختلفت التنظيمات المالية في مصر عنها في سورية تحديدا في ان فروع المصرف الملكي في مصر كانت منتشرة في كافة مراكز المملكة الادارية صغيرها وكبيرها . في حين اقتصر وجود بيـوت المال في سورية على بعض القلاع الحصينة . وهذا ما تؤكده حادثتان أولاهما انــه في سنة ٢٤٦ ارسل سلوقس الثاني رسالة الى مسؤول بيت المـال في قلعــة (سولوي) Soloi في كليكية(٤) يأمره فيها بتسلم مبلغ (١٥٠٠) (تالانت = وزنة) وهو ثمن ارض باعها الملك(٥). وثانيهما ما يذكره المؤرخ بلينيوس من ان حصيلة الجزية التي جمعت من اقليم بكامله اودعت في قلعة مدينة (كافرينا) Kaphrena على نهر الفرات(٦) .

ويبدو ان الفوارق في نظم الحسابات بين سورية السلوقية ومصر البطلمية تكمن اساسا في طرق الجباية المعتمدة في المملكتين . فقد كانت الجباية عند البطالمة تعتمد على نظام المزرعة المراقبة من قبل الدولة(٧) . ولهذا كان الفلاح المصري يدفع ضرائبــه في احد فروع المصرف الملكي ، في حين كانت المسؤولية الضريبية في سورية والاقاليم التابعة لها جماعية ، وبالتالي كانت القرى والمراكز توردها الى الصناديق الملكية في القلاع آنفة الذكر ، وهذا ما يرجحه قيام الكاهن الاكبر اليهودي في بيت المقدس بجمــع الجزيــة المفروضة على رعيته وايداعها الصندوق الملكي(٨) .

ويميز الكتاب الثاني من مجلد « الاقتصاد » بين ادارتين ماليتين اعتمدتا في آسية الغربية عموما في بدايات العصر الهلنستي ، واحدة تتبع الادارة المركزية مباشرة وثانية تتبع المراكز والساترابيات (أي الولايات او المرزبانات) ، ويوضح الكتاب نفسه الموارد الخاصة بكل ادارة منهما . ويبدو ان الاسكندر وقادته قد اعتمــدوا هذا النظــام ذا الاصول الفارسية ، اذ بموجبه طالب انتيغونس القائد سلوقس بتقديم تقرير ادارتــه المالية في ولاية بابل(٩) .

وفي وقت لاحق يصعب تحديده عدل الملوك هذا النظام وتشددوا في مركزيتهــم المالية لدرجة أصبحت جميع الضرائب التي يجمعها الولاة (الساتربة مفردها ساتراب) . تسلم الى الخزينة المركزية مثلها في ذلك مثل ضرائب الارض والجمارك والاشخاص. وتثبت الوثائق اليهودية والوثائق المالية المكتشفة في بابل ما سبق ذكره ، حيث مهرت جميعها بشعار المرساة الملكية(١٠) ،على عكس الوثائق غير المالية التي كانت تمهر بشعارات الساتراب المحلي .

٢ ــ مدراء الماليــة :

كان الملك في سورية كنظيره البطلمي في مصر يتربع على قمة الادارة المالية، وينوب

عنـه في رئاسـة هـذه الادارة موظـف يدعـى (هو أيبي تـون بروسـودون) ho epi ton Prosodon (١١). الذي يرأس بدوره سلسلة من الموظفين الذين يمثلونه في الاقاليم ويحملـون في بعض الحالات اللقب نفسـه(١٢) ، كما في مدينـة سوسـة ومقاطعة كيليكية(١٣) .

والى جانب نائب الملك للشؤون المالية هذا ، عملت مجموعة من المساعدين حمل كل واحد من أفرادها لقبا حمله وزير المالية البطلمي وهو (ديويكيتيس) Dioikitis . وقد ورد هذا اللقب في عدد من الوثائق أولها تعود الى فترة سلوقس الاول(٣١٢ــ٢٨٠) الذي أرسل موظفا بلقب ديويكيتيس الى مقاطعة البونتوس (شمال آسية الصغرى) بعـد ضمها الى سورية اثر انتصاره على لوسيماخوس(١٤) . وثانيها ورد في رسالـة بعث بها انطيوخس الثالث الى مدينة (نوسا) Nysa (١٥) ، وثالثها في رسالة موقعة باسم انطيوخس الثاني(١٦) . ولا يعرف على وجه الدقة طبيعة المهام التي أوكلت الـى حملة هذه الالقاب وان كان يرجح قيامهم بالاشراف الدائم أو المؤقت على الامور المالية في الاقاليم .

وتشير رسالة من فترة حكم انطيوخس الثاني الى موظف مالي آخر يحمل لقبـا هو (الايكونوموس) Ekonomos وتعني (المدبر) . وباستثناء ما تنبئنا بـه الرسالة من أن هذا الموظف اشرف على مفاوضات بيع الملك احدى اراضيه الى زوجه او مطلقته (لاوديكيا)(١٧) فاننا لا نعرف طبيعة عمل هذا الموظف بالتفصيل اللهم الا اذا اضفنا الى معلوماتنا عنه ما يفيد ، من الرسالة نفسها ، ان الايكونوس تلقى أمرا من موظف يدعى (متروفانس) Metrophanes اضطره الى دفع تكاليف نقش عقد البيع على الحجز . ولما كان نص الرسالة لا يوضح عمل متروفانس هذا ، فان من المرجح ان يكون (ساترابا) او (ديويكيتس) . كما ترجح صيغة النص نفسه ان يقوم الايكونوموس فيما بعد بتوجيه أمر الى (الهوبارخوس) ــ وهو المسؤول عن أصغر وحدة ادارية فيسورية السلوقية ــ ليقوم بتسليم قطعة الارض المبيعة الى صاحبتها الجديدة(١٨) .

ويبدو ان الهوبارخوس كان الموظف الوحيد الذي خضع للادارتين الاداريةوالمالية على حد سـواء ، على اعتبار أن الهوبارخية هـي أصغر الوحدات الادارية في تقسيمات الدولـة(١٩) ، وبما انـه لا يتفرع عن هذه الوحـدة الصغرى وحدات أصغر ، فعليهـا يعتمد جهاز الدولة في تنفيذ القرارات والتوجيهـات المركزية الاداريـة والمالية وحتى العسكريـة .

٣ ــ قواعد واستثناءات مالية :

تبين نصوص في المصادر اليهودية بعض الجوانـب الغامضـة في الادارة الماليـة

السلوقية وبخاصة ما يتعلق منها بنظام (الادايراتيو) Adaeratio الذي شاع في عدد من الممالك الهلنستية ، والذي بمقتضاه كان الملك يستبدل النقود بالضرائب العينية ، وهذا ما تثبته حادثة قبول انطيوخس الثالث استبدال ما يوازي قيمة الذبائح والزيوت المخصصة لبيت المقدس نقدا (٢٠). ويبين النص نفسه استثناء ما بأن الحنطة والملح سلمتا عينا الى المعبد ، الامر الذي يسمح بالافتراض ان الدولة كانت تحتكر مناجم الملح أو انها على الاقل كانت تتسلم بعض الضرائب المفروضة على المناجم عينا(٢١). كما يتضح من ذات النص ان الادارة المالية كانت ، كمثيلتها البطلمية ، تعتمد مكيالا خاصة في تقدير كمية الحبوب الضريبية ينقسم الى وحدات اصغر(٢٢) .

ومن خلال ما يذكره سفر المكابيين الثاني من أن سلوقس الرابع تعهد مرة بتأمين نفقات الشعائر الدينية في بيت المقدس من موارده الشخصية(٢٣) ، يمكن الافتراض أيضا بوجود جهاز مالي خاص بالملك ، وميزانية منفصلة عن ميزانية الدولة ، وهو نظام اشبه ما يكون بنظام (الايديوس لوغوس) Idios Logos في مصر البطلمية(٢٤)، ويمدنا سفر المكابيين الاول بمعلومات اضافية عن هذا النظام وذلك من خلال خطاب ارسله دمتريوس الاول الى المعبد نفسه يهبه فيه خمسة عشر الف وحدة من الفضة سنويا ، ويطلب فيه من الادارة المالية المركزية اقتطاع هذا المبلغ من حساب الملك في الامكنة المناسبة(٢٥) . وهي حادثة تؤكد معلومة اخرى وهي وجود حصة للملك في الفروع المالية المتعددة في الامبراطورية .

وعلاوة على ذلك توضح نصوص اخرى سلطات الملك المالية المطلقة التي تتعدى حدود ميزانيته الخاصة ، وبخاصة في حالة انعامه على من يشاء دخلا معينا، أو التخلي بصورة كاملة عن مصدر من مصادر الدخل الخاصة أو العامة لصالح شخص أو هيئات معينة ، وذلك من خلال ما يذكره سفر المكابيين من أن انطيوخس الرابع منح مرة اخرى خليلاته دخل بعض المدن التابعة لاقليمي (تارس) Tarse و (مالوس) Mallos (٢٦). وأن دمتريوس الاول وقف مدينة (بطلماية) ptolemais (عكا وضواحيها)(٢٧) لصالح معبد بيت المقدس .

ومن جهة اخرى وعلى مستوى آخر كان الملك يمن باعفاءات ضريبية محددة على الافراد والجماعات والمدن . وهذا ما توضحه لنا مجموعة من الحوادث اهمها حادثة منح سلوقس الثالث جزيرة رودوس اعفاء من الضرائب ، وحادثة تخصيص بعض الفئات في بيت المقدس بامتيازات ضريبية في عهد انطيوخس الثالث ، واعفاء سكان المدن بكاملهم من ثلث الجزية المفروضة على المدينة . واخيرا رغبة عدد من الملوك

المتأخرين في اصـدار اعفاءات محـددة بفترة زمنيـة لصالح عـدد من المدن اشهرها (نوسا) واروتري Erythree (٢٨) .

وتعتبر المعلومات المتوافرة عن الضرائب المفروضة على بيت المقدس في الفتـرة مدار البحث نموذجية بالمقارنة مع غيرها من المعلومات الضريبية من مناطق اخـرى . ولهذا نجد انفسنا ــ رغم التكرار أحيانا ــ مدفوعـين الى استعراض هـذه الضرائب لايضاح جوانب الفكرة .

تذكر المصادر من الفترة نفسها ان انطيوخس الثالـث بعد استيلائـه على بيت المقدس طالب سكانها بضرائب عدة يمكن اجمالها ضمن ثلاثة تقسيمات رئيسة ، أولها، جزية عامة اجمالية(٢٩) يبدو انها كانت تفرض على المجتمـع اليهودي بأسره ، وثانيهـا ضرائب مباشـرة بما فيهـا ضرائب الاشـخاص (٣٠) ورسـوم الملـح (٣١) وضريبـة التاج(٣٢) . وثالثتها ضرائب غير مباشرة(٣٣) ، في حين اعفى مرسوم المطالبة الضريبيـة كبار الكهنة من سداد الضرائب المباشـرة(٣٤) ، وخصـص معبد المدينـة المقدسة ببعض المساعـدات(٣٥) .

ويبدو أن مقدار الجزية وحتى بعض الضرائب الاخرى وكيفية ونوعية دفعهـا كان يتفاوت بين فترة واخرى حتى ولو كانت قصيرة ، اذ تذكر المصادر اليهوديـة ان المنافسة على منصب الحبر الاعظم بين المرشحين رفع الجزية مـن (٣٠٠) الى (٣٩٠.٠) تالانت(٣٦) ، كما ادى تمرد المكابيـين الى ضم بعض اراضـي المنطقـة الى الارض الملكية (٣٧). وعندما اعتمد اسـكندر بالاس تعيين (يوناثان المكابي) كاهنا أعظم سـنة ١٥٢ وافق الاخير على ان يدفع اليهود ضرائبهم على النحو التالي : اولا ، الجزية اضافة الى ضريبة باهظة على الممتلكات(٣٨) ، ثانيا ، ضريبة الملح وضريبة التاج اضافة الى ضريبة مناجم الملح(٣٩) ، ثالثا ، ضريبة العشر على الزراعة اضافة الى ضريبة مرور البضائـع التجارية(٤٠) ، رابعا ، ضريبة التحاق الكهنة(٤١) بالسلك الكهنوتي ، في حـين علقت المساهمات الملكية في نفقات الشعائر الدينية وصيانة الهيكل(٤٢) .

وفي مجال الاعفاءات ، يعتقد من خلال توافر المعلومات انه لم تحصـل طائفة او مدينة أو اقليم على اعفاءات تفوق تلك التي حصل عليها اليهـود في الفترة المتأخـرة من تاريخ الحكم السلوقي للمنطقة . فقد حصل يوناثان المذكور انفا على عفو مـن جميـع الضرائب اصدره دمتريوس الاول ، ولكنه التزم في مقابل ذلك بدفـع جزيـة سنوية مقدارها (٣٠٠) تالانت = وزنة(٤٣) ، وعندما تأخر يوناثان عن الدفع طالبت الحكومـة

خليفته سمعان بجميع الضرائب المستحقة(٤٤) . على ان اليهود ما لبثوا ان حصلوا على اعفاء دام طويلا في عهد دمتريوس الثاني سنة ١٤٢ ، اذ يذكر سفر المكابيين الاول ان الملك تخلى عن جميع الضرائب التي فرضها اسلافه على بيت المقدس(٤٥) ، وتحررت الطائفة على حد قول المصدر نفسه من نير الوثنيين . وقد ثبت انطيوخس السابع هذه الاعفاءات ولكنه في مقابل ذلك طالب المكابيين بدفع جزية خاصة(٤٦) عن المناطق التي استولوا عليها جنوبي سورية .. وقد تعهد (يوحنا هركانوس) Jean Hyrkanos خليفة الكاهن الاعظم سمعان بعد هزيمته بدفع هذه الجزية التي بلغت ٥٠٠ وزنة(٤٧). ولم يتحرر هركانوس من هذا الالتزام الا بعد الكارثة العسكرية التي لحقت بأنطيوخس السابع على ايدي البارثيين سنة ١٢٩.

ثانيا ـ العائدات النظامية للادارة المالية :

وتجمع كتلة المصادر بين ايدينا على ان عائدات الادارة المالية انقسمت ، مثلها في ذلك مثل اية امبراطورية من امبراطوريات العالم القديم ، الى قسمين: اولها العائدات النظامية وثانيها العائدات الاستثنائية .

والعائدات النظامية هي التي كان يمكن للادارة المالية تقديرها في حالة السلم وتبيان بنودها وكمياتها بشكل اقرب ما يكون الى الدقة . ويجدر بالذكر في هذاالمجال أن ننوه ـ بناء على ماسبق ذكره في مجال الحديث عن توافر المعلومات ـ الى وجوب ملاحظة ان الوسائل المعتمدة للحصول على العائدات النظامية قد لا تكون واحدة في كثير من الحالات في كل اقاليم ومدن الامبراطورية(٤٨) ، وعليه فان المعلومات التي سنعرضها والتي سنلاحظ تبعثرها بين عدد من المصادر قد لاتشكل بالضرورة قيمة في غير الاقليم او المدينة التي يخصها الحديث .

آ ـ الفوروس Phoros :

ويأتي الفوروس(٤٩) في مقدمة اهم الرسوم المالية التي تعتمد عليها ميزانية الامبراطورية ، اذ اعتبر المساهمة الاولى التي كانت الوحدات السياسية المرتبطة بالملك تقدمها له ، ويعود فرضه تاريخيا الى عهد دارا الاول(٥٠) واستمر حتى الفترة الرومانية .

وكانت الادارة المالية السلوقية تتبع في جباية الضرائب الاساسية قاعدتين رئيستين(٥١) ، أولاهما ان هذه الضرائب كانت تفرض على الجماعات(٥٢) في المدن والاقاليم والقبائل ، وهذا ما تثبته مصادرنا في قيام السلوقيين بفرض الفوروس على المدن الاغريقية في آسية الصغرى(٥٣)، تماما كما فرضت على السلالات الحاكمة مثل

(اكسركسس الارموساتي) Xerxes of Armosata(٥٤) في آسية الصغرى أيضا. وكذلك على الشعوب والمدن اليهودية والسامرية في فلسطين (٥٥)، او القرى الكبرى التي طبعت بالطابع الهليني مثل (جازارا) Gazara و (يوبي = يافا ؟ Ioppe في فلسطين، والمدينة الهلينية التي انشأها انطيوخس داخل بيت المقدس(٥٦).. والقاعدة الثانية، ان الجزية المفروضة على مدينة أو اقليم أو قبيلة كانت توزع على البلديات او الاقسام الرئيسة في تقسيمات الكتلة الكبرى بحسب الحصة المتفق عليها مسبقا ، والتي لم يكن يطرأ عليها أي تعديل لمدة غير محدودة من السنين سواء كانت رخية ام عجافا . ويبدو ان هذه القاعدة كانت مجحفة بحق كثير من المواطنين في بعض السنين لدرجة دعت الرومان الى المفاخرة بعد ذلك بعشرات السنين بأنهم استبدلوا بضريبة الفوروس الثابتة ضريبة العشر ، على الاقل بالنسبة للانتاج الزراعي(٥٧) .

ويبدو ان الحصص المترتبة على كل منطقة لم تكن تتأثر بالتبدلات الادارية او السياسية الخاصة بهذه المنطقة ، وهذا ما توحي به حادثة الحاق ثلاث دوائر ادارية ببيت المقدس سنة ١٤٥ دون فرض اية ضريبة اضافية على ادارته المالية(٥٨) ، وكذلك حادثة مطالبة انطيوخس السابع الكاهن الاكبر (يوناثان) بضريبة الفوروس عن المدن التي احتلها اليهود بالقرب من بيت المقدس مع مراعاة عدم المس بحصانة بيت المقدس الضريبية(٥٩) التي كانت قد حصلت عليها قبل ذلك .

والجدير بالذكر ان ضريبة الفوروس كانت مبلغا ثابتا ، وان كان من المؤسف ان كل مصادرنا من الفترة السلوقية لا تعطينا الا ارقاما تخص داخل سورية بعد استردادها من البطالمة . وقد مر معنا كيف ان المنافسة على رتبة الحبرية ادت الى رفع المبلغ من ٣٠٠ الى ٣٩٠ وزنه في عهد انطيوخس الرابع ، ولكنها عادت وانخفضت بعد التمرد المكابي الشهير . ويمكن في هذه الحالة على الاقل مقارنة هذه المبالغ بالجزية التي فرضها دمتريوس بن انيتيغونس على مدينة (اروتري) في آسية الصغرى والتي بلغت ٢٠,٠٠٠ وزنة(٦٠) .

ويظهر ان الادارة المالية السلوقية قد سمحت ، اعتمادا على قواعد الجباية الفارسية ، لبعض القبائل والممالك المحلية بأداء الفوروس كله أو جزء منه بشكل عيني . وعلى هذا تسلم انطيوخس الثالث من (*اكسركس الارموساتي*) *ما تأخر من* مدفوعات الفوروس الخاصة بمنطقته على النحو التالي : ٣٠٠ وزنة من الفضة و ١٠٠٠ راس من الخيل و ١٠٠٠ دابة اخرى(٦١) . ويحتمل والحالة هذه ان الفرسان في الجيش السلوقي كانوا يحصلون على خيولهم من مقاطعة ميدية باسم الفوروس(٦٢) كما درج عليه سلاح الفرسان زمن الدولة الفارسية .

وتجمع المصادر على انه لم تعف اية وحدة ادارية سلوقيــة من دفــع الفوروس الا بنتيجة امتياز خاص كان يمنح لها من قبل الملك بالذات بعد تكليفها بدفعه . ويوضح هذا الاجماع قرار مجلس الشيوخ الروماني الناظم للاحوال الادارية في آسية الصغرى بعد معاهدة افامية ، اذ يميز القرار بوضوح بين المدن الاغريقية التابعة للملك انطيوخس والمدن المعفاة من دفع الفوروس في الفترة السلوقية السابقة(٦٣) .

وتبين نقوش من مدينة ازمير Smyrna ان المدينة وضواحيها حصلت على اعفــاء ضريبي من الملك سلوقس الثاني (٦٤) مكافأة لها على موقفها خلال حرب لاوديكيا . كمــا تبين مصادر اخرى ان كلا من انطيوخس الثاني والاول جددا الاعفاءات الضريبية التي كان الاسكندر الاكبر قد خصها بمدينة (اروتري)(٦٥) . وتعتبر المصادر اليهودية الاعفاء الضريبي الذي منحهم اياه دمتريوس الثانــي بدايــة استقلالهـم الفعلـي في مناطــق سكناهم(٦٦) .

وبناء على ما سبق يعتبر الفوروس من وجهة نظر معاصرة مساهمة حربية دائمة من وحدات الامبراطورية . او على حد قول (شيشرون) « ثمن النصر وتعويض عــن الحرب »(٦٧) ، او بمعنى آخر علامة الخضوع الملموسة . ويؤكد هذا التعليل تفسير المصادر حادثة قيام انطيوخس (هيراكس) Hierax بغزو فروجية الكبرى برغبته في فرض جزية الفوروس على سكان المقاطعة(٦٨) ، وكذلك مطالبة انطيوخس الثالث كل مدن آسية الصغرى(٦٩) وامراء آسية العليا(٧٠)، الذين استقلوا عن الدولة في عهــود أســلافه ، بدفع جزيــة الفوروس بمفعول رجعي . وأيضا اعلان انطيوخس الســابع استعداده للاعتراف بسلطة الملــك البارثي على اقاليمــه شريطــة قيام الاخير بدفــع الفوروس(٧١) .

ولم تكن الوحدات الادارية ذات الاستقلال المحلي فقط مطالبة بدفــع الفوروس وغيرها من الضرائب الى بيت المال الملكي ، اذ تؤكد عدد من نقوش آسية الصغرى ان الوحدات الصغرى حتى ولو كانت مجاورة للارض الملكية العامة كانت مطالبة بدفــع مبالغ اجمالية محددة ، بدون تحديد اسم لها . فمثلاكانت مجموع القرى التي وضعت تحت تصرف احد القادة الدعو (منسماخوس) Mnesimachos تدفع مبلغا سنويا ، وتبين النقوش نفسها ان احدى هذه القرى وتدعى (ايلوس) Iloss كانت تدفع سنويا ما لا يقل عن ثلاث دراخمات ذهبية وثلاثة اوبولات(٧٢) .

وواضح ، ان الفوروس كان دوما ضريبة جماعية يكلف رؤساء الجماعات بتأديتها نيابة عن مرؤسيهم . وهذا ما تؤكده بشكل غير مباشر مجموع الحوادث سابقة الذكر ،

اضافة الى حادثة يوردها سفر المكابيين(٧٣)، حين يذكر ان الكاهن الاكبر اليهودي (ياسون) ارسل مرة احد اعوانه المدعو (منلاوس) الى الملك لدفع ما ترتب عليه من ضرائب(٧٤) .

وبناء على ما سبق استعراضه ، يمكن الافتراض او الترجيح بأن الحكومة المركزية لم تكن تأبه كثيراً بالوسائل التي تلجأ اليها اية وحدة ادارية تابعة بهدف دفع ضرائبها، وهو الامر الذي ترتبت عليه بالتالي نتيجة سياسية عامة ، وهي ان الدولة في عدم تدخلها في الشؤون المالية للمجتمعات المرتبطة بها ولا في كيفية اتفاق العناصر الصغرى في هذه المجتمعات على تأدية هذه الالتزامات ، واقتصار علاقاتها على اعيان هذه المجتمعات الذين كانوا يعزون قسوتهم المالية الى الحكومة المركزية ، قد ادى الى تشويه سمعة الحكومة بشكل غير مباشر . وهو افتراض يؤيده حادث استدعاء قائد القلعة السلوقي في بيت المقدس للكاهن منلاوس والطلب اليه المثول امام انطيوخس الرابع للدفاع عن نفسه بتهمة التقصير في دفع التزامات اليهود المالية(٧٥) .

ونظرا لثبات الارتباط المالي الاول في بداية تكوين المؤسسات المالية للامبراطورية، فقد كانت المجموعات المرتبطة بالسلطة تحافظ على استقلال مالي واضح . وعندما كان الملك يفرض ضريبة جديدة كان ذلك يشكل عبئا اضافيا الى الجزية أو الضريبة العامة ولا يندمج فيها . وهذا ما تؤكده حادثة اعفاء انطيوخس (الاول او الثاني)مدينة (اروتري) من « الجبايات المتعددة والضريبة المفروضة بعد حرب الغال »(٧٦) . وكذلك القرار الصادر عن المدينة نفسها والذي يوضح الضريبة باسم « الرسم الغالي » والذي اشرف على جبايته احد القادة الملكيين(٧٧) .

وتفيد المعلومات في كتاب (الاقتصاديات) ان مثل هذا النظام أو هذا الثبات في مقدار الجزية الرسمية كان مطبقا في عدد من مدن الاغريق وبلاد فارس . اذ لم يكن حلفاء الاثينيين في العصر الكلاسيكي يساهمون بأكثر من الجزية أو المساهمة الجماعية المحددة لكل مدينة . في حين كان موظفو الجباية الفرس يجمعون لصالحهم الخاص الى جانب الجزية المحددة ضرائب تحت أسماء مختلفة كضرائب العشر والاشخاص والحرفيين(٧٨) ، دون ان يتمكنوا من اضافة اية نسب على الضرائب المحددة .

وقد درج الملوك الهليتيون على عادة اسلافهم الشرقيين وفرضوا على السكان ضرائب فردية مباشرة كانت تضاف عادة الى ضرائب المجموعات والضرائب البلدية(٧٩). وتبين بوضوح وثيقة من العصر السلوقي عثر عليها في مدينة مولاسا **Mulasa** الفرق بين ضرائب الاملاك العامة والضرائب الاخرى التي تجبيها هيئة الضرائب الملكية ، وبين الرسوم والضرائب التي كانت تفرضها الهيئة الحاكمة في المدينة(٨٠) .

ويبدو ان الاعفاءات الضريبية التي كان الملوك يمنون بها على افراد او طوائف معينة كانت تتعلق دائما بالضرائب التي تجبيها هيئة الضرائب . وهو ما توحي به رسالة انطيوخس الثالث الى بيت المقدس التي ضمنها اعفاء رجال الدين بجميع طبقاتهم من ضرائب (الاشخاص) و (الملكية) و (الملح) (٨١) .

وقد اوردت الرسالة المذكورة نفسها ذكرا لضرائب الاشخاص ، مع ملاحظة انه لا يمكن الجزم فيما اذا كانت هذه الضرائب قد فرضت على بيت المقدس استمرارا لضريبة كانت تدفعها المدينة المقدسة تحت السيطرة البطلمية(٨٢) ام غير ذلك ، ومع الاخذ بعين الاعتبار ان الساترابيات الاسيوية عرفت مثل هذه الضرائب(٨٣) كواحدة من الضرائب التي جبيت بعد وفاة الاسكندر(٨٤) .

والى جانب الضرائب السابقة عرفت بعض مدن الامبراطورية ضرائب (الانتصار) أو (الاكليل) وهي التي كانت تقدم اساسا الى الفائزين بالالعاب الرياضية أو الى الملوك على شكل اكاليل وتيجان ، اكبارا واجلالا لانتصاراتهم(٨٥) . وهذا ما تشهد به عدد من وثائق العصر . فعلى سبيل المثال قدمت مدينة ملطية في مناسبة غير معروفة الى سلوقس الثاني اكليلا مقدسا حصلت عليه من هيكل ابولون (الديدومي)(٨٦) Didyme كما حمل وفد من مدينة اروتري اكليلا وهدايا من الذهب (٨٧) الى الملك نفسه . ونقرأ في ديودوروس عن « حملة اكاليل الذهب »(٨٨) في الفترة السلوقية . وتذكر مصادر اخرى ان قيمة الاكليل الذي قدمه احد الملوك المدعو (كيبورا) kibyra الى انطيوخس الثالث سنة ١٨٨ بلغت (١٥) وزنة(٨٩) . ويعدد بولوبيوس الهدايا التي قدمتها مدينة (جرها) العربية الى انطيوخس نفسه خلال حملته الشرقية ، ومن بينها خمسمائة وزنة من الفضة وألف وزنة من البخور ومائتي وزنة من (المر) Myrhe (٩٠) .

ويبدو انه بمرور الزمن لم تعد لهذه الضريبة صفة طوعية ـ ولو نظريا ـ بل أصبحت ضريبة اضافية تقدمها المناطق الخاضعة للامبراطورية بمناسبة وصول الامراء اليهم او في المناسبات الهامة . ويذكر سفر المكابيين الثاني انه في سنة ١٦١ عندما تشرف (الياكيم) الكاهن الاكبر بمقابلة الملك الجديد دمتريوس الاول ، احضر معه اكليلا من الذهب محاطا باغصان من الزيتون حسب العادة المتبعة سابقا في هيكل بيت المقدس(٩١). كما يذكر السفر نفسه حادثة تنازل دمتريوس الثاني عن حقه في الاكاليل التي قدمها اليه اليهود شاكرا لهم هداياهم السابقة(٩٢) . وكان دمتريوس نفسه قد وعد اليهود سنة ١٥٢ بتحريرهم من ضريبة الاكاليل وضرائب اخرى(٩٣) . وتوضح الحوادث السابقة ان الملوك السلوقيين (المتأخرين على الغالب) قد حولوا هذه الهبة الطوعية الى رسم مباشر بكل معنى الكلمة ، مع ملاحظة ان هذا العمل لم يحل دون تقديم الاكاليل الذهبية في الفترة نفسها .

ولا يعرف الكثير عن ضريبة رددتها المصادر المعاصرة بكثرة وهي ضريبة الملح (aleki) أو (ton alon)اذ لم يرد لها ذكر مباشر الا في منطقتي فلسطين(٩٤) وبابل(٩٥). غير انه لما كانت الوثائق من مصر البطلمية تؤكد على ان ضريبة الملح كانت ضريبة مالية تجبى بهذا الاسم عن كل فرد(٩٦) ، وبناء على رسالة اعفى بمقتضاها دمتريوس الاول اليهود من « ثمن الملح ومدفوعات الاكاليل »(٩٧) . فان من المرجح ان هذه الضريبة كانت تجبى في الدولة السلوقية باحدى طريقتين ، اما ان يلزم دافعو الضرائب بشراء كمية من الملح سنويا ، أو ان تدفع الجماعات او التجمعات ضريبة ما بهذا الاسم ، مع الاخذ بعين الاعتبار ان المصطلحات الواردة في نقوش وبرديات الامبراطورية السلوقية والملكة البطلمية وكذلك المصادر الادبية والتي وردت تحت عبارات (٩٨-٩٩)
(temi tou alos, adaeratio, temi elaeio, temi oinou , temi alos)
توحي بان هذه الضريبة كانت متعددة المعاني حسب الاقاليم والفترة الزمنية ، وانها تطورت في كل من مصر وآسية الغربية من ضريبة على الرأس الى ضريبة على الجماعات، الى ضريبة علن اماكن استخراج الملح ، الى ضريبة تفرض على الافراد عند شرائهم كمية منه ، الى آخر ما هناك من اقتراحات بهذا الصدد(١٠٠) .

وفي مصادرنا وثيقتان تثبتان خضوع هيئة الاحبار اليهود لدفع الجزية ، وتثبت احدى هاتين الوثيقتين ان هيكل بيت المقدس مثلا كان يدفع سنويا ما يزيد عن خمسة عشر الف شاقلا من الفضة في الفترة التي سبقت حكم دمتريوس الاول ، وقد اعفى هذا الملك خلال ولايته الهيكل من دفع الجزية بدعوى ان هذه القيمة من حق الكهنة الذين يقومون بالشعائر الدينية(١٠١) . وتنسب الوثيقة الاخرى الى لوسياس وهو احد قادة دمتريوس الرابع نيته في تثبيت فرض الضرائب على الهيكل ، وكذلك في بيع منصب الكاهن الاعظم سنويا في حال انتصاره على المكابين(١٠٢) نحو سنة ١٦٥ .

ويبدو في ختام هذه الفقرة استحالة قدرة الباحث على تحديد الشكل أو النظام الذي اتبعه السلوقيون لفرض ضرائبهم على الهياكل او المعابد الوثنية بدقة تعادل دقة النظام المتبع في مصر البطلمية من خلال توافر الوثائق ، وان كانت الوثائق السلوقية توحي على قلتها بارتباط هذه الضرائب باملاك المعابد بالدرجة الاولى ، وذلك من خلال معرفتنا بطبيعة الاعفاءات التي كانت تمنح لهذه المراكز الدينية والتي كانت تتركز حول الحصانة من الرسوم العامة التي كانت تفرض على جميع اقاليم الامبراطورية(١٠٣).

ويجدر بالذكر ان بيع المناصب الكهنوتية لم يكن يخالف اعراف العصر ، فقد عرفت بعض مدن آسية الصغرى(١٠٤) حالات كهذه ، وكذلك مصر البطلمية التي مارس ملوكها هذه العادة دون تمييز بين الالهة المصرية كافة(١٠٥) .

وفي اقصى الشرق من الامبراطورية السلوقية ، يؤكد عدد من الالواح الاكادية المعلومات السابقة عن علاقة الكهنة المالية بالدولة مع تركيزها الشديد على الموارد الهائلة للمعابد البابلية ، ورغم تزويدها ايانا بنماذج متعددة لاتفاقيات بيع المناصب الكهنوتية الا انها لا تشير ولا بتلميح بسيط الى الضرائب التي كانت تفرض على بيوت الالهة وخدمها ، كما لا يمكن ان نجد اثرا للمبالغ المفروضة من قبل هيئة الضرائب على المعابد نفسها من خلال استقرائنا لاتفاقيات بيع العبيد او الاراضي الكهنوتية(١٠٦) .

٢ ـ الضرائب الاستهلاكية :

وهي التي كانت الدولة تجبيها على بعض المواد الاستهلاكية واهمها : الجمارك وانتقال الملكية .

آ ـ **الجمارك** : وقد حفظت لنا بعض بنود معاهدة افامية (سنة ١٨٨ والموقعة بعد موقعة ماغينزية بين انطيوخس الثالث وروما) امتيازا خصه سلوقس الثالث بالتجار الرودوسيين الذين اعتزموا ممارسة التجارة في مملكته ، والذي بمقتضاه تمتع هؤلاء التجار بصفة (اتيليس) Ateleis في الامبراطورية(١٠٦) ، أي (معفيين) وبناء على ما افادتنا به بعض الدراسات المعاصرة من ان كلمة Ateleia تحمل في العرف الضريبي معاني تفصيلية متفاوتة بين مدينة واخرى(١٠٧) ، لا يمكن الجزم فيما اذا كان هذا الانعام الملكي يتعلق بالاعفاء من الرسوم على السلع المستوردة والضرائب الجمركية أم غيرها من الضرائب التي تتعلق بعمليات الاستيراد عن طريق المرافىء البحرية(١٠٨) (وهو امر مرجح طالما عرفنا ان تجارة رودوس مع الامبراطورية السلوقية او معظمها على الاقل كانت تدخل او تخرج عن طريق الموانىء البحرية) ام ان الاعفاء يتعلق بكل هذه الامور أو الانشطة مجتمعة وهو امر موضع شك .

ويمكن أن نستخلص من اعفاء يتعلق برسوم الاخشاب اللازمة لبناء هيكل بيت المقدس والمستوردة من داخل فلسطين أو من لبنان(١٠٩) ، خص به انطيوخس الثالث مدينة بيت المقدس ، امرين ، احدهما ان كل منطقة في الامبراطورية كانت تعتبر منطقة جمركية مستقلة يجبي في رحابها رجال الملك رسوما على البضائع المستوردة والمصدرة، وثانيهما ، ان رسم الباب الذي كان يفرض على الخشب المقطوع من مناطق اليهود كان يعني باب بيت المقدس خلال الفترات الاخمينية والهلنستية وحتى البارثية(١١٠) . اذ توحي اشارات عدد من مصادرنا بان المقدونيين منذ الاسكندر كانوا يفرضون ضرائب مماثلة على البضائع الداخلة الى مدينة بابل بما يوازي العشر من قيمتها(١١١) ، كما يشير تعبير (ايساجوجس) Eisagoges المقروء في عدد من الصكوك التي عثر عليها في سلوقية دجلة الى الضريبة المفروضة على البضائع المستوردة الى المدينة(١١٢) .

وتتيح لنا المعلومات السابقة فرصة تفسير بعض ما ورد في المصنفات اليهودية عن الامتيازات التي منحها بعض الملوك المتأخرين لليهود ، مع ملاحظة التفاوت والابهام في المعنى الناجم عن ترجمتها في الاساس من اليونانية الى العبرية وبعد ذلك من العبرية الى اليونانية وهو الشكل الذي وردتنا فيه العبارات . وابرز هذه المعلومات وردت في مرسوم دمتريوس الاول والقاضي بتحرير بيت المقدس وتخومها من « العشور وجميع الضرائب في حدود المدينة »(١١٣).. وما ورد في مرسوم دمتريوس الثاني باعفاء اليهود من « جميع العشور والضرائب»(١١٤) . ويرجح في هذا المقام ان عبارة (عشر) لا تعني بالضرورة ما يوازي العشر بالمائة من قيمة البضاعة نقدا ، بل كمية تقديرية لقيمة السلع الاجمالية . أما بالنسبة للحقوق الاضافية فتدخل على الغالب في باب (ضريبة الحاجز) التي كانت تفرض على التجارة او العبور اضافة الى الرسوم العامة ،كالرسم على الجمال والمواكبة في الصحراء وغيرها . وهي التي تشابه الرسوم التي جباها البطالمة من التجار على تنقلاتهم داخل ممتلكاتهم .

وتذكر مصادرنا من المنطقة رسمين مشابهين آخرين وهما (رسم الباب) Limenos الذي عرفته سلوقية دجلة(١١٥)،و (رسم الفرات) Ploion Euphratou الذي كان يجبى على السفر ونقل السلع بواسطة نهر الفرات(١١٦) . ويشير بند من بنود الاعفاء السابق الذي اصدره دمتريوس الاول الى رسم آخر كان يجبى غالبا على السلع التجارية عند تخطيها حواجز الجمارك ، اذ يشير النص الى حقوق المرور ،وفيه يعفي الملك السكان اليهود الذين غادروا مناطق سكناهم في فلسطين اثناء الحروب المكابية من هذه الضرائب وبخاصة التي تتعلق منها بالمواشي والمواصلات .

ب ـ ضرائب انتقال الملكية : وتشكل هذه الضرائب مجموعة اخرى من الضرائب التي خصها بالذكر امتياز العفو الذي منحته الدولة السلوقية الى معبد (بايتوكايكي) Baitokaike (١١٧) عن المعاملات التجارية في الاسواق والتي كانت تعقد مرتين شهريا في قرية المعبد نفسه . وتذكر وثائق عثر عليها في بابل ضريبتين واحدة تدعى (ايبونيون) Eponion يبدو انها كانت ضريبة عامة تجبى على كل معاملات البيع والشراء ،والثانية وتدعى (اندرابوديكون) Andrapodikon وتجبى على تجارة الرقيق كما في مصر البطلمية(١١٨) .

ويذكر الاستاذ روستوفتزف اعتمادا على عدد من وثائق العصر عثر عليها في عدد من مراكز الامبراطورية مثل سلوقية دجلة ودورا يوروبوس وسوسة واوروك ، انه بالرغم من تعميمات الادارة المالية على ضرورة قيام الافراد بتسجيل المعاملات الشخصية وبخاصة البيع والشراء ـ ويبدو ذلك نتيجة احجام الافراد عن تسجيل تلك البيوع ـ

فان الضرائب التي فرضت على معاملات تسجيل البيوع على قلتها شكلت مصدرا لا بأس به من مصادر الايرادات العامة(١١٩) .

٣ ـ الضرائب البلدية :

وتعتبر معلوماتنا عن هذه الضرائب متواضعة جدا قياسا على ضرائب الملكيات والرساميل والدخول كضرائب الوراثة والمواشي وغيرها التي يسرتها وثائق تاريخ مصر في عصر البطالمة(١٢٠) ، وباستثناء ما يذكره كتاب الاقتصاديات المنسوب الى ارسطو(؟) والذي يحصر معلوماتنا عن الضرائب البلديةفي ضريبتين ، نكاد لا نجد اثرا يذكر لضرائب اخرى . وهاتان الضريبتان هما (ضريبة المهنة) و (ضريبة المواشي) اللتان يعتبرهما الكتاب نفسه من أهم مصادر الدخل في الامبراطورية السلوقية(١٢١) . ويمكن تبرير هذه الحالة في ان منظري السياسة المالية السلوقية دأبوا باستمرار على التدخل لوضع حد لاستمرار المدراء الماليين الاقليميين في فرض الضرائب . مع الاخذ بعين الاعتبار ان معظم بلديات الامبراطورية كانت تتمتع بقسط وافر من الاستقلال الذاتي الذي كان يتضمن بالتأكيد استقلالا ماليا .

ويصنف كتاب الاقتصاديات نفسه واردات مدن آسية الغربية التابعة لخلفاء الاسكندر (الذياذوخي) في بندين رئيسين ، اولهما : واردات الاملاك العامة ، وثانيهما: الضرائب غير المباشرة(١٢٢) . وتؤكد الوثائق المكتشفة في سلوقية دجلة كثرة واستمرار ضرائبها غير المباشرة في الفترة السلوقية والتي كانت ابرزها ضرائب (وهاد الملح) (المتاجرة بالعبيد) (تسجيل العقود) و (المرفأ) . ويبدو ان تطبيقهذه الطريقة فيفرض الضرائب غير المباشرة في المدن الاسيوية الداخلية ونجاحها دفع الادارة المالية السلوقية الى اعتمادها في المدن الاغريقية الاسيوية الغربية ، اذ كان سكان هذه المدن لا ينفرون من دفع الضرائب المباشرة والتي اقتصرت الادارة المالية في فرضها على الظروف الإضطرارية لتغطية متطلبات الحكومة حتى ان بعض مصادرنا تذكر ان هذه الادارة استولت في تلك الظروف حتى على ثيران الزراعة(١٢٣) .

وتبين نقوش من مدينة بريني انها تعرضت في الفترة الهلنستية لدفع ضرائبعلى مواشيها وعبيدها داخل المدينة وفي ريفها(١٢٤) على حد سواء دون تفريق . وانالضرائب على الملكية اصبحت مع الزمن ضرائب اعتاد السكان على دفعها . كما تؤكد نقوش مدينة (مولاسا) التي سبقت الاشارة اليها(١٢٥) والتي حدد بعضها الشروط المطلوب توافرها في الارض العامة المعروضة للايجار ، ان من اهم واجبات المزارع ليس دفع الضرائب المترتبة على مزرعته فحسب ، بل دفع جميع الضرائب على الملكية ايضا ، وبخاصة الضرائب غير الاعتيادية التي كان الصندوق او مجلس المدينةيفرضانها في بعضالاوقات .

٤ ـ ضرائب عائدات الارض :

وهنا ايضا لا تساعدنا حالة وثائقنا على التمييز بين الضريبة الملكيـة على الارض وضرائب الدخول الزراعية السنوية ، ومع ذلـك يمكن ان نستخرج مـن واقع هـذه الوثائق بعضا من المعلومات ، اهمها وجود عدد من الضرائب التي كانت الهيئات الضريبية تفرضها على الارض ومنتجاتها ، وبشكل خاص في المدن التابعة للادارة المالية السلوقية في آسيـة الصغرى . اذ يثبت نقش مولاسا السابق هذا الاستخراج، كما تؤكده رسالة بعث بها انطيوخس الثالث الى مدينة (ترالس) **Tralles** ورد فيها **ذكـر لواحد مـن** العشور(١٢٦) (وهي ضريبة معروفة) ، وكذلك الامتياز الذي خص فيه الملك سلوقس الثاني مدينة ازمير بتحريرها مع ريفها من جميـع الضرائب(١٢٧) . وباسـتثناء هـذه المعلومات يتعذر معرفة نوعية هذه الضرائب وكميتها تفصيلا او القواعد التي اتبعت في جبايتهـا .

ورغم ذلك ، يمكن تخيل أهمية هذه الضرائب عند مقارنتها بمعلومات متوافرة عن واردات الامبراطورية من استغلال الارض الملكية على صعيد الكـم . وهناك نصـان يساعدانا على هذا التخيل . اذ يذكر بولوبيوس ان سلوقسـ الثالث قـدم الى اهالي رودوس ، بمناسبة الزلزال الشهير الذي تعرضت له جزيرتهم ، عشـر سفن كاملـة ومائتي الف مكيال من القمح وكميات من الخشب والصمغ والزبيب(١٢٨) . كما قـدم دمتريوس الاول الى الرودوسيين انفسهم ـ رغم فقدانه آسية الصغرى ـ مائتي الف مكيال من القمح ومائة الف مكيال من الشعير(١٢٩) .

ويمكن في هذا الباب أن نضيف الى ضرائب عائدات الارض الضرائب التي يتوقـع تحصيلها من استثمار المناجم والحدائق . ويبين لنا كتاب الاقتصـاد المنسـوب الى ارسطو(١٣٠) الضرائب التي كانت تجبى في آسية في الفترة ما قبل السلوقية،ومن المرجح بناء على هذه المعلومات ان مناجم الذهب في منطقة (سيبولي) **Sipyle** و(تمولي) **Tmole** في اسية الصغرى قد استمرتا على حالهما ، وكانتـا ، او كان انتاجهما ضمـن حيازة الصندوق الملكي . كما يحتمل ان حدائق اريحا (في غور الاردن) والتي كانـت تنتـج البلسم قد ضمت في وقت ما الى الاملاك الملكية(١٣١) ، وذلك قياسا على المعلومات التي تثبتها بعض المصادر عن غابات لبنان التي اعتبرت جزءا من الاملاك الملكية وكان لها وضع جمركي خاص(١٣٢) .

ثالثا ـ الواردات الاستثنائية :

ولا شك أن واردات الدولة لم تنحصر في الواردات النظامية او الشرعية بل كان في

جعبة الملك وسائل متعددة للحصول على السيولة المالية عند الحاجة . وتأتي في مقدمة هذه الوسائل :

١ ـ غنائم الحرب :

ومن ابرز الامثلة على ممارسة الملوك السوريين هذه الوسيلة عندماسطا انطيوخس الثالث على ثروة الملك الهندي (سوفاجاسينوس Sophagasenos (١٢٣) . وكذلك عندما ابتاع الجرهائيون العرب من الملك نفسه حريتهم بدفع خمسمائة وزنة من الفضة والف وزنة من البخور ومائتي وزنة من العطور المتنوعة(١٢٤) . كما يذكر المؤرخان ابيانوس وديودوروس حادثة تدخل في باب الواردات الاستثنائية وذلك حينما حصل دمتريوس الاول من الامير الكبادوكي (اوروفرني) Oropherne على مبلغ كبير من المال مقابل مساعدته على العودة الى عرش كبادوكية(١٢٥) . وايضا ما يذكره بولوبيوس من قيام اخايوس (ابن عم الملك انطيوخس الثالث ونائبه في آسية الصغرى) بفرض غرامة تقدر بسبعمائة وزنة على مدينة (سلجي) Selge (١٢٦) دون سبب يذكر .

وفي مقابل ذلك كانت المدن التي تتعرض لازمات مالية تعوض سيولتها المالية ببيع سجنائها . ويذكر سفر المكابيين ان نيكاتور (احد قادة انطيوخس الرابع) وكان يقاسي في سبيل تأمين دفع الجزية لروما ، قام بخفض سعر السجناء اليهود الى تسعين يهوديا للوزنة الواحدة (١٢٧).

ولا شك ان اكبر غنيمة حربية حققها ملوك سورية خلال تاريخهم . كانت غنائم انطيوخس الرابع خلال حملتيه على مصر (١٦٩) (١٦٨) ، اذ تتبارى المصنفات اليهودية في تضخيم كميتها(١٢٨) كما يضيف بولوبيوس بان جنود الملك قاموا بنهب كل المؤسسات العامة بما فيها معظم المعابد المصرية(١٢٩) ، في الوقت الذي تحدد فيه احدى برديات (تبتونس) ان رجال الملك نهبوا عددا من المعابد اشهرها معبد (ارسينويت) Arsinoite (١٤٠).

٢ ـ المصادرات والغرامات :

وهو المصدر الذي يصعب تقديره وكان يتفاوت تبعا لحالة الدولة الاقتصادية والامنية الداخلية وشخصية العاهل المتربع على العرش . وتذكر المصادر مجموعة من حوادث المصادرات والغرامات التي فرضت على المدن والطوائف وحتى بعض الاثرياء ، لعل اشهرها حادثة فرض انطيوخس الثالث غرامة كبرى على مدينة سلوقية دجلة اثر محاولتها الفاشلة للتمرد والانسلاخ عن الامبراطورية(١٤١) وكذلك حادثة

تذكرها المصادر اليهودية ويؤكدها ديودوروس عندما قامت ادارة الصندوق الملكي بمصادرة املاك عدد من اليهود الذين ادينوا بالتآمر على امن الدولة (١٤٢) .

٣ ــ واردات استثنائية اخرى :

وبمقتضى الاعراف الاغريقية كانت الدولة تتصرف في املاك المعابد في الحالات الملحة . ويبدو ان اوائل الملوك السوريين لم يستشعروا الحاجة الى الاقتراض من المعابد او الاعتداء على ممتلكاتها حتى الى ما بعد الحرب التي فرضتها روما على انطيوخس الثالث والتي ادت نتائجها بموجب معاهدة افامية الى تردي الوضع الاقتصادي للدولة بشكل كبير ، مما اضطر الملك الى القيام سنة ١٨٧ بمحاولة للاستيلاء على كنوز معبد (بل Bel) في عيلام اودت بحياته(١٤٣) . كما تذكر المصادر اليهودية قيام ابنه سلوقس الرابع بمصادرة كنوز هيكل بيت المقدس ، وكانت تقدر حسب المصادر نفسها بأربعمائة وزنة من الفضة ومائتي وزنة من الذهب(١٤٤) . وفي عهد خليفته انطيوخس الرابع الزمت الحكومة الهيكل نفسه بدفع غرامة تعسفية وسلبت منه ما قيمته الف وثمانمائة وزنة(١٤٥) . وفي الفترة نفسها نهب الملك نفسه مجموع موجودات معبد هيرابوليس (منبج) (١٤٦) . وتعرض انطيوخس نفسه ــ حسب المصادر القديمة ــ لعدد من ضربات الربة ارتميس العيلامية(١٤٧) بعد محاولته الفاشلة للاستيلاء على ثروات معابدها .

وكما اسلفنا كان ملوك سورية بعد معاهدة افامية لا يدخرون وسيلة في سبيل تأمين دفع الجزية الى الرومان(١٤٨) ، ولذلك لم يسعوا فقط الى نهب كنوز المعابد المحلية فحسب ــ والتي كان اخر ما تذكره مصادرنا منها قيام اسكندر زابيناس بمصادرة ممتلكات معبد زيوس الانطاكي(١٤٩) ، وحتى سرقة تمثال الاله بالذات(١٥٠)، بل تعدتها الى الاستدانة من بعض المدن الغنية ومن رجال المملكة الاثرياء . وهذا مايذكره (ليفيوس) من ان انطيوخس الثالث استدان خلال حربه مع روما من عدد من مدن بلاد اليونان ليتمكن من دفع رواتب جيشه هناك(١٥١) ، كما قام أكثر من مرة بالاستدانة من بعض اصدقائه عند الحاجة(١٥٢) .

ولا يغيب عن البال ان معظم ملوك سورية وبخاصة اوائلهم قد ورثوا عن الملوك الاخمينيين وامراء المقاطعات الاسيوية كنوزا هائلة . ويذكر بولوبيوس في هذا الصدد ان كنوز العاصمة الفارسية اكباتانا والتي استولى عليها الاسكندر وانتيغونس وسلوقس ، قد وفرت لانطيوخس الثالث من الذهب والفضة ما مكنه من سك نقود بقيمة اربعة آلاف وزنة(١٥٣) .

ويعتبر بيع الاراضي الملكية آخر الوسائل التي كان الملك السوري في العصر

الهلنستي يتصرف بها للحصول على واردات اضافية . ويبين نقش معاصر ان انطيوخس الاول باع الى احدى مدن اسية الصغرى وتدعى (بيتاني) Pitane ارضا بمبلغ ثلاثمائة وخمسين وزنة (١٥٤) . كما تؤكد احدى الرسائل الملكية ان انطيوخس الثاني باع مطلقته المدعوة لاوديكيا ارضا بقيمة ثلاثين وزنة(١٥٥) .

رابعا ــ نفقات الدولة :

وكمعظم المظاهر الحضارية الاخرى لا تذكر المصادر الا بصورة عرضية نفقات الدولة ، حتى ان البنود الهامة في هذه النفقات والمخصصة مثلا للقوات المسلحة او البلاط الملكي ما تزال مجهولة لدينا في تفاصيلها ، مثلها في ذلك مثل النفقات التي كان ينفقها الملوك في سبيل انشاء المستوطنات(١٥٦) .

وترجح اشارات بعض المصادر اليهودية ان نفقات عمليات الاستيطان كانت تتم على حساب الواردات العامة(١٥٧) . وتذكر مصادر يهودية اخرى معلومات حول وعد قدمه دمتريوس الاول الى اليهود لاعادة تشييد اسوار بيت المقدس(١٥٨) . واذا ما عرفنا ان عددا من مدن آسية الصغرى كانت تحظى بمساعدات دورية لسد نفقات الهيئات الادارية في هذه المدن(١٥٩) ، وان انطيوخس الثالث قدم مرة الى هيكل بيت المقدس منحة مالية ضخمة لشراء الذبائح(١٦٠) ، فان لنا ان نتصور المبالغ التي كان ينفقها الملوك السوريون لانشاء وصيانة القلاع والقليعات ومساعدة المعابد التي ترامت في تخوم الامبراطورية المتعددة كجانب واحد من جوانب الانفاقات التي لا تعتبر اساسية جدا.

ويمكن القول في هذا المجال ، ونظرا الى ان معظم المعلومات المتوافرة تقتصر على نفقات انفقت لاسباب عرضية ، فاننا بناء على غموض ابواب وبنود الميزانيات الاعتيادية، سنكون ملزمين بجمع وعرض المعلومات التي تتعلق بالنفقات غير الاعتيادية على اقل تقدير ، والتي تندرج تحت اربعة بنود رئيسة .

١ ــ هبات المدن والمعابد :

رغم العداء الشديد الذي كان اليهود يكنونه لملوك سورية في العصر الهلنستي الا انهم لم يستطيعوا في مصنفاتهم التي تعتبر مصادر اساسية في بحثنا هذا ان يطمسوا مآثر هؤلاء الملوك في مجال انشاء المعابد او ترميمها(١٦١) ، وذلك دون تمييز بين معابد الالهة المحلية(١٦٢) أو الاغريقية(١٦٣) . ام في مجال انشاء المدن او تجديد المدن القديمة.

وفي مجال انشاء المدن الجديدة وتجديد القديمة ، لم يتفوق ملوك في التاريخ على ملوك سورية في هذه الظاهرة لدرجة ان كثير من المؤرخين المعاصرين ينكرون أي دور حضاري لهؤلاء داخل سورية ام خارجها (١٦٤) يضاهي هذا الدور .

وتزدحم المصادر بعدد من الامثلة التي يصعب حصرها في هذا المجال ، منها ادخال انطيوخس الثالث عددا من التحسينات على عاصمته انطاكية بعد عودته من حملته الشرقية المظفرة . ومنها قيام كل من سلوقس الاول والثاني وانطيوخس الرابع بتوسيع حدود المدينة واضافة احياء جديدة اليها . ومنها تشييد الامير انطيوخس الاول وقبل ان يعتلي العرش بابا للسوق في مدينة ملطية(١٦٥) بآسية الصغرى.

وباختصار شديد لم يتقاعس أي ملك قوي من اسرة سلوقس عن القيام بعمل انشائي او ترميمي لعدد من المدن في مملكته ، مع اجماع المؤرخين على تفوق كل من سلوقس الاول وانطيوخس الرابع في هذا المجال . ورغم ان المؤرخين الرومان لم يكونوا معجبين على الدوام بانطيوخس الرابع الا انهم كانوا يقرون بأن هذا الملك يتمتع باخلاق ملكية اصيلة في حقلين اثنين اولهما ، الهبات التي كان يمنحها للمعابد ، وثانيهما تعبده للآلهة(١٦٦) . ويذكر الاستاذ (بفان) Bevan لائحة طويلة من الهبات التي تثبت صدق هؤلاء المؤرخين في ما ذكروه عن كرم وسخاء هذا الملك(١٦٧) .

وفي مجال هبات المعابد ، لدينا اعتمادا على رسالة ملكية ، بيان مفصل عن هدية قدمها سلوقس الاول سنة ٢٨٨/٧ الى معبد (ديدومي) Didyme (١٦٨) في آسية الصغرى . وهي عبارة عن « ثلاثة الاف ومائتين وثمانين واربعين دراخمة ، وثلاثين اوبولا من الذهب وتسعة آلاف وثلاثمائة وثمانين دراخمة من الفضة وسبع عشرة وزنة من العطور والف رأس من الماشية واثني عشر ثورا » . ويبدو ان هذه الهدية اصبحت عادة عند ملوك سورية حتى في الفترات المريرة التي مرت بها مملكتهم . اذ تذكر المصادر ان انطيوخس العاشر ، وكان « ملكا تافها » على حد وصف المصادر له ، يقدم هدية الى المعبد نفسه(١٦٩) بعد نحو مائتي سنة . فاذا اضفنا الى ما سبق ما نتوقعه من هبات الاوقاف التي كان يمنحها هؤلاء الملوك الى معابد الالهة في سورية وما بين النهرين(١٧٠)، فان لنا ان نتصور انها كانت نفقات لا يستهان بها تقع على عاتق الدولة في ايامها الرخية او العجاف .

٢ ـ الهدايا العامة :

وتمشيا مع السمات العامة لمعظم الانظمة الملكية في التاريخ كانت الهدايا تشكل جزءا كبيرا من نفقات البلاط السوري في العصر الهلنستي ، وتزخر مصادرنا بالامثلة عن التزام ملوك سورية بهذه المكرمة ، فيذكر نقش من عهد انطيوخس الثاني ان حاشيته حثته عند سقوط مدينة ساموس على توزيع اراضي المدينة عليها(١٧١) . كما تذكر رسالة ملكية ان احد المقربين من انطيوخس ويدعى (اريستوديسيدس) حصل على

ثلاث هدايا في فترة زمنية قصيرة كناية عن مساحات زراعية مـن ارض الملـك(١٧٢).
وكعادة الملوك الذين يقدمون في مناسبات الاحتفالات والاعياد هدايا فرديـة(١٧٣) الـى اخلص اتباعهم ، فقد وزع انطيوخس الثامن ، وكان ملكا فقيرا ، اكاليل ذهبية واحصنة وجمالا وعبيدا على مدعويه في احتفالات دفنه تقليدا لجده انطيوخس الرابع الذي كان بدوره قد وزع سنة ١٦٩ قطعة نقدية ذهبية ؟ لكل ساكن في مدينة نقراطيس في مصر، كما كان قد ارسل ما قيمته مائةوزنة من الهدايا الى مدن بلاد اليونان(١٧٤) بمناسبـة نجاحه في غزو مصر البطلمية .

وعلى مستوى الهدايا الفخرية الشخصية ، تذكر المصادر عددا من الحوادث التي منها قيام الملك اسكندر بالاس بتقديم اكليل من الذهب مع براءة بحمله(١٧٥) الى صديقه (ديوجنس) Diogenes بصفته كاهنا للفضيلة . ومنها حادثة اصدار سلوقس الرابع توجيها الى مدينة سلوقية بيرية بوجوب اقامة تمثال من الذهب في احدى ساحـات المدينة تكريما لاحد خلائه(١٧٦) . وايضا عندما بعث انطيوخس السادس بهدية ضخمة من الذهب الى يوناثان (الكاهن الاكبر في بيت المقدس) باعتباره احد اصدقائه(١٧٧).

٣ ــ الاعانات السياسية :

وباعتبارها واحدة من ثلاث قوى عظمى في المنطقة الى جانب مصر وروما ، كان لابد لسورية من اعتماد اسلوب في السياسة يضاهي ان لم يفق في تأثيره القوة العسكرية مع انه لم ينقص عنها كثيرا في تكاليفه ، الا وهو اسلوب الاعانات السياسـة ، ورغم ان معظم ملوك سورية ــ او كلهم ــ في تلك الفترة قد اعتمدوا هذا الاسلوب الا ان الكيفية والنوعية وحتى الكمية قد اختلفت بين فترة واخرى ، وتعاظمت اهمية هذا الاسلـوب بدءا من عصر انطيوخس الثالث الذي كان عليه ــ كما تذكر المصادر الرومانية ــ ان يدعم قبل حربه مع روما وبعده ، تحالفه مع البيزنطيين(١٧٨) والايتوليـين(١٧٩) ، في الوقت الذي كان عليه توزيع المال على السياسيين في المدن الاغريقية(١٨٠) ، وكذلك البر بوعده لملك مقدونية فيليب الخامس بتقديم معونة قدرتهـا المصادر بثلاثة الاف وزنـة(١٨١).
ويحلو لبعض المؤرخين المعاصرين ان يدخلوا الرشاوى التي تقدم لكبار القادة والولاة ضمن بند المعونات السياسية . وعلى هذا يعتبر مبلغ الخمسمائة وزنة الذي قدمه دمتريوس الاول الى حاكم قبرص مقابل تسليم الجزيرة(١٨٢) معونة سياسية .

ويدخل في هذا الباب تلك الهدايا التي كان ملوك سورية يرسلونها في فترات ضعفهم الى اعضاء بارزين في مجلس الشيوخ الروماني للضغط على قـرارات ذلك المجلـس ، او التاثير عليها ، ويذكر عدد من المؤرخين الرومان حوادث تشهد بذلك ، منها قيـام

انطيوخس الرابع سنة ١٧٣ باهداء احدهم اناء ذهبيا يزن خمسين دراخمة ذهبية(١٨٣)، وارسال دمتريوس الاول الى عضو بارز اخر اكليلا قيمته عشرة الاف ستاتير(١٨٤) ، وتقديم تروفون الى عضو ثالث تمثالا ذهبيا لالهة النصر بالقيمة نفسها(١٨٥) . واخيرا عرض انطيوخس السابع عددا من الهدايا على القائد الروماني سكيبيو املياتوس عندما قابله في اسبانيه(١٨٦) .

وقد استغل ملوك سورية في العصر الهلنستي غابات لبنان لتنفيذ بعض اغراضهم السياسية ، وقدموا في بعض الاحيان هداياهم من السفن التي اشتهرت بجودتها في تلك الايام . وعلى هذا قدم سلوقس الثالث عشر سفنا الى جزيرة رودوس(١٨٧) ، كما تسلم الاخيون(١٨٨) عشر سفن هدية من حليفهم سلوقس الرابع . ووضع انطيوخس الرابع معظم اسطوله تحت تصرف رودوس(١٨٩) بعد تعرضها لكارثة طبيعية .

٤ ـ الجزية :

وبدءا من عهد انطيوخس الاول اضطر ملوك سورية الى دفع جزية سنوية الى القبائل الغالية(١٩٠). واستمر الحال على هذا النحو الى عهد انطيوخس الثالث ، الذي اعاد للامبراطورية هيبتها واتساعها وامتنع عن دفع الجزية الى الغال ، الا انه اضطر بنتيجة صراعه الخاسر مع روما الى ان يدفع لها بموجب بنود معاهدة افامية (سنة ١٨٩) جزية هائلة بلغت في تفاصيلها (٥٠٠) وزنة دفعت فورا وقبل التوقيع على المعاهدة و (٢٥٠٠) وزنة بعد التوقيع و (١٢٠٠٠) وزنة تدفع سنويا(١٩١). ويذكر المؤرخ ليفيوس انه عندما اضطر انطيوخس سنة ١٧٣ لتأخير دفع الالتزامات ، اعتذر بنفسه امام مجلس الشيوخ(١٩٢) . وتذكر مصادر يهودية ورومانية انه حتى سنة ١٦١ كان رصيد الجزية المفروضة يناهز (٢٠٠٠) وزنة(١٩٣) ، وكان يحق لحليف روما الملك البرغامي اتالوس تحصيل (٤٠٠) وزنة منها(١٩٤) .

٥ ـ نفقات الحروب :

على ان اكبر النفقات دون شك ، كانت نفقات الحروب المباشرة ، وقد قدر المؤرخ المعاصر (كافانياك Cavaignac) نفقات حرب انطيوخس الثالث ضد روما في سنة واحدة هي سنة ١٩١ فناهزت ثمانية الاف وزنة(١٩٥) . وكان تحقيق النصر هو المجال الوحيد لتعويض هذه النفقات الباهظة . وكانت الغنائم التي كان الظافر يسطو عليها تدفع بالمهزوم الى درك من الفقر المدقع لا ينقذه منه الا تراكم السنين او تحقيق نصر . وقد حدد مصدر قديم كمية الغنائم التي حصل عليها بطلميوس الثالث في حرب لاوديكيا

بقيمة اثنين واربعين الفا وخمسمائة وزنة(١٩٦) . أي ما يعادل ثلاثة اضعاف ما فرضه الرومان على انطيوخس الثالث . ويبرر الفارق هنا بغنى سورية في عهد انطيوخس الثاني الذي لم يخض حروبا مستمرة كالتي خاضها خليفته الثالث .

ورغم ذلك تتفق المصادر الرومانية وبخاصة ليفيوس في تفصيلها الغنائم التي غنمها سكيبيو الاسيوي (قاهر انطيوخس الثالث) وعرضها في موكب نصره في روما، والتي تضمنت (١٢٣١) نابا لافيال هندية و (٢٣٤) اكليلا من الذهب و (٠٠٠ر١٤٠) قطعة ذهبية و (٠٠٠ر٢١٤) دراخمة رباعية و (٣٢١٠٧٠) آنية من الفضة و (١٠٠٢٣) دراخمة ذهبية صيغت بشكل آنية و (١٣٧٠٢٤) دراخمة من الفضة على شكل سبائك. اضافة الى (٤٩) اكليلا من الذهب و (٣٤٢٠٠) دراخمة رباعية و (١٣٢٣٠٠) حاوية فضية(١٩٧) حصل عليها احد قادة الحملة .

ولما كانت اوضاع الحرب تؤثر جذريا على ميزانية المملكة فترفعها في ايام النصر لدرجة تجعل الملوك يتهافتون على تخليد انفسهم باعمال انشائية مكلفة جدا ، فقد كانت الدولة تبدو في معظم الاحيان في نظر الاغريق والرومان بمظهر الغنى لدرجة دفعت المؤرخ الروماني بلوتارخوس(١٩٨) الى التعبير عن هذه الفكرة في اذهان العناصر الاغريقية الرومانية بقوله « ان موظفي وحكام الولايات السلوقية اكثر غنى من ملوك اسبرطة ». وكان هذا الشعور الذي لازم الاغريقي العادي(١٩٩) بخاصة يدفعه الى ترديد مقولة مفادها « ان ممالك آسية غاصة دائما بالذهب » . ولكن سوء حظ المملكة السورية المترامية الاطراف كانت في افتقارها احيانا للجنود الاكفاء الذين يحمون هذه الثروات، اذ يذكر احد المصادر الرومانية انه عندما استعرض القائد القرطاجي هانيبال جنود انطيوخس الثالث الذين تسلحوا باسلحة مذهبة قال «اعتقد انذلك يكفي لاثارة الرومان المعروفين بطمعهم الفائق »(٢٠٠) .

قائمة الاختصارات المعتمــدة

— A.J.A., American Journal of Archceology (N.Y) .

— B.C.H., Bulletin de Correspondance Hellenique (Paris) .

— Bikerman . Ins Sél, E.Bikerman, Institutions des Séleucides (Paris 1938) .

— C.A.H., Cambridge Ancient History (Cambridge) .

— F.H.G, Die Fragmenta der Griechisechen Historiker, ed by F. Jaooby (Leiden 1950) .

— J.A.O.S, Journal of American Oriental Society (N.Y) .

— J.H.S. Journal of Hellenic Studies (London).

— Michel . Recueil , ch. Michel, Recueil, d'iscriptiones Grecques (Paris 1900) .

— O.G.I.S, Orientis Graeci Inscriptiones Selectae (Leipzig 1903 - 5).

— S.E.G, Supplementum Epigraphicum Graecum (Leiden 1923).

— S.I.G., Sylloge Inscriptionum Graecarum , ed by W.Dittenberger (1919 - 24) .

— R.E.G, Revue des Études Grecques (Paris) .

— Welles. R.C, B.welles , Royal Correspondence of the Hellenistic wolrd (Paris 1934).

— Y.C.S, Yale Classical Studies (New Haven) .

الحواشي :

(١) جميع التواريخ الواردة في هذا البحث سابقة للميلاد ما لم ينوه صراحة بغير ذلك .

(2) Polybios, X, 27, 13; Macc., I, 13.15; II, 3,13; Diodoros, XXXIII, 4,4; welles ., R.C, 18, 13; 41, 8; O.G.I.S, 229, 106; Cf. Holleaux, B.C.H., (1924) P. 38.

(3) Cf. Rostovtzeff, Anatolian Studies (1923)P. 307(N.2); Macc,I, 3,38.

(٤) النقطة الشمالية الغربية من سورية شمالي خليج اسكندرون .

(5) Welles, R.C, 18, 20; Cf. W.Tarn, Class., Rev., (1935) P. 24.

(6) Pliny., N.H., VI, 119; Cf. R.Dussaud, Top. Hist., P. 460.

(٧) ابراهيم نصحي ، تاريخ مصر في عصر البطالة ، الطبعة الرابعة (القاهرة ـ ١٩٧٦) ج٤، ص ١٥٩.

(8) Posidon. 87 fr 109; Jos., Ant., XIII, 246; Cf.Bikerman, Ins, Sel, P.109 (N.7) .

(9) Diod., XIX, 55,3.

(10) Mc Dowell, Objects from Seleucia, P. 162.

(11) App., Syr. 45 .

(12) Olmstead, J.A.O.S, LVI. P.247.

(13) S.E.G. VII, 5.

(14) Memmon, II, F.H.G, III 533; Cf. Strabon. 499 .

(15) Welles , R.C, 43,3.

(16) S.E.G, I, 366.

(17) Welles, R.C, 20, 56.

(18) M. Rostovtzeff, Y.C.S, III, P. 41.

(19) Cf. Bikerman, Opcit, p. 203.

(20) Jos., Ant., XII, 140 .

(21) Cf. Bikerman, Opcit, p. 113.

(22) Cf. Bikerman, opcit, P. 130.

(23) Macc., II, 3,2,9,16 .

(٢٤) نصحي ، البطالة ، ج٣ ، ص٢٥٢ وما بعدها .

(25) Macc., I,10,40 .

(26) Macc., II,4,30 .

(27) Macc., I,10,39 .

(28) Cf. Bikerman, opcit. P. 148 ff,

(29) Cf. Bikerman, opcit, P. 107.

(30) Opcit, p. 111.

(31) Opcit, p, 112.

(32) Opcit, P. 111.

(33) Opcit, p. 116.

(34) Opcit, P. 111.

(35) Opcit, P. 123.

(36) Opcit, P. 107.

(37) Opcit, p. 179.

(38) ibid.

(39) Opcit, P. 119.

(40) Opcit, P. 116.

(41) Opcit, P. 41.

(42) Macc., I.10,41.

(43) Macc.. I, 11, 28;34 .

(44) Macc., I,13,15.

(45) Macc., I,13,34.

(46) Macc., I,15,5; 30.

(47) Jos., Ant., XIII, 247.

(٤٨) انظر مفيد رائف العابد ، عصر سلوقس الاول ، رسالة جامعية غير مطبوعة (القاهرة ـ١٩٧٥).
ص٣١٢ وما بعدها ، قارن مع : Rostovtzeff. C.A.H, vol VII,P.167.

(49) Cf. Polyb., XXI, 24; XXII, 7.8; XXI,48; XXII,27, 2;Cf. M.Holleaux, R.E.G. (1898) P. 258; R.E.G. (1937) P. 239; Cf. Jos., Ant, XII, 144.

(50) Cf. A.Andreades , A history of Greek Public finance (1933) Vol I, P. 89.

(51) Bikerman, Op cit , P. 106.

(52) Mecc., II, 4, 23.

(53) App. Syr. 2; Cf.M. Holleaux. Rome , la Grece et les monarchies hellenistiques, P. 46.

(54) Polyb., VIII, 23,4.

(55) Bikerman, opcit, P. 106 (N.2);Cf, Macc., I,10,30.

(56) Joseph. Ant. XIII, 246.

(57) App., Bell civ, V,4.

(58) Macc., I, 10. 30; Cf. Jos., Con., Apion, II, 43.

(59) Jos., Ant., XIII, 246.

(60) Macc.,II,4,8;4, 24;Macc.,I, 11,28 Macc., I,13. 65; Diog Laert., II,140.

(61) Pol., VIII, 23,5.

(62) Pol., V, 44, 1; X, 27, 2; Cf. Strabon, 525 .

(63) Bikerman. Opcit, P. 106 (N.2).

(64) O.G.I.S, 228; Fouilles de Delphes, III, 1 (N. 483); **B. C. H,** (1930) P. 351 .

(65) Welles. R.C, 15,1,22.

(66) Macc.. I, 13,41.

(67) Cic., III, Verr., 6; « quasi Victoriae paremium ac poena belli».

(68) Prophyr. 260 fr. 32, 8 Jac.

(69) Diod., XXVIII, 15, 2.

(70) Pol., VIII,23, 5.

(71) Diod., XXXIV, 15.

(72) Sardis, VII, 1, (N. 1); **A.J.A,**(1912) , 12,1, 10.

(73) Macc., II, 4, 23.

(74) Ibid .

(75) Macc., II, 4, 27; Cf. Jos., Ant.,XII, 158, 159.

(76) Welles, R.C, 15; Bikerman, opcit, p. 108 (N. 7), B. Haussoulier, Études sur P. L'Histoire de Milet et du Didymeion (1902) P. 63.

(77) S. E.G, III, 410; Michel, opcit, 503.

(78) Ps. Arist., Oecon., 1345, b, 29;Cf. A.M. Andredes, opcit, I, P. 103, M. Rostovtzef, Kolonats (1910) P. 253.

(79) M. Holleaux, B.C.H, (1924) P.42.

(80) Iasos, Michel, 463; Pergame, Michel, 519, 20; S. E. G; II, 580; Cf. H.Francotte, Les finances des grecques (1909) P. 91 .

(81) Joseph. Ant., XII, 142; Cf. XIII, 50; Macc., I, 10, 30.

(82) P. Tebtunis, III, 701, 186.

(83) Aristotle, Oecon, 1346, a, 4; Cf. Bikerman, Opcit, 111 (N. 4).

(84) C.F. Belleine, Class. Rev, (1906) P. 81; Cf. Bikerman, Opcit, p. 111, (N. 5) .

(85) Welles, Opcit, Index. S.V; Cf.Bikerman, opcit, P. 111 .

(86) Welles, opcit, 22, 11.

(87) Welles, opcit, 15,2.

(88) Diod., XIX, 48; P.Cairo Zenon, I, 59036 , 25.

(89) Pol., XXI, 34, 7; XXII, 17,4.

(90) Pol. XIII, 9,2 .

(91) Macc., II, 14, 4; Cf. Welles, R.C, 22, 11.

(92) Macc., I,13,37.

(93) Macc., I, 10,29.

(94) Jos., Ant., XII, 142.

(95) M. Rostovtzeff. Y.C.S, III (1932) P. 81; R. H.. Mc Dowell, Objects from seleucia (1935) p. 179.

(96) F.Heichelheim, R.E. XVI, 160;C.Preaux,Les Ostraca grecs de Brooklyn (1935) P. 15.

(97) Macc., I, 10, 29; Cf. Bikedman, Opcit, pp. 112 (N.4) , 113.

(98) Bikerman, ibid (N. 6).

(99) Phylarch. 81 fr . 65 Jac; Athen., 73 d; Bikerman, opcit, P. 113(N.7).

(100) Rostovtzeff, opcit, p. 86; Mc Dowell, Opcit, p. 50;Bikerman, opcit,p. 114 (N. 3).

(101) Macc., I, 10, 42; Jos. Ant ., XIII, 55; Cf. XI, 297.

(102) Macc., II, 11,3.

(103) S.I.G, III, 353, 552; Cf. S.E.G,IV, 560; Welles, R.C.9; Cf. 43.

(104) L. Robert, **B.C.H**, (1933) P. 468 (N. 1).

(105) A. Bouché Leclerq, Histoire des lagides, III, p. 304.

(106) Bikerman, Opcit, p. 115 (N. 4).

(106) Pol., V,89,8; XXI, 45,17.

(107) H. Francotte, Les finances des cités grecques (1909) P. 267.

(108) M. Rostovtzeff, **Y.C.S**, III, p. 79 .

(109) Jos., Ant., XII, 141.

(110) Ps. Aristotle. Oecon. 1346, &I,1352, b. 26; Cf. J.Johnson, The exc avtions at Dura - Europos, II,P. 157.

(111) Ps. Aristotle. Oecon. 1352, b, 26;Cf.A. Andreades, **B.C.H**,(1929)p.2.

(112) Rostovtzeff. Opsit, p. 66 (N.12) : Mc Dowell, Stamped and inscribed objects form Seleucia on the Tigris (1935) p. 176; Cf. Strabon, 798.

(113) Macc. I, 10, 31; Jos., Ant., XIII, 51.

(114) Macc., I, 11, 35; Jos., Ant., XVIII, 90;XVII, 205;Cf. Bikerman, Opcit, P. 113 (N. 8).

(115) Mc Dowell, Opcit, p. 173.

(116) Rostovtzeff, Opcit, p. 87.

(117) Welles, R.C, 70,12.

(118) Rostovozeff, Opcit, p. 77; Cf.65; Mc Dowell, Opcit, p. 176.

(119) Rostovtzeff, opcit, p. 64.

(١٢٠) ابراهيم نصحي ، البطالمة ، ج٣، ص ٢٥٢-٢٨٧ .

(121) Ps. Aristotle, Oecon. 1346, a, 1; Diod., II, 41; Cf. P. Aegyptus,(1936) 237.

(122) Ps. Arist., Oecon. 1346, a, 5.

(123 **B.C.H**, (1922) 307; S.E.G, II, 579.

(124) O.G.I.S., 215.

(125) Bikerman, Opcit, P.110, (N.6).

(126) Welles, R.C, 41,8.

(127) O.G.I, S, 228, 7; Cf. Rostovtzeff Kolonat, p. 244.

(128) Pol., V, 89,9; Cf. Holleaux, **R.E.G,** (1923) P.485.

(129) Diod., XXXI, 36: Cf. Pol., XXI17, 6.

(130) Ps. Arist., Oecon. 1345, b, 33,

(131) E. Schürer, Geschichte der Judischen Volkes, I. P. 380.

(132) Jos., Ant., XII, 141; Cf. Livy., XXXVII, 56, 2; Rostovtzeff, Klio, (1911), P. 387.

(133) Pol., XI, 34, 12.

(134) Pol., XIII, 9,5.

(135) App. Syr. 47; Cf. Diod., XXXI, 32.

(136) Pol., V, 76, 10.

(137) Macc., II, 8, 10; Cf. Macc. I, 3,41, 10,33.

(138) Daniel, XI, 29; Macc., I,19.

(139) Pol., XXXI, 4,10.

(140) P. Tebtunis, III, 781.

(141) Pol., V, 54,9.

(142) Diod., XXXIII, 4; Jos., Ant ., XII, 236; Macc., II, 3, 11 .

(143) Cf. M. Holleaux, **R.E.A,** (1916)P. 77.

(144) Macc., II, 3. 11.

(145) Macc., II, 5,21; Macc, I, 1,21.

(146) Gran., Licin., 28; Cf. Bikerman, Opcit, P. 121.

(147) Pol., XXXI, 11.

(148) Justin., XXXII, 2.1; Sulpicius.Severus. II, 19, 6.

(149) Diod., XXXIV, 27.

(150) Arnobius. Advresus. Nationes, VI, 21; Cf. Bikerman, Opcit, P. 122 (N. 2) .

(151) Livy., XXXV, 49, 10.

(152) Cf. Bikerman, Opcit. P. 49.

(153) Pol. X, 27, 3; Cf. E.Babelon, les Rois de Syrie, p.L XXX.

(154) O.G.I.S, 335, 134.

(155) Welles . R.C, 18.

(156) Plin, V, 86, VI, 31.

(157) Jos., Ant., XII, 152.

(158) Macc., I,10, 45.

(159) M.Holleaux, **B.C.H,** (1924) P. 24.

(160) Jos., Ant., XII, 140; Cf. Macc.II, 3,2; 9, 16.

(161) Jos., Ant., XII, 142; Macc., I, 10, 44; Lucian., de dea Syr. 17;19.

(١٦٢) مفيد رائف العابد ، انشاء المدن في اطار السياسة السلوقية لهلينة سورية ، رسالة جامعية غير مطبوعة (القاهرة ـ١٩٧٢) ص١٥ ومابعدها.

(163) Libanius, Antioch. 121; 125; Cf. K.O.Mueller, Antiquitates Antiochenae (1839) P. 69.

(164) Cf. L. Robert,Études anatoliennes, P. 452.

وايضا ، مفيد رائف العابد ، المرجع السابق ،ص٢٥وما بعدها .

(165) O.G.I.S, 213; Cf. S.E.G, III, 577, 30.

(166) Livy, XLI, 20; Cf. Macc., I,3,30; Pausanias, V, 12,4.

(167) E.Bevan, The house of Seleucus (1902) II, P. 148.

(168) Welles, R.C, 5.

(169) B. Haussoullier, Études sur L'Histoire de Milet (1902) P. 215.

(170) Welles, R.C, 70; Cf. Bikerman,opcit, p. 124 (N.3).

(171) S.E.G, I, 366.

(172) Welles, R.C, 12, I, 20.

(173) Posidon., 87 Fr. 21; Athen., 540; F.H.G, IV, 425.

(174) Pol., XXVIII, 20, 11; 22,11.

(175) Athen., 211 a.

(176) Holleaux, **B.C.H,** (1933) P.7.

(177) Macc., I,11,58.

(178) App., Syr., 6.

(179) Livy, XXXVI, 26, 5.

(180) Livy, XXXVI, 11,8.

(181) Livy, XXXIX, 28,6.

(182) Pol., XXXIII, 5,4.

(183) Livy, XLII, 6, 18.

(184) App., Syr., 47; Pol., XXXII, 6,1.

(185) Diod, XXXIII, 28 a.

(186) Livy, Epit., 57.

(187) Pol., V, 89,8.

(188) Pol., XXII, 12, 13.

(189) Michel, Recueil (1900) 335, 25;S.E.G, III, 644.

(190) Livy., XXXVIII, 10, 3; Welles,P. 81; Cf. Justin, XXVII, 2, 12.

(191) Pol . XXI, 16,5.

(192) Livy, XLII, 6, 18.

(193) Macc., II, 8, 10.

(194) Pol., XXI , 16.

(195) E. Cavaignac, Population et capital dans le monde Mediterraneén antique (1923) P. 113.

(196) Porphyr., 260 fr. 32, P. 1223, 25 Jac.

(197) Livy, XXXVII, 59, 3, 58,5.

(198) Plut., Agis, 7.

(199) Livy, XXXV, 48, 7.

(200) Macrob., II, 2.

مدينة حمص في العهد الروماني

عبد الحميد عز الدين
دمشق ، وزارة التربية

مقدمــة :

تاريخ الامبراطورية الرومانية جزء من التاريــخ العالمي العــام ، وهو بالوقــت نفسه تاريخ مقاطعات واقاليم ايضا ، تاريخ الشعوب والمدن التي انضوت تحت لــواء ما اسماه الرومان انفسهم بالسلام الروماني «Pax Romana» . ولما كانت المصــادر الادبية قليلة ونادرة في هذا المجال من الابحاث والدراسات القديمة ، فــان على البحث والدراسة ان يجهدا نفسيهما بجدية أكثر في جمع وتقييم الشواهد التي يمكن الحصول عليها من خلال ملاحظات وهوامش عرضية ، ومن مخلفات ابيغرافية (نقشية) ونقدية (من النقود) واثرية . ان اجراء مثل هذه الدراســات يقدم فرصــة طيبــة لاختبــار الاساليب المختلفة في النقد التاريخي ، خاصة اذا كان موضوع البحث يــدور حــول انسان الزمن القديــم .

وتاريخ المدن هو جزء من تاريخ الاقاليم التي تنتمي اليها . فاذا اردنا ان نبحث في تاريخ اي مدينة من مدن سورية الكبرى فلابد من ذكر الخطوط العريضة للتاريخ السوري العام في اطاره العربي القومي. لقد كانت سورية منذ العصور القديمــة محط انظــار الفاتحين بسبب موقعها الجغرافي الهام ، فخضعت في الجانب الاكبر من تاريخها الطويل لسيطرة الدول القريبة والبعيدة على الســواء ، ومعظم الشعوب التي لعبت دورا فاعلا على مسرح الاحداث العالمي ، كالاكاديين والبابليين والاشوريين والحوريــين والحثيين والمصريين والكريتيين والقبارصة والفرس واليونان والرومان والمغول والتتر والاتراك والاوربيين ..، قد وجدت سبيلها الى هذه البقعــة من الارض . وكان قــد سبق كل هؤلاء الى ارض سورية الجماعات والشعوب العربية القديمة (او الساميــة) القادمــة من شبه الجزيرة العربية ، مثل العموريين والكنعانيين والاراميين والانباط والتدمريين والغساسنة .. والتي كانت خاتمتها الموجة العربية الاسلامية التي اعطت هذه البــلاد

طابعها النهائي . وكان من نتائج هذا الحضور المتعدد الجنسيات على المسرح السوري تمازج حضاري متعدد الاشكال ساهم الكل فيه ، ولكنه بقي في جوهره عربي الاصل وعربي الجذور ، وكانت لهذا الاصل ، في النهاية ، الغلبة والبقاء والاستمرار .

واذا كانت سورية من حيث موقعها بمثابة القلب بالنسبة للعالم العربي فان مدينة حمص هي واسطة العقد بالنسبة للمدن السورية الاخرى ، وقد لعبت بسبب هذا الموقع دورا مهما في الحياة السياسية والاقتصادية للمنطقة . وجذور مدينة حمص ـ كما أشارت بعض الحفريات الاثرية ـ تمتد الى منتصف الالف الثالث قبل الميلاد، وكان العرب الكنعانيون بناتها الاوائل ، وقد عاصرت إبلا وأوغاريت وكل المدن السورية القديمة .. وما يهمنا في هذه الدراسة هو القاء الضوء على تاريخ مدينة حمص في فترة الحكم الروماني لسورية والسلالات العربية التي حكمت في تلك المدينة ، اذ تتوافر المصادر الادبية والاثرية عنها أكثر من الفترات التاريخية السابقة التي مرت بها . فالمدينة لم تفقد طابعها العربي اثناء حكم السلوقيين ، أتباع الاسكندر المكدوني في سورية ، وقد بدأ دورها من معبد الشمس حيث كان لكهنته اهمية فكرية وسياسية على المنطقة كلها واستطاعت سلالة منهم سميت بأسرة الشمس أن تستقل بحكم المدينة عن سلطة السلوقيين لمدة أكثر من نصف قرن قبل استيلاء روما على سورية. وكانت هذه الاسرة عربية الاصل اتخذ بعض رؤسائها لقب الملك العظيم: « rex magnus » كما يشير الى ذلك النقش الحجري : CIL III 14387a=Dessau , ILS 8958 ، وصكت النقود باسمه . وقد أقر القائد الروماني بومبي «Pompeius» رئيس هذه الاسرة «سمسيغرام: Samsigeramus » في حكمه وعقد صداقة معه واتخذ هذا الاسم العربي لقبا له الى جانب الالقاب التي أطلقها على نفسه في احتفالات النصر في روما . وقد جلب له هذا اللقب سخرية المواطنين الرومان وعلى رأسهم القنصل والكاتب والخطيب الروماني « شيشرون : Cicero (١٠٦ ـ ٤٣ ق.م) » .

لقد كانت سورية على مدى كل العصور التاريخية ـ كما يقول ف. كومو F. Cumont في الفصل الخامس من كتابه : الديانات الشرقية في الوثنية الرومانية ـ موطن التدين والعبادات المتوهجة . وكانت الشمس في المعتقد السوري أقوى الآلهة : فهي تتحكم بمسار الازمنة والاشياء وتقود دورة النجوم ، وهي ، كما يقول «شيشرون» « قائد وملك كل الانوار السماوية الاخرى والعقل المدبر للعالم كله ».

ومن خلال معبد الشمس استطاعت حمص ان تتربع على عرش روما سيدة العالم في ذلك العصر ، وتتحكم في مصير الامبراطورية الرومانية لمدة خمسين عام تقريبا ، كما استطاعت ان تفرض لفترة قصيرة قيادة اله الشمس الحمصي « إيلا جبال » الذي لا يقهر كأعلى وأعظم آلهة في مدينة روما : « deus invictus Sol Elagabalus »

موقعها الجغرافي ومركزها التجاري :

تقع Hemesa او Emesa التي تسمى اليوم بـ « حَمص »(١) أو « حِمْص (٢)» في سهل واسع وخصب مباشرة على نهر العاصي الذي يزود المدينة بمياه الشرب ويسقي حقولها وبساتينها . وبفضل موقعها المركزي المتوسط بين تدمر ونهر الفرات ــ الحد الشرقي للامبراطورية الرومانية ــ شرقا ، والساحل السوري غربا، وبين افاميا وحماة شمالا ودمشق جنوبا ، وقربها من جبل لبنان «mons Libanus» ومن مدينة بعلبك (Heliopolis) في الجنوب الغربي ، استطاعت حمص في عهد الامبراطورية الرومانية أن تتطور بسرعة وتزدهر مما يفسر الى حد ما حقيقة جعلها العاصمة السياسية لمقاطعة لبنان الفينيقية في العصور القديمة المتأخرة في عهد القيصر تيودوسيوس Theodosius ٣٧٩ ــ ٣٩٥)(٣) . وقد كتب المؤرخ السوري ليبانيوس «Libanius»* في احدى رسائله وصفا رائعا للمدينة وللمكانة العلمية والدينية التي وصلت اليها في هذه الفترة ، يقول ليبانيوس :

(إنها عين فينيقيا ومقر الالهة ومهد العلوم والدراسات ، وهي منبع الفضائل والمسرات ، وان المرء ليعجز عن تعداد هذه الفضائل . .).

ὁ ὀφθαλμὸς τῆς Φοινίκης καὶ τῶν θεῶν οἰκητήριον καὶ τὸ τῶν λόγων ἐργαστήριον καὶ ἡ πηγὴ τῶν ἀγαθῶν καὶ εὐθυμιῶν, καὶ οὐκ ἂν ἐξαριθμήσαι τις τὸ πλῆθος τῶν ἀγαθῶν ..

(*) مؤرخ سوري ، ولد في مدينة انطاكية ٣١٤-٣٩٣ ، وتعتبر خطبه ورسائله مصدرا رئيسا للحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية في انطاكية والجزء الشرقي من الامبراطورية الرومانية في القرن الرابع الميلادي .

* Libanii Opera, ed. R. Foerster , vol. XI (1922), epist. 846

كانت مدينة حمص في ذلك العهد تتصل مع أهم المدن السورية بواسطة شبكة من الطرق الممتازة التي كانت لها اهداف عسكرية بالاضافة الى اهداف تجارية وسياسية . واذا اخذنا بعين الاعتبار ان سورية كانت اخر مقاطعة بالنسبة للامبراطورية الرومانية من جهة الشرق فان باستطاعة المرء ان يفترض وجود شبكة جيدة من الطرق مدها الرومان لتسهيل تحركات جنودهم ، وبشكل خاص على الحدود الشرقية للامبراطورية حيث تقوم امبراطورية الفرثيين [Parthia ٢٤٨ ق.م – ٢٢٦م] المعادية على الضفة الشرقية لنهر الفرات . ولكن من الغريب عدم وجود أي طريق يصل بين حمص وتدمر على اللوحة البويتنغريانية «Tabula Peutingeriana» (٤). ويمكن تفسير ذلك بالطبيعة الصحراوية للمنطقة بين هاتين المدينتين السوريتين التي لم تسمح بمد الطرق عبرها . الا ان وجود بعض العلامات الحجرية التي تستخدم في قياس الطرق والتي تعود الى ذلك العهد تشير الى امتداد طريق بين حمص وتدمر (٥) يعتقد بأنها مدت اثناء فترة حكم القيصر [سبتيموس سفيروس ١٩٣ – ٢١١](٦) ويبلغ طول هذه الطريق ثمانين ميلا رومانيا(٧) . واذا سرنا على هذه الطريق منطلقين من مدينة حمص، فان أول محطة تواجهنا هي قلعة « بيت بروكلس »(٨). ويدل على امتداد هذه الطريق بعد هذه المحطة وجود بعض الاعمدة المهدومة واحجار المسافات ، وبقايا بعض نقاط الحراسة وابراج المراقبة التي كانت ترابط فيها الخيالة الساراسانية « epuites Saraceni » (٩) حيث تنتهي عند المحطة الثانية بيرباراك «Beriarac» (١٠) التي تقع على مسافة قريبة قبل تدمر . وتدل معاصر الزيت التي وجدت عند المحطة الاولى المذكورة شرقي حمص بأن الصحراء في ذلك الوقت لم تكن تمتد قريبا جدا من حمص كما هي الحال اليوم (١١). ولقد قامت تدمر بحماية هذا الطريق التجاري الممتد ما بين بلاد ما بين النهرين وساحل البحر المتوسط من هجمات القبائل البدوية التي كانت قديما ولا تزال سيدة الصحراء . لقد كان هؤلاء عثرة في طريق القوافل التجارية القادمة من الشرق الاقصى والهند والخليج العربي حيث كانوا يشنون عليها الهجمات ويسرقون أمتعتها أو يفرضون عليها ضرائب جمركية عالية . وقد اضطرت هذه القوافل بسبب ذلك الى تغيير خط سيرها فأصبحت تأتي عن طريق شمال سورية ، الامر الذي أفادت منه المدن الشمالية واغتنت كثيرا(١٢) . لقد استمر الوضع على هذا الشكل طوال الوقت الذي كانت فيه تدمر قليلة الاهمية ، ولكنها عندما أصبحت مركزا تجاريا مرموقا عادت القوافل التجارية تستعمل الطريق القديم الذي هو اقصر بكثير من الطريق التي كانت تسير عليه في شمال سورية ، وقد تمكنت تدمر من اخضاع القبائل البدوية لسيطرتها ومراقبة تحركاتهم . واستطاعت حمص ان تفيد ايضا من هذا الخط التجاري الذي كان يأتي بالبضائع عبر نهر الفرات عن طريق تدمر الى البحر المتوسط. لقد اضطر بعد المسافة بين المدينتين ، بالاضافة الى المد الصحراوي الواسع، القوافل

التجارية الى جعل حمص محطة للاستراحة لوقت غير قصير . وليس هناك من المصادر الادبية والنقوش الحجرية ما يشير الى ان حمص كانت تفرض على هذه القوافل التعرفة الجمركية(١٣) كما كانت تفعل تدمر نظرا لان مدينة حمص والمنطقة المحيطة بها فقيرة بالشواهد الاثرية والنقوش . ان الاجابة على هذا التساؤل تتطلب معرفة فيما اذا كان لمدينة حمص دستور ينظم حياتها ، ومعرفة فيما اذا كان المؤرخ الجغرافي سترابو «Strabon» (٥٨ ق.م ــ ٢٥م) يقصد بعبارة « الشعب الحمصي »(١٤) المفهوم الاداري للدولة.. الا انه من الثابت على اي حال ان مدينة حمص اتخذت لفترة طويلة طابع مدينة تجارية ومحطة للقوافل ، وان حياة المدينة بالمعنى المفهوم للكلمة قد ظهرت متأخرة بعض الشيء . ومما يؤيد هذه الحقيقة أحد الصكوك المعدنية العائدة لعهد الانقلابي سولبيكيوس (Usurpator Uranius Aurelius Anton. Sulpicius) عام ٢٥٣/٢٥٤ والتي تمثل جملا مقصوص الشعر (على خلاف الصكوك التدمرية التي كان يظهر عليها غالبا الجمل الحربي)(١٥) . وهذا يرمز الى التجارة المثمرة التي أعطت حمص أهميتها وروعتها(١٦).

بالاضافة الى مركزها التجاري فقد كانت حمص احدى المدن السورية الصناعية الشهيرة في ذلك العهد والتي كانت السبب في جعل سورية بلدا صناعيا مصدرا . فالتجار السوريون (Syri negatiotores) والمصانع السورية كانت تنتشر في كل مكان من الامبراطورية الرومانية . وهذا الشاعر الروماني « جوفينال Juvenal » يتذمر في هجائيته المسماة « بابل » بأن نهر العاصي السوري أصبح يصب منذ زمن بعيد في التيبر ، والحياة اصبحت في روما لا تطاق من كثرة هؤلاء الاغراب الذين توافدوا على العاصمة واستقروا فيها(١٧) :

« أي نوع من الناس اصبح الان بشكل خاص محببا الى اغنيائنا ، هذا النوع الذي احتقره انا فعلا أكثر من كل شيء اريد ان أسميه لكم حالا ، وسوف لن يمنعني عن ذلك اي نوع من الخوف ، انني لا استطيع ان احتمل ، ايها المواطنون الرومان ، ان تصبح روما الان مدينة يونانية ، حتى ولو كانت ثمالة اليونانيين قليلة ،

١ ــ نهر سورية العاصي ، أصبح يصب منذ زمن طويل في نهر التيبر .

٢ ــ لقد جلب معه العادات التقاليد ، اللغة وآلات الطرب الوترية السورية.

٣ ــ كما جلب معه الموسيقيين والطبول ، وبالاضافة الى ذلك فقد اتى

٤ ــ بالبنات اللواتي يبعن انفسهن بصورة حرة في السيرك ،

أسرعوا الى هناك الآن بلا تباطؤ اذا كانت لديكم الشهوة الجامحة نحو زانية غريبة ذات غطاء الرأس الملون المبرقع »(١٨) .

لقد لعبت طبيعة المواطن السوري والمواصفات التي كانت تتمتع بها سورية في الزمن القديم دورا كبيرا في هذا النشاط التجاري ، حيث كانت سورية تشكل ممرا للقوافل التجارية القادمة من الشرق الاقصى(١٩) .

حدودها وطرقها من الجهة الشرقية :

أما فيما يتعلق بمسار الحدود بين منطقتي تدمر وحمص فان هناك ثلاث مصادر متوافرة تحدد الخط الفاصل بين المدينتين : الاول ادبي والثاني والثالث نقوش حجرية تستعمل كمؤشر للدلالة على امتداد الحدود :

المصدر الاول :

يقول المؤرخ الروماني « بلينيوس الاكبر : G. Plinius Secundus » (٢٣—٧٩م) في كتابه « التاريخ الطبيعي naturalis historia » ، الكتاب الخامس ، الفقرة ٨٩ :
« تقع حمص غرب تدمر وتمتد الصحراء بينهما » :
Ultra Palmyram quoque ex solitudini bus his aliquid obtinet Hemesa .

المصدر الثاني :

حجر من أحجار الحدود كتب عليه ما يلي : (IGL Syr. V, 2552)

الامبراطور قيصر
ابن الاله القيصر هدريان
وحفيد الاله القيصر تراجان قاهر
البارثيين ، وحفيد حفيد الاله القيصر نيرفا ،
تيتوس ايليوس هدريانوس
انطونينوس أغسطس الصالح ،
الحبر الاعظم ، تقلد سلطة التريبون
١٦ مرة ، أصبح امبراطورا مرتين ،
وقنصلا ٤ مرات ، ابو الوطن ،
أعاد حدود تدمر

التي كان قد حددها كريتكوس سيلانوس،
البروبريتور ،
مبعوت القيصر
حسب رغبة والده الاله القيصر هدريان
الى ما كانت عليهه ، وقد أعيدت
من قبل مبعوث القيصر البروبريتور ،
بونتيوس ليليانوس في شهر ديسمبر
كانون اول ، في فترة حكم القنصلين
بريسنتوس وروفينوس(٢٠)

المصدر الثالث :

حجر حدود كتب عليه : (IGL Syr. V, 2552)
« Fin [es] inter Hadriano [s] Palmyrenos et Emesenos »
« الحدود بين التدمريين الهدريانيين والحمصيين »(٢١)

ويمكننا ان نستنتج مما ذكر ان :

١ ـ حدود منطقة حمص كانت تمر بالقرب من تدمر منذ زمن كريتكوس سيلانوس (١١/١٢ ـ ١٦/١٧ م)(٢٢) .

٢ القيصر هدريان كان قد وعد التدمريين بإجراء تصحيح على الحدود لدى زيارته لتدمر في عام ١٢٩(٢٣) .

٣ ـ هذا التصحيح للحدود قد جرى من قبل القيصر انطونينوس بيوس : Antoninus Pius (١٣٨ ـ ١٦١ م) ما بين الاول والعاشر من شهر كانون اول عام ١٥٣(٢٤)، بحيث أنها أصبحت تمتد مابين مكان وجود حجر الحدود (IGL Syr, V, 2550) عند خربة البلعاس على مسافة ٧٠كم شمال غرب تدمر وبين حجر الحدود الذي وجد عند قصر الحير الغربي على بعد /٦٠/كم في الجنوب (IGL Syr.V,2552) الغربي من تدمر ، وقد كان هذا الحجر مطمورا في القصر الاموي . وهذا يعني انه قد تم إبعاده من مكانه الاصلي الذي وضع فيه ، الا أن احتمال نقله من مكان بعيد غير وارد(٢٥) . وبما أن الحجرين المذكورين قد وجدا على نفس خط العرض ، فان من المحتمل أن يكونا نقاطا (وربما نقاط نهاية) لخط حدود مستقيم مُدَّ عبر الصحراء بحيث أن هذا الخط كان يبعد عن حمص مسافة /٨٠/ كم تقريبا .

حدودها وطرقها من الجهة الغربية :

كانت حمص كما ذكرنا محطة للقوافل التجارية القادمة من تدمر ، وكانت القوافل

تقوم بعد ذلك بنقل البضائع منها الى مدن الساحل السوري حيث يتم شحنها بعد ذلك عن طريق البحر الى ايطالية . وكانت تمتد بين حمص وهـذه المدن الساحليـة أيضا شبكة من الطرق الحربية والتجارية . ويبرهن اكتشاف حجرين لقياس المسافات على وجود طريق كانت تصل حمص بمدينة طرابلس الشام اللبنانية مـارة بـ « أورتوزيا: Orthosia » وهي نفس الطريق الذي يصل اليوم مدينة حمص بطرابلس(٢٦). انناالا نعرف
وهي نفس الطريق الذي يصل اليوم الشام مدينة حمص بطرابلس (٢٦) . اننا لا نعرف شيئا عن المحطات التي كانت تقع على هذه الطريق ، كما أننا لا نعرف الزمن الذي تـم مدها فيه . فمن الممكن أن تكون امتدادا لخط تدمر ــ حمص وبالتالي يمكـن أن يكون قد تم توسيعها في عهد حكومة القيصر سبتيموس سفيروس بحيث أصبحت تستعمل لتحركات الجنود الرومان . فمن بين الاصلاحـات الفنية والاداريـة(٢٧) التي قام بها القيصر سفيروس في سورية التي قسمها الى قسمين : سورية المجوفة (Syria Coele) وسورية الفينيقية(٢٨) (Syria Phoenice) كان أيضا مد الطرق العسكرية وانشـاء الجسور وذلك لتسهيل تحركات الجنود وتأمين المؤونة اللازمة لهم . لقد وجه القيصر عناية خاصة الى مدينة حمص واعتنى بمد شبكة خطوط تصلها بمختلف المدن مما ساعد على تطورها وازدهارها . وقد كان ذلك بهدف نقل السلطة المركزية من مدينة انطاكية، ثم لاظهار حبه ومودته لزوجته جوليا دومنا « Julia Domna » التي ملكت عليه قلبه وعقله حيث كانت هذه الشبكة من الطرق تربط جميع أطراف مقاطعة « سورية الفينيقية »(٢٩) التي أصبحـت حمص فيما بعد عاصمـة لها . لقد قام القيصـر ــ الى جانب عنايتـه بمسقط رأسه ــ (*) برعاية مدينة حمص وتجميلها أيضا اكراما وحبا لزوجته(٣٠) .

كانت المنطقة التابعة لحمص من جهة الغرب محدودة جدا وذلك بسبب الوضـع الجغرافي لسلسلة جبال لبنان التي تمتد أطرافها حتى قبل منطقة حمص بقليل ، وبسبب الحدود السياسية للامارات الصغيرة المجاورة ، بحيث كانت هذه الحـدود تمتد على نفس امتداد الحدود الجغرافية

فعلى الطرف الثاني لجبال لبنان كانت تقوم دولـة « إيتوريـا : Ituraea التابعة لبطليموس مينايوس (Ptolemaius Mennaios) الذي كان يتخذ من مدينـة شلكيس (Chalkis) (زحلـة اليوم) مقره الرئيسـي ، وكانت بعلبك مركزا دينيـا بالنسبة لهم(٣١) .

(*) مدينة Leptis Magna اسسها القرطاجيون. وموقعها الاثري في ليبية بالقرب من مدينة لبدة الحالية، الواقعة بين طرابلس الغرب وجبل نفوسة .

تعتبر المنطقة الممتدة غرب مدينة حمص من المناطق الخصبة والجميلة جداً في سورية ، ويعود الفضل في ذلك الى مجرى نهر العاصي الذي يمر غربي المدينة(٣٢). وكما ان النهر شريان الحياة بالنسبة للمدينة فانه لم يكن بأقل أهمية في العصر القديم ، فعلى ضفافه كما يبدو كان يقيم الحمصيون طقوسهم الدينية ويحتفلون « بعيد الميماس ». وليس لدينا دليل مباشر على هذا الرأي ، انما يمكن استنتاج ذلك من أن مجرى النهر في غرب المدينة لا يزال يسمى حتى اليوم بـ «الميماس» . يقول المؤرخ الفرنسي رينيه دوسو : كان الحمصيون في الزمن القديم يمارسون طقوسهم الدينية يوميا على ضفاف النهو وهذه الطقوس كانت تمارس دائما بالقرب من الماء ، ومن هنا فقد أطلق عليها اسم « مايوماس »(٣٣) .

شبكة طرق مختلفة :

الى جانب مصور الطرق والمدن والجبال والانهار الآنف الذكر « Tabula Peutingeriana » يرسم جدول الطرق المسمى « Itinerarium Antonini » عدة طرق تدي الى حمص وأخرى تنطلق منها الى عدة اتجاهات :

الطريق الاول :

طريق : Scytopolis - Seriane سيرياني سكيتوبوليس ويبتدىء من سيرياني في شمال تدمر وينتهي عند سكيتوبوليس في فلسطين بطول /٣١٨/ ميلا رومانيا ، مارا بالمحطات التالية مع الاشارة الى المسافة بين كل محطة والمحطة التي تليها :

المسافة		ميل		اسم المحطة
٣٢ميل	XXXII	m.p.	Salaminiade	: السلمية
١٨	XVIII		Emesa	: حمص
١٨	XVIII		Laudicia	: اللاذقية
٣٢	XXXII		Libo	: ليبو
٣٢	XXXII		Heliupoli	: هليوبوليس
٣٨	XXXVIII		Abila	: ابيلا
١٨	XVIII		Damasco	: دمشق
٣٢	XXXII		Aere	: إيرا
٣٠	XXX		Neve	: نيفا
٣٦	XXXVI		Capitoliade	: كابتولياد
١٦	XVI		Gadara	: غادارا
١٦	XVI		Scytopoli	: (٣٤)سكيتوبوليس

الطريق الثاني :

طريق دمشق ــ حمص : a Damasco - Hemesam بطول /١٥٢/ ميلا، مارا بالمحطات التالية :

٣٨ميل	XXXVIII	Abila	:	ابيلا
٣٢	XXXII	Heliupoli	:	هليوبوليس
٣٢	NNNII	Conna	:	كونئـا
٣٢	XXXII	Laudicia	:	اللاذقية
١٨	XVIII	Emesa	:	حمص (٢٥)

الطريق الثالث

طريق انطاكية ــ حمص على العاصي ، بطول ١٣٤ ميـل روماني ، مارا بمدينـة أفاميـا والمحطات التالية :

١٣٤	CXXXIIII	m.p.	a (b) Antiochia Hemesa	أنطاكية ــ حمص
٢٦	XXVI		Niaccaba	: (نياكابا)
٢٤	XXIIII		Caperturi	: كبرتوري
٢٠	XX		Apomea	: أفاميا
١٦	VXI		Larissa	: لارسَّا
١٦	XVI		Epiphania	: حماة
١٦	XVI		Arethusa	: الرستن
١٦	XVI		Emesa	: حمص (٢٦)

مسالة البحيرة والسد القائم عليها :

وفي الجنوب الغربي كان يحد مدينة حمص مدينة «لاوديكيا» (٣٧) الواقعة على سفح جبل لبنان «Laodicea ad Libanum» والقريبة من بحيرة حمص (٣٨) «Emisenus Lacus» التي تعرف باسم بحيرة قطينـة ويخترقها نهر العاصي . وتعد هـذه البحيرة والسـد الذي يحجز ماءها اشكالا للباحثين اليوم . فالمـؤرخ العربي ابو الفـداء (٣٩) يذكر بأن البحيرة منشأة اصطناعية ، وينسب بنـاء السد الى الاسـكندر المكدوني، اما جغرافية التلمود فتنسب البحـيرة الى القيصـر ديوكليسيان Diocletian ، (٢٨٤ــ٣٠٥م) ، الذي أمر بتوحيد مجاري عدة انهر مع بعضها نجم عنها هذه البحيرة . ويجب أن يكون قد حصل هذا عندما قام القيصر المذكور بمحاربـة الساراسانيين ما بـين ٢٩٠ و ٢٩٢ للميلاد (٤٠) وذلك لطردهم من سوريـة التي هاجموهـا في ذلـك الوقت . وقـد اثبت « ڤولور J.Weulersse » من خلال دراسته لمجرى النهر اننا امـام مستنقـع طبيعي

وليس أمام بحيرة اصطناعية(٤١) . وقد أيده في هذا الرأي ايضا المؤرخ الفرنسي «سيريغ (H.Seyrig) الذي قال بأن الوظيفة الاساسية للسد هو رفع مستوى البحيرة المستنقعية(٤٢) . أما جغرافيو العصر القديم ، مثل سترابون وبلينيوس الاكبر فلا يذكرون شيئا عن ذلك(٤٣) ، وانه ليصعب ايجاد مؤشر يدل على زمن بناء السد، وهل تم بناؤه قبل العصر الروماني أم بعده . فاستنادا الى البيانات التي يقدمها الجغرافي الشهير « سترابون » عن منابع نهر العاصي يمثل « ر. دوسو ، R.Dussaud »الرأي القائل بأن سد البحيرة يرجع الى زمن طويل جدا . في جغرافيته يذكر « سترابون » ثلاث مجموعات من المنابع لنهر العاصي :

المجموعة الاولى تنبع عند سفح جبل لبنان ، اما الثانية فتنبع بالقرب من مدينة برادايسوس : Paradeisos ،الزراقا اليوم، جنوبي مدينة حمص وشرقي نهر العاصي، أما النبع الثالث فيتواجد بالقرب من الجدار المصري الذي يحيط بأرض الافاميين(٤٤). وبناء على ذلك يريد « دوسو » أن يرى في هذا الجدار المصري سد بحيرة حمص وينسبه بالنتيجة الى عهد الاسرة المصرية الثامنة عشرة(٤٥) . الا ان الوقت الذي اختاره دوسو لهذا السد لم يكن في رايي محظوظا وموفقا . ذلك لان المنطقة التابعة لمدينة افاميا كانت تمتد في عهد السلوقيين حتى ضفاف نهر الحرية «Eleutheros» الى الجنوب من بحيرة حمص ، حيث كانت منطقة الحدود الفاصلة بين منطقة نفوذ البطالمة والسلوقيين.. فالجدار المصري الذي يتكلم عنه « سترابون » يجب ان يكون ، على الارجح ، من أعمال البطالمة ، قاموا ببنائه كحاجز منيع ضد منطقة نفوذ السلوقيين . ومما يقودنا الى هذا الاعتقاد ملاحظة سترابون الاخيرة حول أرض الافاميين التي تعود لـ « الجدار المصري » وليس لمنابع النهر . وعلى هذا فانه يمكننا فهم وشرح النص على الشكل التالي :

لم تكن المجموعة الثالثة من منابع نهر العاصي منتشرة في منطقة افاميا ، وانما كان هذا الجدار يشكل نوعا من الحماية لحدود منطقة افاميا الجنوبية ولحدود سورية المجوفة الشمالية . ان جدارا بهذا الشكل لا يتطابق بأي شكل من الاشكال مع سد يبلغ طوله ٨٥٠ مترا، ارتفاعه ٥ أمتار ، وعرضه نحو ٧٦ر١١ مترا(٤٦) . ان هذه الملاحظات ليست ، على أي حال ، الحل النهائي للمسألة ، ويمكن أن نعتبر ان هذا السؤال بحكم المنتهي عندما تقوم الحفريات بكشف الحائط الذي وصفه «سترابون». ولقد تعرض البحاثة بروسي « L. Brosse » للموضوع ثانية وتوصل الى النتيجة بأنه يصعب تحديد الزمن الذي أنشيء فيه السد وذلك لان وضعه الحالي لا يسمح بذلك نظرا لما طرأ عليه من اصلاحات وتغييرات كثيرة مما غير معالمه الاصلية تماما(٤٧) ، وقال بأن اسلوب بنائه يشبه اسلوب البناء في العهد الروماني أو البيزنطي(٤٨) . كما رفض

المؤرخ سيريغ وكثيرون غيره نظرية السد التي قال بها «دوسو» ، ويعده من نتائج العصر الروماني أو العصر الوسيط . وليس هناك ما يدعو لتأييد فرضية دوسو الذي أراد ان ينسب الجدار المصري الذي ذكره « سترابون » الى عصر رمسيس دون ان يحدد مكانه بالضبط(٤٩) .

وبعد كل الذي قيل حتى الان فان كل شيء يبقى غامضا .. ان ما يذكره المؤرخ العربي ابو الفداء لا يستند على اساس(٥٠) ، اذ لا بد أنه قد خلط بين هذا السد والسد الذي بناه الاسكندر الكبير عند احتلاله لمدينة صور(٥١) ، كما أنه من غير المعقول ان يكون السد من بناء السلوقيين لان هؤلاء لم ينشطوا حركة العمران في منطقة الحدود ، واقتصروا على البناء بشكل رئيسي في منطقة سورية الشمالية ، أما منطقة الجنوب فقد تركوها لسكان المنطقة ، نظرا لان الجنوب الذي كان مسرحا للحروب « السورية الستة »(٥٢) التي اندلعت بين هاتين القوتين الكبيرتين كان منطقة توتر بين البطالمة والسلوقيين . كما أنه من المستبعد ان يكون امراء حمص الاوائل الذين تركهم القائد الروماني «بومبي» في اماراتهم قد شيدوا هذا السد الذي كان بناؤه يكلف كثيرا في تلك الايام نظرا لما اصابهم من دمار نتيجة الحوادث التي تلت انتهاء امبراطورية السلوقيين، وبسبب الحروب الاهلية الرومانية« Bellum Civile »لانهم لم يتخذوا مواقف حيادية بل انحازوا الى هذا الطرف أو ذاك . وعلى هذا فان المؤرخ سيريغ ينسب هذا السد الى زمن كانت تتمتع فيه حمص بالغنى والقوة في ظل الامبراطورية الرومانية(٥٣) ، الا انه لا يحدد الوقت الذي يقصده(٥٤) . من المحتمل ان تكون المدينة قد تمتعت بهذا المركز في عهد الامراء العرب الاخيرين من السلالة الحاكمة الاولى ، أو تحت حكم سلالة القيصر سفيروس (قيصر من عام ١٩٣–٢١١م) . ان السلام الذي اوجده القيصر اوغسطس « Augustus ، ٣١ ق.م – ١٤م » ، قد عاد بالنفع أيضا على الاقاليم الشرقية من الامبراطورية ، ومنها اقليم سورية ومدينة حمص . لقد بدأ امراؤها بالتمركز والاستيطان تدريجيا كما التفتوا الى العناية بمدينتهم والاهتمام بشؤونها . الا انه مهما يكن من امر فليس من المعقول ان يكون بمقدور مدينة ناشئة كحمص أن تتحمل نفقات بناء مثل هذا السد الكبير . من ناحية اخرى يذكر بعض المؤرخين ان حمص قد ازدهرت في زمن العائلة السفيرية(٥٥) . الا انه لا يوجد حاليا اي اثر في المدينة يذكر ويشير الى ازدهار المدينة والى الرعاية الخاصة التي وجهها اليها حكام هذه العائلة . صحيح ان قياصرة هذه العائلة كانوا من اصل حمصي ، الا انهم وجهوا جل عنايتهم الى مدن ومناطق اخرى . وعلى ما يبدو فانهم لم يبنوا في مدينة حمص شيئا . واذا كان السد ، على اي حال ، يرجع الى زمن العائلة السفيرية الا ان الفضل في انشائه يعود الى ما كانت تكسبه المدينة من التجارة المحلية ومن الهبات والهدايا التي كان يقدمها الزوار الى معبد اله الشمس . ومهما يكن من امر بناء السد ومتى كان ذلك ، فان

الحمصيين كانوا يعرفون كيف يستفيدون وينتفعون منه . فقد كانت البحيرة ونهر العاصي ـ كما هو الحال اليوم ـ غنية بالاسماك ، الامر الذي دفعهم الى ممارسة صيد السمك واتخاذه مهنة رئيسة لهم(٥٦). ان الموقع الجميل الاخاذ الذي تتمتع به المدينة والذي يمتدحه المؤرخ السوري أميان«Ammianus Marcellinus» (٥٧)(٣٣٠م ـ ٤٠٠؟)، يعود فضله كليا الى نهر العاصي . ولقد تشكلت من مجرى النهر في غرب المدينة منخفضات مستنقعية كانت تؤمن الحماية للمدينة ضد المهاجمين.

حدودها الشمالية :

أما مع مدن سورية الشمالية فكانت حمص تتصل بطريق شمال ـ جنوب ، كما تشير الى ذلك لائحة الطرق الانطونينية مبتدئة بـ كيرو ومنتهية بـ حمص بطول ١٥١ ميلا ، مارة بالمحطات التالية :

٢٠ميل	XX	Minnica	: منكا
٢٢	XXII	Beroa	: حَلب
١٨	XVIII	Calcida	: كلكيدا
٢٠	XX	Arra	: أرّا
٢٣	XXIII	Capareas	: كبارياس
١٦	XVI	Epiphania	: حماه
١٦	XVI	Arethusa	: الرستن
١٦	XVI	Emesa (٥٨)	: حمص

تتقاطع هذه الطرق الى الشمال من حماة ، عند كبارياس مع طريق افاميا ـ تدمر (٥٠) ، وابتداء من حماة تتحد مع طريق العاصي المذكورة آنفا وتصبح قطعة من طريق شمال ـ جنوب حتى مدينة حمص .

كان يحد منطقة حمص من الشمال المحمية السلوقية الرستن التي بناها الملك سلوقس الاول المنتصر(٦٠) ، والتي أصبحت بعد احتلال القائد الروماني « بومبي » لسورية عام ٦٣ ق.م تابعة لحكم الامراء الحمصيين(٦١) .

حدودها الجنوبية :

أما الطريق التي كانت تصل حمص مع دمشق فكانت تمتد على نفس امتداد طريق سيرياني ـ سكيتوبوليس . واما منطقة الحدود بين المدينتين فكانت تقع عند يبرود(٦٢) التي كانت تتبع منطقة نفوذ حمص ، كما تشير الى ذلك احدى النقوش الحجرية(٦٣).

هذه الشبكة الممتازة من الطرق التي كانت تربط حمص مع مدن سورية سهلت للمدينة تقدما وتطورا سريعا . من جهة أخرى فقد كانت هـذه الطرق تسبب ضررا بالنسبة للمدينة نظرا لانها كانت ـ بسبب موقعها الجغرافي المميز ـ دائما مسرحا للحروب التي اضرّت بها كثيرا(٦٤) ، حتى أصبح لها في تاريخ الحروب اسم يذكر لكثرة الحروب التي اندلعت في منطقتها.

إن جميع الطرق ، تقريبا ، التي تقود الى حمص اليوم لهاامتداد الطرق الرومانية القديمة نفسها،والتي لا تزال آثارها واضحة للعيان بسبب حجارة الرصف الكبيرة التي كان الرومان يستخدمونها والمسماة « Via strata : Plaster ».

الحواشي:

(1) Duden- **Lexikon, Bd 4** (Mannheim 1963) p. 69.

(2) G.W. Freytag, **Lexicon Arabico-Latinum, I** (1830) 472, S.V.: حمص

(3) Malalas, 13, c.39 A, 345.

(4) K. Miller, **Itineraria Romana** (Stuttgart 1916).

(5) R. Dussaud, **La Pénétration des Arabes en Syrie avant l'Islam** (Paris 1955) 82 .

(6) P. Thomsen « Die römischen Meilensteine; der Provinzen : Syria Arabia u. Palästia», in; **ZDPV**40 (1917) 25 .

(7) Palladius, **De vita S. Joan. chrysostimos, 47, 71.**

(8) **Notita Dignitatum, I,** 84.

(9) **Noitia Dignitatum** 85, Nr 10.

(10) R. Dussaud, **Topographie historique de la Syrie antique et médievale,** 261, Ann.6.

(11) Th. Mommsen, **Römische Ges chichte,** 5 (Berlin 1909) 464f.

(12) H. Seyrig; « Caractères de l'histoire d'Emèse », **Syria** 36 (1959),185.

(13) J.G.Fevrier,**Essai sur l'histoire** Politique et économique de Palmyre (Paris 1931) 29-42.

(14) Strabo, **Geography,** XVI,2,10.

(15) Seyrig, **Caracteres** .. 192.

(16) **ibidem,** p. 192.

(17) Highet, **Juvinal, the satirist** (Oxford 1955) 71 ff.

(18) **Juvinal, Sat.,** 3, 62f.

(19) حول نشاط السوريين التجاري في العالم الغربي قديما ، انظر :
V. Parvan, **Die Nationalitat der Kaufleute im romischen Kaiserreich**

(Breslau 1909), 110-120.
(20) D. Schlumberger, « borns frontières de la Palmyrène», in: **Syria** 20 (1939), 60.
(21) ibidem, 63 .
(22) L. Jalabert u . R . Mouterde, **IGL Syr. 5** (Paris 1959) 238.
(23) M. Rostovtzeff, **Caravan cities**(OXford 1932) 109.
(24) L. Jalabert, **IGL Syr.** 5, 238.
(25) D. Schlumberger, ibidem, 66.
(26) P. Thomsen, **Die röm . Meilensteine** ,20.
(27) J. Hasebrock, **Untersuchungenzur Geschichte des Kaisers Septimius Severus** (Heidelberg 1921) 66.

(٢٨) هذا التقسيم كان قد خطط لـه القيصر هدريان ، (١١٧ـ١٣٨م) كما يذكر كتاب « تاريخ القياصرة Historia Augusta وهو مجموعة تراجم لحياة.٣امبراطورا رومانيا مـن هدريان حتـى نوميران Numeran ، أي من ١١٧ الى ٢٨٤ VitaHa dr, XIV, 1 ، وقام القيصر سيفيروس بعملية التقسيم عام ١٩٤.

(٢٩) شمل هذا الاقليم منطقة تدمر ، الجزء الجنوبي من افاميا بما فيها حمص واراضي سورية المجوفة. انظـر :

E. Bormann, **De Syriae provinciae Romanae, Dissertation** (Berlin 1865) 13.
(30) M. Rostovtzeff « La Syrie Romaine » , in : **Revue historique** , 175 (1935) 35 .
(31) Strab. 16; 2,10; A. M. JONES,« Ituraea , » in : **Oxford Classical Dictionary** (Oxford 1964)463.

لم تكن حمص ابدا مركزا للايثوريين كما يدعي المؤرخ كارشتيت Kahrstedt في كتابه « الناطق السورية في العصر الهلنستي ، برلين ١٩٢٦، ص٨٨»لانه في الوقت الذي انتهت فيه عمليا دولـة الايتوريين عام ٢٤ ق.م ، استمرت امارة حمص على حالها . وكانت دولة الايتوريين تضم لبنـان والبقاع وبعلبك (هليوبوليس) وعنجر وجبال لبنان الشرقية ، وبانياس واوتالا والجولان، وقـد حكمها بطليموس بن مينيوس (٨٥ ـ ٤٠ ق.م) واضطر أن يدفع للقائد بومبـي ١٠٠٠ تالنت عند احتلاله سورية عام ٦٣ ق.م ليبقيه حاكما على بلادالايثوريين . انظر : سليم عادل عبد الحق، رومـا والشرق الروماني، دمشق ١٩٥٩، ٤٦٩ـ٤٧٤.

(32) J. Weulersse, **L'Oronte.** Etudede fleuve (Tour 1940) 1ff.
(33) R. Dussaud, « La digue du lac de Homs et le mur égytien de Strabon» , in : **Monument et mémoire,** Piot 25 (1921/22) 138.

تظهر على احد المسكوك المعدنية من عهد القيصر انطونيوس بيوس (١٣٨ـ١٦١)صورة امرأة هيعلى القالب الهة المصير لمدينة حمص ـ ونهر العاصي يجري تحتقدميها . وهذا يدل على الصفة المقدسة للنهر وعبادة الحمصيين له كرمز للخصب،وكان في حمص عبادة الماء ايضا ، الى جانب عبادة الحجر ، ويحتفل بها سكان المدينة في عيد الميماس على ضفاف النهر .

(34) O. Cuntz, **Itineraria Romana,** vol. 1 (Leipzig 1926) 27.
(35) G . Parthey und M . Pinder, **Itinerarium Antonini Augusti** (Leipzig 1929) 27, Nr 198.
(36) M. P. Charlesworth, **Trade -routes and commerce of the Roman Empire,** (Hildesheim 1961) 38.
(37(Ptolemaius V, 14, 16;
(38) C. Ritter, **Erdkunde, 17, 2, P.**1004.
(39) Abou el Fida, **Géographie** (arab), (Paris 1840) 40.
(40) F. M. Heichelheim, **Roman Syria** IV (1938) 142; A. Neubauer, **La Géographie du Talmoud** (Hildesheim 1967) 24f.. 29.
(14) J. Weulersse, **L'Oronte,** 17.
(42) Seyrig 189.

ما يذكره المؤرخ بوليبيوس Polibius (٢٠٣-١٢٤ق.م) في الكتاب الخامس من سفره الكبير ((تاريخ روما ودول المتوسط)) V,45,10 عن البحيرات يقصد به تلك الواقعة بين جبال لبنان الغربية والشرقية في وادي ماسوياس Massayas ، اما بحيرة حمص فهي تقع شرق سلسلة جبال لبنان الشرقية . ومايدعيه كارل ريتر C. Ritter من ان بوليبيوس كان يعرف بحيرة حمص ولكنه لا يذكرها بالاسم لايستند الى اساس .

(44) Strab. 16,2,19.

ترجمة النص اليوناني ((منابع نهر العاصي التي تقع بالقرب من جبل لبنان ، وبالقرب من برادايسوس ، وبالقرب من الجدار المصري حول اراضي مدينة افاميا)).

(45) Dussaud , **Top.,** 112f. LA digue, 137; 140f.
(46) Seyrig, 189.
(47) L. Brossé, « La digue du lac de Homs » , in : Syria IV (1923) 273, anm2 .
(48) L. Brossé, **ibidem,** 237, anm 3.
(49) Seyrig, 188.
(50) يبدو ان الباحثين المعاصرين فهموا النص العربي الذي يورده ابي الفداء خطأ . النص العربي يقول: من الجهة الشمالية للبحيرة تم تشييد سد حجري من قبل القدماء ، وينسب للقائد المقدوني الاسكندر .
(51) Hermann Bengtson, **Griechischte** (Munchen 1969) b342.
(52) Bengtson, **ibidem,** 405 ff.
(53) Seyrig, 189.
(54) E. Merkel, « Erst Festsetzungen im fruchtbaren Halbmond », in : **Altheim-Stiehl : Die Araber inder alten welt,** I (Berlin 1964) 370.
(55) Benzinger, « Emésa» , in : **RE,**N.B. V,2 (1905) 2497.

(56) Seyrig, 184 Anm.5; R.Dussaud, la digue, 134.
(57) Ammianus Marcellinus, XIV,8,9.
(58) E.Honigmann, Syria, in : RE IV 2 (1932) 1676.
(59) Dussaud, Top., Karte 14.
(60) Appian, Syria, C.57.
(61) Strab. 16, 2, 10.

(٦٢) يبرود اليوم في منتصف الطريق بين حمص ودمشق ، يذكرها الجغرافي بطليموس (الكتاب الخامس، الفقرة ١٥) من المدن التابعة لمنطقة لاوديكيا ، وعاصمتها لاوديكيا في سفح جبل لبنان .

(٦٤) قام القائد بلستا نفسه بذبح الكثير من الحمصيين ، كما دمر المدينة تدميرا كاملا .

Historia Augusta, Gallienus, III,4, ibidem.

(63) IGL. Syr.V, 2707.

قائمة المختصرات

IGL Syr ...... Inscriptions Grecques et Latines de la Syrie.
,RE .... Realencyclopädie der classischen Altertumswissenschaft.
ZDPV ...... Zeitschrift des Deutschen Palästina - Vereins.

مع المؤتمرات التاريخية

تونس بعد الحرب العالمية الثانيــة
١٩٤٥ ـ ١٩٥٠

تونس ، ٢٦ـ٢٨ آيــار / مايو ١٩٨٩

يعقد **البرنامج الوطني للبحث في تاريخ الحركة الوطنية التونسية** في الفترة بـين ٢٦و٢٨ آيار/مايو ١٩٨٩ ، مؤتمره الخامس حول الحركة الوطنية التونسية ، ومحوره « **تونس بعد الحرب العالمية الثانية ، ١٩٤٥ـ١٩٥٠** » ، وتتناول دراساته :

آ ـ الاوضاع الاقتصادية والاجتماعية في تونس .

ب ـ الحيــاة الثقافيــة .

جـ ـ التنظيمات السياسيةوالاجتماعية ونشاطاتها .

د ـ الحركات الشعبية .

هـ ـ التحول السياسي (١٩٤٩ ـ ١٩٥٠) .

و ـ الاوضاع في بعض اقطار الوطن العربي (دراسات عن الجزائـر ، ليبيا ، المغرب ، سورية ، مكتب المغرب العربي في القاهرة ونشاطاته ، الجامعــة العربيــة في القاهرة ، ما تلاقيــه الامبريالية الاستعمارية الفرنسية مــن صعوبات) .

وقد دأب البرنامج القومي للبحث في تاريخ الحركـة الوطنية التونسية على عقـد مؤتمر كل عامين ، يشارك فيه باحثون ومؤرخون عربوأجانب، وكانتمحاور مؤتمراته السابقة هي التالية :

المؤتمر الاول (١٩٨١) : مصادر تاريخ الحركـة الوطنية التونسـية (١٩٢٠ ـ ١٩٤٥) ، ومناهج دراستها .
المؤتمر الثاني (١٩٨٣) :الحركات السياسية والاجتماعية في تونس فيالثلاثينات.
المؤتمر الثالث (١٩٨٥) :ردود الفعل على الاحتلال الفرنسي للبلاد التونسية .
المؤتمر الرابع (١٩٨٧) :تونس بين ١٩٣٩و١٩٤٥ .

إدريمي ملك ألالاخ

د. عيد مرعي
جامعة دمشق

بين الاعوام ١٩٣٧ ـ ١٩٣٩ و ١٩٤٦ ـ ١٩٤٩ قامت بعثة أثرية انكليزية بقيادة السير ليونارد وولي Leonard woolley بالتنقيب في موقع تل عطشانة على المجرى السفلي لنهر العاصي بالقرب من انطاكية . وبينت التنقيبات ان هذا الموقع سكنته منذ آلاف السنين جماعات بشرية ، ويمكن تتبع ذلك من خلال اللقى الآثارية التي تم العثور عليها (١) . وقد اصبح معروفا أن مدينة عريقة تدعى الالاخ كانت تقوم في موقع هذا التل .

من الاكتشافات المهمة في تل عطشانة مجموعة من الالواح المسمارية باللغة الاكادية يزيد عددها على خمسمائة لوح ، تعود الى فترتين زمنيتين منفصلتين خلال الالف الثانية قبل الميلاد (٢).

ويعطي الارشيف القديم المكتشف في الطبقة السابعة معلومات عن العلاقات ، وخاصة الاقتصادية ، في المنطقة ، في نهاية القرن الثامن عشر وخلال القرن السابع عشر قبل الميلاد ، والارشيف الاحدث الذي عثر عليه في الطبقة الرابعة يبين لنا الاحوال التي كانت سائدة في القرن الخامس عشر قبل الميلاد ، وكانت الالاخ مملكة صغيرة واقعة تحت النفوذ الميتاني . ومن ابرز مكتشفات الطبقة الرابعة تمثال الملك ادريمي ملك ألالاخ الذي عثر عليه في ربيع عام ١٩٣٩ .

يمثل التمثال الملك ادريمي بوضعية الجلوس وهو منحوت على حجر يتكون من خليط من الدولوميت Dolomit والمغنيزيت Magnesit (موجود حاليا في المتحف البريطاني في لندن) وجد محطما في بناء ملحق بمعبد المدينة راسه مفصول عن جسده . عثر على حطام التمثال في حفرة في أرض المعبد . كذلك وجد في البناء عرش من البازلت ارتفاعه ٦٥ سم ، وأمام العرش وجد مذبح مربع الشكل من البازلت أيضا ارتفاعه ٨٩ سم . ومن اعادة تصور تكوين وضع العرش يتبين بشكل واضح أن تمثال ادريمي كان مقاما في البناء الملحق والمذبح أمامه (٣) .



من، كتاب :

Sidney Smith, **The Statue of idri-mi (1943) London.**

من المعتقد أن التمثال كان قائما في معبد مدينــة الالاخ عندما هاجمها العــدو (٤) ودمرها ، والذي دخل المعبد وحطم التمثال الى عدة قطع . بعد ذلك جاء احــد سكان المدينة ودخل خرائب المعبد فوجد التمثال محطما فجمع أجزاءه ووضعها في حفــرة في الارض وغطاها بالحجارة والتراب ، وربما كان لديه الامل بأنه سيعود يوما الى المدينة ومن ثم يعيد التمثال الى ما كان عليــه . ولكن الالاخ بقيت مدمرة ومهجورة حتى تــم اكتشافها حديثا على أيدي منقبي الآثار(٥) ، بيد ان أمنية ذلك الرجل تحققت بعد قرون طويلة وان لم يعد هو الى المدينة ، فقد جمعت قطع التمثال المحطمــة ورممت واعيــد التمثال الى وضعيته الاصلية التي تمثل رجلا ملتحيا في وضعية الجلوس. هو واحد من أقدم الشخصيات في تاريخ سورية القديم .

وتكمن اهمية التمثال الكبير في الكتابة التي يحملها والمؤلفة من مائة واربعة سطور منقوشة بالخط المسماري واللغة الاكادية ، تمثل سيرة ذاتية يروي فيها ادريمي قصة حياته والاعمال التي قام بها (٦).

في بداية النص يقدم ادريمي نفسه ويذكر اسم والده (السطرين ١ ــ ٢) ، وفي السطور ٣ــ٦ يذكر أن تمردا حدث في حلب مقر حكم أبيه وأرغمه هــو واخوته علــى الهرب الى مدينة ايمار Emar (٧) حيث يقيم أقرباء أمه .

مما لا شك فيه أن التمرد الذي حدث في حلب كان بتأييد من مملكــة حوري ــ ميتاني التي كانت تحاول في تلك الفترة (بداية القرن الخامس عشر قبل الميلاد) مــد سيطرتها باتجاه الغرب نحو سواحل البحر المتوسط .

مملكة حوري ــ ميتاني كانت قــد نشأت في اعالي بــلاد الرافدين واتخذت مــن واشوكاني washshukani(ربما تل الفخيرية قرب رأس العين) عاصمة لها .وقد بلغت تلك المملكة اوج قوتها وازدهارها في الفترة ما بين ١٤٥٠ــ١٣٥٠ق.م ، وشملت مناطق واسعة امتدت من جبال زاغروس شرقا حتى سواحل البحر المتوسط غربا .

وكانت حلب قد فقدت دورها الهام في شمال سورية نتيجة الاحتلال الحثي بقيادة مورشيلي الاول Murshili I في بداية القرن السادس عشر قبل الميلاد . ولكــن بعد موت مورشيلي الاول مرت الامبراطورية الحثية في مرحلة من الضعف والفوضى نتيجة الصراعات الداخلية التي حلت بها . ثم استطاعت حلب خلال هذه المرحلــة استعادة استقلالها وقوتها ودورها الهام في المنطقة ، وقام على حكمها الملوك شارا ــ ال Shara-el وأبــا ــ ال Abb-el واليم ــ اليما Ilim-ilimma والد ادريمي (٨) .

أدى سقوط حلب وهرب أسرة ادريمي نتيجة التمرد الذي حدث فيها الـى أن يمد باراتارنـا Baratarna ملك حوري ــ ميتاني نفوذه حتى سواحل البحر المتوسط.

لا ترد في النص تفاصيل ما حدث في حلب . ولكن بما أن النص لا يذكر شيئا عن هرب اليم ــ اليما والد ادريمي مع الهاربين الى ايمار فيمكن القول انه قتل خلال التمرد الذي حدث ، أو أن موته الطبيعي كان دافعا للقيام بالتمرد (٩) .

كانت ايمار واقعة خارج منطقة نفوذ اليم ــ اليما ، أما في القرنين الثامن عشـر والسابع عشر قبل الميلاد فكانت تحت سيطرة ملوك يمحاض ، وكانت تقوم بينها وبين ألالاخ علاقات قويـة .

أما فراعنة مصر فقد مارسوا زمن الدولة الحديثة ،أي منذ بدايات القرن الخامس عشر قبل الميلاد ، سياسة توسعية باتجاه سورية، فقام تحوتموس الاول Thutmosis I (١٤٩٧ ــ ١٤٨٢) بالاستيلاء على فلسطين ، وفي عـام ١٤٥٨ حقق تحوتموس الثالث نصرا عند مجدّو ضد تحالف سـوري بقيادة ملك قادش . ومـن المحتمل أن تكـون امبراطورية حوري ــ ميتاني قد دعمت هذا التحالف . وفي عام ١٤٤٧ وصل تحوتموس الثالث حتى كركميش دون ان نسمع عن اية اجراءات ميتانية ضده .

خلاصة الامر ان سورية كانت خلال القرن الخامس عشر قبل الميلاد مثـار نزاع دائم بين مملكة حوري ــ ميتاني من جهة ، والامبراطورية المصرية من جهة ثانية . وتم وضع حد لهذا النزاع بعقـد اتفاقية للسـلام بين القوتين الكبيرتين في عهـد الفرعـون تحوتموس الرابع (١٤٠٠ ــ ١٣٩٠ق.م) حددت مناطق نفوذ كل مـن هاتين القوتين في سورية فوصل النفوذ المصري على الساحل حتـى اوجاريت وكان بذلك ابعد مما وصل اليه في الداخل حيث كانت الحدود تمر في وادي العاصي بالقرب من سـهول حمص تقريبـا .

بعد اقامة غير معروفة في ايمار غادرها ادريمي متوجها الى أرض كنعان في جنوب غرب سورية وذلك عبر بادية الشام . أما الاسـباب التي دعت ادريمي الى التوجه الى ارض كنعان دون سواها فكانت على ما يبدو قرب هذه المنطقة من البحر ومـن مناطق النفوذ المصري في سورية ، مما يسهل الاتصال مع المصريين وطلب العون منهم اذا دعت الضرورة من أجل العودة الى مملكة ابيه . يضاف الى ذلك أن ارض كنعان كانت ملجـأ للعديد من سكان مملكة اليم ــ اليما (١٠).

فيما بعد توصل ادريمي كما يبدو الى اتفاق مـع باراتارنا ملك حوري ـ ميتاني وعاد الى الالاخ ليحكم فيها كملك تابع لمملكة حوري ـ ميتاني .

يذكر ادريمي أنـه قام بتحصين مدنـه وتمتين اسوارها (السـطور ٦٠ ـ ٦٣) لزيادة فاعليتها الدفاعية ورد الهجمات المعادية . كذلك يذكر انه قام بحملة عسكريـة ضد بعض القلاع والمدن الحثية (السطور ٦٤ ـ ٨٠) . ولكن يبدو أن تلك الحملة كانت بهدف السلب والنهب ، وحدثت في وقت كانت فيه الامبراطورية الحثية تمر بموجة من الفوضى والاضطرابات الداخلية ، لم تمكنها من الرد على العمل العسكري الذي قام به ادريمي ، ولربما قام ادريمي بذلك بتشجيع من سيده ملك حوري ـ ميتاني .

في نهاية النص يصب ادريمي شـتائم ولعنات الآلهـة وغضبهم على كل مـن يغير او يزيل تمثاله ، ويذكر بأنه حكم ثلاثين عاما كملك في الالاخ . ويتمنى النصر والحيـاة الطويلة لكاتب النص (السطور ٩٢ ـ ١٠٤) .

حكم ادريمي في مملكة يحدها البحر المتوسط غربا وكيزوواتنا kizzuwatna (١١) شمالا . ولها حدود مشتركة في الجنوب مـع اجاريت Ugarit وبقيت حلب خارج نفوذ ادريمي وتحت السيطرة الميتانية المباشرة (١٢)

حكم ادريمي ثلاثة عقود من السنين في بداية القرن الخامس عشر قبل الميـلاد ، واعتبره خلفاؤه مؤسس سلالة جديدة واستخدموا خاتمه في ختم وثائقهم .من هنا فان وثائق من الطبقة الرابعة في الالاخ تذكر اسم ادريمي أو تحمل خاتمـه . وتمثاله بقـي قرابة ثلاثمائة عام مقدسا في الالاخ (١٣) . أي الى العصر الذي حدث فيه التغيير الكبير في سورية الشماليـة بدخـول شعوب البحـر من جهـة وانتشـار الآراميين وانهيار الامبراطورية الحثية .

فيما يلي نقـدم النص الاكادي المنقوش على تمثـال ادريمي (١٤) مكتوبا بالحرف العربي (١٥) مع ترجمة وتفسير له (١٦) :

١	ـ أ ـ نا ـ كو I (١٧) أدـري ـمي مار (١٨) اليم (١٩) ـإ ـليم ـما	١ ـ أنا إدريمي بن اليم ـ اليما
٢	ـ أراد (٢٠) (د) تيشوب(٢١) (د) خي ـ بات(٢٢) أو (د)شاوشكا(٢٣) بيلت(٢٤) (أورو)(٢٥) أ ـ لا ـ لا ـ خ بيلتي(٣٤) ـ يا	٢ ـ خادم تيشوب ، خيبات وشاوشكا سيدة الالاخ ، سيدتي .
٣	ـ أ ـ نا (أورو)خا ـ لا ـ اب (كي)(٢٦) بيت(٢٧) أ بي ـ يا	٣ ـ في حلب بيت أبي .
٤	ـ . . . . . ما ـ شي ـ يق ـ تو (٢٨) ات ـ تاب ـ شي أو خال ـ قا ـ نو	٤ ـ حدثت اضطرابات وهربنا (الى)
٥	ـ أميلوت (٢٩) (أورو) إـمار (كي) أـخاـتيـشي(٣٠)	٥ ـ سادة ايمار اخوة
٦	ـ شا أمـميـيا أو اشـبلـنو أـنا (أورو) إـمار (كي)	٦ ـ أمي ، وسكنا في ايمار (٣١)
٧	ـ اخـخي (خي.أ)ـيا شا إلي(٣٢)ـ يا رابو(٣٣)	٧ ـ اخوتي الذين كانوا اكبر مني
٨	ـ إتـتيـياـما اشـبوـو أو ماـانـنوـومـما	٨ ـ سكنوا معي أيضا ، ولكن لا احد منهم
٩	ـ أـواـتي(ميش) (٣٤)شا اخـشوـشو او أل إخـشوـوش	٩ ـ فهم الاشياء التي فهمتها (٣٥).
١٠	ـ أومـما أـناـكوـما ماـانـنوـوم بيت(٣٦) أـبيـشو	١٠ـ كما يلي (فكرت) أنا : من في بيت أبيه
١١	ـ لوـو مار شاكا ناكي(٣٧) رابو(٣٨) او ماـانـنوـوم	١١ـ فهو الابن الاكبر لامير ، ولكن من
١٢	ـ أـنا ماري(٣٩)(أورو) إـمار(كي) لوـو اراد(٤٠)	١٢ـ هو عند أبناء ايمار فهو عبد .
١٣	ـ سيسي(٤١)ـيا(جيش) نركبتي(٤٢)ـيا او كيزي(٤٣) ـ يا	١٣ـ حصاني ، عربتي وخادمي
١٤	ـ إلـتيـقيـشوـنو أو إـنا ماـات خوـريـيبـتي(كي)	١٤ـ اخذتها وفي أرض الصحراء
١٥	ـ إيـتيـتيـيق أو ليـبي صابي(٤٤) سوـتوـو(كي)(٤٥)	١٥ـ عبرت . ولدى جماعات السوتيين
١٦	ـ ايـتيـروـوب إشـتيـشو أـنا ليـبي	١٦ـ دخلت . معه (مع الخادم) .

١٧ـ كوـزي I زاكـكار(٤٦) بيـتاـكو إـنا شاـني أ وـمي	١٧ـ بت أمام عرش زاكار . في اليوم الثاني
١٨ـ أنـموـوشـما أو أـنا ماـات كيـ ينـاـني (كي)	١٨ـ رحلت والى أرض كنعان(٤٧)
١٩ـ أ لـليـيك إـنا ماـات كيـينـأ ـني (كي)	١٩ـ وصلت . في ارض كنعان
٢٠ـ (أورو) امـميـيا (كي) أشـبو إـنا (أورو) امـــميـيا (كي)	٢٠ـ (تقع) مدينة أميًا (٤٨) . في مدينة أميًا سكن
٢١ـ ماري (أورو) خلـلاـأب (كي) ماري ماـات موـكيـيشـخي (كي)	٢١ـ أناس (٤٩) من حلب ، أناس(٤٩) من أرض موكيش(٥٠)،
٢٢ـ ماري(٥١) ماـات نيـخي (كي)(٥٢) أو ماري(٥١) ماـات	٢٢ـ أناس من أرض نيخي وأناس من أرض
٢٣ـ أـماـآي (كي)(٥٣) أشـبو	٢٣ـ أمائي . هم سكنوا (هناك)(٥٤)
٢٤ـ إـموـروـونـنيـما	٢٤ـ عندما رأوني (وتأكدوا)
٢٥ـ إـنوـما مار بيـليـشوـنو أـناـكو أوـأـناـموخَي(٥٥)ـيا	٢٥ـ انني ابن سيدهم فانهم حولي
٢٦ـ إبـخوـروـنيمـما أـكاـ أـــناـكا أورـتابـبيـاـكو	٢٦ـ تجمعوا . وهكذا عملت كبيرا
٢٧ـ أ وـراـاك أو أـنا ليـبي صابي(٥٦) خابيري(٥٧)	٢٧ـ وحكمت . ولدى جماعات الخابيرو .
٢٨ـ أـنا شيبي شناتي(٥٨) اشـباـكو إ صئوراتي(٥٩) ا وـزاـكي	٢٨ـ أقمت سبع سنوات . تركت عصافير تطير .
٢٩ـ بو خادي(٦٠) ابـريـما أو شيـــ يب ي شاـناـتي (د) تيشوب(٦٢)	٢٩ـ وتفحصت (احشاء) الحملان (٦١). وفي السنة السابعة
٣٠ـ أـنا قا ڤادي(٦٣)ـيا اتـتوـور أو إـتيـبوـوش(جيش)إ ليباتي(٦٤)	٣٠ـ رجع تيشوب الى رأسي(٦٥). ومن ثم صنعت سفنا .
٣١ـ صابي(٦٦)نوـولـلا (٦٧) أـنا (جيش) اليباتي(٦٨) اوـشارـكيـيبـ شوـنو	٣١ـ عساكر نولاّ جعلتهم يصعدون الى السفن .
٣٢ـ او تا متا(٦٩) أـنا. ماـات ..موـكيـ يشـخي (كي)	٣٢ـ وبحرا من أرض موكيش
٣٣ـ اطـخيـيـكو أو ياني خورشان(٧٠) خاـز ي(٧١)	٣٣ـ اقتربت ، وامام جبل الاقرع
٣٤ـ أـنا تاـباـليم الـشوـود إـليـياـكو	٣٤ـ وصلت الى اليابسة . (بعد ذلك) صعدت .

٣٥ـ أو مـاـتي ـيا اش ـموـون ـنيـما ا لبي(٧٢) أو إ ميري(٧٣)	٣٥ـ وعندما سمعت بلدي بي الابقار والاغنـام
٣٦ـ أـنا باـني ـيا أوب ـلوـو ـنيم او إـنا إشتين أو مي(٧٤)	٣٦ـ جلبها المرء لي . وفي يوم واحد
٣٧ـ كي ـما اشتين(٧٥) أ ميلي(٧٦) مـاـات نيـخي(كي) مـاـات أـمـاـاي(كي)	٣٧ـ كانسان واحد أرض نيخي ، أرض امائي
٣٨ـ مـاـات موـكيـيش ـخي(كي) أو (أورو)أـلاـلاـاخ(كي) الي(٧٧)ـيا	٣٨ـ أرض موكيش والالاخ مدينتي
٣٩ـ أـنا يـاـشيـيم اتـتوـروـنيم أ خيّ(٧٨)ـيا	٣٩ـ عادوا الي(٧٩). اخوتـي
٤٠ـ إشـموـوـما او أـنا ما خـريـ يا الـلي ـكوـو	٤٠ـ سمعوا (بذلك) وأتوا الي .
٤١ـ أ خـخي (خي.أ) ـيا اتـتيـيـاـفا انـناـخوـو	٤١ـ إخوتي استراحوا عندي(٧٩ب).
٤٢ـ أ خـخي (خي.أ) ـيا أصـصورـ شوـنو أبـبوـنا	٤٢ـ حميت إخوتي . عدا عن ذلك
٤٣ـ شيبي شناتي(٨٠) I بـاـراـاتـ تارـنا شارو(٨٢) دانـنو	٤٣ـ سبع سنين باراتارنا(٨١) الملك القوي .
٤٤ـ شار(٨٣) صابي(٨٤) خورـري (كي) أوـناـكيرـانـني	٤٤ـ ملك الحوريين عاداني .
٤٥ـ إـنا شيـيبـي شـاـنـاـتي أـنا I بـاـراـاتـارـنا شاري(٨٥)	٤٥ـ في السنة السابعة الى باراتارنا الملك .
٤٦ـ شار(٨٦) صابي /خورـري/(كي)(٨٧) I انـواـانـدا اشـتـابار او ادـ بوـوب	٤٦ـ ملك الحوريين أرسلت أنواندا(٨٨) وتحدثت .
٤٧ـ مـاـنـاـخاـتي(خي) شـا أـبوـتي (خي.أ)ـيا بـنوـما	٤٧ـ عن جهود آبائي بأن
٤٨ـ أـبوـتي(خي.أ)ـيا أـنا مو خيّ(٨٩)ـشوـنو انـنـاـخوـو	٤٨ـ آبائي كانوا قد خلدوا الى الهدوء(٩٠)
٤٩ـ او بـاـنوـتيـني أـنا شاري(٩١) شا صابي خورـري(كي) دامـيـيق	٤٩ـ وأجدادنا (كانوا) طيبين مع ملوك الحوريين
٥٠ـ أو أـنا بيـريـشوـنو ما ميتا(٩٢) دانـنـاـتا	٥٠ـ وأنهم فيما بينهم قسما عظيمـا
٥١ـ اشـكوـنوـنيـنا شارو دانـنو مـاـنـاـخاـتي(خي.أ)	٥١ـ اقسموا . الملك القوي سمع عن جهـود
٥٢ـ شا بـاـنوـتيـني او ماميت(٩٢) شا بيـريـشوـنو اشـميـما	٥٢ـ أجدادنا وعن القسم فيما بينهم

٥٣– أو ات–تي ما–مي–تي اب–تا–لا–اخ اش–شوم أ–وا–ات	٥٣– وخاف من علامة القســم . لاجل محتوى
٥٤– ما–مي–تي أو اش–شوم ما–نا–خا–تي (ميش)–ني شو–ول–مي–يا	٥٤– القسم ولاجل جهودنا قبل هديتي الترحيبية(٩٣) .
٥٥– إم–تا–خار او كي–نو–نو شا ري–دو–و شا نيقي(٩٥)	٥٥– وفي (شهر) كينونو (٩٤) التالي قدمت أضاحي
٥٦– أو–شار–بي أو بيتا(٩٦) خال–قو او أو–تي–ير–شو	٥٦– كثيرة واعدت اليه البيت الهارب(٩٧) .
٥٧– إ–نا أميلوتي(٩٨) –يا إ–نا كي–نو–تي–يا رو–أن–نا–ام	٥٧– في انسانيتي ، في اخلاصي ، بشكل ودي .
٥٨– أز–كور–شو أو شار(٩٩)–كو ا–نا (أورو)أ–لا–لا–اخ(كي)	٥٨– أقسمت له . لذلك اصبحت ملكا على الالاخ(١٠٠) .
٥٩– شارو(١٠١) شا إ ميتي (١٠٢)–يا أو شو ميلي(١٠٣)–يا ال–لو– أن–ني–ما	٥٩– الملوك الذين على يميني والذين على يساري جاؤوا الي .
٦٠– أو كي–ما شو–نو–تي–ما اوم –تا–شي–لا–كو دور(١٠٤) –شو–نو	٦٠– ووجدت نفسي مماثلا لهم . أسوارها (أسوار المدن) .
٦١– شا ا–بو–تي (خي.ا) إ–نا قا–قا–ري تاب–كو–و	٦١– التي اقامها الاجداد من تراب .
٦٢– أو ا–نا–كو إ–نا قا–قا–ري او–شا–ات–بو–و	٦٢– جعلتها ترتفع بالتراب
٦٣– او ا–نا–ان–تا او–شاق– قو–و–شو–نو	٦٣– ومن اجل القتال زدتها علـوا .
٦٤– صا با(١٠٥) ال–تي–قي أو ا–نا ما–ات خلـ–ات–تي(كي)	٦٤– اخذت العساكر والى أرض حاتي(١٠٦)
٦٥– إ–تي–لي أو شيبي(١٠٧) ا لي(١٠٨) ا ص–بات–شو–نو	٦٥– صعدت واستوليت على سبع قلاع (مدن) :
٦٦– (أورو) با–اش–شا–خي–(كي) (أورو) دا–ما–رو–وت–لا (كي)	٦٦– باشاخي ، داماروتلا ،
٦٧– (أورو) خو–لاخ–خا–ان (كي) (أورو) زي–لا (أورو) إ–إ (كي)	٦٧– خولاخان ، زيلا ، اي
٦٨– (أورو) أو–لو–زي–لا (كي) او (أورو) زا–رو–نا (كي)	٦٨– او لوزيلا و زارونا(١٠٩)

٦٩ـ ان ـموـو الي اصـبات ـشوـنو او أول ـلوـو	٦٩ـ هذه القلاع (المدن) استوليت عليها . هي
٧٠ـ اخ ـتي ـبي ـشوـنوـتي مـاـات خاـات ـتي (كي)	٧٠ـ دمرتها . بلاد حاتي
٧١ـ أوـأول ابـخور أو أـنا موخي(١١٠) ـيا أوـأول الـلي ـكو	٧١ـ لم تتجمع ولم تأت ضـدي(١١١) .
٧٢ـ شا لبـبي ـيا إـتي ـبوـوش شال ـلاـتي (خي.أ) ـشوـنو	٧٢ـ صنعت ما يشتهيه لبي (قلبي) : غنائمهـم .
٧٣ـ أش ـلوـول ـما نام ـكوـري ـ شوـنو بوـشي ـشوـنو باـشي ـتوـ(شو) ـ نو	٧٣ـ نهبتها . املاكهم ، أمتعتهم ، ممتلكاتهم .
٧٤ـ الـتي ـقي أو أو ـزاـاز أـنا صابي(١١٢) تيل ـلاـتي ـيا	٧٤ـ أخذت ووزعتها على عساكري(١١٣) .
٧٥ـ (لو.ميش) أخ ـخي (خي.أ) ـيا	٧٥ـ واخوتـي .
٧٦ـ أو (لو.ميش)اب ـروـتي (خي.أ) ـيا كاـكاـشوـنوـما	٧٦ـ واصحابي . ولكن أسلحتهم
٧٧ـ أـناـكو الي ـتي ـقي أو أـنا ماـات موـكي ـيش ـخي (كي) اتـتوـور	٧٧ـ أخذتها انا شخصيا . ومن ثم رجعت الى بلاد موكيش مدينتي مع الغنيمة .
٧٨ـ أو إـروـوب أـنا (أورو) أـلاـلاـاخ (كي) أ لي(١١٤) ـيا إـنا شال ـلاـتيم	٧٨ـ ودخلت الى الالاخ
٧٩ـ أو إـنا مار ـشي ـتيم إـنا نام ـكوـري إـنا بوـشي أو إنا باـشي ـتي	٧٩ـ ومع ثروة من الحيوانات والممتلكات والامـلاك والامتعـة .
٨٠ـ شا إ شـتو ماـات خاـات ـتي(كي) أوـشي ـري ـدو بيتا(١١٥) أوش ـتي ـبي ـيش	٨٠ـ التي جعلتها تأتي من بلاد حاتي . بنيت قصرا .
٨١ـ (جيش)كوسي(١١٦) ـيا كي ـما كوسي(١١٦) شا شاري(١١٧) أو ـماـشي ـيل	٨١ـ عملت عرشي مماثلا لعروش الملوك ،
٨٢ـ (لو.مش) أخي(١١٨) ـيا كي ـما أخي(١١٨) شا شاري (١١٧) ماري (١١٩) ـ يا	٨٢ـ اخوتي كاخوة الملوك ، أولادي .
٨٣ـ كي ـما ماري(١١٩) ـشوـنو أو (لو.ميش)تاب ـبوـتي (خي.أ) ـيا أو تاب ـبوـتي (خي.أ) ـشوـنو	٨٣ـ كأولادهم واصحابي كأصحابهم .
٨٤ـ أوـماـشي ـلوـوـشوـنو	٨٤ـ جعلتهم . السكان

أشيبي(١٢٠) شا أ-نا لب-بي ما-تي (كي) -يا	الذين في بلدي .
٨٥- شو بتا(١٢١) -شو-نو طابتا (١٢٢) أو أو-شي-شي-يب-شو-نو شا شو تا(١٢١) لا أو-وش-شا-بو	٨٥- مسكنهم جعلتهم يسكنون بشكل أفضل . الذين لم يسكنوا في مسكن (قط)
٨٦- أ-نا-كو او-شي-شي-بو-شو-نو او ما-تي(كي)-يا او -كي-ين-نو	٨٦- جعلتهم يسكنون . ووطدت بلدي .
٨٧- أو أو -ما-شي-يل أ لي(١٢٣)- يا كي-مي-ي با-نو-تي-ني-ما كي-ما أبوتي(١٢٤)-ني-ما	٨٧- وعملت مدني كما أجدادنا (عملوها) . كآبائنا .
٨٨- ات-تي (ميش) شا إ لي (١٢٥) شا (أورو) أ-لا-لاخ (كي) أو-كي-ين-نو و-ما	٨٨- (الذين) عينوا علامات آلهة الالاخ
٨٩- أو نيقي(١٢٦) شا أ-بي-ي-ني شا أوش-تي-بي-شو-و-شو-نو	٨٩- والاضاحي التي قدمها آباؤنا .
٩٠- أ-نا-كو إ-تي-ني-بو-وش-شو-نو أن-مو-و إ-تي-بو-وش-شو-نو	٩٠- قدمتها أنا بانتظام (١٢٧) هذا ما عملته .
٩١- او أ-نا! قا-تي I (د) تيشوب(١٢٨)-ني-را-ري ماري(١٢٩)-يا أب-تا-قي-يد-شو-نو	٩١- وعهدت به الى يد ولدي تيشوب - نيراري .
٩٢- ما-ان-نو-وم-مي-ي صالي(١٣٠) - يا ان-ني-نا-تي إ-نا-أس-ساخ-شو	٩٢- من يزلّ نصبي هذا
٩٣- أو بي-ري-يخ-شو لي-يل-قو-وت شامو(١٣١) لي-يز-زو-ور-شو	٩٣- فليستأصل نسله وليلعنه إله السماء -
٩٤- شا-اب-لا-تو إر-صي-تو بي-ري-يخ-شو لي-يل-قو-وت	٩٤- ولتستأصل الارض السفلى(١٣٢) سلالته
٩٥- إ لو(١٣٣) شاشامي(١٣٤) أو إرصيتي(١٣٥) شاروت(١٣٦)-شو او ما-ات-شو(كي) ليم-دو-دو-شو	٩٥- ولتقسّم آلهة السماء والارض مملكته وارضه .
٩٦- ما-ان-نو-وم-مي-ي أو-نا-اك-كار-شو إ-يب-با-اش-شي	٩٦- من يغيره أيضا أو يعمل به شيئا
٩٧- د تيشوب(١٣٧) بل(١٣٨) شامي(١٣٩) او إرصيتي(١٤٠) أو إ لي(١٤١) رابوتي(١٤٢) شو-ما-شو	٩٧- ليُحطم تيشوب سيد السماء والارض والآلهة الكبار اسمه
٩٨- او زير(١٤٣) شو لي-خال-ليق إ-نا ما-تي-شو	٩٨- وذريته في

النص الاكادي	الترجمة
I شـار ــرو ــوا(١٤٤) طو بشـارو(١٤٥) صيخيرو(١٤٦) أراد(١٤٧) تيشوب(١٤٨) شيميجي(١٤٩) كو شوخ(١٥٠) أو شاوشكا(١٥١)	بلاده شاروروا هو الكاتب الصغير عبد تيشوب ، شيمجي ، كوشوخ وشاوشكا .
٩٩ــ I شار ــرو ــوا (لو) طوبشار(١٥٢) شا صالما(١٥٣) أنــني ــنا ــتيم أش ــطو ــرو ــشو الو(١٥٤) شا شامي(١٥٥) أو ارصيتي(١٥٦)	٩٩ــ مشاروروا الكاتب الذي كتب هذا النصب لتبقيه آلهة السماء والارض
١٠٠ــ لي ــيال ــلي ــطو ــو ــشو لي ــنا ــصا ــرو ــشو لو ــو أودا مَامو(١٥٧) ــو ــشو ــ (د) شيميجي(١٥٨) بل(١٥٩) إ ــلو ــتي	١٠٠ــ حيا ولتنصره ولتكن طيبة معه شيميجي سيد الاعلى
١٠١ــ أو شاب ــلي ــتي بل(١٥٩) لو ــو إ ــطيم ــمي لو ــو أوبالاط (١٦٠) ــ شــو	١٠١ــ والاسفل ، سيد أشباح الموتي ليحفظه على قيد الحياة .
١٠٢ــ شلا شا شناتي(١٦١) شارا(١٦٢) ــكو	١٠٢ــ ثلاثين عاما كنت ملكــا .
١٠٣ــ ما ــنا ــاخ ــتي ــيا أ ــنا طوبي(١٦٣) ــ يا أش ــطو ــور لي ــداج ــجالو ــشو ــنو	١٠٣ــ كتبت أعمالي على لوحــي ليراهــا (المــرء) .
١٠٤ــ أو أ ــنا موختِي(١٦٤)ــ يا لي ــيك ــتا ــنا ــرا ــبو	١٠٤ــ وليرحمني دائما .

شرح بعض الاحرف والرموز الواردة في النص الاكادي :

ج = g تلفظ جيما مصرية .

خ = h

ز = Z

ش = š

ص = ṣ

ط = ṭ

ق = q

< > = اضافة ليست واردة في النص الاصلي .

( ) = كلمة مضافة الى الترجمة ليستقيم المعنى في العربية .

الهوامش :

(١) انظر حول ذلك :

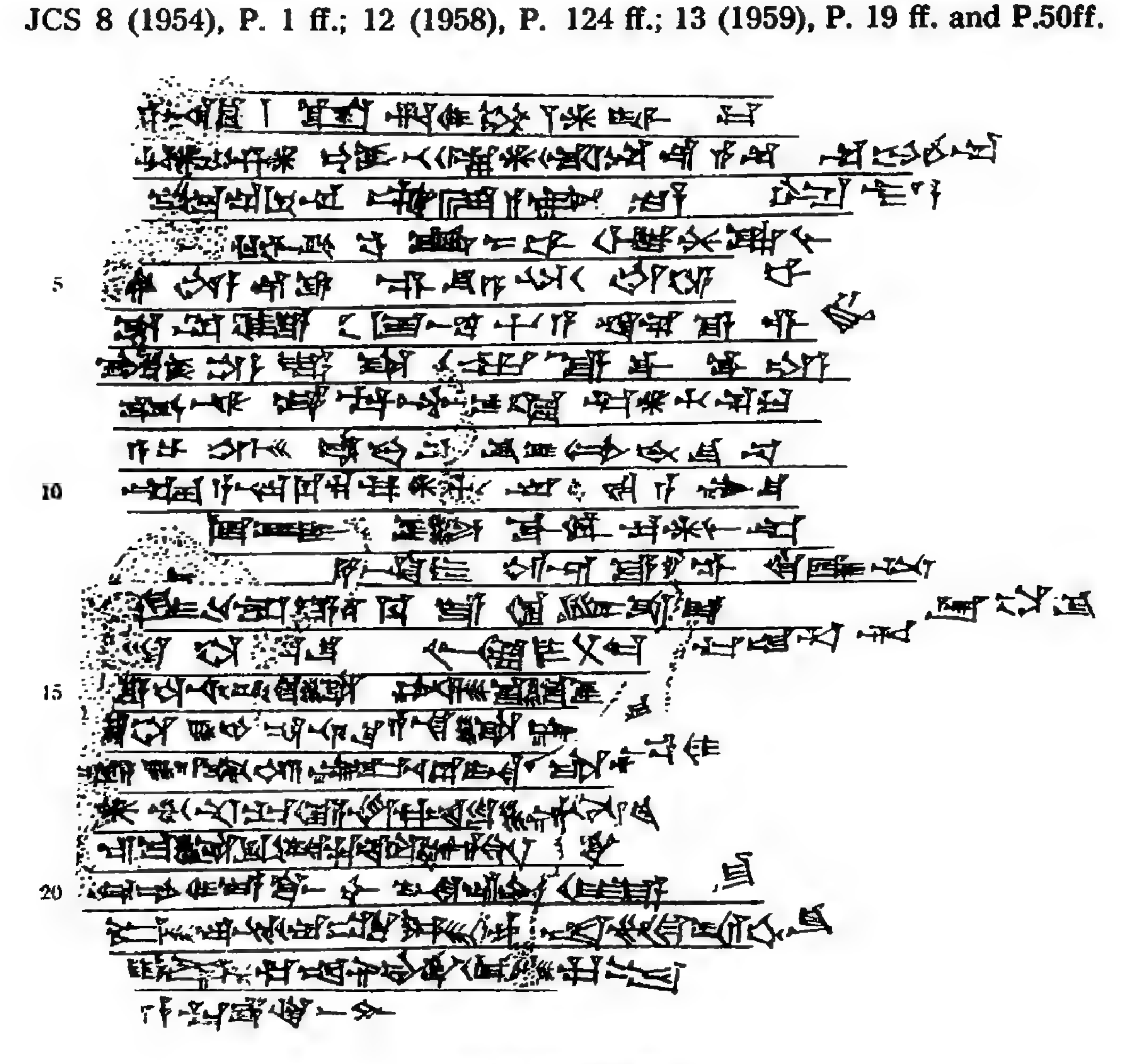
L. Woolley, An Account of the Excavations at Tell Atchana 1937 - 1949, Oxford 1955. L. Woolley, Aforgatten Kingdom, Lindon 1953(

(٢) الالواح المسمارية التي اكتشفت في آلالاخ نشرها وايزمن في كتابه

The Alalakh Tablets, London 1953.

وفي مجلة الدراسات المسمارية :

JCS 8 (1954), P. 1 ff.; 12 (1958), P. 124 ff.; 13 (1959), P. 19 ff. and P.50ff.



Right shoulder top left.

(٣) S. Smith, The Statue of Idri-mi, London 1949, P. 1 ff.; R. Mayer-Opificius, Archäologischer Kommentar zur Statue des Idrimi von Alalah, in: UF 13(1981), S. 279 ff.
وأيضـا :
A. Moortgat, Die Kunst des Alten Mesopotamien, Babylon und Assur, Überarbeitete Neuausgabe, Köln 1985, S. 69 ff.

(٤) المقصود بالعدو هنا شعوب البحر التي بدأت تحركاتها في بدايات القرن الثاني عشر قبل الميـلاد فاجتاحت مدن الساحل السوري ووصلت حتى مصر وكانت السبب الاساسي في انهيار الامبراطورية الحثية في الاناضـول .

Right side: left column.

(٥) H. Klengel, Geschichte und Kultur Altsyriens, Wien-München 1980, S. 68.

(٦) الكتابة المنقوشة على التمثال نشرت لاول مرة من قبل سيدني سميث Sidney Smith عام ١٩٤٩ مع ترجمة ودراسة لها في كتابه : The Statue of Idri-mi, London 1949.

(٧) ايمار : مسكنة حاليا ، حوالي ٩٢ كم الى الشرق من حلب على الفرات . كانت عقدة مهمة للمواصلات النهرية والبرية بين سورية وبلاد ما بين النهرين . انظر حولها :
M. Heltzer, RLA 5 (1976 - 80), S. 65 ff.; RGTC 3 (1980), S. 109; 6 (1978) ,

Left side: right column.

S. 140; A.Goetze, The Syrian Town of Emar, in: BASOR 147 (1957), P. 22-27.

(٨) H. Klengel, Historischer Kommentar zur Inschrift des Idrimi von Alalah, in: UF 13 (1981), S. 270 ff.;G.Wilhelm, Grundzüge der Geschichte und Kultur der Hurriter, Darmstadt 1982, S. 35.

(٩) H. Klengel. UF 13 (1981), S. 273.

(١٠) Ibid. S. 274.

(١١) منطقة في كيليكية . انظر : RLA 5 (1976-80), S. 627 ff.

(١٢) H. Klengel, UF 13 (1981), S. 277.

(١٣) H. Klengel, Geschichte und Kultur Altsyriens, S. 68.

(١٤) اعتمدت في هـذا على النص الاكادي وعلى دراسة سيدني سميث وعلى الدراسة المنشـورة حديثـا

Left shoulder.

مــن قبل :

M. Dietrtch - O. Loretz, Die Inschrift der Statue des Königs Idrimi von Alalh, in: UF 13 (1981), S. 201-268.

وعلى محاضرات أستاذي الكبير الاستاذ الدكتور أينار فون شولــر Einar vor Schuler حول هذا الموضوع في صيف عام ١٩٨٥ .

(١٥) جرت العادة عند علماء الآشوريات الاجانب أن يكتبــوا النصوص المسمارية عند نشرها ودراســتها بالحرف اللاتينــي .

(١٦) نص ادريمي هو النص الوحيد المكتشف حتى الآن الذي يعود الى بدايات القرن الخامس عشر قبل الميلاد . لذلك تبقى بعض الاحداث المذكورة فيــه غير واضحة تماما بسبب غيــاب امكانية المقارنــة مــع نصوص اخــرى .

(١٧) هذه الاشارة ترد عادة قبل أسماء الرجال .

(١٨) mar كتبت بالسومرية دومو DUMU وتعني « ابن » . كذلك في السطر ٢٥ .

(١٩) كتبت بالسومرية دينجير DINGIR .

(٢٠) كتبت بالسومرية إر IR وتعني عبد ، خادم .

(٢١) كتبت بالسومرية إم IM وتعنــي إلــه الطقس . والــدال الموجودة أمام الاســم هــي اختصارا للكلمــة DINGIR السومرية والتي تعني إله . وجود هذا الحرف قبل الاسم يعني أن الاســم إســم إلــه .

تيشوب هو ملك السماء وإله الطقس عنــد الحوريين . ان قراءة الاشــارة إم IM الدالة علــى إله الطقس لا زالت موضع جدل ونقاش . هل قصد تيشوب سيد البانتيون الحوري أم أدد إلــه الطقس الرافدي ؟

من المرجع أنها كانت تقرأ تيشوب نظرا للوضع السياسي الذي كان سائدا زمن كتابة هذا النص ، حيث النفوذ الحوري قويا في شمال سورية . انظر حول تيشوب .

E. V. Schuler, Die Mythologie der Hethiter und Hurriter, in: Wörterbuch der Mythologie, Band I, Götter und Mythen im Vorderen Orient, Herausgegeben von H.-W. Haussig, Stuttgart 1965, S. 176; G. Wilhelm, Grundzüge der Geschicht und Kultur der Hurriiter, S.69.

(٢٢) خيبات : ملكة السماء وزوجة إله الطقس تيشوب في البانتيون الحوري . انظر حولها :

E.V. Schuler, Wörterbuch der Mythologie I, S. 172; G.Wilhelm, Grundzüge der Geschichte und Kultur der Hurriter, S. 78; J.Danmanville, RLA 4 (1972-75), S. 326ff.

يرد ذكر خيبات أيضا في بعض نصوص ايبلا مما يدل على أن هـذه الالهة كانت معبودة في شـمال سورية منذ أقدم العصور .

(٢٣) كتبت بالسومرية إش IS8 والتي يمكن أن تقرأ عشتار Istar أو شاوشكا . ولكن من المرجح أن المقصود منها كان شاوشكا نظرا للوضع السياسي الذي كان سائدا . شاوشكا تعني « المساحة» باللغة الحورية وهي أخت تيشوب ولها نفس صـفات عشتار ، فهـي إلهة الحب والحرب عنـد الحوريين انظـر :

E.V. Schuler, Wörterbuch der Mythologie I, S. 176, 179; G. Wilhelm, Grundzüge der Geshichte und Kultur der Hurriter, S. 71.

(٢٤) كتبت بالسومرية NIN وتعني « سيدة » .
(٢٥) أورو URU كلمة سومرية تعني « مدينة » وتكتب عادة قبل أسماء المدن والاماكن .
(٢٦) كـي KI تعني « أرض » بالسومرية ، تكتب عند نهاية الاسم للدلالة على أنه اسم أرض أو مكان.
(٢٧) بيت bit كتبت بالسومرية É وتعني « بيت ، قصر » .
(٢٨) masiktu ماشيقتو تقابلها في العربية كلمة « مشقة » .
(٢٩) اميلوت amelut كتبت بالسومرية LU . LU (hi.a) تعني « رجل » و hi.a علامة للجمع .
(٣٠) كـتبت هكذا hi.a . a-ha-te (hi.a) - si علامة الجمع تكتب ولا تلفظ .
(٣١) ترجمة الاسطر ٢ ــ ٦ لا تزال غير واضحة تماما . هناك من يترجمها على الشكل التالي :
في حلب بيت أبي حدثت اضطرابات وهربنـا . سادة إيمـار كانوا مـن أقرباء أمي وهكـذا سـكنا في إيمـار . انظـر :

Dietrich- Loretz, UF 13, S. 204.

(٣٢) إلي eli كتبت بالسومرية UGU تعني « علي » .
(٣٣) رابو rabû كتبت بالسومرية GAL.GAL (hi.a) وتعني « أكبر » .
(٣٤) ميش mes : علامة للجمع سومرية الاصل واستخدمت في اللغة الاكادية .
(٣٥) هنا يريد إدريمي أن يقول أنه كان أذكى وأكثر فطنة من اخوته الاكبر منه . نجد ذلك أيضا في قصة يوسف في التوراة ولدى شوبيلو ليوما العاهل الحثي .

(٣٦) انظر الهامش رقم ٢٧ .

(٣٧) شاكاناكي sakkanakki كتبت بالسومرية NISAG وتعني « حاكم مدينة ، موظف » .
(٣٨) رابو rabû كتبت بالسومرية GAL وتعني « كبير » .
(٣٩) ماري mare كتبت بالسومرية DUMU hi.a وتعني « أبناء » .
(٤٠) انظر الهامش رقم ٢٠ .
(٤١) سيس sisi كتبت بالسومرية ANSE.KUR.RA وتعني « حصان » . الترجمة الحرفية لهذه الكلمة السومرية هي « حمار البلاد الجبلية ، حمار الشرق ، حمار البلاد الاجنبية » . في هذا المعنى اشارة الى أن الحصان دخل بلاد ما بين النهرين من جهة الشرق .
(٤٢) نَرْكَبْتي (gis) narkabti كتبت بالسومرية GIGIR وتعني « مركبة » جيش gisقبلها تعني « شجرة ، خشب » ، وتكتب عادة قبل أسماء الاشجار والاشياء المصنوعة من الخشب .
(٤٣) كيزي kizi كتبت بالسومرية SAHAR (lù) وتعني « خادم » .
(٤٤) صابي sâbê كتبت بالسومرية ÉRIN(mes) وتعني أشخاص ، اناس ، عساكر .
(٤٥) السوتيون : قبائل بدوية قطعانهم من الاغنام . كانت مناطق انتشارهم واسعة . كانوا يظهرون في منطقة الفرات الاوسط وشرقي دجلة وضمن بادية الشام . تدل الوثائق على مناطق انتشارهم وهي تعود الى قرون مختلفة . وحسب نصوص ماري تجول السوتيون عبر بادية الشام من ماري وجبل بشري حتى تدمر وقطنة .

انظر حول السوتيين :

J. - R. Kupper, Les nomades en Mesopotamie au temps des rois de Mari, Paris 1957. P. 83ff; H. Klengel, Zwischen Zelt und Palast, Leipzig-wien 1972, S. 69 ff.; Gronebg, RGTC 3 (1980), S. 212.

(٤٦) زاكار Zakkar : من المحتمل أنه أمير المنطقة التي مر بها إدريمي . من الجدير بالذكر أن زاكار هو اسم أيضا لحاكم آرامي حكم في حماة في بداية الالف الاول قبل الميلاد . انظر حوله :
KAI Nr. 202, Kommentar, S. 205ff.

(٤٧) كنعان : منطقة في جنوب غرب سورية يرد ذكرها في نصوص مسمارية ونصوص أخرى تعود الى الالف الثالث والثاني والاول قبل الميلاد . انظر :

RLA5(1976-80) , S. 352 ff.; RGTC 3 (1980), S. 139.

(٤٨) أميّا Ammiya : هي ربما أميون الواقعة بالقرب من طرابلس . انظر :
RLA 5, S. 353; Klengel, UF 13, S. 274.

(٤٩) حرفيا « أبناء » كذلك في السطر ٢٢ .
(٥٠) موكيش Mukis : هي المنطقة المحيطة بـ ألالاخ . ألالاخ كانت بمثابة المركز لهذه المنطقة .
(٥١) ماري mârê كتبت بالسومرية HÉ = DUMU (mes) . أما كلمة ماري الثانية الواردة في هذا السطر فكتبت DUMU(mes)
(٥٢) نيخي Nihi : ترد في المصادر الاخرى باسم Niya وهي منطقة تقع الى الجنوب من تل مرديخ « إيبلا » .
(٥٣) امائي a-ma-e (ki) هي منطقة تقع الى الشمال من إيبلا .

(٥٤) يمكن القول أن هؤلاء الناس هربوا من حلب والمناطق المحيطة بهـا نتيجة التمرد الـذي قام فيهـا وسقوطها تحت السيطرة الميتانية ، وسكنوا في أميّا الواقعة في أرض كنعان بعيـدا عن النفـوذ الميتاني . وبما كان هؤلاء من أنصار إليم ـ إليما لذلك فانهم رحبوا بادريمي عندما رأوه .

(٥٥) انظر الهامش رقم ٣٢ .

(٥٦) انظر الهامش رقم ٤٤ .

(٥٧) خابيرو hapiru كتبت بالسومرية (lù)SA.GAZ الخابيرو جماعات من اللصوص وقطاع الطـرق كانت تعيش خارج التنظيمات الاجتماعية المعروفة وتمارس أعمـال السلب والنهب حيث أمكـن . وأحيانا كانت جماعات الخابيرو تخدم كمرتزقة لدى الحكام والملوك . يرد ذكـر الخابيرو في نصوص عديدة من بلاد الرافدين وسورية ومصر .

موضوع الخابيرو كان موضع بحث المؤتمر الرابـع للدراسات الآشـورية الذي عقد في باريس عـام ١٩٥٢ . وقد جمعت أبحاث ذلك المؤتمر من قبل Bottero انظر :
Kupper, Les nomades, P. 249 ff.; Bòttero, R1A 4(1972-75),S.14 ff.

(٥٨) شيبي شَنَاتي MU 7 KAM(mes) كتبت بالسومرية sebe šanati

(٥٩) إصثوراتي issurāti : كتبت بالسومرية Musen(hi.a) وتعني عصافير .

(٦٠) بوخادي puhādi كتبت بالسومرية SILA$_4$(hi.a وتعني حُمْلان (خراف صغيرة) .

(٦١) نوع من التنجيم واستطلاع المستقبل وذلك بمراقبة طـيران العصافير وتفحص الحملان التي تذبـح كقرابين وخاصة الاحشاء منها لرؤية ما يحمل المستقبل .
النظر في أحشاء القرابين لاستطلاع المستقبل كان شائعا في بلاد الرافدين .

(٦٢) انظر الهامش رقم ٢١ .

(٦٣) قاقَادي qaqqadi كتبت بالسومرية SAG.DU وتعني رأس .

(٦٤) إليباتي (gis) elippati كتبت بالسومرية MÄ(hi.a) وتعني سفن .

(٦٥) المعنى هنا أن تيشوب عاد ليشمل إدريمي برعايته ورحمته وأصبح راضيا عنه . يبدو أن إدريمـي كان يجري اتصالات في هذه الفترة مع ملك ميتاني من أجل العودة الى الالاخ .

(٦٦) انظر الهامش رقم ٤٤ .

(٦٧) عساكر نولاّ Nulla : هم مجموعات من الخابيرو مدربة بشكل جيـد على القتال . وبما كانـوا يسكنون المناطق الجبلية الواقعة خلف أميّا والغنية بالاخشـاب الصالحة لبناء السفن . من المعتقد أنهم كانوا غير مندمجين بشكل ثابت فيوحدات سياسية . انظـر :
Dietrich- Loretz, UF 13, S. 214; N. Na'aman, Aroyal Scribe and His Scribal Products in the Alalah IV Court, in: OA 19(1980), P.113 -114; H. Klengel, UF 13. S. 275.

(٦٨) انظر الهامش رقم ٦٤ .

(٦٩) تامتـا tâmta كتبت بالسومرية A.AB.BA وتعني بحـر .

(٧٠) خورشان ħursan كتبت بالسومرية HUR.SAG وتعني جبـل .

(٧١) خازي Hazi : جبل الاقرع . هذه اقدم اشارة اليه معروفة حتى الان . في النصوص الابجديـة المكتشـفة في أوجاريت يدعـى ، جبل صافـون Spn (Saphon) . في العصرين اليونانـي والرومائي كان يسمى جبل كاسيوس Kasios/Casius جبل الاقرع كان مهما للملاحة البحرية

كنقطة توجيه للبحارة . ولكن دوره الاهم كان في المجال الديني ليس فقط في أوجاريت القريبة منه حيث كان يعتبر مركز للاله بعل ، ولكن أيضا لدى الحثيين .

(٧٢) ألبي alpi كتبت بالسومرية GU (hi.a) وتعني ابقار .

(٧٣) إمّيري immeri كتبت بالسومرية UDU(hi.a) وتعني أغنام .

(٧٤) إشتين أومي istên ûmi كتبت بالسومرية UD I KAM وتعني يوم واحد .

(٧٥) إشتين isten كتبت بالسومرية I(en) وتعني واحد .

(٧٦) اميلي amêli كتبت بالسومرية LU وتعني رجل ، انسان .

(٧٧) الي âli كتبت بالسومرية URU(ki) وتعني مدينة .

(٧٨) اخّي ahhi كتبت بالسومرية SES (mes) : إخوة .

(٧٩) يريد إدريمي هنا أن يقول أن سكان مملكة أبيه كانوا يحبونه لذلك رحبوا به ترحيبا حارا عند عودته اليهم .

(٧٩ب) انظر الهامش رقم ٩٠ .

(٨٠) شيبي شَناتي sed'e sanāti كتبت بالسومرية MN 7 KAM (hi.a) سبع سنين .

(٨١) باراتارنا Barattarna : كان ملك حوري ـ متياني عام ١٤٧٠ ق.م .

(٨٢) شارو sarru كتبت بالسومرية LUGAL : ملك . كذلك في السطر ٥١ .

(٨٣) شار sar كتبت بالسومرية LUGAL : ملك .

(٨٤) انظر الهامش رقم ٤٤ .

(٨٥) شاري sarri كتبت بالسومرية LUGAL(ri) : ملك .

(٨٦) انظر الهامش رقم ٨٣ .

(٨٧) يبدو أن الكاتب نسي كلمة خوري (كي) هنا فأضيفت ليستقيم المعنى . انظر :
Dietrich-Loretz, UF 13, S. 212.

(٨٨) أنواندا Anwanda : مبعوث إدريمي الى ملك حوري ـ متياني . انظر :
S.Smith, the Statue of Idri-mi, P.17.

(٨٩) انظر الهامش رقم ٣٢ .

(٩٠) Ditrich - Loretz يترجمان السطر ٤١ على النحو التالي :
« اخوتي تآخوا معي » ص ٢٠٥ . بشكل مشابه يترجمه S.Smith في الصفحة ١٧ . ولكن هذه الترجمة لا تحمل معنى ، فهم إخوة أصلا ولا يحتاجون لان يتآخوا .
كذلك فان السطر ٤٨ قد ترجم من قبلهما كما يلي :

« آبائي كانوا قد تآخوا فيما بينهم » . هذا أيضا لا يتضمن أي معنى . نرى أن الفعل الوارد في هذين السطرين (٤١ ، ٤٨) يدل على الاستراحة وليس على التآخي .

(٩١) شاري sarri كتبت بالسومرية LUGAL(hi.a) وتعني ملوك .

(٩٢) ماميتا māmita كتبت بالسومرية NAM.ÉRIM قسم ، يمين ، حَرَم .

(٩٣) الهدية الترحيبية تعني هنا أن إدريمي أرسل هدية ملكية إلى الملك المتياني كنوع من اعلان الولاء والخضوع له . وقبولها من قبل الملك المتياني دليل على أنه راض عن تابعه إدريمي .

(٩٤) كينونو kinûnu : « موقد نار » في اللغة الاكادية . شهر كينونو (في الارامية كانونا ، وفي العربية

كانون) : هواسم الشهر العاشر في التقويم البابلي وكذلك شهر عيـد ، وفي ماري شهر عيـد للالـه داجـان Dagan .

انظر : AHw, S. 481-82.

(٩٥) نيقى niqu كتبت بالسومرية SISKUR : ضحية ، قربان .

(٩٦) انظر الهامش رقم ٢٧ .

(٩٧) المقصود بعودة البيت الهارب خضوع العائلة الملكية التي هربت من حلب من جديد للملك المتياني .
انظـر : H. Klengel. UF 13, 5. 276.

(٩٨) أميلوتي (amilûtu) كتبت بالسومرية LU(ti) : انسانية .

(٩٩) شارا sarrā كتبت بالسومرية LUGAL : ملـك .

(١٠٠) من الواضح أن إدريمي أقسم يمين الولاء لملك متياني لذلك عيّن ملكا على الالاخ كتابع للامبراطورية الحورية ـ المتيانية .

(١٠١) شارّو (sarrû) كتبت بالسومرية LUGAL(mes) : ملوك .

(١٠٢) إميتّي imitti كتبت بالسومرية ZAG : الناحية اليمنى .

(١٠٣) شوميلي sumêli كتبت بالسومرية GUB : الناحية اليسرى .

(١٠٤) دور dûr كتبت بالسومرية KI.BAD : جدار ، سور .

(١٠٥) صابا saba كتبت بالسومرية ÉRIN (mes bá) : عساكر ، أناس ، أشخاص .

(١٠٦) المقصود بـ « أرض حاتي » البلاد الخاضعة للامبراطورية الحثية .

(١٠٧) شيبي seb'e : سبعة ، وكتبت رقما .

(١٠٨) كتبت حسب رأي سيدني سميث كالتالي : (al)hal(HI.A)-sa ومعناها «قلاع». بينما يرى ديتريش ولورتيس Dietrich-Loretz ان قراءة هذه الكلمة على الشكل التالي : URU (didli. hi.a) ومعناها « أماكن » . نتيجة مراجعة النص الاكادي والتأكد منه نميل الى رأي سيدني سميث . وهذا ما يراه أيضا الاستاذ الدكتور أينار فون شولر .
هذه الكلمة ترد أيضا في السطر ٦٩ .

(١٠٩) مواقع القلاع (المدن) المذكورة في الاسطر ٦٦ ـ ٦٨ لا تزال غير معروفة حتى الان .

(١١٠) انظر الهامش رقم ٣٢ .

(١١١) المقصود هنا أن الامبراطورية الحثية لم تبعث بقواتها لمقاومة إدريمي حيث كانت تمر في ذلك الوقت بمرحلة من الضعف نتيجة الفوضى والصراعات الداخلية . وقد قام إدريمي بحملته ضد الاراضي الحثية على ما يبدو بتشجيع وتأييد من امبراطور حوري ـ متياني .

(١١٢) انظر الهامش رقم ٤٤ .

(١١٣) حرفيا « على فرقي المساعدة » .

(١١٤) انظر الهامش رقم ٧٧ .

(١١٥) انظر الهامش رقم ٢٧ .

(١١٦) كوسي (gis)Kussi : كتبت بالسومرية GU.ZA كمفرد أولا و GU:ZA(mes) كجمع ثانيا ، وتعني عرش ، كرسي .

(١١٧) شارّي sarri كتبت بالسومرية LUGAL(mes) : ملوك .

(١١٨) انظر الهامش رقم ٧٨ .

(١١٩) انظر الهامش رقم ٥١ .
(١٢٠) أشيبي āsibi كتبت بالسومرية TUS(mes) وتعني « سكان ، مقيمون » .
(١٢١) شوبتـا subta كتبت بالسومرية KI.TUS : مسكن .
(١٢٢) طابتـا tabta كتبت بالسومرية DU_{10}(ta) : جيد ، طيب .
(١٢٣) أ لي āli كتبت بالسومرية URU(didli. hi.a) : مـدن .
(١٢٤) أبوتـي abbûte كتبت بالسومرية A.A : آباء .
(١٢٥) إلي ili كتبت بالسومرية DINGIR(mes) آلهـة .
(١٢٦) نيقـي nipê كتبت بالسومرية والاكادية: SISKUR (hi.a ni-iq-qi yi.a) وتعني أضاحي ، قرابـين .
(١٢٧) هذه اشارة الى عبادة وتقديس الاموات وتقديم الاضاحي والقرابين لهم . انظـر :
R. Mayer-Opficius, UF, S. 287 ff.

(١٢٨) انظر الهامش رقم ٢١ .
(١٢٩) انظر الهامش رقم ١٨ .
(١٣٠) سالمي salmi كتبت بالسومرية ALAM وتعني تمثال ، شكل ، صورة .
يقابل هذه الكلمة في العربية كلمة صـنم .
(١٣١) شامو samû كتبت بالسومرية والاكادية AN samu : سماء ، إله السماء .
(١٣٢) المقصود هنا العالم السفلي أي عالم الاموات .
(١٣٣) إلـو ilû كتبت بالسومرية DINGIR (mes) : آلهـة .
(١٣٤) شامي samê كتبت بالسومرية AN : سماء ، إله السماء .
(١٣٥) إرصيتي erseti كتبت بالسومرية KI : أرض . بالعربية أرض .
(١٣٦) شاروت sarrût كتبت بالسومرية LUGAL(ut) : مملكة .
(١٣٧) انظر الهامش رقم ٢١ .
(١٣٨) بيـل bêl كتبت بالسومرية EN : سـيد .
(١٣٩) انظر الهامش رقم ١٣٤ .
(١٤٠) كتبت بالسومرية والاكادية KI er-se-ti : أرض .
(١٤١) انظر الهامش رقم ١٣٣ .
(١٤٢) رابوتي rabûti كتبت بالسومرية GAL. GAL.E.NE وتعني « كبار » .
(١٤٣) زيـر zêr كتبت بالسومرية NUMUN(mes) وتعني ذرية سلالة .
(١٤٤) شاروا Sarruwa : كان الكاتب الملكي في ألالاخ . انظر حوله :
N. Na'aman, A Royal Soyal Scribe and His Scribal Products in the Alalah IV Court, in: OA 19 (1980), P.107 ff.

(١٤٥) طوبشارو tupsarru كتبت بالسومرية DUB.SAR : كاتب .
(١٤٦) يقرأ ديتريش ولورتيس هذه الكلمة دومو : ابن ، بينما يـرى الأستاذ فون شولر أن هذه الكلمـة هـي TUR السومرية والتي يقابلها في الاكادية Sehéru : صـغير .
(١٤٧) انظر الهامش رقم ٢٠ .
(١٤٨) كُتبَ الرقم « ١٠ » الذي هو رمز إله الطقس . انظر أيضا الهامش رقم ٢١ .
(١٤٩) كُتبَ الرقم « ٢٠ » الذي يشير عادة الى إلـه الشمس (شَمّاش لـدى الاكاديين وشيمجي لـدى

الحوريين . انظر حول شيمجي :

G. Wilhelm, Grundzüge der Geschichte und Kultur der Hurriter,S. 74 ff.;

E.V. Schuler, Wörterbuch der Mythologie I, S. 176.

(١٥٠) كتبت الرقم « ٣٠ » الذي يرمز عادة الى إله القمر (سين Sin لدى الاكاديين وكوشوخ لـدى الحوريين . انظر حول كوشوخ :

G. Wilhelm, Grundzüge der Geschichte und Kultur der Hurriter,S.74.

(١٥١) انظر الهامش رقم ٢٣ .
(١٥٢) انظر الهامش رقم ١٤٥ .
(١٥٣) انظر الهامش رقم ١٣٠ .
(١٥٤) انظر الهامش رقم ١٣٣ .
(١٥٥) انظر الهامش رقم ١٣٤ .
(١٥٦) انظر الهامش رقم ١٣٥ .
(١٥٧) أوداماتو udammaqû كتبت بالسومرية $SI6_5$ وتعني « يكون جيدا ، طيبا » .
(١٥٨) شيمجي Simigi كتبت بالسومرية UTU : إله الشمس . انظر أيضا الهامش ١٤٩ .
(١٥٩) انظر الهامش رقم ١٣٨ .
(١٦٠) أوبالاط uballat كتبت بالسومرية TIL.LA : حياة .
(١٦١) شلاشا شناتي salasa sanati كتبت بالسومرية MU 30 KAM (mes) وتعني « ثلاثـون سنة » .
(١٦٢) شارّا sarrā : كتبت بالسومرية LUGAL : ملك .
(١٦٣) طوبي tuppi كتبت بالسومرية DUB وتعني لوح .
(١٦٤) انظر الهامش رقم ٣٢ .

مختصرات اسماء المصادر والمراجع الواردة في الهوامش :

AHw = W.V. Soden, Akkadisches Handwörterbuch.
BASOR = Bulletin of the American Schools of Oriental Research.
JCS = Journal of Cuneiform Studies.
KAI = H.Donner- W.Rölig, Kanaanäische und Aramäische Inschriften, 1-3, Wiesbiden 1966-1969.
OA = Oriens Antiquus.
RGTC = Répertoire Géographique des Textes Cunéiformes.
UF = Ugarit-Forschungen.
RLA = Reallexikon der Assyriologie.

بعض الأسس النظرية للصناعات الحربية في العهدين الأيوبي والمملوكي

المهندس أزاد علي

لا يختلف اثنان قط على أهمية السلاح ودوره الفعال في مجريات الاحداث وحركة التاريخ ، فلا غرابة اذن أن نجد في الحضارات والدول ، منذ اقدم العصور ، اهتماما كبيرا بالسلاح ، وصناعته وتطويره ، لان السلاح كان ولا يزال الاداة الاقوى للتغير وللدفاع عن النظم الاجتماعية ، وبالتالي بقاء الحضارات والدول مرهون بقدراتها الدفاعية اي بصناعاتها الحربية ومدى اكتفائها الذاتي وتوفر السلاح بين ايدي ابنائها .

ومن المعروف أن الاهتمام بالجوانب العسكرية وصناعة السلاح بلغ مستوى رفيعا في الحضارة العربية الاسلامية لتلبية متطلبات الفتوحات الاسلامية ، ومن ثم حماية الرعايا والاجزاء البعيدة من الدولة ضد الغزاة ، واستمدت هذه الاهتمامات بالعلوم العسكرية وصناعة السلاح مشروعيتها من فكرة الجهاد وكونها فريضة على كل مسلم . فلا نصادف كتابا أو مخطوطا في هذه العلوم الا وقد استهل وافتتح بمجموعة من الآيات واحاديث تؤكد فضل الجهاد وضرورة تعلم الفروسية وفنون القتال ، وتحبذ اقتناء السلاح وصنعه اضافة الى الاستشهاد بالاحاديث النبوية التي تبين ان لصانع السلاح أيضا الفضل مثل المجاهد وأنه سيدخل الجنة ، وقد أورد التلواني في « رمي النشاب» أن الرسول «ص» : « وكان عنده ثلاث قسي معقبة تدعى الروحا وقوس شوحط تسمى البيضاء وقوس نبع تسمى الصفراء »(١) ، ليكون كل ذلك حافزا للمسلمين لاقتناء الاسلحة وتعلم فنون الرمي والاقتداء بالرسول الكريم .

ومما لا شك فيه أيضا ان العلوم العسكرية تطورت وتشعبت في المراحل اللاحقة لبدايات الاسلام . ويمكن اعتبار العهد الايوبي بداية النهضة التكنولوجية العسكرية لان الزيادة التي حصلت في الاهتمام بالجوانب العسكرية كانت نتيجة للوضع التاريخي العام . ولضرورات الامن والدفاع ولمقاومة غزو الفرنجة . وكانت محصلة هذه النهضة مدرسة عسكرية متطورة من كافة الجوانب النظرية والتطبيقية ، فتم صنع السلاح وتأمين العتاد بكثرة وتجريبه في ساحات القتال طوال قرنين من الزمن من تاريخ تلك الحروب الطويلة . وظهرت كتب نظرية في الفروسية والسياسة العسكرية والتعبئة ،

وحتى التجسس ، ودرست في المدارس الدينية كمقررات ، مثل « التذكرة الهروية في الحيل الحربية » لعلي بن أبي بكر الهروي ، وهي تظهر التطور الذي وصلت اليه تلك العلوم وتعطي فكرة عن الاسلحة والعتاد المتوافر في تلك الايام :
« ... ولا يهمل أمر الصناع والمقدمين كالمعمارية والمنجنيقية والزراقين والترسة ، والنقابين . ويجب على السلطان أن يتفقد خزائن السلاح والسيوف والرماح والكبودة والزرد والعدد والتراس والحبويات والجواشن ، والجفتيات/ستارة/ وجياد الطوارق والحراب ، والقسي وأوتارها والجروخ والزيارات ، والنبل والحسك وآلة النقوب والكلاليب للحروب ،وأخشاب المنجنيقات ، والعرادات وحبال القنب وكلما يطلب من آلة الحرب وكثرة الحجارة الكبار والكفيات الصغار ، والحلق والمسامير والزفت والقار والكلس وجلود الجواميس والجمال والبقر والاوعال ، والنفط وآلته والقدر وحوائجها وليعتبر الاهراء وما فيها من الحبوب ، كالحنطة ، والشعير والعدس ، والجلبان وبيوت الاتبان ، وليعتبر المخازن وما فيها من الملح ، والاسمان والزيوت والادهان وكثرة الشحوم ، والنمك سود من اللحوم والكبود المملحة والاطراف المشرحة ... »(٢)

الا أن مهمة دارسي تاريخ التكنولوجيا بشكل عام والصناعات الحربية بشكل خاص لا تقتصر على ذكر أنواع الاسلحة ، وطرائق استعمالها ، بل تتعدى ذلك للوصول الى دراسات مقارنة بين أنواعها والمواد التي صنعت منها ، وطرق الانتاج ، وتتبع مسار تطورها جيلا بعد جيل . كما تبقى مهمة التاريخ العلمي غير مكتملة في اعتقادنا اذا لم تشتمل على البحث عن الاسس النظرية لصناعة السلاح واستعمالاته .

ونقصد بالاسس النظرية المفاهيم العلمية في اطارها الواسع المفهومي ، وهذه المفاهيم التي تكون في اشكالها الجنينية ذات أبعاد وسمات معرفية ، ولها طابع فيزيائي عام . وربما تحتوي بين جنباتها أفكارا رياضية لم تستقل وتتبلور بعد في رموز ومعادلات .

أن محاولتنا هذه هي خطوة اولية في هذا الطريق ، نهدف منها أولا الى الاشارة الى هذه البنى واتباع منهجية علمية للكشف عنها واعادة صياغتها . وذلك بقراءة النص التراثي العلمي بموضوعية ، دون اسقاط مباشر للمفاهيم النظرية العلمية المعاصرة على النص القديم ــ على الرغم من أنه لا مفر من ذلك وبدرجات متفاوتة ــ ولتكون عاملا مساعدا على الكشف عن المضمون العلمي للنص التراثي ، ودون محاولة السمو بها وتحميلها أكثر مما تتحمل من المضامين العلمية . لنقل انها قراءة متوازنة للتراث العلمي ، تجاهد للحفاظ على استقلالية النص وربطه بسياقه التاريخي ، ومحاولة لاستكشاف عوالمه الداخلية العلمية . وسنتطرق فيما يلي لثلاث نقاط :

١ ـ الطرق التجريبية في اختبار السلاح :

ان طرق تجريب السلاح ، تكشف لنا ، أول ما تكشف ، عن عقلية الصانعين والمجربين لذلك سنشير الى بعض هذه التجارب الهامة ، وخاصة التي ذكرها الطرسوسي في « التبصرة » وقد نقلها عن أستاذه الشيخ حسن الابرقي(٣) : « يجب أن يكون طول القوس العربية ستة أشبار ونصف شبر الرامي . واقوى القسي العربية ما بلغ وزن جره مائة وعشرين رطلا واضعفها ما كان وزن جره خمسين رطلا والوسطى ما بينهما وصفة معرفة أوزان القسي ان تأخذ القوس فتوترها وتعلقها في وتد شديد في الحائط . . . خذ نشابة وضع في فوقها الوتر والزقها بجانب الديمك بخيط شدا رخوا ثم اشدد على الوتر عند فوق النشابة بسير وثيقة محكمة جدا ثم علق بالشرابة الواح رصاص كلما علقت لوحا نظرت الى مقدار ما ينزل من النشابة فتزيد لوحا ثانيا ولا تزال تفعل ذلك الى أن ينتهي رأس النصل الى نصف الديمك فاذا بلغت الى هذا الموضع خططت الالواح واحدا واحدا وتركت ترجع على مهل الى أن تعود موترة ثم تنظر كم وزن الالواح التي علقتها على الحرير وصحة الوزن فما كان مبلغه من الامناء والارطال فهو مقدار قوة تلك القوس وقوة من يجرها . »(٤).

وهذه الطريقة التجريبية نصادفها في اغلب المخطوطات التي جاءت بعد التبصرة في العهد المملوكي ، والنص السابق يغني عن التعليق ، لوضوح الافكار الفيزيائية التطبيقية فيه ، ولحسن سير التجربة التي تم الربط فيها بين قوة الثقالة واستطالة الوتر الحريري في القوس . وبالتالي تعبر التجربة عن قوة توتر الوتر بالاثقال ب«الحيل» وخاصة عند التلواني : « فتكون تلك الارطال زنة حيل ذلك القوس . » (٥) فاذا كانت الاستطالة اللازمة « الشد » تتطلب مئة رطل فالمساواة هنا صحيحة ، ولكن تحليل قوة التوتر داخل الوتر ربما تحتاج الى توضيح أكثر دقة وتحديدا . وتتطلب صياغة معادلة رياضية تدرس توازن القوى في تلك العقدة .

ومع ذلك تبدو التجربة خطوة متقدمة في الفيزياء التطبيقية في المرحلة المعنية . ويدهش القارىء من دقة تجارب اختيار أنواع الخشب الصالحة لصناعة الرماح والنبال ، وطرق حساب كثافاتها بالسقوط أو الاطلاق أو الوزن المباشر . ومن النص التالي نتأكد من درجة الاهتمام بمادة الخشب وكيفية اختياره : « اعلم ان أجود أنواع الخشب ما اجتمع فيه الصلابة والخفة ورقة بشرته وصفا أديمه وكان طويل العرق غير رخو ولا منتفش . . . وفي الخشب ما يكون بطيء السير وخفيف السير فاذا كان عندك عودان واردت أن تعلم ايهما أخف فاعمد الى حلقة ضيقة بقدر غلظ السهم فلا تزال تصنع من السهم قليلا وتدخله في الحلقة مرغوما ويصنع كذلك حتى يكمل السهمان

على هذا النحت فاذا أكملتهما فارجعهما في الميزان فأيهما أخف فاستعمله ،والا فريشهما بريش موزون واجعل منهما نصلا موزونا وارم بهما فأيهما كان أسرع فاستعمله .»(٦).

ونكتفي بهذين المثالين عينتين للطرائق التجريبية في الصناعات الحربية وتحديد مواصفاتها الهندسية .

٢ ـ المفاهيم الفيزيائية :

في العلوم العسكرية لا بد من حجة أو سند نظري علمي ، لا لتفسير طرق استعمال السلاح فحسب ، بل لتوضيح آلية صنعه أيضا . وهذه الحجج ، ان اردنا تسميتها بذلك ، هي جملة من المفاهيم الفيزيائية العامة التي لم تدخل طور القوانين بعد ، وقد يكون البعض منها ما زال على تخوم العلوم الفيزيائية ، ولكنها تحاول الدخول في دائرتها بمحاولتها شرح بنية المواد الخام الداخلة في جسم السلاح وتكوينه . وان عجزت تلك النظرات في خلق قناعات حول تماسك المواد وتفسير خواصها ، فانها تلجأ الى المقارنات الخارجية ومحاكاة الطبيعة . ونجد مثالا على ذلك (التفسير العلمي بالمحاكاة والبحث عن نقاط التشابه) بمقارنة القوس مع طبيعة الجسد البشري من ناحية التماسك والاحتفاظ بالقوام : « وافضل قسي اليد وأنفعها ما تركب من الخشب والعقب والقرن والغراء وفي ذلك حكمة لطيفة وصنعة شريفة رفيعة وذلك أنها منشأة على نشأة الانسان، فانها قوامه وبناؤه على أربع العظم واللحم والعروق والدم وكذلك انشيت القوس لان الخشب بمنزلة العظم من الانسان والقرن بمنزلة اللحم والعقب المشتبك على جميع اعضائها بمنزلة العروق المشتبكة على جميع أعضاء الانسان والغراء فيها بمنزلة الدم الذي يلتيم جميعها وقد جعل لها بطنا وظهرا كالانسان »(٧) .

نلاحظ هنا التفسير العلمي في أبسط اشكاله انها « حكمة » فقط في الصنعة لانها توازي حكمة طبيعة الانسان من نواحيه الفيزيائية ـ الجسدية ، مع الاخذ بالاعتبار ان وجهة النظر هذه لا تأخذ في اعتبارها مفهوم كمال بنية الجسد البشري .

اذا تابعنا الموضوع في حدود هذه المفاهيم نصادف الكثير منها ، ولكننا نسعى للوصول الى أفكار أكثر قربا والتصاقا بالميكانيك والحركة ومقاومة المواد .والتي نجدها عند ابن أرنبغا الزردكاش في كتابه « الانيق في المناجيق » ، حيث يشير الى كيفية زيادة مدى القذيفة او نقصانه باجراء بعض الترتيبات العلمية : « اذا أردت ان ترمي بعيدا فانك تضع الحجر في المنجنيق وترمي به الى مطلوبك فان اردت أبعد منه فانك تدهن في الثانية اصبع المنجنيق بالزيت . . . وان أردت أبعد منه فانك تضع في اصبع المنجنيق

كعكة من حبل وترمي به فانك تبلغ مقصودك ..»(٨) وهذه الاجراءات تبين مدى فهمه لمسألة الاحتكاك وعلاقتها بسرعة دوران محور المنجنيق «السهم» ، وبالتالي سرعة رمي القذيفة وحركة الثقل المعاكس ، وفي مواضع اخرى من الكتاب تبدو المفاهيم العلمية الفيزيائية أكثر وضوحا وخاصة عند الاشارة الى تدريجات القنداق ، اذ يتم الربط مباشرة بين مدى القذيفة « منزلة » والفتحة « زاوية الرمي » بعلاقة طردية تربط المسافة الافقية بزاوية الرمي : « صفة قنداق وخاصتها انها ترمي بها مرة بعد اخرى، وكل مرة ابعد من الاخرى ... والقاعدة فيه انك تبتدىء من الخط التحتاني ثم الى الثاني ثم الى الثالث الى حين تفرغ الخطوط والخط الاخير أعلى من الكل .» (٩)

وثمة شواهد تؤكد على أن الصناع ومؤلفي التصانيف العلمية العسكرية قد استوعبوا وتنبهوا لمسألة مقاومة الهواء ومسار القذيفة وكيفية المحافظة على توازن القذيفة او السهم المنطلق ، ودقة توجيهها . فالاسهم الكبيرة « خطاي » والمنجنيقية ، مصنوعة بطريقة تحتوي على صفائح معدنية صغيرة في جنباتها كالاجنحة ولها ذيل على شكل صفيحة رقيقة للحفاظ على التوازن . وهذا مؤشر لفهمهم التجريبي العملي لمقاومة الهواء .

لكن هذه الفكرة تتضح أكثر في النبال حيث مصطلح الترييش اي تعمير مؤخرة النشاب بالريش لتأمين دقة اكثر في التوجيه : « اما الريش فهو انواع احسنها وانفعها ريش النسر ... وقالوا الاذناب خير للسهم من الجناح لانه الين ... ورامي السهم المريش بالشمال يطلب أيمن الهدف وعكس ذلك السهم المريش بالريش الايمن »(١٠).

٣ ـ النسب العددية والتناسب :

ان الكم الهائل والنوعية المتطورة من السلاح الذي تم انتاجه في الحضارة العربية الاسلامية في مختلف عهودها وبقاعها . تولد تساؤلا مشروعا حول كيفية انتاجه والاسس التي قام عليها . ونجد الاجابة على هذا التساؤل في القراءة العلمية لتاريخ هذه الصناعة وعلومها ، قراءة لا تتوقف عند المفاهيم النظرية المعرفية العامة . وحتى التجربة وحدها لن تجيب على السؤال المطروح بقوة حول كيفية الرقي والنجاح في صناعة السلاح . ولا شك أن القارىء بامعان يصل الى نتائج هامة يصادفها في المخطوطات وغيرها ، تتعلق بالنسب العددية والتناسب الداخلي بين اجزاء ومكونات السلاح . فالتجربة الطويلة في استخدام السلاح واعادة صنعه وتحسينه انتجت جملة من المعايير والمقاييس هي الناظم والموجه لصناعة اي قطعة من السلاح أو آلة ، فثمة تناسب عددي دائم كقانون يشكل أساسا لتركيب المواد الداخلة في صناعة القذائف والمتفجرات «القدور والاسهم الحارقة»،

ولنتابع النص التالي : « تأخـذ ثمانين قنا ، وثمانين وشـق ، وخمسين علك صنوبر ، واربعين بطم خام ، يحل في طاجن قليل من النفط ويغلف ، بخمسة عشر علك صنوبر وقصاصة لباد ، وتوز وتبيض القدر وتملأ »(١١).

وكما هـو معروف في صناعـة السيوف وعلم السقاية أن نوعيـة خلائط الفولاذ والنسب الداخلة في تركيبها تحدد جودة السيوف والنصال وخصائصها . ويمكن التأكد من ذلك بالرجوع الى المراجع الكثيرة في هذا المجال .

اذن يمكن القول أن نوعية المواد ونسبها الوزنية أو الحجمية المضافة بعضها الى بعض هي مفتاح الصناعات الحربية وسر نجاحها وخاصـة في الاصناف ذات الصبغة الكيميائية ، أما في الآلات والادوات نفسها ، فالتناسب يتحقق بين الاجزاء ، وكل جزء مكون للآلة الحربية يشكل مرجعـا معياريا للاقسام المتبقية ، يتـم التقايس بواسطتها للوصول الى حالة الانسجام والتوافق التـام التي تم التأكد مـن صلاحيتها ونجاحها تجريبيا :«اعلم ان الوتر الطويل أطرد للسهم وأحد وأسرع ولكن اذا أفرط الطول حدث منه انقلاب . وقال علماء هذا الفن ان أصح النصول للنشاب الميداني واليغلق وهو الحربي ما كان وزنه السبع من جميع بدن السهم مع نصله ، ما نقص أو زاد فهو غير صحيح(١٢).

فما يضبط الجزء اذن هي الاجزاء الاخرى من السلاح ، سواء كـان القياس وزنا أم حجما (بالابعاد الهندسية الثلاثة) . لقد تنبهوا كثيرا الى عملية التوافق والتناسب بدقة فقالوا « لكل قوس وترا (كذا) ولكل وتر سهما »(١٣) .

يمكن تلخيص ما سبق بأن المفاهيم النظرية العامة المرتبطة بمواد انشـاء الاسلحة ووظيفة السلاح كانت التربة التي انبتت علـم صناعة السلاح . وأعطته الدفـع الكافي للوصول الى درجة الكمال في اطار الصنف الواحد . وكذلك بالتجربة وتعديل الصـنع معتمدة بشكل أساسي علـى التناسب الداخلي كأساس نظـري ، لانه الاكثـر سهولة وتشخيصا من جهة ، وكونه موضوع التجربة من جهة أخرى . وكان هدف التجـارب العملية دعم الفكرة كما اشرنا .

وفي بحثنا عن الاسس النظرية لم نقصد اكتشاف معادلات رياضـية او نظريـات فيزيائية ناضـجة كانت صناعـة السـلاح تعتمدهـا ، أو تفسـر تركيبـة الاسـلحة وآلية صنعها واستخدامها ، لان ذلك ضرب من الخيال . فهذه الصناعات بتطورهـا وتراكم خبرات صانعيها ، وتفاعلها مع الفكر والعلوم النظرية لاحقا ، قد انتجت النظريات وعلوم التكنولوجيا وليس العكس . فالاساس النظري الذي اشرنا اليه ، هو معرفي عام

يسبق مرحلة القوانين العلمية التطبيقية ، ويسبق مرحلة الالتحام بين العلوم النظرية والتطبيقية بعدة قرون .

فالاطار العام الذي تم وفقه صناعة السلاح في العهدين الايوبي والمملوكي يمكن وضعه وفق المخطط التالي :

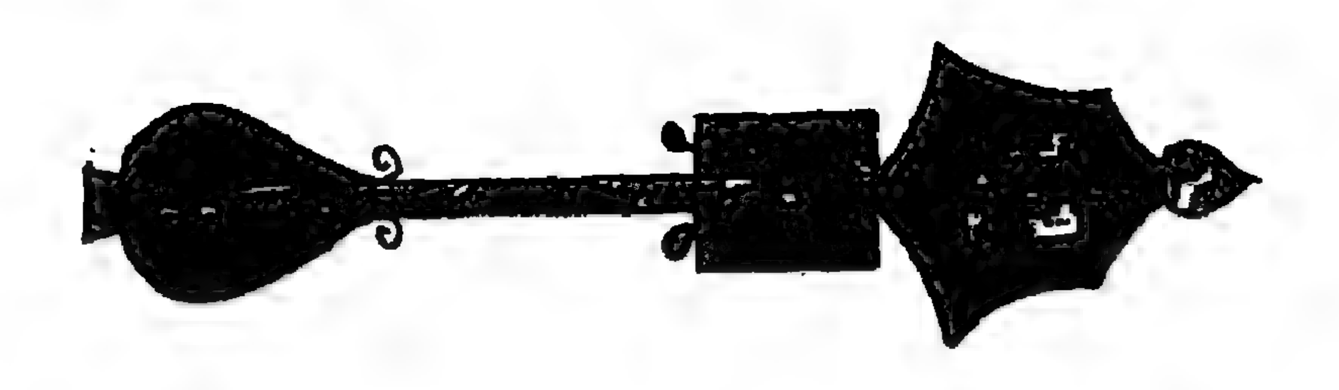
السبب العددية

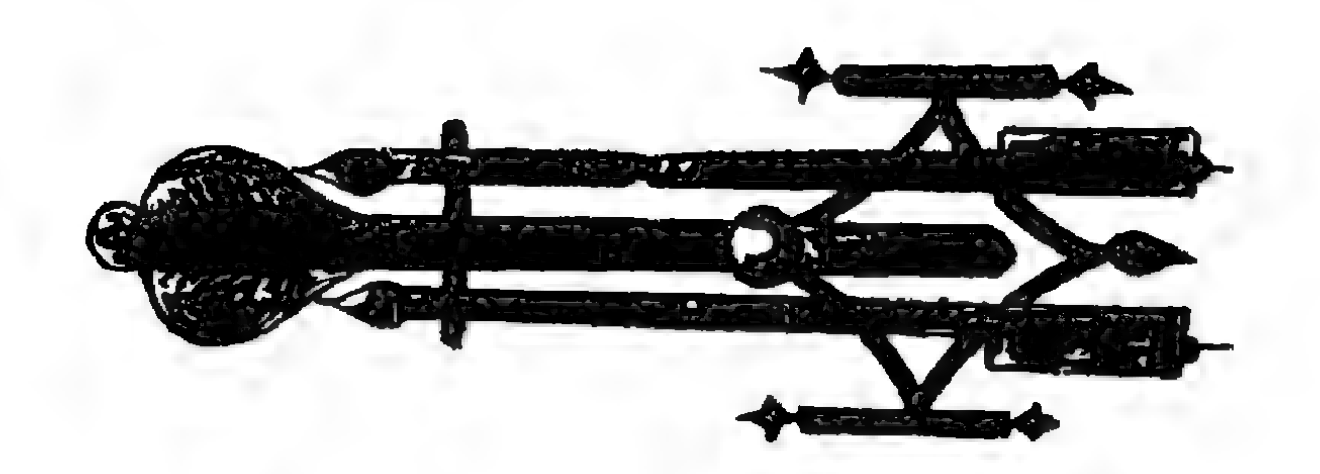
المفاهيم النظرية + الخبرة العلمية ⟵ صناعة حربية + خصائص هندسية

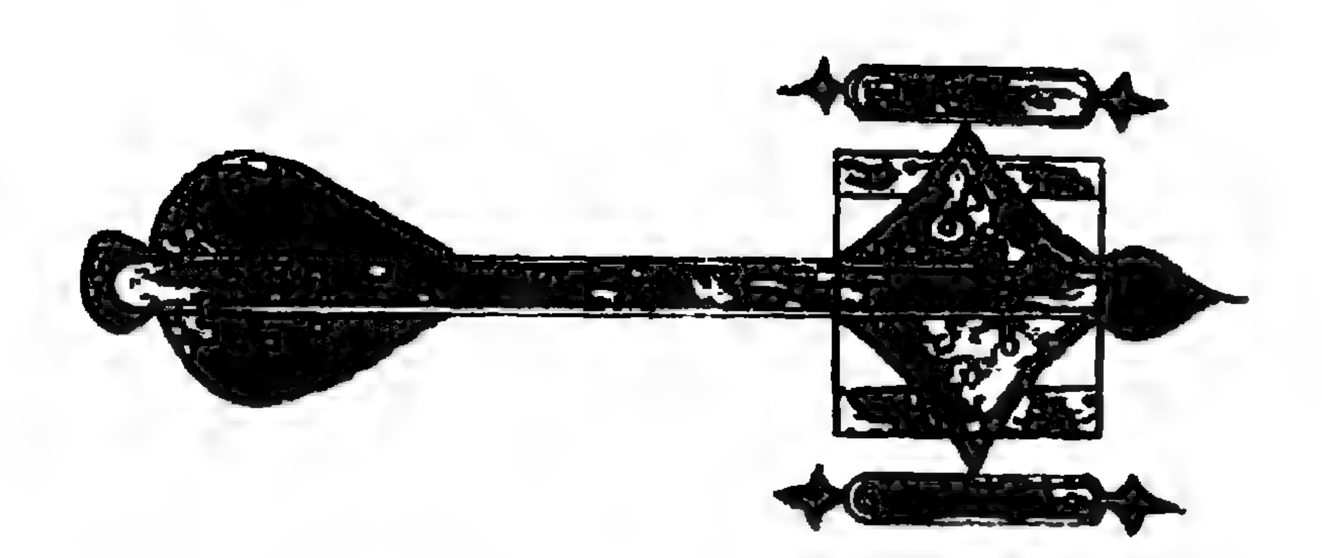
التجربة

أما التوسع والتعمق لصياغة معادلات متعلقة بهذه الاسس فهو موضوع آخر .

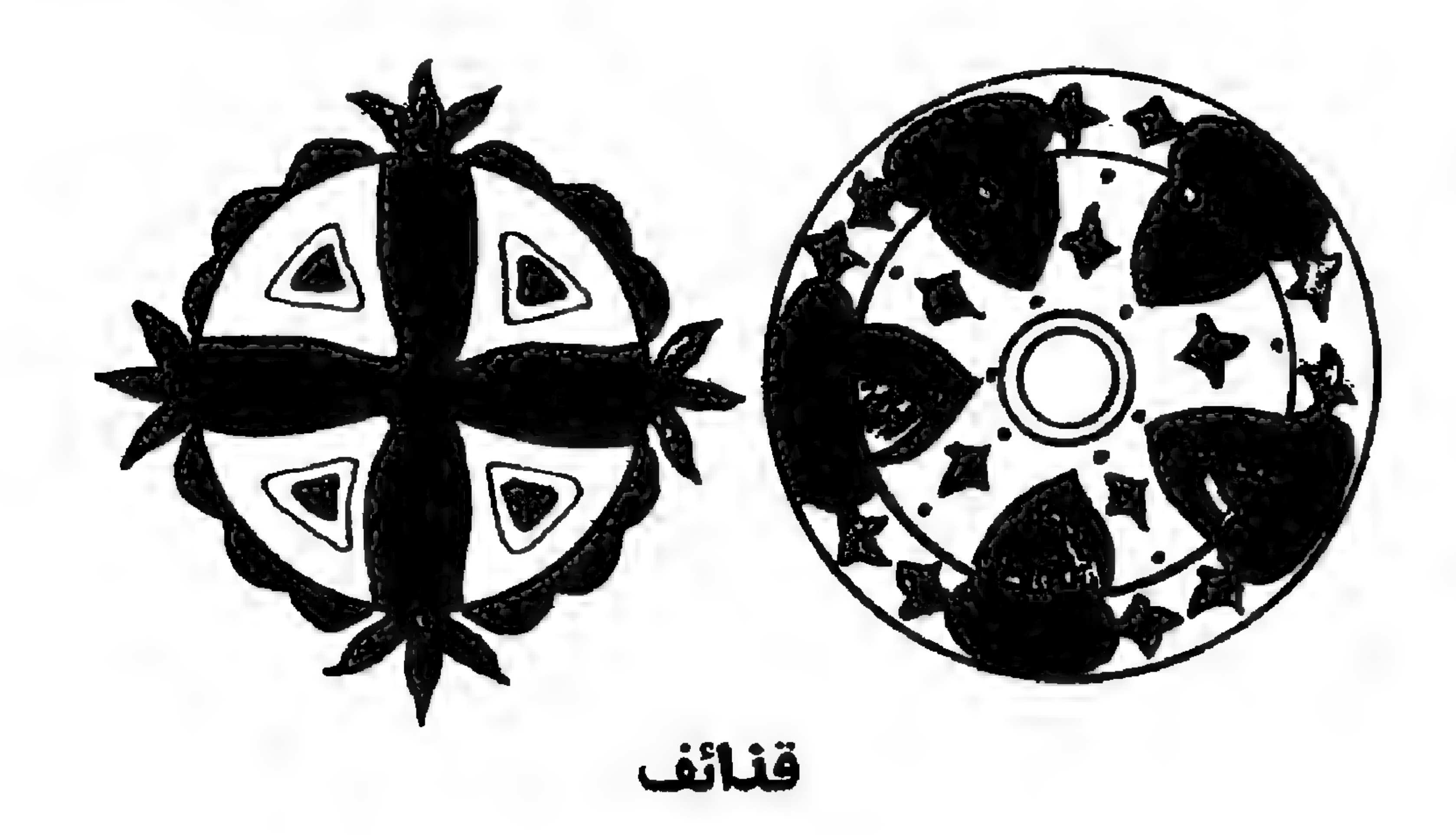




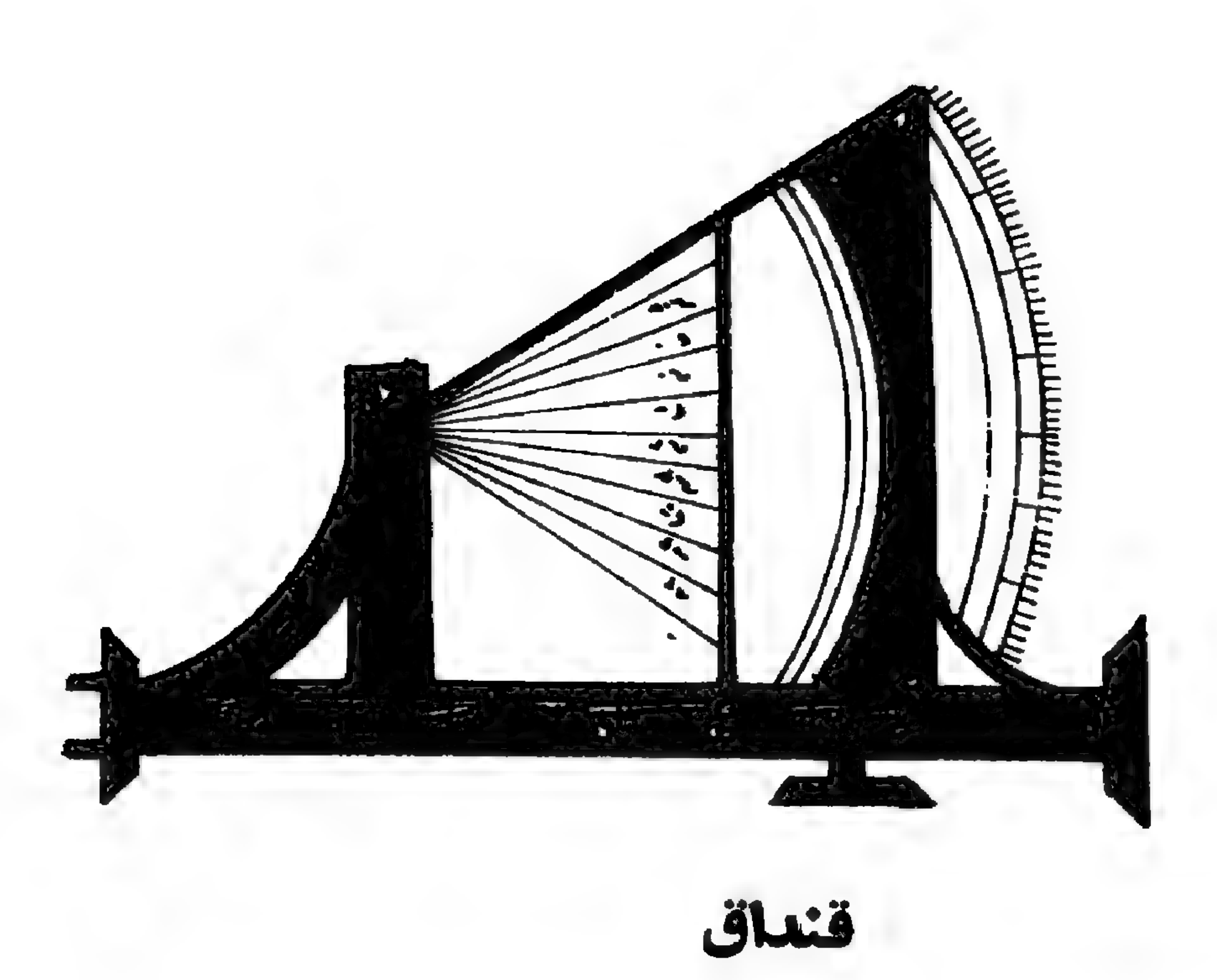




اسهم نارية « خطاي »



قنائف



قنداق

المراجع حسب ورودها في البحث

١ ـ محمد بن عبد الله التلواني ، رمي النشاب (مخطوط ، ٧٣ ورقة ، ١٣ سطرا) المكتبة الوقفية بحلب نسخة مودعة في مكتبة الميكروفيلم في معهد التراث تحت الرقم /١١٠٩/ ، لوحة ٣ .

٢ ـ علي بن أبي بكر الهروي (ت ٦١١ هـ) ، التذكرة الهروية في الحيل الحربية ، تحقيق مطيع المرابط، وزارة الثقافة ، دمشق ١٩٧٢ ، ص ٨٤ .

٣ ـ مرضي بن علي بن مرضي الطرطوسي مؤلف أهم كتاب في الصناعات الحربية في العهد الايوبي « تبصرة أرباب الالباب في النجاة من الحروب . . » وقد ذكر فيها أنه تعلم واخذ هذه العلوم من الشيخ حسن الابرقي الاسكندري وكلاهما غير معروف ولم نعثر لهما على ترجمة . ولكن من المؤكد أن الطرطوسي عاصر صلاح الدين لانه أهدى اليه الكتاب ، والابرقي كان في خدمة آخر خلفاء الفاطميين بالاسكندرية .

٤ ـ التبصرة . . عن مجلة المعهد الفرنسي في دمشق ١٩٦٨ ، نشر هذا الفصل وعني به ودرسه Antone Boudot ، ص ١٥٣ في مكتبة المعهد تحت الرقم (٥) نسخة مصورة منه .

٥ ـ التلواني ، اللوحة (١٧) .

٦ ـ حسين بن محمد بن عيسون الحنفي السنجاري ، (ت٨٥٥هـ) ، هداية الرامي ، مخطوط في مكتبة معهد التراث تحت الرقم /١٦٢١/ مجموع . البا ب الرابع والاربعون .

٧ ـ التلواني ، اللوحة (١٤) .

٨ ـ ابن أرنبغا الزردكاش ، الانيق في المناجيق ، دراسة وتحقيق الدكتور احسان هندي ، منشورات جامعة حلب ، معهد التراث (١٩٨٦) ص ٤١ .

٩ ـ المرجع السابق . ص (١٣٧) .

١٠ ـ التلواني ، اللوحة (٢١) .

١١ ـ كتاب الانيق . ص (١٨٠) .

١٢ ـ التلواني ، اللوحات (١٨ ـ ٢٠).

ابن فضل الله العمري وكتابه مسالك الأبصار في ممالك الأمصار

سيف الدين القصير

على الرغم من الدراسات التاريخية الكثيرة التي تناولت مختلف الموضوعات ، والاهتمام الواسع بجمع المخطوطات المنتشرة في شرق العالم وغربه تملأ رفوف المكتبات الضخمة وتحقيقها ونشرها ، فلا تزال هناك بعض الكتب المخطوطة التي تنتظر من يسعى اليها ليخرجها من كهف الاهمال والنسيان الى نور العناية والرعاية ، والكشف عما تضمه دفتاها من معارف وعلوم واخبار تلقي المزيد من الضوء على مآثر حضارتنا الزاهرة ، وترفد المعرفة الانسانية بكنز ثمين من كنوز الحضارة التي ابتدأت مع مسيرة الانسان في هذا الكون ، وتسعى معه تارة هنا وطورا هناك ، وكلها مكرسة لخدمته وتحقيق تقدمه وتطوره .

من هذه الكتب المخطوطة كتاب مسالك الابصار في ممالك الامصار لمؤلفه الشهير بابن فضل الله العمري .

قال ابن شاكر الكتبي : « هو شهاب الدين بن فضل الله أحمد بن يحيى بن فضل الله بن يحيى بن دعجان بن خليفة أبي الفضل نصر بن منصور بن عبد الله بن علي بن محمد بن ابي بكر عبد الله بن عبيد الله بن أبي بكر بن عبد الله الصالح بن ابي سلمة عبد الله بن عبيد الله بن عبد الله بن عمر بن الخطاب، القاضي، شهاب الدين ، أبو العباس، ابن القاضي ابي المعالي محي الدين ، القرشي ، العدوي ، العمري.»(١)

وقال ابن حجر العسقلاني : هو «أحمد بن يحيى بن فضل الله بن مجلي بن دعجان ابن خلف بن نصر بن منصور بن عبيد الله بن يحيى بن محمد بن أبي بكر بن عبيد الله ابن أبي بكر بن عبيد الله بن أبي بكر بن عبيد الله بن أبي سلمة بن عبيد الله بن عبد الله بن عمر العدوي العمري .»(٢)

فاسمه هو احمد بن يحيي ولقبه شهاب الدين بن فضل الله ، واشتهر بابن فضل الله العمري ، وينتسب الى عمر بن الخطاب ، ولا يشك بصحة هذه النسبة .

ولد احمد بن يحيى في دمشق في الثالث من شوال سنة سبعمائة هجرية ، في عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون (٣) . وكان بيته بيت علم ورياسة فنشأ نشأة العلماء وتلقى تربية صالحة من والده الذي كان أمين سر السلطان الناصر بالقاهرة (٤) .

تلقى ابن فضل الله من العلوم ما كان معروفا في عصره ، وبرع في الادب والتاريخ والانشاء ، وكان له مشاركة بسائر العلـوم على اختلاف موضوعاتها(٥) . وأخـذ هذه المعارف عن كبار علماء عصره ، فدرس اللغة على كمال الدين بن قاضي شـهبة وشمس الدين بن مسلم ، وأخـذ الفقه عن قاضي القضاة شهاب الدين بن المجـد وعن برهـان الدين الفزاري ، وقرأ الاصول على شمس الدين الاصفهاني ، والاحكام الصغرى على ابن تيمية ، والعروض على شمس الدين بن الصايغ .(٦)

وظائفه وأعماله : عمل ابن فضل العمري في ديـوان الانشاء لمـا ولي والده سـر دمشق . وفي هذه الفترة « أنشأ كثيرا من التقاليد والمناشير والتواقيع .»(٧) وكان لهذا العمل أثر في تأليفه لكتاب **التعريف بالمصطلح الشريف** .(٨) ثم انتقل ابن فضل اللـه الى مصر عندما تولى والده كتابة السر للسلطان الملك الناصر في القاهرة ، وقرأ البريـد على السلطان . وبقي في وظيفته تلك الى أن عزل بأخيه القاضي علاء الدين سنة ٧٣٨هـ.(٩) ثم عاد الى دمشق مرة أخرى وتولى كتابة السر هناك سنة ٧٤٠ هـ . ولكنه لم يستمر في ذلك طويلا ، فقد عزل بعـد سنتين(١٠) ، فتفرغ للتأليف والتصنيف ، « وبقي بطالا الى أن هلك بحمى الربيع يوم عرفة عن تسع وأربعين سنة ، (١١) عام ٧٤٩ هـ .

بالرغم من أن ابن فضل الله لم يعمر أكثر من نصف قرن مـن الزمان ، الا أنـه اسـتطاع أن يدون في هذه الفتـرة القصيرة نسبيا عشـرات المجلدات والتصانيف في مواضيع مختلفة . وقد ذكر له حاجي خليفة اكثر من اثني عشر مؤلفا ،وهذه التصانيف كما أوردها الزركلي هي : (١٢)

١ ــ مسـالك الابصار في ممالك الامصار (مخطوط في ٢٠ مجلدا طبع الاول منها) .

٢ ــ مختصر قلائد العقيان (مخطوط) .

٣ ــ الشـتويات (مخطوط) .

٣ ــ النبذة الكافية في معرفة الكتابة والقافية (مخطوط) .

٥ ــ ممالك عباد الصليب ، مطبوع مع ترجمة ايطالية بقلم ميخائيل اماري . رومية ١٨٨٣م .

٦ ــ التعريف بالمصطلح الشريف ، القاهرة ، مطبعة العاصمة ، ١٣١٢ هـ .

٧ ــ الدائرة بين مكة والبلاد (غير معروف) .

٨ ــ فواصل السمر في فضائل آل عمر . (٤ مجلدات ــ غير معروف) .

٩ ــ يقظة الساهر (غير معروف) .

١٠ ــ نغمة الروض (غير معروف) .

١١ ــ دمعة الباكي (غير معروف) .

١٢ ــ صبابة المشتاق (٤ مجلدات في المدائح النبوية . غير معروف) .

وقيل انه « نظم كثيرا من القصائد والاراجيز والمقطعات والدوبيت والموشح والبليق ،وأنشأ كثيرا من التقاليد والمناشير والتواقيع ومكاتبات الملوك ،وغير ذلك . »(١٣)

شخصيته : عرف ابن فضل الله العمري بأنه امام فاضل ، وبليغ مفوّه حافظ، وحجة الكتاب ، واحد أئمة أهل الادب . وقال عنه ابن شاكر الكتبي : « .... رزقه الله اربعة أشياء لم ارها اجتمعت في غيره وهي الحافظة فما طالع شيئا الا كان مستحضرا لاكثره ، والذاكرة التي اذا اراد ذكر شيء من زمن متقدم كان ذلك حاضرا كأنه انما مرّ به بالامس، والذكاء الذي يتسلط به على ما أراد ،وحسن القريحة في النظم والنثر . »(١٤)

وقال عنه ابن كثير : « كان يشبّه بالقاضي الفاضل في زمانه وله مصنفات عديدة بعبارات سعيدة ، وكان حسن المذاكرة سريع الاستحضار ، جيد الحفظ ، فصيح اللسان ، جميل الاخلاق ، يحب العلماء والفقراء . »(١٥)

وذكر ابن الوردي بأن « منزلته في الانشاء معروفة وفضيلته في النظم والنثر موصوفة . »(١٦)

أما المقريزي فقد وصفه بحدة المزاج وشراسة الاخلاق وقوة النفس(١٧) .. وزاد الزركلي على ذلك فقال : « هو مؤرخ حجة في معرفة المسالك والممالك وخطوط الاقاليم والبلدان ، امام في الترسل والانشاء ، عارف بأخبار عصره وتراجمهم ، غزير المعرفة بالتاريخ ولا سيما تاريخ المغول من عهد جنكيز خان الى عصره . » (١٨)

وبالنسبة الى علوم ابن فضل الله ومؤلفاته فقد اشار ابن شاكر الى ذلك ووصفه بأنه غزير المعرفة،وله معرفة بسائر الفنون،وقال انه لم ير«من يعرف تواريخ الملوك المغل من لدن جنكيز خان وهلم جرا معرفته وكذلك ملوك الهند والاتراك . »(١٩)

وأشار ابن شاكر الى كتاب « المسالك » فقال : «وكتاب مسالك الابصار في ممالك الامصار في عشرين مجلدا كبارا وهو كتاب حافل ما اعلم أن لاحد مثله.»(٢٢)

أما كرد علي فبالغ بعض الشيء في اطراء مؤلفات ابن فضل اللـه فوصف كتاب **التعريف بالمصطلح الشريف** بقوله : « وهو سفر بديع لم يبق شاردة في تراتيب الدولـة الا أتى عليها ففيه نموذجاب بما يكتب بـه الى ملوك الاطراف وكـل ما يتعلق بدواوين الملك من رتب المكاتبـات وعادات العهود والتقاليد والتفاويض والتواقيع والمراسـيم والمناشـير ... » (٢١)

ووصف كتاب « المسالك » بقوله : « وهو ينادي على وجه الدهر باتساع علمـه ومعرفته في تقويم البلدان والتاريخ والرجال والادب والاجتماع والهندسـة والسياسة والفلك والنقش والتصوير والبناء . »(٢٢) وذكر بأن المؤلف تروّى كثيرا في نقل الاخبار، « فلم ير عجيبة حتى فحص عنها ولا غريبة حتى ذكر الناقل لهـا لتكون عهدتها عليـه ويتبرأ هو منها . »(٢٣)

وامتدح كرد علي طريقة ابن فضل الله العمري في نقل الاخبار فقال : « وطريقته في نقل الاخبار التحقيق لاكثر ما يعرف بتكرار السؤال واحدا بعد واحد عما علمه مـن أحوال بلاده وماضيها ، وما اشتملت عليه في الغالب . قال : وكنت أسأل الرجل عـن بلاده ثم أسأل الآخر لاقف على الحق . فما اتفقت عليه أقوالهم او تقاربت أثبته ، وما اختلفت فيه اقوالهم أو اضطربت تركته . ثم اني أترك الرجل المسؤول مدة ، اناسيه فيها عما قال ، ثم أعيد عليه السؤال عن بعض ما سألت ، فاذا ثبت على قولـه الاول اثبت مقاله وان تزلزل أذهبت في الريح أقواله . كل هذا لاتروى في الروايـة واتوثق في التصحيح . »(٢٤)

٤ ـ كتاب مسالك الابصار في ممالك الامصار :

قال جرجي زيدان في وصف الكتاب : « هو موسوعة في بضعة وعشرين مجلدا . وهو كتاب هام في التاريخ والادب والجغرافية والتاريخ الطبيعي وغيرها .»(٢٥)

وقد اختلف المؤرخون والمؤلفون في ذكرهم لعدد مجلدات هذا الكتاب ، فبعضهم قال انه يقع في عشرين مجلـدا ، وبعضهم ذكر أنه يقع في سبعة وعشرين . والظاهر أن هذا الاختلاف ناجم عن وجود اكثر من نسخة واحدة للكتاب ، فالمخطوطـة الموجودة في طوبقبوسراي مثلا تقع في ١٧ جزءا بينما المخطوطـة الموجودة في آياصوفية تقـع في ٢٧

جزءا . وهذا الاختلاف غير ذي أهمية طالما أن مادة الكتاب ومحتوياته هي ذاتها في كلتا النسختين .

ويقتصر الكتاب على ذكر الممالك الاسلامية ، غير انه يشير الى ممالك اخرى ولكن ذلك لمقتضيات الحديث واتمامه . وقد قال ابن فضل الله في ذلك : « وقنعت بما بلغه ملك هذه الامة ، وتمت بكلمة الاسلام على أهله النعمة ، ولم أتجاوز حدها ، ولا مشيت خطوة بعدها ، الا ما جره سياق الكلام ، او طارح به شجون الحديث مما اندرج في أثناء ذلك ، أو اضطرت اليه تعريجات السالك ، اقتضاه سبب ، او دخل مع غيره في ذمة حسب . » (٢٦)

ويشير ابن فضل الله الى انه شرع بتأليف الكتاب في زمن السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون وانه سمّى الكتاب « مسالك الابصار في ممالك الامصار . » (٢٧)

يقسم الكتاب الى قسمين رئيسيين : قسم في الارض وآخر في سكان الارض . ويبحث القسم الاول ، اي الجغرافية ، في الارض وما اشتملت عليه برا وبحرا ، ويقسم هذا القسم الى نوعين : نوع في ذكر المسالك وآخر في ذكر الممالك . والنوع الاول مقسم بدوره الى ابواب ، والابواب الى فصول . ففي الباب الاول من القسم الاول يتحدث عن الارض وأسمائها ، وصفاتها ، والتراب ، والرمال ، وأحوال الارض . ويتحدث في الباب الثاني عن الاقاليم السبعة وتقسيماتها ، والمدن والجزائر والانهار في كل اقليم . ويبحث في الباب الثالث في البحار والرياح وبعض العجائب المتصلة بذلك . أما الباب الرابع ففيه حديث عن القبلة وكيفية الاستدلال عليها والطرق المختلفة في ذلك . ويستطرد في هذا الباب فيبحث في تداخل الشهور ، والكواكب ، والافلاك ، والخسوف والكسوف ، وغير ذلك . ويقتصر الباب الخامس على الحديث عن الطرق وتعاريجها وما يتصل بذلك .

وقسّم النوع الثاني من القسم الاول الى خمسة عشر بابا تتحدث عن الممالك المختلفة . وقد ورد فيها ذكر لممالك الهند ، وبيت جنكيز خان ، والصين ، والتورانيين ومملكة الجبل ، ومملكة الجبال ، ومملكة الاتراك بالروم ، ثم ممالك مصر والشام والحجاز ، ومملكة اليمن ، وممالك المسلمين بالحبشة ، والممالك الاسلامية في السودان وافريقية والاندلس . ويختتم ذلك بحديث عن العرب الموجودين في زمانه ، واماكنهم ومضارب أخبيتهم ومساكنهم .

ويبحث القسم الثاني من الكتاب في سكان الارض من طوائف وامم ، وقد قسمه

الى اربعة انواع . وقسّم سكان الارض الى سكان الشرق وسكان الغرب ، وترجم رجالهم وأعلامهم بشكل التفاضل بين البلدين . وشملت ترجماته العلماء وأعيان الناس من اطباء وفقهاء ورجال سياسة وادارة وادب . كما تحدث عن غير الناطق والجماد ، فبحث في الحيوان والمعادن والنبات والطيور وغيرها . ثم يرد بعد ذلك ذكر الطوائف والديانات المختلفة . ويختم هذا القسم بالحديث عن التاريخ الذي قسمه الى بابين : باب في ذكر الدول التي قامت قبل الاسلام ، وباب في ذكر الدول الكائنة في الاسلام . وقد انتهى بتاريخه الى سنة ٧٤٤ هـ ، أي قبل وفاته بخمسة أعوام .

ما نشر من الكتاب :

على الرغم من شهرة الكتاب وشهرة مؤلفه ، الا أن ما نشر منه وحقق لم يتعد الجزء الاول من أجزائه العشرين . وقد عمدت دار الكتب المصرية بالقاهرة الى طباعة هذا الجزء الذي قام بتحقيقه أحمد زكي باشا سنة ١٩٢٤م . وقد وقعت مخطوطة هذا الجزء صدفة بيد المحقق بسراي طوبقبو باستانبول ، وكانت بعنوان « مرآة الكائنات » . وذكر المحقق انه اغتبط بهذه اللقية لانه وجد « أن رجلا من أهل العلم قرأ هذا الجزء على المؤلف ، وأن المؤلف كتب بخطه عليه بعض التصحيحات واضاف اليها زيادات كتبها بيده في ورقات ، طيارات ، » . (٢٨)

ثم ذكر المحقق أنه صور الكتاب بأكمله مع النسخة الاخرى من الجزء الاول الموجودة في ايا صوفية واحضر الكل الى القاهرة « ... وهو محفوظ بدار الكتب المصرية . وليس يوجد في اي قطر آخر بالمشارق والمغارب نسخة كاملة مثل التي اعدتها الى مصر . » (٢٩)

واعتنى المحقق عناية فائقة في نشره لهذا الجزء ، وبذل فيه غاية الجهد ، وسافر الى فلسطين « لتطبيق ما أورده المؤلف عن المسجد الاقصى ، من البيانات الفنية المعمارية والاصطلاحات الهندسية البنائية التي لم يجر بها قلم كاتب قط ، لا من العرب ولا من العجم ، لاقديما ولا حديثا . » (٣٠)

ثم اورد المحقق بعد هذا التمهيد البسيط فهرسا لمضامين الكتاب والذي يبدأ بفاتحة المؤلف ، وفيها كلام عن طريقة المؤلف في كتابة المادة ، ومنهاج الكتاب بشكل عام . ويبحث هذا الجزء في مقدار الارض وحالتها ، والجبال والانهار والبحيرات ، وفي أشهر المساجد والاديره وأماكنها .

ويعلق المحقق على النص في الحواشي اما باشارة الى زيادة او نقصان في النص ، أو بشرح الكلمة او العبارة ، او بالاشارة الى مصادر اخرى ورد فيها ما جاء في النص .

واثبت عناوين صغيرة للموضوعات على جانبي الصفحات ، كما اشار الى صفحات المخطوطات المستعملة في التحقيق .واورد في آخر الجزء المحقق جدولا سماه «تصويبات لما وقع في النسخة الام ، وتصحيحات لما وقع اثناء الطبع.» اما صفحات المخطوطة المحققة فقد بلغت ٢٩١ صفحة ، بينما صفحات الكتاب المطبوع جاوزت (٣٩٠) صفحة دون جدول التصويبات والتصحيحات .

المخطوطات :

تنتشر مخطوطات الكتاب في مكتبات ومتاحف عدة (٢١) ، ولكن ليس ثمة مجموعة كاملة لهذا المخطوط في مكان واحد. فمخطوطات أياصوفية تضم المجموعة الكاملة لاجزاء الكتاب ما عدا الجزاين الاول والحادي والعشرين والقسم الثاني من الجزء السابع والعشرين . وهذه المجموعة مكتوبة بالخط النسخي .(٢٢)

اما النسخة الموجودة في سراي طوبقبو باستانبول (نسخة احمد الثالث) فتقع في سبعة عشر جزءا ، وينقصها الجزء الخامس .(٢٣)

وتوجد في الجامع الكبير بتونس نسخة مخطوطة هي الجزء الخامس عشر من كتاب المسالك ، وقد كتب على الصفحة الاولى منها : « الجزء الرابع من كتاب الصلاح الصفدي ، » وعلى الصفحة الاخيرة : « نجز الجزء (١٥) من مسالك الابصار في ممالك الامصار . »(٢٤)

وتوجد مخطوطة للجزء العشرين من هذا الكتاب في مكتبة جون رينلادس ، وهي بقلم أحمد بن علي المقريزي ، ويعود تاريخ نسخها الى حوالي سنة ١٤٢٠م ، وقد كتبت بخط نسخي مصري .(٢٥)

وكذلك فاننا نجد في مجموعة مخطوطات الاسكوريال نسخة للجزء الخامس عشر من كتاب المسالك . وذكر أن هذا الجزء يتعلق بالشعراء ، ويضم لائحة بأسماء الشعراء الذين يرد ذكرهم في المخطوط .(٢٦)

اما مكتبة باريس الوطنية فانها تضم اكبر عدد من مخطوطات كتاب المسالك بالنسبة الى بقية المكتبات الاوربية ، اذ يوجد فيها ستة نسخ لاجزاء مختلفة . وورد في ذكر النسخة الاولى : « هذه دائرة المعارف لشهاب الدين العمري والتي تحمل لقبه . »(٢٧) وهي مخطوطة من ١١٩ ورقة ذات حجم متوسط ويعود تاريخ نسخها الى القرن السابع عشر ، ولم يرد ذكر لرقم الجزء او تعريف بمحتوياته . » (٢٨)

والنسخة الثانية هي لمجلد من ثلاثة اقسام من ٢٢١ صفحة يعود تاريخ نسخها الى القرن الخامس عشر . وهي من القسم التاريخي لكتاب المسالك وتتحدث عن تاريخ الاكراد والطورانيين والهند والسند .(٣٩) وتقع الثالثة في ١٧٧ صفحة ، ويعود تاريخ نسخها الى القرن الخامس عشر ، وتتحدث عن تاريخ القرون الاولى للهجرة . (٤٠)

والنسخة الرابعة من ٢١٨ صفحة يعود تاريخ نسخها الى القرن الرابع عشر الميلادي وفيها كلام عن شعراء المغرب من القرن الرابع الهجري الى القرن الثامن .(٤١)

وتقع النسخة الخامسة في ٢١٨ صفحة أيضا ، ويعود تاريخ نسخها الى القرن الرابع عشر الميلادي ، وتتحدث عن الوقائع الاسلامية خلال الفترة من ٥٤١ هـ وحتى ٧٤٤ هـ بشكل مختصر .(٤٢) أما النسخة السادسة والاخيرة في هذه المجموعة فتتكون من ٢٣٥ صفحة يعود تاريخ نسخها الى القرن الخامس عشر ،ويشمل موضوعها التاريخ العالمي منذ الخليقة وحتى خلافة علي بن ابي طالب . كما تبحث في الامام الشيعي الثاني عشر ، واحفاد علي ، وتتضمن بعض الابيات للشريف الرضي .(٤٣)

وتحتوي مجموعة مخطوطات برلين على مخطوطة لجزء من كتاب المسالك تحت رقم (٩٣٨٠) وهي بعنوان « مسالك الابصار في ممالك الامصار لاحمد بن فضل الله العمري ٦٩٧ – ٧٤٩ هـ ، » وهي تبدأ بقبائل العربان من مصر الى أقصى المغرب.(٤٤) وهناك مخطوطة لاحد الاجزاء موجودة في مكتبة بودليان باكسفورد ، كما يوجد نسخة اخرى في المتحف البريطاني تحت رقم (٥٧٥) .(٤٥)

اما في مكتبة الجامعة الامريكية في بيروت فيوجد نسختان مصورتان عن نسختي آياصوفية واحمد الثالث . وبعض هذه الاجزاء مصورة بالميكروفيلم ايضا .(٤٦) كما يوجد بعض نسخ المكتبة الاهلية بباريس مصورة بالميكروفيلم ، (٤٧) بالاضافة الى نسخة بودليان ، (٤٨) وثلاث نسخ مجهولة المكان والتاريخ .(٤٩)

وتوجد نسخة مصورة لقطعة من مسالك الابصار في مكتبة الجامعة الامريكية بعنوان « مقارنة بين المشرق والمغرب » الموجودة في مكتبة جامعة دمشق . ويعود تاريخ نسخها الى القرن الثامن الهجري وقد كتبت بخط منسوب ، وعدد ورقاتها لا يتجاوز ٤١ ورقة .

ويجب أن نضيف هنا النسخ الموجودة في دار الكتب المصرية بالقاهرة ، والتي تحدث عنها احمد زكي في مقدمة تحقيقه للجزء الاول من كتاب مسالك الابصار ، وهي المجموعة الوحيدة الكاملة لجميع اجزاء الكتاب قام المحقق بتصويرها عن نسخ آياصوفية وطوبقبو سراي (٥٠) .

قيمة الكتاب :

يبدو لاول وهلة أن للكتاب شأنا كبيرا ، وانه مصدر هام من مصادر التاريخ الاسلامي ، وربما كان كذلك في بعض الاجزاء منه ، ولكن اذا ما تفحصنا الجزء الاخير منه وقارناه ببعض المؤلفات الاخرى التي ظهرت قبله وجدنا أن هذا الجزء هو تلخيص ان لم يكن نسخ لبعض هذه الكتب ، وعلى وجه الخصوص كتاب « المختصر في اخبار البشر » لعماد الدين اسماعيل ابي الفداء المتوفى سنة (٧٣٢ هـ) . وامثلة النقل عن « المختصر » كثيرة ويكفي أن نشير الى بعضها . ففي نسخة آياصوفية ورقة (٣٤٠) ونسخة أحمد الثالث ورقة (٦٢٤) يرد ذكر لورود أمراء روميين على السلطان الظاهر، وقد وردت العبارة ذاتها في « المختصر » (ج٤ ، ص٩) . ثم في نسخة آياصوفية ورقة (٣٤٢) ونسخة احمد الثالث ورقة (٦٢٦) حديث عن وفاة الظاهر وتنصيب ولده الملك السعيد خلفا له بمصر ، وقد ورد النص بحرفه في « المختصر » (ج٤ ، ص١٠). وعند الحديث عن الوقعة العظيمة بين المسلمين والتتر بظاهر حمص سنة ٦٧٩ هـ . نجد توافقا تاما بين نص « المختصر » (ج٤ ص ١٤–١٥) ونص نسخة احمد الثالث ورقة (٦٣٢ – ٦٣٤) ، في حين نلاحظ أن نسخة اياصوفية ورقة (٣٤٨ – ٣٥٠) قد اختصرت بعض الفقرات .

لكن هذا لا يعني أن ابن فضل الله العمري اقتصر على نسخ كتاب « المختصر » لابي الفداء وتقديمه الينا تحت اسم « مسالك الابصار » . فهناك بعض الاختلاف ، وربما يعود ذلك الى استخدام ابن فضل الله لمصادر أخرى غير «المختصر» . فمثلا وبعد الحديث عن وقعة حمص بين التتر والمسلمين المذكورة أعلاه ، تورد نسخة أحمد الثالث ورقة (٦٣٢ – ٦٣٥) قصيدة في مدح الملك المنصور قلاوون لم يرد ذكرها لا في «المختصر» ولا في نسخة اياصوفية التي ربما اختصرتها هي الاخرى ، ونجد في نسخة اياصوفية ورقة (٣٥٧ – ٣٥٩) ونسخة أحمد الثالث ورقة (٦٤٥ – ٦٤٧) نصا أورده ابن فضل الله نقلا عن كتاب الشيخ ابو الثناء يصف فتح قلعة المرقب ، وان هذا النص لم يورده « المختصر » ايضا .

وبعد ، يبقى الكتاب في جملته دائرة معارف شاملة ضمت بين دفتيها الكثير من المعارف والعلوم التي شملت النواحي الجغرافية والسكانية والاجتماعية والتاريخية، وهو في صورته النهائية، يعكس الكثير من المظاهر الحضارية التي نفخر بها ونود اظهارها وابرازها ، وهذا ما يدفعنا الى الدعوة الى متابعة الجهد لاخراج كنوز الاجداد ، كما ذكرنا ، من كهوف الاهمال والنسيان الى نور الرعاية والعناية ، وهو جهد يستحق المتابعة والمثابرة .

الحواشـي :

(١) ابن شاكر الكتبي ، فوات الوفيات ، ج١ ، ص ٩ .
(٢) ابن حجر العسقلاني ، الدرر الكامنة في اعيان المئة الثامنة ، ج١ ، ص ٣٣١ .
(٣) فوات الوفيـات ، ج١ ص١٠ .
(٤) كرد علي ، كنوز الاجداد ، ص٣٧٥ .
(٥) زيدان ، تاريخ آداب اللغة العربية ، ج٣ ، ص ٢٢٦ .
(٦) سركيس ، معجم المطبوعات العربية والمعربة ، ج١-٦ ، ص٢٠٤ .
(٧) ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ج١٠ ، ص ٢٣٤ .
(٨) كنوز الاجداد ، ص ٣٧٦ .
(٩) معجم المطبوعات ، ج١-٦ ، ص ٢٢٦ .
(١٠) الدرر الكامنة ، ج١ ، ص٣٣١ .
(١١) كنوز الاجداد ، ص ٣٧٦ .
(١٢) الزركلي ، الاعلام ، ج١ ، ص٢٥٤ .
(١٣) فوات الوفيات ، ج١ ، ص ١١ .
(١٤) المصدر ذاته ، ج١ ، ص٩ .
(١٥) ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج١٤ ، ص٢٢٩ .
(١٦) ابن الوردي ، تتمة المختصر ، ج٢ ، ص ٣٥٤ .
(١٧) معجم المطبوعات ، ج١-٦ ، ص ٢٠٤ — ٢٠٥ .
(١٨) الاعلام ، ج١ ، ص ٢٥٤ .
(١٩) فوات الوفيات ، ج١ ، ص١٠ .
(٢٠) المصدر ذاته ، ج١ ، ص١١ .
(٢١) كنوز الاجداد ، ص٣٧٧ .
(٢٢) المصدر ذاته ، ص ٣٧٧ .
(٢٣،٢٤) المصدر ذاته ، ص ٣٧٧ .
(٢٥) تاريخ آداب اللغة العربية ، ج٢ ، ص٢٢٧ .
(٢٦) ابن فضل الله العمري ، مسالك الابصار ، ج١ ، ص٤ .
(٢٧،٢٨،٢٩،٣٠) ، المصدر ذاته والصفحات ذاتها .
(٣١) Brockelmann, Geschichte der Arabischen Literature , Vol.I,p.177.
(٣٢) دفتر كتبخانة آياصوفية ، ص٢٥٠ .
(٣٣) سنذكر هاتين النسختين في قسم التحقيق .
(٣٤) Roy, Catalogue, p.4, No 2905.
(٣٥) Mingana, Catalogue or the Arabic Mss., No 344.
(٣٦) Casiri, Biblio thica Arabic-Hispana, p. 68, No 285.
(٣٧) Le Baron De slane. Biblio théque Nationale , p. 388.
(٣٨،٣٩،٤٠،٤١،٤٢،٤٣) : المصدر ذاته ، ص ٤٠٧ .
(٤٤) Ahlwardt, Verzeichnis der Ar. Hdss. vol.9, p.14.

(٤٥) يوجد نسخة لهذه المخطوطة مصورة في مكتبة الجامعة الامريكية في بيروت . ميكروفيلم رقم ٣٢ .
(٤٦) مكتبة الجامعة الامريكية في بيروت : نسخة آياصوفية (ميكروفيلم رقم ٩٤ ،٤١ ، ٩١ ، ٤٧ ، ٧٠، ٩٠ ، ٥٢ . ٩٣ ، ٨٢ ، ٩٧ ، ٨٨ ، ٥٣ ، ٩٦ ، ٨٩ ، ٩٢ ، ٨١ ، ٧٦) .
نسخة أحمد الثالث (ميكروفيلم رقم : ٧٧ ، ٨٦ ، ٧٣ ، ٧٨ ، ٧٤ ، ٧٩ ، ٨٠ ، ٧٥ ، ٩٥ ، ٨٧ ، ٧٢) .
(٤٧) المصدر ذاته ، ميكروفيلم رقم (٥٩ ، ٦٠ ، ٦١ ، ٦٣) .
(٤٨) المصدر ذاته ، ميكروفيلم رقم ٣٢ .
(٤٩) المصدر ذاته ، ميكروفيلم رقم ٥٤ ، ٥٦ ، ٧١ .
(٥٠) انظر مقدمة المحقق في كتاب المسالك ج١ .

المراجــع :

(١) ابن تغري بردي ، جمال الدين ، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة (١٢ ج) القاهرة ، مطبعة دار الكتب المصرية ، ١٩٤٩ .
(٢) ابن حجر العسقلاني ، شهاب الدين أحمد ، الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة ، طبعة أولى (٤ج) حيدر آباد ، دائرة المعارف العثمانية ، ١٩٢٩ .
(٣) ابن العماد الحنبلي ، أبي الفلاح ، شذرات الذهب في أخبار من ذهب (٨ج) القاهرة ،١٣٥١ هـ.
(٤) ابن الوردي ، زين الدين عمر ، تتمة المختصر في أخبار البشر (٢ج) مصر،المطبعة الوهبية ،١٢٨٥هـ.
(٥) حاجي خليفة ، مصطفى ، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون (٢ج) استانبول ، ١٩٤٣ .
(٦) الكتبي ، محمد بن شاكر ، فوات الوفيات (٢ج) القاهرة ،مكتبة النهضة المصرية ،١٩٥١ .
(٧) البغدادي ، اسماعيل ، هدية العارفين في أسماء المؤلفين وآثار المصنفين ،استانبول ، ١٩٥١ .
(٨) الزركلي ، خير الدين ، الاعلام (١٠ج) . طبعة ثانية ، القاهرة ، ١٩٥٤ — ١٩٥٩ .
(٩) زيدان ، جرجي ، تاريخ آداب اللغة العربية (٤ج) مصر ، مطبعة الهلال ، ١٩١٣ .
(١٠) سركيس ، يوسف ، معجم المطبوعات العربية والمعربة (١١ج) القاهرة ، مطبعة سركيس ، ١٩٢٨ .
(١١) كحالة ، عمر رضا ، معجم المؤلفين ، دمشق ، مطبعة الترقي ١٩٥٧ .
(١٢) كرد علي ، محمد ، كنوز الاجداد ، دمشق ، مطبعة الترقي ، ١٩٥٠ .



بحوث طلاب الدراسات العليا

نظام الحسبة في الإسلام

محمد زتيود

مرشح للدكتوراه

الحسبة في اللغة العد والقصد ، ومن ذلك قوله (ص) « احتسبوا اعمالكم فان من احتسب عمله كتب له اجر عمله ، واجر حسبته » . وترد بمعنى حسن التدبير كالقول: إن فلانا احسن الحسبة والتصرف ، كما وتطلق بمعنى المصدر كالاحتساب ، وتنصرف اما الى طلب الثواب في الآخرة أو الى انكار القبيح(١) من الافعال ، ومن ذلك ما ورد في الحديث « من صام رمضان ايمانا واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه »(٢). والحسبة في المدلول الشرعي والاصطلاح وظيفة دينية مدنية عرفها الماوردي(٣) ، والفراء ، « هي أمر بالمعروف اذا ظهر تركه ونهي عن المنكر اذا ظهر فعله وهي مبنية على القاعدة القرآنية الاصلية والتي وردت في قوله تعالى(٤) « ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر » .

والحسبة في عرف النظام الاداري كلمة تطلق على حسابات الدولة ، وعلى دار المحاسبة والمواريث ، وعلى ديوان مراقبة الموازين والمكاييل ، ثم خصصت لمعنى الشرطة ، وبخاصة شرطة الاسواق والاداب . وبهذا المعنى الضيق تناولها مؤرخو الاحكام السلطانية الاسلامية مثل الماوردي (ت٤٥٠هـ) وابن خلدون (ت٨٠٨هـ) والقلقشندي (ت٨٢١هـ) والقريزي (ت ٨٤٥هـ)(٥) ، ومما كتبوه يتبين انها نظام للرقابة على سير الحياة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية تجعلها في اطار قواعد الشرع الاسلامي ، وفي سياق المصلحة العامة للمجتمع العربي الاسلامي .

وفي الحديث تقع الحسبة تحت شمولية الحديث الشريف « لا ضرر ولا ضرار»(٦) أي لا يحق لاحد أن يحدث ضررا بغيره ، كما لا يحق لاحد أن يقابل الضرر بالضرر . ويعتبر هذا المبدأ الاسلامي العام أساسا لكل الحضارات الحديثة ونظمها ، فالشريعة الاسلامية نظمت أمور المجتمع المختلفة على نحو يكفل الراحة والطمأنينة والعدالة لجميع الناس دون تمييز بين أوضاعهم وأحوالهم(٧) . واستنادا لحكم الاية الكريمة في قوله تعالى : « ولتكن منكم أمة » أي جماعة ، ذهب بعض المفسرين والفقهاء الى ان الحسبة

على القيام بها علما وعملا، ولقد استخدمت الحسبة في المجتمع الاسلامي لتنظيم الاصناف والاشراف على الصناعة ، التي تصدت الدولة للتدخل في شؤونها وتوجيه فعاليتها ، وللاشراف على الاسواق . وعلى الرغم من الاختلاف في أصل الحسبة ، فقد اعتبرها بعضهم وظيفة أو نظاما استحدث من أجل تطبيق المبادىء الاسلامية في السلوك والاخلاق ، ومبدأ الامر بالمعروف والنهي عن المنكر(٨) .

اصل الحسبة : يمكن أن نعود بهذا النظام الى الرسول (ص) ، وخلفائه من بعده وقد قام (ص) وخلفاؤه بمباشرتها(٩) بأنفسهم . ويرى القلقشندي أن اول من قام بالحسبة عمر بن الخطاب(١٠) . وعلى الرغم من أن بعضهم يرجع فكرة وجود الحسبة الى العصر اليوناني ، واستمرارها خلال العصرين الروماني والبيزنطي ، وان العرب قد اقتبسوها دون تعديل أو تغيير ، لانه « لم يكن لهم ما يمكن أن يقدموه بديلا عنها »(١١) . وهذا ، فضلا عن انه يحتاج لدليل يقيني يفتقر اليه الباحثون ، لا يضر النظام الاسلامي الذي قام على قواعد ثابتة ومبادىء هادية وأحكام دينية قرآنية حددت تعاليمه استنادا الى حاجات المجتمع وضروراته ، ودليلنا على ذلك ان الرسول وخلفاءه نظموا أمر الحسبة في المدينة ومكة قبل ان يكون لهم اتصال مباشر مع الروم. واذا كان العرب الفاتحون قد وجدوا مايتوافق مع هذا النظام في المدن المفتوحة، فحظي باهتمامهم وابقوا عليه لمعانيه الايجابية وفوائده ، فقد صبغوه بالصبغة الاسلامية(١٢) حتى غدا نظاما اسلاميا لا يحتفظ من ماضيه الا باثار بسيطة ، واستند الى مبدأ الحلال والحرام والثواب والعقاب في الدنيا والآخرة ، وعرف طيلة العصور الاسلامية وفي جميع الاماكن التي وصلتها الحضارة العربية الاسلامية ، فوظيفة « العامل على السوق » والعريف وجدت في صدر(١٣) الاسلام ، واستمرت طوال العصر الاموي ومهدت لظهور وظيفة «المحتسب»(١٤) التي ظهرت في المشرق منذ بداية العصر العباسي ، في حين استمر استعمال اسم « العامل على السوق » في الاندلس وشمال افريقية حتى فترة متأخرة(١٥) .

الاشراف على الاسواق في الاسلام :

وضع المسلمون الاسواق التجارية تحت المراقبة والاشراف منذ الايام الاولى لدولة المدينة ، وعينوا على الاسواق قائمين عليها لمتابعة ما يجري فيها وتنظيم احكامها واصلاح أمورها ، واسندوا هذه المهمة للخاصة منهم . ولقد كان الامر بالمعروف والنهي عن المنكر وتوفير الامن ، وجباية الضرائب والتحكم بالاسعار ، وتوافر السلع وعدم احتكارها أو غشها ، من المبادىء العامة والاساسية في الدولة العربية الاسلامية منذ فجرها . وكان الرسول (ص) رائد الخلفاء الراشدين في الامر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، فقد تولى صلى الله عليه وسلم مراقبة الاسواق بنفسه حينا واوكلها الى غيره أحيانا . روي عنه(ص) «أنه مرّ على صرة طعام(١٦) فادخل يده فيها فنالت أصابعه بللا،

فقال : ما هذا يا صاحب الطعام ؟ فقال : اصابته السماء يا رسول الله ، فقال : أفلا جعلته فوق الطعام حتى يراه الناس ، من غشنا فليس مني » أو (منا)، وخرج الرسول (ص) يوما الى المصلى فراى الناس يتبايعون فقال : يا معشر التجار، فاستجابوا له(ص) ورفعوا أعناقهم وابصارهم اليه ، فقال « ان التجار يبعثون يوم القيامة فجارا الا من اتقى الله وبر وصدق » وقال (ص):« التاجر الصدوق المسلم مع النبيين والصديقين والشهداء يوم القيامة » . وقال (ص) « الحلف منفعة للسلع ممحقة للربح » وقال(ص) « ان الحلال بيّن والحرام بين وبينهما أمور متشابهات لا يعلمهنّ كثير من الناس فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه ، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام »ولعن(ص) آكل الربى ومؤكله وكاتبه وشاهديه وقال (ص): هم سواء وقال (ص) : « ما نقص قوم المكيال والميزان الا اخذوا بالسنين وشدّة المؤنة وجور السلطان عليهم » . وقال (ص): « رحم الله رجلا سمحا اذا باع واذا اشترى واذا اقتضى » (١٧). وحتى لا تحدث المخالفات في الاسواق اسند (ص) أمر السوق في المدينة وغيرها الى عمال معينين ، فعين عمر بن الخطاب مشرفا(١٨) على سوق المدينة ، وروي انه (ص) استعمل سعيد بن سعيد بن العاص بعد الفتح على سوق مكة(١٩) ، فهذا أول محتسب مكلف في الاسلام، لان كلمة استعمل تعني انه كلف من الرسول (ص) ، وانه صاحب السلطة ، وانه فرض له رزق(٢٠) . وذكر بعض المؤرخين أن « سمراء بنت نهيك الاسدية وهي صحابية أدركت النبي (ص) وعمرت كانت تمر في الاسواق تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتنهى الناس عن ذلك بسوط معها »(٢١) .

وفي العصر الراشدي سار الخلفاء الراشدون على سنة نبيهم (ص) ، وكان الخليفة عمر (رض) حريصا كل الحرص على استمرار الحياة المثالية التي استنها الرسول ، وعلى العدل بين الناس ، فمارس مهام الحسبة بنفسه واشرف على اسواق المدينة ، يطوف فيها يتفقد أحوال أهلها(٢٢) ويراقب الموازين والمكاييل ، ويحث ولاته على ذلك؛

وكثير ما كان يضرب من يجلس في السوق ولا يعرف احكامه(٢٣) . فالمشهور عنه انه ضرب جمالا لانه اثقل الحمولة على جمله قائلا له : « حملت جملك ما لا يطيق »(٢٤) ، وادب مجموعة من التجار الذين تجمعوا حول الطعام ولم يتركوا منفذا للمارة ،وأتلف لبنا شابه شيء من الغش وأراقه على رأس صاحبه(٢٥) ، وأمر بائعا يبيع زبيبا في السوق أن يزيد من سعر زبيبه الذي يبيعه فيه أو يخرج من السوق(٢٦) . وعين عمر الموظفين على أسواق الامصار للاشراف عليها ومراقبة سير الامور فيها فجعل السائب بن يزيد عاملا على سوق المدينة مع عبد الله بن عتبة بن مسعود(٢٦) ، وعين سليمان بن خيثمة على السوق أيضا وكان من فضلاء(٢٨) المهاجرين . وذكر المؤرخون انه ولى أمر الاشراف على الاسواق في المدينة الى امرأة تسمى الشفاء بنت عبد الله بن عبد شمس العدوية القرشية . وهي صحابية من فضيلات النساء ، كان الخليفة يقدمها لرأيها ورجاحة

عقلها . وقد اشار ابن الجوزي الى استعمال عمر(٢٩) للشفاء فقال : « وكان عمر اذا دخل السوق دخل عليها » وفي هذه العبارة اشارة الى مكان وجودها وعملها والا لكانت في بيتها . وقد يكون الخليفة ولاها مهمات خاصة في السوق تتعلق بأمور النساء(٣٠) ، فقد منع عمر (رض) الشعراء من التشبيب بالنساء وكان يجلد من يتعرض لهن بعشرين سوطا ، كما كان يمنع أن يجتمع الصبيان(٣١) عند من اتهموا بالفاحشة .

ولهذا يمكن القول ان الخليفة عمر كان اول من وضع نظام الحسبة(٣٢) في الاسلام. على الرغم من أن هذا اللفظ لم تذكره النصوص بشكل واضح الا في عهد الخليفة المهدي العباسي (١٥٨-١٦٩ هـ).

استمر الاشراف على الاسواق في عهد عثمان (رض) ، وقد ذكر ان « الحارث بن العاص كان عاملا على السوق في ايامه يراقب البيع والشراء ويأخذ العشور(٣٣) ، ويلاحظ الموازين ويضبطها ، وعرف عن الخليفة علي (رض) أنه كان يتفقد امر الرعية ويمشي في الاسواق يرشد الناس ويصلح الاخطاء ويأمر بحسن البيع والامتناع عن التدليس والفساد(٣٤) ، وعن الغش بالكيل والميزان ، وينصح اهل السوق والتجار من بائعي التمور والاسماك وغيرهم بأخذ(٣٥) الحق ، واعطائه ، ويأمر بابعاد ما يؤذي المسلمين في الطرقات العامة واماكن الراحة ومجاري المياه . وقد روى عنه (رض) أنه قال في وصيته لابنه الحسن . أن النبي قال له : « يا علي مر بالمعروف(٣٦) وانه عن المنكر » .

وفي العصر الاموي : اتسعت رقعة الدولة ، وانضوى تحت لواء الاسلام عناصر متباينة من جنسيات مختلفة ، كل له تقاليده ونظمه ، وظهرت مراكز اقتصادية ومالية جديدة ، ونمت المراكز القديمة ، وتوافد عليها اصحاب الحرف والتجار ورجال الاعمال واستوطنوها ، ونقل هؤلاء معهم خبراتهم ونظمهم وتقاليدهم ، وأدى كل ذلك الى تباين واختلاف فيما بينهم انعكس بعضه في تباين الفقهاء الاوائل ، كما ازداد عدد الموظفين والعاملين في ادارات الدولة ، وكان بعضهم لا يتورع عن الغش ، لهذا كان لا بد من علاج وايجاد المؤسسات الادارية التي تأخذ على عاتقها مسؤولية الاشراف على مجرى الامور اليومية والتصدي للتلاعب والغش والتعدي في الاسواق . وقد واجهت الدولة الاموية مشكلات عدة نجمت عن الوضع الجديد ، ومعاملات وصناعات جديدة ، ومكاييل ومقاييس وموازين موروثة منذ القديم ، كالاردب في مصر والشام والصاع في الحجاز والقفيز في العراق(٣٧) ، وغيرها ... وشعر المسؤولون في الدولة بالمشكلات الجديدة وبالاخطار الناجمة عنها ، فاتخذوا الخطوات الجريئة لتوحيد الدولة اداريا وقانونيا بعد أن توحدت سياسيا ، تصدى الخلفاء لمشكلة الاسواق وما يلحق بها وزاد الاهتمام بمراقبتها ، واسندوا هذه المهمة لجلة ائمة الدين ووجوه المسلمين الذين كانت

لا تأخذهم في الله(٣٨) لومة لائـم . وكان للخليفة الوليـد بن عبد الملـك اهتمام كبـير بالاسواق ، وعرف عنه انه كان يتجول فيها ، ويسأل عن الاسعار ويطلب الزيـادة في الاوزان(٣٩) ، واستمرت الحال على ذلك طوال العصر الاموي .

ورد ذكر « العامل على السوق » في البصرة في ولاية زياد بن ابيـه « ولي البصرة سنة ٤٥ هـ / ٦٦٥م»(٤٠) ، وذكر القاسمي أنه كان سمرة بن جنـدب ، وقال : وهـو من أوائل المحتسبين في الاسلام ، ويقول عنه الزركلي(٤١) « من الشجعان القادة، نشأ في المدينة ونزل البصرة ، فكان زياد يستخلفه عليها اذا سار الى الكوفة ، ولما مات زياد أقره معاوية عاما أو نحوه ثم عزله » .

كان العامل على السوق في العصر الاموي يعينه الامير ، ويتمتع ببعض السلطات القضائية والتنفيذية ، ويزود ببعض الاعوان الذين يساعدونه على القيام بواجباته(٤٢)، وفي ولاية ابن هبيرة على واسط (١٠٣هـ–١٠٦هـ / ٧٢٠م–٧٢٤م) ولي لاول مـرة مهدي بن عبد الرحمن ثم اياس بن معاوية محتسبين(٤٣) في واسط . ويمكن القول ان وظيفة المحتسب ذكرت لاول مرة في التاريخ الاسلامي في ولايـة ابن هبيرة(٤٤) (نحـو ١٠٣هـ) . ثم عين عاصم الاحول على الحسبة في المكاييل والموازين في الكوفة(٤٥) ، وابن حرملة أحد موالي عثمان ابن عفان عاملا على سوق المدينة(٤٦)، وفي العراق كل من داوود وعيسى ابناء علي بن عبد اللـه بن عباس ، وذلك في ولاية خالـد بن عبـد اللـه(٤٧) (١٢٥ هـ/٧٥٤م) .

وفي العصر العباسي تطورت نظم الدولة ومؤسساتها ، وبخاصة في عهد الخلفـاء العظام كالمنصور والرشيد . فقد بلغ من اهتمام الخليفة المنصور بشـؤون الدولة ، اصدار الامر لعماله لموافاته بأسعار الحاجيات من قمح وحبـوب وادم ، وغيرها مـن الاقوات مرتين في اليوم « فكان اذا صلى المغرب وافوه بكل ما حدث طوال النهار ، واذا ما صلى الصبح وافوه بما جرى(٤٨) في الليل » وكان يرجع الاسعار الى حالتها الاولى اذا ما لاحظ ارتفاعها ، واذا ما شعر بتقصير أحد عمالـه كتب له يوبخه ويؤنبـه ، او يعزله اذا لم ينفع معه هذا او ذاك(٤٩) ، ولم يكن الرشيد أقل اهتماما بالتجارة وتنظيم امورها من المنصور(٥٠) .

اكتسبت الحسبة اهمية كبيرة في العصر العباسي الاول ، فعين المنصور عاصم بن سليمان الاحول ، وهو من مشاهير العلماء واحد الائمة الحفاظ من التابعين ، عينه في الكوفـة « على الحسبة في المكاييل والاوزان » ، كما عهد الى أبي زكريا عبد اللـه بأمر حسبة بغداد واسواقها وذلك في سنة ١٥٧هـ/٧٧٣م (٥١) . واصبح ذكر الحسبة يتردد كثيرا فيما بعد . ويذكر بعض الباحثين ان المهدي هو الذي اوجد منصب الحسبة(٥٢)، واسند لاصحابها امر مكافحة الزندقة لاستفحالها ، ثم تطـورت بعد ذلك فتصـدت

للمشكلات الدينية والاجتماعية والسياسية اضافة الى مراقبة الاسواق. وكان الخليفة او الامام ، او الوزير احيانا ، يعين القائم عليها من المشهود لهم بالورع والدين والبأس الشديد(٥٣) .

الحسبة في مصر : كانت الحسبة في مصر ، مثلها مثل القضاء والمظالم ، تتبع الى بغداد(٥٤) ، وكان الولاة يقومون بمهامها بأنفسهم ، او يعهدون الى المحتسبين او القائمين على الشرطة ، بالسهر على مراعاة احكام الشرع وحسن السلوك العام والاشراف على النظام ، وحماية الناس من غش التجار(٥٥) والصناع ، ويذكر الكندي بهذا الصدد ان ابا مقاتل صالح بن محمد تقلد منصب الحسبة في مصر في ولاية تكين(٥٦) عليها ، وروى ايضا ، ان« أنوجور بن أولغ » ولى شرطة مصر سنة ٢٥٣ هـ/ ٨٦٧ م ، وكان شديدا فمنع النساء من ارتياد الحمامات والذهاب الى المقابر وسجن المخنثين ، ومنع النواح في الجنائز وشق الاثواب ، وعاقب من خالف ذلك بشدة(٥٧) ، كما اسند مؤنس الخادم هذا المنصب الى محمد بن جعفر القرطي قبيل ولاية الاخشيد(٥٨) على مصر .

وفي فترة الحكم الاخشيدي : كان الوزير يقوم بتعيين المحتسب . فقد اورد ابن زولاق أن محمد بن جعفر بن سلام ، كان من المحتسبين واتهم بقلة الوفاء ، فشكاه سيبويه الى الوزير ابي الفضل جعفر بن الفضل قائلا له(٥٩) : « ابا الفضل حفظك وصانك وابقاك وليت علينا محتسبا قليل الوفاء كثير الجفاء طويل القفا فأما ان كفيناه او أبدلته لنا بسواه .»(٦٠) ويبدو من هذا النص بأن الوزير كان صاحب الرأي في اختيار المحتسب وفي عزله .

وفي العصر الفاطمي : كان المحتسب من كبار الموظفين في البلاط توليه السلطة العليا بمرسوم فخم ، وكان الخليفة يستدعيه الى القصر ويسلمه امر التولية بنفسه. وكان سجل التعيين لأهميته يقرأ في جامعي القاهرة(٦١) ومصر . ولم تقتصر الحسبة في عهد الفاطميين على مراقبة الاسواق وتعدت ذلك لنشر مبادئهم العقائدية ، فكان على المحتسب أن يقوم بمراقبة كل المنكرات في المذهب الشيعي ، وهكذا وجد نوع جديد من الحسبة المذهبية ، استهدف نشر المذهب وتطبيقه(٦٢) . ولقد بلغ التعصب للمذهب الشيعي أشده في عهد(٦٣) الخليفة الحاكم الذي تطرف في معتقداته ، وكان يقوم بنفسه بتنفيذ أوامر الحسبة(٦٤) ونواهيها ، وحاول أن يضع حدا للمجون، فأصدر سنة ٤٠٢هـ/١٠١١م سجلا للمحتسب عينه(٦٥) وانفذ له معه خمسة الاف دينار وخمسة وعشرين فرسا بسروجها ولجمها وقلده الشرطتين والحسبة بالقاهرة ومصر العليا والجيزة ، وامره بالتشدد في منع شرب النبيذ او صنعه او اي نوع من المسكرات. وتشدد هذا الخليفة في الحفاظ على الاداب العامة ، واتخذ اجراءات تعسفية كثيرة، شملت المسلمين وأهل الذمة(٦٦) على السواء . غير ان الاهداف السياسية منعت

الخلفاء من الاستمرار في مثل هذه المبالغات(٦٧) ، ولهـذا كان اهتمام غالبيـة الخلفاء الفاطميين منصبا على التجارة والصناعة ومراقبة اصحاب الحرف والصناعات وحماية المصالح العامة وبخاصـة مصالح الطبقات الفقيرة(٦٨) . وبلـغ مـن اهتمام الفاطميين بمراقبة التجارة انشاء « دار العيار »(٦٩) حيث كان المحتسب يستدعي اليها جميـع الباعة ويقوم بفحص الموازين والصنج والمكاييل وتعييرها وضبطها ، فان وجد بها عيبا او نقصا اتلفها وكلف صاحبها بشراء غيرها(٧٠) .

ولقد ارتقى دور المحتسب في العصر الفاطمي ، وخاصة فيما يتعلـق بالنواحي الاقتصادية ، فكان عليه ان يتعرف على دقائق كل حرفة وتجارة(٧١) ، ويعتمد في ذلك على الخبراء والنواب في كل مهنة ، ويستخدمهم في جميع أعمال الدولة(٧٢) ممثلين عنه .

وراعى الفاطميون شؤون الحسبة في بلاد الشام . ذكر ابن عسـاكر في تاريخه عن المحتسبين الورعين والمشهورين بالزهد والتشدد في تطبيـق الشرائـع والسـنن(٧٣) « إبراهيم بن عبد الله بن حصن بن احمد بن حزم ابو اسحق الغافقي الاندلسي : وكان محتسب دمشق ، عرف عنـه أنه كان صارما في الحسـبة ، وكان بعهده رجـل يقلي القطايف ، وكان المحتسب يريد ان يؤدبه ويعاقبه لمخالفته ، فاذا رآه القطايفي قد اقبل قال له : بحق مولانا (الحاكم) امض عني ، فيمضي عنه ، فغافله يوما وأتاه من خلفه ، وقال له : وحق مولانا لابد ان تنزل . وأمر بانزاله وتأديبه ، فلما ضرب بالدرة ، قال: هذه في قفا عثمان فقال المحتسب : أنت لا تعرف اسماء الصحابة ، والله لاصفعنك بعدد اهل بدر ثلاثمائة وبضعة عشر ، فصفعه بعدد أهل بدر وتركه ، فمات بعد ايام من ألم الصفع » ، وبلغ الخبر مصر فاتاه كتاب الخليفة الفاطمي الحاكم يثني عليه ويشد مـن أزره قائلا له « هذا جزاء من ينتقص السلف الصالح »(٧٤) ومات الغافقي سنة ٤٠٤هـ ، وكان مالكيا يذهب مذهب المعتزلة .

ولجأ المحتسـب الفاطمي الى التشـهير ، وهو سـلاح معنوي له أثـر فعال في النفوس ، بأن يحمل التاجر المخالف على جمل ويطاف به في الاسواق والطرقات ، ويجبر على الصياح بصوت مرتفع لقد غششت فعوقبت(٧٥) . وكان من نتائج هذه السياسة ، ان تميزت الفترة الفاطمية بالازدهار التجاري والتقدم الصناعي ، وقاد ذلك الى الغنى المفرط مما لفت انظار المؤرخين والرحالة أمثال ناصر خسرو(٧٦) وغيره .

واما الحسبة في بلاد المغرب : فقد باشرها الامراء والولاة(٧٧) في بداية الامر ، ثـم اخذت تسند الى القضاة ، ويظهر ان اقدم سجل بتولية قضاة افريقية يرجع الى عصر مروان بن محمد الذي كتب الى عبد الرحمن بن زياد : « قد ولاك أمير المؤمنين الحكومة والقضاء بين اهل افريقية ، واسند اليك امرا عظيما ، وحملك خطبا جسيما فيه دمـاء المسلمين وأموالهم ، واقامة كتاب الله عز وجل وسنة نبيه والذب عـن ضعيفهم مـن

قويهم ، وانصاف مظلومهم من ظالمهم ، واخذ من شريفهم بالحق لخاملهم ، وقد رجاك امير المؤمنين لذلك ، لفقهك وعدلك وخيرك ، وحسبك وعلمك وتجربتك ، فعليك باتقاء الله وحده لا شريك له وايثار الحق على ما سواه وليكن جميع الناس ، قويهم وضعيفهم في الحق عندك سواء »(٧٨) . ونستنتج مما تقدم أن القاضي يعينه الخليفة فيستمد سلطته منه مباشرة ، ولهذا كان بامكانه مقاضاة الولاة فيما اذا حادوا عن جادة الصواب(٧٩) ، أو ادعي عليهم . ولقد فعل ذلك ابو كريب القاضي مع عبد الرحمن بن حبيب عندما ادعي عليه احدهم(٨٠) . وكانت سلطة القضاة واسعة تشمل الامر بالمعروف والنهي عن المنكر .

وكان أكثر قضاة الاباضية يمارسون بعض مهام المحتسب ، وفي تاهرت الرستمية لم يرد ذكر المحتسب بهذا الاسم ، وقام بمهمته عامل عرف باسم « المشرف على السوق» ، ذكر ابن الصغير في تاريخه اختصاصاته فقال(٨١) : « وهو الذي يتجول في الاسواق ليحارب أنواع الغش ومظاهر التدليس ، ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، فاذا رأى جزارا ينفخ اللحم عاقبه ، واذا لاحظ دابة اثقلت بالحمل خفف عنها واذا وجد فضلات في السوق وفي الطرقات ، امر بازالتها » . وقد اكتسبت هذه الوظيفة اهمية خاصة في تاهرت وفي الواحات التي التجأ اليها الاباضية بعد سقوط الدولة الرستمية(٨٢) .

وتعود البذور الاولى لنشأة نظام الحسبة في **القيروان** الى عصر الامراء المهالبة والى يزيد بن حاتم المهلبي واليها من قبل المنصور(٨٣) ، وكانت الاسواق قبله تخضع لنظر الوالي مباشرة يجول فيها مراقبا ومشرفا ، او ينيب عنه من يقوم مقامه(٨٤) . وقد استهل يزيد فترة حكمه في القيروان بتنظيم اسواقها وافرد لكل صناعة سوقا خاصا بها(٨٥) ، وذلك جريا على ما عرفته العراق ومصر(٨٦) ، وعين على كل صنعة في السوق عريفا خبيرا بخفاياها ، مهمته مراقبة سير الاعمال والدفاع عن حقوت العمال الاجراء ،

والمحافظة على العلاقات الحسنة بين أصحاب المهن وعمالهم ، ومنع الغش في الصناعات(٨٧) . وسرعان ما انتشر نظام اسواق القيروان في غيرها من مدن افريقية والمغرب مثل تونس وصفاقس وسوسة وتاهرت الرستمية ، وسجلماسة عاصمة بني واسول الصفرية ، وفاس الادريسية(٨٨) .

ويبدو أن الامور استمرت هكذا بحيث كان الولاة ومن يحظى بثقتهم من القضاة والعمال يقومون بالاشراف على شؤون الحسبة ، فعند ما ولي محمد بن الاغلب سنة ٢٣٤هـ/٨٤٨م ابا سعيد سحنون بن سعيد بن حبيب التنوخي قاضيا في افريقية(٨٩) باشر شؤون القضاء والحسبة معا ، ثم ما لبث ان عين للحسبة امناء او محتسبين ، واحتفظ لنفسه بمنصب القضاء ، وفصل الحسبة عن القضاء(٩٠) ، وقام سحنون

بجهود كبيرة ادت الى تطور نظام الحسبة وتقدمه ، ووقف بجراة وشجاعة امام رغبات الولاة والامراء وكبح جماحهم ، واستمر في عمله الجاد للارتقاء بنظام الحسبة وتحديد واجبات المحتسب واختصاصاته ومهامه واستن طريقا واضحا لتغيير ما كان يراه منكرا في عصره(٩١) .

ويذكر ان اول من تولى الحسبة لسحنون كان حبيب بن نصر . الا ان اسم الحسبة لم يكن معروفا قبل القرن الرابع الهجري ، وانما كانت تعرف باحكام السوق، ويطلق على متوليها « ناظر احكام السوق »(٩٢) ولقد عرف نظام احكام السوق تطورا كبيرا وعناية مميزة بعد فترة سحنون وظهرت المؤلفات حوله ، وكان أقدمها ما ألفه يحيى بن عمر بن يوسف الكناني الاندلسي(٩٣) (٢١٣ - ٢٨٩ هـ/٨٢٨-٩٠٢م)وضمنه كتابه احكام السوق ، ويمتاز هذا الكتاب بانه عمل فريد في نوعه من حيث قدمه وتحريه للدقة .

واما في الاندلس : فقد بلغت الحسبة ايام الامويين مبلغا عظيما ،يدل على ذلك ما جاء في نفح الطيب للمقري ، وما كان من عناية علمائها واهل الرأي فيها بوضع قواعدها ودراسة أحكامها . وعرف المحتسب بصاحب السوق ، ويتقلد وظيفته من القاضي بموافقة الامير او حاكم المدينة .واشترط الاندلسيون ان يكون من أهل التجربة والخبرة والعفة والمروءة . وعلى العموم كانت الحسبة في الاندلس نوعا من أنواع القضاء المتميز بسرعة البت في القضايا(٩٤) ، وتسوية المخالفات في الطرقات والاسواق ، والمحتسب قاضيا اداريا في منطقة اختصاصه ، يتولى احيانا مهام القاضي وينوب عنه ، ويحول بينه وبين التعامل مع الاشرار والموجين والمخالفين . يعتمد على أعوانه ويعزر المجرمين على قدر جرمهم بالتجريس ، وهو التشهير في الاسواق أمام الجمهور ، أو بالضرب فاذا تاب المشهر به سمح له بممارسة نشاطه ، واذا عاد الى غشه أخرج من السوق وربما نفي من البلد(٩٥) . لذلك اهتم القاضي بالمحتسب وراتبه وما كان يصدر عنه من احكام. وقد ارتقى نظام الحسبة في الاندلس واصبح علما يحتوي على مجموعه من القوانين والاحكام يتدارسها طلاب العلم كما يتدارسون الفقه والافتاء لاهميتها وارتباطها الوثيق بالحياة العامة ، وافرد لها الكتاب الاندلسيون المصنفات وكتبوا عنها خلاصة تجاربهم العلمية ، من أمثال ابن عبدون الاشبيلي ، والسقطي المالقي ، وابن عبد الرؤوف وعمر بن عثمان الجرسيفي(٩٦). وتعد هذه الدراسات وخاصة ما جاء منها على لسان السقطي أفضل ما ألف في ميدان الحسبة لصفتها العلمية المبنية على التجربة الطويلة ، والخبرة والمشاهدة واهمها مشاهدات السقطي التي اكتسبها في رحلاته واسفاره وممارساته في بلدة مالقه في القرن السادس الهجري. وتمتلىء كتب طبقات الاندلسيين بأسماء اصحاب الاسواق ، او المحتسبين ومن أهمهم أبو علي حسن بن محمد بن ذكوان القرطبي ، واحمد بن يونس الجذامي القرطبي ، وقد شغل كل منهما ولاية الشرطة والسوق(٩٧) .

من خلال ما تقدم نجد ان اختصاصات المحتسب : متشعبةوكثيرة وتشمل العديد من مجالات الحياة ، وواجباته الرئيسية متشابهة الى حد كبير في كل انحاء المجتمع العربي الاسلامي . وقد حدد الفقهاء اختصاصات الحسبة وتكلموا بشيء من التفصيل على مهامها(٩٨) في كتب التاريخ والفقه والتراجم او كتب الحسبة ، وهي لا تختلف في شرق العالم الاسلامي وغربه ، وما ورد في كتب الحسبة انما هو تعبير عن اختلافات ظاهرية تفصيلية تعكس اثر الاوضاع الخاصة لكل قطر(٩٩) .

وربما كان ما أورده ابن خلدون في مقدمته افضل ما قيل في الحسبة واحسن ما ذكر عن مهامها(١٠٠) : « أما الحسبة فهي وظيفة دينية من باب الامر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي هو فرض على القائم بأمور المسلمين ، يعين لذلك من يراه اهلا له، فيتعين فرضه عليه ، ويتخذ الاعوان على ذلك ويبحث عن المنكرات ، ويعزر ويؤدب على قدرها ، ويحمل الناس على المصالح العامة في المدينة : مثل المنع من المضايقة في الطرقات ومنع الحمالين وأهل السفن من الاكثار في الحمل ، والحكم على اهل المباني المتداعية للسقوط بهدمها ، وازالة ما يتوقع من ضررها على السابلة والضرب على ايدي المعلمين في المكاتب وغيرها في الابلاغ في ضربهم للصبيان المتعلمين ولا يتوقف حكمه على تنازع أو استعداء بل له النظر والحكم فيما يصل الى علمه من ذلك ، ويرفع اليه ، وليس له امضاء الحكم في الدعاوى مطلقا بل فيما يتعلق بالغش والتدليس في المعايش وغيرها، وفي المكاييل والموازين وله أيضا حمل المماطلين على الانصاف ، وامثال ذلك مما ليس فيه سماع بيّنة ولا انفاذ أحكام ، وكأنها أحكام يتنزه القاضي عنها لعموميتها وسهولة أغراضها ، فتدفع الى صاحب هذه الوظيفة ليقوم بها ، فوضعها على ذلك ان تكون خادمة لمنصب القضاء ، وقد كانت في كثير من الدول الاسلامية مثل العبيديين بمصر والمغرب والامويين بالاندلس داخله في عموم ولاية القاضي يولي فيها باختياره ، ثم لما انفردت وظيفة السلطان عن الخلافة ، وصار نظره عاما في أمور السياسة اندرجت في في وظائف الملك وافردت بالولاية »(١٠١) .

و اعتبر المحتسب من اكبر الموظفين نفوذا لاتصاله المباشر بجميع شرائح المجتمع وكان يمنع الاطباء والجراحين والصيادلة من وصف العلاج الخاطىء او بيع العقاقير المغشوشة ، ويمنع المحتكرين والصرافين من رفع السعر والغش في النقود وتزييفها(١٠٢)، وذكر الشيزري انه كان يعلم بأمور الموازين والمكاييل ، وعيار الارطال والمثاقيل ، ويشرف على جميع نواحي الانتاج والبيع والشراء ، ويتدخل في كافة شؤون الحرف والاصناف(١٠٣) ، ويمنع الغش بأنواعه ، والتحايل ، ويكافح الغلاء . وهو وان لم يكن له الحق في تحديد الاسعار « لان المسعر هو الله » الا انه كان يحول دون ارتفاع اسعار بعض البضائع الضرورية ارتفاعافاحشا ، ويمنع بيعها الا في الاسواق ، كما كان يتدخل في حالات الاحتكار(١٠٤) ويجبر المحتكرين على عرض بضائعهم وبيعها « لان الاحتكار حرام والمنع من فعل الحرام واجب » كما روي عن الرسول (ص)(١٠٥) « الجالب

مرزوق والمحتكر ملعون » . وبخلاف القضاء جاء عمل المحتسب متطلبا للسرعــة(١٠٦)، والبت في معالجة الامور ضمانا للحقوق .

وبكلمة محددة ان اهم اختصاصات الحسبة وولاتها : كانت الاشراف على الحياة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والدينية لتسير في اطار الشريعة الاسلامية والاخلاق الفاضلة والذوق السليم ، ومنع البدع والاهواء ، ومكافحة المذاهب الشاذة عن مذهب الجماعة والاغلبية ، الى غير ذلك من أمور(١٠٧) وكان يأمر بالجمعة والجماعة ، وبصدق الحديث ، وأداء الامانات وينهى عن المنكرات من الكذب والخيانة(١٠٨) ، ويراقب نظافة الاسواق والطرق ، ومنع كل ما من شأنه مضايقــة المــارة(١٠٩) ؛ كما كان يقوم بمنــع الناس من مواقف الريب(١١٠) ومظنات التهم وكان عليه ان يتفقد المواضع التي تجتمع فيها النساء كالاسواق وشواطىء الانهار والحمامات(١١١) .. ويتعهد ابناء الجند الذين قتل اباؤهم في سبيل الله وأهاليهــم(١١٢) ، ويتفقد احــوال المرضى ، ويشــرف على تعليم الصبيان والبنات ويعمل على راحتهم والمحافظة(١١٣) على سلوكهم .

ومما يلفت الانتباه أن اعمال المحتسب قــد تطورت تطورا هاما في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري ، فشملت الحكام والولاة والامراء والقضاة(١١٤) . فكان يقصد مجالس هؤلاء يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ، ويدعوهم الى الشفقة والاحسان الى الرعية(١١٥) ، لا تأخذه في الله لومة لائم ، ويقول كلمة الحق(١١٦) لا يخادع ولايرائي. يروي ابن عســاكر ان ابا الحسين النوري المحتسب حطم دنان خمر كانت في طريقها الى الخليفة العباسي المعتضد بالله (٢٧٩ـ٢٨٩هـ / ٨٩٢ـ٩٠٢م) وعندما احضر بين يديه وسأله عن عمله قال : « انا المحتسب . قال : من ولاك الحسبة ، قال : من ولاك الخلافة يا امير المؤمنين ، فأطرق الخليفة قليلا ثم قال : اذهب فقد اطلقت يدك فغير ما أحببت ان تغيره من المنكر »(١١٧) .

ويروى أيضا ان طغتكين(١١٨) (ت٥٢٢هـ/١٠٢٨م) أتابك دمشق أراد أن يعين عليها محتســبا فذكروا له رجلا من أهل العلم والمعرفة فطلب احضاره فلما مثل بين يديه قال :« اني وليتك أمر الحسبة على الناس بالامر بالمعروف والنهي عن المنــكر » قال: « أن كان الامر كذلك فقم عن هذه الطراحة وارفع هذا المسند ، فانهما حرير ، واخلع هذا الخاتم فانه ذهب» ، فقد قال النبي (ص) في الذهب والحرير « ان هذين حرام على ذكور امتي حل لاناثها » ، قال فنهض السلطان عن طراحته ، وامر برفع مسنده ،وخلع الخاتم من اصبعه وقال : « قد ضممت اليك النظر في امور الشرطة » فما راى النــاس محتســبا أهيب منه ..

وكان المحتسب يتردد الى مجالس الحكام والقضاة ، ويردع القاضي من اتخــاذ حكم في حالة الغضب(١١٩) والانفعال ، ويعاقب بالعقوبة المناسبة من يسفه مجلس الحكم أو يطعن في صحته أو لا يخضع الى الشرع(١٢٠) والقانون .

ولم يكن المسؤولون يتهاونون مع المحتسب اذا قصر في عمله ، فقد أقدم المنصور على قتل محتسب بغداد يحيى بن زكريا(١٢١) لسوء تصرفه . ولما بلغ الوزير العباسي علي بن عيسى ان محتسب بغداد كان يكثر الجلوس في داره كتب له توقيعا جاء فيه «الحسبة لا تحتمل الحجبة فطف بالاسواق تدر لك الارزاق، وان لزمت دارك صار الامر كله عليك ، والسلام »(١٢٢) .

وبمقابلة نظام الحسبة كمؤسسة ادارية اسلامية مع النظام الحديث يتبين لنا ان عمل الحسبة يناط اليوم بوزارات ومصالح متعددة، مثل وزارات التموين والاقتصاد والتجارة والصناعة والصحة والتربية . .الخ ، والشرطة البلدية والاخلاقية ، وغيرها من الادارات(١٢٣) .

ونظرا لاتساع اختصاصات المحتسب وتشعبها وصلتها بالامور الشرعية فقد اوجب الفقهاء توافر صفات معينة فيمن يوكل اليه(١٢٤) أمرها واتفقوا على ان يكون مسلما(١٢٥) حرا بالغا عدلا وان« لا يولاها(١٢٦) الا عالم مجرب» فقيه عارف بأحكام الشريعة الاسلامية، ليعلم ما يأمر به وينهى عنه « فان الحسن ما حسنه الشرع والقبيح ما قبحه الشرع ولا مدخل للعقول في معرفة المعروف والمنكر الا بكتاب(١٢٧) الله عز وجل » . وان يعمل بما يعلم ، وان لا يكون قوله مخالفا لفعله(١٢٨) ، فقد قال عز وجل في ذم علماء بني اسرائيل : « أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم »(١٢٩) .وروى انس بن مالك ان النبي (ص) قال : « رايت ليلة اسري بي رجالا تقرض شفاههم بالمقاريض فقلت من هؤلاء يا جبريل ؟ قال : خطباء أمتك الذين يأمرون الناس بالبر وينسون انفسهم(١٣٠)» . وأن يكون عفيفا عن أموال الناس « متورعا عن قبول الهدية فان ذلك رشوة »(١٣١)، وأن يكون ذا رأي وخشونة ، ويعلم نفسه(١٣٢) على الصبر وان يتجه بعمله وقوله الى الله وطلب مرضاته خالص النية لا يشوبه في طويته رياء(١٣٣) ولا مراء « عارفا بالموازين والمكاييل والارطال والمثاقيل والدراهم وتحقيق كميتها » حتى يتمكن من اجراء معاملات الناس ومراقبتها دون ان يلحق بهم الغبن أو التطفيف(١٣٤) ، متمسكا بتعاليم الدين وسنن رسول(١٣٥) الله (ص). . وعليه ان يكون أنيقا نظيفا مواظبا على القيام بالفرائض والواجبات (١٣٦) ، وكلها أعمال تزيده وقارا وتقديرا وتبعد الطعن في دينه وسلوكه. وان يكون عارفا بأحكام الصلاة والصوم والزكاة ، والزواج والطلاق ، والبيع والشراء، والمباح من الطعام والمحرم ، وفي الاشربة والذبائح وشروطها ، والشهادات ، والصنائع جيدها من رديئها وغشها وخالصها من مغشوشها(١٣٧) ، وباختصار عارفا عالما بكل قواعد الشرع لينا من غير تراخ شديدا من غير(١٣٨) عنف . وكانت الحسبة في العصر الفاطمي تعد من المناصب الهامة في الدولة وتأتي بعد القضاء(١٣٩) والدعوة ، ويتمتع صاحبها بصفات اخلاقية عالية ولا تعقد الا لاشخاص من أعيان الشهود والعدول يعينهم الخليفة بنفسه ويراقبهم عن كثب(١٤٠) .

ولما كان المحتسب غير قادر على الاحاطة بكل ما تقدم ، فقد اتخذ العرفاء على الاصناف وأصحاب الحرف من اصحاب الخبرة واهل الثقة(١٤١) والامانة ، كما اتخذ النواب على الحدود والموانيء وفي الاماكن التي ترد اليها الغلة لمراقبة ما يرد من الغلال وما يخرج منها ، وليكونوا على اطلاع واسع على احوال البلاد(١٤٢) الاقتصادية ، واتخذ الاعوان والغلمان ليتقوى بهم على(١٤٣) المخالفين ، وقد يكون الشرطة من هؤلاء .وكان له خطة يتبعها في القيام بأعماله ، وله دكة في السوق(١٤٤) يراقب منها أهل السوق ، ويطوف الاسواق الاخرى ليلا ونهارا راكبا أو ماشيا محاطا باعوانه(١٤٥) وغلمانه ومنهم عريف السوق والعارف بأحوال الصناعات وخفاياها وكان عليه ان يحمل سوطا ودرة، ويخيف الناس المتلاعبين بمصالح واقوات الشعب ويغافل الجميع، ويتفنن في ايجاد الوسائل لكشف الغشاشين ، وكان لا يعاقب الافراد لاول غلطة بل يبدي النصح والارشاد والتحذير ، وبعد ذلك يباشر العقوبة(١٤٦) المستحقة بادوات حددت ووصفت وصفا دقيقا على ما أورده ابن الاخوة(١٤٧) وغيره .

ويعد كتاب **احكام السوق** من اقدم ما وصلنامن كتبالحسبة المستقلة. ثم ظهرت في وقت متأخر كتب تناولت الحسبة تفصيلا ، وتطرقت الى كل ما يتصل بها من شروط المحتسب ومهامه ، ويظهر أنها وضعت كبرنامج عمل للمحتسبكي يقوم بأعماله على أكمل وجه ، وتكشف الكتب والمؤلفات في الحسبة جوانب هامة وشيقة من الحياة الاقتصادية والاجتماعية ، ودور المحتسب وأعوانه في المحافظة على مصالح الناس ، ويعد كتاب **نهاية الرتبة في طلب الحسبة** لجلال الدين عبد الرحمن بن نصر بن عبد الله الشيزري الشافعي (ت٥٨٩هـ / ١١٩٣ م) من أهم هذه المؤلفات في نهجه وموضوعه من الناحيتين العلمية والتطبيقية ، والشيزري شامي الوطن شافعي المذهب ،تضمن كتابه اربعين بابا من ابواب الحسبة ، ويعد المصدر الاساسي لكل ماكتب بعده(١٤٨)، ككتاب **معالم القربة في احكام الحسبة** «لمحمد بن محمد القرشيالمشهور بابن الاخوة (ت ٧٢٩هـ/١٣٢٩م) ». وما كتبه ابن بسامفي كتاب **نهاية الرتبة في طلب الحسبة** وغيرهم.

حصل المرشح على الدكتوراه من قسم التاريخ في كلية الاداب بجامعة دمشق برسالته « حالة بلاد الشام الاقتصادية منذ العهد الطولوني حتى نهاية العصر الفاطمي». باشراف الدكتور سهيل زكار .

(١) ابن منظور ، جمال الدين محمد بن جلال الدين الانصاري ، لسان العرب ، دار لسان العرب، بيروت ١٩٥٥-١٩٥٦م ، ج١٥ ، مادة حسـب . القلقشندي، صبح الاعشى في كتابة الانشا، المؤسسة المصرية العامة ، القاهرة ١٩١٢-١٩١٩، ج١٥، ص ٤٥١ . ابن زيدان ، العز والصولة في معالم نظم الدولة ، الرباط ، ١٩٦٢م، ج٢، ص٦١ . ظافر القاسمي، نظام الحكم في الشريعة والتاريخ الاسلامي « السلطة القضائية » بيروت ١٩٧٤م ، ص ٥٨٧ .

(٢) الزبيدي ، محب الدين ، محمد مرتضى الحسيني الواسطي ، تاج العروس في جواهر القاموس، ١٠ أجزاء ، المطبعة الخيرية، القاهرة ١٣٠٦هـ .

(٣) الماوردي ، الاحكام السلطانية ، ط٣ ، القاهرة ١٩٧٣م ، ص ٢٤٠ . أبو يعلى الفراء ، الاحكام السلطانية ، ط١ القاهرة ١٩٣٨ ، ص٢٦٨.

(٤) القران الكريم ، سورة آل عمران ، ١٠٤. ابن الاخوة ، معالم القربة في احكام الحسبة ، نشر روبن ليفى ، كمبريدج ، ١٩٣٨ م ، ص ٥٣.

(٥) الماوردي ، الاحكام ، ص ٢٤٠ . ابن خلدون، المقدمة بيروت ١٩٦١ ، ص ٤٠٥ . المقريزي ،المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والاثار « الخطط المقريزية » ، مطبعة النيل القاهرة ١٣٢٦ هـ، وطبعة بولاق ١٢٧٠ هـ ج١ ص٤٦٣ . موسى لقبال، الحسبة المذهبية في بلاد المغرب العربي نشاتهـا وتطورها ، ط١ ، الجزائر ١٩٧١ م ص٢١.

(٦) ظافر القاسمي ، نظام الحكم ، ص٥٨٩.

(٧) المرجع السابق والصفحة .

(٨) ابن خلدون ، المقدمة ص ٤٠٥ والعبر وديوان المبتدأ والخبر ، بيروت ١٩٥٦ ، ج١ ، ص ٣٩٥. جرونبال ، حضارة الاسلام ، طبعة القاهرة، ص ١١٢ . محمد المبارك ، الدولة ونظام الحسبة عند ابن تيمية دار الفكر ، ط١ ، ١٩٦٧-١٢٨٧هـ ، ص ٧٢.

(٩) الماوردي ، الاحكام ، ص ٢٥٨ . ابن الاخوة، معالم القربة ص٧ .

(١٠) القلقشندي ، ج٥ ، ص ٤٥١-٤٥٢ . الحاجي خليفة ، كشف الظنون عن اسماء الكتب والفنون، طهران ، ١٩٦٧ ج١ ، ص ١٦.

(١١) نقولا زيادة ، الحسبة والمحتسب في الاسلام، بيروت ١٩٦٢ م ، ص ٣١. موسى لقبال ، ص٢١. ظافر القاسمي ، ص ٦١٠ .

(١٢) موسى لقبال ، ص٢٢ . ظافر القاسمي ، ص ٥٩١. وانظر : الاستيعاب ، ج١ ص ٢٨٥«طبع على هامش الاصابة في تمييز الصحابة لابن حجر العسقلاني» القاهرة ، ١٩٣٩م.

(١٣) البلاذري ، انساب الاشراف ، القدس ١٩٣٦م ، ج٥ ، ص٤٣ . وكيع ، محمد بن خلف ، بن حيان ٣٠٦هـ ، اخبار القضاة ، القاهـرة ١٩٥٠ ج١ ، ص٣٥٣ . الشافعي الام، كتاب الشعب، القاهرة ج٤ ، ص ٢٠٥ . الاصفهاني الاغاني، طبعة الساسي ، القاهرة ١٣٢٣ هـ ودار الكتـاب العربي بيروت ، ج٨ ، ص ٢٧٦. عبد الحي الكتاني ، نظام الحكومة النبوية المسمى بالتراتيـب الادارية ، دار الكتاب العربي، بيروت ج٢، ص ٣٦ .

(١٤) صالح احمد العلي ، التنظيمات الاجتماعيـه والاقتصادية في البصرة ، بغداد ١٩٥٣ ، ص ٢٤٠.

عبد العزيز الدوري نشوء الاحناف في الاسلام، مجلة كلية الاداب ، العدد الاول ، حزيران ١٩٥٩ ، ص١١٨. حسام قوام السامرائي، المؤسسات الادارية في الدولة العباسية ، مكتبة دار الفتح بدمشق ١٩٧١، ص ٣٠٧.

(١٥) بن بشكوال ، ابو القاسم خلف بن عبدالملك بن مسعود بن بشكوال الخزرجي الانصاري الاندلسي، الصلة في تاريخ ائمة الاندلس وعلمائهم ومحدثيهم وفقهائهم وادبائهم ، القاهرة ١٣٧٤هـ ١٩٥٥ م ، ص٣٠٢ ، يذكر عند ترجمته لابن المشاط الرعيني القرطبي (ت ٣٩٧هـ) انه تولى أحكام السوق المدعوة عندنا بولاية السوق، غير أن ابن فرحون في كتابه تبصيرة الحكام ج٢ ، ص١١٤، يذكر ان ابن عاصم القرطبي ت٢٥٦ هـ ، كان محتسبا بالاندلس والراجح ان ابن فرحون قد استعمل هذا الاصطلاح المتاخر لشيوعه في عصره . انظر ، حسام قوام السامرائي ، المؤسسات الادارية ، ص ٣٠٧ .

(١٦) ابن الاخوة ، معالم القربة ، ص ١١-١٢. الكتاني ، التراتيب ج١ ، ص ٢٨٤ . السقطي ، في آداب الحسبة ، باريس ١٩٣١ ، ص ٤ . محمد المبارك ص ٧٦، ١٤٤ ا. موسى لقبال ص٢٢ . الباز العريني، الحسبة والمحتسبون في مصر، المجلة التاريخية ، مجلد ٣ ، عدد ٢ ، اكتوبر ١٩٥٠ م .

(١٧) السقطي ، في اداب الحسبة ، ص ٢،٤.

(١٨) ابن الاخوة ، ص٢ ا. لسقطي ،ص٤-٥.

(١٩) ابن الاخوة ، ص ٢٧ ينقل عن الاستيعاب ان الرسول ص، عين سعيد بن اصيحة بن العاص على سوق المدينة . موسى لقبال ، ص٢٢ .البازالعريني ، المرجع السابق .

(٢٠) ابن الاخوة ، ص ٣٦ « يورد اسمه سعيد بن أصيحة بن العاص » وانظر : ابن عبد البر ، الاستيعاب ج١ ، ص ٢٨٥. الحلبي ، علي بن برهان الدين ، انساب العيون في سيرة الامين والمامون المعروف بالسيرة الحلبية ، القاهرة١٩٦٢ ، ج٣ ، ص ٣٦٥ . موسى لقبال ، المرجع السابق ، ص٢٢ . محمد المبارك ، المرجع السابق ص ٧٦.

(٢١) الكتاني، المرجع السابق ج١ ، ص ٢٨٥ .ظافر القاسمي ، المرجع السابق ،ص٥٩١.

(٢٢) ابن الاخوة ، معالم ، ص ١٣ . الطبري ،تاريخ ج٤ ، ص١٩٠ . ابن عبد ربه ، العقد الفريد، القاهرة ١٣٥٩ هـ ١٩٤٠م ، ج٤ ، ص٤٧٠. اليعقوبي ، تاريخ ، لايدن ١٨٨٣م ، ج٢ ص١٩٥٨. ابن كثير ، البداية والنهاية ، مطبعة السعادة ، القاهرة ٣٤٨ ا- ١٩٢٩م ، ج٧ ص ١٢٤. حسن ابراهيم حسن ، تاريخ الدولة الفاطمية ،القاهرة ، ١٩٥٨، ص ٢٢٣ .

(٢٣) ابن الاخوة ، معالم ، ص١٣. الكتاني ،التراتيب ج٢ ص ١٨ .

(٢٤) ابن الاخوة ، معالم ، ص ٢٣ . ابن تيمية ،الحسبة في الاسلام ص٤٢. ابراهيم الشهابي ، المرجع السابق ص ١٠٤-١٠٥ موسى لقبال، الرجع السابق ص ٢٢ . مصطفى الشكعة ، معالم الحضارة العربية ، ط٢ بيروت ١٩٧٥ ، ص٨٤.

(٢٥) ابن تيمية ، الحسبة ، ص ٤٣.

(٢٦) السقطي ، في اداب الحسبة ، ص ٥. المزني، احمد ابن ادريس الطلي ، مختصر كتاب المزني، القاهرة ١٩٦١ ج٤ ، ص٩٤ .

(٢٧) ابن الاخوة ، معالم ص١٣ . ابو عبيد ،الاموال ، ص٧١١ . الشافعي ، الام ، ج٢ ، ص٢٠٥.
ابن تيمية ، الحسبة ، ص ٢٣ . موسى لقبال ، المرجع السابق ص ٢٣. ابراهيم الشهابي، المرجع السابق ص ١٠٤-١٠٥ . حسن ابراهيم حسن ، النظم الاسلامية ، مكتبة النهضة المصرية ط ٤ ، ١٩٧٠ م .

(٢٨) ابن عبد البر ، ابو عمر بن عبد الله بن محمد ، الاستيعاب ، طبع على هامش الاصابة لابن حجر العسقلاني ، القاهرة ١٩٣٩ ، ج٢ص٦٢ عبد الرحمن زيدان ، كتاب العز والصولة في معالم نظم الدولة ، الرباط ٩٦٢ ١، ص ٢٣.

(٢٩) ظافر القاسمي ، نظام الحكم ، ص٥٩٢ ، نقلا عن سيرة عمر لابن الجوزي ، ص ٤١. وانظر ، الزركلي ، الاعلام ، القاهرة ١٩٥٩ ، ج٣ ص٢٤٦ . الطبري ، تاريخ ، ج٣ص ٢٨٠ . وابن الاثير، الكامل ج٣ ص ٣٢.

(٣٠) ابن حجر العسقلاني ، تهذيب التهذيب، حيدر آباد ١٣٢٦ هـ، ج١٢ ص ٤٢٨ . ابن سعد ، الطبقات ، ج٨ ص ١٩٨. الزركلي ، الاعلام، ج٣ ص ٢٤٦ . الكتاني، المرجع السابق ج١، ص٢٨٦.

(٣١) الاصبهاني ، الاغاني ، ج٤، ص ٣٥٦ ..ابن تيمية ، الحسبة ص٩٣.

(٣٢) القلشندي ، صبح الاعشى ، ج٥ ص ٤٥٢.موسى لقبال ، المرجع السابق ص٢٣ .

(٣٣) البلاذري ، انساب ، ج٥ ، ص ٤٧ . الديار بكري ت ٦٨٢هـ ١٢٨٣ م . حسن بن محمد بن الحسين ، تاريخ الخميس في أحوال انفس النفيس ، جزاءن ، المطبعة الوهبية ، القاهرة ١٢٨٣هـ ، ج ٢ص ٢٦٧ .

(٣٤) ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج٣ ص١٨. ابن سعد ، الطبقات ج٣ ص ١٨ .

(٣٥) ابن كثير ، المصدر السابق ج٨ ص ٤ .الكتاني ، التراتيب الادارية ج١ ص ٢٩٠. وكيع ، اخبار القضاة ج٢ ص ١٩٦ . موسى لقبال ،المرجع السابق ص ٢٣. عبد المنعم ماجد ، نظم الفاطميين ورسومهم ، القاهرة ١٩٧٢ ، ج١ ، ص ١٦٢ .

(٣٦) ابن الاخوة ، معالم ، ص١٥ . عبد المنعم ماجد ، نظم الفاطميين ،ص ١٦٣.

(٣٧) الشيزري ، عبد الرحمن بن نصر ، نهاية الرتبة في طلب الحسبة ، القاهرة ١٣٦٥ هـ ١٩٤٦م ص١٥ وما بعدها ، الماوردي ، الاحكام ص٤٦٥ . الريس ، الخراج والنظم المالية للدولة، ص ٣١٦ - ٣٢٥ ، ط٣ ، دار المعارف بمصر١٩٦٩ ، وطبعة القاهرة ١٩٥٧م . علي مبارك، الميزان في الاقيسة والاوزان ، ص ٨٦ - ٨٩ ، المطبعة الاميرية بولاق مصر ، ١٣٠٩ هـ - ١٨٩٢ م . وانظر ، القاموس المحيط (مكة) ولسان العرب مادة « مكك » . وانظر ، محمد امين صالح ، النظم الاقتصادية في صدر الاسلام ، القاهرة ، ١٩٧١م ، ص ٢٨٠، ٢٨١ .

(٣٨) عبد الرحمن بن زيدان ، العز والصولة ، ،ص ٦٣.

(٣٩) الطبري ، تاريخ ج ٦، ص ٤٩٦. ابن عبدربه ، العقد الفريد ج٤ ص ٤٢٤ .ابن الاثير ،الكامل ج٥ ص ٩ . ابن كثير ، البداية ج٨ ص ١٦٥. ابن العبري ، تاريخ مختصر الدول بيروت ١٩٥٨، ص ١١٣.

(٤٠) العلي ، المرجع السابق ص ٦٧ ٢. وانظرعن نشأة المحتسبين : رياض النفوس ، ج١ ص ٣٨١ وانساب الاشراف ، ج٤ ، ص ٧٨٦ « مخطوطة القاهرة ».

(٤١) القاسمي ، نظام الحكم ص ٥٩٢ . الزركلي، الاعلام ، ج٣ ص ٢٤٦.

(٤٢) العلي ، المرجع السابق ص ٢٦٧. الاغاني ، ج ١٧ ص ١٠٨ . مصعب الزبيدي ، نسب قريش ورقة ١٧٠ آ « مخطوطة كبودليان » .

(٤٣) العلي ،ص ٢٦٨ .. وانظر البلاذري ، انساب ج ٨ ص ٢٩٠. وكيع، اخبار القضاة ج١ ص ٣٥٣.

(٤٤) العلي ، ص ٢٦٨.

(٤٥) ابن سعد ، المصدر السابق ج٧ ق١ص ٦٥.

(٤٦) ابن سعد ، المصدر السابق ج٧ ق١ ص٧٠.المقدسي ، البدءوالتاريخ ج٦ ص ٥١-٥٢.

(٤٧) الطبري ، تاريخ ، ج ٧ ص ٢٠٢.

(٤٨) حسن ابراهيم حسن ، تاريخ الاسلام السياسي ج٢ ص ٢٧٠-٢٧١ .

(٤٩) الطبري ، تاريخ الرسـل ج٧ ص ٣١٤ . المسعودي ، مروج الذهب ، ج٢ ص ٢٣٢ . حسن ابراهيم حسن ، تاريخ الاسلام ، ج٢ ص ٢٧٠- ٢٧١.

(٥٠) جميل نخلة المدور ، حضارة الاسلام في دارالسلام ، القاهرة ١٩٣٢ ص ١٨ ١. حسن ابراهيـم حسن ، المرجع السابق ج٢ ص ٢١٨ -٢١٩.

(٥١) ابن سعد ، الطبقات ج٧ ص ٣٠-٦٥ . ابن‌حجر العسقلاني ، تهذيب التهذيب ، حيدر اباد الدكن ١٢٢٥- ١٣٢٧هـ / ١٩٠٧-١٩٠٩م،ج٥ ص ٤٣ . ويورد ابن الاخوة في معالم القربة ص ٢٧ والخطيب البغدادي في تاريخه ج١٢ ص٢٤٤ القول بان عاصم بن الاخول كان بالمدائن على الموازيـن والمكاييل يعني كان محتسبا ، وهذا يخالف ماأورده ابن سعد وابن حجر وغيرهم ، ولكن ابن سعد يذكر بانـه كان قاضيا في المدائن في خلافـةالمنصور . انظر : ابن سعد ، الطبقات ، ج٧ ص٦٥. وانظر كذلك ، الطبري ، تاريخ ، ج٧ ص٦٥٣ ، والخطيب البغدادي ، تاريخ‌بغداد ج١ ص٧٩-٨٠ . حاج ابراهيم الشيخلي ، الاصناف في‌العصر العباسي نشأتها وتطورهـا ، بغداد ١٩٧٦ ، ص ١٤٢ - ١٤٣ .

(٥٢) سيدو ، تاريخ العرب العام ، ص ٢٠٢وبهذايكون سيدو قد تناسى‌أو أغفل المحتسبين‌الذين عينهما المنصور للاشراف على الاسواق . انظر : الشيخلي ، المرجع السابق ، ص ١٤٣ .

(٥٣) السقطي ، اداب الحسبة ص٥.

(٥٤) عبد المنعم ماجد ، نظم الفاطميين ورسومهم‌من مصر ، ج١ ص ٦٣ ١، القاهرة ١٩٧٣ . حسن ابراهيم حسن ، تاريخ الدولة الفاطمية ط٣، القاهرة ١٩٥٨ ص ٣٢٥ .

(٥٥) الباز العريني ، المرجع السابق ، موسى‌لقبال، المرجع السابق ص٤ ٢. سيدة اسماعيـل الكاشف ، مصر في العصر الاخشيدي ط٢ ، القاهرة ١٩٧٠ ص ٢٤٠ ادم متز ، الحضارة الاسلامية ج٢ ص ٢٣٣. وانظر كذلك الشيزري ،ص١٢وما بعدها .

(٥٦) الكندي ، الولاة والقضاة ، بيروت ١٩٠٨ص ٥٣٩ « تولي ابي منصور تكين امر مصر لاول مرة سنة ٢٧٧هـ من قبل‌الخليفة العباسي المقتدربالله ، وتولى الامارة على مصر للمـرة الثانيـة سنة ٣٠٧ هـ ، وفي المرة الثالثة سنة ٣١١هـ»، انظر : الكندي ، الولادة ، بيروت ١٩٨٠ ،ص ٢٦٧-٢٧٦-٢٨٠ .

(٥٧) ابن الاخوة ، معالم ص ١٧.

(٥٨) الكندي ، الولاة ، ص ٥٢٩ . سيدة الكاشف ، المرجع السابق ص ٢٤٠.. وانظر ابن سعد، المغرب في حلى المغرب ، ليدن ١٨٩٨ - ١٨٩٩، ص ٨ ، والقسم الاول من الجزء الخاص بمصر نشره زكي محمد حسن القاهرة ١٩٥٣.

(٥٩) ابن زولاق ، اخبار سيبويه المصري ، القاهرة ط١ ١٩٣٣ م، ص ٢٩-٥٣-٥٧ . سيدة الكاشف، المرجع السابق ص ٢٤٠-٢٤١.

(٦٠) ابن زولاق ، المصدر السابق ص ٢٩.سيده كاشف ، نفس المرجع والصفحات .

(٦١) المقريزي ، الخطط عن طبعة بولاق ، ١٢٧٠هـ ج٣ ص ١٩٨ ، وج٢ ص ٢٢٧. القلقشندي ، الاعشى ج ٣ ص ٨٧ ٤. عبد المنعم ماجد ، نظم الفاطميين ص ١٦٣.

(٦٢) المقريزي ، الخطط ، ج٢ ص ٢٧٠. ابن اياس ، بدائع الزهور ، طبعة القاهرة ، ج١ ص٥٢. ابن حماد ، اخبار ملوك بني عبيد « تحقيق فوندر » ص٤١ . وانظر : عبد المنعم ماجد ، نظم الفاطميين ص ١٦٤.

(٦٣) ماجد ، المرجع السابق ص ١٦٥.

(٦٤) ماجد ، المرجع السابق والصفحة .

(٦٥) المقريزي ، الخطط ج٢ ص١٩٩.

(٦٦) المقريزي ، الخطط ج٢ ص ٢٨٥، ٣٤١ . الشيزري نهاية الرتبة ص ١٠٦ ، ١٠٧ . ابن الاخوة، معالم ، ص ١٧. ابن الاثير، الكامل ، ج٩، ص ١١٨. السيوطي ، حسن المحاضرة طبعة القاهرة ١٣٢٧هـ ، ج٢ ، ص ١٣ .

(٦٧) المقريزي، المصدر السابق ص ٣٥٤ ، حسن ابراهيم حسن ، الدولة الفاطمية ص ٢٢٢ .

(٦٨) راشد البراوي ، حالة مصر الاقتصادية في عهد الفاطميين ، القاهرة ١٩٤٨، ص ١٩٨.

(٦٩) المقريزي ، الخطط ج٢ ص ٢٢٧.

(٧٠) المقريزي ، المصدر السابق والصفحة .ماجد، نظم الفاطميين ص ١٦١-١٦٢ . حسن ابراهيم حسن ، الدولة الفاطمية ص ٢٢٢.

(٧١) ماجد ، المرجع السابق ص ١٦٩.

(٧٢) المقريزي ، الخطط ج٢ ص٢٢٧ . الشيزري،نهاية الرتبة ، ص ٣٦-٣٧ . ماجد ، المرجع السابق ص ١٧١.

(٧٣) ابن عساكر ، التاريخ الكبير ، مطبعة روضة الشام سنة ١٣٣٠هـ ،ج ٢ ص ٢٢٢.

(٧٤) ابن عساكر ، المصدر السابق والصفحة نفسها .

(٧٥) ناصر خسرو ، سفر نامة ، بيروت ١٩٧٠،ص ١٠٥ . زكي حسن ، كنوز الفاطميين ، القاهرة ١٣٥٦هـ ١٩٣٧م ، ص ١٠٣.

(٧٦) ناصر خسرو ، سفرنامة ، ص٨٦، ١٠١، ١٠٥، ١٠٦ . عبد المنعم ماجد ، ظهور خلافة الفاطميين وسقوطها ، القاهرة ١٩٦٨ ص ٢١٨ . وانظر : كذلك ابن تغري بردى ، النجوم الزاهرة ج٤

ص١٢٥ وما بعدها . المقريزي، اتعاظ الحنفاء، القاهرة ١٩٤٨ ، ص٢٤٥، ٢٥٠ . زكي حسن ،كنوز الفاطميين ، ص١٣٠ وما بعدها .

(٧٧) يحيى بن عمر ، احكام السوق « تحقيق حسن حسني عبد الوهاب تونس ١٩٧٥ ص ٣١. موسى لقبال ، المرجع السابق ص ٣٠. وانظر ، الحبيب الجنحاني، المغرب الاسلامي ، الحياة الاقتصادية والاجتماعية ، تونس ١٩٧٨ ، ص٧٠ .

(٧٨) المالكي ، رياض النفوس ، ج١ ، ص ١٠١. موسى لقبال ، المرجع السابق ص٣٦.

(٧٩) المالكي ، المصدر السابق ج١ ص ١٠٠-١٠٨ .موسى لقبال ، المرجع السابق ص ٣١.

(٨٠) انظر حاشية ٨٠و٨١.

(٨١) الشيخ البكري ، حوليات معهد الدراسات الشرقية ، الجزائر ١٩٧٥ ، ج ١٥، ص ٧١،٧٢ . موسى لقبال ، المرجع السابق ص٣٣.

(٨٢) موسى لقبال ، المرجع السابق ص٣٣.

(٨٣) يحيى بن عمر ، احكام السوق ، ص٢٢.وانظر : ابن عذاري المراكشي ، البيان ، المغرب في أخبار المغرب ، بيروت ١٩٤٧ - ١٩٥٠ ص٩٣ .موسى لقبال ، المرجع السابق ، ص ٣٩. « وهناك خلاف بين يحيى بن عمر وموسى لقبال في سنة تولية يزيد بن حاتم فيذكرها الاول سنة ١٥٥هـ والثاني سنة ١٥٦ هـ ، وكلاهما ينقل عن ابن عذاري المراكشي» .

(٨٤) يحيى بن عمر ، احكام السوق ص ٢٢.

(٨٥) ابن عذارى المراكشي ، المصدر السابق ج١ ص٩٣. يحيى بن عمر ، المصدر السابق ص٢٢.

(٨٦) موسى لقبال ، المرجع السابق ص ٣٩ «ويذكر ان البصرة مسقط راس يزيد ».

(٨٧) موسى لقبال ، المرجع السابق ص ٣٩.

(٨٨) حسن حسني عبد الوهاب ، ورقات في الحضارة العربية في تونس ، جزءان تونس ١٩٦٥- ١٩٦٦ج١ ص٥٨-٥٩. ليفي بروفنسال : الاسلام في المغرب والاندلس ، ترجمة ، عبد العزيز سالم ، القاهرة ١٩٥٦، ص٦٦. موسى لقبال ، المرجع السابق ص ٣٩-٤٠.

(٨٩) انظر ، ابو بكر المالكي ، رياض النفوس، نشر وتحقيق حسين مؤنس ، ١٩٥١م ص ٢٧٢-٢٧٣. يحيى بن عمر ، أحكام السوق ص ٢٢-٢٣. « وسحنون الذي أصبح قاضيا للقيروان هو ، ابو سعيد سحنون بن سعيد بن حبيب التنوخي، اصله من عرب الشمال وقد قدم ابوه سعيد مع الجند الشامي، من اهل مدينة حمص ، ولد بالقيروان سنة ١٦٠هـ ، وتتلمذ على يد علي بن زياد القيرواني » . انظر ،موسى لقبال ، المرجع السابق ص٤٠.

(٩٠) يحيى بن عمر ، المصدر السابق ، ص ٢٣-٢٤، ٣١ . موسى لقبال ، المرجع السابق ص٤٠-٤١.

(٩١) يحيى بن عمر ، المصدر السابق ، ص ٢٣-٢٤ ، ٢١-٢٢ . موسى لقبال ، المرجع السابق والصفحة .

(٩٢) يحيى بن عمر ، المصدر السابق ، ص ٢١-٢٢.

(٩٣) عثمان الكعاك ، مراكز الثقافة في المغرب ، القاهرة ١٩٥٨ ، ص ٢٣. حسن حسني عبد الوهاب المرجع السابق ، ج٢ ص ١٢٩. موسى لقبال ، المرجع السابق ص٤٥.

(٩٤) انظر : ابن الاخوة ، معالم ، ص ٣٦.المقري ، نفح الطيب في غصن الاندلس الطيب ، «القاهرة، ج١ ، ص ٢٠٤» . موسى لقبال ، المرجع السابق ، ص ٣٥–٣٦ . وانظر : السقطي ، في اداب الحسبة ص١–٢ .حسين مؤنس ، فجر الاندلس ، القاهرة ١٩٥٩، ص ٦٣٩.

(٩٥) المقري ، نفح الطيب ج١ ص ٢٠٢–٢٠٤. موسى لقبال ، المرجع السابق ص ٣٥.

(٩٦) موسى لقبال ، المرجع السابق ص٣٥–٣٦.« ربما تدل نسبة الجرسيفي الى جرسيف اوكرسيف على كونه من المغرب الاقصى وهاجر الى الاندلس ، وقد ورد ذكره في فهرس مخطوطات الرباط وله منظومة من الفرائض » فهرس ص ٢٩٥.

(٩٧) ابن الابار ، محمد بن عبد الله البلنسي ، تكملة الصلة، القسم المفقود من طبعة قديرة ، الجزائر ١٩١٩–١٩٢١ ــ نشر الفرنديل . ومحمد بن شنبا ، الحلة السمراء دراسة وتحقيق الطباع بيروت ص١٨ . وانظر : موسى لقبال ، المرجع لسابق ص ٣٦.

(٩٨) الماوردي ، الاحكام ، ص ٢٢٧–٢٤٥. ابن تيمية ، الحسبة في الاسلام ، ص ٢،٤،٦ ، ١٠ . الغزالي ، احياء علوم الدين ، القاهرة ١٣٥٢م ج٢، ص ٢٧٤.

(٩٩) انظر كتب الحسبة التي وردت في هذا البحث ، وانظر ، الماوردي ، الاحكام ص ٢٢٧–٢٣٠. بن بسام المحتسب ، نهاية الرتبة ص ١٧ومابعد . ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٢٢٥ ــ ٢٢٦ . و ٢٠١ طبعة دار الشعب .الشيزري ،نهاية الرتبة ص٣. وابن الاخوة ، معالم ص٧ . نقولا زيادة، الحسبة ص ٣٢–٣٤–٣٨. حسام السامرائي، المؤسسات الادارية ص ٣١٦.

(١٠٠) ابن خلدون ، المقدمة ص ٢٠١ ، ٢٢٥ ــ ٢٢٦ .

(١٠١) المصدر السابق والصفحات .

(١٠٢) يحيى بن عمر ، احكام السوق ، ص ١٠٣–١٠٤ . الشيزري ، نهاية الرتبة ، ص ١١ ــ ١٢ .ابن بسام ، نهاية الرتبة ص ٢٧–١٠٥ . نقولازيادة ، الحسبة ، ص ٢٨–٢٩.

(١٠٣) الشيزري ، نهاية الرتبة ، ص ١٦٢–١٦٧.يحيى بن عمر ، احكام السوق ، ص ١٠٣ . ابن بسام ، نهاية الرتبة ، ص٥،٢٢،٧٥. ابن الاخوة ، معالم ص٨٣–٨٤. ابن سعد ، الطبقات، ج٣ ، ص ٣٠ . ابن الجوزي ، المنتظم، ج٥ص ١٢٩–١٣٠ . الدوري ، المرجع السابق ص١٤١.

(١٠٤) الشيزري ، نهاية ص ١٢ . الناظر الاطروشي ، الاحتساب ، ص١٤ . ابن الاخوة ، معالم، ص ٦٤. حسام السامرائي ، المرجع السابق ص٢١٧–٢١٨.

(١٠٥) الشيزري ، نهاية ص ١٢ . ابن الاخوة ، معالم ، ص٦٥–٦٦ ابن ماجة، كتاب التجارات حديث رقم ٦ ــ الغزالي ، احياء علوم الدين ج٢، ص ٦٦–٦٧ . حسام السامرائي ، المؤسسات الادارية ص٢١٧–٢١٨.

(١٠٦) الماوردي ، الاحكام ، ص ٢٧ وما بعدها. ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٢٠١–٢١٤ . ابن قيم الجوزية ، الطرق الحكيمة ص٢٤٠ . حسن ابراهيم حسن ، الدولة الفاطمية ص ٢٢٢. نقولا زيادة ، الحسبة ، ص٣٩. موسى لقبال ، ص٢٣–٢٤.

(١٠٧) الشيزري ، نهاية المرتبة ، ص٨. ادم متز، الحضارة الاسلامية ، ج٢ ص٢٧٥ . موسى لقبال ص ٧٠–٧٢ . نقولا زيادة ، الحسبة ص ٣٨ومابعدها .

(١٠٨) ابن تيمية ، الحسبة ص٩.

(١٠٩) الشيزري ، نهاية الرتبة ص ١٤، ٢٩، ٣٧، ٤٢ وما بعدها . ابن الاخوة ، معالم ، ص ٧٩، ٩٩.

(١١٠) ابن الاخوة ، معالم ، ص٣٠ .

(١١١) ابن الاخوة ، معالم ، ص٣٠، ٣١ . القفطي، اخبار الحكماء ص ٩٨ ٢ .القزويني ، اثار البلاد واخبار العباد ص ٢٥٩. ياقوت ، معجم ج٢ص ٦ . موسى لقبال ، المرجع السابق ص٢٤.

(١١٢) الناظر الاطروشي ، الاحتساب ، ص١٧، ٢٩، ٣٠ . السامرائي ، المرجع السابق ص ٣٢٤.

(١١٣) ابن بسام ، نهاية الرتبة ص١٦١ ــ ١٦٢ . السامرائي ، المرجع السابق ص ٣٢٤ .

(١١٤) الماوردي ، الاحكام ، ص ٢٤١ . ابن الاخوة،معالم، ص ٢١.السامرائي ، المرجع السابق ص٣٢٥.

(١١٥) الشيزري ، نهاية ص١٥ ١. ابن بسام، المصدر السابق ص ٢١٥ــ٢١٦ السامرائي ، المرجع السابق ص ٢٢٥ــ٢٢٦

(١١٦) ابن بسام ، نهاية ص ١٢ــ١٣ . الشيزري،نهاية ص٨. النسائي ، كتاب الزينة ، حديث ،رقم ٤٠ . الترمزي ، باب اللباب، حديث رقم١.

(١١٧) ابن كثير ، البداية ج١ ١ص ٨٩. ابن الاخوة،معالم ، ص ١٩، ٢٠ . السامرائي ، المرجع السابق ص ٢٥ ٣.

(١١٨) الشيزري ، نهاية ص ٧ــ٨ . ابو شامة ، الروضتين في اخبار الدولتين ، القاهرة ، ١٢٨٧هـ، ج١ ص ٢٤. المقريزي ، السلوك ، ج١ ،ص٤٩ ٤. نقولا زيادة ، المرجع السابق ص ٣٢ . موسى لقبال ، ص ٢٤ــ٢٥.

(١١٩) الشيزري ، نهاية ص١١٥ .ابن بسام ،المصدر السابق ص ٢١٣ــ٢١٥.

(١٢٠) المصادر السابقة والصفحات .

(١٢١) الخطيب البغدادي ، تاريخ بغداد ج١ ،ص٧٨، ٧٩ . السامرائي المرجع السابق ، ص٣١٧.

(١٢٢) ابن بسام ، نهاية الرتبة ص١٥.

(١٢٣) محمد المبارك ، المرجع السابق ص ٧٥ــ٧٦.

(١٢٤) الماوردي ، الاحكام ص ٢٤٠ ــ ٢٤١ . «وقدميز بدقة بين المتطوع والمكلف واثبت تسع اوجه بينهما » . وانظر، الغزالي ، احياء علوم الدين ج ٢ ص ٣٠٨ حيث اشترط ثلاثة شروط في المحتسب ، التكليف ، والاسلام ، والقدرة. وانظر الاطروشي ، الاحتساب ص١١ . حيث عكس الناصر الاطروشي الزيدي اراء الزيدية في ان ياخذ المحتسب شعار اهل البيت ولا يولى منصب المحتسب الا عالم مجرب . وانظر ،الشيزري، نهاية الرتبة ص٦ . ابن بسام ، المصدر السابق ص١٠ . نقولا زيادة ، المرجع السابق ص٤١، ٤٢ . موسى لقبال، المرجع السابق ص٢٤، ٢٥.

(١٢٥) ابن الاخوة ، معالم ص ٧. الشيزري ،نهاية ص٦ . ابن بسام ، نهاية ص١٠ . موسى لقبال، المرجع السابق ص ٢٤، ٢٥ . نقولا زيادة ،المرجع السابق ص ٤١، ٤٢.

(١٢٦) الاطروشي ، المصدر السابق ص ١٣.

(١٢٧) الشيزري ، نهاية ص٦، ٨ . ابن الاخوة، معالم ص٨، ٩ .نقولا زيادة ، المرجع السابق ص ٤١ــ٤٢ .

(١٢٨) الشيزري ، نهاية ص ٦. ابن الاخوة ،المصدر السابق ص٩، ١١ .

(١٢٩) الشيزري ، نهاية ص ٦، ٧ . ابن بسام نهاية ص ١٠، ١١ .

(١٣٠) المصادر السابقة والصفحات .

(١٣١) الشيزري ، نهاية ص ١٠. ابن بسام ، المصدر السابق ص١٦ . وانظر ، ابو داوود ،كتاب الاقضية ، حديث رقم ٤. والترمزي ،كتاب، الاحكام ، حديث رقم ٩. وابن ماجة ، الاحكام، حديث ، رقم ٢. ابن الاخوة ، معالم ص١٥. ابن عبدون رسالته ص ٢٠ . سيدة الكاشف، ص٢٤١

(١٣٢) ابن الاخوة ، معالم ص ١٨٤٨ . ابو سالم،محمد بن طلحة الوزير ، ت٦٥٢هـ ، العقدالفريد للملك السعيد ، ص ١٧٩.

(١٣٣) الشيزري ، المصدر السابق ص ٧ . ابن بسام ، نهاية الرتبة ص ١٣،١٢ . ابن الاخوة ، معالم ، ص ١٣. الاطروشي ، الاحتساب، ص١١ .

(١٣٤) الشيزري ، نهاية ص٩ . ابن بسام ،المصدر السابق ص ١٢،١١،١٠. ابن الاخوة، معالم ص١٤.

(١٣٥) ابن الاخوة ، معالم ، ص ١٣ . الشيزري،نهاية ص٨ . الاطروشي، الاحتساب ، ص١٥.

(١٣٦) الشيزري ، نهاية ص ٨ ابن بسام ، نهايةص ١٣،١٢.

(١٣٧) نقولا زيادة ، الحسبة ، ص٥٥. وانظر ، حبيب الزيات ، الخزانة الشرقية ، بيروت ١٩٣٧. ج٢ ، ص ١٢٨،١٢٧.

(١٣٨) الشيزري ، نهاية ص١٥ ١ .دائرة المعارف الاسلامية ج٢ ص٧٥١.

(١٣٩) القلقشندي ، الاعشى ، ج٣ ص ٤٨٧ .عبدالمنعم ماجد ، نظم الفاطميين ورسومهم ص ١٧١، ١٧٢.

(١٤٠) المصادر والمراجع السابقة .

(١٤١) الشيزري ، نهاية ص ١٠، ابن الاخوة ، معالم ص ٢٠ ٢. ابن بسام ، نهاية الرتبة ص ١٥. القلقشندي ، الاعشى ، ج١٢ ص ٤٧١.

(١٤٢) الشيزري ، المصدر السابق ص ١٢. وكيع،اخبار القضاة ج١ ص ٢٤٧ . حسام السامرائي ، المرجع السابق ص٣٢٩ـ٣٣٠ .

(١٤٣) الشيزري ، المصدر السابق ص١٠ . ابن بسام ، المصدر السابق ص ١٥.

(١٤٤) الشيزري ، المصدر السابق ص ٣٨. ابن الاخوة ، معالم ، ص ٩٤. المقريزي ، السلوك ،ج٢ ص ٤١٤ ، ص ٤١٥. نقولا زيادة ، الحسبة،ص٣٧ .

(١٤٥) ابن الاخوة معالم ، ص ٢٠ . القلقشندي،الاعشى ، ج١٢، ص ٤٧١ .

(١٤٦) الشيزري ، نهاية الرتبة ص ١٠٩،٧ .وابن الاخوة ، معالم ص ١٩٥،٣٠ . الماوردي ، الاحكام، ص ٢٢٧، ٢٣١ . ابن تيمية ، الحسبةص٢٨، حسام السامرائي ، المرجع السابقص٣٣١.

(١٤٧) ابن الاخوة ، معالم ، ص ١٨٤ ، ١٨٥ .نقولا زيادة ، المرجع السابق ص ٢٧ ، ٣٨ .

(١٤٨) انظر ، عبد الرحمن بن نصر الشيزري ،نهاية الرتبة من طلب الحسبة نشر الوني ، القاهرة ، ١٩٤٦ .نقولا زيادة ، الحسبة والمحتسب في الاسلام ، ص٥ وما بعدها . اماكتاب احكام السوق ليحيى بن عمر فيعود الى اواخر العصر الاغلبي اي قرب نهاية القرن الثالث الهجري وهو كتاب نظري يعد افضل ما كتب في الحسبة، انظر،احكام السوق ليحيى بن عمر ، تحقيق حسن حسني عبد الوهاب ، تونس ١٩٧٥ .

لمن يرغب في المعرفة والاطلاع على معظم ماكتب عن الحسبة عليه العودة الى مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق ، مجلد ١٨، ١٩٤٣ـ١٣٦٢هـ،ص ٤١٧ ، بحث عن الحسبة في خزانة الكتب العربية لكوركيس عواد ، وانظر ، مجلة المقتبس ،دمشق ١٩٠٨ ـ مجلد ٣، ج٩ . ومحمد المبارك ، الدولة ونظام الحسبة عند ابن تيمية ، ص٧٨ وما بعدها . موسى لقبال الحسبة المذهبية في بلاد المغرب العربي ص ٢٥ ، ٦١ وما بعدها نقولازيادة ، الحسبة والمحتسب في الاسلام ص ٥،٤٤٥. ليفي بروفنسال ،الاسلام في المغرب والاندلس، ترجمة لطفي عبد البديع، القاهرة ١٩٥٦.

مؤسسة الطلبة في دولة الموحدين

فارس بوز
مرشح للدكتوراه

من ابرز السمات في التاريخ السياسي للمغرب ان معظم الدول التي نشأت به ، قامت على اساس اصلاح ديني ، زرع علماء الدين بذوره ، ثم جعلوا طلب الحكم ديدنا لهم لتحقيق خطة الدعوة التي اضطلعوا بها .

والدولة الموحدية التي عاشت فيما بين عامي ٥١٥هـ/١١٢١م(١) ٦٦٨هـ/١٢٦٩م ابرز مثال على ذلك .

والذي بذر بذرة هذه الدولة هو محمد بن تومرت عالم الدين الطموح، الذي تسمى بالمهدي واتخذ من عقيدة التوحيد اساسا لحركته الثورية ، فاصطبغت نتيجة لذلك الدولة الناشئة بالصبغة الدينية في مختلف المجالات ، وظهر عدد من المؤسسات الاجتماعية ـ السياسية التي تلبي المطالب الاساسية للدولة ، ومنها :

مجلس العشرة : وهو التنظيم الاجتماعي ـ السياسي الاول، ويشتمل على عشرة اشخاص عينهم المهدي بن تومرت من صحبه الاوائل .

مجلس الخمسين : ويشتمل على خمسين شخصا يمثلون القبائل المختلفة .

مجلس السبعين : وهو اوسع التنظيمات الاجتماعية السياسية شمولا .

كذلك اقام المهدي بن تومرت عددا آخر من المؤسسات التعليمية كان من أبرزها وأهمها شأنا مؤسسة الطلبة التي نحن بصدد الحديث عنها .

والمؤسسة هذه عبارة عن جهاز تربوي يحفظ المبادىء والاسس التي قام عليها صرح الدولة ويعمقها ويعمل على تهيئة الجو لتقبل الدعوة والدفاع عنها ونشرها داخل حدود الدولة وخارجها .

ويجب أن لا نفهم من اصطلاح (الطلبة) ما تعنيه هذه الكلمة في أيامنا المعاصرة(٢) من انهم صغار السن وفي مطلع حياتهم الدراسية ، لان جميع النصوص الموحدية اكدت انهم كانوا طبقة من الطبقات العليا في الدولة الموحدية ، وورد ترتيبهم في المكان الرابع بعد مجلس العشرة ومجلس الخمسين ومجلس السبعين ، وهم عند بعض المؤرخين الذين شكوا بوجود ما يسمى بمجلس السبعين في المرتبة الثالثة في ترتيب الطبقات(٣).

كان هؤلاء الطلبة ، بموقعهم في قمة مراتب الدولة بعد اصحاب ابن تومرت وخاصة الذين بايعوه منذ الايام الاولى لمسيرته الطويلة ، عمدة الدعوة الموحدية ، والمبشرين بمبادئها ، وكان ابن تومرت يهتم بتعليمهم ويلقنهم بنفسه عقيدة التوحيد ، وما ينبغي عليهم ان يتبعوه في اعمال الدعاية ،وربما كان يقوم بتدريبهم على استخدام اساليب المنطق والجدل والحجاج التي اطلع عليها في المشرق وبرع فيها حتى فاق فيها اهل زمانه على حد زعم البعض ، وبعد أن يتموا دراستهم وتدريبهم كان ابن تومرت يرسلهم في كثير من الاحيان الى قبائلهم لكي يوطدوا أسس الدعوة وينشروا تعاليمها في كل مكان يحلون فيه(٤) . وقد روى المؤرخون اسماء بعض هؤلاء الطلبة الذين اسدوا الى الدولة في عهد ابن تومرت خدمات جلى ، ومنهم ابو محمد عطية المنجصي الذي أوفده ابن تومرت لنشر الدعوة في غجدامة ، ولكن أهلها لم يتقبلوا فكر ابن تومرت وقتلوا مبعوثه ، فاعتبره ابن تومرت من الشهداء وصمم على الاخذ بثأره ، فأصدر أوامره باستباحة دماء هذه القبيلة واموالها(٥) .

انقلبت حركة الموحدين في عهد عبد المؤمن بن علي الى سلطة سياسية جمع زعيمها السلطات كلها بين يديه فأصبحت سلطته شبه مطلقة قريبة من سلطة الملوك(٦) ، وخضعت سلطات المجالس التي اقيمت في عهد سلفه والتي كانت قبلا اقرب ما تكون الى الشكل الديمقراطي ، وتحولت الى مجالس استشارية . وعلى الرغم من ذلك ظل عبد المؤمن وفيا لمبادىء استاذه المهدي بن تومرت ، فلم تفقد الدولة نتيجة لذلك صبغتها الدينية ، واستمرت على النهج الذي خطه المهدي لها . كما تابع سياسته التعليمية وبذل جهدا مشكورا لتقدم مؤسسة الطلبة ، فأمر باقامة أبنية خاصة بها أطلق عليها اسم (السقائف) ، وربما اقيمت هذه المنشآت العمرانية بعد استقرار عبد المؤمن في مراكش ، ومن المحتمل كذلك ان تلك السقائف جددت في عهد خليفتيه يوسف والمنصور ، وربما أضيف اليها عدد آخر من السقائف(٧) . ذكر ابن القطان(٨) أن السقائف المخصصة للطلبة والحفاظ اقيمت الى جانب سقائف اهل الخمسين وأهل الجماعة واهل الدار ، ومن المرجح أنها احتوت قاعات عديدة واسعة لتدريس الطلبة الذين جلبوا من مختلف أرجاء الدولة وتجاوز عددهم ثلاثة آلاف(٩) كما احتوت قاعات مخصصة للمكتبة وللمطالعة ، واماكن للنوم . ومن غير المستبعد كذلك أن يلحق بها ديوان خاص يرتبط بالبلاط ، اضافة الى الامكنة المخصصة لرئيس الطلبة والمدرسين وللعلماء المحاضرين فيها وغيرهم .

ان اقامة هذه المؤسسة قريبا من البلاط ومن سقائف اهل الجماعة واهل الخمسين(١٠) وغيرهم يدل على الاهتمام الكبير الذي أولاه لها الخلفاء ، ويروى أن عبد المؤمن بن علي كان يشرف بنفسه على شؤون مؤسسة الطلبة ، وكان يدخل الطلبة الدارسين الى قصره لتدريبهم وارشادهم ، ويحرص على أن تكون مواد الدراسة منوعة تجمع بين التدريس العلمي النظري والعملي(١١) ، ولنا أن نفترض ان أبناء الطبقات العليا في المجتمع الموحدي كان لهم أفضلية الانتساب الى هذه المؤسسة .

اهداف مؤسسة الطلبة :

كان هدف عبد المؤمن من الاهتمام بهذه المؤسسة الدينية السياسية التي بدأ بانشائها ابن تومرت تأسيس حزب مثقف ناضج يدين أعضاؤه بالولاء والطاعة لشخصه، نظرا لارتباطهم به اقتصاديا واجتماعيا ، ولتخريج موظفين يستعين بهم ويأتمرون بأمره شخصيا ويعترفون بفضله فيندبهم للقيام بمهام ادارية وعسكرية وثقافية ، ولعله في ذلك قد اتبع سياسة ابن تومرت في جلب الاتباع وربطهم بشخصه ، فيعينهم في مناصب حكومية رفيعة بدلا من اشياخ المصامدة أصحاب النفوذ القوي الذين قد يحدون من سلطته الواسعة وينازعونه الحكم . قال صاحب الحلل : « لما كمل المراد فيهم عزل بهم اشياخ المصامدة عن ولاية الاعمال والرياسة وقال: العلماء أولى منكم فسلموا لهم الامر وابقاهم للمشورة(١٢) .

أما **الخدمات** التي قدمتها المؤسسة للدولة فقد كانت كثيرة جدا ، فالى جانب اعدادها الموظفين المتعلمين الاكفاء ، قامت بدور كبير في نشر الفكر الديني السياسي(١٣) الذي رسمه عبد المؤمن في ارجاء الدولة الواسعة .

ذكر المؤرخون ان عبد المؤمن عندما توجه لفتح افريقية جاءه والي صفاقص عمر ابن الحسين مع جماعة من اشياخ المدينة فقدموا له الطاعة ، فعين لهم حافظا من الموحدين ، وترك الشؤون المخزنية لعمر(١٤) وذكر ابن صاحب الصلاة : انه بعد فتح المهدية ارسل عبد المؤمن كتبه بالفتح ، وأمر ان يكتبه الناس وأن يحفظه الطلبة(١٥) . . لكي يتلوه من فوق المنابر ويعلموه للناس وينفذوا ما جاء فيه . فيساهموا بذلك في تحقيق الاهداف التي رسمها ، ويتبين ذلك بوضوح من الرسائل الموحدية(١٦) .

وساهمت المؤسسة في الاعمال العمرانية التي اقيمت في المغرب والاندلس، فعندما قرر الخليفة عبد المؤمن انشاء مدينة كبرى في جبل طارق لتكون منزلا له عند اجازته بالعساكر الى الاندلس ، ارسل كتابا الى والده ابي سعيد عثمان والي غرناطة ، بأن يسير بنفسه من المدينة مع صحبه وبعض عسكره الى جبل طارق ، وان يجتمع فيه بالطلبة الوافدين من اشبيلية وغيرها ، وان يدرس الجميع خطط المدينة الجديدة(١٧) .

كذلك قدمت مؤسسة الطلبة خدمات جليلة للدولة في المجال العسكري بما وفرته للطلبة الدارسين من علوم عسكرية في مناهجها وتدريبات ميدانية برية وبحرية(١٨) ، وفي غالب الاحيان كانت تسند اليهم مهمات قتالية بعد تخرجهم ، كما حصل عندما استناب السيد ابو يعقوب بأشبيلية من طلبة الموحدين من ينوب عنه لمحاربة أهل قرمونة أصحاب ابن همشك الثائر عليهم(١٩) .

كذلك كلف الطلبة بمهمات قتاليةخاصة ،كالتي قام بها طلبة سبتة حين شنوا هجوما بحريا على مدينة المرية بقيادة احدهم (ابو محمد عبد الله بن سليمان) وتمكنوا من الحاق الهزيمة بالاسبان (النصارى) واسروا بعض السفن الحربية واضرموا النار في منشآت الميناء وعددا من السفن الاخرى، وغنموا عددا من الآلات الحربية التي يستخدمها الاسطول الاسباني(٢٠) .

ومن الطلبة الذين اسند اليهم قيادة الاعمال العسكرية الحافظ ابو علي بن تمصيلت الذي كان من كبار قادة الموحدين وظل متنقلا بين الاندلس والمغرب في خدمة الدولة ، ثم عينه الخليفة واليا على مدينة باجه عام ٥٧٠هـ/١١٧٣ بعد أن رممت المدينة،وقد أسر فيما بعد بصحبة ابن وزير(٢١)واستشهد وهو يرسف في قيوده واغلاله عام ٥٧٤هـ/١١٧٨م(٢٢) .

وقام الطلبة أحيانا بدور المستشارين العسكريين للخليفة ، يساهمون في وضع الخطط القتالية ويبدون الآراء ويقدمون المعلومات التي يجمعونها عن الاعداء واستعداداتهم ، وربما كانوا يتولون في بعض الاحيان قيادة طلائع الجيش في مناطقهم . ذكر ابن صاحب الصلاة انه في شهر ذي القعدة عام ٥٥٥هـ/نوفمبر ١١٦٠م . عبر الخليفة من مدينة سبتة الى الاندلس ونزل في جبل طارق ليجتمع بالطلبة الموحدين الذين فيها وينظر كيف يكون غزو الروم والمحاربين في نواحيها(٢٣) .

وهكذا قدمت المؤسسة خدمات بالغة الاهمية للدولة وحققت جميع المهمات التي نيطت بها .

مكانة الطلبة :

نال الطلبة في عهد عبد المؤمن مكاسب كثيرة غبطهم عليها اشياخ الموحدين اصحاب النفوذ الذين قامت الدولة على اكتافهم ، وبخاصة بعد أن عزم على التخلص من الاشياخ بطريقة شرعية مبرورة ، وحرص على اعلاء مكانتهم الاجتماعية بتعيينهم في مراكز مرموقة في الدولة ، وعن طريق استشارتهم في جليل الاعمال وتوجيه الرسائل اليهم حيثما وجدوا . ذكر ابن صاحب الصلاة انه عندما وصلت انباء الانتصار الذي حققه الجيش الموحدي على ابن مردنيش الى مراكش امر الخليفة بادخال الطلبة الى القصر لسماع الكتاب الواصل بالبشرى والفتح ، وقد قراه الفقيه ابو محمد المالقي شيخ الطلبة على جميع من حضر، ثم قرىء فيما بعد في جميع مساجد المغرب والاندلس(٢٤) .

وكانت الرسائل توجه عادة اليهم مباشرة دون الولاة والشيوخ او قبلهم في كثير من الاحيان ، كما في الرسالة التي وجهها الخليفة عام ٥٦٤هـ/١١٦٨م الى الطلبة

الموحدين في جزيرة الاندلس يحثهم فيها على التمسك بمبادىء التوحيد والعمل بتوجيهاته في السلم والحرب والاستعداد للجهاد ضد الاعداء(٢٥) .

وقد ارتفعت مكانة الطلبة في عهد خلفاء عبد المؤمن وازداد نفوذهم ، ولعبوا ،مع الايام ، دورا كبيرا في سياسة الدولة الدينية والسياسية والثقافية، حتى ظن المؤرخون انهم كادوا يسببون للدولة هزيمة نكراء بسبب انشغال الخليفة يوسف اثناء القتال بالاجتماع بهم ومناقشتهم ، وتفصيل ذلك : انه في المعركة التي دارت بالقرب من مدينة وبذة كان القائد الاندلسي ابو العلاء بن عزون على رأس القوة الاندلسية، يحاول الثبات أمام القوات القشتاليةفيالجهة الغربية منالمدينة، وعندما عجز عنذلك قدم على الخليفة طالبا منه المدد والعون، فأعرض الخليفة يوسف عنه ولمينهض من مجلسه يقود حرسه الخاص ليحسم المعركة ، لانشغاله في قبته بالمناقشة مع الطلبة – مع ان الهدف من عبوره الى الاندلس كان من اجل الاشتراك في هذه المعركة ، وقد أعد لها العدة وحشد الجنود والمؤمن في المغرب والاندلس – وبقي في المجلس الذي ضم كما ذكر ابن صاحب الصلاة(٢٦) ، الى جانب الطلبة العديد من الشخصيات « فعلاوة على أخيه ابي حفص يوجد ابن الجد وعبد الله المالقي وجده لامه عيسى بن عمران والقاضي ابن الصقار والفيلسوف الكبير ابن رشد»(٢٧) .

وهذه الرواية لا تقدم الدليل على ان تلك المؤسسة كادت ان تؤدي الى هزيمة الدولة في تلك المعركة ، ولكنها تثبت فقط حب يوسف للعلم من جهة وتفضيله للمجالس العلمية على الامور العسكرية ، والشيء الوحيد الذي يمكن أن تثبته الرواية هو عدم تقدير الخليفة يوسف للاوضاع العسكرية في جبهة القتال حق قدرها ، أو لثقتهالمطلقة بالقائد الاندلسي ابن عزون الذي اشتهر في المعارك التي قادها ضد الاسبان في شبه الجزيرة وعرف بصدق عزيمته وثباته في القتال ، وهذا لا ينفي مسؤولية الخليفة عما وقع .

وقد بلغ نفوذ الطلبة شأوا عظيما في عهد المنصور ونالوا على يديه ما لم ينالوهأيام ابيه وجده ، حتى تبرم الناس بهم ونقموا عليهم حظوتهم ونفوذهم لدى الخليفة .ولما بلغ المنصور موقف الموحدين منهم قال « يا معشر الموحدين ، انتم قبائل ، فمن نابه منكم امر فزع الى قبيلة ، وهؤلاء الطلبة لا قبيل لهم سواي ، فمهما نابهم أمر ، فأنا ملجؤهم ، والي فزعهم ، والي ينتسبون »(٢٨). قال المراكشي : ومنذ ذلك اليوم عظم امر الطلبة وبالغ الموحدون في التقرب اليهم واكرامهم اسوة بالمنصور الذي كان (يجزل صلتهم ويجري المرتبات على الفقهاء والطلبة وفقا لمرتباتهم وطبقاتهم ..) بل ان تلك المرتبات فاقت ما كان يقدمه الخليفة للاطباء والمهندسين والكتاب عن خدماتهم الجليلة للدولة في الميادين المختلفة(٢٩) . فشعر الطلبة أنهم اصحبوا طبقة لها مكانتها وتأثيرها على الخليفة والخلافة ، وأن لهم مصالح ومكتسبات يجب المحافظة عليها

فحرصوا ان يقفوا صفا وأحدا متضامنا للحفاظ على امتيازاتهم ونفوذهم في الدولة ، وجابهوا بحزم كل من لم يكن على رأيهم من المفكرين ، بل انهم لجؤوا احيانا الى اثارة العامة على الفلاسفة ونظروا اليهم كزنادقة وملحدين ، ولم يحجموا عن أن يطلبوا من الخليفة نفسه ان يمعن في التضييق على رجال الفكر وعلى راسهم ابن رشد الذي لمع نجمه في العالم الاسلامي والاوربي واصبح مقربا من الخليفة ومستشاره في كثير من الامور الهامة ، فارادوا تصفيته لانهم اعتبروا وجوده في البلاط من اكبر الاخطار التي تواجههم .

بقي ان نذكر ان المقدم على طلبة الحضر في عاصمة الدولة مراكش ، كان يختاره الخليفة من كبار العلماء في العدوتين المغربية والاندلسية ، وقد تولى هذا المنصب علماء أجلاء أمثال عبد الله بن محمد بن عيسى الانصاري المالقي الذي تمتع بمكانة مرموقة في البلاط الموحدي وأسند اليه الخليفة عبد المؤمن منصب شيخ طلبة الحضر(٣٠) ، وابو الحسن الاشبيلي الذي قلد هذا المنصب بعد أبيه ، وكان قد درس في اشبيلية وغيرها من المدن في الاندلس ثم عبر العدوة الى المغرب واستقر في مراكش ، فندبه الخليفة يوسف لرئاسة طلبة الحضر ونال في ظل رعايته الجاه والثروة وكان أمينه ووزيره حتى وفاته عام ٥٧٤هـ / ١١٧٨م(٣١) وابن القطان ابو الحسن علي بن عبد الملك بن يحيى الكتامي(٣٢) ، والد ابن القطان صاحب كتاب نظم الجمان ، من اهالي مدينة فاس واصله من الاندلس من مدينة قرطبة ، وكان من أبرز الشخصيات العلمية والسياسية التي تولت رئاسة الطلبة في الحضرة مراكش وأحد اكبر دعاة الموحدين ، ومن أشهر رجال الدولة الذين اسند اليهم الخلفاء أكبر وأرفع المناصب الدعائية في الدولة .

وقد تعرض ابن القطان للاحقة واضطهاد المأمون الذي نسف الاسس التي قامت عليها دعوة ابن تومرت من جذورها وأعلن بدء ثورته الدينية ـ السياسية ، التي هدفت الى تجديد الدولة بحقنها بدماء فتية شابة بعد أن هرمت ودب الفساد في اوصالها، لذلك غادر ابن القطان مراكش خوفا من بطش المأمون الذي لا حق جميع رجالات العهد البائد الذين جعلوا من انفسهم ابواق دعاية ونشر لمبادىء التوحيد متخذين من حماستهم للدعوة سلما الى الجاه والسلطان ، وقد عرف اصحاب التراجم عنه هذه الوصولية، وعبروا عنها بقولهم : (ونال بخدمة السلطان دنيا عريضة .).

وقد التجأ ابن القطان بعد مغادرته مراكش الى سجلماسة وعمل في خدمة يحيى ابن الناصر الذي نازع المامون الحكم وتوفي وهو يتولى قضاء المدينة ٦٢٨هـ/١٢٣١م. وتجدر الاشارة كذلك الى ان ابن القطان كان ، الى جانب شهرته في ميدان السياسة ، من العلماء الثقات الذين لمع نجمهم في علوم مختلفة فقد « كان من ابصر الناس بصناعة الحديث ، واحفظهم لاسماء رجاله ، واشدهم عناية بالرواية .» . من مؤلفاته كتاب شرح الاحكام لعبد الحق ومقالة في الاوزان وبرنامج شيوخه وغير ذلك من المؤلفات .

ومن الاعمال التي كان يقوم بها شيخ طلبة الحضر ، الى جانب الاشراف على المؤسسة من كل النواحي ، تقديم الطلبة النابهين الذين يقدمون خدمات جليلة للدولة الى مجلس الخليفة ، ليقوم بالانعام عليهم باصدار مراسيم خاصة تقديرا لجهودهم وولائهم . من هؤلاء ابن صاحب الصلاة الذي ارخ للدولة الموحدية في كتابه « المن بالامامة » ، وابي العباس المجريطي القرطبي ، وأبي الاصبغ عبد العزيز بن عبد العزيز الاشبيلي(٢٣) .

شروط الانتساب للمؤسسة :

١ ـ تقارب السن : وهو احد الشروط الاساسية لانجاح العملية التربوية .وقد طبق الموحدون هذا المبدأ التربوي الذي يقضي باختيار الطلبة المتقاربين في الاعمار لوضعهم في شعب خاصة وضمن مستويات متعددة في جميع المعاهد التي قاموا بانشائها . وهذا ما أكده ابن القطان في معرض حديثه عن اهتمام عبد المؤمن بالطلبة « كانهم ابناء ليلة من المصامدة »(٢٤) . وهذا المبدأ يأتي اليوم على رأس قائمة الاسس التربوية التي تعتمدها الدول الحديثة في ميدان التربية والتعليم .

٢ ـ الاهلية العلمية والاجتماعية : ويقصد بها التأكد من قدرات الطلبة العلمية والجسدية ، بامتحانهم من قبل العلماء والولاة في الاقاليم المختلفة قبل ارسالهم الى العاصمة لمتابعة دراساتهم العليا . وهذه الشروط كان يلح عليها دائما الخليفة عبد المؤمن في الرسائل التي كان يوجهها الى عماله في المغرب والاندلس وذلك بأن يختاروا « طلبة امناء وان يكونوا من الذين يراقبون ويحافظون ولا يراعون في حقوق الله ولا يداهنون »(٢٥) .

اساليب التدريس : ومنها :

١ ـ التدرج بتعليم الطلبة من المستوى الادنى الى الاعلى(٢٦) ، وهذا ما يمكن ان نستنتجه من النص الذي اورده ابن ابي أصيبعة عن اساليب التدريس في الجوامع والمعاهد العلمية في عهد الموحدين ، « كان الحفيد ابو بكر بن زهر قد اتى اليه من الطلبة اثنان ليشتغلا عليه بصناعة الطب، فترددا اليه ولازماه مدة ، وقرءا عليه شيئا من كتب الطب ، ثم انهما اتياه يوما وبيد احدهما كتاب صغير في المنطق . .وكان غرضهما ان يشتغلا فيه ، فلما نظر ابن زهر الى ذلك الكتاب قال : ما هذا ؟ ثم اخذه ينظر فيه . فلما وجده في علم المنطق رمى به ناحية ، ثم نهض اليهما حافيا ليضربهما ، فبقيا منقطعين عنه اياما لا يجسرون ان يأتوا اليه . ثم انهم توسلوا الى أن حضروا عنده واعتذروا . . وقبل معذرتهم واستمروا في قراءتهم عليه صناعة الطب .ولما كان بعد مدة مديدة امرهم ان يجيدوا حفظ القرآن ، وان يشتغلوا بقراءة التفسير والحديث والفقه ، وان يواظبوا على مراعاة الامور الشرعية والاقتداء بها ولا يخلوا بشيء من ذلك . فلما امتثلوا امره

واتقنوا معرفة ما أشار اليه عليهم ، وصارت لهم مراعاة الامور الشرعية سجية وعادة قد ألفوها ، كانوا يوما عنده واذا به قد أخرج لهم الكتاب الذي كان رآه معهم في المنطق وقال لهم : الآن صلحتم لان تقرؤوا هذا الكتاب وأمثاله عليّ وأشغلهم فيه »(٢٧) .

وهذه الرواية على غاية من الاهمية وان صح العمل بها في جميع المعاهد العليا فان الموحدين يكونون بذلك قد سبقوا في الاخذ بهذا المبدأ بالتدريج بالتعليم من المستوى الادنى الى المستوى الاعلى ، لانه لا يجوز تقديم المعلومات التي يتطلب فهمها جهدا فكريا كبيرا ، وبخاصة الفلسفية منها ، الا بعد تهيئة اذهان الطلبة واعدادهم اعدادا مناسبا.

٢ ـ حرية اختيار الاستاذ الذي يقرؤون عليه : وهو الاسلوب المتبع في الجامعات الحديثة المخصصة للدراسات العليا في عصرنا الحاضر ، الا أن هذا الامر قد طبق في العصر الموحدي في المعاهد المختلفة الرسمية منها والشعبية ، وهذا ما نستنتجه من كتب التراجم العديدة التي أشارت الى حرية الطالب في أخذ العلم عن الاساتذة والشيوخ الذين هم في رأيه اقدر من غيرهم على الفائدة(٢٨). ذكر صاحب صلة الصلة أن طلبة مدينة سبتة كانوا يتلقون العلم على استاذها ابي علي الرندي حتى ورد الى المدينة الاستاذ أبو علي ابن عاشر ، « فمال اليه الطلبة ورغبوا به ، لانه على حد زعمهم أبسط عبارة من الرندي ،واسهل القاء »(٢٩) .

٣ ـ حرية المناقشة والتعبير عن الرأي : كان الطلبة يتمتعون بحرية المناقشة مع الاساتذة في الامور الدينية والعامة . كما كان لهم الحق بأن يطرحوا بعض المسائل العلمية وأن يطلبوا الاجابة عليها . وقد سمح لهم بالتبسط بالاسئلة لتشمل المواضيع العلمية كافة. وكان الاساتذة يناقشون الطلبة ويستمعون الى وجهات نظرهم المختلفة . الا ان بعض الاساتذة كان يتبرم بالطلبة وبأسئلتهم التي لا تنقطع .

٤ ـ ربط الرياضة بالتعليم :ولعلهم في هذا المبدأ استلهموا قول الرسول (ص) بأن لبدن الانسان عليه حقا ، أو ربما اقتبسوه عن المفكر الغزالي في كتابه (احياء علوم الدين) الذي لقي انتشارا واسعا في المغرب والاندلس في عصر الموحدين . ومن القضايا التربوية التي عالجها الغزالي في كتابه ضرورة تعويد الطلبة الدارسين على ممارسة التمارين الرياضية وذلك لاهميتها في مجال التعليم ، فقال ان الطالب « يجب ان يعود في بعض النهار المشي والحركة والرياضة حتى لا يغلب عليه الكسل .. وان يؤذن له بعد الانصراف ان يلعب لعبا جميلا يستريح اليه من تعب الكتب .. فان ارهاقه الى التعليم دائما يميت قلبه ، ويبطل ذكاءه ، وينغص عليه العيش حتى يطلب الحيلة في الخلاص منه (٤٠) . وقد عمل الموحدون بروح هذا النص في مؤسستهم التربوية هذه وذلك بتخصيص اوقات لممارسة التمارين الرياضية والمهارات البدنية المختلفة كرياضة السباحة والرمي والتجديف وركوب الخيل وغيرها(٤١) .

٥ ــ مبدا المكافاة والعقوبة : ادرك المربون الذين أشرفوا على هذه المؤسسة أهمية المكافاة كحافز يدفع الطلبة للاقبال على التعلم والتفوق في المواد الدرسية المختلفة، فكانوا يقدمون الهدايا والجوائز التشجيعية للمتفوقين من الطلبة(٤٢) اضافة الى التقدير المعنوي كالثناء عليهم امام الخليفة والامراء(٤٣) وهو امر لا يقل أهمية عن سابقه . كذلك ادركوا ان استخدام العقوبة في غير مكانها المناسب قد يؤدي الى الحاق الضرر البالغ بالطلبة واحباط هممهم ودفعهم الى اتباع سلوك خاطىء ، لذلك كانوا يأخذونهم بالاساليب التربوية كالتنبيه على انفراد او العتاب الرقيق قبل ان يتدرجوا معهم في العقوبة. ذكر ابن القطان(٤٤) هذه المبادرة التربوية عند حديثه عن الحفاظ الذين استقدمهم عبد المؤمن الى مراكش وأشرف على تربيتهم وفق الاسس التي أشرنا اليها بقوله : (فتأدبوا بهذه الآداب تارة بالعطاء ، وتارة بالادب .).

مناهج الدراسة :

كانت الدراسة في هذه المؤسسة تقوم على دراسة العلوم المختلفة ، واهمها :

١ ــ العلوم الدينية(٤٥) : وتشمل علم الاصول بما فيه الناسخ والمنسوخ وعلوم القراءات وعلوم الحديث ، وعلم الفقه اضافة الى ما يسمى بعلوم الامام المهدي. واشهر الكتب التي كان يدرسها المختصون في هذه العلوم :

في الحديث والسيرة : صحيح البخاري ومسلم ، ومسند البزار الكبير ، وسنن الترمذي ، وسنن النسائي ، وسنن أبي داوود ، والشهاب للقضاعي المسمى بشهاب الاخبار في الحكم والامثال والاداب من الاحاديث النبوية للقاضي ابي عبد الله محمد بن سلامة القضاعي ، وكتاب الموطأ للامام مالك ، وسيرة ابن اسحاق وغيرها(٤٦) .

وفي الفقه والتصوف : الاحاديث التي جمعها ابن تومرت في الطهارة(٤٧)، واحاديث الصلاة التي أمر يعقوب(٤٨) بجمعها، والاحكام الصغرى لعبد الحق، وتآليف عباد بن برجان في الفرائض والبرهان لامام الحرمين ، وكتاب ابن يونس ، وتهذيب البراذعي للمدونة ، ورجز ابن الكتاني وغيرها . ومن كتب التصوف كتاب «الاحياء» للغزالي وغيره(٤٩) .

ومن الكتب التي اعتبرت تابعة لعلوم المهدي بن تومرت : عقيدة التوحيد (المرشدة)(٥٠) التي الفها ابن تومرت باللغة العربية ، وكتاب أعز ما يطلب ، الذي ضم عددا كبيرا من مؤلفات ابن تومرت التي ألفها باللسانين العربي والغربي(٥١) .

٢ ــ **علوم اللغة العربية وآدابها :** وتشمل علوم النحو والصرف والعروض، وكل ما يمت لهذه العلوم بصلة . وقد اعتبرها الموحدون المفتاح الحقيقي لمعرفة اسرار كتاب الله ، ومنها : كتاب سيبويه ، ومقدمة الجزولي المسماة بالقانون ، ومقصورة ابن دريد بشرح ابن هشام السبتي، وغيرها ، كما أنه لا يستبعد تدريس مؤلفات ابن السيد

البطليوسي النحوي وابن الباذش وابن الطراوة وغيرهم من النحويين الذين نبغوا في العصر المرابطي وغيره . ومن كتب الادب : مقامات الحريري ، وكتاب الاغاني ، وديوان صفوة الاداب المعروف « بحماسة الجراوي » للشاعر المغربي الجراوي وغيرها من كتب الادب ودواوين شعراء العرب التي الفها المشارقة وغيرهم .

٣ ـ **العلوم الرياضية** : وتشمل الحساب والجبر والهندسة . ومن الكتب المخصصة لدراسة تلك العلوم : لب اللباب في مسائل الحساب لابن الحسن بن ابي فرحون القيسي ، ومنظومة ابن الياسمين في الجبر وغيرها(٥٢) . ولا يستبعد كذلك أن يتم تدريس بعض المؤلفات التي تعنى بعلم الهندسة والفلك لان كثيرا من النصوص الموحدية أوردت لنا الكثير عن معرفة الطلبة بأمور الهندسة المعمارية واختيار المواقع التي تنفذ عليها خطط المدن الجديدة وغير ذلك(٥٣) .

٤ ـ **العلوم العسكرية** : على الرغم من ان المصادر العائدة للعصر الموحدي والعصور التي تلته لم تشر الى المؤلفات العسكرية والجغرافية التي كان يتدراسها الطلبة ، الا انه من غير المعقول ان يتلقى الطلبة تدريبات عسكرية ميدانية دون اعطائهم معلومات نظرية كافية تتعلق بالعلوم العسكرية وفن القتال الذي اشتهر به الجيش الموحدي(٥٤)، خاصة وأن من بين المهمات التي ستلقى على عاتق هؤلاء الطلبة بعد تخرجهم مهمة قيادة الجيوش واختيار المواقع والطرق الحربية التي يسيرون عليها الجيوش وغير ذلك(٥٥). وهي بهذا اهتمت بتدريب الطلبة على كل المهارات الضرورية مثل: التدريب على ركوب الخيل ، التدريب على الرمي بالاسلحة المختلفة ، التدريب على السباحة في كافة الظروف ، والتجديف وقيادة القطائع البحرية والنهرية المختلفة .

وتجدر الاشارة الى أن جميع مواد الدراسة كانت بالعربية لانها لغة التعليم الرسمية في مؤسسة الطلبة وفي جميع المدارس والمساجد التي اقامها الموحدون في المغرب والاندلس .

وقد أورد ابن القطان في معرض حديثه عن اهتمام عبد المؤمن بالطلبة نصا يلقي الضوء على مناهج هذه المؤسسة : « وكان يدخلهم (عبد المؤمن) داخل القصر فيجتمع الحفاظ فيه وهم نحو ثلاثة الاف كانهم أبناء ليلة من المصامدة وغيرهم ، قصد بهم سرعة الحفظ والتربية على ما يريد ، فيأخذهم يوما بتعليم الركوب ويوما بالرمي بالقوس ويوما بالعوم في بحيرة صنعها خارج بستانه، مربعة طول تربيعها نحو ثلاثمائة باع، ويوما يأخذهم بأن يجذفوا على قوارب وزوارق صنعها لهم في تلك البحيرة ، فتادبوا بهذه الآداب تارة بالعطاء ، وتارة بالادب »(٥٦).

وكان الخليفة عبد المؤمن يشرف على هذه المدرسة ويقوم احيانا بالتدريس والقاء التوجيهات المناسبة وشرح بعض المسائل المشكلة ، ويامر الطلبة ان يحفظوا القرآن وكتب

التوحيد ، وان يطلعوا على الكتب المختلفة في شتى انواع المعرفة(٥٧) . كما كانت الشعائر الدينية تقام في وقتها المحدد ، لا يمنع من اقامتها سفر او غزوة ، واعتادوا في الايام الاولى ان يوزعوا القرآن الكريم احزابا ليقرؤوا منه يوميا حصة معينة(٥٨) .

تطور مؤسسة الطلبة :

تطورت هذه المؤسسة مع الايام نتيجة لاهتمام الخلفاء بها من ناحية ، ولتعدد المهمات التي نيط تحقيقها بها ، نتيجة لتوسع الدولة وتطورها في جميع الميادين السياسية والعسكرية والاقتصادية من ناحية اخرى . ولم يعد الاهتمام مقتصرا على القضايا المتعلقة باقامة هؤلاء الطلبة وتأمين العيش الكريم لهم داخل المؤسسة ، بل أصبح يتناول احوالهم المعاشية خارج المؤسسة،اي تأمين فرص العمل لهم بعد تخرجهم بايجاد العمل المناسب لكل منهم وفق امكاناته وقدرته الشخصية . بل ان عبد المؤمن، الخليفة الاول ، ذهب الى ابعد من ذلك فدفع لكل منهم قرضا من مال المخزن يتجر به، فتاجروا واثروا . ولم يسترد منهم القروض(٥٩) .

ذكر ابن عذاري أن عبد المؤمن بعد ان استقر في مدينة مراكش « وفد اليه من كان يواليه من الطلبة الحضر واستقروا عنده ، فدخل عليه يوما محمد المالقي (شيخ طلبة الحضر) فرآه دون ثياب ترضيه فقال لاشياخ طلبة الموحدين : هؤلاء الطلبة عرايا ضعفاء ، فنرى أن تدفع لهم مالا نقارضهم به ويتجرون فيه ، فقالوا : نعم ، فأسلف من مال المخزن لكل واحد منهم ألف مثقال ، فاكتسوا منها وأصلحوا بها على انفسهم، ولم يأخذها منهم ابدا »(٦٠) .

واستمر الاهتمام بالاوضاع الاقتصادية والاجتماعية للطلبة في عهد خلفاء عبد المؤمن فعمل ابو يعقوب يوسف وابو سعيد ابناه على اكرام الطلبة وتحسين اوضاعهم المادية بتسجيل اسمائهم في لوائح الجند من أجل الحصول على الرواتب والمنح التي تقدم لافراد الجيش ، وخاصة أثناء فراغهم من الغزوات أو بعد فتحهم للمدن المحاصرة ، أو بعد استعادتهم المدن التي كانت بحوزة الاسبان في الاندلس . ذكر ابن صاحب الصلاة(٦١) أن ابني عبد المؤمن « قد أحسنا للطلبة من أهل قرطبة فأثبتا أسماءهم في زمام العسكرية للمواساة » . ومن المعلوم ان خلفاء الموحدين كانوا قد اسقطوا السلاح عن الطلبة أثناء اقامتهم في المؤسسة المذكورة كي يتموا دراستهم ويكملوا تدريباتهم العسكرية المختلفة في الوقت الذي يحصلون فيه على الاعطيات والهدايا العديدة التي كان الخلفاء يقدمونها لهم في المناسبات المختلفة . ذكر البيذق : « ان الطلبة ــ أعزهم الله ــ أسقط عنهم السلاح كذلك ، وأنعم عليهم بالتحف من المخزن والاعشار وغيرها من العطايا والكسوات في كل عام حيث كانوا ، وكان ذلك رأيه (أي الخليفة) وعادته معهم دون غيرهم . . وعرف ذلك في امراء الموحدين »(٦٢) .

وكان عبد المؤمن قد قسم الطلبة الى طائفتين : طلبة الموحدين وطلبة الحضر . والطائفة الاولى هي طلبة المصامدة ، وهي تسمية أطلقها المهدي على من اهتم بالعلم من المصامدة لخوضهم في علم الاصول الذي لم يكن احد من أهل هذه الانحاء يخوض فيه قبل عصر(٦٣) الموحدين . اما الطائفة الثانية فهم طلاب العلم من القبائل الاخرى والمناطق المختلفة ،وخاصة أهل علم النظر(٦٤) الذين يستقدمون من سائر البلاد لحضور مجلس الخليفة(٦٥) .

وبالرغم من أن المصادر لم تذكر ما يلقي الضوء على أسباب هذا التقسيم الذي أورده المراكشي ، الا أنه في الواقع كان يكتسب اهمية سياسية ، لانه كان يوضح مكانة قبيلة مصمودة لدى خلفاء الموحدين وخاصة في فترة تأسيس الدولة في عهد عبد المؤمن ابن علي ، الا أن هذا التقسيم القائم على أساس العصبية لم يبق على ما يبدو ثابتا طوال العهود المختلفة للدولة ،وفقد بمرور الايام أهميته نتيجة للتقدم الحضاري الذي شهدته الفترات اللاحقة من جهة ولان قبيلة مصمودة التي كانت عماد القوة العسكرية للدولة (٦٦) فقدت دورها القيادي في الدولة الموحدية(٦٧) تدريجيا ، واحتلت مكانها قبائل اخرى ترتبط بالخليفة وما يقدمه لها من مال كقبيلة (كومية)(٦٨) التي ينتسب اليها عبد المؤمن وغيرها من جهة ثانية . فأصبح ذلك التقسيم نظريا فقط للتمييز بين طلاب المؤسسة من المصامدة وزملائهم من بقية الاقطار ، وهذا ما ظهر جليا في عهد المنصور الذي ازدهرت الثقافة في ظل حكمه ووصلت أوج عصرها الذهبي ، وكان على المنصور ، وهو الرجل القوي ذو الثقافة الواسعة ، ان يعيد النظر في بعض المفاهيم والاسس التي قامت عليها مؤسسات الدولة المختلفة ، ومنها بالطبع مؤسسة الطلبة ، فقام بالغاء الميزات التي ربما تمتع بها طلبة المصامدة قبل عهده واعتبر الجميع سواسية في الحقوق والواجبات (٦٩).

نتبين من هذا النص مدى ما طرا على تلك المؤسسة من تغيير ، وربما كان نتيجة لازدياد نفوذ طلبة الحضر في الدولة بعد أن زادت اعدادهم داخل المؤسسة ، وخاصة بعد ان ضمت أفرادا كابن رشد وابن طفيل وابن زهر وغيرهم من العظماء الذين لا ينتسبون الى مصمودة وتمتعوا بالحظوة والنفوذ لدى الخليفة(٧٠) .

وهكذا لعبت مؤسسة الطلبة دور الحزب المؤيد للدولة الى جانب دورها كوزارة للاعلام والثقافة في الدول الحديثة ، واتيح لمؤسسيها من الخلفاء ان ينشروا أفكارهم الدينية ومبادئهم السياسية بوساطتها وان يوجهوا الفكر الوجهة التي يريدونها في أرجاء امبراطوريتهم الواسعة ، وان يحصلوا على طبقة من الموظفين الاكفاء تأتمر بأمرهم وتنفذ رغباتهم في المجالات المختلفة . وقد وقف هؤلاء الطلبة في بعض الاحيان في وجه الخلفاء، وقدموا بعض المطالب الخاصة حفاظا على مكانتهم في الدولة .

واخيرا يجدر القول ان هذه المؤسسة لم تعمم التعليم لخصوصيتها ، واضيف اليها مؤسسات ثقافية اخرى جعلت العلم الزاميا للجميع ، وخاصة ما يتعلق منه بعقيدة الموحدين(٧١) .

(١) وهو تاريخ اعلان المهدية الذي اعتبره بعض المؤرخين اهم عمل سياسي قام به ابن تومرت وهدف الى تحطيم دولة المرابطين واقامة صرح الدولة الجديدة .

وفكرة المهدية هذه لم تكن غريبة على أهل المغرب ، نشرها دعاة الشيعة الذين وصلوا الى اطراف المغرب حيث روجوا بعض الاحاديث المنسوبة الى الرسول تتنبأ بظهور المهدي المنتظر من آل البيت في أرض المغرب ، وقد استغل ابن تومرت هذه الاحاديث لربط المهدية بشخصه وتم له ما اراد في العام المذكور ، حيث بايعه اصحابه على ما بايع عليه اصحاب رسول الله (ص).

(٢) المعجب ، ص ٢٠١ .

(٣) انظر : نظم الجمان : ص ٢٨–٢٩ و ص١٣٢، الحلل الموشية ، ص ١٠٧ – ١٠٨ و ١٣٥ ، وانظر كذلك تعليق د. احمد مختار العبادي في مقاله : دراسة حول كتاب الحلل الموشية واهميته في تاريخ المرابطين والموحدين ، مجلة تطوان، العدد الخامس ، سنة ١٩٦٠ ، ص١٠٧ .

(٤) انظر اشارة البيدق (أخبار المهدي بن تومرت ، ص ١٣٢) الى ارسال ابن تومرت طلبة الموحدين الى قبائلهم في سنة ٥٢٢هـ /١١٢٨م.

(٥) نظم الجمان ، ص ٩٣ ، أخبار المهدي بن تومرت ، ص ١٣٢ ، العبر ، جـ ٦ ، ص ٢٢٨.

(٦) انظر حاشية رقم (٥) .

(٧) ذكر ابن عذاري (البيان المغرب ، القسم الموحدي ، ج٣ ، ص ٢٠٨–٢٠٩) ان الخليفة المنصور اوصى قبل وفاته بالطلبة وخص منهم طلبة الحضر بقوله : (وهؤلاء الطلبة تجعلون لهم موضعا يكون لخاصتهم يشتغلون فيه بالمذاكرة) . مما يحملنا على الاعتقاد ان خلفاء الموحدين بعد المنصور قاموا باضافة منشآت جديدة للمؤسسة شملت غرفا للسكن وقاعات للمطالعة وغير ذلك .

(٨) نظم الجمان ، ص ١٢٧–١٢٨.

(٩) نظم الجمان ، ص ١٣٩ وكذلك الحلل الموشية ، ص ١٥٠–١٥١ .

(١٠) انظر : المن بالامامة ، ص ١٢٧–١٢٨.

(١١) انظر : نظم الجمان ، ص ١٢٩ ، الحلل الموشية ، ١٥٠–١٥١ .وكذلك المعجب ، ص ٢٤٢–٢٤٣.

(١٢) الحلل الموشية ، ص ١٥١ .

(١٣) انظر مجموع رسائل موحدية ، ص ١٢٦ وما بعدها .

(١٤) انظر تفاصيل فتح افريقية : الكامل ،جـ١١ ص ٢٤١–٢٤٥ .

(١٥) المن بالامامة ، ص ١٢٨–١٢٩ و ٢٢٧–٢٢٨.

(١٦) جاء في ص ٢٢ ما يلي : من عبد المؤمن الى الطلبة في تلمسان في ١٠ شعبان ٥٤٧هـ يعلمهم فيها بفتح قسنطينة ودخول يحيى ابن عبد العزيز صاحب بجاية في التوحيد . وجاء في ص ٤٧ من الرسائل المذكورة : من عبد المؤمن الى طلبة تلمسان يخبرهم باعادة تنظيم طبقات الموحدين. وفي ص ٥٥ يخبرهم بتوليه ابنه محمد ولاية العهد ، وجاء في ص ١٥٨ من المنصور الى الطلبة في غرناطة يعلمهم ببيعته ويدعوهم الى اشتراكهم فيها . وجاء في ص ١٢٦: من عبد المؤمن الى الطلبة في بجاية يطلب منهم تنفيذ سياسته الدينية والسياسية .

(١٧) المن بالامامة ، ص ١٣٧ ، عصر المرابطين والموحدين ،جـ١ ، ص ٣٧٩ـ٣٨٠ .

(١٨) المصدر السابق ، ص ١٣٩

(١٩) المصدر السابق ، ص ٢٢.

(٢٠) انظر مجموع رسائل موحدية ، ص١١ـ١٢ وكذلك ص ٩٣.

(٢١) ابن وزير هذا ، صاحب باجة والبيرة في الاندلس . انظر عصر المرابطين والموحدين ،جـ١ ، ص ٣٤٠ .

(٢٢) المن بالامامة ، ص ٢٣١.

(٢٣) المصدر السابق ، ص ٢١ .

(٢٤) المصدر السابق ، ص ١٢٨ـ١٢٩.

(٢٥) المصدر السابق ، ص ٢٢٧ـ٢٢٨ وانظر مجموع رسائل موحدية ص١، ١٠، ٢٢، ٤٧، ٥٥.

(٢٦) المن بالامامة ، ص ٤٩٦.

(٢٧) على الرغم من المكانة التي تمتع بها الطلبة في عهد الخليفة يوسف ، الا انهم لم يبلغوا من القوة والنفوذ درجة يستطيعون فيها ان يملوا على الخليفة رغباتهم ، وخاصة فيما يتعلق بابعاد المفكرين والفلاسفة ، لانهم على ما يبدو لم يكونوا قد شكلوا بعد قوة سياسية واقتصادية واجتماعية ـ بحسب حسابها ـ وتستطيع ان تؤثر في مجرى الاحداث عن طريق اثارة العامة وتوجيهها بما يخدم مصالح الطلبة ويزيد من نفوذهم وامتيازاتهم في الدولة .

(٢٨) المعجب ، ص ٢٧٩ـ٢٨٠.

(ج) روض القرطاس ، ص ٢١٧

(٢٩) المعجب ، ص ١٣٤

(٣٠) المعجب ، ص ٢٠٠ـ٢٤٥ ، التكملة ترجمته رقم ١٨٧٩ .

(٣١) التكملة ، ص ٦٦٨ـ٦٦٩ ترجمة رقم ١٨٦٢، المن بالامامة ص ٢٢٨ـ٢٣٠ .

(٣٢) انظر ترجمته في التكملة رقم ١٩٢٠ ، صلة الصلة (نشر بروفنسال ، ط الرباط ١٩٣٩) ، ص١٣١ ـ١٣٢ ، وجذوة الاقتباس ، ط فاس الحجرية ١٣٠٩ هـ ، ص ٢٩٨ـ٢٩٩.

(٣٣) المن بالامامة ، ص ٤٢٨ـ٤٢٩ .

(٣٤) نظم الجمان ، ص ١٣٩ ، الحلل الموشية ، ص١٥٠ـ١٥١ .

(٣٥) مجموع رسائل موحدية ، ص ١٣٧ .

(٣٦) وهذا ما أشار اليه ابن خلدون (المقدمة ص٥٣٣ وما بعدها) بان تلقين العلوم للمتعلمين انما يكون مفيدا اذا كان على التدريج شيئا فشيئا وقليلا قليلا يلقي عليه مسائل من كل باب في الفن هي اصول ذلك الباب ويقرب له في شرحها على سبيل الاجمال ويراعي في ذلك قوة عقله واستعداده لقبول ما يرد عليه حتى ينتهي الى اخر الفن.

(٣٧) طبقات الاطباء ، جـ٢ ، ص ٦٩ـ٧٠.

(٣٨) صلة الصلة لابن الزبير ، ترجمة رقم١٢٦.

(٣٩) المصدر السابق والصفحة ذاتها .

(٤٠) احياء علوم الدين للغزالي (ط الحلبي) ، جـ٣ ، ص٦٣ .

(٤١) المن بالامامة ، ص ١٣٩، الحلل الموشية ،ص ١٥٠.

(٤٢) المن بالامامة ، ص ٤٢٩.

(٤٣) المصدر السباق والصفحة ذاتها .

(٤٤) نظم الجمان ، ص ١٣٩ والحلل الموشية ،ص ١٥٠ ـ ١٥١ وانظر كذلك ما قاله ابن خلدون (المقدمة ، ص ٥٤٠ـ٥٤١) في أن الشدة على المتعلمين مضرة بهم ولا سيما في أصاغر الولد .

(٤٥) انظر ما قاله ابن خلدون (المقدمة ص ٥٣٨ـ٥٤١) عن ضرورة تعليم هذه العلوم والطرق المتبعة في ذلك . وليس من شك في ان ابن خلدون كان يتحدث عن الطرق المتبعة في عهده والعهود التي سبقته وخاصة العهد الموحدي.

(٤٦) انظر : نظم الجمان ، ص ١٣٩.

(٤٧) اعز ما يطلب ، ص ٢٧٥ وما بعدها .

(٤٨) المصدر السابق ، ص٢٥ وحاشية رقم (١) والمعجب ، ٢٧٨ .

(٤٩) انظر المن بالامامة ، ص ٨٥،٨٨ـ٩٩ ، ١٥٢،١٥٩ .

(٥٠) اعز ما يطلب ، ص ٢٢٦.

(٥١) نظم الجمان ، ص ١٧٨ .

(٥٢) حول هذه الكتب التي كانت تدرس في جميع معاهد الموحدين الثقافية انظر على سبيل المثال: ابن بشكوال ، الصلة ، تحقيق عزت العطار الحسيني ، ص ٢٠٨،١٠ ، ٢٤٢ ، ٣٠٠، والتكملة لابن الابار ، ط مجريط رقم ١٢٢، ٨٦٨ ، ٩٦٢ ، ١٠٥٢ ، ١٠٥٣ ، ١١٥٢ ، ١٤٩٢ ، ١٦٠٨، ١٦٦٧ ، ١٦٧٤ ، ٢٠٠٦ ، والمعجب ، ص١٦٧، ١٨٤، ١٨٥ ، الحلل الموشية ، ص ١١٤. والجزنائي : زهرة الآس ، ط تلمسان ، ١٩٢٢ ، ص ٤٨ .

(٥٣) انظر على سبيل المثال ، المن بالامامة ،ص١٢٧

(٥٤) انظر التفاصيل في عصر المرابطين والموحدين، جـ٢ ، ص ٦٢٣ ـ ٦٤٠.

(٥٥) انظر على سبيل المثال : مجموع رسائل موحدية ، ص ١١ـ١٢ ، و ٩٣ والمن بالامامة ، ص٢٢ ، ٢٣١ .
يوسف اشباخ، تاريخ الاندلس في عصر المرابطين والموحدين ، تحقيق عنان ، جـ٢،ص٥١.

(٥٦) نظم الجمان ، ص ١٣٩، الحلل الموشية،ص ١٥٠ـ١٥١.

(٥٧) نظم الجمان ، ص ١٣٩، الحلل الموشية ، ص ١٥٠ والمعجب ص ٢٤٢ـ٢٤٣ .

(٥٨) المعجب ، ص ٢٤١ ـ ٢٤٣ .

(٥٩) عصر المرابطين والموحدين ، جـ١ ، ص ٤٠٣نقلا عن نظم الجمان (المخطوطة لوحة ٥٢ب) .

(٦٠) المن بالامامة ، ص ٦٧.

(٦١) البيان المغرب (القسمالموحدي) جـ٢،ص٥٧.

(٦٢) اخبار المهدي بن تومرت ، ص ٤٨.

(٦٣) المعجب ، ص ٢٠١ .

(٦٤) المقصود بأهل علم النظر كما يفهم من قول المراكشي (المعجب ، ص٢٠١) ، هم : العلماء الذين يهتمون بدراسة العلوم القديمة كالفلسفة والمنطق والطب والفلك وغير ذلك او بتعبير اخر كل العلوم الاخرى غير العلوم الدينية .

(٦٥) المصدر السابق ، والصفحة ذاتها .

(٦٦) انظر المعجب ، ص ٣٣٩ وما بعدها .

(٦٧) انظر التفاصيل في تاريخ المغرب والاندلس ،د. احمد بدر ، مطبعة الروضة بدمشق ١٩٨٢ ، ص ٢٧٣ وما بعدها . وعصر المرابطين والموحدين،جـ٢ ، ص ٥٧٨ وما بعدها .

(٦٨) انظر : روض القرطاس ، ص ٢٠١ـ٢٠٢ وكذلك المعجب ، ص ٣٣٩ وما بعدهاه .

(٦٩) المعجب ، ص ٢٧٩ـ٢٨٠ .

(٧٠) المعجب ، ص ٢٣٩ـ٢٤٠ وطبقات الاطباء ،القاهرة جـ٢ ، ص ٥٧ .

(٧١) من رسالة ضمن كتاب أخبار المهدي بن تومرت (ط بروفنسال ، باريس ١٩٢٨) ص ١٥ وانظر مجموع رسائل موحدية ، ص ١٣٢.

المصادر والمراجع

ـ ابن الابار : (محمد بن عبد الله القضاعي البلنسي ، ت ٦٥٨ هـ)
التكملة لكتاب الصلة ، طبعة مجريط ، بلا تاروريخ .

ـ ابن الاثير : (أبو الحسن علي بن محمد الشيباني ، ت ٦٣٠هـ)
الكامل في التاريخ ، طبعة دار صادر ، بيروت ١٩٧٩ .

ـ ابن ابي اصيبعة : (موفق الدين ابو العباس احمد بن القاسم ، ت ٦٧٧هـ)
عيون الابناء في طبقات الاطباء ، القاهرة ١٨٨٢ .

ـ احمد مختار العبادي : دراسة حول كتاب الحلل الوشية وأهميته في تاريخ المرابطين والموحدين ، مجلة تطوان ، العدد الخامس ، سنة ١٩٦٠ .

ـ ابن بشكوال : (ابو القاسم خلف بن عبد الملك ، ت ٥٧٨ هـ
الصلة في ائمة الاندلس ، تحقيق عزت العطار الحسيني، ١٩٥٥ .

ـ البيذق : (أبو بكر بن علي الصنهاجي ، ت ٥٥٥ هـ)

أخبار المهدي بن تومرت وابتداء دولة الموحدين ، طبعة بروفنسال ، باريس ١٩٢٨ .

- الجزنائي : (أبو الحسن علي)
زهرة الآس في أنباء مدينة فاس ، طبعة الجزائر .

- ابن خلدون : (أبو زيد عبد الرحمن بن محمد ، ت ٨٠٨ هـ)
المقدمة ، طبعة مؤسسة الاعلمي ، بيروت ١٩٧١ .

- ابن صاحب الصلاة : (عبد الملك ، ت ٥٩٤ هـ)
تاريخ المن بالامامة، تحقيق عبد الهادي التازي، بيروت.

- ابن الزبير :

- ابن أبي زرع الفاسي : (علي بن عبد الله ، ت ٧٢٦ هـ)
الانيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، طبعة دار المنصور للطباعة، الرباط ١٩٧٣ .

- ابن عذارى المراكشي : (أبو العباس أحمد بن محمد المراكشي، ت بعد ٧١٢هـ)
البيان المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب ، القسم الموحدي ، تحقيق امبروسي هويسي ميراندا ومشاركة محمد بن تاويت ومحمد الكتاني ، منشورات جامعة محمد الخامس ، الرباط ١٩٦٠ .

- عنان : (محمد عبد الله)
عصر المرابطين والموحدين ، ط١ ، القاهرة ١٩٦٤ .

- الغزالي : (محمد بن محمد بن أحمد ، ت ٥٠٥ هـ)
احياء علوم الدين ، طبعة الحلبي ، ١٩٣٩ .

- ابن القاضي : (أحمد بن محمد أبي العافية ، ت ١٠٢٥ هـ)
جذوة الاقتباس في أخبار مدينة فاس ، طبعة المغرب.

- ابن القطان : (أبو علي حسين بن القطان ت بعد عام ٦٦٥ هـ)
نظم الجمان في أخبار الزمان ، تحقيق محمود علي مكي ، طبعة جامعة محمد الخامس ، الرباط .

- مجهول : الحلل الموشية في ذكر الاخبار المراكشية ، تحقيق د. سهيل زكار والاستاذ عبد القادر زمامة ، طبعة دار الرشاد الحديثة ، الدار البيضاء ، ط١ ، ١٩٧٩ .
مجموعة من كتاب الدولة الموحدية
مجموع رسائل موحدية ، اعتنى باصدارها بروفنسال، طبعة رباط الفتح ١٩٤١ .

- المراكشي : (عبد الواحد بن علي ، ت بعد ٦٢١ هـ)
المعجب في تلخيص أخبار المغرب ، تحقيق محمد سعيد العريان ومحمد العربي العلمي ، مطبعة دار الاستقامة ، القاهرة ١٩٤٩ .

- يوسف اشباخ : تاريخ الاندلس في عصر المرابطين والموحدين ، تحقيق عبد الله عنان ، طبعة لجنة التأليف والترجمة ، القاهرة ١٩٥٨ .

مِنْ تَـاريخ حلب
حكم قسيم الدّولة آق سـنقر
٤٧٩_٤٨٧هـ/١٠٨٦_١٠٩٤م

محمد ضامن
مرشح للماجستير

خضعت امارة حلب لحكم القبائل العربية قبل الاحتلال السلجوقي لها وقد تمثل حكم هذه القبائل بالحمدانيين ومن بعدهم المرداسيين والعقيليين وقد تمكن البيزنطيون خلال هذه الفترة من احتلال مناطق متعددة من الامارة واخضعوها لسلطانهم وكذلك حاول الفاطميون فرض سيطرتهم عليها ونافسهم في ذلك العباسيون ومع ذلك بقي المرداسيون هم الحكام الفعليون للامارة حتى وصول السلاجقة اليها .

كان الحكم ايام المرداسيين حكما قبليا بدويا ، فالقبيلة هي الحاكمة والمسيطرة على مقدرات البلاد ، وقد اعتمد الامير المرداسي على رجال قبيلته بشكل رئيسي وكان شيوخ القبيلة في هذه الفترة هم الشخصيات البارزة في الدولة . وشغلوا أدوارا سياسية هامة في حياة الامارة . .

وحين انتقل الحكم الى العقيليين في شخص الامير مسلم بن قريش صاحب الموصل، أصبحت رئاسة حلب بيد شيوخها وطاعتهم لمسلم الذي غادرها الى مركزه في الموصل. وكان الحكم الفعلي لحلب بيد لجنة من شيوخها كانوا مسؤولين عن شؤون الامارة .

لم تعرف امارة حلب الاستقرار السياسي ايام المرداسيين حيث عاشت فترة منازعات على السلطة وصلت في بعض الاحيان حد الاقتتال بين الاخ واخيه او ابن عمه أو قريبه والالتجاء احيانا اخرى الى الغرباء لتحقيق مصالحهم الذاتية ، وقد ادى ذلك الى اهمال شؤون الدولة وضعف قدراتها الدفاعية وتدهورت الحياة الاقتصادية مما جعلها عاجزة عن الوقوف بوجه القوى الاجنبية الطامعة بها ، كالتركمان الذين بـدأوا بالوصول اليها منذ سنة ٤٥٧ هـ وعملوا جاهدين للسيطرة عليها حتى سنحت لهم الفرصة اثر النزاع الذي نشب بين كل من تاج الدولة تتش وسليمان بن قتلمش الذين كان يعمل كل منهما لضمها الى أملاكه، وقد دفع الخلاف على حكمها بين تتش وسليمان

بالسلطان ملكشاه الى التدخل وانهاء هذه المنافسة المدمرة بتعيين آق سنقر واليا عليها وبذلك دخلت حلب تحت الحكم السلجوقي المباشر .

فمن هو آق سنقر ؟ ولماذا اختاره السلطان ، وما هو اسلوبه في الحكم . .الخ.

١ ـ آق سنقر ووصوله الى السلطة :

آق سنقر بن عبد الله(١) المعروف بقسيم الدولة ، ويقال عن اسم ابيه آل ترغان(٢) وأنه من قبيلة ساب يو(٣) وانه كان مملوكا للسلطان أبي الفتح ملكشاه وملازما لـه(٤) وأنه كان حاجبه(٥) وذا حظوة عنده ، ولا يعرف عن صباه الا انه تزوج من داية السلطان ادريس بن طغان شاه(٦) قال عنه ابن الاثير « كان قسيم الدولة تركيا من أصحاب السلطان جلال الدولة ركن الدين ملكشاه بن ألب ارسلان وأترابه ، وممن ربى معه في صغره وصحبه حتى كبره ، فلما أفضت اليه السلطنة بعد ابيه ، وافاضت تاجها عليه رعى لآق سنقر صحبته ، فجعله من أعيان أمرائه واخص اوليائه، فصادف الاحسان أهله ، فرفع قدره ، وأعلى محله ، واعتمد عليه السلطان في مهماته ، وأفضى اليه باسراره في خلواته وجلواته ،ووثق به وثوقا حسده عليه سائر امرائه واجناده لما راى من شجاعته وحزمه وسداد رايه ، وتقدم عنده تقدما فاق فيه سائر الناس ، واختصه السلطان للقرب والايناس» (٧) .

اما ما أورده ابن الاثير في تعريفه لآق سنقر فيدل على أنه كان مملوكا للسطان ألب أرسلان ، وعاش في كنفه مع ابنه ملكشاه ، ثم أصبح مملوكه وحاجبه ، ومن أخلص المخلصين له حتى أن السلطان ملكشاه صدق شكايته ضد أخيه تتش عندما وفد عليه في بغداد(٨) .

ان من أقوى الدلائل على الحظوة التي حازها آق سنقر عند السلطان هو منحه لقب قسيم الدولة(٩)، وكانت الالقاب في تلك الفترة مصونة، لا تعطى الا لمستحقيهاحتى أن السلطان لم يكن يعرف الا بجلال الدولة ، ومن الدلائل الاخرى على الحظوة التي حازها آق سنقر انه كان يقف الى يمين سدة السلطنة ولا يتقدمه أحد (١٠) .

ان منح هذا اللقب لآق سنقر يدعو للتساؤل حول أسباب منحه اذا علمنا أن قسيم تعني شريك ، فهل أعطي له هذا اللقب لمجرد انه حاز ثقة السلطان ومحبته ودعمه ؟ أم ان هذا المنح كان بسبب انه ينتسب لقبيلة لها مكانتها واهميتها بين القبائل السلجوقية الحاكمة ، وهي قبيلة ساب يو ، وانه كان ذا مكانة رفيعة فيها ، او انه أدى لملكشاه اعمالا جليلةاستحقت اعطاءه هذا اللقب ؟. ويبدو أن هذا اللقب اعطي له لهذه الاسباب جميعا اضافة الى ان المكانة التي حازها لدى ملكشاه تدل دلالة واضحة على انه تربى وعاش معه فعرف ذكاءه وشجاعته وحسن معاشرته(١١) .

وصلت مكانة آق سنقر ورفعته عند السلطان ملكشاه الى الحد الذي اخاف كبار رجال الدولة امثال الوزير نظام الملك ، بالرغم من تحكمه بأمور الدولة والسلطنة وكثرة اتباعه واعوانه ، مما دفعه لتقديم المشورة للسلطان ، لتعيين آق سنقر حاكما على امارة حلب مع غيرها من بلاد الشام ، وقد أراد نظام الملك من هذه المشورة تحقيق عدة امور منها :

١ ـ كسب ثقة ومحبة آق سنقر قسيم الدولة .

٢ ـ ابعاده عن مرافقة السلطان وخدمته وبالتالي ابعاده عن طريقه ومنافسته.

٣ ـ عدم المساس بثقة السلطان بآق سنقر .

والسؤال الذي يرد هنا هل تم تعيين آق سنقر واليا على حلب بسبب مشورة او نصيحة الوزير نظام الملك أم أن ملكشاه كان يرى في ولاية آق سنقر لحلب امورا اخرى ؟..

ان المصادر لا تجيب على هذا التساؤل حتى الان ، ولكن الاحداث تدل على أن ملكشاه وجد أن نصيحة نظام الملك موافقة للظروف التي كانت تمر بها منطقة شمال بلاد الشام وحاجتها الى شخص قادر على فرض الحكم السلجوقي في حينه ، ولعله اراد كذلك أن يكون قسيم الدولة حاجزا بينه وبين أخيه تتش صاحب المطامح السياسية ليس في بلاد الشام وحدها بل وبالسلطنة ايضا ، ويؤيد هذا الافتراض الصراع الذي نشب بين تتش وآق سنقر في حياة السلطان ملكشاه ، وكذلك بعد وفاته(١٢) .

اعتمد السلطان على آق سنقر في كثير من الحروب ، ففي سنة ٤٧٣ هـ / ١٠٨٠ ـ ١٠٨١ عينه قائدا لجيش الموصل بصحبة عميد الدولة ابن صهير ، فاستطاع بما عرف عنه من سداد الرأي ورجاحة العقل وقوة السياسة ، الى جانب معرفته بأمور الحرب والحصار ، اقناع أهل الموصل بترك العصيان واطاعة السلطان وسلموا البلد لعميد الدولة الذي أخذ ما كان لشرف الدولة وأهله من مال وذخائر(١٣) .

تشير جميع المصادر الى وجود آق سنقر على رأس حملة عميد الدولة او عميد الملك الى الموصل ولكنها لم تشر الى رحيله عن الموصل مع السلطان الذي غادرها لقتال اخيه تكش الذي أظهر العصيان عليه في شعبان سنة ٤٧٣هـ(١٤) كانون الثاني ـ شباط ١٠٨١م . كما انها لم تؤكد بقاءه في الموصل بانتظار عودة السلطان الى الغرب ليرافقه اثناء توجهه الى حلب ، وعلى الرغم من ذلك فان ابن الاثير يغفل ذكر اسمه مع جيوش السلطان التي دخلت حلب معان السلطان ولاه امارتها قبل رحيله ، ولكنه يكمل روايته في موضع آخر ، فيقول ان السلطان عندما ملك حلب سلمها الى قسيم الدولة آق

سنقر(١٥) وكذلك يشير ابن كثير الى ان السلطان استناب على حلب قسيم الدولة آق سنقر(١٦) .

كان اهل حلب قد كاتبوا السلطان ملكشاه لتسليمه حلب التي دخلها تتش سنة ٤٧٩هـ / ١٠٨٦ - ١٠٨٧م وحاصر قلعتها ، وقدوصلت الاخبارالى تتش تعلمه بوصول طلائع حملة أخية السلطان الى حلب فرحل عنها في الوقت الذي عبر فيه السلطان ملكشاه الفرات ووصل مدينة حلب فتسلمها(١٧) وتسلم القلعة ، وفي اثناء وجوده بحلب أرسل اليه نصر بن علي بن المقلد أمير شيزر يعلمه بدخوله في طاعته وتسليمه اللاذقية وافامية وكفر طاب ، فقبل السلطان العرض ولم يزحف على بلاده وأقره اميرا على شيزر ، بعدها تابع السلطان مسيره الى انطاكية فضمها الى املاكه وحط رحاله على ساحل البحر أياما ، ثم عاد الى حلب وعيد بها عيد الفطر ثم رحل عنها بعد أن اقطع حلب ومناطقها ، وحماةومنبج واللاذقية وما معها الى قسيم الدولة آق سنقر ، واقطع مدينة انطاكية للامير ياغي سيان وذلك سنة ٤٧٩هـ / ١٠٨٦ - ١٠٨٧م(١٨) . وقد اختلف المؤرخون حول تاريخ تعيين آق سنقر واليا على حلب ، ويبدو أن هذا الاختلاف مرده الى أن رحيل السلطان عن حلب لم يذكر بالشهر ، فمنهم من قدر ذلك بانه أواخر سنة ٤٧٩ هـ / ١٠٨٦ - ١٠٨٧ م ، وبعضهم قدر ذلك انه اول سنة ٤٨٠هـ / ١٠٨٧ - ١٠٨٨(١٩) .

مع تولي آق سنقر حكم حلب بدات مرحلة جديدة من حكم السلاجقة المباشر لامارة حلب وشمال الشام ، وانتهى معه حكم القبائل العربية لهذه الامارة وازيحت عن مسرح السياسة والحرب والحكم والدفاع ، واصبح كل ذلك شأنا من شؤون التركمان وسيستمر ذلك في شمالي الشام حتى قيام حكم الزنكيين عام ٥٢٢هـ/١١٢٨م .

حكم آق سنقر في حلب :

آ - **سياسته الداخلية :** عاشت امارة حلب فترة من المنازعات القبلية والسياسية ، قبل دخول السلطان ملكشاه اليها ، وبالرغم من أن مسلم بن قريش كان اميرا عليها وحاول ايجاد نوع من الوحدة السياسية في بلاد الشام ، الا أن اخفاقه بذلك وانكفاءه عن دمشق الى حران للقضاء على التمرد الذي حصل بها ، وتصميم تتش على انتزاع حلب وممتلكاتها وضمها الى سلطانه ، ومقاومة أهلها لهذا الضم ، دفع بهم الى استدعاء السلطان ملكشاه الذي اهتبل هذه الفرصة الثمينة ودخلها دون مقاومة ، والحقها بسلطنته وولى عليها قسيم الدولة آق سنقر .

كان آق سنقر أول حاكم سلجوقي لامارة حلب ، بعدما عانت سنوات طويلة من التمزق والتفكك والحروب الطويلة التي كانت تدور اولا بين القبائل العربية فيما بينها،

ومن ثم بين القبائل العربية وقبائل بدوية قادمة من الشرق هم البدو التركمان(٢٠). فمنذ عام ٤٥٦ هـ/١٠٦٣–١٠٦٤م وقبله تعرض شمال بلاد الشام لابشع انواع التدمير والقتل ونهب القرى وتهديم الحصون واتلاف المحصولات والمزروعات ، واسر الرجال ، وسبي النساء وقد تناوب هذه الاعمال التخريبية الغز التركمان تارة والبدو العرب تارة اخرى(٢١) .

ولم يشغل الامراء والحكام في المنطقة الا العمل على تثبيت أقدامهم في مواقع السلطة بالتآمر والمؤامرات ، او باللجوء الى القوى الكبرى المحيطة بهم كالخلافة العباسية ومن ورائها السلاجقة تارة ، او البيزنطيين او الفاطميين تارة اخرى ، وهدفهم الوحيد هو المحافظة على دولتهم (٢٢) ، وكانت سياستهم في استنجادهم بالقوى المحيطة متوازنة ، حتى لا يتمكن أي منها من القضاء على دولتهم ، فيستنجدون بالاقوى عندما يتعرضون للخطر ، كما فعل عطية ومحمود ومسلم بن قريش ، وفي خضم هذه الصراعات نسوا مسؤولياتهم تجاه مواطنيهم وبلدهم كما لم يعملوا على تطوير اقتصاد البلاد بما يزيد من وارداتها ، بل كانو اذا احتاجوا الى الاموال ، وكثيرا ما احتاجوا اليها ، لجأوا الى فرض الضرائب والاتاوات التي اثقلت كاهل المواطنين وافقرتهم ووصلت بهم الى حد التذمر والشكوى(٢٢) ، وقد أدى كل ذلك الى كثرة اللصوص وقطاع الطرق ومخيفي السبيل ، فانعدم الامن داخل البلاد وعلى الطرق التجارية ، فأقفرت الاسواق وقلت البضائع فيها لان التاجر لا يضحي بأمواله في حال وجود من يسلبه ما حمل ، وكذلك ضعفت موارد الزراعة لعدم تمكن الفلاحين من القيام بالحرث والزرع وجني المحصول ، وفي هذه الظروف أيضا برزت وقويت منظمة الاحداث(٢٤) التي كانت تعمل على الحفاظ على مصالح أفرادها والوقوف بوجه التحديات التي تأتي من الخارج .

تسلم آق سنقر السلطة في حلب في شوال سنة ٤٧٩هـ/ كانون الثاني ١٠٨٧ م والبلاد في حالة فوضى تامة كان عليه ازالتها ، اضافة الى ان السلطان ملكشاه اعتمد عليه في تنفيذ سياسة السلاجقة في بلاد الشام ، والتي تسير ضمن اتجاهين : الاول اخضاع بلاد الشام لسطانهم ، والثاني مقاومة الفاطميين والقضاء على سطانهم في بلاد الشام ومصر ، فكانت أول اعماله اقامة الحدود الشرعية وازالة حالة الفوضى التي كانت تعيشها البلاد ، والتخلص من المتطرفين في الفساد واستئصال شأفتهم(٢٥) وملاحقتهم في كل مكان . ونتيجة لذلك فان أهالي البلاد اخذوا يشعرون بالامن والاستقرار ، وتابع آق سنقر عمله بملاحقة اللصوص وقطاع الطرق ومخيفي السبيل، فأوقع بهم وتابعهم حتى قضى عليهم قتلا واسر(٢٦) ، فاطمأن القادمون والمسافرون ، وبدأ الاستقرار يعرف طريقه الى حلب من جديد ، ونشطت التجارة ، ولم يكتفبذلك بل كتب واعطى الاوامر الى عماله في سائر المدن والقرى التي خضعت لحكمه بتتبع المفسدين ، وحماية المسافرين ، وتابع ذلك بنفسه ، ففي سنة ٤٨٢هـ/١٠٨٩ –

١٠٩٠ م تعرض اللصوص وقطاع الطرق لقافلة كبيرة بولاية حلب ، فتجهز آق سنقر على رأس جماعة من عسكره وسار بأثرهم ، ولم يرجع الا بعد ان قتل قسما منهم وأسر القسم الباقي(٢٧) وقد بالغ في مسلكه هذا حتى قال ابن القلانسي انه « بالغ في ذلك مبالغة حسن ذكره بها ، وعظمت هيبته بسببها. وشاعله الصيت باعتمادها»(٢٨).

الى جانب الشدة والقسوة التي عامل بها الخارجين عن القانون ، فقد أقر مبدأ المسؤولية الجماعية عندما فرض على اهل كل قرية او مدينة في بلاده أذا سرق عندهم تاجر أو قافلة أن يدفعوا قيمة ما سرق عندهم ، قليلا كان ام كثيرا ، وطبق قراره هذا بحزم ، فنهض الاهالي لمساعدته في فرض الامن من جهة ، ولئلا يدفعوا قيمة ما يسرق في أرضهم ، حتى وصل الامر انه اذا وصل تاجر الى بلد من البلاد وضع أمتعته وبضاعته الى جانبه ونام قرير العين هانيها يحرسه أهل القرية ويحمونه حتى يغادر حدود بلدهم(٢٩) ، وبذلك شارك الاهالي في تحمل المسؤولية وحفظ الامن ، حتى تحدث الناس بحسن سيرته وكفايته .

ولثقة آق سنقر بنفسه وقدرته على نشر الامن والاطمئنان ، نادى في انحاء الامارة بأن لا يرفع احد متاعه ولا يحفظه في طريق . ويروي ابن العديم في بغية الطلب قصة قضائه على دابة ابن آوى التي تأكل جلد المحراث ، والتي تدل بصورة قاطعة على اهتمام آق سنقر بمتابعة تنفيذ الاوامر التي يصدرها قال : « فخرج يوما يتصيد فمر على قرية من قرى حلب ، فوجد بعض الفلاحين ، وقد فرغ من عمل الفدان وطرح عن البقر النير ورفعه على دابة ليحمله الى القرية ، فقال له: الم تسمع مناداة قسيم الدولة بأن لا يرفع أحد متاعا ولا شيئا من موضعه ؟ فقال له : حفظ الله قسيم الدولة قد أمنا في أيامه ، ومارفع هذه الالة خوفا عليها أن تسرق ، لكن هنا دابة يقال لها ابن آوى تأتي الى هذا النير فتأكل الجلد الذي عليه ، فنحن نحفظه منها لذلك . قال : فعاد قسيم الدولة من الصيد وامر الصيادين فتتبعوا بنات آوى في حلب ، فصادوها حتى أفنوها من بلد حلب . قلت : وهي الى الان لا يوجد في حلب منها الا في النادر دون غيرها من البلاد »(٣٠) .

دفع الامان الذي شهدته البلاد في عهد آق سنقر ، بعد ان حرمت منه مدة طويلة ، الى عودة الناس للتجارات في كل الارجاء بعد امتناعهم عن ذلك مدة طويلة ، وادى الاستقرار ونشاط التجارة الى اغراق اسواق حلب بالبضائع الواردة اليها من جميع الجهات والاقطار ، فرخصت الاسعار وتداعى الناس اليها للسكن فيها ليحظوا وينعموا بالامن والاستقرار ويعيشو حياة رغيدة رخيصة(٣١) وقد أثبتت تصرفاته واعماله بأنه آمن بأن العدل والامن والاستقرار هي الاسس الكفيلة في بقاء اي حكم واستمراريته، وان المتابعة والمحاسبة هما الضمانة الاكيدة لاستمرار حكمه .

وقد شهد اغلب المؤرخين بحسن سياسة آق سنقر الداخلية والامنية ، ولم يجمعوا على مدح أو طراء أمير أو حاكم أو زعيم بمثل ما أجمعوا به على آق سنقر ، فقال عنه ابن القلانسي «.. وأحسن فيها السيرة وبسط العدل في أهلها ، وحمى السابلة المترددين فيها ، وأقام الهيبة وأنصف الرعية، وتتبع المفسدين فأبادهم ،وقصد أهل الشر فأبعدهم ، وحصل له بذلك من الصيت وحسن الذكر ، وتضاعف الثناء والشكر ، واحترز كل من كان في ضيعة أو معقل من ان يتم على احد من المجتازين به، أمر يؤخذ به ويهلك بسببه »(٢٢) . وقال ابن الاثير « وكان قسيم الدولة أحسن الامراء سياسة لرعيته وحفظا لهم ، وكانت بلاده بين رخص وعدل شامل وأمن واسع »(٢٣) .

اما ابن العديم في بغية الطالب ، فقد نقل اراء عدد من المؤرخين فقدت كتبهم ، في سياسة آق سنقر الداخلية ، ومما جاء في كتابه ما نقله عن تاريخ أبي غالب الشيباني فقال : « وكان آق سنقر من احسن الناس سياسة وآمنهم رعية وسابلة » وعن كتاب عنوان السير للهمذاني قال « ..وأحسن السيرة، وظهر منه عدل لم يعرف بمثله»(٢٤)، وقال عنه ابن كثير « .. بأنه كان من أحسن الملوك سيرة ، وأجودهم سريرة ، وكانت الرعية في أمن ورخص و عدل »(٢٥) ، وقال عنه الغزي « ثم ظهرت كفايته ، وعظمت هيبته في جميع بلاده .. ورخصت الاسعار في أيامه ، وأمنت السبل واقيمت الحدود الشرعية »(٢٦) .

ان السياسة التي اتبعها آق سنقر والاعمال التي قام بها والتي مدحه بها اكثر المؤرخين جعلت ذكراه طيبة لدى اهل حلب ، مما جعلهم يمدحونه ويثنون على سيرته، وقد شجعهم ذلك فيما بعد على التعاون مع ابنه عماد الدين ومن بعده حفيده نور الدين اللذين اتخذا من حلب قاعدة لحكمهما ، ومستقرا الملك الأيوبيين بعدهما .

ب ـ صراعه مع تتش ، وتوسعه في الشام وسياسته الخارجية :

كان آق سنقر رجل دولة استطاع بحنكته ان يوفر الامن والاستقرار لامارة حلب، ولم تكن سياسته الخارجية وانجازاته فيها بأقل مما قام به في الداخل ، وقد نفذ سياسته معتمدا على قوة عسكرية منظمة ومدربة تدريبا جيدا ، أنفق عليها انفاقا باهظا ، وهيأ لها ما مكنها من التحرك السريع على جميع المستويات الداخلية والخارجية وكانت نواتها تلك القوة التي تركها ملكشاه معه عندما رحل عن حلب وتعدادها أربعة آلاف مقاتل . وقد اثبت للسلطان مقدرة قواته وحسن تنظيمها عندما قدم الى بغداد مع الامراء الاخرين سنة ٤٨٠هـ / ١٠٨٧ ـ ١٠٨٨ م بناء على دعوة السلطان ، فوصل اليه « في تجمل عظيم لم يكن في عساكر السلطان من يقاربه ، فاستحسن منه ذلك وعظم محله عنده ، ثم امره بالعودة الى حلب فعاد »(٢٧) بعد ان اطمأن السلطان على قدرته في تحقيق الدور الذي اسنده اليه .

اعتمد آق سنقر تسيم الدولة على نوعين من القوات العسكرية ، النوع الاول : هو القوات النظامية المدربة المنتمية بمجموعها للتركمان السلاجقة وكان عددها ستة آلاف أو يزيد عن ذلك(٣٨) ، وهو عدد مقبول لقوات نظامية في ذلك الوقت ، وبخاصة ان ما تركه السلطان ملكشاه عنده هو قرابة أربعة آلاف فارس . والنوع الثاني : هو القوات الاحتياطية التي جمعها حين احتاج اليها ، وكانت خليطا من العرب والتركمان وغيرهم . وقد وصل عددها في معركته مع تتش الى عشرين الفا، وعن ذلك يقول المؤرخون « فركب ومعه النجدة التي وصلته وجماعة كثيرة من بني كلاب مع شبل بن جامع ومبارك بن شبل ، وكان قد أطلقهما من الاعتقال ، ومحمد بن زائدة وجماعة من احداث حلب والديلم والخراسانية ، في أحسن زي واكمل عدة وقيل أنه قدر عسكره بعشرين الف فارس ، وقيل كان يزيد عن ستة آلاف »(٣٩) .

كان تنظيمه للقوات العسكرية يعتمد على تقسيمها الى ثلاثة أقسام رئيسة هي: الميمنة والميسرة والقلب، وكان هو يتقدم هذه القوات وأول من ينزل القتال(٤٠) أما سلاح الجيش فكان القوس للخيالة المشهورين بسرعة الحركة والمرونة ، والرماح والسيوف وغيرها من الاسلحة الفردية(٤١) للمشاة .

أخذ آق سنقر بعد أن نظم امور المنطقة الداخلية ، يتطلع الى ضم المناطق المجاورة لها أو فرض هيبته عليها ، أو ابقاء حكامها تابعين له ، مستغلا الخلافات التي كانت تنشب بين حكام هذه المناطق ، او دفاعا عن مناطق تابعة له . ومن ذلك انه في سنة ٤٨١ هـ/١٠٨٨-١٠٨٩م حاصر شيزر وقاتل جيشها ونهبها ، انتصارا لاهل لطمين التابعة لامارته ، وعاد الى حلب بعد ان تصالح مع أمير شيزر نصر بن منقذ(٤٢) ويبدو ان هذا العمل كان استعراضا وفرض هيبة وانذارا للمجاورين له بعدم التعرض للمناطق التابعة لحلب وكي لا يجرؤ احد منهم على معاداته أو عصيانه ، كما أنه اراد اثبات وجوده امام البيزنطيين واستعادة بعض المناطق التي كانت بايديهم من بلاد الشام ، ولذلك سير جيوشه الى حصن برزويه(٤٣) وهو آخر حصن بقي في ايدي البيزنطيين من أعمال انطاكية المحررة وضمه اليه سنة ٤٨٢هـ / ١٠٨٩-١٠٩٠م(٤٤) .

حين نهض آق سنقر لتوسيع املاكه باتجاه الجنوب ، اصطدم بمنافس خطير كان يعمل على مد سلطانه ايضا في هذه المنطقة ، هو تاج الدولة تتش حاكم دمشق واخو السلطان ملكشاه . وكان تتش قد طلب من اخيه السلطان سنة ٤٨٠ هـ / ١٠٨٧ - ١٠٨٨ م تزويده بجيوش ومعدات تمكنه من طرد الفاطميين من بلاد الشام واخضاعها لسلطان السلاجقة ، وقد لبى السلطان طلب اخيه تتش فأصدر أوامره الى آق سنقر والي حلب ، وبوزان حاكم الرها ان يكونا مع تتش ويقدما له كل ما يحتاجه في مهمته من عساكر ومعدات(٤٥) . ومن الامور التي كانت تستدعي الاسراع في طرد الفاطميين من المنطقة ، وجود حكام في بلاد الشام يقدمون الولاء للفاطميين ويعملون على

الاعتداء على الاراضي التابعة لتتش ومن هؤلاء خلف بن ملاعب امير حمص الذي قام في سنة ٤٨٢هـ/ ١٠٨٩ ـ ١٠٩٠م بالاعتداء على الاراضي التابعة لتتش بايحاء من الفاطميين ، وقد ضج ولاة الشام السلاجقة من تصرفات ابن ملاعب فشكو امرهم للسلطان ملكشاه(٤٦) الذي أمر أخاه تتش بالمسير لتأديبه ، ومن ثم الاستيلاء على المناطق التي ما زالت تخضع للفاطميين في الشام ، وكذلك طلب السلطان ملكشاه من آق سنقر وياغي سيان وبوزان مساعدة تتش في مهمته تلك ، وبالرغم من أن آق سنقر وبوزان كانا غير قانعين بمساعدة تتش ، الا انهما وصلا اليه بجيشيهما تحقيقا لرغبة السلطان وتنفيذا لاوامره .

نزلت القوات المتحالفة على حمص سنة ٤٨٣هـ / ١٠٩٠-١٠٩١ م وحاصرتها وضيقت عليها حتى استسلمت بالامان ، ويقول ابن العديم ان آق سنقر تسلم حمص حتى وصله أمر السلطان بتسليمها لتتش(٤٧) ، الذي أرسل اميرها خلف بن ملاعب مقيدا الى السلطان .

بعد الاستيلاء على حمص تابعت القوات المتجمعة الزحف باتجاه عرقة التي كانت تحت سيطرة بني عمار حكام طرابلس ، ومنها توجهت الى طرابلس وحاصرتها ، وكان يحكمها جلال الملك بن عمار ، وقد وجد ابن عمار أنه لا يستطيع مقاومة هذا الجيش الكبير الا بالحيلة والسياسة ، فاتصل سرا بأمراء تتش محاولا عقد صفقات صلح منفردة وابعادهم عن تتش بغية اضعافه فلم يصل الى مبتغاه ، لكن ابن عمار لم ييأس من المحاولة واتصل ثانية بوزير آق سنقر « وزين كمر » فوجد عنده لينا ، فتابع مراسلته وبعث اليه بالهدايا والتحف مما أرضاه ، فسعى هذا بالوساطة بين ابن عمار وقسيم الدولة آق سنقر ليبعده عن تتش. وقد قبل آق سنقر وساطة وزيره مما دفع ابن عمار الى حمل ثلاثين الف دينار وتحفا بمثلها وقدمها لآق سنقر ، وكذلك عرض عليه التفويض الذي بيده من السلطان ملكشاه باقراره على طرابلس وولايته عليها(٤٨)» فقبل آق سنقر حجج ابن عمار مما ادى الى اختلاف آق سنقر مع تتش ، وحدثت مشادة بينهما فقال آق سنقر لا اقاتل من هذه المناشير بيده ، فاغلظ له تاج الدولة وقال :هل انت الا تابع لي !! فقال آق سنقر : انا تابعك الا في معصية السلطان ورحل من الغد عن موضعه ، فاضطر تاج الدولة الى الرحيل ، فرحل غضبان ، وعاد بوزان الى بلاده فانتقض الامر »(٤٩) .

فهل قبل آق سنقر حجج ابن عمار عن قناعة أم بسبب ما قدم له من الاموال والهدايا ؟ أم لاسباب اخرى ؟. يبدو ان موقف آق سنقر كانت وراءه دوافع سياسية، وليست قناعته بعدالة قضية ابن عمار ، اضافة لما قدم له من الاموال هو بحاجة اليها لانفاقها على سياسته المناهضة لتتش وتطلعاته . وهكذا فان آق سنقر لم يساعد تتش في تحقيق هدفه في ضم طرابلس الى املاكه وهذا مايثبت وجود تنافس بينهما ، وان

آق سنقر كان يطمع بما كان يطمع به تتش من بلاد الشام وانه كان يخرج معه تنفيذا لاوامر السلطان فقط ، وحين يجد ثغرة ينفذ منها للتملص والتهرب من مساعدته كان يفعل ، وهذا ما تم على ابواب طرابلس .

الى جانب ذلك فان آق سنقر كان يدرك ان احتلال أي مدينة او موقع سيكون من نصيب تتش كما حدث في حمص . وهذا بحد ذاته دعم وتقوية لمركز تتش ، واضعاف واستنزاف لقدراته وامكاناته هو ، وهو ما كان يحاول تحاشيه والابتعادعنه.

حين ترك قسيم الدولة طرابلس ورفض مساعدة تتش ، بدأ بتنفيذ جزء من مخططه في التوسع ، فتوجه الى افامية واستولى عليها ، وكانت تابعة لخلف بن ملاعب ويتولى شؤونها نائب عنه ، وذلك في الثالث من رجب ٤٨٤ هـ / ١٠٩١-١٠٩٢ م وسلمها الى ابن منقذ وعاد الى حلب(٥٠) .

وهنا يمكن التساؤل لماذا سلم قسيم الدولة أفامية لابن منقذ ولم يعين نائباعليها من قبله ؟ وتبرز هنا عدة احتمالات كانت وراء ذلك ، أولاها انه كان يريد ايجاد حليف قوي ، وقد وجد هذا الحليف في الاسرة المنقذية ، ثانيها ان هذا العمل كان تشجيعامنه لاقامة دولة تحجز بينه وبين تتش وتحمي حدوده الجنوبية ، وثالثهما حرمان تتشمن الاستيلاء عليها وبالتالي ابعاده عن حلب ، وقد تكون هذه الدوافع مجتمعة هي التي حملت آق سنقر قسيم الدولة على تسليم أفامية لابن منقذ .

بعد عودة آق سنقر الى حلب اعتقل شبل بن جامع مع أمير بني كلاب وولده مبارك بالقلعة(٥١) ، لكن المصادر لا تورد أسباب اعتقالهما . ويبدو انه فعل ذلك لاحد امرين : فاما ان يكون قد اكتشف انهما حاولا القيام بفتنة أثناء غيابه ، أو أنه خاف من قيامها مع قبيلة كلاب بعمل ما للعودة الى حكم حلب كالسابق .

في شهر رمضان من سنة ٤٨٤هـ / ايلول ـ تشرين أول ١٠٩١م ، وصل السلطان ملكشاه الى بغداد كما وصل اليها تتش وآق سنقر وغيرهما من زعماء الاطراف(٥٢) للسلام عليه ولمشاركته في الاحتفال بعيد المولد ، وحاول كل منهمان يظهر أمام السلطان بأفضل ما لديه للظهور لكسب وده وثقته ، ويبدو ان تتش عرض قضية خلافه مع آق سنقر وعدم تعاون هذا الاخير معه أثناء حصار طرابلس لكنه خسر هذه القضية بسبب اتهام آق سنقر له بالكذب،ثم فضحه لنواياه السيئة وخططهتجاه السلطان(٥٣)، ثم عادوا الى بلادهم(٥٤) ثم تذكر المصادر عودة تتش مرة ثانية للقاء أخيه السلطان ملكشاه للخدمة والتقرب ، وانه علم بخبر موته(٥٥) وهو في طريقه اليه وذلكليلة الجمعة النصف من شوال . فاستولى على هيت ثم وصل الى الرحبة فتركها دون الاستيلاء عليها(٥٦) . وعاد الى دمشق يتجهز لطلب السلطنة(٥٧) . فهل كان تحرك تتش قبل

وفاة اخيه للخدمة والتقرب فقط ، فاذا كان كذلك فهذا يعني وجود جفاء بينهما ، ويبدو أن هذا الجفاء ظهر أثناء المقابلة التي تمت في بلاط السلطان بين تتش وآق سنقر قبل أشهر في بغداد ، ولذلك فانه اراد من قدومه الى بغداد ازالة الاثار التي تركتها تلك المقابلة لدى السلطان وتوضيح موقفه مما اتهمه به آق سنقر ، وقد يكون هذا التحرك الى بغداد لهدف أبعد من ذلك ، كأن يطالب اخيه بولاية العهد بعد وفاته . ان المصادر لا توضح ذلك الاأن تصرفات تتش لمجرد سماعه بنبأ وفاة اخيه كانت تؤكد ذلك . ويذكر ابن العديم ان آق سنقر كان في طريقه الى السلطان ملكشاه ، فلما سمع بوفاته عاد الى حلب(٥٨) ، وهذا يعني أن تتش لم يكن وحده الذي ذهب لمقابلة ملكشاه، وانما آق سنقر ايضا ، وقد يكون فعل ذلك كي لا يترك فرصة لتتش يوغز فيها صدر ملكشاه ضده(٥٩) .

أكمل تتش استعداداته بغية التوجه شرقا لاخضاع البلاد لسلطانه ، وكاتب آق سنقر وبوزان يطلب مساعدتهما(٦٠) ، وكان موقف آق سنقر من هذا الطلب صعبا للاسباب التالية :

١ ــ ان السلطان ملكشاه الذي كان يؤيده ويدعمه قد توفي .

٢ ــ ان عدوه اللدود ، والذي يريد ابعاده عن الشام، يطالب بالسلطنة لنفسه،ويطلب منه المساعدة .

٣ ــ انه اذا رفض طلب تتش في المساعدة فليس لديه القدرة على دفعه(٦١) وحماية امارته منه .

٤ ــ ان الامر لم يتضح بعد في خراسان ، والخلاف قائم بين اولاد ملكشاه وخاصة محمود وبركياروق من أجل الحصول على السلطنة .

درس آق سنقر الموقف واحتمالاته ، فوجد انه لا مفر من اجابة تتش لطلبه، وقبل مكرها الاعتراف به واضعا نفسه وقواته تحت تصرفه ، كما ارسل الى ياغي سيان في انطاكية وبوزان في الرها ،يشرح لهما موقفه ، ويشير عليهما بمسايرة تاج الدولة والمسير معه حتى يعرفوا مايكون من امر اولاد السلطان ملكشاه، فامتثلا لنصيحة آق سنقر وصار الثلاثة مع تتش وخطبوا له في بلادهم(٦٢) .

عندما مر تتش بأراضي حلب متوجها الى الرحبة سنة ٤٨٦هـ/ ١٠٩٣ م التحق به كل من آق سنقر وياغي سيان وبوزان ، وتابع الجميع تحركهم الى الرحبة فاستولوا عليها في المحرم من سنة ٤٨٦هـ/شباط ١٠٩٣م حيث خطب تتش لنفسه بالسلطنة(٦٣)،

ثم القوا الحصار على نصيبين فخرج واليها يقدم الطاعة لتتش ويعرض عليه ان يكون معه ، الا ان اهلها كانوا من جماعةابراهيم بن قريش العقيلي فقاوموه ورفضوا تسليم البلد له مما اضطره الى اعطاء الاوامر لاستخدام القوة فقتل بها اناس كثيرون. وارتكبت معهم ابشع الاعمال واعتدي على حرمة النساء وافتعلت الكبائر(٦٤) فلما تـم الاستيلاء عليها جعل نائبه فيها محمد بن شرف الدولة العقيلي(٦٥) .

قام تتش باخضاع المناطق التي كان يمر بها قبل وصوله الى خراسـان . وقـد استعصت عليه الموصل التي تخضع لحكم بني عقيل برئاسة ابراهيم بن قريش العقيلي فاضطر الى قتالها وقتل العديد من أهلها حتى خضعت له ، ولم يشاهد أبشع مما فعله السلاجقة بالعرب ونسائهم في هذه المعركة حتى ان بعض النساء عمدن الى القاء انفسهم في نهر الفرات خشية مما قد يلحقهن من العار على ايدي تتش ، بينما ترك بنو عقيـل منازلهم بعد هذه الهزيمة وتوجهواالى السلطان بركياروق الذي استقرت له السلطنة بعد أبيه ملكشاه(٦٦) .

بعد ان استولى تتش وقواته المتحالفة على الموصل والمناطق التابعة لها قصد مع حلفائه ديار بكر ، فنزل على آمد فملكها مع الجزيرة واستولى على ميافارقين واعمالها وقرر أمر هذه البلاد ورتب حكامها(٦٧) ، ثم سار منها الى أذربيجان(٦٨) .

قوي مركز تتش بما ضمه من البلاد والمواضع فارسل الى الخليفة العباسي يطلب منه جعله سلطانا على البلاد والخطبة له على منابر بغداد وبلدان الخلافة العباسية ، فكان رد الخليفة بعدم الايجاب والمماطلة(٦٩) .

في هذه الاثناء كانت امور سلطنة السلاجقة قد استقرت وانتهى الاقتتال الـذي جرى بين ابناء ملكشاه محمود وبركياروق لصالح الاخير الذي اصبح سلطانا وتمت له البيعة ودعي على المنابر باسمه واستقام له الامر(٧٠) . ووصلت الانباء الى تتش فقـرر التوجه مباشرة الى خراسان ، وعندما وصل الى مدينة تبريز ، انفصـل عنه قسيم الدولة آق سنقر حاكم حلب ، وعماد الدولة بوزان حاكم الرها والتحقا ببروكياروق عند مدينةالري، وقد سر بركياروق بقدومهما وتقوى بهما وبمن وفد عليه من بني عقيل بعد سقوط الموصل(٧١) .

ويمكن ان نجد اسبابا كثيرة لانفصال آق سنقر وبوزان عن تتش وانحيازهما الى بركياروق ، فقد كان تتش منافسـا خطيرا لآق سنقر ، وتأييده ومسيره معه كان تحت ضغط الظروف(٧٢) لا انتصارا له ورغبة بحكمه . ثم انه كان يرى ان تبقى السلطنة في في ابناء سيده ملكشاه وفاء منه له ، فما ان سمع بانتصار بركياروق والخطبة له حتى ترك تتش وانحـاز الى ابن سيده. يضاف الى ذلك شعوره بانه لن يكون له من الامـر

شيء اذا تسلم تتش السلطنة .وهناك سبب ضعيف آخر يورده ابن العديم وهو أن آق سنقر شعر بأن تتش يقرب ياغي سيان ويميل اليه وقد يعتمد عليه في حكم الشام .

عند وصول آق سنقر وبوزان الى معسكر بركياروق اخذا يحذرانه من تتش وينصحانه بعدم اهمال امره ، ويحرضانه على استعجال قتاله وانهاء خطبه واوضحا له طمعهفي السلطنة وعمله لتحقيق حلمه فيها ، وانه استولى على بلاد كثيرة واشارا عليه بالمسير معهما للقضاء عليه(٧٣) .

في هذا الموقف اخذت قوات تتش بالضعف حتى انه اتخذ قراره بالعودة الى الرحبة(٧٤) . وبالفعل فقد تحرك كل من بركياروق وآق سنقر وبوزان باتجاه الرحبة، فلما علم تتش بذلك تركها واجتاز الفرات قاصدا انطاكية التي بقي بها مدة ثم عاد الى دمشق في اواخر ذي الحجة منسنة ٤٨٦هـ/ كانون اول ١٠٩٣م ومعه وثاب ابن محمود وبنو كامل وجماعة من العرب لميجسروا على الاقامةبشمال الشام لخشيتهم من قسيم الدولة امير حلب(٧٥) .

توقف بركياروق في الرحبة واشرف على عقد تحالف بين آق سنقر وبوزان من جهة ، وبين من بقي من قبيلة بني عقيل بزعامة علي بن مسلم بن قريش العقيلي منجهة ثانية ، للوقوف بوجه تتش، ثم عاد الى بغداد(٧٦) ليخطب له على منابرها ، وذلك يوم الجمعة في الرابع عشر من المحرم سنة ٤٧٨هـ/الرابع من شباط ١٠٩٤م. بينما عاد بوزان الى الرها وقسيم الدولة آق سنقر الى حلب ، ويرفقته بعضا من عساكر بركياروق وبني عقيل وغيرهم ، وكان وصوله اليها في ذي القدة سنة ٤٨٦هـ/ تشرين الثاني ١٠٩٣م(٧٧) .

وهكذا قام آق سنقر بالدور الاكبر في افشال خصمه الاول تتش ومنعه من الحصول على السلطنة وساعد بركياروق ابن صديقه وولي نمته ملكشاه بابقاء السلطنة له ، وهذا دليل آخر على صدقه واخلاصه ووفائه لسيده ، ثم انه ادرك بأن تاج الدولة تتش سينتقم للضربة التي وجهت اليه(٧٨) ، فأخذ بالاستعداد وتجهيز الجيوش للتصدي له ومنعه من الخروج من دمشق ثانية لطلب السلطنة ، ومن ثم انتزاع دمشق نفسها منه ، وطلب المساعدة والدعم من السلطان بركياروق ، وكذلك ارسل الى كربوقا الذي صار اميرا على الموصل(٧٩) وبوزان حاكم الرها ، ويوسف بن آبق امير الرحبة يطلب منهم القدوم اليه ومساعدته على الوقوف بوجه تتش . وفي الوقت الذي كان فيه آق سنقر يجمع حوله الانصار والحلفاء ، كان تتش يستعد ايضا لقتاله فضم اليه ياغي سيان وجعل منه حليفا له ، بعد ان صاهره وزوج ابنه رضوان من ابنته .

تحرك تتش باتجاه حلب لقتال آق سنقر واحتلالها في شهر ربيع الاخر سنة ٤٨٧هـ/ نيسان ١٠٩٤ م ومعه عساكر كثيرة من العرب والتركمان ، كما أنجده ياغي

سيان بعسكره والتقى به قرب حماه(٨٠) . وعندما وصل الخبر الى قسيم الدولة في حلب شرع في الجمع والاحتشاد واستعد للقائه ورده على اعقابه ، فتحرك بقواته ومعه حلفاؤه الذي وصلوا اليه ، وجماعة كثيرة من العرب الكلابيين وعلى راسهم شبل بن جامع وولده مبارك بعد ان اطلقهما من الاعتقال ، وكذلك محمد بن زائدة وجماعة من أحداث حلب والديلم والخراسانية ، وقدر عدد القوات التي تجمعت تحت قيادته بنحو من عشرين الفا ، وكانوا في أحسن زي وهيئة ، واتم آلة وعدة(٨١) .

تحرك آق سنقر بقواته المتجمعة يوم الجمعة الثامن من جمادى الاولى ٤٨٧هـ/ السابع والعشرين من ايار ١٠٩٤م . وقد قطع هذا الجيش الجرار سواقي نهر سبعين(٨٢) قاصدا عسكر تتش بينما لم يتمكن عساكر كربوقا وبوزان من قطع السواقي فظلوا في اماكنهم(٨٣) .

التقى الجيشان يوم السبت التاسع من جمادي الاولى ٤٨٧هـ/٢٨ أيار ١٠٩٤م، ويبدو أن آق سنقر كان قليل الثقة بمن معه من العرب فنقلهم اثناء المعركة من الميمنة الى الميسرة ، ثم نقلهم الى القلب فلم يغنوا شيئا . وانقض جيش تتش على جيش آق سنقر ، ودارت الدائرة على آق سنقر وعساكره ، وانتصر تتش وأصحابه وانهزم العرب وكربوقا وبوزان وعساكرهما فارين الى حلب ، ووقع القتل فيهم وتحكمت السيوف بهم ، وأسر قسيم الدولة وأكثر أصحابه وجماعة من خواصه ووزيره ابو القاسم بن بديع(٨٤) ، كما اسر شبل بن جامع امير بني كلاب فوهبه تتش لابن اخيه وثاب بن محمود ، ويبدو ان الخيانة لعبت دورا في انتصار تتش وهزيمة آق سنقر وعساكره(٨٥) .

حين أحضر آق سنقر الى تتش قال له لو ظفرت بي ما كنت صانعا في؟! قال : اقتلك ، قال فاني أحكم عليك بحكمك في ، واعدمه تاج الدولة بيده وقطع راسه وذلك في جمادى الاولى سنة ٤٨٧هـ/مايس ــ حزيران ١٠٩٤م ودفن بمشهد قرنبيا مدة ، ثم نقله ابنه الاتابك زنكي الى المدرسة الزجاجية بحلب(٨٦) .

توجه تتش في الحال الى حلب بينما كان كربوقا وبوزان الهاربين من المعركة قد اجتمعا بأهل حلب والاحداث وتقرر بينهم الاعتصام بالمدينة والاستنجاد بالسلطان بركياروق(٨٧) الا أن « سرعة وصول تتش الى اسوار حلب أحدث ارتباكا بين أهلها واحداثها وتركمانها ، وفي اثناء ذلك قفز جماعة من الاحداث وفتحوا احد ابواب حلب ونادوا بشعار تاج الدولة(٨٨) ، فتسلمها يوم الاثنين الحادي عشر من جمادى الاولى ٤٨٧هـ/٣٠ أيار ١٠٩٤، وتسلم ايضا قلعة الشريف وبات فيها كما ان نوحا والي القلعة الكبيرة منذ ايام ملكشاه سلمها الى تتش بعد أن وثق به ، كما سلمت اليه جميع الحصون في الشام ، بعد ذلك قتل بوزان حاكم الرها واعتقل كربوقا حاكم الموصل في

حمص(٨٩) ، ثم استناب على حلب ابا القاسم حسن بن علي الخوارزمي وعين المستحفظين فيها ، وسار بقواته الى ناحية الفرات لطلب السلطنة(٩٠) .

بمقتل قسيم الدولة آق سنقر انتهت فترة من فترات حكم السلاجقة المباشر في حلب ، نعمت فيها بالاستقرار والامان اللذين لم تعرفهما منذ قرن ونيف كما نشطت الحياة الاقتصادية فيها ورخصت الاسعار بالرغم من المتاعب التي تحملها أهلها بسبب الضرائب والاتاوات التي كان يتطلبها حكم آق سنقر لصرفها على جنوده وأتباعه ومظاهره ، وبالرغم من الخلاف الذي كان بينه وبين تتش وما تطلبه من قيام أهل حلب بمساعدته .

المصادر والمراجع

- ابن الاثير : ابو الحسن عز الدين علي بن محمد عبد الكريم الشيباني الجزري (ت٦٣٠هـ).
١ ـ الكامل في التاريخ ـ ١٢ جزءا ـ طبعة صادر ـ دار بيروت ١٣٨٦ هـ ـ ١٩٦٦م.
٢ ـ الباهر في الدولة الاتابكية ـ تحقيق عبد القادر طليمات القاهرة ١٩٦٣ .

- ابن ايبك الدواداري : عبد الله (ت بعد سنة ٧٣٦هـ)
٣ ـ الدرة المضية في اخبار الدولة الفاطمية ـ وهو الجزء السادس من كتاب كنز الدرر وجامع الغرر تحقيق صلاح الدين المنجد ـ طبعة القاهرة ١٩٦١ .

- ابن تغري بردى : جمال الدين ابي المحاسن بن تغري بردى الاتابكي(ت٨٧٤هـ)
٤ ـ النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ـ القاعرة ١٩٢٥ ـ ١٩٣٦ .

- ابن الجوزي : عبد الرحمن بن علي بن محمد بن علي (ت٥٩٧هـ)
٥ ـ المنتظم في تاريخ الملوك والامم ـ طبعة حيدر اباد ١٣٥٩ هـ .

- الحسيني : صدر الدين ابو الحسن بن ابي الفوارس ناصر بن علي (ت ٦٢٢هـ).
٦ ـ اخبار الدولة السلجوقية (زبدة التواريخ) تحقيق محمد اقبال ـ لاهور ١٩٢٣ م.

- ابن خلكان : ابو العباس شمس الدين احمد بن محمد (ت٦٨١هـ)
٧ ـ وفيات الاعيان وانباء ابناء الزمان ـ تحقيق احسان عباس بيروت ـ لبنان .

- **الذهبي** : الحافظ شمس الدين محمد بن احمد بن عثمان بن قايماز التركماني (ت ٧٤٨هـ).
٨ ــ العبر في خبر من غبر ــ تحقيق فؤاد السيد ــ الكويت ١٩٦١ .
٩ ــ دول الاسلام (طبعة ثانيــة) حيدر اباد ١٣٦٥ هـ.

- **سبط بن الجوزي** : شمس الدين ابي المظفر يوسف بن قزاوغلي التركي (ت ٦٥٤ هـ) .
١٠ــ مرآة الزمان في تاريخ الاعيان القسم المطبوع ــانقرة ١٩٦٨ .
١١ــ مرآة الزمان في تاريخ الاعيــان ــ مخطوطة احمد الثالث ــ رقم ٢٩٠٧س .

- **ابن العديم** : كمال الدين عمر بن أحمد بن هبة الله (ت٦٦٠هـ) .
١٢ــ بغيــة الطلب في تاريخ حلب ــ مخطوطة احمد الثالث رقم ٢٩٢٥ .
١٣ــ زبدة الحلب في تاريخ حلب تحقيق سامي الدهــان ثلاثة أجزاء ١٩٥١ ــ ١٩٥٤ ــ ١٩٦٥ م .

- **العظيمي** : محمد بن علي (ت٥٥٦هـ).
١٤ــ تاريخ العظيمي ــ تحقيق ابراهيم زعرور ــ دمشق ١٩٨٤ م .

- **ابن العماد الحنبلي** : إبو الفلاح عبد الحي (ت ١٠٨٩).
١٥ــ شذرات الذهب في أخبار من ذهب ــ طبعة مصورة ــ بيروت .

- **ابن العميد** : جرجــس (ت ٦٧٢ هـ) .
١٦ــ تاريخ المسلمين ــ ليدن ١٦٢٥م .

- **الغــزي** : كامل بن حسين بن مصطفى بالي (ت ١٢٧١ هـ).
١٧ــنهر الذهب في تاريخ حلب ــ طبعة المطبعة المارونيــة في حلب ــ ثلاثة أجزاء .

- **الفارقي** : احمد بن يوسف بن علي بن الازرق (ت٧٥٢هـ).
١٨ــ تاريخ الفارقي (الدولة المروانية) حققه بدوي عبد اللطيف عوض ــ دار الكتاب اللبناني .

- **ابو الفداء** : الملك المؤيد عمــاد الدين اسماعيل بن محمد بن عمر (ت٧٣٢هـ).
١٩ ــ المختصر في اخبار البشر ــ استامبول ١٨٦٩م .

- ابن القلانسي : حمزة ابن أسد بن علي بن محمد التميمي (ت٥٥٥هـ).
٢٠ـ تاريخ دمشق ـ تحقيق سهيل زكار ـ الطبعة الاولى ـ دار حسان ـ دمشق ١٩٨٣ .

- ابن كثير : اسماعيل بن عمر الدمشقي (ت٧٧٤هـ) .
٢١ـ البداية والنهاية ـ ١٤ جزءا ـ ٧ مجلدات ـ بيروت ١٤٠٤هـ ـ ١٩٨٣م .

- ابن واصل الحموي : مفرج الكروب في اخبار بني أيوب ـ تحقيق جمال الدين الشيال ـ القاهرة ١٩٥٣ .

- اسماعيل : علي احمد :
١ ـ تاريخ السلاجقة دمشق ١٤٠٣هـ١٩٨٣م

- بيتشوف الجرامني : ٢ ـ تحف الانباء بتاريخ حلب الشهباء ـ طبعة بيروت ١٨٨٠ م

- التدمري : عبد السلام
٣ ـ الحياة الثقافية في طرابلس الشام ـ بيروت دار فلسطين ـ ط١ ١٣٩٢ ـ ١٩٧٢.

- الجندي : محمد سليم
٤ تاريخ معرة النعمان ـ تحقيق عمر رضاكحالة دمشق ـ وزارة الثقافة ١٣٨٣ هـ ١٩٦٣م .

- زكار : سهيل
٥ ـ المدخل الى تاريخ الحروب الصليبية ـ الطبعة الثانية ـ دمشق ـ دار الفكر ١٩٧٣.

- سالم : عبد العزيز
٦ ـ طرابلس الشام في التاريخ الاسلامي ـ الاسكندرية طبعة ١٩٦٧.

- مصطفى : شاكر
٧ ـ مقال في المؤتمر الدولي لتاريخ بلاد الشام الاول ـ عمان ـ ١٩٧٥ م.

- المعاضيدي : خاشع
٨ ـ دولة بني عقيل في الموصل ـ بغداد ١٩٦٨ .

الحواشـــي :

(١) هكذا ورد في بغية الطلب وهذا يدل على عدم معرفة اسم ابيــه ولذلك قيل ابن عبد الله لان كل انسان يعتبر عبداً من عبيد الله .

(٢) ابن العديم ، بغية الطلب ، مخطوطة احمد الثالث ، المجلد الثالث .

(٣) ابن العديم ، زبدة الحلب ، ج٢،ص١٠٣ ((اسم ابيه النعمان)) .
ــ ابن الاثير ، الكامل ،ج١٠، ص ١٦٢يقول انه كان زوج دادة السلطان ملكشاه التي تربيه وتحضنه.

(٤) ابن العديم ، بغية الطلب ، زبدة الحلب ،ج٢، ص ١٠٣((كان مملوكا للسلطان ملكشاه وقيل انه لصيق به)) . ابن خلكان ، وفيات الاعيان، ج١ ، ص ٢٤١ ، ((كان مملوكا للسلطان ملكشاه بن الب ارسلان)) .

(٥) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج١، ص١١ . ابن خلكان ، وفيات الاعيان، ج١، ص ٢٤١. الذهبي، ج٣، ص ٣١٥. ابن كثير ، البداية والنهاية، ج ١٢، ص ١٤٧.

(٦) ابن العديم ، بغية الطلب (مخطوط) .

(٧) ابن الاثير ، التاريخ الباهر ، ص٤.

(٨) انظر مايلي

(٩) سهيل زكار ، المدخل ، ص ٢٧١ .

(١٠) ابن الاثير ، التاريخ الباهر ، ص٨.

(١١) ابن الاثير المصدر السابق ص ٨.

(١٢) انظر الفقرة التالية .

(١٣) ابن الاثير ، الكامل ج١٠ ، ص ١٣٦ ، الباهر ص ٥ . الدواداري ، الدرة المضية ، ص ٧٠. ابن كثير ، المصدر السابق، ج١٢، ص ١٢٦.

(١٤) ابن الاثير ، الكامل ،ج١٠، ص ١٣٦.

(١٥) ابن الاثير الكامل ، ج١٠، ص ١٤٨ ، اما في الباهر فيقول المؤرخ ان السلطان كان في الرها عندما كاتبه اهل حلب ، ص٧.

(١٦) ابن كثير ج١٢، ص١٣٠.

(١٧) ابن الاثير ، الكامل ، ج١٠،ص١٤٨ . الدواداري ، ص١٢٤ . بيتشوف ، تحف الانباء ، ص ٤٦.

(١٨) انظر اجتياز ملكشاه الفرات واحتلاله منبج في طريقه ، ثم تسلمه حلب وقلعتها في الغزي . نهــر الذهب ، ج٣ ، ص٧٦ ، ويجعــل تحــرك السلطان من اصبهان .

(١٩) ابن القلانسي، ، تاريخ دمشق ، ص ١٩٦، يجعل تقرير ولاية آق سنقر على حلب سنة ٤٨٠هـ /١٠٨٧ ــ ١٠٨٨ ورغم ذلك فانــه يذكر ان السلطان عيد في حلب ثم رحل عنها ســنة ٤٧٩هـ/ ١٠٨٦-١٠٨٧ وقبل رحيله اقر آق سنقر على حلب وهو الصواب ، ابن الاثير ، الكامـــل ،ج١٠، ص١٥٠ سبط بن الجـوزي ، مرآة الزمان ص٢٤٤ ، ويجعل ذلك سنة ٤٨٠ هـ . ابن العبــري، تاريخ الزمان ، ص ١٢٠ . ابن العديم، بغية الطلب (مخطوط)، الذهبي ، ج٢ ، ص٩ . ابن كثير، ج٢ ، ص١٣٠ .

(٢٠) ابن العماد ، شذرات الذهب ، ج٣، ص٣٨٠، الدواداري ، ص ٣٠٤ ، الغزي ، نهر الذهب، ص ٧٧، بيتشوف ص٧.

(٢١) زكار ، المدخل ، ص ٧٣.

(٢٢) شاكر مصطفى ، دخول الترك الغزالي الى بلاد الشام ، ص ٣٠٧ .

(٢٣) مصطفى ، ص٣١٤.
(٢٤) ابن العديم ، زبدة الحلب ، ج٢، ص ٤٣٧.
(٢٥) مصطفى ص ٣١٥.
(٢٦) ابن الاثير ، الكامل ، ج١٠ ، ص١٨٠ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ، ج٢، ص ٤٦٧، ٤٦٨، الغزي ج٣ ، ص٧٧.
(٢٧) ابن القلانسي ،ص ١٩٧، ابن الاثير ،الكامل، ج١٠، ص ١٨٠ ، ابن العديم ، المصدر السابق، ج٢ ، ص ٤٦٧ ، ٤٦٨.
(٢٨) ابن الاثير ، الكامل ، ج١٠، ص ١٨٠.
(٢٩) ابن القلانسي ، ص ١٩٧.
(٣٠) ابن الاثير ، الباهر ، ص ١٥ ، الكامل ،ج١٠ ، ص ٢٣٣، ابن واصل، ج١، ص ٢٧.
(٣١) ابن العديم ، بغية الطلب (مخطوط).
(٣٢) ابن الجوزي ، مرآة الزمان ، القسم المطبوع، ص ٢٤٤.
(٣٣) ابن القلانسي ، ص١٩٦ ، ومثل هذا القول اورده كل من ابن الجوزي في مرآة الزمان (القسم المطبوع) ص ٢٤٤ وابن واصل في كتابه مفرج الكروب ، ج١ ، ص٢٧ .
(٣٤) ابن الاثير ، الكامل ، ج١٠ ، ص ٢٣٣ ، الباهر ، ص ١٥.
(٣٥) زكار ، المدخل ، ص ٢٧١ (ترجمة آق سنقر من بغية الطلب).
(٣٦) ابن كثير ، ج ١٢ ، ص ١٤٧.
(٣٧) الغزي ، ج٣، ص ٧٧.
(٣٨) كان آق سنقر قد زاد عدد جيشه بما جنده من التركمان الموجودين في المنطقة .
(٣٩) ابن الاثير ، الباهر ، ص٥ ، ابن العديم، زبدة الحلب ، ج٢، ص ٤٧٢، الذهبي ، دول الاسلام ج٢، ص ١٢.
(٤٠) زكار ، المدخل ، ص ٢٧٢ .
(٤١) احمد اسماعيل علي ، تاريخ السلاجقة ،ص٢٣٦.
(٤٢) ابن القلانسي ، ص١٩٧، ابن الاثير ،الكامل، ج١٠ ، ص ١٦٨، ابن العديم، زبدة الحلب ، ج٢، ص٤٦٥، ابو الفداء ، المختصر في اخبار البشر، ص ١٩٩، الدواداري ، ص ٤٣١، والغزي ،ج٣،ص٧٧.
(٤٣) برزية ، حصن قرب السواحل الشامية على سن جبل شاهق يضرب به المثل لحصانته ، ياقوت، ج١ ، ص ٣٨٣.
(٤٤) ابن العديم ، زبدة الحلب ، ج٢، ص٤٦٧-٤٦٨.
(٤٥) ابن الجوزي ، (القسم المطبوع) ، ص٢٤٤ ، الحسيني، زبدة التواريخ ، ص ١٤٣ - ١٤٤، زكار ، ص ٢١٦.
(٤٦) التدمري ، تاريخ طرابلس ، ص ٢٦٥.
(٤٧) زكار ،ص ٢١٦.
(٤٨) العظيمي ، تاريخ ، ص ٣٣٦، ابن القلانسي ص ١٩٨ ، الغزي ص ٧٧ .
(٤٩) ابن الاثير ، الكامل ، ج١٠،ص ٤٠٨. ابن العديم ، زبدة الحلب ، ج٢ص٤٦٧-٤٦٨.
(٥٠) التدمري ص٢٦٥. عبد العزيز سالم ،طرابلس الشام ص ٧١.
(٥١) ابن الاثير ، الكامل ، ج١٠ ، ص ٢٠٢، الدواداري ، ص٤٣١-٤٣٢ . سالم ، ص٧٢.
(٥٢) العظيمي ، ص ٣٥٥ . ابن القلانسي ،ص١٩٨، ابن العديم ، زبدة الحلب ، ج٢،ص٤٦٧-٤٦٨، الدواداري ص ٤١٣ ، الجندي ،تاريخ المعرة ، ص ١٤٢.
(٥٣) العظيمي ، ص ٣٥٥ . ابن القلانسي ،ص١٩٨ . ابن العديم ، المصدر السابق والصفحة. الدواداري ، المصدر السابق والصفحة ، الجندي، المصدر السابق والصفحة .

(٥٤) ابن الاثير، الكامل ، ج١٠ ، ص ١٩٩ ،بيشوف ، ص ٤٦.
(٥٥) زكار ،ص٢٢٠.
(٥٦) ابن الاثير ، المصدر السابق، ج١٠، ص٢١٧.
(٥٧) العظيمي ، ص ٣٥٦، ابن الاثير ، المصدرالسابق ، ج ١٠، ص ٢١٩ .
(٥٨) ابن القلانسي ، ص٢٠٠-٢٠١ .
(٥٩) ابن الاثير ، المصدر السابق ،ج١٠ ص ٢١٩، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة ، ج٥ ص ١٣٧ .
(٦٠) ابن العديم ، زبدة الحلب ، ج٢ ص ٤٧٠-٤٧١.
(٦١) ابن الاثير ، الباهر ، ص٨.
(٦٢) ابن الاثير ، الكامل ، ج١٠ص٢٢٠.
(٦٣) ابن الاثير ، الكامل ، ج١٠ص ٢٢١.
(٦٤) ابن الاثير الكامل ، ج١٠ ص ٢٢١ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ج٢ ص ٤٧١-٤٧٢ مختار باشا ، التوفيقات الالهامية ، تحقيق محمد عمار،المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠ م ج١ ص ٥١٨.
(٦٥) ابن الجوزي ، ج٩ ص ٢٩ . ابن الاثير ، الكامل ج١ ص٢٢١ ،الباهر ، ص١٢ ، ابن العديم ، المصدر السابق ، ج٢ص ٤٧١-٤٧٢ .الدواداري ، ص ٣٢. ابن كثير، ج١٢ص١٤٤ ، الغزي، ج٣ص٧٧. بيتشوف ص ٤٧. مختار باشا،المصدر السابق ، ج١ص٥١٨ .
(٦٦) العظيمي ص ٣٥٦ .يقول ان آق سنقر هو الذي فتح نصيبين بالسيف. ابن القلانسي ،ص٢٠١، ابن الاثير ، الكامل ،ج١٠ ص ٢٢٠، الباهرص ١٢ ، الدواداري ، ص ٣٢، الذهبي ،العبر ، ج٣ ص٣١٠ ، دول الاسلام ، ج٢ص ١٤. بيشوف ص ٤٦.
(٦٧) ابن الاثير ، الكامل ، ج١٠ ص ٢٢٠.
(٦٨) ابن القلانسي ، ص٢٠٢-٢٠٣ . ابن الجوزي، ج٩ ص ٢٩. ابن الاثير ، الكامل ، ج١٠ ص٢٢١. ابن العديم ، زبدة الحلب ، ج٢ص٤٧٢. الذهبي ، دول الاسلام ج٢ ص١٤ ، ابن كثير ، ج١٢ ص ١٤٤ . ابن تغري بردي، ج٥ص١٣٧ . بيشوف ص ٤٧. زكار ص ٢٢٣، الماضيدي ، دولة بني عقيل ص ١٣٩.
(٦٩) ابن القلانسي ، ص ٢٠٢ . ابن الاثير ، الكامل ، ج١٠ ص ٢٢٢، الباهر ص ١٢ .ابن كثير، ج١٢ ص ١٤٤. الغزي ، ج٣ ص٧٧. بيشوف ص٤٧ .الماضيدي ص ١٤٠ .زكار ص ٢٢٣.
(٧٠) ابن الاثير ، الكامل ، ج١٠ ص ٢٢٢. الفارقي، القاهرة ١٩٥٩ ، ص ٢٤٣. ابن كثير ، ج ١٢ص ١٤٤. الذهبي ، دول الاسلام ج٢ ،ص٢٠ .
(٧١) ابن الاثير ، الكامل ، ج١٠ ص ٢٢٢ . ابن الجوزي ،ج٩ ص٢٩ . الذهبي، دول الاسلام ج٢ ص ٢٩، مختار باشا ، ج١ ص٥١٨.
(٧٢) ابن القلانسي ، ص٢٠٠ ابن الاثير، الكامل، ج١٠ ص ٢١٤ - ٢١٥ ، ٢٢٢.
(٧٣) العظيمي ص ٣٥٦ ، ابن القلانسي ص ٢٠٣،ابن الجوزي ج٨ ، ص٢٩، ابن الاثير، الكامل ج١٠ ص٢٢٢، ابن العديم ، زبدة الحلب ، ج٢ص٤٧٢ ، الدواداري ص ٣٣.
(٧٤) الذهبي ، دول الاسلام، ج٢ ص١٤. العبر،ج٣ص ٣١٠-٣١١. ابن كثير ، ج١٢ ص ١٤٤-١٤٥، الفارقي ص ٢٤٣ . ابن العميد ، المصدرالسابق ، ص ١٧٤، الغزي ص ٧٨، زكار ص ٢٢٤.
(٧٥) انظر ما سبق .
(٧٦) ابن القلانسي ص ٢٠٤.
(٧٧) ابن القلانسي ص ٢٠٣ ، بيتشوف ص٤٧.
(٧٨) العظيمي ص ٣٥٦ . ابن القلانسي ص٢٠٤،زكار ص ٢٢٥.
(٧٩) العظيمي ص٣٥٧. مختار باشا ، ج١ ص٥١٩ . زكار ص ٢٢٤ .

(٨٠) العظيمي ص ٣٥٦ . ابن القلانسي ص٢٠٤ .

(٨١) ابن القلانسي ، ج١٠ ص ٢٠٢.

(٨٢) ابن الاثير ، الكامل ، ج١٠ ص ٢٣٢.

(٨٣) ابن الاثير ، الباهر ، ص ١٥.ابن الجوزي، مخطوط احمد الثالث رقم ٢٩٠٧ . الذهبي ،دول الاسلام ، ج٢ ص ١٢ . بيتشوف ، ص ٤٧.

(٨٤) ابن الاثير ، التاريخ الباهر ص ١٥ . ابـن‌العديم ، زبدة الحلب ، ج٢ ص ٤٧٢ ، يقدر عـدد جيش آق سنقر بستة آلاف فارس وراجل. الذهبي ، دول الاسلام ، ج٢ ص ١٢. ابن الجوزي، مخطوطة احمد الثالث رقم ٢٩٠٧س .

(٨٥) ابن الاثير ، الباهر ص ١٥ ، يجعل التقاء الجيش على نهر سبعين بالقرب من تل السلطان. ابو الفداء ج١ ص ٢١٢-٢١٣.

(٨٦) ابن القلانسي ص ٢٠٥.

(٨٧) العظيمي ، ص ٥٧ ٣. ابن القلانسي ص٢٠٦-٢٠٧ . ابن العديم ، زبدة الحلب ، ج٢ ص٤٧٦. ابن كثير، ج١٢ ص ١٤٤-١٤٥ . الغزي،ج٣ص ٧٧.

(٨٨) ابن الاثير ، الباهر ، ص ٦٥، بيتشوف ص٢٧ ، ويقول انه عندما اقتتلوا تحاصر بعض عسـكر آق سنقر وسار مع تتش .

(٨٩) ابن القلانسي ص ٢٠٨ .ابن الاثير، الكامل،ج١٠، ص ٢٣٢، الباهر ص١٥ . ابن العديـم ، المصدر السابق ، ج٢ ص ٤٧٦ . ابو الفداءج١ ص ٢١٤-٢١٥ . الذهبي ، دول الاسلام ، ج٢، ص٢١٦ ، العبر ، ج٣ ص ٣١٤ - ٣١٥ .ابن‌تغري بردي ، ج٥ ص ١٤١ . الفارقي ص ٢٣٤. ابن العماد ج٣ ص ٣٨٠. زكار ص ٢٢٧ .

(٩٠) ابن القلانسي ، ص ٢٠٨ . زكار ص٢٢٧.

الإقطاع العسكري في العهد الأيوبي

أمين أبو دمعة
مرشح للماجستير

المقدمـــة :

من المعلوم ان العرب خرجوا للفتوح تحت راية الاســلام . فاحدثت هذه تبدلات كبيرة في حياتهم ، وتمثلت هذه التبدلات في كافة النواحي وبخاصة الاقتصادية منها ، وقد ادرك العرب المسلمون اهمية الارض فاتجهوا الى الملكية الزراعية واستحواذ الارض الموات . كذلك كانت الفتوح عاملا هامــا في القضاء علــى الاقطــاع القديم في البــلاد المفتوحة ، في بلاد الشام وغيرها .

واعتبرت الارض التي كانت تحت الحكم البيزنطي ملكا للامة تعود لبيت المال . يتصرف بها الخليفة حسب تقديره وعوملت ، عمومــا ، معاملة الاراضي الخراجية . الا ما اقتطع بالتمليك للعرب فتدفع العشر . ويبدو أن الملكيات الزراعية الكبيرة كثرت لدى المسلمين في أواخر ايام الامويين وصارت اقرب الى نوع مــن الاقطاع الزراعــي . وتحددت الارض في زمن العباسيين بثلاثة اصناف : الصنــف الاول : ارض الصــوافي وتعود ملكيتها لبيت المــال وللخليفة ان يتصرف بها عــن طريق الهبــة او الاقطــاع أو الاستغلال . والصنف الثاني : اراضي الخراج او جل اراضي البــلاد المفتوحة وتزرع مقابل دفع الخراج عنها ، اما الصنف الثالث م نالارض فهي الموات التي تستصلح ، وقد اعتبرت عشرية ، اي انها ملك خالص لمــن يستصلحها . وكانت هذه هي البــذور الاولى للاقطاع الذي تطور مع الزمــن . وبتسلط الاعاجم على الدولة والخلافة وفقدان الخليفة لهيبته ، توسع الو الامر في اقطاع الاراضي فنشــا نوع جديد من الاقطاع لــه وجهــان ، مدني وعســكري .

فالاقطاع الذي هو ان يقطع السلطان أرضا لشخص ما فتصير رقبتها له(١) اي تصبح ملكا لصاحب الاقطاع . او بتعبير آخر هو تقسيم الاراضي الزراعية أقساما أو اقطاعات يختص السلطان نفسه بنسبة منها ويمنح البقية لامرائه ، والمقطع يســتغل اقطاعه لفائدته(٢) .وكان لهذا الاقطاع في الدولة الاسلامية معنيان ، الاول منح الاراضي

التي لا مالك لها مقابل الخراج أو العشور(٣) . والثاني : منح غلة الارض مقابل اعطاء شيء أو ضمانة لبيت المال ، وعليه فالاقطاع قد يكون اقطاع اقليم بكامله . نظير ضريبة تدفع ، أو اقطاع جزء من الارض مقابل العشر او الخراج ، أو توزيع دخل قطعة من الارض كأجر أو معاش(٤) .

وقد أورد الماوردي(٥) في كتابه الاحكام السلطانية فصلا خاصا للاقطاع وأصنافه من حيث ما يصيبها من الحقوق ، فجعلها في صنفين : اقطاع تمليك، واقطاع استغلال، وعرف الاقطاع المدني بقوله : « ان تكون لصاحبه ملكية تامة وقد تكون وراثية ايضا، وعلى صاحبه دفع العشر .ويعطى من الارض الموات لاحيائها ،أو من ارض توفي صاحبها دون وارث » .

ولا بد هنا من التفريق بين كلمتي القطيعة والاقطاع ، فهما من نفس الاشتقاق ولكنهما يختلفان في الدلالة . فالقطيعة بمعناها الاساسي : أرض تقتطعها الدولة من املاكها وتمنحها دونما تحديد للمدة في غالب الاحيان الى رجل مسلم يمارس فيها عمليا جميع امتيازات المالك ولكنه يتحمل أيضا جميع أعباء المالك المسلم . اي ان له فيها حقوق المالك ، وليس له فيها اي حق من حقوق السيادة ، وهو ملزم باستثمار الارض او احياء الارض الموات والا نزعت منه الارض ومنحت لمنتفع آخر يحسن استثمارها(٦).

وكان الهدف من الاقطاع في صدر الاسلام التعمير والاسكان(٧) ويرجع لعهد رسول الله (ص) فقد روى الحافظ ابن عساكر في تاريخه بسنده الى ابن سيرين عن تميم الداري انه قال : « استقطعت رسول الله (ص) أرضا بالشام قبل أن تفتح فأعطانيها ، ففتحها عمر بن الخطاب في زمانه ، فأتيته فقلت : « ان رسول الله (ص) اعطاني أرضا من كذاوالى كذا. فجعل عمر ثلثها لابن السبيل وثلثا لعمارتها وثلثا لنا(٨). وقال ابو يوسف(٩) أقطع الرسول أقواما ، وأقطع الخلفاء من بعده ، من راوا في اقطاعه صلاحا لعمارة الارض ونفعا للمسلمين » .

ومن المعلوم أن عمر بن الخطاب رفض اقطاع السواد من أرض العراق واستطاب نفوس الفاتحين علاجا لما قد يطرأ على المجتمع الاسلامي من ازدياد السكان ، وتجنبا لما قد يؤديه التقسيم الاقطاعي من بذر بذور التفرقة ، فضلا عن الفوارق الطبقية، ومما قاله بهذا الصدد اخاف ان قسمته ان تتفاسدوا بينكم في الحياة(١٠) . ويقصد بذلك الفتن والحروب . وكذلك رفض علي بن أبي طالب اقطاع الارض لاسباب اوضحها قائلا : « لولا ان يضرب بعضكم رقاب بعض لقسمت السواد بينكم »(١١). واقطع عثمان ابن عفان أرض السواد اقطاع اجارة لا اقطاع تمليك(١٢) ولعل عثمان توسع أكثر من غيره في منح الاقطاعات .

ومنذ الايام الاولى لمعاوية بن ابي سفيان اقدم على اقطاع اناس من قريش وأشراف العرب من أرض الصوافي(١٣). وبعد أن نفذت هذه الاراضي أخذ معاوية ومن جاء بعده

من الخلفاء الامويين يقطعون من أرض الخراج ، واستمر ذلك في الدور الاول للحكم العباسي ثم بدأ ظهور نظام اقطاعي جديد هو :

الاقطاع العسكري : وقد اعتبر مصدر دخل سنوي للامير او الجندي تبعا لرتبته العسكرية وبلائه في الحرب(١٤) . ولذلك اعتبرت الخدمة العسكرية الاساس الاولى في الحصول على الاقطاع(١٥) ويدخل في نطاقها اعمال حفظ الامن في الداخل والخارج(١٦). ويحصل على الاقطاع من السلطان وديوان الجيش(١٧) . فمنذ عهد المعتصم الخليفة العباسي ٢١٨-٢٢٧هـ / ٨٣٣-٨٤٢م أخذ الاعتماد على الجند المرتزقةالذين كان يغلب عليهم العنصر التركي ، حتى كان عهد المستكفي ٣٣٤هـ/٩٤٤م الذي خلع بعد استيلاء معز الدولة البويهي بأربعين يوما(١٨) . فانفرد هذا بالسلطة واقطع قواده وخواصه من الاتراك ضياع السلطان وضياع الفارين والمستترين (١٩) ، وغيرها . وهذه الاقطاعات لم تكن وراثية كما أنها لا تدوم مدى الحياة ولا تعد تمليكا لصاحبها . لان الامير البويهي احتفظ بحق الغائها متى أراد(٢٠) ، وانما تمنح ليعوض واردها عن الراتبالذي لا تستطيع الخزينة المركزية البويهية المرتبكة دفعه ، فكان يصحب المنح اتفاق يفرض على صاحب الاقطاع دفع كمية من النقود او ما يعادلها من الغلة مع تسهيلات ، كأن يتم الدفع على اقساط(٢١) وكان عليه العناية بالقنوات المارة بأرضه ، وان تكون للادارة المركزية سلطة داخل الاقطاع . ولكن الاقطاعين من الجند لم يتقيدوا بهذه الشروط وتصرفوا حسب أهوائهم (٢٢) .

ومع انتقال السلطة الى السلاجقة سنة ٤٤٧هـ/١٠٥٥م ظل الاقطاع محافظا على طابعه السابق(٢٣) . ويبدو ان ما قام به البويهيون أدى الى خراب البلاد ، مما حدا بنظام الملك الفارسي وزير ألب ارسلان ٤٥٧-٤٦٥هـ/١٠٦٥-١٠٧٢م ان يعالج الامر كما تراءى له(٢٤) اذ جعل الاقطاع الحربي عاما في الدولة السلجوقية(٢٥) . ففرق البلاد على الاجناد اقطاعا كل قدر طاقته وجعل واردها لهم على أن يقدم المقطع عددا من الجنود للجيش السلطاني . كما حرص على عدم تركيز الاقطاع في جهة واحدة(٢٦) خيفة الاستقلال والثورة . واشار المقريزي الى ذلك « .. وذلك ان مملكته اتسعت فراى أن يسلم كل مقطع قرية او اكثر على قدر طاقته»(٢٧) . وفي سنة ٥٥٨هـ/١١٦٣م أبقى نور الدين اولاد الجندي المتوفى على اقطاع أبيهم ، فان لم يكن له ولد جعله لبعض أهله للمحافظة على تعداد العسكريين . وصار ذلك مبدأ . فاذا توفي احد الجنود وخلف ولدا ذكرا اقر السلطان اقطاعه عليه ، فان كانالولد كبيرا تولى اقطاعهوواجباته بنفسه ، وان كان صغيرا رتب السلطان معه رجلا وصيا يتولى امره حتى يكبر ». وصار الاجناد يقولون : « هذه املاكنا يرثها الولد عن الوالد فنحن نقاتل عليها(٢٨)»،ومن المعروف ان الدولة النورية كانت دولة عسكرية جهادية ضمن الدولة السلجوقية الكبرى ، اي انها قامت على نظام اقطاعي حربي جانح الى الوراثة في بعض الاحيان ،

وشهد ابناء البيت الايوبي ذلك كله ، وتربوا فيه وعاشوا في مدارجه ثم تولى صلاح الدين شحنة دمشق . وتملك اقطاعات مناسبة كما ذكر ابو شامة(٢٩) . ومن المعروف أيضا أن الدولة الفاطمية عمرت اكثر من قرنين من الزمان ، وكانت القاهرة مركز هذه الدولة ممتلئة بدور الحكومة ذات الانظمة المعقدة والتقاليد الطويلة المبنيـة على خبرة واسعة . وشهد ابناء البيت الايوبي ومارسوا تلك النظم وبخاصة صلاح الدين الـذي تولى الوزارة فيها لاكثر من سنتين .

ولما انفرد صلاح الدين بالحكم عدل بعضا منها ، وفي هذا المعنى قال المقريـزي: « ولما انقضت دولة الفاطميين ، واستولى صلاح الدين يوسـف بن أيوب على مملكـة مصر تغير الحال بعض التغيير لا كله »(٣٠) . ولذلك فان اقامـة صـلاح الدين للنظام الاقطاعي لم يكن خروجا عن النظام الاجتماعي القائم . غير ان اعتلاءه العرش اعطى هذا التطور دفعة قوية الى الامام .

الاقطاع العسكري في العصر الايوبي :

الجيش الايوبي : تكونت النـواة الاولى للجيش الايوبي بمصر من القـوات التي اصطحبها اسد الدين شيركوه في حملته الثالثة الى مصر سنة ٥٦٤هـ/١١٦٩ م وعدتها خمسمائة فارس من الاكراد والمماليك ، وهم المعروفون باسم « الاسدية » وستة الاف فارس من القبائل التركمانية بأمرة عين الدولة الياروقي(٣١) فضلا عن عدد غير معروف من الجند(٣٢) .

ولما تقلد صلاح الدين الوزارة المصريـة ٢٥ جمادى الاخـرة ٥٦٤هـ/ ٢٣ اذار ١١٦٩م انسحب التركمان وعدد من الامراء الاتراك ورجعوا الى الشام(٣٣) بمن معهم من الفرسان لان اختيار صلاح الدين للوزارة من دونهم اساءهم وحز في نفوسهم ، فاضطر لاحاطة نفسه بطائفة من المماليك الخاصة بقيادة الامير ابي الهيجاء(٣٤) اطلق عليهـم اسم « الصلاحية » (٣٥) . ومن الطبيعي ان يتخذ صلاح الدين من هاتـين الطائفتـين (الاسدية والصلاحية) نواة جيشه وان يخصهم بانعامه لانهم عماد قوتـه ، فشـرع باسترجاع اقطاع الجند الفاطميين واستطاع بفترة وجيزة ان يكون قوة كبيرة كادت تستنفذ موارد مصر .

في الحملة الاولى على الشام والاستيلاء على دمشق سنة ٥٧٠هـ/١١٧٥-١١٧٦م كان عدد فرسان صلاح الدين ستة الاف فارس بمن فيهم عسكر دمشق وخواصه مـن الصلاحية(٣٦) وكان عدد الجيش المصري لا يزيد على اربعة الاف مقاتل(٣٧) . وقبـل المسير الى حطين كان تعداد جيش صلاح الدين اثني عشر الف مقاتل . الف من اجنـاد الحلقة . واربعة آلاف من العساكر المصرية والف من عساكر دمشق والف مـن حلب

وخمسة الاف من الجزيرة والموصل وديار بكر . ولسد نفقات هذا الجيش لم يكن امام صلاح الدين خيار الا اتباع نظام الاقطاع العسكري الذي استوحاه من الانظمة السلجوقية . وادخل عليه بعض التعديلات التي اقتضتها الظروف المستجدة في ايامه، من حيث الادارة والنظم المالية وغيرها ، فتحددت الضرائب والرسوم ، ونظمت الواردات والنفقات وخصصت لها الدواوين والموظفين . ويقول الدكتور سهيل زكار : « وعندما يتفحص المرء دولة صلاح الدين في أواخر ايامه يجدها قد اصبحت اشبه بامبراطورية تضم عددا من الدول يربطها بالسلطان نظام الاقطاع العسكري. هذا النظام الذي تطور ايام السلاجقة وادخلت عليه تعديلات كبيرة وقد ورث صلاح الدين هذا النظام »(٣٨) وترجع اهمية عصر صلاح الدين لموضوعنا الى أنه العصر الذي تأسست فيه قواعد النظم الايوبية ، الادارية والمالية والاقطاعية .

أسس حيازة الاقطاع :

اتبع صلاح الدين نهج سيده نور الدين محمود بن زنكي الذي كانت له نظرته الخاصة الى الاقطاع . يقول زنكي : « اذا كانت البلاد لنا فاي حاجة بكم الى الاملاك؟ فان الاقطاعات تغني عنها ، وان خرجت البلاد من أيدينا فان الاملاك تذهب معها. ومتى صارت الاملاك لاصحاب السلطان ظلموا الرعية وتعدوا عليها وغصبوها أملاكها »(٣٩). وذكرت الاخبار ان العادل أخا صلاح الدين طلب ذات مرة ان يملكه اخوه صلاح الدين نواحي حلب ويكتب له بها كتابا كأنه بيع وشراء ، فامتنع صلاح الدين وقال : « انما تكون اقطاعا والبلاد لاهلها والمرابطين فيها ونحن خزنة المسلمين دعاة الدين(٤٠) .

وعندما عزم صلاح الدين على تقسيم املاك دولته بين ابنائه واهل بيته جعل التقسيم على اسس اقطاعية(٤١) وكذلك حصر الملك العادل ابو بكر اخو صلاح الدين الاقطاعات في اولاده ، وغدت البلاد المصرية كلها اقطاعات عسكرية . يذكر المقريزي : « ومنذ كانت ايام صلاح الدين الى يومنا هذا (ايام المقريزي ٨٤٥هـ/١٤٤٢م) فان اراضي مصر كلها صارت تقطع للسلطان وامرائه واجناده » وبالقياس فان اراضي الشام ايضا اصبحت كلها اقطاعات . ومن هذه الاقطاعات ما هو خاص بأفراد البيت الايوبي من امراء وموظفين وكتاب ويقتصر على وحدة اقليمية ادارية(٤٢) كدمشق وحلب وحمص وحماة وبعلبك والكرك والشوبك ، واقاليم الجزيرة وديار بكر وغيرها ، وتسمى بالاقطاع الاداري ، ومنها ما اقترن بخدمات حربية يؤديها المقطع ، وبخضوعه للحكومة المركزية ، ولم تكن وراثية ومن النادر ان تعطى مدى الحياة وتسمى اقطاعات حربية(٤٢). ومنها ما يعطى نظير تأدية خدمات تتعلق بالامن الخارجي والداخلي واعمال القتال مثل التعبئة العامة والتنظيم والتأمين واستمالة المجاورين وتثبيط الاعداء وخداعهم قبل المسير للحرب ، وتسمى اقطاعات شخصية(٤٢) .

افاد صلاح الدين من كل قوةتخدم دولته فقرب الامراء الذين خضعوا لهوساعدوه في فتوحاته فاقطعهم ، كما اقر كثيرا من الامراء النورية على ما بأيديهم وزادهم اقطاعات جديدة لانحيازهم له منذ ٥٦٧هـ/١١٧١ م ومساعدتهم في فتوحه زمن توحيد الجبهة الاسلامية ضد الصليبيين(٤٥) . وقد سار خلفاء صلاح الدين على سنته في التوزيع الاقطاعي الحربي ولم يكن لديهم مايحول دون منح الاقطاع لامير مغامر أجنبي عن البلاد طرأ على الدولة وطلب الدخول في خدمتها ما دام يؤدي الخدمة الحربية وهناك نسخة توقيع لامير من هذا النوع ليس فيها ما يدل الا على اهمية الجهاد الحربي(٤٦).

توزيع الاقطاعات :

بدأ صلاح الدين بتوزيع الاقطاعات مذ كان نائبا عن سيده نور الدين في الديار المصرية . فقد استقدم والده نجم الدين ايوب من دمشق(٤٧) فأقطعه الاسكندرية ودمياط والبحيرة وذلك في سنة ٥٦٥هـ/١١٧٠ م وقدر دخلها بـ (٤٠٠) الف دينار(٤٨) وفي الوقت نفسه اقطع أخاه شمس الدولة محمد تورانشاه ، الذي نشأ في كفالته وكنفه قوص واسوان وعيذاب(٤٩) . وتقع جنوب الصعيد ، ثم اضيفت اليه بوش ودخلها مع ملحقاتها ٧٠ ألف دينار والجيزة وسمنود ودخلها ٦٠ الف دينار ، واعتمد عليه في فتوح اليمن والنوبة وليبيا وأطلق يده في اقطاع ما يفتح من البلاد لمن يشاء من امرائه وخواصه (٥٠) .

ولما حضر الى مصر ابن اخيه تقي الدين عمر بعساكره وعدتهم خمسمائة جندي في سنة ٥٦٦هـ / ١١٧١م ، اقطعهم اقليم البحيرة لسد نفقاتهم(٥١) ، وبعد وفاة نور الدين سنة ٥٦٩هـ/١١٧٣م تفرقت كلمة الامراء النوريين في الشام ، فاستولى صلاح الدين على دمشق ثم زحف على حمص فضمها اليه واقطعها لابن عمه ناصر الدين محمد بن شيركوه ، بالاضافة الى اقطاع الرحبة الذي كان بيده(٥٢). وبعد الاستيلاء على حماه اقطعها لخاله شهاب الدين محمود الحارمي(٥٣) ، وبقي عليها حتى وفاته فتسلمها من بعده الامير ناصر الدين منكورس ابن الامير خمارتكين صاحب حصن ابي قبيس ومتولى عسكره(٥٤) .وفي سنة ٥٧٤هـ/١١٧٨م اقطعت لتقي الدين عمر الذي جند العساكر وأعد العدة لمواجهة اي خطر صليبي ، ولما حضر الى الشام أخوه تورانشاه قادما من اليمن طلب من اخيه صلاح الدين في سنة ٥٧٤هـ/١١٧٨م ان يقطعه بعلبك، فأمر صلاح الدين صاحبها ابن المقدم ان ينزل عنها فابى فأرسل اليه قوة ارغمته على التنازل فاشترط التعويض عنها فأجابه صلاح الدين وتسلم تورانشاه بعلبك(٥٥) وفي سنة ٥٧٥هـ/١١٧٩م كلف تورانشاه بالذهاب الى الاسكندرية بمهمة فحل مكانه عز الدين فروخشاه ابن اخ صلاح الدين . ولبث في اقطاعه حتى وفاته سنة ٥٧٨ هـ ١١٨٢م فعين صلاح الدين ابنه الامجد بهرامشاه مكانه واستمر حتى وفاته ٦٢٧هـ/١٢٣٠م اي قرابة خمسين سنة(٥٦) . وفي عام ٥٨١هـ/١١٨٥ م وبعد وفاة ناصر الدين محمد بن شيركوه . اقر صلاح الدين ابنه على جميع اقطاعات ابيه .

وفي سنة ٥٨٢هـ/١١٨٦م اقطع صلاح الدين دمشق لابنه الافضل علي(٥٧) وفي نفس السنة استرد صلاح الدين حلب من اخيه العادل ابي بكر وعوضه عنها حران وميا فارقين ، ثم طلب منه التنازل عن كل اقطاعاته في الشام ما عدا الكرك والشوبك والبلقاء ، وعوضه عن ذلك باقطاعه البلاد الشرقية(٥٨). (الجزيرة واطراف دجلة)، واعطى ابنه الملك الظاهر غازي حلب بعد ان استردها من أخيه العادل. وعقب انتصاره في حطين في سنة ٥٨٣هـ/١١٨٧م بعث قوة بقيادة ابن اخته حسام الدين محمد بن عمر ابن لاشين الى نابلس التي اقطعت له بعد طرد الصليبيين منها. وقد ترسم الملك العادل خطوات اخيه صلاح الدين حين انفرد بالامر في بلاد الشام ومصر فأقطع أولاده دون غيرهم ، فأعطى الاشرف بلاد ماردين في سنة ٦٠٢هـ/١٢٠٥ ، وخص ابنه الكامل بأعمال المقاطعات الشرقية التي كانت له ايام أخيه صلاح الدين واقطع ابنه المعظم عيسى قلعة صرخد(٥٩) كما نهج أبناء العادل نهج ابيهم فاقطعوا الاقطاعات لمماليكهم وخواصهم .

واعتمد صلاح الدين وخلفاؤه من السلاطين الايوبيين على عدد من القادة العسكريين الذين أسهموا في توطيد الحكم الايوبي في مصر والشام . وابلوا في قتال الفرنج الصليبيين بلاء حسنا فاستحقوا تقديرهم فأغدقوا عليهم الاموال واقطعوهم الارضين والضياع وحاولوا كسبهم الى جانبهم في كل الاوقات خشية ازدياد نفوذهم وثورتهم ، وبالتالي انفصالهم عن السلطة المركزية واستقلالهم . فعين صلاح الدين شمس الدين بن المقدم اميرا على دمشق ثم اقطعه بعرين وكفر طاب وحصن رعبان كما أقطعه بعلبك ، ثم اخذها منه(٦٠) . وأقطع صلاح الدين الامير حسام الدين أبا الهيجاء السمين مقدم الاكراد الاسدية نصيبين بعد فتحها في سنة ٢٧٨هـ/١١٨٢م وكذلك اقطع الامير بدر الدين دلدروم بن بهاء الدين ياروق ، تل باشر . والامير ناصر الدين بن كورس صهيون وحصن برزية ، والامير سابق الدين عثمان بن الداية شيزر وأبا قبيس، والامير سيف الدين بن المشطوب مقدم الجيوش (علي بن احمد) نابلس والامير عز الدين اسامة كوكب وعجلون ، والامير عز الدين ابراهيم بن شمس الدين بن المقدم بغراس وكفر طاب وفاميه(٦١) وفي سنة ٥٨٠هـ/١١٨٥م منح صلاح الدين ديار بكر لمملوكه حسام الدين سنقر الخلاطي(٦٢) . وقد ظل هؤلاء الامراء على اقطاعاتهم يمارسون حقوقهم ويؤدون واجباتهم حتى وفاة صلاح الدين ٥٨٩هـ/١١٩٣م . ومنح العزيز عثمان بن صلاح الدين الاقطاعات الكثيرة لقادة الجند والامراء الذين تفانوا في نصرته . فأقطع الامير فارس الدين ميمون القصري «نابلس» في سنة ٥٩١هـ/١١٩٤م وكانت له صيدا قبل ان يقطع نابلس(٦٣) . وابقى الافضل علي بن صلاح الدين أمراء الغرب(٦٤) على اقطاعاتهم نظرا لحاجته الى عونهم في صراعهم ضد أخيه العزيز عثمان .

وعمد أولاد الملك العادل الى توزيع ما بأيديهم من إقطاعات على أمرائهم للابقاء على رابطة الولاء والطاعة وحفظ الامن داخل الاقطاع وخارجه ، والنصرة في الحرب الاهلية

الدائرة بين أفراد البيت الايوبي . وسعى كل واحد منهم لاحاطة نفسه بأكبر عدد ممكن من الامراء . وبعضهم وزع الاقطاعات في حياة أبيه ، ومنهم المعظم عيسى الـذي وزع البلاد الشامية على مماليكه ، ولعل الدافع الى ذلك ما كان يراه من صراعات ومنازعات، فخشي ان تذهب البلاد من يده ويفقد اقطاعاته . وعندما توجه الملك العادل لقتـال الصليبيين بعد نقض عهودهم في سنة ٦١٤هـ/١٢١٧م أنب ابنه وقال : بمن نقاتـل ؟ اقطعت الشام مماليكك وتركت أولادنا؟ (٦٥) . ويبـدو ان العادل قد احـس بتعاظم نفوذهم وكثرة اقطاعاتهم ، وتقلص اعداد بني جلدته الكـرد وضعف قوتهم وتضاؤل شأنهم وهذا في نظره امر خطير يحسب حسابه . وربما أصبح لهؤلاء المماليك شأن آخر في مستقبل الايام . وهذا ما حصل فعلا في أيام الملك الصالح أيوب حيث تعاظم نفـوذ المماليك وازدادت أعدادهم وتهيأت لهم الظروف للوصول الى السـلطنة . وفي عهده ايضا اقر امراء الغرب على اقطاعاتهم ففي سنة ٦٤٤هـ/١٢٤٦م كتب كتابا للامير نجـم الدين محمد بن حجي مدح فيه طاعته وحسن خدمته وامره أن يبقى على عهده القديم مع زيادة المخصصات له ولمن معه ، وان يجمع من الجند كل ما يقـدر عليه(٦٦) . كما كتب في سنة ٦٤٧/١٢٤٩م بخطه توقيعا باسم زين الدين بن علي وهو احد امراء الغرب ايضا ، وفيه « أنه يجري له من الاقطـاع في الناحية الغربية والجنوبية من جبل لبنان، وأن يجري على ما بيده من الاملاك المستمرة عليه وعلى والده من قبله »(٦٧) لوقوفهـم الى جانبه في مواجهة الصليبيين . كما كتب الناصر يوسف بن العزيز محمد بن غازي بن صلاح الدين سلطان دمشق منشورا لاحد أمراء الغرب، وهو جمال الدين حجي بن نجم الدين محمد بن حجي. ويعود تاريخه الى سنة ٦٥٠هـ/١٢٥٣م(٦٨) .

ولم ينس صلاح الدين ما كان للزنكيين من فضل على أسرته منـذ وصولهم الى الموصل ، وان حدث بعض الجفاء في اواخر ايام نور الدين . فان صلاح الدين لم يحمل حقدا ، ولم ينتقم الا من الذين حاولوا الايقاع به او كانوا حائلا بينه وبين تحقيق أهدافه في توحيد البلاد الاسلامية وجمع الكلمة ضد الغزاة الصليبيـين . امـا الذين أيـدوه وخضعوا له واخلصوا في ملاقاة الصليبيـين وحفـظ الامن فقـد أقطعهـم الاقطاعات المناسبة . وعاملهم المعاملة اللائقة بهم ومن هؤلاء : الامير علم الدين سليمان بن جنـدر وهو من مشايخ الدولتين النورية ثم الايوبية بحلب ، اقطعه حصن دربساك بعدفتحها. وزاد عليها بلدة أعزاز في عام ٥٧٩هـ/١١٨٣م(٦٩) واقر الامير عماد الدين زنكي بن قطب الدين مودود صاحب سنجار(٧٠) على مابيده حين خضع له سنة ٥٧١هـ/ ١١٧٥م ثـم اقر أخاه عز الدين مسعود على الموصل . وأبقى معز الدين سنجرشـاه بن غازي على الجزيرة(٧١) ، ولم يجد صلاح الدين غضاضة في أن يمنح الاقطاعـات لبعض اعدائـه ليامن شرهم ويحقن دماء المسلمين . فهذا صاحب حصن شقيف أرنون(٧٢) ، يقـدم على صـلاح الدين مستسلما سـنة ٥٨٥هـ/١١٨٩م ويطلب مسـكنا في دمشـق لانـه لا يستطيع أن يساكن الفرنج خشية الانتقام منه ، فيجيبه الـى ذلك(٧٣) حماية لارواح

المسلمين . واقطع ايضا فرسان الداوية(٧٤) والاسبتارية(٧٥) بعض البلاد والقرى للسبب نفسه .

ادارة الاقطاع :

كان مركز توزيع الاقطاعات وترتيبها وتعبيرها (تحديد دخلها) ديوان الاقطاع « ديوان الجيش » سواء في ذلك الاجناد السلطانية او الامراء واجنادهم ويذكر ابن الفرات(٧٦) : «انه لا يعمل فيه الا ما يقطع للاجناد»،وقام الديوان باثبات اسماء اصحاب الاقطاعات وجميع أفراد الجيش في سجلات خاصة تسمى جرائد«الجرائد الجيشية»(٧٧). واشهر موظفي هذا الديوان : الناظر ، ومتولي الديوان والماسح والخازن والكاتب والمستوفي وغيرهم .

واتصفت الدولة الايوبية بازدواج الادارة ، اذ وجد جهاز مركزي كبير في العاصمة الايوبية ، واجهزة اقطاعية محلية صغيرة بمختلف الاقاليم (٧٨) . وكان أول أعمال الموظفين بهذا الديوان اثبات أرباب الاقطاعات على اختلاف طبقاتهم وجميع أفراد الجيش السلطاني ، وجيوش الامراء وابتداء امرتهم حسب السنين القمرية وعمن انتقل اليه الاقطاع ، وعدد الجنود الذين يجمعهم الاقطاع وامام كل اسم دخل اقطاعه رمزا لا تصريحا(٧٩) واثبات كل اقليم من الاقاليم واقطاعاته وما بها من ضياع ومزارع ومعالم وخصائص ، والدخل المالي للاقليم وقيمة المتحصل منه ويتم ذلك في جريدة خاصة . كما تثبت اسماء الجند الذين يتقاضون رواتبهم نقدا او غلة لا اقطاعا في صحيفة اخرى. وقام الديوان بالصرف على العمائر ذات الطابع الدفاعي، كما اختص بالصرف على شؤون القوات البحرية والبرية وملحقاتها الدفاعية . واختص ديوان الاسطول بالنفقة على شؤون القوات البحرية من سفن وجند وبحارة واسلحة ومؤن بالاضافة الى دور الصناعة .

وبهذا استطاعت الدولة الايوبية ترسيخ قواعد النظام الاقطاعي العسكري في البلاد ، وقلدتها من بعد الدولة المملوكية والدولة العثمانية .

وقد توخى صلاح الدين من تطبيق النظام الاقطاعي العسكري اقامة العدل ، وازاحة العسف والجور ولذلك تشدد ابناء البيت الايوبي في الاشراف على المقطعين وسعوا الى الحد من ظلم الفلاحين ورفع العسف عنهم ، مما حمل هؤلاء الى التمسك بالارض(٨٠) . كما حددت الدولة الايجارات والرسوم التي يدفعها الفلاح لسيده الاقطاعي . وقد نصت التوقيعات السلطانية على المقطعين باتباع العدل والامر بالمعروف، وعدم قبول الرشوة من الناس والمحافظة على الاقطاع وعمارته وحسن ادارته(٨١) والتزام الفلاحين القيام بالاعمال المطلوبة منهم خير قيام ، من حراثة الارض وزراعتها وسقيها

وتعهد المزروعات وجمع الغلال والمحاصيل في مواسمها وحسن تخزينها ، وأن تسود المحبة والتفاهم مع سادتهم . وامعانا في تعميم العدالة الاجتماعية وضمانا لحقوق المقطعين والمقطعين على حد سواء ، وهذه ميزة انفرد فيها النظام الاقطاعي العسكري في العصر الايوبي عن الانظمة التي سبقته .

ارتأى صلاح الدين اعادة توزيع الاقطاعات وتحديد مساحاتها ودخولها بما يتلاءم مع الاوضاع الاقتصادية المستجدة وحسب الظروف الانتاجية في بعض السنين نتيجة العوامل الجوية من خصب أو جفاف ، أو حسب الاوضاع السياسية والعسكرية .

ففي سنة ٥٧٧هـ/١١٨١ احتاج صلاح الدين الى اعادة النظر في التوزيع الاقطاعي العام ، وقام بتلك العملية قياما وصفه القاضي الفاضل في متجدداته لشهر رجب من تلك السنة بقوله « استمر انتصاب السلطان صلاح الدين في هذه السنة في أمور الاقطاعات ومعرفة عبرها (دخولها) والنقص منها والزيادة واثبات المحروم وزيادة المشكور(٨٢) وكانت هناك عدة عوامل موجبة لاعادة النظر في التوزيع الاقطاعي العام ، منها ماهو مالي واجتماعي ، كأن يتظلم الامراء والمقطعون من تراكم الخراج عليهم وعجزهم عن الدفع او يتذمر الفلاحون من تعنت الامراء معهم وكثرة المغارم التي يخضعون لها(٨٣) . ومنها ما هو سياسي كاقطاع الموالين وحرمان المناوئين(٨٤) والاهم من كل ذلك الجانب الاقتصادي حيث يرى السلطان ضرورة اعادة النظر فيما طرأ على الارض من اصلاح أو عمارة أو اهمال لانقاص الخراج او زيادته حسبما يقتضيه الوضع الذي آلت اليه ، كأن تجرى تحسينات على وسائل الري مما يستدعي زيادة الجباية أو ان تكون الارض نقصت كفايتها بسبب ضعف المقطعين وكبر سنهم وعجزهم عن القيام بما يتطلبه استثمارها من جهد وعناية او بسبب قلة الايدي العاملة في أعقاب حرب أو وباء او فتنة(٨٥) من أجل ذلك اتخذ الروك الصلاحي(٨٦) في سنة ٥٧٢هـ/١١٧٦م.

ويظهر ان صلاح الدين راى ضرورة تكرار عملية اعادة النظر في التوزيع الاقطاعي. وهذا ما اشار اليه العماد الاصفهاني في حوادث سنة ٥٨١هـ/١١٨٥م قال : « وشرع السلطان في اقطاع البلاد والتوقيع بها على الاجناد »(٨٧) .

وعلى الرغم من الشدة التي اتبعها صلاح الدين وبعض افراد البيت الايوبي لحماية الفلاحين وضمان حقوقهم ، فان هؤلاء كانوا يعانون من الظلم الاجتماعي الذي يلحقهم من المقطعين لان النفس البشرية أمارة بالسوء ، والجشع المادي لا حدود له .

وكان الخارجون على القوانين الاقطاعية يلقون العقاب الذي يتناسب وحجم الظلم الذي الحقوه بغيرهم وربما ادى ذلك الى حرمانهم من اقطاعاتهم . ودليل ذلك ما قام به صلاح الدين في سنة ٥٧٣هـ/١١٧٧م فقد سحب اقطاعات جماعة من الاكراد لانهم

سببوا هزيمة الجيش الصلاحي في وقعة الرملة عند تل الصافية أمام جيش الصليبيين بقيادة أرناط صاحب الكرك(٨٨) . كما ان كشف مظالم الناس ورفع الحيف عنهم خير ما يتقرب به الى اللـه . وجرى ذلك على لسان القاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني في الرسالة التي وجهها الى صلاح الدين ليثنيه فيها عن عزمه على أداء فريضة الحج. قال: « يا مولانا ! مظالم الخلق كشفها اهم ما يتقرب به الى الله تعالى. وما هي بواحدة في اعمال دمشق من المظالم ، من الفلاحين ما يستغرب معه وقوع القطر ، ومن تسلط المقطعين على المقطعين ما لا ينادى وهجه في وادي بردى والزبداني من الفتنة القائمة والسيف يقطر دما لا اجر له . وللمسلمين ثغور ، تريد التحصين والذخيرة ، ومن المهمات اقامة وجوه بحسبها فمن المستحق نفقة من غير حاصل وفرع من غير أصل(٨٩). وبذل السلطان الكامل جهودا كبيرة لزيادة الانتاج، وأشرف بنفسه على صيانة السدود، وفرض الواجبات على أمرائه وعاقبهم في حال اهمالهم(٩٠) .

ولهذا جدت الدولة في حماية الفلاحين من أسيادهم الاقطاعيين ماديا ومعنويا ، كما حدت من ثراء هؤلاء على حساب الاخرين(٩١) .

خصائص النظام الاقطاعي في العصر الايوبي :

من خصائص النظام الاقطاعي الايوبي انه يجيز انتقال الاقطاع من مقطع الى آخر(٩٢)، ووضعت لذلك أصول التسليم والاستلام . وأوضح ابن مماتي(٩٣) ذلك فيما أورده عن انتقال الاقطاع فقال : « اذ جرت العادة انه عند انتقال الاقطاع المزروع بقصب السكر من مقطع الى اخر اقتضى العرف الاقطاعي لاخلاء الارض ان يروى المقطع القديم قصبه ويخلي الارض في مواعيد معينة. اما اذا لم يرو المقطع القديم أرضه وسقاها المقطع الجديد كان المحصول له ». ويضيف قائلا : « وجرى العرف الاقطاعي ايضا انه عند انتقال الاقطاع من مقطع الى آخر لا ينقل المقطع القديم معه شيئا من الاتبان بل يبقيه للمقطع الجديد ضمانا لتغذية ماشيته » . ومن دواعي انتقال الاقطاعات :

- موت سلطان وولاية سلطان جديد فيعمد الى تقريب العناصر الموالية وابعاد غيرهم .
- سوء العلاقة بين السلطان والمقطع ، كأن يتأخر عن دفع الضرائب المقررة على الاقطاع مثلا .
- تقصير المقطع في الاهتمام باقطاعه اي اهمال الاقطاع من حيث الزراعة والري.
- تلكؤ بعض المقطعين عن اعداد القوات وارسالها في الوقت المناسب .

ومن المؤسف ان المصادر الميسرة لا تذكر شيئا عن تفاصيل ذلك بل تشير اليها اشارة عابرة ما عدا ما جاء بعد قيام الامير فخر الدين بن شيخ الشيوخ بعد وفاة الملك

الصالح نجم الدين ايوب ٦٤٧هـ/١٢٤٩م بتوزيع الاقطاعات بمناشير وتوقيعات صادرة منه تمهيدا لما كان معروفا عنه من الطموح الى السلطنة(٩٤) .

ومن خصائص النظام الاقطاعي الايوبي أيضا توريث الاقطاعات . وقد اشرنا سابقا الى ان نور الدين اقر أبناء الجندي المتوفى على اقطاعات ابيهم(٩٥) واكدت المصادر على أن صلاح الدين ترسم خطوات سيده وجعل بعض الاقطاعات وراثية(٩٦). ففي سنة ٥٨١هـ/١١٨٥م ابقى صلاح الدين لشير كوه بن ناصر الدين محمد بن شير كوه وهو طفل في الثانية عشرة اقطاع حمص والرحبة(٩٧) وذلك بعد وفاة أبيه . وفي سنة ٥٨٧هـ/١١٩١م أعطى اقطاع شمس الدين بن المقدم لابنه عز الدين بعد أن خلف أباه في ولاية الحاج الشامي(٩٨) وكذلك أعطى صلاح الدين ثلثي اقطاع الامير سيف الدين علي ابن أحمد الشطوي لابنه عماد وأميرين معه(٩٩) .

وكان الملك الصالح نجم الدين ايوب بن الكامل، اذا مات احد مماليكه وكان له ولد انعم باقطاع والده عليه وان لم يكن له ولد انعم به على خشداشيه(١٠٠) . وأتبع مماليكه الترك من بعده هذه السنة(١٠١) .

الغاية من اتباع النظام الارثي تشجيع اصحاب الاقطاعات على البقاء على الجندية(١٠٢) والمقطع يحسن استغلال اقطاعه ويصونه ويحميه ويستبسل في قتال الاعداء أو الذين يريدون الاستيلاء على اقطاعه لانه يدافع عن حقوقه وارزاقه ، كما يزيده اندفاعا وحماسا وتفانيا في خدمة اقطاعه وزيادة انتاجه ، ولا يجد مبررا لسحب اقطاعه منه طالما يؤدي ما يطلب منه على الوجه الاكمل .

وربما لجأ بعض السلاطين الى هذا النظام الارثي خشية ادعاء بعض الابناء او الحفدة ،انهم احق بالملك من غيرهم، فاذا ما ورثوا الاقطاعات سكتوا وكفوا عن المطالبة. فصلاح الدين كان يخشى من القاهر محمد بن شير كوه وهو ابن عمه من ان يدعي أحقيته بالملك لما كان لابيه من اياد بيضاء وفضل كبير على آل زنكي، فقد وطد اركان الدولة النورية وقارع الصليبيين في مواقع كثيرة فعمد صلاح الدين الى اقطاعه حمص وتدمر والرحبة والسلمية(١٠٣) وخلع عليه وكتب له منشورا بذلك ليأمن جانبه ويغض الطرف عن المطالبة بحقه في الملك .

ورغب البعض الاخر من السلاطين الايوبيين توريث الاقطاع خشية الفتنة والثورة اذا ما عزل الاقطاعي وتعين غيره ، وحدث مثل هذا في زمن الملك الكامل بن العادل الاول . لقد غضب عماد الدين احمد بن المشطوب لعزله وتمليك أخيه الفائز ابراهيم مكانه وذلك في سنة ٦١٥هـ/١٢١٨م(١٠٤) .

وبالاضافة الى الخاصتين السابقتين كانت الزيادة في رواتب الجند أحدى خصائص النظام الاقطاعي الايوبي فقد كان معظم السلاطين الايوبيين يوزعون الاقطاعات على اجنادهم ويعطونهم رواتب زيادة على ذلك فكان فرسان الايوبيين من الاكراد والاتراك يعطون اقطاعات ويتلقون الرواتب والخلع(١٠٥) ربما كان ذلك تأليفاللقلوب، وجمعاللشتات وحثا للمقاتلين على الصبر والثبات في ملاقاة الاعداء . وفي رواية ابن ابي طي نقلها عنه أبو شامة(١٠٦) تأكيد على ما قدمنا .تقول الرواية : فاراه جرائد(١٠٧)الاجناد ومبالغ اقطاعاتهم وتعيين جامكيتهم(١٠٨) ورواتب نفقاتهم(١٠٩) .

واجبات المقطعين : القت الدولة على عاتق المقطعين تبعات ومسؤوليات ،والزمتهم تأديتها ويمكن اجمالها بالواجبات التالية :

أ ــ الواجبات المالية : كان الاقطاع الايوبي موردا من موارد الدولة اذ جرت العادة ان يدفع المقطع جزءا من دخله نقدا أو غلة بما يتناسب مع واردات الاقطاع،وكان يطلق على هذا الدخل «عبرة» وهي مقدار مايغله في السنة(١١٠) وقدر متوسط خراج الفدان من (٢ــ٣) أرادب(١١١) . ربما زاد او نقص بحسب الظروف ، ويحصل كل أردب من (٢ــ٣) دراهم ويلزم الفلاحون الى جانب هذا المقرر بتأدية ضرائب للانفاق على الاقطاع أو بعض الوظائف(١١٢) ومن الرسوم : رسم الاوقاف ورسم الجراريف (ماينفق على اصلاح الجسور) ورسم الاجران(١١٣) ورسم الحراسة ، ورسم الكيالة والمراعي والاتبان وغيرها . ولا يحق للمقطع ان يتصرف بكل ايرادات اقطاعاته من خراج الا اذا نص التوقيع على ذلك صراحة(١١٤) ومثال ذلك : في سنة ٥٧٨هـ/١١٨٢م ناب بمصرعن صلاح الدين تقي الدين عمر فصارت الاسكندرية ودمياط اقطاعا له . ثم اضيفت اليه البحيرة والفيوم وبوش ، على ان يكون واردها خاصته(١١٥) لا يدفع منه شيئا .

ب ــ الواجبات المدنية : يستخلص من الاشارات المبعثرة في المصادر ان المقطع كان مسؤولا عن زراعة الارض وسقايتها واختيار الفلاحين الاكفاء واعدادهم والاشراف على المحاصيل وجنيها ، وصيانة الجسور ، وكري القنوات وجباية الخراج وحفظ الامن داخل الاقطاع ، وجمع الجند الاقطاعي ، وتخصيص جزء من اقطاعه لكل واحد منهم سواء اكان الاقطاع كبيرا أم صغيرا(١١٦) وكان يتولى ذلك بنفسه .

جـ ــ الواجبات العسكرية : وهي ان يقدم المقطع عددا من الجند كاملي العدة ، وبجاهزية قتالية عالية لمساعدة الجيش السلطاني زمن الحرب . بتعهد كل مقطع قبل التوقيع له بالاقطاع بأن يكون معه عند خروجه للحرب عدد معين من الفرسان(١١٧) واعتاد السلاطين الايوبيون حرمان المقطع من اقطاعه اذا اخل بهذا الشرط(١١٨). ونضيف الى ما تقدم ما فعله صلاح الدين سنة ٥٨٧هـ/١١٩١م ، اذ قطع اقطاعات الامراء الهاربين اثناء محنة عكا(١١٩) .

كما اخذ العزيز عثمان بن صلاح الدين اقطاعات الامراء الذين اقامهم في الشام(١٢٠) لتخلفهم عن تقديم الجنود المقررين على اقطاعاتهم ، وكذلك سحب اقطاعات كل من الامراء الخيام وعلكان، وحجير الدين وصهره عز الدين ، والفقيه كمال الكردي، لانهم اخلوا بواجباتهم (١٢١) .

عيوب النظام الاقطاعي : ومن نقائص النظام الاقطاعي الايوبي أن المقطعين كانوا يذهبون الى اقطاعاتهم للاشراف على جمع المحاصيل وتخزينها ، والتزم السلاطين بتلك المواعيد ، وكان لا بد أن يحسب لها حساب قبل الخروج للجهاد ، ونتج عن ذلك أن العناصر المناوئة للحكم الايوبي كانت تتحين مثل هذه الفرص للقيام بأعمال التآمر والشغب وتعكير صفو الامن،وحتى الثورة . . ففي رمضان سنة ٥٦٩هـ نيسان١١٧٤م تفرق العساكر الايوبية في جهات اقطاعاتهم للاشراف على جمع المحصولات ولم يكن قد عاد منهم الى القاهرة الا العدد القليل(١٢٢) فانتهز انصار الفاطميين هذه الفرصة وحاكوا مؤامرتهم التي اشترك فيها الشاعر اليمني « عمارة» ضد صلاح الدين وكادت تنفذ لولا اكتشاف أمرهم .

ولما هاجم الاسطول الصقلي ميناء الاسكندرية من السنة نفسها ٥٦٩هـ/تموز ١١٧٤ م جاءت الامدادات من الاجناد الذين كانوا باقطاعاتهم القريبة من الاسكندرية(١٢٣) وان دل هذا على شيء فانما يدل على نقص في بنية النظام الاقطاعي العسكري .

ويعزي ذلك الى بعثرة الاقطاع في بعض الاحيان . لقد حرصت الدولة الايوبية بالرغم من كافة الخدمات المدنية والحربية التي يؤديها المقطع ، وكنتيجة للعلاقات العائلية والحروب ، الا يكون الاقطاع كتلة اقليمية واحدة يستطيع المقطع أن يستقل بها أو يزيد بها نفوذه على حساب السلطة المركزية . وهذه من العادات الموروثة عن النظام السلجوقي. فقد كان المقطع يعطى اقطاعه في منطقتين متباعدتين . ومن امثلة ذلك : اقطاع الملك العادل في عهد اخيه صلاح الدين . كان جزء من هذا الاقطاع في الديار المصرية والجزء الاخر في البلاد الشامية والجزيرة وديار بكر وغيرها . كما كان اقطاع الامير شمس الدين العادلي مبعثرا بين مصر والشام (١٢٤).

نماذج من التوقيعات الايوبية .

كان المقطعون يعطون توقيعا باقطاعاتهم يتضمن الخطة التي يلزم المقطع بالسير عليها وقد اختلفت هذه التوقيعات من حيث اسلوبها ،وبخاصة افتتاحياتها ،تمشيا مع القيمة الاعتبارية لصاحب الاقطاع وحسب درجته ومكانته ، ومن هذه التوقيعات ما يخص الامراء الكبار ، والامراء الصغار ، والعناصر الممتازة من العسكريين .

وتعـد توقيعات الامراء الكبار من الدرجة الاولى ، وهـم كبار الامراء من البيت الايوبي وتفتتح عادة بعبارة « الحمد لله » ومن امثلتها نسخة صادرة عن صلاح الدين لاخيه العادل سنة ٥٨٠هـ/١١٨٤م باقطاعه أجزاء مـن الديار المصريـة وبلاد الشـام والجزيرة وديار بكر ، وما جاء فيـه يجعله دستورا اقطاعيا : « الحمـد للـه » الذي جعل أيامنـا حسـانا واعلـى لنا يـدا ولسـانا وأطاب محتدنا أوراقا واغصانا . ورفـع لمجدنا لواءا ولجدنا برهانا وحقق فينا قوله: « سنشد عضـدك بأخيك ونجعـل لكما سلطانـا » .

وقد أحل صلاح الدين اخاه محله اللائق واعتبره وزيرا له ونائبا عنه . وعين لـه المناطق التي يحق له التصرف بها كيف يشاء « . . وقد جعلنا له من البلاد ماهو مقتسم من الديار المصرية والشامية وبلاد الجزيرة وديار بكر ليكون له من كل منها حظ تفيض يده في أمواله ويركب في حشد من رجاله . فيتسلم ذلك بيـد معظم قدرا ولا يستكثر كثرا ويحمل رفدها غيثا وبحرا . . » وأوصاه بالعـدل في الرعيـة والاحسـان اليهم « وكذلك فليعدل في الرعية الذين هم عنده ودائع وليجاوز بهم درجة العدل الى احسان الصنائع » . ويشيد بمواقفه المشرفة في خدمة الدولة « فكم من موقف وقفه في خدمتنا فجعـل وعره سـهلا وفـاز فيـه بارضائنـا » . وأما عـن بلائـه في قتـال الاعـداء « ويكفى من ذلك ما ابلاه في لقاء العدو الكافر الذي استشرى في هياجـه وتمادى في لجاجه » . وكـان يستفتيه ويستشيره في اموره كلها لسداد رايـه : « وتلك وقائـع استفتانا فيها برايه الذي ينوب مناب الكمين في مضمره » .

ويتحدث عن تفشي الرشوة بين الناس «وقد فشا في هذا الزمن اخذ الرشوة وهو سحت (حرام) امر رسول الله بنبذه ونهى عن اخذه وعن الرغبة في تداوله وهو كالربا الذي قرنت اللعنة بموكله واكله » .

واما عن القضاء والقضاة « . . وأما القضـاة الذين هم للشريعة أوتـاد ولامضاء الحق اجناد ولحفظ علومها كنوز لا يتطرق اليها النفاذ » .

وعن ادارة البلاد وتصريفها ورعاية شؤون سكانها « وذلك ان البلاد التي أضفناها اليك فيها مدن ذات اعمال واسعة ومعاقل ذات حصانة مانعة وكلها يفتقر الى استخدام الفكر في تدبيره وتصريف الزمان في تعبيره . فول وجهك اليها غير وان في تكثير قليلها وترويض مخيلها وبث الامنة على اوساطها واهداء الغبطة الى افئدة اهلها حتى تسمـع باغتباطها . وعند ذلك يتحدث كل منهم بلسان الشكور ويتمثل بقوله تعالى « بلـدة طيبة ورب غفـور ».

ومن وصاياه ايضا حسن الجوار « .. واعلم انه قد يجاورك في بعضها جيران ذو بلاد وعساكر وأسرة ومنابر وأوائل للمجد واواخر وما منهم الا من يتمسك منا بود سليم وعهد قديم وله مساعدة تعرف له حقها والحق يعرفه الكريم فكن لهؤلاء جارا يودون جواره ويحمدون آثاره » ويدعو له بالتوفيق والنجاح في مهمته في ختام التوقيع « وانت كوكبنا الذي نهتدي بمطلعه ومفتاحنا الذي نستفتح به المغلق ليمن موقعه والله يشرح بك صدرا وييسر لك امرا ويشد أزرنا بك كما شد لموسى بأخيه أزرا والسلام » (١٢٥).

وتفتتح توقيعات الامراء الصغار بلفظة ((أما بعد)) وتعد من الدرجة الثانية وتتضمن سبب تفضيل الامير واختياره لمهمة الامارة(١٢٦) .

« اما بعد ، فان لكل وسيلة جزءا وعلى كل نسبة مكانتها . وهي تتفاوت في اوقات وجوبها ومثاقيل ميزانها . وقد عجلنا لك من الاقطاع ما لا ترضى ان تكون شاكرا وجعلناه لك أولا وان كان لغيرك آخرا وهو مثبت في هذا التوقيع بقلم الديوان الذي اقيم لغرض الجند كتابا ولمعرفة ارزاقهم حسابا وهو كذا وكذا .. فتناول هذا التحويل الذي خولته باليمين مستمسك به استمساك الضنين» .

«واعلم انه قد كثر الحواسد لما مددناه من صنعك وبسطناه من ذرعك فأشبع حلوقهم بالسعي لاستحقاق المزيد وارق في درجات الصعود والزمهم صفحة الصعيد » . وعلى الصعيد العسكري . « .. ان الذي نأمرك به تعد نفسك للخدمة التي جعلت لها قرنا. وانت بها اغنم وان تنتهي فيها الى الامد الاقصى دون الادنى . واذا استنفرت فانفر بثقال من الخيل وخفاف وكن مذخورا لواحدة يقال فيها « يا عزائم اغضبي ويا خيل النصر اركبي » . ويختتم بالدعاء بما هو أهله ((.. والله يشد بك أزرا ويملأ بك عينا وصدرا ويجعل الفرج مقرونا برايك ورايتك حتى يقال : ومكروا مكرا ، وجردنا بيضا وسمرا والسلام ان شاء الله تعالى)).

وتفتتح توقيعات العناصر الممتازة في الجيش بالحث على الشجاعة والاستبسال وتعد من الدرجة الثالثة اقل من المرتبتين السابقتين(١٢٧).

وتبدأ : ((.. القلم والرمح قلمان كلاهما اسمر وكما تشابها في المنظر فكذلك تشابها في المخبر غير ان هذا يركب في عسكر من القول وهذا يحمل في عسكر . وقد نطق احدهما بالثناء على اخيه فأحسن في نطقه واقر بالفضيلة . ومن الانصاف ان يقر لذي الحق بحقه . ايها الامير فلان ايدك الله)).

ويشير التوقيع الى اختيار الامير « .. وقد اخترناك على بصيرة واجزيناك من اعتنائنا على اكرم وتيرة ورفعنا درجتك فوق درجة المعلى لمن سبقك وانها لكبيرة .. ولم يكن هذا الاختيار الا بعد اختبار لا يحتاج معه شهادة » .

ويعدد المنشور جانبا من صفاته ((.. ومثلك من تباهى الرجال بمكانه وتخلى له فضلة عنانه ، ويتسع القول في وصفه اذا ضاق بغيره سعة ميدانه وما يقال الا انــك الرجل الذي تقذف الجانب المهم بعزمك وترمي برأيك قبل رمــاء سهمك . وبك يحسر دجى الحرب الذي اعوزه الصباح)).

وفيه وصايا هامة من حيث التأهب للقتال ومعاملة الاهلين بالحســنى ومعرفة ما يضرهم وما ينفعهم « .. وكن في التأهب للخدمة كالســهم الموضوع في وتره واصغ بسمعك وبصرك الى ما تؤويه فلا ائتمار لمن لم يصغ بسمعه وبصــره . وملاك ذلك ان تكثر من فرسان الغوار وحماة الذمار . ومن أهم الوصايا اليك أن تضيف الى غناهم غنى يبرزهم في زهرة من اللباس ويعينهم على اعداد القوة ليوم البأس ويقصر لديهــم شقه الاسفار التي تذهب بنزقات الشماس (الاباء) فانظر هذه الوصية نظر من طال على صحبه بالكف الاوسع وعلمــه ما يضر فيهم وما ينفع والله يمنحك مــن لدنــه توفيقا والســلام » .

اثر نظام الاقطاع على الاقتصاد الايوبي :

الزراعــة : ان نظام وراثة الاقطاع الذي وضعه الايوبيون اتى اكله في بلاد الشام اذ جعل اصحاب الاقطاعات يهتمون بأراضيهم وانتاجهم. وتشدد صلاح الدين بالاشراف على المقطعين فلم يمنحهم اي حقوق ادارية وسياسية على سكان الاراضي المقطعة واحتفظ بهذه السلطة للدولة المركزية(١٢٨) ، وحماية الفلاحين من عسف وجور سادتهم منعهم من ترك اراضيهم(١٢٩) ، فأولوها عنايتهم واصبح القمح المورد الرئيسي للزراعة الشامية كما انتشرت زراعة الفواكه والقصب والقطــن ، الا أن بعض الزراعات ومنهــا القصب كانت حكرا للدولة . وكثرة الحروب واندفاع الناس للدفاع عــن بلادهم لم يقف حائلا دون ممارسة اعمال الزراعة التي هي احدى دعائم القوات العسكرية فقد عمــد بعض الحكام الايوبيين الى ارسال قسم من الجند للقيام بأعمال الزراعة بينما بقى القســم الاخر في مواجهة العدو ، واعتنوا بنظام الري ، وأراحــوا الارض وجددوا خصوبتهــا باستعمال الاسمدة . واستخدموا الادوات المناسبة ، وغدت الكرك مثلا ، في ايام الملك المعظم عيسى بن الملك العادل الاول تضاهي دمشق في خضرتها وكثرة بساتينها وتدفق مياهها ، بل وطيب هوائها (١٣٠) . الا ان الحروب الاهلية بين أبناء البيت الايوبي مــن جهة وسوء تصرف الجباة من جهة ثانية كل ذلك كان في بعض السنوات يؤدي الى نقص الانتاج واعراض الفلاحين عن الزراعة .

المصادر والمراجع

١ـ ابن الاثير : علي بن محمد الجزري الملقب بعز الدين (ت.٦٣٠هـ ، ١٢٣٢م) .
ـ الكامل في التاريخ طبعة دار صادر بيروت ١٩٦٦، ١٩٧٥ .
ـ التاريخ الباهر في الدولة الاتابكية في الموصل . تحقيق عبد القادر طليمات القاهرة ١٩٦٣ .

٢ ـ الاصفهاني : محمد أبو عبدالله ، عماد الدين الكاتب (ت٥٩٧هـ) الفتح القسي في الفتح القدسي . تحقيق وشرح وتقديم محمد محمود صبح .

٣ ـ ابن تغري بردي : أبو المحاسن جمال الدين بن يوسف بن تغري بردي الاتابكي (ت ٧٨٤ هـ) .
ـ النجوم الزاهرة في ملوك مصر القاهرة ، طبعة دار الكتب المصرية .

٤ ـ الحموي (ابن واصل) : جمال الدين محمد بن سالم (ت٦٩٧هـ) .
ـ مفرج الكروب في اخبار بني ايوب تحقيق جمال الدين الشيال . مطبعة جامعة فؤاد الاول ١٩٥٣ .

٥ ـ ابن خلدون : عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي المغربي (ت٨٠٨هـ).
ـ العبر وديوان المبتدأ والخبر .منشورات مؤسسة الاعلمي للمطبوعات بيروت ١٣٩١هـ/١٩٧١م .

٦ ـ ابن خلكان : ابو العباس شمس الدين احمد بن محمد بن ابي بكر (ت٦٨١هـ).
ـ وفيات الاعيان ١٢ جزءا القاهرة ١٢٩٩هـ و ٦ اجزاء القاهرة ١٩٥٠.

٧ ـ الخوارزمي : ابو عبد الله محمد بن احمد بن يوسف الكاتب الخوارزمي(ت٣٨٧)
ـ مفاتيح العلوم ، صنفه سنة ٣٦٦هـ/٩٧٧م طبعة القاهرة ١٣٤١هـ. ليدن ١٨٩٥م . وطبعة بيروت ١٩٨٤ ص ٣٩.

٨ ـ الدواداري : ابو بكر عبد الله ابن ايبك (ت ٧٣٦هـ) .
ـ كنز الدر وجامع الغرر . ج١ تحقيق بيرندا رنكة القاهرة ١٤٠٢ هـ/ ١٩٨٢م .

٩ ـ دائرة المعارف الاسلامية ، كتاب الشعب . يصدرها بالعربية . ابراهيم زكي خورشيد ورفاقه . المجلد الثاني ـ ماءة اقطاع .

١٠ــ ابو شامة: شهاب الدين عبد الرحمن بن اسماعيل (ت٦٦٥هـ).
ــ كتاب الروضتين في اخبار الدولتين (النوريــة والصلاحية) تحقيق محمد احمد حلمي القاهرة ١٩٥٦، وطبعة القاهرة ١٢٨٧هـ/١٨٧٠م.

١١ ــ ابن شداد : بهاء الدين يوسف (ت ٦٣٢هـ) .
ــ النــوادر الســلطانية والمحاســن اليوسفية نشـره جمــال الديــن الشيال . القاهرة ١٩٦٤ .
ــ من النوادر السلطانية . منشورات وزارة الثقافة والارشاد القومي اختار النصوص وقدم لها محمود درويش دمشق ١٩٧٩ .

١٢ــ ابن الشدياق : طنوس بن يوسف الشدياق الحدثي الماروني ١٢٧٦ هـ / ١٨٥٩م
ــ اخبار الاعيان في جبل لبنان . بيروت ١٩٥٨ .

١٣ــ ابن عساكر : ثقة الدين ابو القاسم علي بن الحسين بن هبة الله بن عبد الله بن الحسين ابن عساكر (ت٥٧١هـ).
ــ تاريخ مدينة دمشق (٣)مجلدات ١ ، ٢ ، ١٠ تحقيق المنجـد ودهان دمشق ١٩٥١ .
ــ تهذيب ابن عسـاكر ٧ اجزاء . مطبعة روضة الشــام دمشق(١ــ٥) ١٣٣٢ هـ ومطبعة الترقي دمشق ج٦،٧، سنة ١٣٥٠ هـ .

١٤ ــ ابن الفــرات ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم (ت ٨٠٧هـ) .
ــ تاريخ الدول والملوك (او تار خ ابن الفرات) الاجزاء ٧،٨،٩ تحقيق قسطنطين زريق ونجلاء عز الدين بيروت ١٩٣٩ ــ ١٩٤٢ المجلد ٤،٥ تحقيق الدكتور ــ حسن محمد الشماع ١٣٨٦هـ/١٩٦٧ م مطبعة حداد بصر وغسان .

١٥ــ ابن قاضي شهبة : بدر الدين (ت ٨٥١هـ) .
ــ الكواكب الدرية في السـيرة النورية (تاريخ السـلطان نور الدين محمود بن زنكي) تحقيق محمد زايد . دار الكتاب الجديد بيروت ــ لبنان ١٩٧١م .

١٦ــ القلقشـندي : ابو العباس احمد بن علي (ت ٨٢١هـ).
ــ صبح الاعشى في صناعة الانشاء ، نسخة مصورة عن المطبعة الاميرية وزارة الثقافة والارشاد القومي . المؤسسة المصرية للطباعة والنشر ــ القاهرة ١٣٨٣هـ ١٩٦٣م .

١٧ــ ابن كثير : عماد الدين اسماعيل (ت٧٧٢هـ).

– البداية والنهاية ، طبعة جديدة ومنقحة ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م وطبعة بيروت ١٩٧٧ .

١٨ – الماوردي : أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري البغدادي (ت ٤٥٠هـ).
– الاحكام السلطانية . طبعة القاهرة ١٩٠٩ . وطبعة أنجريونا ١٨٥٣.

١٩– المسعودي : ابو الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي (ت٣٤٦هـ) .
– التنبيه والاشراف بيروت ١٩٦٨.

٢٠– مسكويه : أبو علي احمد بن محمد . تجارب الامم وذيله ، القاهرة ١٩١٤وطبعة ١٩٢٠،١٩٢١ باعتناء امدروز ومرجليوث القاهرة واكسفورد .

٢١– المقريزي : تقي الدين احمد بن علي المقريزي (ت٨٤٥هـ).
– المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والاثار . القاهرة ١٩١١،١٩٢٤ وطبعة بولاق . اصدار دار التحرير للطباعة والنشر ١٩٦٧–١٩٦٨.
– السلوك لمعرفة دول الملوك . نشر زيادة القاهرة ١٩٤٣ م .

٢٢– ابن مماتي : الاسعد بن مماتي (ت ٦٠٦هـ) .
– قوانين الدواوين جمع وتحقيق الدكتور عزيز سوريال عطية . مطبعة مصر ١٩٤٣ .

٢٣ – النويري : شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب (ت٧٣٣هـ) .
– نهاية الارب في فنون الادب / ٢٨ جزءا / مكتبة الاسد .

٢٤– ابو يوسف : القاضي يعقوب بن ابراهيم (ت١٨٢هـ).
– كتاب الخراج : ط٤ القاهرة ١٣٩٢هـ.

المراجع العربية :

١ – بيطار : امينة .
تاريخ العصر الايوبي . دار الطباعة الحديثة دمشق ١٤٠١هـ –١٤٠٢هـ ١٩٨١–١٩٨٢ .

٢ – الحموي : محمد ياسين : دمشق في العصر الايوبي – المطبعة الهاشمية بدمشق.

٣ – دباغ : مصطفى مراد ، بلادنا فلسطين ، الخليل (ط١) ١٩٧٢ ونابلس (ط١) ١٩٧٠ دار الطليعة بيروت .

٤ ـ دلـــو : برهان الدين، التاريخ العربي الاسلامي . مساهمة في اعادة كتابة التاريخ العربي الاسلامي . الفارابي ١٩٨٥ .

٥ ـ الدوري : عبد العزيز .
ـ مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي بيروت ١٩٦٩ .
ـ تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع الهجري مطبعة دار المعارف ببغداد ١٩٤٨ م .

٦ ـ رافق عبد الكريم بلاد الشام ومصر من الفتح العثماني الى حملة نابليون بونابرت دمشـــق ١٩٦٧ .

٧ ـ ربيع حسنين محمد النظم المالية في مصر زمن الايوبيين ، مطبعة جامعة القاهرة ١٩٦٤ .

٨ ـ رفاعي (انور) النظم الاسلامية . دار الفكر ١٣٩٢هـ/١٩٧٣م .

٩ ـ زكار سهيل : تاريخ العرب والاسلام منذ ماقبل البعث حتى ســقوط بغداد ، دمشـق ـ دار الفكر ١٩٧٥ .

١٠ ـ زيدان جرجي. تاريخ التمدن الاسلامي . مراجعة حسـين مؤنس القاهرة ١٩٦٦، وطبعة دار الحيـــاة .

١١ ـ سبانو احمد غسـان ، مملكة حماة الايوبية . دار قتيبة دمشق ١٩٨٤ .

١٢ ـ سعد احمد صادق . تاريخ مصر الاجتماعي والاقتصادي طبعـــة اولى مطبعـــة بيروت ١٩٧٩ .

١٣ ـ سعداوي نظير حسـان . التاريخ الحربي المصري في عهد صلاح الدين . مكتبـــة النهضة المصرية ١٤٧٧هـ/١٩٥٧م .

١٤ ـ سيد الاهل عبد العزيز . ايام صلاح الدين طبعة اولى ١٩٦١ . المكتبة التجاريـــة للطباعة والتوزيع والنشر .

١٥ ـ طرخان ابراهيم علي ، النظم الاقطاعية في الشرق الاوسـط في العصور الوسـطى ، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر القاهرة ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م .

١٦ ـ عاشور سعيد عبد الفتاح . مصر والشـــام في عصر الايوبين والمماليك بـيروت ١٩٧٢ م .

١٧ ـ العريني (سيد الباز)
ـ المماليك بيروت ١٣٨٦هـ /١٩٦٧م .

ـ الشرق الادنى في العصور الوسـطى ـ الايوبيون ـ دار النهضـة بيروت ١٣٨٦هـ/١٩٦٧.

١٨ ـ غوانمة يوسف درويش : امارة الكرك الايوبية . الناشر بلدية الكرك ١٤٠٠ هـ/ ١٩٨٠ م .

١٩ـ كحالة (عمر رضا) العالم الاسلامي /جزءان/ المطبعة الهاشمية بدمشق . الطبعة الثانية ١٣٧٧ هـ/١٩٥٨م .

٢٠ ـ ابن يحيى ، صالح : تاريخ بيروت ـ تحقيق فرنسيس هورس اليسوعي وكمال سليمان الصليبي .دار المشرق . المطبعة الكاثوليكية بيروت لبنان .

ـ الكتب الاجنبية المترجمة ـ

١ ـ آ. اشتور : التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للشرق الاوسط فيالعصور الوسطى ترجمة عبد الهادي عيلة . مراجعة احمد غسان سبانو . مطبعة خالد بن الوليد ١٩٨٥ . دار قتيبة للطباعة والنشر والتوزيع .

٢ ـ هاملتون حب : التاريخ الاسـلامي في العصور الوسطى . المركز العربي للكتـاب دمشـق .

٣ ـ ستانلي لين بول : الدول الاسلامية ـ القسم الاولترجمة محمد صبحي فرزات. باشراف محمد احمد دهمان .

الحواشي :

(١) الخوارزمي ، مفاتيح العلوم ، ص ٣٩.

(٢) مصطفى مراد الدباغ ، بلادنا فلسطين ، ج٥ق٢ (الخليل) ص٧١.

(٣) الخراج مقدار من المال او الحاصلات يفرض على الاراضي التي صولح الاعاجم عليها وصاروا ذمة. والعشر ضريبة على الاراضي مقدارها عشر غلتها مالا او عينا .

(٤) دائرة المعارف الاسلامية ، المجلد الثاني ص٤٧٦(مادة اقطاع).

(٥) الماوردي ، الاحكام السلطانية ، طبعـــة انجربونا ١٨٥٣ ، ص ٢٣٠ ــ ٢٤٣ .

(٦) كلود كاهن ، تاريخ الشعوب الاسلامية، مجلد أول ص ١٧٧ .

(٧) محمد زيود : حالة بلاد الشام الاقتصادية منذ العهد الطولوني حتى نهاية العصر الفاطمي (رسالة دكتوراه) جامعة دمشق ١٩٨٧ ص١٤٥ .

(٨) ابن عساكر ، تهذيب ج٢ ص ٢٥٠.

(٩) ابو يوسف : كتاب الخراج ، ج٢ ص٦١ــ٦٢.

(١٠) انظر ، ابراهيم طرخان ، النظم الاقطاعية ص١١ .

(١١) المرجع نفسه ص ١١.

(١٢) الماوردي ، المصدر السابق ص ١٨٦ .

(١٣) الصوافي هي الارض التي تخلى عنها أصحابها ولحقوا بهرقل ، والتي اخذت من الاعداء بعد ان هربوا أو قتلوا أو اجلوا عنها . فعادت ملكيتها لبيت مال المسلمين، وللحاكم ان يتصرف بها عن طريق الهبة او الاقطاع او الاستغلال. انظر محمد زيود ، المرجع السابق ص١٣٢.

(١٤) السيد الباز العريني ، المماليك ، ص١٧١.

(١٥) ابراهيم طرخان المرجع السابق ص١٩٤.

(١٦) المرجع نفسه ص ١٩٧.

(١٧) العريني، المرجع السابق ص ١٧١.

(١٨) عمر رضا كحالة ، العالم الاسلامي ، ج٢ص٧٠ .

(١٩) برهان الدين دلو ، التاريخ العربي الاسلامي، ص ٢٢٠ ــ ٢٢١ .

(٢٠) ابن مسكوية ، تجارب الامم ، ج٢ص٩٧وج٣ص١٦٥ . وانظر ايضا عبد العزيز الدوري، تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع الهجري ص٣١

(٢١) المصدر نفسه ج٢ص ٩٨، ٩٩.

(٢٢) المصدر نفسه ص ٩٨ ، ٩٩ .

(٢٣) دلو ، المرجع السابق ص ٢٢٢.

(٢٤) طرخان ، المرجع السابق ص ٢١ــ٢٢.

(٢٥) الباز العريني ، المماليك ص ١٦٥ ، وانظر ايضا جرجي زيدان ، تاريخ التمدن الاسلامي، ج١ ص ١٧٤ .

(٢٦) ابن الاثير : الكامل ، ج١٠ ص ٢٢٤. وانظر العريني ، المماليك ص ١٦٦ .

(٢٧) المقريزي الخطط ، ج١ص١٥٣ــ١٥٤.

(٢٨) الباز العريني ، المماليك ص١٦٦.

(٢٩) ابو شامة ، كتاب الروضتين ، ج١ ص٨٤،١٠٠،١٢٩،١٣٠ .
(٣٠) المقريزي ، المصدر السابق ، المواعظ والاعتبار ، ج١ ص٨٦.
(٣١) ابن الاثير ، التاريخ الباهر ، ص ٢٤٩.
(٣٢) ابن الاثير ، الكامل ، ج١١ ص ٢٢٢-٢٢٣.
(٣٣) الباز العريني ، الايوبيون ص ١٥٥ .
(٣٤) ابن الاثير، الكامل ،ص٢٢٧.
(٣٥) الدار في كتب التاريخ ، الناصرية ، او طائفة المماليك الخواص ، او جند الحلقة .
(٣٦) ابو شامة كتاب الروضتين. ج١ ص ٢١٧.
(٣٧) المصدر نفسه ج١ ص ٢٤٨ ، ابن الاثير ، الكامل ج١١ص ٢٨٤ .
(٣٨) سهيل زكار ، تاريخ العرب والاسلام ص٢٩٣.
(٣٩) عبد العزيز سيد الاهل ، ايام صلاح الدين، ص ٤٥.
(٤٠) المرجع نفسه ، ص ٤٥-٤٦ .
(٤١) ابن كثير ، البداية والنهاية ج١٣ص٦ .
(٤٢) العريني ، الايوبيون ص ١٩٢ .
(٤٣) المرجع نفسه ص ١٩٢ .
(٤٤) العريني ، المماليك ص ١٦٧ .
(٤٥) طرخان ، المرجع السابق ص ٤٠ .
(٤٦) المرجع نفسه ص ٤٣.
(٤٧) ابن قاضي شهبة ، الكواكب الدرية ص١٨٧.
(٤٨) المقريزي ، السلوك ج١ ص٩١ حاشية ٣. ويذكر ابن قاضي شهبة : وكانت عبرتها في هذه السنة ٥٦٥هـ مائتي الف دينار وست وستين الف دينار . انظر الكوكب الدرية ص ١٨٧ .
(٤٩) ابو شامة ،المصدر السابق ج١ ص ١٨٤. ابن خلدون العبر ، ج٥ ص٢٩٣ .
(٥٠) طرخان ، المرجع السابق ص ٣٧.
(٥١) المقريزي ، السلوك ج١ ص ٤٨ .
(٥٢) ابو شامة ، المصدر السابق ج١ص ٢٥٠.
(٥٣) ابن خلدون ،ج٥ص ٢٩٠ . وانظر احمد غسان سبانو مملكة حماة الايوبية ص ٤٤ .
(٥٤) سبانو ص ٤٧.
(٥٥) ابن خلدون ج٥ ص ٢٩٣ . ستانلي لين بول. الدول الاسلامية القسم الاول ايوبية بعلبك رقم ٤٥ ص ١٦٤.
(٥٦) ستانلي لين بول ، ص ١٦٤.
(٥٧) المقريزي ، السلوك ج٢ ص ٨٢. ابو المحاسن . النجوم الزاهرة ج٦ص ١١٣.
(٥٨) طرخان ، المرجع السابق ص٣٨ . وانظر صالح بن يحيى، تاريخ بيروت ص ٤٠.
(٥٩) المقريزي ، المصدر السابق ج١ ص ١٥٢ .
(٦٠) انظر ما سبق ..
(٦١) طرخان المرجع السابق ص٤٠.
(٦٢) العريني ، الايوبيون ص ١٦٣ .
(٦٣) ابو المحاسن ، النجوم الزاهرة ج٦ص١٣٧. المقريزي السلوك ج١ ص ١٢١.
- طرخان ، المرجع السابق ص ٤٣. اقطعه صيدا الملك غازي بن صلاح الدين لانه كان احد امرائه ثم أضيفت له نابلس .

(٦٤) امراء الغرب هم امراء جبل لبنان، وكان يطلق عليهم (بنو الغرب) وهم عرب قحطانية تملكوا في غرب لبنان ما عرف باسم الشف . واملاكهم منذ جدهم بحتر الاول مثبتة بمحاضر شرعية وأول منشور كتب لهم كان لبحتر بن علي عام ٤٥٢هـ / ١٠٤٧م من قبل ظهير الدين طغتكين أتابك دمشق من السلاجقة . ثم منشور من قبل مجير الدين آبق من سلالة طغتكين بدمشق سنة ١١٤٧ م الى الامير بحتر بان يبقي على رسومه المستمرة في الضياع المنسوبة اليه في الغرب باسم وقده ويتناول الاموال الاميرية ويصرفها على الخدمة . (انظر صالح بن يحيى تاريخ بيروت ص ٩٠-٩٤ ، طنوس ابن الشدياق : اخبار الاعيان في امراء لبنان ص ٢٢٣ - ٢٢٤ .

ومن هؤلاء الامراء أيضا جمال الدين حجي، حصل على منشور من نور الدين مع ثمانية نفر اخرين سنة ٥٦٠هـ ١١٦٥م، وزين الدين علي. انظر طرخان ، النظم الاقطاعية ص ٤٦٥ حاشية ١٢.

(٦٥) طرخان ، المرجع السابق ص ٤٤.

(٦٦) المرجع نفسه ص ٤٥ .

(٦٧) المرجع نفسه ص ٤٥.

(٦٨) انظر المرجع نفسه ص ٣٩٣ من اجل نص المنشور . وانظر ايضا صالح بن يحيى تاريخ بيروت ص ٥٥-٥٦ من اجل اسماء القرى الواردة في المنشور .

(٦٩) بن شداد ذيل ص ٢٨٣،٢٧٢ . ابو المحاسن: النجوم الزاهرة ج٦ ص ٣٠-٣١ وما بعد .

(٧٠) طرخان ، المرجع السابع ص ٤١ .

(٧١) العماد الاصفهاني ، الفتح القسي ص ٩٦-١٢٠ .

(٧٢) شقيف ارنون قلعة حصينة في كهف الجبل قرب بانياس (أبو المحاسن النجوم الزاهرة ج٦ ص ٤٢ حاشية ٣) .

(٧٣) ابو المحاسن، المصدر السابق ج٦ ص ٤٢-٤٣.

(٧٤) الداوية : سموا كذلك بالهيكليين مقامهم كان بجانب موقع هيكل سليمان بالقدس وقد شكل هذه الجماعة هيو دي باين سنة ١١١٩م واطلقوا عليهم « الرفقاء جنود المسيح الفقراء » في عهد بلدوين الثاني ، وكان غرضها دينيا يستهدف تأمين الحجاج في طريقهم بين يافا والقدس ثم تحولت هذه الجماعة الى هيئة عسكرية لمحاربة المسلمين (غوانمة ، امارة الكرك الايوبية ص ١١٢ حاشية ٤٧).

(٧٥) الاسبتارية : أو فرسان القديس يوحنا (فرسان المشفى) تأسست من فرسان الصليبيين في عام ١٠٩٩م بعد الاستيلاء على بيت المقدس وكان هدفها الاول علاج المرضى وايواء الحجاج المسيحين ومساعدتهم ولكنهم تحولوا فيما بعد الى اغراض عسكرية ونذروا أنفسهم لمحاربة المسلمين (انظر غوانمة. امارة الكرك الايوبية ص ١١٣ حاشية ٤٨) .

(٧٦) ابن الفرات ، تاريخ ، المجلد ٤ ج١ ١٩٦٧ ص ١٤٧.

(٧٧) ربيع ، المرجع السابق ص ٦٣،٦٢ .

(٧٨) المرجع نفسه ص ٨٠ .

(٧٩) النويري ، نهاية الارب ، ج٨ ص ٢٠٠-٢٠٣.

(٨٠) ربيع ، النظم المالية ص ٣٢٤ . احمد صادق سعد ، تاريخ مصر الاجتماعي والاقتصادي ، بيروت ١٩٧٩ ص ٤٤٣ .

(٨١) القلقشندي ، صبح الاعشى ج١١ ص ٣٤،٣٣ ، و ج١٣ ص ١٤٤-١٤٨ وانظر فيما بعد أساليب التوقيعات الاقطاعية .

(٨٢) المقريزي : المواعظ والاعتبار ج١ ص ٨٧،٨٦ ، وبيع المرجع السابق ص ٢٨ - المحروم غير المزروع - المشكور المزروع .

(٨٣) انظر : طرخان ، النظم الاقطاعية ص ٩٥.

(٨٤) المرجع نفسه ص ٩٥.

(٨٥) المرجع نفسه ص ٩٥ .

(٨٦) الروك : كلمة قبطية اصلها (روش) ومعناهاالحبل ثم استعملت للدلالة على عملية قياس الارض بالحبل وهي بدورها مشتقة من اللفظ الديموطيقي «روخ»ومعناهـا تقسيم الارض وقد اصطلح على استعمالها في مصطلح الادارة المالية فيمصر والشام في العصور الوسطى ، للدلالة على عملية قياس الارض وحصرها في سجلات وتسعيرهاوتقويم العقارات وغيرها من الاملاك الثابتة ومتعلقاتها كل ثلاثين سنة وهي غير ثابتة . واقتضىهذاالتوفيق بين السنة الخراجية (القمرية) والميلادية (الشمسية) وذلك بتقديم السنة القمريةسنة كاملة . ويرجع ذلك لوجود تفاوت بين السنتين القمرية والشمسية ، والقمرية هي المتمدةفي جباية الخراج والروك الصلاحي نسبة الى صلاح الدين يوسف بن ايوب (انظر طرخان النظم الاقطاعية ص ٩٦) .

(٨٧) ابو شامة ، كتاب الروضتين ج٢ص٦٢ .ربيع، النظم المالية ص ٢٩.

(٨٨) المقريزي ، السلوك ج١ ص٦٤ـ٦٥.

(٨٩) محمد ياسين الحموي ، دمشق في العصر الايوبي ، ص ٤٧ـ٤٨.

(٩٠) اشتور ، المرجع السابق ص ٣٠٣.

(٩١) سعيد عاشور ، مصر والشام في عصر الايوبيين والمماليك ص ١٢٨.

(٩٢) حسنين محمد ربيع ، المرجع السابق ص٣٧.

(٩٣) ابن مماتي ، قوانين الدواوين ، ص ٣٤٤.

(٩٤) ابن العميد ، اخبار الايوبيين ص ١٥٩. النويري نهاية الارب ج٢٧ص٢٠٢ .

(٩٥) انظر ما سبق .

(٩٦) ابو شامة ، كتاب الروضتين ج١ ص٨ . اشتور المرجع السابق ص ٣٠٢

(٩٧) ابن الاثير ، الكامل ، ج١١ ص ٢١٠ـ٢١١ .ابن خلكان ،وفيات الاعيان ج٦ص١٧٢ .

(٩٨) ابن واصل ، مفرج الكروب ج٢ ص ٢٥٢.

(٩٩) المصدر نفسه ص ٤١٠ـ٤١١ .

(١٠٠) الخشداشية هي الرابطة التي تربطالسلطان الحاكم ومماليكه .انظر عبد الكريم رافق .بلاد الشام ومصر ط١ (١٩٦٧ ص ١٥ وهي هناتعني مماليك الامير الاقطاعي .

(١٠١) ابن ايبك الدواداري ، كنز الدر وجامعالغرر ج٧ ص ٣٧١ حوادث سنة ٦٤٧ هـ.

(١٠٢) الباز العريني ، المماليك ص١٦٦ .

(١٠٣) طرخان ، المرجع السابق ص٣٩.

(١٠٤) المقريزي ، السلوك ج١ ص ١٩٦.

(١٠٥) اشتور ، المرجع السابق ص٣٠١.

(١٠٦) ابو شامة ، كتاب الروضتين ج١ ص ١٩٦.

(١٠٧) الجريدة : سجل اسماء الجند . وهذا المقصود هنا ، وللجريدة معان كثيرة منها : جماعة الخيل (الفرسان) والصحيفة. وورقة النخيل. (انظر محمد خير ابو حرب المعجم المدرسي١٩٨٥ مادة جرد).

(١٠٨) الجامكية : كلمة تركية ، وهي الرواتب المحجوزة لشهر او اكثر وهي الرواتب عامة . وفي القلقشندي ان نفقة مماليك السلطان كانتعبارة عن جامكيات وعلوفة وكسوة وغيرذلك .

(١٠٩) هاملتون جب ، التاريخ الاسلامي ص ١١٣حاشية ١٦ ورواتب النفقات يقصد بها المصاريف والنفقات .

(١١٠) ربيع ، المرجع بلسابق ص ٣٣ .

(١١١) طرخان ، المرجع السابق ص ١٩٩ . والاردبمكيال ضخم بمصر يساوي٢٤ صاعا او هو ست ديبات والاردب اليوم ١٩٨ ليترا (انظر شذور العقود للمقريزي ١٩٦٧ ص ١٠٨) .

(١١٢) الباز العريني، الايوبيون ص ١٩٣.
(١١٣) الاجران : البيادر : المواضع التي يدرس فيها البر ونحوه وتجفيف الثمار .
(١١٤) الباز العريني ، المرجع السابق ص ١٥٧ .
(١١٥) المقريزي ، السلوك ج١ ص ٨٢–٩١.
(١١٦) القلقشندي ، صبح الاعشىج١ اص ٣٣–٣٤.
(١١٧) وبيع ، المرجع السابق ص ٣٥.
(١١٨) انظر ما سبق .
(١١٩) العماد الاصفهاني، الفتح القسيص ٢٥١–٢٥٢.
(١٢٠) المصدر نفسه ص ٤٥٣ .
(١٢١) المقريزي ، السلوك ج١ص١١٩.
(١٢٢) ابو شامة ، كتاب الروضتين ج١ ص٢٢١،وانظر أيضا : ربيع، المرجع السابقص ٣٩.العريني، الايوبيون ص ١٥٧.
(١٢٣) ابن الاثير ، الكامل ج١١ص ٢٧٢.
(١٢٤) ابن واصل ، مفرج الكروب ص ٢٧٢ . القلقشندي ، صبح الاعشى ج ١٣ ص ١٤٦ .
(١٢٥) القلقشندي ، صبح الاعشى ج ١٣ ص١٤٤–١٤٨ وبيع ، نظم ص ١٢٥ –١٢٦ .ملاحق رقم ٣.
(١٢٦) القلقشندي ، صبح الاعشى ج١٣ ص ١٤٨–١٥٠ وبيع ، المرجع السابق ص ١٢٢–١٢٩ ملاحق رقم ٤ .
(١٢٧) القلقشندي ، صبح الاعشى ج١٣ ص ١٥٠–١٥٢ . طرخان ، المرجع السابقص ٢٩١–٢٩٢d٢٩٢.
(١٢٨) احمد صادق سعد ، تاريخ مصر الاجتماعيوالاقتصادي ، ط١ص٤٥٧.
(١٢٩) اشتور ، المرجع السابق ص ٢٣٢.
(١٣٠) غواتمة ، امارة الكرك الايوبية ص ١٨١.

* * *



DIRASAT TARIKHIYYAH

Revue historique trimestrielle

S'interesse a L'histoire des Arabes

Pubièe par la Commission de Redaction de l'Histoire des Arabes

9e année, N° 29 - 30, Mars - Juin 1988

دراسات تاريخية

مجلة علمية فصلية محكمة

تعنى بالدراسات حول تاريخ العرب

السنة التاسعة ، العددان ٢٩ و ٣٠ ، آذار ـ حزيران ١٩٨٨

دراسات تاريخية

مجلة علمية فصلية محكمة

تعنى بالدراسات حول تاريخ العرب

تصدرها لجنة كتابة تاريخ العرب بجامعة دمشق

السنة العاشرة، العددان ٣١و٣٢، آذار ـ حزيران ١٩٨٩

DIRASAT TARIKHIYYAH

Revue historique trimestrielle

S'interesse a L'histoire des Arabes

Pubièe par la Commission de Redaction de l'Histoire des Arabes

10e année, No 31 - 32, Mars - Juin 1989

● بدل الاشتراك السنوي :

للافـراد : (٥٠) ل.س خمسون ليرة سورية

للمؤسسات : (١٠٠) ل.س مائة ليرة سورية
(تضاف اليها اجور البريد)

في البلاد الاجنبية : (١٠) عشرة دولارات اميركية
(بما فيها اجور البريد)

يتم تسديد بدل الاشتراك :

● بحوالة بريديـة الى لجنـة كتابة تاريـخ العـرب ، مجلـة دراسات تاريخيـة ، جامعة دمشــق .

● بتحويل القيمة الى حساب جامعة دمشق المفتوح في مصرف سورية المركـزي تحت رقم ٢٣/٣٢٢٢ .

يمكن للراغبين باقتناء مجموعات الاعداد الصادرة في السنوات السابقـة الاشتراك بالبدل نفسه لكل سنة من السنوات : (١٩٨١ ، ١٩٨٢ ، ١٩٨٣ ، ١٩٨٤ ، ١٩٨٥، ١٩٨٦ ، ١٩٨٧ ، ١٩٨٨) .

المراسلات : مجلة دراسات تاريخية

جامعة دمشق ـ لجنة كتابة تاريخ العرب

المكاتب : جامعة دمشق ـ كلية طب الاسنان ط ٣ ـ هاتف ٢٢٢٤٦١

دراسات تاريخية

١٩٨٩ / ١ ـ ٢
٣١ ـ ٣٢

دراسات تاريخية

السنة العاشرة ، ٣١و٣٢ ، آذار ــ حزيران ١٩٨٩

* ملكية الارض واثرها في التبدلات الاجتماعية والاقتصادية في الوطن العربي ٩

* مظاهر اقتصادية واجتماعية من لواء حماه (٩٤٢ــ٩٤٣/١٥٣٥ ــ ١٥٣٦)
د.عبد الكريم رافــق ١٧

* النشــاط الصهيوني في العــراق خــــلال فتــرة الانتــداب البريطــاني
د. هشام حسني عبد العزيز ٦٧

* البيروني وأســس الانتروبولوجيــا الثقافية
د. احمد الربابعة ٩٩

* ادعيــاء النبــوة في صــدر الاســلام ــ طليحــة بن خويلــد الاســدي
د. احسان صدقي العمد ١٢٣

تنويـه

- الآراء الواردة في المجلة تعبر عن وجهة نظر صاحبها
- ترتيب البحوث يخضع لاعتبارات فنية

* خبرو ـ خابيرو ، مشـكلة حقيقية أم مفتعلـة
د. فيصل عبد الله ١٥٥

* الموحدون وبنو غانية
د. علي أحمـد ١٨٧

* الجيش عند الموحدين
فايـزة كلاس ١٩٧

* تقرير اقتصادي الماني عن سورية ولبنان (١٩٤١)
فولكس بيرتس ٢١٩

مؤتمرات تاريخية : ماقبل التاريخ في المشرق
د. سلطان محيسن ١٩٧

مع الكتب : دمشق القديمة ، واين پيتارد
د. عيد مرعي ١٦٩

شروط النشـر في المجلـة

ان مجلة دراســات تاريخيــة هي جزء مــن **مشروع كتابــة تاريخ العــرب** ، وخطوة من خطــوات تخدم كلها وبمجموعهــا الغرض الاساســي ، وهو كتابة تاريــخ العرب من منطلق وحدوي ، وضمن منظوري الفهم الحضاري للتاريخو التقيد باسلوب البحث العلمي ، تحاول طرح الجديد في ميدان البحث في التاريــخ العربي ، وتسليط الضوء على التيارات العامة التي حركت تاريخ الامة العربية واعطته خط مســار خاص به ، وايضاح ما لفه الغموض وتصحيح ما شوه وكشف الزيف ان وقع ، وكل ما يمكن أن يثير جدلا علميا واعيا ينتهي عند الحقيقة الموضوعية .

والمجلة ترحب بكل قلم يشارك في أغناء فكرتهــا وبكل مقترح ورأي يساعــد في مسيرتها ، وتنشر البحوث والدراسات في تاريخ العرب وما يتصل به ، على ان يراعى فيها ما يلي :

آ ـ أن تتوافر في البحث الجدة والاصالة والمنهج العلمي .

ب ـ أن لا يكون البحث منشورا من قبل .

جـ ـ أن يكون مطبوعا على الآلة الكاتبة ، خاليــا من الاخطاء الطباعية .

د ـ تعرض البحوث ، في حال قبولها مبدئيا ، على محكمين متخصصين لبيان مــدى صلاحيتها للنشر ، وفق المعايير المذكورة اعلاه ، والتعديــلات اللازم ادخالهــا عليها عند الاقتضاء . وتبقى عملية التحكيم سرية .

وتحتفظ المجلة بحقها في الحذف او الاختزال ، بما يتوافق مع اغراض الصياغة.

ولا تنشر المجلة قوائم المصادر والمراجع ، ولذلك يحسن أن يتقيد السادة الباحثون بشكليات التوثيق المتعارف عليها ، على النحو التالي :

آ ـ في ذكر المصدر أو المرجع (للمرة الاولى) :

ذكر اسم المؤلف كاملا وتاريخ وفاته بين قوسين ( ) ان كان متوفى ، اسم المصدر أو المرجع وتحته خط ، عدد المجلدات أو الاجزاء ، اسم المحقق ان وجد ، الناشر ، المطبعة ورقم الطبعة ان وجدت ، مكان النشر وتاريخه ، الصفحة .
ثم ذكر ما يشار به الى المصدر أو المرجع في المرات التالية .

ب ـ في محاضر المؤتمرات :

ذكر اسم الباحث كاملا ، عنوان الدراسة كاملا بين قوسين مزدوجين « » ، عنوان الكتاب كاملا ، اسم المحرر أو المحررين ، الناشر ، المطبعة ورقم الطبعة ان وجدت ، مكان النشر وتاريخه ، الصفحة .

جـ ـ في المجلات :

اسم الباحث كاملا ، عنوان البحث بين قوسين مزدوجين « » اسم المجلة كاملا وتحته خط ، رقم المجلد او السنة ، رقم العدد وتاريخه ، الصفحة .
ثم ذكر الرمز الذي يشار به الى المجلة في المرات التالية :

د ـ في المخطوطات (للمرة الاولى) :

اسم المؤلف كاملا ، عنوان المخطوط كاملا ، الجهة التي تحتفظ به ، تاريخ النسخة وعدد أوراقها ، رقم الورقة مع الاشارة الى وجهها (آ) وظهرها (ب) . ثم ذكر ما يشار به الى المخطوط في المرات التالية .

وتكتب الاسماء الاجنبية بالعربية واللاتينية بين قوسين ( ) ، ويشار الى الملاحظات الهامشية بنجمة * . **وترقم الحواشي بارقام تتسلسل من أول البحث الى آخره ، دون التوقف عند نهاية الصفحات .**

يمنح الباحث نسخة من العدد الذي نشر فيه بحثه ، مع عشرين (مستلة) من البحث .

دراسات تاريخيـة

١٩٨٩ / ١–٢
٣١ – ٣٢

الندوة الثالثة للجنة كتابة تاريخ العرب بجامعة دمشق

ملكية الأرض وأثرها في التبدلات الاجتماعية والاقتصادية في الوطن العربي

مكتبة الاسد ٢٨ـ٣٠ تشرين الثاني ١٩٨٨

تحت رعاية السيد وزير التعليم العالي الدكتور كمال شرف ، وبدعوة من السيد رئيس جامعة دمشق الدكتور محمد زياد الشويكي ، رئيس لجنة كتابة تاريخ العرب بجامعة دمشق ، عقدت اللجنة ندوتها الثالثة ، والاولى في سلسلة الندوات العلمية المتخصصة ، وشارك فيها تسعة عشر باحثا من القطر العربي السوري والاقطار العربية ، هم : الدكتور الحبيب الجنحاني الاستاذ في الجامعة التونسية ، والدكتور عاصم الدسوقي عميد كلية الاداب في جامعة اسيوط / فرع سوهاج ، والدكتور محمد عدنان البخيت الاستاذ وعميد البحث العلمي في الجامعة الاردنية ، والدكتور عبد العزيز عوض الاستاذ في جامعة اليرموك والدكتورة مارتا مندى الاستاذة الزائرة في جامعة اليرموك ،والدكتور مسعود ضاهر الاستاذ في الجامعة اللبنانية ، والباحث عبد الله سعيد من الجامعة اللبنانية ، والباحثة فاطمة قشي من جامعة وهران ،والدكتور عبد الكريم رافق الاستاذ ورئيس قسم التاريخ في جامعة دمشق ، والدكتورة خيرية قاسمية والدكتور محمد حرب فرزات الاستاذان في جامعة دمشق ، والدكتور فيصل عبد الله والدكتور عيد مرعي والدكتورة نجاح محمد المدرسون في جامعة دمشق ، كما شارك في اعمال الندوة الدكتور علي ابو عساف المدير العام للاثار والمتاحف ببحث القي بالنيابة ، والدكتور يوسف نعيسة بمداخلة مطولة .

افتتحت الندوة في الساعة العاشرة من يوم الاثنين الموافق ١٩٨٨/١١/٢٨ في قاعة المحاضرات في مكتبة الاسد، بحضور الرفيق رئيس مكتب الثقافة والاعداد الحزبي في القيادة القومية ، والسيدين وكيلي جامعة دمشق ، وجمهور من الباحثين والمدعوين، والقى السيد الاستاذ الدكتور كمال شرف راعي الندوة في جلسة الافتتاح كلمة جاء فيها :

ايها السادة الاكارم :

يسرني أن افتتح الندوة الثالثة التي تنظمها لجنة كتابة تاريخ العرب بجامعة

دمشق ، وأرحب بالاساتذة المؤرخين من الاقطار العربية الشقيقة الذين لبوا دعوتنا مشكورين للمشاركة في هذه الندوة .

أيها السادة ، منذ اقدم العصور اولت الجماعات البشرية اهتماما كبيرا لحفظ احداثها . . وتدوين ما تيسر لها تدوينه ، عندما توافرت لها امكانات التدوين . ونجد ذلك عند كل الامم دون استثناء ، وكأنها شعرت بالفطرة بحاجتها للمحافظة على تاريخها ، مدركة أن وجودها أو واقعها الراهن ليس أمرا عارضا ، انما هو استمرار للماضي من جميع جوانبه الفكرية والاقتصادية والاجتماعية والسياسية ، وفي جميع ظروفه الطبيعية وعلاقاته مع الامم والجماعات الاخرى . ولعلها أدركت أيضا أن المستقبل سيكون كذلك استمرارا للحاضر ونتيجة له ، ولنا في محفوظات ابلا وماري وأوجاريت ، ومكتبة نينوى ، وفي اهتمام أجدادنا العرب بأنسابهم وتناقلهم لاخبار ماضيهم خير دليل .

وعندما بدأت النهضة العربية الحديثة في القرن التاسع عشر ، كانت العناية بالتاريخ من أهم العوامل التي مهدت لها وحركتها ، وايقظت الشعور القومي ووضحت ملامح الشخصية العربية ، ومنه استمد الرواد القوة والثقة بالنفس .

ونحن اليوم في هذا القطر الصامد بقيادة الرئيس المناضل حافظ الاسد ، حين نتصدى لاعادة كتابة تاريخنا القومي ، المهمة التي نيط امر الاعداد لها والاهتمام بتهيئة أسبابها بلجنة كتابة تاريخ العرب بجامعة دمشق ، انما نعد الاساس المكين لنهضتنها القومية المعاصرة ، ونهيء جانبا من جوانب المنعة أمام التحديات الكبيرة التي تحيط بأمتنا ، الثقافية بخاصة ، من قوى لم تعرف البشرية مثيلا لها من قبل : تحاول سلبنا هويتنا وتاريخنا وارضنا ، بعد ان نهبت خيراتنا سنوات طوالا .

ان كتابة تاريخ امتنا العربية العريقة بشكل منهجي وعلمي هي من الواجبات القومية الملقاة على عاتقنا ، والوصول الى الحقيقة خالصة منزهة عن الغرض والهوى هو ما نبتغيه ، لان الحقيقة تتكلم عن نفسها ، وترد الزيف الذي الحق بتاريخنا عن قصد او عن جهل .

وقال السيد الوزير :

لقد شهدت الكتابة التاريخية العربية منذ منتصف هذا القرن وبعد ان تخلصت الاقطار العربية من ربقة الاستعمار والقيود التي حاولت تحجيم تاريخها العربي ، تطورات نوعية هامة ، فأخذت تهتم بتاريخ الوطن العربي ومؤسساته السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، وبمنجزاته الحضارية ذات المستوى العالمي ، وذلك من خلال دراسة معمقة تركز على دور الشعب العربي في صنع تاريخه ، وظهرت في هذه المجالات دراسات عربية متخصصة القت اضواء هامة على تركيب المجتمع العربي بهدف فهم التاريخ السياسي للامة بشكل أفضل ، وربطه بجذوره الشعبية ، وتبيان دور

شعبنا الكبير على امتداد الوطن العربي وفي عمق تاريخه ، وما حققه من منجزات حضارية كانت لها اسهاماتها الهامة في الحضارة الانسانية بعامة ، وعبر العصور التاريخية المتعاقبة .

أيها السادة ، ان موضوع ندوتكم هذه « ملكية الارض واثرها في التبدلات الاجتماعية والاقتصادية في الوطن العربي » ، عبر عصوره المختلفة وعلى امتداده الجغرافي ، يدخل ضمن هذا التوجه الجديد لدراسة تاريخ الامة العربية ، وكانت خصوصياته مصدر اثراء لهذه الوحدة تصب في خانتها وتمنحها القدرة على التلاؤم مع الاوضاع المحيطة بها ، والتفاعل مع الحضارات العالمية . فحرى بنا ان نقرأ تاريخنا قراءة علمية ، كما تفعلون في ندوتكم ، وان نكتبه بايدينا ، موضوعيا ومنهجيا فتتأكد بذلك تلقائيا عناصر وحدته التي هي حقائق تاريخية ثابتة لا يمكن ان تنال منها محاولات التبديل والتشويه مهما حاول المغرضون .

أيها السادة :

أتمنى لندوتكم النجاح .. وأتمنى لكم التوفيق فيما انتم تنتدون من أجله ..

والقى الاستاذ الدكتور محمد حرب فرزات عضو لجنة كتابة تاريخ العرب كلمة استهلها بتوجيه الاحترام الى القائد المناضل حافظ الاسد رئيس الجمهورية العربية السورية ، والشكر للسيد الاستاذ وزير التعليم العالي الدكتور كمال شرف الذي شمل الندوة برعايته ، وللسيد الاستاذ محمد زياد الشويكي رئيس جامعة دمشق الذي اشرف على اعدادها وتنفيذها ، جاء فيها :

من هنا ، من منطلق البعث العربي المتجدد نجدد الدعوة التي حملتها جامعة دمشق منذ نشأتها وهي دعوة العروبة ، دعوة مضمونها الاصيل بعث الحضارة العربية وتجديد الثقافة العربية واداتها الفذة ، اللغة العربية الخالدة . نجدد هذه الدعوة في ملتقانا هذا الى عمل علمي مشترك ينهض به مؤرخون من كل أرض العرب لكتابة تاريخ لكل العرب من منطلقات علمية موضوعية وقومية عربية واعية لكي يكون هذا العمل المنشود تاريخا قوميا لا قطريا ، شاملا لا مرحليا ، وسجلا علميا للحضارة العربية بكل عمقها الزمني وامتدادها الجغرافي ، وبكل قيمها ومظاهرها وعلاقاتها الانسانية وتاثيراتها المتبادلة العميقة . عندها يكون هذا التاريخ انجازا حقيقيا كالذي نطمح الى تحقيقه ، يحمل سمات العصر الذي نعيشه وينقل رؤية اجيال من ابنائه الى الماضي والحاضر والمستقبل ، من خلال البحث العميق في الاصول والجذور ، وبالتتبع الدقيق لفعل الانسان العربي وعمله المثمر في الارض في المكان مسرح التاريخ ، وعلى مدار الزمن عبر عصور التاريخ المتلاحقة المتعاقبة .

من هذه المنطلقات جاءت بحوث هذه الندوة لتدور حول محور الارض، حول جوانب من أشكال علاقة الارض العربية بالانسان العربي عبر العصور من خلال دراسة موضوع ملكية الارض واثرها في التبدلات الاجتماعية والاقتصادية في الوطن العربي ، بهذا التوجه يمكن ان يكون موضوع التاريخ قصة تحرك الانسان وفعالياته المادية والفكرية على الارض التي يعيش عليها منذ آلاف السنين . هكذا عندما يغدو المجتمع موضوع البحث يرتفع البحث التاريخي من مجرد السرد النظري والتصور الخيالي الى مستوى خطورة البحث التاريخي الحقيقي المدعم بالوثائق والبينات الملموسة لرصد حركة التاريخ رصدا صحيحا في هذه المرحلة من تاريخ الوطن العربي .

وهنا في وطننا العربي تطرح المسألة التاريخية على صعيد البحث في عدد من أقطار الوطن في السنين الاخيرة ، واتخذت من هذه المسألة مواقف محددة ، صيغت بصيغ مختلفة . وتشكل الجهود المبذولة في هذا الصدد في الجامعات ومراكز البحوث العربية تغييرا عميقا في العملية العلمية لكتابة التاريخ الا اننا مازلنا نحتاج الى بذل جهود اكبر لصياغة القناعات المشتركة ولتنسيق آفاق الممارسة العملية لكتابة التاريخ وتحديد ضوابطها الفكرية والمنهجية للتوصل الى جني الثمار المنشودة المرجوة .

ثم القى الاستاذ ناظم كلاس كلمة لجنة كتابة تاريخ العرب بجامعة دمشق ، بين فيها موقع هذه الندوة كخطوة من خطوات تهدف كلها وبمجموعها الى خدمة المشروع الام ، مشروع كتابة تاريخ العرب ، باقلام عربية الانتماء ، رائدها الصدق وتوخي الحقيقة ، تجلو الماضي حياة نابضة لا أحداثا جامدة ، وتبين حوافز الاحياء ودوافعهم بكل غناها وعمقها وتشابكها ، لا ردود فعل لا ارادية . تسلط الضوء على ما لم يحظ بعناية المؤرخين ، وتكشف عن الوحدة العريقة للامة العربية ، وعن التيارات العميقة والمؤثرات المختلفة ، الداخلية والخارجية ، التي حركت تاريخها واعطته خط مسار خاص به ، وعن رسالتها الانسانية ، وعطائها الحضاري ، تكون وسيلة بين أيدي أبناء الامة وأجيالها الطالعة لوعي ماضي أمتهم على حقيقته ، ووضوح رؤيتهم لحاضرها وما يعاني ، وسلامة تصورهم لدروب المستقبل الذي تصبو اليه .

وبعد ان عرض في كلمته لعمل اللجنة في السنوات الماضية ، وما اسفرت عنه الندوتان السالفتان ، وتوصياتهما ، ومنها اصدار « مجلة دراسات تاريخية » (صدر منها حتى الان ثلاثون عددا) ، واحداث اكاديمية او جمعية تاريخية ، وانشاء مكتبة مركزية .. تابع قائلا : ان الموضوعية في التاريخ ، قديما وحديثا ، امر ليس سهل المنال ، وهدف مثالي يصعب تحقيقه ، لذلك نرى شعوب الارض ما زالت تعيد قراءة تاريخها ، وفهمه ، وكتابته . فحري بنا ، نحن العرب ، في هذه المرحلة الصعبة من تاريخ أمتنا ، مرحلة تأكيد الشخصية العربية ، ونحن نتطلع الى ايجاد المعادل السياسي للذات القومية ، ونجابه غزوا ثقافيا وتحديات حضارية ومادية من قوى لا عهد

للعالم بمثلها ، وفي قلب وطننا عدو شرس يحاول ان يسرق تاريخنا بعد ان سرق ارضنا، وفرض علينا معركة البقاء ، حري بنا ان نولي ماضينا ما يستحق من اهتمام ، ونعيد قراءة تاريخنا ، الموغل في القدم ، الغني بالتجارب والاشراق والتقدم ، حين تبوأت هذه الامة مركز الريادة وموقع القيادة في مسيرة الحضارة الانسانية عدة قرون ، وما انتابه من نكسات ونكبات ادت الى واقع التمزق والتخلف ، حري بنا ان نعيد قراءة ماضينا ، وما فيه من عوامل الوحدة الكامنة في وجودنا القومي ، وانظارنا تتركز على الحاضر والمستقبل .. فلتحشد الطاقات وتتضافر الجهود ،رائدها الصدق والاخلاص والايمان النابع من ذاتها ، تصب كلها في قنوات موحدة لتكوين مدرسة تاريخية عربية، ومهمة الهيئات التي تتبنى هذه الفكرة تمهيد الدروب والمساعدة على تذليل الصعوبات وتجاوز العقبات ، حتى لا ينتهي العمل بكتاب جديد يضاف الى الكتب الموجودة وعلى شاكلتها .

ان لجنة كتابة تاريخ العرب بجامعة دمشق ، ترحب الترحيب الصادق بكل مقترح وراي يساعد في مسيرتها وفي اغناء فكرتها ، أو يقوم مرحلة من مراحل عملها ، وبكل قلم يرفد مجلتها بالدراسات الجادة التي تندرج في الاطار الذي رسمته لنفسها ، وتتمنى لكل جهة أو هيئة تعمل في سبيل تحقيق غرضها النبيل كل نجاح وتوفيق ، مع استعدادها للتعاون معها ، الى اقصى حدود التعاون ، وتبادل الخبرات وتلمس السبل السليمة في العمل ، فهدفنا واحد ، وتراثنا واحد ، وكفاحنا واحد في سبيل المستقبل الواحد .

وبعد استراحة قصيرة ، عقدت الجلسة الاجرائية برئاسة الدكتور عبد الكريم رافق والدكتور عادل زيتون مقررا ، وتم فيها :

آ ــ انتخاب الدكتور محمد زياد الشويكي رئيس جامعة دمشق رئيسا للندوة.

ب ــ انتخاب الدكتور عبد الكريم رافق رئيس قسم التاريخ نائبا للرئيس .

جـ ــ انتخاب الدكتور عاصم الدسوقي عميد كلية الاداب في جامعة اسيوط مقررا عاما .

د ــ انتخاب السيد ناظم كلاس ناطقا باسم الندوة .

هـ ــ اقرار ورقة العمل ، وتتضمن عقد جلستي عمل يوميا ، الاولى صباحية من الساعة ٩ الى ١٣، والثانية مسائية من الساعة ١٦ الى ١٩ ، تتخلل كل منهما استراحة قصيرة . وتجري المداخلات في كل فترة على حدة .

وفي الساعة السادسة عشرة بدأت جلسات العمل (أربع جلسات خلال ايام الاثنين والثلاثاء والاربعاء) والقي فيها أربعة عشر بحثا تناولت جوانب عديدة من الموضوع المحوري للندوة ، في عصور التاريخ العربي المتعاقبة :

- **الحيازة الزراعية وآثارهافيمجتمع بلاد الهلال الخصيب خلال عصر الممالكالقديمة.**

  د. علي ابو عساف .

- **ملكية الارض في عهد حمورابي .**

  د. عيد مرعي .

- **الانسان والارض في الالاخ في القرنين الثامن عشر والخامس عشر قبل الميلاد .**

  د. فيصل عبد الله .

- **الملكية العقارية في المجتمع الارامي في اسوان (من خلال نصوص آرامية من القرن الخامس قبل الميلاد) .**

  د. محمد حرب فرزات .

- **ملكية الارض وأثرها في التحول الاقتصادي والاجتماعي في مجتمع صدر الاسلام.**

  د. الحبيب الجنحاني .

- **غوطة دمشق في القرن السادس عشر ـ الارض والسكان والضرائب .**

  د. محمد عدنان البخيت .

- **الفئات الاجتماعية وملكية الارض في بلاد الشام في الربع الاخير من القرن السادس عشر .**

  د. عبد الكريم رافق .

- **الملكية الخاصة للاراضي الزراعية في مصر ـ النشأة والتطور (١٨٣٧ـ١٨٩٩).**

  د. عاصم الدسوقي .

- **نظام ملكية الارض في بلاد الشام وآثاره الاقتصادية والاجتماعية (١٨٣٩ـ١٩١٤).**

  د. عبد العزيز عوض .

- **اضواء على نشوء الملكية الخاصة في لبنان وتطورها ـ دراسة في المنهج .**

  د. مسعود ضاهر .

- **ملكية الارض ونظام الري في وادي ضهر في اليمن خلال القرون الثلاثة الاخيرة .**

د. مارتا مندي .

- **الملكية الزراعية في جبل لبنان ابان حكم القائمقاميتين (من خلال وثائق اصلية) .**

عبد الله سعيد

- المواجهة الاقتصادية مع الاستيطان الصهيوني- التمسك بملكية الارض (١٨٨٢- ١٩٤٨) .

د. خيرية قاسمية .

- **وقفة تاريخية نقدية عربية مع مقولة اسلوب الانتاج الاسيوي .**

د. نجاح محمد .

وشارك الدكتور يوسف نعيسة في المناقشات بمداخلة مطولة عن ملكية الارض والعلاقات الزراعية في بلاد الشام في النصف الاول من القرن التاسع عشر .

- **وفي ختام اعمال الندوة ، وبنتيجة الحوار وتعبيرا عما دار فيها من مداولات، رأي المشاركون ان يتقدموا بالتوصيات التالية :**

١ - طبع البحوث ونشرها وتوزيعها على أقسام التاريخ في الجامعات العربية .

٢ - تيسير سبل الافادة من مكتبة لجنة كتابة تاريخ العرب في جامعة دمشق للمؤرخين والباحثين العرب ، ايا كانت مواطن عملهم ، بعد تجهيزها بكل ما يساعد على تعميق الدراسات ، من مصادر ومراجع ، عربية واجنبية ، ومن اجهزة مكتبية حديثة .

٣ - متابعة عقد الندوات العلمية المتخصصة وجعلها دورية، وتوسيعها بقدر الامكان.

٤ - ان يكون محور الندوة القادمة « البنى الاجتماعية والاقتصادية في الوطن العربي، في عصوره المختلفة » .

٥ - تيسير مشاركة المؤرخين في الندوات والمؤتمرات العربية والدولية التي تتصل أعمالها بالتاريخ العربي ، وتوسيعها .

٦ - التمني على الجهات المسؤولة والمختصة في القطر العربي السوري انشاء المركز العلمي للدراسات والبحوث التاريخية ، يعمل على درس وتحليل تراثنا ونشره، وربطه بحاضرنا وتطلعاتنا المستقبلية ، وتسهيل سبل احداث جمعية علمية تاريخية في القطر .

٧ – توجيه الشكر والامتنان العميق لسيادة الرئيس المناضل حافظ الاسد ، رئيس الجمهورية العربية السورية لما يوليه من اهتمام ورعاية للعلم والعلماء ، وبخاصة لتاريخ الوطن العربي ، وللسيد وزير التعليم العالي الدكتور كمال شرف لرعايته لهذه النـــدوة .

وفي ختام اعمال الندوة وجه المنتدون الى الرفيق المناضل حافظ الاسد ،الامين العام لحزب البعث العربي الاشتراكي ، رئيس الجمهورية ، البرقية التالية :

سيادة الرئيس حافظ الاسد – رئيس الجمهورية العربية السورية :

من مكتبة الاسد ،وبمناسبة انعقاد الندوة الثالثة للجنــة كتابة تاريــخ العرب بجامعة دمشق في الفترة من ٢٨ الى ٣٠ تشرين الثاني ١٩٨٨ حــول محور « ملكيــة الارض واثرها في التبدلات الاجتماعيــة والاقتصادية في الوطــن العربي » يتشــرف المشــاركون في هــذه الندوة ، مــن الاقطار العربيــة والقطــر العربي الســوري ، برفع اسمى آيات الاحترام والشكر لشخصكم الكريم لرعايتكم المستمرة للعلم والعلماء، وللاهتمام الشخصي الذي تولونه لمشروع كتابة تاريخ الامة العربية التي تعتز بقيادتكم، ويعاهدونكم على بذل اقصى الجهود لتنقية تاريخ هذه الامة مما لحق به وشابه مــن زيف ، وكتابته باقلام عربية الانتماء ، كتابة علمية منهجية ، وبنظرة قومية حضاريــة شاملة تتيح لابناء هذا الجيل وعي حقيقة تاريــخ امتهــم وصفــاء رؤيتهم لحاضرها ومستقبلها ،ولهم في تشجيع سيادتكم خير هاد ودليل .

وفقنا الله لخدمة هذا الوطن في ظل قيادتكم الرائدة .

وتفضلوا بقبول فائق الاحترام والتقدير من المؤرخين العرب

ووجهوا الى السيد وزير التعليم العالي الدكتور كمال شرف البرقية التالية :

المشاركون في الندوة الثالثة للجنة كتابة تاريخ العرب بجامعــة دمشــق ، مــن المؤرخين والباحثين من الاقطــار العربيــة والقطــر العربــي الســوري ، يتقدمــون اليكم بخالص الشكر والتقدير لرعايتكم الكريمة لهذه الندوة ، وتوفيركم كل الاسباب التي اتاحت لها النجاح في عملها . وفقكم الله في خدمة الوطن والامة في ظــل القيادة التاريخية للرفيق المناضل الرئيس حافظ الاسد .

*** تصدر بحوث الندوة في عدد خاص من مجلة دراسات تاريخية .**

مظاهر اقتصادية واجتماعية من لواء حماه
٩٤٢-٩٤٣ / ١٥٣٥-١٥٣٦

د . عبدالكريم رافق
جامعة دمشق

مقدمـــة :

هذا البحث مبني بكامله على وثائق السجل الاول مـن سجلات محكمة حمـاة الشرعية . ويضم هذا السجل القضايا التي عرضت على هذه المحكمة بين ١٨ جمادى الاولى ٩٤٢ وغرة ربيع الاول ٩٤٣ / ١٤ تشرين الثاني ١٥٣٥ و ١٨ آب ١٥٣٦(١) . ويتألف السجل في الواقع من ٢٤٠ صفحة تضم ما مجموعه 1156 قضية استخدمنـا منها ١٠٩٠ قضية(٢) ، ويعدّ من أقدم سجلات المحاكم الشرعية المعروفة في بلاد الشام (باستثناء سجلات القدس الشريف التي تبدأ في عام ٩٣٦ / ١٥٣٠)(٣) . ولم يسبق لهذا السجل أن درس بشكل دقيق وشامل بالرغم من أهميته سواء بالنسبة لتاريخه المبكر أو لمحتوياته(٤) . وأهمية سجل حماة هذا تكمن في نوعية القضايا التي يعالجها في فترة مبكرة من الحكم العثماني في بلاد الشام ذلك ان هذه الفترة بالرغم من كونها مرحلة انتقال بين ادارة مملوكية وأخرى عثمانية فانها تصف أنظمـة وانماطا عربية اسـلامية كانت سائدة في الاقتصاد والمجتمع . وتتبدى أهمية هذه الدراسة بمقارنتها مع فترات لاحقة من تاريخ حماة أو غيرها من مدن بلاد الشام للتعرف على ما أصاب هذه الانظمة والانماط من تبدلات ، كما أنه يجدر مقارنتها مع الاوضاع المماثلة في مدن أناضولية مثلا في فترات زمنية موازية . وتطرح هـذه المقارنة موضوعا هاما حـول مـدى تطابق أو اختلاف الانظمة والانماط الاقتصادية والاجتماعية ، ذات القاعـدة الاسلامية ، التـي كانت سائدة في المناطق العثمانية ـ الاسلامية والمناطق العربية ـ الاسلامية ابان الحكم العثماني ،مثال ذلك الفائدة على القروض والديون التي أخذت بها ونصت عليها سجلات المحاكم الشرعية في مدن الاناضول(٥) والتي لم تنص عليها سجلات المحاكم الشرعية في بلاد الشـام ، وتطرح هنا مشكلة الموروث مـن التراث ومدى تأثـر كل منطقة في الدولـة العثمانية به ، وكذلك مدى فهم وتطبيق مبادىء الشريعة .

اعد هذا البحث للكتاب التكريمي لاستاذنا الدكتور عبد الكريم محمود غرايبة ، أستاذ تاريخ العرب الحديث والمعاصر في جامعة دمشق سابقا ، وعميدكلية الآداب في الجامعة الاردنية حاليا ، بمناسبة بلوغه الخامسة والستين . وسينشر في الكتاب المومى اليه الجزء المتعلق بالمظاهر الاقتصاديـة فقط نظـرا لضيق المكان . وننشر هنا البحث كاملا .

دراسات تاريخية ، ٣١ و ٣٢ ، آذار ـ حزيران ١٩٨٩

ويُعنى سجل حماة قيد الدراسة بنوعين رئيسيين من القضايا : نوع مالي يدور حول القروض والديون وبيع السلم وما يرتبط بها من كفالات للمال وللاشخاص ، ومن فئات اجتماعية تتعاطاها ، ومن أنواع للسلع التي تشكل مدارها ، ونوع اجتماعي يتعلق بالاحوال الشخصية ، وبخاصة عقود الزواج ، وكذلك بقضايا الامن والاخلاق العامة . وفي النوعين لا تقتصر القضايا على مدينة حماة بل تشمل ريفها التابع لها قضائيا ، ومن شأن ذلك ان يجعل الصورة اكثر تكاملا وامتدادا وعمقا . ويتضح عندئذ دور الفئات الاجتماعية ، على اختلاف مواقعها الجغرافية ، في السوق المالية ، دائنة كانت أم مديونة ، ومدى مساهمة كل فئة منها في الانشطة الاقتصادية والاجتماعية المختلفة . وتنبع أهمية القضايا التي تعرضها سجلات محكمة حماة الشرعية من أهمية هذه المدينة بالنسبة لموقعها الجغرافي وتنوع نشاطها الاقتصادي . والى جانب كونها سوقا للبدو وللقرويين وتشابك مصالح سكانها مع مصالح هؤلاء فقد كانت حماة محطة رئيسية على الطريق التجارية التي ربطت مدينة حلب بأحد مينائيها الرئيسيين وهو طرابلس (الآخر كان الاسكندرونة) . وهرع اليها التجار البنادقة ، استمرارا لتقاليد سابقة ، لشراء قطنها المعروف بالحموي السقي ذي الشهرة مقابل بيع الجوخ فيها . وتعايشت المذاهب المختلفة في حماة التي سكنها مسلمون ومسيحيون ويهود . وعاش في عدد من قراها المسيحيون الى جانب المسلمين . وسكنت حماة وريفها أسر تركمانية أقامها العثمانيون لصد هجمات البدو على المناطق الآهلة .

تبعت حماة في القرن السادس عشر ولاية طرابلس . ولكن يصعب تحديد تبعيتها في السنتين اللتين نعالجهما . فقد ذكر الاخباري الدمشقي محمد بن طولون الذي كتب عن بدايات الحكم العثماني أن السلطان سليم الاول عهد في ٥ صفر ١٦/٩٢٤ شباط ١٥١٨الى جان بردي الغزالي بنيابة دمشق «ومعها من بلاد المعرى الى عريش مصر»(٦)، وهذا يعني انها شملت حماة . وتتضارب الاقوال حول تأسيس ولاية طرابلس العثمانية، التي تبعتها حماة فمن قائل انها تشكلت في حوالي عام ١٥٧٠(٧) ، ومن قائل ان قانونا ينظم شؤونها كولاية صدر في ٩٢٦ / ١٥١٩ ـ ١٥٢٠ ، كما صدرت قوانين أخرى لها في ١٥٤٧/٩٥٤ و ١٥٧١/٩٧٩(٨) . ويشير سجل حماة في بعض القضايا الى اسم امير لواء حماة (مثلا في ٣ رجب و ٢٤ رجب و ١٩ شوال ٢٨/٩٤٢ كانون الاول ١٥٣٥ و١٨ كانون الثاني و ١١ نيسان ١٥٣٦) بأنه « مفخر الامرا سلطان حمزة » أو « مفخر الامرا حمزة سلطان مير لوا حماة »(٩) .

مظاهر اقتصادية :

تستأثر قضايا الديون بأنواعها بالمكانة الاولى بين المظاهر الاقتصادية في لواء حماة،

ودراستها من الاهمية بمكان لانها تطلعنا على هوية الفئات الاجتماعية التي تعاطت ذلك، وعلاقة الريف بالمدينة في هذا المجال ، والاخلاقية التي انتظمت المعاملات المالية .

تشغل قضايا الدين حوالي ٤٢٩ قضية من مجموع القضايا المدروسة في سجل حماة والبالغ ١٠٩٠ قضية ، اي بنسبة حوالي ٣٩٪ ، مما يدل على المكانة الكبرى التي شغلتها الديون في اقتصاد تلك الفترة ،وعلى كثرة توظيف المال في هذا الميدان الذي درّ ولا شك ارباحا هامة على الدائنين ويسَّر او ربما كبَّل مصالح المديونين حسب نوعية الدين وشروطه . وتدل كثرة الديون على انها كانت ضرورة اقتصادية هامة وان لا غضاضة اجتماعية في عقدها . كما أن اللجوء الى المحكمة الشرعية لتثبيت مبالغ الديون وشروطها دليل ، من ناحية ، على احترام السكان للقضاء بسبب فعاليته ، وضمانة للوفاء بالدين من ناحية أخرى. ولمعرفة انواع الديون وهوية الفئات الاجتماعية الفاعلة في السوق المالية ، دائنة كانت أم مديونة ، ونسبة المدنيين الى الريفيين بين هؤلاء ، والذكور الى الاناث، وأصحاب المذاهب المختلفة بينهم سنعتمد الجداول والارقام لدراسة ذلك بشكل دقيق .

ترد في سجل حماة أربع عمليات مالية رئيسية هي القرض ، والدين الشرعي (المالي) ، والبيع والشراء بالدين ، ثم السلم الشرعي. فالقرض غالبا ما لحقت به كلمة الحسن (القرض الحسن) ، وأحيانا كلمة الشرعي (القرض الشرعي) . وفي الحالين يشار الى المبلغ او الشيء المتوجب على المستقرض دفعه الى المقرض انه بذمة الاول الى الثاني . ومن الآراء الشرعية ما يساوي القرض بالاعارة واذا صار فيه منفعة فهو ربا ، وبالتالي يكون حراما . وقد يكون القرض مالا أو عينا(١٠). وتعبير القرض الحسن يعني انه عمل خير الهدف منه المساهمة في تفريج كربة رجل معسر ماليا بتقديم المال له بدون فائدة . وقد جاء في الفتاوى الكبرى لابن حجر ، من أهل القرن العاشر الهجري ، سؤاله : هل الافضل القرض او الصدقة ، فأجاب : « القرض أفضل كما جزم به ابن الرفعة والنشائي وغيرهما بخبر درهم الصدقة بعشرة والقرض بثمانية عشر ووجهه أن طالب القرض انما يطلبه عن حاجة غالبا بخلاف طالب الصدقة واعترض بخبر من أقرض درهما مرتين فله مثل اجر صدقة مرة »(١١) . وتعبير القرض الشرعي يعني انسجام القرض مع الاصول الشرعية وانه بدون فائدة . ولا يشير سجل حماة في الواقع الى اية فائدة على المبالغ المقدمة كقرض أو قرض حسن أو قرض شرعي . كما وانه لا يحدّد القرض بأجل ، وذلك حسب الاصول الشرعية(١٢) .

وباستعراض القروض في سجل حماة الذي تمتد فترته على ٢٧٨ يوما نتبين أن عددها كان ٩٦ قرضا موزعة كالتالي : ٨٠ أشير اليها بكلمة قرض و ٦ بالقرض الحسن

و١٠ بالقرض الشرعي ، أي بمعدل حوالي ثلاثة قروض في اليوم . وهناك بضع حالات ورد فيها دين الى جانب القرض وأعطي المبلغ الاجمالي لذلك وقد اعتبرنا ما يخص القرض جزءا بالتساوي مع الدين بالنسبة لكامل المبلغ . وفعلنا ذلك في الحالات المماثلة . وباستعراض هوية الفئات الاجتماعية القرضة والمستقرضة وعدد القرضين والمستقرضين والمبالغ المالية الموظفة في ذلك تتبين لنا الاحصاءات التالية :

الفئات الاجتماعية	القرضون: عدد القرضين	القرضون – المبالغ: درهم عثماني	القرضون – المبالغ: درهم حلبي	القرضون – المبالغ: غيره	المستقرضون: عدد المستقرضين	المستقرضون – المبالغ: درهم عثماني	المستقرضون – المبالغ: درهم حلبي	المستقرضون – المبالغ: غيره
موظفون	٥	٣٦٠٠٠	–	–	–	–	–	–
عسكريون	١	١٩٢٠	–	–	١	١٠٠٠	–	–
علمـاء	٤٣	٦٢٨٤	١٧٢٦٥	٣١ر١٥ مكوك حنطة ٨ر٥٠ م شعير ٥٦ شنبل شعير	١	٥٠٠٠	–	–
حجاج	١٠	–	٢٥٧٩٠	٣ م حنطة ٦ ش شعير ٦ ش ذرة	٥	١٠٠٠	٤١٩٠	–
عاديون	٣٢	٤٠٠٠	١٨٤٤٥	١١ قبرصي ٣ر٥٠ م حنطة ٣ ش حنطة	٣١	٩٣٠٠	٢٦٢٨٠	١٠ قبرصي ٣ر٥٠ م حنطة ٣ ش حنطة
ريفيون	١	–	٢٨٢	–	٧٤	١٧٦٠٤	٢٥٢٦٢	١ قبرصي ٣٤ر٢٥ م حنطة ٨ر٥٠ م شعير ٥٦ ش شعير ٦ ش ذرة
نساء	٢	–	٣٥٥٠	–	٢	٤٠٠	٨٠٠	–
مسيحيون	١	–	١٢٠٠٠	–	٩	١٤٠٠٠	١٣٢٠٠	–
يهـود	–	–	–	–	١	–	١٧٥٠٠	–
اجانب	١	–	١٠٠٠٠	–	–	–	–	–
المجموع	٩٦	٤٨٣٠٤	٨٧٤٣٢	١١ قبرصي ٢٧ر٧٥ م حنطة ٨ر٥٠ م شعير ٥٦ ش شعير ٣ ش حنطة ٦ ش ذرة	١٢٤	٤٨٣٠٤	٨٧٤٣٢	١١ قبرصي ٢٧ر٧٥ م حنطة ٨ر٥٠ م شعير ٥٦ ش شعير ٣ ش حنطة ٦ ش ذرة

ويمكن تحويل هذه الارقام الى وحدة نقدية متماثلة هي الدرهم الحلبي مثلا لانــه الاكبر كمية والاكثر استخداما لنصل الى نسبة موحدة لكل فئة اجتماعية تبرز دورها كثــرة أو قلــة ، كمقرضــة أو مستقرضة . ولعل المقصود بالدرهم العثماني الاقجــة الفضية ، وهي وحدة النقد الاساسية في الدولــة العثمانية ، وكان اســمها الكامــل « اقجة عثماني » وتختصر الى عثماني(١٣) . وكان الدرهــم العثماني يعــادل درهمين ونصف درهم حلبي(١٤) . أما القبرصي الموصوف بالافرنجي الذهب والذي كان معروفا في دمشق منذ السلطنة المملوكية(١٥) فكــان يعادل في حمــاة في فترة قريبة من فترتنــا ١٨٢ر٦٩ درهما حلبيا(١٦) . وكان وسطي ثمن مكوك الحنطة حوالي ٨٥٠ درهما حلبيا. اما مكوك الشعير فكان ثمنه ١٢٨ درهما عثمانيا(١٧). وهذا ما يعادل ٣٢٠ درهما حلبيا. وكان سعر شنبل(١٨) الحنطة حوالي ٥٣درهما حلبيا ، وسعر شنبل الشعير ٢٠درهما حلبيا . ولا يعرف سعر شنبل الذرة . وعلى هــذا يمكن تحويــل الدراهم العثمانيــة وأسعار بعض السلع في الجدول السابق الى دراهم حلبية كما يلي :

الفئات الاجتماعية	عدد المقرضين	النسبة	المقرضــون المبــالغ بالدراهم الحلبية	النســبة	عــدد المستقرضين	النسبة	المستقرضون المبــالغ بالدراهم الحلبية	النسبة
موظفون	٥	٢١ر٥	٩٠٠٠٠	٣٦ر٥٤	–	–	–	–
عسكريون	١	١ر٠٤	٤٨٠٠	١ر٩٥	–	٠ر٨١	٢٥٠٠	١ر٠١
علمــاء	٤٣	٤٤ر٧٩	٦٣٦٢٧	٢٥ر٨٣	١	٠ر٨١	١٢٥٠٠	٥ر٠٨
حجاج	١٠	١٠ر٤٣	٢٨٣٤٠ + ٦ (شنابل ذرة)	١١ر٥١	٥	٤ر٠٣	٦٦٩٠	٢ر٧٢
عاديون	٣٢	٣٣ر٣٣	٣٣٥٨٨	١٣ر٦٤	٣١	٢٥ر٠٠	٥٤٥٩١	٢٢ر١٧
ريفيون	١	١ر٠٤	٣٨٢	٠ر١٦	٧٤	٥٩ر٦٧	١٠٢٥٠٦ + ٦ (شنابل ذرة)	٤١ر٦٢
نســاء	٢	٢ر٠٨	٣٥٥٠	١ر٤٤	٢	١ر٦١	١٨٠٠	٠ر٧٣
مسيحيون	١	١ر٠٤	١٢٠٠٠	٤ر٨٧	٩	٧ر٢٦	٤٨٢٠٠	١٩ر٥٧
يهــود	–	–	–	–	١	٠ر٨١	١٧٥٠٠	٧ر١٠
اجانب	١	١ر٠٤	١٠٠٠٠	٤ر٠٦	–	–	–	–
المجموع	٩٦	١٠٠ر٠٠	٢٤٦٢٨٧ + (٦ شنابل ذرة)	١٠٠ر٠٠	١٢٤	١٠٠ر٠٠	٢٤٦٢٨٧ + (٦ شنابل ذرة)	١٠٠ر٠٠

نلاحظ في الجدول أعلاه أن عدد المقرضين وهو ٩٦ يقل عن عدد المستقرضين البالغ ١٢٤ ويشكل نسبة حوالي٧٧٪ منه مما يدل على زيادة فيعدد المحتاجين للقروض وعلى تجمع الاموال في أيد أقل . وكان المقروضون أفرادا في جميع الحالات في حين أن المستقرضين شكلوا أحيانا جماعات بلغت بين الاناس العاديين (من غير ذوي الالقاب) خمس حالات اشترك في كل منها مستقرضان . وترتفع نسبة الاستقراض الجماعي بين الريفيين فهناك حالة واحدة اشترك فيها أربعة أشخاص في قرض واحد ، وحالة اخرى شارك فيها ثلاثة أشخاص ، وخمس حالات شارك فيها مستقرضان . ويدل هذا على شدة حاجة الاناس العاديين وبخاصة الريفيين للقروض واضطرار بعضهم للاشتراك في قرض واحد ليكفل بعضهم بعضا أمام القرض .

وفي حين ترتفع نسبة الاناس العاديين بين المقرضين (٣٣ر٣٣٪) فان نسبة ما يقدمونه من قروض لا تتعدى ٦٤ر١٣٪ من مجموع القروض . ويتفوق العلماء على العاديين في نسبة المقرضين (٧٩ر٤٤٪) ، وهي أعلى نسبة ، وكذلك في نسبة المبالغ المقرضة (٨٣ر٢٥٪) . ويفسر ذلك بكون معظم هؤلاء العلماء من المتولين أو النظار على الاوقاف . ويتكرر اسم أحدهم سيدي محمد بن يوسف الناصري في العديد من القروض لكونه ناظرا علىأعداد من الاراضي الزراعية المعروفة بالازوار (جمع زور)التي تسقى من مياه العاصي ، وبخاصة البساتين . ويتبوأ المرتبة العليا في نسبة القروض المقدمة (٥٤ر٣٦٪) الموظفون وعلى رأسهم أمين خواص السلطنة في حماة وهو ابو بكر ابن الطحان الذي قدّم أربعة قروض من أصل خمسة تخص هذه الفئة من المقرضين. وكانت أرقام القروض التي قدمها من أعلى الارقام (بلغت مفرداتها ٨٠٠٠ و ١٠٠٠ و ٨٠٠٠ و ١٤٠٠٠ درهم عثماني) أي ما يعادل ٣١٠٠٠ من مجموع القروض التي قدمها الموظفون والبالغ ٣٦٦٠٠ درهم عثماني ، وهو ما يعادل ٧٧٥٠ درهم حلبي من مجموع ٩٠٠٠٠ درهم حلبي . ولا نعلم فيما اذا كانت القروض التي قدمها ابو بكر بن الطحان هي من اموال خواص السلطنة (أي الاراضي الاميرية التي يزيد دخل الخاص الواحد منها عن مائة الف اقجة والتي يذهب ريعها الى السلطان العثماني)(١٩) التي كان أمينها ام من امواله الخاصة .

وكان هناك مقرض اجنبي واحد هو كرسيول بن فرنسيس الاجنبي البندقي ، كما يذكره سجل حماة ، (٢٠) وكانت له علاقات تجارية مع ناصر ابن الحاج محمد بن الشنار الذي اقرّ في المحكمة ان بذمته لكرسيول هذا من القطن المحلوج السقي الحموي بطريق السلم الشرعي المقبوض راس مال السلم في مجلس العقد مبلغ ٦٠٠٠٠ درهم حلبي مؤجل تسليمها الى ثلاثة وتسعة اشهر . وفي ذمة ناصر لكرسيول مبلغ عشرة آلاف درهم حلبي من جهة القرض .

واذا ما استعرضنا فئات المستقرضين تبين أن أكبر فئة بينها ، من حيث العدد والمبالغ المستقرضة ، هي فئة الريفيين اذ شكلوا ٥٩٫٦٧٪ من مجموع المستقرضين واقترضوا ما نسبته حوالي ٤١٫٦٢٪ من مجموع المبالغ المستقرضة ، مما يدل على حاجة الريفيين للقروض . وكذلك للديون بأنواعها كما سنرى لاحقا . وتشكل القروض التي حصل عليها الريفيون أعلى نسبة في مفرداتها ، سواء لجهة الدراهم العثمانية أو الحلبية أو كميات الحبوب التي اقترضوها . ويدل هذا على أن السيولة المالية كانت تتجه من مدينة حماة الى ريفها وان هناك ثقة بين المقرض في المدينة والمستقرض في الريف أو لنقل هيمنة الاول على الثاني لان القروض التي هي أساسها عمل خير كانت تتفوق عليها نسبة الديون التي يستدينها الريفيون من سكان المدينة والتي كانت تصب في النهاية لصالح هؤلاء الاخيرين .

ويلي الريفيين والعاديين في نسبة الاستقراض المسيحيون سواء لجهة الاعداد (٧٫٢٦٪) أو لجهة المبالغ المستقرضة (١٩٫٥٧٪) . وكانوا بمعظمهم من سكان قرى حماة وبخاصة قرية كفر بهم . واذا أضفنا نسبهم الى الريفيين الذين هم منهم لارتفعت نسبة أعداد الريفيين المستقرضين الى ٦٦٫٩٣٪ ونسبة المبالغ التي استقرضوها الى ٦١٫١٩٪ .

وترد حالة استقراض واحدة ولكن بنسبة كبيرة ومقترنة بدين من قبل يهودي في حماة هو اسحق بن نصر الله اليهودي الذي لوحق كفيله حسن بن خضر اليهودي من قبل القرض والدائن الحاج علي ابن الحاج عمر بن الطحان الذي كان له بذمته ٣٥٠٠٠ درهم حلبي عن ثمن جوخ وقرض مقسطة عليه في كل شهر مبلغ ألف درهم حلبي اعتبارا من ١١ ربيع الاول ٣٠/٩٤٠ أيلول ١٥٣٣ فأنكر حسن ولكن الشهود المعدولين أثبتوا ذلك (٢١) .

وثمة ملاحظة اخرى وهي ان المبالغ الموظفة في القروض من قبل ٩٦ مقرض يشكل وسطي الاقراض منها للمقرض الواحد حوالي ٢٥٦٥ درهما حلبيا في حين أن وسطي ما اصاب المستقرض الواحد يبلغ حوالي ١١٨٦ درهما حلبيا .

والى جانب القروض يذكر سجل حماة عمليات مالية أخرى أهمها الديون بأنواعها والسلم الشرعي . وعلى خلاف القرض كانت جميعها محددة بأجل . ولم ينص سجل حماة على الفائدة في عمليات الدين ، وأشار الى الدين غالبا بأنه دين شرعي ، في حين أن سجلات المحاكم الشرعية في مدن الاناضول ، التي درست بالنسبة لاوائل القرن السابع عشر ، نصت على الفائدة أو المعاملة في قضايا الدين الشرعي(٢٢) .

ويبدو أن اقرار الفائدة أو المعاملة بصورة رسمية قد صدرت من قبل شيخ الاسلام وهو المفتي الاكبر في استانبول أبو السعود أفندي الذي شغل منصب الافتاء بين ٩٥٢ ووفاته في ١٥٤٥/٩٨٢ و ١٥٧٤ والذي حاول التوفيق بين القوانين العثمانية والشريعة . ويشير الى الفتاوى التي أصدرها أبو السعود في هذا المجال فقيه دمشق محمد أمين الشهير بابن عابدين (١١٩٨/١٧٨٣ — ٢١ ربيع الثاني ١٢٥٢/٥ آب ١٨٣٦) فقد ذكر في حاشيته وهي الدر المحتار : «قلت وفي معروضات المفتي أبي السعود لو أدان زيد العشرة بأثني عشر أو بثلاثة عشر بطريق المعاملة في زماننا بعد أن ورد الامر السلطاني وفتوى شيخ الاسلام بأن لا تعطى العشرة بأزيد من عشرة ونصف ونبه على ذلك فلم يمتثل ماذا يلزمه فأجاب : يعزر ويحبس الى أن تظهر توبته وصلاحه فيترك وفي هذه الصورة هل يرد ما أخذه من الربح لصاحبه فأجاب ان حصله منه بالتراضي ورد الامر بعدم الرجوع »(٢٢) . وقد أورد ابن عابدين هذه الفقرة ذاتها في كتابه الآخر : العقود الدرية ، مشيرا الى ورودها في الدر المحتار ، ولكنه أضاف عليها بعد « الرجوع» عبارة : « لكن يظهر أن المناسب الامر بالرجوع » . ويستطرد ابن عابدين قائلا : « فقد أفاد ورود الامر السلطاني والافتاء بناء عليه بأن لا تعطى العشرة بأكثر من عشرة ونصف ورأيت بخط شيخ مشايخنا السائحاني بأن هناك فتوى أخرى بأن لا تعطي العشرة بأكثر من احدى عشرة ونصف وعليها العمل وكأنه ورد أمر آخر بذلك بعد الامر الاول لكن قدمنا في كتاب الدعوى عن الفتاوى الخيرية ان أمر السلطان نصره اللـه تعالى لا يبقى بعد موته . . وعلى فرض بقاء حكم أمره بعد موته الى الان أو ورود أمر جديد بذلك من سلطان زماننا . . فانما يحبس المخالف ويعزر لمخالفته الامر السلطاني لا لفساد المبايعة »(٢٤) .

وهكذا يميز الفقيه ابن عابدين بين الاوامر السلطانية وقواعد الشريعة . ونظرا لان فتاوى أبي السعود واوامر السلطان بالعمل بها قد صدرت بعد فترة سجل حماة التي نعالجها فانه يصعب معرفة بداية تطبيقها في بلاد الشام . وهناك اشارة في أحد سجلات حلب الشرعية من عام ١٥٨٥/٩٩٤ الى دين شرعي « على حكم العشرة بأحد عشر ونصف بموجب الامر الشريف السلطاني»(٢٥). وتبرز في حلب آنذاك فئة محترفة من الدائنين تعطي الدين بالفائدة(٢٦) . كما أن الفائدة في حماة بلغت في تلك السنة (١٥٨٥/٩٩٤) مقدار ١٥ ٪(٢٧) .

وعلى هذا فان السكان في لواء حماة والمحكمة الشرعية فيها ، في فترة دراستنا ، أي قبل صدور فتاوى أبي السعود واوامر السلطان بتطبيقها ، قد التزموا بتطبيق المبادىء الشرعية . وقد ورد استخدام المعاملة أو المرابحة ، ولكن فيما يخص اموال

القاصرين كما يقضي الشرع بذلك . فقد جاء في احدى القضايا مطالبة وصي على فتاة لشخص آخر عامل لها بمبلغ ١٢٥٠٠ درهم حلبي كانت قد ورثته عن أبيها وجدتها لابيها (٢٨) ولكن السجل لم يذكر الربح الذي ترتب للقاصرة من جراء المعاملة .

وهناك عدة قضايا تشير الى محاولات بعض الدائنين ابتزاز المستدينين بواسطة ما سمي بالغصب أو الظلم فكان القاضي ينصف المغبونين ، وينتهي المتقاضون الى المصالحة . مثال ذلك ان دائنا طالب مدينا بمبلغ ٣٢٠٠ درهم عثماني بذمته فاحتج الاخير بأن المدعي أخذ ذلك منه ظلما وان المبلغ قدره ١٥٠٠ درهم عثماني وتمت المصالحة على دفع المبلغ الاخير فقط وسجل ذلك في المحكمة(٢٩) . وتدل هذه القضية وبعض القضايا الاخرى التي تعنى بابطال المطالبة بالمال ظلما أو بالغصب على حس متميز من العدل بين السكان وعلى فعالية واحترام القضاء الشرعي بين المتخاصمين(٣٠) .

وباستعراض قضايا الدين الشرعي في حماة يبين الجدول التالي الفئات الدائنة والمديونة والمبالغ المترتبة على ذلك بعد أن تم تحويلها الى دراهم حلبية :

الديـن الشـرعي

الفئات الاجتماعية	الدائنون				المديونون			
			اجمالي المبالغ				اجمالي المبالغ	
	عدد الدائنين	النسبة	بالدراهم الحلبية	النسبة	عدد المديونين	النسبة	بالدراهم الحلبية	النسبة
عسكريون	١	٢ر٣٣	١٤٢٥	١ر١٨	–	–	–	–
علمـاء	٢	٤ر٦٥	١٣٧٠٠	١١ر٣٠	–	–	–	–
حجـاج	٩	٢٠ر٩٣	٤٨١٦٠	٣٩ر٧٢	٢	٣ر١٣	٦٨٠٠	٥ر٦١
عاديـون	٣٠	٦٩ر٧٦	٥٣٣٥١	٤٤ر٠١	٢٣	٣٥ر٩٣	٦١٦٦٥	٥٠ر٨٧
ريفيـون	–	–	–	–	٣٧	٥٧ر٨١	٥١٦٠٤	٤٢ر٥٧
نسـاء	١	٢ر٣٣	٤٥٨٣	٣ر٧٨	–	–	–	–
مسيحيون	–	–	–	–	٢	٣ر١٣	١١٥٠	٠ر٩٥
المجموع	٤٣	١٠٠ر٠٠	١٢١٢١٩	١٠٠ر٠٠	٦٤	١٠٠ر٠٠	١٢١٢١٩	١٠٠ر٠٠

بالمقارنة مع أعداد المقرضين (٩٦) تشكل أعداد الدائنين (٤٣) نسبة تقرب من ٤٥٪ من الاولين مما يدل على أن القروض كانت هي الغالبة بما تنطوي عليه من حسن

طوية وتواد بين الناس . ويستأثر الناس العاديون بغالبيـة عقود الدين اذ يشـكلون ٦٩ر٧٦٪ من مجموع الدائنين في حين ان المقرضين فيالجدول السابق تتشكل غالبيتهم من العلماء والحجاج وهم الادعى لعمل الخير .

ونلاحظ في الجدول اعلاه غياب فئتي الموظفين واليهود وظهور المسيحيين بنسبة ضئيلة جدا بين المديونين على نقيض الوضـع في جدول القروض . وتشغل النسـاء ، في جدولي القروض والديون ، حيزا ضئيلا في التعامل المالي .

وتبرز بين المديونين الفئة الاجتماعية الاكثر استقراضا واستدانة وهي الريفيون اذ يشكلون ٨١ر٥٧٪ من مجموع المديونين في حـين ينعدم وجودهم كدائنين . وتقترب هذه النسبة مـن نسبتهم بين المسـتقرضين (٦٧ر٥٩٪) . وتشـكل الديون التـي استدانوها نسـبة ٥٧ر٤٢٪ من المجموع وتقترب هـي الاخرى من نسبة المبالغ التـي استقرضوها (٦٢ر٤١٪) . ويلاحظ كذلك ان نسبة ما يخص الريفيين من الدين هـي اقل مما يخص الشخص العادي من غير ذوي الالقاب . وهكذا فان مجموع ما استدانه ٣٧ من الريفيين وهو ما يعادل ٥١٦٠٤ درهما حلبيا يجعل وسطي ما استدانه الشخص الواحد منهم حوالي ١٣٩٥ درهما فيحين أن وسطيما استدانه الشخص العادي يعادل ٢٦٨١ درهما مما يدل على عدم قدرة الريفيين على الاستدانة بكميات اكبر وعلى حاجة عدد أكبر منهم للاستدانة بمبالغ اقل .

وثمة امر آخر وهو ان عدد الدائنين البالغ ٤٣ لا يضم سـوى حالتين يشترك في كل منهما دائنان في حين أن المديونين تكثر بينهم حالات الدين الجماعي . فهناك حالتان تتألف كل منهما من مديونين ، وحالة واحدة تضم ثلاثة مديونين معا ، واخرى تضـم واحداً وعشرينمديونا دفعة واحدة ،وجميع هذه الحالات تخص ريفيين.ويتبين منذلك أن الدائنين كالمقرضين كانوا أفرادا مستقلين بمعظمهم في حين ان المديونيين ، بصـورة أكبر من المستقرضين ،كانوا بحاجة للتكافل والتضامن فيما بينهم للحصولعلى الدين.

ويلاحظ كذلك انه لا يوجد دائنون محترفون يحتكرون اعطاء الديون ، كمـا أن المبالغ التي تتألف منها الديون ليست بكبيرة فمعظمها دراهم حلبيـة واقلها عثمانية . وبمقارنة مجموعها (١٢١٢١٩ درهما حلبيا) مع مجموع القروض (٢٤٦٢٨٧ درهـما حلبيا) نجد أن مبالغ الديون تشكل حوالي النصف منمجموع القروض . كما أن معظم الديون تقع ضمن فئات المبالغ الادنى. وباستثناء عقدي دين بالدراهم العثمانية يبلغان معا ٥٥٠٠ درهم فان الديون بالدراهم الحلبية تضم اثني عشر عقدا (من أصل ٤٣)يضم واحدها اقل من الف درهم ، واثني عشر عقدا تقع بين الف والفي درهم . ويبلغ مقدار

اكبر دين ١٦٠٠٠ درهم حلبي . وتبين المقارنة التالية وسطي ما قدمه أو ما حصل عليه كل فرد من قرض أو دين :

	العـدد	الوسطي بالدراهم الحلبية
القروض		
المقرضون	٩٦	٢٥٦٥
المستقرضون	١٢٤	١٩٨٦
الديـون		
الدائنـون	٤٣	٢٨١٩
المديونون	٦٤	١٨٩٤

وبالاضافة الى القرض والدين المالي الشرعي شاع في اقتصاد لواء حماة نوع آخر من الدين ترتب في ذمة الافراد من جراء شراء سلعة ما تأجل دفع ثمنها ، جزئيا أو كليا، الى فترة محددة . ويصح ان نطلق على هذا النوع من الدين البيع أو الشراء بالدين. وكان هذا أكثر أنواع الدين شيوعا وذا دلالة اقتصادية واجتماعية هامة نظرا لانتشار تعاطيه بين الناس ، سواء في حماة أو في الريف ، واعتماده في مختلف جوانب الحياة ، وشموله مختلف أنواع السلع . وتدل كثرة التعامل بهذا النوع من الدين على نشاط اقتصادي وتحريك للفعاليات ذات الامكانيات المالية المحدودة . وطبيعي أن الفائدة الكبرى منه تكون لصالح تجار الجملة وأصحاب رؤوس المال . ويبين الجدول التالي هوية البائعين والمشترين بالدين والمبالغ المترتبة على ذلك :

البيع والشراء بالدين

	الدائنـون				المديونـون			
		المبالـغ				المبالـغ		
الفئات الاجتماعية	عدد الدائنين	درهم عثماني	درهم حلبي	غيره	عدد المديونين	درهم عثماني	درهم حلبي	غيره
موظفون	١	٥٠٠٠	–	–	–	–	–	–
الخزينة	٢	٢٠٠٠٠	–	–	–	–	–	–
عسكريون	١٠	٦٢٠٤٠	٣٣٠٨٥	١٨قبرصي	١	–	١٠٠٠	–
علماء	٢٣	١٩٥٦٧	١٣١١١٠	–	٣	١٩٢٠٠	–	–

تابع جدول البيع والشراء بالدين

الفئات الاجتماعية	عدد الدائنين	درهم عثماني	درهم حلبي	غيره	عدد المديونين	درهم عثماني	درهم حلبي	غيره
حجاج	٥٦	–	٣٦٠٨٧٥	–	٣٧	١٠٠٠٠	١٥٤٥٨٢	–
عاديون	١٦٢	٩١٦٠	٢٧٨٤١٠	٥٠سلطاني ذهب	١٥٢	١٣١٦٠	٤٢٩٨٦٧	١٨قبرصي ٥٠سلطاني ذهب
ريفيون	٧	–	١٢٨٨٠	–	١٠٣	٦٤١٦٧	٢٢٩٣٥٦	–
نساء	٧	–	٢٧١٩٠	–	٤	–	٢١٥٥	–
مسيحيون	٤	–	٩٢٩٥	–	٢٣	٩٢٤٠	١٨٢٨٥	–
يهود	–	–	–	–	١	–	١٧٥٠٠	–
المجموع	٢٧٢	١١٥٧٦٧	٨٥٢٨٤٥	١٨قبرصي ٥٠سلطاني ذهب	٣٢٤	١١٥٧٦٧	٨٥٢٨٤٥	١٨قبرصي ٥٠سلطاني ذهب

ونظرا لكثرة التعامل بهذا النوع من الدين وضخامة المبالغ التي يتضمنها بأنواع عملاتها المختلفة فمن المفيد توحيد المبالغ في دراهم حلبية لتسهيل حسابات النسب وبالتالي معرفة فعالية كل فئة اجتماعية . وقد عادلنا السلطاني الذهب الذي يوصف في عقد الدين بأنه سلطاني ذهب سليماني بقيمة ٨٠ درهما عثمانيا أو ما يعادل ٢٠٠ درهم حلبي كما تقدر ذلك وثائق حماة الشرعية . وعلى هذا يصبح الجدول كالتالي :

البيع والشراء بالدين

الفئات الاجتماعية	الدائنون: عدد الدائنين	النسبة	درهم حلبي	النسبة	المديونون: عدد المديونين	النسبة	درهم حلبي	النسبة
موظفون	١	٠ر٣٧	١٢٥٠٠	١ر٠٨	–	–	–	–
الخزينة	٢	٠ر٧٤	٥٠٠٠٠	٤ر٣٣	–	–	–	–
عسكريون	١٠	٣ر٦٨	١٩١٤٧٣	١٦ر٥٧	١	٠ر٣١	١٠٠٠	٠ر٠٨
علماء	٢٣	٨ر٤٥	١٨٠٠٢٧	١٥ر٥٨	٣	٠ر٩٣	٤٨٠٠٠	٤ر١٥
حجاج	٥٦	٢٠ر٥٩	٣٦٠٨٧٥	٣١ر٢٣	٣٧	١١ر٤٢	١٧٩٥٨٢	١٥ر٥٤
عاديون	١٦٢	٥٩ر٥٦	٣١١٢١٠	٢٦ر٩٤	١٥٢	٤٦ر٩١	٤٧٦٠٥٥	٤١ر٢٠
ريفيون	٧	٢ر٥٧	١٢٨٨٠	١ر١٢	١٠٣	٣١ر٧٩	٢٨٩٧٧٣	٢٣ر٧٣
نساء	٧	٢ر٥٧	٢٧١٩٠	٢ر٣٥	٤	١ر٢٣	٢١٥٥	٠ر١٩
مسيحيون	٤	١ر٤٧	٩٢٩٥	٠ر٨٠	٢٣	٧ر١٠	٤١٤٨٥	٣ر٥٩
يهود	–	–	–	–	١	٠ر٣١	١٧٥٠٠	١ر٥٢
المجموع	٢٧٢	١٠٠٠ر٠٠	١١٥٥٥٥٠	١٠٠ر٠٠	٣٢٤	١٠٠ر٠٠	١١٥٥٥٥٠	١٠٠ر٠٠

تشكل فئة الناس العاديين حوالي ٦٠٪ من مجموع البائعين بالدين ولكن بالرغم من كثرتهم العددية هذه فان مجمل ما وظفوه من مال في هـذا المجال يشكل ٢٦ر٩٤٪ من اجمالي المال الموظف مما يدل على قلة السيولة المالية لديهم وبالتالي على امكانياتهم المالية المحدودة . وتحتل فئة الحجاج المرتبة الاولى في عقود البيع بالدين اذ تبلغ نسبة تعاملهم ٢٣ر٣١٪ بالرغم من أن نسبة عددهم لا تتجاوز ٢٠ر٥٩٪ من الدائنين . ويدل بروز الحجاج في هذا المجال على أهميتهم في التعامل التجاري والمالي وعلى قدرتهم في توظيف المال . وكون الحجاج فاعلين في هذا الميدان الاقتصادي دليل على فعاليتهم في التجارة المرافقة لقافلة الحج كما تؤكد ذلك انواع السلع التي كانوا يتعاملون بها مثل التوابل والعطور التي كان ينقل بعضها مع قافلة الحج ، وكذلك على تمكنهم اساسا من أداء هذه الفريضة المكلفة . وقد شهد بذلك العالم المصري عبد الرحمن الشربيني في محادثته مع نجم الدين الغزي في المدينة المنورة ابان موسم الحج في أواسط محرم ١٠٠٢/ أواسط تشرين الاول ١٥٩٣ حين قارن بين تكاليف حجه القليلة وتكاليف الشوام الكثيرة بقوله :«أنتم اذا حج الواحد منكم يتكلف كلفة كبيرة تكفي عدة منا»(٢١).

وتلي فئة الحجاج في البيع بالدين فئة العلماء الذين شكلوا ٤٥ر٨٪ من مجموع الدائنين و ١٥ر٥٨٪ من المبالغ الموظفة . ولم تكن الفوائد المالية عائدة حصرا للعلماء أصحاب لقب شيخ لان عددا منهم كانوا متولين ونظارا على الاوقاف ووظفوا أموالها في هذا الميدان الاقتصادي لفائدة الوقف بالدرجة الاولى .

وبالرغم من قلة نسبة أعداد العسكريين بين الدائنين (٣ر٦٨٪) فانهم وظفوا ١٦ر٥٧٪ من مجموع المبالغ كدائنين . وكانوا حصرا من أصحاب التيمار والزعامة . ويبرز في هذا المجال اسم علي بك بن عبد الله الآي بك الذي قدم للريفيين ديونا عينية تتألف من الحنطة والشعير بما يعادل حوالي ٧٥٪ من مجموع المبالغ التي وظفها العسكريون . ومما تجدر ملاحظته فيهذا المجال كيفية استغلال العساكر السباهية من أصحاب التيمار والزعامة الاراضي التي يتصرفون بها وعلاقتهم بالمزارعين الذين يعهدون اليهم بها . فمن خلال عدة قضايا في سجل حماة يتبين أن أحد السباهية يعهد الى واحد او اثنين في الغالب بزراعة ما يقع في تيماره من مزارع ، بشكل صيفي وشتوي ، ويكون له من الغلال واحد من سبعة أو واحد من ثمانية حسب الشروط المتفق عليها كما في المثال التالي : أشهد عليه والي بن أحمد السباهي انه سلم لجابر بن رمضان ولبرهان بن محمد كلاهما من قرية الموعة جميع المزرعة المعروفة بالقرشية التي هي في تيماره على أنهما يزرعان فيها صيفي وشتوي « والقسمة سبعة له واحدة ولهما ستة »(٢٢) .

ومما يلفت النظر بين المديونين أن الاناس العاديين يشكلون أكبر نسبة سواء بالاعداد (٩٠ر٤٦٪) أو بالمبالغ التي وظفت بينهم (٢٠ر٤١٪) . وبالمقارنة مع المبالغ التي وظفوها هم كدائنين (٩٤ر٢٦٪) يتبين أنهم مستهلكون أكثر منهم منتجين وانهم استدانوا من الفئات الاجتماعية الاخرى .

ويبرز الريفيون كالعادة في استيعاب أكبر نسبة من الديون بالمقارنة مع أعدادهم ومع النسبة الضئيلة جدا لما وظفوه كدائنين . وينـدرج في عدادهم المسيحيون الذين كانوا بمعظمهم من الريفيين واستدانوا بأكثر مما أدانـوا . ويؤكد هذا ، كما في القرض والدين الشرعي ، ان السيولة المالية تتجه من المدينة الى الريف ، وبالتالي ان الفئات الاقتصادية الفاعلة في حماة تتحكم أيضا في اقتصاد الريف .

ويأتي الحجاج في المرتبة الثالثة بين المديونين بالنسبة لاعدادهم والمبالغ التي استدانوها مما يدل ، بالمقارنة معهم كدائنين ، ان المديونين منهم يشكلون حوالي ٤٠٪ من فئتهم وان المبالغ المستحقة عليهم تشكل حوالي ٣٥٪ من مجموع المبالغ المتعاملين بها . ونستنتج كذلك ان فئة الحجاج لم تكن مقتصرة على الاثرياء وان كانت تميل في ذلك الاتجاه بنسبة ٦٠٪ . وتتضاءل أعداد العلماء كمديونين وكذلك المبالغ التي استدانوها مما يدل على وضع مالي جيد لهم وعلى عدم تعاملهم بشكل كبير في السوق التجارية والمالية. ويلفت النظر أن العسكريين الذين برزوا بنسبة عالية بين الدائنين يشكلون ادنى نسبة بين المديونين مما يدل على أوضاعهم الاقتصادية الجيدة وعلى الثروة التي كانوا يجمعونها من الاراضي المقطعة لهم كتيمار أو زعامة . وتقل نسبة النساء المستدينات لصالح نسبتهن كدائنات مما يؤكد ، كما في القرض والدين الشرعي ، أن النساء لم يكن فاعلات بشكل ملحوظ في سوق الديون .

ويلفت الانتباه في أعداد الدائنين أنهم ــ باستثناء حالة واحدة بين فئة العاديين ضمت شخصين اشتركا معا في عقد واحد من البيع بالدين ــ كانوا أفرادا شاركوا بمثل عددهم من العقود ، أي في ٢٧١ عقدا ، من البيع بالدين . أما المديونون الذين يفوق مجموع اعدادهم أعداد الدائنين بنسبة ١٩٪ فقد كثرت بينهم عقود الدين الجماعية وبخاصة بين الريفيين . فهناك حالة واحدة من الشراء بالدين بين فئة الحجاج شارك فيها اثنان ، واربع حالات بين العاديين شارك في كل منها اثنان ، وحالتان ضمت كل منهما ثلاثة ، وحالة واحدة ضمت اربعة . وتزداد نسبة الدين الجماعي بين الريفيين اذ توجد اربع حالات ضمت كل منها اثنين ، وحالة ضمت ثلاثة ، وحالتان ضمت كل منهما اربعة ، وحالة ضمت خمسة ، وأخرى ستة ، واخيرة سبعة . وبين المسيحيين حالة واحدة ضمت اثني عشر شخصا ريفيا من قرية بسيرين كان بذمتهم دين مشترك

وشاركهم في ذلك مسلم واحد . وتدل كثرة حالات المشاركة في الدين بين المديونين على حاجتهم المادية من ناحية وعلى ضرورة تكافلهم معا لسداد الدين بحيث يكفل كل منهم الآخر مما يجعل أمر الوفاء بالدين أكثر ضمانة من ناحية اخرى . وكان القاسم المشترك الذي يجمع بين المشتركين في عقود الشراء بالدين ، الى جانب الحاجة الاقتصادية ، الانتماء الى اسرة واحدة أو قرية واحدة . ولم يكن المذهب الديني حصرا عقبة أمام المشاركة في الدين كما ينفي ذلك المثال السابق وغيره ، بمعنى آخر ان التعامل المالي لم يعرف التقوقع الطائفي بل تعامل الناس مع بعضهم على اختلاف مذاهبهم .

ونظرا لكثرة توظيف المال في عمليات البيع او الشراء بالدين تبرز بعض الاسر التي تعاطى افرادها البيع بالدين واشهرها اسرة النوام . وفي عدد من القضايا ترد أسماء افراد من هذه الاسرة يتعاطون بيع الجوخ والقماش وبدرجة أقل الحنطة والبندق لاناس في حماة او في الريف بالدين(٢٣) . وتبرز ثلاثة أسماء من أبناء الحاج محمد بن النوام ، اشهرهم أحمد ، في مجال بيع هذه السلع المتنوعة التي تضم منتجات محلية وأخرى مستوردة مما يدل على توظيف المال في مجالات متعددة لايجاد توازن في توزيع راس المال بين مختلف السلع. ويلاحظ ان المبالغ التي ترتبت على شراء هذه السلع بالدين لم تكن بقليلة بالمقارنة مع الحالات الاخرى ، ويؤكد هذا القدرة المالية لآل النوام . ويلفت النظر ايضا أن افراد هذه الاسرة لم يحددوا موعدا للوفاء بالدين ولم يطالبوا بكفالة أو رهن وانما اكتفوا بتسجيل عقود البيع في المحكمة لاعطائها الصفة القانونية . ويدل هذا علاقة مالية تقوم على الثقة بين المتعاملين وربما على قدرة آل النوام على استيفاء ديونهم . ويوضح المثال التالي عقد دين لآل النوام : حضر في مجلس الشريعة المطهرة بحماة المحروسة علي بن عبد الرحمن الحداد وأقر واعترف بأن عليه وفي ذمته للحاج يوسف ابن الحاج محمد النوام مبلغ الف درهم وستماية درهم حلبي عن ثمن بندق فسطر على ما هو الواقع بطلب المقر له حرر بتاريخ ٢٤ رمضان ٩٤٢ ، شهود الحال علي يونس ومحمد بن السويقة(٢٤) ، (يعادل تاريخ القضية ١٧ آذار ١٥٣٦) وترد حالات أخرى تتكرر فيها أسماء البائعين بالدين في أكثر من عقد شراء واحد(٢٥) .

وفي بعض القضايا يتكرر اسم شخص بعينه بانه يشتري بالدين أكثر من سلعة . وفي العديد من عقود الشراء بالدين نجد ان مبلغ الدين يشكل الجزء المتبقي من مبلغ اكبر دفع قسم منه واجل الباقي . وكثيرا ما تذكر الفترة أو الفترات الزمنية محددة بالاشهر للوفاء بالدين . وكان معظمها يقع بين ستة اشهر وثمانية اشهر لتتلاءم ، كما يبدو ، مع مواعيد المواسم الزراعية . وقلما امتدت الى سنة أو اكثر أو كانت اقل من ثلاثة أشهر . وفي احدى الحالات اقر شخص ان بذمته قيمة حمار لريفي من قرية ارجزى مؤجلة لمدة سبعة ايام من تاريخ عرض القضية في المحكمة(٢٦) .

ويمكن اجراء مقارنة بين مدد الديون بالنسبة لتاريخ عقودها ، ونوعية السلع الرئيسية المشتراة بالدين وأثمانها كما في الجدول التالي :

السلع الرئيسية المتداولة في عمليات البيع بالدين ومبالغها بالدرهم الحلبي

مدة الدين	حبوب عدد العقود	حبوب المبلغ	قماش عدد العقود	قماش المبلغ	قطن عدد العقود	قطن المبلغ	تواريخ الديون جمادى١	جمادى٢	رجب	شعبان	رمضان	القعدة
٣ اشهر	١	١٠٠٠					١					
٤ اشهر	١	١٦٠٠									١	
٦ اشهر	١٤	٢٠٤٧٥٠	٣	٤١٠٠	٢	٣٠٥٠٠	٥	٥	٧	٢		
٧ اشهر			١	٥٤٠٠					١			
٨ اشهر			٢	٦١١٥٠	٢	١٦٥٠			٢	١		١
٩ اشهر						٣٨٠٠ (حرير)			١			
١٠ اشهر	١	٢٠٠٠	١	٦٥٠						١		
سنة					١	١٠٥٠٠					١	
المجموع	١٧	٢٠٩٣٥٠	٧	٧١٣٠٠	٥	٤٦٤٥٠	٦	٥	١١	٤	٢	١

لا يشكل الجدول اعلاه حصرا بكافة الديون المؤجلة الى اجل معين وانما اخترت الديون المترتبة على شراء ثلاثة انواع من السلع هي الحبوب والقماش والقطن ، وهي الاكثر ورودا وتداولا . ويتبين أن حوالي ٦٨٪ من عقود الديون لهذه السلع مؤجل دفعها لمدة ستة أشهر من تاريخ تسجيلها في المحكمة وبالتالي اكتسابها الصفة القانونية. ويلاحظ ان مجموع الديون لستة أشهر المترتبة على شراء الحبوب تشكل حوالي ٩٨٪ من مجموع اثمان الحبوب . كما تتفوق مبالغ شراء الحبوب بالدين على مبالغ شراء القماش والقطن بالدين مجتمعين. ويدل هذا على أن شراء الحبوب بالدين بهذه النسبة الكبيرة كانت تمليه الحاجة لزراعتها مثلما كان يتزامن وقت حصادها مع بداية سدادها. ويؤكد هذا كون ديون الستة اشهر قد سجلت في المحكمة بين ٢٠ جمادى الاولى و١٦ شعبان ١٦/٩٤٢ تشرين الثاني ١٥٣٥ و ٩ شباط ١٥٣٦ . لذا فان مضي ستة أشهر عليها يجعلها تستحق بين اوائل أيار وأوائل آب حين تكون المحاصيل الزراعية قد جمعت بمعظمها وأفاد منها قطاع كبير من السكان . وهذا يعني أن هذه الديون كانت موسمية هدفها تمويل الفلاحين بالمواد اللازمة لزراعة الارض . واذا كان الجدول السابق يذكر الغالبية العظمى من عقود شراء السلع بالدين فان هناك حالات نادرة جدا تكون فيها مدة الدين مجرد أيام وأحيانا تزيد عن السنة . ويشكل المثال التالي نموذجا للحالة النادرة حيث ترتب في ذمة أحدهم مبلغ ٧٠٠ درهم حلبي ثمن حنطة مشرية مؤجل الى مضي خمسة عشر يوما من تاريخه(٢٧) .

ويتم احيانا تقسيط الدين ويلاحظ ذلك بخاصة بالنسبة للدين المترتب على شراء السلع الكمالية كما في تقسيط مبلغ ٦٠٠٠ درهم حلبي ثمن « حوايج عطرية » ابتاعها أحد الاشخاص على أن يسدد ثمنها مقسطا كل يوم ١٥درهما ، وأيضا بالنسبة للمبالغ الكبيرة كما في تقسيط مبلغ ٥١٩٢٠ درهما حلبيا ثمن قماش الى عدة أقساط على أن يتم حالا دفع ٩٠٠٠ درهم ويؤجل مبلغ ٥٠٠٠ الى ثلاثة أشهر والباقي وقدره ٣٧٩٢٠ درهما يقسط كل سنة ١٠٠٠٠ درهم(٢٨) . وربما دل هذا على بطء تسويق هذه المنتجات بسبب أوضاع اقتصادية سيئة لعامة الناس وأيضا بسبب المنافسة في طرح القماش للبيع بكميات كبيرة واستيراده من مصادر مختلفة ، وهناك اشارة الى قماش بعلبكي و قماش مصري .

وتفيد دراسة شراء السلع بالدين في معرفة أنواع السلع المتداولة وكمياتها وأثمانها والفئات الاجتماعية التي تتعامل بسلعة أو بأخرى بحسب مقدرتها المالية وانماط حياتها . ويبين الجدول التالي وما يليه جوانب محددة من بيع وشراء السلع بالدين :

الفئات الدائنة وأنواع السلع التي باعتها بالدين ومجموع أثمانها بالدراهم الحلبية(٣٩) ونسبها

الفئات الاجتماعية	العدد	حبوب	قطن	قماش	جوخ	توابل وعطور	حيوانات	سلع اخرى	المجموع
موظفون	١		١٢٥٠٠ (٪١٨ر٧٨)						١٢٥٠٠ (١ر٠٨)
(خزينة)	٢	٢٥٠٠٠ (٦ر٣٧)					٢٥٠٠٠ (٢٥ر٥٢)		٥٠٠٠٠ (٤ر٣٢)
عسكريون	١٠	١٧٤١٥٠ (٤٤ر٤٠)	١٥٢٥ (٢ر٣١)				٥٢٨٨ (٥ر٤٠)	١٠٥٠٠ (٧ر٠٣)	١٩١٤٧٣ (١٦ر٥٧)
علماء	٣	٤٢٢٩٠ (١٠ر٧٨)	١٢١٥٠ (١٨ر٢٦)	٩٠١٤٠ (٣٢ر١٨)	١٢١٠ (١ر٣١)		١٢٠٠ (١ر٢٢)	٣٣٠٢٧ (٢٢ر١١)	١٨٠٠٢٧ (١٥ر٥٨
حجاج	٥٦	٥٩٨٧٥ (١٥ر٢٦)	٤٩٠٠ (٧ر٣٦)	٩٢٨٤٠ (٣٣ر١٥)	٦٩٧٠٠ (٧٥ر٧٠)	٦٥٦٠٠ (٨٤ر٩٥)	٢٨٨٤٠ (٢٩ر٤٤)	٣٩١٢٠ (٢٦ر١٩)	٣٦٠٨٧٥ (٣١ر٢٣)
عاديون	١٦٢	٧٩٩٠٤ (٢٠ر٣٧)	٣٣٥٧٣ (٥٠ر٤٥)	٨٥٢٥٥ (٣٠ر٤٨)	١٩٠٢٠ (٢٠ر٦٦)	١١٦٢٠ (١٥ر٠٥)	٣٣٨٤٠ (٣٤ر٥٤)	٤٧٩٩٨ (٣٢ر١٣)	٣١١٣١٠ (٢٦ر٩٤)
ريفيون	٧	٦٩٣٠ (١ر٧٧)	١٦٥٠ (٢ر٤٨)	٥٠٠ (٠ر١٨)			٣٨٠٠ (٣ر٨٨)		١٢٨٨٠ (١ر١٢)
نساء	٧	٢٥٠٠ (٠ر٦٤)		٨٣٠٠ (٢ر٩٦)				١٤٢٤٠ (٩ر٥٣)	٢٧١٩٠ (٢ر٣٥)
مسيحيون	٤	١٦٠٠ (٠ر٤١)	٢٤٥ (٠ر٣٦)	٢٩٥٠ (١ر٠٥)				٤٥٠٠ (٣ر٠١)	٩٢٩٥ (٠ر٨٠)
المجموع	٢٧٢	٣٩٢٢٤٩	٦٦٥٥٣	٢٨٠٠٨٥	٩٢٠٨٠	٧٧٢٢٠	٩٧٩٦٨	١٤٩٣٩٥	١١٥٥٥٥٠
نسب اسعار السلع من المجموع		(٣٣ر٩٤)	(٥ر٧٦)	(٢٤ر٢٤)	(٧ر٩٧)	(٦ر٦٨)	(٨ر٤٨)	(١٢ر٩٣)	

تشتمل الحبوب في الجدول أعلاه على الحنطة بصورة رئيسية ثم الشعير بدرجة أقل وبعض الذرة ، ولا تحدد كمياتها في معظم الاحيان وتقدر في بعضها بالمكوك أو الشنبل(٤٠) . ويشمل القطن الذي لم يذكر وزنه في الغالب وقدّر أحيانا بالقنطار(٤١) المحلوج منه والمحبوب وحب القطن . أما القماش فيذكر غالبا كذلك ويضاف اليه أحيانا الخام . ولم يعين مصدر الجوخ ولكن التجار البنادقة كانوا يسوقونه في حماة ، ويشير سجل حماة الشرعي الى بيعه على شكل خرقة مثل بيع تاجر بندقي لحموي مقدار « اثنين وعشرين خرقة ونصف خرقة جوخ كرزي أزرق واحمر واصفر وصيني

بثمن قدره خمسة وأربعين ألف درهم حلبي حال مقبوض»(٤٢)، ونظرا لان هناك نصف خرقة فلا يعقل أن يكون المقصود بها جبة أو معطف المتصوف وانما حجما متعارفا عليه آنذاك(٤٣) . وأشير في احدى القضايا الى بيع « قطعة جوخ أزرق مقدار أربعة أذرع » بمبلغ ٣٠٠ درهم حلبي(٤٤) ، اي أن سعر الذراع ٧٥ درهما حلبيا . وفي المثال السابق الذي بيعت فيه ٢٢٫٥ خرقة جوخ بثمن ٤٥ ألف درهم حلبي وفي مثال آخر بيعت فيه عشرون خرقة جوخ بأربعين ألف درهم حلبي من قبل البندقي نفسه في حماة بتاريخ متقارب (٢٢ رمضان و ٢٤ رمضان ٩٤٢/١٥ آذار و ١٧ آذار ١٥٣٦) يتبين أن سعر الخرقة الواحدة من الجوخ هو الفا درهم حلبي ، واذا تغاضينا عن الفرق بين سعر بيع الجملة وبيع المفرق لمادة الجوخ فان الخرقة من الجوخ تبلغ حوالي ٢٦٫٥٠ ذراعا على أساس بيع ذراع الجوخ بخمسة وسبعين درهما حلبيا في تاريخ قريب من تاريخ بيع الكميات السابقة (في ١٢ ذي القعدة ٩٤٢ / ٣ أيار ١٥٣٦) . ويكتفي سجل حماة في الغالب بذكر شراء جوخة أو بيع أو شراء الجوخ دون تحديد لكميته . وتضم التوابل والعطور الفلفل وجوزة الطيب والبندق بالاضافة الى ما ذكر انه « حوايج عطرية » . وتشتمل الحيوانات على الجمال والبقر والحمير (بدرجة كبيرة) والافراس والاغنام. وتضم السلع الاخرى الجلود والقنب والصابون والبسط والسكر والدبس والعسل وغيرها .

يلاحظ في الجدول أعلاه ان بيع الحبوب بالدين يشكل أعلى نسبة بين مختلف السلع (٣٣٫٩٤٪) وتؤكد هذه النسبة أولوية الحبوب في الحياة الزراعية في لواء حماة. وتتحكم بعض الفئات الاجتماعية في محصول الحبوب وبيعها بالدين ، وتأتي في طليعة هؤلاء فئة العسكريين اذ تبلغ نسبة بيعهم الحبوب بالدين ٤٤٫٤٠٪ . ولا غرابة في ذلك لان العسكريين هؤلاء هم من أصحاب الاقطاعات ويبرز بينهم ، كما سبق القول ، اسم علي بن عبد الله الآي بك . ويلي العساكر بين باعة الحبوب بالدين الاناس العاديون والحجاج والعلماء ، بحسب أعدادهم ، ولكن اذا اعتبرنا وسطي ما يبيعه كل فرد من هؤلاء من الحبوب بالدين لاختلف الترتيب وأتى العالم بعد العسكري (يبقى في الطليعة بوسطي ١٧٤١٥) بوسطي ١٨٣٨ ، ثم الحاج بوسطي ١٠٦٩ ، والعادي ٩٤٣ درهما حلبيا . ويلفت النظر ضآلة أعداد الريفيين في هذا المجال وكذلك نسبة المبالغ التي وظفوها كدائنين لاثمان الحبوب اذ بلغت ١٫٧٧٪ .

ولا تشكل بيوع القطن بالدين الا نسبة ضئيلة بين بيوع مختلف السلع اذ تبلغ ٥٫٧٦٪ مما يدل على ضآلة زراعة القطن بالمقارنة مع زراعة الحبوب التي لا تحتاج الى السقي كالقطن والتي تنتشر في الاراضي الكبيرة والصغيرة على حد سواء لتأمين احتياجات السكان وللمتاجرة بها من قبل الفئات المتنفذة .

أما القطن فالهدف من زراعته تجاري بالدرجة الاولى يقوم بها كبار المزارعين أصحاب رؤوس الاموال لذا ليس غريبا أن تكون نسبة شراء القطن بالدين أقل نسبة . ويؤكد الهدف التجاري من زراعة القطن شراء التجار البنادقة له بكميات كبيرة نظرا لجودته ، وقد جاء وصفه في سجل محكمة حماة الشرعية أثناء قيام البنادقة بصفقات شرائه مع الحمويين بأنه « القطن المحلوج السقي الحموي » .

ويلفت النظر أن القماش يشغل المرتبة الثانية، بعد الحبوب، في عقود البيع بالدين مما يؤكد سعة التعامل به وبالتالي استهلاكه . وتبرز فئتان في تسويقه وبيعه بالدين وهما فئتا الحجاج والعلماء ويحتكران فيما بينهما ٦٥ر٣٣٪ من أثمان القماش المباع بالدين، في حين ان ما باعته هاتان الفئتان من الحبوب يبلغ ٢٦ر٠٤٪ ومن القطن ٢٥ر٦٢٪ . ولا غرابة في ذلك فالحجاج بحكم أسفارهم الى الحج لا بد وأن بعضهم قد شارك في التجارة المرافقة لقافلة الحج، كما ان التجارة تتناسب وثروة العلماء وتقديرهم التقليدي للتجارة التي حظيت بالاحترام في المجتمع العربي الاسلامي . ويشكل القماش بالنسبة للسكان العاديين سلعة هامة في التعامل التجاري على مستوى صغار التجار لذا تبلغ نسبة تعاملهم به ٣٠ر٤٨٪ ، وهي ما يقرب من نسبة كل من العلماء والحجاج ، ولكن أعداد العاديين الكبيرة تجعل وسطي حجم مساهمة الواحد منهم أقل بكثير من حجم مساهمة الفرد في أي من الفئتين الاخريين . وكان الريفيون أقل الفئات البائعة للقماش بالدين على الاطلاق بسبب وضعهم المالي السيء من ناحية ولاحتكار سكان حماة المتاجرة معهم بهذه السلعة من ناحية أخرى . ولم يكونوا بالمقابل أكثر المستهلكين له بالرغم من أعدادهم بسبب وضعهم الاقتصادي السيء .

ويتأكد دور الحجاج في التجارة ،وبخاصة البعيدة منها ، باشغالهم المرتبة الاولى، بنسبة عالية جدا ، في بيع الجوخ (٧٥ر٧٠٪) ، وأهم من ذلك في نسبة بيعهم التوابل والعطور بالدين (٨٤ر٩٥٪) . وبالرغم من أن نسبة أعداد الحجاج المتعاملين بالبيع بالدين (٥٦) تبلغ ٢٠ر٥٨٪ من المجموع فان ارتفاع نسبب تعاملهم بالقماش والجوخ والتوابل والعطور يدل على مدى ثروتهم وبالتالي ربحهم . وتبرز فئة الحجاج كذلك في بيع الحيوانات بالدين وذلك مرتبط بدورهم كتجار بما في ذلك تجارة الحبوب . وتبرز الخزينة (الخزانة العامة او الشريفة) كدائنة في صفقة أغنام تقدر ب ١٠٠٠٠ درهم عثماني أي ما يعادل ٢٥٠٠٠ درهم حلبي . وهكذا تتصدر فئة الحجاج مجموعة الفئات الاجتماعية التي تتعامل بالبيع بالدين بالنسبة لمعظم السلع .

واذا ما انتقلنا من الفئات الاجتماعية الدائنة الى الفئات المديونة ، اي تلك التي اشترت السلع بالدين ،يبدو لنا حجم تعامل كل فئة مع مختلف السلع ومدى مديونيتها كما يبين ذلك الجدول التالي :

الفئات المدينة وأنواع السلع التي اشترتها بالدين ومجموع أثمانها بالدراهم الحلبية(٤٥) ونسبها

الفئات الاجتماعية	العدد	حبوب	قطن	قماش	جوخ	توابل وعطور	حيوانات	سلع أخرى	المجموع
عسكريون	١			١٠٠					١٠٠٠
				(٠ر٠٣٦)					(٠ر٠٨)
علماء	٣		١٢٥٠٠				٢٥٠٠٠	١٠٥٠٠	٤٨٠٠٠
			(١٨ر٧٨)				(٢٥ر٥٢)	(٧ر٠٣)	(٤ر١٥)
حجاج	٣٧	٢١٧٧٠	١١١٠٠	٥٨٠٨٧	٧٣٥٠	٤٤٠٠٠	٤٦٤٥	٣٢٦٣٠	١٧٩٥٨٢
		(٥ر٥٥)	(١٦ر٦٨)	(٢٠ر٧٤)	(٧ر٩٨)	(٥٦ر٩٨)	(٤ر٧٤)	(٢١ر٨٤)	(١٥ر٥٤)
عاديون	١٥٢	٥٤٩٦٤	١٢٦٠٧	١٩٣٨١٨	٦١١٢٠	٣٣٢٢٠	٣٩٦٩٣	٨٠٦٣٣	٤٧٦٠٥٥
		(١٤ر٠١)	(١٨ر٩٤)	(٦٩ر٢٠)	(٦٦ر٣٨)	(٤٣ر٠٢)	(٤٠ر٥٢)	(٥٣ر٩٧)	(٤١ر٢٠)
ريفيون	١٠٣	٢٨٤٢٤٠	٣٠١٠١	٢١٢٠٠	٤٧١٠		٢٨٦٣٠	٢٠٨٩٢	٣٨٩٧٧٣
		(٧٢ر٤٦)	(٤٥ر٢٣)	(٧ر٥٧)	(٥ر١٢)		(٢٩ر٢٢)	(١٣ر٩٩)	(٣٣ر٧٢)
نساء	٤	١٤٧٥		٦٨٠					٢١٥٥
		(٠ر٣٨)		(٠ر٢٤)					(٠ر١٩)
مسيحيون	٢٣	٢٩٨٠٠	٢٤٥	٥٣٠٠	١٤٠٠			٤٧٤٠	٤١٤٨٥
		(٧ر٦٠)	(٠ر٣٧)	(١ر٨٩)	(١ر٥٢)			(٣ر١٧)	(٣ر٥٩)
يهود	١				١٧٥٠٠				١٧٥٠٠
					(١٩ر٠٠)				(١ر٥٢)
المجموع	٣٢٤	٣٩٢٢٤٩	٦٦٥٥٣	٢٨٠٠٨٥	٩٢٠٨٠	٧٧٢٢٠	٩٧٩٦٨	١٤٩٣٩٥	١١٥٥٠٠٠
نسب اسعار السلع من المجموع		(٣٣ر٩٤)	(٥ر٧٦)	(٢٤ر٢٤)	(٧ر٩٧)	(٦ر٦٨)	(٨ر٤٨)	(١٢ر٩٣)	

يلاحظ من جدول الفئات المدينة أعلاه ان الريفيين هم أكثر الفئات الاجتماعية شراء بالدين وبخاصة من المنتجات الزراعية اذ تبلغ نسبتهم في ديون الحبوب ٧٢ر٤٦٪ وفي ديون القطن ٤٥ر٢٣٪ . ولا غرابة في ذلك نظرا لعملهم في الزراعة ولكن ما يلفت النظر أن شراءهم الحبوب بالدين غالبا في أوقات البذار وامتداد مدة الوفاء بالدين حتى فترة الحصاد او المواسم الاخرى دليل على عدم توفر رأسمال زراعي لديهم وأنهم يعملون ليعيشوا وتذهب أتعابهم للوفاء بالدين وما يرتبط بذلك مثل عمليات السلم أي بيع منتجاتهم سلفا بأسعار مقررة كما سنعالج ذلك لاحقا . والملاحظ أن معظم قضايا الشراء بالدين في سجل محكمة حماة الشرعية تذكر مبلغا محددا بذمة أحدهم لآخر لقاء شرائه حنطة أو شعيرا أو قماشا دون تحديد لكمية السلعة، او ان المبلغ متبق

بذمة المديون من ثمن سلعة ما،أي ان قسما من الثمن قد دفع حين الشراء أو بالتقسيط وان القسم الآخر هو الباقي . وقد يكون ان أجل الدين قد مدّد من جديد .

ومن التدقيق في عدد من قضايا بيع الحنطة بالدين لأجل يبلغ أربعة أو ستة أو عشرة أشهر يتبين أن وسطي سعر المكوك منها يبلغ حوالي ٨٠٠ درهم حلبي وقد ينزل الى ٧٥٠ أو يرتفع الى ٨٨٨ درهما(٤٦) ، ويتوقف ذلك على الكمية ومدة الوفاء بالدين وزمن عقد الشراء وبالتالي مدى حاجة المديون للسلعة وموقع الدائن ونفوذه وهكذا . واذا كان هذا هو سعر الشراء أو البيع بالدين فان سجل حماة يشير الى سعر آخر يصفه أنه السعر الواقع أي سعر السوق ، مثال ذلك أن قاضي حماة استدعى أناسا « من أهل المعرفة والوقوف » واستفسر منهم عن « سعر الشعير الواقع الآن في حماة فأجابوا : المكوك بمبلغ مائة درهم وثمانية وعشرين درهم عثماني فسطر على ما هو الواقع حسبما شرح فيه بطلب مفخر الاماثل محمد أمين ما بين سابقا » ، واعتمد هذا السعر في بيع « شعير حاصل السلطنة »(٤٧) . ويبدو من احدى القضايا ان سعر مكوك الحنطة الواقع آنذاك هو ٥٠٠درهم حلبي للمكوك(٤٨)، وعلى هذا فان بيع مكوك الحنطة بالدين يزيد بنحو ٣٠٠ درهم حلبي عن سعره الواقع ، ويشكل هذا ابتزازا كبيرا للمديونين .

ويلاحظ في جدول المديونين ان الريفيين أيضا يشكلون أكبر نسبة من المشترين للقطن بالدين ، ولكن هذه النسبة تقل بحوالي ٦٠٪ عن نسبة شرائهم الحنطة بالدين نظرا لشراء فئات أخرى ، مثل العلماء والحجاج بالاضافة الى الناس العاديين ، القطن بالدين بشكل متساو تقريبا بينهم .

وتهبط نسبة شراء الريفيين للقماش بالدين الى ٥٨ر٧٪ وهذا دليل ضيق ذات يدهم واهتمامهم بشراء الحاجيات الحياتية الاساسية . وتقل أكثر من ذلك نسبة شرائهم للجوخ المرتبط بمستوى اجتماعي واقتصادي ارفع . ويبرز في شراء هاتين المادتين الاناس العاديون نظرا لكثرة أعدادهم وربما دلّ ذلك أيضا على مستوى حياتي أرقى بين سكان حماة بالنسبة لسكان الريف ، وان شراءهم للجوخ بالدين دليل على قدرتهم على الوفاء بهذا الدين . ولا يعني هذا أن المشترين للقماش والجوخ من الاناس العاديين هم بالضرورة يستهلكون ما يشترون بل يسوقون ذلك في حماة وفي الريف بدرجة أقل .

ونلاحظ أن فئة الحجاج هي أكثر الفئات متاجرة بالتوابل والعطور بيعا وشراء بالدين ، لارتباط ذلك بالتجارة البعيدة وبحكم سفرهم الى الحج حيث يتم التعامل

ببعض منتجات الشرق الاقصى التي يحملها الحجاج والتجار في ذلك الموسم بالاضافة الى ما تحمله قوافل التجارة من حماة واليها وعبرها سواء باتجاه الجنوب أو الشرق نحو العراق أو الشمال باتجاه حلب أو الغرب الى طرابلس وما وراءها . ويذكر مثلا تعاقد أبو بكر ابن الحاج محمد الحمال وعفيف بن موسى اليهودي على أن ينقل الاول على جماله ستة أحمال تضم قماشا من حماة الى صفد بأجرة قدرها ٥٤٥٠ درهما حلبيا(٤٩) . ومما يدل ايضا على اهمية حماة التجارية على طريق القوافل المثال الذي يذكر التزام محمود القطلبي باج (رسم مرور) قوافل المعرة بطريق المقاطعة لمدة سنة بمبلغ عشرة آلاف درهم عثماني بكفالة آخرين وبقبول وتصديق من نقولا بن عفيف النصراني الوكيل عن مفخر الامراء حمزة سلطان أمير لواء حماة(٥٠) .

وتشكل فئات الاناس العاديين والريفيين والعلماء نسبا متقاربة من التعامل بالحيوانات مثل الجمال والفرس والحمير والبقر والغنم والماعز بسبب الطابع الريفي الغالب في لواء حماة وتشابك المصالح بين المدينة والريف . وربما كان للعلماء هذه النسبة الموازية تقريبا للريفيين بحكم زيارات بعضهم للريف أو توظيف البعض أموالهم في العقارات الزراعية أو لكون بعضهم مسؤولين عن الاوقاف الزراعية . ويمكن اجراء فرز لانواع الحيوانات التي تبيعها أو تشتريها بالدين كل فئة اجتماعية ومنها يتم التعرف على نوعية الاعمال التي تقوم بها .

ويلفت النظر في جدول السلع الاخرى المتنوعة أن الاناس العاديين يشكلون ٥٣ر٩٧ ٪ من بين مشتريها بالدين في حين انهم لا يتجاوزون ٣٢ر١٣ ٪ بين بائعيها بالدين . وربما دل ذلك على أنهم أميل الى الفقر منهم الى الغنى وهم الذين يشكلون غالبية السكان .

والى جانب عمليات القرض والدين الشرعي المالي والبيع والشراء بالدين شاع في لواء حماة ما عرف بالسلم الشرعي كما في المثال التالي : حضر في مجلس الشريعة المطهرة ناصر ابن الحاج محمد بن الشنار وأقر واعترف بأن عليه وفي ذمته لكرسيول بن فرنسيس الافرنجي البندقي من القطن المحلوج السقي الحموي بطريق السلم الشرعي المقبوض رأس مال السلم في مجلس العقد مبلغ ستين الف درهم حلبي من ذلك مؤجل الى ثلاثة أشهر خمسة قناطير قطن والباقي مؤجل الى مضي تسعة أشهر من تاريخه ، ثم ابتاع المقر من المقر له وهو باعه عشرين خرقة جوخ كرمزي ملون . . . بثمن قدره أربعين ألف درهم حلبي مقبوض ومحل أداء السلم المذكور في حماة حرر بتاريخ ٢٦ رمضان ٩٤٢/ ١٧ آذار ١٥٣٦ . وقبل ذلك بأربعة أيام تمت صفقة مماثلة بين البندقي نفسه والزيني ابن أحمد بن الزميطة من حماة حددت فيه كمية القطن بأنها خمسة عشر قنطارا ورأس مال السلم خمسة واربعين الف درهم حلبي مؤجل الى مضي سنة . واشترى الزيني

بالمبلغ نفسه اثنتين وعشرين خرقة جوخ ونصف خرقة من البندقي(٥١) . وهناك حالات من السلم متواضعة جدا في كمية السلعة كما في اقرار أحمد بن علي أن بذمته للحاج سويدان ٤٥ رطلا من التين السقي بطريق السلم الشرعي ، أو اقرار آخر أن بذمته ٢٠ رطلا من الزيت من جهة السلم الشرعي بالشروط الشرعية المقبوض رأس مال السلم مبلغ ١١٠ دراهم (؟) وأنه كان مؤجلا فصار حالا(٥٢) .

ويتبين من سجل حماة أن السلم الشرعي يتضمن دفع مبلغ من المال مقدما لقاء شراء كمية معينة من سلعة ما تسلم في موعد لاحق محدد . ويتم عقد السلم في مجلس خاص يبرم فيه يسمى مجلس العقد الذي يرد ذكره في عدد كبير من عقود السلم هذه. والملاحظ أن في السلم يحدد سعر السلعة وقيمتها سلفا وتدفع قيمتها مقدما ، وهذا يعني انه يتفق على السعر والكمية في مجلس العقد بقطع النظر عما يكون عليه السعر الواقع في وقت العقد أو عما سيكون عليه وقت التسليم . ويذكر ابن عابدين في الحاشية (٥٣) ان الاولى تعريف السلم بأنه « شراء آجل بعاجل » . ولكن تحديد سعر شراء السلعة مقدما في عقد السلم فيه غبن واضح للبائع بدليل عدد من القضايا الواردة في سجل حماة. ففي احداها ادعى الحاج زين العابدين بن عز الدين على قاسم ابن الحاج محمد بخمسة مكاكيك حنطة من جهة السلم الشرعي المقبوض عن كل مكوك ١٧٠ درهما حلبيا(٥٤) ، وهذا يعني أن سعر المكوك المدفوع سلفا بهذا المقدار يقل بمقدار ٣٣٠ درهما حلبيا عن السعر الواقع في الفترة ذاتها وبحوالي ٦٣٠ درهما حلبيا عن سعر الشراء بالدين . ففي عقد السلم يخفض المبلغ بمقدار متساو مع المقدار الذي يزداد فيه الشراء بالدين وذلك بالنسبة للسعر الواقع لمكوك الحنطة . ويكون الغبن في الحالين على صاحب الحنطة أو السلعة .

ويبدو أن ابتزاز الفلاحين بواسطة السلم قد استفحل بعد ذلك دون أن تتدخل السلطة للحد منه مما جعل ابن عابدين يصف ذلك الابتزاز وهذا التهاون بقوله : « (قوله وأقبح من ذلك السلم الخ) أي أقبح من بيع المعاملة المذكور ما يفعله بعض الناس من دفع دراهم سلما على حنطة او نحوها الى أهل القرى بحيث يؤدي ذلك الى خراب القرية لانه يجعل الثمن قليلا جدا فيكون أضراره اكثر من أضرار البيع بالمعاملة الزائدة عن الامر السلطاني فيظهر ان المناسب ايضا ورود أمر سلطاني بذلك ليعزر من يخالفه وظاهره انه لم يرد بذلك امر والله أعلم »(٥٥) .

وباستعراض عقود السلم الشرعي في سجل حماة قيد الدراسة نجد انه من ثمانية عشر قضية تتعلق بالسلم الشرعي انكر المدعى عليه في معظمها أن يكون بذمته اي التزام ولكن شهودا معدولين أثبتوا عليه الالتزام بالوفاء بالسلم . وفي بعض القضايا يتم عرض

السلم على المحكمة لاعلام المدعى عليه بحلول الوفاء بالسلم . ويشير عدد من القضايا الى رأس مال السلم وهو المبلغ الذي قبض لقاء تقديم السلعة المتعاقد عليها بعد اجل . وبيع السلم كأن يتم بين سكان حماة أو بينهم وبين سكان الريف . ويبرز الريفيون كمدعى عليهم أو مستلم اليهم من قبل اهل مدينة حماة أرباب السلم . ولم يكن السلم الشرعي مقتصرا على المسلمين ، فقد سبقت الاشارة الى التاجر البندقي الذي اشترى قطنا بطريق السلم . وهناك قضية تتعلق بفرج بن ظاهر النصراني من قرية افيون الذي أقر ان بذمته مكوك حنطة بالكيل الحموي بطريق السلم الشرعي لأحمد بن جمعة(٥٦).

ويبدو من عقود السلم الشرعي في سجل حماة أن التعامل بالسلم كان محدودا بالمقارنة مع الديون وربما مرد ذلك ما يترتب عليه من اجحاف بحق المستلم اليهم . وباستثناء عقدي السلم الضخمين اللذين قام بهما التاجر البندقي كرسيول للحصول على عدة قناطير من القطن الحموي فان العقود الاخرى بين السكان المحليين تتضمن كميات ضئيلة من مواد غذائية متنوعة كما يبين الجدول التالي :

أنواع السلع المتداولة في عقود السلم الشرعي
وأعداد عقودها وكمياتها وأثمانها

السلعة	عدد العقود	الكمية	الثمن بالدراهم الحلبية
حنطة	٣	٦ مكاكيك	٨٥٠ (جزئيا)
		٧ شنابل	
قطن	٣	١٥ قنطارا	١٠٠٢٠٠
		٦٥ رطلا	
		كمية كبيرة دون تحديد	
قماش	٢	مع ١٠ أرطال قطن	
		مع ٢٠ رطلا من الزيت	١٠٢٠ (جزئيا)
زيت	٧	٢٢٩ رطلا	(دون ذكر سعر)
زبيب	١	١٠ أرطال	(دون ذكر سعر)
بصل	١	٢٥٠ رطلا	(دون ذكر سعر)
تين	١	٤٥ رطلا	(دون ذكر سعر)

ويمكن اجراء مقارنة بين اجمالي المبالغ الموظفة في القروض والديون الشرعية والبيوع بالدين والسلم الشرعي كالتالي :

	الاجمالي بالدراهم الحلبية	النسبة ٪
القروض	٢٤٦٢٨٧	١٥ر١٥
الديون	١٢١٢١٩	٤٦ر٧
البيوع بالدين	١١٥٥٥٥٠	١١ر٧١
السلم الشرعي	١٠٢٠٧٠	٢٨ر٦
المجموع	١٦٢٥١٢٦	٠٠ر١٠٠

وللتعرف على ما تساويه هذه الارقام الموظفة في السوق المالية في لواء حماة نقارنها بالاموال الموظفة في السوق العقارية في اللواء نفسه وفي الفترة ذاتها .

جدول بيوع العقارات وأثمانها

نوع العقار	عدد البيوع	الثمن بالدراهم العثمانية	الثمن بالدراهم الحلبية
سكني	٤٠	٦٧٠٤٥	١٦٧٦١٢
تجاري	٩	٢٠٣٧٠	٥٠٩٢٥
زراعي	٧	١٢٢٠٠	٣٠٥٠٠
المجموع	٥٦	٩٩٦١٥	٢٤٩٠٣٧

وبمقارنة حجم الاموال الموظفة في البيوع العقارية بحجم الاموال الموظفة في عمليات الديون نتبين أن السوق العقارية لم تشكل سوى ٣٢ر١٥ ٪ من مجموع عمليات الديون بأنواعها مما يدل على نشاط وحيوية السوق المالية في لواء حماة وما يقتضيه هذا النشاط من التعامل بثقة بين الناس واستغلال الطاقات الاقتصادية بقطع النظر عن أي فئة اجتماعية كانت الرابحة وايها كانت المستغلة . ويبقى حجم التعامل في سوق العقارات في حدود معقولة لان كثرة التوظيف فيه تعطل السيولة اللازمة في استغلال الموارد الطبيعية .

وقد وجدت ضمانات للوفاء بالدين مثل الرهن والكفالة بنوعيها بالمال وبالنفس . ويبدو أن الرهن كان أقلها استخداما بدليل عدم وروده بشكل كبير في سجل حماة . وفي الحالات التي يرد فيها كان الراهن في أحدها رجلا سباهيا رهن خنجرا على مبلغ ٥٠٠ درهم عثماني . وفي أخرى رهن حاج بذمته مبلغ ١٣٠٠٠ درهم حلبي عن ثمن قماش لحاج آخر داره ودكانا بقربها وحوشا ملاصقا للدكان ونصف دار مقسومة (قسيم الدار) وثلاث بقرات رهنا صحيحا شرعيا قبل به أبناء الراهن . ثم أعار المقر

له الرهن المذكور الى الراهن لينتفع به(٥٧) . وفي الحالين كان الرهن رمزيا ويدل على علاقات ثقة بين السكان .

وتكثر حالات الكفالة المالية وفي عدد منها يدفع الكفيل مبلغ الكفالة (المكفول به) الى الدائن (المكفول له) عن المدين الاصلي (المكفول عنه) ، وفي بعضها ينكر الكفيل كفالته فيثبتها الشهود في الغالب .وتستخدم الكفالة في مختلف أنواع الديون والقروض وأنواع السلع وبين مختلف الفئات الاجتماعية . والكفالة في الغالب فردية ولكن توجد حالات فيها أكثر من كفيل واحد أو أكثر من مكفول عنه واحد . ويكثر هذا ضمن الاسرة الواحدة وكذلك في القرية الواحدة حيث يكثر المديونون فيكفلون بعضهم جماعيا. وقد يكون الكفيل أو المكفول أنثى ، وذلك عادة ضمن الاسرة الواحدة (٥٨) .

وأكثر الضمانات الشرعية شيوعا في حماة هي كفالة النفس التي تشمل قضايا الديون وغيرها .وتقضي بأن يكفل شخص نفس شخص آخر أي يلتزم أو يضمن احضار هذا الشخص الى طالبه أو الى المحكمة الشرعية لمقاضاته . وهذا نوع من التكافل الذاتي الذي يلقي على السكان مسؤوليات معنوية كبيرة ويدل في تطبيقه على درجة عالية من الشعور بالمسؤولية تجاه الآخرين ، وبالتالي تجاه المجتمع ، وهذا نابع من تقاليد راسخة تقوم على الثقة والتقى والالتزام بالقواعد الدينية ،وهي صفات قويمة ساعدت المجتمع على الاستمرار في حسن الاداء بالرغم من مساوىء الحكم التي تعرض لها .

وتختلف كفالة النفس عن كفالة المال ان الاولى تنتهي بموت الكفيل أو المكفول عنه، أما الثانية فلا تبطل بموت الكفيل وتترتب الكفالة على ماله ويعود الورثة عندئذ الى مطالبة المكفول عنه . وتختلف الاجتهادات حول استثناءات ذلك(٥٩) . وترد في سجل حماة مائة واثنتا عشرة كفالة نفس تفيد دراستها في معرفة كيفية تطبيق هذا النوع من الكفالة في مكان وزمان معينين ومدى تطابقه مع آراء الفقهاء . وتنتظم كفالات النفس هذه قواسم مشتركة منها أن معظمها فردي ، أي ان فردا يكفل فردا آخر انه متى طلب من قبل خصمه أحضره الكفيل . ويدل المثال التالي على أكثر حالات كفالة النفس شيوعا: كفل عمر بن بدر الكردي نفس محمد بن عبد الله بطلب خصمه مصطفى بن موسى انه متى طلب أحضره(٦٠) .وهناك حالات يكفل فيها اثنان شخصا واحدا ، أو يكفل شخص واحد اثنين معا . وتكثر الحالات التي يكفل فيها الاب ابنه ، والابن أبيه ، والاخ أخيه، والحموي الريفي ، والريفي الريفي . كما ترد حالات يكفل فيها المسلم المسيحي والمسيحي المسلم ، وكذلك المسيحي المسيحي ، واليهودي اليهودي . وليس هناك بوجه عام من زمن محدد لكفالة النفس . وترد حالتان حددت فيهما كفالة النفس بثلاثة أيام وكلتاهما تتعلقان بطلب السلطة ففي احداهما كفل شخص من محلة المنعزلة بحماة

نفس اثنين من القرويين بطلب خصمهما جاويش أحمد بن عبد الله الى مضي ثلاثة أيام من تاريخ الكفالة . وفي الاخرى كفل شخص من محلة الحوارنة بحماة بدن شخص من قرية الموعة الى ثلاثة أيام انه يحضره الى مجلس الشرع(٦١). وهذه هي الحالة الوحيدة التي ترد فيها كلمة « بدن » عوضا عن « نفس » ولعل المقصود التأكيد على احضاره موجودا . وفي الحالة التي لا يمكن معها كفالة نفس المطلوب بعينه فان الكفالة تتناول شخصا يمت بصلة قوية الى الشخص المطلوب كما في المثال التالي : كفل أبا يزيد بن جمعة الكردي من محلة الجسر بحماة نفس علي ابن الحاج سليمان على أنه متى طلب أحضره بموجب هذه الكفالة لاجل احضار أخيه حمو بخصوص دعوى علي التركماني من جهة سرقة فرس(٦٢) . وتنتهي كفالة النفس بتسليم الكفيل شخص المكفول الى خصمه الذي يحضره عندئذ الى المحكمة كما في المثال التالي : كفل جمعة بن المعفن من قرية كازو نفس المرأة ورذقان بنت عمر بطلب حسين بن محمد انه متى طلبت أحضرها، وسجل ذلك في المحكمة بتاريخ ١٩ رمضان ١٢/٩٤٢ آذار ١٥٣٦ . وبعد ثلاثة أيام سجل في المحكمة أن جمعة هذا سلم المرأة ورذقان الى خصمها حسين وهي التي كفل نفسها عند حسين المذكور ، وفرغ بذلك عن الكفالة فصدقه حسين(٦٣) .

وترد حالات مركبة من كفالة النفس تتم فيها كفالة الكفيل من قبل غيره كما في كفالة أبي بكر بن شمس الدين من محلة العليليات التحتا بحماة نفس ابن أخيه بركات بطلب خصمه الشيخ عز الدين متى طلب أحضره . ثم كفل أحمد العقيلي ومحمد بن حسين نفس أبي بكر بن شمس الدين بطلب الشيخ عز الدين انه متى طلب أحضراه(٦٤) . وفي قضية أخرى كفل عيسى بن سركين نفس خليفة ابن الحاج سليمان بطلب محمد بن القد ثم كفل خمسة أشخاص ، في القضية ذاتها ، نفس عيسى المذكور بعد طلب محمد المذكور انه متى طلب أحضروه(٦٥) . ويبدو أن الهدف من هذه الكفالة المركبة تأكيد حقوق الخصم .

وقد تجاوزت الكفالة بالنفس الحدود الدينية ، سواء في الواقع ام في الشرع ، فقد جاء أن المعلم عبد الوهاب ابن الحاج محمد الفاخوري كفل نفس حنا بن منصور النصراني متى طلب أحضره كفالة مقبولة بطلب القره بن محمد . وفي مثال آخر كفل سمعان بن عيسى النصراني نفس بركات بن فرج الله بطلب أبي السعود متى طلب أحضره(٦٦) . ويدل هذا على التعايش القائم والتعامل المشترك والثقة بين السكان بقطع النظر عن مذاهبهم .

ويمكننا تبين الفئات الاجتماعية التي ينتمي اليها كل من الكفلاء والمكفولين والخصوم كما في الجدول التالي :

الفئات الاجتماعية	الكفلاء	المكفولون	الخصوم
موظفون	—	—	١٤
شيوخ	٤	—	٣
حجاج	٨	٤	٨
عاديون	٥٤	٦٣	٥٩
ريفيون	١٩	١٥	٢
تركمان وأكراد	٥	٣	٢
نساء	١	٣	—
مسيحيون	٢	٣	—
يهود	٢	٢	—
المجموع	٩٥	٩٣	٨٨

يضم الموظفون أمير لواء حماة ، أمين الخواص السلطانية ، سباهية ، القاضي ، والمسؤول عن السجن. ويفسر عدم اتفاق الارقام مع بعضها في الجدول أعلاه أنه في بعض الحالات لا يذكر اسم الخصم ، وفي حالات أقل لا يذكر اسم المكفول . وهذه الارقام تمثل بمعظمها كفالات افرادية ولكن هناك حالات تضم كفيلين أو أكثر في آن واحد، وكذلك بالنسبة للمكفولين والخصوم . فبين الحجاج حالة واحدة يظهر فيها حاجان كفيلان . وبين العاديين أربع حالات لكفيلين وواحدة لثلاثة كفلاء . وبين المكفولين العاديين حالتان لمكفولين وواحدة لثلاثة . وبين الخصوم حالة لثلاثة . أما الريفيون فيضمون حالة واحدة لكفيلين وحالتين لمكفولين اثنين وحالة لثلاثة مكفولين معا . وهناك حالة لثلاثة كفلاء بين المسيحيين وحالة لكفيلين بين اليهود . ويظهر بين الكفلاء الريفيين أربع حالات من الكفلاء الحجاج أبقيناهم ضمن فئة الريفيين . ولو أضفنا هذه الحالات الاربع الى فئة الحجاج الكفلاء لارتفع عدد هذه الفئة الى اثني عشر كفيلا ، وبذلك تصبح ثالث أكبر فئة بعد العاديين والريفيين مما يدل على الثقة بالحجاج ككفلاء وعلى نفوذهم في المجتمع وكذلك على الدور الاقتصادي الذي لعبوه في مجالات القروض والديون بأنواعها والسلم الشرعي. ويلفت النظر ايضا أن الموظفين يشكلون أكبر نسبة بين الخصوم بعد فئة العاديين نظرا لتأخر العديد من المكلفين أو المديونين بتأدية التزاماتهم المالية لهم .

واذا نظرنا الى علاقات القربى بين الكفلاء والمكفولين نجد ان الاخ يكفل أخيه في ست حالات ، والاب ابنه في أربع حالات ، والابن أبيه في حالتين ، والام ابنتها في حالة واحدة ، والعم ابن أخيه في حالة واحدة أيضا . ويدل هذا على الترابط العائلي من جهة

وعلى الثقة بين الاسر من ناحية أخرى . ولا يبرز بين المكفولين الا حالة واحدة ضمت أبـا وابنه معـا .

وتبرز بين القرى التي ظهر فيها كفلاء ومكفولون معا الدجاجية ، كازو ، الموعة ، ومتنين . أما القرى التي ذكر فيها كفلاء فقط فهي ارجزى ، سكين ، كيسون ، معان، تعترين ، الظاهرية ، كفر حنين ، ودحسيس . والقرى التي فيها مكفولون فقط هـي أفيون ، القصيعية ، بيصين ، وركو ، تمتع ، والمعليقة .

مظاهر اجتماعية :

ترد في سجل حماة قضايا ذات مدلولات اجتماعية هامة مثل عقود الزواج والطلاق وأوضاع الامن سواء لجهة تنظيمه أو العبث به وما يرتبط بذلك من أحداث قتل وتهديد وسرقة . وتتبدى في هذه القضايا كذلك ملامح من الاخلاق العامة السوية ومحاولات المسّ بها كالرشوة وغصب المال وشرب الخمر والخطف والزنى . وهذه القضايا هامة بحدوثها كما هي هامة بمحاولات شجبها من قبل مرتكبيها أنفسـهم وكذلك من قبـل السلطة الدينية التي كانت تعكس ، في الوقت ذاته ، استنكار الشعب لها .

ويخص سجل حماة عقود الزواج بتفصيل وشمول لا يتوفر مثلهما في السجلات اللاحقة العائدة الى المحاكم الاخرى من بلاد الشام . وربمـا سبب ذلك أن المحكمـة الشرعية في هذه الفترة المبكرة من الحكـم العثماني كانت تعنـى أكثر شـيء بمهامهـا الاساسية من الاحوال الشخصية وتسوية علاقـات الناس بعامة قبـل أن تتشـعب اختصاصاتها لتشمل مختلف النواحي الاقتصادية والاجتماعية في الحياة اليومية التي طغت بالتدريج على قضايا الزواج والديون والكفالة وغيرها .

ويذكر سجل حماة ١٩٧ عقد زواج موزعة زمنيا كالتالي :

العام	جمادى الاولى	جمادى الثانية	رجب	شعبان	رمضان	شوال	ذو القعدة	ذو الحجة
٩٤٢	١٨	٤٢	٣٠	١٢	٣٢	٢٣	٢٨	٥
	محـرم	صفـر						
٩٤٣	٥	٢						

ويضاف الى هذه العقـود أربعة عقود زواج وردت في آخـر السـجل ولم تميـز تفاصيلها بسـبب التلف الذي لحق بأوراق السجل ، ولعلها من شهر صفر . ونظـرا لعدم تسلسل صفحات السجل وبالتالي تواريخه وامكانية ضياع بعض صفحاته فاننا

سنعتبر الاشهر بين جمادى الاولى ونهاية ذي القعدة ممثلة لعقود الزواج الفعلية . ويصعب معرفة ما اذا كان الزواج قد تم فعلا في التاريخ الذي سجل فيه العقد في المحكمة وان كان هذا هو الارجح نظرا لما ينطوي عليه عقد الزواج من شروط شرعية ومالية لا يصبح نافذا بدون ابرامها وتسجيلها في المحكمة . واذا كان الامر كذلك وان صفحات هذه الاشهر في السجل غير ناقصة تطرح عندئذ مشكلة تفاوت عقود الزواج بين شهر وآخر . ومن الطبيعي أن يرتبط ذلك بموقع الشهر الهجري من فصول السنة وما يترتب على ذلك من الانتهاء من جمع المحاصيل الزراعية أو من زرع الحبوب حيث يكثر الزواج بعد هذين الموسمين . واذا اعتبرنا ان أعداد عقود الزواج في الاشهر الاخيرة من عام ٩٤٢ متطابقة مع الواقع فان أكثر العقود حدوثا يقع في شهري جمادى الثانية ورجب / أواخر تشرين الاول حتى أواخر كانون الاول ، أي اثر الانتهاء من زراعة الحبوب التي تبدا مبكرة من نصف أيلول(٦٧) . وتقل عقود الزواج في شعبان ثم تزداد بين بداية رمضان ونهاية ذي القعدة / أوائل شباط وأواخر أيار ١٥٣٦ ، أي قبل بدء موسم حصاد الحبوب . واذا كان عدد عقود الزواج بهذه القلة الواردة في أشهر ذي الحجة ومحرم وصفر فان ذلك يعني اشتغال القرويين بين أواخر أيار وأواسط آب في عمليات الحصاد والدرس والتذرية ثم في زراعة القطن . وربما شاعت عادة آنذاك لا تحبذ الزواج في اشهر الحج هذه .

ويمكن دراسة عقود الزواج من نواحي مختلفة منها ما يتعلق بالانفتاح والانغلاق الاجتماعي بين سكان مختلف أحياء حماة وبينهم وبين سكان الارياف الملحقة بها ، وحجم المهور بالنسبة لمختلف الطبقات الاجتماعية ومدلولاتها الاقتصادية ، وسن الزواج من حيث نسبة القاصرين الى البالغين بين الازواج من الجنسين، ثم أهمية الزواج في انشاء وحدة اجتماعية جديدة وأخرى اقتصادية تضافان الى مجتمع المدينة أو القرية . ولا تتوفر عينات كافية من التركات (المخلفات) في سجل حماة لنتعرف من خلالها على حجم الاسرة وعدد الزوجات والاولاد ونسبة القاصرين منهم الى البالغين والذكور الى الاناث . ومع ذلك يمكن اخذ عقود الزواج كمؤشر تقريبي لمجموع عدد السكان في لواء حماة . فاذا اعتبرنا ان الوسطي الشهري لعقود الزواج في حماة كما وردت في الاشهر العشرة أعلاه هو بواقع ١٩٫٧ فان مجموع العقود السنوي يصبح بحدود ٢٣٦ عقدا . واذا اعتمدنا قاعدتين قال باحث اجتماعي غربي انهما يمثلان نظاما عالميا في الزواج لدى الاقدمين وهما أن نسبة عقود الزواج تمثل ٩ بالالف من مجموع السكان ، وأن كل عقد زواج يؤدي الى وسطي ٤٫١٦ من الاولاد وأن نسبة الخصوبة تمثل ٣٥ بالالف من مجموع السكان أمكننا التوصل الى معدل وسطي للسكان يقع بين القاعدة الاولى والثانية(٦٨) ، وعلى هذا فاذا اعتبرنا أن عدد عقود الزواج في لواء حماة خلال عام واحد بين ٩٤٢ ــ ٩٤٣ / ١٥٣٥ ــ ١٥٣٦ هو ٢٣٦ عقدا يصبح الحد الادنى للسكان في اللواء

(وبصورة أدق في حماة وما يلحق بها قضائيا من قرى) حوالي ٢٦ ألف نسمة والحد الاعلى حوالي ٢٧ ألف نسمة . ويستخدم الباحث انطوان عبد النور هذه القاعدة ويطبقها على ما ذكره عبد الودود يوسف من أن سجل محكمة حماة الشرعية لعام ١٥٨١ يذكر ١٢٠ عقد زواج فيها فيصل الى وسطي لسكان مدينة حماة في ذلك العام يعادل ١٢ الى ١٤ ألف نسمة(٦٩) . ويتضاعف العدد في عينتنا مع ازدياد في الحد الادنى لانه يمثل سكان اللواء من مدنيين وريفيين . ويجب الاخذ بعين الاعتبار ما لحق بسكان بلاد الشام عموما بين عامي ١٥٣٥ ــ ١٥٣٦ و ١٥٨١ من عدم استقرار ديموغرافي لاسباب اقتصادية بمعظمها(٧٠) مما يجعل مقارنة أعداد السكان خلال هذه السنوات تقريبية .

تتوزع عقود الزواج المئة والسبعة والتسعين الى عقود زواج بين حمويين ، وبين ريفيين ، أو مشتركة بينهم ، أو مع التركمان كما في الجدول التالي :

زواج بين حمويين	زواج بين ريفيين	حمويون مع ريفيات	ريفيون مع حمويات	حمويون مع تركمان	زواج بين تركمان
٩٩	٧٣	١٠	٩	٣	٣

واذا ما أخذنا كل فئة من هذه الفئات على حدة ودرسنا نسب التزاوج بين محلات حماة ، ثم بين القرى ، وكذلك بين حماة والقرى وبالعكس نتوصل الى معلومات هامة حول الانغلاق والانفتاح في الحياة الاجتماعية وتماثل سكان المحلات أو القرى في النواحي الاقتصادية والاجتماعية . وقد اعتمدنا نصوص عقود الزواج الواردة في المحكمة الشرعية من حيث الانتساب الى المحلة أو القرية لان العقد ينص في الغالب على انتساب الزوج أو الزوجة الى مكان جغرافي .

وبدراسة عقود الزواج بين سكان محلات حماة تتبين لنا الاحصاءات التالية :

عقود الزواج في حماة

محلات الازواج	عدد العقود	محلات الزوجات وعدد العقود
الباب	١	الباب ١
باب الجسر	٤	باب الجسر ١ ، التل (لعلها تل شرشر)١ الحاضر ١ ، غير معروف ١
باب الغربي	٢	باب الغربي ٢
باب القبلي	٢	باب الغربي ١ ، المدينة ١
تحت الشجرة	٢	المرابط ١ ، غير معروف ١
جامع القاق	١	العليليات ١
الجعابرة	١	المدينة ١
الحاضر	١	المرابط ١

الحوارنـــة	٤	الحوارنة ٢ ، المرجين ١ ، غير معروف ١
سيدي عبد الله	١	سيدي عبد الله ١
الصفصافــة	١	المرابط ١
العليليــات	٢	غير معروف ٢
العليليات التحتــا	٥	العليليات التحتا ٤ ، غير معروف ١
العليليات الشرقية	٣	العليليات الشرقية ٢ ، غير معروف ١
العليليات الفوقــا	١	العليليات الفوقا ١
المحالبــــة	١	غير معروف ١
المرابــط	٥	المرابط ٢ ، المحالبة ١ ، غير معروف ٢
المشـارقــة	٣	المشارقة ٢ ، المرابط ١
المنعزلــة	٥	المنعزلة٣، سيدي عبد الله ١، غير معروف١،
غير معروف	٢٨	باب الجسر ٤ ، الجمابرة ٣ ، العليليات الشرقية ٣ ، الحاضر ٢ ، سيدي عبد الله ٢ ، العليليات التحتا ٢، المنعزلة ٢، وعقد واحد من كل من : الباب ، باب القبلي، باب المغار ، تحت الشجرة، زقاق الوتارين (في محلة دار الغنم)(٧١)، الصفصافة ، العليليات ، العليليات الفوقا المرابط ، المشارقة .
المجمـوع	٧٣	٧٣

وهناك ستة وعشرون عقدا آخر لم تذكر محلاتهـا ، سواء بالنسـبة للازواج أو الزوجات ، ويبدو أنها لحمويين لانها لم تنسب الى قرى .

ويلاحظ في الجدول اعلاه ان أعلى نسبة زواج للازواج هي في محلات العليليات بمختلف اقسامها (١١ عقدا) تليها المرابط والمنعزلة (٥ لكل منهما) ، ثم باب الجسر والحوارنة (٤ لكل منهما) . وأعلى نسبة زواج للزوجات توجد في محلات العليليات بمختلف اقسامها (١٤ عقدا) ، ثم المرابط (٧ عقود) ، وباب الجسر والمنعزلة (٥ لكل منهما) ، وسيدي عبد الله (٤ عقود) .

وباستعراض التماثل بين محلات الازواج والزوجات نجد أنه في ٢١ عقدا من ٤٥ عقدا ذكرت فيها أمكنة الزوجين (أي بنسبة حوالي ٤٧٪) كان يتم الزواج بين سكان المحلة الواحدة ، وفي ٥٣٪ منها يتم الزواج بين محلات مختلفة مما يدل على عدم تقوقع جغرافي وعلى انفتاح اجتماعي وكذلك على خلفية اجتماعيــة واقتصادية متقاربــة بين الاحياء التي ترتبط بالزواج مع بعضها . وثمة ملاحظة أخرى وهي أن ارتفاع نسـبة

المتزوجين أو المتزوجات في محلة دون أخرى، كما في محلات العليليات بأقسامها والمرابط والمنعزلة وباب الجسر ، ربما يدل على كثرة سكانية في هذه المحلات .

وينطبق الاندماج الاجتماعي في المدينة على الارياف سواء فيما يتعلق بالزواج بين سكان القرى أو بين هؤلاء وسكان حماة وبالعكس . وتبين لنا الارقام التالية نسبة التزاوج بين سكان القرى :

عقود الزواج في القرى

قرى الازواج	عدد العقود	قرى الزوجات وعدد العقود
ادنين	١	الطيبة ١
ارجزى	٨	ارجزى ٦ ، بيرين ١ ، الظاهرية ١
اسكندرية	٢	الدجاجية ١ ، معردس ١
البرزولة	١	البرزولة ١
بطيما	٣	بطيما ٣
بيصين	١	بيصين ١
تمك	١	تمك ١
الحميرة	١	براق ١
الدجاجية	٤	الدجاجية ٤
دحسيس	١	دحسيس ١
دير سوار	٣	دير سوار ٢ ، رنتيس ١
دير شمايل	١	معر تقب ١
دير مرام	١	دير مرام ١
الربيعة	٢	الربيعة ٢
الرقيطا	٢	الرقيطا ١ ، كفر دحل ١
سوين	١	سوين ١
الشيحه	١	متنين ١
الظاهرية	١٠	الظاهرية ٧ ، ارجزى ١ الاساور ١ ، معر تقب ١
الطيبة الشرقية	١	ادنين ١
القصيعية	٢	ارجزى ٢
قمحانة	٣	قمحانة ٣
الكفر	٢	الكفر ١ ، معر دفتين ١
كفر حنين	٢	كفر حنين ٢
كفر الدوس	٤	كفر الدوس ٢ ، ارجزى ١ ، الجنان ١ ،
كيسون	٣	كيسون ٣

قرى الازواج	عدد العقود	قرى الزوجات وعدد العقود
المبطن	١	المبطن ١
متنين	١	زعتين ١
المشرفة	٢	المشرفة ٢
معر تقب	١	معر تقب ١
معر دفتين	١	معر دفتين ١
معر شحور	١	الصبورة ١
معرين	١	الكفر ١
نحناح	١	نحناح ١
نعيرين	١	نعيرين ١
النيحة	٢	النيحة ١ ، دنح ١
المجموع	٧٣	٧٣

يلاحظ في الجدول أعلاه أن قريتي ارجزى والظاهرية تتساويان في أعداد عقود الزواج فيهما والتي تبلغ ثمانية عشر في كل منهما (١٠ عقود أزواج وثمانية عقود زوجات بالنسبة للظاهرية و ٨ عقود أزواج وعشرة عقود زوجات بالنسبة لارجزى) . وتليهما بالنسبة لعقود الازواج الدجاجية وكفر الدوس (٤ لكل منهما) ، وبطيما ودير سوار وقمحانة وكيسون (٣ لكل منها) ثم اسكندرية والربيعة والرقيطا والقصيعية وكفر حنين والمشرفة والنيحة (٢ لكل منها) وهناك عقد واحد للقرية في تسع عشرة قرية . أما بالنسبة لعقود الزوجات فانه يلي ارجزى والظاهرية كل من الدجاجية (٥ عقود) وبطيما وقمحانة وكيسون ومعر تقب (٣ لكل منها) ، ثم دير سوار والربيعة وكفر حنين وكفر الدوس والمشرفة ومعر دفتين (٢ لكل منها) ، ثم تلي ست وعشرون قرية لكل منها عقد واحد . واذا كان عدد عقود الزواج يتناسب وعدد السكان فان أكبر القرى هي ارجزى والظاهرية ، تليها الدجاجية وكفر الدوس وبطيما وقمحانة وكيسون وهكذا بحسب تسلسل أعداد العقود .

ويلاحظ كذلك ان القرى الاقل في عقود الزواج تنحو للزواج من داخلها حصرا وهذا شأن أربع عشرة قرية من مجموع القرى البالغ سبعا وأربعين قرية ، أي بنسبة تقرب من ١٩٪ في حين ان النسبة الاكبر من القرى (حوالي ٨١٪) تتزاوج من داخلها ومع غيرها ، أو مع غيرها حين تكون أعداد العقود أحادية . وهذا دليل آخر من ريف حماة على عدم تقوقع القرى بغالبيتها على نفسها . ولهذه المصاهرة بين القرى أهميتها السياسية فضلا عن مدلولاتها في الترابط الاجتماعي والاقتصادي في الريف الحموي .

ويظهر مثل هذا الترابط بين حماة والريف في عقود الزواج بين الحمويين والريفيين وبالعكس كما في الجداول التالية :

زواج الحمويين من الريفيات

محلة الزوج	عدد العقود	قرية الزوجة
الحاضر	١	نقير الجلة
الجعابرة	١	متنين
العليليات	١	كيسون
العليليات الشرقية	١	الخالدية
المحالبة	١	الرقيطا
غير معروف	٥	الدجاجية ـ درقومية ـ الظاهرية ـ كازو ـ معر تقب
المجموع	١٠	١٠

زواج الريفيين من الحمويات

قرية الزوج	عدد العقود	محلة الزوجة
أكسيتلون	١	ــ
أيو	١	العليليات الفوقا
الرقيطا	١	ــ
قمحانة	١	العليليات الفوقا
المشرفة	١	ــ
معر سلم	١	جامع القاق
معر تقب	١	ــ
نعيرين	٢	الرحبة
المجموع	٩	٤ محلات و ٥ غير معروفة

وبالرغم من ضآلة عقود الزواج المتبادلة بين الحمويين والريفيين والتي لا تعدو ١٩ عقداً من مجموع ١٩٧ عقداً ، أي بنسبة ٩٫٦٤٪ فانها تدل على علاقات اجتماعية واقتصادية وربما تمازج سكاني ناتج عن هجرة من الريف الى المدينة وبخاصة لان معظم أحياء حماة التي تزاوج سكانها مع الريفيين مثل الحاضر والعليليات تقع خارج سور وأبواب المدينة ، ويشار اليها انها ظاهر حماة في حين ان التي داخل السور يشار اليها انها في نفس حماة كما في العبارات التالية : « جميع الدار الكائنة في نفس حماة في محلة باب المغار » أو « جميع الدار ظاهر حماة في محلة الحاضر »(٧٢) .

ويتجاوز الترابط الاجتماعي الحدود العرقية للسكان فالى جانب ثلاثة عقود زواج بين تركمان وتركمانيات نجد ثلاثة عقود زواج أخرى بين رجال حمويين ونساء تركمانيات . ومما يضفي على هذا البعد الاجتماعي أهمية خاصة أن معظم التركمان في هذه العقود الستة كانوا من طائفة البياضة التي أشير اليها أيضا طائفة بياضة حماة وهذا يعني تجاوز حتى حدود الطائفة القوية . وتؤكد عقود الزواج هذه ، من ناحية أخرى ، تواجد التركمان في منطقة حماة في هذا الوقت المبكر من الحكم العثماني الذي استخدمهم في الدفاع عن المناطق الآهلة ضد هجمات البدو من البادية .

ويلاحظ في عقود الزواج عموما أن عددا قليلا من الحالات لا يتجاوز الخمسة ،كما يبدو من الاسماء ، تمّ فيها الزواج بين أفراد يحملون الكنية ذاتها في القرية أو المحلة نفسها . وفي حالتين حدثت مصاهرة مزدوجة بين أسرتين .وفي حالة أخرى تزوج أخان من أسرة واحدة.وبالرغم من أنه يصعب الوصول الى احصاء دقيق نسبيا حول الزواج بين الاقرباء بسبب عدم توفر الكنية المحددة في غالب الاحيان فان الاتجاه الغالب في سجل حماة أن الزواج يقل بين أقرباء الدرجة الاولى سواء في الريف أو في المدينة ، أو ربما أن عقود الزواج بين الاقرباء هؤلاء تبقى ضمن الاسر المتقاربة ولا تسجل في المحكمة .

وثمة أمر آخر وهو انه في عقود الزواج كان الاب أو الاخ أو العم أو شخص آخر يزوج الرجل بالوكالة عنه كما في العبارة التالية : « زوّج عيسى بن عثمان من قرية قمحانة لموكله أخيه سويدان مخطوبة موكله سعدة بنت (عبد) القادر من القرية المذكورة البنت البكر البالغة فزوجها باذنها ورضاها وتوكيلها أخوها أحمد . . »(٧٣) . وفي عقود أخرى يزوج الشخص نفسه كما في العبارة التالية : « تزوج أحمد بن حسين من قرية اسكندرية لنفسه مخطوبته عايشة بنت عيسى بن عثمان من قرية الدجاجية . . »(٧٤). أما الخطيبة فهناك من يزوجها من أفراد أسرتها أو من غيرهم باستمرار تقريبا . وفي حالة واحدة زوجت امرأة ثيب نفسها (٧٥) . ويبين الجدول التالي نسبة من يتزوج بالوكالة أو بنفسه في حماة وفي الريف كما نصت على ذلك عقود الزواج بشكل واضح :

الزواج في حماة		الزواج في الريف	
بالوكالة	بالنفس	بالوكالة	بالنفس
١٦	٣١ = ٤٧	٤٧	٣٦ = ٨٣

يتبين أن نسبة الزواج بالنفس في حماة تبلغ حوالي ٦٦٪ وفي الريف ٤٣٫٣٧٪ مما يدل على سيطرة أسروية أكبر في الريف على الابناء وعلى تقاليد عائلية أكثر رسوخا وربما على صغر سن الزواج بأكثر من المدينة . ولعل كثرة الزواج «بالنفس» في حماة تدل على

استقلالية اقتصادية وبالتالي سكنية أكثر من الريف وكذلك على تجاوز سن البلوغ. ويلاحظ أن حـالات زواج القاصرين نادرة في حين انهـا توجد بنسـبة متدنيـة بين القاصـرات .

وتفيد عقود الزواج ، وبخاصة مبالغ المهور فيهـا (يسمى سـجل حماة المهـر بالصداق) ، في التعرف على مستويات هذه المهور في حمـاة وفي الريف التابع لهـا وفي مقارنة قيمة المهر الاقتصادية مع مستويات الاسعار السائدة فيمـا يختص بالعقارات والمواد الغذائية وغيرها . ويلفت النظر أن معظم المهور تحسب بالدراهم العثمانية وقلة منها لا تتجاوز ١٧ مهرا من أصل ١٩٧ تحسب بالدراهم الحلبية . وربما تفسير ذلك أن الاولى ذات قيمة مادية ومعنوية أكبر لانها معتمدة في أنحاء الدولة . ولهذا فسنحول الدراهم الحلبية الى دراهم عثمانية حيث وجدت وندرسها على شكل فئات من المبالغ كما في الجدول التالي :

فئـات المهـور بالدراهم العثمانيـة

فئات المتزوجين	تحت ١٠٠٠	١٠٠٠– ٢٠٠٠	٢٠٠١– ٣٠٠٠	٣٠٠١– ٤٠٠٠	٤٠٠١– ٥٠٠٠	٥٠٠١– ٧٠٠٠	فوق ٧٠٠٠	المجموع
زواج بين حمويين	٧	٣٢	١٤	٣٢	١٠	١	٣	٩٩
زواج بين ريفيين	١	٢١	٩	٢٣	١١	٧	١	٧٣
حمويون وريفيات	٢	٢	١	٣	–	٢	–	١٠
ريفيون وحمويات	–	٣	–	٤	١	–	١	٩
حمويون وتركمان	٢	١	–	–	–	–	–	٣
تركمـان	–	–	١	١	١	–	–	٣
المجمـوع	١٢	٥٩	٢٥	٦٣	٢٣	١٠	٥	١٩٧

يلفت النظر أن عقـود زواج الحمويين التي تتراوح مهورهـا بين ١٠٠٠ و ٤٠٠٠ درهم عثماني تشكل ٧٨ عقدا أي بنسبة ٧٨ر٧٨٪ مـن مجموع عقود زواجهم . أمـا عقود الريفيين ضمن فئات المهور ذاتها فتبلغ نسبتها ٦٠ر٧٢٪ مما يدل على أن عادات الريف الاجتماعية ومستوى المهور فيه لم تكن تختلف كثيرا عمـا كانت عليه في حمـاة بسبب التشابه في العادات والتقاليد وربما في المسـتوى الاقتصادي . وفي حين تكثـر عقود الحمويين التي يقل واحدها عن ألف درهم عثماني عن عقود الريفيين في هذه الفئة بنسبة سبعة الى واحد يحدث العكس في فئات المهور العليا التي تتجاوز أربعـة آلاف درهم عثماني اذ يتفوق فيها الريفيون بنسبة ٦٥ر٢٤٪ على نسـبة الحمويين البالغـة

١٤ر١٤٪ ، وربما يفسر ذلك بأهمية ارتفاع المهر في الريف من ناحية اقتصادية اذ يفيد منه أهل الفتاة .

أما المهور الاقل عن ألف درهم فهي بمعظمها تخص زوجات توفي أزواجهن ثم تزوجن من جديد ، ويشير سجل حماة الى الواحدة منهن بأنها ثيب . ويستثنى من ذلك عدد قليل جدا من النساء الثيبات اللواتي تتجاوز مهور زواجهن الجديد الالف درهم . ويلفت النظر ان هؤلاء النسوة تزوجن من جديد ، في معظم الحالات ، كما يذكر سجل حماة ، بعد وفاة أزواجهن بفترة تتراوح من أربعة أشهر ونصف الشهر الى سنة . وهناك بضع حالات تم الزواج فيها بعد سنتين أو ثلاث سنوات ؛ وفي حالة واحدة بعد ثماني سنوات . ويبلغ مجموع النساء الثيبات اللواتي تزوجن من جديد ٤٠ من مجموع المتزوجات البالغ ١٩٧ ، أي بنسبة ٣٠ر٢٠٪ . ومما يجدر ذكره انه ليس هناك من اشارة في السجل لعدد الزوجات . ويتبين من تركتين فقط وردتا في السجل أن المتوفى الواحد فيهما خلف زوجة واحدة .

ويلفت النظر أن زواج القاصرات لم يكن كبيرا فقد بلغ عددهن ٩ قاصرات بين مجموع عقود الزواج الـ ١٩٧ ، أي بنسبة حوالي ٥ر٤٪ مما يدل على الالتزام بقواعد اجتماعية سليمة . ويزداد وسطي المهر في حالة زواج القاصرات اذ يبلغ ٣٤٠٠ درهما عثمانيا وهو أعلى من وسطي المهر لدى الحمويين وأقل منه بين الريفيين .

ويلاحظ أن المهر يتساوى فيه تقريبا وسطي المعجل والمؤخر منه . ويمكن دراسة ذلك بالنسبة للحمويين والريفيين وفق الارقام التالية التي تقوم على دراسة تفاصيل المهر في كل عقد زواج ، وهي معطاة بالدراهم العثمانية . وقد أهملنا بعض المهور لعدم توفر التفاصيل فيها :

الفئة	العدد	مجموع المهور	الوسطي	مجموع المعجل	الوسطي	النسبة	مجموع المؤخر	الوسطي	النسبة
الحمويون	٩٣	٢٧٩٨٠٠	٣٠٠٩	١٣٧٢٤٠	١٤٧٦	٤٩ر٠٥	١٤٢٥٦٠	١٥٣٣	٥٠ر٩٥
الريفيون	٧٣	٢٦٠٤٢٠	٣٥٦٧	١٣٣٨٢٠	١٨٣٣	٥١ر٣٩	١٢٦٦٠٠	١٧٣٤	٤٨ر٦١

يتبين من هذه الارقام أن وسطي المهر عند الريفيين أكثر قيمة منه عند سكان حماة اذ يشكل عند هؤلاء الاخيرين ٨٤ر٣٦٪ منه عند الريفيين. ويفسر ذلك بكون المرأة في الريف عنصرا منتجا في الحياة الزراعية ولهذا تفيد أهلها وكذلك زوجها ، ومن هنا أهميتها التي تعكسها اهمية المهر . ويتأكد هذا في كون وسطي المعجل لدى الريفيين يزيد على نظيره بين الحمويين. ويبدو ان المعجل كان يأخذه كله أو بعضه أهل الفتاة(٧٦).

ولمعرفة القيمة الشرائية للمهر ، وبالتالي ما يشكله المهر من أعباء مالية قد تعيق عملية الزواج نجد في سجل حماة أن زوجا عوّض زوجته عن مهرها وقدره ثلاثون أشرفيا غوريا (عملة مملوكية) بجميع نصف الدار ظاهر حماة بمحلة الحاضر(٧٧). وفي مثال آخر عوّض يهودي زوجته عن مهرها المقدر بألف درهم عثماني بجميع الدار داخل حماة في محلة باب المغار . وبالرغم من اختلاف أسعار الدور من محلة الى أخرى فان مبلغ المهر الذي يشتري نصف دار أو دارا كاملة يدل على أهمية قيمته الشرائية. وتتأكد هذه الاهمية المالية بمقارنة قيمة المهر أيضا بأسعار المواد الغذائية كالحنطة مثلا ، فقد بلغ ثمن مكوك الحنطة حوالي ٣٢٠ درهما عثمانيا ، وحدد مكوك الشعير ب ١٢٨ درهما عثمانيا ، وبيع رأس الغنم ب ٤٠ درهما عثمانيا ، كما بيع رطل الصابون بعشرة دراهم عثمانية . وبلغ وسطي ثمن الحمار حوالي ٢٣٠ درهما عثمانيا ، والجمل حوالي ٧٤٠ درهما عثمانيا ، وعلى هذا فان وسطي المهر للحمويين والبالغ ٣٠٠٩ دراهم عثمانية يعادل حوالي ٣٠٠ رطل صابون ، وفي الريف حيث يبلغ المتوسط ٣٥٦٧ فانه يساوي حوالي ٩٠ رأس غنم ، أو ١١ مكوك حنطة أو ٢٨ مكوك شعير . ويصعب القول فيما اذا كانت قيمة المهر تتناسب ودخل الفرد . ولكن يبدو أن قيمة المهر ليست بقليلة اذا ما قورنت بقيمة أثاث البيت مثلا ، ففي احدى تركتين وردتا في سجل حماة قدّر سعر اللحاف ب ٨٠ درهما عثمانيا ، وفراشين أزرقين ٨٠ ، ومخدتين بقوالبهما ٤٠، وبساط ٤٠ ، وبساط آخر ٨٠ ، وطنفستين ٨٠ ، وأربعة صحون نحاس ٨٠ ، وطاستين نحاس ٢٠ و وقميص ٢٠(٧٨) .

وفي حين أن سجل حماة قد ذكر ١٩٧ عقد زواج فانه بالمقابل لم يسجل سوى ٢١ طلاقا . وتتأكد هذه القلة في قضايا الطلاق بقلة عدد المتزوجين بمطلقات . فهناك خمس حالات زواج بمطلقات من مجموع عقود الزواج. وكان وسطي مهر المطلقات ٢٤٨٠ درهما عثمانيا وهذا يفوق وسطي مهر المرأة الثيب ولكنه يقل عن وسطي المهر في حماة والريف. وبدراسة قضايا الطلاق هذه يتبين أن ١٨ منها تخص حمويين و ٣ تخص ريفيين . ويلاحظ أن ست حالات من الطلاق كانت بالمخالعة أي بالاتفاق بين الزوج والزوجة مقابل تخلي الزوجة عن مؤخر مهرها ونفقة عدتها . وتخص احدى حالات الطلاق هذه قرويا نصرانيا هو سالم بن سمعان بن معمر من قرية إلبية الذي اقرّ في محكمة حماة الشرعية انه طلق زوجته وجدة بنت عيسى بن سعيد النصرانية طلاقا باينا(٧٩) . ولم ندرج بين المطلقين في فترة دراستنا حالة اليهودية أستار بنت ابراهيم التي حضرت في مجلس الشريعة وقبضت من سليمان بن يوسف اليهودي الوكيل عن اخيه يعيش بن يوسف اليهودي مبلغ ٢٠٠٠ درهم عثماني عن متأخر صداقها على مطلقها يعيش لاننا لا نعلم فيما اذا تمّ الطلاق خلال الفترة التي يغطيها السجل او في وقت سابق كما توحي القضية (٨٠) .

وتطرح قلة قضايا الطلاق بالمقارنة مع كثرة عقود الزواج استنتاجات اجتماعية واقتصادية تتعلق بالاستقرار الاجتماعي والالتزام بقواعد اخلاقية مبنية على مبادىء الشريعة . وربما ساهمت أوضاع اقتصادية متواضعة لدى قطاع كبير من السكان في الحد من الطلاق لما يترتب عليه من مؤخر ونفقة عدة وغيرها وكذلك نفقات اضافية للزواج من جديد . ولا تتضح مدلولات هذه الظواهر الا باجراء مقارنة افقية مع مناطق أخرى من بلاد الشام وغيرها وكذلك بدراسة هذه الظواهر في فترات لاحقة من تاريخ حماة .

ومما يدل على التزام سكان حماة بصورة عامة بانضباط اخلاقي ذاتي قلة الجرائم وحوادث الاخلال بالامن والعبث بالاخلاق العامة التي ترد في سجل محكمة حماة الشرعية . فهناك ثلاثة حوادث قتل(٨١) ، وستة حوادث من التهديد بالسلاح أو الضرب (٨٢) ، وخمسة حوادث سرقة جرت جميعها في حماة وفي الريف التابع لها(٨٣). ويلاحظ في هذه القضايا أن سلاح القتل أو التهديد كان اما عصا أو سكينا أو خنجرا أو سهم نشاب ، ولا ذكر للبندقية مما يفسر بعدم انتشارها بين الناس بعد . والمهم في هذه القضايا أن المتخاصمين لجأوا الى المحكمة للنظر في قضاياهم دون أن يعمدوا للثأر بأنفسهم مما يدل على التزام السكان بقواعد العدل وعلى أهمية القاضي والقضاء في حياتهم واحترام الناس لهما وكذلك على قدرة القاضي على اقامة العدل .

وترد في سجل حماة سبع قضايا من شرب الخمر وفيها جميعها يذكر السجل أن الشارب أتى الى المحكمة واعترف بشربه الخمر طائعا وان رائحة الخمر موجودة فيه . وفي حالتين منهما اقترن شرب الخمر باعتداء أو جريمة(٨٤) . وحدثت أربع حالات زنى(٨٥) وذكرت قضيتا لواطة تمتا برضى الطرفين(٨٦) . وهناك حادث واحد يتضمن اتهاما برشوة لم تثبت ، وأربعة قضايا من الغش في الوزن في بيع اللبن والزيت ، ثم قضية بيع جلد جاموس فيه عيب وهو مشموس(٨٧) . ويدل نظر المحكمة في هذه الامور على أن الحس العام بالعدل والانضباط كان قويا لدى السكان والسلطة الدينية على حد سواء .

وترتبط بهذه القضايا مسؤولية الدولة في اقامة الامن . ويبدو أن المسؤول عن ذلك في حماة كان الصوباشي . وذكرت ثلاثة أسماء لصوباشية في سجل حماة في ثلاثة قضايا بتاريخ سلخ شعبان و ٢ ذي القعدة ٩٤٢ ثم في ٣ صفر من العام التالي . واذا لم يكن هناك أكثر من صوباشي واحد في حماة فان هذه الاسماء تدل على سرعة تبدل الصوباشي . ومما يؤيد هذا الاستنتاج أن ملتزمي مقاطعة العسسية في حماة وهم المسؤولون عن حراسة الدكاكين في الاسواق وبخاصة منها التي تسوق الاقمشة والسلع

الثمينة كانوا يلتزمونها لبضعة أشهر تراوحت بين أربعة وستة واحيانا لم يتمموا المدة. وكان يلتزم مقاطعة عسسية حماة شخص أو أكثر لقاء مبلغ من المال يدفع جملة أو شهريا . فقد جاء في سجل حماة بتاريخ ١٢ شعبان ٩٤٢ / ٥ شباط ١٥٣٦ أن ثلاثة أشخاص من محلة الجعابرة قبلوا مقاطعة رئاسة عسسية حماة من غرة شعبان ٩٤٢ الى تمام أربعة أشهر مقابل ١١٢٥ درهما عثمانيا عن كل شهر وتكافلوا بالمال والنفس وصدقهم وكيل الصوباشي (لم يذكر اسمه)(٨٨) . ويبدو أن هذا الالتزام لم يتم لان سجل حماة يذكر في سلخ شعبان ٩٤٢ / ٢٢ شباط ١٥٣٦ أن ثلاثة أشخاص من محلة الصفصافة التزموا رئاسة عسسية حماة بطريق المقاطعة من غرة شعبان ٩٤٢ الى تمام أربعة أشهر بأجرة اجمالية قدرها ٤٤٠٠درهم عثماني وتكافلوا بالمال والنفس وصدقهم وكيل الصوباشي مصطفى بن موسى(٨٩) . ويلفت النظر أن هذا الالتزام لم يتم لغاية الاربعة أشهر لان سجل حماة يذكر في ١٦ ذي القعدة ٩٤٢ / ٧ أيار ١٥٣٦ أن أحمد بن علي (لعله أحد الملتزمين الثلاثة من محلة الجعابرة) ومحمد بن يونس كان بعهدتهما رئاسة عسسية حماة بطريق المقاطعة من غرة شوال ٩٤٢ الى تمام أربعة أشهر لقاء ألف درهم عثماني شهريا وتكافلا بمعرفة قره مصطفى الصوباشي(٩٠). ويبدو أن خلافا دب بين هذين الشريكين اذ أن شكوى قدمت للقاضي في ٢٥ محرم ١٤/٩٤٣ تموز ١٥٣٦ من أن احمد بن علي رئيس العسسية بحماة كسر باب دكان صاحب الشكوى بدون حق ، وأثبت الشهود ذلك . ولعل هذا هو سبب تنحية أحمد بن علي عن العسسية لان محمد بن يونس ولعله شريك أحمد بن علي سابقا ولكنه يوصف الان أنه من محلة العليليات التحتا قد قبل في عهدته مقاطعة عسسية حماة من غرة شهر صفر ٩٤٣ الى تمام ستة أشهر مقابل ١٠٥٠ درهما عثمانيا بكفالة أحد الاشخاص من محلة المرابط وبمعرفة وكيل الاكز بن عبد الله الصوباشي(٩١) .

ومما يلفت النظر أن التزام العسسية كان يوصف بأنه « مقاطعة رئاسة عسسية حماة » أي أن هناك رئاسة واحدة للعسسية في حماة . واذا كان الامر كذلك فان تبدل هوية ملتزمي هذه المقاطعة قبل اتمام مددهم يدل على تخبط في تعيينهم وعلى صراع فيما بينهم الى أن أصبحت المقاطعة في عهدة ملتزم واحد . كما أن تأرجح مبالغ الالتزام لا بد وأن ينعكس على الرسوم التي يتقاضاها العسسية على الدكاكين التي يقومون بحراستها (٩٢) .

ولا نعلم بدقة علاقة ملتزمي العسسية بالصوباشي وفيما اذا كانوا خاضعين له بدليل حضور وكيل عنه في المحكمة ومصادقته على التزامهم . ولكن مما لا شك فيه أن تبدل الصوباشية والعسسية بهذا الشكل المتسارع وهم الذين يمثلون السلطة الامنية قد يكون دليل قوة او ضعف من جانب السلطة ومجالا للمنافسة والتعسف

من قبل هؤلاء الموظفين . ومهما يكن ، يبقى القاضي ممثل الشريعة الضمانة الاكيدة للشعب ضد أي سوء تصرف .

ويمكن القول ختاما أن ما يحفل به سجل حماة الشرعي من مظاهر اقتصادية واجتماعية يشكل رصدا دقيقا للاوضاع السائدة في حماة في أوائل الحكم العثماني . وتتمثل فيها التقاليد المحلية الراسخة في التعامل المالي والعلاقات الاجتماعية . ومن هنا أهمية هذه الفترة في اجراء دراسة مقارنة مع الفترات اللاحقة من الحكم العثماني لمعرفة التغيرات التي طرأت على هذه التقاليد المحلية والعلاقات الاقتصادية والاجتماعية ومقدار ما ثبت أو تبدل منها بفعل القوانين العثمانية .



الحواشـــي :

(١) لا يوجد تسلسل تاريخي للقضايا ضمن هذا الاطار الزمني . وليس مرد ذلك الى كتاب المحكمة الاصليين وانما الى العبث في ترتيب الصفحات لان الثغرات أو الانقطاع المفاجيء في تواريخ القضايا لا يقع ضمن الصفحة الواحدة وانما بين الصفحات مما يدل على أن أوراق هذا السجل قد رتبت خطأ قبل أن تجلد بشكلها الحالي في أوائل السبعينات من هذا القرن ، وأيضا قبل أن ترقم صفحاتها وقضاياها من قبل الباحث المرحوم عبد الودود محمد يوسف برغوث الذي يعود اليه الفضل في كونه أول من درس سجلات المحاكم الشرعية في بلاد الشام على الاطلاق وقد أشار الى ترقيمه صفحات وقضايا هذا السجل وغيره . حين كانت السجلات في حماة ، في رسالة الماجستير التي تقدم بها الى جامعة عين شمس وعنوانها: لواء حماة في القرن السادس عشر (من سجلات المحكمة الشرعية في حماة) نظام الحكم وبنية المجتمع (طبعت على الالة الكاتبة، ١٩٧٠) انظر ص١.

(٢) يضم السجل حسب ترقيم صفحاته وقضاياه ٤٢٦ صفحة و ١٢٠٣ قضية أو وثيقة ، كما يشير الى ذلك أيضا عبد الودود يوسف (ص٣) . ولكن نظرا للاخطاء في ترقيم الصفحات والقضايا (مثلا هناك قفزة من ص٣١٢ الى ٣١٨ بالرغم من تتابع أرقام القضايا في الصفحتين وهناك اخطاء في ترقيم القضايا ، زيادة أو نقصا ، في عدد كبير من الصفحات كما في ص ٣٧ و ٧٧ و ٨١ و ١٤٩ الخ ، ثم قفزة من وثيقة ٩٧٦ الى ٩٩٦ في صفحة ٣٥٢) فان أعداد الصفحات تصبح في الواقع ٤٢٠ صفحة وعدد القضايا يهبط الى ١١٥٦ قضية . ونظرا لكون أوراق القضايا بعد صفحة ٣٨٩ تالفة جزئيا ولا يمكن الاستفادة منها جميعها فان عدد القضايا التي استخدمناها فعلا في هذه الدراسة يبلغ ١٠٩٠ قضية.

(٣) انظر ما كتبه كـل من :

Jon E. Mandaville, « The Ottoman Court Records of Syria and Jordan», **Journal of American Oriental Society,** 86.3 (1966), p. 318; Bishara B. Doumani, «Palestinian Islamic Court Records : A Source for Socioeconomic History», **Bulletin,** Middle East Studies Association of North America, 19.2 (1985), p.156 .

(٤) لم يشر عبد الودود يوسف فيحواشي أطروحته الى هذا السجل الا لماما (في ١٤ حاشية من مجموع قدره ١٩٣ حاشية) لانه في دراسته لنظام الحكم وبنية المجتمع اطلع على حوالي ستة وثلاثين سجلا من حماة ، ويذكر عبد الودود أن سجل حماة الاول هذا واحد من مجلدين من القرن العاشر / السادس عشر يعنيان بضبوط ودعاوى المحكمة الشرعية (ومن هنا رمز اليه بحرف د) في حين انه أشار الى السجلات الاخرى بانها سجلات المحكمة الشرعية . وفي الواقع ليس هناك ما يبرر هذا التقسيم لان السجل الثاني من سجلات حماة يستمر في عرض الانواع ذاتها من القضايا التي يعالجها السجل الاول وان اختلف حجم الاوراق وبالتالي السجل .

(٥) انظر حول ذلك :

Roland C.Jennings, « Loan and Credit in Early 17 th Century Ottoman Judicial Records» , **Journal of the Economic and Social History of the Orient,** XVI (1975), pp . 183 - 187 ; Halil Inalcik , « Capital Formation in the Ottoman Empire » , **Journal of Economic History,** XXIX, on.1 (1969), pp.101-102.

(٦) محمد بن طولون ، مفاكهة الخلان في حوادث الزمان ، جزءان ، تحقيق محمد مصطفى ، القاهرة ، الدار المصرية للتاليف والترجمة ، ١٩٦٢ ، ١٩٦٤ ، جـ ٢ ، ص ٨٢ ، وانظر أيضا ص ١١٣ ، ١١٤ ، عبد الكريم رافق ، بلاد الشام ومصر ، ١٥١٦ ــ ١٧٩٨) ، دمشق ، أطلس ، ط ٢ ، ١٩٦٨ ، ص ١١٤ ، ١٢١ ، ١٢٥ .

(٧) انظر :

Halil Inalcik, **The Ottoman Empire, the Classical Age 1300 - 1600,** translated from Turkish by N. Itzkow itz and C. Imber , London . Weidenfeld and Nicolson, 1973, p. 106.

(٨) انظر :

Robert Mantran et Jean Sauvaget, **Règlements Fiscaux Ottomans , Les Provinces Syriennes,** Institut Farnçais de Damas, Paris, 6951, pp. 59, n. 2, 77.

ومن بين عدة اقوال متناقضة حول تاسيس ولاية طرابلس والحاق لواء حماة بها نذكر قول ستريبلينغ الذي يبني معلوماته على مصدر بندقي ــ والبنادقة كما يدلنا سجل حماة الشرعي قيد الدراسة كانوا يتاجرون مع حماة آنذاك ــ انه بعد القضاء على ثورة الغزالي قسمت سورية الى ثلاث ولايات (الشام وحلب وطرابلس) على يد ابراهيم باشا الذي ارسله السلطان سليمان الى مصر في ١٥٢٤ لتنظيم امورها واصدر فيها القانون نامه المعروف لعام ٩٣١ هـ آنذاك وتظم كذلك أمور الشام ، انظر :

George W.F. Stripling, **The Ottoman Turks and the Arabs, 1511 - 1574,** University of Illinois Press, Urbana, 1942, p. 71.

(٩) سجل حماة رقم ١ ، ص ١٠٦ ، ٢٨٠ ، ٣٤٥ (سنكتفي بالاشارة الى هذا المصدر انه سجل حماة). وهناك اشارة في سجل حماة بتاريخ ٢٦ محرم ١٥/٩٤٣ تموز ١٥٣٦ أن علاء الدين بن الخاصكي كفل نفس اخوته الى حين مجيء حضرة أمير الامراء عيسى باشا ويحضر لكفالة مقبولة (ص ١٢٨).

ولا يعلم من هو عيسى باشا هذا ولا أية ولاية او منصب كان يشغل آنذاك . ولا يتفق هذا التاريخ مع شغل « عيسى باشا » ، لولاية دمشق آنذاك (انظر : الباشات والقضاة لابن جمعة (نشر المنجد) ص ١٣ ، انظر ايضا ص ٧٣ وقد يكون واليا على حلب (انظر : الكواكب السائرة للغزي (نشر جبور) جـ٢ ، ص ٤٩ ، ١٣٦) ولكن لايعرف ذلك بدقة من در الحبب لابن الحنبلي .

(١٠) انظر تفاصيل شرعية ضافية حول القرض في حاشية محمد أمين الشهير بابن عابدين المسماة رد المحتار على الدر المختار (المعروفة اختصار بحاشية ابن عابدين) ، خمسة اجزاء ، القاهرة ، بولاق ، ١٢٧٢ هـ (طبعة مصورة عنها اصدار دار احياء التراث العربي ، بيروت ١٤٠٧/١٩٨٧) ، جـ٤ ، ص ١٧١ ـ ١٧٦ ، فصل في القرض . ولابن عابدين تكملة در المختار المسماة قرة عيون الاخيار، جزءان ، القاهرة ، المطبعة الميمنية ، ١٣٢١ هـ (أعيد تصويرها كالسابقة) . (ويراجع كذلك تحرير المختار لرد المحتار على الدر المختار المعروف باسم تقريرات الرافعي على حاشية ابن عابدين، لمؤلفه الشيخ عبد القادر الرافعي ، جزءان ، القاهرة، المطبعة الكبرى الاميرية ، ١٣٢٤ هـ (اعيد تصويره كالسابق .

(١١) ابن حجر المكي الهيتمي ، الفتاوى الكبرى الفقهية ، اربعة اجزاء ، القاهرة ، المطبعة الميمنية، ١٣٠٨ هـ ، جـ ٢ ، ص ٣٧٩ ، (أعيد طبعه من قبل دار الفكر ، بيروت ، ١٤٠٣/١٩٨٣) .

(١٢) انظر محمد أمين الشهير بابن عابدين ، العقود الدرية في الفتاوى الحامدية ، جزءان ، القاهرة ، بولاق ، ١٢٧٠ ، جـ ٢، ص٢٠٦ ،(أعيد طبعه من قبل دار المعرفة ، بيروت ، دون تاريخ) .

(١٣) انظـر :
H.A.R. Gibb and H. Bowen, **Islamic Society and the West.** vol. I in 2 parts, London, Oxford Universtiy Press, 1957, I.ii, pp. 49, 51.

(١٤) عبد الودود يوسف ، ص ٢٠٨ ، وانظر أيضا سجل حماة الشرعي ، رقم ٤ ، وثيقة ٨٢ قضية بتاريخ ١٢ جمادى الاولى ٩٥٥/(١٩ حزيران ١٥٤٨) .

(١٥) ابـن طولون ، مفاكهـة ، جـ ٢ ، ص ١٦ ، ٨١ .

(١٦) هذا الرقم مبني على سجل محكمة حماة الشرعية ، جـ ٤ ، وثيقة ٩٨ تاريخ ١٢ جمادى الثانية ٩٥٠/ (١٢ أيلول ١٥٤٣) . وأشكر السيد فلاديمير غلاسمان مدير مكتبة المعهد العلمي الفرنسي بدمشق الذي لفت نظري الى هذه الوثيقة .

(١٧) سجل حماة ، ص ٢٢٣ و ٢٣٢ . ويزن المكوك كما يقول عبد الودود يوسـف ص ٢٠٦ ، حوالي ٣٧٤ كـغ .

(١٨) يضم المكوك ستة عشر شنبلا ، ويزن الشنبل حوالي ٢٣،٣٨ كغ، انظر : عبد الودود يوسف، ص٢٠٦.

(١٩) انظـر :
Gibb and Bowen, I. ii. pp. 47;; Wolf-Dieter Hütteroth and Kamal Abdulfattah, **Historical Geography ofPalestine, Transjordan and Southern Syria in ihe late 16 th Century,** Erlangen , Erlanger Geographische Arbeiten, 1977, pp. 20-23,98.

(٢٠) سجل حماة ، ص ١٧٢ .

(٢١) سجل حماة ، ص ١٤٧ .

(٢٢) انظـر الحاشـية ٥ .
(٢٣) ابن عابدين ، الدر المختار ، جـ٤ ، ص ١٧٥ ، وانظر أيضـا حول المفتي أبي السعود :
Joseph Schacht, **An Introduction to Islamic Law**, Oxford University Press, 1964, pp. 90-91.

(٢٤) ابن عابدين ، العقود الدرية ، جـ ٢ ، ص ٢٠٤ .
(٢٥) سجل حلب الشرعي ، رقـم ٦ ، ص ١٠٧ ، قضية مؤرخة في ٢محرم ٩٩٤/(٢٤كانون الاول١٥٨٥).
(٢٦) انظر المصدر نفسه ، ص ١١٢ ، ١١٣ ، ١١٤حيث يبرز اسم الدائنسيدي عمر بنيحيى بن العوفي.
(٢٧) سجل حماة الشرع ي، رقم ٢٥ ، ص ٤٣٨ ، قضية مؤرخة في٣ ذي القعدة ٩٩٣ / (٢ تشرين الاول ١٥٨٥) ، وانظر بحثنا :
« Aspects of Land Tenure in Syria in the Early 1580 s » , in **Les Provinces Arabes à l'époque Ottomane,** ed. Abdeljelil Temimi (Actes du VIIe Congrès du CIEPO tenu à Cambridge en 1948) , Zaghouan (Tunis), 1987, p. 163.

(٢٨) سجل حماة ، ص ٢٣١ .
(٢٩) سجل حماة ، ص ٣٩٣ .
(٣٠) انظر مثلا : سجل حماة ، ص ١٩ ، ٩١ ، ٩٢ ، ٤٠٢ .
(٣١) نجم الدين الغزي، لطف السمر وقطف الثمر، جزءان ، تحقيق محمود الشيخ ، دمشق ، وزارة الثقافـة ١٩٨١ ـ ١٩٨٢ ، جـ٢ ، ص ٥٠٣ (وانظر أيضـا : المحسبي ، خلاصة الاثر ، جـ٢ ، ص ٣٧٨) . وانظر حول تكاليف الحج : عبدالكريم رافق ، « قافلة الحـج الشامي واهميتها في الدولة العثمانية » ، دراسات تاريخية ، عدد ٦ (١٩٨١) ، ص ٥ ـ ٢٨ .
(٣٢) انظر : سجل حماة ، ص ٣٥٩ ، قضية بتاريخ١ شعبان ٩٤٢/(٢٥ كانون الثاني ١٥٣٦) . وانظـر بشأن احتفاظ السباهي بقسم من ثمانية ،سجل حماة ، ص ٣٧٩ .
(٣٣) سجل حماة ، ص ١٣٦ ، ١٤٤ ، ١٤٧ ، ١٦٥ ، ٢٠١ ، ٢٥٤ ، ٣٣٠ .
(٣٤) سجل حماة ، ص ١٦٥ .
(٣٥) انظر مثلا : سـجل حماة ، ص ٩ ، ١١ ، ١٣ .
(٣٦) سـجل حماة ، ص ٢٥١ .
(٣٧) سـجل حماة ، ص ٣٧٧ .
(٣٨) سجل حماة ، ص ١٠٧ و ٢٠٩ .
(٣٩) قمنا بتحويل الاثمان التييعطيها السجل لبعضالسلع بالدراهم العثمانية الى ما يعادلها من الدراهم الحلبية التي تذكر معظم أثمان السلع بموجبهاوذلك لمعرفة الحجم الموحد للاثمان واخراج نسـبة واحدة لها . والسلع التي أعطي بعض اثمانهابالدرهم العثماني والحلبي معا هي الحبوب (٨٠٨٤٠ عثماني = ٢٠٢١٠٠ تضاف الى ١٩٠١٤٩ حلبيفيصبح المجموع ٣٩٢٢٤٩) والقطـن (٥٠٠٠ عثماني = ١٢٥٠٠ تضاف الى ٥٤٠٥٣ حلبـي فيصبحالمجمـوع ٢٦٦٥٥٣) ، والقماش (٣٧١٠ عثماني = ٩٢٧٥ تضاف الى ٢٧٠٨١٠ فيصبح المجموع٢٨٠٠٥٤) ، والحيوانات (١٠٤٥٠ عثماني = ٢٦١١٢٥ تضاف الى ٧١٨٤٣ حلبي فيصبح المجمـــوع٩٧٩٦٨) ، والسـلع الاخرى (١٥٧٦٧ عثمانـي = ٣٩٤١٧ تضاف الى ١٠٦٦٩٠ حلبي والـى ١٨قبرصي = ٢٢٨٨٠ حلبي فيصبح المجموع ١٤٩٣٩٥).
(٤٠) انظر الحاشيتين ١٧ و ١٨ .
(٤١) عبد الودود يوسف ،ص ٢٠٧ يذكر ان القنطاريعادل مائة رطل ويزن ٢٣٣ر٦٤ كغ .

(٤٢) سجل حماة ، ص ١٦٤ ، قضية بتاريخ ٢٢ رمضان ٩٤٢/(١٥ آذار ١٥٣٦)، وانظر أيضا ص١٧٢.
(٤٣) انظـر :

R.P.A. Dozy, **Dictionnaire Détaillé des Noms des Vétements chez les Arabes,** Amsterdam, 1843 (Librairie du Liban, Beirut), pp. 153 - 155; J.W. Redhouse, **Turkish and English Lexicon,** C'ple, 1890 (Librairie du Liban), p. 840.

(٤٤) انظر : سجل حماة ، ص ٣٩ ، قضية بتاريخ٤ شوال ٩٤٢/ (٢٧ آذار ١٥٣٦) .
(٤٥) تمّ تحويل الاثمان الواردة في السجل بالدراهمالعثمانية الى ما يعادلها بالدراهم الحلبية وذلك وفق مجموع أثمان كل سلعة على حدة كالتالي : الحبوب (٧١٦٠٠ عثماني = ١٧٩٠٠٠ + ٢١٣٢٤٩ حلبي ، المجموع ٣٩٢٢٤٩) والقطن (٥٠٠٠عثماني = ١٢٥٠٠ + ٥٤٠٥٣ حلبي المجموع ٦٦٥٥٣) والقماش (٣٧١٠ عثماني = ٩٢٧٥ + ٢٧٠٨١٠حلبي ، المجموع ٢٨٠٠٨٥) والحيوانات (١٠٤٥٠ عثماني = ٢٦١٢٥ + ٧١٨٤٣ حلبي ، المجموع٩٧٩٦٨) ، والسلع الاخـرى (١٥٧٦٧ عثمانـي = ٣٩٤١٧ + ١٠٩٩٧٨ حابي ، المجموع ١٤٩٣٩٥) .
(٤٦) انظر مثلا سـجل حماة ، ص ٥٦ ، ١٥٠ ، ١٩٢ .
(٤٧) سجل حماة ، ص ٢٢٣ ، ٢٣٢ .
(٤٨) سجل حماة ، ص ٢٠٣ .
(٤٩) سجل حماة ، ص ٢٩ .
(٥٠) سجل حماة ، ص ٢٤٥ .
(٥١) سجل حماة، ص ١٦٤ و ١٧٢ .وذكر في قضيةأخرى أن احد كبار التجار الحاج محمد بن النوام كان بذمته لتاجر أفرنجي يدعى « دمبيلكو بن فرنسيس الافرنجي » (هكذا ورد الاسم في السجل) أربعة عشر قنطارا دمشقيا من القطن المحلوج .وكان وكيل هذا التاجر هو أحمد بن شعبان الذي قبل في المحكمة كفالة أحد الاشخاص لذمة الحـاج محمد ، انظر سجل حماة ، ص ٢٦ .
(٥٢) سـجل حماة ، ص ٢٤٤ ، ٢٤٦ .
(٥٣) جـ٤ ، ص ٢٠٣ .
(٥٤) سجل حماة ، ص ٧٩ .
(٥٥) حاشـية ابن عابدين ، جـ ٤ ، ص ١٧٦ .
(٥٦) سجل حماة ، ص ٢٢٨ .
(٥٧) انظر حول الرهن : سجل حماة ، ص ١٠٠ ، ٢٠٣ ، ٢٢٤ .
(٥٨) انظر كامثلة : سجل حماة ، ص ١٦ ، ١٧ ، ٤٦ ، ٥٤ ، ٥٩ ، ١٨٦ ، ٢١٣ ، ٢٥٠ .
(٥٩) حاشـية ابن عابدين ، جـ ٤ ، ص ٢٥٣ – ٢٥٩ .
(٦٠) سجه حماة ، ص ٨٦ .
(٦١) سجل حماة ، ص ٢٤٧ ، ٣٦١ .
(٦٢) سجل حمـاة ، ص ٣٧١ .
(٦٣) سجل حماة ، ص ١٥١ ، ١٥٩ .
(٦٤) سجل حماة ، ص ١٥٣ .
(٦٥) سجل حماة ، ص ١٢٦ .
(٦٦) سجل حماة ، ص ١٢٠ .

(٦٧) انظر شروط الزراعة ومواسمها في بلاد الشام في : عبد الغني النابلسي ،علم الملاحة في علم الفلاحة، بيروت ، دار الافاق ، ١٩٧٩ ، ص ١٠٩ .

(٦٨) Antoine Abdel Nour, **Introduction à l'Histoire Urbaine de la Syrie Ottomane (XVIe-XVIIIe siècle),** Beyrouth, Librairie Orientale, 1982, p. 74; Pierre Chaunu, « Démographie Historique et systeme de civilisation», **Mélanges de L'Ecole Francactse de Rome, Moyen Age Temps Moderns,** t. 86 (1974), 2, pp. 301-321.

(٦٩) Abdel Nour, p. 74.

(٧٠) انظـر حـول ذلك :

Ömer Lutfi Barkan, « Essai sur les Données Statistiques des Registres de Rencessement dans l'Empire Ottoman aux Xve et XVIe siècles», **JESHO, vol. 1, pt. 1 (August** 1957), pp, . 9-35.

(٧١) هكذا ينسب زقاق الوتارين الى محلـة دارالغنم ، عبد الودود يوسف ، ص ٦٥ .

(٧٢) سجل حماة ، ص ٢١ ، ٢٤٥ .

(٧٣) سجل حماة ، ص ١٨٢ .

(٧٤) سجل حماة ، ص ١٧٣ .

(٧٥) سجل حماة ، ص ٣٢ .

(٧٦) انظر مثلا سجل حماة ، ص ٣٠٤ .

(٧٧) سجل حماة ، ص ٤٨ .

(٧٨) سجل حماة ، ص ٢٥٥ .

(٧٩) سجل حماة ، ص ٣٧٢ .

(٨٠) سجل حماة ، ص ١١٧ .

(٨١) سجل حمـــاة ، ص ٨٧ ، ١٦١ ، ١٦٣ ، ٣٨٢ .

(٨٢) سجل حماة ، ص ٩٦ ، ١٢٧ ، ١٢٩ ، ٢٠٨ ، ٢٣٣ ، ٣٦٨ .

(٨٣) سجل حماة ، ص ٢٠٩ ، ٢٢٣ ، ٣٥٧ ، ٣٩١ ، ٤١٦ .

(٨٤) سجل حماة ، ص ١٢٩ ، ٢٨٢ ، وانظر أيضاص ٥٢ ، ١٢٥ ، ٢٧١ .

(٨٥) سـجل حمـــاة ، ص ٨٥ ، ٩٨ ، ٣٠٩ ، ٣١٢ .

(٨٦) سجل حماة ، ص ٩٣ ، ٩٤ .

(٨٧) سجل حماة ، ص ١٠٠ ، ١١٩ ، ٢٢٥ ، ٣٥٠ ، ٣٧٧ .

(٨٨) سجل حماة ، ص ٣٨٦ .

(٨٩) سـجل حماة ، ص ٢٥٧ .

(٩٠) سجل حماة ، ص ٤٧ .

(٩١) سجل حماة ، ص ١٤٢ .

(٩٢) حدد هذا الرسم في قونية مثلا بمقدار درهـمشهريا كما جاء في قانون نامه محمد الفاتح ، ولكـن العسس استبعدوا من قونية بطلب اصحاب الدكاكين ، انظر : خليل ساحلي اوغلي ، « قانـون نامه آل عثمان » ، مجلة دراسات ، الجامعة الاردنية ، مجلد ١٣ ، عـدد ٤ (١٤٠٦ / ١٩٨٦) ص ١٨٧ . وانظر ايضـا :

Cibb and Bowen , I,ii, P. 8 n. 4 , See also : I. i , P. 291 .

١٧١

بكر عبيد صناع وغيرهم السلطان شاه بنت شاه ... في الدعوى مع عثمان الخنجر لخصوص قتل والده صنانا الدوي ... والاثبات وقد حضرت ... وكان ذلك في عشر جمادى سابع سادس عشر ... شهر رمضان سنة اربع اربعين وتسعمائة

شهود ذلك

محمد الدوادار الناصري محمد عبد الله ...

نظام

تزوج فرج ... فرج ... الدنيا مخطوبة فاطمة ... بنت ... والمحل العلية ... البكر البالغ زوجها باذنها ورضاها ... على الصداق ... على صداق قدره العاجل ... كحل ... الصالح ... مبلغ الوزن ... والباقي ... الحلول ... الكاين ... على ... ومحل ... والرابع ... على ... ومسعود ... سابع سادس عشر شهر رمضان سنة اربع اربعين وتسعمائة

شهود ذلك

محمد ... الناصري ...

تزوج احمد ... لنفسه مخطوبته عائشة بنت عيسى ... البكر البالغ العاقل زوجها باذنها ورضاها ... والدها ... على صداق ... الاول ... مبلغ ... الباقي ... الحلول ... الكاين ... الزوج ... ابي بكر ...

١٧٢

... في مجلس الشرع المطهر الحاكم ... في ... عليه ... الحكم ... عثمان ... بالاقرار ... عدل ... سابع سادس عشر ... شهر رمضان سنة اربع اربعين وتسعمائة

شهود ذلك

عبد الله ... الحاج عمر ...

... في مجلس الشرع المطهر ... الحاج محمد ... الدين ... واقر ... على ... عثمان ... المعاملة ... القاضي ... في مجلس ... مبلغ ... على ... الزوج ... والباقي ... عشر ... الشرعي ... الثاني ... اربع ... على ... سابع سادس عشر ... شهر رمضان سنة اربع اربعين وتسعمائة

شهود ذلك

الحاج ... عبد الله ... اللوس ...

النشاط الصهيوني في العراق
خلال فترة الانتداب البريطاني

د. هشام فوزي حسني عبدالعزيز
الجامعة الاردنيــة

تعد الطائفة اليهودية في العراق من اقــدم الطوائف اليهودية في العالــم . وقــد تمتعت في ظل الحكم الاسلامي بالحرية والتسامح الديني ، ولقيت من المسلمين معاملة حسنة كانت افضل واكرم مما لقيته من حكــام العراق قبل الفتح الاسلامي ، ومــن الشعوب الاخرى . وخلال الفترة العثمانية (١٥٣٤ ــ ١٩١٨) كان وضــع اليهود في العراق حسنا ومرضيا ، ولهم منزلة اقتصادية مهمة في ميدان الاستيراد والتصدير ، وفي السوق المحلية ، والمصارف . كما كان لهم ممثلون في المجالس الاداريــة المحليــة والخارجية ، وتقلد بعضهم مناصب سياسية رفيعة المستوى .

وتميز يهود العراق بالنشاط في الميدان الثقافي والتربوي ، نظرا لانتشار المدارس اليهودية ، بالاضافة الى وجود عدد من يهود العراق درسوا في جامعات بريطانيا وفرنسا وتركيا وايران ، وكانت لهم جرائد ومجلات ومطابع خاصة بهم .

وقد اندمج اليهــود بالمجتمع العراقي واصــبحوا جزءا منه ، وتمتعوا في الوقت نفسه بحرية واسعة في ادارة شؤونهم الذاتية عن طريق مجالسهم الخاصة التي تشرف على الشؤون الدينية والدنيوية ، وتنظم علاقاتهم بالمجتمع والدولة .

وخلال الفترة التي عاش فيها اليهــود في العراق عبروا عــن علاقتهم بفلســطين بالصلوات وبانتظار المسيح والخلاص ، شأنهم بذلك شأن بقية اليهود المنتشرين في كــل أنحاء العالم . وكان بعض المبعوثين الدينيين من الحاخاميين قد قصدوا العــراق ، في أواخر الفترة العثمانية ، لجمع التبرعات لصالح المؤسسات الدينية في المدن المقدسة الاربع : القدس ، والخليــل ، وطبريا ، وصفد(١) . وهاجر عــدد من يهود العراق الى البلاد المقدسة، بدافع ديني ليس إلا ، اذ ان الصلة الدينية التاريخية مع البلاد المقدسة لم تنقطع منذ اجلاء اليهود من فلسطين الى بلاد ما بين النهرين ، في القرن السادس قبل الميلاد(٢) . وفي عام ١٨٥٤ ، انتظم قسم من طلاب المدارس الدينية اليهودية في العراق واسرهم في مجموعة هاجرت الى فلسطين لايمانهــا بأن الاستيطان فيها سيقرب يــوم الخلاص(٣) .

ويمكن القول بأن بداية النشاط الصهيوني في العراق ، تعود الى أواخر العقد الاخير من القرن التاسع عشر ، وتمثلت ، آنذاك ، بقراءة بعض الصحف اليهودية التي كانت تصل الى العراق ، وتحتوي على أنباء ما يجري في فلسطين ومختلف أنحاء العالم . وفي تلك الصحف وقف يهود العراق ، لاول مرة ، على التنظيمات الصهيونية في أرجاء أوروبا ، فنشأت بهذا صلات مبكرة بين يهود العراق والصهيونية(٤) . وعلى الرغم من وجود نشاط صهيوني في العراق قبل الانتداب البريطاني ، الا أن ذلك النشاط بقي محدودا ومحصورا في بعض الافراد ، والمجالات ذات الطابع الصهيوني ، مثل انتشار بعض المبادىء والافكار الصهيونية ، وظهور جمعيات صهيونية متفرقة ، هنا وهناك ، كانت ما تلبث أن تنهار . اضافة الى ما سبق ، تبرع بعض اليهود بمبالغ ضئيلة الى مؤسسات صهيونية . كما قامت بعض المحاولات الصهيونية الفاشلة لانشاء وطن قومي لليهود في جنوب العراق ، في العقد الاول من القرن العشرين(٥) .

وثمة عوامل عديدة ساهمت في تحجيم النشاط الصهيوني وعدم افساح المجال أمامه في العراق ، قبل الانتداب البريطاني ، ولعل من اهمها معارضة الدولة العثمانية، بشكل عام ، وعدم التجاوب الكبير من عامة اليهود مع هذا النشاط(٦) .

ظهور المنظمات الصهيونية أثناء الانتداب البريطاني :

في بداية ١٩٢٠ وضع العراق تحت الانتداب ، وخضع للسيطرة البريطانية ، بين عامي ١٩٢٠ ــ ١٩٣٢ ، وقد أتاح ذلك المجال للحركة الصهيونية بأن تنشط(٧) وساعد على ذلك وجود طائفة يهودية كبيرة تقيم في أهم المدن العراقية لها امكانات اقتصادية كبيرة (٨) . فأصبحت الحركة الصهيونية في العراق أكثر فاعلية وتنظيما وقوة ، مما سبق . وظهرت التظيمات الصهيونية وكانت على اتصال مباشر بالمؤسسات الصهيونية العالمية ، كما برزت النشاطات الصهيونية المختلفة في المجال الثقافي والتعليمي ، اضافة الى التوظيفات المالية من يهود العراق الى الجهات الصهيونية ، ثم الهجرة اليهودية الى فلسطين .

وفي ١٥ تموز عام ١٩٢٠ سمحت سلطات الانتداب البريطاني في العراق لمجموعة صهيونية في بغداد بتأسيس جمعية ذات مظهر اجتماعي ، تسمى « الجمعية الادبية الاسرائيلية » ، ولكنها في الواقع ، كانت جمعية ذات أهداف صهيونية ، كما يستدل من نشاطاتها المختلفة . وترأس الجمعية الادبية ضابط يهودي عراقي كان في عداد الشرطة البريطانية ، واسمه سلمان حيا ، وكان ذا شخصية جذابة ، وله نفوذ ليس في جهاز الشرطة فحسب بل في صفوف الطائفة اليهودية في بغداد ايضا(٩) . وكانت هذه

الجمعية تهدف الى تعليم اللغة العبرية والادب العبري ، ومجد اسرائيل ، وتقديم المساعدات المالية للمنظمات والمؤسسات الصهيونية . ومن أجل ذلك فتحت نادياً ومكتبة صهيونية(١٠) . وفي شهر تشرين الثاني من عام ١٩٢٠ ، القيت في نادي الجمعية ١٤ محاضرة في مواضيع صهيونية مختلفة ، وبلغ عدد أعضاء الجمعية الادبية الاسرائيلية ، آنذاك ، ٧٠٠ عضو(١١) .

وأصدرت الجمعية صحيفة « يشورون » Yeshurun (الاستقامة) باللغتين العربية (وبحروف عبرية) والعبرية ، وقام باصدارها صيون ادرعي ، ويعقوب معلم نسيم ، والياهو ناحوم ، واستمرت في الصدور بين عامي ١٩٢٠ — ١٩٢١(١٢) . ويستدل من قصيدتين لاهارون ساسون*، بأن مجلة « يشورون » ، كانت تتضمن دعاية صهيونية ، ففي العدد الاول من المجلة ، نشرت هذه القصيدة لساسون :

وفي العدد الثالث نشرت له :

يا ابنة بابل !
جرحي هذا لا يندمل !

لا تتركي لغة الآباء
وليس له ضماد في المهجر !

تعلمي لغتك العبرية
خذني الى الوطن !

ولا تكوني هزاة للشعوب
فهناك تجد الضماد (١٣) !

وفي ١١ كانون الاول ١٩٢٠ أغتيل سلمان حيا (١٤) ، رئيس الجمعية الادبية الاسرائيلية . وبعد فترة وجيزة من وفاة سلمان ، نشب خلاف بين مجموعتين في الجمعية ، حول طريقة الادارة ، الا أن الجماعة الاكثر حماسا للاتجاهات الصهيونية ، والتي تشكل الاغلبية ، انفصلوا عن الجمعية(١٥) وأسسوا جمعية جديدة تحمل اسما صهيونيا صريحا ، هو « الجمعية الصهيونية في بلاد ما بين النهرين — بغداد » ، تقدموا بطلب تأسيسها الى المندوب السامي البريطاني ، في٢٢ شباط ١٩٢١ ، وفي الخامس من آذار ١٩٢١ وافق المندوب السامي البريطاني على تأسيس الجمعية الصهيونية ، وهي فرع تابع للوكالة اليهودية في فلسين « ويعتبر هذا التاريخ ، تاريخ الانشاء الرسمي

---

* من وجهاء يهود بغداد . عمل في التدريس وتزعم النشاط الصهيوني حتى أبعدته السلطات الوطنية عام ١٩٣٥ . انظر سلمان درويش ، ص ٣١ — ٣٣ .

للجمعية الصهيونية الوحيدة في العراق ، التي أذنت لها السلطات بأن تظهر تحت اسمها الصهيوني ، دون تمويه وتستر »(١٦) .

وتكونت الهيئة الادارية « للجمعية الصهيونية في بلاد ما بين النهرين ـ بغداد »على الشكل التالي :

الرئيس : أهرون ساسون
نائب الرئيس : يوسف الياس غباي
السكرتير : مويز مئير
المدير المالي : سلمان شينه

وبعد برهة من الوقت استقال سكرتير الجمعية ، وحل مكانه بنيامين الياهو بنيامين . وكان يساعدهم بعض الشبان اليهود ، من حين الى آخر منهم ، يهوشع بطاط ، وأبراهام بينو ، وروبين سوميخ(١٧) .

وفي منتصف عام ١٩٢٢ ، صدر في العراق قانون الروابط والنقابات ، الذي نص على أنه لا يجوز لأي رابطة أو جمعية الظهور أو العمل في العراق بدون موافقة رسمية من وزير الداخلية العراقي ، ووفقا لذلك قدم أهرون ساسون ، في ٢٢ آب ١٩٢٢ ، طلبا لتجديد ترخيص « الجمعية الصهيونية في بلاد ما بين النهرين » ، ولكن وزير الداخلية ، عبد المحسن سعدون ، رفض تجديد رخصة الجمعية الصهيونية ، ويدعي يوسف مئير بأن السعدون قد أوضح لاهارون ساسون : « بأنه على الرغم من معرفته بأن يهود فلسطين يحققون التقدم للمنطقة ، وأن ذلك يعتبر لمصلحة العرب ، أيضا ، الا أن العراق بوصفه بلدا عربيا لا يستطيع السماح ، رسميا ، بنشاط يتناقض مع المصلحة العربية . . . »(١٨)

وبعد الضغط الذي مارسته المنظمة الصهيونية العالمية على وزارة المستعمرات البريطانية ، تم التوصل الى اتفاق تتغاضى السلطات البريطانية بموجبه عن وجود الجمعية الصهيونية في بغداد ، بشرط أن تمارس نشاطاتها بصورة خفية وسرية (١٩) .

وفي نيسان ١٩٢٢ بعث الدكتور ارئيل بن صيون ، وهو يهودي من فلسطين ومبعوث للكيرين هيسود (٢٠)keren Hayesod الى البلاد الشرقية ، برسالة الى رؤسائه في لندن ، جاء فيها أنه قام بزيارة للمندوب السامي البريطاني في بغداد ، وهذا « حذرنا من التفوه بأمور قد تلحق ضررا بعلاقات اليهود بغيرهم »(٢١) . وكانت السلطات البريطانية تلفت نظر الصهاينة ، من حين الى آخر ، الى وجوب الحفاظ على أن يكون

النشاط الصهيوني سريا وخفيا ، لان الجو العام في العراق ، لا يسمح باظهار هذا النشاط علانية(٢٢) . ونتيجة لذلك يقول حاييم كوهين : « في الفترة التي نعمت فيها الجمعية (الصهيونية في بلاد ما بين النهرين ـ بغداد) بترخيص من السلطات ، لم تعمل هذه ، علنا ، باسمها الكامل ، فقد عرضت نشاطها باسم الجمعية الادبية الاسرائيلية ؛ فتحت هذا الاسم نشرت اعلانات المكتبة التابعة للجمعية ، كذلك فقد استعملوا هذا الاسم عندما أخذت الجمعية الصهيونية على عاتقها تمويل مسرحية بالعبرية عرضت علنا . . . »(٢٣) .

أما الاسم الصريح للجمعية ، فكان يستعمل عند مراسلة المؤسسات الصهيونية خارج العراق ، فقط(٢٤) . مارست الجمعية الصهيونية ، نشاطا صهيونيا متشعبا ، وواسع النطاق . اذ بثت المبادىء والافكار الصهيونية بين أفراد الطائفة اليهودية، ذلك عن طريق مادة اعلامية باللغة العبرية واللغات الاجنبية،طلبت من المؤسسات الصهيونية في فلسطين وبريطانيا . وعقدت مؤتمرات اعلامية في المناسبات والاحتفالات الصهيونية، اضافة الى نشر اللغة العبرية بين اليهود . بتنظيم دورات خاصة ، من أجل اعدادهم صهيونيا وتهجيرهم الى فلسطين للمساهمة في بناء « وطنهم القومي » المزعوم (٢٥) .

وفي سنوات العشرينات تكونت في العراق تنظيمات صهيونية سرية أخرى ، كانت تابعة للمنظمة الصهيونية العالمية ، وهي :

١ ـ الجمعية الصهيونية في بلاد ما بين النهرين ـ البصرة(٢٦) .

٢ ـ جمعية شبان ابناء يهودا في بغداد ، وهي الجمعية التي تشرف على شؤون الكيرن كييمت .

٣ ـ مندوب جمعية شبان أبناء يهودا في خانقين ، أي ممثل الكيرن كييمت في خانقين .

٤ ـ مندوب جمعية شبان ابناء يهودا في أربيل (ممثل الكيرن كييمت في أربيل) .

٥ ـ مندوب جمعية شبان أبناء يهودا في العمارة (ممثل الكيرن كييمت في العمارة)(٢٧)

وفي مدينة البصرة كان النشاط الصهيوني محدودا وغير منتظم ، ويعزى عدم نجاح النشاط الصهيوني في البصرة الى عدم موافقة الحكومة العراقية على منح التنظيمات الصهيونية في البصرة ترخيصا رسميا لمزاولة أعمالها ،وردود الفعل الوطنية في مدينة البصرة المعادية للنشاط الصهيوني ، وأخيرا عدم تجاوب الكثير من يهود البصرة مع هذا النشاط (٢٨).

واقتصر النشاط الصهيوني في مدن أربيل وخانقين والعمارة على جمع التبرعات المالية للمؤسسات الصهيونية ، ولم يمارس في هذه المدن نشاط آخر (٢٩) .

النشاط الصهيوني في المجال الثقافي والتربوي :

المدارس : لعبت مدارس الاليانس دورا بارزا في بث المبادىء والافكار الصهيونية بين طلابها ، وكانت تركز على دراسة اللغة العبرية والتاريخ اليهودي . يقول أنور شاؤل ، أحد طلاب مدرسة الاليانس في بغداد آنذاك : «ومن معلمي اللغة العبرية قدرت وأحببت فيمن عرفت منهم أستاذنا (الحاخام حزقيل شموئيل) ... وكنت أترقب، بفروغ صبر ، درسه عن التراث الاخلاقي اليهودي المتمثل بأقوال كبار حاخامينا من مختلف العصور وبأمثالهم وقصصهم الحكيمة ... »(٣٠). ومما لا شك فيه بأن ذلك أدى الى التشبث بالتاريخ اليهودي ، ودراسة التاريخ في مدارس الاليانس كان يشمل تاريخ العالم بوجه عام والفرنسي واليهودي بوجه خاص ، ويتابع شاؤل قوله : « وكان لأستاذ التاريخ اليهودي أسلوبه الخاص في شرح الاحداث الجسام التي واكبت هذا الشعب الفريد ،في صعوده وهبوطه ، وصراعه عبر آلاف السنين ،وكان يكشف أحيانا، عما وراء الاحداث ... وقرأ لنا مرة ما قاله المؤرخ الشهير (كراوتز) في خراب البيت الثاني ، وانهيار دولة الشعب اليهودي على يد الرومان، وكيف ختم المؤرخ بحثه بقوله: هكذا حوّم النسر الروماني على تراث اسرائيل ، وظل يداور فريسته ، ويصاولها حتى انقض عليها ، منشبا فيها أظفاره ، ليغادرها آخر الامر جثة مثخنة بألف جرح »(٣١).

أما أهرون ساسون فقد تابع مسيرته الصهيونية بنشر الافكار والمبادىء الصهيونية بين تلامذة مدرسة **« راحيل شحمون »** ، ولما طلبت منه اللجنة المشرفة على المدارس اليهودية الامتناع عن نشر آرائه الصهيونية بين التلاميذ استقال من المدرسة المذكورة (٣٢) . وبتأثير من أهرون ساسون هاجر ، بين عامي ١٩٢٠ ــ ١٩٢٣ ، عدد كبير من طلاب مدرسة « راحيل شحمون » الى فلسطين . كما أن وجود عضوي الجمعية الصهيونية في بلاد ما بين النهرين ــ بغداد ، في المدرسة المذكورة : يعقوب نيسيم ، الذي كان مديرا لها حتى ١٩٢٧ ، وموريز مئير ، الذي تولى ادارة المدرسة بعد يعقوب معلم ، أثر كبير في تثقيف الطلاب ، تثقيفا صهيونيا(٣٣) .

وفي عام ١٩٢٤م افتتح أهرون ساسون مدرسة خاصة به ، اسمها « فردوس الاولاد » ، كانت في بدايتها تضم خمسة صفوف ، يدرس فيها ٢٥٠ طالبا ، وفي عام ١٩٢٥ ، بلغت صفوفها سبعة صفوف فيها ٣٥٠ طالبا يتشربون الروح القومية الصهيونية (٣٤) . ثم اخذت مدرسة « فردوس الاولاد » بالتوسع ، فزيدت عليها صفوف ابتدائية (الثاني والثالث) ، يقول سلمان درويش : « واتخذها (ساسون)

مقرا لنشر الدعاية الصهيونية ، بصورة أعم واوسع ، وسار على المنهج المتبع في مدارس اليهود في فلسطين »(٣٥) .

وكانت الطائفة اليهودية في العراق حريصة على جلب المعلمين الاجانب الى مدارسها ، بتأثير من الجمعية الصهيونية ، ومن أوائل يهود فلسطين الذين قدموا للتدريس في مدارس الطائفة اليهودية ببغداد « صيون ادرعي » ، وذلك في أوائل العشرينات (٣٦) . وفي عام ١٩٢٤ قدم بغداد معلم يهودي من فلسطين ، هو موشيه سوفر ، الذي ولد في بغداد وهاجر الى فلسطين مع والديه ، فعين في مدرسة « راحيل شحمون » ، لتدريس اللغة العبرية (٣٧) . وفي صيف ١٩٢٦ ، قدم من فلسطين الى العراق خمسة معلمين ومعلمتان لتدريس اللغة العبرية في مدارس الطائفة اليهودية (٣٨) . ووجهت الحركة الصهيونية أنظارها الى مدينة الحلة ، خاصة في عام ١٩٢٦ ، بعد ان أوفدت من فلسطين اليهودي الدكتور نسيم ملول لادارة المدرسة هناك ، فقام بنشاطه الدعائي والتنظيمي للصهيونية ، وبعد عام واحد استقال من التدريس في المدينة (٣٩) .

ولعل المعلم اليهودي ابراهام روزن ، الذي وصل الى العراق قادما من فلسطين عام ١٩٢٩ ، من أهم المدرسين الصهيونيين في العراق ، اذ بدأ التدريس في مدرسة شماش فقام بتدريس التوراة واللغة العبرية والادب العبري الحديث (٤٠) .

يقول يتسحاق بونفيس ، الذي درس في مدارس الطائفة اليهودية في بغداد ، بين عامي ١٩٢٠ - ١٩٣٠ :

« منذ ١٢ عاما ، ادرس اللغة العبرية في شتى انحاء المهجر . . . وأعتقد انني اقوم بواجبي ، وابذل قصارى جهدي لمصلحة مشروعنا المقدس . . . وفي الدعاية التي أقوم بها بين أوساط الشبيبة . ان المكتب الرئيسي (للكيرن كييمت) يرى بأم عينيه نتائج أعمالي ، غير انه لا يعرف اليد الخفية التي تعمل لمصلحته هنا في بغداد ، عاصمة العراق ، وضواحيها . ان رؤوبين سومخ ويهوشع بطاط من طلابي ، وقد وصلا الى مرتبة مرموقة والمكتب يعرفهما جيدا »(٤١) .

وكان تعليم اللغة العبرية في مدرسة (فردوس الاولاد) يتضمن دراسة كتابات وأشعار صهيونية ، حتى ان التلاميذ انفسهم قد تمكنوا من اعداد تمثيليات باللغة العبرية كانت تعرض في الاعياد ، ودمجت في التمثيليات أغان عن فلسطين ، وفي الختام كانوا ينشدون « هاتكفا » - الامل ، وهو النشيد الذي كان ينشده الصهاينة في المناسبات قبل قيام اسرائيل ، وبالاضافة الى وجود مكتبة صهيونية مفتوحة امام

الطلاب لاستعمالها بحرية ، وفي كل صف كان يوجد صندق للكيرن كيمت ، وبين فترة وأخرى كان يعرض في مدرسة (فردوس الاولاد) أفلام عن الحياة اليهودية في فلسطين (٤٢) .

وكانت الجمعية الانكليزية اليهودية Anglo-Jewish Association في لندن تمد مدارس الاليانس بعدد من المعلمين ، مثل الاستاذ سلومون وكولد سمث (٤٣) ، كما قدم بعض المدرسين الصهيونيين المتحمسين من سوريا ، للتدريس في مدارس الاليانس، مثل : المسيو اسرائيل ، والمستر روزنتال ، والمسيو فرانكو (٤٤) .

ومن مظاهر ازدياد النشاط الصهيوني في المجال الثقافي والتربوي، افتتاح مدارس جديدة للطائفة اليهودية ، ومن هذه المدارس : المدرسة الوطنية ، التي افتتحت عام ١٩٢٣ ، وهي من المدارس الابتدائية للبنين ، ومدرسة نوعم وطوبه الابتدائية للبنات ، وقد افتتحت عام ١٩٢٤ ومدرسة شماش الاعدادية للبنين والتي انشئت عام ١٩٢٨ . وتدرس التوراة ، واللغة العبرية ، وبعض اللغات الاجنبية (٤٥) .

الكتب العبرية والصهيونية : شرع قسم من الصهاينة في استيراد الكتب الصهيونية من فلسطين . يقول سلمان درويش : « وشرع الموريه (ساسون) ، بكل همة ونشاط ، لنشر الفكرة الصهيونية ، وتعلم اللغة العبرية الحديثة ، بكتب دراسية استوردها من فلسطين ، ووزع الكثير من صورة زعماء الصهيونية المعروفين ، مجانا على اليهود ، لتعليقها على جدران الغرف في دور السكن ، كما جلب نشرات وجرائد وكتب سياسية وادبية من فلسطين »(٤٦) .

وفي مجال ترويج الكتب الصهيونية في العراق ، وصل عام ١٩٢٣ ، الى بغداد من القاهرة ، ميخائيل سركيس ، وهو مسيحي سوري ، لترويج كتابه « النهضة الاسرائيلية »، الذي طبع في مطبعة رمسيس بشارع الفجالة ، ويشير فاضل البراك في كتابه « المدارس اليهودية والايرانية في العراق » بأن خلاصة الكتاب اشادة بتقدم الاماكن اليهودية في فلسطين ، اضافة لمقالات مشاهير اليهود في البلدان المختلفة(٤٧) .

وقد قالت جريدة الاستقلال عن هذا الكتاب : « الكتاب ليس كما يدعي المؤلف في عنوانه نهضة وتاريخ ، بل دعوة للانضواء الى لواء الصهيونية ، لانه يحبذ الصهيونية وأعمالها ، ونحن نعتقد ان نشره ليس دفاعا عن مصلحة الاسرائيليين العرب ، بل تزلفا الى الصهيونية . وهذا كان الشعور الذي استحوذ علينا ، حين مطالعتنا الكتاب »(٤٨). وعندما استفسرت منه الشرطة العراقية عن مهمته ، أوضح انه اعجب بوضع اليهود في

فلسطين ودورهم في « تطويرها » ، وانه جاء ليطلع يهود العراق على الاوضاع «الراقية» التي يعيش فيها يهود فلسطين(٤٩) .

وخلال الفترة بين عامي ١٩٢٠ ـ ١٩٢٩ ، انشئت مجموعة من المكتبات العامة تحوي على الكتب الصهيونية ، منها : المكتبة الادبية الاسرائيلية ، وهي تابعة للجمعية الصهيونية في بغداد ، وتضم كتب باللغات العبرية والانكليزية ، والعربية . ومن الكتب المتوافرة في المكتبة الادبية : كتاب شمعون دوفنوف : « تاريخ اسرائيل » ، وكتاب ابراهام مافو « حب صهيون » ، وكتب مكوينزنر وبنسكار (لغة العبرانيين لغة حية ، لغتنا ، تاريخ اسرائيل) ، وكتاب الدكتور بروح (كنوز أدب اسرائيل) ، بالاضافة الى كتب دينية وتاريخية وقواميس . وكانت الكتب العبرية ترسل لهم من دور نشر صهيونية ، مثل « دفير ، واحيميفر » في تل أبيب ، ومن «رزنيك منشك» في نيويورك ، واحتوت قاعة القراءة في المكتبة الادبية على بعض أعداد من الصحف الصهيونية ، التي كانت تصدر في فلسطين والولايات المتحدة وبريطانيا(٥٠) .

وكانت أبواب المكتبة الادبية الاسرائيلية مفتوحة أمام اليهود ، كما أن رسوم العضوية كانت آنذاك ، نصف روبية شهريا ، ويمكن للعضو استعارة كتبها خارج المكتبة . وتسلم أهرون ساسون مسؤولية ادارتها ، منذ عام ١٩٢٤ وحتى اغلاقها في عام ١٩٢٩(٥١) . وأسس اسحق معلم نسيم وشلومو صالح غباي مكتبة في المدراش تلمود توراة(٥٢) ، حيث كانا مع زملاء لهما يدرسون ، في المساء ، اللغة العبرية والرياضيات وفي عام ١٩٢٦ ، أسست مكتبة « الاصلاح الادبي » ، في كنيس ألبير ساسون ، وأنشأ يتسحاق بونفيس ، معلم اللغة العبرية في مدرسة أليانس بغداد ، مكتبة عامة اسمها « توعيلت » (الفائدة) . وقد احتوت على كتب عبرية . كذلك أنشأ موشيه سوفر ، بمساعدة شمعون ويعقوب معلم ، مكتبة في مدرسة ، راحيل شحمون « واحتوت على الكتب العبرية والعربية التي كانت تصدر ، آنذاك ، وقد استمرت المكتبة لفترة طويلة »(٥٣) . وعندما كان موشيه سوفر في فلسطين ، أرسل أعدادا كبيرة من الكتب العبرية الى المكتبات اليهودية العامة في العراق (٥٤) .

وبادر بعض الاشخاص اليهود الى تأسيس مكتبات صغيرة ، فأسس يوسف عبيدي مكتبة ، اسمها ناهدا Nahda ، بالاشتراك مع بعض رفاقه منهم : الياهو نسيم ويعقوب حاييم وعبيدي بطاط(٥٥) .

ومن أوجه **النشاطات الصهيونية الاخرى** ، مساهمة بعض الشعراء اليهود في مناسبات صهيونية عديدة ، مثل ذلك الشاعر اليهودي البغدادي ، أنور شاؤل ، عندما

بعث بقصيدة شعر بعنوان (تحيتي الى الجامعة) ، الى الجامعة العبرية في القدس ، بمناسبة افتتاحها عام ١٩٢٥ « فكتب القصيدة في خط جميل ، فاذا بها صورة فنية رائعة بحتضنها علم المملكة العراقية من جهة ، وشعار نجمة داود ، ومن أبيات القصيدة (٥٦) :

أجامعة العلوم عليك مني	سلام ملؤه الشوق العميم
لعل غدا وان غدا قريب	يحقق ذلك الحلم العظيم
فترتفع المباني شاهقات	وتزدهر المعارف والعلوم

ونشر آهرون ساسون كراسا صغيرا ، بعنوان : « كتاب أغاني البعث » ، احتوى على قصائد : « الامل » و « بركة شعب » .. وفي عام ١٩٢٥ / ١٩٢٦ نشر ساسون الجزء الثاني من هذا الكراس ، وبه عشرون قصيدة من نظمه . وأهاب ساسون ، في جميع قصائده ،بيهود العراق ان يتعلموا اللغة العبرية، وأن يهاجروا الى فلسطين(٥٧).

وقامت دور السينما في العراق بعرض أفلام صهيونية : « عرض على ستائر السينما الوطني (بغداد) ليلة الاربعاء الماضية مناظر المستعمرات الزراعية وبلاد تل أبيب وحيفا . . .مع أهم المدارس منها مدرسة الزراعة والتخنيكوم وهرزليه وكانت العروض بديعة جدا وفي نية أصحاب السينما عرضها مرة أخرى ليلة الاحد القادم فنحث أرباب الذوق على مشاهدتها »(٥٨) . ويبدو أن السينما آنفة الذكر كانت من أهم مراكز الدعاية الصهيونية في العراق ، ففي شهر تشرين الاول ١٩٢٧ عرضت فيلم « بئر يعقوب » ، وهو دعاية سافرة للصهيونية ، تعالج موضوع الهجرة الصهيونية الى فلسطين وتبرز انجازاتهم ، خاصة في مجال بناء المستوطنات الصهيونية . واثار عرض هذا الفيلم استياء الرأي العام العراقي، وعبرت جريدة «الاستقلال» عن ذلك ، بقولها: « . . . ثم اني لا أدري بم تعتذر الحكومة ، من ذلك ، وهي حكومة عربية ، تعمل ، قبل كل شيء ،لمصلحة العرب؟ هذا ما أردت التنبيه عليه لتضرب حكومتنا الموقرة مثل هذه الدعايات ، التي من شأنها الطعن في صميم الامة العربية فالمصلحة العربية فوق جميع المصالح الاجنبية »(٥٩) .

المجلات : من المجلات الصهيونية التي صدرت في بغداد ، باللغة العربية ، مجلة « ها منوراه » (المصباح) ، الاسبوعية ، وقام باصدارها سلمان شينه ، المدير المالي للجمعية الصهيونية في بلاد ما بين النهرين ، وحررها ، في سنتيها الاولى والثانية ،انور شاؤل ، باسمه المستعار ابن السموءل ، صدر العدد الاول من المجلة في بغداد بتاريخ ٠ انيسان ١٩٢٤،واستمرت المجلة بالصدور ، وبشكل متقطع حتى ٦ حزيران ١٩٢٩. وصدر منها ١٢٧ عددا ، وتراوحت صفحاتها بين ٨ و ١٢ صفحة من القطع المتوسط .

وكان من اهداف المجلة الصهيونية ما يلي :

١ ــ التعريف بقادة الحركة الصهيونية العالمية ، امثال : ادموند روتشلد وماكس نورداو ، وناحوم سوكولوف ، وحاييم وايزمن ، والبرت انشتاين ونحمان بياليك . فتحت عنوان « مشاهير الرجال » كانت تسرد لمحة عن حياتهم وأعمالهم ، مع مجموعة من الصور الكبيرة لبعض القادة الصهاينة ، مثل روتشلد ، وبياليك ، وشابيرا (٦٠) .

٢ ــ تعريف يهود العراق بالنشاط الصهيوني في فلسطين ، ومجالات الهجرة الصهيونية ، والمعاهد التعليمية ، للالتحاق بها ، مثل الجامعة العبرية في القدس ، والمدرسة الفنية العالية للعلوم في تل ابيب(٦١) . وبمناسبة افتتاح الجامعة العبرية ، جاء في مجلة المصباح ما يلي : « ان الحفلة التي ستقام في اول نيسان سنة ١٩٢٥ لافتتاح الجامعة العبرية في اورشليم لهي أعظم واقعة في تاريخ الشعب الاسرائيلي ، وسيبقى هذا اليوم ذكراً خالداً في قلوب الذين يشاهدون الاحتفال ، مدى حياتهم ، والشعب الاسرائيلي سوف يتذكر الآلام التي قاساها في البلاد المتمدنة ، من جراء انكبابه على العلوم »(٦٢) . ثم ان مجلة المصباح قامت بالدعاية للجرائد الصهيونية ، التي تصدر في فلسطين ، والتعريف بها ، وحث يهود العراق على الاشتراك فيها . جاء تحت عنوان دعاية : « جريدة دفار هايوم ، أكبر جريدة يومية سياسية ادبية تجارية ، تصدر باللغة العبرية ، في القدس ، لرئيس تحريرها الاستاذ ايثامار بن أبي والاستاذ ابراهيم المالح ، بدل الاشتراك عن سنة كاملة في فلسطين جنيهان ونصف ، وفي الخارج ثلاثة جنيهات ، والعنوان دوار هايوم ، صندق البريد ٢٥٥ ، القدس »(٦٣) .

٣ ــ حث الطائفة اليهودية في العراق على التبرع والمساهمة في المؤسسات الصهيونية مثل الكيرن هيسود ، والكيرن كييمت ، عن طريق متابعة الهبات التي تصل هذه المؤسسات ، من قبل المنظمات الصهيونية من جهة ، والافراد من جهة أخرى ، خاصة اثرياء يهود العراق ، لايجاد حافز يحث يهود العراق على التبرع الى تلك المؤسسات(٦٤) . كما حثت يهود العراق على التبرع لمؤسسات صهيونية خيرية ، مثل مأوى العجزة في فلسطين : « نذكركم بمأوى العجزة موشاف زقينيم ، لم يزل مندوب مأوى العجزة ، الحاخام مردخاي ألفيه ، باقيا في العاصمة ، وهو يجمع ما تجود به أيدي المحسنين لمعاضدة المؤسسة التي انتدب من أجلها »(٦٥) .

٤ ــ نشر الدعاية لنشاط المهاجرين الصهاينة الى فلسطين ، وابراز انجازاتهم في مجال بناء المستوطنات والمدن والمؤسسات الثقافية والصحية . وقد سبق الحديث عن ذلك(٦٦) .

٥ ــ الدعاية للمنتجات الصهيونية في فلسطين ما يلي : « خمور براندي وليكور من مخازن ريشون لازيون (وهي مستعمرة صهيونية في فلسطين)الشهيرة المعروفة من أكبر مخازن المشروبات في العالم : تباع عند داود عبودي، وساسون حسقيل ، وصيون ما شاء الله (بغداد) »(٦٧) .

٦ ــ نشر الاخبار المتعلقة بالطوائف اليهودية والنشاط الصهيوني في مختلف أنحاء العالم(٦٨) ، فعن أخبار الطائفة اليهودية بالمغرب ، تقول مجلة المصباح ، تحت عنوان من كل روضة زهرة،«جامعة اسرائيلية فيطانجر(٦٩)» : تنوي الطائفة الاسرائيليةفيطانجر تأسيس جامعة اسرائيلية في مراكش تحت أشراف رئيس الحاخامين في طانجر(٧٠) وعن نشاط اليهود في الولايات المتحدة ، تقول المصباح : « بلغ ما أنفقه الاسرائيليون في أميركا على المشاريع الخيرية ، في تلك البلاد وخارجها ، فضلا عن المسائل الدينية ، ٤٠ مليونا من الدولارات ، في سنوات قليلة »(٧١).

ويبين شموئيل موريه دور الصحافة اليهودية باللغة العربية في العراق ، بقوله : « وعلى الرغم من ظهور الصحف اليهودية باللغة العربية الفصحى ، في فترات متقطعة ، فانها لعبت دورا هاما في حياة المجتمع اليهودي ، فقد دافعت عن اليهود . . . وعرضت مطالبهم وموقفهم أمام الحكومة ، ووحدت صفوفهم ، وكانت منبرا للمثقفين ، كما أنها طالبت بنشر التربية والثقافة الغربية بين طلاب الطائفة ، وشجعت المثقفين على الانتاج الادبي والعمل الاجتماعي والثقافي ، ومدتهم بآخر الاخبار عما يجري لدى يهود أوروبا وأميركا وسائر المهاجر ، ولدى السكان اليهود في الديار المقدسة مثلا يحتذى في الميادين الثقافية والعلمية المختلفة »(٧٢) .

بداية التوظيفات والتبرعات المالية للمؤسسات الصهيونية :

منذ أواخر عام ١٩١٩ ، بدأت الحركة الصهيونية بجمع الاموال من يهود العراق لمصلحة الكيرن كيميت(٧٣) . ففي عام ١٩٢٠ تبرع يهود العراق ب (١٠ر٣٩٦) جنيها استرلينيا ، أي بنسبة مقدارها ٥ر٦٪ من مجموع التبرعات التي قدمت من أرجاء العالم ، وقد احتل العراق المرتبة الرابعة بعد الولايات المتحدة ، وانكلترا ، والصين . وفي ١٩٢١ ارتفعت تبرعات يهود العراق للكيرن كييمت، الى ١٥ر٩٤٧ جنيها استرلينيا وبنسبة مئوية مقدارها ٥ر١٢٪ من مجموع دخل الكيرن كييمت العام ، آنذاك ، واحتل بذلك العراق المرتبة الثانية بعد الولايات المتحدة . وفي عام ١٩٢٢ انخفضت تبرعات يهود العراق الى ٥ر٨٤٣ جنيها استرلينيا ، وبنسبة مئوية مقدارها ٨٪ من مجموع التبرعات التي قدمت للكيرن كييمت ، وانخفضت نسبة التبرعات بعد ذلك .

دخل الكيرن كييمت في العراق بالجنيهات الاسترلينية(٧٤) :

السنة	التبرعات بالجنيهات الاسترلينية	النسبة المئوية مجموع الدخل من العالم
١٩٢٠	١٠٫٣٩٦	٥ر٦٪
١٩٢١	١٥٫٩٤٧	٥ر١٢٪
١٩٢٢	٥٫٨٤٣	٨٪
١٩٢٣	٦٫٢٨٤	١٪
١٩٢٤	٢٢٠	
١٩٢٥ ـ ١٩٢٧ ؟ ٢٤ شهرا)	٤١٧	
١٩٢٧ ـ ١٩٢٩ (٢٤ شهرا)	١٥٣	
١٩٢٩ ـ ١٩٣٠ (١٢ شهرا)	٧١	
المجموع	٣٩٣٣١	

وتعود ضخامة هذه المبالغ بين عامي ١٩٢٠ ـ ١٩٢٣ ، الى التبرع السخي الذي قام به الصهيوني عزرا سحايك ، الذي رغب في انشاء مستعمرة باسم اخيه يحزقيل ، فقد تبرع خلال هذه الفترة بمبلغ ٣٦ر٥٠٠ جنيه استرليني من مجموع تبرعات يهود العراق البالغة ٣٨ر٤٧٠ ، أي أن سحايك تبرع بنسبة مئوية مقدارها ٨ر٩٤٪ من مجموع تبرعات يهود العراق للكيرن كييمت ، آنذاك ، بينما تبرع باقي يهود العراق بمبلغ ١ر٩٧٠ جنيه استرليني ، وبنسبة مئوية مقدارها ٢ر٥٪ من التبرعات(٧٥) .

تميزت تبرعات يهود العراق لصندوق الكيرن هيسود ، خلال الفترة بين ١/٤/١٩٢٢ و ٣١/٣/١٩٢٤ ، بأنها كانت مرتفعة ، نسبيا(٧٦) .

ويعود ارتفاع التبرعات بين عام ١٩٢٢ و ١٩٢٤ ، الى الجهود الحثيثة التي قام بها الفنسو بن صيون ، مبعوث الكيرن هيسود ، الى الشرق ، وبدعم من أقطاب الحركة الصهيونية العالمية ، من أمثال ألفريد موند ، الذي كان يعمل بوزارة الخارجية البريطانية ، وادموند دو روتشلد ، وهو من كبار اليهود الانكليز ، والصهيوني حاييم وايزمن(٧٧) . اضافة الى تبرعات أثرياء يهود العراق ، فقد وصل الكيرن هيسود ، بين عامي ١٩٢٤ ـ ١٩٢٨ ، مبلغ ١٠٧٧ جنيها استرلينيا من وقف كورجي شمطوف في البصرة(٧٨) .

وانتشر **بيع الشيكل** (٧٩) في العراق بشكل واسع ، بين عامي ١٩١٩ ــ ١٩٢٥ . ثم أخذ في الانخفاض من ١٩٢٥/٤/١ . فبين العامين ١٩١٩ ــ ١٩٢٠ بيع في العراق ٤٫٠٠٠ شيكل وأتاح ذلك تمثيل يهود العراق في المؤتمر الصهيوني الثاني عشر ، في أيلول ١٩٢١ ، بمدينة برلين ، بمندوبين هما : الدكتور برنشتاين ، ويسرائيل زيف ، وخلال الاعوام ١٩٢١ ــ ١٩٢٣ ، بيع في العراق ٢٥٢٤ شيكلا ، فأرسل يهود العراق مندوبا واحدا للمؤتمر الصهيوني ، عام ١٩٢٣ في كارلسباد ، وهو دافيد فيشر . وخلال الاعوام ١٩٢٣ ــ ١٩٢٥ ، بيع في العراق ١٫٩٧٧ شيكلا ، وحصل اليهود على مقعد واحد في المؤتمر الصهيوني الرابع عشر ، والذي عقد في آب ١٩٢٥ ، بمدينة فيينا ، هو آرثيل بن صيون ، وبعد عام ١٩٢٥ لم يمثل يهود العراق في أي مؤتمر صهيوني لان ما بيع في العراق كان أقل من ١٠٠٠ شيكل(٨٠) .

جدول بيع الشيكل في العراق بين عامي ١٩١٩ ــ ١٩٣٠ :

الفترة من	الى	عدد الشيكل	ثمنها بالجنيهات الاسترلينية
١٩١٩/٤/١	١٩٢٠/٣/٣١	١٫٠٠٠	٥٥٫٠٠
١٩٢٠/٤/١	١٩٢١/٣/٣١	٢٫٧٩٢	٣٥٫٠٠
١٩٢١/٤/١	١٩٢٢/٣/٣١	١٫٥٠٤	١٨٨٫٠٠
١٩٢٢/٤/١	١٩٢٣/٣/٣١	١٫٠٢٠	١٢٦٫٠٠
١٩٢٣/٤/١	١٩٢٤/٣/٣١	٦٧	٥٫٠٠
١٩٢٤/٤/١	١٩٢٥/٣/٣١	١٫٩١٠	٩٦٫٠٠
١٩٢٥/٤/١	١٩٢٦/٣/٣١	—	—
١٩٢٦/٤/١	١٩٢٧/٣/٣١	٩٠٠	٤٥٫٠٠
١٩٢٧/٤/١	١٩٢٨/٣/٣١	٢٤٠	١٢٫٠٠
١٩٢٨/٤/١	١٩٢٩/٣/٣١	٨٠	١١٫٠٠
١٩٢٩/٤/١	١٩٣٠/٣/٣١	٢٠٠	١٥٫٠٠
المجموع		٩٧١٣	٥٨٨

واسهم يهود العراق في **المساعي الصهيونية للاستيطان** في فلسطين ، وبدأ بعضهم بشراء الاراضي قبل عام ١٩٢٠(٨١). وفي فترة الانتداب ، اخذت عمليات شراء الاراضي في فلسطين شكلا منظما(٨٢) ، وتركزت في منطقة القدس بشكل رئيس(٨٢). وربما كان

ذلك للافادة من مزايا منطقة القدس الاقتصادية ، اذ ان قسما من اليهود العراقيين الذين اشتروا الاراضي كانوا من رجال الاعمال والتجارة ، اضافة الى مكانة القدس الدينية بالنسبة لليهود .

وساهم يهود العراق في **بناء المستوطنات اليهودية** في فلسطين، فتبرع عزرا سحايك بمبلغ ٥٠٠ر٣٦ جنيه استرليني ، كما ذكر سابقا ، لانشاء مستوطنة يهودية في فلسطين باسم اخيه يحزقيل ، اذ سميت **بمستعمرة كفار يحزقيل** kfar yeheskel . وانشأ عدد من يهود العراق مستعمرة في فلسطين اسمها موتزاه Motza ، وهي قرب القدس ، ومن المستوطنات الحديثة ، آنذاك(٨٤)

وانشأ اليعزر سيلاس خضوري عام ١٩٢١ مدرستين زراعيتين ، احداهما لليهود والاخرى للعرب في طولكرم(٨٥) ، وبنى خضوري بعض المستعمرات الصهيونية في فلسطين ، تقول مجلة المصباح : « مستعمرة اليعزر خضوري : ان المستعمرة التي ينوي المحسن الكبير اليعزر خضوري انشاءها في فلسطين سوف تلقب ب Kedorie Garden City .... اما مستعمرة « لورا خضوري » فسوف تخصص لمعلمي وطلاب الجامعة الاسرائيلية ،وتنشأ على جبل الزيتون .وقد اشترك السير ألفرد موند (٨٦) والمستر الياس ماير في اللجنة التي أخذت على عاتقها القيام بالانشاءات مع السنيور اليعزر خضوري »(٨٧) .

كما وصل الى بغداد بعض الشخصيات الصهيونية ، لجمع التبرعات لمؤسسات صهيونية خيرية في فلسطين ، ومن هؤلاء يعقوب تسوري ، ممثل الجمعية الخيرية « مسجاف لداخ » في القدس ، وذلك في عام ١٩٢٦(٨٨) والحاخام مئير ، مبعوث صفد، والحاخام يعقوب ، مبعوث طبريا (١٩٢٢ ــ ١٩٢٣) ، ويسرائيل ترجمان (١٩٢٨ ــ ١٩٢٩) ، وآخرون(٨٩) .

والمظهر الاخير للتوظيفات اليهودية الاوقاف الصهيونية . وكانت أوقاف اليهود في العراق تشمل الاراضي والدور والحوانيت ، وريع بعضها كان يذهب الى الجهات الصهيونية في فلسطين وخارجها ، مثل وقف كورجي شمطوف ، من أملاك وعقارات ، في مدينة البصرة ، والتي يقدر ثمنها بـ (٠٠٠ر١٤٠) جنيه استرليني ، وجهة التولية الدكتور ارئيل بن صيون ، ومئير يوزيل ، وعبد الله رافئيل ، المسؤول عن تنفيذ الوصية(٩٠) .وكان هؤلاء يقومون بارسال المبالغ التي تصل من هذا الوقف الى صندوق الكيرن هيسود . وقد صدق القاضي اليهودي ، روبين بطاط ، نائب رئيس المحاكم المدنية في البصرة ، على حجة هذا الوقف ، عام ١٩٢٣ (٩١).

بداية الهجرة الصهيونية من العراق الى فلسطين :

على الرغم من ان وضع اليهود في العراق كان حسنا ، الا أن الحركة الصهيونية وجدت لها مجالا للانتشار بين يهود العراق. وقد يعزى ذلك الى أن الصهيونية انتشرت، وبشكل واسع ، بين الطبقات الفقيرة ، اضافة الى بعض الاثرياء والتجار ، من جهة ، وبين أوساط الشبيبة اليهودية ، وخاصة طلاب المدارس ، من جهة أخرى فمن طبيعة هؤلاء الشبيبة ، أنهم ، وفي سن مبكرة يكونون عرضة للتأثر بأنواع الايديولوجيات بشكل عام ، والايديولوجية الصهيونية ، بشكل خاص ، ولذلك هاجرت أعداد كبيرة من يهود العراق الى فلسطين .

بدأت الهجرة من العراق الى فلسطين ، منذ عام ١٩١٩ ، نتيجة لانتشار الافكار والمبادىء الصهيونية في العراق عامة وبغداد خاصة ، وكانت هجرة (شرعية) عن طريق الحصول على تصاريح(٩٢) من الوكالة اليهودية في القدس ، وهجرة (غير شرعية) أي بدون تصاريح هجرة ، نظرا لقلة التصاريح التي كانت تمنح ليهود العراق . وقد هاجر عدد كبير من يهود العراق دون تصاريح(٩٢) .

وقد سمحت السلطات العراقية بهجرة يهود العراق الى فلسطين بطرق شرعية ، أي بواسطة تصاريح الهجرة ، لان الهجرة تتم حسب قوانين الانتداب البريطاني في فلسطين ، بينما عارضت الهجرة غير الشرعية (٩٤) ، هذا مع العلم بأن المصادر الرسمية العراقية لا تشير الى موقف السلطات العراقية من الهجرة اليهودية العراقية الى فلسطين(٩٥) .

وكانت الطائفة اليهودية في العراق من أكثر الطوائف اليهودية الشرقية تحمسا للهجرة الى فلسطين . ويذكر الكاتب اليهودي ايلي ليفي ابو عسل أن عدد اليهود الذين هاجروا من العراق الى فلسطين بين عامي ١٩٢٢ ـ ١٩٢٥ بلغ نحو (١٠٨٠) مهاجرا(٩٦) وبذلك يأتي يهود العراق في المرتبة الخامسة بين دول العالم ، بعد بولونيا ١٣٩٤٠ ، ورومانيا ٦٨١٤ ، ولتونيا ١٦٥٧ ، وروسيا ١٤٨٤ . وبنسبة مئوية مقدارها ٧ر٣٪ من الهجرة الكلية التي تبلغ ١٧٥ر٢٩ مهاجرا ، وتشكل هجرة يهود العراق نسبة مئوية مقدارها ١ر٣٥٪ من مجموع الهجرة اليهودية السفاردية ، أي اليهود الشرقيين (مجموعها ٠٧٢ر٣) أي أن ٢ر١٪ من مجمل يهود العراق ، آنذاك ، (نحو ٩٥ الف يهودي آنذاك قد هاجروا الى فلسطين ، خلال الفترة بين عامي ١٩٢٢ و ١٩٢٥(٩٧) .

وخصص قسم الهجرة التابع للوكالة اليهودية ، ليهود العراق ، عام ١٩٢٣ ،(١٥) تصريحا ، وفي عام ١٩٢٤ ، (٣٥) تصريحا ، وفي عام ١٩٢٥ ، خصص لهم (٢٥)

تصريحا(٩٨). وكانت هذه التصاريح تعطى وفقا لمقاييس اقتصادية ، تمشيا مع قوانين الهجرة لحكومة الانتداب البريطاني في فلسطين .واستغلت التصاريح التيمنحت ليهود العراق لتهجير الاسر ذات الامكانيا الاقتصادية المرتفعة ، ولما كان عددها لا يلبي الطلبات المتزايدة على الهجرة ،فقد اضطر الراغبون بالهجرة الى البحث عن طرق غير شرعية(٩٩)

ومن مظاهر تحمس يهود العراق للفكـرة الصهيونية ، والهجرة ، وللاستيطان في فلسطين أن قام ٥٥٠ شخصا بالسفر الى فلسطين ، بغرض السياحة ، بين عامي ١٩٢٣ و ١٩٢٥ ، بقي في فلسطين ، للاستيطان بصورة غير شرعية ١٦٥ شخصا منهم(١٠٠) .

وبعثت الجمعية الصهيونية في بغداد برسالة الى الوكالة اليهودية في فلسطين عام ١٩٢٦ ، جاء فيها :

« توجد حاليا في دولتنا اكثـر من ٥٠٠ عائلة ترغب في الهجـرة الى فلسطين ، ومعظمهم ملائمون ، وتوجد في حوزتهم مبالغ تتراوح بين ٥٠ ــ ٥٠٠ جنيه استرليني، قسم كبير منهم من أصحاب المهن ، ولهم أقرباء قد استوطنوا من قبـل في فلسطين ، ووعدوهم بأن يساعدوهم على الاستقرار هناك عند مجيئهم دون أن تصرفوا عليهم مليما واحدا ، وعليه فاننا نطلب منكم أن تزودونا بعدد مناسب من الشهادات (التصاريح) عندما تحصلون عليها ــ ونحن بدورنا سنختار ، بعناية ، أصلح العناصر ، حسب تعليماتكم »(١٠١).

وكانت الجمعية الصهيونية في بغداد تهدف الى تهجير اليهـود ، ذوي الامكانيات الاقتصاديـة الكبيرة ، وتفضيلهم على غيرهـم . لان هـؤلاء المهاجرين يتكلفون بدفـع نفقات الهجرة .

وقد استغلت الدعاية الصهيونية في العراق فكرة « العودة الـى صهيون » لدى بعض يهود كردستان (العراقية) ، خاصة لاستخدامهم في الاعمال الزراعيـة ، حيث جرى توطينهم في مستعمرات الجليل ، وعمـل بعضهم كحراس في منظمة الهاشـومير Hashomer (١٠٢) .

وأخذت الجمعية الصهيونيةفي بغداد على عاتقها عملية تهجير اللاجئين اليهود ، الذين قدموا من ايران وبولندا وروسيا وكردستان العراقية ، بين عامي١٩٢٤ و ١٩٢٨ فكان هؤلاء يأتـون الى المكتب الصهيوني في بغداد ، ومن ثم الـى مدرسـة « فردوس الاولاد » ، ولما كان معظم هؤلاء قد هربـوا بطرق غير شرعية ، فكان يتـم اخفاؤهم في

المدرسة المذكورة ، وأعالتهم ، حتى يتم أمر تهجيرهم الى فلسطين . وباستثناء التصاريح ، لم يقدم لهم من المنظمات الصهيونية أية مساعدة في تمويل النشاط الصهيوني في مجال الهجرة . اذ ان هجرة اللاجئين تتم بواسطة جباية محلية من داخل العراق(١٠٣) .

وعن الصعوبات المشاكل التي اعترضت الهجرة الصهيونية من العراق الى فلسطين ، ١ ـ التكاليف الباهظة لعملية الهجرة ، ٢ ـ عدم توفر العناية اللازمة والارشاد ومحطات الاقامة للمهاجرين اليهود الذين قدموا الى فلسطين من العراق ، ٣ ـ شكوى يهود العراق ، الذين استوطنوا في فلسطين من سياسة التمييز التي يلقونها من قبل المؤسسات الصهيونية، ٤ ـ قلة التصاريح الممنوحة ليهود العراق(١٠٤).

ردود الفعل الوطنية تجاه النشاط الصهيوني في العراق :

كان لردود الفعل الوطنية العراقية المعادية للنشاط الصهيوني أثر كبير في التقليل من اهمية هذا النشاط وفاعليته . فالموقف الحكومي الرسمي من النشاط الصهيوني، بالرغم من تأثير الانتداب البريطاني عليه ،كان ، في بعض الاحيان ،يحد من هذا النشاط كرفض الحكومة العراقية تجديد ترخيص الجمعية الصهيونية في بغداد ، عام ١٩٢٢ ، وامتناعها عن منح بعض التظيمات الصهيونية في البصرة ترخيصا لمزاولة أعمالها . ولذلك كانت التنظيمات الصهيونية السياسية ، في العراق ضعيفة نسبيا . وأخذت المقاومة الحكومية للاتجاهات الصهيونية في الازدياد ، بعد عام ١٩٢٩ (١٠٥).

واذا كانت الجهات الرسمية واقعة تحت الضغط البريطاني ، فان قطاعات الرأي العام كانت أقل تعرضا لهذا الضغط ، واكثر مقدرة على التعبير عن معارضتها للنشاط الصهيوني .

تنبهت الصحافة العراقية ، لبواكير النشاط الصهيوني في العراق ، منذ بداية القرن العشرين ، فرصدته وحذرت الشعب العراقي من خطورته . فعلى سبيل المثال، تابعت جريدة « الاستقلال » البغدادية ، النشاط الصهيوني عن كثب ، فكتبت :

«ويشهد الله أننا قد غضضنا الطرف عن الصهيونية،ولكننا رأيناها تتفشى بيننا، رأينا النجمة الصهيونية مرسومة على أبواب المخازن ، والتبرعات تذهب الى فلسطين، كما بلغنا . وكتاب « النهضة الاسرائيلية وتاريخها الخالد » يباع على مشهد منا ، رأينا السكوت على ذلك خيانة للعرب والوطن »(١٠٦) ثم ان الجريدة المذكورة ناشدت ابناء الطائفة اليهودية بمقاطعة الكتاب ، لان فيه دعوى صريحة الى الصهيونية(١٠٧) .

وحذرت الجريدة الحكومة العراقية من النشاط الاجنبي في العراق، فنشرت مقالا بعنوان « العراق والصهيونية » تقول فيه : « نذكر صاحب الجلالة الهاشمية بنصيحة أسداها الفيلسوف سبنسر لوفد حكومة اليابان ، اذ قال ما مفاده « لا تدعوا الاجانب يدخلون عليكم ، قبل أن تبلغوا مستواكم من الرقي ، لئلا يستولوا على مرافقكم الاقتصادية ويستعمروتكم ... فليت صاحب الجلالة الهاشمية وأنجاله الكرام وحكوماتهم وجميع زعماء العرب ومفكريهم في كل بلد عربي يبذلون جهدهم في المحافظة على سلامة البلاد العربية وتعميرها بواسطة أهلها». وحذرت الجريدة من مغبة السيطرة الصهيونية على اقتصاديات العراق ، ونبهت الحكومة العراقية والملك فيصل الاول ، كي لا يتمكن اليهود من السيطرة على العراق ، قبل أن يؤسس حكم قوي ويتطور الاقتصاد فيه »(١٠٨) .

وبمناسبة مجيء ميخائيل سركيس ، وهو أحد دعاة الحركة الصهيونية ، الى العراق ، ذكرت جريدة « الاستقلال » بفضائل العرب والاسلام عليهم ، وحثتهم على عدم تشجيع الحركة الصهيونية ، ووجهت نداءها الى يهود الشرق عامة، ويهود العراق خاصة ، وقالت : « نوجه نداءنا بمناسبة مجيء داعية الصهيونيين (سركيس) الى بغداد راجين أن يتجنبوا كل ما من شأنه الاخلال بمصالح سويداء الاقطار العربية ، فلسطين، وأبنائها النجباء ، نخشى أن يلتهب الشعور الوطني المنتشر في الامصار الناطقة بالضاد، فيلتهم كل أعجمي سعى ، أو يسعى ، لاذلال العرب وابادتهم فالحذار ، الحذار »(١٠٩).

وفي حزيران ١٩٢٤ ، نشر الشاعر الشعبي العراقي ، الملا عبود الكرخي ، قصيدة في صحيفة « البدائع » البغدادية ، تحت عنوان « جمعية اليهود »(١١٠) أي الجمعية الصهيونية في بغداد ، ندد فيها بأعضاء الجمعية وبنشاطهم الصهيوني المعادي للعراق(١١١) .

ونشرت صحيفة « المفيد » في ٣٠ تشرين الثاني ١٩٢٤ مقالا افتتاحيا تحت عنوان « حقائق عن الصهيونية » ، تحدثت فيه عن تغلغل الافكار والمبادىء الصهيونية بين أوساط الطائفة اليهودية في العراق ، فقالت عن ذلك : « أما في العراق فالحركة الصهيونية يقوم بها أناس معدودون ، أجانب في الاغلب . فهي دعاية لا يشعر يهود العراق بلزومها ، بل هي تنشر بينهم ، أرادوا ذلك أم لم يريدوه ، وفي هذا الامر ما فيه من الخطر على وحدة الشعب العراقي ، وانه لامر جديد بأن يتنبه له الشعب ، الشعب المسكين الذي لا يدري ولا يعلم بالامور التي تدبر ضده ، في طي الخفاء ، كفانا التواني، كفانا التساهل في أمورنا الحيوية » ، ودعت الى منع هذه الدعاية في العراق وفي البلاد العربية ، وبينت أخطار تنمية شعور قومي آخر في العراق غير الشعور القومي العربي،

واعتبرت صحيفة « المفيد » افساح المجال لذلك من «الجنايات التي لا تغتفر» بعد ذلك تطرقت « المفيد » الى الجمعية الصهيونية في بغداد ، فقالت : « ان اللجنة الصهيونية الموجودة في بغداد تعمل ، بكل نشاط ، على بذر بذور الشقاق بين ظهرانينا . نعم انهـا تعمل على ذلك ، وقد أثرت على كثير من العقول ، وقد تعددت ظواهر هذا التأثير ،منها تعليق ماغين داود (نجمة داود) مسدسـة ، تتكون من مثلثين الواحد مرسوم علـى الآخر ، ورسماهما متجهين الى جهتين مضادتين ، ومكتوب في وسطهما كلمة (صيون) باللغة العبرية ـ وهذه النجمة هي رمز الصهيونية ـ على الصـدور ، وتطريزه علـى ألبسة الاولاد الصغار . . . والظاهر أن هؤلاء الصهيونيين يعمدون الى بث مفاسدهم ، حتى في مجال العبادات »(١١٢) .

وبينت الصحيفة دور بث صيون ، الذي أشرنا اليه سابقا ، بجمع التبرعات مـن يهود العراق ، وبنجاحه البـارز الذي حققه في أداء مهمتـه ، وأشـارت الى صناديق التبرعـات للمؤسسـة الصهيونيـة ، والمتواجـدة في الكثـير من البيـوت اليهوديـة البغدادية(١١٣) .

وهاجمت جريدة « العالم العربي » ، اليهود الذين « يعبسون ويدلغمون » علـى العالم العربي ، بل يتبرأون منه ، لسبب دفاعه الشديد عن « العرب » ضـد السياسة الصهيونية « ودسائسها وتعدياتها » حتى ان بعض هؤلاء لجأ الى قطع « الاعانات » عن جريدة العالم العربي ، وعدم شراء أعدادها ، من أجل « الارهـاب » أو « العقاب » ، وأوضحت جريدة العالم العربي بأنها لن ترضخ لهم ، ولن يتصهينوا أبدا (١١٤) .

وتمثلت ردود الفعل الشعبية المعاديـة للحركة الصهيونية العالميـة بشكل عام ، والحركة الصهيونية في العراق بشكل خاص ، بالقيام بمظاهرة احتجاج ضد الفرد موند، وهو أحد اقطاب الحركة الصهيونية العالمية ، والذي زار العراق،في ٨ شباط ١٩٢٨ ، من أجل ايجاد مشاريع اقتصاديـة لاستخدام العمال اليهـود العاطلين عن العمـل في فلسـطين ، ووضع حـد للهجرة الصهيونية العكسية في فلسـطين ، وبغرض انعاش النشاط الصهيوني في العراق(١١٥) . وفي اليوم الذي وصل فيه موند الى بغداد ، قامت مظاهرة شعبية كبيرة ، نددت بالصهيونيـة وبوعد بلفـور وبالسياسة البريطانيـة في فلسطين ، وطالبت برجوع موند من حيث اتى .ونتيجة لهذه المظاهرة فشل الفرد موند في تحقيق الاهداف من وراء زيارته للعراق(١١٦) .

وأخيرا ، جاء موقف بعض اليهود المعارض للصهيونية . فعلى الرغم مـن تعاطف قسم من يهود العراق مع الصهيونية ،وقف قسم آخر ضدها ،ورأوا أن من مصلحتهم

عدم تشجيعها حفاظا على مصالح اليهود الذين عاشوا في العراق قرونا طويلة . بعث مناحيم صالح دانيال برسالة الى المنظمة الصهيونية العالمية جاء فيها : « يحذرها من نشر الدعايات الصهيونية في بغداد ،ويذكر أن الآراء التي يبشر بها الدكتور بن صيون في بغداد ، أحدثت بلبلة في أفكار الطبقة الفقيرة من اليهود ، وأخذت هذه الطبقة تعتقد بأن الصهيونية ستكون السبب في انعتاقها وتخلصها من الخوف والاضطراب والقلق الذي تعاني منها ، كما انها أخذت تعتقد، أيضا ،بعدم الحاجة الى مراعاة شعور العرب الذين نعيش بين ظهرانيهم ، وهذه كلها لا تبشر بالخير ، اذ ستوحي للعرب بأن موقف يهود العراق معاد لهم »(١١٧) .

ولم يرغب رئيس الطائفة اليهودية في البصرة ، يعقوب نوح ، في العمل من أجل القضية الصهيونية ، وكذلك الامر بالنسبة للرابي يحزقيل ساسون ، حاخام البصرة بين عامين ١٩٢٠ ــ ١٩٣٨ ، فانه رفض التعاون ، عندما طلبت اليه المؤسسات الصهيونية ذلك(١١٨) . وكان يعقوب موشيه ،رئيس الطائفة اليهودية في خانقين، معاديا للحركة الصهيونية ، ووقع على برقية يندد فيها بالصهيونية(١١٩) .

وأبدى ساسون خضوري ، كبير حاخامي الطائفة اليهودية في العراق بين عامي ١٩٢٨ ــ ١٩٣٠ ، اعتراضه على بعض الحاخامين فيالعراق ،بسبب ممارستهم للنشاط الصهيوني ، ولم يكتف بذلك، بل وشى بهم الى الحكومة العراقية(١٢٠). وكتب ساسون رسالة الى رئيس الوزراء العراقي ، قال فيها انه « وجد ، بعد الفحص والتحقيق،بأن اليهود ، بالأخص الحاخامين ، يحبون الصهيونيين ، ويبغضون العرب » ، وقام بعرض الصناديق المرسومة عليها نجمة داود على أنظار الحكومة ، وقال « بهذه يجمعون الدراهم ويرسلونها الى المؤسسات الصهيونية » وكان ذلك في عام ١٩٣٠(١٢١).

حظر النشاط الصهيوني في العراق :

نظرا لاتساع النشاط الصهيوني في العراق، وازدياد ردود الفعل الوطنية تجاهه، استدعي أهرون ساسون ، رئيس الجمعية الصهيونية ببغداد ، في ٣١ آب ١٩٢٩ ، الى دائرة المفتش الاداري البريطاني لمدينة بغداد ، والذي قدم له نصيحة بضرورة مغادرته الى البصرة ، خلال عشرة أيام ، فبين اهرون ساسون للمفتش الاداري البريطاني انه لا يستطيع المغادرة ، مدعيا ان له طفلا مريضا ، كما ان عليه المكوث في مدرسة «فردوس الاولاد » ، لان الامتحانات النهائية قد بدات . ويضاف الى ذلك أن ذهابه الى البصرة لن يجعله بمأمن من اعدائه . واستغل وزير الداخلية العراقي ، عبد العزيز القصاب ، الهياج الشعبي للضغط على اهرون ساسون من أجل وقف نشاطه كممثل للوكالة اليهودية والامتناع عن جمع التبرعات للمؤسسات الصهيونية ، والتعهد بعدم تدريس

التعاليم الصهيونية في مدرسة « فردوس الاولاد »(١٢٢) وقد رفض أهرون ساسون الاستجابة لمطالب وزير الداخلية العراقي ، بحجة أن عليه استشارة رئاسة المنظمة الصهيونية العالمية ، وأنه يمارس عمله في بغداد بتيقظ وحذر ، دون اثارة العرب . وانه خول العمل كرئيس للجمعية الصهيونية في بغداد من قبل وزارة المستعمرات البريطانية وبواسطة المندوب السامي البريطاني في العراق(١٢٣) .

ويبدو أن جهود الحكومة العراقية قد تكللت بشيء من النجاح ، اذ كتب أهرون ساسون الى المنظمة الصهيونية فيلندن يقول : « منذ أن كتبنا لكم بتاريخ١٨/٩/١٩٢٩ امتنعنا عن القيام بأي نشاط صهيوني ، وعن جمع الاموال » ، وفي شهر كانون الاول استدعت الشرطة العراقية أهرون ساسون ، بناء على أوامر صادرة من وزير الداخلية ووقع على وثيقة يتعهد فيها بأن يمتنع عن كل نشاط صهيوني وعن جمع الاموال(١٢٤).

وطلب متصرف بغداد من أهرون ساسون التوجه الى وزارة المعارف ، من أجل الحصول على ترخيص لمدرسة «فردوس الاولاد » التي يديرها ،وعندما توجه ساسون الى وزارة المعارف طلبت الوزارة المذكورة الامتناع عن ممارسة النشاط الصهيوني في المدرسة . لكنه تعهد بأن لا يخرج على البرنامج الدراسي.على اثر ذلك استلم ساسون، في ١٣ آذار ١٩٣٠ ، رخصة من وزارة المعارف ليصبح وجود مدرسته قانونيا(١٢٥).

الحواشـــــي

(١) Ezra Haddad and priscilla Fishman, **History Round the Oclock: The Jews of Iraq,** Tel Aviv, The women's International zionist Organization, 1952, p. 15.

(٢) عزت ساسون معلم ، على ضفاف الفرات : ذكريات أيام مضت وانقضت ، شفا عمرو ، دار المشرق ، ١٩٨٠ ، ص ١١٠ - ١١١ .

(٣) اميل مراد ، قصة الحركة السرية الصهيونية في العراق : العمل السري في بابل ، (مترجم عن العبرية) ، بغداد ، مركز الدراسات الفلسطينية ، ١٩٧٣ ، ج ١ ص ٢٠ ، يوسف مئير، خلف الصحراء ، الحركة السرية الطلائعية في العراق ، ترجمة حلمي عبد الكريم الزعبي ، بغداد مركز الدراسات الفلسطينية ، ١٩٧٦ ، ج١ ، ص ١٨ .

(٤) حاييم كوهين ، النشاط الصهيوني في العراق ، ترجمه عن العبرية - مركز الدراسات الفلسطينية - بغداد ومركز الابحاث الفلسطينية - بيروت ١٩٧٢ ، ص ١٨ - ٤٣ .

(٥) لمزيد من المعلومات انظر : هشام عبد العزيز« النشاط الصهيوني في العراق بين عامي ١٩٢٠ - ١٩٤٥ » رسالة ماجستير غير منشورة ، الجامعة الاردنية - قسم التاريخ ، ١٩٨٦ ص ٣٦ - ٣٧.

Nissim Rejwan, **The Jews of Iraqi. 30 00 Years of History and Culture** London, weiden Feld and Nicolson, 1985, p. 200.

(٦) عبد العزيز ، ص ٣٠ – ٤٣ ، مراد ، ص ٢٠ .

(٧) Abbas Shiblak, **The Lure of zion, Thecase of Iraqi Jews,** London, Al-Saqi Books, 1985 pp. 41 - 42.

وفي احصاء نشرته حكومة الاحتلال البريطاني لعام ١٩٢٠ ، بلغ عدد يهود العراق نحو ٨٧،٤٨٨ نسمة . انظر : يوسف غنيمة ، نزهة المشتاق في تاريخ يهود العراق ، بغداد ١٩٢٤ ، ص ١٨٤ .

(٨) علي ابراهيم عبده وخيرية قاسمية ، يهود البلاد العربية ، بيروت مركز الابحاث الفلسطينية ، ١٩٧١ ، ص ٥٢ – ٥٥ .

(٩) Rejwan, op. Cit. pp. 204 - 205.

كوهين ، ص ٢٧ ، مئير ، ج ١ ص ١٩ – ٢٠ .

(١٠) المكتبة الصهيونية ، هي التي تحوي صحف ، أو مجلات ، أو منشورات ، أو كتب تخص الحركة الصهيونية في مختلف أرجاء العالم ، بشكل عام ، وفلسطين بشكل خاص ، سواء كانت كتب تاريخية ، أو جغرافية ، أو مواد دعائية للحركة الصهيونية .

(١١) كوهين ، ص ٢٩ ، مئير ، ج١ ص ٢٠ .

(١٢) Rejwan, op. Cit., p. 205; Shmael Moreh, **Short stories By Jewish Writers from Iraq,** Jerusalem, th Hebrew university of Jerusalem, 1981, pp. 17-18.

(١٣) قصائد ساسون في مجلة يشورون منقولة عن كوهين ، النشاط الصهيوني ، ص ٨٥ .

(١٤) يعود سبب اغتياله الى وشايته على احد المجرمين فاغتاله أقرباء المجرم ، انظر : المصدر السابق ، ص ٤٣ ، هامش رقم ٣٠ .

(١٥) بعد انشاء الجمعية الصهيونية في بغداد توقف نشاط الجمعية الادبية الاسرائيلية .

(١٦) C. O. 730 / 153/78089. From Eliahou Nahom to the Hight comissioner for Iraq. 11/9/1929, Rejwan, The Jews of Iraq, p. 205.

وسلمان درويش ، كل شيء هادىء العيادة ، القدس ، رابطة الجامعيين اليهود النازحين من العراق ، ١٩٨١ ، ص ٣١ .

وسلمان شينه كان ضابطا في الجيش العثماني خلال الحرب العالمية الاولى ، أسره الانكليز وسجنوه في الهند . وبعد خروجه من السجن انهى دراسته في كلية الحقوق في بغداد وزاول المحاماة . مثل اليهود في البرلمان العراقي من ١٩٤٧ الى ١٩٥١ ، وهاجر في العام نفسه الى فلسطين . انظر : كوهين ، المرجع السابق ، ص ٤٢ – ٤٣ .

(١٧) Abraham Twena, **Jewry of Iraq, Dispersion and Liberation:** Suplement to Book seven Addenda and Errata, Ramla , Geoula Synagogue Committee, 1979, part, 2, p. 19.

(١٨) مئير ، جـ١ ص ٢٢ .

(١٩) المصدر السابق ، جـ ١ ، ص ٢٣ .

(٢٠) الكيرن هيسود ، أو الصندوق التأسيسي أنشىء عام ١٩٢٠ ،كمؤسسة تابعة للمنظمة الصهيونية ثم أصبح يتبع الوكالة اليهودية ، عـام توسعها ، ١٩٢٩ ، ليكون جهازها المالي ، في حين يتولى الصندوق القومي امداد المستوطنين بالارض، انظر : محمد عبد الرؤوف سليم ، نشاط الوكالـة اليهودية لفلسطين منذ انشائها وحتى قيـام دولة اسرائيل ١٩٢٢ ـ ١٩٤٨ ، بيروت ، المؤسسـة العربية للدراسات والنشر ، ١٩٨٢ ، ص ٣٢٣ ـ ٣٢٤ .

(٢١) كوهين ، ص ٣٢ .

(٢٢) المصدر السابق ، ص ٣٢ .

(٢٣) المصدر السابق ، ص ٣٧ ، وانظر أيضـا : أنور شاؤل ، قصـة حيانـي في وادي الرافدين ، القدس ، رابطة الجامعيين اليهود النازحين من العراق ، ١٩٨٠ ، ص ١٧٦ .

(٢٤) Zionist work During 1921-1922, Report of the Exective of Zionist Organization to the Annual conference, Garisbed, 1922, p. 31.

(٢٥) ومئير ، جـ ١ ، ص ٢٤ .

(٢٦) Zionist work During , 1921-1922, p. 31 .

(٢٧) الكـيرن كييمت أو الصـندوق القومي اليهودي، أنشىء عام ١٩٠٧ كمؤسسة مالية تابعة للمنظمة الصهيونية العالمية ليتولى تمويل عمليـات شراء الاراضي في فلسطين وتنميتها . انظر : سليم ، نشاط الوكالة اليهودية ص ٣٢٢ ، انظر : كوهين ، النشـاط الصهيوني ص ٣٧ .

(٢٨) مئير ، خلف الصحراء ، جـ ١ ص ٢٣ .

(٢٩) كوهين ، ص ٣٧ ، مئـير ، جـ ١ ، ص ٢٣ .

(٣٠) مدارس الاليانس اسستها جمعية الاتحاة الاسرائيلي العالمي Alliance Israélite Universelle بهدف رفع مستوى اليهود الفكري والمعنوي وتطوير حياتهم بالعناية بالشؤون التربوية والتعليمية. انظر : عبد العزيز ، الطائفة اليهودية في العراق ١٨٦٠ ـ ١٩١٨ ، ص ١٣ ، شاؤل ، ص ٦١ .

(٣١) المصدر السابق ، ص ٧١.

(٣٢) درويش ، ص ٣١ ـ ٣٢ ، مئـير جـ ١ ص٢٣ .

(٣٣) Abraham Twena, op . cit, part, 7, Jewish Autonomy in Iraq , Ramla, Geoula Synagogue Committee, 1979,p. 123, and Supplement to the Album; Ramla, Geoula Synagoque Committee, 1981, p. 12.

(٣٤) Zionist Organization, Report of the Executive of zionist organization submitted to the XIV th congress, London, 1925, p. 353.

(٣٥) درويش ، ص ٣٢ .

(٣٦) جريدة الانباء (القدس) ، ١٩٧٦/١٠/٨ .

(٣٧) Abraham Twena, Jewry of Iraq, Dispersion and Liberation, part, 3 Ahi-Ever Zionist party, Ramla, Geoula Synagogue Committee, 1973, p. 8.

(٣٨) مجلة المصباح (بغداد) ، ١٩٢٦/١/٢٢ ، ص٤ ، ١٩٢٧/٣/٧ ، ص٤ .

(٣٩) David Moualim, Jewry of Iraq: Dispersion and liberation, part 4. the Jewish community in Hillah, Ramla, Geoula synagogue committee, 1975, p. 6.

(٤٠) كوهين ، ص ٨٢ ـ ٨٣ .

(٤١) المصدر السابق ، ص ٨٣ .

(٤٢) درويش ، ص٣١ .

(٤٣) المصباح ١٩٢٥/٥/٧ ، ص ٦ ، ١٩٢٥/٣/٥،
والجمعية الانكليزيـة اليهودية ، هي فرع الاليانس في انكلترا ، انفصلت عنه عام ١٨٧١ ، وتعنـى هذه الجمعية بالشؤون الثقافية والتعليميـة لليهود ، في مختلف أرجاء العالم ، انظر : صـبري برجيس ، تاريخ الصهيونية ، الجـزء الاول(١٨٦٢ ـ ١٩١٧) ، بيروت ، مركز الابحاث ،١٩٨١، ص ٢٩ .

(٤٤) المصباح ١٩٢٥/١١/٥ ، وتجدر الاشـارة الى أن الاسماء ذكرت كما جاءت في المجلة .

(٤٥) المجلس الجسماني الاسرائيلي ببغداد ـ لجنةالمدارس ، تقرير عن المدارس الاهليـة الاسرائيليـة لسنة ١٩٥٠ ، بغـداد المجلس الجسماني الاسـرائيلي ، ١٩٥١ ، ص٧ ، ٢٣ . وانظـر أيضـا : فاضل البراك ، المدارس اليهودية والايرانية في العـراق ، دراسة مقارنة ، بغداد ، دار الرشـيد ١٩٨٤ ، ص ٣٢ ـ ٣٣ .

(٤٦) درويش ، ص ٣١ .

(٤٧) البراك ، المدارس اليهودية والايرانية ، ص٦٧ .

(٤٨) جريدة الاستقلال (بغـداد) ١٩٢٣/٩/٤ ، خيري العمري ، حكايات سياسية من تاريخ العـراق الحديث ، القاهرة ، دار الهلال ، د.ت ،ص١٧٣ ـ ١٧٤ .

(٤٩) المركز الوطني ، ملفه د /٨/٦ ، التبشـير الصهيوني في العراق ١٩٢٣ ـ ١٩٢٤ ، نقلا عن صادق السوداني ، النشاط الصهيوني في العراق ١٩١٤ ـ ١٩٥٢ ، بغـداد ، دار الرشـيد ، ١٩٨٠، ص ٣٨ .

(٥٠) Haddad and Fishman, the Jews of Iraq pp. 18-19.
كوهين ، ص ٨٧ .

(٥١) Twena, Ahi-Ever zionist party, pp. 10-11.
المصباح ١٩٢٥/٤/٢ ، ص ٨ ، ١٩٢٧/١٠/٢ ، ص ٦ .

(٥٢) المصدر السابق ١٩٢٧/١٠/٢٣ ، ص ٨ . المدراش تلمود توراه ، مدارس يهودية لتعليم التوراة أسسها الحاخام موشيه هاليفي في النصف الاول من القرن التاسع عشر . وكانت تدرس الى جانب التوراة بعض المواد الدنيوية الاخرى بشكل مبسط ، كاللغة العربية والحساب والجغرافية والتاريخ . انظر عبد العزيز ، المرجع السابق ص ٤ .

(٥٣) اسحق بارموشيه ، بيت في بغداد ، القدس، منشورات رابطة الجامعيين اليهود النازحين من العراق ، ١٩٨٣ ، ص ٢٣٢ .

(٥٤) Twena, Addenda and Errata, part, 2,p. 20.

(٥٥) Twena , Jewisy Antonomy in Iraq, p.112 .

(٥٦) شاؤل ، قصة حياتي ، ص ٩٥ — ٩٧ .

(٥٧) كوهين ، النشاط الصهيوني ، ص ٨٥ .

(٥٨) المصباح ١٩٢٦/٦/٣ ، ص ٥ . وتجدر الاشارة الى أن أسماء المدارس وردت كما في النص .

(٥٩) الاستقلال ١٩٢٧/١٠/٢٦ .

(٦٠) المصباح ١٩٢٦/٤/٤ ، ص ٥ — ٦ .

(٦١) المصباح ١٩٢٥/١٠/١ ، ص ٢ ١٩٢٥/١٢/٣١، ص ٤ .

(٦٢) المصباح ، ١٩٢٥/٤/٢٦ ، ص ٢ .

(٦٣) المصباح ، ١٩٢٦/١/٢١ ، ص ٣ .
اسمها دفار هايوم ، أي حديث اليوم أو خبر اليوم .

(٦٤) المصدر السابق ١٩٢٥/٩/١٠ ، ص ٤ ، ١٩٢٦/٣/٤ ، ص ٥

(٦٥) المصدر السابق ، ١٩٢٥/٣/٥ ، ص٣ .

(٦٦) انظر ايضا : قيس عبد الحسين ، مجلة المصباح ودورها الصهيوني في العراق ، ملحق جريدة الجمهورية (بغداد) ، ١٩٧٨/١/٧ .

(٦٧) المصباح ١٩٢٥/٤/٢٦ ، ص ٨ .

(٦٨) تجد مثل هذه المعلومات في جل أعداد المصباح .

(٦٩) طنجة .

(٧٠) المصدر السابق ، ١٩٢٤/٤/٢٤ ، ص٦ .

(٧١) المصدر السابق ، ١٩٢٤/٤/١٧ ، ص٦ .

(٧٢) Moreh, Short Stories by Jewish writers, pp. 18-19.

وشموئيل موريه ، يهودي عراقي ، وأستاذ الاداب العربي في الجامعة العبرية في القدس .

(٧٣) Rejwan, the Jews of Iraq, p. 204 .

(٧٤) قام الباحث باستخلاص المعلومات من المصادر التاليــة :

Keren kayemeth Leisrael, Report of the Head office to the XVI th Zionist congress at zurich, Jerusalem ,1929, pp. 64-67; zionist zation, Report of the Executive of the zionist organization to the XIII th Zionist congress, London, 1923 ,pp. 130-131.

(٧٥) Keren kayemeth Leisrael, Report of the Head office to the XVI th Zionist congress, Jerusalem, 1923, pp. 67-69.

(٧٦) جدول دخل الكيرن هيسود بالجنيهات الاسترلينيــة :

الفتـــــرة من	الى	تبرعات يهود العـراق	المجموع العام للتبرعات
١٩٢١/٤/١	١٩٢٢/٣/٣١	٥	٤١١ر١٣٣
١٩٢٢/٤/١	١٩٢٣/٣/٣١	٢ر٠٩٨	٣٧٩ر٢١٥
١٩٢٣/٤/١	١٩٢٤/٣/٣١	١ر٦٥٠	٤٦٣ر٠٧٤
١٩٢٤/٤/١	١٩٢٥/٣/٣١	٣١٣	٤٩٤ر٨٥٨
١٩٢٥/٤/١	١٩٢٧/٣/٣١	٣٠٥	١ر١٤٣ر٨٥٠
١٩٢٧/٤/١	١٩٢٩/٣/٣١	٤١١	١ر١٤٣ر٨٥٠
١٩٢٩/٤/١	١٩٣١/٣/٣١	١٢٦	٦٤٧ر١٧٧
المجمـوع		٤٩٠٨	

Keren Hayesod, Report of the Head office of Keren Hayesod ti council of the Jewish Agency, Basle 1931, p. 26; Keren Hayesod to the XVI Zionist Congress at Zuerich, Jerusalem, 1929, p. 119; Z.O. Report to XIV zionist congress,pp. 138-139. Z. O. Report to the zionist organization submitted to theXV th zionist congress at Basle, London, 1927, p. 158.

(٧٧) البراك ، المدارس اليهودية والايرانية ، ص ٦٥ – ٦٦ .

(٧٨) Twena, Supplement to the Album, p.70.

(٧٩) الشيكل ، شهادة تمنح لمن يدفع بدل اشتراك للمنظمة الصهيونية العالمية ، وكان يقدر الشيكل آنذاك ، بفرنك فرنسي ، أو مارك ألماني ، وكان الشيكل المصدر الرئيس للمنظمة الصهيونية حتى تأسيس الكيرن كييمت . انظر : عبدالوهاب الميسري ، موسوعة المفاهيم والمصطلحات الصهيونية ، القاهرة ، ١٩٧٤ ، ص ٢٢٤ – ٢٢٥ .

(٨٠) كوهين ، النشاط الصهيوني ، ص ٩٦ .

ويعتبر الشيكل رسوم العضوية للمنظمة الصهيونية العالمية، فاذا بيع في العراق ما بين...ر١ – ٩٩٩ر٢ شيكلا ، فانهم يحصلون على مقعدواحد في المؤتمر الصهيوني العالمي ، واذا بيع ما بين ٣٠٠٠ – ٣٩٩٩ شيكلا ، فانهم يحصلون علىمقعدين في المؤتمر الصهيوني ، وهكذا ... ، واذا بيع أقل من ...ر١ شيكل ، فانهم لا يمثلون فيهذه المؤتمرات . انظر : أسعد عبد الرحمن ، المنظمة الصهيونية العالمية ، بيروت ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ١٩٨٥ ص ٢٣٨ – ٢٤٠ .

(٨١) Itzhak Ben-Zvi, the Exiled and Redeemed, Translated from Hebrew by Issac Abbas, Jerusalem, 196, p. 15.

(٨٢) كوهي ، النشاط الصهيوني ، ص ٩٨ – ١٠٣ ، مئير ، خلف الصحراء ، جـ ١ ، ص ٢٢٥ .

(٨٣) Ben-Zvi, The Exiled and the RedeemeIbld, p. 15.

(٨٤) Ibid , P. 15 .

(٨٥) مير بصري ، اعلام اليهود في العراق الحديث،القدس ، رابطة الجامعيين اليهود النازحين من العراق ، ١٩٨٣ ، ٨٩ .

(٨٦) ألفرد موند Alfred Mond وهو من أثرياءبريطانيا ، ألماني الاصل ، وتقلد مناصب عليا في بريطانيا ، منها أنه انتخب ، عام ١٩٠٦ ،عضوا في البرلمان البريطاني ، ثم وزيرا للصحة البريطانية ، عام ١٩٢١ / ١٩٢٢ ، ومنذ صغره كان متحمسا للصهيونية ، وساهم في مجالات صهيونية عديدة ، منها التبرع للمؤسسات المالية الصهيونية بمبالغ طائلة ، كما ساهم في انشاء الوكالة اليهودية الموسعة عام ١٩٢٩ ، وقد كان ، آنذاك ، رئيسا لمجلسها ، لمزيد من المعلومات انظر :

Encyclopaedia Judaica, vol. 12, pp. 241-242, (Alfred Mond).

(٨٧) الصباح ، ١٢/٢٨/ ١٩٢٤ ، ص ٥ .

(٨٨) المصدر السابق ، ١٩٨٦/٣/١١ ، ص٧–٨ .

(٨٩) كوهين ، النشاط الصهيوني ، ص ١٩٨ .

(٩٠) Twena, Supplement to the Aibum, p.70.

(٩١) Ibid, p. 70 .

وحامد مصطفى ، مدد الصهيونية من الاوقاف العراقية ، مجلة آفاق عربية (بغداد) سنة ٣ ع٩ ، أيار ١٩٧٨ ، ص ٧٤ . وحامد مصطفى أحد العاملين في مجال الاوقاف العراقية آنذاك .

(٩٢) التصاريح شهادات تمنحها حكومة الانتداب البريطاني في فلسطين حسب قوانين الهجرة هناك ، لليهود الذين يرغبون بالهجرة الى فلسطين والاقامة فيها بشكل دائم وشرعي ، وتقوم حكومة الانتداب البريطاني بمنح هذه التصاريح بشكل سنوي وبعدد محدد الى الوكالة اليهودية ، ويكون قسم الهجرة في الوكالة اليهودية هو المسؤول عن التصاريح وتوزيعها على اليهود في مختلف أرجاء العالم ، وأي طريق للهجرة أو الدخول الى فلسطين بغير طريق التصاريح ، تعتبر هجرة غير شرعية أو دخول غير شرعي .

(٩٣) كوهين ، النشاط الصهيوني ، ص ١٠٩ ـ ١٢٥ .

(٩٤) تسفي يهودا ، الهجرة والمغامرة في العراق : الهجرة من العراق في أوائل العشرينات وصعوباتها ، في تسفي يهودا (المحرر) من بابل الى القدس ، تل أبيب ، مركز تراث يهود بابل ، ١٩٨٠ (بالعبرية) ، ترجمة خاصة غير منشورة ص١٠٢ ـ ١٠٧ .

(٩٥) لقد اطلعت على ملف القوانين والانظمة والقرارات والمراسيم والبيانات والتعليمات العراقية الخاصة باليهود العراقيين ، بغداد مركز الدراسات الفلسطينية ، كانون الاول ١٩٧٦ الذي اعده خلدون ناجي معروف ، واعتمد فيه على الوثائق العراقية الرسمية ، وخاصة جريدة « الوقائع العراقية » وهي الجريدة الرسمية في العراق ، ولكنني لم أجد أية معلومات عن موقف السلطات العراقية من الهجرة اليهودية الى فلسطين ، كما لم تشر المراجع التالية : خلدون ناجي معروف ، الاقلية اليهودية في العراق بين سنة ١٩٢١ و ١٩٥٢ ، بغداد ، مركز الدراسات الفلسطينية ، ١٩٧٦ ، الجزء الثاني ، والسوداني ، النشاط الصهيوني في العراق ١٩١٤ ـ ١٩٥٢ ، الى موقف السلطات العراقية من هذه الهجرة .

(٩٦) يبدو أن هذه الاعداد تشمل الذين هاجروا الى فلسطين بطرق شرعية وغير شرعية على السواء .

(٩٧) ايلي ليفي أبو عسل ، يقظة العالم اليهودي مصر ، مطبعة النظام ، ١٨٣٤ ، جـ١ ص ٢١٣ ـ ٢١٤ .

(٩٨) يهودا ، الهجرة من العراق في أوائل العشرينات ، ص ١٠٨ ـ ١١١ .

(٩٩) مئير ، خلف الصحراء ، جـ ١ ، ص٢٥ . (١٠٠)

(١٠٠) Z.O. Report to the XIV zionist congress, p. 354.

يهودا ، الهجرة من العراق في أوائل العشرينيات ، ص ١١٠ .

لمزيد من المعلومات عن تحمس يهود العراق للهجرة ، انظر :

C.O. 733/177/67498/ Government Mandats comission , Report sesson 1929, p. 191 .

(١٠١) كوهين ، النشاط الصهيوني ، ص ١١٠ .

(١٠٢) Ben-Zvi, The Exiled and the Redeemed , p. 43.

عبده وقاسمية ، يهود البلاد العربية ، ص ٦٩ .
والهاشومير ، كلمة عبرية تعني الحارس ، وهي منظمة عسكرية أقيمت في فلسطين عام ١٩٠٩ لتنظيم عملية حراسة المستوطنات وتنظيم الحراس واعداد غيرهم بتدريبهم على ركوب الخيل واستعمال السلاح . انظر : أحمدان بدر ، تاريخ منظمة الهاغاناه في فلسطين من ١٩٢٠ الى ١٩٤٥، بيروت ، منشورات فلسطين المحتلة ، ١٩٨٢ ، ص ١٧ .

(١٠٣) مئير ، خلف الصحراء ، جـ١ ص ٢٥ – ٢٦ .

(١٠٤) يهودا ، الهجرة من العراق في أوائل العشرينات ، ص ١٠٨ – ١١١ .

(١٠٥) United State of America, Department of state, 890G. 00/ 2 - 745, Despatch No. 619, 7/2/1945, the Jewish minority in Iraq, pp. 2 - 3; Hayyim Cohen, The Jews if the Middle East, 1800 - 1972, Jerusalem, Israel Unixersity press, 1973, pp. 25-26.

(١٠٧) الاستقلال ، ١٩٢٣/٩/٤ .

(١٠٧) الاستقلال ، ١٩٢٣/٩/٤ .

(١٠٨) الاستقلال ، ١٩٢٣/١٠/١٩ .

(١٠٩) الاستقلال ، ١٩٢٣/٩/١١ .

(١١٠) نظرا لان القصيدة كتبت باللغة العامية ، اضافة الى انها تحتوي على الكثير من الكلمات العبرية، فانه لم تذكر نماذج من هذه القصيدة .

(١١١) ديوان الملا عبود الكرخي ، نشره حسين حاتم الكرخي ، بغداد ، ١٩٥٢ ، جـ ٢ ، ص ١٧٠ – ١٧٣، وانظر أيضا جريدة البدائع البغدادية (بغداد) ١٩٢٤/٦/٦ .

(١١٢) جريدة المفيد ١٩٢٤/١١/٣٠ .

(١١٣) المصدر السابق .

(١١٤) جريدة العالم العربي (بغداد) ، ١٩٢٩/٩/١٠ .

(١١٥) مجلة الفكر الجديد (بسداد) ١٩٨٢/٢/١١ ، ص ٤ .
F.O. 371/200211/E 5484/94/3 .

نقلا عن : ردود الفعل العراقية تجاه اقامة وطن قومي لليهود في فلسطين ، ترجمة ممدوح الروسان مجلة المؤرخ العربي (بغداد) ، ع ٢٥ ، ١٩٨٤ ، ص ٦٨ ، العمري ، حكايات سياسية ، ص ١٧٦ – ١٧٨ .

(١١٦) Shiblak, The Lure of Zion, pp. 43-44.

لويدجي غبريللي ، الطائفة اليهودية في العراق ، ترجمة غادة المقدم عذره ، تاريخ العرب والعالم، سنة ٥ ، ع ٥٤ ، نيسان ١٩٨٣ ، ص ٧٠ .

(١١٧) درويش ، كل شيء هادىء ، ص ٣٥ .

(١١٨) كوهين ، النشاط الصهيوني ، ص ١١٧ .

(١١٩) جريدة العراق (بغداد) ، ١٩٢٩/٩/٧ .

(١٢٠) 890G. 00/2-745, Despatch, No. 619, 7/2/1945: The Jewish Minority in Iraq, p. 6.
U.S.A. : Department of State.

(١٢١) موسى بن نصير ، شذوذ مآسي في الطائفة الاسرائيلية ، بغداد ، مكتبة المثنى ، ١٣٤٢ هـ ، ص ١٨٢ .

(١٢٢) C.O. 730/158/78089, From, Eliahou Nahom to the Administrative Inspector of Baghdad, 13/9/1929, Rejwan, the Jewe or Iraq,225

(١٢٣) C.O. 730/ 158 / 78089, Form Eliahou Nahom, to the Hight commissioner for Iraq, 11/9/1929.

(١٢٤) C.O. 730/ 158 / 78089, Form Eliahou Nahom , to the Head office to the Zionist Organization London, 28/12/1929.

(١٢٥) كوهين ، النشاط الصهيوني ، ص ٣٦ .

النـدوة الرابعـة

للجنـة كتابـة تاريـخ العـرب بجامعـة دمشـق

تعقد لجنة كتابة تاريخ العرب في جامعة دمشـق ، في النصف الاول مـن العـام ١٩٩٠ ، ندوتها الرابعة ، والثانية في سلسلة الندوات المتخصصة ، ومحورها :

البنى الاجتماعية والاقتصادية في الوطن العربي في عصوره المختلفة .

يشارك فيها لفيف من المختصين والباحثين في الاقطار العربية .

وترحب اللجنة بمشاركة المتخصصين والباحثين في هذه الندوة ، على أن تتسلم بحوثهم قبل شباط / فبراير ١٩٩٠ ، ليتسنى تقييمها حسب الاصول المنهجية .

البيروني وأسس الأنثروبولوجيا الثقافية

د. أحمد الربايعة
الجامعة الاردنيـة

تمهيـــد :

يغفل مؤرخو الانثروبولوجيا في كثير من الاحيان ــ عن قصد أو عن غير قصد ــ دور المفكرين العرب في التمهيد للدراسات الانثروبولوجية الحديثة . اذ غالبا ما يشيرون الى كتابات هيرودتس عن حياة الشعوب القديمة وعاداتها وتقاليدها في القرن الخامس ق.م ، وكتابات المبشرين والرحالة الغربيين في عصر الكشـوف الجغرافيــة في القــرن الخامس عشر للميلاد على أنها المقدمات التمهيدية لنشـأة الاهتمام بهـذا النمط مـن الدراســات(١)، متجاهلين بذلك فترة العصور الوسطى التي شهدت فيها الدراسات الانثروبولوجية تقدما كبيرا على أيدي نخبة من جهابذة المفكرين والرحالة العرب أمثال ابن فضلان والبيروني وابن خرداذبة وابن بطوطة وابن جبير والمسعودي وابن خلـدون وغيرهم من المؤرخين والرحالة العرب الذين الفوا مصنفات عديدة تشتمل على معلومات اثنوغرافية (وصفية) وفيرة عن أحوال الشعوب التي زاروها وكتبوا عنها وعن عاداتها وتقاليدها ونظمها الاجتماعية المختلفة . وما زالت مؤلفاتهم حية حتى يومنا هذا تشهد على عظمة انجازاتهم العلمية في ميدان الدراسات الانثروبولوجية وفي غيرها من ميادين المعرفة الاخرى بصورة تؤكـد ما قاله لوثرب « بأن العرب كانوا أكثـر ممالك الدنيـا حضارة وعمرانا ورقيا طيلة القرون الوسطى »(٢).

واذا كانت الاكتشافات الجغرافية في القرن الخامس عشر للميلاد هي التي مهدت لنشأة الاهتمام بالدراسات الانثروبولوجية ، فان الرحالة العــرب هي الذين مهـدوا الطريق للرحالة الغربيين وللاكتشافات الجغرافية الحديثـة بما قدموه من معلومـات

---

* البيروني : هو ابو الريحان محمد بن أحمد البيروني ، ولد صباح الخميس الثالث من ذي الحجة ، عام ٦٣٢ هـ في نواحي بلدة «كاث» المعروفة فيهذه الايام بخيـوا . أما بيرون فهي كلمة فارسـية للضواحي والاطراف ، أو كان مسقط رأسـه وتوفي عام ٤٤٠ هـ (١٠٤٨م) . انظر وزارة المعارف للحكومة العالية الهندية « تحقيق ما للهند من مقولة مقبولـة في العقل أو مرزولة » ، مجلس دائرة المعارف العثمانية ، حيدر أباد ، الدكن الهند ، ١٣٧٧ هـ وانظر كذلك بجياتند البنارسي ، غـرة الزيجات، ترجمة أبو الريحان ، محمد بن أحمدالبيروني ، المجمع العلمي السندي ، جامعة السند ، حيدر اباد ، السند ، باكستان ١٩٧٣ ، ص (ح) .

وفيرة عن أحـوال البلاد الجغرافية والاقتصادية والعمرانية والادارية وغيرها(٣). وقد كانوا يهدفون من وراء الرحلة وجمع المعلومات من البـلاد الاسلامية والبلاد الاخـرى المتاخمة لها الى تمتين صلة هذه البلاد بعاصمة الخلافة الاسلامية في بغداد والى حماية سكانها من الاعتداءات الخارجيـة ، وذلك بخلاف الساسـة الاوروبيين الذين كانـوا يستغلون المعلومات الاثنوغرافيـة (الوصـفية) التي كان يجمعها الرحالـة وحكـام المستعمرات والمبشرون لتقوية قبضتهم الاستعمارية على هذه البلاد ولتسهيل ادارتها واستنزاف خيراتها واستغلال مواردها البشرية بأجور زهيدة أو بدون أجور .

ومن ناحية أخرى فان اتصال العرب بحضارات العالم القديم مثل الهند والصين لم يكن كله بفعل الفتح الاسلامي . فقد كان للعرب اتصالات تجارية مع هذه البلاد قبل الفتوحات الاسلامية(٤) . وكان التجـار يدونون ملاحظاتهم ومشاهداتهم عـن عادات الشعوب في أثناء أسفارهم وتنقلاتهم ، وكانت تعرض على شكل قصص وروايات تحكي قصـة حياة الشعوب التي زاروها(٥) ، ولم يعرفوا أن هـذه المشاهدات والملاحظـات سوف تصبح يوما موضوعا لعلم مستقل قائم بذاته وهـو علم الانثروبولوجيا . وهـذا كله يشير الى أن الدراسات العربية الاثنوغرافية لم ترتبط منذ البداية بأيـة أهداف اسـتعمارية .

وعلى الرغم من أن جهود العرب في هذا المجال قد أُسدِلَ عليها الستار لمدة طويلة من الزمن فان الاوروبيين أصبحوا يدركون كما يقول يهودا مقدار دينهم لما قدمه التمدن العربي للاوروبيين(٦) وأصبحوا يسلمون كذلك كما يقول كراتشكوفسكي بأن الحضارة العربية تشغل مكانة مرموقة في تاريخ البشرية(٧) . ولسوء الحظ فان نسبة كبيرة مـن المثقفين العرب وطلبة الجامعات والمعاهد العلمية في الوطن العربي ما زالت تجهل الى حد ما الاسهامات الحضاريةوالانجازات العلمية التيقدمها العرب لبناء صرح الدراسات الانثروبولوجية المعاصرة . وربما يعود ذلك في جزء كبير منه الى ندرة الكتابات في هـذا الموضوع ، والى خلو المناهج تقريبا في أقسام علم الاجتماع والانثربولوجيا في الجامعات العربية من مادة دراسية توضح اسهام العرب في هذا الموضوع الحيوي الهام .

واني لأقف بحزم مع العلماء والمفكرين العرب الذين ينادون بضرورة انشاء علـم انثروبولوجيا عربي ،وذلك بأن نمد أيدينا الى المصنفات الضخمة التي خلفها رواد الفكر العربي الاوائل والفقهاء والمفسرون والرحالـة المتجولون ونحلـل مادتها ومحتوياتهـا الاثنوغرافية الخصبة بأساليب عصرية تنسجم مع الطريقة العلمية المتبعة في الدراسات الانثروبولوجية المعاصرة . فبذلك نمهد لماضينا الثقافي كما يقول الكيالي أن يكون ماثلا أمامنا بشكله المقبـول المحبب الذي لا يمكن انكـاره مهما حاول البعض ان يقلـل مـن قيمتـه(٨) . . .

وقد كانت أول محاولة لكاتب هذه الاسطر في هذا المجال في عام ١٩٨٣ عندما نشر بحثا بعنوان « اسهامات الرحالة العرب في الدراسات الانثروبولوجية المبكرة »(٩) حاول أن يستعرض فيه الخطوط العريضة للجهود العلمية التي بذلها الرحالة العرب في مجال التمهيد للدراسات الانثروبولوجية الحديثة .

وقد راى الباحث في هذه المحاولة الثانية أن يقف جهده العلمي المتواضع على تحليل جزء يسير من المادة الاثنوغرافية الغزيرة التي تضمنها كتاب البيروني « تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة » ذلك لان هذا الكتاب يشتمل على كثير من ركائز المنهج الانثروبولوجي وعلى كثير من الموضوعات الاجتماعية التي ما زالت تشكل محور اهتمام الانثروبولوجيا المعاصرة . وبالاضافة الى ذلك ، فان هذا الكتاب يتناول مجتمعا عجيبا يتميز بتعدد دياناته ولغاته وسلالاته وعاداته الاجتماعية الى درجة أنه يمثل كما يقول لوبون « زبدة جميع العوالم وخلاصة ناطقة بجميع أدوار التاريخ وصورة صادقة للادوار المترجحة بين الهمجية والحضارة الحديثة »(١٠) ولذلك فان التعرف الى النظم والعادات الاجتماعية التي أبرزها البيروني في هذا الكتاب ربما يمدنا بفكرة عامة عن مجمل الحضارة في العالم في ذلك الوقت . ولعل هذه الفكرة الاخيرة هي التي كانت تقف وراء عبارة « طاغور » شاعر الهند العظيم ، انه لا يجب أن يعد نفسه مثقفا من لم يمض في الهند ثلاثة شهور على الاقل ، فمن لم يزر الهند اطلاقا يجب أن يكون أبعد ما يكون عن الثقافة(١١) .

وربما لا يكون هنالك دليل أبلغ على أهمية هذا الكتاب من وصف روزن له الذي وصفه منذ خمسين عاما بأنه أثر فريد في بابه لا مثيل له في الادب القديم أو الوسيط سواء في الغرب أو في الشرق(١٢) :

لقد كان البيروني واسع الاطلاع والمعرفة وملما بجميع العلوم والمعارف التي كانت سائدة في عصره . فقد جاء في « غرة الزيجات » انه كان رحمه الله متبحرا في علوم كثيرة ومعارف جمة نحو الرياضيات والفلك والنجوم والجغرافية ومساحة الارض والمعادن وطبقات الارض والتاريخ والاخبار والسير والآثار القديمة والتمدن والفلسفة والدين ونظام الكون والطب والعرافة وجسد الانسان والبصريات والطبيعيات واللغة والاساطير والحديث(١٣) . أما بالنسبة لابحاثه في الهند والسند فقد كانت واسعة جدا ومتنوعة ، فلكي يقف البيروني على جميع أبعاد التفكير الهندي فقد حدد لنفسه مهمة صعبة وشاقة وهي دراسة جميع كتابات الهنود في كل ميدان من ميادين المعرفة، فكان بحق اول من أوجد أسس الانطولوجيا . ويعتبر كذلك أول من أرسى أسس الانثربولوجيا الثقافية لكونه درس معتقدات الهنود وافكارهم الثقافية

وطريقة حياتهم دراسة موضوعية وبطريقة علمية مخططة(١٤) . وقد أراد البيروني بذلك أن تكون كتاباته عن الهند مرشدا وهاديا لكل باحث علمي ولكل من رام مخالطة الهنود والعيش معهم «يقول: سأعمل باذن الله كتابا في حكاية شرائعهم، والابانة عن عقائدهم ، والاشارة الى مواضعاتهم وأخبارهم وبعض المعارف في أرضهم وبلادهم يكون عدة لمن رام مداخلتهم ومخاطبتهم »(١٥) . ولا شك أن هذا يدل على أن البيروني كان واعيا بأهمية محتويات هذا الكتاب . ومدركا لفوائده الجمة الغزيرة . وقد وصف زاخو دراسات البيروني عن الهند بأنها تمثل عصر النهضة والانبعاث العلمي ، وذكر كذلك ان معرفته المتخصصة بالهند التي يفتقر اليها الآخرون جعلت من أعماله ممثلة للفكر العالمي في تلك الفترة (اي فترة العصور الوسطى)(١٦). وصفوة القول ، ان البيروني من كبار العلماء الذين ظهروا في القرن الرابع الهجري ، وقد أطلق على هذا القرن، اسم عصر البيروني لانه أكبر شخصية علمية عاشت فيذلك الوقت(١٧).

ولأن المادة الاثنوغرافية التي اشتمل عليها كتاب البيروني (تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة) غزيرة واسعة جدا ومتنوعة ويصعب الالمام بها جميعا في هذا المقام ، فقد اختار الباحث منها موضوع الطبقات الاجتماعية وما يرتبط بها من بعض السنن والآداب الاجتماعية ، نظرا لأن الطبقة تشكل وحدة الحياة الاجتماعية الاساسية في الهند وتتحدد بموجبها معظم تصرفات الهنود وأنشطتهم الاجتماعية المختلفة . كذلك فقد اختار الباحث أن يتحدث عن المنهج الذي استخدمه البيروني في جمع المادة الاثنوغرافية ليبين اسهامه في هذا المجال العلمي الهام . ونرى أنه من المناسب أن نبدأ بالحديث عن منهجه والوسائل والطرق التي استخدمها في جمع المعلومات الاثنوغرافية عن الحياة الاجتماعية في المجتمع الهندي القديم في فترة العصور الوسطى .

المنهج الانثروبولوجي عند البيروني :

يقوم المنهج في الدراسات الانثروبولوجية المعاصرة على الدراسة الحقلية الميدانية، واستخدام الملاحظة المباشرة وغير المباشرة والمشاهدة الحسية أسلوبا لجمع المعلومات والبيانات من الميدان الاجتماعي ثم تحليل هذه المعلومات وتفسيرها في ضوء علاقتها بالبناء الاجتماعي القائم والاطار الحضاري العام للمجتمع موضوع الدراسة، على اساس انه لا يمكن فهم أية ظاهرة اجتماعية أو أي نظام اجتماعي بمعزل عن شبكة العلاقات الاجتماعية القائمة في مجتمع الدراسة نظرا لما يقوم بين الظاهرات الاجتماعية من ترابطات تكاملية من جهة ونظرا لما يقوم بينها جميعا وبين البناء الاجتماعي من تأثيرات متبادلة وتساندات وظيفية(١٨) .

ويعد مالينوفسكي الانثروبولوجي الشهير أول من وضع أسس الدراسة الميدانية بعد أن قام بدراسته الحقلية لسكان جزر التروبرياند في مالينزيا ، على الرغم من أن مواطنه العلامة رادكليف براون هو أول من قام بدراسة حقلية لسكان جزر الاندمان(١٩). وهذه الاسس هي :

أولا : اقامة الباحث الانثروبولوجي في مجتمع الدراسة وقطع كل اتصال له بالعالم الخارجي .

ثانيا : أن يكون لديه معرفة تامة بما توصلت اليه الدراسات العلمية الحديثة في مجال تخصصه وأن يكون لديه هدف علمي واضح للبحث.

ثالثا : أن يستخدم أدوات مناسبة لجمع بياناته الحقلية(٢٠) .

والمتمعن في الاسلوب الذي استخدمه البيروني في دراسته للمجتمع الهندي ، يلاحظ أنه يشتمل على الكثير من المبادىء والاسس التي طرحها مالينوفسكي في هذا العصر . وبذلك يكون البيروني قد سبق مالينوفسكي في التمهيد للمنهج الانثربولوجي بمدة تقرب من تسعة قرون . والمبادىء التي طرحها البيروني هي : ــ

أولا : ملاحظة الظواهر الاجتماعية الماثلة للعيان ومشاهدتها في وقت وقوعها وفي مكان حدوثها . يقول البيروني «انما صدق قول القائل ليس الخبر كالعيان» لان العيان هو ادراك عين الناظر عين المنظور اليه في زمان وجوده وفي مكان حصوله(٢١) . ويتضمن هذا المبدأ الاقامة في مجتمع الدراسة بصورة مستمرة، ذلك لانه من غير المعقول ملاحظة الظواهر الاجتماعية ومشاهدتها في الوقت الذي يكون فيه الباحث مقيما في خارج المجتمع المدروس . وتشير المصادر التاريخية الى أن البيروني دخل الى بلاد الهند في عام ١٠١٧ ميلادية (٤٠٨هـ) وانه تجول في المناطق الشمالية الغربية في الهند التي تدعى اليوم الباكستان قرابة أحد عشر عاما ، من سنة ١٠١٩ ــ ١٠٢٩م . وسافر في بلاد الهند زهاء ٤٠ عاما(٢٢) . وهذه المدة تزيد كثيرا جدا على المدة التي قضاها مالينوفسكي عند سكان جزر التروبرياند في مالينزيا فيما فيما بين عام ١٩١٤ ــ ١٩١٨ والتي تعتبر أطول مدة قضاها باحث أنثروبولوجي في المجتمع المدروس في العصر الحاضر(٢٣) . وتضمن هذا المبدأ كذلك ضرورة مشاهدة الحادثة الاجتماعية في اللحظة التي حدثت فيها ، وفي المكان الذي وقعت فيه ، ذلك لان أفراد المجتمع قد يكونون أشد تفاعلا مع الحادثة الاجتماعيةوأكثر اهتماما بها لحظة وقوعها ،ولذلك فانهم قد يجيبون بصدق أكثر عن استفسارات الباحث وتساؤلاته بشأنها اذا اقتضى الامر ذلك . ثم

ان الحادثة الاجتماعية قد تكون من النوع الذي لا يتكرر في فترة زمنية قصيرة ولذلك ينبغي على الباحث مشاهدتها في زمن حدوثها حتى لا يضطر الى الاعتماد على المخبرين للحصول على معلومات بشأنها . وقد حذّر البيروني كما سنبين بعد قليل من الاعتماد على الاخبار المنقولة نظرا لما تسببه من تشويه للحقائق الاجتماعية . وكذلك الامر فقد يكون للحادثة الاجتماعية صلة بالمكان الذي وقعت فيه فلا نستطيع أن نفهمها الا من خلال هذه الصلة . وهكذا يكون البيروني قد قرر اطارا تصوريا في رؤية الظواهر الاجتماعية ودراستها قوامه انه يقوم بين الظواهر الاجتماعية من جهة ثم بينها وبين المجال البيئوي المحيط بها والمناخ الاجتماعي اللازم والزمن الذي تحدث فيه ترابطات تكاملية ، وما زال هذا الاطار الفكري هو الذي يحكم رؤية الانثروبولوجيين وعلماء الاجتماع المعاصرين للظواهر والنظم الاجتماعية والوظائف التي تقوم بها .

ويترتب على اقامة الباحث في المجتمع المدروس بصورة متواصلة مشاركته لهم في بعض فعالياتهم وانشطتهم الاجتماعية ، وظهوره بينهم مرات عديدة ، فيألفون وجوده ويطمئنون اليه وهذا من شأنه أن يسهل مهمته الدراسية . وعلى الرغم من أن البيروني قضى في الهند قرابة أربعين عاما فانه أشار الى كثير من الصعوبات في التكيف معهم نظرا لنفورهم من كل وافد غريب وابتعادهم عن مخالطته والتفاعل معه . يقول البيروني : « فليس بمطلق لهم قبول من ليس منهم اذا رغب فيهم أو صبا الى دينهم »(٢٤) .

وتقضي اقامة الباحث في مجتمع الدراسة ومشاهدة الحادثة الاجتماعية تسجيل وقائعها وتفصيلاتها وكل ما يتعلق بها وعدم الاعتماد على الذاكرة والحفظ . يقول البيروني « لكني كنت أعتمد فيما كنت أحصل على الضبط بالكتابة دون الحفظ اعتزازا بالسلامة وأمنا من الحوادث »(٢٥) .

ثانيا : عدم الاعتماد على الخبر وحده على الرغم من أهميته : يرى البيروني أن هنالك مشكلات عديدة تحف بالخبر ولا تجعل منه وسيلة ملائمة لجمع الحقائق الاثنوغرافية واهمها الكذب أو عدم الصدق في نقل الاخبار وروايتها(٢٦) . ويرى أنه لولا هذه المشكلة اي الكذب التي يسميها (آفة) لكان الاخبار عن الظاهرة الاجتماعية افضل من الملاحظة والمشاهدة ، ذلك لان الملاحظة تقتصر على مشاهدة الظاهرة ومعاينتها في وقت حدوثها ومكان حصولها ، أما الخبر فانه ييسر للباحث جمع معلومات عن الظاهرة ، ولو لم تقع أمام عينيه ، وذلك عن طريق الكتب والرواية والاستماع وغيرها من الوسائل . يقول البيروني : « ولولا لواحقُ آفاتٍ بالخبر لكانت فضيلته تبين على العيان والنظر لقصورهما على الوجود الذي لا يتعدى آنات الزمان ، وتناول الخبر اياها وما قبلها من ماضي الازمنة وبعدها من مقتبلها حتى يعم الخبر لذلك الموجود والمعدوم معا »(٢٧) .

ويحدد البيروني دواعي الكذب في :

أ ـ التعصب للذات أو للسلالة التي ينتمي اليها المخبر فيرفع قدر نفسه ومن قدر سلالته ويحط من قدر السلالات الاخرى. ومبعث ذلك هو الشهوة والغضب، يقول البيروني : « ومن مخبر عن أمر كذب يقصد فيه نفسه فيعظم به جنسه لانها تحته أو يقصدها فيزري بخلاف جنسه لفوزه فيه بارادته»(٢٨) .

ب ـ تحيز المخبر لطبقة اجتماعية معينة بسبب ما يحصل عليه من فوائد ومكتسبات وذم طبقة اجتماعية أخرى لعدم حصوله على مكتسبات منها . يقول البيروني : « ومن مخبر عن كذب في طبقة يحبهم لشكر أو يبغضهم لنكر ، والداعي الى ذلك هو المحبة والغلبة »(٢٩) .

جـ ـ التزلف والمحاباة طمعا في خير يصيبه أو تجنبا لشر قد يقع له : يقول البيروني : « ومن مخبر عنه متقربا الى خير بدناءة الطبع أو متقيا لشر من فشل وفزع » (٣٠).

د ـ أن يكون المخبر أو الناقل مجبولا بطبعه على الكذب . يقول « ومن مخبر عنه طباعا كأنه محمول عليه غير متمكن من غيره ، وذلك من دواعي الشرارة وخبث مخابيء الطبيعة »(٣١).

هـ ـ الجهل بالاخبار أو ما يسميه الخشاب : الذهول عن المقاصد (٣٢). « ومن مخبر عنه جهلا وهو المقلد للمخبرين وان كثروا جملة أو تواتروا فرقة بعد فرقة ، فهو وهم وسائط فيما بين السامع وبين المتعمد الاول »(٣٣) . وقد ضرب البيروني أمثلة على نقل الاخبار غير الصحيحة بماورد في كتابات بعض العلماء الهنود عن ديانة الهند ومذاهب أهلها . يقول « ان أكثرها منحول وبعضها عن بعض منقول وملقوط ، مخلوط غير مهذب على رأيهم ولا مشذب »(٣٤). ومع ذلك فان البيروني يرى أن الخبر قد يكون في بعض الاحيان الوسيلة الوحيدة لجمع معلومات عن الظاهرة الاجتماعية .

وفي هذه الحالة ينبغي مقارنة هذه الاخبار ومقابلتها بعضها ببعض والاخذ بما هو صحيح منها . يقول البيروني : « وانما فعلت ما هو واجب على كل انسان أن يعمله في صناعته من تقبل اجتهاد من تقدمه بالمنة وتصحيح خلل ان عثر عليه بلا حشمة»(٣٥). ويقول في كتاب آخر : « وابتديء فأقول ان أقرب الاسباب المؤدية الى ما سئلت عنه هو معرفة أخبار الامم السالفة وانباء القرون الماضية لان اكثرها أحوال عنهم ، ورسوم

باقية من رسومهم ونواميسهم ، ولا سبيل الى التوسل الى ذلك من جهة الاستدلال بالمعقولات والقياس بما يشاهد من المحسوسات سوى التقليد لأهل الكتب والملل ، وأصحاب الآراء والنحل ، المستعملين لذلك وتصيير ما هم فيه أساً يبنى عليه بعده ، ثم قياس أقاويلهم وآرائهم في اثبات ذلك بعضها ببعض »(٢٦) . الى أن يقول في مكان آخر من الكتاب نفسه : « فان الذي ذكرته أولى سبيل يسلك بأن يؤدي الى حاق المقصود ، وأقوى معين على ازلة ما يشوبه من شوائب الشبه والشكوك ، وبغير ذلك لا يتأتى لنا نيل المطلوب ولو بعد العناء الشديد والجهد الجهيد ، على أن الاصل الذي أصلته ، والطريق الذي مهدته ، ليس بقريب المأخذ ، بل كأنه من بعده وصعوبته يشبه أن يكون غير موصول اليه لكثرة الاباطيل التي تدخل في جُمَل الاخبار والاحاديث ، وليست كلها داخلة في حد الامتناع فتميَّز وتهذب ، لكن ما كان منها في حد الامكان جرى مجرى الخبر الحق اذا لم يشهد ببطلانه شواهد أخر »(٢٧) .

ثالثا : المام الباحث الانثروبولوجي بلغة المجتمع المدروس وبلهجاته :

لقد تنبه البيروني منذ تسعة قرون تقريبا الى ضرورة أن يكون الباحث الانثروبولوجي ملما بلغة المجتمع الذي سيدرسه ومتقنا للهجاته ، ذلك لان معرفة اللغة – من وجهة نظر البيروني – هي أداة اتصال فكري وتفاعل وجداني بين الباحث وبين أفراد المجتمع الذي يدرسه ، وبدون معرفة قواعد اللغة وكشف مضامينها الفكرية ، فانه يتعذر على الباحث تفهم المجتمع ودراسته حيث يحصل بينه وبين أفراد المجتمع نوع من القطيعة وعدم التفاهم والتواصل مما يعجزه عن كشف المعاني والقيم الاجتماعية السائدة فيه ، نظرا لما يقوم بين اللغة وبين بناء المجتمع ونسقه الثقافي العام من علاقات وترابطات تكاملية . يقول البيروني في هذا الصدد : « يجب أن نتصور أمام مقصودنا الاحوال التي لها يتعذر استشفاف أمور الهند ، فاما أن يسهل بمعرفتها الامر واما أن يتمهد له العذر ، وهو أن القطيعة تخفي ما تبديه الوصلة ، ولها فيما بيننا أسباب : منها أن القوم (يقصد الهنود) يباينوننا بجميع ما يشترك فيه الامم واولها اللغة وان تباينت الامم بمثلها ومتى رامها أحد لازالة المباينة لم يسهل ذلك »(٢٨) .

ويؤكد علماء الانثروبولوجيا المعاصرون أن اللغة ليست أداة للتفاهم ونقل الافكار وايصالها فحسب ، بل هي أداة لفهم المضمون الحضاري للمجتمع بكل ما تشتمل عليه الحضارة من قيم ومعانٍ وعادات وتقاليد ومعتقدات اجتماعية وشعائر طقوسية وغيرها من حقائق الحياة الاجتماعية ، على أساس ان هنالك علاقة بين المضمون الحضاري للمجتمع وبين لغة أفراده (٢٩) . ويقول ايفانز برتشارد في هذا الصدد : « فلكي يفهم الباحث الانثروبولوجي فكر المجتمع الذي يدرسه يجب أن يعرف كيف يفكر بنفس الطريقة التي يفكرون بها ، كما أنه حين يتعلم لغة ذلك المجتمع فانه يتعلم كذلك ثقافتهم

ونسقهم الاجتماعي نظرا لانه يعبر عنهما بمصطلحات تلك اللغة والفاظها ، فكل علاقة اجتماعية وكل معتقد وكل تقنية بل وكل شيء في الحياة الاجتماعية يعبر عنه الافراد في الفاظهم وفي افعالهم ، وحين يصل الباحث الى فهم معاني كل كلمات تلك اللغة وطريقة استعمالها في المواقف والمناسبات المختلفة يكون قد انهى دراسة المجتمع »(٤٠).

فاللغة على هـذا الاساس ليست مجرد وسيلة للتفاهم أو لتوصيل الافكار بل تتحدد وظيفتها كما يقول الخشاب في الاطار الوظيفي العام باعتبارها احدى حلقات السلوك الجماعي والنشاط الانساني المنتظم(٤١) .ويذهب مالينوفسكي الى القول : « بأن اللغة هي الاداة الاساسية والوسيلة الضرورية لوصل الروابط البنائية التي يستحيل بدونها تحقق أو قيام العمل الجماعي المشترك »(٤٢).

ولا شك أن التأكيدات على أهمية دراسة لغة المجتمع المدروس التي يلح عليها علماء الانثروبولوجيا المعاصرون وتأكيداتهم على عدم اعتماد الباحث على المترجمين الا في الظروف والحالات الاستثنائية ، يشير الى مبلغ ما وصل اليه البيروني من مكانة علمية رفيعة في هذا المجال حيث سبق الانثروبولوجيين المعاصرين بالمناداة بضرورة تعلم لغة الاهالي في المجتمع المدروس بقرون عديدة . وغني عن البيان أن نذكر أن البيروني لم يتعلم اللغة الهندية فحسب ، بل تعلم اللغة السنسكريتية التي تولدت عنها الهندية وأجادها وسيطر عليها سيطرة تامة ، بدليل انه ترجم كثيرا من كتبهم الى اللغة العربية حيث كان يرى أن اللغة العربية أكثر طواعية للعلم ومصطلحاته من الفارسية(٤٣) .

رابعا : الموضوعية : كان البيروني يلتزم جانب الحياد في كل ما يلاحظه فلا يعترض ولا ينتقد مطلقا حينما يشرح العقائد الدينية وغيرها من المتواضعات والانشطة الاجتماعية المختلفة . فهو يقول « وانا في أكثر ما سأورده من جهتهم حاكٍ غير منتقد الا عن ضرورة ظاهرة »(٤٤)

خامسا : تكوين فكرة مسبقة عن المجتمع موضوع الدراسة : ويعد هذا المبدأ من اهم مرتكزات الدراسة الحقلية في الانثروبولوجيا المعاصرة . وتعني الفكرة المسبقة أن الباحث الانثروبولوجي يجب ان يكون لديه اطلاع ومعرفة بالمجتمع الذي ينوي دراسته دراسة ميدانية قبل أن يصل اليه : اما عن طريق الاخبار أو عن طريق قراءة كتب معينة عن هذا المجتمع . ولا تعني الفكرة المسبقة أن الباحث الانثروبولوجي سوف يظل أسير هذه الفكرة بعد انخراطه في المجتمع ، بل ينبغي أن يغيرها ويبدلها اذا وجد ان الحقائق الاجتماعية القائمة تعارض فكرته المسبقة عن المجتمع أو لا تتفق معها .

والمرجح أن البيروني قد استخدم هذا المبدأ وطبقه . فالعصر الذي عاش فيــه البيروني (القرن الرابع للهجرة ، العاشر للميلاد) قــد شــهد حركة علمية وثقافيــة واسعة . فقد كان بلاط الخلفاء العباسيين في بغداد يزخر بعدد كبير من العلماء الهندوس والعرب وبخاصة بعد أن تم فتح أجزاء كبيرة في شمال الهند(٤٥) في عهد الخليفة العباسي المنصور . وقد قويت حركة الاتصالات العلمية والثقافية بين العلماء العرب والهنــود بعد أن تأسست مدينة المنصورة في الهند في عام ٧٦٢م حيث أصبحت هذه المدينة مركزا مهما على الارض السندية للتواصل العلمي والبحثي فيما بين العلماء العرب والهنود(٤٦). وكان البيروني من بين هؤلاء العلماء ، ولذلك فلا بد أن يكون قد اطلع على ما كتب عــن أحوال الهند أو وصلته أخبار عنها من خلال العلماء الهنود قبل أن يدخلها ، خاصة وأن صديقه الحميم القائد محمود الغزنوي هو الذي شجعه على دراسة جغرافية الهنــد ودراسة الحياة الاجتماعية فيها(٤٧) . وقد أشــار البيروني نفســه الى هذا التكليف ورحّب به واعتبره شرفا عظيما(٤٨) . وهذا التكليف وتلك الرغبــة من قبــل البيروني تجعلنا نميل الى القول بأن البيروني قد درس أحــوال الهند وكون فكرة عنها قبــل دخولهــا .

سادســا : مبدأ المقارنــة :

يولي علماء الاجتماع والانثروبولوجيا المعاصرون هذا المبدأ اهمية كبيرة في البحث الانثروبولوجي ذلك لانه باستخدام هذا المبدأ يمكن التعرف علــى مدى شيوع النظــم الاجتماعية وعموميتها وابراز أوجه التشابه فيما بينها في مختلف العصور تمهيدا لاقامة قواعد عامة تحكم أوجه النشاط الاجتماعي والسلوك البشري . وقد استخدم البيروني هذا المبدأ أحسن استخدام وطبقه أروع تطبيق . فقد قارن بين الديانة الاســـلامية وديانة الهنود وبيّن ما بين الديانتين من تباين وتباعد . يقــول « ومنها أنهم يباينوننــا بالديانة مباينة كلية ، لا يقــع منا شيء مــن الاقرار بما عندهم ولا منهــم بشيء ممــا عندنا »(٤٩) . وقارن بين عادات المسلمين وعادات الهنود وبيّن ما بينها من اختلافات كبيرة . يقول « ومنها أنهم يباينوننا في الرسوم والعادات ».(٥٠) وقارن كذلك بين ديانة الهنود وديانة اليونان قبل ظهور الديانــة المسيحية وبيّن ما بين الديانتين من أوجــه التشابه والاتفاق ، يقول « ان اليونانيين أيام الجاهلية قبــل ظهور النصرانية كانوا على مثل ما عليه الهند من العقيدة ، خاصتهم في النظر قريب من خاصهم ، وعامتهم في عبادة الاصنام كعامهم ، ولهذا استشــهدُ من كلام بعضهم على بعض بسبب الاتفــاق وتقارب الامرين » (٥١). وقارن الطبقات التي كانت موجودة في بلاد الفرس قبل الاسلام بالطبقات التي كانت قائمة في الهند ، وبيــن أوجه التماثــل والتشابه بين هذين النظامين مــن الطبقات(٥٢) . كما قارن بين عادة الاستبضــاع التي كانت سائدة في الجزيرة العربية قبل

الاسلام بما كان موجودا عند الهنود وقت الجاهلية من انواع النكاح الذي يحرمه الاسلام(٥٣) ، وقارن ديانة الرومان واليونان بديانة الهند (٥٤) .

وقد توصل البيروني بناء على هذه المقارنات الى تعميمات عامة بشأن بعض الظواهر والنظم الاجتماعية بعد أن وجدها شائعة في بلدان كثيرة وفي شعوب مختلفة ، وفي مقدمة ذلك ، التعميم الذي يذهب الى أن عامة الناس ينزعون الى عبادة المحسوسات بينما يتجه المتعلمون العارفون الى عبادة الله المنزه عن الصفات البشرية. يقول البيروني : « معلوم أن الطباع العامي نازع الى المحسوس ، نافر من المعقول الذي لا يعقله الا العالمون الموصوفون في كل زمانٍ ومكان بالقلة »(٥٥) وقد توصل البيروني الى هذا التعميم بعد أن وجد أن عامة الناس في مختلف المجتمعات تتجه الى عبادة الاصنام بينما يتجه المتعلمون المثقفون الى عبادة الله .

وهكذا يتضح مما عرضنا له بصدد المنهج عند البيروني انه استخدم كثيرا من المرتكزات والاسس التي يقوم عليها المنهج الانثربولوجي المعاصر ، ولا سيما ما يتعلق منه بالتركيز على الدراسة الحقلية الميدانية ، وما ينبغي على الباحث الانثربولوجي أن يلتزم به من اقامة في مجتمع الدراسة ، وملاحظة الظواهر الاجتماعية بنفسه ، وتدوين كل ما تقع عليه عينه في مكان حدوث الظاهرة ، ووقت حصولها ، وعدم الاعتماد على الاخباريين الا في حالة الضرورة ، وتعلم لغة المجتمع المدروس ، والاطلاع على أحواله وعاداته ونظمه الاجتماعية المختلفة قبل النزول الى الميدان الاجتماعي ، ومقارنة ما شاهده من عادات وأنشطة اجتماعية مختلفة بعادات شعوب ومجتمعات أخرى . وبهذا المبدأ الاخير يجمع الباحث الانثروبولوجي بين شتات النظم الاجتماعية ويستخلص القوانين أو القواعد العامة التي تعتبر الهدف الاساسي للبحث العلمي المنظم .

الطبقات الاجتماعية في الهند كما وصفها البيروني

ليس هنالك مجتمع من المجتمعات لعبت الطبقات الاجتماعية فيه دورا مهما في الحياة الاجتماعية مثل المجتمع الهندي . فقد أرست الطبقة التي تستند قواعدها وحدودها الى الديانة البرهمية القواعد والسنن التي تحدد السلوك الاجتماعي وتشرف على الانشطة الاجتماعية في مجالات الحياة المختلفة . وقد حددت كذلك الجزاءات الاجتماعية والقوى الضبطية التي تضمن الطبقة وبموجبها سيادة قوانينها وقواعدها واطاعة الافراد لها وعدم خروجهم عنها . ومن هنا فقد اعتبرت الطبقة على أنها وحدة الهندوس الاجتماعية وانها حجر الزاوية لجميع نظم الهند الاجتماعية منذ آلاف السنين(٥٦) .

وقد أدرك البيروني أهمية النظام الطبقي في الهند ومدى تدخله وتغلغله في معظم شؤون الحياة الاجتماعية .ولذلك فقد حاول أن يبين أصل هذا النظام وأهدافه وغاياته ووظائفه ،وأن يبين عدد الطبقات وخصائصها ،ومميزات كل طبقة ومرتبتها الاجتماعية وأن يربط ذلك كله بالبناء الاجتماعي القائم الذي تعتبر الطبقة وحدته الاساسية . فعن عدد الطبقات فقد ذكر البيروبي أن عددها أربع وهي :

أ ــ طبقــة البراهمة .

ب ــ طبقــة كشــتر .

جـ ــ طبقــة البيشــة .

د ــ طبقــة الشودرا .

يقول البيروني وهم يسمون طبقاتهم : « برن » ، أي الالــوان ، ويسمونها مــن جهة النسب « جاتك » أي المواليــد ، وهــذه الطبقات في أول الامــر أربع ، علياهــا « البراهمة » فقد ذكر في كتبهم أن خلقتهم من رأس « براهم » وان هذا الاسم كنايــة عن القوة المسماة « طبيعة » والرأس علاوة الحيوان ، فالبراهمة نقاوة الجنس ، ولذلك صاروا عندهم خيرة الانس ، والطبقة التي تتلوهم « كشتر » خلقوا بزعمهم من مناكب براهم ويديه ، ورتبتهم عن رتبة البراهمة غير متباعدة جداً ودونهم « بيش » خلقوا من رجلي براهم ، وهاتان المرتبتان الاخيرتان متقاربتان ،وعلى تمايزهم تجمع المدن والقرى أربعتهم مختلطي المساكن والدور ، ثم أصحاب المهن دون هؤلاء غير معدودين في طبقــة غير الصناعة ويسمون « انتز » وهم ثمانية أصناف بالحرف ويتمازجون بمــا يشابهها من الحرف الأخر سوى القصار والاسكاف واللعاب ونساج الزنابيل والاترسة والسفان وصيادو السمك وقناص الوحوش والطيور والحائك فلا يساكنهم الطبقات الاربع في بلدة ، وانما يأوون الى مساكن تقربها وتكون خارجها ، وأما « هادي » و « دوم » و «جندال» و « بدهتو » فليسوا معدودين في شيء ، وانما يشتغلون برذالات الاعمال من تنظيف القرى وخدمتها ، وكلهم جنس واحد يميزون بالعمل كولد الزناء فقد ذكر انهم يرجعون الى أب « شودر » وأم « برهمن » خرجوا منهما بالسفاح فهم « منفيون منحطون »(٥٧).

ونستطيع أن نستشف من هذا الوصف بعض الحقائق الاجتماعية المهمة وأولها : ان طبقة البراهمة هي أرقى الطبقات وأنقاها واعلاها منزلة ، ثم تأتي طبقة « كشتر »في المرتبة الثانية وتليها «بيش»،أما «شودر» فهي احط الطبقات وادناها منزلة اجتماعية. وثاني هذه الحقائق اقرار الحواجز الفيزيقية او ما يسمى بالعزل الفيزيقي بين الطبقات

ويترتب على هذا العزل الفيزيقي بطبيعة الحال عزل اجتماعي وثقافي بين الطبقات، وهذا من شأنه ان يسلم الى حقيقة ثالثة وهي التمييز العنصري . فقد أظهر الوصف انه على الرغم مما يقوم بين الطبقات الثلاث الاولى من تمايز وتفاضـل في الدرجـات والمراتب الاجتماعية فانها جميعها تسكن الى جانب بعضـها بعضا ولا تختلط بالطبقة الرابعـة « شودرا » وهذا يدل على أن الطبقات الثلاث تنحدر من سلالة واحدة نقية تختلف عن السلالة المنحطة التي انحدرت منها طبقة الشودرا .

وفيما يتصل بالاصل التاريخي لنشأة نظام الطبقات في الهند ، يرى البيروني أن هذا النظام هو من ابتداع ملوك الهند القدامى . وهؤلاء كما يقول لوبـون هم أحفـاد الآريين البيض الذين فتحوا الهند قبل الفي سنة تقريبا(٥٨). ويتبين من الوصف التاريخي لنشأة النظام الطبقي الذي قدمـه البيروني أن الهدف مـن التصنيف الطبقي هـو منع التمازج والاختلاط بين السلالات النقية التي ينتمي اليها الطبقات الثلاث وبين السلالة المنحطة التي ينتمي اليها الشودرا ، ويبدو أن الملوك من سلالة الآريين قد أدركوا بفعل التجربة ما يترتب على امتزاج سلالة نقية بسلالة منحطة من فساد وتدهور السلالـة الراقية وانحطاطها أو تلاشيها على مرور الزمن ، ولذلك فقد عمدوا الى سن تشريعات تقضي بعدم الاختلاط والامتزاج بين فئات الشعوب الهندية ونسبوا هذه التشـريعات الى الالـه براهما نفسـه الذي يُعاقب على مخالفتها بعقوبات شديدة . يقول البيروني في هذا الصدد « وقد كان الملوك القدماء المعنيون بصناعتهم يصرفون معظم اهتمامهم الى تصنيف الناس طبقات ومراتب يحفظونها عن التمازج والتهـارج ويحظرون الاختلاط عليهم بسببها ، ويلزمون كل طبقة ما اليها من عمـل أو صناعة وحرفة ولا يرخصـون لأحد في تجاوز رتبته ويعاقبون من لم يكتف بطبقته »(٥٩) . ويذكر في مكان آخر « فقد ذكروا أن أمور الايالة والحروب كانت فيما مضى الى البراهمة ، وفي ذلك كان فسـاد العالم من جهة انهم أجروا السياسة على مقتضى كتب الملـة من السيرة العقلية ولـم يطحها ذلك لهم من ذوي العيث والزعارة ، وكاد الامر يعجزهم بما اليهم من أمر الديانة فتضرعوا الى ربهم فيه حتى أفردهم براهم لما اليهـم ، وجعل السياسة والقتال الـى كشتر ، ولذلك صار معاش البراهمة من السؤال والكدية ، وحصلت العقوبات في الناس بالذنوب من جهة الملوك لا العلماء »(٦٠).

وقد ذكر لوبون بعضا من تعاليمهم الدينية التي وردت في قوانين « مانو » مشرع الهند العظيم ، ما يشير الى مبلغ اهتمامهم بايجاد فواصل حديدية بين الطبقات والاسس التي يقوم عليها هذا الاهتمام ، وأهمها المحافظـة على نقاء العرق الآري وصفائـه ، والحيلولة دون فنائه بالامتزاج والاختلاط بالسـكان الاصليين الكثيري العدد وهـم الشودرا . فقد جـاء في قوانين مانو « لا تلبث كل بقعة ينشـأ فيها أناس مـن عروق متوالدة أن يعمها الخراب وأن يضمحل سكانها »(٦١).

وهكذا نجد أن نظام الطبقات في الهند قد وضع البذور الاولى لنظرية التمييز العنصري التي تقول بتفوق بعض العناصر البشرية وتخلف البعض الاخر ، بمعنى أن بعض العناصر تملك كفاءة وقابلية ومقدرة طبيعية للتفوق الحضاري اكثر من باقي العناصر البشرية الاخرى ، وان هذا التفوق الحضاري موروث ويرتبط بخصائص جسمانية معينة . ولسنا بصدد مناقشة بطلان هذه النظرية وتهافتها ، ولكن ما نود أن نقوله ان أفكارا معينة مثل التمركز السلالي والتعصب العرقي كانت موجودة في المجتمع الهندي القديم وبخاصة لدى الطبقات الثلاث (« البراهمة » ، « كشتر » ، « بيش ») حيث كانت هذه الطبقات الثلاث ترى انها أنقى الشعوب الهندية وأفضلها ، أما ما عداهم فانهم أمليج أي منحطون وأنجاس . وقد وصف البيروني هذه النظرية الاستعلائية التفوقية في أثناء مقارنته بين عادات المسلمين وعادات الهنود غير المسلمين : « وذلك أنهم يعتقدون في الارض أنها أرضهم ، وفي الناس أنهم جنسهم ، وفي الملوك أنهم رؤساؤهم ، وفي الدين أنه نحلتهم ، وفي العلم أنه ما معهم ، فيترفعون ويتبظرمون ويعجبون بأنفسهم فيجهلون ، وفي طباعهم الضن بما يعرفونه ، والافراط في الصيانة له عن غير أهله منهم ، فكيف عن غيرهم ، على أنهم لا يظنون ان في الارض غير بلدانهم وفي الناس غير سكانها »(٦٢) . ويقول في موضع آخر من الكتاب « فليس بمطلق لهم قبول من ليس منهم اذا رغب فيهم أو صبا الى دينهم ، وهذا مما يفسخ كل وصلة ويوجب أشد قطيعة »(٦٣) .

ويذكر البيروني أن التمايز والتفاضل موجود في داخل كل طبقة بحيث أدى هذا الوضع الى نشوء مجموعة من الفئات والشرائح الاجتماعية داخل الطبقة الواحدة . ويقوم هذا التمايز على اساس نوع الخدمة التي تقدم للنار ، وعلى اساس التصرفات والافعال المتوقعة من أفراد كل طبقة . يقول البيروني « يلحق كل واحد من اهل الطبقات سمات وألقاب بحسب فعله وطريقته ، كالبرهمن مثلا فان هذه سمة مطلقة اذا لزم بيته في عمله فاذا لزم خدمة نار واحدة لقب « آيشتهي » واذا خدم ثلاثا من النيران فهو « آكن هوتري » ، واذا قرب للنار مع ذلك فهو ديكشت . فكذلك هؤلاء الا ان «هادي» أحمدهم ، لانه يترفع عن القاذورات ويتلوه « دوم » لانه يجنكي ويطرب ومن بعدهما يترشح للقتل والعقوبات صناعة ويتولاها ، وشرهم «بدهتو» فانه لا يقتصر بأكل الميتة المعهودة ولكنه يتجاوزها الى الكلاب وأمثال ذلك »(٦٤) . وقد أشار البيروني ضمنا في وصفه للوظائف الاجتماعية للطبقات الى مفهوم اجتماعي مهم وهو مفهوم التكامل الاجتماعي . ويتجلى هذا المفهوم في التزام كل طبقة بالعمل الذي تجيده والذي خلقت لاجله بحيث تكمل أعمال كل طبقة أعمال الطبقة الاخرى ، فيشبع المجتمع احتياجاته المختلفة ويحافظ على استقراره وتوازنه . فطبقة البراهمة تشرف على الامور الدينية وتقوم بأعمال الكهانة ، وفضيلتها الحكمة والتعقل والنظافة وضبط

الحواس ، وتقوم طبقة كشتر بأعمال الحروب والسياسة وفضيلتها الشجاعة والاقدام والكرم والصبر على الشدائد وتقوم طبقة بيش بأعمال الفلاحة والزراعة والتجارة ، وتختص طبقة الشودرا بخدمة كل الطبقات والتقرب اليها . يقول البيروني « يجب أن يكون البرهمن وافر العقل ، ساكن القلب ، صادق اللهجة ، ظاهر الاحتمال ، ضابطا للحواس ، مؤثرا للعدل ،بادي النظافة ، مقبلا على العبادة ،مصروف الهمة الى الديانة، وأن يكون كشتر مهيبا في القلوب ، شجاعا ، متعظما ، زلق اللسان ، سمح اليد ، غير مبال بالشدائد ،حريصا على تيسير الخطوب ،وأن يكون بيش مشتغلا بالفلاحة واقتناء السوائم والتجارة ،وشودر مجتهدا في الخدمة والتملق ، متحببا الى كل احد بها»(٦٥).

ويذكر البيروني أنه لا يجوز لافراد طبقة ما أن يقوموا بأعمال الطبقة الاخرى، نظرا لما ينجم عن ذلك من خلل قد يصيب البناء الطبقي بأكمله فيعطله عن القيام بوظائفه ، وتحقيق أهدافه وغاياته ، فمثلا لا يجوز لكشتر أن يقوم بالوظائف الدينية التي تقوم بها طبقة البراهمة ، ولا يجوز لبيش أن تقوم بالوظائف التي تقوم بها طبقة كشتر .وكل من يخالف هذه التعاليم يرتكب اثما كبيرا . فقد جاء في كتاب البيروني « وكل من هؤلاء (يقصد الطبقات) اذا ثبت على رسمه وعادته نال الخير في ارادته اذا كان غير مقصر في عبادة الله ، غير ناس ذكره في جلّ أعماله ، واذا انتقل عما اليه الى ما الى طبقة أخرى وان شرفت عليه كان اثما بالتعدي في الامر »(٦٦) . ويقول في موضع آخر من الكتاب « وكل عمل يخص البرهمن من التسابيح وقراءة بيذ وقرابين النار فهو محظور عليه ، حتى انه وبيش (أي شودر وبيش) ان صح عليهما انهما قرآ بيذ رفعتهما البراهمة الى الوالي فقطع لسانهما ، واما ذكر الله وعمل البر والصدقة فهو غير ممنوع عنه . وكل من تعاطى ما ليس لطبقته أن يتعاطاه كالبرهمن التجارة وشودر الفلاحة ، فهو آثم وان قصر مقدار اثمه عن السرقة »(٦٧).

ولان طبقة البراهمة منصرفة كلية الى خدمة النار والقيام بالواجبات الدينية(٦٨)، فانها تعتمد في معيشتها على ما يقدم لها من الصدقات والهبات من الطبقات الاخرى . وقد جعلت الديانة البرهمية الصدقة علىفقراء البرهمة أفضل عمليقوم به هندوسي، ولذلك فرضت التعاليم الدينية على أهل الميت أن يتصدقوا على البراهمة لمدة عام كامل ، كما فرضت على الطبقات الاخرى أن يقدموا لهم صنوفا من الاطعمة في مناسبات الاعياد والضيافة وفي أيام الصوم ، ونستشهد على ذلك ببعض ما جاء في كتاب البيروني ، عندما يموت الميت « وبعد اليوم الحادي عشر يوجّه كل يوم من الطعام ما يكفي نفسا واحدة ودرهم معه الى بيت برهمن ويداوم ذلك طول أيام السنة ولا يقطع الى آخرها »(٦٩) . كذلك فقد اعفت الديانة البرهمية طبقة البراهمة من الضرائب المستحقة على هذه الصدقات ، ومن الضرائب المستحقة على ممارستهم للاعمال التجارية اذا اقتضت الضرورة أن يمارسوها(٧٠) .

وهكذا نجد أن التكامل الاجتماعي ينبثق من اعتماد كل طبقة على الطبقة الاخرى، والتزام كل طبقة بالوظائف والاعمال التي حددت لها بموجب قوانين مانو . ويلاحظ أن هذا التكامل الاجتماعي مناظر للتكامل العضوي ومتولد عنه . فهنالك نوع من التناظر بين الفضيلة التي تميز طبقة البراهمة والوظائف التي تقوم بها وبين العضو البيولوجي الذي تولدت عنه في جسم براهما وفضيلته والوظيفة التي يقوم بها . ففضيلة الحكمة التي تميز طبقة البراهمة تنسجم مع العضو الذي تولدت منه والعمل الذي يقوم به وهو الرأس مركز التعقل والتفكير ، وكما أن التفكير اهم شيء يميز الانسان عن الحيوان فكذلك تميزت طبقة البراهمة عن باقي الطبقات الاخرى واحتلت منزلة اعلى منها جميعا . وكذلك الامر بالنسبة لفضيلة الشجاعة التي تميز طبقة « كشتر » حيث تنسجم فضيلتهم مع فضيلة العضوين اللذين تولدت منهما ،وتنسجم الاعمال والوظائف التي يضطلعون بها مع الاعمال والوظائف التي يقوم بهـا هذان العضوان أي المنكبان واليدان وهما رمزا القوة والبطش . وهكذا بالنسبة لباقي الطبقات الاخرى .

ومع أن فكرة التناظر بين التركيب العضوي والتركيب الاجتماعي التي أصبحت تدعى اليوم بالمماثلة العضوية قد شاعت منذ القديم حيث وردت في كتابات أرسطو وأفلاطون في العصور القديمة وفي كتابات ابن خلدون في العصور الوسطى وظهرت حديثا في كتابات سبنسر ودركهايم ومالينوفسكي، فان البيروني قد اشتق هذه الفكرة من واقع اجتماعي قائم بالفعل ، اضافة الى أن فكرته عن التكامل كانت أوسع وأكثر شمولا ، بحيث تنتظم العالم الطبيعي والعالم الاجتماعي اضافة الى العالم العضوي . وبذلك يكون قد سبق سبنسر الى اكتشاف هذه الفكرة والمناداة بها بقرون طويلة . ولكنه ردّ هذه الفكرة الى حكمة الله ليكون بها معاش الناس واستمرار حياتهم « وكما أن تعاون المتمدنين لا يكون الا مع التفاضل ليحتاج أحدهم الى الآخر ، كذلك خلق الله العالم مختلف الطباع متفاوت البقاع واحدة صرودا ، وأخرى جروما ، وواحدة طيبة التربة والماء والهواء ، وأخرى سبخية أو عفنة آسنة الماء وبيّة الهواء ، وكذلك سائر الاختلافات في كثرة النعم وقلتها وتواتر الآفات وعدمها مما يدعو المتمدنين الى اختيار الامكنة لبناء المدن من اجلها » . (٧١) ويتضح من هذه العبارات التي أوردها البيروني انه قد سبق دوركهايم في حصر التضامن العضوي بالمجتمع المتقدم في مقابل التضامن الآلي الذي يميز المجتمع البسيط او المتخلف . وقد عبر البيروني عن فكرة التضامن الآلي ومدى انتشارها في الجماعات البسيطة والمتخلفة عندما أشار الى نزعة هذه الجماعات الى عبادة الاصنام والاوثان سواء في الهند أو في غيرها من الشعوب والمجتمعات الاخرى، حيث تمارس هذه الجماعات الشعائر والطقوس الدينية باتجاه الاصنام بصورة تلقائية وبدون تفكير أو تعقل(٧٢) .

علاقة البناء الطبقي بالسنن والمعايير الاجتماعية :

لقد أشار البيروني في مواضع متفرقة من كتابه الى كثير من العادات والسنن والانشطة الاجتماعية التي يمارسها الافراد فيمواقف وأوضاع اجتماعية مختلفة ، وبين أن هذه السنن والعادات ترتبط ارتباطا وثيقا بالطبقة الاجتماعية التي ينتمي اليها الفرد أو بالوضع الاجتماعي الذي يحتله في داخل طبقته .

وبما أن القواعد والقوانين التي تحكم تصرفات الفرد في كل طبقة اجتماعية قد أوحى بها الاله براهما عن طريق مانو فعندئذ تصبح تصرفات الفرد وأنشطته الاجتماعية المختلفة محددة من قبل الاله ولا ينبغي تجاوزها أو الخروج عليها . ومن هنا فان أية محاولة لفهم الطبقة والحياة الاجتماعيةفيالهند لا تتم الا بفهم الديانةالهندية وتعاليمها. وسوف نستعرض ثلاثة نظم اجتماعية لها صلة وثيقة بنظام الطبقة الاجتماعية في الهند وبالتشريعات والتعالم الدينية ،وهي نظام المؤاكلة ونظام الزواج والجزاءات الاجتماعية:

أ ـ نظام المؤاكلة :

يفرض نظام المؤاكلة على الفرد في المجتمع الهندي أن لا يشترك في تناول طعام مع شخص آخر ينتمي الى طبقة غير طبقته ، وأن لا يجالسه على المائدة . وقد أوحت طبقة البراهمة أن هذا النظام هو نظام الاهي وصادر عن حكمة ربانية ، ولذلك يجب التقيد بمضمونه وعدم مخالفته والخروج عنه . يقول البيروني « وكل طبقة من الطبقات الاربع فانها تصطف في المؤاكلة على حدة ولا يشتمل صف على نفرين مختلفي الطبقة. فان كان في صف البراهمة مثلا نفران منهم متنافران وتقارب مجلساهما فُرق بين المجلسين بلوح يوضع فيما بينهما ، أو ثوب يمد أو شيء آخر بل ان خط بينهما تمايزا »(٧٣) .

أما الحكمة فيذلك فتتمثل فيأن الشخص اذا اصطف مع آخرين على مائدة وشبع قبلهم فان ما تبقى من الطعام يعتبر فضلة والفضلة من الطعام محرمة ، ولذلك وجب أن يأكل الشخص منفردا . يقول البيروني « ولان الفضلة من الطعام محرمة فانها توجب الانفراد بالمأكول لانه اذا تناوله أحد المؤاكلين في قصعة واحدة صار ما بقي بتناول الآخر وانقطاع أكل الاول فضلة محرمة »(٧٤) .

وقد أشار لوبون الى ان هذا النظام كان مطبقا الى الوقت الذي زار فيه الهند في مطلع القرن العشرين . يقول « وقد تجدون مئات من براهمة الهند الموظفين في دوائر البريد وفي ادارة الخطوط الحديدية لا يزيد راتب الواحد منهم على خمسة وعشرين فرنكا كل شهر وقد تجدون بين البراهمة من هم من السائلين بيد أن ذلك الموظف أو السائل يفضل الموت على الجلوس حول مائدة نائب الملك »(٧٥) .

ب ـ نظـام الزواج :

ان نظام الهنود في الزواج أن يتزوج الشخص من طبقته أو من طبقة أدنى منهـا ما عدا أن يتزوج من الشودرا ، فلا يتزوج من الشودرا الا شودرا ، ولا يجوز للشخص أن يتزوج من طبقة أعلى من طبقته . يقول البيروني « وعلى الرجل أن يتزوج بامرأة من طائفته أو من طائفة أدنى منها ، ولكن الرجل الذي يتزوج واحدة من الشودرا يصبح مفضوحا ، مهتوك الستر ويطرد من طائفته ، ويصيبه خزي في الدنيا والآخـرة ، فلا يتزوج نساء الشودرا الا رجال من الشودرا ، ويجوز لكل واحد من أهـل الطبقات أن يتزوج من طبقته وفيما دونها ولا يحل له أن يتزوج من طبقة فوق طبقته » (٧٦) .

ويطلعنا البيروني على ان نظـام الانتساب الى الام كان هو نظام النسب الشائع في الهند ، حيث ينتسب الولد هناك الى أمه دون أبيـه . ويعلل البيروني ذلك بالمحافظة على نقاء طبقة البراهمة وصفاء عرقها والرغبة في عدم امتزاجها بالسلالات الاخرى لئلا تنحط وتتلاشى . يقول البيروني « يكون الولد منسوبا الى طبقة الام دون الاب ، فان كانت امرأة البرهمن مثلا برهمنا ، كان الولد كذلك وان كانت شودرا ، كان شودرا ، ولكن البراهمة في زماننا وان حل لهم ذلك لا يفعلونه ولا يتجـاوزون في التزويج غـير طبقتهـم »(٧٧) .

وقد أكد لوبون أن هذا النظام يهدف الى نقاء العرق وصفاء السلالة . فلربمـا كان في رأي البراهمة أن تزاوج رجل وامرأة من عرقين متفاوتين يؤدي في الغالب الـى أولاد متوسطين خلقا منحطين خلقا . وقد نصت شريعة ما نو بالفعل ما يفيد أن اختلاط السلالات بالتزاوج يؤدي الى فساد العرق النقي وتدهوره . فقد جاء في شريعة مانـو « لم يلبث كل بلد يولد فيه أولاد مـن عرق متوالد مفسد لصفاء الطبقـات أن تقوض دعائمه وينحط سكانه »(٧٨) . وجاء كذلك « وأسـرة الرجل مهما تكن شريفة ممتـازة لا بد لهذا الرجل اذا كان وليد طبقات مختلطة من ان ينتقل اليه بالارث شيء من سجية أبويه وسوء خلقهما »(٧٩) . ونصت قوانين مانو ايضا «وما في الرجل من فقدان المشاعر النبيلة وغلظة الكلام والجلف واهمال الواجبات فموروث عن أم جديرة بالاحتقار »(٨٠).

وقد تكون هاتان السمتان أي نظام المؤاكلة أو المطاعمة ونظام الزواج أهم سمتين تتميز بهما كل واحدة من الطوائف ويختلف بهما افراد كل طائفة عـن افراد الطوائف الاخرى . وقد أشار البيروني كذلك الى نظام تعدد الزوجـات في المجتمع الهنـدي . وبموجب هذا النظام يجوز للرجل أن يتزوج بأربع ، ولا يجوز له ان يزيد على ذلك . يقول البيروني « وللرجل ان يتزوج بأكثر من واحدة الى اربع ، وما فوق الاربع محرم عليه الا أن تموت احدى من تحت يده منهن فيتم العدد بغيرها ولا يتجاوزه »(٨١). غير أن البيروني يستدرك فيشير الى أن بعض الهنود يرى ان عدد النساء يكون بحسـب

الطبقات فيصبح الزواج في هذه الحالة مظهرا من مظاهر التمايز الطبقي . يقول «ومنهم من يرى عدة النساء بحسب الطبقات حتى يكون للبرهمن اربعا ولكشتر ثلاثا ولبيش اثنتين ولشودر واحدة »(٨٢) .

ج ـ الجزاءات الاجتماعية :

يخضع نظام الجزاءات الاجتماعية للنظام الطبقي ويرتبط به ، بمعنى أن الجزاءات تتناسب مع المزايا الطبقية ومع مرتبة الطبقة ومنزلة الفرد فيها . ولذلك فقد جاء نظام الجزاءات مكرسا للنظام الطبقي وداعما له ومبقيا عليه . وقد اخترنا الجزاءات الاجتماعية الخاصة بالقتل لنبين مدى انسجام هذه الجزاءات وتساوقها مع مرتبة الطبقة ومنزلتها ارتفاعا أو هبوطا . فالشخص القاتل لا يتعرض لاية جزاءات سلبية أو عقوبات اذا كان برهمنا وكان المقتول برهمنا أيضا ، حيث يفوض أمر القاتل والمقتول في هذه الحالة الى الله . أما اذا كان القاتل برهمنا وكان المقتول من سائر الطبقات فلا يلزم البرهمن الا كفارة ، وذلك لان الحكام لا يقتصون من برهمن أو كشتر . أما باقي الطبقات فان قتل بعضهم بعضا يكفر بكفارة ، وفي نفس الوقت يعاقبون من قبل الحكام للاعتبار . يقول البيروني « فأما أمر القتل فان القاتل اذا كان برهمنا والمقتول من سائر الطبقات لم يلزمه الا كفارة ، وهي تكون بالصوم والصلاة والصدقة ، وان كان المقتول برهمنا ايضا كان أمره الى الاخرة ولم يجزه كفارة ، اذ الكفارة تمحو الذنوب ، وليس شيء يمحو من البرهمن كبائر الآثام ،وعظماها قتل البرهمن ويسمي وزره«برهم هت» ثم قتل البقر ثم شرب الخمر ثم الزنا وخاصة مع من هو لأبيه أو لأستاذه . على أن الولاة لا يقتصون من برهمن أو كشتر ولكنهم يستصفون ماله وينفونه من ممالكهم ، وأما من دون البراهمة وكشتر فان قتل بعضهم بعضا يكفر بكفارة ، ولكن الولاة يقيمون فيهم القصاص للاعتبار »(٨٢) .

وفي الحقيقة فهنالك موضوعات اجتماعية وانثروبولوجية عديدة تطرق اليها البيروني على جانب كبير من الاهمية بالنسبة للانثروبولوجيين وعلماء الاجتماع لكونها تصور مختلف جوانب الحياة الاجتماعية في المجتمع الهندي القديم ، مثل العادات الاجتماعية الخاصة بحرق جسد الميت وحرق الزوجة المتوفى زوجها والعادات الخاصة بالصوم والحج وعدم أكل لحم البقر وعبادة الاصنام والنكاح ونحوها . وانه لمن الصعب أن يتوفر باحث مفرد على دراسة هذه الانشطة الاجتماعية جميعها ، ونأمل أن يتوفر عليها نفر آخر من الباحثين الانثروبولوجيين وعلماء الاجتماع لكونها تشكل جهودا علمية متميزة لعالم من مشاهير علماء العرب والمسلمين في القرن الحادي عشر الميلادي وهو البيروني .

غير أن الباحثين سوف يجدون أن الموضوعات التي أشرنا اليها وغيرها من السنن والانشطة الاجتماعية الاخرى مرتبطة أشد الارتباط بالطبقة الاجتماعية ، فهي محور الحياة الاجتماعية واساس كل نشاط اجتماعي . وقد أدى هذا الوضع الى جمود الوضع الاجتماعي والى انغلاق كل طبقة على نفسها ، وقد مارس الانغلاق الطبقي تأثيرات سلبية في مجمل الحياة الاجتماعية ، فتعددت لغاتهم ودياناتهم وأمزجتهم وعاداتهم الاجتماعية . وهذا أدى بدوره الى تبعثر جهودهم وتفرقها وعدم انصهارهم وتوحدهم في كل موحد ضد الاخطار الخارجية مما جعلهم فريسة سهلة لكل طامع في أرضهم . وقد أدرك الانكليز بالفعل أهمية النظام الطبقي لاستمرار حكمهم وتمكين سيطرتهم على الهند ، فراحوا يغذون الفواصل بين الطبقات ويشجعونها لادامة حكمهم أطول مدة ممكنة من الزمن(٨٤) . وقد تنبه « غاندي » قائد الهند الروحي الى مثالب النظام الطبقي في الهند وما جره هذا النظام من كوارث وويلات على الشعوب الهندية فسن القوانين الدستورية والتشريعات التي تجرم كل شخص يفرق في المعاملة بين الناس بسبب الجنس أو الطبقة أو المهنة ، وألغى كذلك الفواصل بين المنبوذين وبقية الطبقات الاخرى(٨٥) . وبهذه الاجراءات الانسانية استطاع غاندي أن يجمع الهنود حوله على اختلاف طوائفهم وأديانهم وأن يحرر بلاده من السيطرة الاجنبية .

الخاتمـــــة :

لقد كانت قضيتنا المحورية في هذه الدراسة هي ابراز اسهامات المفكرين العرب في مجال التمهيد للدراسات الانثروبولوجية الحديثة سواء في مجال المنهج أو في مجال الموضوع ، وذلك من خلال تحليل محتويات كتاب المفكر العربي « أبي الريحان محمد بن أحمد البيروني » (تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة) الذي ضم بين دفتيه معلومات أثنوغرافية غزيرة عن الحياة الاجتماعية في الهند ونظمها المختلفة في القرون الوسطى .

وقد اتضح أن البيروني قد استخدم في جمع مادته الاثنوغرافية كثيرا من المبادىء والاسس التي يقوم عليها المنهج الانثروبولوجي المعاصر ، وفي مقدمتها الاعتماد على الدراسة الحقلية الميدانية ، أي اقامة الباحث الانثروبولوجي في مجتمع الدراسة مدة من الوقت تكفي لجمع البيانات والمعلومات من الميدان الاجتماعي عن طريق الملاحظة والمشاهدة الحسية . وقد لاحظنا كيف أن البيروني لفت أنظار الدارسين والباحثين الى كثير من القضايا المنهجية في الدراسات الانثروبولوجية ، مثل ضرورة تعلم لغة المجتمع المدروس وعدم الاعتماد على المترجمين ومشاهدة الظاهرة الاجتماعية في وقت وقوعها وزمان حدوثها وتسجيل كل الجزئيات المتعلقة بها وعدم الاعتماد على الاخباريين نظرا لما يسببه

الاخباريون من تشويه للحقائق الاجتماعية . وكان في كثير من الاحيان يستخدم التحليل والتفسير في دراسة الظواهر الاجتماعية ويقارنها بمثيلاتها في مجتمعات اخرى .

وفي مجال الموضوع ، فقد اشتمل كتاب البيروني الآنف الذكر على كثير من الموضوعات الاجتماعية التي ما زالت تشكل محور الدراسة الانثروبولوجية المعاصرة . وقد اخترنا منها موضوع الطبقة الاجتماعية وبعض السنن الاجتماعية المرتبطة بها . وقد اتضح لنا من خلال الوصف الذي قدمه البيروني عن خصائص الطبقة الاجتماعية ووظائفها وظروف نشأتها انها محور الحياة الاجتماعية في المجتمع الهندي القديم وانها المحدد الرئيسي لمعظم تصرفات الافراد وانشطتهم الاجتماعية المختلفة . وقد أوضح البيروني ذلك بالاشارة الى أن نظم الزواج والمؤاكلة والجزاءات وغيرها من النظم الاجتماعية ترتبط ارتباطا وثيقا بالطبقة وبمرتبة الفرد فيها .

وقد انهينا هذه الدراسة بالاشارة الى أن النظام الطبقي الذي عانى منه المجتمع الهندي كثيرا قد تغير الى درجة كبيرة بعد أن قام المصلح الاجتماعي والقائد الهندي الروحي غاندي بسن التشريعات والقوانين التي تحرم الفواصل بين الطبقات ، وتجرّم كل شخص يفرق في المعاملة بين الناس على أساس الجنس أو الطبقة أو المهنة . وبذلك بدأت الهند تأخذ دورها في الاسهام في الحضارة العالمية .

الحواشـــي

(١) Regena Darnell ; **Readings in the History of Anthropology,** Harper and Row Publishers, 1974 , p. 67 .

(٢) سامي الكيالي ، الفكر العربي بين ماضيه وحاضره ، دار المعارف بمصر ، ١٩٤٣ ، ص ١٣ .

(٣) اغناطيوس يوليا نوفتش كراتشكوفسكي ، تاريخ الادب الجغرافي العربي ، القسم الاول ، ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم ، جامعة الدول العربية ، الادارة الثقافية ، ١٩٦١ ، ص ٢١٩ .

(٤) انظر في هذا الصدد ، غوستاف لوبون ، حضارات الهند ، ترجمة عادل زعيتر ، دار احياء الكتب العربيــة ، ١٩٤٨ ، ص ٥٤٦ . وانظــر كذلك محمد جمال الدين سرور ، تاريخ الحضارة الاسلامية في المشــرق ، دار الفكر العربــي ١٩٦٥ ، ص١٤٨ .

(٥) Darnell, op. ci t. p. 261 .

(٦) الكيالي ، مرجع سابق ، ص ٢٧ .

(٧) نذكر من هؤلاء المرحوم د. أحمد الخشاب ، والدكتور عبد الكريم اليافي ، والاستاذ كارلتون كون والاستاذ الكيالي . انظر في هذا الصدد كتاب أحمد الخشاب التفكير الاجتماعي ، دار المعــارف

بمصر ١٩٧٠ ، ص ٢١١ ، وما بعدها . وانظر عبد الكريم اليافي ، تمهيد في علم الاجتماع . ص٥٤ وما بعدها . وانظر سامي الكيالي ، المرجــع السابق ص ٣٧ وما بعدها . ولقد وردت دعود كون في كتاب الخشاب في نفس الصفحات المشار اليهـــا .

(٨) الكيالي . المرجــع السابق ص ٤٠ .

(٩) الجامعة الاردنية ، عمادة البحث العلمي ، مجلة دراسات ، المجلد ١٠ ، العدد ١/ ، حزيران ، ١٩٨٣ ــ ص‌ص ٢٧ ــ ٥٣ .

(١٠) غوستاف لوبون ، مرجع سابق ، ص ٩

(١١) أحمد حسين ، أمة تبعث ، شــركة التوزيع المصرية ، بدون تاريخ ، ص ١٩ .

(١٢) كراتشكوفسكي ، مرجع سابق ، ص ٢٤٥ .

(١٣) بجيانند ، غرة الزيجــات ، اوزيج كرث ، ترجمة البيروني ، المجمع العلمي السندي ، جامعـــة السند ، حيدر أباد ، السند ، باكستان ، ١٩٧٣ ، ص (ح) .

(١٤) Bijyanand of Benares . **Ghurrat Al - Zijat,** or Karana , prepared for publication by , N. A. Baloch, Institute of Sindhology. University of Sind, Pakistan, 1973, p. 47 .

(١٥) **Ghurrat Al-zijat.,** p. 68.

(١٦) Ibid. p. 14.

(١٧) كراتشكوفسكي : المرجع السابق ، ص ٢٤٥ .

(١٨) حول المنهج الانثروبولوجي كاطار تصوري عــام انظــر :

A. Radcliffe - Brown, Adolf, **Andaman Islanders,** Glercoe, Illinois press, 1948, p. 110.

B. Bronislaw, Malinowski, **A scientific Theory of Culture and other Essaye,** Chapel Hill, The University of North Carolina, 1944, p. 160.

(١٩) شاكر مصطفى سليم ، المدخل الى الانثروبولو جيا ، بغداد ، مطبعة العاني ، ١٩٧٥ ، ص ١١١ .

(٢٠) Bronislaw, Malinowski, **Argonauts of the western pacific,** London, Thira impr 1950, pp. 6 - 8 .

وهنالك قواعد فرعية لهذه الاسس الثلاث شرحها . شاكر مصطفى سليم . انظر كتابه المشار اليه سابقا . ص‌ص ١٢ ١ــ ١٢٠ .

(٢١) البيروني ، تحقيق ، ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة ، مرجع سابق ص ١ . وسوف نشير الى هذا المرجع فيما بعد بصورة مختصرة« تحقيق ما للهند » .

(٢٢) **Ghurrat Al - Zijat** op. ci t. p. 64.

(٢٣) شاكر مصطفى سليم ، المرجع السابق ، ص١١١ .

(٢٤) البيروني ، تحقيق ما للهند . ص ١٥ .

(٢٥) البيروني ، غرة الزيجات ، مرجع سابق ، ص ٥٣ .

(٢٦) وقد نبه ابن خلدون أيضا الى ضرورة تمحيص الاخبار من الاباطيل والاكاذيب .
انظر مقدمة ابن خلدون ، المطبعة الشرقية ، ١٣٢٧ هـ ص ٣٢ وما بعدها .

(٢٧) البيروني ، تحقيق ما للهند ، ص ١ .

(٢٨) البيروني ، تحقيق ما للهند ، ص ٢ .

(٢٩) البيروني ، تحقيق ماللهند ، ص٢

(٣٠) البيروني ، تحقيق ما للهند ، ص ٢ .

(٣١) البيروني ، تحقيق ما للهند ، ص٢ .

(٣٢) مصطفى الخشاب ، علم الاجتماع ومدارسه ، الكتاب الاول ، دار المعارف بمصر ، ١٩٥٨ ص١٩٨٣.

(٣٣) البيروني ، تحقيق ما للهند ، ص٢ .

(٣٤) البيروني ، تحقيق ما للهند ص ٤ .

(٣٥) بجيانند البنارسي ، غرة الزيجات ، ترجمة البيروني ، مرجع سابق ، ص (ح) .

(٣٦) البيروني ، الآثار الباقية ، ص ٥ .

(٣٧) الآثار الباقية ، المرجع السابق ، ص٥ .

(٣٨) البيروني : تحقيق ما للهند ، ص ١٣ .

(٣٩) صفوح الاخرس . الانثروبولوجيا الاجتماعية، دمشق ، جامعة دمشق ، مطبعة أبو بكر الرازي ، ١٩٨٤ ، ص ٣٦ .

(٤٠) E. E. Evans - Pritchard, **Social Anthropology,** Cohen and West L TD. London, 1962, p. 79 .

(٤١) أحمد الخشاب ، دراسات أنثروبولوجية ،دار المعارف بمصر ، ١٩٧٠ ، ص ١٠٩ .

(٤٢) Malinowski, **Argonauts,** op, ci t, pp.6-9 Ali Issa, **Social Anthropology in theory and practiec,** Dar Al - Maarif, Cairo, 1946. p. 156 - 166.

(٤٣) سرور ، مرجع سابق ، ص ٢٢ .

(٤٤) البيروني، تحقيق ما للهند ، ص ١٩ .

(٤٥) **Ghurrat Al - Zigat,** op. ci t, p. 39.

(٤٦) Ibid. p. 33.

(٤٧) سرور ، مرجع سابق ، ص ٢٢ .

(٤٨) البيروني ، الآثار الباقية ، مرجع سابق ، ص٥ . (كتاب الآثار الباقية قدمه البيروني الى ولي النعم شمس المعالي قابوس بن وشمكير (المجلة).

(٤٩) البيروني ، تحقيق ما للهند ، ص ١٤ .

(٥٠) البيروني ، تحقيق ما للهند ، ص ١٥ .

(٥١) البيروني ، تحقيق ما للهند ، ص ١٨ .

(٥٢) البيروني ، تحقيظ ما للهند ، ص ٧٦ .

(٥٣) البيروني ، تحقيق ما للهند ، ص٨٢ .

(٥٤) البيروني ، تحقيق ما للهند ، ص ٨٠.

(٥٥) البيروني ، تحقيق ما للهند ، ص ٨٤ .

(٥٦) لوبون : المرجع السابق ، ص ٦٥٧ .

(٥٧) البيروني . تحقيق ما للهند . ص ٧٦ — ٧٧ .

(٥٨) لوبون ، المرجع السابق ، ص ٦٥٠ .

(٥٩) البيروني ، تحقيق ما للهند ، ص ٧٥ ــ ٧٦ .
(٦٠) البيروني ، تحقيق ما للهند ، ص ٤٧٤ .
(٦١) لوبون ، المرجع السابق ، ص ٦٥١ .
(٦٢) البيروني ، تحقيق ما للهند ، ص ١٧ .
(٦٣) البيروني ، تحقيق ما للهند ، ص ١٥ .
(٦٤) البيروني ، تحقيق ما للهند ، ص ٧٧ ــ ٧٨ .
(٦٥) البيروني ، تحقيق ما للهند ، ص ٧٨ .
(٦٦) البيروني ، تحقيق ما للهند ، ص ٧٨ .
(٦٧) البيروني ، تحقيق ما للهنــد ، ص ٤٥٧ ــ ٤٥٨ .
(٦٨) ان القيام بالخدمات الدينية وبخاصة اطعام النار من (دهن وحبوب وحنطة ، وشعير ورز) وقراءة بيذ عند تقديم القرابين للنار هو من عمل طبقةالبراهمة ، أما كشتر فيمكن أن يقرأ بيذ ويتعلمه ولا يعلمه ، ويمكن كذلك أن يقرب للنار وأن يسوس الناس ويقاتل عنهم فهو مخلوق لذلك . البيروني تحقيق ما للهند ، ص ٤٥٧ .
(٦٩) البيروني ، تحقيق ما للهند ، ص ٤٧٧
(٧٠) البيروني ، تحقيق ما للهند ، ص ٤٦٦ .
(٧١) البيروني ، تحقيق ما للهند ، ص ٤٦٤ .
(٧٢) البيروني ، تحقيق ما للهند ، ص ٨٤ .
(٧٣) البيروني ، تحقيق ما للهند ، ص ٧٨ .
(٧٤) البيروني ، تحقيق ما للهند ، ص ٧٨ .
(٧٥) لوبون ، المرجع السابق ، ص ٦٥٤ .
(٧٦) البيروني ، تحقيق ما للهند ، ص ٤٧٠ .
(٧٧) البيروني ، تحقيق ما للهنــد ، ص ٤٧٠ ــ ٤٧١ .
(٧٨) لوبون ، المرجع السابق ، ص ٢٩٤ .
(٧٩) لوبون ، المرجع السابق ، ص ٢٩٥ .
(٨٠) لوبون ، المرجع السابق ، ص ٢٩٥ .
(٨١) البيروني ، تحقيق ما للهند ، ص ٤٦٩ ــ ٤٧٠ .
(٨٢) البيروني ، تحقيق ما للهند ، ص ٤٧٠ .
(٨٣) البيروني ، تحقيق ما للهند ، ص ٤٧٤ ــ ٤٧٥ .
(٨٤) لوبون ، المرجع السابق ، ص ٦٥٧ . وانظر كذلك أحمد حسين ، أمة تبعث ، شركة التوزيــع المصرية ، بدون تاريخ ، ص ٣٢ .
(٨٥) أحمد حسين ، المرجع السابق ، ص ٣٦ ــ ٤٠ .

أدعياء النبوة في صدر الإسلام
طليحة بن خويلد الأسدي

د. احسان صدقي العمد
جامعة الكويت

تمهيد :

يمثل طليحة بن خويلد الاسدي ، واحدا من أدعياء النبوة البارزين الذين ظهروا في صدر الاسلام وهم : مسيلمة الحنفي في اليمامة ، والاسود العنسي في اليمن ، ولقيط بن مالك الازدي في عمان ،وسجاح بنت الحارث التميمية في الجزيرة الفراتية ، وكان ظهور طليحة الاسدي في شمال الجزيرة العربية بين نجد والحجاز .

ويرتبط ظهور هؤلاء الادعياء فيذلك الوقت ،بعدة أسباب وعوامل أهمها العصبية القبلية والاقليمية ، والرغبة في التحلل من النفوذ القرشي ، ومحاولة تقليد النجاح الكبير الذي حققته دعوة الرسول الكريم(١) ، واعتقاد أدعياء النبوة أن نبوة الرسول نوع من الكهانة التي كان معظمهم يمارسها ويحترفها ، والتي شاعت في جزيرة العرب منذ قبل الاسلام . وقد فند القرآن الكريم هذا الادعاء في قوله تعالى : « انه لقول رسول كريم،وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون، ولا بقول كاهن قليلا ما تذكرون. »(٢) كما قال عز وجل : « فذكر فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون . »(٣) فضلا عن أن ظهور الاسلام كحركة دينية من شأنه أن يؤدي الى ظهور حركات دينية منافسة له(٤)، وهو ما حدث بالفعل في حركات أدعياء النبوة . كما أن ظهور طليحة وغيره من أدعياء النبوة ، مرتبط بالوضع العام في جزيرة العرب في أواخر حياة الرسول الكريم ، وهو ما قد يحتاج الى بعض التوضيح .

الوضع في جزيرة العرب في أواخر حياة الرسول :

يمكن القول ان ميزان القوى في جزيرة العرب في أواخر حياة الرسول (ص) ، بدأ يميل الى جانب النبي الكريم والمسلمين منذ صلح الحديبية ، الذي أظهر قوة المسلمين، ومكنهم من عقد مزيد من المحالفات والاتفاقات مع كافة القبائل العربية كما هو الحال بالنسبة لقريش ، بعد ان كانت مكة تكاد تستأثر بهذا الامتياز بحكم علاقاتها التقليدية

مع قبائل العرب، وبخاصة تلك النازلة على طول الطرق التجارية داخل الجزيرة العربية، مما عرف « بالايلاف »(٥) . وعندما فتحت مكة وقبلت ثقيف الدخول في الاسلام ، رجحت كفة ميزان القوى تماما لصالح الرسول الكريم وجماعة المسلمين ، الذين أصبحوا يشكلون بالفعل دولة قوية تملأ معظم الفراغ السياسي في جزيرة العرب آنذاك. ويلفت قوة هذه الدولة الذروة في عهد الرسول (ص) بعد غزوة تبوك عام ٩ هـ ، وما واكبها من نزول سورة التوبة ، التي تضمنت بيان براءة الذي أعلن في موسم حج ذلك العام ،مؤكدا الغاء الاتفاقات والمعاهدات التي كان الرسول قد عقدها مع مشركي القبائل العربية وبخاصة بعد صلح الحديبية(٦) .

ويعتبر بيان براءة على جانب كبير من الخطورة في تحديد موقف المسلمين من عرب الجزيرة العربية بصفة خاصة ، وغيرهم من الامم والشعوب بصفة عامة ، اذ اشتمل هذا البيان على عدة أمور أهمها :

١ ــ التبرؤ أو الغاء كافة المعاهدات التي عقدها المسلمون مع المشركين من قبائل العرب(٧) .

٢ ــ اعطاء هذه القبائل مهلة مدتها أربعة شهور لمراجعة موقفهم الجديد ،وليس أمامهم بعد ذلك سوى طريقين ، الدخول في الاسلام أو القتل(٨) .

٣ ــ الدخول في الاسلام يعني في الدرجة الاولى اقامة الصلاة وأداء الزكاة ، « فان تابوا وأقاموا الصلاة ، وآتوا الزكاة ، فخلوا سبيلهم ، ان الله غفور رحيم . »(٩) ويكونون بعد ذلك اخوان المسلمين في الدين .

٤ ــ تحذير المسلمين من مغبة انتقاض المشركين عليهم وابادتهم ، « كيف وان يظهروا عليكم لا يرقبوا فيكم إلاّ ولا ذمة »(١٠)« لا يرقبون في مؤمن إلاّ ولا ذمة . وأولئك هم المعتدون »(١١) .

٥ ــ يجب على المؤمنين أن لا يخشوا بأس مشركي القبائل العربية ، بل يجب عليهم أن يقاتلوهم ، وأكد الله ان المشركين لا يعجزوه . وانه سوف ينصر المؤمنين عليهم . « اتخشونهم ، فالله أحق أن تخشوه ان كنتم مؤمنين ، قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم ، وينصركم عليهم . »(١٢)

٦ ــ اعتبار رابطة الايمان والاسلام فوق رابطة الدم والقرابة والقبلية ، وهي أيضا فوق المصالح المالية والاقتصادية التي قد تتأثر بالبراءة ، وقطع جميع العلاقات مع المشركين. « قل ان كان آباؤكم وأبناؤكم واخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم ، وأموال اقترفتموها ، وتجارة تخشون كسادها ، ومساكن ترضونها ، احب

اليكم من الله ورسوله ، وجهاد في سبيله ، فتربصوا حتى يأتي الله بأمره ، والله لا يهدي القوم الفاسقين .»(١٣)

٧ ـ عدم السماح لأي مشرك بالحج بعد العام التاسع للهجرة (١٤).

٨ ـ التحذير من المنافقين وبعض الاعراب الذين يتربصون الدوائر بالمسلمين(١٥) .

٩ ـ قتال أهل الكتاب ومن يجاور المسلمين من الكفار حتى يقبلوا الدخول في دين الاسلام الحق ، أو يؤدوا الجزية(١٦) .

١٠ ـ استمرار واجب الجهاد على المسلمين ، وهو فرض كفاية في حالة الخروج للجهاد في سبيل نشر دعوة الاسلام . « وما كان المؤمنون لينفروا كافة ، فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ، لينذروا قومهم اذ رجعوا اليهم .»(١٧)

ومبادى هذا البيان العنيف نقطة تحول كبرى في تاريخ الدعوة الاسلامية ودولتها في المدينة ، وهو التحول الذي أعاد الرسول الكريم تأكيده في حجة الوداع في العام التالي . ويرى شوفاني ان سورة التوبة ، « تمثل قدرة الرسول على فرض مطالبه على القبائل . . . فأذعنت القبائل الضعيفة ، وقبلت على مضض أداء الزكاة (التي يسميها شوفاني جزية !) أما القبائل قوية البأس ، فقد تحدت الانذار ، وحملت السلاح ، اذ بينما تقاطرت الوفود الى المدينة عام ١٠هـ ، نجد الاسود العنسي في اليمن ، وطليحة في بني أسد ، ومسيلمة في اليمامة ، يعلنون العداء لمحمد وحلفائه ودينه في حياته .»(١٨)

وهكذا نجد في بيان براءة تحديد النهج والاسلوب الذي انتهجه الرسول الكريم ، ومن بعده خليفته أبو بكر الصديق ، في مواجهة أدعياء النبوة والمرتدين عن الاسلام ، أو الذين امتنعوا عن أداء الزكاة . وقد لاحظ كثير من الباحثين المحدثين ان أدعياء النبوة كانوا يمثلون حركات قبلية سعت الى الاحتفاظ بسيادتها بعيدا عن تبعيتها للمدينة ، وكانوا يقيمون في مناطق لم تدخل في نطاق نفوذ دولة المدينة في أواخر عهد الرسول الكريم مثل بعض مناطق اليمن وعمان ونجد . كما أن هذا النفوذ لم يكن راسخا في مناطق اخرى مثل مضارب بني أسد وغطفان وطيء(١٩) ، مما جعل هذه المناطق تشكل جيوبا ، استغلها اولئك الادعياء في اعلان نبوءاتهم ذات الاهداف السياسية والاقتصادية والاجتماعية .

وقد استعرض الياس شوفاني في كتابه «الردة وفتح المسلمين للجزيرة العربية» (Al-Riddah and the Muslim conquests of Arabia) وضع جزيرة العرب في

أواخر عصر الرسول صلى الله عليه وسلم . وذهب الى أن المصادر الاسلامية أشارت الى كثرة وفود القبائل العربية على المدينة في أعقاب فتح مكة معلنة قبولها الاسلام ، لكن هذه المصادر لم توضح التزامات تلك القبائل نحو المدينة باستثناء تحدثها عن اجازات الوفود ، وأضاف ان وجهة نظر اسلامية تقليدية ترتبت على ذلك ، مؤداها أن الرسول الكريم استطاع قبيل وفاته أن يوحد جزيرة العرب في دولة واحدة(٢٠) . ونوه شوفاني الى أن معظم الباحثين الغربيين يعارضون هذه الفكرة ، ومن هؤلاء كارل بيكر Carl Becker الذي أفاد بأن الرسول (ص) لم يوحد من الجزيرة العربية سوى الحجاز ، وقال انه حتى الوحدة الحجازية هذه ، كانت ترتبط بالمصلحة أكثر منها بالاخوة الدينية ، أما قبائل وسط الجزيرة مثل غطفان وباهلة وطيء وأسد وغيرها ، فكان ارتباطها غير قوي مع الرسول ، وانها قد تكون قد قبلت جزئيا الاسلام ، وكذلك الحال بالنسبة لجانب من أهل اليمامة ، في حين لم يكن للقبائل في جنوب وشرق جزيرة العرب أي ارتباط بالنبي صلى الله عليه وسلم ، ولخص شوفاني آراء ليوني كيتاني (Leone Caetani) حول علاقات القبائل العربية مع الرسول الكريم ، والتي أوردها في كتابه دراسة في تاريخ الشرق (Studi di Storia Orientali) وقد قسم كيتاني القبائل العربية في جزيرة العرب الى اربعة أقسام هي :

١ ــ القبائل الضاربة حول المدينة ومكة ، وهذه قبلت بالاسلام وخضعت للنبي (ص).

٢ ــ قبائل خضعت لسياسة الرسول ، وأحرز الاسلام فيها بعض التقدم ، مثل : هوازن ، عامر ، طيء ، سليم ، وربما خثعم .

٣ ــ القبائل المقيمة على تخوم دولة المدينة ، وهذه خضعت للمدينة سياسيا ، وقيل عنها تجوزا انها دخلت في الاسلام .

٤ ــ قبائل ظلت مستقلة عن المدينة ، وكانت بينها أقليات صغيرة تطلعت الى نيل مساعدة الرسول ضد أعدائها ، وهذه القبائل مثل بني حنيفة ، عبد القيس ، أزد عمان ، وحضرموت(٢١) .

وتعتبر آراء عبد العزيز الدوري التي ضمنها كتابه « مقدمة في تاريخ صدر الاسلام » ، قريبة من الآراء السابقة ، فهو يرى عدم دقة الروايات العربية التي تذهب الى أن « الجزيرة كلها أسلمت في حياة الرسول ، وخضعت للمدينة ، ثم ارتدت أو تزعزعت بعد وفاته » ويقول : « ان الردة نشأت عن خوف القبائل الوثنية من توسع سلطان المدينة ، وعن معارضة قبائل مسلمة لفكرة الخضوع للمدينة ، وعن رغبة البعض الآخر في انهاء هيمنة المدينة المتمثلة في معاهدات عقدتها مع الرسول ، وعن العصبية القبلية بصورة عامة ، وعن المحافظة الدينية .... وهناك بعض قبائل لم تخضع

سياسيا ولا دينيا للرسول ، مثل بعض القبائل في اليمامة . . . ، ولا ينبغي أن ننسى أن نجاح الرسول ، والوعي الذي كونته دعوته ، ووجود العصبية مسؤولة كثيرا عن ظهور الانبياء الكذابين . . . وربما كان للناحية القبلية الاثر الاول في ظهورهم . »(٢٢)

كذلك يقترب من هذه الآراء عبد المنعم ماجد في كتابه « التاريخ السياسي للدولة العربيــة » ، والذي يؤكد فيه « ان الوحدة السياسية لعرب الجزيرة جميعا لم تقم في أي وقت ، وليس لدينا سند تاريخي واحد يشير الى قيامها في زمن النبي . . . وان كان من المحتمل انه عند موت النبي ، وبيعة ابي بكر بالخلافة ، كان قد تكوّن في المنطقة الوسطى من الحجاز حكومة واحدة ، تشتمل على مكة والمدينة وبعض القبائل المجاورة، أما الجزء الاكبر من قبائل الجزيرة فلم يكن خضوعها لنفوذ المدينة الا خضوعا اســميا مظهره ارسال الوفود ، وايتاء الزكاة . »(٢٣)

ويقابل هذه الآراء ما يذهب اليه مؤرخون محدثون تبنوا وجهة النظر الاسلاميــة التقليدية ، والتي تقول ان الرسول الكريم أنشأ دولة في المدينة بدأت بمنطقة صغيرة ، ثم اتسعت حتى شملت جميع الجزيرة العربية . ومن هؤلاء ، محمد حميد الله في كتابه « نبي الاسلام » (Le Prophete de l'Islam) ومحمد الخضري في كتابه « تاريخ الامم الاسلامية » ، ومحمد حسين هيكل في كتابه « حياة محمد » ، وشكري فيصل في كتابه « حركة الفتح الاسلامي »(٢٤) .

أما مونتغومري واط (Montgomery watt) فقــد جمع في كتابــه « محمــد في المدينة » (Muhammad at Medina)، بين آراء من سبق من المستشرقين ، وبين آراء المؤرخين المسلمين التقليديين . وذهب الـى أن القبائل التي كانت تقيم بجوار المدينــة ومكة ، كانت مرتبطة بمحمد (ص) ارتباطا وثيقــا ، وكذلك القبائل المقيمة في وســط الجزيرة وعلى طول الطريق المؤدي الى العراق ، وان لم يخل الامر من الشذوذ ، وكان في اليمن وسائر الجنوب الغربي للجزيرة العربية ، عدد من الجماعات المخالفة ، غير أنها لم تكن تؤلف ربما أكثر من نصف السكان . وكانت النسبة أقل في الجنوب الشرقي ، كما أن المحاولات لفصل القبائل الضاربة على طول الطريق الى بلاد الشام عن الامبراطور البيزنطي لم تلق سوى قليل من النجاح . وهكذا لم ينجح محمد (ص) تماما في توحيد شبه الجزيرة العربية ، غير انه فعل أكثر مما ينسب اليه علماء أوروبا الشكاك . يضاف الى ذلك ان تأثيره الشخصي جعل له من القوة والســلطة أكثر مما تخولــه الاتفاقــات الشكلية ، وذلك بالنسبة لشؤون القبائل المتحالفة معه على قدم المساواة . وكانت هناك ثغرات ، ولكنها فيما عدا الجنوب الغربي لم تكن خطيرة . فلقد أقيم هيكل بناء الوحدة، وأصبح بامكان القبائل الدخول فيه ، وبالفعل ، فقد دخل فيه الكثير من القبائل ،وكان بامكان غيرها اللحاق بها بسهولة(٢٥) » .

وقد يسمح البحث هنا باضافة وجهة نظر أخرى ، وهي أن مسألة مدى سيادة الرسول الكريم على الجزيرة العربية قبيل وفاته ، يمكن أن تتضح بعد الاشارة الى مفهومين :

الاول : مفهوم السيادة عندالرسول صلى الله عليه وسلم ، وهو مرتبط بسيادة الشرع أكثر من ارتباطه بشخص الحاكم . فالذي يهم الرسول الكريم من الناس هو اعلان اسلامهم ، والقيام بأركان الاسلام وأهمها ، بعد الايمان بالله وبرسوله ، الصلاة والزكاة ، بالاضافة الى الصوم والحج للقادرين عليهما جهدا ومالا ، ولا يهمه بعد ذلك السيطرة أو الهيمنة السياسية بمفهومها الغربي أو الشرقي . فهو مثلا كان يقر كل حاكم أو ملك على حكمه وملكه اذا أعلن قبوله الدخول في الاسلام ، ولم يتدخل قط في تغيير رأس النظام السياسي اذا قبل الاسلام(٢٦) . وكان يشترط كما أسلفنا أن تؤخذ الزكاة من أغنياء كل قبيلة أو قوم وتنفق على فقرائهم . فالسيادة هنا أشبه ما تكون اسمية ، ما دام الاسلام نافذا .ونرى شيئا قريبا من مفهوم السيادة هذا في«الصحيفة» أو دستور المدينة الذينظم من خلاله الرسول الكريم العلاقة بينالمسلمين وسكان المدينة بعد الهجرة . فقد ابقى على استقلالكل عشيرة او قبيلة ،وكان الرسول نفسه لا يتدخل الا في الامور التي تهدد وحدة الجماعة ، وامن المدينة الذي اعتبر الدفاع عنه مسؤولية جماعية حتى من قبل غير المسلمين ، ما داموا يعيشون معهم في كيان واحد . مما جعل الدكتور حسين مؤنس يطلق على هـذا التدبير المحمدي وصف النظـام الاتحـادي أو الكونفدرالي(٢٧) .

ومن هنا فقد قبل الرسول الكريم اسلام العديد من وفود القبائل العربية ، التي استمرت تفد الى المدينة منذ صلح الحديبية ، وحتى قبيل وفاة الرسول عام ١١ هـ/ ٦٣٢ م . واعتبر ذلك سيادة للاسلام دون أي اعتبار آخر .

اما المفهوم الثاني : فهو ان الرسول الكريم عقد بالفعل قبل نزول سورة التوبة ، اتفاقيات ومعادات مع قبائل ظلت على وثنيتها أو اشـراكها ، وذلك لاعتبارات أملتها ظروف الصراع وطبيعته مـع قريش ، كما تبين ذلك بوضوح في صـلح الحديبية الذي سمح لقريش والمدينة بحرية تكوين الاحلاف وعقد المعاهدات ، مما يفهم منه أن سيادة الاسلام لم تكن تشـمل جميع أجـزاء الجزيرة العربية حتـى ذلك الوقت ، وان بعض القبائل العربية كان يربطها بحكومة المدينة نوع من التحالف المصلحي لا الديني .

لكن الوضع تغير أو انقلب تماما بعد غزوة تبوك ، حيث نزلت في اثنائها سـورة التوبة التي تضمنت براءة الرسول والمسلمين من المشركين ، وضـرورة اعتناق جميـع

القبائل العربية الاسلام والالتزام بتكاليفه من صلاة وزكاة ،والا واجهت القتل والابادة. وهو ما أعلن في موسمي الحج عامي ٩ هـ ، ١٠ هـ على التوالي .

وهنا ادركت كثير من القبائل العربية خطورة الموقف ، وجدية الانذار الاسلامي ، فأقبلت على المدينة تعلن استسلامها واسلامها ، في حين قبلت بعض القبائل الاخرى التحدي ، وظنت في نفسها القوة والمقدرة على مواجهة المسلمين ، والاحتفاظ بسيادتها المطلقة ، وعصبيتها القبلية المتميزة ، وشجعها على ذلك ما حققه الرسول الكريم من نجاح في رسالته ودعوته .وهو ما حدا بزعماء بعضها الى ادعاء النبوة(٢٨)، علهم يدركون أو يحققون نجاحا مماثلا ، لكنهم فشلوا في تحقيق هذا الهدف .

غير ان الموقف في جزيرة العرب عاد الى التأرجح بعد عودة الرسول الكريم الى المدينة من حجة الوداع أواخر عام ١٠ هـ / أوائل ٦٣٢م ، عندما بدت على النبي صلى الله عليه وسلم اعراض المرض ، ثم توفي لفترة قصيرة . ويروى عن ابي مويهبة قوله : انه « لما رجع رسول الله عليه السلام (من الحج) طارت الاخبار بأنه قد اشتكى ، فوثب الاسود باليمن ومسيلمة باليمامة »(٢٩) ولحق بهما طليحة الاسدي فكان « آخر من ارتد وادعى النبوة في حياة الرسول »(٣٠) . وهذا يعني أن بعض القوى في الجزيرة العربية كانت ترقب باهتمام متزايد اخبار الرسول الكريم ، وكل ما يستجد من أحداث في دولته (٣١)، كما يدل على ذلك ظاهرة تربص هذه القوى بما فيها الكثير من القبائل العربية ، ومحاولة استغلال أي احداث سلبية في المدينة لصالحها . ومن هذه الاحداث بدء شكوى النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم مرضه الذي توفي على اثره في شهر ربيع الاول عام ١١هـ/٦٣٢م ، واختلاف المسلمين في المدينة حول اختيار خليفة له ، وهو ما تمثل في سقيفة بني ساعدة .

وقد شجعت هذه الاحداث على ظهور المتنبئين والمرتدين ، وتربص المنافقين واليهود والنصارى داخل الجزيرة ، اضافة الى بعض القبائل التي تصفها المصادر تقدم رجلا وتؤخر اخرى(٣٢) ، حتى ان بعض تلك القبائل كان كما وصفه أبو بكر الصديق « لا عليك ولا لك ،متربص دائرة السوء ، ينظر لمن تكون الدبرة ، فيميل مع من تكون له الغلبة »(٣٣) ، فأصبح المسلمون والحالة هذه يواجهون موقفا حرجا وصعبا اذ « ارتدت العرب ، إما عامة وإما خاصة في كل قبيلة ، ونجم النفاق واشرأبت اليهود والنصارى ، والمسلمون كالغنم في الليلة المطيرة الشاتية ، لفقد نبيهم صلى الله عليه وسلم ، وقلتهم ، وكثرة عدوهم »(٣٤) . وقد صور أبو الهيثم بن التيهان الانصاري هذا الوضع بعد وفاة الرسول الكريم في أبيات معبرة قال فيها (٣٥):

تكلـم أهل الشـرك مـن بعد غلظة لغيبـة هـاد كان فينـا ومهتـدي
فان يك هـذا اليوم منهـم شماتة فلا يأمنـوا ما يحدث اللـه في غـد

وقد أشار القرآن الكريم الى هذا الوضع ، وحذر في أكثر من آية من ظهور أدعياء النبوة والمرتدين . قال تعالى : «ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا ،أو قال أُوحي اليّ ، ولم يوح اليه شيء ، ومن قال سأنزل مثل ما أنزل اللـه »(٣٦) وقال « وما محمـد الا رسول قد خلت من قبله الرسل ، أفئن مات أو قتل ، انقلبتم على أعقابكم ، ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا ، وسيجزي الله الشاكرين »(٣٧).

ولعل نذر هذا الوضع في جزيـرة العرب قبيل وفـاة الرسول الكريم هي التـي جعلت النبي صلى الله عليه وسلم يحذر المسلمين قبيل وفاتـه من الفتن القادمة(٣٨) ، ومن أدعياء النبوة الكذابين(٣٩) ، وضرورة الاستعداد لمواجهة هذه الفتن والحركات . وكان في مقدمة تلك الفتن ظهر عدد من أدعياء النبوة ، وارتداد بعض القبائل العربية عن الاسلام ، وامتناع البعض الآخر عن أداء الزكاة . وقـد بدأت مواجهة المسلمين لهـذه الفتن في الايام الاخيرة من حياة الرسول الكريم ابان مرضه ، « فلم يشغله ما كان فيه من الوجع عن أمر الله والذّب عن دينه»(٤٠) . ثم أكمل أبو بكر الصديق المواجهة وحقق النصر للاسلام والمسلمين على ما هو معروف ومشهور ، وكان طليحة الاسدي أول مـن قوتل من أدعيـاء النبـوة .

طليحـة بن خويلد الاسدي

ينتسب طليحة بن خويلد الى بني أسـد ، احدى قبائل مضر . وهي قبيلة ذات بطون كثيرة منها بنو فقعس الذين ينحدر طليحة منهم ، فهو طليحة بن خويلد بـن نوفل بن نضلة بن الاشتر بن حجوان بن فقعس بن طريف بن عمرو بن قعين بن الحارث ابن دودان بن أسد بن خزيمة بن مدركة بن الياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان(٤١). واسمه الاصلي طلحة ولكنه صغر الى طليحة من قبل المسلمين ، وذلك من باب الازدراء وتقليل الشأن ، بعد ارتداده وادعائه النبوة .ويروي الكلاعي صاحب الاكتفاء ان «خالد ابن الوليد وقف من عسـكر طليحة غير بعيد ، ثـم قال : ليخرج اليّ طليحة ، فقـال أصحابه : لا تصغر اسم نبينا وهو طلحة »(٤٢) . ويكنى طليحة بأبي حبال، وكان خطيبا وشاعرا وسجاعا كاهنا ناسبا ، على حد وصف الجاحظ له . وقد اعتبر من أشـجع العرب ، حتى قيل انه كان يعدل الف فارس(٤٣) . وقد عرف عنه اعتزازه بعروبته ، وتعصبه لقبيلته الذي ربما كان اهم عامل في ادعائه النبوة ،لاحراز نجاح مماثل لما أحرزه النبي القرشي محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم (٤٤).

بنو اسد وعلاقتهم بالمدينة :

ولعل من المفيد أن نكوّن فكرة عن موضع قبيلة اسد ومكانتها وعلاقتها بالرسول الكريم ودولته في المدينة ، باعتبار ذلك مدخلا يساعد على الوقوف على اسباب ارتداد طليحة وتنبئه . فقد كانت قبيلة اسد تنتشر في منطقة واسعة من أرض نجد تبدأ من جبال شمر ، وتمتد الى ما ورائها باتجاه الفرات ، أي انها كانت تقيم في منطقة تقع شمال شرق المدينة(٤٥) . وكانت قبائل أخرى تعيش في هذه المنطقة أيضا ، مثل غطفان المضرية ، وطيء اليمنية . وقد غلب التحالف أو العداء على العلاقات بين هذه القبائل، فحين حالفت أسد غطفان ، نجد أن هذا التحالف كان ينافس طيئا ويعاديها ، وقد حكم ذلك الوضع علاقاتها مع بعضها البعض من ناحية ، وعلاقاتها مع الكيانات المجاورة لها مثل دولة المسلمين في المدينة ، من ناحية أخرى . وقد تميزت هذه العلاقات بالتوتر مع الجانبين ، اذ نجد بني أسد تطمع في الاغارة على المدينة بعد هزيمة المسلمين في غزوة أحد ، فوجه اليهم الرسول الكريم سرية بقيادة أبي سلمة عبد الله بن عبد الاسد المخزومي . ونجحت في احباط هذا الهجوم(٤٦) . كما شاركت قبيلتا أسد وفزارة في غزوة الخندق ضد المسلمين ، فقاد طليحة بن خويلد قوات بني أسد ، في حين تزعم عيينة بن حصن قوات فزارة(٤٧). وقد بدأ عدد من قبيلة طيء المعادية لبني أسد يدخلون في الاسلام لقربهم النسبي من المدينة ،مما زاد في طمع بني أسد وعدائها لطيء ، فكتب الرسول الكريم كتابا الى بني أسد يحذرهم فيه من الاعتداء على طيء والاقتراب من مياههم وأرضهم ، وخاطب بني أسد قائلا : « أما بعد ، فلا تقربنّ من مياه طيء وأرضهم ، فانه لا تحل لكم مياههم ، ولا يلجنّ أرضهم الا من أولجوا ، وذمة محمد بريئة ممن عصاه »(٤٨).

استمر التوتر قائما بين بني أسد والمسلمين حتى أعلنت أسد اسلامها في عام الوفود ، في السنة التاسعة من الهجرة ، عندما قدم المدينة وفد من بني أسد ضم عشرة أشخاص ، فيهم طليحة بن خويلد ، وضرار بن الازور ، وحضرمي بن عامر ، « فقال متكلم : يا رسول الله ، انا شهدنا أن الله وحده ، لا شريك له ، وأنك عبده ورسوله ، وجئناك يا رسول الله ولم تبعث الينا بعثا ، ونحن لمن وراءنا (٤٩)» . فأنزل الله على رسوله : « يمنون عليك أن أسلموا ، قل لا تمنوا عليّ اسلامكم ، بل الله يمن عليكم أن هداكم للايمان ، ان كنتم صادقين »(٥٠).

وكان اسلام بني اسد في تلك الفترة نتيجة طبيعية ، بعد فتح مكة، واسلام ثقيف، وتزايد قوة الدولة الاسلامية بعد غزوة تبوك . فأدركت أسد وكثير غيرها من قبائل العرب ، أن مصلحتها تقضي باسلامها واستسلامها للقوة الاسلامية المتنامية في الحجاز، والتي اصبحت تشكل أكبر قوة عسكرية ضاربة في الجزيرة العربية .

عوامل تنبؤ طليحـة :

لكن اسلام بني أسد لم يستمر طويلا ، اذ ما لبث طليحة بن خويلد زعيم بني أسد أن ارتد وادعى النبوة ، فكان « آخر من ارتد ، وادعى النبوة في حياة الرسول ، وأول من قوتل بعد وفاته »(٥١) . وقد تضافرت جملة أسباب شجعت طليحة على اتخاذ هذا الموقف الجديد أهمها :

١ ـ بدء مرض الرسول الكريم الذي انتهى بوفاته ، اذ ظن طليحة أن دعوة الاسـلام سوف تنتهي بوفاته ، وان فراغا سياسيا سوف ينشأ بعده ، فأسرع الى اعلان نبوته عله يحرز نجاحا مماثلا للنجاح الذي حققه النبي صلى الله عليه وسلم من خلال دعوتـه .

٢ ـ قيام الاسود العنسي ومسيلمة الكذاب الحنفي ، بادعاء النبوة في قومهما في اليمن واليمامة ، مما شجعه على أن يحذو حذوهما ، متخـذا التنبؤ وسيلة لجمـع الاتباع والانصار ، وزيادة القوة والهيبة والعصبية .

٣ ـ اشتغال طليحة الاسدي بالكهانة والسجع قبل الاسلام ، وما عرف عنه وعن قومه من اشتهارهم بالعيافة،وهي زجر الطير والاعتبار بأسمائها ومساقطها وأصواتها، للتخرص على الغيب(٥٢) ، والقيافة ، وهي قيافـة الاثر والاسـتدلال بهيئـات أعضاء الشخصين الى المشاركة والاتحاد في النسب والولادة وسائر احوالهما(٥٣)، والكهانة ، وهي الاخبار عن الكائنات في المستقبل ، وضرب الحصـباء ، والخط في الرمل ومعرفة ما يدل عليه(٥٤) . فضلا عن شيوع الفصاحة فيهم ، حتى قيل عن بني أسد « عافة قافة فصحاء كافة »(٥٥).

وتحدثنا المصادر أن وفد بني أسد الى النبي صلى الله عليه وسلم ، قد سأله عن هذه الامور التي كانوا يمارسونها قبل الاسلام ، وان الرسول الكريم قد نهاهـم عن ممارستها(٥٦) . ويبدو أن بعضهم قد تأصلت فيه هذه الممارسة بحكم العادة، وظل يمارسها حتى بعد القضاء على ردة بني اسد وعودتها الى الاسلام ، كما فعل طليحة بن خويلد الاسدي نفسـه ، في أثناء تجمع العرب المسلمين في نهاوند(٥٧).

٤ ـ رغبة بني أسد وحلفائها في الاحتفاظ باستقلالهم واموالهم ،ورفض تبعيتها لدولة المسلمين في المدينة . وقد تمثلت هذه الرغبـة حين عرض طليحة على الرسـول الكريم الموادعة ، اي عقد اتفاقية سلام بينهما ، الامر الذي رفضه النبي صـلى الله عليه وسلم(٥٨) . وحين رفض بنو اسد وغطفان بمن فيهم فزارة ، الاعتراف

فيما بعد بخلافة ابي بكر الصديق ، اذ قالوا : «لا نبايع ابا الفصيل أبدا» تصغيرا لشأن الصديق (٥٩) . اضافة الى حث طليحة الاسدي اتباعه على قتال قوات المسلمين ، حتى يمنعوا القوم أموالهم كما كانوا يمنعونها قبل الاسلام(٦٠) .

حيله وغواياته ، إسجاعه ودعوته :

وهكذا حملت هذه العوامل أو بعضها طليحة بن خويلد الاسدي على التنبؤ والارتداد ، فادعى انه رسول مبعوث من قبل الله ، وان ملكا يأتيه يسمى « ذا النون »، وقيل جبرائيل أو جبريل ، واخذ يسجع للناس ،ويتكهن لهم ، «فتبعه كثير من العرب عصبية ، فلهذا كان أكثر أتباعه من اسد وغطفان وطيء »(٦١) . في حين أعجب بعضهم بسجعه وكهانته وظنوا ذلك من دلائل النبوة . ويذكر الديار بكري ان « أول ما صدر عنه ، وكان سببا لضلال الناس ، انه كان مع قومه في سفر ، فأعوزهم الماء ، وغلب العطش على الناس . فقال : اركبوا أعلالا ، واضربوا أميالا ، تجدوا بلالا ، ــ واعلال اسم فرس له ــ . فعلوا فوجدوا الماء ، فكان ذلك وقوع الاعراب في الفتنة »(٦٢). وأورد ابن أعثم الكوفي هذا الخبر مع بعض الاختلاف في السجع ، اذ أجاب طليحة أصحابه بعد أن سألوه عن حيلة للعثور على الماء ، فقال : « نعم اركبوا علالا ، واضربوا أميالا ، وجاوزوا الرمالا ، وشارفوا الجبالا ، ويمموا التلالا ، تجدوا هناك قلالا »(٦٣). فذهب أحد بني أسد الى هذا المكان فعثر على الماء ، ورجع الى قومه فأخبرهم ، « فمضوا الىذلك الموضع ،فأسقوا ،وازدادوا فتنة الى فتنتهم بطليحة بن خويلد»(٦٤).

واذا كان مثل هذا الخبر يدخل في باب الكهانة ، فانه غير بعيد على طليحة أن يكون عارفا لذلك الموضع ووفرة الماء فيه .

ومما استغوى به طليحة أتباعه أيضا ، انه « بعث عيونا له حيث سار خالد بن الوليد من المدينة مقبلا اليهم ، قبل أن يسمع بذكر خالد ، وقال لاصحابه :

« ان بعثتم فارسين على فرسين اغرين محجلين ، من بني نصر ابن قعين ، أتوكم من القوم بعين». فأرسل بنو أسد فارسين فلقيا عينا لخالد بن الوليد فأخبرهما بقدوم المسلمين الى قومهما ، فأحضرا ذلك العين الى طليحة فزادهم ذلك فتنة به ، كما زادت ثقة طليحة بنفسه فقال لهم : « الم أقل لكم ! »(٦٥) . وقد أعجب أصحابه به وبكلامه المسجوع حتى قال له أحدهم : « أشهد انك نبي حقا ، فليس هذا الا من كلام الانبياء ! »(٦٦) . وربما كان فحوى هذا الخبر يدل على فراسة طليحة وتوقعه هجوما من المسلمين ، يسبقه كالعادة عيون وطلائع .

وقيل أيضا ان ضرار بن الازور مبعوث الرسول الكريم الى عماله على بني أسد، ضرب طليحة ضربة قوية بسيفه القاطع فلم تؤثر فيه ، فأشيع بين الناس أن السلاح لا يعمل فيه ، فزادت فتنتهم فيه وكثر جمعه (٦٧). ولا تعدو مثل هذه الخارقة كما يقول شوقي أبو خليل أن يكون طليحة متدرعا بدرع يحميه ، ولكنه كان يخفيه تحت ثيابه (٦٨). ولا بد أن يكون الجاحظ قد كشف أمر هذه الحيل والغوايات في كتابه المفقود « الفرق بين النبي والمتنبي » ، والذي « ذكر فيه جميع المتنبئين ، وشأن كل واحد منهم على حدته ، وبأي ضرب كان يحتال »(٦٩) .

ومهما يكن من أمر هذه الحيل والغوايات ، فقد استطاع طليحة بها ان يستقطب عوام بني أسد وغطفان وفزارة وطيء وهوازن ، الا ما كان من خواص الاقوام في بعض هذه القبائل(٧٠) الذين ثبتوا على اسلامهم ، فقتل بعضهم وعاد البعض الآخر الى المدينة، فأخبروا أبابكر بانتشار أمر طليحة الاسدي وتفاقم خطره .

وقبل ان نتطرق الى موقف المسلمين من حركة طليحة ، نحاول النظر في دعواه لمعرفة شيء عن مبادئه أو ادعاءاته ، كما نستقيها مما نسب اليه من أقوال وأسجاع وما روي عنه من أخبار . فقد شهد طليحة نفسه لخالد بن الوليد لما دعاه الى الايمان بالله وحده ، وبمحمد رسوله ، والعود الى الاسلام ، شهد أن لا اله الا الله ، ولكنه أقر أيضا بأنه هو نفسه أي طليحة رسول الله « وانه مرسل يأتيه ذو النون ، كما كان جبريل يأتي محمدا». أي أن طليحة اعتبر نفسه رسولا مثل الرسول الكريم محمد بن عبد الله، دون أن ينفي نبوة محمد صلى الله عليه وسلم »(٧١) . وقد يكون اعترافه بنبوة محمد، جاء متأثرا بموقف مسيلمة الحنفي المماثل ، حتى يتجنب الاثنان عداوة المسلمين .

ولعل الشيء الجديد الملفت للنظر هو الغاء طليحة الركوع والسجود في الصلاة ، والاكتفاء بذكر الله قياما وقعودا . ويتضح ذلك من قوله لاصحابه عندما أقبل المسلمون في قوات خالد بن الوليد ، يلهجون بالصلاة والدعاء قبيل ملاقاتهم جموع طليحة في بزاخة : « لا يهولنكم من انضم الى خالد بن الوليد من هذا الجيش ، فانهم على باطل وغرور ، واخرى ، فانهم قد لهجوا بهذه الصلاة ، فهم يظنون انهم محسنون ، ولقد أتاني جبريل يخبرني عن ربي ، انه ليس يحتاج الى تعفير وجوهكم ، وقبح ادباركم ، ولا يريد منكم ركوعا ولا سجودا . وانما يريد منكم أن تذكروه قياما وقعودا»(٧٢). وقد يكون طليحة قد تأثر في هذه الدعوة ، باشارة مماثلة وردت في القرآن الكريم حيث يقول تعالى « إن في خلق السماوات والارض ، واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الالباب ، الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ، ويتفكرون في خلق السماوات والارض، ربنا ، ما خلقت هذا باطلا ، سبحانك، فقنا عذاب النار»(٧٣). وربما كادت دعوة طليحة

لتخفيف مراسم اداء الصلاة ، مستمدة من صلوات أهل الكتاب التي تخلو طقوسها العادية من الركوع والسجود . اذ عرفت الجزيرة العربية النصرانية واليهودية والمجوسية وبخاصة في الاجزاء الشمالية والشمالية الشرقية من بلاد العرب بالاضافة الى اليمن(٧٤). وقد يكون طليحة قد تأثر بمسيلمة الحنفي ، وسجاح التميمية ، اللذين سبقاه في ادخال تعديلات على مراسم اداء الصلاة وعددها ، اذ خفضاها من خمس صلوات في اليوم الى ثلاث ، وهو امر كان شائعا وممارسا لدى المجوس واليهود(٧٥) .

كذلك فان الاخبار التي تتعلق بالمفاوضات التي جرت بين وفود من قبائل العرب، بما فيها بنو أسد وغطفان وهوازن وطيء ، وبين أبي بكر الصديق ، تشير الى مراجعة هذه القبائل موقفها من دولة المسلمين في المدينة وسعيها الى التوصل الى اتفاق جديد معها تقر فيه بالصلاة ، مع اعفائها من الزكاة ، الا أن أبا بكر رفض هذه المساومة واعتبرها انتقاضا لعرى الدين على ما أسلفنا . ومن هنا كانت حركة طليحة تدعو الى اسقاط الزكاة(٧٦) ، بالاضافة الى التخفيف من مراسم أداء الصلاة وعددها(٧٧) .

وتضمنت ادعاءات طليحة الاسدي أيضا نبوءات تؤكد لاتباعه والمؤمنين به، ازدياد قوتهم . واتساع ملكهم حتى يبلغ العراق والشام . فكان يقسم لاصحابه قائلا : « والحمام واليمام ، والصرد الصوام ، قد صمن قبلكم بأعوام ، ليبلغن ملكنا العراق والشام »(٧٨). وفي ذلك تقليد واضح لما كان يبلغه من وعد النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه بأن الله سيفتح عليهم هذين القطرين وينزع عنهما ملك فارس والروم(٧٩) .

أما بقية أقوال طليحة ، فلا تمدنا بأي اشارات أخرى عن مبادىء دعوته سوى عبارة غامضة نسبت اليه ، يقول فيها : « الملك الجبار نصفه ثلج ونصفه نار » (٨٠). وربما يتعلق هذا القول بتصوره للخالق جل وعلا . أما أقواله الاخرى فانها تتعلق باستعداده الحربي لمواجهة المسلمين كما يتضح فيما بعد .

استعداد المسلمين لمواجهة حركته :

أما كيف واجه المسلمون حركة طليحة الاسدي وادعاءه النبوة ، فقد رفض الرسول الكريم دعوته الكاذبة ، عندما أرسل طليحة أخاه وقيل ابن أخيه حبال ، الى الرسول يدعوه الى الموادعة ويخبره خبره ، وبأنه صار نبيا مثله . ويبدو أن مبعوث طليحة حاول التوصل الى نوع من المسالمة والاتفاق مع النبي صلى الله عليه وسلم ، الا ان شيئا من ذلك لم يتم ، وفشلت مهمة حبال في تحقيق هذا الهدف(٨١) .

وبرغم ما كان يعاني منه الرسول الكريم من آلام المرض ، الا أن ذلك لم يشغله عن أمر الله والذب عن دينه ، « ولظ طليحة ومسيلمة بالرسل . . . ، ووجه ضرار بن الازور الى عماله على بني أسد في ذلك ، وأمرهم بالقيام على كل من ارتد»(٨٢) ، لكن ضرار وعمال الرسول على بني أسد ، لم يستطيعوا تنفيذ هذه المهمة ، بسبب افتتان عامة بني أسد بطليحة خاصة بعدما أشيع أن السيف لا يؤثر فيه ، وبعد أن عرضت عليه القبائل المجاورة مثل طيء وغطفان وفزارة النصرة والتأييد ، لما كان بينهم قبل الاسلام من حلف ، حتى قال عيينة بن حصن زعيم بني فزارة : « والله لأن نتبع نبيا من الحليفين ـ أي من اسد وغطفان ـ أحب الينا من أن نتبع نبيا من قريش ، وقد مات محمد ، وبقي طلحة ، فطابقوه على رأيه . . . ، فلما اجتمعت غطفان على المطابقة لطليحة هرب ضرار وقضاعي وسنان ، ومن كان قام بشيء من امر النبي صلى الله عليه وسلم في بني أسد الى أبي بكر ، وارفض من كان معهم ، فأخبروا أبا بكر الخبر وأمروه بالحذر »(٨٣) ولا شك أن وفاة الرسول الكريم في هذا الوقت بالذات قد أضعفت موقف المسلمين في بني أسد ، واضطرتهم الى الانسحاب من مرابع تلك القبيلة والعودة الى المدينة .

موقف أبي بكر :

وكانت أولى المهام الصعبة التي واجهها أبو بكر الصديق خليفة الرسول (ص) : هو العمل بسرعة وشدة وحزم للقضاء على حركة طليحة الاسدي ، واستعادة هيبة المسلمين ودولتهم في مناطق الردة والنبوءات الكاذبة ، وهو ما تم بالفعل من خلال قوة ايمان أبي بكر وعزيمته وكفاءته وبعد نظره .

وقد لخص الكلاعي في كتابه الاكتفاء ، معظم ما أشارت اليه المصادر الاخرى عن صعوبة الموقف الذي واجهه ابو بكر الصديق بعد وفاة الرسول الكريم ، حيث ارتد جانب من العرب عن الاسلام ، وتمرد معظمهم على سيادة المدينة ،ورفض البعض الآخر القبول بخلافة أبي بكر ، وامتنعت غالبيتهم عن اداء الزكاة .وفي ذلك يقول :« ان العرب افترقت ، فقالت فرقة (عن الرسول الكريم) : لو كان نبياً ما مات ، وقال بعضهم : انقضت النبوة بموته ، فلا نطيع أحدا بعده ، وفي ذلك يقول قائلهم :(٨٤)

اطعنا رسول الله ما كان بيننا	فيالعباد الله ما لأبي بكر
أيورثها بكراً اذا مات بعده	فتلك وبيت الله قاصمة الظهر

وقال بعضهم : نؤمن بالله . وقال بعضهم : نؤمن بالله ونشهد ان محمدا رسول الله ونصلي ، ولكن لا نعطيكم اموالنا »(٨٥). واضاف الغساني صاحب كتاب الخذلان

الى ذلك ، أن « بعض العرب ارتد خشية أن يصبح تابعا من أتباع المدينة ، وبعض ارتد عن الاسلام ، وما يأمر به من صلاة وزكاة وصيام ووضوء ، وعاد يعكف على الاوثان ، وبعض ادعى النبوة حقدا على قريش ، وحسدا أن يظهر فيها نبي »(٨٦). وقد أشرنا كيف أن باقي القبائل العربية وقفت تتربص ، تقدم رجلا وتؤخر أخرى ، وتراقب الوضع وتنتظر ريثما ينجلي الموقف فتميل مع الكفة الراجحة (٨٧)، وهو أمر ينسحب على كثير من مواقف القبائل البدوية ، ابان المعارك الحاسمة التي وقعت على مقربة منهم .

وكانت بعض القبائل ومنها بنو أسد ، قد أرسلت وفودا الى المدينة ، لتنظيم علاقاتهم الجديدة مع أبي بكر ، والاتفاق معه على اعفائهم من فريضة الزكاة . «فلم يقبل ذلك منهم وردهم »(٨٨) . وكان بين هؤلاء الاقرع بن حابس التميمي ، وعيينة بن حصن زعيم فزارة وغطفان ، وقد عرضا على أبي بكر أن يعطيهما مالا مقابل اقناع القبائل التي يمثلانها بالتخلي عن ارتدادها ومنعها الزكاة ، والعودة الى الاسلام ، وهو أمر رفضه أبو بكر أيضا ، رغم أن عددا كبيرا من كبار الصحابة كان يرى ضرورة مهادنة مانعي الزكاة ، واعفائهم منها لمدة سنة حتى يقوى أمر المسلمين ويتمكنوا من قتال القبائل العربية المتمردة أو الممتنعة عن اداء الزكاة . واستطاع أبو بكر بقوة ايمانه وحجته أن يقنع معارضيه بوجهة نظره وقال لهم : « انكم قد علمتم انه كان في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم اليكم المشورة ، في ما لم يمض فيه أمر من نبيكم ، ولا نزل به الكتاب عليكم ، وان الله لن يجمعكم على ضلالة ، واني سأشير عليكم ، فانما أنا رجل منكم ، تنظرون فيما أشير به عليكم ، وفيما أشرتم به ، فتجتمعون على أرشد ذلك ، فان الله يوفقكم . وأما أنا ، فأرى أن ننبذ الى عدونا ، فمن شاء فليؤمن ، ومن شاء فليكفر ، وأن لا نرشوا على الاسلام احدا ،وان نتأسى برسول الله صلى الله عليه وسلم ،فنجاهد عدوه كما جاهدهم ، والله لو منعوني عقالا لأسلبن أجلهم عليه حتى آخذه . فائتمروا يرشدكم الله ، فهذا رأيي . وأما قدوم عيينة وأصحابه اليكم فهذا أمر لم يغب عنه عيينة ، هو منه ثم جاء له . ولو رأوا ذباب السيف لعادوا الى ما خرجوا منه ، أو أفناهم السيف فالى النار ، قتلناهم على حق منعوه وكفر ، فبان للناس وجه أمرهم . قالوا لابي بكر لما سمعوا رايه : انت أفضلنا رأياً ، ورأينا لرايك تبع ، فأمر أبو بكر الناس بالتجهز ، وأجمع على المسير بنفسه لقتال أهل الردة »(٨٩).

وهذا الوصف الشامل الذي أورده الكلاعي والغساني ، يرينا وجهة نظر أبي بكر وبعد تفكيره ، حيث كان « يرى في منع الزكاة نقضا للدين كله فلم يهادن في الصغير من الامر ، لانه باب الكبير منه »(٩٠) . على حد وصف مسيلمة الحنفي له . ومن هنا كان اصراره على التمسك بالاسلام كاملا ، عقيدة وشريعة ، وضرورة مجاهدة أعدائه ،

وايمانه بسياسة القوة التي تعيد المتنبئين والمرتدين الى الاسلام . كما يوضح عدم استئثاره برأيه ومشورته المسلمين ، السعي الى التوصل الى رأي موحد في مواجهة الخطر الجديد . وقد ادرك كبار الصحابة فيما بعد صحة راي أبي بكر واثنوا على موقفه ، فقال عمر بن الخطاب : « والله لرجح ايمان أبي بكر بايمان هذه الامة جميعا، في قتال أهل الردة»(٩١) . وقال عبد الله بن مسعود : « لقد قمنا بعد الرسول صلى الله عليه وسلم مقاما كدنا ان نهلك فيه ، اجتمع راينا جميعا على أن لا نقاتل على بنت مخاض وابن لبون ، وأن نأكل قرى عربية ، ونعبد الله حتى يأتينا اليقين ، وعزم الله لابي بكر على قتالهم ، فوالله ما رضي منهم الا بالخطة المخزية أو الحرب المجلية ، فأما الخطة المخزية فأن يقروا بأن من قتل منهم في النار ، ومن قتل منا في الجنة ، وأن يدوا قتلانا ونغنم ما أخذنا منهم ، وأن ما أخذوا منا مردود علينا ، وأما الحرب المجلية فأن يخرجوا من ديارهم »(٩٢). وقالت عائشة : « توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فنزل بأبي ما لو نزل بالجبال الراسيات لهاضها ، إشرأب النفاق بالمدينة ، وارتدت العرب ، فوالله ما اختلفوا في واحدة الا طار بحظها وغنائها عن الاسلام»(٩٣) . ونسب الى أبي هريرة قوله في ذلك : « لولا أبو بكر ، لهلكت أمة محمد عليه السلام بعد نبيها »(٩٤) .

وهكذا اجتمعت كلمة المسلمين على قتال المتنبئين وأهل الردة . وأمر أبو بكر المسلمين بالتجهز للقتال ، وأعاد ترتيب قواته من جديد بعد عودة جيش أسامة بن زيد من تخوم بلاد الشام . ووجه خالد بن الوليد على رأس جيش معظمه من المهاجرين والانصار مع قوات اسلامية أخرى من طيء وبجيلة ، وزوده بتعليمات وأوامر واضحة ذكرت في كثير من المصادر (٩٥) وتتضمن ما يلي :

١ ـ الجد في قتال المرتدين .

٢ ـ أن لا يقاتل قوما حتى يعذر اليهم ويدعوهم الى الاسلام ، ويبين لهم الذي لهم في الاسلام ، والذي عليهم « وليعذر الى من دعا بالمعروف وبالسيف » .

٣ ـ أن لا يقبل من أحد شيئا الا الاسلام .

٤ ـ القضاء على من ينتصر عليه من المرتدين بأن « يقتلهم بالسلاح ، ويحرقهم بالنار، ولا يستبق منهم احدا ، قدر على أن يستبقيه . ويقسم اموالهم وما أفاء الله عليه وعلى المسلمين الا خمسه » .

٥ ـ أن يمنع أصحابه العجلة والفساد ، وأن لا يضم الى قواته الا من يثق به ويعرفه، حتى لا يكونوا عيونا على المسلمين ولا يؤتى المسلمون من قبلهم .

ولم يكتف أبو بكر بذلك بل ارسل كتابا عاما موحدا لا يخرج محتواه عن هذه التعليمات الى جميع المرتدين بمن فيهم طليحة الاسدي وقومه(٩٦) .

وأهم ما يلاحظ في هذه التعليمات ، هو الشدة المتناهية التي امر بها أبو بكر خالدا في معاملة أهل الردة ، بما في ذلك القتل والاحراق بالنار ، وهي شدة اتبعها ابو بكر نفسه مع الفجاءة ، بجير بن اياس بن عبد الله السلمي ، بعد أن زوده أبو بكر بسلاح وفرس، فخرج يعترض الناس ويقتل المسلمين والمرتدين دون تفريق بينهم(٩٧). كما أمر ابو بكر بقطع ايدي وأرجل نسوة بالنجير وهو حصن في حضرموت، شمتن بوفاة الرسول صلى الله عليه وسلم(٩٨) . وتتمشى هذه السياسة مع ايمان أبي بكر بضرورة استخدام القوة والعنف مع أعداء المسلمين من الاعراب ، لانهم « لو رأوا ذباب السيف لعادوا الى ما خرجوا منه » على حد قوله . وربما لجأ الى مثل هذه السياسة لارهاب المرتدين الاخرين وحملهم على الاستسلام السريع ، فضلا عما في ذلك من تأكيد لهيبة الاسلام ودولته وخليفته ،الذي ظنوا فيه التخاذل والضعف حتى أسموه «أبا الفصيل». واذا كانت بعض المصادر مثل فتوح البلدان للبلاذري ، لم تذكر وصية أبي بكر لخالد ابن الوليد التي تضمنت احراق المرتدين بالنار ، وأشارت بعض روايات البلاذري الى انتقاد خالد على انتهاج هذه السياسة ، مما يوحي بانه المسؤول عنها ، فان ذلك ربما قيل لاسراف خالد بن الوليد في تنفيذ سياسة أبي بكر الصديق ، كما حدث مع بني يربوع وبني حنظلة ، وبني سليم ، وربما كان ذلك أيضا من باب الشفقة التي يثيرها عادة العنف والشدة ، على من تنفذ ضدهم ، ومع ذلك فقد أقر أبو بكر الصديق هذه السياسة ،ورفض رأي منتقدي خالد قائلا : «لا أشيم سيفا سله الله على الكفار »(٩٩). مهما يكن من امر فقد كان لهذه السياسة أثر كبير في القضاء على حركات المتنبئين والمرتدين .

موقعة بزاخة :

وهكذا حارب ابو بكر المرتدين والمتنبئين بالرسل ، أي بتوجيه رسائل الانذار والتأليب كما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بالاضافة الى تجهيز القوات العسكرية للقضاء على تلك الحركات وأصحابها(١٠٠) . وكان من رأي أبي بكر أن يبدأ المسلمون بقتال طليحة الاسدي(١٠١) . ويبدو أن ذلك راجع الى قرب منازله وحلفائه من طيء وفزارة وغطفان من المدينة المنورة وتهديدهم لها .تقدمت قوات خالد بن الوليد التي يقدرها أحمد عادل كمال بأربعة آلاف ،في حين يقدرها شوقي أبو خليل بستة آلاف مقاتل ، تقدمت لمواجهة قوات طليحة التي قدرت أيضا بخمسة آلاف مقاتل ، بينهم

سبعمائة من فزارة بقيادة عيينة بن حصن الفزاري (١٠٢) ، فيما لاحت في الافق بوادر تحول في الموقف لصالح المسلمين . وتمثل ذلك في تمكن أبي بكر والمسلمين في المدينة من هزيمة تجمع قبلي من عبس وذبيان شمال المدينة مما اضطر فلولهم الى الانضمام الى قوات طليحة ، في حين أوقع المسلمون هزيمة مماثلة بجموع أخرى من بني فزارة وغطفان على مقربة من ذي القصة قرب المدينة ، مما اشاع الذعر في نفوسهم ، حتى قال خارجة بن حصن الفزاري : « ويل للعرب من ابن أبي قحافة »(١٠٣) . ويبدو أن هذه البوادر كانت وراء نجاح عدي بن حاتم الطائي في اقناع قومه الانسحاب من تحالفهم مع طليحة والانضمام الى قوات المسلمين(١٠٤) . وقد حدث في أثناء تقدم قوات خالد بن الوليد لمصادمة طليحة ، أن قتل الاخير طليعة استكشافية للمسلمين ضمت عكاشة بن محصن وثابت بن أقرم ، مما زاد من نقمة المسلمين وتحفزهم لقتال طليحة وحلفائه .

أما طليحة فقد جمع قواته في بزاخة وهي موضع ماء لبني أسد في نجد ، واتخذ بيت شعر مقرا لقيادته ، حيث تلفف في كساء له بفناء البيت ، وقيل ضربت له قبة من أدم وأصحابه حوله معسكرون ، وجعل يتنبأ لهم ، ويشجع أنصاره من بني اسد وفزارة وغطفان على مواجهة المسلمين ويقول لهم : «أمرت أن تصنعوا رحى ذات عرى، يرمي بها من رمى ، يهوي بها من هوى »(١٠٥) . وقال « والقرد والنيرب ، ليقتلن النيدب ، اذا صر اخوكم المندب ، والله لا انسحب ، ولا نزال نضرب حتى ينتج أهل يثرب » (١٠٦) . كما نسب اليه قوله : « والسائرات خببا ، والراكبين عصبا ، على قلائص صهب وحمر ، لأجمعن شملا ، ولأبددن شملا»(١٠٧) . وقال لانصاره عندما أقبل خالد بن الوليد في قواته على بني أسد : « لا يهولنكم من انضم الى خالد بن الوليد من هذا الجيش ، فانهم على باطل وغرور . . . . فانظروا أن تمنعوا القوم أموالكم ، كما منعتموها في جاهليتكم »(١٠٨) .

ويحدثنا الكلاعي أن خالدا طلب من طليحة ان يخرج اليه قبل القتال ، فلما خرج قال خالد : « ان عهد خليفتنا الينا ان ندعوك الى الله وحده لا شريك له ، وان محمدا عبده ورسوله ، وان تعود الى ما خرجت منه ، فنقبل منك ونغمد سيوفنا عنك . فقال طليحة : يا خالد ، انا أشهد أن لا اله الا الله ، وأني رسول الله ، واني مرسل يأتيني ذو النون كما كان جبريل يأتي محمدا »(١٠٩) .

المواجهة الحاسمة :

وهنا أصبح القتال بين الجانبين امرا لا مفر منه ، فطلب عدي بن حاتم الطائي من خالد بن الوليد « أن يجعل قومه مقدمة أصحابه ، فقال (خالد) : يا ابا طريف ان الامر

قد اقترب ، وانا اخاف ان أقدّم قومك ، فاذا لحمهم القتال انكشفوا ، فانكشف من معنا ، ولكن دعني أقدم قوما لهم سوابق ونيات وهم من قومك . قال عدي : الرأي ما رأيت ، فقدم المهاجرين والانصار »(١١٠) . ثم عقد الوية لمجموعات المقاتلين المسلمين، فسلم اللواء الاعظم الى زيد بن الخطاب ، ولواء الانصار الى ثابت بن قيس بن شماس، ولواء طيء الى عدي بن حاتم الطائي »(١١١) . ويحدثنا صاحب الاكتفاء أن خالدا اخذ يسوي صفوف أصحابه راجلا ، فيما أخذ طليحة يسوي صفوف أصحابه على راحلته، ثم بادر خالد بقواته الى الزحف على قوات طليحة ، فلما دنا المسلمون منهم ، خرج طليحة بأربعين فارسا من خيرة جنده ، فأغاروا على ميمنة القوات الاسلامية ، ثم عطفوا على الميسرة ، فتضعضع المسلمون وانهزموا ، فدعا احد الطائيين خالدا الى الانسحاب والالتجاء الى جبلي سلمى وأجا القريبين من طيء للاحتماء بهما ، فرفض خالد الانسحاب وأصر على القتال والنصر قائلا : «بل الى الله الملجأ» . واقتحم بفرسه يقاتل جموع طليحة ويحث المسلمين على الثبات والصبر في مجاهدة عدوهم ، معرضا نفسه للخطر ، حتى وجه اصحابه اللوم اليه باعتباره قائد المسلمين ، حتى لا يتفرقوا بعده ، واستمر في المصاولة والقتال حتى لم يبق من أولئل الاربعين أحد ، « وقاتل خالد يومئذ بسيفين حتى قطعهما » . فتراد الناس بعد الهزيمة واشتد القتال ، وأخذ المسلمون يضغطون على قوات طليحة وينزلون فيها خسائر فادحة . فلما رأى عيينة بن حصن تغير الموقف لصالح المسلمين ، « أتى طليحة وهو ملتم في كسائه ، فقال : لا أبا لك ! هل اتاك جبريل بعد ؟ فقال طليحة وهو تحت الكساء : لا والله ما جاء بعد ، فقال عيينة : « تبا لك سائر اليوم . ثم رجع عيينة فقاتل ، وجعل يحض أصحابه وقد ضجوا من وقع السيوف ، فلما طال ذلك على عيينة ، جاء طليحة وهو مستلق متشح بكسائه فجبذه جبذة جلس منها ، وقال له : قبح الله هذه من نبوءة ، ما قيل لك بعد شيء ؟! فقال طليحة : قد قيل لي : ان لك رحى كرحاه ، وأمرا لا تنساه ، فقال عيينة: اظن قد علم الله أنه سيكون لك أمرا لن تنساه ، يا بني فزارة ، هكذا ، وأشار لها تحت الشمس ، هذا والله كذاب ، ما بورك له ولا لنا في ما يطالب ، فانصرف وانصرفت فزارة »(١١٢) ، حيث وقع عيينة في أسر المسلمين وأرسلوه الى أبي بكر فاستتابه واسلم وعفا عنه .

هزيمة بني اسد :

وقد حاول طليحة الاسدي أن يتلافى اثر انسحاب عيينة مع بني فزارة من المعركة فقال لاصحابه : « اما عيينة بن حصن ، فقد خبرني عنه جبريل ، انه خاف من حرب القوم ، وايم الله ، لو كانت له نية صادقة لما خاف من احد أبدا اذا كان على هذا الدين »(١١٣) . لكن هذا التبرير لم يفد كثيرا في تغيير مصير المعركة التي رجحت فيها

كفـة المسلمين ، وخاصة بعد أن تمكن خالد بن الوليد مـن قتل صاحب راية طليحـة الحمراء ، فانهزم أصحابه عنه وتفرقوا عنه ، فقال لهم : « ويلكم ما يهزمكم ؟! فقـال رجل منهم : أنا أخبرك ، انه ليس منا رجل الا وهو يحب ان صاحبه يموت قبله ، وانا نلقى قوما كلهم يحب أن يموت قبل صاحبه »(١١٤).

ويحدثنا ابن أعثم الكوفي انه « لما انهزم أصحاب طليحة ، قالت نوار زوجته لهم: أما انه لو كانت لكم نية صادقة لما انهزمتم عن نبيكم ، فقال لها رجل منهم : يا نوار ، لو كان زوجك هذا نبيا حقا لما خذله ربه . فلمـا سمع طليحة ذلك صاح بامرأتـه : ويلك يا نوار اقتربي مني ، فقد اتضح الحق وزهق الباطل ، ثم استوى طليحة على فرسـه وأردف امرأته من ورائه ، وفر منهزما مع من انهزم »(١١٥)، وقال لمن بقي من أصحابه: من استطاع منكم أن يفعل مثل ما فعلت وينجو بأهله فليفعل ، ثم ولى هاربا حتى لحق بالشام ، وأرفض جمعه »(١١٦) .

وقد وقع عدد من أتباع طليحـة في الاسر ، فحفر لهم خالـد بن الوليد اخدودا واضرم فيه النار،ثم القاهم فيها،وكان ممن ألقي فيالنار حامية بن سبيع بن الخشخاش الاسدي ، وهو الذي ارتد بعد أن عينه الرسول الكريم على صدقات قومه ،كما أحرقت أيضا امرأة واحدة من بني أسد هي أم طليحة ، عرض عليها الاسلام فأبت. الا أن خالدا لم يحرق أحدا من بني فزارة ، فلما سئل عن تحريق الاسرى قال : « هذا عهد الصديق أبي بكر الى قواده في كل مجمع » . ويبدو أن هذا الاجراء قد احدث فزعا شديدا فيبقية بني أسد وغطفان من الرجال والنســاء ، فهموا للهرب على وجوههم ، الا أن خالد بـن الوليد طمأن من عاد الى الاسلام منهم ، وأمنهم على حياتهم وأموالهم ، بعد أن تعهدوا له باقامة الصلاة وايتاء الزكاة .ولم يأخذ منهم سبي « ونادى خالد : من أقام فهو آمن، فأقام الناس كلهم ، وأمن من أقام »(١١٧) .

ولم يشمل هذا الامان بطبيعة الحال المرتدين الذين غدروا بالمسلمين الذين كانـوا بين اظهرهم وقتلوهم ، واشترط على بني أسـد وغطفان وطيء أن يأتـوه بهم ، حتـى يبايعهم على العودة الى الاسلام والوفاء بالتزاماته ، فأتوه بهـم ، « فمنهم من حرقـه بالنار ، ومنهم من رضه بالحجارة ، ومنهم من رمى به من شواهق الجبال ، كل هـذا ليعتبر بهم من يسمع بخبرهم من مرتدة العرب »(١١٨) . وامتدت اقامة خالد في بزاخة شهرا في طلب هؤلاء ، والاخذ بثأر من قتلوا من المسلمين ، وفقـا لما وصاه به أبو بكـر الصـديق (١١٩) .

وقد بث خالد بن الوليد بعد انتصاره في بزاخة السرايا لتتبع المرتدين من أسـد وغطفان ، ففرت جماعات منهم ، وأتت خالد مقرة بالاسلام ، في حين خشي فريق منهم

القدوم على خالد حتى لا ينكل بهم ، وتوجهوا الى أبي بكر في المدينة ، يعرضون عليه الاستسلام والصلح ، فقال لهم أبو بكر : « اختاروا بن خصلتين ، حرب مجلية ، أو سلم مخزية ، فقال خارجة بن حصن : هذه الحرب المجلية قد عرفتها ، فما السلم المخزية ، قال : أن تقروا أن قتلانا في الجنة ، وأن قتلاكم في النار ، وأن تردوا علينا ما أخذتم منا ،ولانردعليكم ما أخذنا منكم شيئا ، وأن تدوا قتلانا كل قتيل مائة بعير ، منها أربعون في بطونها أولاد ، ولا ندي قتلاكم ، ونأخذ منكم الحلقة والكراع ، وتلحقون بأذناب الابل حتى يري الله خليفة نبيه والمؤمنين ما شاء فيكم ، أو يرى منكم اقبالا الى ما خرجتم منه » (١٢٠) . وقد وافق هذا الفريق على ذلك ، الا أن أبا بكر أعفاهم بناء على اقتراح عمر بن الخطاب من ديات قتلى المسلمين لانهم شهداء وأجرهم على الله ، وأخذ أبو بكر عليهم العهد والميثاق بالتزام بالاسلام وفرائضه وقراءة القرآن وتعليمه أولادهم ونساءهم .وقد تم تجريدهم فعلا من أسلحتهم التي ردها اليهم عمر بن الخطاب بعد رسوخ الاسلام في مناطق المرتدين .

وكان لموقعة بزاخة نتائج بعيدة المدى بالنسبة لمستقبل دولة المسلمين في المدينة ومصير حركات الردة والتنبؤ الكاذب في جزيرة العرب . ولعل أول نتائج هذه الموقعة بالنسبة للمسلمين انها قوت هيبة دولتهم في المدينة ومكانتها في بلاد العرب ، وعززت ثقة المسلمين بأنفسهم ، وباحراز مزيد من الانتصارات على اعدائهم . اضافة الى تعزيز ثقتهم بخليفتهم والتفافهم حوله . خاصة وهو صاحب الرأي الاول في قتال المرتدين والمتنبئين . أما بالنسبة لمصير باقي المرتدين والمتنبئين ، فقد تحدد بشكل قاطع بعد هذه الموقعة ، فكان عليهم اما أن يسارعوا الى العودة الى حظيرة الاسلام ، ويجنبوا أنفسهم القتل والتنكيل والتحريق بالنار ،واما أن يستعدوا لمواجهة غير عادية ،ويثبتوا على موقفهم حتى الموت . وقد اختارت معظم قبائل العرب باستثناء بني حنيفة الخيار الاول ، اذ « جعلت العرب تسير الى خالد راغبة في الاسلام ، وخائفة من السيف ،... فأتته عامر وغطفان يدخلون في الاسلام ويسألونه الامان على مياههم وأموالهم ، وأظهروا له التوبة ، وأقاموا الصلاة وأقروا الزكاة ، فأمنهم خالد وأخذ عليهم العهود والمواثيق ليبايعن على ذلك أبناءهم ونساءهم »(١٢١). ويروي الطبري ان القبائل من سليم وهوازن وبني عامر « لما أوقع الله بطليحة وفزارة ما أوقع ، أقبل أولئك يقولون : ندخل فيما خرجنا منه ، ونؤمن بالله ورسوله ، ونسلم لحكمه في أموالنا وأنفسنا »(١٢٢) . وخلص شوفاني الى القول « بأن موقعة بزاخة أدت الى خضوع جميع وسط نجد للمدينة لأول مرة »(١٢٣) . فكانت بذلك الخطوة الحاسمة الاولى نحو توحيد الجزيرة العربية وربطها فكرا وادارة ومصيرا بدولة المسلمين في المدينة المنورة .

عودة طليحة الى الاسلام :

وتفيد رواية أوردها الطبري أن طليحة عندما انهزم في بزاخة ، ولى هاربا حتى التجأ الى قبيلة كلب في شمال غرب الجزيرة العربية،وانه خلال اقامته هناك بلغه اسلام بني أسد وغطفان وعامر ، فأسلم ، « ثم خرج نحو مكة معتمرا في امارة أبي بكر ، ومر بجنبات المدينة ، فقيل لأبي بكر : هذا طليحة ، فقال : ما أصنع به ، خلوا عنه ، فقد هداه الله للاسلام ، فمضى طليحة نحو مكة فقضى عمرته »(١٢٤).

ويقول ابن‌أعثم الكوفي ان طليحة الاسدي لما علم بأن أبا بكر عفا عن عيينة بن حصن الفزاري ، وقرة بن هبيرة العامري ، « ندم على ما كان منه أشد الندامة ، ثم انه وجه الى أبي بكر رضي الله عنه من الشام كتابا مع بعض النوادر ، فلما انتهى الى أبي بكر كتابه وقرىء عليه ، رق له أبو بكر رقة شديدة ، وعلم انه قد ندم على ما كان منه ، وجعل طليحة بن خويلد يتقدم في الرجوع الى دار الاسلام ويتأخر الى أن توفي أبو بكر »(١٢٥) . ويورد اليعقوبي رواية قريبة من فحوى خبر ابن أعثم ، مؤداها أن طليحة الاسدي « لحق بعد هزيمته بالشام وجاور بني جفنة ، وبعث بشعر الى أبي بكر يعتذر اليه ، ويراجع الاسلام يقول فيه :

فهل يقبل الصديق اني مراجع ومعط بما أحدثت من حدث يدي
واني من بعد الضلالة شاهد شهادة حق لست فيها بملحد

فرقّ له أبو بكر ، وبعث اليه فرجع » . ويقول اليعقوبي ان عودة طليحة كانت يوم وفاة أبي بكر ، اي انه لم يدرك أبا بكر الصديق(١٢٥) . أما البلاذري ، فيروي أن « المسلمين لما قدموا الشام وجهوا به الى أبي بكر وهو مسلم »(١٢٦) .

ويستفاد من هذه الروايات أن طليحة اسلم ، وانه قدم الى المدينة في أواخر عهد أبي بكر وأوائل عهد عمر بن الخطاب ، ويروى ان عمر قال لطليحة : « أنت الكاذب على الله حين زعمت انه أنزل عليك أن الله لا يصنع بتعفير وجوهكم وقبح ادباركم شيئا، فاذكروا الله أعفة قياما ، فان الرغوة فوق الصريح؟!»(١٢٧) وقال له عمر : «ويحك قتلت الرجلين الصالحين عكاشة بن محصن وابن اقرم . فقال : ذانك رجلان سعدا بي ، ولم أشق على أيديهما ، وقد رزق الله الاسلام ، وكنت يومئذ فتى ضلال ، وانا اليوم شيخ اسلام، فقال له عمر فعلت وفعلت وفعلت ، وقلت وقلت وقلت ، ، فقال : ان ذلك من فتن الكفر الذي هدمه الاسلام كله ، فلا تعنيف علي ببعضه ، فأسكت عمر رضي الله عنه »(١٢٨). وقيل ان عمر اعجب بمقالة طليحة فقربه وادناه (١٢٩).

ومشاركة طليحة في الفتوح :

وقد رأى عمر بن الخطاب أن يوجه طليحة بن خويلد الاسدي، مع غيره ممن حسن اسلامه بعد الردة الى جبهة العراق ، حيث كان العرب المسلمون يخوضون معارك حاسمة ضد جموع الفرس . فبعث طليحة مع سعد بن ابي وقاص الى العراق ، وأمره أن لا يستعمله(١٣٠) ، وانما يستفيد من خبرته وشجاعته المعروفة في القتال . وقد أبلى في ذلك بلاء حسنا تحدثت عنه الرواة ، وبخاصة في معركتي القادسية ونهاوند . فقد ذكر الدينوري أن سعد بن أبي وقاص ، بعث طليحة الاسدي قبيل بدء معركة القادسية في جمع ليأتيه بخبر القوم أي الفرس ، « فلما عاينوا سوادهم ، ورأوا كثرتهم ، قالوا لطليحة : انصرف بنا . فقال : لا ، ولكني ماض حتى أدخل عسكرهم وأعلم علمهم ، فاتهموه وقالوا : ما نحسبك تريد الا اللحاق بهم . وما كان الله ليهديك بعد قتلك عكاشة ابن محصن ، وثابت بن اقرم ، فقال لهم طليحة : ملأ الرعب قلوبكم . واقبل طليحة حتى دخل عسكر الفرس ليلا ، فلم يزل يجوسه ليلته كلها ، حتى اذا كان وجه السحر ، مر بفارس يعد بألف فارس ، وهو نائم وفرسه مقيد ، فنزل ففك قيده ، ثم شد مقوده بثغر فرسه ، وخرج من المعسكر . واستيقظ صاحب الفرس ، فنادى في أصحابه وركب في اثره ، فلحقوه وقد اضاء الصبح ، فبدر صاحب الفرس اليه .. فقتله طليحة ، ولحقه فارس آخر فقتله طليحة ، ولحقه ثالث فأسره طليحة ، وحمله على دابته ، واقبل به نحو عسكر المسلمين ، فكبر الناس ، ودخل على سعد . وأخبره الخبر »(١٣١) .

وتمثل هذه الرواية صورة فذة من جراة طليحة وشجاعته ، التي تجلت أيضا في اثناء القتال في القادسية ، حيث ضرب الجالينوس أحد كبار قادة الفرس ضربة قدت مغفره ، ولم تعمل في رأسه ، كما أسهم مع عمرو بن معدي كرب الزبيدي ، وقرط بن جماح العبدي ، في قتل رستم القائد الاعلى لقوات الفرس في المعركة (١٣٢) . ولم ينفرد طليحة بمثل هذه الجرأة والشجاعة ، وانما شاركه فيها مقاتلو بني أسد وغيرهم من قبائل العرب المسلمين ، اذ تصدت بنو أسد لدرء خطر أفيال الفرس في اليوم الاول من المعركة ، وسقط منهم خمسمائة شهيد من الآلاف الثلاثة التي شاركت بنو أسد فيها في القادسية(١٣٣) . ويروي الطبري ان سعد بن ابي وقاص قائد المسلمين في تلك المعركة استنفر بني أسد لاغاثة مقاتلي بني بجيلة من خطر الفيلة التي كاد أن يقضي عليهم . فقام طليحة في قومه حين استصرخهم سعد فقال : « يا عشيرتاه ، ان المنوه باسمه الموثوق به ، وان هذا — اي سعد — لو علم أن أحدا أحق باغاثة هؤلاء منكم استغاثهم ، ابتدؤهم بالشدة واقدموا عليهم اقدام الليوث الحربة ، فانما سميتم أسدا لتفعلوا فعله ، شدوا ولا تصدوا ، وكروا ولا تفروا ، لله در ربيعة ! أي فرى يفرون ! وأي قرن يغنون ، هل يوصل الى مواقفهم ، فاغنوا عن مواقفكم أعانكم الله ، شدوا عليهم باسم الله ... ،

فخرج طليحة بن خويلد ، وجمال بن مالك ، وغالب بن عبد الله ، والربيل بن عمرو في كتائبهم ، فباشروا الفيلة ، حتى عدلها ركبانها ، وان على كل فيل عشرين رجلا ، ... فما زالوا يطعنونهم ويضربونهم حتى حبست الفيلة عنهم ، فأخرت ، وخرج الى طليحة عظيم منهم فبارزه ، فما لبثه طليحة أن قتله » . وقد أشاد الاشعث بن قيس الكندي ببطولة بني أسد ، وحث قومه على التأسي بهم(١٣٤).

وربما كان في مقدمة العوامل التي دفعت طليحة وبني أسد الى القيام بهذا الدور المشرف في الفتوح ، هو حرصها على ازالة وصمة الردة عن قبيلتهم ،والعمل على احراز مكانة مرموقة لها في المجتمع الاسلامي الجديد ، عن طريق الاستبسال في مواطن الجهاد وذلك « ليبلوا في الدين وليدركوا حظا » على حد قول سيف بن عمر التميمي(١٣٥). وهو أمر ينطبق على الروادف وباقي المرتدين الذين عادوا الى الاسلام مثل قيس بن مكشوح المرادي وعمرو بن معدي كرب الزبيدي وقبائلهم . وجاء في رواية للبلاذري أن طليحة الاسدي كان على رأس الرجال ، أي المشاة فيموقعة جلولاء ، حيث أبلى ومن شاركه من بني أسد بلاء حسنا في هذه الموقعة(١٣٦) .

ويحدثنا ابن أعثم الكوفي أن «النعمان بن مقرن ـ قاد المسلمين في موقعة نهاوند ـ أرسل بكير بن شداخ الليثي ، وطليحة بن خويلد الاسدي نحو أرض نهاوند ، وأمرهما أن يتجسسا الاخبار عن الفرس ، فمضيا جميعا ، فأما بكير بن شداخ ، فانه رجع الى المسلمين ، وأما طليحة بن خويلد ، فانه مضى وحده حتى تقارب من أرض نهاوند ، وتعرف أخبار الفرس ثم رجع . فلما دخل العسكر كبر المسلمون من كل ناحية ، فقال طليحة : ما هذا التكبير ! فقالوا : انك قد ابطأت علينا ، فظننا والله انك رغبت عن دين الاسلام ، وصرت الى دين هؤلاء الاعاجم ، فغضب طليحة بن خويلد من ذلك ، ثم قال : سبحان الله العظيم ، أويحسن هذا بمثلي ؟! والله لو لم يكن لي دين أعتمد عليه، الا أني عربي فقط ، ما كنت بالذي اختار هؤلاء الاعاجم على العرب ، فكيف وقد هداني الله عز وجل الى دين الاسلام ، وعرفني فضله»(١٣٧).

وكان عمر بن الخطاب قد كتب الى النعمان بن مقرن ، بأن يستشير طليحة الاسدي وعمرو بن معدي كرب الزبيدي في شؤون الحرب ، لخبرتهما في القتال ، « فان كل صانع هو أعلم بصناعته »(١٣٨) . ويقول ابن أعثم ان النعمان « دعا بطليحة بن خويلد الاسدي ، فعقد له عقدا ، وضم اليه أربعة آلاف فارس من اهل البصرة والكوفة ، وجعله مقدمه . فسار طليحة بن خويلد على مقدمة النعمان بن مقرن ، وجعل يذكر ما كان منه بالقادسية ، وغيرها من الحروب المتقدمة ، ... وكان النعمان كلما رحل من موضع رحل طليحة على مقدمته »(١٣٩). وقد ساهم طليحة مع غيره من رجال الحرب

العرب المسلمين ، في وضع خطط معركة نهاوند مع قائدها الاول النعمان بن مقرن ،مما ساعد على انتصار المسلمين في هذه الموقعة الفاصلة ، التي عرفت بفتح الفتوح عام ٢١ هـ / ٦٤٢ م . وافاد البلاذري ان طليحة « كفى ناحية وكل بها »(١٤٠) . مما يدل على مساهمته الفعلية في هذه الموقعة .

وفاة طليحة :

وتفيد بعض المصادر أن طليحة الاسدي استشهد في موقعة نهاوند عام ٢١هـ(١٤١)، وأفاد ابن قتيبة انه دفن في موضع يقال له الاسفيذبان (من قرى أصفهان) ، وان قبره مع قبور عدد من شهداء نهاوند بينهم النعمان بن مقرن ، وعمرو بن معدي كرب الزبيدي(١٤٢) . الا أن البلاذري يورد رواية تفيد أن طليحة امتد عمره بعد نهاوند حيث أرسله البراء بن عازب عامل قزوين من قبل والي الكوفة المغيرة بن شعبة ،مع خمسمائة رجل من المسلمين الى بلاد الديلم بعد اسلامهم ، وانه « أقطعهم أرضين لا حق فيها لأحد » . لكنه يذكر في رواية اخرى أن طليحة « شخص الى أذربيجان فمات هناك ، ويقال بل قدم فمات في قومه (بني أسد) والله أعلم »(١٤٣).

وبالرغم من أن جميع المصادر تذكر حسن اسلام طليحة الاسدي وجهاده وقومه مع المسلمين ، الا أننا نجد اشارات بعد اسلام طليحة تشير الى أنه لم يتخل تماما عن التكهن ومحاولات التخرص على الغيب ، وهي امور اشتهر بها بنو أسد منذ ما قبل الاسلام . ويروي الطبري ، ان عمر بن الخطاب سأل طليحة الاسدي لما قدم المدينة مسلما ليبايعه بالخلافة : يا خدّع ، ما بقي من كهانتك ؟ فقال له طليحة مازحا فيما يبدو : « نفخة أو نفختان بالكير »(١٤٤) . ويذكر في موضع آخر رواية أخرى عن محمد ابن قيس الاسدي : « أن رجلا يقال له جعفر بن راشد ، قال لطليحة وهم مقيمون على نهاوند ، لقد أخذتنا خلة ، فهل بقي من اعاجيبك شيء تنفعنا به ؟ فقال : كما أنتم حتى انظر ! فأخذ كساء فتقنع به غير كثير ، ثم قال : البيان البيان ، غنم الدهقان ، في بستان ، مكان أرونان . فدخلوا البستان فوجدوا الغنم مسمنة (١٤٥) . ويبدو أن عادة التكهن كانت قد استأصلت في الرجل وأصبحت لديه طبعا ثابتا ، مما يدخل في عادات العرافين ومحاولاتهم المألوفة في مثل هذه الحالات ؛ اذ تدل السيرة الاخيرة من حياته على حسن اسلامه وبلائه في ميادين الفتح والجهاد .

وربما كانت سيرة طليحة الاخيرة تكمل سيرته الاولى من حيث أن ادعاءه النبوة ؛ كان هدفا أراد به تحقيق مجد وحظوة وكيان شبيه بالمكانة والسلطان الذي حققه الرسول الكريم ، وسعى اليه المتنبئون الآخرون في جزيرة العرب ، فلما لم يكتب له النجاح في ذلك، بادر وقومه الى الدخول في الاسلام ، وجهد وجهدوا ليبلوا البلاء الحسن في نصرة الدين الجديد وينالوا فيه حظا ومكانة . وقد تم ذلك لهم ، ولكثير غيرهم من المرتدين والروادف الذين دخلوا الاسلام في مرحلة متأخرة .

الحواشي :

(١) عبد العزيز الدوري : مقدمة في تاريخ صدر الاسلام ، بيروت ١٩٦١ ، ص ٤٢ ـ ٤٣ .

(٢) سورة الحاقة ، الآيات ، ٤٠ ـ ٤٢ .

(٣) سورة الطورة ، آيـة ٢٩ .

(٤) Eikelman, dale, F. , « Musaylima » JESOO , v. X, 1967, Leiden, P. 50 .
watt, Montgomery, w, Mohammad at Medina, Oxford 1956, J. 184 .

(٥) ابن حبيب ، المنمق في أخبار قريش ، حيدر أباد ـ الدكن ١٩٦٤ ، ص ٣١ ـ ٣٦ .

(٦) ابن هشام ، السيرة النبوية ، القاهرة ١٩٣٦ ، جـ ٤ / ص ١٨٨ ـ ١٩١ .

نبيه عاقل ، تاريخ العرب القديم وعصر الرسول ، ط ٣ ، بيروت ١٩٧٥ ، ص ٥٣٥ ـ ٥٣٧ .

(٧) انظر سورة التوبة ، آية ١ ، ٢ .

(٨) سورة التوبة ، آية ٥ .

(٩) سورة التوبة ، آية ٥ .

(١٠) سورة التوبة ، آية ٨ .

(١١) سورة التوبة ، آية ١٠ .

(١٢) سورة التوبة ، آية ١٣ ، ١٤ .

(١٣) سورة التوبة ، آية ٢٤ .

(١٤) سورة التوبة ، آية ٢٨ .

(١٥) سورة التوبة ، الآيات : ٥٢ ، ٩٧ ، ٩٨ ، ١٠١ .

(١٦) سورة التوبة ، آية ٢٩، ١٢٣ .

(١٧) سورة التوبة ، آية ١٢٢ .

(١٨) Soufany, Elias, Al-Riddah and MuslimConquest of Arabia, Beirut 1972, 45 - 46 .

(١٩) Ibid, pp. 77, 96 - 97.

Donner, Fred, Mc Graw, The Eary Islamic Conquests, Princeton University Press, New Jersy, pp. 85 - 86.

الدوري ، مقدمة ، ص ٤٢ ـ ٤٣ .

عبد المنعم ماجد ، التاريخ السياسي للدولة العربية ، القاهرة ١٩٦٧ ، ص ١٤٥ ـ ١٤٧ .

(٢٠) Shoufany, OP. eié p. 12 .

(٢١) Shoufany, OP. eié p. 12 .

(٢٢) الدوري ، مقدمة ، ص ٤٢ ـ ٤٣ .

(٢٣) ماجد ، التاريخ السياسي ، ص ١٤٥ .

(٢٤) Shoufany, OP. eié p. 12 .

وانظر أيضا : تاريخ الامم الاسلامية أ، ص ١٤٢ ، محمد حسين هيكل ، حياة محمد ، القاهرة ١٩٦٣ ، ص ٤٨٠ ، شكري فيصل ، حركة الفتح الاسلامي في القرن الاول ، بيروت ، ص ١٢ .

(٢٥) Watt, OP. eit p. 149 .

وانظر : الترجمة العربية لكتاب واط « محمد في المدينة » ، (ترجمة شعبان بركات) ، صيدا ـ بيروت ص ٢٢٤ ـ ٢٢٥ .

(٢٦) محمد حميد الله : مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة (بيروت ١٩٧٥) الوثائق : ٣٧ ، ٥٦ ، ٦٦ ، ٧٦ . ابن الاثير : الكامل في التاريخ ، صادر (بيروت ١٩٦٥) ، ٢١٤/٢ (٢) ابن سعد : الطبقات الكبرى ، صادر بيروت ١٩٥٨ ، البلاذري : فتوح البلدان ج١ (ت المنجد) القاهرة ١٩٥٦ ، ص ٨٤ ـ ٨٧ .

(٢٧) حسين مؤنس ، عالم الاسلام ، دار المعارف (مصر ١٩٧٣) ، ص ١٦٠ .

(٢٨) الدوري ، مقدمة ، ص ٤٣ .

(٢٩) الديار بكري : تاريخ الخميس في أحوال انفس نفيس (القاهرة ١٢٨٣ هـ) ، جـ٢/١٥٥ .

(٣٠) المصدر نفسه ، ص ١٦٠ .

(٣١) Donner, The early Islamic Conquests p. 82 .

(٣٢) تاريخ الطبري ، دار المعارف بمصر ١٩٦٠ ، جـ٣ / ٣٠٥ ، ابن أعثم الكوفي ، الفتوح (حيدر أباد ـ الدكن ١٩٦٨) ، جـ١ / ٥٥ . ، المسعودي ، التنبيه والاشراف ، خياط (بيروت ١٩٦٥) ص٢٧٥ سليمان بن موسى البلنسي الكلاعي ، الاكتفاء من مغازي رسول الله (ص) والثلاثة الخلفاء (مصور) جامعة الكويت ج١ رقم ٢٥٥ ، ج٢ رقم ٢٥٦ج٢ ، اب ، ٤ ، ٥ ب .

(٣٣) الاكتفاء ، ج٢ / ٢ أ .

(٣٤) تاريخ الطبري ، ج٣/٢٢٥ .

(٣٥) الاكتفاء : ج١/١٩١ ب .

(٣٦) سورة الانعام ، آية ٩٣ .

(٣٧) سورة آل عمران ، آية ١٤٤ .

(٣٨) تاريخ الطبري ، ج٣ / ١٨٦ ، ١٩٨ .

(٣٩) الحافظ المنذري ، عبد العظيم بن عبد القوي ، مختصر صحيح مسلم ، الكويت ، ط٣ ، ١٩٧٩ ، ص ٢٩٥ ، حديث رقم ٢٠٢٤ . وانظر ، احمد الغامدي : عقيدة ختم النبوة (الرياض١٩٨٥)ص٤٠ .

(٤٠) تاريخ الطبري ، جـ٣ / ١٨٧ .

(٤١) البلاذري : انساب الاشراف (مصدر دار الكتب المصرية) ، جـ ١٠ / ٧٣٠ ، ابن حجر العسقلاني ، الاصابة في تمييز الصحابة ، دار احياء التراث العربي ، بيروت ج٢/٣٤ ، ترجمة ٤٢٩٠ .

(٤٢) الكلاعي : الاكتفاء ، جـ٢ / ٤ أ ، ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، جـ٣/٢٤١ عمر بن شبه : تاريخ المدينة المنورة (ت شلتوت) جدة ١٩٧٣ ، جـ ٢/ ٥٧٧ .

Blichfeldt, Jan-Olaf, Eary Mahdism , Leiden, E. J. Brill, 1985 p. 16.

(٤٣) الجاحظ ، البيان والتبيين (ت هارون) القاهرة ٣ ، ١٩٦٨ ، جـ ٣٥٩/١ ، أنساب الاشراف جـ ٧٣٠/١٠ ، تاريخ الخميس ، جـ ١٦٠/٢.

(٤٤) ابن أعثم : الفتوح ، جـ ٤٤/٢ ، الدوري ، مقدمة في تاريخ صدر الاسلام ، ص ٤٣ .

(٤٥) أحمد عادل كمال: طليحة بن خويلد الاسدي، جدة ١٩٨١ ، ص ٤ .

(٤٦) المصدر نفسه ، ص ١٠-١١ ، المقريزي: امتاع الاسماع دار الانصار ، القاهرة ١٩٨١ ، ص ١٧٠.

(٤٧) أحمد كمال : طليحة بن خويلد ، ص ١٢ .

(٤٨) ابن سعد : الطبقات الكبرى ، جـ٢٦٩/١ - ٢٧٠ .

Shoufany, OP. eit p. 33.
Watt, OP. eit p. 88.

(٤٩) تاريخ الطبري ، جـ ٩٦/٣ ، الاكتفاء ، جـ ١٦٦/١ ب ، الحلبي : انسان العيون في سيرة الامين المأمون ، القاهرة ١٩٦٤ ج٢٧١/٣ .

(٥٠) سورة الحجرات ، آية ١٧ .

(٥١) تاريخ الخميس ، جـ٢ / ١٦٠ .

(٥٢) لسان العرب ، مادة عيف ، انسان العيون، جـ٢٧٢/٣ ، العقد الفريد ، جـ ٣٣٠/٣ .

(٥٣) حاجي خليفة ، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون ، استانبول ١٩٤٠ ، جـ٢ /١٣٦٦ ، والعقد الفريد ، جـ٣٣٠/٣ .

(٥٤) انسان العيون ، جـ ٢٧٢/٣ .

(٥٥) العقد الفريد ، جـ٣٣٠/٣ .

(٥٦) الاكتفاء ، جـ ١٦٦/١ ب ، انسان العيون ، جـ٢٧٢/٣ .

(٥٧) تاريخ الطبري ، جـ٤ / ١٣٥ .

(٥٨) تاريخ الطبري ، جـ ١٨٧/٣ ، ابن الجوزي: الوفا بأحوال المصطفى (ت عبد الواحد) القاهرة ١٩٦٦ ، جـ ٧٦٤/٢ .

(٥٩) ابن أعثم : الفتوح ، جـ١ / ١٤ ، ابن كثير، البداية والنهاية ، بيروت - الرياض ١٩٦٦ جـ٢١٧/٦ والفصيل ولد الناقة اذ فصل عن أمه ، والبكر هو الفتي من الابل ، انظر : لسان العرب ، مادتي فصل ، بكر .

(٦٠) ابن أعثم : الفتوح ، جـ١٢/١ - ١٣ .

(٦١) ابن الاثير : الكامل في التاريخ ، جـ ٣٤٤/٢ ، الاكتفاء ، جـ٤/٢ أ ، ٤ ب، ابن خلدون : العبر، جـ ٨٦٩/٢ ، ابن أعثم : الفتوح ، جـ١/ ١٢ - ١٣ .

(٦٢) تاريخ الخميس ، جـ ١٦٠/٢ .

(٦٣) ابن أعثم : الفتوح ، جـ ١٢/١ .

(٦٤) المصدر نفسه والصفحة .

(٦٥) الاكتفاء ، جـ ٤/٢ ب .

(٦٦) ابن أعثم : الفتوح ، جـ ١٢/١ .

(٦٧) تاريخ الطبري ، جـ٢٥٧/٣ ، الكامل في التاريخ ، جـ٢ / ٣٤٤ .

(٦٨) شوقي أبو خليل ، حروب الردة ، دمشق ١٩٨٤ ، ص ٤٨ .

(٦٩) الجاحظ : كتاب الحيوان ، (ت هارون) ط٢ ، القاهرة ١٩٦٥ ، ج٤/٣٧٨ .
(٧٠) تاريخ الطبري ، ج٣/١٨٧ ، ٢٤٤ ، ٢٥٧ ،ابن أعثم : الفتوح ، ج١/١٤ .
(٧١) الاكتفاء ، ج٢/٤ أ .
(٧٢) ابن أعثم : الفتوح ، ج ١/١٢ – ١٣ ، أنساب الاشراف ، ج ١٠/٧٣٠ ، تاريخ الخميس ، ٢/١٦٠ .
(٧٣) سورة آل عمران ، آية ١٩٠ – ١٩١ .
(٧٤) جواد علي : المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام ، بيروت – بغداد ١٩٧٩ ، ج ٦/٥١١ ، ٥٨٩ ، ٥٩١ ، ٦٩٤ ، محمد حسين هيكل ، الصديق أبو بكر ، دار المعارف بمصر ، ط٦ ، ١٩٧١ ص ١١٤ .
(٧٥) المطهر المقدسي : البدء والتاريخ (ت جواد)، دار المثنى ، بغداد ، ج٤ / ٢٧ ، ٣٧ .
(٧٦) تاريخ الطبري ، ج ٣ /٢٤٥ ، ٢٥٨ ، الفتوح ، ج١ / ١٢ ، ١٣ ، الاكتفاء ، ج٢/١٤ .
(٧٧) محمد حسين هيكل : الصديق أبو بكر ، ص١٢٠ .
(٧٨) تاريخ الطبري ، ج٣/٢٦٠ ، النويري ، نهاية الارب ، القاهرة ١٩٧٥ ، ج١٩/٧٠ .
(٧٩) الواقدي : المغازي (ت جونس) لندن ١٩٦٦ ، ج٣ /١٠١١ ، تاريخ الطبري ، ج٢/٥٦٩ ، ابن أعثم : الفتوح ، ج١/١٩٩ ، ابن حجر : فتح الباري ، دار المعرفة ، بيروت ١٢٩٧ هـ ، ج ٦/٦١٤ ، الاكتفاء ، ج ١/١٦٧ أ ، ١٦٩ ب، ١٨٠ أ ، المنذري : مختصر صحيح مسلم ، الحديثان ، ١٩٩٨ ، ٢٠٠٠ .
(٨٠) البلاذري : أنساب الاشراف ، ج ١٠/٧٣٠ .
(٨١) تاريخ الطبري ، ج٣/١٨٦ ، ٢٤٤ .
(٨٢) المصدر نفسه ، ج٣ / ١٨٧ ، ٢٥٦ .
(٨٣) تاريخ الطبري ، ج ٣/٢٥٧ – ٢٥٨ .
(٨٤) نسب البغدادي صاحب خزانة الادب ، القاهرة ١٣٤٧ هـ ، هذين البيتين الى الحطيئة ، مع تغيير طفيف في البيت الاول حيث ورد :

أطعنا رسول الله اذا كان حاضرا فيالهفتي ! ما بال دين أبي بكر

انظر : البغدادي : خزانة الادب ، ج٢/٢٥٧ .
(٨٥) الاكتفاء ، ج٢/١ ب ، ابن أعثم : الفتوح ،ج١ / ٥٥ – ٥٨ ، البلاذري : فتوح البلدان ، ج١ / ١١٣ .
(٨٦) الغساني : كتاب الخذلان (ت شاكر مصطفى) ، جريدة القبس الكويتية ، العدد ٥٢٩٤ ، ١٩٨٧/٢/٦ .
(٨٧) الاكتفاء ، ج٢/١ ب ، ٤ أ ، ٥ب ، تاريخ الطبري ، ج٣/٢٤٢ ، ٢٥٨ ، ٣٠٥ .
(٨٨) تاريخ الطبري ، ج ٣/٢٤١ .
(٨٩) الاكتفاء ، ج /١ ب ، كتاب الخذلان ، الموضوع نفسه .
(٩٠) الغساني : كتاب الخذلان ، صحيفة القبس الكويتية ، عدد ٥٢٩٤ بتاريخ ١٩٨٧/٢/٦ وانظر أيضا : أنساب الاشراف ، للبلاذري ، ج ٩/٤٧٩ .
(٩١) الاكتفاء : ج٢/١ ب .

(٩٢) الكامل في التاريخ ، ج٢/١٣٠ ، فتوح البلدان ، ج ١١٣/١ .
(٩٣) فتوح البدان ، ج ١١٤/١ .
(٩٤) السهيلي : الروض الانف (ت طه سعد) ،القاهرة ١٩٧١ ، ج ٢٧٤/٣ .
(٩٥) تاريخ الطبري ، ج ٢٥١/٣ ـ ٢٥٢ ، الاكتفاء ، ج ٣/٢ أ ، ٣ ب ، البداية والنهاية ، ج ٣١٦/٦ ، نهاية الارب ، ج٦٥/١٩ ـ ٦٩ .
(٩٦) تاريخ الطبري ، ج ٢٥٠/٣ ـ ٢٥١ .
(٩٧) فتوح البلدان ، ج ١١٧/١ .
(٩٨) المصدر نفسه ، ج١ / ١٢٢ .
(٩٩) المصدر نفسه ، ج ١ / ١١٦ ـ ١١٧ .
(١٠٠) الكامل في التاريخ ، ج٣٤٣/٢ .
(١٠١) الاكتفاء ، ج ١٣/٢ .
(١٠٢) أحمد عادل كمال : الطريق الى المدائن ، بيروت ١٩٧٢ ، ص ١٦٥ ، وطليحة بن خويلد الاسدي ، جدة ١٩٨١ ، ص ٢٩ ، ٣٧ ، شوقي أبو خليل : حروب الردة ، ص ٥ .
(١٠٣) فتوح البلدان ، ج ١/ ١١٤ .
(١٠٤) تاريخ الطبري ، ج ٢٥٣/٣ ، ٢٥٤ .
(١٠٥) المصدر نفسه ، ج ٢٥٦/٣ ، ٢٦٠ ، الاكتفاء ، ج ٤/٢ أ ، وانظر أيضا : الحميري ، الروض المعطار ، (ت عباس) بيروت ١٩٥٨ ، ص ٩٢مادة بزاخة .
(١٠٦) ابن بدران: تهذيب تاريخ ابن عساكر ،دمشق١٣٧٩ هـ ، ج ٩٩/٧ .
(١٠٧) أنساب الاشراف ، ج ٧٣٠/١ .
(١٠٨) ابن أعثم : الفتوح ، ج ١٢/١ ـ ١٣ .
(١٠٩) الاكتفاء ، ج ٤/٢ أ .
(١١٠) الاكتفاء ، ج٤/٢ أ .
(١١١) المصدر نفسه ، ج٢ /٤ب .
(١١٢) الاكتفاء ، ج٤/٢ب ، وانظر أيضا : انساب الاشراف ، ج٧٣٠/١ ، تاريخ الطبري ، ج٢٥٦/٣، الكامل في التاريخ ، ج٣٤٧/٢ ـ ٣٤٨ .
(١١٣) ابن أعثم : الفتوح ، ج ١٣/١ .
(١١٤) الاكتفاء ، ج٥/٢ أ ، تاريخ الخميس ، ج٢٠٧/٢ .
(١١٥) ابن أعثم ، الفتوح ، ج ١٥/١ .
(١١٦) تاريخ الطبري ، ج ٢٥٦/٣ ، الكامل في التاريخ ، ج ٢ / ٣٤٨ .
(١١٧) الاكتفاء ، ج ٥/٢ أ .
(١١٨) تاريخ الطبري ، ج ٢٦٢/٣ ، البداية والنهاية ، ج ٣١٩/٦ .
(١١٩) البداية والنهاية ، ج ٦/ ٣١٨ ـ ٣١٩ ،وانظر ايضا ، باشميل: حروب الردة ، دار الفكر، دمشق ١٩٧٩ ، ص ١٠٦ .
(١٢٠) الاكتفاء ، ج٥/٢ب ، ١٦ ، البداية والنهاية ، ج ٣١٩/٦ ، فتوح البلدان ، ج ١١٣/١ ـ١١٤.
(١٢١) الاكتفاء ، ج ٥/٢ أ ، ٥ب ، تاريخ الخميس ج٢/ نهاية الارب ، ج ٧٣/١٩ .

(١٢٢) تاريخ الطبري ، جـ٣/٢٥٦ .

(١٢٣) Shoufany, p. 120.

(١٢٤) تاريخ الطبري ، جـ٣/٢٦١ ، وانظـر أيضا : أنساب الاشراف ، جـ ٧٣٠/١٠ ، ياقوت ، معجم البلدان صادر ، بيروت ١٩٥٥ ، جـ٤٠٨/١ مادة بزاخـة .

(١٢٥) ابن أعثم ، الفتوح جـ ١٩/١ . تاريخ اليعقوبي ، بيروت ١٩٦٠ جـ ١٣٠/٢ .

(١٢٦) أنساب الاشراف ، جـ ٧٣٠/١٠ .

(١٢٧) فتوح البلدان ، جـ١١٥/١ .

(١٢٨) أنساب الاشراف ، جـ٧٣٠/١٠ .

(١٢٩) ابن أعثم : الفتوح ، جـ١ /١٩ .

(١٣٠) تاريخ اليعقوبي ، جـ١٣٠/٢ ، الصحاري ، الانساب ، سلطنة عمان ، ص ٣٠٤ ، أحمد كمـال ، طليحة بن خويلد ، ص ٨٣ .

(١٣١) الدينوري ، الاخبار الطوال (ت عامر) القاهرة ١٩٦٠ ، ص ١٩ ١ـ ١٢٠ .

(١٣٢) فتوح البلدان ، ص ٣١٧ .

(١٣٣) تاريخ الطبري ، جـ٥٤٠/٣ ، أحمد عادل كمال : طليحة ، ص ٥٨ ـ ٦٣ .

(١٣٤) تاريخ الطبري ، جـ٥٣٨/٣ ـ ٥٣٩ .

(١٣٥) تاريخ الطبري ، جـ٤ /١٢٧ ، ١٣٧ ، جـ٥٢٨/٣ ـ ٥٢٩ .

(١٣٦) فتوح البلدان ، ص ٣٢٤ .

(١٣٧) ابن أعثم : الفتوح ، جـ٤٤/٢ .

(١٣٨) ابن عبد البر : الاستيعاب في معرفة الاصحاب (ت البجـاوي) القاهـرة ، جـ٢/ ٧٧٢ ترجمـة ١٢٩١ ، جـ ١٢٠٥/٣ ترجمة ١٩٥٨ .

(١٣٩) الفتوح ، جـ٤٢/٢ .

(١٤٠) أنساب الاشراف ، جـ ١٠/ ٧٣٠ .

(١٤١) ابن بدران : تهذيب تاريخ ابن عساكر ، جـ١٠٢/٧ ، ابن حجر : الاصابة في تمييز الصحابـة ، ترجمة رقم ٤٢٩٠ ، الزركلي : الاعلام ، بيروت ١٩٦٩ ، ط٣ ، جـ٣٣٣/٣ ، ابن الجوزي : الوفا بأحوال المصطفى ، جـ٧٦٤/٢ .

(١٤٢) ابن قتيبة : المعارف (ت عكاشة) القاهرةط٢ ، ١٩٦٩ ، ص ٢٩٩ ، معجم البلدان ، جـ١٨٠/١ مادة اسفيذبان .

(١٤٣) البلاذري : فتوح البلدان ، ص ٢٩٤ ـ ٢٩٥ ، أنساب الاشراف ، جـ ٧٣٠/١٠ ـ ٧٣١ .

(١٤٤) تاريخ الطبري ، جـ٢٦١/٣ .

(١٤٥) المصدر نفسه ، جـ ١٣٥/٤ .

خـبرو (خا ـ بيـ ـ رو = Ha-b/pi-ru)
مُشـكلة حقيقيّة أم مُفتعَـلة

الدكتور فيصل عبد الله
جامعــة دمشــق

أصبح معروفا لدى الاوســاط العلمية المهتمة بالدراسات المسماريــة ، محاولة تحريف اسم ملك إبـلا (تل مرديخ ، ســورية) المسمى « ابريوم E/ib-ri-um »(١) الذي أراد له « علماء » صهاينة ان يكون له علاقة لغويــة باسم « عابــر » التوراتي(٢). وبالرغم من أن اللجنة الدولية لعلماء المسماريات قد أبعدت كــل احتمال لقلب المقطـع الصوتي (ا بــ) الى (عبــ) ، وامتناع المتخصصين في اوروبــة وأميركة عــن الدخول في مناقشة علمية للموضوع لان المقارنــة لا تستند الــى نص(٣) أو شــاهد ، بالرغــم من هذا لا تزال الاوساط الصهيونية تشيع ــ على الاقل على مستوى الراي العام غــير المتخصص ــ ان ابريوم ليس الا عابر التوراتي ، وبالتالي فان أحد أجداد العبريين قــد حكم إبلا في نهاية الالف الثالث ق.م . . ! . ونعلم أن ذكر عابر يرد بمفرده كأحد أبنــاء سام،وليس بالضرورة أن يكون جداً لقوم دون آخرين ممن (يفترض) أنهم عاشوا في تلك الحقب . ! ولن نقول هنا أكثر من أن التوراة هي بذاتها تراث آرامي ــ عربي وان أفراد المجموعتين قد حملوا منذ أقــدم العصور حتــى الآن أسماء توراتيــة . وليس هنــاك ما يضيرنا ، كعرب ، اذا وجدت يوما علاقة ما بين روايــات التوراة وبين الواقــع ، لان الحصيلة تقع في دائرة التراث الحضاري لكل من عاش على أرض الوطن العربي مهمـا كانت ديانته ، ولن يستطيع المستوطنون الاوربيون من معتنقي اليهودية الذين احتلـوا فلسطين عنوة ان يجدوا اي ارتباط بين عقليتهم وثقافتهم ونمط تفكيرهــم ، وبين تراث المنطقة القديم الذي ما يزال يعيش ، فقط ، في عقول وأذهان من لم ينقطعوا عن العيش فيها ابدا منذ آلاف السنين .

لم تكن المشكلة المفتعلة السابقة حول اسم ابريوم الاولى من نوعها ، ولكنها الاولى التي وصلت الى الراي‌العام العربي بسبب بدء اهتمامنا ــ وبصورة محدودة ــ بالتراث المسماري الذي ظهر في إبلا منذ وقت قريب . واذا تصفحنا الدراسات التي نشرت منذ اكتشاف اول نص مسماري في منتصف القرن الماضي حتى اليوم (بلغ عدد الرقم نحــو نصف مليون قطعة) فسنجد الكثير الكثير من امثال تلك المشكلة المفتعلة (٤) .

تتناول هذه الدراسة احدى المشكلات المتعلقة بالاسم خبرو (أو خابيرو أو خبيرو)، وجذورها تعود الى بدايات هذا القرن عقب نشر دراسات لمحفوظات تل العمارنة في مصر ثم ماري وأوجاريت ... الخ هذه المحفوظات التي ربما تزيد في أهميتها على محفوظات إبلا ، لان مجال التفسير والمقارنة بينهــا وبين معطيات سفر التكوين واســع ، بسبب تقاربها مع الزمن المقدر لاحــداث وروايات التوراة . وقــد وجد دعاة الصهيونية مــن المؤرخين منابع لا تنضب للمقانة والتفسير لخدمة الهدف الاستيطاني في المنطقة العربية.

فما مشكلة خبرو وخبيرو ... ؟

١ ــ **خبيرو : ha-bi-ru** (٥) اسم لمجموعة من الناس ظهر لاول مرة نحــو عام ١٨٩٠ عند محاولة فك رموز محفوظات تل العمارنة في وسط وادي النيل ، ومنذ ذلك التاريخ تتابعت الدراســات وعالجت « المشــكلة » تحت اســمها الاكادي (habiru) خبيرو وتحت اسمها السومري (Lu-SA. GAZ لو. سا. غز) وبين عامي ١٩٥٤ ــ ١٩٥٥ كانت جميع نتائج الدراسات قد جمعت في مؤلفين شاملين : الاول بالفرنســية لمؤلفه جان بوتــيرو(٦) ويحمل عنــوان **مشكلة خبيرو** ، والثاني بالانكليزيــة لمؤلفه م. غرينبرغ(٧) ويحمل العنوان نفســه . ونجد في طبعة هــذا الاخــيرة (١٩٦١) ثبتا بالدراسات في الموضوع (ص٩٧) .

ومن عام ١٩٦١ وحتى وقتنا الحاضر ظهرت عشرات الدراسات(٨)، ولكنها لــم تحمل جديدا من حيث النتائج ، وهي التــي سنتعرض لها في هذه الدراسة . أهمهــا كتاب اوزفالد لوريتس(٩) (بالالمانية) بعنوان **خبيرو** أيضا ، الذي ظهر عام ١٩٨٤ وتضـمن عرضا اجتماعيا تاريخيا وثبتا بجميع الدراسات السابقة . يضاف الــى ما تقدم كتب وملخصات عن المشكلة في معاجم الاعلام واللغة الاكادية(١٠) .

٢ ــ **الوثائق : خابيرو/سا.غز** . من المتعذر علينا ايراد الاسم حيثمــا ورد في الوثائق المسمارية التي تبلغ المئات ونكتفي بذكر مثال من كل مجموعة مماثلة(١١) .

ــ أواخر الالف الثالث ق.م (سلالة اور ٣) .

LU - Sa. gaz = awil ha - bi - ru

ــ اوائل الالف الثاني (القرن ١٩) اشوري قديم .

assumi a - wi - bi ha - bi (4) - ri

ــ أوائل الالف الثاني (القرن ١٨) ماري ــ بابلي قديم .

(qadum ...) sa - bi - im ha - bi - ri

ــ القرن ١٨ ــ ١٧ محفوظات سوزا ــ بابلي قديم .

LU. MES ..... ha - bi - ru

- الالاخ — بابلي قديم .
- نوزي ١٥ — ١٤ بابلي متوسط
- بوغازكوي ،
- أوجاريت ١٤ — ١٣
- تل العمارنة ١٣ — ١٢ ،
جبيل والساحل السوري اللبناني — الفلسطيني
- نيبور ،
- بابل ،

(وردت في جميع هذه المحفوظات بالمقطعية الاكادية المدونة اعلاه .)

- وردت في النصوص المصرية في طيبة Thébes وغيرها هكذا C P R بدءا من القرن الخامس عشر وحتى القرن الثاني عشر ق.م .

٣ — الاسم : يكتب الاسم بالمقطعية المسمارية(١٢) ويبدأ دائما بالمقطع (خا/) ويمكن لهذا المقطع ان يقرأ (عا) في اللهجات الاكادية الغربية ، ولكن هذا لا ينطبق على جميع الكلمات اي ان تقلب الـ (خ) الى (ع) بصورة تلقائية ، ولذا فان امكانية قلبه هنا ليست اكيدة ولا شاهد على كيفيةنطقها من قبل الناطقين بلهجات اكادية غربية ، اذ من السهولة ان نقول ان استبدال (خ) بـ (ع) وارد في كثير من الكلمات والعكس صحيح.

(بي) هو المقطع الثاني للكلمة ويمكن ان ينقلب الى باء مشددة بالمصرية القديمة (پي) . ونلاحظ غياب قيمة المقطع (پي) في ماري والالاخ وأوجاريت ونوزي .

(رو) هو المقطع الثالث للكلمة ، ولا توجد مشكلة بالنسبة لكتابته او نطقه حيثما ورد في النصوص .

٤ — المعنى : لدى مراجعة الاسم « **خبيرو** » في المعاجم الرئيسة فاننا لن نحصل على معنى محدد يتفق عليه الجميع . والسبب هو غياب الشواهد التي تؤيد كل ترجمة مقترحة . واهم الترجمات بنظرنا هي التي اقترحها بوتيرو فقد وجدت في النصوص الاكادية صيغة ibbi'ar إبيأر ، وتعني الهارب أو الذي هرب ، وهي تقابل المعنى السومري SA. GAZ أي بالاكادية habru= خبرو وتعني بالفرنسية Pillards اي غزاة ، رجال الغزو . ونعلم أن التعبير (سا . غز) يستعمل للدلالة على رجال من هذا النوع ويقابله بالاكادية habbatu أي القتلة . ولكن هذا المعنى أكثر شدة لتوصيف تلك الجماعة ، فيبقى المعنى خبرو = بدو ، غزاة ، نهابون ، أكثر انسجاما مع النصوص التي وردت فيها الكلمة(١٣) . بقي ان نعلم ان هذا الاسم قد اطلقه على تلك الجماعة الآخرون ، سواء أكانوا خصوما أم حلفاء ولذا فانه لا يخلو من غرض سلبي(١٤) . ان المقصود بالتعبير هو دائما اشخاص او مجموعة من الناس أو عصبة .

وعند ذكر الهتهم في نصوص بوغازكوي الحثية « آلهة الخبيرو » يكون المقصــود الآلهة التي يعبدها جماعة خبيرو ، وليست ذات جنسية منسوبة لهم . فآلهتهـم هي ذات الآلهة التي عبدها البدو ، والحضر المعاصرون(١٥) . ولم ترد في النصوص التي ظهرت حتى الان اسماء فردية تحمل نسبتهم ، باستثناء وحيد في محفوظات نوزي .

ان النصوص لا تحدد وطنا أو ارضا او بلادا باسم بلاد الخبيرو . ولذا فان تلك المجموعة لم تشكل وحدة سياسية . ان ظهورهم كجماعات بدوية متنقلة هامشية ، وعدم وجود دليل على ادعاء مذهبي او عرقي من خلال النصوص ، يجعـل انتماءهم البشري للمجتمع الرافدي الاموري(١٦) . ونستنتج من النصوص أن الخبيرو لا يظهرون الا بحركة دائمة ، يشاركون في أعمال واستطلاعات عسكرية لدى الملـوك او لحسابهم الخاص ، وأمثلة ذلك كثيرة في وثائق تل العمارنة . وبقيت صورتهم ، على ممر العصور ، كجماعات متجولة ومتطوعة في معظم مناطق الشرق القديم ، لم يستقروا في عصر مـن العصور وظلت الوثائق السومرية بشكل خاص تحتفظ لهم باسم ساغز = العصابة ، وهو المعنى الذي يتفق عليه جميع المتخصصين وجميع المعاجم ، والمقصـود به **نمط حياة لا نسبا عرقيا او قبليا أو اعتبارا سياسيا ، انه حالة اجتماعية .**

ولم تذكر النصوص اية اشارة بجانب اسمهم يمكن ان تدل على ميزة ثقافية او اجتماعية ، بل ذكرتهم الى جانب جماعات اخرى تحمل أسماء اموريـة مثل ســوتو Sutu الذين ورد ذكرهم في نصوص ماري ، وكانوا يشاركونهم في نمط حياتهم . ولـم يكن لاي من هؤلاء شيخ قبيلة أو سلطة أو دلالة عرقية . وهنالك من عناصر الخبيرو من عاشوا في مناطق نفوذ ماري بين خانا (منطقة قريبة مـن ماري) والفرات الاعلى وحلب / يمحاض(١٧) .

٥ ـ مناقشة واستنتاجات : حاول بعض المتخصصين بالدراسات الآشورية من اليهود (وبعضهم يدرس في جامعات اسرائيل) ان يربط كلمة خبيرو بالجذر أو المصدر المشترك لجميع لغات الوطن العربي القديـم (الساميات) عبر ، اي مـر ، وعبر او عبَّر . وجميع هذه المحاولات سقطت منذ الخمسينـات ولا نجد اشـارة من هـذا القبيل في المعاجم الاكادية الحديثة . ويتفق كبار علماء الاكاديات ، مثل ب. لاندسبرغر وغيره ، ان المطابقة بين خبيرو والعبريين ليست الا شبحا جناسيا ، كما هي الحـال في محاولتهـم تعريف ابريـوم بعابر التوراتي(١٨) . ولا توجـد اية معطيات واقعيـة وموضوعية ، ومن الافضل رفض ذلك التعريف وقبول الكلمة السومرية المعاصرة لتلك الجماعة وهي **ساغز** ، ومقابلهـا الاكادي **خبرو** ، اي عصابـة ، نهاب ، كما يستنتج بوتيرو وغيره .

ان الهدف من ربط خبيرو بالجذر « عبر » واضح لكل ذي عين ، الا وهو تقديم شاهد رافدي ومصري على وجود العبريين الذي لا نعرف عنه الا معلومات التوراة التي تحتاج هي نفسها الى شواهد اخرى . فالمحاولة تهدف الى ابراز **دور ما** للعبريين وتجذيره في تاريخ الرافدين ومصر القديم ، ومن حسن الحظ ان المحاولة لم تجد أمامها قبولا في الاوساط العلمية الاوربية والامريكية ، الا ان البعض منا تبناها مع الاسف .

٦ ــ عرض تاريخي سياسي(١٩) :

آ ــ **البدو** : يامينا والخبيرو وغيرهم في سورية وشمال الرافدين

تشغل البادية ، وليس الصحراء ، قسما كبيرا من المنطقة المذكورة ، ويشكل وادي الفرات الاخضر الشريط الفاصل بين البادية في الجنوب وبلاد الرافدين العليا. ويعيش البدو في الشرائط الخضراء المحيطة بالمناطق الزراعية المحددة بخط مطري سنوي لا يقل عن ١٠٠ مم سنويا . وتعتبر مدينة تدمر (Tadmir بالاكادية) المثال الاقدم لمواطن توضع البدو . وبصورة عامة ، تعتبر الجماعات البشرية التي كانت وما زالت تعيش في تلك المناطق من انصاف البدو . اما الحياة البدوية الكاملة فمرتبطة باستعمال واسطة النقل التقليدية وهي الجمل ، ولما كان هذا الحيوان غير معروف قبل القرن الثاني عشر ق.م فان حركة البدو قبل هذا التاريخ كانت محدودة ، لانهم كانوا مرغمين على البقاء في مناطق لا تبعد كثيرا عن مناطق الاستقرار الزراعي ، ويعودون من أجل شراء المواد الغذائية او مبادلتها ، أو العمل في ازمنة القحط . ان واقع هؤلاء ، يفترض احتكاكا دائما بالمستقرين في مدن سورية والرافدين ، ولهذا كان قسم كبير يميل نهائيا الى الاستقرار في تلك المناطق .

لقد دونت لنا نصوص سورية والرافدين المسمارية اسماء معظم القبائل والعشائر البدوية المعنية ، فمنهم المجموعات البدوية الاصل الذين لقبوا بالاموريين Ammuru في النصوص المسمارية ، اي القادمين من جهة الغرب أي من البادية السورية حاليا . وبعد سقوط سلالة اور الثالثة في نهاية الالف الثالثة ق.م ترك هؤلاء اثارهم المادية في وادي الفرات واعالي الجزيرة . وعندما تغيب النصوص ــ لتظهر من جديد في بداية الالف الثانية ــ نرى هؤلاء الاموريين يؤسسون سلالات حاكمة في مدن الرافدين، ونجد وثائق اقدمها في ماري . ولكن بقي الكثيرون منهم يعيشون حياة البداوة . وعندما اصطدم هؤلاء مع المستقرين من بدو الامس الاموريين ، ظهورا تحت اسماء اخرى معظمها القاب او تسميات جغرافية واقدم مثل عليهم هم مارو يامين او يامينا

Maru-yamina أو ابناء الجنوب (جنوب الفرات ، ضفته اليمنى) وقد سكن هؤلاء في تلك المناطق نظرا لقربها من البادية وسهولة الاتصال بمدن الجزيرة والفرات ، ولكن هذا لم يمنعهم أيضا من الانتشار في حران ومناطق حلب وقطنة (حمص) ، وعرفت بعض المناطق المحيطة بالمدن الاخيرة ببلاد الاموريين .

وشكل اليامينيون (بنو يامين كما تلفظ بالاكادية) ، رابطة قوية لعدد من القبائل أعطت أربع منها أسماء لمواقع مدن مثل سيبار ، أمنانو ، سيبار ـ يخرورو ، ونجد أن مؤسس سلالة في اوروك يدعي سين ـ كاشيد ينحدر من قبيلة امنانو . وكان يرأس يامينا شيخ ونادرا ما صار ملكا ، ولهم منصب قائد جيش زمن الحرب . ولم تكن جل علاقاتهم عدوانية مع الحضر ، وخاصة في زمن زمري ليم ملك ماري حيث عرفت تلك العلاقة هدوءا نسبيا ، ولكنها كانت متوترة أحيانا اخرى ويروي زمري ليم أنه أوقع الهزيمة بهم سبع مرات في وادي الخابور .

السوتيون (السوتو) ، وظهروا الى جانب يامينا وكانوا يسيطرون على البادية ولهم صلات ورحلات الى بابل بالذات . ووفق مصادر ماري كانوا بدوا أشداء قساة سيطروا على جميع البوادي حتى بابل ولم يكونوا يتوانون ، كغيرهم ، عن مداهمة الحضر وقت الشدائد . ويعتقد أنهم كانوا يتخذون من موقع متوسط بين دمشق وتدمر مقرا رئيسيا لمهاجمة القبائل . وقد ذكر لنا يسمخ/ع ـ أدد أن الفين من السوتو قد هاجموا قطنة ، ونادرا ما عكست النصوص علاقة سليمة معهم .

هناك قبائل أخرى مثل **رابـو** ويعتقد أنهم من فصائل يامينا ، عاشت في مناطق حلب / يمحاض ووصفت بأنها اخوة يامينا . وهناك **سيمال**=الشمال (شمالي الفرات) وهي مجموعة تقابل يامينا (أبناء الجنوب) ، ولا نعلم شيئا عن اسماء قبائل أخرى مثل **نومخا بل / بعل** ، الذين قطنوا المناطق العليا ، في حين أن لدينا الكثير من المعلومات عن **الخانيين** ـ من خلال نصوص ماري ـ الذين أقاموا قرب ترقا (الرقة) وأعالي الخابور ، وكانوا انصاف بدو وجنودا محاربين محترفين خدموا في جيش ملك ماري يخدون ليم في نهاية القرن التاسع عشر ق.م .

الخبيرو : وهم المجموعة الاخيرة من هؤلاء البدو ، وكانوا جماعات تؤجر خدمتها للملوك ، بخاصة في اعالي الفرات وغربه وعلى حوض الخابور ، ونسجل ظهورهم في مناطق حلب للمرة الاولى في عهد الملك الحلبي اركابتوم . وبالرغم من عدم وضوح معنى الكلمة كما بيّنا فقد أظهرتهم نصوص ماري كجماعات بين البدو الغربيين الاموريين . وقد اعتبر بعض السوتو وبعض عشائر ياموت بل / بعل yamutbal من الخبيرو .

ويبدو في النتيجة انه لا يجوز اعتبارهم كوحدة قبلية كبيرة مثل يامينا مثلا ، ان اهم رواية عن الخبيرو في نصوص اكادية هي رواية ادريمي في كتابات هامة وجدت في الالاخ (تل عطشانة) يروي فيها كيف صعد الى العرش . اذ يبدو أن ابـاه كان ملـك حلب واسه إليم اليما ilim-ilimma ومن المعتقد أن ثورة قامت ضده فأجبرت ادريمي الابن وأخاه على الهرب واللجوء الى ايمار Emar (مسكنة اليـوم) حيث تعيش عشيرة أمه ، وتوغل في البادية انطلاقا من ايمار حيث التقى ببدو السوتو ، ويصل حسب قوله الى كنعان على الشاطىء ، ويقول انه عاش سبع سنين في المنفى مع الخبيرو ومن ثم عاد واسترجع عرش الالاخ . . . الخ .

ب ـ الاموريون (الكنعانيون) في فلسطين والرحلة الابراهيمية :

سميت القرون الاولى من الالف الثانية ق.م بالعصر البابلي القديم . وتميل أكثرية المتخصصين اليوم الى تسميتها بعصر السلالات الامورية لانها هـي التي حكمت في كل من سورية والعراق . الا أن السلالة البابلية هـي أول من عرفنـا من النصوص المسمارية ، ومعظم معارفنا جاءت من الاكتشافات الاخيرة منذ منتصف هذا القرن حتى اليوم ، مثل سلالة ماري وحلب وقطنة والالاخ وأوجاريت .. الخ . وعرفنا الاموريين بأسماء العواصم التي أسسوا فيها سلالاتهم ، فهـم بابليون في بابل وماريون في مـاري وحلبيون في حلب وآشوريون في آشور . . . الخ .

أما في فلسطين التي يرد ذكر مدينة هامة فيها في نصوص ماري منـذ القرن ١٨ وهي حاصور Hasur التي قصدها التجار من ماري مرورا بايمار وحلب ، فقد عرفت هي الاخرى حضارة مزدهرة منذ ذلك الوقت المبكر . ولئـن كانت النصوص المكتوبـة (المسمارية) لم تظهر فيها بعد (اي النصوص التي قد تغطي تلك الفترة) الا أنها بحكم ارتباطها تاريخيا وجغرافيا بسورية عرفت علاقات وطيدة معها ، كما عرفت علاقـات خارجية وثيقة مع مصر منذ ذلك الوقت المبكر ، يدل على ذلك الهدايا والتقدمات المرسلة من أمراء وملوك فلسطين الى فراعنة مصر .

ويشهد الفخار المزين (في الفترة الواقعة بين ١٨٠٠ ـ ١٦٠٠ ق.م) الذي وجـد على نطاق واسع ، والاسلحة البرونزية والجواهـر التي وجدت في حاصـور ومجـدو وجريشو وتل الدوير وغيرها . . . على فترة الازدهار والاستقرار التي نوهنا عنهـا ، والتي عمت سورية والعراق في عصر السلالات الامورية . ويعتقد ـ وليس من دليـل سوى رواية التوراة المتأخرة المكتوبة في غضون القرن السابع أو السادس ق.م ـ أن ابراهيم وعائلته قد قاموا خلال فترة الازدهار تلك برحلة وصلوا فيها الى فلسـطين

قادمين من حران في شمال سورية، ذلك الترحال الذييمكن أن يحدث في اطار ما سبق وتحدثنا عنه فيما يتعلق بوسائط النقل . . ولكن الترحال الابراهيمي المذكور في التوراة لم يحدث أية ضجة ولم يترك أثرا في الكتابات المسمارية ، ولم تدل عليه اللقى الاثريـة التي اكتشفت حتى الآن ، كما لم يتمتع ابراهيم وعائلته بأي سلطان أو نفوذ سياسي . وعلى الرغم من كل هذا يمكن قبول فرضية حدوث تلك الرحلة في اطار تحركات البدو الدائمة ، ولربما كانت نهاية المطاف والاستقرار بالنسبة لهذه المجموعة في فلسطين التي كانت تشهد فترة انتعاش على يد الكنعانيين .

لقد خيل لبعض علماء الاكاديات ــ من المذهب اليهودي بخاصة ــ انهم وجـدوا الدليل الكتابي غير التوراتي على تلك الرحلة في نصــوص تل العمارنة ، ومن ثم مـاري وأوجاريت والالاخ وبوغاز كوي ونوزي ، أو انهم وجدوا على الاقل ذكرا للعبريين وانهم ليسوا الا جماعة خبيرو أو عبيرو بالمصرية . ان هذا الادعاء لم يجد له سندا علميا كما بيّنا ، بالرغم من وجود مجانسة لغوية ظاهرة ، يمكن أن نجد مثلها في كثير من اللغات حتى غير السامية أو العربية ، ونجد أيضــا أن خبيرو تدل على مجموعــة أو عصابات معروفة ، تلقى بعض الاهتمام منالسلطات المستقرة فيالمدن .في حين ان جماعة ابراهيم ــ ان كانت على صلة بالعبريين التوراتيين ــ كانت جماعة صغيرة اقتصرت على ابراهيم وعائلته ولهذا فانها لم تترك أثرا رغم أن التوراة تعتبره جد العبريين ، كمــا نفهم مــن اشارة القرآن الكريم انه جد العرب أيضا .

ج ــ فلســطين ومصــر وتسرب الاموريين :

اهتمت الادارة المصرية في ذلك الزمن بسكان فلســطين الكنعانيين (الامــوريين) والآراميين لانهم كانوا يشكلون خطرا وقوة اقتصادية فعالة ، فاذا عرفنا العدد الكبـير للمدن الفلسطينية المذكورة في نصوص تل العمارنة ، وعرفنا أن محتوى هذه النصوص ليس الا رسائل سياسية ودبلوماسية من أمراء فلســطين الى فراعنــة مصر ، تــارة للاستجداء واخرى لطلب النجدة ، أو بمناسبة زواج أو تبادل موفدين نستطيع بعدها أن نفهم أن خبيرو لم يكن الا اسما من مئات الاسماء والالقاب المتداولة ويمكن لنا أيضــا أن نفهم أهمية التنافس بين مصر وقوى الرافدين لاستمالة أو تحييد أمراء فلسطين . ونعلم من خلال «نصوص اللعن*» للاسرة الثانية عشرة المصرية ، كم كان الفرعون يتوق الى الخلاص من تبعيته الاقتصادية « للوادي الاخضر الغني » وكان يقصد بهذا الوادي

---

* نصوص ملكية على أوان فخارية ، تتضمن أدعيــة ولعنات ضــد الخصوم ، تحطـم في حفل دينـي التماسا للغلبــة عليهم .

الدلتا ، وسكانه ليسوا الا مهاجرين تسربوا من فلسطين الى وادي النيل الاعلى واقاموا ملكا لهم اعتبارا من عام ١٧٢٠ ، وبعد بضع سنين يتسرب عدد آخر الى الدلتا الشرقية، وينجح في النهاية باحتلال وادي النيل برمته . هذا العصر يسمى عصر الهكسوس ، وهو الصيغة الاغريقية للتعبير المصري خيكو ـ كهوسويت Hikau-Khoswet أو زعماء البلاد الاجنبية ، الذي دام نحو مئة وثمانين سنة وانتهى بطردهم من مصر نحو ١٥٥٠ ق.م .

ان التقاليد المحلية الشفوية المصرية نقلت الينا بواسطة الكاتب مانيتون (عاش في القرن الثالث ق.م) صورة مبالغ فيها عن تلك العصور . حيث كانت مصر مسرحا لعبث « البرابرة » كما يقول . ولكن هذا الغزو الاموري (أو آمو Amu في النصوص المصرية) قد أخرج مصر من عزلتها ودفعها الى شن حملات عسكرية على فلسطين،وهذا ما أدى الى صدامات مع الحوريين والحثيين .. الخ .

نخلص مما تقدم الى أن المصادر الرافدية والمصرية لم تمدنا حتى الآن بأية اشارة تتطابق مع رواية التوراة عن رحلة ابراهيم ؛ أو عن وجود العبريين ككيان هام ، واذا ما اكتشفت يوما ما مثل تلك الاشارة ، فلن تكون بمستوى الاهمية التي عليها سكان فلسطين الكنعانيون ـ الاموريون ، لان هؤلاء هم الذين يمثلون حضارة فلسطين في العصور القديمة او خلال ثلاثة آلاف من السنين التي سبقت الميلاد ؛ وهم لم ينقطعوا عنها او عن اغنائها حتى يومنا هذا ، على الرغم من الاستيطان الاوروبي اليهودي .

ويبقى ابراهيم وأنساله ،سواء التوراتي أو القرآني ، احدى الشخصيات الدينية الورعة التي تشكل تراثا أدبيا لا يجب اقحامه في قضايا تاريخية علمية ، ان قصص التوراة ليست الا جزءا من تراث من عاشوا ويعيشون في سورية وفلسطين منذ ذلك الزمن ، والعرب سكان المنطقة هم وحدهم ورثة وأحفاد الامس .

الحواشـــــــي

(١) اذا علمنا ان عدد المختصين بالدراسات المسمارية الاكادية في العالم قد يصل الى حدود المائتين ، وأن نسبة الصهاينة بينهم لا تقل عن ٢٠٪ ، يعمل أكثر من نصفهم في جامعات اسرائيل .

واذا علمنا أن عدد المختصين العرب في هذا الميدان لا يتجـاوز أصابع اليديـن ، وان مشاركتهـم في المؤتمرات الدولية وحلقات البحث تكاد تكون معدومة(شارك في مؤتمر الاشوريات الدولي الذي عقـد في باريس في تموز ١٩٨٦ ومحوره « تاريخ المرأة في الشرق القديم » أحد عشر متخصصا يعملون في الجامعـات الاسرائيلية ، في حـين غاب العرب عـن هذا المؤتمـروغيره) ، فقد يساعدنا ذلك على فهم الضجيج واللغو الذي يثـار عقب كل كشف أثـري أو كتابي قديم . فاللعب على الكلمات وتزويرها ، وطمس الحقائق أو تحريفها لاغراض عدوانيـة استيطانية أمر منتظـر فيواقع صراعنا مع اسرائيل . وما دام العرب بعيدين عن المشاركة في الابحاث الدولية ، فالميدان مفتوح لدعاةالصهيونية ومؤيديهم لتفسير التاريخ حسب أهوائهم واطماعهم ، واصطناع التفسيرات اللغويـة وتزويـرالاخبار وتاليف الروايات وقلبها الى حقائق مزعومـة غايتها تثبيت أقدام الصهيونية في فلسطين واعطائهـابعدا تاريخيا مع كل كشف أثري جديد .

ويحز في النفس أن بعضهذه النظريات والتفسيرات المغرضة تلقى قبولا من بعضنا فيتبناها غير مدرك خطورتها في حربنا الثقافية مع الصهيونية ، والسببفي ذلك واضح ... وهو عجزهم عن كشـف الزيـف ، بحكم عدم تخصصهم ، وعـــدم قدرتهم علـى قراءةالنصوص الاصلية ...

ونشير في هذا الصدد لمؤلفات ودراسات ابراهاممالامات الاستاذ في الجامعة العبرية ، وفيها مقارنات لا حصر لها بين معطيات محفوظات ماري والالاخ . وهويصف محفوظات ماريبانها «أساس الابحاث التوراتية، وخاصة أصل العبريين ومراحل تكون التاريخ الاســرائيلي » . انظر
Mari and Bible, **Ensyclopaedia Judica,**1961, p. 1 .

وأستاذ آخر اسمه نداف نعمان يهتم بمقارنات خاصة بين أدد ، اله حلب ، ويهوه . هذا اضافة الى ما صدر في النصف الاخير من هذا القرن وبخاصـةفي أمريكا ، منروايات خيالية تناولت أهم الاكتشافات الاثرية فيالوطن العربي وقدمتها للقارىء العادي بقالبروائي ، وغايتها تسريب الافكار الصهيونية بأن التراث المسماري القديم جزء من التراث اليهودي ، منهـارواية الاكتشاف للاميركي ستيف شاغان .
Steve Shagan, **The Discovery,** New York, 1984 .

وتحكي عن اكتشاف مدينة ابلا في سورية وأنها« ... مملكة عبرية ، وما على السوريين الا أن يقبلوا بأن يكونوا احفاد العبريين أو ... » ولا ينسى المؤلفالصهيوني أن يبث سمومه عند وصفه سورية وشعبها بأنه « يستعد لتدمير حضارة اسرائيل » . انظر :

(٢) انظر :

Geovanni Pettinato, **Ebla nouvi orizzonti della storia,** Milano 1986, pp. 122 - 128 s.

الذي يقرأ الاسم ابريوم (Ibrium) وهي القراءة التي اعتمدتها اللجنة الدولية لقراءة نصوص ابلا ، في حين كان يقرؤه ابروم (Ebrum) ، قبل هذا التاريخ وخاصة في مقاله

RIA. V=Reallexikon der Assyriologie V , p. 12 .

حيث يقول « إن نفوذ إبلا تحت حكم (أبروم)شمل سورية وفلسطين ... وان هناك نص يدفعه للاعتقاد بأن أكاد وابروم من القبيلة نفسها »ونلاحظ أن قراءة الاسم (ابروم) محاولة غير مباشرة لتقريبه من عبر وعابر . انظر سفر التكوين(١٠ ، ٢٠) حيث يكتب اسم عابر بالمد سواء بالعبرية أو العربية .

(٣) انظر :

Oswald Loretz, **Habiru - Hebraer,** Berlin - New York 1984, p. 239.

يقول : « لا يمكن المقارنة بين الاسم الملكي ابريوم والاسم التوراتي عابر ، ولا بين كلمتي عبري، وعبر » ، وانظر مقاله المترجم : هل للعبرانيين وجود في ابلا ، تعريب قاسم طوير ، مجلة دراسات تاريخية ، ٢٧/٢٧ ، ١٩٨٧ ص ١٢٣وما بعد .

(٤) لقد كتب الكثير حول مسألة النبوءة في ماري وحلب وأوجاريت ، وحاولت معظم الدراسات الصهيونية ابراز العلاقة بين التوراة والادب المسماري الاكادي أو السومري بهدف الادعاء بأن بلادنا ليست الا مسرحا « لحضارة العبريين » وتوراتهم . انظر مالامات في الموسوعة اليهودية .

(٥) من أجل موجز لغوي وتاريخي عن المشكلة ،انظر : ج بوتيرو ، وانظر كلمة خابيرو Habiru في:

R L A. IV , Berlin - New York 1972 - 1975 , p. 14 .
C A D , The Assyrian Dictionary, H. v. 6, p. 84 .
J. Bottéro, « Le Probléme des Habiru à la IVme » **RAI,** Paris 1954. (٦)
H. Greenberg, « The Hab/Piru » **AOS**39 , New Haven 1955 .

(٨) من أهمها :

a - Borger, R. , « Das Problem der ' apiru » (« Habiru ») in : **Z. D. P. V.** 74, 1958, 121 - 32 .

b - W. F. Albright, « Abram the Hebrew » **(BASOR)** , p. 163 , 1961, 36 S .

ولا يخفى أن اولبرايت يمثل وجهة النظر الصهيونية .

c - M. Astour , « Les Etrangers à Ugarit et le statut Juridique des Habiru », **RA** 53 , 1959 . 70 ss .

d - J- R. Kupper, « Sutéens et Habiru»(**RA** 55 , 1961) , 197 ss.
e - M. B. Rowton, « The Topological factor in the Hapiru problem » (**AS** 16 , 1965) 375 ss.

f - R. de Vaux .« Le Problème des Hapiru aprés quinze années » (**JENES** 27 , 1968 , 221 s.

ومن أجل رموز الدوريات الواردة أعلاه وفي كل مكان من هذه الدراسة ، انظر :

CAH II 1 = The Cambridge Ancient History II / 1 , p. 716 .

(٩) انظر رقم ٣

(١٠) يضاف الى **RLA , CAD** ، قاموس فونزودن الاكادي .

W. Von Soden, Akkadisches Handwor terbuch = **AHW** .

(١١) انظر : بوتيرو RLA المصدر (٦) ، حيث يورد جميع أرقام النصوص المسمارية .

(١٢) انظر المصدر السابق . انظر ، AHW , CAD ، ويمكن ايجاز ما ورد فيهما ، حول الاسم خبيرو كما يلي hapiru (habiru) = (فئة اجتماعية) من العصر الاشوري والبابلي القديمين ، ربما كانت الكلمة مستمدة من لهجة سامية غربية . ذكرت habiri في النصوص الحثية ، جمعها habiratu خبيراتو . ودنت في نوزي بالقطعية المسمارية الاكادية السابقة وكذلك بالرمزية المسمارية السومرية SA. GAZ (Lú) مع صيغ أخرى . انظر حولها كلمة hapiraya خبيريا .

١ ـ تكتب LU. SA. GAZ بالرمزية السومرية في النصوص البابلية القديمة والمتوسطة (آلالاخ ، وبوغازكوي ، وأوجاريت ، رأس شمرا وتل العمارنة) وفي نصوص رأس شمرا وأوجاريت وردت :

URU Hal - bi LU. SA. GA :

وتترجم : رجال الغزو ـ العصابات (!) في مدينة(ريف) حلب .

ERIN. GAZ صيغة أخرى في نصوص تل العمارنة ، وتعني الجنود الاشداء .

٢ ـ تكتب بالاشارات الرمزية السومرية كما يلي :

انسان امرؤ ، رجل (بالاكادية amilu/awilu =(بالسومرية) LU =

طرف العضلة riksu ، (عضل) = SA = ser ' anu , gidu

سحق masdu ، (ذات الفعل بالعربية) دك daku = GAZ =

تقابل الفعل العربي خبط habbatu = (lu) SA. GAZ =

خبط ، ضربه بشدة . واذا اردنا اشتقاق الاسم المقابل للاسم الاكادي فهو خباط أي الخباطون والمعنى المرادف بالاكادية هو hapirû وهو الذي استخدم في معظم النصوص وترجم بمعنى habbatu الغزاة أو النهابين . ولكن نجد في قاموس ، لابات :

R. Labat, **Manuel d' épigraphie akkadienne,** Paris 1976, No 104
lu sa - GAZ = habbatu = pillard = غـزاة ; hapiru = nomades = بدو

ونلاحظ أن لابات قد اختار المعنى الاول وهـو الاقرب habbatu الخباطون ، الغـزاة . والمرادف الثاني hapiru قد ترجمه الى بدو . وبذلك ينفي أي احتمال للمطابقة بين hapiru وعبرو .. الخ .

٣ ـ تكتب بالقطعية الاكادية بالاشورية القديمة: **a - wi - li ha - bi (4) - ri so ekallin**

والكلمة الاخيرة تعني قصر بصورة عامة،ولكن قد تعني مكان = KUR وفي ماري : جنود (البدو ، الخبيرو **sa - bi - im ha - bi - ri** وكذلك : Jamut t balaja ha - bi - ri

خبيرو (قبيلة) يموت بل / بعل .

وكذلك في بوغازكوي ، ورأس شمرا ـ أوجاريت وتل العمارنة ، ونوزي . وقد وردت في نوزي :
ha - bi - ru sa mat Assur

أي « خبيرو بلاد اشـور » .

(١٣) انظر السند (١٢) رقم ٢ .

(١٤) بوتيرو المصدر السابق .

(١٥) انظر :

R. Labat , A. Caquot, M. Sznycer, M. Vieyra, **Les Réligions du Proche - Orient asiatique,** Paris 1970 , pp. 505 - 506 .

حيث تذكر الالواح الحثية عشرات الالهـة الرافدية والحلبيـة خاصـة كشـهود على احـدى المعاهدات وتذكر من بينها آلهة habiri دون ذكر أسمائها . انظر حول المعاهدة :

G. Roux,**La Mésopotamie, Essai d' histoire politique, économique et culturelle,** Paris 1984, pp. 209 - 232 .

(١٦) انظـر :

P. Garelli, **Le Proche -Orient asiatiquedes origines aux invasion des peuples de la mer ,** Paris 1969, p. 148 . 170 .

انظر أيضا : المصدر السابق ص٢١٤و ٢٣٢ .

(١٧) انظر : CAHI/I حيث يقول : لقد قيل الكثير حول معنى الكلمة وجهد الكثيرون الى تصنيفه عرفيا ولغويا دون نتيجة واضحة .

(١٨) او . لورتيس المصدر السابق ص١٩١ .حيث ينقل عن لاندسبرغر قوله « ان تعريف ابريوم ملك ابلا يعابر النوراتي ليس الا شبحا جناسيا ».

(١٩) من أجل عرض تاريخي شامل، يمكن العودة الى G. Roux يضاف الى ذلك كل من ، P. Garelli G. Roux. (انظر اعلاه) ، ومن أجل تفاصيل ادق ، حول البدول وتحركاتهم في سورية والعـراق والنصوص الاكادية المتعلقة بالموضوع فلا بد من الرجوع الى المصادر التالية :

— J. R. Kupper, **Les Nomades en Mésopotamie au temps des rois de mari,** Paris 1957 .
— J. T. Luke, **pastoralism and politicsin the Mari period** , Mechigan 1965.
— Horst, Klengel, **Zwischen Zelt und Palast,** Leipzig - Wien 1972 .

— « Mésopotamian und seine nachbarn, Poblische und Kulturelle Wechselbeziehungen im Alten vorderasien von, bis 1. Jahrtausend v. chr. xxv (**RAI**) , Berlin 1978 .

وهو المؤتمر الدولي الخامس والعشرون للاشورريات ، وهو مجموعة أبحاث ودراسات حول التبـــادل في العلاقات السياسية والثقافية بين بلاد الرافدين‌البلدان‌المجاورة منذ الالف الرابعة حتى الالف الاولى ق.م .



مع الكتب

دمشـــق القديـــمة

د . عيد مرعي
جامعة دمشـق

من الدراسات الكثيرة التـي تتناول تاريخ مدينة دمشـق من جوانب متعددة ، صدر في العام ١٩٨٧ للمؤرخ وين بيتارد Wayne T. Pitard ، كتاب بعنوان : دمشـق القديمة دراسة تاريخية عن دولة المدينة في سورية منذ أقدم العصور حتى سـقوطها على يد الاشوريين عام ٧٣٢ ق.م .

Anciaent Damascus. A Historical Study of the Syrian City - State from Earliest Time until its fall to the Assyrians in 732 B. C. E., Eisenbrauns, Winona Lake, Indiana, 1987.

وهو كتاب هام ، واول بحث مفصل وشامل عن دمشـق القديمة ، رجع فيـه الباحث الى المصادر المكتوبة الاساسية التي تتحدث عن دمشـق القديمـة ، البابلية والاشورية والمصرية والحثية والارامية والتوراتية . مـع نقدها نقدا علميـا . كما أن الباحث لم يهمل الدراسات السابقة عن دمشق ، فعرض لكل ما كتب في هذا الميـدان وطرح آراء وأفكار من سبقه معتمدا في ذلك على النقـد والتحليل العلمي . فجـاءت دراسته متكاملة . وفيما يلي عرض مختصر لأهم ما جاء في هذا الكتاب .

يتألف الكتاب من مقدمة وستة فصول وخاتمة اضافة الى قائمة بأسماء المصادر والمراجع المستخدمة ، وفهرس بأسماء الاماكن وآخر بالاعلام .

يتناول الفصل الاول موقع مدينة دمشـق وبيئتها ، والدراسات السابقة حـول دمشق القديمة . ويشير الى أهم البحوث في هذا الموضـوع ويبين أن أول ذكر لاسـم المدينة يظهر في قائمة البلدان التي احتلها الفرعون المصـري تحوتمس الثالث (القـرن ١٥ ق.م) ، والتـي كتبت على جـدران معبـد الكرنـك في الاقصـر « ت ـ س ـ قو ta - ms - qu » ، وتظهر التهجئة نفسها في قائمة أمنحوتب الثالث من القرن الرابـع عشر ، وفي نصوص تل العمارنة يظهر الاسم ثلاث مرات مكتوبا على النحو التالي :
(U R U) di-ma-as qi, (U R U) du-ma-as-qa و (U R U) di-mas-qa

وكذلك يظهر في رسالة مكتشفة في كامد اللوز في البقاع ، تعود الى القرن الرابع عشر ق.م . ويذكر اسم دمشق أيضا في التوراة عدة مرات ، وفي نصوص آشورية حديثة ، وفي نص آخر آرامي قديم .

بعد هذا ينتقل المؤلف للحديث عن اسم دمشق والمملكة التي كانت تحكمها ، فيعرض للنظريات والاراء السابقة فيمحاولات تفسير اسم المدينة ، والتي ترى أن الاسم سامي ، الا أنه يرى أن كل محاولات التفسير غير مقنعة ويعتقد بأن الاسم غير سامي.

أما منطقة دمشق فكانت تدعى أبوم Apum (أو أوبي) خلال الالف الثاني قبل الميلاد ، وآرام في الالف الاول .

البراهين الاثرية منذ أقدم الازمنة :

ان أقدم الاشارات الى استيطان بشري في منطقة دمشق تعود الى العصر الاشولي المتوسط ــ المتأخر من العصر الحجري القديم الادنى ، الذي عرف استيطانا كثيفا في هذه الفترة وخاصة في التلال حول حوض دمشق . ومعظم المستوطنات كانت بالقرب من بردى والاعوج . ومن عصر الباليوليت المتوسط عثر على بعض الشواهد القليلة في مواقع بالقرب من المزة والهامة .

ومن المواقع التي تعود الى العصر الحجري الحديث تل الرماد وتل أسود وتل غريفة ، حيث تمت حفريات أثرية هناك في الستينات والسبعينات من هذا القرن من قبل كل من H. de Contenson, W. j. Van Liere. وأقدم هذه التلال تل أسود وهو تل صغير يقع شرق دمشق ، شرق قرية جديدة الخاص بين بحيرة الهيجانة وبحيرة العتيبة . في حين يقع تل غريفة على بعد نحو ٣٠ كم شرق دمشق و ١٥ كم شمال تل أسود . أما تل الرماد فيقع جنوب غرب دمشق على بعض نحو ١٥ كم .

ولا توجد دراسات عن دمشقخلال العصر الحجري ــ النحاسيوالبرونزي المبكر (الالفين الرابع والثالث قبل الميلاد) والحفريات الوحيدة التي تمت في مواقع تعود الى هذه الفترة هي حفريات تل خزامي من قبل كونتنسن عام ١٩٦٧ . وكان موقع هذا التل حيث يقوم الآن مطار دمشق الدولي .

ولا تظهر دمشق في نصوص ابلا المكتشفة في تل مرديخ جنوب حلب . ويبدو أنها بقيت مسكونة خلال هذه الفترة ولكنها ذات اتساع محدود . ويعتقد (فان ليير) بوجود عدد قليل من السكان في منطقة دمشق خلال العصر البرونزي المبكر .

٢ ـ بلاد أبوم في العصر البرونزي المتوسط :

خلال العصر البرونزي المتوسط وجدت اتصالات تجارية وعسكرية هامة بين مصر وفلسطين وجنوب سورية . وتشير نصوص اللعن بشكل واضح الى أن جنوب سورية كان مقسما الى العديد من الوحدات السياسية الصغيرة ،ونجد وصف الاوضاع في العصر البرونزي المتوسط الاول في قصة سنوحي المصرية الموضوعة في عهد سيزوستريس الاول (نحو ١٩٧١ ـ ١٩٢٨) .

ويظهر من خلال المكتشفات الاثرية في سورية ، والعائدة الى العصر البرونزي المتوسط الثاني تشابه في التحصينات وانواع الفخار وبناء المعابد والبيوت . وهذا يبين بأنه كانت هناك روابط ثقافية قوية تربط معظم مناطق الشرق القديم .

توجد أيضا مجموعة كبيرة من الوثائق المكتوبة من هذه الفترة . ويبدو لنا من خلال ذلك أن دول المدن في فلسطين بقيت صغيرة ، في حين وجدت في شمال سورية دول معروفة لنا من خلال وثائق ماري مثل يمحاض وكركميش وقطنة . ولكن محفوظات ماري نادرا ما تذكر ممالك كانت تقع الى الجنوب من قطنة . ويبدو أن منطقة جنوب قطنة كانت تدعى أمورو ،وتقوم فيها عدة ممالك صغيرة . يظهر من احدى رسائل ماري أن بلاد أمورو كانت تشمل المنطقة الممتدة من جنوب قطنة وحتى شمال فلسطين ، وتتألف على الاقل من أربع ممالك صغيرة ، وربما ضمت منطقة دمشق ، التي كانت تدعى آبوم في ذلك الوقت .

تشير نصوص اللعن المصرية الى بلاد آبوم ، وتذكر « أمير أبوم الجنوبية » و « أمير أبوم الشمالية أخ ـ كبكابو » واسم هذا الامير اموري . ويدل ذكر آبوم في نصوص اللعن أن مصر كانت لها مصالح اقتصادية مهمة ، وربما سياسية تمتد الى الشمال .

باستثناء نصوص اللعن لا توجد أية اشارات كتابية أخرى الى منطقة دمشق . كما أن الآثار المكتشفة والعائدة الى هذه الفترة قليلة أيضا. وهذا بالاضافة الى ان غياب اسم دمشق من مصادر العصر البرونزي الوسيط لا يسمح بالقول فيما اذا كانت المدينة مركزا تجاريا مهما في هذه الفترة ، أو أنها قد وجدت بعد كمدينة محصنة .

وهناك بعض المعلومات عن موقع على بعد ١٥ كم شرق دمشق على الضفة الشمالية لنهر بردى ، كان مسكونا خلال العصر البرونزي الوسيط ، هو تل الصالحية (يدعى أيضا تل فرزت) وقد كشفت الحفريات التي جرت هناك عام ١٩٥٢-١٩٥٣ عن طبقات

من العصر المذكور وبينت أن الموقع كان مشغولا بمستوطنة غير محصنة في بداية هذه الفترة .

كانت التجارة بالتأكيد جانبا هاما من جوانب حياة منطقة دمشق الاقتصادية ، خلال العصر البرونزي الوسيط والطرق التجارية المعروفة من العصور اللاحقة كانت أيضا موجودة خلال هذا العصر ، وكانت واحة دمشق محطة حيوية على هذه الطرق . والدليل على أهمية دمشق التجارية ختم اسطواني بابلي قديم عثر عليه في دير خبية ، الواقعة على الضفة الشمالية من نهر الاعوج ، على بعد نحو ٢٠ كم جنوب غرب دمشق أثناء عمليات شق طريق عام ١٩٤٨ . ويظهر على الختم إله وإلهة يقفان معا ، ونقش بالكتابة التالية «نينجير سو ــ ابنيشو بن إلشو ــ إبّي خادم (الاله) إنكي» وهو الختم الاسطواني البابلي القديم الوحيد المكتشف في منطقة دمشق . وهو دليل على التجارة ما بين بلاد الرافدين وجنوب سورية الذي يعتبر مفاجئا ، فنصوص ماري تظهر وجود علاقات تجارية هامة مع ممالك بعيدة باتجاه الجنوب مثل حاصور **ولائيش** في شمال فلسطين .

ولا توجد في نصوص ماري أية اشارات الى منطقة دمشق .

٣ ــ بلاد أوبي upi في العصر البرونزي المتأخر :

بقيت منطقة دمشق معروفة خلال العصر البرونزي المتأخر بالاسم الذي عرفت به في العصر البرونزي المتوسط ، ولكن بشكل معدل (آبوم = أوبي) وذلك حسب التهجئة السماوية للاسم . والمعروف عن تاريخ أوبي خلال العصر البرونزي المتأخر قليل جدا مع أن دورها في السياسة العالمية أصبح أكبر مما كان في العصر السابق ، لان معظم الاشارات الى أوبي في نصوص العصر البرونزي المتأخر تأتي من مصادر مصرية وحثية، وكانت الدولتان الكبيرتان تطمحان الى السيطرة على سورية لذلك تذكران ما يحدث في أوبي .

كان يحكم دمشق في هذه الفترة ، مثلها مثل المدن الاخرى ، « ملك » ، ولكن ملكين فقط من ملوكها خلال الفترة كلها معروفان بالاسم . ومعظم ما يمكن أن يقال عن بلاد اوبي ومدينة دمشق خلال العصر البرونزي المتأخر مرتبط بالتطورات التاريخية للقوى السياسية الكبرى في هذه الفترة وخاصة مصر وميتاني وحاتي .

اشتبكت ميتاني ومصر في صراع من أجل السيطرة على سورية ، وكانت بلاد أوبي تقع على التخوم الشمالية لمنطقة النفوذ المصرية في سورية ، وجنوب منطقة النفوذ الميتانية ، وفيما بعد الحثية . لذلك تعرضت لضغط كلا الجانبين .

ويذكر تحوتموس الثالث في قائمة أسماء ١١٩ مدينة تحالفت ضده وانتصر عليها في معركة مجدّو ، ومن بينها دمشق التي يرد ذكرها لاول مرة هنا . ولكن يبدو انهـا لم تكن أهم مدن منطقة أوبي ، أو مدينة ذات أهمية سياسية كبرى .

أخضع تحوتموس الثالث سورية للحكم المصري ووصل حتى الفرات بعد انتصاره على القوات الميتانية بالقرب من حلب . ولكن هذا لم يدم طويلا ، وأخذ النفوذ المصري يتراجع تدريجيا بعد وفاتـه .

عصر العمارنـة :

سمي بهذا الاسم نسبة الى تل العمارنة الذي اكتشفت فيه نصوص أكادية تعود الى السنوات الاخيرة من حكم امنحوتب الثالث والى عهد امنحوتب الرابع ــ أخناتون، وتضم رسائل من ملوك دول العصر الكبرى مثـل ميتاني وحاتي وبابل . ولكن معظـم الرسائل كانت من الحكام التابعين لمصر في سورية .

يبدو أن منطقة النفوذ المصري في سورية في هذا العصـر كانت مقسـمة الى ثلاث مقاطعات احداها مقاطعة أوبي وعاصمتها الادارية كوميدي Kumidi (حاليا كامد اللوز في البقاع) ،وكل مقاطعة كان يديرها حاكم يدعى فيرسائل العمارنة رابيصو rabisu = وكيل ــ حاكم . ولا تعرف مدى امتداد النفوذ المصـري باتجاه الشمال خلال عصـر العمارنة ، ولكن من الواضح أن منطقة اوبي كانت جزءا مـن منطقة النفوذ هذه حتـى حرب شوبيلو ليوما السورية الاولى ، كمـا ظلت أوجاريت تابعة لمصـر حتى عهـد نيقمادو الثاني .

وعندما مات امنحوتب الثالث (نحو ١٣٧٩) كانت الدول الكبـرى في الشـرق القديم مصر وميتاني . ولكن الوضع تغير بشكل دراماتيكي في السنوات القليلة التالية، بظهور الامبراطورية الحثية تحت حكم شوبيلو ليومـا الذي قضى على كل نفوذ ميتاني وادخل شمال سورية تحت سيطرته ، ومد السيطرة الحثيـة في أواخر عهـده الـى أوجاريت وأمورو وقادش ، وربما الى أوبي أيضا . ومعظم اشارات مراسلات العمارنة الى دمشق ومنطقة أوبي وجدت في رسائل من الفترة الاخيرة من عهد أخناتون وتتحدث عن التحدي الحثي لهذه المنطقة، فقد شجع الحثيون قيام حلف معادي للمصريين بقيادة تابعهم حاكم قادش ايتوجاما Aitugama الذي اتبع سياسة توسعية .

كشفت الحفريات التي تمت عام ١٩٦٩ في سويات العصر البرونزي المتأخـر في كامد اللوز في البقاع الجنوبي عددا قليلا من الالواح المسمارية منها واحد فقط كامل ،

وهو رسالة من فرعون مصر الى ملك دمشق زالايا ، وتعود كرسائل العمارنة ، الى القرن الرابع عشر ، وتتضمن أمرا للملك دمشق كي يرسل مجموعة من الخابيرو الى مصر ، حيث سيتم نقلهم الى قرى في كاشا Kasha (النوبة) لتوطينهم هناك، عوضا عن السكان اللذين تمردوا ضد الفرعون وتم تهجيرهم وتحويلهم الى أرقاء .

وتدل هذه الرسالة على أن دمشق كانت في هذه الفترة تحت السيطرة المصرية وبعد موت شوبيلوليوما عاد النفوذ المصري ليقوى في سورية وخاصة في عهد حَرِمْحَب Haremhab ورعمسيس الاول وسيتي الاول الذي أدخل قادش وأمورو من جديد ضمن منطقة النفوذ المصري . وبلغ الصراع مابين مصر وحاتي قمته في معركة قادش (١٢٩٦ ق.م) التي أعقبها صلح بين الطرفين رسم مناطق نفوذهما فيسورية، فخضعت امورو للسيطرة الحثية ، ولكن أوبي بقيت جزءا من الامبراطورية المصرية .

والخلاصة أن ما نعرفه عن منطقة أوبي خلال العصر البرونزي المتأخر قليل جدا، نستمده من وثائق الامبراطوريات التي كانت لها مصالح سياسية واقتصادية في سورية وهي مصر وميتاني وحاتي .ولكن مصادر تاريخ هذه الامبراطورياتلا تذكر أوبي الا عند حدوث أمور فيها . فلا نعرف شيئا عن حكام دمشق أو عن التطورات السياسية الداخلية في منطقة أوبي التي تظهر على مسرح السياسة الدولية غالبا كمنطقة تابعة لمصر ، ودائما على حدودها الشمالية .

٤ ـ دمشق والآراميون :

ظهر الآراميون على مسرح الاحداث في بلاد الرافدين وسورية في أواخر الالف الثاني وبداية الالف الاول قبل الميلاد وأسسوا ممالك عديدة . وتوجد بعض المعلومات عن انتشارهم في بلاد الرافدين وشمال سورية ، في حين أن الاخبار المتوافرة عن وجودهم في جنوب سورية قليلة ومستمدة بالكامل من التوراة التي تبدأ بالحديث عنهم عندما اقاموا دولا عديدة في تلك المنطقة مثل وادي البقاع ودمشق .

أما مدن الساحل فقد بقيت بعيدة عن التأثير الآرامي الرئيسي . ويضع معظم العلماء آرام صوبة في البقاع الشمالي مع امتداد الى شرق جبال لبنان الشرقية وشمال دمشق حتى سهول حمص ، وباتجاه الشرق حتى البادية .

أما في منطقة دمشق فقد قامت دولة آرامية في نهاية القرن الحادي عشر قبل الميلاد ، ولكن حدودها في هذه الفترة غير معروفة بدقة . ويتضح من سفر صموئيل الثاني أنه كانت لدمشق علاقات متينة مع آرام صوبة ولكن طبيعة هذه العلاقات

مجهولة . ويبدو أن هدد عزر ملك آرام صوبة جعل عددا من الدويلات ، الممتدة الى الشمال حتى الفرات ، تابعة لمملكته . أما دمشق فكانت حليفة له .

أخذت أهمية دمشق بالتزايد مع الزمن لانها كانت واحدة من محطات الطرق التجارية العديدة بين الجنوب والشمال ، من الجزيرة العربية الى شمال سورية ، وبين الغرب والشرق ، من البحر المتوسط الى بلاد الرافدين ، ونمت قوتها بشكل كبير بعد استيلاء ريزون Rezon على السلطة فيها .

٥ ـ آرام دمشق من ريزون حتىاغتصاب حازا إيل العرش (نحو ٩٣١ ـ ٨٤٢/٤٤ :

كانت دمشق في منتصف القرن التاسع عاصمة أقوى دولة في سورية هي آرام دمشق ، التي أصبحت في عهد هدد عزر (له نفس اسم ملك آرام صوبة) الدولة القائدة لتحالف عريض لدول غرب وجنوب سورية، قاوم التوسع الآشوري خلال الفترة ما بين ٨٥٣ ـ ٨٤٥ ق.م . الا أن المنطقة التي كانت تسيطر عليها على الرغم من نفوذها لم تكن واسعة . ففي الشمال منها احتفظت حماة بقوة معتبرة مما حد من توسع دمشق في هذا الاتجاه ، وفي الغرب بقيت دويلات المدن الفينيقية بعيدة عن نفوذها .

وتعد كتابات الملك الآشوري شلمنصر الثالث مصدرا هاما عن تاريخ دمشق في هذه الفترة ، فقد واجه تحالفا قويا تقوده دمشق خلال حملاته في شمال سورية . والكتابة المشهورة التي تتحدث عن اصطدامه بهذا التحالف في قرقر عام ٨٥٣ ق.م . تصف هدد عزر ملك دمشق وأرخولينا ملك حماة بالحليفين الرئيسيين الذين واجها الملك الآشوري في المعركة .

التقى شلمنصر مرة ثانية عام ٨٤٩ ق.م . بتحالف يقوده أيضا هدد عزر ملك دمشق وملك حماة ، ثم التقى مرة أخرى عامي ٨٤٨ و ٨٤٥ ق.م . بتحالف يقوده هدد عزر ملك دمشق . وكان هذا التحالف الآرامي قويا منع الآشوريين من السيطرة على مناطق مهمة في وسط وجنوب سورية .

يتبين من خلال الكتابات الآشورية أن دمشق كانت في عهد هدد عزر من الدول القيادية في سورية وربما كانت الاقوى . باختصار يمكن القول ان الفترة ما بين ٩٣١ـ ٨٤٢/٤٤ ق.م . كانت فترة نهوض دمشق ، فقد تحولت من دولة صغيرة لا أهمية لها الى مملكة قوية ذات شأن .وعندما استولى حازا إيل على السلطة بعد وفاة هددعزر كانت الدولة سائرة في طريق المجد والشهرة ونقلها هو الى مجد وسمو اعظم .

٦ ـ آرام دمشق من صعود حازا إيل حتى سقوط المدينة عام ٧٣٢ ق.م. :

عند تولي حازا إيل السلطة في دمشق طرأ تغيير على الوضع السياسي في وسط وجنوب سورية . فالتحالف المعادي للآشوريين الذي حارب شلمنصر الثالث بشكل ناجح أربع مرات بين ٨٥٣ ـ ٨٤٥ ق.م . كان قد انحل . ومن غير الممكن معرفة فيما اذا كان هذا يعود الى تغيير السلالة الحاكمة في دمشق ، ولكن يمكن أن يكون ذلك أحد الاسباب .

وعندما عاد شلمنصر الثالث مرة أخرى الى سورية عام ٨٤١ ق.م .كانت دمشق فقط من بين الحلفاء السابقين مستعدة للدخول في حرب معه . أما حماة التي كانت تأتي بعد دمشق من حيث الاهمية فقد عقدت سلما مع آشور . وهكذا وقفت دمشق وحدها أمام زحف شلمنصر الثالث . وبالرغم من هزيمة حازا إيل في معركة عند جبل حرمون فان الآشوريين لم يتمكنوا من احتلال دمشق بسبب المقاومة العنيفة التي أبدتها .

عاد شلمنصر مرة أخرى ليحارب دمشق عام ٨٨٣ ق.م . ولكن تفاصيل المعركة غير معروفة بسبب قلة المعلومات وتشابكها ومر بعد ذلك أكثر من ثلاثين عاما قبل أن يعود جيش آشوري مرة أخرى الى هذه المنطقة .

أصبح حازا إيل بعد انسحاب الآشوريين القوة المسيطرة في سورية فاتبع سياسة توسعية على حساب جيرانه . هل وسع حازا إيل منطقة نفوذه شمال دمشق ؟ هذا السؤال يطرح سؤالا أكبر وهو ما اذا كانت دمشق قد اصبحت عاصمة امبراطورية آرامية كبيرة شملت معظم سورية خلال النصف الثاني من القرن التاسع . اعتقد بذلك بعض الباحثين حيث رأوا أن حازا إيل راقب شمال سورية من جبال طوروس وباتجاه الشرق حتى الفرات وذلك بالاعتماد على بعض المعلومات الكتابية والاثرية . وفي الواقع توجد اشارات تدل على ان حازا إيل وسع نفوذه باتجاه الجنوب فسيطر على فلسطين ولكن لا توجد شواهد على أنه كان قادرا على مد نفوذه شمالا الى أبعد من حدوده مع مملكة حماة القوية التي أصبحت عدوا لدودا له . وكان اتساع مملكة حازا إيل كافيا ليجعل من دمشق عاصمة واحدة من أقوى دول سورية في تلك الفترة .

بعد حكم دام أكثر من أربعين عاما توفي حازا إيل (نحو ٨٠٠ ق.م) وخلفه ابنه برهدد الثالث . يعتبر عهد حازا إيل أعظم فترات القوة والازدهار لآرام دمشق ، ولكن ذلك لم يدم مدة طويلة اذ اخذت مملكته في عهد ابنه في التراجع والانحطاط .

ومصادر معلوماتنا عن عهد برهدد الثالث هي التوراة ، سفر الملوك ،وكتابة زاكور الآرامية ملك حماة التي تصف الحملة العسكرية التي قادها برهدد ضد زاكور ، ومجموعة من كتابات ادد نيراري الثالث ملك آشور (٨١٠–٧٨٣) الذي هاجم دمشق وابهتلم جزية كبيرة من ملكها الذي يدعى مارتي في الكتابات الآشورية .

ولكن ترتيب الاحداث الواردة في هذه المصادر زمنيا يعتبر من المشكلات الصعبة. على أي حال يبدو أن برهدد الثالث لم يكن قادرا على المحافظة على مملكة دمشق قوية كما تركها له أبوه فقد هاجمها الآشوريون وفشل التحالف ضد زاكور ملك حماة . وبذلك بدأ عهد انحدار بالنسبة لدمشق .

هاجم الاشوريون دمشق مرة أخرى عام ٧٧٣ وأخذوا منها الجزية ، ثم استعادت شيئا من أهميتها في منتصف القرن الثامن .

انتهت فترة ضعف الامبراطورية الآشورية بصعود تيغلات بيليزر الثالث الى العرش (٧٤٥ ــ ٧٢٧) وقيامه باصلاح الادارة ، واتباعه سياسة توسعية قائمة على ضم المناطق المحتلة ووضع حكام آشوريين عليها وتهجير سكان المناطق الثائرة . وأدى ذلك الى نهاية دولة دمشق الآرامية عام ٧٣٢ ق.م .

توجد بعض المعلومات القليلة عن آخر ملك حكم في دمشق والذي تدعوه التوراة رصين Resin وحوليات تيغلات بيليزر راصونو rasunu. ويبدو أن هذا الملك حاول تشكيل حلف من الدويلات السورية ضد الاشوريين مما جعل تيغلات بيليزر يحتل دمشق ويدخلها ضمن نظام المقاطعات الاشوري ، لتصبح مقاطعة آشورية .

* * *

من هذا العرض السريع يتبين أن منطقة دمشق كانت في الالف الثاني موضع نزاع بين الدول الكبرى ، ولم يكن لها أهمية كبيرة في أحداث ذلك العصر . وأصبحت اعتبارا من نهاية القرن العاشر ، عاصمة دولة تدعى آرام دمشق وتحولت الى وحدة سياسية وثقافية مهمة . لا توجد مصادر أصلية من آرام دمشق نفسها ، الا أن المعلومات الموجودة في المصادر الآشورية والتوراتية كافية لتؤكد لنا التأثير الاساسي لهذه الدولة على الوضع السياسي في ذلك الوقت، اذ أصبحت الدولة القائدة في سورية خلال القرن

التاسع . والآشوريون أنفسهم عرفوا أن آرام كانت واحدة من العقبات الرئيسة في توسعهم نحو الغرب .

لم يعد لدمشق أية أهمية تذكر بعد احتلالها من قبل تيفلات بيليزر الثالث عام ٧٣٢ ق . م .

باختصار ان كتاب « دمشق القديمة » كتاب جدير بالترجمة الى العربية لانه يعرف بجوانب كثيرة من تاريخ مدينتنا العريقة الضاربة جذوره في أعماق الزمن .

* * *

ما قبل التاريخ في المَشرِق

د. سلطان محيسن
جامعة دمشق

ما قبل التاريخ في المشرق مؤتمر علمي عقد في المعهد الشرقي التابع لجامعة ليون الثانية في فرنسا ،في الفترة الواقعة بين ٣٠ أيـار و ٤ حزيران عام١٩٨٨ ، وهو المؤتمر الثاني من نوعه حول هذا الموضوع ، ويكمل في أبحاثه المؤتمر الاول الذي عقد في المكان نفسه بين ١٠ و ١٤ حزيران ١٩٨٠ ، وكان موضوعه الرئيسي هو « تأريخ مواقع عصور ما قبـل التاريخ وانتشارها منـذ وصول الانسـان الى المشـرق وحتى نهايـة الالف الرابع ق.م» أي حتى انتهاء عصور ما قبل التاريخ وابتداء العصور التاريخية القديمة. وقد توصل المشاركون في المؤتمر الاول الى وضع اطار زمنـي وحضاري يبين الخطوط العريضة لتاريخ مجتمعات ما قبل التاريخ في المشـرق ، وعلى امتداد زمن يزيد علـى المليون سـنة * .

حضرت لهذا المؤتمر وعقدته جامعة ليون الثانيـة : « المعهد الشرقي ، والمركـز الوطني للبحث العلمي الفرنسي C. N. R. S. » وكانت لجنة الاعداد والتنظيم مؤلفـة مـن : فرانسيس أور ** ، المتخصص الكبير في عصور ما قبـل التاريخ في الشـرق الادنى ، وبول ستانلافيل ، الجيومورفولوجي ومدير بحوث في المركز الوطنـي للبحث العلمي الفرنسي ، وأولفييه أورانتش أستاذ ما قبل التاريخ في جامعة ليون الثانيـة ، وماري كلير كوفان المتخصصة في عصور ما قبل التاريخ ومديرة بحوث في المركز الوطني للبحث العلمي الفرنسي .

---

* Préhistoire du Levent, C. N. R. S. Paris 1981.

** F. Hours, P. Sanlaville, O. Oranche, M. C. Couvin.

ولم يتسن للباحث الاب أور ، عضو اللجنة المنظمة للمؤتمر ، حضور هذه التظاهرة العلمية الهامة ، اذ توفي في ١٧ نيسـان ١٩٨٧ ، فتقرر زملاؤه اعتبار المؤتمر تكريما له . ويعد الاب أور بحق أكبـر الباحثين في عصور ما قبل التاريخ في المشرق ، وقد عمل في هذا الميدان أكثر من ثلاثين عاما وله دراسـات غزيرة لا يتسـع المجال لذكرها . وقد أحدثت وفاته المبكرة وهو في أوج عطائه فراغا كبيرا .

حضر مؤتمر ليون مائة باحث ، من مختلف البلدان ، يعملون في دراسة عصور ما قبل التاريخ المشرقية ، قدم خمسون منهم بحوثا منوعة ، نذكر منهم على سبيل المثال اضافة الى اللجنة المنظمة : جاك كوفان ، جاك بيزانسون ، لورين كوبلاند ، اندرو غارارد ، تاكيرو أكازاوا ، برنار ڤاندر ميرش ، ستيفان كوزلفسكي ، وغيرهم * وشارك كاتب هذا العرض ببحث تناول مواقع ما قبل التاريخ في منطقة عفرين شمال سورية . كان الحضور العربي ضئيلا اقتصر على جامعة دمشق ، وجامعة اليرموك في الاردن ممثلة بالدكتور مجاهد المحيسن اضافة الى بعض الطلاب العرب الذين يدرسون في فرنسا .

كان الموضوع الرئيسي للمؤتمر هو « **عملية التحول الحضاري منذ البداية وحتى الالف الرابع ق.م** » . وقد قسمت الدراسات المقدمة الى عدة موضوعات فرعية تناول كل منها فترة محددة من عصور ما قبل التاريخ . وقدم المشاركون أبحاثهم في اطار الموضوع الذي يعنيهم ، مرفقة بعرض الشرائح المصورة اللازمة (سلايد) مما جعلها أكثر حيوية وتعبيرا . وكانت الموضوعات تتلى تباعا (خلال ١٥ ـ ٢٠ دقيقة للموضوع الواحد) ، يعقبها نقاش خصص له ٦٠ ـ ٩٠ دقيقة . وكان تنظيم المؤتمر دقيقا ،ولغته الفرنسية وان كانت الانكليزية قد طغت في أحوال كثيرة ، رافقته زيارات ميدانية لبعض المواقع الفرنسية ودعوات مختلفة ، وقدمت فيه بحوث كثيرة يستحق كل منها أن يكون مادة مؤتمر مستقل ، عرضت في جلسات خصص كل منها بموضوع محدد ، كان لي شرف رئاسة أحدها ، ملأت ستة أيام مكثفة ، وتناول فيها الباحثون المكتشفات والافكار والنظريات الجديدة .

افتتح المؤتمر في الساعة التاسعة من صباح يوم الاثنين ٥/٣٠ بحضور ممثلين عن المركز الوطني للبحث العلمي الفرنسي ووزارة التعليم العالي والجامعي . ثم توالت جلسات العمل .

كان موضوع **الجلسة الاولى « الزمن الرابع »** Quaternaire ، وقد قدمت فيها بحوث ذات طابع جيولوجي وجيومورفولوجي وبالنتولوجي ، تناولت التشكلات الجيولوجية الرباعية في المشرق وبخاصة الشواطىء البحرية والاسرة النهرية القديمة ، وعلاقاتها بآثار انسان ما قبل التاريخ ، ودورها في دقة تحديد العمر الزمني لتلك الآثار . وتطرقت أيضا الى التبدلات المناخية التي حصلت في الزمن الرابع ، والبيئة

(*) J. Couvin, J. Besanson, L. Copeland, A. Garrard, T. Akozawa, B. Vandermeersch. S Kozlowski.

الجغرافية القديمة ونوعية الحيوانات والنباتات التي عاشت فيها ، كالفيل ووحيد القرن والحصان والغزال والدب ونباتات اللوز والبطم والزعرور . وأشارت البحوث الى أهمية الشواطىء البحرية والاسرة النهرية الرباعية في تأريخ الادوات الحجرية، وأن منطقة الشرق الادنى عرفت عدة عصور مناخية مطيرة فصلتها عصور جافة تركت كلها آثارها في الطبيعة ، على شواطىء البحر المتوسط وفي وديان الانهار الكبرى كالفرات والعاصي والاردن . ورافقت التقلبات المناخية تبدلات هامة في البيئة فانقرضت أنواع حيوانية ونباتية وظهرت أنواع أخرى جديدة . وكان لكل ذلك الاثر الاكبر على الانسان وحضارته . وحاول بعض المحاضرين الربط بين التشكلات الرباعية في الاناضول وبلاد الشام بهدف ايجاد اطار رباعي عام للمنطقة يفيد من الابحاث الجديدة التي تجرى في حوض الفرات في تركيا وفي منطقة الازرق في الاردن .

وخصصت الجلسة الثانية للعصر الحجري القديم الادنى Paléolithique Inferieur (نحو ١٠٠٠٠٠٠ ــ ١٠٠٠٠٠ سنة خلت) وعرض فيها آخر المكتشفات ، وبخاصة تلك التي أتت من الاردن والاناضول ، اضافة الى اعادة النظر في بعض المواقع الشهيرة المعروفة مثل العبيدية في فلسطين واللطامنة في سورية .وقد اقترح البعض عمرا مبكرا جدا للعبيدية وهو ٤ر١ مليون سنة ، استنادا الى تحليل لانواع الحيوانات التي وجدت في ذلك الموقع ، مما أثار نقاشا وطرح ضرورة اعادة النظر في تاريخ وصول الانسان الى المشرق ، على ضوء تأريخ العبيدية الجديد ، الذي يحمل على الاعتقاد بأن الانسان الاول قد وصل الى الشرق الادنى وبلاد الشام منذ نحو مليون ونصف مليون سنة خلت، أي أقدم بنحو نصف مليون سنة مما كان يظن .وقد أكدنا أثناء الجلسة بأننا اذا اعتبرنا تأريخ العبيدية مقبولا ، وهو تأريخ غير مطلق وانما نسبي اعتمد فقط على البقايا الحيوانية التي ليست لها دائما دلالة زمنية قاطعة ، فان ذلك يجب أن يؤدي الى اعادة النظر بتأريخ المواقع السورية المشابهة للعبيدية مثل ست مرخو في حوض نهر الكبير الشمالي في محافظة اللاذقية ، لان ست مرخو معاصرة للعبيدية ، وهناك تشابه واضح في أنماط الادوات الحجرية بين الموقعين السوري والفلسطيني .

وطرحت في الجلسة العلاقة بين مختلف الصناعات الحجرية في الباليوليت الادنى بمراحله المتعددة ، الطبيعية المناخية والبيئوية لكل مرحلة،وذلك من خلال توزع المواقع في مختلف المناطق الجغرافية . فقد لوحظ مثلا أن المواقع الاثرية العائدة الى المرحلة المسماة « الاشولي الاعلى » تنتشر في كل المناطق الجغرافية في المشرق مما يدل على سيادة مناخ مناسب مطير وفر امكانية العيش للناس حيثما كان . في حين ظهر أن المواقع العائدة الى المرحلة اللاحقة المسماة « الاشولي الاعلى المتطور» تتمركز في الواحات والوديان وهذا يشير الى قيام مناخ جاف دفع الناس الى التجمع في تلك المناطق التي حافظت على ثرواتها المائية .

وخصصت الجلسة الثالثة لموضوع العصر الحجري القديم الاوسط ، أي الباليوليت الاوسط Paleolithique Moyen الذي يغطي الفترة الواقعة بين ١٠٠٫٠٠٠ ـ ٣٥٫٠٠٠ سنة خلت . وقد قدمت فيها بحوث أحدثت نقاشا مثيرا حول النوع البشري الذي عاش في المشرق في ذلك العصر ، أي انسان النياندرتال ، وعلاقته بالانواع الاخرى التي سبقته أو تبعته . فقد ذكرت احدى الدراسات (فاندرميرش)أن الانسان العاقل قد أرخ له في موقع جبل قفزة في فلسطين بنحو ٩٠ ألف سنة خلت ، وأن النياندرتال قد أرخ في موقع الكبارا في فلسطين أيضا على نحو ٦٠ ألف سنة مضت، مما يحمل على الاعتقاد بأن الانسان العاقل فيبلاد الشام قد سبقالنياندرتال وهو أقدم منه ولم يكنمتطورا عنه كما كان يظن حتىالان ، وانما تطور مباشرة من الهومو أركتوس Homo - Erectus الذي وجدت بقاياه في فلسطين ، وان النياند رتال الفلسطيني قد أتى من أوربة ، مدفوعا بتبدلات مناخية حادة ، وانه تعايش وتعاصر مع الانسان العاقل في المشرق . وقد شكل ذلك انعطافا حادا في معارفنا الحالية التي تؤرخ للانسان العاقل بنحو ٤٠٫٠٠٠ ـ ٣٥٫٠٠٠ سنة فقط وتعتبره متطورا ، في فلسطين على الاقل ، عن النياندرتال . وكان لهذا الموضوع جانب آخر ليس أقل أهمية . ألا وهو طبيعة العلاقة بين العرق والحضارة ، وهل يجوز الربط بين الاثنين في عصور ما قبل التاريخ ، لان الادوات الحجرية المسماة « الموستيرية » التي كان يعتقد أنها من صنع النياندرتال تبين أنها من انتاج الانسان العاقل أيضا . وهكذا نرى ان هذين النوعين البشريين المختلفين قد عرفا حضارة واحدة ، مما يقلب رأسا على عقب مقولة التوافق بين النوع البشري وبين الحضارة ، التي أخذ بها حتى الان أثناء دراسات العصور الحجرية ، ويدعو الى الظن بأن أنواعا انسانية مختلفة قد مارست حضارات متشابهة . ومهما يكن فاننا لا زلنا بحاجة الى أبحاث متواصلة حتى نستطيع البت في تلك الامور الخطيرة . كما عالجت بحوث أخرى تقنيات تصنيع الادوات الحجرية في الباليوليت الاوسط وتطور تلك الادوات ،اضافة الىالمكتشفات الجديدة وبخاصة التي أتت من منطقة وادي عفرين حيث كشف المسح الذي قام به كل من عادل عبد السلام وسلطان محيسن من جامعة دمشق ، وتاكيرو أكازاوا من جامعة طوكيو ، عن عشرات المواقع ذات المعطيات الاثرية والجيولوجية والمستحاثية الهامة . ويتوقع ان تؤدي التنقيبات المزمع القيام بها في المستقبل الى اثارة العديد منالقضايا الهامة حول تلكالمرحلة من عصور ما قبلالتاريخ.

كما تناولت البحوث أيضا مكتشفات جديدة أخرى أتت من بقية بلدان الشرق الادنى كتركيا والاردن وفلسطين .

وخصصت الجلسة الرابعة للعصر الحجري القديم الاعلى ، اي الباليوليت الاعلى Paleolithique Superieur بين ٣٥٫٠٠٠ ـ ١٢٫٠٠٠ سنة ق.م. وقد ركزت البحوث

المقدمة فيها على العلاقة بين هذا العصر والعصر الذي سبقه ، والذي تلاه ، ولا سيما المرحلة الانتقالية بين الباليوليت الاوسط والباليوليت الاعلى ، وفيما اذا كنا نستطيع الاستمرار في اعتبار ما يسمى « حضارة الاميرة » لتلك المرحلة الانتقالية . اذ أن الاكتشافات الاخيرة قد اثبتت أن الادوات الحجرية من نمط «الاميرة» قد ظهرت قبل هذا العصر ومنذ الباليوليت الادنى . كما نوقشت المراحل الحضارية الاخرى في الباليوليت الاعلى وبخاصة ما سمي « الاورينياسي المشرقي » وهي الحضارة الرئيسية التي لا زالت مجهولة الاصل والانتشار . لكن الاتجاه العام الذي طرحته الدراسات يدل على أن الاورينياسيين الذين اشتهروا بصناعة الحراب الطويلة وكانوا من نوع الانسان العاقل؛ هم من أصل مشرقي ، انتقلوا الى أوربة ليصلوا هناك الى قمة تطورهم ويمهدوا للحضارات الغنية ، كالسولوترية والمجدلانية، ذات المستوى الفني والتقني والاجتماعي الرفيع . وكان الجديد والهام بين ابحاث هذا الموضوع هو الاكتشافات الاخيرة التي أتت من منطقة الكوم في البادية السورية وأكدت ان سورية لم تكن مهجورة في هذا العصر خلافا لما طرح سابقا ، وأن المعلومات التي كنا نملكها عن مجتمعات الباليوليت الاعلى السوري لم تكن نهائية ، وما لبث البحث الاثري أن بدلها ليثبت الوجود البشري الهام في تلك المرحلة أيضا ، مما يفسح المجال أمام مقارنات وأحكام جديدة تخالف الاحكام السابقة .

وعقدت الجلسة الخامسة : على امتداد يوم الاربعاء ١/٦ وكان موضوعها **عصر الباليوليت الاخير** Epipaleolithic أو الميزوليت Mezolithique كما يسميه البعض ، وهو العصر الانتقالي بين العصر الحجري القديم (الباليوليت) والعصر الحجري الحديث (النيوليت ١٢٫٠٠٠ — ٨٠٠٠ سنة ق.م) . وقد عالجت البحوث أصل العلاقة وطبيعتها بين المجتمعات التي عاشت في ذلك العصر وهي المجتمعات المسماة الكباريه ثم الكباريه الهندسية وأخيرا النطوفية ، وقد عدت هذه الحضارات مراحل تطورية متصلة شكلت كل منها درجة أعلى وأكثر تنوعا على طريق تطور مجتمعات ما قبل التاريخ في المشرق . كما عرضت مكتشفات جديدة اتت بخاصة من الاردن مثل مواقع رأس النقب والقويرة ووادي الحمه وخرانه والجيلات وغيرها وكلها أعطت آثارا كبارية ونطوفية غنية ومنوعة تضاهي ما عثر عليه حتى الان من فلسطين وسورية الشمالية . وتناولت بعض التقارير الاعمال الجديدة التي تجري في مواقع فلسطينية قديمة مثل أريحا والتنقيبات في المواقع السورية مثل الندوية . وتوصل النقاش الى أن الحضارات الباليوليتية الاخيرة في المشرق كانت متشابهة ومنفتحة على بعضها الى درجة كبيرة وأكثر مما كان يظن البعض، وأنه من غير الصحيح مثلا التحدث عن النطوفي في فلسطين فقط دون النظر بعين الاعتبار الى بقية بلدان الشام لانه ثبت أن النطوفيين قد انتشروا ومنذ الالف العاشر ق.م على مساحة واسعة من المشرق ، امتدت من وادي النيل في الغرب وحتى وادي الفرات

في الشرق ، وانهم يمثلون تجانسا حضاريا ، وربما عرقيا ، واحدا بالرغم من بعض الاختلاف حسب المناطق . فالاثار النطوفية الدالة كالبناء والمقابر والفنون والادوات الثقيلة والادوات العظمية وغيرها اتت من سورية ولبنان والاردن أيضا .

وملأت الجلسة السادسة : طيلة يوم الخميس ٦/٢ وتناولت الدراسات المقدمة فيها عصر **النيوليت ما قبل الفخار آ**، .Pre - Pottery Neolithic A اي العصر الحجري الحديث ما قبل الفخار آ (٨٠٠٠ ـ ٧٦٠٠ ق.م) . فعرضت الاكتشافات الجديدة التي أتت بخاصة من العراق من مواقع قرمز ديره ونمروك العائدة لهذا العصر وتعد تلك الاكتشافات ذات أهمية بالغة لانها تملأ الفراغ القائم في تلك المرحلة في بلاد الرافدين ، كما أنها تثبت ظهور المجتمعات الزراعية الباكرة هناك ، تلك المجتمعات ذات الصفات العامة المشتركة مع مثيلاتها في بلاد الشام ، كما تجلى ذلك من خلال آثار الابنية والادوات والفنون . وبذلك تصبح بلاد الرافدين أيضا من أهم مصادر المعلومات عن مجتمعات العصر الحجري الحديث الذي حصل فيه الانعطاف الاكبر أثرا في تاريخ البشرية وهو الانتقال من حياة الصيد والالتقاط والتنقل الى الاستقرار وابتكار الزراعة والتدجين . وقد جرى في الجلسة نقاش مسهب وشيق حول الاصل الاول للزراعة ، وأين ظهرت لاول مرة وكيف انتشرت في العالم ، وتباينت الآراء ، فمن قائل أن الزراعة ظهرت في منطقة واحدة هي المشرق القديم ومنه انتشرت الى بقية أنحاء العالم ، الى آخر يقول بوجود عدة مناطق في عدة قارات نشأت فيها الزراعة بشكل مستقل . وقد طرحنا نحن حوضة دمشق كموطن أول للزراعة ، وذلك استنادا الى الدلائل التي أتت من تل أسود في تلك المنطقة والتي تثبت معرفة الزراعة منذ مطلع الالف الثامن ق.م. وقلنا بأنه من حوضة دمشق انتشرت الزراعة فيما بعد الى بقية البلدان المجاورة والى العالم . ومهما يكن فلقد ساد اتجاه عام بأن الزراعة قد نشأت في مكان ما من وادي الفرات أو الاردن أو غيره من بلاد الشام حيث عاشت الحبوب البرية ، القمح والشعير التي زرعت،الى جانب الحيوانات الوحشية (الماعز والغنم والبقر) التي دجنت أيضا. كما لفت النظر الى أن مجتمعات العصر الحجري الحديث الباكرة مارست،قبل الزراعة المنظمة ، نوعا من « الزراعة العفوية » وذلك من خلال الاستفادة المكثفة من الحبوب البرية بعد أن ضبطت طرق وأوقات نموها ونضوجها وحصادها .

وملأت الجلسة السابعة : يوم الجمعة ٦/٣ وعالجت **عصر النيوليت ما قبل الفخار ب** .Pre - Pottery Neolithic B أي العصر الحجري الحديث ما قبل الفخار ب، (٧٦٠٠ ـ ٦٠٠٠) وكانت المفاجأة الاهم هنا هي الاكتشافات المثيرة من الاناضول في تركيا من موقع نفالاكوري Nevala Cori ، اذ كشف عن مستوطنة كبيرة فيها اثار بناء وأدوات وتماثيل ونصب ضخمة ورائعة لم يعثر على مثيل لها في اي موقع معاصر حتى

الان ، مما أذهل الحاضرين ودفع الجميع الى التفكير بضرورة اعادة النظر في أحكامنـا حول مجتمعات هذا العصر لان هذه المكتشفات الاناضوليـة ، تذكرنـا من جهة أولى بمكتشفات أريحا وأسوارها وأبراجها الدفاعية ، وتشير من جهة ثانية الى اننا أمـام مستوطنة منظمة ترقى الى مستوى « الدولـة » التي قامت على راسها سلطة قويـة أشرفت على شؤون الناس منذ الالف الثامن والسابع ق.م . وهذا يعتبر تحولا جذريا في معلوماتنا عن المستوى الاجتماعي والاقتصادي والسياسي لمجتمعات عصور ما قبل التاريخ ، كما عرضت في هذه الجلسة اكتشافات هامة اخرى أتت من الاردن من مواقع عين الغزال والبسطة التي قدمت دلائل مادية وفنية تجعل منها مصادر مركزية في فهم التطور الحضاري في المشرق العربي القديم . وتم تناول الاعمال الجارية في بعض المواقع السورية مثل الكوم ، حيث ازدهرت قرية زراعية هامة ، اضافة الى عرض مكتشفات فلسطينية ورافديـة .

وجرى نقاش مطول حول علاقات مجتمعات هذا العصر المشرقية مع بعضها ، انتهت الى القول بوجود وحدة حضارية عميقة وشاملة ربطت بين أرجاء المشرق العربي القديم ، والاناضول ضمنا ، وبالرغم من أن هذه الوحدة لم تكن دائما واضحة بشكل مباشر ، ولها المظهر نفسه ، لكن جوهرها كان واحدا وعبرت عن نفسها بصيغ مختلفة في المجالات الاقتصادية والروحية ، أو غيرها .

اضافة الى الدراسات ذات الطابع الاثري البحث ، عرضت في جلسات المؤتمر بحوث تطرقت الى العلوم المساعدة لعلم آثار ما قبل التاريخ كالجيولوجيا ، والبالنتولوجيا وطرق التأريخ الفيزيائية أو غيرها ومناهج البحث وفنونه وأدواتـه ودراسات تقنيـة وحسابية وغيرها من المواضيع المكملة لموضوع المؤتمر الرئيسي .

وفي صباح يـوم السبت ٦/٤ عقدت الجلسة الختاميـة ، وقدم فيهـا كل من فاندرميرش وجاك كوفان عرضا شاملا لنتائج أعمال المؤتمر من خلال تبيان ما تم انجازه وما لم ينجز بعد ، والاسئلة التي اجاب عليها المؤتمرون ، والموضوعات التي ما زالت بانتظار المزيد من الابحاث ، وما هو الواقع الراهن لمعرفتنا بمجتمعات عصور ما قبـل التاريخ ، وانصرف المشاركون في المؤتمر مزودين بافكار ومعلومات جديدة انارت امامهم طريق البحث الطويل .

وستنشر وقائع المؤتمر عام ١٩٨٩ في عـدد خاص من مجلـة الشـرق القديم Paleorient ، التي يصدرها المركز الوطني للبحث العلمي الفرنسي .

الموحدون وبنو غانية

علي أحمد

تعد حركة بني غانية من أكبر الحركات التي قامت ضد الموحدين وأكثرها أهمية وخطرا ، فقد جاءت في وقت اشتدت فيه الهجمة الاوروبية ضد العرب والمسلمين وشملت كل ديار العرب والاسلام في المشرق والمغرب ، وعاقت تدخل الموحدين في الاندلس ، في حين كانت فيه قوى الخصوم في أحسن أحوالها ، تسير نحو التوحيد ، وقد ازدادت تصميما على طرد العرب والمسلمين من الاندلس .

ومما ساعد على قوة هذه الحركة واستمرارها ، أن بني غانية استمالوا الى جانبهم جميع العناصر الناقمة على الموحدين ، مثل القبائل الصنهاجية وبني حماد ، وقوات الهلاليين والسليميين والغز ، الذين كان الموحدون يرون أنهم ما قدموا لافريقية الا للقضاء عليهم ، وبخاصة أولئك الذين أرسلهم صلاح الدين الايوبي في النصف الثاني من القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي ، وعدوا استمرارا لمن سبقهم من قبائل هلال وسليم في القرن السابق . اضافة الى بعد عاصمة الموحدين عن منطقة نشاط بني غانية ، وعدم وجود جيش قوي لهم في افريقية للدفاع عنها . ومن جملة ما أسفرت عنه هذه الحركة ، عدا الخراب والدمار الذي حل بحواضر المغرب العربي جراء العمليات الحربية ، ظهور دولتين جديدتين في المغرب : الدولة الحفصية في تونس التي عاشت حتى قضى عليها العثمانيون في القرن السادس عشر ، ودولة بني عبد الواد في تلمسان .

اصل بني غانية :

كان الحاكم المرابطي الثاني علي بن يوسف بن تاشفين قد أرسل الى الاندلس رجلين ، أولهما يحيي وثانيهما محمد ، وهما من قبيلة مسوفة الصنهاجية ، ووالدهما يدعى علي ، وقد عرفا **بابني غانية** نسبة الى أمهما ، وهي أميرة مرابطية زوجها يوسف ابن تاشفين لعلي المسوفي زعيم مسوفة . وقد عرف يحيي بشجاعته النادرة ، فكان علي بن يوسف بن تاشفين يعتمد عليه في الامور الكبيرة والمهمات الصعبة ، فقد ولاه أول الامر على مرسية ثم بلنسية ، وذلك بعد وفاة واليها بدر بن ورقاء ، حيث نجح في الوقوف في وجه ملك آراغون(١) ثم جعله واليا على قرطبة ، وبقي واليها حتى مات .

وأثناء ولايته على بلنسية وفي سنة ٥٢٩هـ/١١٣٣م القى ابن رذمير البرشلوني الحصار على مدينة افراغة ، وعندما طال الحصار ضاقت أحوال السكان فيها فكتبوا الى ابن غانية طالبين منه مد يد المساعدة ، والا فانهم سيعطون أمر القيادة الى ابن رذمير ، فاستجاب لطلبهم وأخذ يستعد للقائه . فقال له بعض خواصه : « ليس للمسلمين عسكر بالاندلس سواه (جيش ابن غانية) فكيف تلقى علي بن يوسف بعد اليوم وقد انهزمت ، فقال ، فليصنع بي ما شاء ... » . وتوجه بمن معه من الجيش واستطاع أن يفك الحصار على مدينة افراغة(٢) .

اما محمد الاخ الثاني ، فقد كان واليا على بعض أعمال قرطبة ، ولكن أحواله اضطربت عند موت أخيه يحيي ، فشرع في التجوال في بلاد الاندلس ، في الوقت الذي كانت تقوى فيه دعوة المصامدة وتنتشر (٣) فلما استبد به الخوف قصد مدينة دانية ، ومنها عبر الى ميورقة ، بأمر من ابن تاشفين على حد قول بعضهم ، يرافقه جميع أهله، فاستولى عليها وعلى جزيرتين أخريين ، هما منرقة ويابسة . ويرى بعض المؤرخين : أن الحاكم المرابطي علي بن يوسف بن تاشفين ، هو الذي نفاه الى هناك بقصد أن يسجنه(٤) .

استقل محمد بن غانية بحكم هذه الجزر استقلالا تاما . وكان يعتمد في الانفاق على وارداتها ، اضافة الى وارداته من أعمال الغزو والقرصنة . وحتى يضفي على سلطته الصفة الرسمية ، كان يدعو لبني العباس ، باعتبارهم رمز الخلافة الواحدة(٥) وقد أطلق الجغرافيون المحدثون على الجزر الآنفة الذكر ، اسم جزر (الباليار) وأكبرها جزيرة (ميورقة) . ويحدها من الجنوب بجاية ومن الشمال برشلونة ومن الشرق منرقة ومن الغرب يابسة . ويبلغ طولها نحو سبعين ميلا ، وعرضها خمسين . فتحها المسلمون سنة ٢٩٠هـ/٩٠٣م ، وتعاقب عليها ولاة متعددون في عصر المرابطين ، الى أن وليها محمد بن علي بن غانية المسوفي(٦) .

أما جزيرة منرقة ويابسة ، فهما ابنتا جزيرة ميورقة . وتشتهر يابسة بكرومها وأعنابها ، وفيها بعض الانهار ، وأقرب أرض برية لها ، هي مدينة دانية (٧) .

علاقة بني غانية بالموحدين :

استمرت الحرب بين المرابطين والموحدين قرابة سبع سنوات من سنة ٥٣٤ — ٥٤١ هـ / ١١٣٩—١١٤٧م . انتصر الموحدون في نهايتها بقيادة عبد المؤمن بن علي خليفة المهدي بن تومرت ، الذي استطاع أن يضم الى حكمه معظم الاراضي المغربية والاندلسية(٨) الا أن بني غانية ، حكام جزر الباليار ، لم يمتثلوا لطاعته ، بل كانوا يحلمون بالسيطرة على المغرب والاندلس على حد سواء . وعلى الرغم من أن عبد المؤمن

استطاع أن يخضع معظم أنحاء المغرب والاندلس لسلطانه ، الا أنه لم يتصد لبني غانية الخارجين على سلطته ، والذين يدعون لبني العباس . ويبدو ان ذلك لم يكن واردا في برنامجه ، لاسباب لا نعرفها على وجه الدقة ، الا أنه من الممكن القول ، ان بُعد جزر ميورقة ويابسة ومنرقة ، كان سببا مهما في تأجيل ضم الموحدين لها الى وقت يكون مناسبا في المستقبل ، هذا اضافة الى أن عبد المؤمن بن علي لم يكرس كل وقته للأندلس . واستمر الوضع على هذه الحال طوال فترة حكم عبد المؤمن وابنه يوسف بن عبد المؤمن تقريبا ، الذي تولى الحكم بعد وفاة أبيه سنة ٥٥٨هـ / ١١٦٢م . الا أنه أرسل وفدا في سنة ٥٧٨هـ / ١١٨٤م الى اسحق بن محمد بن غانية(٩) ، يدعوه للخضوع ، لكنه رفض ذلك ، واستمر في الاعتراف بسيادة العباسيين في بغداد . وتجنب الصراع مع الموحدين بتقديم هدايا ثمينة للخليفة الموحدي(١٠) .

وكان الحاكم الموحدي يأمل ، أن يكون ذلك مقدمة للاعتراف بسلطانه والخروج من الدعوة للعباسيين . لكن شيئا من ذلك لم يحدث ، فظل الامر عند حدود الاتفاق ، مما جعله يقوم بمسعى آخر ، ومات قبل نجاحه(١١) .

بعد وفاة أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن سنة ٥٨٠هـ / ١١٨٤م (١٢) ، تولى أبو يوسف المنصور .وفي الوقت نفسه مات اسحق بن محمد بن غانية وترك خلفه تسعة أولاد ، وكان عهد بالحكم من بعده لاكبرهم علي(١٣)، وقد عرف بمعارضته الشديدة للموحدين .

وفي بداية حكم يعقوب المنصور ، أرسل قوة بقيادة أبي الحسن علي بن الربرتير الى جزيرة ميورقة ، ليعرض على ابن غانية علي بن اسحق الدخول في طاعته . فأبحر أبو الحسن من مدينة سبتة الى جزيرة ميورقة ، وقوبل بالترحاب عند وصوله اليها . وبينما كان منشغلا في الجدال مع أعيان الجزيرة ، أرسلوا من قام بنهب عدة المراكب ، التي أبحر عليها عند انطلاقه من مدينة سبتة ، ثم اعتقلوه ووضعوه في الاسر(١٤) وهذا بعرف بني غانية يعني الحرب ، لذلك صمم علي بن اسحق بن غانية على الهجوم على الموحدين ، فقام بغزو المغرب الشرقي . ويبدو أن بني غانية كانوا على درجة من القوة تسمح لهم بالغزو ، اذا قارنا ذلك بالوضع القائم في شرق المغرب ، حيث كان الخليفة الجديد أبو يوسف ، ما زال منصرفا الى تثبيت مركزه(١٥) . بالاضافة الى ذلك ، هناك عوامل أخرى تبدو مهمة شجعتهم على الغزو ، لعل في مقدمتها أن أهل بجاية هم الذين دعوا ابن غانية الىامتلاك مدينتهم عوضا عن الموحدين ،الذين كانوا مشغولين فيالاندلس بوفاة الامير يوسف بن عبد المؤمن وببيعة أبي يوسف يعقوب بن يوسف . فقد ظن ابن غانية أن أمرا ما سيسبب خلافا بين زعماء الموحدين . ولولا ذلك لما تشجع على الخروج الى بجاية(١٦) . ويمكن القول ، أن دعوة أهل بجاية الى ابن غانية بالمجيء لاحتلال مدينتهم ، يكمن خلفها وعد بمساعدته ، ومثل هذه المساعدة تكون قوية فيغالب

الاحيان ، لانها نابعة وربما عن قناعة لسبب من الاسباب كانوا يعانـون منه ، أو أنهـم يرومون من وراء ذلك أشياء أخرى قد يحصلون عليها في ظـل حكم بني غانية . هـذا بالاضافة الى وفاة أمير المدينة الموحدي . واذا كان لنا من كلمة نقولها ، فهي أن بنـي غانية أحسنوا التوقيت في هجومهم .

ففي شعبان من سنة ٥٨٠هـ/١١٨٤م هاجم علي بن غانية مدينة بجاية واحتلهـا دون صعوبات تذكر ، وقبض على السيد أبي موسـى بن عبد المؤمن ، وكان قافلا مـن من افريقية يؤم المغرب مع أهله وذويه . وتوجه ابن غانية بعـد ذلك الى محاربة أبـي الربيع حاكم المدينة الجديد الموحدي ، وكان بالقرب منها عند دخول ابن غانية اليها ، فالتقى معه في موقع يقال له (باميلول) ودار قتال أسفر عن هزيمة أبي الربيع بعد أن استشهد معظم رجاله ، ففر الى الجزائر ، فوجدها غير مناسبة لانها كانت غير حصينة، فغادرها الى تلمسان واستقر بها . ولم يقف ابن غانية عند هذا الحد انما توجه الـى الجزائر فاحتلها وولاها لابن أخيه طلحة ، ومن ثم ذهب الى مليانة فاستولى عليها أيضا وولى عليها بدر بن عائشة(١٧) . وبذلك سيطر على افريقية كلها ما عدا تونس والمهدية وقسنطينة . وساعده في ذلك ، أنه استمال الى جانبه قبائل سـليم ورباح وجشـم وغيرها من القبائل التي كانت قد هاجرت من المشرق خـلال النصف الاول من القـرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي . هذا بالاضافة الى أنه عقد حلفا مع الاتراك، الذين أرسلهم صلاح الدين الايوبي الى ليبيا واحتلوا معظمها آنذاك بقيادة (قراقوش). فقد كان صلاح الدين الايوبي يود أن يمد ملكه الى المغرب بأسره ، في الوقت الذي كان العرب يعيشون أسوأ أيامهم من جراء التهديدات الصليبية المستمرة في المشرق والمغرب على حد سواء . وكان صلاح الدين قد جرب الطرق السلمية للالتقاء مع الموحدين ، بأن أرسل اليهم بعض السفارات التي لم تسفر عن نتائج ايجابية . ولكـن الذي يجب أن يشار اليه هنا قبل كل شيء هو أن تحالف قوات صلاح الدين الايوبي مع بني غانيـة ضد الموحدين ، لم يكن القصد منه الحصول في النهاية على مكاسب اقليمية فردية ، بقدر ما كان لأجل اعادة اللحمة بين جناحي العرب والاسلام في الشرق والغرب ، وبالتالي الوقوف بقوة في وجه الهجمة الصليبية . والامر يختلف بالنسـبة لمقاصد بني غانيـة واهدافهم من تمردهم ضد الموحدين والذي كان يهدف الى تحقيق مكاسب شخصية تتمثل في حب السيطرة وشهوة الحكم والظهور . وهكذا فقـد اجتمعت جميع هـذه القوى تحت طاعة المتمرد ابن غانية ولقبوه أمير المسلمين(١٨) .

وهذا الاحتلال السريع من قبل قوات بنـي غانية والقوات المساعدة لها مـن أن أتراك وهلاليين وسليميين ، ان دل على شيء فانما على ضعف شديد في القوى المدافعة عن تلك المدن، وربما لأن الموحدين لم يعتمدوا قوات كبيرة للدفاع عن تلك المناطق. وفوق كل هذا ، اعتمدت القوات المتمردة على عنصر المفاجأة والسرعة وحسن التوقيت ، الامر الذي ساعد على احتلالها خلال وقت قصير جدا ودون صعوبات كبيرة .

وقد وجد ابن غانية ، أن ما فعله هو فوق قدرته وطاقته ، وانــه لا يستطيع أن يحافظ على كل ما احتله من أرض، وأن أخطارا كبيرة ستهدده اذا ما توغل أكثر . لذلك آثر العودة الى مدينة بجاية واخذ البيعة من أهلها ، وبعــد أن نهب جميــع أموالهــا وممتلكاتها ، توجه الى قسنطينة وألقى عليها الحصار (١٩).

ولما سمع الحاكم الموحدي يعقوب المنصور بأفعال ابن غانية هذه ، شرع في تجهيز جيش كبير انتقى له أشجع رجاله ، وترك لهم وقتا كافيا كي يتدربوا على استــعمال الآلات الحربية بشكل جيد ، وزودهم بأموال كثيرة ، واوكل قيادة الجيش لأبي محمد ابن أبي اسحق بن جامع ، فانطلق من مدينة سبتة باتجاه فاس وتوقف فيهــا فتــرة وجيزة تابع بعدها الى تلمسان، وكان واليها في ذلك الوقت السيد أبا الحسن بن السيد أبي حفص الى جانب أبي الربيع ، الذي استقر فيها بعد هزيمته من قبل بني غانية على الصورة التي ذكرت آنفا . ومن تلمسان تابع الجيش ســيره الى الجزائر ، فاحتلهــا اضافة الى مليانة ، وهرب واليها بــدر بن عائشة الذي ولاه علي بن غانيــة ، ومنهــا استمر زحفه الى بجاية ، واستطاع أن يسترجعها بعــد أن فر واليها ولحــق بعلي بن غانية ، الذي كان ما زال على حصار مدينة قسنطينة وكان ذلك في ربيــع عام ٥٨١هـ/ ١١٨٥ م .

وأخيرا اضطر بنو غانيــة للهرب باتجاه الشــرق ، بعــد أن أقلعوا عــن حصار قسنطينة (٢٠)، في هذه الاثناء حدثت تغيرات هامة فيجزر الباليار ، فعندما كانت قوات ابن غانية تتراجع مهزومة أمام الموحدين ،حدثت ثورة من قبل أبي الحسن بن الربرتير، بعد أن تمكن من التخلص من سجنه . وساعده فيالثورة سكان الجزر من المسيحيين(٢١) فأعمل القتل في أهلها بعد نهب ممتلكاتهم ، وعقد صلحا مع أبي عبد الله بن اسحق بــن غانية على الطاعة للموحدين واقامة الخطبة للمنصور الحاكم الموحدي(٢٢).

وفي سنة ٥٨٣هـ/١١٨٧م جهز يعقوب المنصور جيشا كبيرا من الموحدين وقصد مدينة تونس ، وهناك دارت معركة قاسية بين الطرفين ، في موضع يدعــى عمرة (٢٣)، هزم فيها الموحدون وقتــل معظم قادتهم واشياخهم . ولكــن المنصور لم يسكت على الهزيمة ، فسار على رأس الجيش هذه المرة باتجاه القيروان ، ومنها تابع زحفه حتــى وصل على بعد عشرين كيلومترا من بلدة (الحامة) حيث دار قتال بينه وبين قوات بني غانية ، أسفر عن هزيمة هؤلاء (٢٤) . وتمكن المنصور من فتح مدينة قابس ، ثم توجــه الى قفصة ، وكانت قد انتفضت الى جانب بني غانية ، وبرىء أهلها منطاعة الموحدين، وبعد حصار طويل دخلها عنوة ، وأعمل القتل بأهلها وفي ذلك يقول الشاعر الزويلي :

سائل بقفصة هل كان الشقي لهــا ... وكانــت لـــه حمالـــة الحطــب
لما زنت وهــي تحت الامر محصنة ... حصبتموها أتباع الشرع بالحصب(٢٥)

وفي هذه الاثناء وصلت الى المنصور رسالة من قراقوش يعرب فيها عن رغبته في دخول طاعة الموحدين ، ومعه جميع عناصر الغز الذين جاؤوا من مصر كما ذكر(٢٦) .

وقد وجد الخليفة المنصور بعد ذلك ، أن من الضروري جدا اخضاع قبائل العرب الاخرى من هلال وسليم وغيرهما وحرمان ابن غانية من معونتهما ، فطاردهم وصادر أملاكهم ، فجاؤوا اليه طائعين تائبين ، فنقل أهل الخلاف والفتنة منهم الى المغرب الاقصى ليتقي شرهم ، وأنزل قبيلة رباح من بني هلال ببلاد فيما بين قصر كتامة المعروف بالقصر الكبير الى أزغار البسيط الانج،ومنه الى ساحل البحر الاخضر .وأنزل قبائل جشم ببلاد تاسنا ، ما بين سلا ومراكش (٢٧). وبعد أن توطدت الامور في افريقية على هذا الشكل ، عاد يعقوب المنصور الى مراكش ووصلها ٥٨٤هـ/١١٨٨م ، فوجد أن أخاه عمر وخاله سليمان، استغلا فترةغيابه، واخذا يعملان لعزله. لكنه تمكن منهما وقتلهما(٢٨) .

أما علي بن اسحق بن غانية ، فقد مات بعد معركة (الحامة) بوقت قليل ، وكان عند خروجه من جزيرة ميورقة قد اصطحب معه اخوته الاربعة ، عبد الله ، ويحيى وأبو بكر ، وسير ، فاتفقوا فيما بينهم على تقديم يحيي عليهم خلفا لأخيهم علي لما رأوا من شجاعته وشهامته ، وساروا باتجاه الصحراء وأقاموا حتى عاد المنصور الموحدي الى مراكش(٢٩) .

وقد تبين للمنصور الحاكم الموحدي ، بعد وصوله الى مراكش ، أنه ليس أمينا على حكمه اذا ترك مراكش وعاد الى تونس . لذلك فقد كان باستطاعة ابن غانية وأنصاره استئناف نشاطهم الحربي ضد الموحدين ، وبالفعل استمرت ثورتهم بعد وفاة علي بن غانية سنة ٥٨٤هـ/١١٨٨م بقيادة أخيه يحيي(٣٠) . وقد برهنت الاحداث على أن قراقوش ، لم يكن مخلصا في اعلان الولاء والطاعة للموحدين ، فسرعان ما هرب من مدينة تونس ، وعاد الى الاستيلاء على البلاد ، مثل قابس وبلاد الجريد والاستبداد بمصائر أهلها . وهي المرة الاولى التي يقف فيها ضد بني غانية ، لأنه كان يرمي على ما يبدو الاستقلال عنهم وعن الموحدين على حد سواء ، بعد أن ظهر له عدم صعوبة تحقيق الاهداف ، التي دخل من أجلها الى المغرب وتورط في الصراعات على الحكم هناك . لذلك سار يحيي بن غانية لقتال قراقوش واسترداد البلاد منه ، فتحاشى قراقوش لقاءه وهرب الى ناحية طرابلس ، فلحق به ابن غانية وهزمه في موضع بالقرب من طرابلس ، ففر الى ودان جنوبي طرابلس ، وتمكن ابن غانية في النهاية من الاستيلاء على طرابلس ، وعين عليها ابن عمه تاشفين الغاني(٣١) .

وتظهر نتائج حركة بني غانية ومضارها في سنة ٥٩١هـ/١١٩٥م عندما خرج يعقوب المنصور الى قتال الاسبان وحماية البلاد من هجماتهم ، في هذا الوقت بالذات قام بنو غانية وعادوا الى احتلال افريقية مستغلين غياب الجيش الموحدي عن البلاد ،

الامر الذي اجبر المنصور الموحدي على عقد صلح معهم لمدة خمس سنوات ، وعاد الى مراكش سنة ٥٩٣هـ/١١٩٧م (٢٢) .

ولا يستبعد أن يكون السبب ، الذي دفع المنصور الى عقد الصلح مع بني غانية ، انه بحسه الوطني العميق والمسؤول ، وجد من الخير الاستمرار بمقاتلة الاسبان على اعتبارهم كانوا في ذلك الوقت العدو الرئيس ، الذي يهدد وجود العرب المسلمين ومستقبلهم ، وأن قواته كانت منهكة لا تستطيع الانتقال من معركة الى أخرى ، أو ربما حدثت أمور في العاصمة المركزية مراكش ، الى غير ذلك . وبقي هذا الوضع قائما في افريقية ، حتى بعد وفاة المنصور بعدة سنوات .

جاء الى الحكم بعد وفاة يعقوب المنصور ابو يوسف **ابنه محمد الناصر بن المنصور.** وقد ظهر حينذاك أن سيطرة الموحدين على تونس كانت أضعف من أي وقت مضى ، وما لبثت أن تلاشت لفترة قصيرة . ولم يعد ابعاد يحيي بن غانية عن جنوب تونس وطرابلس أمرا سهلا(٢٣) ففي سنة ٥٩٩هـ/١٢٠٣م تحرك عبد الله بن اسحق بن محمد ابن غانية باسطوله الى مدينة يابسة ، لكنه فشل في احتلالها فتوجه الى جزيرة ميورقة وأحكم الحصار عليها حتى ضاقت أحوال أهلها فسلموا اليه الجزيرة فولاها لابن نجاح. ولم يدم ذلك طويلا حيث خرج اليه السيد أبو الحسن العلي في أسطول من مدينة سبتة وتمكن من دخول الجزيرة وبطش بأتباع ابن غانية وقبض على ابن نجاح(٢٤) .

وفي سنة ٦٠١هـ/١٢٠٥م انطلق الناصر الموحدي على رأس جيش عن طريق البر باتجاه تونس ، وفي الوقت نفسه ابحر الاسطول من مدينة سبتة . أما يحيي بن غانية فلم يكن متأكدا من ولاء السكان الذين مالوا الى الموحدين ، يأملون منهم اعادة النظام والاستقرار اللذين فشل في تحقيقهما علي بن غانية . يضاف الى كل ذلك أن يحيي بن غانية لم يكن يملك القوة العسكرية التي تستطيع ايقاف تقدم جيش الموحدين ، كما أنه لا يستطيع البقاء في تونس دون أسطول يحميه من جهة البحر (٢٥) .

وانطلاقا من هذه الاسباب ، التي تبدو مقنعة الى حد كبير ، وجد يحيي بن غانية أن من الافضل اللجوء الى المهدية ، فتوجه اليها وعمل على تحصينها وشحنها بالعدد الحربية ، وترك فيها أشد رجال جيشه واشجعهم على خوض المعارك(٢٦)وتابع بعد ذلك باتجاه منطقة الجريد ، كي ينظم المقاومة القبلية هناك . ولما وصل أسطول الموحدين الى تونس ، استسلمت دون قتال ، وأصبح الناصر قادرا على الاستمرار باتجاه الجنوب في الحال .

في الوقت نفسه كانت طرابلس ، قد أعلنت ثورتها ضد ابن غانية ، فهاجمها ودخلها ونهبها ، وذهب فاختفى في جبل دمر (٢٧) .

وبقي الحاكم الموحدي الناصر يلاحق أخبار ابن غانية طوال ذلك العام . وفي شهر محرم من سنة ٦٠٢هـ/١٢٠٦م نزل الناصر بالقرب من صفاقس ، واستطاع بعد فترة قصيرة أن يطهرها من قوات ابن غانية . وفي هذا الوقت بالذات انقض أنصار ابن غانية الذين كان قد أبقاهم في المهدية على أولئك النازلين بالقرب من المهدية من قوات الموحدين، وتمكنوا من الايقاع بهم فقتلوا الاكثرية الساحقة منهم ولاذ الناجون بالفرار . عند ذلك توجه الناصر الى المهدية ونزلت قواته في ضواحيها وفرض عليها الحصار ، فوجد أنصار ابن غانية من المستحسن الارتحال الى حيث نسائهم ، فتقوى عزائمهم في الدفاع والقتال على غرار الجاهلية ، فارتحلوا الى ضواحي قابس .

وفيما كان الناصر يقوم بتجهيز قوة للاحقتهم وصل اليه الشيخ ابو محمد عبد الواحد بن الشيخ أبي حفص ، وخرج مع الموحدين الى حيث قوات واتباع بني غانية في ظواهر قابس ، حيث دار قتال بين الطرفين أسفر عن هزيمة قوات ابن غانية ، في الوقت الذي بقي حصار المهدية قائما ، حتى أعلن أهلها الرغبة في الدخول في طاعة الموحدين، وبقي الناصر فيها حتى رتب أحوالها ،ثم عاد الى تونس(٣٨) وقبل أن يغادرها في سنة ٦٠٣ هـ / ١٢٠٧ م عين محمد بن أبي حفص حاكما على افريقية ، وهو من أصحاب ابن تومرت مؤسس الدعوة الموحدية .

وكان لهذا التعيين أهميته البالغة بالنسبة لتونس ولحركة بني غانية ، لأن تونس كانت الخطوة الاولى في وجود أسرة الحفصيين التي حكمت المنطقة حتى الفتح العثماني في القرن السادس عشر . أما بالنسبة لابن غانية ، فلم تعد تونس سهلة المنال عليه .

وكان تعيين محمد بن أبي حفص هذا بناء على الحاجة وعلى قواعد مؤقتة . ولكي يستميله الناصر لقبول هذا التعيين أعطاه صلاحيات كاملة في اختيار مساعديه وتنظيم جيشه . ثم أصبح هذا التعيين دائما ، لأن الناصر وجد عذرا مناسبا لتأجيل ارسال بديل عنه (٣٩) .

وفي سنة ٦٠٥ هـ / ١٢٠٩م أعفي السيد أبو الحسن الموحدي من ولاية تلمسان لمرض أصابه وعين بدلا عنه السيد أبو عمران موسى بن يوسف بن عبد المؤمن،وانسحب في عسكره عن المدينة ، فتسلل الزناتيون الى ابن غانية ، وأعلموه خبر انسحاب الجيش من تلمسان . ومن جهة ثانية ذهبوا الى السيد أبي عمران وهونوا عليه الامر تارة وحرضوه على لقاء ابن غانية تارة أخرى . وكانت قواته ضعيفة وغير مستعدة بصورة جيدة ، ففوجىء أبو عمران بهجوم أتباع ابن غانية ولم يتمكن من الصمود ، فقتل وفر من تبقى من جيشه . وعندما وصل الخبر الى الناصر جهز جيشا كبيرا واقر عليه الوزير أبازيد بن يوجان . وسمع بنو غانية بقوة هذا الجيش وتجهيزه فانسحبوا من تلمسان باتجاه طرابلس .

وفي سنة ٦٠٦ هـ/١٢١٠م استطاع الشيخ محمد بن ابي حفص والي افريقية ان يطهرها من الميارقة وأتباعهم ، واستولى على جميع ممتلكاتهم، وفي السنة التالية وصل ابن اسحق بن غانية الى مراكش واعلن تخليه عن بقية اخوته واتباعه ، فأكرمه الناصر.

وكان الناصر قد ولى جزيرة ميورقة لأبي يحيي بن ابي الحسن بن أبي عمران بدلا من أبي عبد الله بن ابى حفص وأرسله واليا على بلنسية(٤٠) بعد وفاة محمد بن أبـي حفص في شباط من سنة ٦١٧ هـ / ١٢٢١م انتقل يحيي بن غانية الـى جنوب تونس وبقي هناك حتى وصل الحفصي الثاني أبو محمد عبد الله فيتشرين الثاني سنة ٦٢١هـ/ ١٢٢٦م وتولى الحكم في تونس ، فانتقل يحيي بن غانية الى الشمال الغربي . وفي سنة ٦٢٧هـ / ١٢٢٧م فتح الجزائر لكنه لم يتمكن من البقاء فيها .ويمكن اعتبار ذلك اشارة البدء في انهياره ونهايته كثائر سياسي .

وخلال السنوات العشر التالية ، عاش يحيي بن غانية قاطع طريق ، حتى وافته المنية سنة ٦٣٣ هـ / ١٢٣٧م (٤١).

ويعد تعيين الناصر لمحمد بن أبي حفص على ولايــة افريقية (٦٠٣هـ/١٢٠٧) بداية النهاية لحركة بني غانية .

الحواشـــي

(١) المراكشي (عبد الواحد) المعجب في تلخيص أخبار المغرب القاهرة ١٩٦٣ ص ٢٦٧ .
(٢) ابن القطان ، نظم الجمان من أخبار الزمان نشر محمود علي مكي،تطوان ١٩٦٤ص.٢٢ وما بعدها.
(٣) المقصود بدعوة المصامدة (دعوة الموحدين).
(٤) المعجب في تلخيص أخبار المغرب ص ٣٤٣ ومابعدها . ابن خلدون (ولي الدين عبد الرحمن) العبر والمبتدأ والخبر ، ج٦ ص ٢٤٢ طبعة بولاق .
(٥) المعجب في تلخيص أخبار المغرب ص ٣٤٤ .
(٦) صفة جزيرة الاندلس منتخبة من كتاب الروض المعطار ، القاهرة ١٩٣٧ ص ١٨٨ .
(٧) صفة جزيرة الاندلس من كتاب الروض المعطار ص ١٩٨ .
(٨) المعجب في تلخيص أخبار المغـرب ص.٢٧ وما بعدها .
(٩) تولى اسحق بن محمد بن غانية الحكم بعد وفاة أبيه محمد بن علي . وكان هذا قد عهد بالحكم مـن بعده لابنه الاكبر عبد الله ، ولكن اسحق ذهب الى أخيه مع مجموعة من الجند فقتلوه . وفي رواية أن ذلك حدث قبل وفاة ابيه ،وفي رواية أخرى بعد وفاته . انظر : المعجب ، ص ٣٤٩ .
(١٠) Jamil, M. Abu a - nasr, History of theMaghrib, Cambridge, the University Press, 1971 , p. 115 .
عنان (محمد عبد الله) دولة الاسلام في الاندلس، القسم الثاني ، الطبعة الاولى ، القاهرة ١٩٦٤ ص ١٤٧ .

(١١) بدر (أحمد) مقرر المغرب والاندلس ، طبعةالامالي الجامعية ، دمشق ١٩٧٤ ـ ١٩٧٥ ص ١٨٥ .
(١٢) ابن عذاري المراكشي ، البيان المغرب في أخبار ملوك الاندلس والمغرب ج٣ ،تطوان ١٩٦٠. ص١٣٩ .
(١٣) المعجب في تلخيص أخبار المغرب ، ص٣٤٥ ،كتاب العبر والمبتدأ والخبر ، ج٦ ص ٢٩١ ـ ٥٠٧ .
(١٤) البيان المغرب ج٣ ص ١٤٦ .
(١٥) History of the Maghrib , p. 115
(١٦) المعجب في تلخيص أخبار المغرب ص ٣٤٥ ، البنداري (الفتح بن علي) سنا البـرق الشامي ، تحقيق رمضان ششن ، القسم الاول ، دارالكتاب الجديد ،الطبعة الاولى ،بيروت ١٩٧١ ص١٢٧
(١٧) البيان المغرب ج٣ ص ١٤٧ ـ ١٤٨ ، الكامل في التاريخ ج١١ ص٢٠٦ ، كتاب العبر والمبتدأ والخبر ج٦ ص ٣٩٢ .
(١٨) الكامل في التاريخ ج٩ طبعة مصر بدون تاريخص ١٧١ كتاب العبر ج٦ ص ٣٩٦ .
(١٩) البيان المغرب ج٣ ص ١٤٨ History of the Maghrib , p. 115
(٢٠) البيان المغرب ج٣ ص ١٤٩ وما بعدها .
(٢١) History of the maghsib p. 115 كتاب العبر والمبتدأ والخبر ج٦ ص ٥٠٩ .
(٢٢) البيان المغرب ج٣ ص ١٥٥ ـ ١٥٦ ، أماري (ميخائيل) الكتبة الصقلية طبعة بالاوفست عن طبعة لايتبزغ ١٨٥٧ م ص ٧ ـ ٨ .
(٢٣) البيان المغرب ج٣ ص١٦٢ ، المعجب في تلخيص أخبار المغرب ص ٢٧٢ ـ ٢٧٣ .
(٢٤) الزركشي (محمد بن ابراهيم) تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية ، تحقيق محمد ماضور ، المكتبة العتيقة ، تونس ١٩٦٦ ص ١٦ ، المعجب في تلخيص أخبار المغرب ص ٣٤٩ .
(٢٥) المعجب في تلخيص أخبـار المغرب ص ٣٤٩ ـ ٣٥٠ ، كتاب العبر والمبتدأ والخبر ج٦ ص ٢٩٧ـ٢٩٨
(٢٦) دولة الاسلام في الاندلس ، القسم الثاني ص ١٦٥ .
(٢٧) أبو رميلة (هشام) علاقات الموحدين بالممالك النصرانية والدول الاسلامية في الاندلس ، الطبعـة الاولى ، دار الفرقان ، عمان ١٩٨٤ ص ١٦٧ ـ ١٦٨ .
(٢٨) الكامل في التاريخ ج٩ ص ١٧٢ .
(٢٩) المعجب ص ٣٤٩ .
(٣٠) History of the Maghrib , p. 116
(٣١) العبر والمبتدأ والخبر ج٦ ص ١٩٣ وما بعدها ، دولة الاسلام في الاندلس ، القسم الثاني ص١٩٥.
(٣٢) الكامل في التاريخ ج٩ ص ٢٣٣ ، كتاب العبر والمبتدأ والخبر ج٦ ص ٥١١ ـ ٥١٢ .
(٣٣) البيان المغرب ج٣ ص ٢١١ . History of the Maghrib , p. 116
(٣٤) البيان المغرب ج٣ ص ٢١٦ .
(٣٥) History of the Maghrib , p. 117
(٣٦) البيان المغرب ج٣ ص ٣١٩ ، الحميري (محمدبن عبد المنعم) الروض المعطار في خبر الاقطار ،تحقيق احسان عباس ، دار العلم للطباعة ، بيروت ١٩٧٥ ص ٥٦٧ .
(٣٧) History of the Maghrib , p. 117
(٣٨) البيان المغرب ج٣ ص ٢٢٠ وما بعدها .
(٣٩) History of the maghrib P. 117 تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية ص ١٢ـ١٣ .
(٤٠) البيان المغرب ج٣ ص ٢٢٨ وما بعدها .
(٤١) كتاب العبر والمبتدأ والخبر ، ج٦ ص ١٩٧ History of the Maghrib , p. 117

الجَيْشُ عِنـدَ المُوَحِّـدِين

فـايزة كلاس
مرشحة للماجستير

كان التنظيم العسكري ميزة أساسية للموحدين ، مما يسر لهم الانتصارات وحفظ الدولة الى أمد غير يسير(١) ، واذا كانت دولة المرابطين قد مدت حدود المغرب الأقصى شرقا الى أكثر ما يعرف الآن بالجمهورية الجزائرية فان قوات الجيش الموحدي استطاعت مد هذه الحدود حتى جعلتها تشمل الجزائر وتونس ، الى ما يعرف اليوم باسم ليبية ، كما استطاعت أن تضم اليها الاندلس الاسلامي بكامله بما في ذلك جزر الباليار (٢) الشرقية(٣) .

ومنذ البداية اتسم الجيش الموحدي بأنه جيش عقائدي هدفه القتال في سبيل مبدأ والموت في سبيله والاستشهاد من أجله . وفي هذا السبيل أطلق ابن تومرت على أتباعه اسم الموحدين ، تعريضا بالمرابطين وفقهائهم لعدولهم عن التأويل واقرارهم المتشابهات والايمان بها فيضيفون بذلك حسب قوله صفات بشرية ومادية على ذات اللـه . لذلك اعتقد الموحدون أنهم المؤمنون حقا دون غيرهم فكفروا جميع الخصوم الى أن يخضعوا لهم ويعتنقوا مذهب التوحيد(٤) .

اضافة لذلك كان الجيش الموحدي ممتازا في الضبط والربط كاملا في الاستعداد والتعبئة ، رائعا في الترتيب سواء في مسيره أو في قتاله ،بارعا في الخطط الحربية وضعا وتنفيذا . فقبل توجه الجيوش الموحدية الى المعارك تحشد القوات من كافة الولايات والاطراف حيث ينشر خبر التعبئة والدعوة للجهاد من أجل ترادف العناصر من جميع المناطق الى المركز حتى يستكمل الجيش أهبته لتهيئته وتجهيزه بالاسلحة والآلات استعدادا للحرب ، ومن ذلك ما فعله الخليفة عبد المؤمن بن علي عام ٥٥١ هـ حيث أخرج أمره الى الناس كافة بالغزو الى بلاد الروم من جزيرة الاندلس ، وأرسل الكتب الى سائل الجهات يستنفر الناس ويحضهم على الجهاد ويرغبهم فيه فاجتمعت له جموع عظيمة وخرج يقصد جزيرة الاندلس للغزو(٥) .

بعد الحشد تأتي عملية استعراض الجيوش (تمييز الجيوش) قبل الخروج الى

المعارك على مرأى من الناس . والهدف الرئيسي من الاستعراض هو ابراز مدى قـوة الجيش من خلال ألعاب الفروسية . ويعرف ابن صاحب الصلاة عملية التمييز بقوله: « ومن عادة الموحدين دائما في حركاتهم أن يخصص الخليفة يومـا أو أياما يقوم فيهـا باستعراض سائر القبائل المتقدمة للغزو سواء من العرب أو الموحدين ويخصون هـذه العملية باسم عملية التمييز »(٦) ويتبع ذلك سير الجيوش وتوجهها للمعارك وكان هنالك نظام خاص لسير القوات الموحدية . ويقول ابن صاحب الصلاة في وصف موكب الجيش خلال مسيره للغزو من مراكش الى الاندلس في سنة ٥٦٦ هـ/١١٧١م : «وكانت الحركة السعيدة من الحضرة مراكش(٧) سنة ست وستين وخمسمائة (٥٦٦ هـ) حيث اجتمع الناس لرؤية الخليفة فكان في أحسن تعبئة ، قد ملأت العساكر الارض كثرة ، فسـار أمامهم والعلام الابيض قدامه مع الرحالة على عادة الامر العزيز من الترتيب في المشـي والعلامات والساقات والطبول وراءه . وقد قدم أمامه مصحف صاحب رسول اللـه (ص) عثمان بن عفان رضي الله عنه على جمل مرتفع وقدام هذا المصحف مصحف الامام المهدي رضي الله عنه »(٨) .

وتوزع الخيل والاسلحة على المقاتلة قبل توجهها للمعارك ففي عام ٥٦٦ هـ وقبل توجه الخليفة بجيوشه للغزو قسم الخيل على الموحدين والعرب ،وأعطى للجميع الرماح والدروع والسيوف(٩) . كما توزع الامتعة على المقاتلة لكـي توفر لهم الراحة أثنـاء تنقلاتهم العسكرية . فعندما عزم الخليفة ابو يعقوب على الجهاد في الاندلس عام ٥٧٩هـ أعطى كل عشرة فرسان خباء(١٠) ويمنح الجند الرواتب مقابل خدمتهـم في الجيش . ويطلق على هذه الرواتب اسم البركة(١١) وتوزع في رأس كل شهر وعند كل مناسبة . وكانت هذه البركة كريمة في كثير من الاحيان فلقد بلغ عطاء الخليفة ذات مرة لجنـده زهاء نصف المليون من الدنانير(١٢) الموحدية(١٣) .

وأنشأ الخلفاء ديوانا للعسكرية للاهتمام بشؤون المقاتلـة على اختلاف انواعهـم سواء أكانوا جندا نظاميين أم حرسا وعبيدا ،وهذا الديوان في منتهى النظام والانضباط يسهر على احصاء الجند ومعرفة حاجاتهم المتجددة(١٤) .

نواة الجيش الموحدي :

انتدبت الجنود من بين القبائل البربرية في أول الامـر ، وكانت في البداية كلهـا مصمودية (١٥) . فقد استطاع المهدي بن تومرت(١٦) أن يكسـب قبائل المصامدة الـى جانبه لاستغلاله عداوة كامنة في نفوس هؤلاء من نواح شـتى ، قبليا كمصامدة ضـد صهناجيين ، ونمط حياة كجبليين يكنون ازدراء لأهل السهول ، وكمستقرين يشعرون تجاه البدو بالاحتقار ، خاصة وان هؤلاء المرابطين اصبحوا غارقين في الترف ولديهـم أموال ضخمة تجعلهم موضع طمع هؤلاء الجبليين الفقـراء (١٧) وكان انضـواء قبائل

المصامدة في طاعة المهدي بشكل تدريجي . فهنالك القبائل التي بادرت للانضواء تحت لوائه وقدمت له النصرة والتأييد فكان من الطبيعي ان يكون لها منزلة سامية لدى الموحدين الذين سموها السابقة . وقد ذكر ابن خلدون أن أهل السابقة من القبائل كانوا ثمانية : سبعة من المصاميد هم : هرغة(١٨) وهم قبيلة الامام المهدي ، وهنتاتة(١٩)، وتينملل (٢٠) وهم الذين بايعوه مع هرغة على الاجازة والحماية ، وكنفيسة(٢١) وهزرجة وكدميوة (٢٢) ووريكة (٢٣) وثامنة قبائل الموحدين كومية (٢٤) قبيلة عبد المؤمن بن علي كبير صحابته(٢٥) . ولا يذكر لنا المراكشي كل من هزرجة ووريكة ضمن أهل السابقة بل أضاف اليهم بعض قبائل صنهاجة وهسكورة (٢٦) . أما بالنسبة للقبائل المصمودية الاخرى والتي لم تبايعه ، فقد قام(٢٧) المهدي بعد استقراره بتينملل(٢٨) بقتال كل من تخلف عن بيعته من المصامدة حتى استقاموا فقاتل أولا هزرجة وواقعهم مرارا حتى دانوا له بالطاعة ثم قاتل هكسورة فدخلت في طاعته(٢٩) .

بعد ذلك قام المهدي بترتيب القبائل المصمودية وتنظيمها ، ومن هذا التنظيم نبعت النواة الاولى والتأسيسية للجيش الموحدي . فبعد أن بايعه أهل هرغة وتينملل وهنتاتة وكدميوه وهسكورة وصنهاجة على ما امرهم به ، أعلن لهم بحرب لمتونة(٣٠) . وأخذ أشياعه يتأهبون للحرب وجعل على كل عشرة منهم نقيبا فالصنف الاول أصحاب العشرة والصنف الثاني أهل الخمسين والصنف الثالث أهل السبعين والصنف الرابع الطلبة والصنف الخامس الحفاظ وهم صغار الطلبة والصنف السادس أهل الدار والصنف السابع أهل هرغة والصنف الثامن أهل تينملل والصنف التاسع كدميوة والصنف العاشر أهل كنفيسة والصنف الحادي عشر أهل هنتاتة والصنف الثاني عشر الجند والصنف الثالث عشر الغزاة والرماة . ولكل صنف من هذه الاصناف رتبة لا يتعداها غيرهم لا في سفر ولا في حضر لا ينزل كل صنف الا في موضعه لا يتعداه وأقاموا على ذلك مدة حياته(٣١) .

ويشارك ابن الخطيب بالشرح عن تقسم المهدي لطبقات الموحدين فيقول : «ورتب المهدي قومه ترتيبا غريبا فمنهم أهل الدار وأهل الجماعة وأهل الساقة وأهل خمسين وأهل سبعين والطلبة والحفاظ وأهل القبائل . فأهل الدار للامتهان والخدمة . وأهل الجماعة للتفاوض والمشورة وأهل الساقة للمباهاة . وأهل خمسين وسبعين والحفاظ والطلبة لحمل العلم والتلقي وسائر القبائل لمدافعة العدو (٣٢) .

استمر انضمام المصامدة الى صفوف الدعوة الموحدية أيضا في عهد الخليفة عبد المؤمن ففي عام ٥٤١ هـ وبعد فتحه لمدينة مراكش وفدت عليه قبائل المصامدة بأسرها (٣٣) وظل عنصر المصامدة من العناصر الفعالة في الجيش ففي عام ٦٤٥ هـ نظر الخليفة السعيد بتثقيف اطراف دولته وتقويم مائلها . فجهز العساكر واستنفر عرب المغرب

وقبائله واحتشد كافة المصامدة ونهض من مراكش آخر سنة خمس وأربعين يشرد بني مرين عن الامصار(٢٤) وفي قام ٦٦٨ هـ خرج عدد كبير من قبائل المصامدة الى جانب غيرهم من عناصر الجيش لمجابهة بني مرين بقيادة الخليفة ابي دبوس (٢٥) .

وكما كان المصامدة أول من انضم الى الدعوة الموحدية ونواة جيشها ، ظلوا العدد الاكبر فيه المسيطر عليه حتى سقوط الدولة .

الزناتيون والصنهاجيون :

ورفدت قبائل زناتة (٢٦) الجيش الموحدي بعناصر كثيرة ومتعددة ، ويشرح لنا ابن عذاري انضمام الزناتيين المبكر للقوات الموحدية منذ حروب عبد المؤمن الاولى ضد المرابطين فيقول : « بعد استيلاء الموحدين على مدينة وهران(٢٧) اثر مقتل تاشفين خرجت جماعة من أهل تلمسان(٢٨) لمحاربة عبد المؤمن وكانوا نحو ستين رجلا من أعيانهم فلقيهم يصلاتن الزناتي بجمع عند وادي تافنا فأفناهم فيه وقتلهم عن آخرهم ووصل الى تلمسان خبر ما كان من قتلهم فزاد خوف أهل تلمسان من عبد المؤمن لان يصلاتن كان تحت طاعته بجملته وجماعته »(٢٩) .

وبعد انتصار الخليفة عبد المؤمن وقيام الدولة واستقرارها شارك الزناتيون بالفتوحات والحروب . ففي سنة (٥٥٨ هـ) خرج الخليفة عبد المؤمن قاصدا الاندلس برسم الجهاد فكتب الى بلاد المغرب وافريقية داعيا الى الجهاد فأجابه خلق كثير واجتمع له من عساكر الموحدين ومن قبائل العرب والبربر وزناتة أزيد من ثلاثمائة ألف فارس »(٤٠) وكانت أهم القبائل الزناتية التي لعبت دورها في الجيش والدولة . قبيلة كومية التي ينتسب اليها الخليفة عبد المؤمن . من ذلك ما يذكره الفاسي من قدوم قبيلة كومية في جيش عظيم مؤلف من أربعين الف فارس على أمير المؤمنين . وذلك انه لما همت طائفة من الموحدين بقتل الخليفة عبد المؤمن وقتلوا الشيخ الذي بات بمكانه ، وتحقق ذلك منهم ، جاء بكومية ليأخذ تأره منهم بحيلة ، لكونه غريبا بين قبائلهم ليس له عشيرة يستند اليها ولا قبيلة . وأمرهم بالقدوم عليه وأن يركب كل من بلغ الحلم ويأتونه في أحسن زي وأكمل عدة وهيأة . وبعث اليهم بالاموال والكساء فاجتمع منهم أربعون الفا . فأقبلوا الى أمير المؤمنين برسم الخدمة بين يديه وشد ظهره وكان يوم دخولهم الى مراكش عيد من الاعياد . حيث رتبهم عبد المؤمن في الطبقة الثانية وجعلهم من قبيلة تينملل في ثاني درجة ، وقربهم من نفسه وجعلهم بطانته ، يركبون في ظهره ويقفون على رأسه ويمشون بين يديه اذا خرج(٤١) . ويمكن القول ان عبد المؤمن اتخذ من قبيلة كومية الدرع الواقي والقوي ، لتحميه ويواجه به الصعوبات فيما بعد .

هذا ولا بد لنا من التطرق الى باقي بطون زناتة التي ساهمت بالانضمام للجيش

الموحدي ، والدور الذي لعبته في السياسة العامة للدولة . فعندما ظهر امر الموحدين، كان لعبد الواد وتوجين ومغراوة من المظاهرة لبني يلومي على الموحدين ما هو مذكور في أخبارهم . ثم غلب الموحدون على المغرب الاوسط ، وقبائله من زناتة ، فأطاعوا وانقادوا ، وانحاز بنو عبد الواد وبنو توجين الى الموحدين ، وازدلفوا اليهم ، وكان التقدم لبني عبد الواد دون الشعوب الاخرى ، وأمحضوا النصيحة للموحدين فاصطنعوهم دون بني مرين وأقطعهم الموحدون ضواحي المغرب الاوسط (٤٢) ومثلما استعان الموحدون بقوة بني عبد الواد الى جانبهم ضد أعدائهم . استعانوا بقوة بني مرين ضدهم وذلك عندما رأوا عين الغدر والتوسع من قبلهم في تلمسان وذلك في أواخر دولتهم . ففي سنة ٦٤٥هـ ارتحل الخليفة السعيد الموحدي في اتباع بني مرين وفي هذه السنة راجع عبد الحق المريني نظره في مسالمة الموحدين والرجوع الى أمرهم ومظاهرتهم على عدوهم يغمراسن (٤٣) وقومه من بني عبد الواد ، فأوفد مشيخة قومه على السعيد في تازا (٤٤) حيث قدموا الطاعة له فتقبلها وصفح عنهم وسألوه أن يستكفي الامير أبي يحيى المريني في مر تلمسان ويغمراسن على أن يمده بالعساكر رامحة وناشبة . فأمرهم السعيد بالعسكرة معه وأمده أبو يحيى بخمسمائة من قبائل بني مرين خرجوا تحت راياته (٤٥)

وعندما لاحظ الموحدون ازدياد قوة بني مرين وتوسعاتهم في أراضي دولتهم رأوا من الافضل اعادة علاقتهم مع بني عبد الواد ضد بني مرين لايقاف توسعهم وضرب قوتهم من أجل الحفاظ على سلامة ممتلكاتهم . واستغل بنو عبد الواد الفرصة ووضعوا امكانياتهم العسكرية تحت تصرف القوات الموحدية (٤٦) .

هذا وبعد مقتل الخليفة السعيد الموحدي سيطر المرينيون على فاس ولكن سكان المدينة استطاعوا طردهم عنها . فأسرع أبو يحيى المريني بقواته وحاصر فاس مجددا فأرسل الخليفة المرتضى الى يغمراسن طالبا مساعدته ضد أبي يحيى فجهز كتائبه ونهض الى ذلك واستنفر اخوانه من زناتة . وبلغ خبرهم الى أبي يحيى فجهز كتائبه ونهض للقائهم والتقى الجمعان بايسلي (٤٧) من ناحية وجدة (٤٨) وكانت هنالك الواقعة المشهورة بذلك المكان انكشفت فيها جموع يغمراسن وهلك مع العديد من أصحابه . واتصلت بعد ذلك بينهم الحروب وربما تخللتها المهادنات قليلا (٤٩) .

وهكذا نرى بأن الزناتيين من بني عبد الواد ومرين ساعدوا بالانضمام لدولة الموحدين لفترة من الزمن . ولكن شيئا فشيئا مهدوا لأنفسهم لكي يكون لهم كيانهم الخاص بهم والمستقل عن دولة الموحدين ، حتى قامت لهم على انقاض هذه الدولة دولتان هما دولة بني عبد الواد بتلمسان . ودولة بني مرين بفاس .

الصهناجيون :

انضم الصهناجيون للجيش الموحدي في عهد الخليفة عبد المؤمن بن علي ويحدثنا

البيذق عن ذلك : ميز امير المؤمنين (عبد المؤمن) الموحدين وخرج من مكناسة(٥٠) واخذ على طريق تادلة(٥١) فميز فيها وجاءت هسكورة وصهناجة بعسكرهم وهبط بهم الخليفة على وادي ام ربيع(٥٢) حتى استوى في صهناجة آزمور ونزل فيه بعسكره وساقوا له المروة ثم أقلع الى اجليز(٥٣) وضرب عندها القبة الحمراء عام واحد وأربعين وخمسمائة (٥٤١ هـ)(٥٤) .

ويرد أحيانا ذكر كل من قبائل مسوفة ولمتونة الصهناجية باشتراكهما في الحروب والوفود الى جانب الموحدين ففي سنة ٥٦٠ هـ (١١٦٥ م) تحرك السيد الاعلى ابو حفص بن الخليفة عبد المؤمن من مراكش الى جبل الفتح (جبل طارق) للاجتماع بأخيه السيد أبي سعيد في جملة من أعيان الموحدين وأبناء الجماعة واشياخ ثوار الاندلس المختصين به ومن أشياخ مسوفة ولمتونة رجال اجتمع فيهم نخبة من الناس كبيرة القدر متوسطة العدد والذكر عددهم نحو الاربعمائة فارس(٥٥) .

العرب :

اتسم الجيش الموحدي بالسمة العقائدية . الا ان هذه السمة لم تدم طويلا لان خلفاء الموحدين استعانوا بقوى رديفة اخرى لا تتصف بهذه الصفة ، ومنها العرب .

كان انخراط القبائل العربية في الجيش الموحدي في عهد الخليفة عبد المؤمن . اذ انه بعد قضائه على دولة المرابطين واستغاثة الاندلس به ضد هجمات الفرنجة،رأى بأن عدد الجيش الحالي لا يكفي لحماية دولته ولكنه أدبهم قبل الحاقهم بالجيش بشكل رسمي ، نتيجة لاعمال الشغب التي قاموا بها وانتصر عليهم في موقعة سطيف(٥٦) عام ٥٤٧ هـ/١١٥٢م (٥٧) . وفي عام ٥٥٤ هـ اعتدى عرب بني سليم(٥٨) على مدينة قابس(٥٩) فجرد اليهم عبد المؤمن جيوشه وهزمهم(٦٠) ولما تم له اخضاع افريقية جمع أمراء العرب من بني رياح الذين كانوا بافريقية وطالبهم بنصرة الاسلام في الاندلس . والقى فيهم خطبة :

« واجبنا هو نصرة الاسلام . فقوة المشركين كبيرة وهم زعماء العديد من الاقاليم التي سيطر المسلمون عليها في الماضي ولا احد سواكم يستطيع أن يحاربهم ، انتم الذين تفتخرون بفتوحات اجدادكم لهذه البلاد في العصور الاولى للاسلام . ولا احد غيركم يستطيع أن يطرد هؤلاء الغزاة . نطلب منكم اذن عشرة آلاف من الفرسان البواسل للجهاد في سبيل الله »(٦١) فأجابوا بالسمع والطاعة لفترة ، ثم عادوا للشغب ، فأرسل اليهم قوات هاجمتهم بغتة وأوقعت بهم شر هزيمة(٦٢)وكان بدء انضمام العرب لجيوش عبد المؤمن ومسيرهم معه الى الاندلس عندما استغاث به ابنه أبو يعقوب حين كان واليا

على اشبيلية(٦٣) ضد هجمات ابن مردنيش(٦٤) وردا على ذلك استاق عبد المؤمن في اتباعه العرب من بني رياح وبني جشم(٦٥) وبني عدي وقبائلهم ما يضيق بهم الفضا . وعزم على السفر بهم الى الاندلس لنجدة ابنه ، نحو ٥٥٥ هـ (٦٦) ولم ينس عبد المؤمن أن يوصي بنيه وولي عهده في أواخر أيامه بأن يعملوا على نقل عرب افريقية الى المغرب للاستفادة منهم في حروب الاندلس . وبعد وفاة عبد المؤمن حرص الخليفة ابو يعقوب على سياسة والده التي ترمي الى اصطناع العرب والاستعانة بهم في حروب الاندلس(٦٧)

ففي عام ٥٦٦هـ استدعى أبو يعقوب العرب من افريقية لغزو الاندلس .وخاطبهم بقصيدة من قول ابن طفيل(٦٨) وهي :

اقيموا صدور الخيل نحو المغارب لغزو الاعادي واقتناء الرغائب
فلا تقتني الآمال الا من القنى ولا تكتسب العليا بغير الكتائب
ألا فابعثوها همة عربية تخف بأطراف القنى والقواضب
أفرسان قيس من هلال بن عامر وما جمعت من طاعن ومضارب
بكم نصرة الاسلام بدءا فنصره عليكم وهذا عوده جد واجب
فقوموا بما قامت أوائلكم به ولا تغفلوا احياء تلك المناقب (٦٩)

ثم تقاطرت عليه وفود وجموع العرب من افريقية وكان يوم قدومهم عليه يوما مشهودا فاعترضهم وسائر عساكره ونهض بهم الى الاندلس عام (٥٦٧هـ)(٧٠) وفي عام (٥٧٧هـ) وفد على الخليفة أبو يعقوب بمراكش أبو سرحان مسعود بن سلطان الرياحي في جيش عظيم من وجوه رياح برسم الخدمة(٧١) .

وبالرغم من مسارعة العرب بالانضمام لجيوش الموحدين وتقديمهم الطاعة والولاء للخلفاء الا ان طاعتهم لم تكن دائمة ، فسرعان ما يقومون بالشغب او يسارعون الى الى الانضمام لأية حركة معادية ضد الدولة . وهذا ما حدث عام ٥٨٢ هـ ، حين سارع كل من بني هلال وسليم بالانضمام لحركة اسحق بن غانية(٧٢) وخلعوا طاعة الخليفة المنصور الموحدي . ولكن الخليفة استطاع التغلب عليهم بقفصة عام ٥٨٣هـ(٧٣) ، فأتوه طائعين فنقلهم الى المغرب(٧٤) .

ويعلل عبد الهادي التازي تصرف الخليفة المنصور والفرق بينه وبين كل من عبد المؤمن وابو يعقوب في جلبهما للعرب فيقول :

كان عبد المؤمن أول من عمل على جلب العرب من افريقية وقد اقتفى أثره ولده ابو يعقوب يوسف . هذا وقد أثر عن يعقوب المنصور ولد يوسف وحفيد عبد المؤمن انه ادخل العرب للمغرب وانه ندم على ذلك ، ومن المهم ان نعرف أن هناك فرقا بين

تصرف عبد المؤمن وولده من جهة ، وتصرف الحفيد يعقوب المنصور من جهة أخرى ، فالأولان كان جلبهما للعرب تقربا وتآلفا بينما كان عمل الثالث سنة ٥٨٤ هـ بدافع ارادة تغريبهم وعقابهم وذلك لما ضربوه من الحلف وناصروا علياً بن غانية عميل قراقوش مولى تقي الدين عمر ابن أخ صلاح الدين الايوبي(٧٥) ويؤيد هذا الاستنتاج عدم اصطحاب المنصور للعرب معه الى الاندلس الا بعضا من أشياخ رياح كبني زيان رعيا لقدم هجرتهم وتيقنا بنصيحتهم (٧٦) .

وبسبب أعمال الشغب التي اقترفها العرب قال الخليفة المنصور : وهؤلاء العرب تدارونهم وتلاطفونهم وتحسنوا اليهم ومن وفد عليكم منهم تعطوه وتحسنوا اليه غاية الاحسان وتشغلونهم بالحركات ولا تتركونهم للعطلة والراحة (٧٧) . وهذا سبب معقول لتصرف المنصور بنقل العرب هؤلاء من افريقية الى المغرب ليكونوا تحت اشرافه وتصرفه الا انه ندم على ذلك فيما بعد فقال : ما ندمت على شيء فعلته في خلافتي وددت أني لم أفعله هو ادخال العرب من افريقية الى المغرب لاني أعلم انهم أصل فساده (٧٨) . وعندما تسلم الناصر مقاليد الخلافة والحكم بعد موت أبيه المنصور كان أول عمل قام به هو سطوته بعرب المغرب عام ٦٠٠هـ فاستأصلهم وقتلهم وغرب بعض اشياخهم الى الاندلس (٧٩) .

ولعب العرب دورا كبيرا في الصراع من أجل منصب الخلافة والسلطة فقاموا بخلع خليفة وتعيين آخر . وحاول كل طرف جذبهم الى جانبه فكانوا يقفون دائما الى جانب من يرون بأنه الاقوى من أجل ضمان مصالحهم وتنفيذ مآربهم وكان الدور الاكبر لبث الفوضى في هذه الفترة لعرب الخلط (٨٠) ابتداءا من عهد الخليفة العادل الموحدي وحتى سقوط دولة الموحدين . من ذلك تدخلهم في النزاع الذي حدث على السلطة بين كل من يحيى بن الناصر والخليفة المأمون ومن بعده الخليفة الرشيد(٨١) . وانشطر العرب في أواخر الحكم الموحدي الى قسمين قسم مؤيد للدولة والآخر ضدها ، وفي هذه الفترة لاحت بوادر بني مرين وبدأت قوتهم تظهر بالتدريج فسارع القسم الاكبر من العرب للوقوف الى جانبهم وجانب بني عبد الواد (٨٢).

وهكذا نرى بأن المتهافتين على السلطان كانوا يكسبون ود القبائل العربية المستقرة بالمغرب الاقصى مما جعلها بالرغم عنها تقوم بدور متزايد الاهمية في الحياة السياسية التي كان يكتنفها الغموض حينذاك . وهكذا أصبحوا شيئا فشيئا قوة سياسية لها تأثير حاسم أحيانا على الاحداث .

الغـز :

كان أول عمل قام به الغز (٨٣) عند دخولهم افريقية تحالفهم مع بني هلال وابن غانية ضد الموحدين . ففي سنة ٥٨٠هـ ملك علي بن اسحق بن غانية مدينة بجاية(٨٤)

ثم سار الى افريقية فلما وصل اليها اجتمع عليه سليم ورياح ومَن هنالك من العرب، وانضاف اليهم (الترك) الغز الذين كانوا قد دخلوا من مصر مع قراقوش ، ودخل أيضا من أتراك مصر مملوك لتقي الدين ابن أخي صلاح الدين اسمه بوزابة ، فكثر جمعهم وقويت شوكتهم فلما بلغت عدتهم مبلغا كثيرا وكلهم كاره لدولة الموحدين واتبعوا جميعا علي بن اسحق الملثم لانه من بيت المملكة والرياسة القديمة وانقادوا اليه ولقبوه بأمير المسلمين وقصدوا بلاد افريقية فملكوها جميعا مشرقا ومغربا الا مدينتي تونس(٨٥) والمهدية(٨٦) فلما بلغ الخبر الى الخليفة يعقوب الموحدي خرج من مراكش واقام بمدينة تونس ثم توجه فيمن معه من المقاتلة لمجابهة ابن غانية والاتراك فوصل اليهم والتقوا بالقرب مدينة قابس وانهزم ابن غانية ومن معه ورجع الخليفة يعقوب الى قابس ففتحها وأخذ منها اهل قراقوش وأولاده وحملهم الى مراكش نحو سنة ٥٨٣هـ ، ثم توجه بعد ذلك الى قفصة فحاصرها مدة ثلاثة أشهر وقطع أشجارها وخرب ما حولها فأرسل اليه الترك الذين فيها يطلبون الامان لأنفسهم ولأهل البلد فأجابهم الى ذلك وخرج الاتراك منها سالمين(٨٧) ومن ثم أسبغ الخليفة العفو عليهم وصيرهم في جملة اجناده(٨٨) وأرسلهم الى الثغور لما رأى من شجاعتهم ونكايتهم بالعدو . جعل للغز مقابل خدمتهم في الجيش الموحدي مزية ظاهرة لتشجيعهم(٨٩) فكان الموحدون يأخذون الجامكية (٩٠) ثلاث مرات في السنة في كل أربعة أشهر مرة . وجامكية الغز في كل شهر لا تختل (٩١) وشارك الغز بالحملات العسكرية التي قامت لقمع الثورات التي ظهرت في أرجاء الدولة ففي سنة ٥٩٧هـ انضم الغز لقوات الموحدين في حملة الى منطقة السوس(٩٢) لقمع ثورة قام بها رجل من جزولة(٩٣) يدعى عبد الرحمن ويعرف عندهم بابن الجزارة واستطاعوا اخماد هذه الثورة وقتل صاحبها (٩٤) .

ونتيجة للمكانة الكبيرة التي حظي بها الغز عند الموحدين انقلبوا ضد ابن غانية وحاربوه عند معاودته للتمرد والثورة مرة أخرى عام ٦٠٥هـ (٩٥) كذلك اهتم الخليفة المستنصر الموحدي بالغز حيث رتب ابن قراقوش الغزي بالحضرة في أجناده وقدمه لطائفة منهم . ولكن هذا الغزي هرب في جملة من أصحابه وابتعد ثائرا مما أدى الى مصرعه فيما بعد (٩٦) .

الاندلسيون والروم :

شكلت القوات الاندلسية في الجيش الموحدي بالاندلس جناحا هاما ، وشاركت في جميع الغزوات والحروب التي قامت بها الجيوش الموحدية ضد الفرنجة سواء في البرتغال أو الممالك الاسبانية . وكانت القوات الاندلسية تمتاز بقوتها وشجاعتها القتالية وتقاتل في طليعة الجيوش الموحدية لخبرتها بالطرق القتالية والخدع الحربية الخاصة بالفرنجة(٩٧) .

وكانت البدايات الاولى لدخول القوات الاندلسية للجيش الموحدي في عهد الخليفة عبد المؤمن ، فقد جاء اليه وفد من أعيان الاندلس عام (٥٤١هـ) ومعهم مكتوب يتضمن بيعة أهل البلاد التي هم فيها على الدخول في طاعته ، فقبل عبد المؤمن ذلك منهم وطلبوا منه النصرة على الفرنج(٩٨) .

وزاد انضمام الاندلسيين للجيش الموحدي بعد بناء قاعدة جبل طارق ، فقد ذهب الخليفة لتدشين هذا البناء وللاطلاع على أحوال الاندلس ، ثم أرسل ثمانية عشر ألف فارس الى بلاد العدو برسم الغزو وقدم على أصناف القبائل ابن شرقي وعلى الاندلسيين ابن صناديد (٩٩) وكان لهؤلاء الجند الاندلسيين قواعد خاصة بهم في الاندلس يقومون فيها لتلقي الاوامر من الحضرة المراكشية ولرفدهم بالعناصر البشرية والاسلحة ومن أهم هذه القواعد هي قاعدة اشبيلية لكونها مركزا لتجمع الجيوش الموحدية سواء القادمة من المغرب وشمال افريقية أو للعساكر العائدة من الغزو لتعبر مرة أخرى الى أوطانها بالمغرب (١٠٠) .

ويبدو أن هؤلاء الجند الاندلسيين كانوا على أهبة واستعداد دائم في بلادهم للانضمام الى الجيوش الموحدية القادمة من الحضرة لشعورهم بأن ذلك واجب عليهم لحماية بلادهم من خطر الفرنجة . ففي سنة ٥٨٠هـ ثمانين وخمسمائة عبر الخليفة أبو يعقوب بجيوشه الى الاندلس ونزل خارج باب قرمونة (١٠١) فلما كان اليوم الثاني أمر بتمييز العساكر وفي هذه الفترة تلاحقت عساكر أهل الاندلس من اقطارهم وأمصارهم للانضمام لجيوشه (١٠٢) .

وشكل الموحدون من الجند الاندلسيين فرقا عسكرية متنقلة على شكل حملات عسكرية لحماية الاندلس ، كانت تجوب الثغور والبلاد لنشر الامن والاستقرار فيها . ففي سنة ٥٦٨ هـ وأثناء تواجد الخليفة أبي يعقوب باشبيلية ، خص من أولاد محمد بن مردنيش ، غانم بن محمد بن مردنيش (١٠٣) بجمع جماعة من الجند الاندلسيين ومن أصحاب أبيه ومن أهل الثغور والاجناد باشبيلية وانظارها يكونون تحت تمييزه وتجويزه للغزو بهم وحماية الانظار من العدو في البدو والحضر فكان غانم يخرج بجمعه الذي جمعه من الاجناد يغزو مع الموحدين جهات طليطلة (١٠٤) وطلبيرة (١٠٥) وانظارها فظهرت منه في ذلك كفاية (١٠٦) .

كذلك اقام الخلفاء في بلاد الاندلس كتائب عسكرية متمركزة في نقاط هامة وحساسة ولا سيما في منطقة الثغور ، وهي تعد خط دفاع أولي لصد أي هجوم مفاجيء من قبل الفرنجة . ذلك ان الخليفة عبد المؤمن رتب في غرناطة(١٠٧) جماعة من الاجناد الاندلسيين الموثوقين في التوحيد مع الموحدين ، فدافعوا عنها من جاورهم من الاعداء (١٠٨) .

يقول ابن عذاري : « في سنة ثمان وستمائة (٦٠٨هـ) أمر الخليفة الناصر لدين الله باستنفار الحشود الاندلسية وبعمل الالات الحربيـة وبالخفر على أهـل الكـور والجهات في الحضور بما لديهم من وظائف الغزاة ووصولهم مع من لهم مـن المشتغلين والولاة حتى اتسق نظامهم وتقوى اعتزازهم وشرع الناصر في التأهب للحركة برسـم الغزو والجهاد (١٠٩) . ومع كل وال يوليه الخليفة على بلاد الاندلس كان يوجه مجموعة من الاندلسيين الموجودين لديه ، لابداء النصح له لمعرفتهم بأساليب عدوهم وبطبيعـة بلادهم القتالية ففي سنة (٥٦٤هـ) واثناء مدة اقامة الشيخ أبي حفص على قرطبة(١١٠) توجه ابنه أبو يحيى واليـا على بطليوس(١١١) عن الامر العالي فمشى اليهـا في جملـة موفورة من الموحدين والاجناد الاندلسيين واستوطنها (١١٢) وفي عـام ٥٨٠ هـ اجتـاز الخليفة يوسف بن عبد المؤمـن (أبو يعقوب) على شنترين(١١٣) في حركتـه الاندلسية بجيش مؤلف من أربعين ألفا من أنجاد العرب الفرسان والموحدين والجنـود المطوعـة وفرسان الاندلس وأجنادها ما ينيف على مائة ألف فارس (١١٤) .

الـــروم :

دخـل الروم المغرب في عهـد الخليفة المرابطي يوسف بن تاشفين ، وكان أول من استخدمهم مع الصقالبة في مدينة مراكش . فقد عمـد الى شراء جماعة منهـم بلغت مائتين وخمسين فارسا ليكونوا حرسا خاصا له . ثم زادت أعدادهم بمن انضم اليهـم من أسرى الحروب ، الذين استخدمهم ولاة الامر في خدمتهم بمراكش ، واتخذ يوسف ابن تاشفين الجواري والاماء من الروم والصقالبة ، كانت احداهن أم ولده وولي عهده علي بن يوسف . وتوسـع علي بن يوسف في استخدام الـروم ، ويقول ابن عذاري : « وهو أول من استعمل الروم وأركبهم في المغرب » ولعلـه يقصد أول من توسـع في في استخدامهم على نطاق كبير في الجيش(١١٥) ولقد استغل الخليفة الموحدي عبد المؤمن ابن علي وجود الروم في البلاد فاستخدمهم في فتوحاته واستعان بهم ضد الثورات التي قامت ضده ، فعندما الثار الماسي(١١٦) ببلاد السوس أرسل اليه عبد المؤمن المقاتلـة فهزمهم ثم أرسل اليه جيشا آخر مؤلف من جملة من الموحدين مـع طائفة من الـروم استطاعوا هزيمته وقتله(١١٧) .

ويرد ذكر الروم في بعض المصادر تحت اسم النصارى حيث أشار صاحب الحلل الموشية الى الحادثة نفسها بقوله : وجه عبد المؤمن جيشا لقتال الماسي في بلاد السوس فهزم ثم وجه اليه جيشا آخر مؤلف من جملة من الموحدين وطائفة من النصارى فانهزم الماسي وقتل هو وكثير من أهل عسكره(١١٨) .

وكان استدعاء الروم بشكل رسمي للبلاد في عهد الخليفة الموحدي المأمون . ذلك انه عندما وصلت بيعة الموحدين للمأمون بعد قتلهم لأخيه العادل وهو يومئذ باشبيلية.

أخذ في الحركة الى مراكش وعندما وصل الى الجزيرة الخضراء(١١٩) اتصل به الخبر أن الموحدين قد نكثوا البيعة وبايعوا ابن أخيه يحيى بن الناصر فكتب لملك قشتالة يستنصره على الموحدين ويسأله أن يبعث له جيشا من الروم (النصارى) يجوز بهم الى العدوة(١٢٠) لقتال يحيى بن الناصر ومن معه من الموحدين ، فأجابه ملك قشتالة الى طلبه وأرسل اليه سنة (٥٢٦هـ) جيشا من الروم بلغ عدده اثني عشر ألفا برسم الخدمة وكان وصولهم اليه في ذي القعدة من السنة المذكورة (١٢١) .

ولعب الروم دورا هاما في التدخل بشؤون السياسة والحكم ولا سيما عند وفاة الخليفة المأمون الموحدي عام (٦٢٩هـ) فساعدوا الرشيد على الوصول الى الخلافة لضمان مصالحهم لكون والدته رومية الاصل(١٢٢) ، وناصروا الخليفة السعيد ضد بني مرين وساعدوا على هزيمتهم عام (٦٤٢هـ)(١٢٣).

وكان للروم مراكز يقيمون فيها على شكل تجمعات عسكرية وذلك للانضمام للجيوش الموحدية أثناء توجهها للمعارك وهذا نفهمه من حديث ابن عذاري : وكان بتارودنت(١٢٤) أحد أشياخ الموحدين مع جماعة من أجناد المسلمين والروم ساكنين هناك . أيضا سكن مدينة فاس (١٢٥) نحو مائتي فارس من جنود الروم كانوا قد وصلوا اليها عند موت الخليفة السعيد الموحدي(١٢٦) .

وفي أواخر حكم الدولة الموحدية أصبح الروم لا يكترثون للمعارك التي تجري بين الموحدين وأعدائهم . ربما كان ذلك نتيجة شعور قوادهم بضعف الموحدين . ففي سنة ٦٦٠هـ قدم الخليفة المرتضى على بلاد السوس أحد وزرائه ووجه معه قائده المعروف بذي اللب بجمع وافر من الروم الى السوس ، وكان قائد آخر قد تقدمه اسمه غرسيه بجمع وافر من الروم فوقعت الحرب بين عساكر الموحدين وعسائر ابن بدر هنالك . وكان القائد ذو اللب متكاسلا فيما وقع من الحرب بين يديه ليس له نجدة ولا نهضة وكان لأمير عسكر الموحدين غير سامع لأمره ولا عارف بقدره(١٢٧) .

وهكذا ، وبقدر ما كان عدد الاجانب يزداد ويتناقص جند المصامدة ، كان الجيش الموحدي يفقد حماسه الاول ، وقد يصح القول روحه الوطنية ، ليصبح جيشا محترفا(١٨٢) .

العبيد والمطوعة :

استلحق الموحدون عددا من أتباع المرابطين في جيشهم . ويظهر انهم كانوا من

الاسرى المسترقين(١٢٩)، أسروا منذ المعارك الاولى التي خاضها المهدي ضد المرابطين، واطلق عليهم اسم عبيد المخزن (١٣٠) ، ويبدو أن هؤلاء أصبحوا من المقربين للخليفة عبد المؤمن ، يقومون بخدمته وحراسته والضرب على يد كل من يحاول الغدر به .

ويصف شارل اندريه جوليان اخلاص هؤلاء العبيد للخليفة فيقول : وكان لحرس الخليفة شأن كبير اذ وجب على الاوفياء منهم الذين اختيروا لحراسة سرادق الخليفة أن يموتوا دونه حتى لا يدخله أحد(١٣١) .

وشارك العبيد بعمليات التصفية التي أقامها الخليفة عبد المؤمن بالنسبة للقبائل التي يشك في توحيدها . ففي عام ٥٣٩ هـ قاموا بمحاصرة قبيلة جزولة وهزموها ثم قدموها للخليفة عبد المؤمن (١٣٢) .

أوكل خلفاء الموحدين الى عبيد المخزن أيضا مهمة تنفيذ أحكام القتل والاعدام بكل من ارتكب خيانة أو ثار ضد الحكم . وهذا ما حصل مع الخليفة السعيد عندما ثار وتآمر عليه الخلط وتأخروا عن مساعدته ضد بني عبد الواد واتفقوا معهم على الغدر به ورجعوا لمحلته فقتلوا ونهبوا . فحبس الخليفة ذلك الفعل الذميم المنسوب اليهم الى أن احتال عليهم . ذلك لما وصلوا الى مراكش أذن لهم بالدخول الى القصبة وكان عبيد المخزن وبعض المتجندين مستعدين لهم عند دخولهم حيث قاموا بالانتقام منهم بالقتل لهم والاعدام وقيل بالسم بالطعام فماتوا في الحال وكان عددهم سبعين وذلك في عام ستة وأربعين وستمائة (٦٤٦هـ) (١٣٣)

وبذلك لم تقتصر مهمة العبيد على تجنيدهم في الجيش ، وانما استفاد الخلفاء منهم بجعلهم الحراس الاوفياء لهم وبدفعهم للقيام بعمليات التصفية ضد الخونة أو الذين يشك في توحيدهم وتركوا لباقي عناصر الجيش التفرغ لمهمة حماية أراضي الدولة والدفاع عنها .

المطوعة :

أما عن نظام التطوع والمطوعة فكان يقوم الى جانب نظام الحشد الجبري حيث تحشد اعداد كبيرة من الجند على سبيل التطوع دون تكليف ، ويسمى هؤلاء بالمطوعة ويمكننا الاستنتاج بأن هؤلاء المطوعة هم العموم الذين يتحدث عنهم المراكشي بقوله : والعموم ، هم الكائنون ببلادهم لا يحضرون الى مراكش الا في النفير الاعظم(١٣٤) .

ويحدثنا ابن عذاري عن طريقة التطوع في الجيش الموحدي فيقول : في عهد الخليفة المنصور عام خمس وثمانين وخمسمائة (٥٨٥ هـ) أشيع في الجبال القبلية والبلاد

الغربية النداء بالجهاد من غير تكليف على حكم التطوع وتأتي الارادات فترادفت الامم من الجبال والبسائط طامعين متطوعين وأتت أناس كثيرة من حبش غانية وعمرة الصحاري مبادرين فاجتمع بالحضرة من الاحمر والاسود وشتى اللغات من الحشود والمطوعة وعموم الاعراب من الجنود من معدود وغير معدود طائعين فأضاق بهم رحب الفضاء وتكاثر عن العدو الاحصاء(١٢٥)

كذلك وفي عام ٥٩١ هـ أرسل الخليفة المنصور الى بلاد الغرب مراكش وغيرها يستنفر الناس من غير اكراه . فأتاه من المطوعة والمرتزقين جمع عظيم(١٢٦) .

هذه هي العناصر التي تكون منها الجيش الموحدي . وبقدر ما كان لهذه العناصر فعاليتها في توسع وقوة دولة الموحدين كان لبعض العناصر منها تأثيرها القوي في اضعاف هذا الجيش وانحلاله .

(١) موسى عز الدين عمر أحمد ، دراسات في تاريخ المغرب والاندلس ، دار الشروق ، بيروت ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م ، الطبعة الاولى ص ٩٣ .

(٢) جزر البليار : وهي ثلاث جزر ميورقة ومنورقة ويابسة . يقول الحميري : ميورقة هي جزيرة في البحر الزقاقي تسامتها من القبلة بجاية من بر العدوة بينهما ثلاثة مجار . ومن الجوف برشلونة من بلاد أرغون وبينهما مجرى واحد . ومن الشرق احدى جزيرتيها منورقة وبينهما مجرى في البحر طوله أربعون ميلا . وغربيها جزيرتها يابسة بينهما مجرى في البحر طوله سبعون ميلا . وميورقة أم هاتين الجزيرتين وهما بنتاها . انظر : الحميري ، محمد عبد المنعم الحميري ، (ت أواخر القرن ٩ هـ/١٥م) . كتاب الروض المعطار في خبر الاقطار ، دار السراج ، (ت احسان عباس) ، بيروت ١٩٨٠ ، الطبعة الثانية ص٥٦٧ .

(٣) عسة ، أحمد ، المعجزة المغربية ، بيروت ١٩٧٤ ـ ١٩٧٥ الطبعة الاولى ص ٣١ .

(٤) عبادي ، أحمد مختار ، دراسات في تاريخ المغرب والاندلس ، الاسكندرية ١٩٦٨ ، الطبعة الاولى ، ص ١٠٦ ـ ١٠٧ ، ١١٠ . أبو رميلة، هشام ، علاقات الموحدين بالممالك النصرانية والدول الاسلامية في الاندلس ، دار الفرقان ، عمان ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م ، الطبعة الاولى ص٣٩ .

(٥) المراكشي (عبد الواحد ، (كان حيا في النصف الاول من القرن السابع هجري/ الثالث عشر الميلادي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب . نشره محمد سعيد العريان ومحمد العربي العلمي ، القاهرة ١٩٤٩ ص ٢٣٥ .

(٦) ابن صاحب الصلاة ، عبد الملك ، (كان حيا سنة ٥٩٤هـ/١١٩٨م) . المن بالامامة على المستضعفين بأن جعلهم الله أئمة وجعلهم الوارثين . (ت. عبد الهادي التازي) بيروت ١٩٦٤م ص ٥٤ .

(٧) تقع شمال أغمات وعلى اثني عشر ميلا بداخل المغرب وليس حولها من الجبال الا جبل صغير يسمى ايجليز وعظمت مراكش في عهد الدولتين المرابطية والموحدية .
انظر الحميري . الروض المعطار ص ٥٤٠ .

(٨) ابن صاحب الصلاة . المن بالامامة . ص ٤٣٨ ، ٤٥٢ .

(٩) المصدر السابق ص ٤٣٨ ، ٤٥٢ .

(١٠) ابن عذاري (كان حيا سنة ٧١٢هـ / ١٣١٢م) ، البيان المغرب في أخبار الاندلس والمغرب ،القسم الثالث ،(ت. امبروثو هويثي ميراندا ومحمدبن تاويت وابراهيم محمد الكتاني) طبعة تطوان ١٩٦٠م ص ١٢٩ ، راجع نفس المصدر ص ٢٣٨ عن قيام الخليفة الرشيد باعداد الاخبية والعدة استعدادا للحرب .

(١١) البركة : انعام ، اكرام ، نعمة الله يمنحهاالعبد . دوزي ، رينهارت ، تكملة المعاجم العربية جـ١ ترجمة محمد سليم النعيمي ، العراق١٩٧٨ ص ٣٠٥ .

(١٢) الدنانير : كان أساس العملة الموحدية الدينار الذهبي ، والدرهم الفضي وربما استعمل المثقال الذي له نفس وزن الدرهم . وأهم ما يعطيفكرة الرخاء الذي يعم البلاد أن نقرأ أن البركة التي نفح بها الجنود ذات يوم فاقت بكثير مليارا من الفرنكات المغربية . ابن صاحب الصلاة ، المن بالامامة ص ٦٥ .

(١٣) ابن صاحب الصلاة ، المن بالامامة ص ٦٥ .

(١٤) المصدر السابق ص ٥٣ .

(١٥) مصمودة احدى القبائلالبربرية الكبيرة والتيتتفرع من شعب البرانس أما أماكن سكناها فتبدأ في المنطقة الممتدة من نهر أم ربيع الذي يصب منجبال صهناجة وينتهي الى المحيط الاطلسي وآخر بلادهم الصحراء ، انظر : ابن خلدون ، عبدالرحمن ، (ت ٨٠٨هـ / ١٤٠٥م) كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربرومن عاصرهم من ذوي السلطان الاكبر ، المجلد السادس القسم الاول . بيروت ١٩٥٩ ص ١٧٥ ــ ١٧٩ ، ابن حزم ، أبي محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الاندلسي، جمهرة أنساب العرب جـ٢ ، دار المعارف . تحقيق عبد السلام هارون مصر ١٣٨٢هـ / ١٩٦٢م ص ٤٩٥ ــ ٤٩٦ ، المراكشي، المعجب ص ٢٤٠ ، دائرة المعارف الاسلامية نقلها الى العربية محمد ثابت الفندي ورفاقهمجلد ، ٣ ص ٥٠١ ــ ٥٠٦ .

(١٦) جوليان، شارل أندريه، تاريخافريقية الشمالية جـ٢ ، الدار التونسية للنشر ، تعريب محمد المزالي والبشير بن سلامة. تونس ١٣٩٨هـ ــ١٩٧٨م ص ١٦٢ .

(١٧) بدر ، أحمد ، تاريخ الاندلس (التجزؤ ــ ــ السيادة المغربية ــ السقوط والتأثير الحضاري) مكتبة أطلس ، دمشق ١٩٨٣ ص ٢٧٥ .

(١٨) هرغة : احدى بطون مصمودة الساكنة في بلاد السوس بجبال أطلس . العبادي . دراسات فيتاريخ المغرب والاندلس ص ١٠٤ . ابن الخطيب (لسان الدين ابن الخطيب) (ت ٧٧٦ هـ/١٣٧٤م). المغرب العربي في العصر الوسيط القسم الثالث من كتاب الاعلام فيمن بويع قبل الاحتلام ، تحقيق وتعليق الدكتور أحمد مختار العبادي والاستاذ ابراهيم الكتاني . الدار البيضاء ١٩٦٤م ص ٢٦٦ هامش تعليق رقم (١) .

(١٩) هنتاتة : كانت من أكبر قبائل مصمودة في العصر الوسيط وموطنها الجبال الواقعة خلف مراكش . ابن خلدون . العبر م٦ ، ق٢ ،ص ٥٦٢ . مجلة الدارة . العدد الثالث . السنة الثانية عشرة . ربيع الاخر ١٤٠٧هـ/ديسمبر١٩٨٦م . مقال بعنوان بعض ملامح الحياة الاجتماعية في مدينة مراكش للدكتور سليمان عبد الغنيالمالي ص ١٧٣ .

(٢٠)تينملل : اسم مكان لا قبيلة . وكان لاهل تينمللسبق في دخولهم دعوة ابن تومرت فارتفعت مكانتهم بين قبائل مصمودة ، وخاصة بعد اقامة المهدي بن تومرت داره ومسجده في مدينتهم وبين ظهرانيهم وشاركت المهدي في حروبه بعد أن انخرطت في دعوته . انظر : ابن خلدون . العبر ، م٦ ، ق٢ ص ٥٦١ . مجلة الدارة . العدد الثالث . السنة الثانية عشرة . ص ١٧٣ .

(٢١) كنفيسة : أو جنفيسة وهي قبيلة بجبال المصامدة جنوبي مراكش . انظر : مجلة الدارة ، ص ١٧٣ .

(٢٢) كدميوة : كانوا تبعا لهنتاتة وتينملل في الامر. وتسكن جنوب غربي مراكش . ابن خلدون ، العبر ، م٦ ، ق٢ ، ص ٥٦٨ .

(٢٣) وريكة : مجاورون لهنتاتة وكانت بينهما حروب كانت الغلبة فيها لهنتاتة . ابن خلدون العبر ، م٦ ، ق٢ ، ص ٥٧٠ . مجلة الدارة ص ١٧٣ .

(٢٤) كومية : احدى بطون بني فاتن من البرابرة البتر وكانت مواطنهم في المغرب الاوسط . الناصري، أبو العباس أحمد بن خالد (ت ١٣١٥/١٨٩٢م) الاستقصا لاخبار المغرب الاقصى ج٢ تحقيق وتعليق الاستاذ جعفر الناصري ـ والاستاذ محمد الناصري ـ الدار البيضاء ١٣٧٣هـ ـ ١٩٥٤م ص ١٢٧ .

(٢٥) ابن خلدون ، م٦ ، ق٢ ، ص ٥٦٠ .

(٢٦) هسكورة : أكثر قبائل المصامدة ، وفيهم بطون كثيرة أوسعها بطن هسكورة وكانت مواطنهم على عهد الموحدين بمنطقة السوس بين وادية وادي ماسة . ابن خلدون ، العبر ، م٦ ، ق٢ ، ص٥٥٢ .

البيذق : أبو بكر الصهناجي (كان حيا في النصف الثاني من القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي) . المقتبس من كتاب الانساب في معرفة الاصحاب. تحقيق عبد الوهاب منصور ، الرباط ١٩٧١ م ص ٣٥ هامش تعليق (٤٩) .

(٢٧) المراكشي ، المعجب ص ٣٣٩ ـ ٣٤٠ .

(٢٨) تينملل : هو حصن عظيم من حصون جبال درن بالمغرب . وهو منيع صعب المرتقى وكان الامام المهدي زاد في تحصينه وجعل فيه مخازن أمواله وبه الان قبره الحميري، الروض المعطار ص١٢٨ .

(٢٩) ابن خلدون ، م٦ ، ق٢ ، ص ٤٧٠ . الفاسي، علي بن أبي زرع الفاسي ، الانيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك العرب وتاريخ مدينة فاس . الرباط ١٩٧٢ ، ص ١٩٨ ـ ٢٠٠ .

(٣٠) لمتونة : من قبائل الملثمين في صهناجة وهي سيدة الادرار في موريتانيا . بدر . تاريخ الاندلس ص١٩٨ ـ ٢٠٠ .

(٣١) مؤلف مجهول ، الحلل الموشية في ذكر الاخبار المراكشية .اعتنى بنشره وتصحيحه ي ،س. علوش رباط الفتح ١٩٣٦ ، ص ٨٨ ـ ٨٩ ، ابن القطان (كان حيا في منتصف القرن السابع الهجري /الثالث عشر الميلادي) نظم الجمان من أخبار الزمان ، تحقيق محمود علي مكي ، الرباط ١٩٦٤ م ص ٢٨ . ابن صاحب الصلاة ، المن بالامامة ص ٦٩ ـ ٧٠ .

(٣٢) ابن الخطيب ، رقم الحلل في نظم الدول ،تونس ١٣١٧ هـ / ١٨٩٩م ص ٥٧ .

(٣٣) الفاسي ، الانيس المطرب ص ١٨٩ . مؤلف مجهول ، مجموع رسائل موحدية من انشاء كتاب الدولة المعنية اعتنى باصدارها ليفي بروفنسال ، رباط الفتح ١٩٤١م ص ٨٣ ـ ٨٨ .

(٣٤) ابن خلدون ، م٧ ، ق١ ، ص ١٦٨ – ٣٥٤ .

(٣٥) الفاسي ، الانيس المطرب ص ٣٠٦ .

(٣٦) زناتة : جذم كبير من البربر البتر ولهم شعوب أكثر من أن تحصى مثل مغراوة وبني يغرن وجراوة وبين يرنيان ووجديجن وغمرة وبني يجفش وأسين وبني تيفرست وبني مرين وبني توجين وبني عبد الواد وبني راشد وبني برزال وبني ورنيد وبني زنداك وغيرهم وفي كل واحد من هذه الشعوب بطون متعددة . ابن خلدون ، م٧ ، ق١ ، ص ١٤ – ١٥ .

(٣٧) وهران : بالمغرب على ساحل البحر ، قيل انها أسست في سنة تسعين ومائتين ، وهي تقابل مدينة المرية في ساحل بر الاندلس الحميري. الروض المعطار ص ٦١٢ – ٦١٣ .

(٣٨) تلمسان : قاعدة المغرب الاوسط وحده وهي مدينة في أول الصحراء وعلى الطريق الى سجلماسة ووراكلة وغيرهما من بلاد الصحراء. الحميري ، الروض المعطار ص ١٣٥ .

(٣٩) ابن عذاري ، البيان المغرب ق٣ ص ١٨ .

(٤٠) الناصري ، الاستقصا جـ ٢ ص ١٢٨ .

(٤١) الفاسي ، الانيس المطرب ص ٢٠١ – ٢٠٢ .

(٤٢) ابن خلدون ، م٧ ، ق١ ص ١٢٩ .

(٤٣) يغمراسن : فارس زناتة ومؤسس الدولة العبد الوادية الزناتية بتلمسان . الفاسي ، الانيس المطرب ص ٢٩٣ حاشية .

(٤٤) تازا : من بلاد المغرب ، أول بلاد تازا حد ما بين المغرب الاوسط وبلاد المغرب في الطول ، وفي العرض البلاد الساحلية مثل وهران ومليلة وغيرهما . الحميري . الروض المعطار ص ١٢٨ .

(٤٥) ابن خلدون ، م٧ ، ق٧ ص ٢٥٥ .

(٤٦) المصدر السابق ، م٧ قسم ١ ص ١٧١ .

(٤٧) ايسلي : مدينة في شرقي ارشجول وبمقربة من وهران من أرض المغرب . الحميري . الروض المعطار ص ٥٨ .

(٤٨) وجدة : بالمغرب ، بينها وبين تلمسان ثلاث مراحل وعلى وجدة طريق المار والصادر من بلاد المغرب والى سجلماسة وغيرها . الحميري ، الروض المعطار ص ٦٠٧ – ٦٠٨ .

(٤٩) ابن خلدون ، م٧ ، ق١ ، ص ١٧٢ .

(٥٠) مكناسة : مدينة في المغرب من نظر فاس الى جهة المغرب . الحميري ، الروض المعطار ص ٥٤٤ .

(٥١) تادلة : أو تادلا ، ناحية بمراكش تشمل الهضاب التي تمتد الى الغرب من وادي أم الربيع المرتفع كما تشمل المنحدرات الغربية لجبال الاطلس الوسطى ، من وادي العبيد الى منابع ملوية. دائرة المعارف الاسلامية ، م٤ ص ٤٥٧ .

(٥٢) وادي أم ربيع : هو وادي وانسيفن ، عند قلعة مهدي ببلد فازاز من أرض المغرب . وأم ربيع قرية كبيرة هنالك ، ونهر أم ربيع على هذا الوادي ، وهو كبير خرار يجاز بالمركب سريع الجري كثير الانحدار والصعور والجنادل . الحميري، الروض المعطار ص ٦٠٥ .

(٥٣) اجليز ، تقع في منحدرات الاطلس الصغير ، أو ما وراء الاطلس ، على وادي نفيس . بدر (أحمد بدر) تاريخ المغرب والاندلس ، دمشق ١٩٨٠ – ١٩٨١ م ص ٢٢٣ .

(٥٤) البيذق ، (أبو بكر الصنهاجي) ، أخبار المهدي بن تومرت وابتداء دولة الموحدين ، صححه وترجمه ليفي بروفنسال ، باريس ١٩٢٨م ص١٠٢ .

(٥٥) ابن صاحب الصلاة ، المن بالامامة ص ٢٥٠ - ٢٥١ .

(٥٦) سطيف : مدينة أو حصن ، بينها وبين مليلة مرحلة . وهي قديمة أزلية . الحميري ، الروض المعطار ص ٣١٨ .

(٥٧) ابن الاثير ، أبو الحسن علي بن محمد الجزري (٦٣٠هـ/١٢٣٣م) . الكامل في التاريخ ، ط القاهرة عام ١٣٠٤هـ ، المجلد ١١ ص ١٥٨ ، ، ١٨٦ . التجاني ، أبو محمد عبد الله بن محمد (ت حوالي ٧١٧ هـ / ١٣١٧ م)، رحلة التجاني ، نشره حسن حسني عبد الوهاب ، تونس ١٩٥٨ ص ٣٤٤ - ٣٤٥ . الناصري ، الاستقصا جـ٢ ص ١٠٨ ، ميشيل ، اماري ، المكتبة العربية الصقلية ، ليبزغ ص ٢٩٨ - ٢٩٩ .

(٥٨) سليم : لقد كانت القبائل الهلالية من القبائل العربية بينهم سليم أقوى عناصر الهلالية وأعرقها وأغناها د. عمر (مصطفى أبو ضيف) القبائل العربية في المغرب في عصري المرابطين والموحدين، الجزائر ١٩٨٢ .

(٥٩) قابس : مدينة من بلاد افريقية بينها وبين القيروان أربع مراحل ، وتعد من البلاد الجريدية ، وبينها وبين طرابلس ثمانية أيام وهي مدينة كبيرة بحرية صحراوية . الحميري ، الروض المعطار ص ٤٥٠ .

(٦٠) ابن عذاري ، ق٣ ، ص ٣٩ .

(٦١)

(٦٢) ابن الاثير ، الكامل ، مجلد ١١ ص ٢٤٥ - ٢٤٦ . الزركشي ، أبو عبد الله محمد بن ابراهيم اللؤلؤي ،تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، تونس ١٢٨٩ هـ ص ١٣ .

(٦٣) اشبيلية : مدينة بالاندلس بينها وبين قرطبة مسيرة ثمانية أيام ومن الاميال ثمانون . الحميري ، الروض المعطار ص ٥٨ .

(٦٤) ابن مردنيش : وهو جندي مسلم من أصل اسباني قام بضم كل من فالينسيا وباقي القسم الشرقي من اسبانيا تحت سيطرته وذلك عندموت حاكم هذه المناطق محمد ابن اياد بين عامي (١١٤٦ - ١١٤٧م) الموافق لـ ٥٤١هـ وكانت علاقته طيبة مع الولايات المسيحية في الشمال وقد قاوم بمساعدتهم الموحدين حتى وفاته في مرسيلية عام ١١٧٢م .

(٦٥) بني جشم : هم بنو جشم بن معاوية بن بكر بن هوزان ومن أولادهم ، غزية وعدي وعصيمة ومنهم جاء بنو جشم الذين انتقلوا الى افريقية بسبب تأييدهم لبني غانية ضدهم . عمر ، القبائل العربية في المغرب ص ٢٤٠ .

(٦٦) ابن صاحب الصلاة ، المن بالامامة ص ١٢٧ ، ١٢٩ ، ١٤٤ .

(٦٧) عمر ، القبائل العربية في المغرب ص ٧٤ -٧٥ .

(٦٨) ابن طفيل : عرف الذين يهتمون بتاريخ ابن طفيل طائفة من آثاره الشعرية في التغزل والحكمة والزهد والرثاء متناثرة في بعض معاجم الادب الموحدي ، كما عرفوا أرجوزته الخالدة في الامراض وعوارضها وعلاجها . ابن صاحب الصلاة ،ص ٤١١ حاشية .

(٦٩) ابن عذاري ، ق٣ ، ص ٨٨ - ٨٩ .

(٧٠) ابن خلدون ، العبر ، م٦ ، ق ٢ ، ص ٥٠٠ .

(٧١) الفاسي ، الانيس المطرب ، ص ٢١٢ . مؤلف مجهول ، مجموع رسائل موحدية ، ص ١٥٢ ، ١٥٦

(٧٢) اسحق بن غانية : وجه علي بن يوسف بن تاشفين الى الاندلس رجلين من قبيلة مسوفة هما : يحيى ومحمد ، ويعرفان بابني غانية (نسبة الى أمهما) فاما يحيى فقد ولاه على بن يوسف على مدينة بلنسية ، ثم ولاه قرطبة فظل على ولايتها حتى مات . وأما محمد فقد تقلد بعض أعمال قرطبة من قبل أخيه يحيى ، فلما اضطرب أمر الاندلس بعد موت على بن يوسف وقوي نفوذ الموحدين ، خشي محمد بن غانية على نفسه فعبر جزيرة ميورقة مع أهل بيته وحشمه فملكها ، كما استولى على جزيرتي منورقة ، ويابسة وعاش في هذه الجزر ودعا للخلفاء العباسيين فيها ، وكان لمحمد من الاولاد عبد الله واسحاق والزبير وطلحة وقد آل الحكم الى ابنه اسحاق ثم الى حفيده علي ابن اسحق الذي حارب يعقوب المنصور الموحدي ببلاد المغرب . حسن (حسن ابراهيم حسن) تاريخ الاسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي ، جـ٢ ، القاهرة ١٩٦٧ ص ٢٢٥.

(٧٣) ابن الاثير ، الكامل م١١ ، ص ٥٢٠ . ابن خلدون . العبر ، م٦ ، ق١ ص ١٤٤ — ١٤٥ .

(٧٤) الفاسي ، الانيس المطرب ص ٢١٨ .

(٧٥) ابن صاحب الصلاة ، ص ١٧٢ حاشية .

(٧٦) ابن عذاري ، ق٣ ص ١٥٨ .

(٧٧) ابن عذاري ، ص ٢٠٨ .

(٧٨) الفاسي ، ص ٢٣٠ ، الناصري ، جـ٢ ص ١٨٣ .

(٧٩) ابن عذاري ، ص ٢١٨ .

(٨٠) الخلط : هم في عداد جشم والمعروف أن الخلط بنو المنتفق من بني عامر بن عقيل بن كعب كلهم شيعة للقرامطة في البحرين ولما ضعف أمر القرامطة استولى بنو سليم على البحرين بدعوة الشيعة ، ثم غلبهم عليها بنو أبي الحسين من بطون تغلب بالدعوة العباسية فارتحل بنو سليم وبنو المنتفق من هؤلاء المسمون بالخلط الى افريقية الى أن نقلهم المنصور الموحدي الى المغرب وكانت رياستهم طوال العصر الموحدي في بيت أولاد حميدان ثم انتقلت الى أولاد علي بن علي في أواخر الدولة الموحدية ابن خلدون. العبر،م٦،ق١ص٦٣ . عمر . القبائل العربيـة في المغرب ص٢٤١ ٢٤٢ .

(٨١) ابن عذاري ، ص ٢٥٢ — ٢٥٣ ، ٣٤١ — ٣٤٢ . ابن خلدون ، العبر ، م٦ ، ق١ ، ص ٦٣ — ٦٤ . المصدر السابق م٦ ق٣ ص ٥٣٥ . الانصاري الاوسي المراكشـي ، الذيل والتكملـة لكتابي الموصول والصلة . تقديم وتعليـق محمد بن شريفة ، السفر الثامن القسـم الاول : الرباط ١٩٨٤م ص ١٩١ — ١٩٢ .

(٨٢) ابن خلدون ، العبر ، م٦ ، ق١ ص ٣٥٩ —ص ٥٤١ . المصدر السابق م٦ ، ق٣ ، ص ٥٢٨ ، ٥٤٣ . ابن عذاري ، ص ٤٤٣ . الناصري ،الاستقصا جـ٢ ص ٢٢١ — ٢٢٣ .

(٨٣) الغز : جنس من الترك بلادهم على تخوم بلاد الصين ، وقد عرفهم العرب في أيـام الفتوح الاولـى دخلوا بلاد المسلمين أسارى ومماليك فلم يلبث كثير منهم أن ملكوا حرياتهم وبرزوا في الحياتين المدنية والعسكرية وقد أصبح لهؤلاء الغز شـأن في تاريخ افريقية أواخر القرن السادس أوائـل القـرن السابع وكان وصولهم اليها حوالي سـنة ٥٦٨ هـ وعلى عرش مصر وقتئذ الملك الناصر صـلاح الدين الايوبي . ابن الاثير ، العامل م١١ ص٣٨٩ . ، المراكشي ، المعجب ص ٢٨٨—٢٨٩ حاشية.

(٨٤) بجاية : مدينة بالجزائر على شاطىء البحر لاقليم قسنطينة. دائرة المعارف الاسلامية م٣ ص ٥٠٣.

(٨٥) تونس : مدينة بافريقية يقال انها أحدثت عام ثمانين بينها وبين القيروان مسيرة ثلاثة أيام وبينها وبين البحر نحو أربعة أميال وبين تونس وقرطاجنة نحو عشرة أميال . الحميري ، ص ١٤٣.

(٨٦) المهدية : مدينة بساحل افريقية كان ابتداء بنيانها سنة ثلاثمائة (٣٠٠هـ) وبينها وبين القيروان ستون ميلا . الحميري ، ص٥٦١ – ٥٦٢ .

(٨٧) ابن الاثير ، الكامل ، المجلد ١١ ص ٥١٩ –٥٢٢ .

(٨٨) ابن عذاري ، ص ١٦٤ .

(٨٩) المراكشي ، المعجب ص ٢٧٤ .

(٩٠) الجامكية : كلمة فارسية ، جامكي من جامة، لباس ومعناها الاصلي المال المخصص للملابس ، جمعها جوامك وجماكي : عطاء ، راتب أجرةوظيفة. ويقال بمعنى أجرى له راتب أو وظيفة : أعطاه جامكية وعمل له جامكية وأطلق له جامكية . دوزي ، تكملة المعاجم العربية جـ ٢ ص١٢٧.

(٩١) المراكشي ، المعجب ص ٢٨٨ .

(٩٢) وهي مدن كثيرة وبلاد واسعة ، يشقها نهرعظيم يصب في البحر المحيط يسمى وادي ماست ، وجريه من القبلة الى الجوف كجري نيل مصر، وعليه القرى المتصلة والعمارة الكثيرة وعلى هذا النهر قرية كبيرة جدا تعرف بتارودنت . الحميري ، ص ٣٣٠ .

(٩٣) جزولة : قبيلة من شعب صهناجة من البربرالبرانس . أما مواطن سكناها فكانت باقليم سوس وبجهاته وجزولة اليوم قبائل وبطون عديدةتحمل أسماء أكثرها فرعي يطول تعدادها . البيذق ، الانساب في معرفة الاصحاب ص ٤٨ حاشيةرقم (٩٤) .

(٩٤) المراكشي ، ص ٣١٥ .

(٩٥) ابن عذاري ،ص٢٧٣

(٩٦) التجاني ، رحلة التجاني ص ١١١ .

(٩٧) عنان ، عصر المرابطين والموحدين جـ ٢ ص٦٣٦ .

(٩٨) ابن الاثير ، الكامل ، مجلد ١١ ص ١١٥ .

(٩٩) ابن عذاري ، البيان المغرب ص ٥٨ .

(١٠٠) عنان ، جـ ٢ ص ٦٤٢ . راجع ابن صاحب الصلاة عن كيفية انضمام عساكر اشبيلية الى عساكر الموحدين لفك حصار غرناطة من ابن همشكعام ٥٥٧ هـ .

(١٠١) قرمونة : مدينة بالاندلس في الشرق من اشبيلية ، بينها وبين استجة خمسة وأربعون ميلا ، الحميري ، ص ٤٦١ .

(١٠٢) ابن صاحب الصلاة ، ص ٥١٦ .

(١٠٣) غانم بن مردنيش : هو الذياسندت اليهقيمابعد قيادة الاسطول المرابط في سبتة . ابن عذاري. البيان المغرب القسم الثالث ص ١٠٥ .

(١٠٤) طليطلة : بالاندلس ، وهي مركز لجميع بلادالاندلس لان منها الى قرطبة تسع مراحل ، ومنها الى بلنسية تسع مراحل ايضا ، ومنها الى المريةفي البحر تسع مراحل . الحميري . الروض المعطار ص ٣٩٣ .

(١٠٥) طلبيرة : بالاندلس أيضا ، بينها وبين واديالرمل خمسة وثلاثون ميلا ، وطلبيرة أقصى ثغور المسلمين وباب من الابواب التي يدخل منها الى ارض الفرنجة وهي تقع على نهر تاجة . الحميري الروض المعطار ص ٣٩٥ .

(١٠٦) ابن صاحب الصلاة ، ص ٥١٦ .

(١٠٧) غرناطة : مدينة بالاندلس بينها وبين وادي‌آش أربعون ميلا وهي من مدن البيرة . الحميري . الروض المعطـار ص ٤٥ .

(١٠٨) ابن صاحب الصلاة ، ص ٢٠٢ .

(١٠٩) ابن عذاري ، ص ٢٣٧ – ٢٣٨ .

(١١٠) قرطبة : قاعدة الاندلس . وأحواز قرطبـةتنتهي في الغرب الى اشبيلية ، وتاخـذ في الجوف ستين ميلا ، وتختلط احوازها في الشرق باحواز جيان . الحميري ، ص ٤٥٦ – ٤٥٧ .

(١١١) بطليوس : بالاندلس من اقليم ماردة بينهما أربعون ميلا ، ومن بطليوس الى اشبيلية ستة أيام ومنها الى قرطبة ست مراحل . الحميري ،الروض المعطار ص ٩٣ .

(١١٢) ابن صاحب الصلاة ص ٣٩٢ .

(١١٣) شنترين : بالاندلس مدينـة معدودة في كورباجة وهي مدينة على جبل عام ولشنترين جزائر في البحر مسكونة واحوازها متصلة بأحواز باجة. الحميري ، ص ٣٤٦ .

(١١٤) الحميري ، ص ٣٤٦ .

(١١٥) مجلة الدارة ، العدد الثالث السنة الثانيةعشرة ص ١٧٦ .

(١١٦) الماسي : هو محمد بن عبد الله بن هود الماسي تسمى بالهادي وادعى الهداية اقتداء بالمهـدي ابن تومرت فاقبل الناس عليه من كل مكـان‌واجتمعوا عليه اجتماعا طار به الذكر في‌الافاق واتصلت دعوته في أقطار العدوة حتى لم يبقى منها الامراكش وفاس . مؤلف مجهول ،الحلل الموشية١٢١

(١١٧) ابن عذاري ، ص ٢٦ .

(١١٨) مؤلف مجهول ، ص ١٢١ .

(١١٩) الجزيرة الخضراء : بالاندلس ويقال لهـاجزيرة أم حكيم وعلى مرسى أم حكيم مدينة الجزيرة الخضـراء بينهـا وبين قلشانة اربعة وستون ميلا على ربوة مشرفة على البحر . الحميري،ص٢٢٣

(١٢٠) العدوة : المقصود بالعدوة هو بلاد المغـرب‌بصفة عامة والعدوة (بضم العين أو كسرها أو فتحها) شاطىء الوادي وجانبه والنسبة اليها عدوى، لهذاأطلقت على عدوتي المغرب والاندلس لان بينهما مضيق جبل طارق ، وعدوتي سلا والرباط ويفصلهما وادي ابو الرقراق ، وعدوتي فاس وبينهما وادي فاس أو وادي‌الجواهر . كذلك اصطلح‌على اطلاق كلمة العدوة ، لا على المغرب الاقصى وحده بل على المغرب العربي الكبير ايضا ، علـى‌اعتبار أن المغرب العربي الكبير يمثل جانبا مقابلا لاوربا وبينهما البحر المتوسط . عبادي ، دراسات‌ص ٣٢٧ حاشية تعليق (٢) .

(١٢١) الناصري ، الاستقصا ج٢ ص ٢١١ – ٢١٤ ،ابن عذاري ،ص٢٦٥، الانصاري الاوسي المراكشي ، الذيل والتكملة القسم الاول ص ١٩١–١٩٢ . ابن أبي دينار (محمد بن أبي القاسـم الرعيني القيرواني). المؤنس في أخبار افريقية وتونس، ١٢٨٦ هـ ص١٢٦ .

(١٢٢) ابن عذاري ، ص ٢٨٢ .

(١٢٣) ابن خلدون ، م٧ : ق٢ ص ٣٥١ – ٣٥٢ .

(١٢٤) تارودنت : قاعدة اقليم سوس في جنوبي مراكش على الجانب الايمن من وادي سوس وعلى مسيرة مائة ميل في الجنوب الغربي من مراكش و٥٤ميلا شرقي اغادير على المحيـط الاطلنطـي . دائـرة المعارف الاسلامية ، م٤ ص ٤٦٩ .

(١٢٥) فاس : قاعدة الغرب وتتالف من مدينتين مقترنتين يشق بينهما نهر كبير يسمى وادي فاس ومدينة فاس محدثة ، أسست عـدوة الاندلسيين في سنة اثنتين وتسعين ومائة (١٩٢هـ) وعدوة القرويين في سنة ثلاث وتسعين ومائة (١٩٣ هـ) .الحميري ، ص ٤٣٤ .

(١٢٦) ابن عذاري ، ص ٣٩٩ ، ٤٠٥ .

(١٢٧) المصدر السابق ص ٤٣٥ .

(١٢٨) جوليان ، تاريخ افريقية الشماليـة ، ص ١٦٢ .

(١٢٩) بدر ، تاريخ المغرب والاندلس ص ٢٣٤ .

(١٣٠) البيذق ، ص ٧٧ .

(١٣١) جوليان ، ص ١٦٢ .

(١٣٢) البيذق ، ص ٩٦ .

(١٣٣) ابن عذاري ، ص ٤٠٩ .

(١٣٤) المراكشي ، المعجب ص ٣٤١ .

(١٢٥) ابن عذاري ، ص ١٧٤ .

(١٣٦) ابن الاثير ، الكامل م١١ ص ١١٥ .

● حصلت المرشحة على شهادة الماجستير من قسم التاريخ في كليـة الآداب بجامعة دمشق ، برسالتهـا « الجيش والتنظيم العسكري في دولة الموحدين » المعدة باشـراف الدكتورة نجدة خماش .

سورية ولبنان

في تقرير اقتصادي ألماني (١٩٤١)

فولكر بيرتيس
باحث من ألمانيا

تمهيد :

في العام ١٩٤١ أصدرت احدى الشركات الصناعية الالمانية تقريرا مستفيضا عن البنية الاقتصادية لسورية ولبنان . ويكتسب هذا التقرير اهميته التاريخية لسببين: أولهما أنه يتضمن عرضا دقيقا ومستقلا لوضع سورية في فترة الانتداب ، وثانيهما أنه يشير ولو بشكل غير مباشر الى مصالح الامبريالية النازية في المنطقة . وهذه الشركة كانت تتبع ما يسمى مديرية الاقتصاد الوطني في (مجموعة صناعات الاصبغة) الالمانية (I. G. FARBEN INDOSTRIE)

تأسست هذه الشركة ، المعروفة باسمها المختصر (أ. غ. فربن I. G. FARBEN) أو (I. G. F) كاتحاد لاهم شركات الصناعات الكيميائية في المانيا ، وتطورت أثناء الحكم النازي لتصبح احدى مؤسسات الصناعات الحربية والمزود شبه الوحيد للجهاز الحربي الالماني بالوقود والمنتجات البتروكيميائية الاخرى ، واشتهرت بشكل خاص ومرعب بتجاربها على تأثير الغازات السامة التي أجراها علماؤها أثناء الحكم النازي على سجناء النظام ، وأخيرا بانتاجها للغاز السام (سيكلون ب) الذي استخدم لابادة المعتقلين في المعسكرات النازية .

وفضلا عن ذلك ، كانت الـ (أ. غ. ف.) كما جاء في تحقيق للسلطة العسكرية الامريكية في المانية بعد نهاية الحرب ، « احدى أهم أجهزة الدولة النازية للتجسس العسكري والاقتصادي العالميين »(١)

وكانت مديرية الاقتصاد الوطني المذكورة هي التي نسقت تلك المهمة ، فوضعت دراسات واحصاءات عن المؤشرات الاقتصادية والاجتماعية والمالية للبلدان الاوربية وكثير من البلدان غير الاوربية وخرائط لمواقع المؤسسات الاستراتيجية والاقتصادية فيها .

Vowi 4412

Wirtschaftsbericht

S Y R I E N / L I B A N O N .

Inhaltsverzeichnis

Teil A : Allgemeine Angaben	**Seite**	**A 1**
Teil B : Landwirtschaft	**"**	**B 1**
Teil C : Bergbau und Industrie	**"**	**C 1**
Teil D : Aussenhandel	**"**	**D 1**
Teil E : Währung, Kredit, Finanzen	**"**	**E 1**

Dr.F./Fw./Eb.
28.Juli 1941.

الصفحة الاولى من التقرير

Vowi 4412

Teil A : Allgemeine Angaben

Inhalt:

	Seite
Allgemeine Angaben	A 1
1. Das Land	A 2
2. Das Volk	A 4
a) Bevölkerungsverteilung und -dichte	A 4
b) Völker und Religionen	A 5
c) Soziale Gliederung	A 9
3. Politische Grundlagen	
a) Geschichte	A 11
b) Das französische Mandat Syrien/Libanon	A 12
c) Politische Gruppen	A 14
d) Verfassung und Verwaltung	A 16
Verkehrswesen	A 17
a) Strassen und Motorisierung	A 17
b) Eisenbahnen	A 19
c) Hafen	A 2o
d) Luftverkehr	A 22

الصفحة الثانية من التقرير

وليس هناك من تبرير لهذه الاعمال من موقف تجاري بحت ، ولكنها اكتسبت أهمية لا تقدر بالنسبة للحكومة النازية التي طمحت الى السيطرة على الدنيا ،ولجيشها تحديدا ، الذي استخدم الخرائط لاختيار اهداف القصف الجوي . وكانت الـ (ا. غ. ف.) ، كشركة عالمية ذات علاقات تجارية واسعة ولها شركات تابعة في كل دول العالم تقريبا ، تشرف على شبكة استعلامية مستقلة ومنظمة ، اكثرية علاقاتها التجارية غير مكشوفة . فكانت هذه الشبكة الجهاز المناسب للعمليات التجسسية التي كانت الحكومة النازية والجيش بحاجة اليها(٢) .

في سلسلة دراسات هذه المديرية صدر في تموز ١٩٤١ (التقرير الاقتصادي عن سورية ولبنان)(٣) ويقع في نحو ١٠٠ صفحة منسوخة على الالة الكاتبة . والغالب ان عدد نسخه لم يتجاوز المئة وزعت على الجهات ذات العلاقة ، اي على دوائر حكومية وعسكرية ، وغرف التجارة والصناعة ... وفيما يلي نقدم عرضا ملخصا للتقرير مع تعليق قصير .

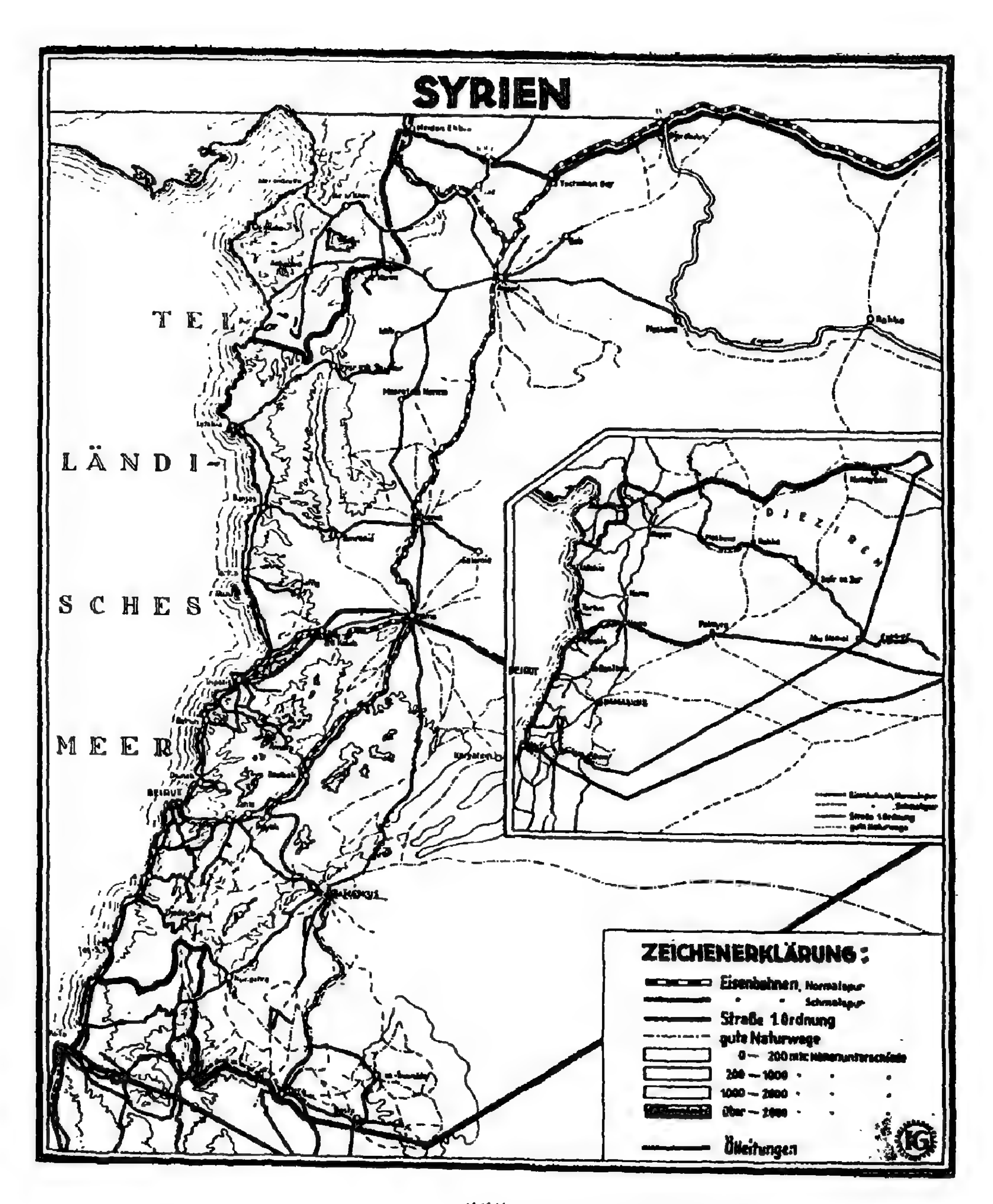
تلخيص التقرير :

ينقسم (التقرير الاقتصادي عن سورية ولبنان) الى خمسة أجزاء ولكل منها ترقيم خاص للصفحات . وهذه الاجزاء هي : ١ ـ معلومات عامة ، ٢ الزراعة ، ٣ ـ الاستخراج والصناعة ، ٤ ـ التجارة الخارجية ، ٥ ـ العملة والمصارف والمالية.

المعلومات العامة :

يبدأ هذا الجزء بعرض جغرافي ومناخي لمنطقة الانتداب ، سورية ولبنان ، يليه فصل عن (الشعب) . ويشكوا واضعو التقرير من عدم توافر معلومات دقيقة عن عدد السكان . وحسب تقديرات التقرير يبلغ عدد سكان بلاد الانتداب ما بين ٦ر٣ و ٨ر٣ مليون نسمة، ٣ر٥١٪ منهم في (دولة سورية) ،و٧ر١٠٪ في (منطقة اللاذقية) و ١ر٢٪ في (جبل الدروز) و ٦ر٢٨٪ في لبنان و ٣ر٦٪ في (منطقة الاسكندرون) (٤) . ويشير التقرير الى الدور المميز الذي تلعبه الاقليات القومية والدينية في سياسة السلطة المنتدبة .

ويتابع فيقول أن ٦٢٪ من السكان فلاحون و ٢٥٪ يعملون في المهن والحرف والتجارة ، أما الباقون ، وهم تقريبا نصف مليون نسمة ، فهم من البدو أو شبه البدو حسب تقديرات التقرير .ومستوى التعليم في سورية مرتفع بالمقارنة مع البلدان العربية الاخرى فيما يخص المدن التي كانت (نقطة انطلاق للنهضة الادبية العربية في نهاية القرن الماضي) ولكنها تعاني على مستوى البلاد من وجود نسبة عالية من الاميين ، اكثرها في الجزيرة (أعلى من ٩٠٪) وأقلها في بيروت (٤٢٪)(٥) .


SYRIEN
TEL
LÄNDI-
SCHES
MEER
BEIRUT
ZEICHENERKLÄRUNG:
Eisenbahnen, Normalspur
Schmalspur
Straße 1.Ordnung
gute Naturwege
0 — 200
200 — 1000
1000 — 2000
über — 2000
Ölleitungen

ويشير التقرير في هذا النطاق الى عدد ارتفاع المهاجرين من سورية ويفيد بأنه بلغ ١٥٫٠٠٠ مهاجر سنويا فيما بين عامي ١٩٠٠ و ١٩١٣ ، و ٩٠٠٠ مهاجر سنويا فيما بين عامي ١٩٢٣ و ١٩٣٣ ، ويشير الى ان تحويلاتهم المالية تعتبر ركنا مهما في ميزان المدفوعات في البلاد (٢) .

ويورد الفصل الثالث تلخيصا للتاريخ السياسي السوري والكتل السياسية المعاصرة والدساتير ونظم الانتداب الادارية ، ويقول انه ، عمليا ، « جميع السلطات بيد الادارة الفرنسية ومشاركة البلاد في الحكم ... تكاد تكون دون أهمية تذكر » . ويعالج الفصل الاخير لهذا الجهزء موضوع المواصلات ، ويورد أرقاما عن طول الطرق والسكك الحديدية حسب أنواعها ، وعن عدد السيارات والقطارات الموجودة (٨٢٠٠ سيارة سياحية و ٤٦٠ باصا و ١٨٠٠ سيارة شحن و ٩٠ قاطرة) .وعن حجم النقل عبر السكك الحديدية والمواني ، والمطارات ، وحركة المواصلات الجوية . وحسب التقرير تعد بلاد الانتداب بالمقارنة مع البلدان المجاورة ذات نسبة مرتفعة من المركبات الالية فنسبة السيارات الى عدد السكان في سورية ولبنان أعلى نسبة في الاقطار العربية ما عدا فلسطين . اما السكك الحديدية فيقدر التقرير ان موجوداتها من القاطرات والعربات غير كافية اطلاقا ، أضف الى ذلك مشكلة الانظمة المختلفة للطرق الحديدية (٧) .

الزراعـــة :

جاء في التقرير أن المساحة الصالحة للزراعة تبلغ نحو ٤٠ ألف كم٢ يستثمر نصفها ، ومنه ٢٠٠٠ كم٢ في لبنان(٨) وتعتبر الانتاجية المنخفضة أكبر مشكلات الزراعة السورية ، ويقول ان السبب الاول لهذه المشكلة يتعلق بالنظام الزراعي السائد ، أي غياب كبار الملاكين عن الريف وصغر حيازة المستأجرين ومديونيتهم . ويبلغ الحجم الوسطي للحيازة على اختلاف المناطق ٩ هكتارات ، في حين أن الحجم المطلوب لتأمين المعيشة هو بحدود ١٠ الى ١١ هكتارا (٩) .

ويورد التقرير احصاء للانتاج الزراعي وتصديره للسنوات ١٩٣٠ ـ ١٩٣٩ ، ويشيد في تقويمه لهذه الارقام الى صلاحية الريف السوري لتصدير كميات متصاعدة تدريجيا من الحبوب ، اذا كانت هناك سياسة زراعية هادفة ، والى صلاحيته لزراعة الفواكه . فالفواكه هي حسب الاحصاءات الواردة أكبر الصادرات الزراعية قيمة . وتجدر الاشارة الى أن الصادرات الزراعية غير المصنعة لا تتجاوز ٥٠٪ من مجموع الصادرات (١٠) . أما تغذية السكان فيفيد التقرير بأن بلاد الانتداب لو كان عليها أن تعيش من مصادرها الذاتية فقط لكان عليها أن تواجه صعوبات في تأمين بعض المواد الغذائية وخاصة اللحوم والسكر . ومع ذلك كانت البلاد اقل تبعية للاستيراد الغذائي من غيرها ، كفلسطين مثلا (١١) .

الجدول ١ ا
التقرير ، ١٦/٢

الانتـــاج الزراعـي
(الف طــن)(١)

	متوسط ١٩٣٢ ــ١٩٣٧	١٩٣٨/١٩٣٧(٢)	١٩٣٩/١٩٣٨ (٢)
الحبـوب			
قمـح	٤٤٢	٦٤٤	٦٠٧
شـعير	٣٠٠	٣٨٣	٣٧٠
شـوفان	—	١٠	٥
ذرة بيضاء وصفراء	٢٤٤	٢٧٥	—
القرنيـــات			
عدس	٢٦	٢٨	٤٣
بـزلاء	١١	١٦	١٩
فاصولياء	١١	١٣	١٤
النباتات الصناعيـة			
قطـن	٧	٦	٨
بذر قطن	١٤	١٢	١٨
تبـغ	٥	٥	٣
سمسـم	٣	٤	٥
قنب هندي	٢	٥	٤
الفواكـه			
زيتـون	٦٢	٨٩	٨٩
حمضيات	٤٦	٥٣	٥٣
مــوز	٩	١٠	١٣
تيـن	١٥	١٩	١٥
مشـمش	١٤	٣٢	٣٢

(١) انتاج سنجق الاسكندرونة ضمن هذه الارقام .
(٢) سنة الحصـــاد .

الاستخراج والصناعة :

يفيد التقرير في بداية هذا الجزء أن على سورية ولبنان أن تستوردا كل حاجاتهما من الفحم والنفط ، ويقدر حاجة البلدين من المنتجات النفطية بـ ١٠٠ الف طن سنويا، ويشير الى أن تنقيبات استكشافية في شرق سورية بينت احتمال استخراج ما بين مليون ومليون ونصف طن من النفط سنويا في المستقبل . مع أن الشركة المالكة لامتياز التنقيب عن النفط في سورية لم تبد اهتماما كبيرا للاستفادة من هذا الامتياز . وفي الوقت الحالي يبدو خط أنابيب النفط العراقي أكثر اهمية من الحقول النفطية غير المستثمرة في سورية .

وحسب ما جاء في التقرير فان فرنسا ، كمساهم في شركة النفط العراقي ، قد عملت على عبور هذا الخط سورية ولبنان في طريقه للمتوسط(١٢) .

ويذكر التقرير محطات توليد الكهرباء فيسورية ولبنان وكمية الطاقة المولدة فيها والتي تتراوح ما بين ٤٠ و ٥٠ مليون ك.و.س. سنويا ويعد ذلك قليلا نسبيا . ويذكر الاسفلت (الزفت) كأهم الثروات المعدنية التي يجدر استخراجها في سورية (١٣) .

ويرسم التقرير بالتالي صورة تفصيلية عن الصناعة السورية ـ اللبنانية ،ويؤكد في البدء أن الصناعة السورية كانت أثناء الحكم التركي متطورة ومتعددة الجوانب ، وان في ذلك الوقت استغل نحو ١٥ بالمئة من أصحا بالنشاط الاقتصادي جهدهم في الصناعات المختلفة ، وأن انهيار الحرف المحلية قد جاء بعد الحرب العالمية (الاولى) وذلك لسببينرئيسيين،أولهما فقدانسورية لجزء من أسواقها التقليديةفيالامبراطورية العثمانية ، وثانيهما التغيرات التي طرات على أساليب الاستهلاك السائدة (١٤) . ومع ذلك يقدر التقرير امكانيات التصنيع الذي انطلق اعتبارا من ١٩٢٩ / ١٩٣٠ بأن لا بأس بها خصوصا فيما يختص بالصناعات الخفيفة ، وذلك لان قوة عمل رخيصة وعاطلة كانت متوفرة ، ومن شأنها أن تشكل ، اذا بقيت دون نشاط كما يقول التقرير ، بؤرة لعدم الاستقرار الاجتماعي وأرضا خصبة للنشاطات الشيوعية . ولكن تطوير الصناعة السورية يتعارض مع مصالح فرنسا الاقتصادية التي (ليست مع تصنيع بلاد الانتداب)(١٥) .

ويعرض التقرير لأهم المنشآتالصناعية السورية واللبنانية ويورد بعضالمعلومات عن القوة العاملة ، وانتاج المنشآت ورؤوس أموالها . وتحتل الصناعات النسيجية المرتبة الاولى بين الصناعات السورية ولكنها حسب قول التقرير لم تعد قادرة أن تغطي الحاجات المحلية ، وتليها صناعة الزيوت والصابون التي تعاني من المزاحمة الاجنبية القوية ، والصناعات الغذائية وصناعة الاسمنت الفتية . وأهم المنشآت الصناعية هي حسب ما أورده التقرير التالية :

الجدول ٢ أ
التقرير ، ٢٤/٤

الصـــادرات الســـورية
تصدير سورية حســـب الدول المســـتوردة
النســـبة المئويـــة

	١٩٣٤	١٩٣٥	١٩٣٦	١٩٣٧	١٩٣٨
فلســـــطين	٣٧ر٩	٤٨ر٦	٣٦ر٤	٣١ر٤	٢٧ر٦
فرنســـــا	١٦ر٦	٨ر٩	١٧ر٤	١٤ر١	١٧ر٦
ايطاليـــــا	٤ر٤	٤ر٠	٢ر٦	١٠ر٢	٧ر٧
بريطانيـــــا	٤ر٧	٥ر٩	٨ر٠	٦ر١	٦ر١
الولايات المتحدة	٤ر٣	٥ر٠	٩ر٠	١٤ر٥	٦ر٠
مصـــــر	٤ر٧	٦ر٩	٥ر٤	٣ر٦	٥ر٧
بريطانيا وممتلكاتها	٠ر٢	٠ر١	١ر٤	٠ر٥	٠ر٧
ايـــران	٠ر١	٠ر٠	٠ر٠	—	—
العـــراق	٥ر٧	٣ر٢	٢ر٣	٣ر٠	٣ر٢
تركيـــا	٢ر٨	١ر٩	٢ر٠	٣ر٣	٢ر٢
العربية السعودية	٠ر٥	٠ر٤	٠ر٥	٠ر٨	٠ر٨
المانيـــا الكبرى	٤ر٠	٣ر٥	٢ر٧	٣ر٢	٦ر٥
سويســـرا	٠ر١	٠ر٠	٠ر٠	—	—
هـــولانـــدا	٠ر٢	٠ر١	٠ر١	٠ر٢	٠ر٨
بلجيكـــا	٠ر٩	١ر٤	٢ر١	٠ر٥	١ر٧
يوغســـلافيا	—	—	—	—	—
رومانيـــــا	٠ر٦	٠ر٤	٠ر٢	٠ر٥	٠ر٩
اليونـــــان	٠ر١	٠ر٢	٠ر٣	٠ر١	٠ر٥
الســـويد	٠ر٠١	٠ر١	—	—	٠ر١
اليـــابـــان	—	—	٠ر٦	١ر٣	٠ر٩
الاتحاد السوفييتي	٣ر٩	٠ر٨	٠ر٤	—	—
دول أخرى	٨ر٣	٨ر٦	٨ر٦	٦ر٢	١٢ر٠
المجمـــوع	١٠٠ر٠	١٠٠ر٠	١٠٠ر٠	١٠٠ر٠	١٠٠ر٠

الجدول ٢ ب
التقرير ، ٢٦/٤

الواردات السورية حسب الدول المصدرة
(النسبة المئوية)

	١٩٣٤	١٩٣٥	١٩٣٦	١٩٣٧	١٩٣٨
بريطانيا	١١ر١	١٠ر٩	١١ر٢	١٠ر٣	١٣ر٤
فرنسا	١٦ر٣	١٣ر٥	١٣ر٤	١٢ر٣	١٣ر٠
اليابان	١١ر٣	١٠ر٠	١٢ر٧	١٢ر٩	٨ر٩
الولايات المتحدة	٥ر٩	٧ر١	٦ر٥	٦ر١	٧ر١
بريطانيا وممتلكاتها	—	—	٣ر٥	٢ر٨	٢ر٨
مصر	٢ر٤	٣ر٣	٣ر٢	٢ر٣	٢ر٧
ايران	٠ر٩	١ر٠	٠ر٩	٠ر٣	٠ر٣
العراق	٢ر٩	٥ر٢	٣ر٤	٢ر٢	٣ر٣
فلسطين	٢ر٨	٣ر٨	٤ر٣	٦ر٢	٦ر١
تركيا	٨ر١	٦ر٠	٢ر٥	١ر٥	٢ر٩
العربية السعودية	٠ر٠	٠ر٠	٠ر٠	٠ر٠	٠ر٠
المانيا الكبرى	٩ر٣	١٠ر٦	١١ر٩	١٠ر٦	١٠ر١
ايطاليا	٥ر٨	٤ر٣	١ر٩	٧ر٦	٦ر٠
سويسرا	٠ر٦	٠ر٦	٠ر٨	٠ر٨	١ر١
هولاندا	١ر٦	١ر٣	١ر٣	١ر٧	١ر٢
بلجيكا	٤ر٦	٥ر٥	٦ر٦	٥ر٧	٤ر٧
يوغسلافيا	٠ر٥	٠ر٥	٠ر٤	٠ر٢	٠ر٣
رومانيا	٥ر٠	٥ر٣	٦ر٢	٦ر٧	٦ر٦
اليونان	٠ر٣	٠ر٢	٠ر٢	٠ر١	٠ر٢
السويد	٠ر٥	٠ر٧	٠ر٩	١ر٢	٠ر٨
الاتحاد السوفييتي	٠ر٦	١ر٠	١ر٢	٠ر٨	٠ر١
دول اخرى	٩ر٦	٩ر٢	٦ر٩	٧ر٨	٨ر٦
المجموع	١٠٠ر٠	١٠٠ر٠	١٠٠ر٠	١٠٠ر٠	١٠٠ر٠

ـ محالج القطن في كل من اللاذقية وحمص وحماة وحميدية (؟) .

ـ معملين حديثين للغزل والنسيج في حلب ومعمل في طرابلس يضم ٣١ الف نول طاقته الانتاجية ٢٤٠٠ طن من الغزول بمجملها .

ـ معمل حديث لانسجة صوفية في كل من دمشق وبيروت ويبلغ انتاج سورية من الصوف الخام ٩٩٠٠ طن (في عام ١٩٣٨) ، ولكن استيراد المنتوجات الصوفية يفوق تصديرها بكثير .

ـ عدة معامل لنسج الحرير الصناعي في حلب ودمشق .

ـ عدة معاصر صغيرة للزيت ، وشركة فرنسية لعصر الزيوت تملك معملا في كل من اللاذقية وحارم . وبلغ نتاج زيت الزيتون نحو ١٥ الف طن (في عام ١٩٣٨) يصدر أكثر من نصفه .

ـ عدة معامل للصابون في حلب ودمشق ولبنان انتاجها الاجمالي نحو ٣٥٠٠ طن سنويا .

ـ مدابغ في دمشق وحلب وصناعة الاحذية بطريقة حرفية .

ـ مطاحن في حلب ولبنان ودمشق .

ـ الشركة السورية للكنسروة بدمشق ، وراسمالها ٢٤٧٫٥ الف ل.س . وعدة معامل صغيرة لصناعة الكنسروة والمربيات والحلويات .

ـ معمل تصفية السكر قرب طرابلس يعمل فيه ١٢٠ عاملا وانتاجه ٤٫٠٠٠ طن من السكر سنويا .

ـ صناعة التبغ والتنباك تابعة لل (ريجي) مع العلم ان استيراد السجائر يفوق تصديرها .

ـ معملان كبيران للبيرة في بيروت وعدة معامل للكحول في لبنان ودمشق وحلب .

ـ مصنع اسمنت في طرابلس يشتغل فيه ٥٠٠ عامل وانتاجه السنوي ١٧١٫٠٠٠ طن ، ومعمل اسمنت في دمر راسماله ١٤٤ الف ل.س وانتاجه ٨٠ الف طن (في عام ١٩٣٨)(١٦) .

التجارة الخارجية :

يعطينا التقرير احصاءات كاملة تقريبا عن الميزان التجاري السوري ـ اللبناني والاستيراد والتصدير وتجارة المرور حسب الزمر الاقتصادية والمواد حسب الكمية

والقيمة ، وعن الكتل الدولية والبلدان المستوردة او المصدرة من والى بلاد الانتداب وذلك لفترة ١٩٣٦ الى ١٩٣٨ ، وفي بعض الجداول اعتبارا من ١٩٣٥ ، ويفيد بجزء خاص عن التجارة السورية الالمانية . ومع اختصار شديد تمكننا هذه المعلومات من استخلاص النتائج التالية :

ـ كان الميزان التجاري لسورية ولبنان سلبيا باستمرار وبلغ النقص التجاري قيمة الصادرات في أكثر الاحوال . مع أن البلاد تمكنت في الفترة الممتدة بين ١٩٢٩ و ١٩٣٨ من زيادة صادراتها بشكل ملحوظ . ومعنى هذا أن شروط التجارة (١٩٢٩ سنة الاساس) قد تغيرت لغير صالح سورية . وعلى سبيل المثال بلغ الرقم القياسي لكمية التصدير السوري (٤٦١ر٥) في عام ١٩٣٧ و (٣٧٧) في عام ١٩٣٨ بينما بلغت قيمته (٣٤ر٢) و (٤٢ر٠) و (٤٤ر٦) مليون ليرة سورية في هذه الاعوام نفسها (١٩٢٩ و ١٩٣٧ و ١٩٣٨) ولم تحدث تغيرات كبيرة مماثلة بالنسبة للمستوردات التي بقيت كمياتها ثابتة تقريبا(١٧) . وكان الميزان التجاري سلبيا بين بلاد الانتداب والبلدان الصناعية ، بينما كان ايجابيا بالنسبة للتجارة مع فلسطين والسعودية .

وكانت فلسطين أهم المستوردين لبضائع سورية وبلغ مجموع مستورداتها من الصادرات السورية ما بين ٢٧ر٦ و ٤٨ر٦ بالمئة ، في فترة ١٩٣٠ و ١٩٣٨ . وأهم البلدان المصدرة الى سورية ولبنان هي بريطانيا وفرنسا وبلغ نصيبهما من الاستيراد السوري ١٣ر٤ بالمئة لبريطانيا و ١٣ر٠ بالمئة لفرنسا في عام ١٩٣٨ . ويتألف الجزء الاهم من الصادرات السورية واللبنانية من منتوجات زراعية مصنعة وغير مصنعة . ويزداد تصدير الفواكه والبقول والكنسروة تدريجيا من سنوات ١٩٣٦ الى ١٩٣٨ . أما المستوردات فتفوق السلع الاستهلاكية الاصول الثابتة التي كانت تتألف من فحم ومنتجات نفطية (١٨) .

العملة والمصارف والمال :

يعرض التقرير هنا أولا للنظام النقدي السوري ـ اللبناني ويشير الى مشكلة ارتباط العملة السورية بالفرنك الفرنسي، ويقول انه يوجد في الواقع نظام نقدي مزدوج أو بالاحرى نظامين نقديين وذلك بسبب محافظة قسم كبير من السكان على التعامل بالليرة الذهبية التركية ، وأن تداولها منتشر خاصة في شرق البلاد وعند البدو وذلك لعدم الثقة بالعملة الورقية (١٩) . ويذكر التقرير قائمة بأهم البنوك العاملة في بلاد الانتداب ، ويعرض للنظام المالي لدويلاتها وجداول ميزانيات (المصالح المشتركة) والدويلات الاربع للسنوات ١٩٣٦ الى ١٩٣٩(٢٠) ويشير الى أن واردات الدولة في سورية تتكون بجزء كبير منها من الضرائب الزراعية التي تشكل ما بين ٣٥ و ٤٠ بالمئة من الدخول كافة ، بينما الجزء الاكبر من واردات ميزانية لبنان يتألف من ضرائب غير

مباشرة ، أي ضرائب على الوقود والملح والتبغ بالاضافة الى الرسوم وضريبة العقار . أما النفقات فيستهلك الجيش والامن ثلث الواردات تقريبا . ويقول التقرير أن سورية لو كانت مستقلة لكانت (غير قادرة على تأدية نفقات عسكرية مماثلة) . ويستخدم ما بين ٢٠ و ٢٥ بالمئة من الميزانيات للاشغال العامة والنفقات الاجتماعية(٢١) .

وفي ختامه يعطي التقرير قائمة بأهم المصالح الاقتصادية الفرنسية في سورية ولبنان وهذه هي حسب التقرير :

- البنك السوري – اللبناني ، رأسماله ٣٨ر٢٠ مليوك فرنك فرنسي (ف. ف).
- شركة كهرباء بيروت ، رأسمالها ٩٠ مليون (ف . ف) .
- شركة كهرباء حلب ، رأسمها ٥٤ مليون ف. ف .
- مؤسسة السكك الحديدية دمشق – حماة وتمديداتها ، رأسمالها ١٥ مليون ف. ف.
- شركة مرفأ بيروت ، رأسمالها ٩ر١٥ مليون ف. ف .
- الشركة العامة للشرق (لصناعة الزيوت الخ) ، رأسمالها ٥ر٣ ملايين ف. ف.
- الشركة الصناعية للاسفلت والبترول، اللاذقية ، رأسمالها ٢٠مليون ف. ف.
- مؤسسة اذاعة الشرق ، رأسمالها ٧ر٦ ملايين ف. ف .

تعليـــق :

قد يثير التقرير الاقتصادي لسورية ولبنان الذي وضع في مديرية الاقتصاد الوطني لل (أ. غ. ف.) الدهشة لأول وهلة لأنه يحلل الوضع السوري بدقة وموضوعية على ما يبدو ، وذلك دون أن يتهرب من تسمية الاضرار التي سببتها سياسة الانتداب الفرنسي والمصالح الاقتصادية الفرنسية * انما الدهشة لا تستمر طويلا ، لأن التقرير يعالج فيها استعمار فرنسا – التي هي في الوقت ذاته كانت الخصم والعدو الحربي لألمانيا النازية ، ولا يطرح السؤال مثلا كم من الرساميل الفرنسية العاملة في سورية قد وضعت تحت التصرف الالماني نتيجة للاحتلال الالماني لفرنسا . والرأسمال الالماني – وهذا يجب أن لا يغيب عن بالنا حتى ولو أن احدى مؤسساته تكشف بشكل واضح عن النتائج السلبية للسياسة الاستعمارية لبلد ثاني – ليست مصلحته احداث تغير في

---

* ويجب أن ناخذ بعين الاعتبار ان الاستغلال الاقتصادي الذي مارسته الاحتكارات الالمانية وال (ا. غ. ف .) تحديدا في تلك البلدان التي احتلتها الجيوش النازية فاقت كثيرا الاستغلال الاستعماري التقليدي في مستعمرات بريطانيا أو فرنسا ، بما في ذلك الاستعمار الفرنسي في سورية ولبنان .

علاقات الملكية ، بل مصلحته هي تبديل الجهة المالكة ، اي سيطرة راس المال الالماني على ما كان يسيطر عليه غيره من أملاك الغير .

وثانيا يجب أن نأخذ بعين الاعتبار أن هذا التقرير لم يكن الا تقريرا داخليا ، غير معد للنشر ، بل للتوزيع على عدد محدود من دوائر ومؤسسات حكومية واقتصادية ، كانت تحتاج الى تحاليل وأرقام موضوعية كي تضع سياستها . وبالمناسبة ، يجب التنبيه الى انه علينا أن نواجه كل المعلومات الواردة في هذا التقرير بالتحقظ المناسب الذي يجب أن يظهر في وجه كل الاحصاءات والارقام التي نتعامل معها بالنسبة للفترة التاريخية هذه .

أما ما يفيدنا به التقرير الاقتصادي لسورية ولبنان ضمنيا ، ظهر أولا أن منطقة الانتداب هذه لم تلعب الا دورا ثانويا بالنسبة للامبريالية الحربية الالمانية ، وهذا على الاقل في الفترة التي كتب فيها التقرير .ذلك لأن من الوجهة الاقتصادية، كانت المصلحة الرئيسية للامبريالية الالمانية في الحرب هي تزويد الجهاز الحربي بالخدمات اللازمة . وبهذا الصدد يقول التقرير أن كمية الخامات السورية المستوردة الى المانيا قد كانت ، أي ماقبل قطع الطرق التجارية نتيجة العمليات الحربية « قليلة الى حد أنها لم تكن قادرة على تأدية نصيب يذكر لصالح التموين الالماني »(٢٣) . أما المؤسسات الاقتصادية الموجودة في سورية فأهمها ، أي البنوك وشركات توليد الكهرباء الكبيرة و (الريجي) وصناعة الزفت ، كانت في يد الفرنسين ، وفرنسا نفسها كانت تحت احتلال الجيوش الالمانية ، وسمحت حالة الاحتلال هذه للامبريالية النازية أن تؤثر — في حال الضرورة — على تصرفات الرأسمال الفرنسي حتى الموجود منه في الخارج. واهمية سورية بالنسبة للامبريالية الالمانية هو أكبر من وجهة نظر استراتيجية وهذا خصوصا فيما يتعلق بالطموحات الالمانية باتجاه العراق وحقوله النفطية . وتشكل سورية هنا حسب تعبير التقرير « رأس الجسر لكل الطرق التي تمر برا من البحر المتوسط الى آسية الداخلية »(٢٤) . وهكذا نرى التقرير يهتم بالطرق السورية والمطارات المدنية منها والعسكرية وبنظام الدفاع الجوي(٢٥)بالاضافة الى خط انابيب النفط العراقي، ويشير تحديدا الى ان هناك مستودعات كبيرة مملوءة بالنفط عند محطات ضخ الانابيب وفي طرابلس وانه لذلك (يجب أن يحسب حساب للوجود الدائم لاحتياجات كبيرة في منطقة الانتداب في حال الانقطاع المؤقت للخط النفطي)(٢٦) .

انما حين كتب التقرير ، وعلى الرغم من أهمية سورية الاستراتيجية التي يشير اليها ، فلم يشعر العسكريون الالمان بضرورة ماسة لتصميم اقتحام أو احتلال المنطقة، وذلك لانه حتى تموز ١٩٤١ كان هناك مندوب حكومة (فيشي) الفرنسية المتعاونة مع المحتل الالماني بحكم الانتداب ، ومعنى ذلك انه كان باستطاعة الجيوش الالمانية استخدام

الجدول ١ ب
التقرير ، ١٣/٤

التصدير السلعي السوري
(الكميات بالطن - بالوحدة)

	١٩٣٦	١٩٣٧	١٩٣٨
١ - مواد غذائية :			
حيوانات حية	٧٩	٣٩	٦٠
زبدة	٣٣٩	١٦٤	٤٨٨
بيض	٥ر٥٧٦	٥ر٣٥١	٥ر٦٢٠
أمعاء	٧٢	١٢١	٨٤
حبوب ودقيق	١٦٤ر٣٠٣	٦٤ر٨٠٧	٧١ر٢٨١
فاصولياء وعدس	١٣ر١٢٩	٨ر٤٥٩	١٦ر٢٦٢
بصل	١٠ر١٧٥	٢١ر٢٤٣	٢١ر٧٢٢
برتقال	٦ر٢٣٥	١٥ر٨٩٩	١٩ر٠٨٩
ليمون	٨ر٠٤٨	١٠ر٦٨٢	٩ر٣٠٠
كونسروة	٢ر٤٠٩	٣ر٥٤٧	٥ر١٠٩
زيتون	١١ر٥٩٥	١٥ر٧٠٦	٩ر٨٩٠
زيوت نباتية	٨ر١١٥	٨ر٩٣٨	٩ر٠٨٨
تبغ - تبغ مصنع	٧٧٥	١ر٢٠٨	١ر٩٣١
٢ - مواد صناعية خام :			
قطن	٣ر٤٨٥	٣ر٠٣٢	٢ر٠٢١
صوف	٣ر١٨٢	٣ر٩١١	١ر٧٢٢
حرير	١٩٤	١٨٢	٢٦٩
جلود خام	١ر٣٠٤	١ر٤٦٢	٥٥٩
٣ - مصنوعات :			
اسمنت	٢٨ر٧٨٨	٦٥ر١٨٨	٤٨ر٦٢٤
صابون	٧٤٥	١ر١٠٢	١ر١١٨
جلود مصنعة	٨٥٠	١ر٠٥٣	٨١٩
أثاث	٥٧٥	٦٠٢	٤١٥
خيوط قطنية	٦٧	٤٤٢	٢٣٢
منسوجات من حرير صناعي	١٧٦	٣٠٠	٣٠٠
منسوجات تركيبية	٢٥٣	٣٦٤	٣٨١

المرافق الاستراتيجية السورية اذا كانت الامور تتطلب ذلك ، وهي فعلا استخدمت المطارات العسكرية وصممت استخدام السكة الحديدية المارة من حلب الى بغداد(٢٧). واعتبارا من منتصف عام ١٩٤١ حين حررت جيوش (فرنسا الحرة) وبريطانية منطقة الانتداب من سيطرة حكومة فيشي اخذت مصلحة الحكومة النازية في اقامة جيوش المانية في الشرق الاوسط تتضاءل وذلك لان كل الجهود الحربيةالالمانية منذ تموز ١٩٤١ تركزت على الحرب التتي شنها النازيون ضد الاتحاد السوفييتي .

أما الاقتصاد السوري فهناك برأيي شيئان رئيسان ملفتان للنظر ، أولهما النصيب الكبير الذي تشترك به فلسطين في التجارة الخارجية السورية ، وتبلغ هذه النسبة كما ذكرنا ما بين ثلث ونصف الصادرات السورية ويعادل ذلك مبلغا من ٣ — ٨ مليار ليرة سورية . وهذا يشير ـ اضافة الى كل ما يفيده من دلالات على القوة الاقتصادية الفلسطينية وعلى قوة الارتباط الاقتصادي بين سورية ولبنان وفلسطين المستمر رغم الحدود الاستعمارية ـ يشير الى عامل يجب أن يؤخذ في الحسبان في بداية الفترات اللاحقة للتاريخ السوري ، ويدور حول الخسارة الاقتصادية الكبيرة التي عانت منها سورية من جراء انشاء دولة اسرائيل في عام ١٩٤٨ .

والثاني : وهذا أيضا يتعلق بالتجارة الخارجية السورية ، هو بالنسبة للمنتجات المصنعة في الصادرات السورية ، والتي تتكون من الزبدة والطحين والكنسروة والزيوت النباتية والاسمنت والصابون والجلود المدبوغة والاثاث ومختلف الغزول والانسجة والملابس والاحذية وما يضاف الى ذلك من مصنوعات أخرى مختلفة التي تبلغ أكثر من نصف قيمة الصادرات السورية واللبنانية ، بينما لا تشكل الخامات الصناعية مثل القطن والصوف والحرير والجلود (الخام) أكثر من ١٠ بالمئة من صادرات سورية ، في عام ١٩٣٨ . أضف الى ذلك أن حصة فرنسا من الصادرات السورية لا يزيد عن الـ٦ر١٧ بالمئة والحصة الانكليزية تبقى بحدود الـ ٦٪ ، وأن التصدير السوري الى بلدان المنطقة أي فلسطين كما ذكرنا والسعودية والعراق وتركية ومصر والاردن يزيد عن ٥٠٪ باستمرار . أما الاستيراد السوري من هذه البلدان ويبلغ ١٥٪ من كافة مستورداتها، واذا أخذنا كل ذلك بعين الاعتبار يبدو أن الاقتصاد السوري واللبناني لا يعطي صورة اقتصاد استعماري مثالي ، فيما يتعلق بتجارة الانتداب الخارجية على الاقل .

الحواشـــي

(١) انظـر :
O. M. G. U. S. (Office fof Military Government for Germany, Uniteb States) ; Ermittlungen gegen die IG Farbennidustrie - September 1945 - NÖrdlingen 1986, p. 319 .

(٢) المصدر نفسـه ، ص ٣٢٠ ـ ٣٢١ .

(٣) انظـر
IG Farbenindustrie AG, Volkswirtschaftliche Abteilung, Berlin; Wirtschaftsbericht Syrien / Libanon(VOWI 4412) , Berlin, 28 . Juli 1941 .

الوثيقة موجودة في (أرشيف باير ، ليفركوسن) ، ألمانيا الاتحادية .

(٤) المصدر نفسه ، ج١ ، ص٥ .
(٥) ص ١٠ .
(٦) ص ١١ .
(٧) ص ١١ .
(٨) المصدر نفسه ، ج٢ ، ص١ .
(٩) ص ٥ .
(١٠) ص ١٦ .
(١١) ص ١٨ .
(١٢) المصدر نفسه ، ج٣ ، ص ٣ .
(١٣) ص٤ وما بعدها .
(١٤) ص ٧ .
(١٥) ص ٧ .
(١٦) ص ١١ الى ٢١ .
(١٧) المصدر نفسه ، ج٤ ،ص ١ـ٢ .
(١٨) ص ١٢ ـ ٢٦ .
(١٩) المصدر نفسه ، ج٥ ، ص ٢ .
(٢٠) ص ٦ـ ٧ .
(٢١) ص ٨ .
(٢٢) ص ٩ .
(٢٣) المصدر نفسه ، ج٤ ، ص ١٠ .
(٢٤) ج١، ص ١٧ .
(٢٥) ص ٢٢ .
(٢٦) المصدر نفسه ، ج٢ ، ص٣ .
(٢٧) انظر لموضوع استخدام الجيش الالماني المرافق العسـكرية في سـورية في عـام ١٩٤١ ، كتـاب وليد المعلم : سورية ـ الطريق الى الحرية،دمشق ١٩٨٨ ص ٢٥٣ وما بعدها .

فهرس – ١٩٨٧ ، ١٩٨٨

العددان ٢٥و٢٦ ، آذار – حزيران ١٩٨٧

– البنيـة الاجتماعيـة والاقتصاديـة لمحلـة بـاب مصلي (الميـدان) بدمشـق ١٨٢٧ – ١٨٧٥ .

د. عبد الكريم رافق

– الادارة في الاندلس في عهد عبد الرحمن الداخل .

د. نجـدة خماش

– العلاقات الاقتصادية – الاجتماعية في منطقة ما بين النهرين السورية (في القرنين الخامس والسادس) .

د. نعيـم فـرح

– مملكة يمحاض (حلب)

د. شوقي شعث

– سورية في عصور ما قبل التاريخ .

د. سلطان محيسن .

– حركة تدوين الانساب في العصر العباسي الاول .

مريم محمد خير الدرع

– ذيول مؤرخي الصائبة على تاريخ الطبري .

سميحة أبو الفضـل



العددان ٢٧و٢٨ ، ايلول ــ كانون اول ١٩٨٧

ــ الرؤية القومية لكتابة تاريخ الخليج العربي .

د. مصطفى عبد القادر النجار

ــ السمات الاساسية للحركة القومية العربية
في ظل تحالف القوى البرجوازية الوطنية والصغيرة في سورية .

د. نجاح محمد

ــ مصالح فرنسا الاقتصادية في سورية (١٥٣٥ ــ ١٩٢٠)

د. محمد رجائي ريـــان

ــ القطائع في صدر الاسلام (عصر الرسول والخلفاء الراشدين) .

د. محمد عبد القادر خريسات

ــ يخدون ـ ليم ملك ماري
وثيقة تأسيس معبد اله الشمس (شماش) في ماري .

د . عيد مرعي

ــ المراة في مملكة حلب (يمحاض) في القرن الثامن عشر قبل الميلاد .

د. فيصل عبد الله

ــ ملوك ابـــلا العشرة .

قاسم طويـــر

ــ هل للعبرانيين وجود في ابـــلا

قاســـم طويـــر

ــ هل جائت التوراة من جزيرة العرب .

د. محمود ابو طالب

ــ المؤتمر الدولي الثالث والثلاثون لعلماء الاشوريات .

د. فيصل عبد الله

ــ الهجرة الجزائرية الى بلاد الشام في مطلع القرن العشرين ١٩٠٩ــ١٩١١ .

ناديا طرشــون

ــ رجال الادارة والسياسة والجيش من المغاربة والاندلسيين في مصر (من القرن السابع حتى نهاية القرن التاسع للهجرة) .

علي أحمــد

* * *

العددان ٢٩و٣٠ ، اذار ـ حزيــران ١٩٨٨

ـ الخراج والجزيــة في عهد الرسول (ص) .

د. صالح موسى درادكة

ـ العشور ـ ضرائب التجارة في صدر الاسلام .

د. فالح حســين

ـ الادارة المالية في المملكة السلوقية .

د. مفيد رائف العابـد

ـ مدينة حمص في العهد الروماني .

عبد الحميد عز الدين

ـ ادريمي ملك الالاخ .

د. عيد مرعي

ـ بعض الاسس النظرية للصناعات الحربية في العهد الايوبي والمملوكي .

المهندس آذار علي

ـ ابن فضل الله العمري وكتابة مسالك الابصار في ممالك الامصار .

سيف الدين القصير

ـ نظــام الحسبة في الاسلام .

محمد ذيسود

ـ مؤسسة الطلبة في دولة الموحدين .

فارســ بوز

ـ من تاريخ حلب ـ حكم قســيم الدولة آق سنقر .

محمـد ضامن

ـ الاقطاع العسكري في العهد الايوبي .

امين ابــو دمعــة

DIRASAT TARIKHIYYAH

Revue historique trimestrielle

S'interesse a L'histoire des Arabes

Pubièe par la Commission de Redaction de l'Histoire des Arabes

10e année, No 31-39, Mars - Juin 1989

دراسات تاريخية

مجلة علمية فصلية محكمة

تعنى بالدراسات حول تاريخ العرب

تصدرها لجنة كتابة تاريخ العرب بجامعة دمشق

السنة العاشرة، العددان ٣٣ و ٣٤، ايلول - كانون الاول ١٩٨٩

DIRASAT TARIKHIYYAH

Revue historique trimestrielle

S'interesse a L'histoire des Arabes

Pubièe par la Commission de Redaction de l'Histoire des Arabes

● بدل الاشتراك السنوي :

للافـراد : (٥٠) ل.س خمسون ليرة سورية

للمؤسسات : (١٠٠) ل.س مائة ليرة سورية
(تضاف اليها اجور البريد)

في البلاد الاجنبية : (١٠) عشرة دولارات اميركية
(بما فيها اجور البريد)

يتم تسديد بدل الاشتراك :

● بحوالة بريديـة الى لجنـة كتابة تاريـخ العـرب ، مجلـة دراسات تاريخيـة ، جامعة دمشـق .

● بتحويل القيمة الى حساب جامعة دمشق المفتوح في مصرف سورية المركـزي تحت رقم ٢٣/٢٣٢٣ .

يمكن للراغبين باقتناء مجموعات الاعداد الصادرة في السنوات السابقـة الاشتراك بالبدل نفسه لكل سنة من السنوات : (١٩٨١ ، ١٩٨٢ ، ١٩٨٣ ، ١٩٨٤ ، ١٩٨٥، ١٩٨٦ ، ١٩٨٧ ، ١٩٨٨) .

المراسلات : مجلة دراسات تاريخية

جامعة دمشق ــ لجنة كتابة تاريخ العرب

المكاتب : جامعة دمشق ــ كلية طب الاسنان ط ٣ ــ هاتف ٢٢٢٤٦١

دراسـات تاريخية
١٩٨٩ / ٣ ــ ٤
٣٣ ــ ٣٤

دراسات تاريخية

السنة العاشرة ، ٣٣ و ٣٤ ، ايلول ـ كانون الاول ١٩٨٩

※ عصر النهضة العربية ونشأة الفكر القومي وتطوره (بلاد الشام)

د. احمد برقاوي ١١

※ جانب من فعاليات محب الدين الخطيب (الجانب الصحفي) .

د. سهيلة الريماوي ٢٣

※ نموذج في دراسة تاريخ واصول العشائر الاردنية (معان) في الوثائق العثمانية

د. سعد ابو دية ٤٩

تنويـه

- **الآراء الواردة في المجلة تعبر عن وجهة نظر صاحبها**
- **ترتيب البحوث يخضع لاعتبارات فنيـة**

* علم التاريخ عند المسلمون وتطوره (في القرن الرابع الهجري)

د. محمد رجائي ريـان ٧٥

* القصص والقصاص في صدر الاسلام بين الواقع التاريخي والنظرة الفقهية

د. جمال محمد داود جودة ١٠٥

* البنية النظرية لكتاب الانيق في المناجيق لابن أرنبغا الزردكاش

م. آزاد علـي ١٤٣

* من تاريخ اللغة العربيـة

د. مسـعود بويـو ١٦١

شـروط النشـر في المجلـة

ان مجلـة دراسـات تاريخيـة هي جزء مـن **مشروع كتابـة تاريخ العـرب** ، وخطوة من خطـوات تخدم كلها وبمجموعهـا الفرض الاساسـي ، وهو كتابـة تاريخ العرب من منطلق وحدوي ، وضمن منظوري الفهم الحضاري للتاريخ والتقيد بأسلوب البحث العلمي ، تحاول طرح الجديد في ميدان البحث في التاريخ العربي ، وتسـليط الضوء على التيارات العامة التي حركت تاريخ الامة العربية واعطته خط مسـار خاص به ، وايضاح ما لفه الغموض وتصحيح ما شوه وكشف الزيف ان وقع ، وكل ما يمكن أن يثير جدلا علميا واعيا ينتهي عند الحقيقة الموضوعية .

والمجلة ترحب بكل قلم يشارك في اغناء فكرتهـا وبكل مقترح ورأي يسـاعد في مسيرتها ، وتنشر البحوث والدراسات في تاريخ العرب وما يتصل بـه ، على أن يراعى فيها ما يلي :

آ ـ أن تتوافر في البحث الجدة والاصالة والمنهج العلمي .

ب ـ أن لا يكون البحث منشورا من قبل .

جـ ـ أن يكون مطبوعا على الآلة الكاتبة ، خاليـا من الاخطاء الطباعية .

د ـ تعرض البحوث ، في حال قبولها مبدئيا ، على محكمين متخصصين لبيان مـدى صلاحيتها للنشر ، وفـق المعايير المذكورة اعلاه ، والتعديـلات اللازم ادخالهـا عليها عند الاقتضاء . وتبقى عملية التحكيم سرية .

وتحتفظ المجلة بحقها في الحذف أو الاختزال ، بما يتوافق مع اغراض الصياغة .

ولا تنشر المجلـة قوائم المصادر والمراجـع ، ولذلك يحسن ان يتقيد السـادة الباحثون بشكليات التوثيق المتعارف عليها ، على النحو التالي :

آ ــ في ذكر المصادر والمراجع (للمرة الاولى) :

ذكر اسم المؤلف كاملا وتاريخ وفاته بين قوسين (   ) ان كان متوفى ، اسم المصدر أو المرجع وتحته خط ، عدد المجلدات أو الاجزاء ، اسم المحقق ان وجد ، الناشر ، المطبعة ورقم الطبعة ان وجدت ، مكان النشر وتاريخه ، الصفحة .

ثم ذكر ما يشار به الى المصدر أو المرجع في المرات التالية .

ب ــ في محاضر المؤتمرات :

ذكر اسم الباحث كاملا ، عنوان الدراسة كاملا بين قوسين مزدوجين «   » ، عنوان الكتاب كاملا ، اسم المحرر أو المحررين ، الناشر ، المطبعة ورقم الطبعة ان وجدت ، مكان النشر وتاريخه ، الصفحة .

جـ ــ في المجلات :

اسم الباحث كاملا ، عنوان البحث بين قوسين مزدوجين «   » اسم المجلة كاملا وتحته خط ، رقم المجلد أو السنة ، رقم العدد وتاريخه ، الصفحة .

ثم ذكر الرمز الذي يشار به الى المجلة في المرات التالية :

د ــ في المخطوطات (للمرة الاولى) :

اسم المؤلف كاملا ،عنوان المخطوط كاملا ،الجهة التي تحتفظ به ، تاريخ النسخة وعدد أوراقها ، رقم الورقة مع الاشارة الى وجهها (آ) وظهرها (ب) . ثم ذكر ما يشار به الى المخطوط في المرات التالية .

وتكتب الاسماء الاجنبية بالعربية واللاتينية بين قوسين (   ) ، ويشار الى الملاحظات الهامشية بنجمة * . **وترقم الحواشي بأرقام تتسلسل من أول البحث الى آخره ، دون التوقف عند نهاية الصفحات .**

يمنح الباحث نسخة من العدد الذي نشر فيه بحثه ، مع عشرين (مستلة) من البحث .

الندوة العلمية الثانيـة
للجنة كتابـة تاريخ العرب بجامعة دمشق

البنى الاجتماعية والاقتصادية في الوطن العربي على مر العصور

« العلاقات الزراعية »

في اطار الخطة المرحلية للجنة كتابة تاريخ العرب بجامعة دمشق ، تأخذ الندوات العلميـة المتخصصة موقعا مهمـا ، وتعرض فيها وتناقش دراسـات معمقة لظاهرات اجتماعية واقتصادية ، تعنى ـ شاقوليا وأفقيا ـ بتتبع هذه الظاهرات وابراز سماتها المشتركة في أرجـاء الوطـن العربي ، ووجـوه الاختلاف فيمـا بينها بتأثير الظروف والخصائص الاقليمية . كما تعنى بتتبع الظاهرة باقليم معين وما طرأ عليها مـن تطور وتبدل على مر العصور . وتنتهي دراسة هـذه الظاهرات وما فيها مـن اشكالات ، بالضرورة ، الى دراسة اشكالات كتابة التاريخ العربي بشكل عام ، بمنهجية علمية ، وموضوعية تكفل عدم الوقوع في المعالجة النظرية .

في هذا السياق تأتي الندوة الرابعة للجنة كتابة تاريخ العرب بجامعة دمشـق ـ والثانية في سلسلة الندوات العلمية المتخصصة ـ وموعدها النصف الثاني مـن شهر تشرين الاول ١٩٩٠ ،لتدرس جانبا رئيسا من جوانب المحور الاساس «البنى الاجتماعية والاقتصادية في الوطن العربي على مر العصور » يدور حول « العلاقات الزراعية » .

وفيما يلي ، على سبيل المثال ، بعض موضوعات تندرج في اطار المحور المذكور :

١ ـ قوى الانتاج في الريف وطرق التصرف بالارض وأساليب استغلالها (المزارعة ، الايجار ، الضمان ، الشراكة ...) من ملكية خاصة ، وملكية الدولة ، والملكيــة المشـــاعية .

٢ ـ المحاصيل الزراعية وما يرتبط بها ، الضرائب الزراعية .

٣ ـ الاوقاف بنوعيها الخيري والاهلي (الذري) ، والمؤسسات التي قامت عليها .

٤ ـ وسائل وطرق تبادل المنتجاب الزراعية بين الريف والمدينة .

٥ ـ الانماط السائدة في العلاقات الزراعية في أرجاء الوطن العربي .

٦ ـ دراسة انماط العلاقات الزراعية في قطر ما وتطورها ، وما دخل عليها من تبدلات عبر العصور .

٧ ـ موقع العلاقات الزراعية وأثرها في الانظمــة السياسية ـ الاجتماعية السائـدة (اقطاع ، بورجوازية ـ رأسمالية ..).

٨ ـ موضوعات أخرى ذات صلة .

واللجنة ترحب بمن يرغب المشاركة في هــذه الندوة ، مــن الاخوة الباحثين ، وتستضيف منهم من يقبل بحثه ، وتزوده بتذاكر الســفر . على أن تتســلم البحث مطبوعا قبل نهاية شهر تموز (يوليو) ١٩٩٠ .



دراسات تاريخيــة

١٩٨٩ / ٣ ـ ٤
٣٣ ـ ٣٤

عصر النهضـــة العربيـــة
ونشـــأة الفكر القومي وتطـــوره
(بـــلاد الشـــام)

الدكتور احمد برقـــاوي
جامعة دمشق

بات من المتفق عليه اعتبار بلاد الشام مهد النزعة القومية العربيـــة وتطورها ، لتأخذ فيما بعد صيغة المذهب العروبي العلماني(١) .

فعلى خلاف مصر التي ظهر فيها في عصر النهضة تيار الجامعة الاسلامية(٢) ، فان بلاد الشام والعراق ، بسبب العلاقة المباشرة مع الاتراك والاضـطهاد القومي ، قـد طرحت عبر عدد كبير من المثقفين مسألة الهوية القوميـــة ، ومسألة موقـــع العرب في الامبراطورية العثمانية . وما دفاع المثقف العربي في عصر النهضة عن الرابطة العثمانية مع الدعوة الى المساواة بين جميع أقوامها ، والدعوة الى حكم لا مركزي يضمن للعرب حقوقهم السياسية ، ثم طرح الاستقلال الكامل عن جسد الامبراطورية العثمانية فيما بعد ، الا أشكالا مختلفة من الوعي القومي العربي .

ان طرح الهوية القومية العربية كثمرة للتمايز بين العرب والاتراك ، الذي نمـــا في ظل اضطهاد العرب ، يجب أن لا ينسينا أن العرب قد طرحوا هويتهم القوميةفي مناخ عالمي ولدهالغرب، وهو مناخ انتشار الوعيالقوميونشوء الدولة القومية. وهذا ماسمح لعدد كبير من المفكرين العرب والمتواصلين بهذا الشكل أو ذاك مع الحضارة الغربية ، بتأسيس وعيهم القومي تأسيسا نظريا .

لا يرتد الصراع بينالعرب والاتراك الى بدايات الاحتلالالعثماني للمنطقة العربية. فالامبراطورية العثمانية ، من حيث بنيتها الاقوامية ، لم تكن لتختلف عن بنيـــة الدولة العباسية الاسلامية ، ولم يكن التمايز بين الشعوب قائما على اضطهاد شعب لشعب آخر . بل ان الدولة العثمانية، كدولة اقطاعية شرقية أوتوقراطية اسلامية، كانتدولة مضطهدة لجميع الاقوام التي تتألف منها بما في ذلك الاتراك . وقد شكل الاقطاعيون العرب ـ في مرحلة من مراحل تطور الدولة ـ جزءا لا يتجزأ من آلة الدولة المستبدة . غير ان دخول هذه الامبراطورية في فلك الاقتصاد الرأسمالي الاوربي ، وبداية تحلـل العلاقات الاقطاعية القديمة ، دفع ، الى الامام ، عملية الاحساس بالتمايز القومي لدى الفئات الاكثر ثقافة ومصلحة بالاستقلال ، في وقت غدا فيه تأثير الثقافة الاوربية تأثيرا

كبيرا . وان تغيرا مهما قد حصل في الوعي السياسي لدى الشعوب المنضوية تحت سلطة الامبراطورية العثمانية ، اذ بدأ الاحساس بانتمائها القومي خارج سلطة الدولة والانتماء اليها ، وصار الحديث واسعا حول حق هذا الشعب أو ذاك ، من الشعوب التي تشكلت منها الدولة في القرن التاسع عشر الذي يجب أن يضمنه الدستور ، والاشتراك على قدم المساواة مع الاتراك في ادارة شؤون الدولة .

وليس غريبا أن تنشأ النزعة القومية العربية في سورية والعراق في وقت واحد مع نشوء النزعة القومية التركية .

ولقد جاء وعي العربي لهويته القومية فيمرحلة انحطاط الدولة العثمانية ومحاولة اصلاحها ، وتشكل فئات التجار والمثقفين ، وتنامي أطماع الغرب ودخوله حياة الدولة من بابها الواسع . ولم تستطع الدولة العثمانية المتخلفة ، ذات الطابع الاقطاعي ، أن تكثف مصالح هذه الفئات الجديدة التي ساهم الرأسمال الغربي والثقافة الغربية في نشأتها وتطورها وتحديد افقها الايديولوجي .

في هذه المرحلة بالذات بدأ الشعور بالرابطة العثمانية بالتراخي والتفكك ، كما شرع أساسها الديني هو الآخر بالانحلال ، ليحل محله الشعور بالانتماء القومي لأمم لها خصائصها المميزة . فقد أصبحت قدرة الرابطة الدينية على توحيد البشر ضعيفة . ولم يستطع المفكرون الاسلاميون السلفيون ايجاد تبرير مقنع لأشكال الاضطهاد وأنواع التخلف وفقدان السيادة الوطنية على أجزاء مهمة من الامبراطورية، ولهذا لم تكن التضحية بالرابطة الدينية عملية صعبة لمثقف مسلم ، وكانت سهلة بالنسبة الى مثقف مسيحي عربي .

ومع ذلك يجب أن نميز بين مسألتين : مسألة نمو الشعور القومي العربي لدى الشعب ، كشكل أولي من أشكال الوعي الذاتي الذي أخذ صورة الكفاح ضد مظالم واستبداد السلطة العثمانية والكره للغرب الذي يلتهم الولايات العثمانية الواحدة تلو الاخرى ، والتعبير الايديولوجي عن الانتماء القومي العربي بوصفه جهد المثقفين على اختلاف انتماءاتهم الطائفية .

فالعربي البسيط في بلاد الشام والعراق يجد أمامه سلطة غاشمة بكل معنى الكلمة ، تدفعه الى حروب هي في الغالب خاسرة ، وتقع على كاهله اعباء تمويل امبراطورية من الصعب سد حاجاتها المادية الا بازدياد الفقر والجوع . ولقد تطور الاحساس بالغبن الاجتماعي وخدش الكرامة الوطنية الى عداء لسلطة تنتمي في الاساس الى جماعة اثنيه مختلفة ، كلما ضاع جزء من أطراف الدولة .

واذا كان من الطبيعي ان يتحول هذا الميل القومي الى اشكال من الممارسة التي

تؤكده ، فان المثقفين العرب قد كثفوا الى حد بعيد هذا الميل دون أن يتطابقوا معـــه تطابقا كامــلا .

ولذا يمكن القول ان الحركة القوميـــة العربية قد عكست بهــذا الشكل أو ذاك الشعور القومي المتنامي والبسيط بنفس الوقت ، ولكنهم اذ فعلوا ذلك فعلوه في شروط لم يختاروها . والحركة القومية العربية فكرا أو ممارسة سيرورة معقدة ومتناقضة ، بواعثها كثيرة ، وأهدافها متنوعة ، وآفاقها ليست واحدة .

ومن الحكمة أن نعترف أن الترابط بين الحركة القومية العربية في بداياتها والفئة المثقفة التي عكست مصالح البرجوازية الكومبرادورية قد قوى الميل لدى هذه الحركة الى تصور اوربا ذروة الكمال الحضاري ، والى النظر اليها كمخلص مـن الاستعباد التركي . ولهذا بالذات ترافق الدفاع عن قومية عربية واستقلال عربي مع اعجــاب شديد بأوربا وبخاصة فرنسا وانكلترا . وليس مصادفة أن تظهر نزعــة التأورب أو التأييد للغرب عند تاجر بيروتي ثري هو ميخائيل مدور ، وعند فرنسيس مراش ، المتفرنسيين ، وعند لويس الصابونجي المتأنكلز وعند رزق الله حسون المؤيد لروسيا بشـــكل خاص .

وليس مصدر الدفاع عن أوربا الا شكلا من أشكال فقدان الامل بقوى داخليـــة قادرة على انجاز الاستقلال القومي ، ولهذا غالبا ما عقدت الامال على تحرير العرب من خلال القوى الاستعمارية الاوربية التي تناصب الدولة العثمانية العداء . بل لم يكــن هناك ثقة بقدرة العرب ذاتهم على التحرر الا على أساس قيام صراع دولي يرتبط من خلاله العرب بتحالف مع الغرب الساعي الى تحطيم الامبراطورية المريضة .

وبهذا الافق السياسي الضيق تعامل البعض مـع القضية القومية دون جهــد للاجابة على سؤال مهم ، وهو : لماذا تناصب أوربا الامبراطورية العثمانية العداء .؟..

ولكن هذا لا يعني على الاطلاق أن النزعة القومية العربية في أفقها العام حركة كانت تنتظر الخلاص من أوروبا ، على الرغم من الاعجاب الشديد بها .

وهنا يجب أن نقف عند مسألة ما زالت مثار خلاف ونقاشات وآراء متباينة . الا وهي : هل الحركة القومية العربية حركـة مثقفين مسيحيين وجـدوا في الغــرب مرجعهم الايديولوجي ..؟ ان النظرة الى نشأة الحركة القومية العربية من هــذا الجانب تبسيط ساذج لها ولتطورها اللاحق .

لا شك أن المثقف المسيحي كان أكثر استعدادا لتبني النزعة القومية العربيـــة العلمانية من زميله المسلم . لكن مجتمعا يقوم على الرابطة القومية وحدها لم يكــن

طموحا غريبا عن المثقف العربي بعامة بمعزل عن انتمائه الطائفي . اذ لم تكن نشأة المثقفين المسيحيين لتختلف عن نشأة المثقفين المسلمين . كما لم تختلف ثقافة النخبة العربية عن ثقافة النخبة التركية .

واذا كانت مسيحية المثقف العربي تفسر ـ وهي لا تفسر طبعا ـ نشأة الفكر القومي العربي فكيف نفسر نشأة الفكر القومي التركي لدى مثقف تركي مسلم ؟

لقد انتشر الوعي القومي لدى الشعوب الخاضعة للسلطة العثمانية ولدى الاتراك بالذات ، لكن الفرق بين الوعي القومي لدى مثقف عربي ومثقف تركي هو أن الاول كانت قوميته ثمرة شعور بالاضطهاد ، اضطهاد جنس آخر ، فخف للدعوة لاستبدال المساواة بالحقوق والواجبات بعلاقة الاضطهاد ، اذ رأى أن من حق العربي أن يشترك في الحكم وأن تكون لغته لغة رسمية . فيما كانت قومية التركي قومية شعب يشعر بالاعتزاز بأنه عنصر حاكم مطمئن لتفوقه السياسي ، ولهذا لم يستطع أبدا أن يتحرر من عقدة الجنس الحاكم فيما بعد . ولهذا السبب نفسه كان من الصعب عليه أن يقبل المساواة في مستوى الحكم والحقوق ، وهذا ما عبر عنه لاحقا بما يسمى عملية التتريك .

القضية إذاً ليست في شعور المسيحي بانتمائه الى تراث أوربا أكثر من انتمائه الى تراث الشرق العربي الاسلامي ، فوجد في القومية العربية وسيلة من وسائل التحرر من اغترابه في وطنه كما يظن البعض . ترى وهل كان المسلم هو الآخر راغب في التحرر من اغتراب ما عندما جمعته والمسيحي جمعية واحدة أو حزب واحد .

والحقيقة أن الاعجاب بأوربا لم يكن صفة خاصة بالمسيحيين ، بل ان جميع رواد النهضة العربية كانوا بهذه الدرجة أو تلك واقعين تحت سحر تقدم اوربا ، بدءاً من المصلح الديني وانتهاء بالمصلح القومي العلماني ان صح التعبير . وأوربا التي لم تدخل وعي المصلحين الدينيين أو القوميين العلمانيين بوصفها امبريالية توسعية بدأت تتكشف لهم شيئا فشيئا على أنها امبريالية عدوانية ، ولهذا كان الدفاع عن الرابطة العثمانية في مرحلة من مراحل تطور الوعي القومي العربي ثمرة وعي جديد لخطورة الغرب . فأديب اسحق الذي وقع تحت تأثير الثقافة الفرنسية والمعجب اشد الاعجاب بروسو ومونتسكيو ومونتين ، وبالثورة الفرنسية ، بشكل عام ، ظل عثمانيا وضد السلطة العثمانية . وفرنسيس مراش ، ذو النزعة الغربية جدا ، لم يتوان عن نقد الغرب أخيرا والحديث عن انحطاطه ، وأهمية استرجاع الشرق لقومه(٣) . ولم يصب منير موسى عندما نظر الى التحول في فكر مراش ، من التأثير الشديد بالغرب الى الهجوم عليه ، على أنه انتقال من الشجاعة الى التملق للسلطان(٤) . بل الصواب ، ان وعي مراش قد خضع لتطور سياسي عندما أحس أخيرا بخطورة الغرب .

وفرح انطون هذا الداعي الكبير الى فصل الدين عن الدولة وضرورة تمثل ديمقراطية الغرب هو الذي قال « ان ولاءنا هو للشرق »(٥) .

ويجب أن نلاحظ ان الفكر القومي العربي لم يطرح الانفصال عن الدولة العثمانية الا بعد انقلاب ١٩٠٨ . واذا مااعتبرنا مؤتمر باريس عام ١٩١٣ ، بمعزل عن أي تقويم ايجابي أو سلبي ، تكثيفا للافكار القومية السائدة آنذاك ، ولطموحات معظم القوميين العرب في تلك المرحلة ، فاننا نجد ان هذا المؤتمر ذاته لم يطرح الانفصال عن الدولة العثمانية ، كما لم يطرح قضية تكوين دولة عربية مستقلة . فالزهراوي الشهيد صرح قبل انعقاد المؤتمر بأسبوع قائلا : « قمنا نطالب بصفتنا عثمانيين أن نشترك بالادارة العامة، وأن نعرض بصفتنا عربا مطالب خاصة بقوميتنا وحالتنا»(٦)«كان يحق للحكومة العثمانية أن يتكدر خاطرها لو أنا طلبنا الانفصال عنها مثلا ، أما نحن فنريد عكس ذلك »(٧) لقد كان الزهراوي ذا نزعة لا مركزية يدعو الى الاخاء بين العرب والترك ، كما يدعو العرب الى التمسك بالرابطة العثمانية(٨) .

وجاء في خطاب العريسي في المؤتمر « أما فيما يتعلق بالسلطنة فاننا نصرح أمام العالم الاوربي بأننا لا نفكر فيه (أي الانفصال) ما دام الدستور جاريا على معنى الدستور ، وانه لا تتطرق الينا فكرة الانفصال عن هذه السلطنة ما دامت حقوقنا فيها مرعية محفوظة ، فان ارتباطنا بهذه الدولة يتراوح إذاً بين ضمان هذه الحقوق ، فان كثر فكثر وان قل فقل »(٩) . كما كتب عام ١٩١١ يقول : « فالعرب مرتبطون بالترك لامحالة . فالمسلمون منهم برابطة الدين والوطنية ، والعرب مسلمين ومسيحيين مرتبطون بأنفسهم اشد ارتباط برابطة الجنس واللغة والوطنية فمهما سعى أرباب المطامع السياسية أن يحلوا هذه الرابطة فمصيرهم الى خزي الدهر وفشل الابد ... فلا عرب ولا ترك ولا مسلمين ولا مسيحيين بل كلنا عثمانيون وطنيون »(١٠) .

وندرة بك مطران كان صادقا جدا في هذه النقطة حين اعلن من على منبر المؤتمر قائلا : « من هذا المنبر بقوة الوقار والاخلاص اللذين يحفان بهذا المؤتمر المجيد ، وباسم الامة العربية المتمثلة بكم .. أفتخر بأن الامة العربية مسلمة وغير مسلمة متضامنة مترابطة في مصالحها ، تسعى الى نيل اصلاحات مشروعة وتنبذ بكل قوتها كل حركة من شأنها تداخل الغريب في أحكامها أو انفصام العرى بينها وبين الدولة العثمانية وترويج أية غاية غير عربية عثمانية في البلاد العربية »(١١). وكانت كلمتا أحمد طيارة واسكندر بك عمون تأكيدا لما قيل آنفا(١٢) .

وقرارات مؤتمر باريس المعروفة لم تتضمن أي بند يدعو الى الاستقلال عن الدولة العثمانية ، بل جاء في القرار التاسع انه « سيجري تبليغ هذه القرارات للحكومة العثمانية السنية »(١٣).

لم تكن بحاجة الى مثل هذا السرد الممل ، الا من أجل التدليل على ان الحركة القومية العربية في اساسها حركة اصلاحية قبل كل شيء ، حركة شعب زاد شعوره بالاضطهاد ، وازداد وعيه الذاتي في اطار دولة متعددة القوميات ، لم تستطع بحكم طبيعتها الاستبدادية الاقطاعية أن تحقق المساواة فيما بينها ، دولة تحولت فيها السلطة فيما بعد الى سلطة قومية تستبد بجميع القوميات الاخرى . ولهذا لم يكن ظهور الحركة القومية العربية ثمرة تآمر استعماري كما يرى البعض .

ولم ينطو الفكر القومي العربي أو الحركة القومية العربية حتى الحرب العالمية الاولى على أي نزعة قومية ضد الاتراك . حتى ان مفهوم الامة العربية ظل حتى تلك المرحلة غامضا في أذهان القوميين العرب . فالعريسي نفسه على الرغم من محاولته تأسيس مفهوم الامة العربية من الناحية الحقوقية والفلسفية لم يقم تمايزا حادا حتى استشهاده بين « الامة العربية » و « الامة الاسلامية » و « الامة العثمانية » . أي ان مفهوم الامة لديه كان يتسع ليشمل شعوبا مختلفة متعددة ، يربط بينها الدين أحيانا والدولة أحيانا أخرى ، أو اللغة في حالة ثالثة .

ولم يكن مفهوم العريسي وحده مفتقرا الى لغة سياسية ــ نظرية واضحة فيما يتعلق بمفهوم الامة ، بل انسحب هذا الافتقار على معظم مفكري عصر النهضة العربية. ذلك أن مفهوم الامة اختلط لديهم مع مفاهيم الجماعة والقوم والشعب والعرق والدولة والدين . فالعثمانية رابطة الدولة واذ ذاك تغدو الامة العثمانية هي الدولة العثمانية ، بما تنطوي عليه من جماعات اتنية وشعوب واقوام مختلفة . والامة الاسلامية تشير الى الرابطة الدينية التي تجمع العرب والاتراك وغيرهم . والامة العربية هي الشعب العربي الذي يشترك مع الاتراك وغيرهم بالرابطتين السابقتين . ولكنها رابطة تلغي الرابطة الدينية وتبقي عليها بنفس الوقت ، تماما كما تلغي وتبقي على الرابطة العثمانية.

فالعربي ، بهذا المعنى ، وقد عانى طويلا من تحديد مسألة الانتماء ، لم يكن وعيه يرتقي الى وعي أمة تسعى نحو تكوين دولتها أو وحدتها القومية المستقلة استقلالا تاما ، الا بعد ظهور الطورانية وعملية التتريك .

من هنا نفهم لماذا اعتبر أديب اسحق مثلا الامة مجرد الشعور بالانتماء « جنس واحد يتوالدون فيه ويتسمون به بالجنس الامريكاني لسكان الولايات المتحدة الامريكية، سواء كانوا انكليز او فرنسويين (هكذا جاءت أ.ب) او اسبانيين او أمريكانيين أصلا. والعثماني لسكان البلاد العثمانية في اوربا وآسيا سواء كانوا تركا او عربا او تترا أصلا »(٤) .

يتبين مما سبق ذكره ان الوعي القومي العربي لم ينشأ ويتطور الا في مواجهة السلطة العثمانية أولا ، والقومية التركية الشوفينية ثانيا ،وتحت تأثير الافكار الغربية

وضد الغرب ثالثا . وما تطور الوعي القومي الا انتقالا تدريجيا في مستوى الوعي السياسي للمثقفين العرب الذين صاغوا بشكل غير دقيق وعيهم القومي في صورة افكار غير محددة حول معنى الامة . انه الانتقال من وجود العرب داخل الامبراطورية العثمانية الى وعيهم بوجودهم كشعب له خصائصه المميزة التي اهمها اللغة ، ثم تحول وعيهم الى مطلب سياسي ، أخذ صورة الدفاع عن اللامركزية في البداية ثم – فيما بعد – صورة الاستقلال التام ، لأمة أهم خصائصها اللغة والتاريخ والجغرافيا . ان صياغة الوعي القومي العربي قد ارتبطت بالنضال السياسي الذي تتوج في نهاية الامر بالنضال ضد الاستعمار الاوربي الذي ولد الطموح اكثر فأكثر الى وحدة سياسية عربية . اي ان الامة العربية قد اكتسبت ملامحها في سيرورة النضال من أجل تحقيق الهوية القومية في اطار دولة عربية واحدة .

واذا كان الاصلاح الديني قد انطلق في الاساس من الاسلام في تناوله مسألة العلم والحكم ، ومن اظهار غياب التناقض بين الاسلام الصحيح والمصلح وبين العلم والديمقراطية والشورى ، والاقتراب من فصل السلطة الدينية عن السلطة المدنية ، فان الفكر القومي العلماني قد انطلق سلفا من وجوب السلطة المدنية وأهمية الرابطة القومية والدعوة الى حكم ديمقراطي علماني .

والنظر الى الرابطة الدينية كرابطة واهية ، تعبير في الحقيقة من قبل التيار القومي عن نظرة جديدة الى الاجتماع البشري متأثرة الى حد كبير بتكون الدول القومية في العالم ووسيلة من وسائل تأكيد الهوية خارج العلاقة مع السلطة أو المتسلطين ، الذين يحولون الدين الى اداة اضطهاد للشعوب . ولهذا لم ينظر الى العثمانية كرابطة دينية ، بل رابطة دولة تضم شعوبا لها هويتها القومية بمعزل عن أنتمائها الديني ، فالدولة هنا رابطة سياسية تخلق الولاء لها من قبل الجميع ، دون أن تقضي على الانتماء القومي لكل شعب .

لقد بحث القومي العربي في الاساس عن رابطته القومية فوجدها في اللغة والتاريخ . فاللغة لا تميز بين عربي وآخر ، والتاريخ يستطيل الى حد يجعل الجميع قادرين على اعتباره تاريخهم الممتد من حضارة الفينيقيين مرورا بالجاهلية والاسلام وانتهاء بالعصر الاموي والعباسي . عندما أراد الزهراوي أن يجيب على سؤال من هم العرب ، قال : « العرب هم أهل هذه اللغة » . أي « اللغة العربية »(١٥) . وأشار أديب اسحق مرة الى اللغة العربية بوصفها « لغة جامعة »(١٦) فتتحول اللغة والتاريخ الى عنصرين أساسيين أو عاملين محددين للأمة العربية ، أي تتخذ الامة هنا مضمونا ثقافيا .

واذا كانت رابطة الامة رابطة ثقافية في الاساس ، فان الاسلام سيصبح أكثر من دين سماوي ، انه تاريخ وثقافة ولغة لن ينفصل أبدا – لدى القومي العربي – عن

تاريخ العرب ولغتهم وثقافتهم ، لا سيما أن النهضوي القومي أكد مـرارا عربية النبي وعربية القرآن وعربية الاسلام بعامة . ووفق هـذا المنطق ، منطـق جميع القوميين العرب في عصر النهضة ، لن يكون هناك تناقض بين الاسلام والقومية العربية ، ولـن يكون اضطهاد العرب الا تنكبا للدين الذي حمله العرب الى الانسانية جمعاء .

ولقد تشكلت علمانية العربي القومية في شروط غياب الصراع بين الدين والافكار العلمانية ، وفي وقت ينزع فيه الاصلاح الديني نفســه للاقتراب منها ومـن الافكـار القومية . ولهذا قلما خيضت صراعات ومعارك فكرية بين الاصلاح الديني الاســلامي وبين الفكر القومي العربي العلماني ، اللهم سوى بعض المناقشات التي جرت بين محمد عبده مثلا وفرح أنطون ، الذي دفع العلمانية الى حدها الاقصى من حيث « لا مدنيـة حقيقية ولا تساهل ولا عـدل ولا مسـاواة ولا أمـن ولا الفـة ولا حريـة ولا علـم ولا فلسفة ولا تقدم في الداخل الا بفصل السلطة المدنية عن السلطة الدينية »(١٧) .

ولكن القومية العلمانية لم تحل ـ وحتى الآن ـ لم تحل ، بصورة نظرية ، مشكلة العلاقة بين القومية العربية وبين الاسلام .

لقد ارتبط الاسلام في أذهان الكثيرين من القوميين بـ « العروبة » ، مـن حيث أصله ، ان واقعة ارتباط الاسلام بالعرب ما كان يمكن أن تسمح برفض الاسلام كلـه، وان سمحت بالدعوة الى دولة علمانية لا دينية . ومن الطريف أن المصلحين الدينيين أنفسهم كانوا مجبرين ، بفعل ممارسة السلطة القمعية من قبل الاتراك ، على التوقف عند أهمية العرب في الاسلام وتاريخه . بل ان واحدا من المصلحين الدينيين لم يتردد في تسمية كتابه (العرب والعربية بهما صلاح الامة الاسلامية وجميع الامم العربية) ومن الطريف أن هذا الكتاب لمؤلفه عبد الحق حقي الاعظمي قد طبع في مطبعة مجلـة المنار لصاحبها الامام محمد رشيد رضا عام ١٩١٢(١٨) .

في الظاهر تظل الرابطة الاسلامية ـ لدى القومي العربي ـ رابطة مهمة ، ويظل الاسلام في جوهره دين تقدم ومعرفة ومساواة . ولكن في حقيقة الامر تغلب العصبية القومية العربيـة العصبية الدينيـة . ومنذ اللحظة التي يتحـدث فيها القومي عـن الاسلام وعدم انفصاله عن العرب ولغتهم وتاريخهم ، فانه يضـيق من حدود النزعـة العالمية الاسلامية ، ويقترب أكثر فأكثر من قومية الدين الخاص بالعرب ،والذي تفضل به العرب على الآخرين . لم يعد الاسلام في هذه الحالة ، دليلا على المساواة المطلقة بين الشعوب التي تدين به ، بل وتشتق من قلب الاسلام الحجج التي تبرر ضرورة سيادة العرب والعربية ، ولا سيما حيث يكون سبب انحطاط الامة ، والاسلام بالذات، العنصر غير العربي الذي اغتصب السلطة من العرب . فالسلطة بهـذا المعنى يجب أن تكـون للعرب ، بما لهم من فضل على جميع الشعوب ، وبما ان ازدهار الحضارة العربية قـد ارتبط بسيادة العرب على السلطة(١٩) .

ولن يكون هناك فرق كبير من حيث النزوع القومي ، بين من يدعو الى دولة اسلامية يكون فيها العربي هو الحاكم أو الخليفة ـ كما عند الكواكبي والاعظمي مثلا ـ وبين من يدعو الى دولة عربية خالصة لا دينية .

ولكن اذا كان النزوع القومي هو الذي يوحد بين هذين الشكلين من الدعوة الى الدولة العربية ، فان الفرق في المضمون الاجتماعي لكلا الدعوتين يقيم الفرق بينهما ، من حيث ان الدعوة الى دولة اسلامية حكامها من العرب ، هي نزعة قومية مطبوعة بطابع اقطاعي شرقي بوصفها تقيم ترابطا بين الدين والقومية في اطار الاعلاء من شأن العرب والاقلال من شأن الشعوب الاخرى . لكن العرب يظلون وفق هذا الطرح عربا مسلمين . اما الدعوة الى دولة قومية عربية علمانية تقوم على فصل الدين عن الدولة، فانها دعوة تنويرية لا دينية تزيل الاختلاف الديني بين العرب انفسهم ، وتؤكد وحدتهم الثقافية وبالتالي فهي مطبوعة بطابع برجوازي متقدم .

في النزعة الاولى يبرز مفهوم الخليفة العربي ، وفي الثانية يبرز مفهوم الدولة الديمقراطية والحاكم المنتخب وفق الدستور . الا أن الحدود بين هذين النمطين من النزعة القومية العربية ظلت حدودا مائعة . وهذا ان دل على شيء انما يدل على تعقد الشروط التي أنتجت الفكر القومي العربي . وأهمها متانة العلاقات الانتاجية الاقطاعية ، التي لم تستطع العلاقات الراسمالية الوليدة أن تزعزعها زعزعة شديدة ، وبروز الصراع القومي وفق هذا الشرط قد أقام التداخل بين النزعة المعادية لأوربا ، والنزعة المؤيدة لطريق تقدمها ، بين النزعة السياسية للحفاظ على الدولة العثمانية تجاه عداء الغرب لها ، وبين النزعة التي نمت من خلال الاحساس القومي بالاضطهاد من قبل الاتراك والمعبر عنها بأشكال الدعوة الى الاستقلال .

ولهذا كله مضى زمن قبل ان يتبلور الفكر القومي في صيغته العلمانية الصرفة والواضحة .

وباستطاعتنا أن نحدد صيغ الفكر القومي العربي حتى الحرب العالمية الاولى بثلاث صيغ رئيسية ولكنها ليست نظيفة تماما . صيغة **القومية العثمانية** وفي قلب هذا التيار نما وترعرع التيار القومي العربي في أشكال مختلفة أهمها المطالبة بحق الشعوب داخل الامبراطورية العثمانية ، وتأكيد حق العرب بالمساواة مع الاتراك ، ثم **صيغة القومية الاسلامية** التي يكون فيها للشعب العربي أو للعرب مكانة خاصة من حيث هم حملة الرسالة وكتاب الله مكتوب بالعربية وتكون القيادة للعرب بدل الاتراك . وأخيرا ، **صيغة القومية العربية العلمانية** ، التي تدعو الى الاستقلال السياسي الكامل عن السلطة العثمانية وتأسيس دولة عربية هي في الغالب ليست حدود الوطن العربي الراهنة ، بل حدود بلاد الشام والعراق .

الهوامش

(١) لمزيد من الاطلاع على نشأة الفكر القومي في سورية (بلاد الشام) راجع :
١ - كتاب المستشرق السوفييتي كوتلوف ، « تكون حركة التحرر الوطني في الشرق العربي » بيروت ١٩٧٨ ، ترجمة سعيد أحمد. وهو أهم ما كتب في الاتحاد السوفييتي حول هذا الموضوع .
٢ - كتاب ليفن ، ز.ل. « الفكر الاجتماعي والسياسي الحديث في لبنان وسورية ومصر »، بيروت١٩٨٢. لكن هذا الكتاب ينطوي على نزعة ماركسية ميكانيكية مبتذلة من حيث ربطه كل تيار فكري بطريقة محددة ، دون أن يرى التعقيد الذي يكتنف نشأة وتطور تيارات النهضة العربية . وراجع نقدنا لكتابه : في « محاولة في قراءة عصر النهضة » ، بيروت ١٩٨٨ ، ص ٣٤ - ٣٧ . وذات النقد يوجه الى كتاب عبد الله حنا « الاتجاهات الفكرية في سورية ولبنان » ، دمشق ، ١٩٧٣ .
٣ - كتاب ألبرت حوراني ، « الفكر العربي في عصر النهضة ١٧٩٨ - ١٩٣٩ » بيروت ١٩٧٧، ط ٣ .
٤ - كتاب أنور عبد الملك ، « الفكر العربي في معركة النهضة » بيروت ١٩٧٤ .
٥ - كتابي عبد الكريم رافق ، « العرب والعثمانيون » دمشق ١٩٧٤ ، و « المشرق العربي في العهد العثماني » .

(٢) ان هذا لا يعني ان مصر لم تشهد تكونا لنزعة قومية عربية ، لكنها لم تكن بمثل التحديد والوضوح الذي شهدته بلاد الشام ، راجع حول هذا الموضوع ذوقان قرقوط « تطور الفكرة العربية في مصر » ١٨٠٥ - ١٩١٦ ، بيروت ١٩٧٢ .

(٣) انظر فرنسيس مراش « غابة الحق » ، حلب بلا تاريخ .

(٤) انظر منير موسى ، « الفكر العربي في العصر الحديث » (سورية من القرن الثامن عشر حتى العام ١٩١٨) ، بيروت ١٩٧٣ ، ص ٤٠ .

(٥) فرح أنطون ، المؤلفات الفلسفية ، بيروت ١٩٨١ ، ص ١٦٤ .

(٦) وثائق المؤتمر العربي الاول ١٩١٣ ، بيروت ١٩٨٠، ص١٨ تقديم ودراسة وجيه كوثراني.

(٧) وثائق المؤتمر العربي الاول ص ٦٩ .

(٨) «الارث الفكري للمصلح الاجتماعي عبد الحميد الزهراوي » ١٩٦٣ ، ص ٤٠ - ٤١ جمعه جودة الركابي وجميل سلطان .

(٩) وثائق المؤتمر العربي الاول ١٩١٣ ، ص٤٥ .

(١٠) عبد الغني العريسي «مختارات المفيد » ،بيروت ١٩٨١ ، ص ٤٩ جمعها وحققها ناجي علوش.

(١١) وثائق المؤتمر العربي الاول ١٩١٣ ص ٦١ .

(١٢) راجع وثائق المؤتمر العربي الاول ١٩١٣ ، مما قاله أحمد طبارة في المؤتمر « فنحن قوم ولدتنا أمهاتنا عثمانيين ونشأنا عثمانيين ونريد أن نبقى عثمانيين ،ولا ترضى عن دولتنا العثمانية بديلا ، ولا برهان على ذلك أقطع من طلبنا للاصلاح .. ولو كنا نبغي الانفصال عنها كما يرجف المرجفون لتركنا الحال تجري على ما نرى من سيء الى أسوأ وهي بطبيعتها سائرة في طريق الاضمحلال » ص٩١ . وقال اسكندر بك عمون « ان الامة العربية لا تريد الانفصال عن الدولة العثمانية ولا نصرة حزب على حزب أو جنس على جنس ، وانما تريد استبدال نظام الحكم الحاضر بنظام يناسب حاجة تلك العناصر على اختلاف شؤونها ... ويكون لمجموع الامة العثمانية سلطة عليا نيابية قائمة على النسبة الصحيحة لادارة الشؤون العامة. ومعنى ذلك أننا نريد حكومة عثمانية لا تركية ولا عربية » ص١٠٥ .

(١٣) وثائق المؤتمر العربي الاول ص ١١٨ .

(١٤) أديب اسحق ، الدرر ، بيروت ١٩٧٥ ص.٥٠.

(١٥) الارث الفكري للمصلح الاجتماعي عبد الحميد الزهراوي ، ص ٦٣ .

(١٦) أديب اسحق ، الدرر ، ص ٥٠ .

(١٧) فرح انطون ، المؤلفات الفلسفية ، ص ١٦٠. والحقيقة ان فكرة فصل الدين عن الدولة فكرة كان قد طرحها محمد عبده ولكنه لم يدفع بها الى حدها الاقصى . حتى جاء علي عبد الرازق وعرضها بصورة واضحة لا لبس فيها . انظر حول هذه المسألة آ ـ محمد عبده ، الاسلام بين العلم والمدنية ، القاهرة بلا تاريخ . ب ـ علي عبد الرازق ، الاسلام وأصول الحكم ، بيروت ، بلا تاريخ ، جـ ـ هشام شرابي ، المثقفون العرب والغرب ، بيروت ١٩٧٨ ،ط٢، د ـ هـ.أ.و. جب ، الاتجاهات الحديثة في الاسلام ،بيروت ١٩٦٦ترجمة هاشم الحسيني.

(١٨) انظر كتاب عبد الحق حقي الاعظمي ، العرب والعربية وبهما صلاح الامة الاسلامية وجميع الامم البشرية ،دير الزور ١٩٨٣ طبعة جديدة. وعبد الحق حقي الاعظمي ١٨٧٣ ـ ١٩٣٥ ، شاعر وأديب عراقي من أهل الاعظمية ، لا يعرف الكثير عن حياته ، سوى انه كان يعمل في الكلية الاسلامية في عليكرة بالهند مدرسا للغة العربية .

(١٩) يعد الكواكبي أهم من تناول مسألة الخلافة العربية وضرورة أن يكون الخليفة عربيا وليس تركيا ، وكثيرا ما رأى الباحثون في دعوته الى خليفة عربي بداية لنشوء الفكر القومي العربي . انظر بهذا الصدد « أم القرى » في، الكواكبي ، الاعمال الكاملة ، بيروت ١٩٧٠ ، مع دراسة عن حياته وآثاره بقلم محمد عمارة. وانظر كتابنا ،« محاولة في قراءة عصر النهضة» فصل الخلافة العربية والرابطة الاسلامية ، وكذلك مقالنا « الكواكبي والغرب» ، الهدف، العدد ٩١٧ ، ٣ تموز ، ١٩٨٨ السنة العاشرة.



جانب من فعاليات محب الدين الخطيب

(الجانب الصحفي)

د. سهيلة الريماوي
الجامعة الاردنيــة

المقدمــة :

محب الدين الخطيب (١٨٨٦ ــ ١٩٧٩) : من أوائل رواد الحركة القومية العربية الذين نسعى لاحياء نضالهم وتراثهم ، وشخصية متعددة الجوانب لها الجانب الفكري، والجانب الصحافي والجانب الادبـي ، والجانب الديني والجانب السياســي بصفتيه النضالية والتنظيمية . وقد ترك لنا مكتبة تضم زهاء خمسة وعشــرين الف كتاب في مائة ألف مجلد(١) وعددا كبيرا من الوثائق والاوراق والمخطوطات غير مصنفة ، ومنهــا مذكراته الشخصية « سيرة جيل » التي تظهر فيها معالم شخصيته(٢) .

أردنا من هذه المقدمة التأكيد ان دراسة شاملة لحياة محب الدين الخطيب من جوانبها المتعددة ، هي في الواقع دراسة دقيقة للنضال العربي ومسيرته طوال أكثر من نصف قرن ، وهذا الكنز الوثائقي الذي تضمه مكتبته يعد ســجلا أمينا غنيا ونــادرا للنضال العربي منذ مطلع القرن العشرين ، مما يجعله من أهم مصادر تاريخ الحركة القوميــة (٣) .

شــخصيته :

هو ابن الشيخ ابي الفتح الخطيب من علماء دمشق ومدرسيها وائمتها وخطبائها، ولد في دمشق الفيحاء ، أواخر شهر تموز / يوليو سنة ١٨٨٦ وتوفي في القاهرة أواخر كانون أول / ديسمبر سنة ١٩٦٩ ، بدأ تعليمه في مدرسة الترقي النموذجية « نمونة ترقي » ، وكانت في البناء الكبير الذي تقوم في الجانب القبلي منه دار الكتب الظاهرية التي كان والده يتولى أمانتها(٤) منذ انشائها سنة ١٨٧٩ حتى وفاته سنة ١٨٩٧ .وقد حصل محب الدين من هذه المدرسة على شهادة اتمام الدراســة الابتدائية بدرجــة « علي أعلي » اي جيد جدا ، مؤرخة في ٢٣ محرم سنة ١٣١٤ هـ الموافق ٥ تموز/يوليو ســنة ١٨٩٦ . ثم التحق بالتعليم الثانوي في « مكتب عنبر »(٥) في دمشق ، غير أن وفاة والده في العام نفسه اضطرته الى ترك الدراسة ، وألحقه الشيخ طاهر الجزائري

صديق والده بدار الكتب « فوجه وظيفة الوالد الى ابنه » وصار الشيخ طاهر يختار من مخطوطات دار الكتب الظاهرية ما ألف عن أعلام الاسلام ، ويكلف محب الدين الخطيب نسخها ، وتوجد حتى الآن في الخزانة التيمورية الملحقة بدار الكتب المصرية رسائل بخط محب الدين الخطيب ، يعود تاريخها الى هذه الفترة(٦) .

التحق الخطيب مرة ثانية بالمدرسة الثانوية « مكتب عنبر » ثم انتقل الى بيروت فأكمل تعليمه الثانوي فيها وحصل على شهادته بتاريخ ٦ جمادى الاولى سنة ١٣٢٣هـ الموافق ٩ تموز سنة ١٩٠٥م بدرجة « أعلى » أي جيد ، التحق بعدها بكليتي الآداب والحقوق معا في استانبول . الا أن ظروفه اقتضت أن يترك استانبول الى دمشق ، ومنها الى الحديدة في اليمن ، وهناك تبلورت فكرة العمل الصحفي عنده كما سنرى(٧) .

ان الاحداث السياسية المتعاقبة في هذه الفترة ، وفي مقدمتها اعادة المشروطية (الدستور) سنة ١٩٠٨ ، اقتضت أن يعود الخطيب الى دمشق ، ثم الى القاهرة ، حيث ظهر نشاطه من خلال الاحزاب والجمعيات التي انتسب اليها أو اسسها مع غيره من السوريين ، كما قام بعدد من المهمات السياسية والحزبية ، في اليمن ونجد والعراق وباريس ، وهي على الرغم من اهميتها تخرج عن نطاق بحثنا(٨) والتحق في هذه الفترة بقلم تحرير عدد من الصحف المصرية ، فساهم في تحرير جريدة « المؤيد » ، من أول شهر أيلول سنة ١٩٠٩ الى ما بعد وفاة الشيخ علي يوسف سنة ١٩١٣* ، وفي هذه الاثناء ، أسس المكتبة السلفية .. وعندما اعلنت الثورة العربية الكبرى ، توجه الى الحجاز ، واصبح رئيس تحرير جريدة القبلة ، ثم توجه الى دمشق أيام الحكم العربي الفيصلي ، وأشرف على تحرير جريدة العاصمة الرسمية ، وغادر سورية الى مصر بعد معركة ميسلون سنة ١٩٢٠ ، فالتحق بقلم تحرير الاهرام من سنة ١٩٢٠ الى ١٩٢٥ ، وبقي رئيس تحرير مجلة الازهر مدة خمس سنوات ، كما ساهم في تحرير جريدة الاخوان المسلمين اليومية ، وكان يرأس فيها تحرير القسم الاسلامي ، كما كتب في كثير من المجلات مثل المقتطف ، والتمدن الاسلامي ، ومجلة « المسلمون » وكان يرأس تحريرها سعيد رمضان ، كما أصدر عددا من الصحف في مصر ، مثل مجلة الزهراء ، ومجلة الفتح التي نالت شهرة صحفية مميزة بين صحافة تلك الفترة ، هذا بالاضافة الى ما يقوم به من تحرير بيانات الجمعيات التي انتسب اليها ، أو كتابة نداءاتها وصحفها ـ وكان يشغل فيها منصب أمين السر ـ وكان يتمتع بين الاعضاء بقدرته

(*) الشيخ علي يوسف صاحب جريدة المؤيد المصرية ، في طليعة الصحفيين ويعتبره محب الدين الخطيب استاذه في الصحافة وقد توفي بتاريخ ٢٥ تشرين اول اكتوبر سنة ١٩١٣ .

العجيبة على نقل الخبر الصحيح ، عندما يتولى نشر اخبار هذه الجمعيات والاحزاب أو كتابة منشوراتها* .

هذا الوضع المميز لنشاط محب الدين الخطيب الصحافي ، جعل من بيته مركز استقبال وارسال وتجمع ، لعدد كبير من الصحف ، والاوراق الصحفية التي تحفل بها مكتبته ، سواء أكانت أوراق الصحف التي أصدرها أو ساهم في تحريرها ، أو الاوراق والقصاصات الصحفية المتفرقة التي تدور حول مواضيع متعددة . وكثيرا ما كتب محب الدين على هامش هذه الصحف والقصاصات شارحا ومعلقا ومحللا . وكان يحتفظ بعدد من المراسلات الصحفية المتبادلة والبرقيات التي كانت ترد الى الصحف، كما كان يحتفظ بعدد من المسودات التي نشرت في هذه الصحف ، بعد التعليق عليها سواء أكانت له أم لغيره من الكتاب الصحافيين .

البدايات الاولية :

وتدلنا هذه التعليقات الهامشية على الصحف ، الموجودة في مكتبة الخطيب على أن : « باكورة القلم » كانت في « تمرين قلمه » على ترجمة مقالات علمية وقطع أدبية « يعربها عن اللغة التركية في مجلاتها وكتبها » . وقد أخذ يرسل ما يترجمه الى جريدة « ثمرات الفنون » وكان يوقع هذه الكتابات الاولية بحرفي (م. خ) ثم بعد انتشارها أخذ يوقع باسمه الصريح(٩) .

ان أنشطة محب الدين الخطيب في دمشق ، وتأسيسه حلقة دمشق الصغرى أسوة بحلقة دمشق الكبرى(١٠) واختلاطه بكبار علماء دمشق عن طريق هذه الحلقة ، ثم اطلاعه على المجلات المصرية الكبرى مثل المقتطف والهلال والضياء في غرف القراءة التي اسستها جمعية القديس يوحنا الدمشقي الارثوذكسية(١١) ، بالاضافة الى مطالعاته المتواصلة في دار الكتب الظاهرية كما أشرت سابقا .. كل ذلك ، مهد له وضوح الرؤية لقضايا عصره ، العرب والعربية ، ورسالة العرب الخالدة ، وضرورة الاصلاح في الدولة العثمانية ومقاومة الاستبداد ، واللا مركزية ، ومعالجة الاوضاع الاقتصادية في الامبراطورية ، والدعوة لتأييد الثورة العربية الكبرى ، ثم تأييد الحكم العربي الهاشمي في سورية ، هذا بالاضافة الى المواضيع الدينية التي تبحث في قضايا الاسلام والمسلمين مثل : مزايا الصحابة والتابعين وحملهم لرسالة الاسلام ، وتعريف الانسانية بالاسلام الاول ، وتكوين العالم الاسلامي .. وهكذا وجد الخطيب في الصحافة ميدانا فسيحا للتعبير عن آرائه هذه منذ الصغر وكان « همه وهو في فترة الدراسة

* مقابلة شخصية في القاهرة مع عوني عبد الهادي ١٩٦٦ .

الثانوية ، تعريف الاذكياء من أترابه ولداته في المدرسة وخارجها بهذه الرسالة العربية والاسلامية »(١٢) عن طريق نشرها في نشرات مدرسية خاصة ، ثم نشرها في صحف عامة أو مجلات معروفة ..

وتدل مذكرات الخطيب وأوراقه على مدى تأثره بكتابات الشيخ محمد عبده وعبد الرحمن الكواكبي والشيخ رشيد رضا وعبد الحميد الزهراوي وغيرهم ، الذين اتخذوا الصحافة ميدانا للتعبير عن آرائهم الفكرية والسياسية والدينية .. الخ فوجه الخطيب نظره الى الجمعيات السياسية وتأسيسها ، ونحو المطالعات الصحفية ثم الكتابة في هذه الصحف ، وترجمة المقالات الصحفية المفيدة(١٣)، وأدرك الخطيب دور الصحافة وقوة تأثيرها في المجتمع منذ الصغر ، وبقي هذا الرأي يكبر معه ، وعبر عنه في أكثر من مقالة صحفية في مجلتي الفتح والازهر وغيرهما كما سنرى .

وعندما اضطرته الدراسة للاتجاه نحو الاستانة ، وجد أبناء العرب ، من سورية وفلسطين والعراق والحجاز وغيرها ، يجهلون قواعد اللغة العربية وآدابها وثقافتها . « قرر أن يتصل بصديقه محمد كرد علي ، وكان قد انتقل من دمشق الى مصر »(١٤). وطلب منه أن يوافيه بجميع ما ينتهي من قراءته من الصحف المصرية ، وما يصل اليه من صحف سورية والمهجر ، ليقرأها وأترابه ، «وليستعين بذلك على تحويل من يتصل بهم من شباب العرب في استانبول عن التتريك » وليشعرهم بأن في دنيا العرب آدابا وصحافة وبيانا وشعرا قويا ، وأن في « الدنيا » وفي « اللسان الانساني » شيئا اسمه: « عرب وعربية وعروبة » وأن « الانسانية لا تسعد الا اذا بعثت العروبة من مرقدها وتجدد شباب الاسلام »(١٥) .

وقد كان محب الدين الخطيب يجتمع بزملائه في غرفتين للمطالعة ، أسسهما في استانبول مع الامير عارف الشهابي(١٦) والاعضاء الذين انتسبوا لجمعية النهضة العربية ، ويقرؤون الصحف التي تصلهم ، وقطع مختارة من الكتب العربية ، وأبيات مختارة من الشعر العربي، فكان استدراج هؤلاء الشبان ،وترغيبهم في مطالعة الصحف والمطبوعات العربية خطوة أولى لرجوعهم الى أنفسهم وعروبتهم ، وحبهم اللغة العربية . وقد اتجه أكثرهم نحو الصحف والصحافة والعمل السياسي فيما بعد ،وهي في نظر الخطيب هي « القوة الاولى التي يمكنها أن تقف في وجه التيار تدفعه وتغير مجراه »*.

---

* لقد كرر الخطيب في مجلتي الفتح منذ ١٣٥٢والازهر ، في أكثر من عدد قوله : « الصحافة قوة عظيمة لا شك في ذلك » .

المحاولات الاولية لتاسيس جريدة :

لم تكن محاولة الخطيب الاولى لاصدار جريدة في بلاد الشام كما كان يتوقع ، فان الظروف السياسية التي قادته الى اليمن(١٧) جعلت هذه المبادرة الصحفية في ذلك البلد ، فقد شعر الخطيب أن مدينة الحديدة بل وسائر بلاد اليمن بحاجة ماسة الى وجود مطبعة وصحيفة ، تسهما في نهضة فكرية وثقافية في المنطقة ، فبدأ بمفاوضة أصدقائه من العسكريين والمدنيين والاعيان والتجار لتأسيس شركة لهذا الغرض ، يكون ثمن السهم فيها جنيها استرلينيا واحدا « ذهبا » . وقد وافق عدد كبير على تحقيق هذا الامر على أن يكون اسم المطبعة « مطبعة جزيرة العرب » وأن تصدر عنها صحيفة باسم : « جزيرة العرب » أيضا .

وقد كتب محب الدين الخطيب وأصدقاؤه الى بعض سفارات وقنصليات الدولة العثمانية في البلاد الاوربية التي عرفت بصناعة آلات الطباعة مثل برلين وغيرها يطلب ارسال نماذجها الى الحديدة لانتقاء « ما يوافق الحال فيها » . ووصلت الاجهزة الى الحديدة ، ولكن قبل الدخول في دور التنفيذ ، تلقى محب الدين من دمشق رسائل تلح عليه بضرورة العودة لاصدار صحيفة باسم : « النهضة العربية » ، فتوقف مشروع المطبعة والجريدة في الحديدة(١٨) ، كما توقف فيما بعد تنفيذ اصدار جريدة النهضة العربية لاسباب سياسية تتعلق بسياسة الاتحاديين تجاه الاسماء ذات الطابع القومي، لأن كلمة « عربية » لم تكن مرغوبا فيها في الدولة العثمانية حسب المادة الرابعة من الدستور(١٩) .

الصحافة الهزلية : طار الخرج*

لم ييأس الخطيب من محاولة اصدار جريدة تعبر عن آرائه وأفكاره ، ولكن ذلك تأخر فعمل محررا في بعض الصحف ، ولعل الصدف هي التي وجهته نحو نوع من الصحافة لم يفكر فيه على الاطلاق . فقد كان في زيارة دار جريدة « القبس » اليومية التي كان يصدرها في دمشق الاستاذ محمد كرد علي ، وكان عدد اليوم التالي لما يتم اعداده ، فطلب كرد علي من محب الدين أن يحل محله في اصدار العدد ، فوعده خيرا ، وفي أثناء هذه المهمة ، حضر عمال الجريدة ومطابعها وأطلعوا الخطيب على رسوم لجريدة فكاهية يريدون اصدار عدد منها على أن يكتب لهم محب الدين هذا العدد « باللغة العامية » ، أو بها وبالفصحى معا ، وأن يكون عددا نادرا « ليروج بسرعة » .

---

* لم تحدد المذكرات تاريخ صدور هذا العدد ولكن يفهم من سياق الاحداث انه صدر في أواخر ١٩٠٨ على الارجح .

يخبرنا الخطيب كيف انه : « لم يترك شيئا في نفسه الا وعبَّر عنه ووضعه في تلك الجريدة الصغيرة .. » بالعامية والفصحى عند اللزوم « وبقي مع العمال يؤدي لهم هذه المهمة ، فجاءت كل فقرة نقدا مرا لأمور واقعية »(١٩) .

وكان اسم الجريدة الذي اختاره العمال هو « طار الخرج »(٢١) وقد كتب محب الدين الخطيب مواد العدد الاول قطعة قطعة ، والعمال يجمعون حروف ما يكتب لهم بسرعة ، ثم أخذوا بطبع العدد ، فصدر في اليوم الثاني كنوع جديد من الصحافة هي (الصحافة الفكاهية) الانتقادية . ولاقت نجاحا جماهيريا كبيرا حتى كان العدد يباع بأضعاف ثمنه . وعندما حاولت الحكومة البحث عن الجريدة وكاتبها وطابعها ، باءت جهودها بالفشل لأن ذلك غير مذكور في الجريدة المطبوعة(٢٢) .

أن هذه التجربة في صحيفة (طار الخرج) نبهت الانظار الى موهبة محب الدين الخطيب الصحفية ، من حيث سيطرته على الخبر ونقله الى الجماهير ومخاطبتهم كل حسب موقعه ، سواء في ذلك الموقع الجغرافي ، أو الموقع الاجتماعي أو السياسي أو الاقتصادي(٢٢) ، ومنذ الوهلة الاولى لصدور هذه الصحيفة الهزلية ، استطاع أن يوضح المعنى الذي يريده في الخبر المنقول للجمهور ، وان يستقطب القراء لما يكتبه في هذه الجريدة . وكانت السلطة تلاحقه دون جدوى واستمرت تلك الملاحقة الى ما بعد سنة ١٩٠٩ ، أي بعد الانقلاب المضاد في الدولة العثمانية ، لمحاكمته بعد أن صدر في هذه السنة ، قانون الصحافة الثاني(٢٢) . وضاعفت من رقابة (المكتوبجي) في تلك الفترة بشكل واضح ونتيجة لذلك اقترح عليه اخوانه التوجه الى مصر بعيدا عن أنظار السلطة في استانبول ودمشق ، فوصلها في النصف الثاني من شهر آب / أغسطس سنة ١٩٠٩ .

النشاط الصحفي من ١٩٠٩ ـ ١٩٢٠ :

تصعب متابعة نشاط محب الدين الخطيب في الصحافة قبل الحرب العالمية الاولى وبعدها حتى سنة ١٩٢٠ ، لوفرة هذا النشاط ، ولكنه يمكننا القول ان الاتجاه العام لمقالاته الصحفية في هذه الفترة ينبع من منطلقات العصر وسماته على الشكل التالي :

اولا : من سنة ١٩٠٩ ـ ١٩١٤ وهي فترة تسلط الاتحاديين :

وتبدأ بالتحديات التي اتبعها الاتحاديون ضد العرب : فقد وعى الخطيب منذ وقت مبكر ان التناقضات القائمة في الامبراطورية العثمانية تقتضي ايجاد حلول لها في داخل الامبراطورية نفسها سواء أكانت هذه التناقضات تتصل بنظام الحكم نفسه، مثل قضية الاستبداد والشورى واللامركزية ، أم تلك التي تتصل بحقوق القوميات

التي تتألف منها هذه الامبراطورية ، من حيث مشاركتها في الحكم أو مدى ممارستها لحقوقها القومية ..

وقد زاد في تطور هذا الوعي القومي عند الخطيب وأمثاله ، سياسة التتريك ، ومطاردة الرواد الاوائل وهجرتهم الى مصر ، ثم جاء ضياع طرابلس الغرب ليفجر الموقف العربي في مواجهة الاتراك ، فعقد المؤتمر العربي الاول في باريس سنة ١٩١٣ وركز الخطيب مقالاته حول تحقيق بنود هذا المؤتمر وفي مقدمتها : فتح المدارس والتعليم باللغة العربية ثم تطبيق اللا مركزية الادارية ، وحقوق ابناء القوميات في استلام وظائف الدولة أسوة بالاتراك ... وكانت هذه المقالات الصحفية ذات اتجاه اصلاحي — قومي في غالبيتها ، وظهرت في جريدة المؤيد بالدرجة الاولى .

ثانيا : من سنة ١٩١٦ الى ١٩١٨ فترة الثورة العربية الكبرى :

ركز الخطيب في صحافة الثورة على بعدين اساسيين قامت الثورة من أجل تحقيقهما وهما : البعد « الاسلامي » ، والبعد « القومي — العربي » ، وكانت جريدة القبلة جريدة الثورة ، هي الساحة التي انطلق منها الخطيب مبينا أن : بالاسلام كان دور العرب الكبير في التاريخ ، وبالعرب كان عز الاسلام وقيام دولة وحضارة . هذا الاتجاه يمكن أن نطلق عليه اسم الاتجاه « الديني — القومي » ، بالاضافة الى تركيزه على « مثالب الترك » مثل قضية التتريك وغيرها ...

ثالثا : من ١٩١٨ — ١٩٢٠ وهي فترة الحكم العربي الفيصلي :

عمل الخطيب محررا لجريدة العاصمة « الجريدة الرسمية » وكان اتجاهه الصحفي يعكس وجهات نظر هذه الدولة العربية الرائدة التي تدعو للتحديث والمعاصرة ، فتطرق الى مواضيع جديدة هي من سمات الدول الحديثة مثل : المواضيع الاقتصادية والثقافية والاجتماعية ، وكتب في قضايا الاقتصاد الوطني وافتتاح المصارف الوطنية ، وكذلك افتتاح المدارس العربية لمواجهة المدارس البشرية ، وتطرق الى قضايا العمال والفلاحين ، والتظيمات الشعبية وغيرها ... كما سجل أهم أحداث هذه الفترة العربية .

١ — جريدة المؤيد :

لعبت جريدة المؤيد دورا بارزا في حياة الخطيب الصحفية ، اذ انضم الى أسرة تحريرها في مصر منذ الايام الاولى لوصوله سنة ١٩٠٩ ، وكان تيمور باشا مساهما في شركة جريدة المؤيد التي كان يصدرها الشيخ علي يوسف ، وتم الاتفاق على أن يلتحق بقلم تحريرها من الصباح الى الساعة الواحدة ظهرا ، ليتفرغ بعد ذلك للاشراف على

المكتبة السلفية التي أسسها في مصر أيضا منذ الايام الاولى لوصوله(٢٥) . والمؤيد من أوائل الصحف التي وقفت ضد الاحتلال البريطاني منذ صدورها ١٨٨٩ وقد كتب فيها كبار رجال السياسة والفكر ، مثل الكواكبي والشيخ محمد عبده ، وكرد علي والزهراوي والمنفلوطي وغيرهم ... وامتلكها في بادىء الامر الشيخ علي يوسف والشيخ أحمد ماضي ، ثم آلت الى علي يوسف عام ١٨٩١(٢٦) ، وبقي محب الدين الخطيب محررا في هذه الجريدة من أول أيلول / سبتمبر سنة ١٩٠٩ الى ما بعد وفاة الشيخ علي يوسف سنة ١٩١٣ ، ونال ثقة الشيخ وقراء الجريدة في فترة وجيزة ويعد محب الدين الخطيب الشيخ علي يوسف « أستاذه الاول في الصحافة المصرية » ، كما يعد صحيفة المؤيد المدرسة الاولى التي تعلم فيها فنون الصحافة ، (وقد كرر هذا المعنى عدة مرات في « سيرة جيل » وفي مجلتي الفتح والزهراء) .

وتنبع قيمة المقالات التي كتبها الخطيب في المؤيد ، من أنها نداءات قومية مستمدة من المبادىء التي نشرها في تنظيمه السياسي الاول وهو :« جمعية النهضة العربية»(٢٧) وكان يرد على كل شعوبي يدعي بأن القومية لم تعرف الا عن طريق الدول الاوربية وسفاراتها أو قنصلياتها في البلاد العربية ، وقد لفت اليه الانظار بحماسته في المناقشة وبموهبته الحقيقية في الجدل ، وبتركيزه على مواضيع الساعة ، وفي هذه الفترة التي شهدت كتاباته في المؤيد ، ازداد غلو جماعة الاتحاد والترقي في الدعوة الى الجامعة الطورانية والى «العصبية التركية» فأخذ الخطيب يشير الى هذا الاتجاه نحو التتريك، ووجد فيه مجالا واسعا لنشر عدة مقالات صحفية حول الموضوع ، نقلها الى جمهور القراء بعد تبسيط معنى « التتريك » وشرحه ، وقد عرض المشكلة بطريقة تتفق وقدرة الجماهير على الفهم والاستيعاب . ومما ذكره الخطيب مفسرا : ان المحرر الذي لا يفهم مضمون الخبر أو الحدث وتفاصيله لا يستطيع نقله وايصاله الى جماهير القراء*. ويمكن القول ان مقالات الخطيب في المؤيد كان لها الاثر الكبير في نشر فكر الحركة العربية وتشجيعها في مواجهة الحركة الطورانية خاصة في سورية والعراق ثم في سائر البلاد العربية العثمانية ، وقد صور محمد لطفي جمعة خطة المؤيد فقال : انتشر المؤيد في انحاء الكرة الارضية مقروءا من طنجة وفاس كما كان يتلى في شنغهاي وهونولولو والفلبين ، وحيث وجد ناطق بالضاد ، فكان المؤيد من أدوات الحياة العقلية التي لا يستغنى عنها(٢٨) .

برزت مواهب الخطيب الصحفية من خلال عمله في المؤيد فركز على بعض النواحي الصحفية الهامة مثل : الافتتاحية ، وكثيرا ما كان يتخيرها بنفسه ، فيتأخر في دار

* عدة لقاءات شخصية مع محب الدين الخطيب رحمه الله في القاهرة سنة ١٩٦٥ وما بعدها .

المؤيد ليترجم مقالة تناسب الوضع ، من الصحف التركية كجريدة « اقدام لاحمد جودت بيك » ، أو غيرها من جرائد ذلك الوقت . . . أو يقوم بكتابتها بنفسه بعد أن توثقت صلته بالشيخ علي يوسف صاحب الجريدة . كما لمس أيضا أهمية السرعة في نشر الخبر وتقديمه للقراء فور وقوع الحدث ، أو « السبق الصحفي » فيحصل على البيانات اللازمة من مصادر متعددة أو يتأكد منها بسرعة فائقة ، قبل أن يفلت منه الخبر الجديد وينشر في جريدة أخرى . وقد استخدم هذا الاسلوب في وقت مبكر عندما أصدر ملحقا صحفيا في الفترة التي وقع فيها الهجوم الايطالي على طرابلس الغرب(١٩) وعندما نشبت حرب البلقان . ونقل محب الدين الخطيب سكنه الى منزل قريب من دار المؤيد ، كي يستطيع متابعة الاخبار . ويقول في مذكراته : « كثيرا ما كان الباعة ينادون على الملحق في الشوارع والاسواق ، ويكون الشيخ علي يوسف في منزله، فيرسل من يقوم له بشراء الملحق ويطلع على ذلك كأي قارىء من جماهير القراء » . ويشير الخطيب الى أنه صار يتصرف بالجريدة حسب عقيدته وقناعاته ، وانه حول جريدة المؤيد الى جريدة عربية محضة : « كأنها جريدة المفيد التي كان يصدرها في بيروت عبد الغني العريسي وفؤاد حنتس* أعضاء جمعية العربية الفتاة »(٢٩).

وقد جعل الخطيب من المؤتمر العربي الاول الذي عقد في باريس سنة ١٩١٣ حدثا صحفيا هاما ، وبدلا من اصدار ملحق صحفي حوله ، أصدر كتيبا سجل فيه أحداث المؤتمر وقراراته بطريقة صحفية باهرة كملحق كبير لحدث هام ، فبين بشكل موضوعي أين تكمن أهمية هذا الحدث التاريخي ، وركز على مكان انعقاده وبرر ذلك، كما استرعى الانظار الى ضخامة « الجماهير » التي حضرت المؤتمر وأبدى رأيه حول هذه النقطة الهامة في ذلك الحين ، وسلط الاضواء على بعض شخصيات المؤتمر ومكانتهم العلمية والدينية والحزبية والاجتماعية بالنسبة الى القضية السورية ـ العربيه ، وهذا بالاضافة الى نشر مناقشات المؤتمر وما توصل اليه الحاضرون من مقررات تركها للقارىء كي يقوم بدراستها وتحليلها(٣٠) .

ويمكن القول باختصار أن مواهب الخطيب الصحفية قد تفتحت في جريدة المؤيد، وان كتاباته كانت ذات سمة قومية اصلاحية واضحة ، يتعذر الفصل فيها بين المنطلق القومي والمنطلق الديني فصلا كاملا ، من ذلك انه عندما نشرت مجلة «العالم الاسلامي» الفرنسية الدراسة المتعلقة بأعمال المبشرين البروتستانت في العالم الاسلامي ، وفتحهم المدارس والجمعيات والمستشفيات في البلاد . . . قام هو وأحد زملائه بترجمة هذه

---

* توفي فؤاد حنتس خلال الحرب العالمية الاولى أما عبد الغني العريسي فهو أحد شهداء ٦ أيار سنة ١٩١٦ .

المقالات ونشرها في المؤيد بشكل متتابع ، ونقلت هذه الفصول الى مجلة « المنـار » في القاهرة ، والى جريدة « الاتحاد العثماني » اليومية في بيروت ، مما أثار جدلا وحوارا على صفحات الجرائد بين ناشري هذه الدراسة من الاجانب،وبين محب الدين الخطيب بوصفه مترجما وناشرا لها(٢١) .

وعلى الرغم من أن محب الدين الخطيب كان يتحدث في بعض مقالاته التي كـان ينشرها في المؤيد عن (أمة المسلمين) و (شؤون المسلمين) ، الا أنـه كان يدعو قومـه العرب الى تحمل هذا العبء الاصلاحي ، ويطرح حلا لمعالجة « هذه الاوضاع في البلاد العربية الاسلامية ، بضرورة ربط آمال الامة العربيـة الاسلاميـة بالجزيرة العربيـة وأمرائها » ولذلك انتسب الى جمعية الجامعة العربية التي أسسها الشيخ رشيد رضا سنة ١٩١٤(٢٢) وسافر في مهمة رسمية الى الجزيرة العربية لطرح هدف هذه الجمعية وتحقيقه ، ولكنه لم يتمكن من ذلك ، اذ قبض عليه الانكليز في ميناء البصرة . ولـم يتحقق له الوصول الى الجزيرة العربية الا عندما أعلن الشريف حسين بن علي الثورة العربية الكبرى ، واستدعى الخطيب ليتولى تحرير جريدة القبلة الرسمية فيها .

٢ ــ جريدة القبلـة :

صدرت جريدة القبلة منذ بداية الثورة العربية الكبرى أي في شهر حزيران سنة ١٩١٦ ، وجعلت شعارها الآية الكريمة : « وما جعلنا القبلة التي كنت عليها الا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه»(٢٣)، وتدفق أحرار العرب نحو الحجاز ليشاركوا في هذه الثورة(٢٤) ، وأسهم بعضهم في الاشراف على صحافة الثـورة بشـكل خاص ، ومنهم الخطيب بعد أن طلبه الشريف (شخصيا) في تموز١٩١٦ فسافر في اليوم الثالث من أيام عيد الفطر سنة ١٣٣٤هـ الى مكة المكرمة . (تموز ١٩١٦) . ويذكر الخطيب هذا الطلب باعتزاز في مذكراته(٢٥) .

كان العمل الظاهر لمحب الدين الخطيب ، تأسيس المطبعة الاميرية لحكومة الحجاز العربية ، واصدار جريدتها الرسمية « القبلة » ، وقد ظهرت في عددها الثاني تحمل اسم المدير المسؤول : محب الدين الخطيب(٢٦) .

اتبع الخطيب في جريدة القبلة أسلوبا صحفيا مميزا ، يعتمد بالدرجة الاولى على « نوع الخبر » وأهميته ، ويحدد له ، تبعا لذلك ، مكانه من الجريدة والمساحة الورقية التي سيحتلها ، ومكانه بين الموضوعات الاخرى . . وقرر محرر « القبلة » منذ البداية أن هذه الجريدة ستكرس جهدها لخدمة الاسلام والعروبة معا ، وانها : تسـعى وراء خدمة الاسلام في أقطار المعمورة وتجدّ في سبيل ترقيهم وتقدمهم ، وتجاهد لاعلاء شأن الامة العربية »(٢٧) ، ولا عجب في ذلك ، لأن شعار الثورة العربية الكبرى هو الدفاع

عن العروبة من جهة ، وعن الاسلام من جهة أخرى ، وقد ظهر ذلك في المنشور الاول للثورة الذي صدر بتاريخ ٢٦ حزيران سنة ١٩١٦، الموافق ٢٠ شعبان ١٣٣٤ هـ — أي قبل وصول الخطيب الى مكة — وبقيت الجريدة محافظة على ابراز هذه المحاور الرئيسية والسمات البارزة للحوار السياسي الدائر في ذلك العصر بين العرب والترك، وكان لا بد من محرر يؤمن بهذه المحاور ويتفهمها جيدا ، ليستطيع نقلها الى الجماهير واقناعهم بها . وكان الخطيب هو هذا الرجل فعالج في القبلة قضايا العصر ، ومنها قضية استبداد الاتحاديين ووصفه بأنه :« استبداد مقنع بالدستور » . واستنكرت الجريدة تهجم الاتراك على العرب ودورهم التاريخي ، وبيَّن الخطيب شارحا ومحللا ان خدمة الاسلام تأتي عن طريق نهضة العرب وعزتهم : « فالعنصر العربي لا يزال أصلح العناصر الاسلامية للقيام بأمر الاسلام واعادة مجده الى الانام » .

وقد شغلت قضية « التتريك » لأهميتها ، حيزا مهما في الجريدة في ذلك الوقت، « اذ خص الاتحاديون العرب ولغتهم بالاضطهاد » ، وشرح الخطيب في افتتاحيات القبلة ومنشورات الثورة المتتالية كيف حاول الاتحاديون قتل اللغة العربية في جميع الولايات العثمانية بابطالها من المدارس ومنع استعمالها في الدواوين والمحاكم ، وبرر الاسباب التي دعت شريف مكة ومن ورائه العرب لاعلان الثورة على الاتراك وهو : « أشد الناس بغضا للحرب وحبا للسلم »(٣٨) وادت هذه الطريقة الواضحة في نشر الخبر وشرحه وتعديله الى وصول انباء الثورة بطريقة مبسطة ومقنعة للمسلمين من غير العرب ، وللعرب والمسلمين المغتربين في المهجر ، كما سجل الخطيب بدقة كيفية قيام الثورة وانتشارها والعلاقات الخارجية التي حاولت أن تقيمها ، ودعم ذلك ببعض الصور والامثلة المقارنة ولا سيما في « الافتتاحية » التي كان يحرص على كتابتها .

ولعل القضية الكبرى التي تبناها الخطيب وشرحها شرحا وافيا في الجريدة هي الدعوة للوحدة العربية : وتحقيق أهداف الثورة وآمال العرب ، بقيام الدولة العربية المشرقية الكبرى التي تضم بلاد الشام والجزيرة العربية والعراق(٣٩) وقد أيد الخطيب في دعوته هذه عدد كبير من احرار العرب الذين شاركوا في تحرير جريدة القبلة غير ان كتابات الخطيب « والحزبيين » منهم كانت مميزة لانها تنبع من ايمانهم بضرورة الثورة ، ومن ايمانهم بأهداف التنظيمات العربية المنتسبين اليها ، السرية منها والعلنية مثل : جمعية العربية الفتاة وجمعية الجامعة العربية وحزب اللامركزية .. واذا كان الخطيب قد ركز على تنفيذ مقررات المؤتمر العربي الاول الذي عقدته الجمعيات في باريس سنة ١٩١٣(٤٠) فانه لم ينس الاشارة الى مطالب « جمعية العربية الفتاة » التي جاءت في صرخاتها الثلاث(٤١) ، فأشار الى هذه المطالب في جريدة القبلة، وكذلك شرح وأكد أهداف ومطالب جمعية الجامعة العربية التي تتمثل في ربط آمال الامة العربية الاسلامية بالجزيرة العربية وامرائها : فقد صرح في أكثر من مكان في

الجريدة أن على العرب اليوم أمراء وأفرادا وشعوبا أن يعلموا انهم في « فاتحة دور جديد من انقلاب العالم » ودعاهم الى تحقيق الوحدة ، ضرب مثلا بالوحدة الايطالية والوحدة الالمانية في القرن الماضي ، وطالب الناطقين الضاد أن يعملوا مع اخوانهم في كل مكان لهذه الوحدة ، « وان لهم في سائر الاقطار العربية اخوة تربطهم بهم رابطة اللغة والجوار والمصلحة والعاطفة والدين ، وعليهم أن يضعوا نصب أعينهم جمع كلمة هذه الامة . . . فانهم ان فعلوا ذلك مشوا بهذه الامة العربية الى أحب أمانيها »(٤٢).

ولسنا هنا بصدد اثبات أن جريدة القبلة هي جريدة الثورة العربية الكبرى الرسمية أم لا . . . ولسنا كذلك بصدد اثبات أنها جريدة جمعية العربية الفتاة أم لا . . ولكننا نشير الى الاسلوب الصحفي الجريء الذي استعمله المدير المسؤول للجريدة وبقية المحررين ، لدرجة انه عندما اتهمت الجريدة بأنها تتكلم باسم شخص معين ،ردت الجريدة بأن المسألة : « ليست مسألة أمير نادي باستقلاله ، بل هي أكبر من ذلك بكثير » وبينت أن المسألة الاساسية هي : « هل يكون العرب أو لا يكونون » وتجيب الجريدة بثقة أن العرب : « قد أجابوا تحت راية الامير الشريف قائلين : اما أن نكون أعزة أو نموت شرفاء »(٤٣) .

وتعد هذه المقالات الصحفية في القبلة دليلاً على تجاوب شريف مكة مع ما طرحه أحرار العرب وأعضاء الجمعيات من أفكار قومية وحدوية ، ويمكننا القول ان الجريدة انطلقت تحمل الاراء القومية والاسلامية ، وبقي أسم محب الدين الخطيب يتصدرها حتى تاريخ ٢٠ أيلول ١٩٢٠ ، وعلى الرغم من أن الخطيب توجه الى دمشق بعد اعلان الحكم العربي الفيصلي ، فبقيت دون محرر مسؤول طيلة سنة ١٩١٩ الى أن استلم تحريرها حسين الصبان حتى توقفها سنة ١٩٢٤(٤٤). وهذا دليل على تمسك شريف مكة وحكومة الحجاز بشخصية الخطيب باعتباره صحفيا مميزا .

نجح الخطيب بوساطة القبلة في نقل أخبار الثورة العربية الى المجال العالمي عن طريقين : الاول اتصاله بالحركة الاشتراكية الجديدة ومطالبة قادتها بالوقوف الى جانب الثورة في مواجهة الاتحاديين ، والثاني : اتصاله بعرب ومسلمي المهجر . وكانت الاشتراكية ، هي الحركة الجديدة أو الحدث العالمي الجديد في ذلك الوقت . وقد أعجب بها الخطيب وأحب أن يقدمها للقراء ، وأن يطلب مساعدتها للعرب من خلال مؤتمر استوكهولم الذي دعا اليه الاشتراكيون، وقد طلب من أعضاء المؤتمر الذي: « سيكون جامعا للاشتراكية كلها : المعتدلة منها والمتطرفة » ان لا يأخذوا بأقوال الاتحاديين : « بعد أن انتدبوا اسماعيل جانبولاد بك معتمدا لهم في استوكهولم، ليكونوا على مقربة من زعماء السياسة ، وعلى بينة من تقلباتهم ، لعلهم يدفعون عنهم غائلة البوار وجائحة الدمار » وأخذ يشرح على صفحات القبلة عيوب الاتحاديين وكرههم

للعرب « وما يبطنون من الدخائل والاحقاد » ووصف هذه الفئة الاتحادية « الباغية » بأنها « لم تصدق في قول ولا في عمل » بل كانت شرا على العالم وعلى نفسها وعلى كل حر تحت الشمس » . وناشد الخطيب جماعة الاشتراكيين بقوله : « من العار على الاشتراكية ، خاصة والمدنية عامة .... أن يقبل لهم (أي للاتحاديين) رأي ويسمع لهم صوت » (٤٥) . ويتساءل : « أليس لعمري من المقتضيات السياسية والاقتصادية والتاريخية أن يستريح العالم من شر الطورانيين ، فتخلفهم تلك الامة التي شهد لها التاريخ بالفضل والسبق في عالم الحضارة والعلم وفي مجال الاصلاح والعمل » ؟ويكون الجواب « اللهم نعم »(٤٦) . ويشير الى العلاقة بين العروبة والاسلام بقوله : « خاصة وان الاسلام في حقيقته دين عربي ، وأن الله سبحانه وتعالي قد أشار الى ذلك في أماكن متعددة من القرآن الكريم »(٤٧) . هذا مع العلم أن الخطيب لم يشرح على صفحات القبلة السمات الرئيسية للحركة الاشتراكية الجديدة .. والاسباب التي دعت لقيامها ... الخ .

لقد تمكن محب الدين الخطيب بأسلوبه الصحفي المتميز ، ومناقشة الافكار الجديدة على صفحات القبلة ، والتي كانت مواضيع جديدة بالنسبة للصحافة المعاصرة من تنمية الوعي القومي ، والحوار السياسي داخل الوطن العربي وخارجه ، وتمكن من نقل القضية العربية وأخبار الثورة العربية الكبرى من الساحة العربية المحلية ، الى الساحة العربية في المهجر ، فأصبح المغتربون يكتبون للقبلة معبرين عن شعورهم تجاه الثورة ورجالها ، ويحيون القائمين عليها بقولهم « لتحيى دولة العرب وليحيى ملك الحجاز .... مالك قلوب الناطقين بالضاد في الجزيرة والقطرين وفي أطراف المعمورة أيضا »(٤٨) .

ولعل صدى هذه المقالات الصحفية ، وما أفرزته من أدبيات خاصة بالثورة العربية ، بحاجة الى بحث مفصل ، غير انه لا بد من الاشارة الى العلاقة الطيبة التي قامت في الحجاز بين محب الدين الخطيب وصحافة المهجر ،وتبادل الاراء حول النهضة الجديدة ، وبدأ الخطيب يعالج المسائل الهامة في ذلك الوقت بالنسبة لعرب المهجر ، والمسلمين من غير العرب ، فعالج قضية الهجرة ، وقضية الدين والدولة ، داعيا لاستعادة مجد العرب ، مقارنا بينهم وبين الترك ، وغيرهم من الامم ، وتطرق الى الخلافة والسلطة في مقالاته ، مما أقنع عرب المهجر بأن المهاجر : « ما كان يهجر وطنه لو كانت فيه الكلمةللعرب وللدولة العربية » . وكرر المهاجرون تحيتهم لكل رسول يحمل من الحجاز بشائر الحياة للدولة العربية(٤٩) .

٣ ـ جريدة العاصمة :

عندما دخل فيصل الى سورية بجيشه العربي في أواخر ١٩١٨، استأذن الخطيب

من الملك حسين أن يزور أهله في دمشق ، فوصلها في شهر تموز ١٩١٩ . وقد استقبله هناك أعضاء جمعية العربية الفتاة ، ليكون عضوا في لجنتها المركزية التي تشرف على ادارة الدولة من وراء ستار(٥٠) ، ونيط به ادارة وتحرير الجريدة الرسمية للحكومة العربية وهي جريدة « العاصمة » وأبيح له ان يكتب فيها مقالات توجيهية كما يشاء بلا مراقبة ، فوجه اهتمامه الى العلاقات العقائدية في المجتمع وأثرها السياسي ، وناقش الافكار التي ترتبط بالانسان والمجتمع والتاريخ بوجه عام ، ويوضح انه لا بد من البدء باصلاح الفرد لأن : نظام الدولة في كل أمة من الامم منتزع من نظام الجماعة ، وقائم على أساسه ، ونظام الجماعة منتزع من خلق الفرد وقائم على أساسه .

كان الخطيب في جريدة العاصمة مفكرا ومصلحا ، يضع النقاط على الحروف ، ويرد على قضايا ومشكلات ما بعد الحرب العالمية الاولى ، من قضايا اقتصادية واجتماعية وفكرية . . . وقد استنكر على صفحات العاصمة ، كيف أن بعض المدارس الفكرية تحاول أن ترسخ في نفوس ناشئتنا شلطة من غلطات التاريخ تفسد علينا عقيدتنا في قوميتنا وتوهمنا ان هذه الدماء تجول في عروقنا ، انما هي دماء غريبة عن الدم العربي ، ويستغرب قول هؤلاء : « بأننا من الفينيقيين والاراميين » ويتساءل : « ولا أدري ما سوف يقولون لنا غير هذا في الايام الاتية »(٥١) .

وكانت هذه المواضيع الجديدة تتناولها الصحف ذات الاتجاه الفكري العربي الواحد ، والبعد القومي الواضح ، فلم تلبث جريدة « المفيد » أن تناولت هذا الموضوع تحت عنوان « حياتنا القومية » ، وصحيفة الاستقلال بمقالة عنوانها « نحن العرب ليحي العرب »(٥٢) ، مما ساعد على تكوين الوعي العام العلمي والاجتماعي والقومي ، بالاضافة الى الوعي الاقتصادي ، ونشاط الحوار السياسي . وطرح الخطيب العلاقات الاقتصادية وأثرها السياسي ، فبحث في التكوين الطبقي ، وفي الفلاح والارض ، وناقش قضية العامل والسخرة والرشوة . وقدم في أعداد العاصمة تحليلا تاريخيا لتطور العلاقات الانتاجية بصورة عامة، أبرز فيها أثر حاجات الانسان المادية على الحياة الانسانية وتطورها .

كانت قضية العمال تشغل بال محب الدين الخطيب ، وفي رأيه أن « ليس سواد الامة قاصرا على طبقة المتعلمين والاعيان وتجار الحواضر « الذين يقرؤون الصحف اليومية . . . » بل سواد الامة في رأيه « . . . هو المتكون من جماهير العمال وسكان القرى والجبال والعاكفين على شق الارض واستنباتها ، فهؤلاء هم الذين يجب على المتعلمين أن يصرفوا هممهم الى تنوير قلوبهم وعقولهم ، وترقية مواهبهم ومداركهم ليتكون للامة راي عام بوساطتهم »(٥٣) .

ومن هذا المنطلق ، اتجه الخطيب نحو التنظيم الشعبي ، فأسس مع كامل

القصاب اللجنة الوطنية العليا ،وفروع اللجنة الوطنية العليا ،وهي خارج نطاق بحثنا، غير أنه لا بد لنا من الاشارة الى أن شباب هذه اللجنة ، هم الذين قاوموا الجيش الفرنسي في ميسلون ، وكانوا بمثابة الجيش الشعبي في سورية أيام الحكم العربي الفيصلي(٥٤) واعتنت اللجنة كذلك بالوضع الاقتصادي وتأمين الحبوب لافراد الشعب، وقد بين محب الدين الخطيب على صفحات جريدة العاصمة اهتمام اللجنة الوطنية العليا بهذه الناحية ، عندما شكلت وفدا توجه الى الحاكم العسكري العام يرجوه عدم تصدير الحبوب الى خارج المنطقة الشرقية رحمة بالفقراء ، فوعدهم خيرا(٥٥) .

ولعل محب الدين الخطيب أول من طالب « بتأسيس مصرف مالي عربي » من منطلق أن المصارف الوطنية عنوان الاستقلال الاقتصادي ، والاستقلال الاقتصادي دعامة الاستقلال السياسي ، وفي رأيه انه : « ما نشبت مخالب الاستعمار في بلد من بلاد الشرق الا على أيدي المتمولين من الاجانب » . ويشير محب الدين الى العلاقة بين وجود المصارف الاجنبية في بلد من البلاد وجود «الجند الاجنبي» بقوله : « ان وجود المصارف الاجنبية هو مقدمة لوجود الجند الاجنبي في يوم ما داخل قلاع ذلك البلد » وقد تكلم الخطيب عن بنك مصر وفوائده المتعددة ورفع اقتراحه بتأسيس مصرف مالي عربي الى رئيس الوزراء ، ووزير المالية وكبار التجار والاعيان(٥٦) .

بقي الخطيب في دمشق يشرف على جريدة العاصمة ، وكانت تصدر بمعدل مرتين في الاسبوع ، طيلة العهد الفيصلي ، يدافع عن استقلال البلاد «وضرورة الالتفاف حول سمو الامير المعظم » ، ويدعو الامة العربية عامة والشبيبة منها خاصة « أن تبقى مستظلة بالراية التاريخية المربعة الالوان»(٥٧) ، وبقي مخلصا للعهد العربي الفيصلي، حتى كانت موقعة ميسلون في ٢٤ تموز سنة ١٩٢٠ وانهيار الحكومة العربية أمام جيش فرنسا ، فخرج محب الدين الخطيب متوجها نحو مصر ، ليبدأ حياة صحفية جديدة، بمضامين جديدة ذات طابع اسلامي ، وسمات اصلاحية واجتماعية جديدة .

أما على النطاق الرسمي فقد سجل الخطيب على صفحات العاصمة بدقة صحفية العلاقات الخارجية التي بنيت عليها هذه التجربة الفيصلية ، والعلاقات الدولية التي حاول الحكم العربي الفيصلي أن يقيمها مع الدول الكبرى وغيرها .

وعلى النطاق الداخلي ، سجل الخطيب أهم أحداث العهد ، وركز على افتتاح المؤتمر السوري ، وسجل جماهيرية هذا المؤتمر ، وعدد الحضور والشعور الشعبي ، والتأييد الجماهيري ... ونقل صورة واضحة على صفحات العاصمة لتتويج الامير فيصل ملكا على سورية في ٨ آذار سنة ١٩٢٠ .

وهكذا ترك الخطيب على صفحات الجريدة الرسمية في الحجاز ودمشق سجلا

وثائقيا وافيا حول الاحداث الوطنية العامة والقرارات الرسمية لحكومات تلك الفترة أيضا .

نشاط محب الدين الصحفي من سنة ١٩٢٠ ــ ١٩٥٨ :

اذا كان الخطيب قد ركز على شرح البعد القومي والنزوع الى القومية العربية والعروبة في صحافة الربع الاول من القرن العشرين ، فانه ركز كذلك على البعد العقائدي الاسلامي في صحافة الربع الثاني لهذا القرن بل وحتى وفاته سنة ١٩٦٩ .

وكانت منطلقاته الفكرية تتركز على مقاومة الاستعمار السياسي والاقتصادي والفكري الذي وقعت المنطقة العربية ، بمشرقها ومغربها ، تحت تأثيره من خلال الانتدابين البريطاني والفرنسي وتسويات ما بعد الحرب العالمية الاولى .

ويمكن تقسيم هذه المرحلة الى فترتين زمنيتين :

الاولى من سنة ١٩٢٤ الى ١٩٢٩ وهي فترة الاتجاه الادبي ــ الاجتماعي، ويتمثل في مجلة الزهراء التي أصدرها الخطيب في هذه الفترة بالاضافة الى دعوة واضحة لمزج الاصالة بالتحديث .

والثانية : من سنة ١٩٢٦ الى ١٩٤٨ ثم من ١٩٥٢ الى ١٩٥٨ وهي فترة الاتجاه الديني ــ الاسلامي ، ويتمثل في مجلتي الفتح والازهر اللتين أصدرهما في خلال هذه السنوات . وقد تطرق من خلالهما الى أهم قضايا هذه الفترة ، مثل قضية فلسطين ، وقضية التحرر العقلي من الاستعمار . ويشير : لا يمكن أن يتصور امكان تجرد ثقافة عربية من روح الاسلام : « لأن العروبة والاسلام شيء واحد ، وماضيهما ماض مشترك ومتلازم »(٥٨) ويكرر ذات المعنى في مقالات أخرى في مجلة الازهر .

مجلة الزهراء والاتجاه الادبي :

تعكس مجلة الزهراء ، التي أصدرها الخطيب في مصر ، التطور الذي طرأ على تفكيره هو وأمثاله في هذه الفترة .. فقد شهد هؤلاء الرواد آمالهم القومية الوحدوية تخبو أمام الضغوط الاجنبية ومصالح الدول الاستعمارية المنتصرة ، التي قضت على الدولةالعربية الفيصلية الوليدة ،واخذت فرنسا وانكلترا تطبقان معاهدة سايس-بيكو وتجزئان المنطقة ، كما هو معروف .ووقعت سورية الشمالية تحت الانتداب الفرنسي، وسورية الجنونية والعراق تحت الانتداب البريطاني ، وكان الخطيب في هذه الاثناء قد اتخذ من مصر وطنا ثانيا له ، يرقب الاحداث والاضطرابات ، والتقسيمات التي قام بها الجنرال غورو في سورية(٥٩) ، وما وصل اليه الامر من سوء ، وكيف أصبحت

البلاد المقدسة في فلسطين لاول مرة بعد الحروب الصيلبية بأيد أوربية ، وعاصـمة الامويين والعباسيين تحتلها قوات أجنبية .

في هذه الاجواء المضطربة أصدر الخطيب مجلة الزهراء سنة ١٩٢٤م لتأخذ طابعا أدبيا أكثر منه سياسيا ، وصدر العدد الاول منهـا يوم ١٥ محرم ١٩٤٣ هـ لتستمر في الصدور خمس سنوات متتالية ، تحمل الجملة التي ثبتها على الغلاف : مجلة علمية أدبية اجتماعية ... ويمكن القول ان الزهراء كانت المجلة ــ الجسر ــ بين الصحافـة التي كان الخطيب يشارك في تحريرها قبل الحرب العالمية الاولى وخلالها ، ذات الاتجاه القومي والطابع العربي ، وبين الصحافة التي أصدرها أو ساهم في تحريرها في فتـرة ما بين الحربين ، وهي صحافة ذات اتجاه ديني وشمول اسلامي ، يتمثل في مجـلات الفتح والازهر « والشبان المسلمون » وغيرها .

ونلمس في مجلة الزهراء دعوة واضحة الى مزج الاصالة بالتحديث وضرورة ذلك عند العرب للحفاظ على حضارتهم ، ويؤكد الخطيب في عدة أماكن انه : لا بد لنا مـن « الاحتفاظ بتقاليدنا القومية » من ناحية ، و : « المحافظة على لغتنا العربية الاصيلة » من ناحية أخرى . وقد دعا الخطيب الى : « المرونة في الاقتباس » من حضارات الامم المجاورة لنـا ، فهي حضارات معاصرة ، تقدمت خطوات وسبقتنا في مجالات القوة ، والنظم الادارية والممارسات السياسية وغيرها(٦٠) . ولا بد لنا من الاستفادة من هـذه الوسائل العصرية شريطة الابتعاد عن السفاسف والقشور الغربية التي قد تكون سببا لتنفير الشرق حتى من النافع(٦١) .

وقد لمس الخطيب أهمية هذه المواضيع الجديدة التي كانت مدار بحث ونقاش في هذه الفترة ، فكان يناقشها في « الافتتاحية الصحفية » ، واجهة المجلة أو الجريدة ، كما أدخل الخطيب في مجلته الجديدة هذه عدة أبواب صحفية تلبي متطلبات العصـر وتتناول أهم الانباء العالمية ، سواء أكانت أنباء سياسية أم أدبية أم رياضية ، ويقول الخطيب ان النبأ المهم أو « السـاخن » (باللغـة الصحفية) ليس بالضـرورة النبـأ السياسي فقط .

وركز الخطيب في هذه المجلة أيضا على أنباء العالم الاسلامي بشكل خاص ، وكانت لها أبواب معينة على صفحات خاصة في المجلة ، الا أن الزهراء ظلت ، طيلة فترة صدورها تركز على سمات العرب الحضارية وآدابهم ، وأنهم أغنوا الحضارات العالمية بتراثهـم العلمي وتشيد متفائلة بأهمية النهضة الحاضرة في مصر والاقطار العربية الاخرى .

ويبرز الخطيب تأخر الشرق وضعفه بأن يلقي اللوم على فريقين : الاول الحكومات الاسلامية ، التي شهدت تطـور أوربا وما ترتب على هـذا التطور من نتائج سياسية

وعمرانية فمرت بذلك كله كما يمر به من لا يعنيه أمره ،والثاني عقلاء الامة وقادة الراي منها الذين سكتوا عن هذا الوضع لأن الحكومات تستمد قوتها من سلطة شعوبها (٦٢). فاذا تنبه قادة الشرق من غفلتهم وكانوا « بعيدي النظر نافذي البصيرة ، فانه بامكانهم أن يبدؤوا للشرق عصرا جديدا »(٦٣) .

وعزز الخطيب هذا البعد الادبي في مجلته عندما أخذ ينشر شروحا وافية لأهم المؤلفات الادبية والتاريخية ، ووجه عناية خاصة لحركة التأليف والنشر بشكل عام واعتنى بالمؤلفات الصادرة على المستوى العالمي ، واخذ يدعو الى « محاولة الاقتباس» منها « حسب ما يتناسب والثقافة العربية والاسلامية »(٦٤) .

التزم الخطيب بهذا الخط الادبي الذي اشترط في امتياز الزهراء ولم يتدخل في الدين والسياسة ، ويبرر الاسباب التي دعت الى اصدار جريدة الفتح سنة ١٩٢٦ الى جانب الزهراء ، ثم اضطراره للتوقف عن اصدارها .. ويلخص ذلك بقوله : ان الاوضاع العامة التي كانت تمر بها المنطقة (تحت الانتداب) كانت تستدعي الاتصال بالشباب ، والرأي العام ، والشباب المثقف ، لمقاومة التيارات السياسية والثقافية الدخيلة « تيار الالحاد والتغريب » وامتياز الزهراء لا يسمح بذلك فكان لا بد من اصدار صحيفة جديدة(٦٥) .

ويشير الخطيب على صفحات الفتح الى الاوضاع السيئة التيكانت تمر بها البلاد من : الغاء تركية الحديثة للخلافة الاسلامية ، والتجزئة السياسية التي أصابت المنطقة والغزو الفكري ... « فكان على هذه الصحيفة الاسبوعية الصغيرة أن تقف في وجه تيار عظيم ، يدفعه موج من خلفه موج ومن بعده موج ..»(٦٦) وشرح الخطيب أوضاع الوطن العربي ، ولكنه وجه نظره نحو قضايا العالم الاسلامي « الذي انصرف عنه الناس » . ووظيفة الفتح في رأيه : «أن تزن الحوادث بميزان هداية الاسلام»(٦٧).

ومع بداية السنة السادسة لصدور الفتح، (العدد ٢٥١) حدد الخطيب ما اسماه « مبادىء الفتح » على الشكل التالي :

١ ـ الفتح لأهل القبلة جميعا والعالم الاسلامي وطن واحد .

٢ ـ المسلمون الى خير ولكن الضعف في القيادة .

٣ ـ انت على ثغره من ثغر الاسلام فلا يؤتين من قبلك .

٤ ـ اعمل يراك الله وحده وتوار عن انظار الناس .

٥ ـ الفتح رسالة الاقطار العربية بعضها الى بعض .

٦ ـ الفتح رابطة روحية بين قرائه(٦٨) .

والتزم الخطيب بهذه المبادىء حتى توقفت الفتح عن الصدور سنة ١٩٤٨م .

أما بالنسبة لقضايا الوطن العربي فقد وجه الخطيب عناية خاصة لقضية فلسطين وحذر من تهويدها بقوله « فلسطين ستكون يهودية بعد اربعة عشر عاما » ان لم يغير عرب فلسطين ما هم فيه(٦٩) كما خصص عدة مجلدات من الفتح لهذه القضية العربية الاسلامية وذلك منذ سنة ١٩٣٥ حتى ١٩٤٨ واصدر عددا خاصا وهو عدد ايلول سنة ١٩٣٨ للقضية الفلسطينية ، قدمت من خلاله دراسات لعدد من كبار الكتاب من مختلف الاقطار العربية .

وفي سنة ١٩٤٦ أصدرت المجلة عددا خاصا عن فلسطين بمناسبة وعد بلفور في ٢ تشرين الثاني ، ولم ينس صاحب الفتح أحداث فلسطين بعد نهاية الحرب العالمية الثانية فكتب عدة مقالات عن أحداث ١٩٤٦ و١٩٤٧ . وعندما قامت الدولة الاسرائيلية سنة ١٩٤٨ ناقشت الفتح هذه القضية في مجلدين (السابع عشر والثامن عشر) مرورا بتقسيم فلسطين ، وقيام الحرب بين العرب واليهود ، وجرائم اليهود المتعددة في فلسطين ، وقضية فلسطين في ضوء انتصار الحلفاء ، وانحياز أمريكا السافر الى جانب اليهود . . .

وأما بالنسبة للقضايا الاخرى فقد تطرق في المجلدين الاخيرين المشار اليهما ، الى قضايا العصر مثل : بروتوكول جامعة الدول العربية ، والجلاء عن سورية ، كما تطرق لقضايا العروبة ومفهومها الاسلامي الاصيل ، وضرورة العناية بتعليم اللغة العربية في مواجهة التحديات الاوربية ، مثل فرض التعليم باللغات الفرنسية أو الانكليزية وادارتها من قبل الاجانب (المدارس التبشرية) وكتابة العربية بالحروف اللاتينية ووجه اهتمامه الى أهمية القرآن الكريم وتفوق اللغة العربية على لغات الدنيا(٧٠) .

وتناول الخطيب موضوع العلاقات الاقتصادية ، وبين أثرها السياسي على أوضاع البلاد بشكل عام ، وقد وضح هذا الاثر بعد الحرب العالمية الثانية ، وكان لا بد من وضع خطة لمواجهة هذه الاوضاع . وقد اشار الخطيب الى انه : « اذا أردنا أن نكون أصحاب أوطاننا والمتصرفين في أنفسنا (يخاطب اخوانه العرب) فيجب علينا أولا وقبل كل شيء ان ننظم حياتنا الاقتصادية تنظيما جديدا . . » ثم يحدد الخطيب اسس هذا التنظيم وقواعده بقوله : « نجعل معه ثروتنا في خدمة سعادة بلادنا ، ونهيء كل يد عاملة للعمل الحلال حتى يكون ميسورا أمامها ، وهكذا نفتح الابواب لخير البيوت منفردة ولخير الوطن مجتمعا »(٧١).

وهكذا كانت مجلة « الفتح » منبرا لقضايا وأخبار دنيا العروبة والاسلام ، وكان الخطيب يصدر منها خمسين عددا في السنة ، ارخ فيها تاريخ الحركة الفكرية

والاجتماعية منذ صدورها في سنة ١٣٤٥هـ/١٩٢٦م . غير أن الاوضاع الصحفية قد تطورت في زمنه ،وأصبحت تعبر عن أغراض خاصة بدلا من الاغراض العامة ،وأصبحت الكتابة تجارة ونهم ، وأصبحت الاقلام تسخر لخدمة الجشع المادي والاسفاف ، غير أن المجلد السابع عشر جاء غنيا ببحوثه الدينية والقومية والسياسية وكان المجلد الثامن عشر (ذي الحجة سنة ١٣٦٧هـ ١٩٤٨م) المجلد الخاتم لهذه المجلة الرائدة في الدعوة للاسلام والعروبة .

ويصور الخطيب الوضع الصحفي في مجلة الازهر ،ويشير الى أن الصحافة كانت أيام المؤيد واللواء « أداة ارشاد» ترى من واجبها أن تأخذ بيد الشعب لتنهض بمستواه القومي والملي والعقلي والثقافي(٧٢) . وبين التحولات التي طرأت على الصحافة بين الحربين ، وبعد الحرب العالمية الثانية ، فغدت : « صناعية تجارية تدفع الضرائب وتستلهم اهواء الجماهير وشهواتهم بما تقدمه لهم من عناوين خداعة ، وتشجيع للملاهي » ودعا أصحاب الاقلام الى ان يكونوا « ابرياء من الغرض ، اوفياء للحق ، وان يأخذوا أنفسهم بشيء من ادب القول حتى يكون لكلامهم قوة الصدق ، فلا يرميهم رام بأن كتابتهم تجارة وحتى لا تجري فيهم الالسن بأنهم وراء المادة وحدها ، لا أنصار فكرة ولا دعاة الى مبدأ . ولا عليهم ان يغالطوا الناس فيما يعرفه الناس منهم »(٧٣). ودعا الخطيب حملة الاقلام الى معالجة القضايا الاجتماعية ، وخاصة قضية التعليم في الازهر ، ورفع هو شخصيا الى شيخ الجامع الازهر تقريرا حول مناهج الدراسة الازهرية ، وطلب منه تعديل المناهج : « ليؤدي الازهر رسالته نحو الاسلام وتراثه الثقافي ، ونحو أهله في نهضتهم الاجتماعية والخلقية والدينية ، ليثبتوا مكانه اللائق بهم في طليعة الامم المعاصرة لنا »(٧٤) .

كان الخطيب يدعو الى التحرر العقلي من الاستعمار وما طرحه في بلادنا من عادات وتقاليد وأساليب تعليم غريبة عن محيطنا ، ويرى انه لا بد لكل امة تحررت من الاستعمار السياسي والعسكري ان تتحرر من الاستعمار العقلي والثقافي بحزم واجتهاد عظيمين ولو بالتدريج : « الى أن تكون لها ثقافة قومية مستقلة نستمدها من آدابها وتراثها العقلي والفكري » ويشير الخطيب الى ان هذا يحتاج الى وقت طويل ولكن في رأيه : « يجب ان ترسم له الخطط من هذه الساعة »(٧٥) .

وكان الخطيب على مستوى من الجراة الصحفية عندما طرح في مجلة الازهر قضية العروبة والاسلام في وقت مبكر ، وقد اخذ هذا العرض منه وقتا طويلا وعلى مدى عدة مجلدات ويؤكد الخطيب اننا عرب عريقون في عربيتنا وعروبتنا بل « نحن اعرق فيها من تركيا في تركيتها ، ومن جرمانيا في جرمانيتها(٧٦) .

واذا علمنا ان الصحافة المصرية في هذه الاثناء كانت صحافة حزبية تتكلم باسم

الاحزاب الوطنية المصرية المتعددة ، أو صحافة انكليزية مؤيدة للاحتلال(٧٧) ، علمنا أيضا مدى جرأة محب الدين الخطيب الصحفية ومهاجمته للاحتلال الذي كان يطلق عليه أسم « الاستعمار » وكان يميز على صفحات الجرائد بين الاستعمار العقلي والاستعمار العسكري ، مهاجما اساليب التعليم التي نشرتها بريطانيا وفرنسا في مصر وغيرها من البلدان العربية ويشير الى أن : « الاستعمار العقلي شر على الامم الاسلامية من الاستعمار العسكري ، ولا يشعر به عامة الناس ، وكثيرا ما يلتبس أمره على خاصتهم ، فيحسبون ما فيه من سم دسما ، وهذا ينطبق على المثقفين أيضا ، ويؤكد قائلا « بل رأينا ألوفا من المثقفين يمجدونه ويدافعون عنه ، ويسمونه تقدما وارتقاء، ولذلك كان التخلص من الاستعمار العقلي أصعب من التخلص من الاستعمارالعسكري، لانه تختلط فيه الوسائل بالغايات ، وقد يباح في الوسائل ما لا يباح في الغايات»(٧٨).

ثم يشير الخطيب الى أن أخطر آثار الاستعمار العقلي ، الايحاء بأن الكلام عن العروبة وأصالتها وعراقتها في الانسانية ، قد يحمل على العصبية الجنسية ، وقد يتنافى مع الدعوة للاسلام والمسلمين ، بينما الواقع ان العروبة هي : ظئر الاسلام وان العروبة والاسلام كليهما : « من كنوز الانسانية وينابيع سعادتها ، اذا عرف أهلهما قيمتهما ، واذا اتيحت لهما أسباب الظهور للناس على حقيقتهما » .

ويؤكد الخطيب على ان الحضارة : « بوتقة تذوب فيها الانساب وتبقى فيها التقوى الاسلامية والآداب الفاضلة ولغة القرآن والجامعة وتعاون جميع أبناء العروبة والاسلام على العمل الصالح لبناء الكيان الصالح في الدنيا والاخرة »(٧٩) .

ابتعد الخطيب عن المهاترات الصحفية التي سادت النصف الاول من القرن العشرين في انحاء العالم ، وخاصة في مصر ، كما ابتعد عن الصحافة الهزلية وصحافة الكاريكاتور ، وسخر قلمه لاعلاء شأن العروبة والاسلام ، مبينا ان الاسلام قد جمع قلوب اهله على محبة العربية والعرب ، كما فتح قلوب العرب لمحبة اخوانهم في الاسلام جميعا (٨٠)، فكان بذلك حامل لواء العروبة والاسلام . وان مقالاته الصحفية — وان دارت مع الاحداث في معظمها — كانت مناهج ثقافة وبرامج نهضة وتاريخ أمة ، وقد طوعت الصحافة بنان قلمه ، فكان سهل الاسلوب بغير غموض ولا تعقيد ، وكانت المجلات التي يصدرها تتخاطفها الايدي من الباعة بعد أن احتلت مكانا بارزا بين مجلات العصر ، حتى ليمكننا القول بأن محب الدين الخطيب كان من ابرز كتاب الامة العربية الاسلامية ومفكريها وأكثرهم شمولا في النصف الاول من القرن العشرين (٨١) .

الحواشـــي

(١) تقع مكتبة محب الدين الخطيب في حي الدقي في مدينة القاهرة (٤٦ ش عمان).

(٢) اطلعت على مذكرات الخطيب « سيرة جيل » سنة ١٩٦٥ – ١٩٦٦ وهي مخطوطة لم تطبع بعد، ثم اطلعت على جزء مطبوع نشرته جمعية التمدن الاسلامي في دمشق عام ١٩٧٩، أي بعد عشر سنوات من وفاته. الا ان المذكرات المخطوطة اكثر شمولا، وقد زادتها تعليقاته الهامشية ثراء وثائقيا وتاريخيا.

(٣) للباحثـــة بحثـــان عـــن الخطيـــب: الاول « أوراق محـب الديـن الخطيـب » ضمن كتاب: **بحوث في تاريخ العرب الحديث مهداة الى الاستاذ الدكتور أحمد عزت عبدالكريم** جامعة عين شمس، القاهرة ١٩٧٦، يعرف بمكتبته وما تضمه من أوراق بأنواعها، والثاني « رواد اليقظة القومية – المناضل محب الدين الخطيب » في **مجلـــة البحـث التاريخـي**، الجمعية التاريخية في حمص (سورية) يتناول الجانب السياسي من حياتـه، مستمدا مـن مذكراته المخطوطة « ســيرة جيل » والوثائق الحزبية بشكل عام.

(٤) يشير محب الدين الخطيب في مذكراته الى ان الشيخ طاهر الجزائري توصل الى امنيتـه العظمى وهي جمع المكتبات الموقوفة على المساجد والمدارس وكانت معرضة للسرقة والاختلاس فجمعت في قبة الملك الظاهر وعرفت بالمكتبة الظاهرية وعين لها امينان: احدهما والـده الشيخ ابو الفتح الخطيب، وكانت مدرســة (نمونه ترقي) أي مدرسة الترقي النموذجية تقوم في الجانب القبلي من البناء.

(٥) مكتب عنبر هو المدرسة الثانوية في دمشـــق وكان العثمانيون يطلقون اســـم مكتب على المدرسة، وعنبر ثري اسرائيلي حولت داره الى املاك الدولة العثمانية اواخر القرن ١٩ وجعلتها مدرسة ثانوية وكان التعليم فيها سبع سنوات ولغة التعليم اللغة التركية. راجع: ظافـــر القاســـمي، مكتب عنبـــر، المطبعة الكاثوليكية، بيروت ١٣٨٤ هـ ١٩٦٤ م.

(٦) لقد اطلعت على هذه المخطوطات في دار الكتب بالقاهـــرة ســـنة ١٩٦٦، وكانـت بحي باب الخلق، اما الان فقد نقلت دار الكتب الى (حي ماسبيرو) على النيل.

(٧) راجع حول البدايات الصحفية المخطوط الذي يحمل عنـوان « الجيـــل الذي عاصر بعـــث العروبة وهو بخط محب الدين الخطيب » في مركز المخطوطات والوثائق في الجامعة الاردنية.

(٨) أشرت الى هذه النشاطات بعدة بحوث بعنوان « صفحات من تاريخ الجمعيات في بلاد الشام » في مجلة **دراسات تاريخية، جامعة دمشق**، (لجنة كتابة تاريخ العرب (العدد ٧، كانون الثاني ١٩٨٢، العدد ٩/١٠، تشرين الاول ١٩٨٢.

(٩) محب الدين الخطيب، المذكرات **سيرة جيل** المطبوعة، جمعية التمدن الاسلامي (١٣٩٩هـ ١٩٧٩م) ص ١٣.

(١٠) راجع د. سهيلة الريماوي مجلـة **دراســات تاريخية**، العدد السابـع، كانـون الثانـي ١٩٨٢ ص ١٢٤ وما بعدهـا « من الجمعيـات العلمية الى الجمعيات السياسية » حلقة دمشق الكبرى وحلقة دمشق الصغرى التي أســـسها الخطيب مع « زملاء المدرسة » في دمشق ١٩٠٣ أسوة بحلقة دمشق الكبـرى التي أســـسها الشيخ طاهر الجزائري قبل ذلك.

(١١) لقـد تأسـت هـذه الغرف في مدخـل حي النصارى بدمشـق، أواخـر القـرن ١٩ فاستقطبت هواة المطالعة من الشـباب العرب في هذه الفترة وخاصة طـلاب مكتب عنبـر – تعليق علـى هامش المذكرات (تاريخـه غـير محـدد).

(١٢) راجع كتاب محب الدين الخطيب، **مع الرعيل الاول**، ص٣٠ ومـا بعدها مقالـة بعنـوان « في نادي الكلمة، اماني الطفولة وأحلامها » يصور هموم محب الدين الخطيب نحو هـذه الامور وكيفية نقلها الى أترابه منذ دراســـته الثانوية لانها في يقينه رسالة عظيمة. (ط١١

القاهرة ، المكتبة السلفية ١٤٠٧هـ ١٩٨٧م .

(١٣) كانت أولى الجمعيات جمعية النهضة العربية التي أسسها الخطيب سنة ١٩٠٦ في استانبول ولن نتطرق هنا لهذه الجمعيات التي اسسها أو شارك في تأسيسها .راجع **دراسات تاريخية** « صفحات من تاريخ الجمعيات في بلاد الشام» ٢ كانون الثاني ١٩٨٢ ص ١٤٥ وما بعدها .

(١٤) التحق كرد علي بقلم تحرير جريدة الظاهر التي كان يصدرها محمد أبو شادي المحامي ، ثم بقلم تحرير المؤيد لصاحبها الشيخ علي يوسف (تعليق على هامش المذكرات) .

(١٥) محب الدين الخطيب : **سيرة جيل** ، المذكرات المخطوطة .
وراجع أيضا : « الجيل الذي عاصر بعث العروبة » مخطوط في مكتبة الخطيب ، يتكلم الخطيب عن نفسه في المذكرات بصيغة الغائب: يقول مثلا « رأي صاحب الترجمة » .

(١٦) من هؤلاء لطفي الحفار وشكري القوتلي في دمشق ومظهر رسلان وفايز العظم وعبد الكريم الخليل وشكري الجندي في الاستانة ، **سيرة جيل** ــ المذكرات المخطوطة .
وراجع الفتح مجلد ٩ عدد ٤٠٣ تاريخ ٣٠ ربيع أول ١٣٥٣ هـ ص ٦٣ .
والامير عارف الشهابي من أعضاء جمعية العربية الفتاة وأحد شهداء أيار ١٩١٦ كان يكتب في صحيفتي المفيد وثمرات الفنون تحت توقيع عبد الله بن قيس .

(١٧) ليعمل مترجما في القنصلية البريطانية بعد أن نصحه الاصدقاء بترك استنبول والتوجه لليمن فوصلها في شهر تشرين أول سنة ١٩٠٧ وبقي فيها الى ما بعد اعلان الدستور سنة ١٩٠٨ بعدة أشهر .

(١٨) محب الدين الخطيب **سيرة جيل المذكرات** ، أي تأسيس صحيفة تحمل اسم « جمعية النهضة العربية » التي أسسها محب الدين الخطيب ورفاقه في استامبول ودمشق : راجع د. سهيلة الريماوي **دراسات تاريخية** العدد السابع (سبق ذكره) .

(١٩) عرض الاتحاديون المادة الرابعة من الدستور في مجلس المبعوثان ونوقشت بتاريخ ٧/٧/ ١٩٠٩ وتنص على أنه : يمنع قيام الجمعيات ذات الاهداف السياسية والتسمية القومية في الدولة العثمانية ، وقد فازت عندما عرضت على الاقتراع فنالت تأييد ٩٠ صوتا ومعارضة ٦٠ صوتا .

(٢٠) مثل نقد الوالي ناظم باشا ونقد مدير المعارف وكانت الاوضاع غير مستقرة والراي العام في بلبلة بسبب سياسة الاتحاد والترقي غير الواضحة عقب الاشهر الاولى من اعلان الدستور ، لمزيد من التفاصيل راجع « الجيل الذي عاصر بعث العروبة » مخطوط بقلم محب الدين الخطيب .

(٢١) كان الناس في ذلك الوقت يستعملون كلمة « حط بالخرج » ، للدلالة على عدم أهمية الحدث الذي يخشونه .

(٢٢) وثيقة من وثائق محب الدين الخطيب ،والجيل الذي عاصر بعث العروبة .

(٢٣) المصدر السابق .

(٢٤) كانت الدولة العثمانية قد أصدرت قانون الصحافة الاول ١٨٦٤ وبعد فشل الانقلاب الذي دبره أنصار السلطان عبد الحميد في آذار ١٩٠٩ ويعرف « بالانقلاب المضاد » أصدر الاتحاديون قانون الصحافة الثاني .

(٢٥) كانت المكتبة السلفية في بداية تأسيسها في مدخل خان الخليلي ثم انتقلت الى شارع الروضة في حي المنيل ، وقد اختار لها هذا الاسم الشيخ طاهر الجزائري ، ومما تجدر الاشارة اليه أن الخطيب طلب في وصيته المخطوطة بأن لا يطرأ على المكتبة السلفية ومطبعتها أي تقسيم أو تجزئة ، وأن لا تشجع أي كتاب أو نشرة فيها مساس بالاسلام والعروبة ولو كان ذلك فيه الثروة والغنى والجاه العام . **الوصية** « مخطوط في مكتبة الخطيب بالقاهرة » .

(٢٦) راجع د. عبد اللطيف حمزة : **أدب المقالة**

الصحفية في مصر جـ٤ (الشيخ علي يوسف)، طبعة ١٩٦٠ .

(٢٧) راجع **دراسات تاريخية** العدد السابع ... سبق ذكره .

(٢٨) جريدة **البلاغ** بتاريخ ٢٢ تشرين الثاني نوفمبر سنة ١٩٣١م .

(٢٩) **المذكرات** : «سيرة جيل» ، **المخطوطة** ، وراجع أيضا : « الجيل الذي عاصر بعث العروبة » (مخطوط) .

(٣٠) راجع كتاب : **المؤتمر العربي الاول** ، المنعقد في القاعة الكبرى للجمعية الجغرافية التاريخية بشارع سان جرمان في باريس ، جمعه محب الدين الخطيب وكتب المقدمة الشيخ رشيد رضا ، وقد صدر الكتاب سنة ١٩١٣ عن اللجنة العليا لحزب اللامركزية الذي تبنى المؤتمر وعدد صفحاته ٢٤٠ صفحة ويعد هذا الكتاب أهم مصدر حتى الان عن المؤتمر .
المؤتمر .

(٣١) يشير الخطيب الى أن المبشر « لوشاتيليه » كان قد كتب بقلمه هذه الدراسة ، أما الحوار والمناقشات فقد كانت بين الخطيب وبين (مسيو مسنيون) أحد ناشري هذه الدراسة وكان في ذلك الحين بالقاهرة ، وقد نشر الخطيب هذه المناقشة في مجلة الفتح .

(٣٢) كان من أعضاء هذه الجمعية أيضا الامير عبد الله بن الحسين انتسب اليها سنة ١٩١٤ .

(٣٣) كانت الجريدة تصدر مرتين في الاسبوع وتعد جريدة الثورة الرسمية ...لمزيد من التفاصيل راجع : أعداد القبلة المتوفرة في مكتبة الجامعة الاردنية على « ما يكرو فيلم » : محمد عبد الرحمن الشامخ : نشأة الصحافة في المملكة السعودية ، دار العلوم للطباعة والنشر ١٤٠٢هـ / ١٩٨١م .

(٣٤) يشير الخطيب في مذكراته الى أن رفاقه حاولوا الالتحاق بالثورة ولكن الحقوا بالجيش العثماني بعد أن أعلنت الدولة العثمانية النفير العام وكانوا يسمونه « سفر برلك »المذكرات المخطوطة. معالعلم انه لا يذكر أسماء الرفاق.

(٣٥) لقد طلب شريف مكة من السيد شريف الفاروقي ، رئيس الوكالة العربية التي أقامها في القاهرة ١٩١٦ ، ارسال عدد من الشباب العرب ورجالاتهم ،وطلب محب الدين الخطيب بالاسم .

(٣٦) انظر أعداد الجريدة في مكتبة الجامعة الاردنية « مايكرو فيلم » .

(٣٧) افتتاحيات الاعداد الاولى وقد أخذ النص من افتتاحية العدد الثالث .

(٣٨) **القبلة** ، افتتاحية العدد الثالث . وفي هذا العدد وصف كامل لمجريات القتال بين العرب والاتحاديين .

(٣٩) راجع حدود الدولة العربية المشرقية في كتاب عبد الله بن الحسين ، **المذكرات** ص١٠٢ ط١ عام ١٩٤٥ .

وهو خط يمتد من الاسكندرونة الى رفح ، ثم الى العقبة ويشمل حدود الجزيرة العربية تاركا عدن ، وينطلق من البصرة حتى ديار بكر في الشمال ثم يتجه غربا الى الاسكندرونة .

(٤٠) ظهرت مقررات المؤتمر العربي الاول في بيانات الثورة وقد نشرتها جريدة القبلة في أعداد متفرقة . (للاطلاع على المؤتمر ومقرراته راجع **كتاب المؤتمر العربي الاول** ، جمع محب الدين الخطيب) . أصدره سنة ١٩١٣ وقدم له الشيخ رشيد رضا .

(٤١) الصرخات الثلاث : هي البيانات التي أصدرتها الجمعية العربية الفتاة خلال الحرب العالمية الاولى وقد طالبت من خلالها « بالاستقلال صراحة » عن الدولة العثمانية . راجع د. سهيلة الريماوي ، **جمعية الفتاة السرية ـ دراسة وثائقية** ، دار مجدولاي ، عمان ١٩٨٨ .

(٤٢) **القبلة** ، الاثنين ٧ شعبان سنة ١٣٣٥ .

(٤٣) راجع **القبلة** ،الاثنين ١٥ شوال سنة ١٣٣٤.

(٤٤) راجع حول هذه النقطة د. محمد عبد الرحمن الشامخ **نشأة الصحافة في المملكة السعودية** ، ص١٠٤ وما بعدها .

(٤٥) **القبلة** ، الخميس ٢ رمضان سنة ١٣٣٥ هـ ١٩١٧م .

(٤٦) المصدر السابق .

(٤٧) ويستشهد بسورة الرعد « وكذلك أنزلناه حكما عربيا» وبسور أخرى ،في أماكن متعددة.

(٤٨) **القبلة** ، الخميس الواقع في شوال سنة ١٣٣٥هـ .

(٤٩) راجع **القبلة** ، ٧ شوال سنة ١٣٣٥ عن مقالة كتبتها جريدة **مرآة الغرب** التي تصدر في نيويورك باللغة العربية عدد ١٣٥ من سنتها الثامنة عشرة بعنوان « حي على الفلاح » من مكتبة محب الدين الخطيب .

(٥٠) **سيرة جيل** ، « المطبوعة » ص ٧٢ .

(٥١) جريدة **العاصمة** ، العدد ٤٢ بتاريخ ٧ آب/ أغسطس سنة ١٩١٩ مقالة بقلم الخطيب بعنوان « قوميتنا العربية » .

(٥٢) ان تفاصيل المقالين خارج عن نطاق موضوعنا ، ولمزيد من الاطلاع راجع أعداد الجريدتين خلال شهر آب من سنة ١٩١٩ أعداد متفرقة .

(٥٣) راجع جريدة **العاصمة** بتاريخ ١٦ تشرين أول سنة ١٩١٩ المقالة بعنوان « وظيفة الارشاد ».

(٥٤) قدمنا دراسة وافية للجنة الوطنية العليا ولجانها في كتابنا **جمعية الفتاة السرية** ، عمان ١٩٨٨ ، اذ كانت اللجنة بمثابة الواجهة الشعبية للجمعية .

(٥٥) راجع جريدة **العاصمة** ، ٥ كانون ثاني سنة ١٩٢٠ .

(٥٦) **العاصمة** ، ١٩ نيسان سنة ١٩٢٠ .

(٥٧) **العاصمة** ، ١١ آب سنة ١٩١٩ ، « حي على الفلاح » .

(٥٨) **الفتح** ، المجلد ١٤ ، العدد ٦٦٦ ، ٢٤ جمادى الاخرة ١٣٥٨هـ ، ص ٣٨٠ .

(٥٩) تجزئة سورية الى أربع دويلات ، وسنجق الاسكندرونة .

(٦٠) انظر فاتحة السنة الاولى لمجلة **الزهراء** بقلم محب الدين الخطيب ١٥،محرم سنة ١٣٤٣هـ.

(٦١) **الزهراء** م٢ ج١٠ ، شوال ١٣٤٤هـ ، ص٥٩٥.

(٦٢) **الزهراء** م٢ ج١٠ ، شوال ١٣٤٤هـ ، ص٥٩٤.

(٦٣) **الزهراء** ، المصدر السابق .

(٦٤) **الزهراء** مجلد ٤ ، جزء ٤ ، جمادى الثانية ١٣٤٦هـ ، ص ١٩٤ .

(٦٥) مجلة **المسلمون** م٩ ، ع٦ ، ذو الحجة ١٣٨٤هـ ص٥٨٢ .

(٦٦) **الفتح** م٦ ، ع٢٦٢ ، ٢٢ ربيع أول ١٣٥٠هـ، ص ١٧٨ .

(٦٧) **الفتح** ، فاتحة السنة الخامسة م٥ ،ع٢٠١، ١ محرم سنة ١٣٤٩ هـ ، ص٢ وما بعدها .

(٦٨) يرى الزائر لمكتبة الخطيب في القاهرة ملفات متعددة ، بينها ملفات جريدة الفتح ، ومنها ملفات للاشخاص ، وملفات للاقطار الاسلامية ، وملفات فكرية بعضها يتعلق بالفرق الاسلامية، أو ترجمة القرآن ، وأوراق تبحث في الانساب ملصقة بشكل طولي ويبلغ طول بعضها ١٠ أو ١٥ م راجع « أوراق محب الدين الخطيب »، مرجع سبق ذكره (حاشية ٣) .

(٦٩) **الفتح** ، « تهويد فلسطين » م٨ ، ع٣٦١ ،١٧ جمادى الاولى سنة ١٣٥٢ هـ / ١٩٣٣ م ص ٢٠٥ .

(٧٠) كان عبد العزيز فهمي قد تقدم الى مجمع اللغة العربية في مصر لكتابة العربية بالحروف اللاتينية وقد ووجهت هذه القضية بحملة شديدة كتب حولها محب الدين الخطيب والشيخ أحمد محمد شاكر وغيرهما من كتاب « الفتح » .

(٧١) **الفتح** ، المجلد السادس عشر ١٩٤١ – ١٩٤٢.

(٧٢) **الازهر** ، « بناء كياننا النفسي » بقلم محب الدين الخطيب ، م٢٦ ، عدد١ ، ١٣٧٤هـ ، ص ٥

مجلة الازهر : اختارت مشيخة الازهر ،محب الدين الخطيب لتحرير مجلتها العلمية مجلة الازهر ،فنشر فيها روحا جديدة«تصل العربي المسلم بأحداث حاضره » وجعلها من أشهر المجلات الموثوقة الصادقة بمواردها ومصادرها، وقد استلم تحريرها من سنة ١٩٥٢ – ٥٣ الى ١٩٥٨ .

(٧٣) **الازهر** م٢٦ عدد٧ ص ٤٠٣ ، ١٣٧٤ هـ .

(٧٤) **الازهر** م٢٥ عدد ٢ ص ١٥٧ ، ١٣٧٣هـ ،مقالة لمحب الدين الخطيب بعنوان « السيرة النبوية».

(٧٥) **الازهر** « الثقافة الاجنبية والاستعمار العقلي» م٢٧ سنة ١٣٧٥هـ .

(٧٦) **الازهر** ، المصدر السابق .

(٧٧) راجع انور الجندي ، **الصحافة السياسية في مصر منذ نشأتها الى الحرب العالمية الثانية،** مطبعة الرسالة ١٩٦٢ .

(٧٨) راجع مجلة الازهر ، محب الدين الخطيب « وسائل وغايات »م٢٥ عدده ص ٥١٦ سنة ١٣٧٣هـ

(٧٩) **مجلة الازهر** محب الدين الخطيب « معدن العروبة ومكانة العرب » م٢٩ عدد ١٠ ، ١٢٧٧ هـ ص ٨٨٤ .

(٨٠) **الازهر** م٣٠ عدد ٦ ، ١٣٨٣هـ ، ص ٤٧٨ .

(٨١) لقد أصدرت مجلة التمدن الاسلامي عددا خاصا بمناسبة وفاته أواخر سنة ١٩٦٩ كتب فيه عدد كبير من مفكري العروبة والاسلام .



نموذج في دراسة

تاريخ وأصول العشائر الاردنية (معان)

في الوثائق العثمانية

د. سعد ابو دية
جامعة اليرموك

مقدمة :

تركز الدراسة على موضوع العشائر في مدينة معان بالاعتماد على سجلات الوثائق والاعلامات والاحكام وحصر الارث ، الموجودة في مركز الوثائق والمخطوطات في الجامعة الاردنية ، في اطار زمني محدد ، هو الفترة التي شهدت تنظيمات الدولة العثمانية للمنطقة (من منتصف القرن التاسع عشر حتى مطلع القرن العشرين) :

١ ـ السجلات العثمانية(١) :

ـ سجل الوثائق الشرعية في قضاء معان (١٣١٦ ـ ١٣٢٦ هـ ١٨٩٨ ـ ١٩٠٨) سنة ١٣١٦ هـ (رقم١) عدد صفحاته ١٨١ .

٢ ـ السجلات الاخرى :

ـ سجل حصر الارث رقم ٢ ، ١٣٤٨ ـ ١٣٥٣ هـ (١٩٣٠ ـ ١٩٣٥ م) معان ١٩٧ صفحة .

ـ سجل الاعلامات الشرعية (سجل ٨ معان) ١٣٤٨ ـ ١٣٤٩ هـ (١٩٢٩ ـ ١٩٣٠ م) ٢٥٣ صفحة .

ـ سجل الاحكام الشرعية ، ١٣٤٠ ـ ١٣٤٢ هـ (١٩٢٠ ـ ١٩٢٢ م) معان . ١٧٩ صفحة .

ـ سجل الطلاق (رقم ٢ معان) ١٣٥٩ ـ ١٣٧٧ هـ (١٩٤١ ـ ١٩٥٧م) . ١٨١ صفحة .

---

(١) هذه السجلات مصورة على الفوستات ، عن السجل الشرعي .

ـ سجل الوثائق الشرعية الهامة في لواء معـان لسنة (١٣٤٨ ـ ١٣٥٩ هـ) (١٩٣٠ ـ ١٩٤١ م) (١٨٦) صفحة .
٣ ـ السالنامات العثمانية .
٤ ـ كتب الرحالة الذين زاروا المنطقة قبل تدوين تلك السجلات او اثنائها .
٥ ـ المقابلات الشخصية .

يركز البحث على دراسة عشائر (معان) في اطار زمني محدد ، هو الفترة الممتدة من منتصف القرن التاسع عشر حتى مطلع القرن العشرين ، التي شـهدت تنظيمات الدولة العثمانية للمنطقة .

التقسيمات الادارية في السالنامات العثمانية : في عام ١٨٨٤م كانت معان ناحية تتبع لواء البلقاء(١) ولم تكن لها أهمية الا في كونها تقع على طريق الحج . في عام ١٨٩٢م أصبحت لواء (سنجاغي) . ضم معـان والطفيلة والكرك والسلط(٢) . غـير ان هذا الوضع لم يستمر اذ تقهقر وضع معان وأصبحت قضاء تابعا للواء الكرك(٣).وفي أواخر القرن التاسع عشر شهدت معان حدثا تاريخيا هاما بوصول الخط الحديدي الحجازي اليها في ١٩٠٤/٩/١م ، وأقام الاتراك فيهـا مركزاً لاصلاح الورش مما استلزم بقـاء الفنيين والعمال ، وانعكس ذلك على الحركة التجارية وتدفق المهاجرين . واشـار سجل الوثائق الشرعية لمهاجرين من مصر وسورية وقطاع غزة .

وكما ساهم الخط الحديدي الحجازي في البداية في الهجرة الى معان ، ساهم في الهجرات الى الشمال . أما التقسيمات الادارية في معان فانها لم تساهم في الهجرات لعدم استمراريتها .

الموقع والتسمية : معان الحجازية ومعان الشامية تشير الوثائق العثمانية وكتب (الرحالة) في العهد العثماني الى (معان الحجازية) و (معان الشاميـة)(٦). وتسمى معان الحجازية أحيانا معـان المصرية ، وتسمى معـان الشامية احيانـا (المغارة)(٧). ويذكر سجل الوثائق الشرعية(٨) بأن معان الشامية تتبع معان الحجازية التي يوجـد بها دوائر الحكومية . واطلق (موزيل) أحيانا على معان الحجازية معان الكبيرة (٩). ذلك لان معان الحجازية هي الاقدم والاكثر سكانا .

هنالك امـر يتعلق بموقع (معان) الاصلي وهو المكان المعـروف بالحمام ولقـد أشار له الرحالـة (داوتي) البريطاني (انظر الخارطة) وهو دارس الان ولم يبق منه سوى بركة ماء رومانية قديمة .

الارجح والاقـرب للتصور ان معان الحجازية دعيت بهـذا الاسـم نسبة الى سكانها الذين تعود اصولهم الى الحجاز ، وان معان الشامية تأسست في فترة لاحقـة وسكنتها جماعة من اصول شامية (سورية) اشار لها جورج اوغست فالن .

خارطة داوتي وتظهر فيها معان الشامية ومعان الحجازية ، ومنطقة اقامة الحجاج (المنزلة). وفيها الان بيوت ومخازن ، ومنطقة الحمام من أقدم مظاهر معان في العهد الروماني ، ومازالت هناك بركة ماء رومانية القناة التي تحضر الماء من الضراوي . انظر قناة (٢).

المدينة وتقسيماتها ـ لمحة تاريخية : لم تكن معان قسمين على النحو الذي يلاحظ في القرن التاسع عشر اذ ان العثمانيين بنوا قلعة معان على طريق الحج الشامي عام ١٥٥٩ م ، وكانت قبل قدوم العثمانيين قد أصبحت خرابا بعد أن كانت عامرة في عهود بني امية وسكنها الامويون ومواليهم حتى بعد زوال عهدهم . وقد اشار ابو الفداء الى ذلك (١١) « ومعان مدينة صغيرة سكانها بنو امية ومواليهم وهو حصن من الشراة اقول وهو الان خراب ليس به احد وهو على مرحلة من الشوبك »(١٢). ويورد نجم الدين الغزي قصة بناءقلعة معان يقول « وصل امر شريف من قبل المرحوم السلطان سليمان الى دمشق بتعمير قلاع بطريق الحج الشامي وتعيين صنجق لكل قلعة وفي صحبته سباهية ومعلمون وفعول ومعهم ما يكفيهم من الزاد واحدة بالقطرانة وثانية بمعان وثالثة بذات حج ورابعة بتبوك »(١٣) .

العثمانيون ومعان : شجع العثمانيون الناس على الاقامة حول القلاع مقابل اعفائهم من الضرائب . وقد اهتموا ببناء القلاع جنوب دمشق في القرن السادس عشر أكثر منها على الطريق بين دمشق وحلب ، كما اهتموا بالحضر . واستمر امير دمشق يجبي الضرائب من أهل غزة والبلقاء وحوران ، أما معان فلم يعرف عنهم شيئا (١٤) ، شأنها شأن الكرك والشوبك .

وفي القرن السابع عشر سيطرت قبيلة عنزة بعد ان نزحت شمالا على طريق الحج ، واظهرت احداث السابع عشر ، بخاصة حادث ١٧٥٧م ، ان العثمانيين غير قادرين على السيطرة على طريق الحج حتى باستحداثهم منصبا جديدا يعادل منصب (أمير العرب) الذي عرف سابقا ، فان امير دمشق وامير الحج واجها مشكلة حماية القوافل (١٥) . ويتحدث المرادي عن حادث نهب الجردة(١٦) وكانت بقيادة موسى باشا المعراوي ونهبت في القطرانة .

ويلاحظ في مشاهدات الرحالة في القرن الثامن عشر ان معان كانت بلدة واحدة ويظهر ذلك في حديث الخياري المدني(١٧) وبعده عبد الغني النابلسي(١٨) اذ ذكر الاول قرية وذكر الثاني قلعة ، ولم يظهر في حديث الرجلين وجود معان اخرى . ويبدو ان معان الشامية قد ظهرت في الفترة التي صاحبت الصراع على النفوذ في بلاد الشام ١٧٥٨م عندما قام عبد الله البجتهجي بتأمين سلامة طرق الحج وكأنه فتح بلاد الشام من جديد واستولى على قلعة الكرك(١٩) .

غير ان اول من اشار لوجود **معان الشامية** (بيركهارات) عام ١٨١٢ ، الذي ذكر انها قد بنيت على تلين(٢٠) ثم ذكر (فالن) ان معان الشامية تقع في الشمال من مدينة معان وان فيها عشرين اسرة سورية(٢١) وبعد ذلك بفترة ذكر الرحالة (داوتي) معان الشامية(٢٢) وفي عام ١٨٨٢ جاء السنوسي(٢٣) وذكر معان الشامية وان اهلها

ينتسبون الى الشام وينتسب أهل معان الى الحجاز . ومع مطلع القرن الحالي وبعد انتهاء الحرب الاولى فان خير الدين الزركلي تحدث عن عشائر معان الحجازية والشامية (٢٤) .

وتدريجيا اخذت معان الشامية تتصل مع معان الحجازية وظهرت المنازل في (المنزلة) وهو المكان الخالي الذي كان ينزل به الحجاج بين الشامية والحجازية . وبالرغم مما تقدم فان الحديث عن عشائر معان سيكون من خلال التقسيم الجغرافي بحيث يبدأ البحث بمعان الحجازية وتقسيماتها الجغرافية « التحاتا » أي عشائر التحاتا (من كلمة تحت لان هذه العشائر سكنت قرب القلعة وقرب بركة الماء (العثمانية) وهذه الاماكن موجودة في الجزء المنخفض من المدينة ، ثم ينتقل لعشائر معان الحجازية الاخرى ثم عشائر معان الشامية .

عشائر معان :

أولا عشائر معان الحجازية وتقسم لثلاثة اقسام رئيسية هي:

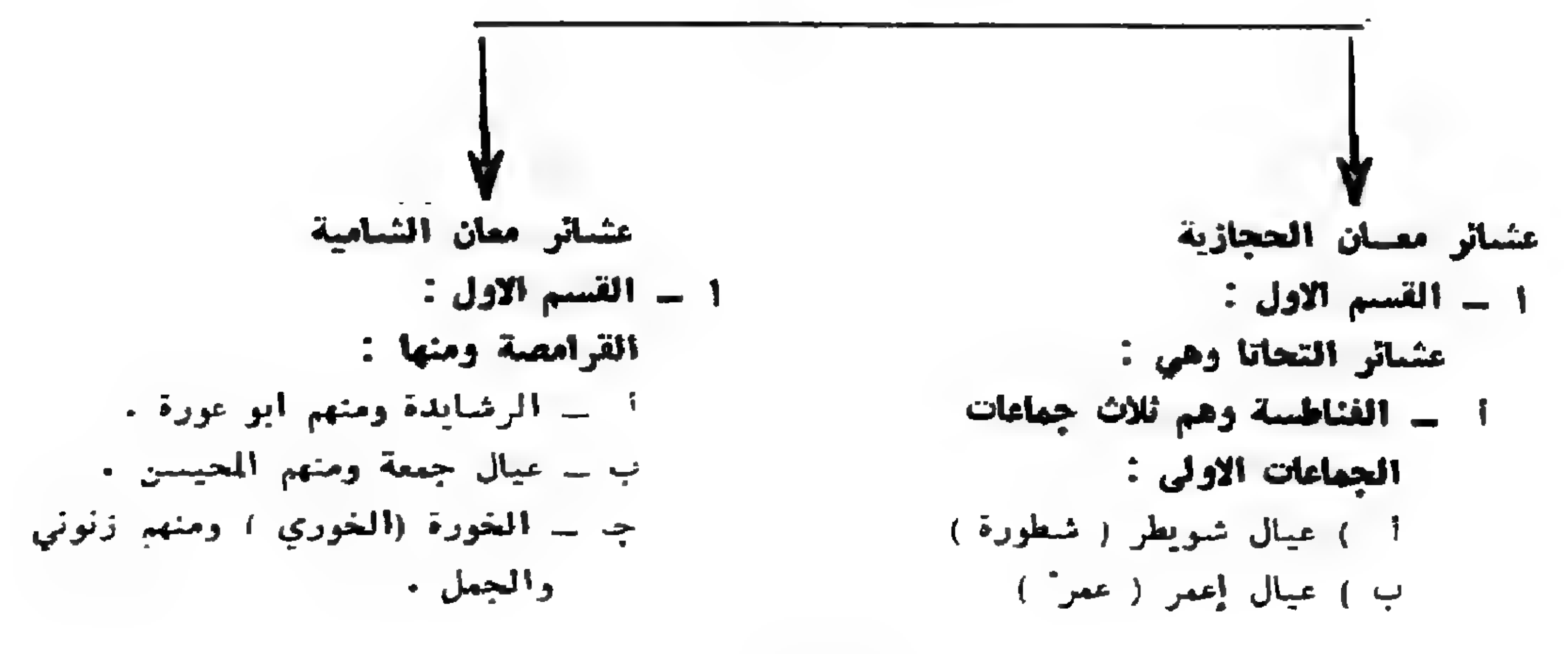
١ ــ عشائر التحاتا .
٢ ــ عشائر الكراشين .
٣ ــ عشائر العقايلة .

ثانيا عشائر معان الشامية وتقسم لثلاثة اقسام رئيسة هي: :

١ ــ عشائر القرامصة .
٢ ــ عشائر الحصان (ابن الحصان) .
٣ ــ عشائر المحاميد .

ويمكن تصوير هيكل هذه العشائر على النحو التالي :

عشائر معان



جـ) عيال داود (الدر)
د) عيال المعاني
هـ) عيال ابو خنسة
و) عيال ابو ذوابة
الجماعات الثانية :
أ) الخطيب (الخطبة)
ب) المعاتقة (معتوق) ومنهم :
١)ابودية ٢) قطوش .
الجماعة الثالثة : الصوالحة (ابو صالح) ومنهم ابو طويلة .
ب ـ البزايعـة ومنها :
١) البواب
٢) ابو رخية
٣) دويرج
جـ ـ عيال ام خطاب (خطاب) ومنها :
١) الخوالـدة
٢) الحمادين ومنهم:
أ ـ عيال قباعة ومنهم الدبخ
ب) عيال ابو عودة .
٣) الشراري الشلبي
٤) خطاب ـ عليدي ابو جري

د ـ الجريات (ابو جري)
هـ ـ عوجان (عواجين)

٢ ـ القسم الثاني :
عيال الحصان ومنهم :
أ ـ عيال عبد الله ومنهم :
١ ـ النسعة
٢ ـ بـدو
ب ـ الثوابتة (الثبتي)
١ ـ الجنايين
٢ ـ فريج
جـ ـ المصاروة والكراجكلي
د ـ الحياني
هـ ـ عساف
و ـ مطر

٢ ـ القسم الثالث :
المحاميد ومنهم :
أ ـ ال ابو كركي
ب ـ البحري

٢ ـ القسم الثاني :

(٢) الكراشين ومنهم :
أ ـ الهوارين (نسبة لهارون)
ب ـ الهلالات (ابو هلالة)
جـ ـ عيال مرعي
د ـ الرواد
هـ ـ ال ابودرويش
و ـ الصلاحات (صلاح)
ز ـ المحتسب

٣ ـ القسم الثالث :

(٣)العقايلة ـ ومنهم :
أ ـ عرار
ب ـ عيال سليمان
جـ ـ التلهوني (التلاهنة)

الباب الاول :

ولاعطاء صورة واضحة عن تقسيمات هذهالعشائر سنبدأ بعشائر معان الحجازية

١ ـ القسم الاول : عشائر التحاتا :

أ ـ الغناطسة : تتردد تسميات حول اصل تسمية الغناطسة(٢٥) ، فمثلا يتردد ان الاصل هو الغناطسة والغناطسة عشائر موجودة ومنتشرة في شمال غرب العراق وشمال سورية ، سميت بذلك لارتباطها باسم الشيخ محمد الغنطوس من الحديدين (الحديديون) ، والحديديون يعتقدون انهم من اعقاب رجل معتقد بولايته وكراماته ويزعمون انه عجن الحديد وسمي عجان الحديد وضريحه في مدينة الحديثة على شواطىء الفرات . وتسعفنا الوثائق الشرعية لمعان في تقسيمات هذه العشيرة في اواخر القرن التاسع عشر بحيث يستطيع الباحث ان يبين علاقات هذه العشائر بعد انتفرعت وتكاثرت . وعندما زار «موزيل»(٢٦) المنطقة فانه ذكر ان الغناطسة تضم عيال شويطر. والخطبة وعيال اعمر وداود اما الان فان العشيرة تفرعت وضمت اعداد جديدة من العائلات والجماعات . تضم الغناطسة ثلاثة جماعات هي :

الجماعة الاولى ومنها : أ ـ عيال شويطر (شطورة) : هم من عشائر الغناطسة التي ذكرها موزيل ولقد رحل بعض هؤلاء الى قرى شمال الاردن قبل مائة وخمسين سنة عندما غادر معان شمالا محمد بن شويطر وتوجه باغنامه الى الحصن وسكن هناك ومن ذريته جماعة الحجية الان . رحل محمد غربا الى (جمحا) وتوطن فيها قبل ان يتوجه الى راسون اثر خلاف دب بين جماعته وبين (الطاهات)(٢٧) .

ب) عيال اعمر : يردون الى قبيلة عتيبة واعمر ودأود هم أبناء شخص واحد من عتيبة جاء لمعانوخلف داود واعمر ومن أبناء اعمر (أبو خنسا) والاعور وسكر(٢٨).

جـ ـ عيال داود : انفصلوا من عيال أعمر ويقال لهم عيال (الـدر) وهم قلائل وذكرهم سجل الوثائق حسين بن محمد بن أحمد بن داود الفناطسة ويذكرهم سجل حصر الارث عيال داود(٢٩) .

د ـ عيال المعاني : من عيال داود تسموا بهذا الاسم بسبب هجرتهم للطفيلة بعد حادث قتل واصبحوا ينادونهم باسم (معاني) .

هـ ـ عيال ابو خنسة : من عشائر معان الحجازية وهم من عيال أعمر وورد ذكرهم في سجل الوثائق « فياض بن سليمان بن محمد ابو خنسة من سكان معان الحجازية» (٣٠) .

و ـ عيال ابو ذوابة : يرد ذكرهم في سجل الوثائق كاسم شخص (ابراهيم بن محمد ابن حرب ابن ذوابة مع عبد الغني بن محمد بن عبد الله حرارة معرفان من سكان معان الحجازية (٣١). هم من عيال داود .

الجماعة الثانية ومنها : أ ـ الخطيب ـ الخطبة : ورد ذكر اسمهم عند موزيل وهم من عشائر معان التي ما زالت تحتفظ باسمها الاصلي طوال عقود عديدة من السنين ـ انتقل بعض منهم الى الشوبك الان . يبدو أن اسم الخطيب جاء من لقب كان يطلق على كل من يقرأ أو يكتب .

ويذكر سجل الوثائق (الخطيب) في نهاية الاسم وتذكر حارة الخطبا(٣٢) وهم وثيقو الصلة بالمعاتقة (معتوق). كان (هو يمل الخطيب) شيخ الفناطسة والبزايعة(٣٣)

ب ـ المعاتقة ـ معتوق : هم أقرب الناس الى الخطبة ووثيقو الصلة بهم يذكر سجل الوثائق وثائق معان « معتوق » كاسم عائلة مثلا يذكر الحاج قاسم بن محمد بن ابراهيم معتوق عن قصبة معان الحجازية(٣٤) عشيرة معتوق أو المعاتقة هي من حمولة الفناطسة . ومن المعاتقة تتفرع عشائر أبو دية وقطوش .

١ ـ أبو دية : لقب أطلق على بعض المعاتقة وبالتحديد قاسم عطا وأولادهم واصبحوا الآن عائلات عديدة تنتشر في معان وعمان وتبوك . ورد في سجل الوثائق جمع بين لقب أبو دية ومعتوق مثلا الحاج قايم ابن محمد معتوق أبودية(٣٥) . وفي سجل اعلامات معان يذكر عطا أبو دية(٣٦) .

٢ ـ قطوش : كلمة قطوش هي لقب لأحد افراد عشيرة المعاتقة . يذكرهم سجل حصر الارث مثلا (خليل بن حسين الملقب بقطوش من حمولة المعاتقة من أهالي معان الحجازية)(٣٧) .

الجماعة الثالثة من الفناطسة :

آ ـ أبو صالح (الصوالحة) : يذكر سجل الاحكام لقب أبو صالح مثلا الحاج صالح بن عبد الله ابو صالح من عشيرة الفناطسة من أهالي معان الحجازية(٣٨) .

ويرد ذكر لقب الصوالحة(٣٩) .

يشير نعوم شقير الى الصوالحة في سيناء بأنهم من عرب الحجاز رحلوا الى ضبا ثم بلاد الطور وهذا الكلام يبدو معقولا أكثر من غيره بالنسبة لنسب الصوالحة(٤٠) وهناك من يذكر بأنهم قدموا لمعان من الشوبك(٤١). وقد يكونوا جاؤوا للشوبك أولا. ومن الصوالحة عائلة **أبو طويلة** ، لقب لأحد اولاد ابو صالح وهو محمد بن عبد الله أبو صالح

الملقب بأبي طويلة حيث تظهر التسمية في المجلس الشرعي في دار علي محمد أبو طويلة بمحلة الفناطسة بمعان الحجازية لحصر ارثه الشرعي ويذكر سجل عام ١٣٥٤ انه توفي قبل ذلك التاريخ بعشرين سنة اي في فترة ١٣٣٤م . يختلف لقب الطويل عن أبو طويلة حيث يرد اسم (الطويل) في سجل الوثائق مثلا سليم بن فرج الطويل من تبوك(٤٢) .

وهناك عائلات أخرى (**سقا الله**) انضمت للفناطسة وهم من مدينة غزة في فلسطين أصلا .

ب ــ البزايعة(٤٣) : (ولهم صلة بالفناطسة) ومعظم الروايات ترى أن البزايعة فناطسة . قسمهم موزيل الى قسمين :

أ ــ البواب ــ البوابين ، ب ــ عيال محمد ، ابن محمد ، ج ــ عيال مهابة .

يشير سجل الوثائق للبزايعة بالبزايعي أحيانا وهذا خطأ في الكتابة على ما يبدو ، ذلك أن سجل الوثائق يشير للنسعة تارة بالنسعي وتارة بالنسعة وهو الادق وكذلك الحال بالنسبة للخوالدة ، اذ أن سجل الوثائق يشير اليهم تارة بالخوالدي .

ويظهر في سجل الوثائق أن للبزايعة محلة « وحيشان البزايعة » « وزقاق البزايعة قرب دايرة الحكومة السنية »(٤٤) اي ان زقاق البزايعة يقع قرب مركز ممثل الحكومة : مدير قضاء معان آنئذ التابع للواء الكرك التابع لولاية سورية) .

ومن عشائر البزايعة :

١ ــ البواب : ذكرهم موزيل (البواب والبوابين) وذكرهم سجل الوثائق مثلا (عبد الله بن محمد البواب من أهالي قصبة معان الحجازية)(٤٥) . وهكذا فان اسم البواب يرد كلقب دونما الاشارة الى عشيرة أو عائلة على النحو الذي نلاحظه في سجل الوثائق الشرعية .

٢ ــ أبو رخية : يذكر سجل الوثائق هذه الكنية مثلا (محمد بن الحاج أحمد أبو رخية من البزايعة) ولا تزال جماعة آل أبو رخية تعرف في معان بهذا الاسم أو الكنية ووضح سجل الوثائق ارتباطها مع البزايعة .

٣ ــ دويرج : هم من البزايعة مثل آل أبو رخية ولا يعرف ارتباطهم مع آل دويرج الذين ذكرهم حمد الجاسر ونسبهم الى السليم من الفليحان(٤٦) ولا تسعفنا الوثائق الشرعية بشيء عن علاقاتهم بغيرهم .

ج ــ عيال ام خطاب (خطاب) : من عشائر التحاتا وتضم عديد من العائلات والجماعات والعشائر ومن أبرز العشائر :

١ ـ الخوالدة : ذكر موزيل وغيره هذه العشيرة ولم يذكر عيال أم خطاب لأن هذه التسمية تسمية حديثة ولا تعود لأكثر من مطلع هذا القرن وقبل ذلك فان عشائر الخوالدة كانت تذكر منفصلة. أما الآن فان الخوالدة تضم لعشائر عيال أم خطاب وذكر سجل الوثائق الخوالدة ب الخوالدي وذكر ماء الخوالدة(٤٧) . ولقب الخوالدة منتشر في المنطقة تجدهم في الطفيلة وغيرها(٤٨) ولا يبدو أن هناك ارتباطات بينهم وبين الخوالدة في المنطقة(٤٩) .

٢ ـ الحمادين : من أبرز عشائر عيال أم خطاب وأعرقها في مدينة معان ، ذكرها موزيل مع الخوالدة والفناطسة والبزايعة ويتفرع من الحماديين **١ ـ عيال قباعة ٢ ـ عيال ((أبو عودة))** .

ويشير سجل الوثائق لعشائر عديدة تتفرع من الحماديين . بيد أن قباعة وأبو عودة تعتبران من أقدم العشائر في معان وفي الحمادين .

ومن الحمادين هناك عائلات وعشائر يتردد اسمها الآن أكثر من غيرها مثلا :

١ ـ قباعة : ومنهم آل الديخ .

٢ ـ أبو عودة : الذين أشار لهم موزيل بعيال عودة أو عودة . ورد في أحد وثائق سجل الوثائق اسم (محمد بيك ابن ابراهيم أبو عودة)(٥٠) .

الديخ : ورد في سجل الوثائق الديخي(٥١) وهذا خطأ فهو الديخ وهم من عيال قباعة . وتعد عيال قباعة وأبو عودة من أقدم عشائر الحمادين .

٣ ـ الشراري : أشارت السالنامات العثمانية للشراري بالشلبي ويتردد اسم خليل شلبي وفي سجل الوثائق الشرعية فان الاسم نفسه يرد شراري وشلبي معا مثلا (خليل أفندي الشراري أحد أعضاء مجلس الادارة)(٥٢) ويرد في السجل : (خليل أفندي ابن الشيخ محمد الشلبي)(٥٣) ثم يرد خليل أفندي الشراري(٥٤) ويبدو أن اسم الشراري هو (لقب) . وينضوي تحت اسم الشراري : عبكل أيضا . والشراري شلبي وآل عميرة كذلك .

٤ ـ خطاب / عليدي ـ أبو جري (الجريات) : هذه الجماعة من عيال أم خطاب. الاصل أن جماعة من أبو جري هاجرت الى معان الشامية بعد حادث دم وانضموا الى (الخوالدة)(٥٥) ، لذلك فان اسمها يتكرر عند عشائر معان الشامية والحجازية . يرتبط آل أبو جري مع آل عليدي . وضح سجل اعلامات معان ارتباط اسم آل عليدي مع آل أبو جري(٥٦) .

وهناك علاقة بين خطاب وعليدي . ورد في سجل حصر الارث : خليل بن خطاب عليدي(٥٧) .

في الآونة الاخيرة زاد آل أبو جري على اسمهم لقب الشمري نسبة الى قبيلة شمر من طي (حيث ينتسبون الى هذه القبيلة) .

٥ ـ الخوري : هم من جماعة الشراري /الشلبي ، والخوري في معان الحجازية يتبعون عيال أم خطاب الآن . لقب الخوري يوجد في معان الحجازية ومعان الشامية وهم المعروفون بالخورة أيضا . يرد في سجل اعلامات معان اسم الخوري في معان ولا يوضح السجل ارتباطه مع آل حمادين(٥٨) . وقد هاجر آل الخوري في معان الشامية بعد حادث قتل ، كما هاجر آل عبد الدايم الى معان الحجازية لاسباب اقتصادية .

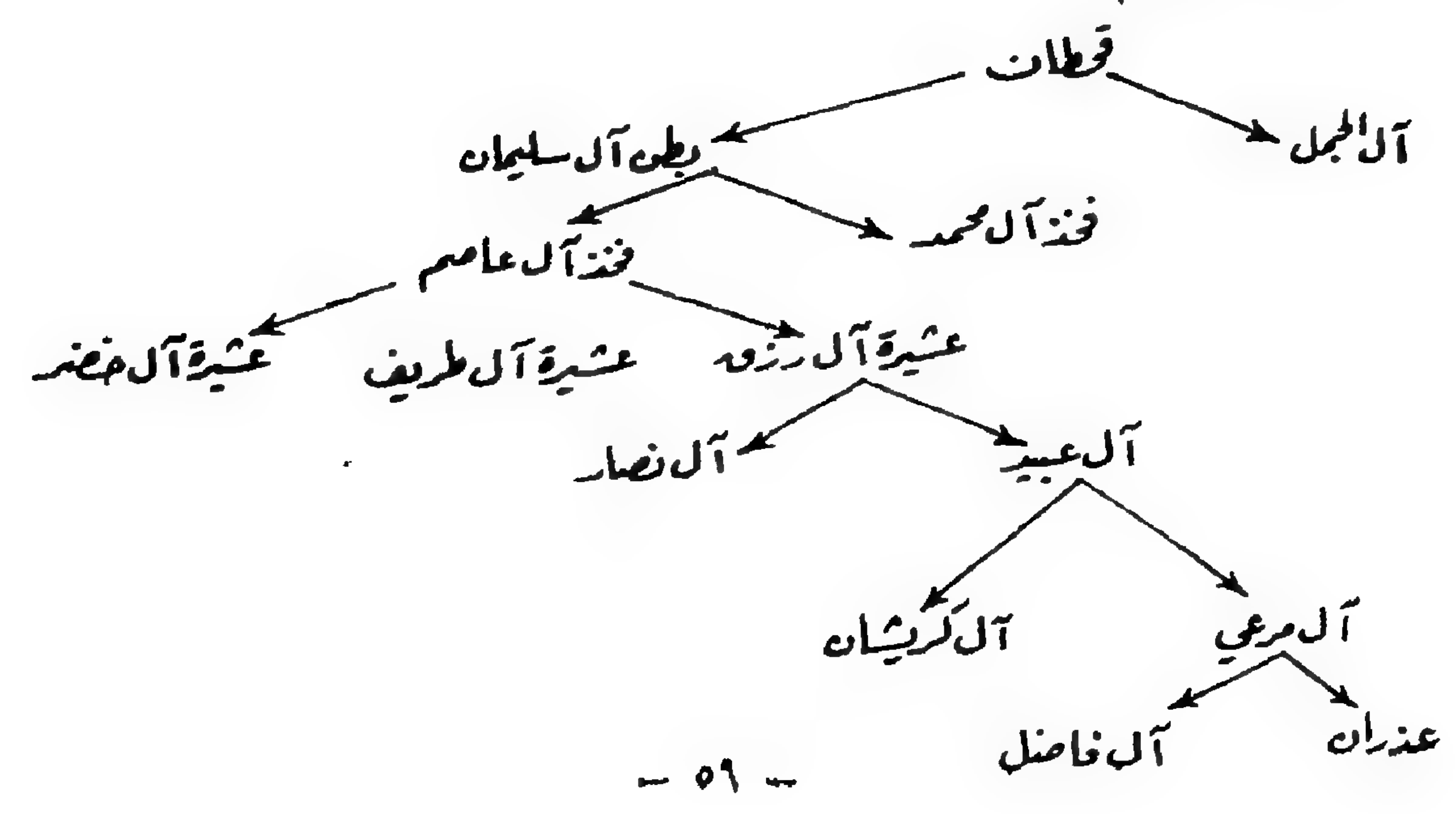
٢ ـ القسم الثاني من عشائر معان الحجازية : الكراشين ، ومنهم :

آ ـ الهوارين ، ب ـ الهلالات (هلال) ، ج ـ عيال مرعي (ابن مرعي) ، د ـ الرواد ، هـ ـ أبو درويش ، و ـ الصلاحات ، ز ـ المحتسب ، ح ـ جماعات أخرى.

في مخطوط علي نصوح الطاهر ينسب الكراشين الى جد اسمه كريشان أصلا من قرية باقة الحطب في نابلس ومن أحفاد الشيخ صلاح الباقاني وهم أقارب آل صلاح من نابلس(٥٩) . وفي كتاب نعوم شقير يرد ذكر كريشان في حروب التياها والترابين في سيناء بشأن الحدود ونصرة العزازمة للترابين يقول :

يا ريح قل للقديرات	حماد وفى كلامه
بيرين لابن كريشان	والتمر لابن جهامه(٦٠)

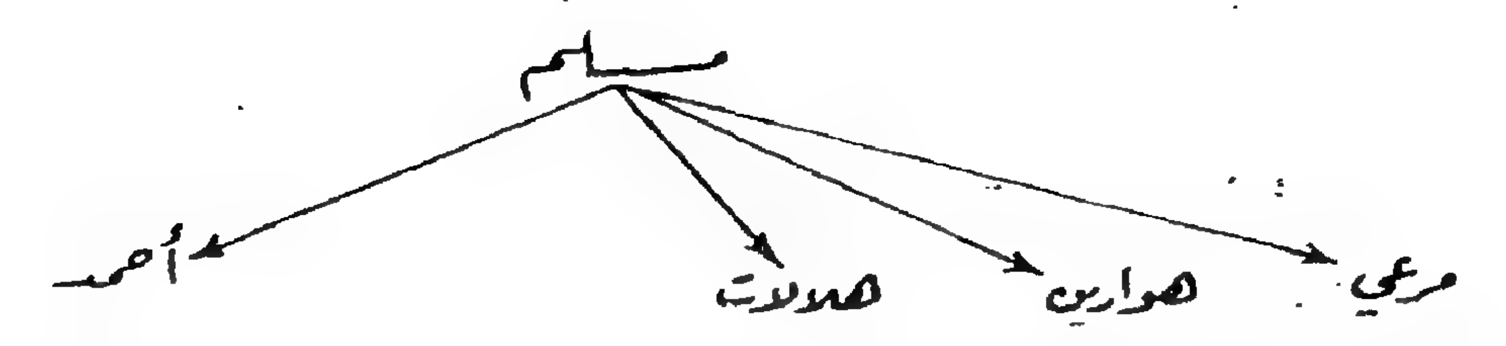
والواقع أن أصل التسمية قد يرتبط بآل كريشان على النحو المسلسل أدناه(٦١):
آل كريشان هم من



آ ـ الهوارين : يذكر سجل الوثائق المرحوم الشيخ محمود بن هارون كريشان والهوارين نسبة لهارون ورد ذكرهم في سجل حصر الارث (صبح بن أحمد الهوارين من عشيرة الكراشين(٦٢) . هم أبرز عشائر الكراشين تسموا بهذا الاسم نسبة لهارون.

مسلم كريشان

وتقسم الكراشين كما يلي(٦٣)



ب ـ الهلالات : اعتقد نصوح أنهم من بقايا بني هلال وهذا مجرد اعتقاد . يذكر فؤاد حمزة انهم من بطن عمرو بن تميم . بيد انهم من الاصول انفسهم التي ينتمي اليها الكراشين . ليس هناك من صلة بين هلالات وادي موسى(٦٤) ومعان .

هاجر بعض الهلالات شمالا الى المزيريب وجيرود بسبب المحل (قلة المطر)(٦٥) وسكن عبد الرحيم وعبد الرحمن الهلالات في جيرود وسكن حسين من أولاد هلال في المزيريب . هاجر الهلالات الى الكرك بعد حادث دم بينهم وبين آل قباعة (٦٦) ويذكر سجل حصر الارث الهلالات كعشيرة من فرقة الكراشين من أهالي معان الحجازية(٦٧).

ج ـ عيال مرعي : يشير لهم سجل حصر الارث بعشيرة عيال مرعي من الكراشين(٦٨) .

د ـ الرواد : يذكرهم سجل الوثائق مثلا (الحاج خليل بن محمد بن محمد الرواد) ويذكر السجل حارة الرواد بمحلة الجامع الشمالي غرب قصيلة محمود أبو هلالة وحسن معتوق(٦٩) ويذكر حمد الجاسر (رواد) كمكان من بلاد سكان من عسير الاقرب الى الصحة هو حديث نصوح الذي يرى بأنهم من مصر ويخطيء في التسمية اذ يقول عيال رواضي ويبدو أنه ترجمها عن « موزيل »(٧٠) .

هـ ـ أبو درويش : ذكر نصوح بانهم من نسل رجل من قبيلة عباد البلقاوية ينضون تحت لواء الكرشين . هم من أحفاد عبد أبو درويش بن الحاج خليل بن عوض(٧١) .

و ـ الصلاحات : الصلاحات او (صلاح) فقد ذكرهم موزيل وهم ينتمون الى الكراشين ، ويذكر نصوح انهم من غزة . وتشير الوثائق الشرعية في قضاء معان بأنهم

وثيقة تتعلق بتكليف الشيخ علاء الدين المحتسب الخليلي تعاطي الاحكام الشرعيه في معان .

الحاكم الشرعي الموقع أعلاه

قدوة سيدنا قاضي القضاة ملاذ القضاة قدوة الموالي العظام المولى الهمام محرر القضايا والأحكام مميز الحلال من الحرام

حامل هذا الكتاب مفخر الأفاضل المكرمين الشيخ علاء الدين المحتسب الخليلي في تعاطي الأحكام الشرعية والوقائع المرعية في مدينة معان

أتبع على أصح الأقوال المعول عليها في مذهب [illegible] أبي حنيفة النعمان عليه الرحمة والرضوان وفي وظيفة الإمامة والأذان وإقامة

الصلوات الخمس وصلوة الجمعة بالجامع الكائن بمدينة معان المذكورة لخلو ذلك عن أحد يتعاطى المصالح المذكورة وحيث كان

المذكور من أهل العلم والصلاح ومستحق لما تقرر به وكون أهالي المدينة المرقومة شافعية المذهب فإن صلوة الجمعة تنعقد عندهم

من دون إذن شاهاني فلذلك قد قررناه بذلك وأذناه بتعاطي ذلك من يوم تاريخه أدناه تقريرا وإذنا شرعيا موقوفا ذلك

على قبوله وحرر في اليوم العاشر من شهر جمادى الأولى سنة أربع وستين ومائتين وألف من هجرته عليه الصلوة والسلام

من مدينة غزة وانهم مقيمون ومتوطنون منذ ابقديم في معان يشير السجل « الغزاويان الاصل المتوطنان منذ زمن قديم في قلعة معان الحجازية »(٧٢) ومثلهم مثل عائلة زغلول يعتبرون من الكراشين وهم من الخليل كما تشير الوثائق الشرعية(٧٣) ، ويشير سجل الوثائق لـ (عودة بن الحاج داود صلاح المسلم العثماني من اهالي غزة هاشم)(٧٤)،وهناك عيال عوض من غزة أيضا وينتمون الى الكراشين(٧٥) .

ز ـ المحتسب : من عائلة المحتسب ، كان يرد وراء اسمه (خليلي)(٧٦) والحقيقة أن أحفاد عائلة المحتسب هم أحفاد رجل واحد هو علاء الدين المحتسب أرسلته الحكومة عام ١٢٦٤ (١٨٤٨م) تقريبا لاقامة الصلوات الخمس والامامة بمسجد معان موفدا من قبل الحاكم الشرعي العثماني كما تدل الوثيقة المرفقة ويظهر من الوثيقة بأن أهل معان شوافع المذهب وان الهدف من ارسال الشيخ علاء الدين هو تعاطي الاحكام الشرعية على المذهب الحنفي (مذهب أبي حنيفة النعمان) الذي تسير عليه الدولة العثمانية(٧٧) . والواقع ان في كلام نصوح خلطا بيّناً :

يذكر نصوح بأن الكراشين تشتمل على : **الهلالات ،و الهوارين** : وليس الحوارين ويخطىء نصوح في التسمية أيضا . فهم الهوارين وليس الحوارين .

عيال المرعي : يذكرهم سجل الوثائق بـ (مرعي)(٧٨) ويذكرهم (يوسف وسارة ولدا محمد بن مرعي الكراشين)(٧٩) .

عيال آل رواد وليس الرواضي ، ويخطىء في التسمية أيضا لعله ترجمها عن الانكليزية التلاهنة وليس الطلاحنة : ويخطىء (بيك في التسمية فهم التلاهنة) (التلهوني) .

٣ ـ القسم الثالث من عشائر معان الحجازية : العقايلة(٨٠)

من عشائر معان الحجازية الوثيقة الصلة بالكراشين لدرجة أن وضعها كثيرون تحت لوائهم . ويبدو أن تحالفات هذه العشيرة كانت قوية جدا مع الكراشين . ومن العقايلة : عرار ، وعيال سليمان والتلاهنة (التلهوني) .

يرتبط بالعقايلة جماعة التلاهنة ولقب تلهوني مثلا ورد في سجل الوثائق (خليل افندي ابن المرحوم الحاج علي التلهوني العقايلة) ووضع نعوم شقير العقايلة ضمن عشائر مديرية الشرقية في حين وضع عشائر ترهونة في الصحراء الغربية وصحراء ليبيا في مصر(٨١) .

ويرى نصوح بأن تلهوني مشتقة من ترهونة وهم كعوب من جماعة سليم بن منصور مثل العقايلة(٨٢) وينسب نصوح سليم بن منصور الى قيس بن عيلان(٨٣) .

والشيء المعقول أن العقايلة من عقيل والعقيليون من جذام من كهلان وان جذورهم في المنطقة مثل جذور الحمادين والهلالات ويشير سجل الوثائق الشرعية في قضاء معان ١٣١٦ بان سكر ينتمون الى العقايلة فيذكر مثلا اسم الحاج عبد الله بن محمد سكر العقايلة مسلم عثماني . . .[٨٤] ويشير سجل الوثائق أن عرار ينتمون للعقايلة مثلا (سليمان ابن أحمد عرار العقايلة) من قصبة معان الحجازية[٨٥] .

الباب الثاني

عشائر معان الشامية :

١ ــ **القسم الاول ــ القرامصة** : هم فرق مختلفة الاصل وكانوا الاكثر عددا في معان الشامية فهم :

آ ــ **الرشايدة** : يشير لهم سجل اعلامات معان ومنهم أبو عورة[٨٦] . **ب ــ عيال جمعة** : ومنهم المحيسن (وهم وثيقو الصلة بأبي الزيت) وهم من الطفيلة ، **ج ــ الخورة** : ومنهم زنوني[٨٧]وآل الجمل (جمل العيلة) ، **د ــ الجريات**: أبو جري: هاجروا لمعان الحجازية بعد حادث قتل ومنهم عليدي وانضموا للخوالدة ، **هـ ــ وهناك العواجين** : (عوجان) والطحان ويعتقد أنهم من قطاع غزة ويبدو أن معظم القرامصة من قبيلة عنزة[٨٨] ومن شمر وشمر من طي (ربيعة) .

رأى موزيل عندما زار معان في أواخر مطلع القرن الحالي أن القرامصة هم الاكثر عددا ، ويرى نصوح بأنهم فرق مختلفة الارومات وان منهم العواجين من عشيرة الجعافرة من عنزة أصلا ومنهم جماعة في الطفيلة ومنهم :

آ ــ **الرشايدة** : ومنهم أبو عورة .

ب ــ عيال جمعة : ومنهم عيال محيسن وهم من بلدة الطفيلة[٩٠] . ومنهم عيال أبو زيت وهم من منطقة بير زيت[٩١] .

ج ــ الخورة : تسمية الخورة ترتبط بالخور على الارجح والنسبة اليها الخوري. يذكرهم سجل الوثائق بالخورة ويذكر شخترة الخوري[٩٢] . ويتحدث داوتي عن هجرة لحوران والارجح أن المهاجرين من الخورة اشتروا في الشجرة واربد[٩٣] ويرى نصوح بأنهم غير منسوبين وقد يكونوا من بقايا الصليبيين الذين أسلموا .

ومن الخورة آل الجمل يذكرهم سجل حصر الارث مثلا : (جويدان بن ابراهيم جمل العيلة)[٩٤] . وتعرف جماعة الخورة بلقب الخوري . ويذكر سجل الوثائق

الشرعية في قضاء معان (الخوري) ويذكر (شيخ طرة) محمد جعفر محمد أبو شيخ طرة)(٩٥) . وشيخ الخورة والمحاميد والقرامصة كان (داود بن رشيد) ومن الخورة زنوني (زنونة) .

د ـ الجريات : (أبو جري) يذكر سجل الوثائق (أبو جري) « مثلا سالم بن أحمد أبو جري »(٩٦) ومنهم فريق هاجر لمعان الحجازية وانضوى تحت لواء (عيال أم خطاب والخوالدة) . كانوا تابعين للخوالدة ثم عيال أم خطاب .

هـ ـ عوجان : يذكر سجل الوثائق عوجان (ابراهيم بن حسين عوجان) من أهالي معان الشامية وتذكر « عوجان » « العواجين » مثلا (ابراهيم بن حسين ابن عوجان العواجين)(٩٧) . والعواجية من عنزة وأميرهم العواجي ويذكر نصوح(٩٨) ذلك أيضا .

وينضوي تحت اسم القرامصة : ١ ـ عيال أبو الزيت ـ وهم من بير زيت(٩٩) . ٢ ـ عيال الطحان ـ وهم من غزة(١٠٠) .

ويبدو أن هجرة القرامصة لمعان الشامية جاءت في وقت لاحق لهجرة عيال الحصان ذلك أن الانطباع كان سائدا عند فالن بأن أهالي معان الشامية يذكروه بسورية في كل شيء من المساكن وطراز البناء ... وتنضوي جماعات أخرى منها :

أبو الفيلات : يذكر البعض أنهم من الخليل . **والمغربي :** وهم من تونس أصلا كما يذكرون .

٢ ـ القسم الثاني :

عيال الحصان (ابن الحصان) : يخطىء نصوح اذ ينسبهم الى قرية بورين من قضاء نابلس وانهم من تركمان أصلا ، تنقلوا مع الامامية في مواكب الحج واستقروا في معان وان لهم اقارب في بورين يعرفون بآل حصان .. ويذكر بأنهم قد يكونون عربا من عشائر الحصانية الصخرية أو من الحصنة وكان فريق منهم يتبع الجرادات في القرن السابع عشر .. يتبع هذه العشيرة فرقة العساف والثوابتة والنسعة والمصاورة والحياني (عيال حياني)(١٠١) ويذكر الجاسر ان الحصنة من طفح من البطنين من بني سعد من عتيبة والبطنين مثنى بطن من فروع عتيبة وبلاد البطنين جنوب الطائف بجوار بلحارث من بني سعد(١٠٢) .

ويحدد احسان بأن آل الحصان في معان الشامية من آل الحصان في بورين من جبل قبال (جورة وعمرة) ويؤكد بأن آل كريشان في معان الحجازية وفرعهم من بني

زيد في قلقيلية وقد نزلوا في قرية باقة الحطب ثم صوفين فقلقيلية . يذكر احسان بأن آل كريشان وعيال الحصان من حراس القلعة ورجال الحج سابقا(١٠٣) .

يروي الشيخ حسن النسعة بأن عيال الحصان قد يكونوا جاءوا من بورين/نابلس هاجروا الى معان لعدة أسباب أبرزها الفرار من الخدمة العسكرية ذلك أن الاتراك لم يجندوا أحدا من معان وانهم بعد ذلك الفرار استقروا في معان وان الاتراك لم يصلوا لمعان في التجنيد .. ويروي بأن ، ليس كل من انتسب للحصان من بورين فهناك المصاورة مثلا(١٠٤) .

لكن يبدو أن (عيال عبد الله) قد جاءوا من سورية وانهم من أحفاد عبد الله الباشا الذي جاء في حملة مكوناتها : ١ ــ عرب بقيادة يوسف آغا وعثمان آغا أولاد عبد الله باشا ، ٢ ــ تركمان : بقيادة مصطفى بك شهسوار ، ٣ ــ الانكشارية : جعفر الانكشاري ، ٤ ــ تركمان : بقيادة الامير عساف فروخ وأصبح أمير للحج الشامي(١٠٥).

خولت الدولة العثمانية عبد الله باشا تأمين طرق الحج في آخر ١٠٦٦هـ بعد توتر الوضع وضعف المماليك الذين أمنوا طريق الحج الشامي والمصري مدة نصف قرن . فكون عبد الله باشا أربع كتائب (اليرلية : ألوطنيين) ، الاولى من آل المهايني من آل النمر ، والثانية من التركمان وأمراؤها من غازي باشا شهسوار ، والثالثة من الاكراد وامراؤها من آل بيرم ، والرابعة من المماليك وأمراؤها من المماليك النقاريين .

تولى عبد الله النمر تشكيل الحكومة الادارية في نابلس قبل أن يخرج الى الكرك ويصاهر آل عمرو ويذهب الى معان ليبني معان الجديدة .

رواية (احسان) تتوافق مع رأي (جورج فالن) الذي رأى أن أهل معان الشامية سوريو الملامح وان شكل البناء ونوع الطعام يذكره بسورية(١٠٦) .

آ ــ **عيال عبد الله :** ومنهم (من آل عبد الله النمر) الذي بنى قلعة معان الشامية ومن جماعته : أ ــ النسعة ، ذكرهم موزيل ونصوح ويتردد اسمهم في سجلات الوثائق العثمانيةوالسالنامات بكثرة ويذكر منهم (عبد النبي سليمان النسعة)(١٠٧) . ب ــ بدر: وهم وثيقو الصلة بالنسعة .

ب ــ الثوابتة : (الثبتي) ينسب الانصاري الثوابتي والثوابتة الى قبيلة الثوابت من (حرب) ويسميهم بيت الثابتي ويروي بأن كثيرين في المدينة المنورة كانوا ينسبون اليهم ومن اشهرهم (سعد بن مسعود الثابتي الحربي) وانه كان نازلا في حماة حينما

أخرج من المدينة المنورة في الفتنة التي وقعت سنة ١١٥٦هـ ومن أولاده علي وجمعة وحسين وحسن . وقد يكونون من آل ثابت من آل سالم من شمر من طي وهو الارجح(١٠٨) .

وفريج : يذكرهم سجل الوثائق افريج (علي ابن أحمد افريج)(١٠٩) .

ويذكر سجل الوثائق اسم سليمان خلف فريج وخلف عساف مثلا تذكر الوثيقة (اشترى حسن ابن أحمد فريج بن سليمان من أهالي سكان معان الشامية ومن تبعة الدلة العلية بماله وبنفسه من الحاج محمد العبد بن الحاج سليمان بن جفيمان) (١١٠).

جـ ـ المصاورة وكراجكلي : يذكر نصوح بأنهم من (مصر) لأن اسمهم يدل على ذلك وأنهم (تركمان) قدموا من مصر . قرة جكلي (قراجكلي) ويذكر سجل الطلاق (محمد كره جعلي(١١١). والكراجكلي كلمة من مقطعين تعني(الرجل الاسود) بالعثمانية. حدثني احد أفراد هذه العائلة بأنهم أصلا من تركيا وعرفوا هناك بذلك الاسم والسبب سمرة بشرتهم)(١١٢) .

د ـ الحياني ، أبو حيانة ، عيال حياني : يذكر سجل الوثائق الحيانة كما يلي : (اسماعيل بن محمد أبو حيانة من أهالي قصبة معان الشامية)(١١٣) ويذكر (محمد بن أحمد ابو حيانة ابن خليل)(١١٤) . و (الحيانيون) من طي من ربيعة من كهلان من افخاذ زريق بن ثعلبة(١١٥) ويذكر أحد المعمرين انهم من (بني عطية)(١١٦) . ويبدو أن التسمية الادق لهم (أبو حيانة) وأرجح الرأي الاول انهم من طي لأن سكان معان الشامية من طي عموما .

هـ ـ عساف : يبدو أن التسمية هي عساف وليس العساف وهي العشائر المعروفة في البلقاء .في سجل الوثائق يرد ذكرهم (عساسفة) تارة وتارة (عساف)(١١٧) ولقد ذكر الزركلي عساسفة قريبين من المنطقة هي الحباشنة (مع الرماضين الجعافرة، الرهايفة ، العويسات)(١١٨) . واذا تقيد الباحث بالتسمية (عساف) فانهم من بطن عرمة بن تميم (بنو تميم) واذا كانت التسمية العساف فانهم من الحمام من اللحيوات من زوبع من شمر وقد يكون هذا النسب صحيحا لأن في معان الشامية جماعة من شمر مثل الجريات وغيرهم .

و ـ مطر : من أبرز عشائر معان الشامية وهم وثيقو الصلة بالمصري والكراجكلي، وراي نصوح في أصولهم لا يختلف عن رايه في آل المصري من حيث اعتبارهم من القادمين لحماية قوافل الحج . ولاحسان النمر الرأي نفسه .

تعزز روايات المعمرين ارتباط آل مطر مع عشائر خارج معان ولا يعني ذلك أن آل مطر جاؤوا من تلك المنطقة . مثلا يروي الشيخ حسين النسعة عن تعارف تم بين

المرحوم عمر مطر عندما كان حاكما عسكريا لنابلس مع جماعة في نابلس وان هذا التعارف كشف عن العلاقة السابقة في الصلة(١١٩) .

أرجح ان آل مطر في نابلس وآخرون جاؤوا لمعان في حملة عبد الله النمر الذي أسس معان الشامية .

القسـم الثالث :

المحاميد : ومنهم أبو كركي ومنهم البحري ولا تعكس الوثائق شيئا واضحا عن صلاتهم بغيرهم .

ملاحظات :

١ ــ يلاحظ أن أهالي معان الحجازية ينتسبون الى عشائر الفناطسة والبزايعة والحمادين والكراشين ، انضوى تحتها عشائر أخرى ليست من الارومة نفسها .

٢ ــ يبدو معقولا أن أصول الكراشين تعود لآل عبيد وعشيرة آل رزق من فخذ آل عاصم من آل سليمان من قحطان ، اذ ان آل مرعي وآل كريشان من (آل عبيد) .

ويبدو أن الهلالات الذين ينضوون تحت اسم كريشان والكراشين هم من الجماعة نفسها . وهكذا فان العشائر الثلاث عيال مرعي ، وآل كريشان والهلالات يعودون بأروماتهم للجزيرة العربية .

ويلاحظ في دراسة عشائر معان ما يلي :

١ ــ ان أصول عشائر معان الحجازية هي من الجزيرة العربية وشمال الحجاز ، ولا سيما عشائر التحاتا والكراشين ، وأصول الكراشين تعكس الصلة بينهم وبين عشائر الجزيرة .

٣ ــ يبدو أن عشائر الكراشين استقطبت مجموعات أخرى لتعزز من موقفها وقوتها (أمام عشائر التحاتا) فانضوى تحت لوائها عشائر (الصلاحات)و(أبو درويش)، ويبدو أن تحالفا قام في البداية بين الكراشين والعقايلة جعل الكثيرين يعتقدون بأنهم منهم ، لانهم ينضوون تحت لواء واحد ، ولكن لا يبدو ان أصولهم واحدة . كما أن أرومات الكراشين مختلفة فبعضهم من المحتسب وبعضهم من الصلاحات الذين تختلف أصولهم عن الهلالات وأبو مرعي .

ويظهر ان الكراشين كانوا أكثر تساهلا في فتح الباب للآخرين للانضواء تحت لوائهم ، لخلق توازن بينهم وبين عشائر التحاتا . فانضوى تحت لوائهم: المحتسب وهم من الخليل ، والصلاحات وهم من غزة ، وزغلول وهم من الخليل أيضا .

وانضوت تحت لواء التحاتا بعض العائلات في مطلع هذا القرن كما يبدو ، فظهرت أسماء ذات أصول سورية مثلا (شموط) و (القهوجي) ، الا أنها لم تكن كبيرة ولم تؤثر في موازين القوى والتوازن العشائري ، وانضواؤها كان لتيسير مصالحها وليس كما هو الحال عند الكراشين .

عشائر معان الشامية : يبدو أن هذه العشائر سكنت بعد تأسيس معان الشامية. وقد خلت المصادر التاريخية من تاريخ تأسيس معان باستثناء بعضها التي أشارت أن عبد الله النمر الذي شكل حكومة ادارية في نابلس برئاسة علي آغا وشكل مجلس الشرع الشريف برئاسة عبد القادر العلمي وترك نابلس للوالي الجديد علي كيوان وخرج الى البلقاء وبنى قلعة ثم رحل للكرك وصاهر (العمرو) وعهد اليهم بحراسة طرق الحج ثم عاد لمعان وبنى معان الجديدة وانه اشتهر بين البدو هو ورجاله باسم الامامية* (ويبدو أن غيرهم قد تسمى بهذا الاسم في معان الحجازية) .

ويظهر أنه بعد بناء معان الجديدة جاءتها هجرات جديدة من مناطق مجاورة ، وظهر فيها أصول جديدة للعشائر ، فمن قبيلة عنزة تظهر أسماء عائلات ومنها آل رشيد ، وعوجان(١٢٠) . ومن قبيلة طي تظهر أسماء عائلات من عيال الحصان وهم الثوابتة ومنهم فريج والجعامين .

وقد تكون هناك علاقة بين عيال عبد الله ومنهم (النسعة وبدر) الذين جاءوا في حملة عبد الله النمر وكانوا عربا بقيادة عربية (يوسف آغا وشقيقه) وأولاد عبد الله النمر . وقد انضوى الجميع تحت اسم عيال الحصان ، معهم جماعات أخرى مهاجرة من مصر يعرفون بالمصاورة ومنهم الكراجكلي . . . وهؤلاء لا يؤثرون على التحالفات كثيرا. وفي معان الشامية انضوت عائلات غريبة مثل المغربي وأبو الفيلات مع القرامصة.

الخلاصة : يلاحظ أن أصول معان الشامية اختلفت عن أصول معان الحجازية التي كانت في معظمها من قبائل الحجاز ، مثل : جذام وبلي سكان المنطقة القدماء . ومنهم الحمادين والعقايلة ، وهناك عشائر من عتيبة مثل بعض أرومات الفناطسة .

أما عشائر معان الشامية فانها من أصول سورية كما يتبين في عيال عبد الله وعيال مطر المعروفون بعيال الحصان ويبدو أن تسمية الحصان تعود لقوتهم ومنعتهم وعدم امكانية غزوهم ، أي من كلمة (الحَصَانْ) ، وما بقي من عشائر معان الشامية فمن عنزة وشمر في هجراتها اللاحقة وهي :

* احسان النمر ، جبل نابلس والبلقاء (مطبعة ابن زيدون دمشق ١٩٣٨) ص ٧٢ – ٧٦ . هذه الرواية وان لم أجد ما يؤيدها فانني أعتقد أن فترة بناء معان الشامية كانت في ذلك الوقت تقريبا وان بيركهارات أشار لها عام ١٨١٢ ويبدو أنها بنيت قبل ذلك بفترة – في رواية احسان النمر فان فترة بناء معان الشامية هي ١٠٦٦ هـ

١ ــ طي ــ ربيعة ــ على نحو لاحظناه في عشائر المحاميد وآل ثابت (ان كانت أصول الثوابتة مرتبطة بآل ثابت) . والجريات من شمر من طي .

٢ ــ عنزة : رأينا عشائر القرامصة ترد الى الجعافرة من عنزة مثل العواجين . وكان لها التفوق العشائري هناك .

وعند تأسيس امارة شرق الاردن عام ١٩٢١م استقرت معان على وضعها السابق، واقتسمت عشائر معان الحجازية (التحاتا والكراشين) المناصب فمن التحاتا أخذ (حامد الشراري) رئاسة البلدية ومن الكراشين أخذ (محمود كريشان) النيابة واستمر هذا التقسيم لمنتصف الخمسينات تقريبا عندما ظهرت زعامات جديدة من معان الشامية فظهر (عمر مطر) وتقلد مناصب رسمية عديدة .

تذكر السالنامات العثمانية أسماء أعضاء مجلس الادارة من عائلات معان الحجازية وهي (كريشان) و (التلهوني) و (الشراري/الشلبي) وتذكر من معان الشامية (النسعة) فقط .

وما زالت معان الى اليوم قوة طاردة كما كانت في أواخر القرن الماضي ، وما زالت تقسيماتها العشائرية كما هي . وقد اتفقت فيما بينها على جعل رئاسة المجلس البلدي دورية ، تتولاها عشيرة بعد أخرى .

(١) سالنامة ولاية سورية ١٣٠٢هـ ص ١٨٠ .

(٢) سالنامة ولاية سورية ١٣١٠هـ ص٢٣٩ .
سالنامة ولاية سورية ١٣١١-١٣١٢هـ ص٢١١ .

(٣) سالنامة ولاية سورية ، ١٣١٣هـ ، ص٢٢٣ ــ ٢٢٦ ، ١٣١٦ هـ ص ٢٢٩-٢٣٦ .

(٦) Georqe August Wallin, **Travels in Arabia** 1845 - 1848 Falcon : Orleander, 1979, P. 123.
Alois Musil, **the Northern Hejaz** (New york , the American Geographical society 1926). p. 234 .

وجورج أوغست فالن هو أستاذ اللغة العربية في جامعة هينجفور بفنلندا ، أسلم وأصبح وهابيا ولقب نفسه بعبد الولي . يمثل هذا الرجل نمطا « أوربيا » غير متعصب مر بالمنطقة خلال ١٨٤٥ ــ ١٨٤٨ .

(٧) Wallin, op. Cit, p. 11.

(٨) سجل الوثائق الشرعية في قضاء معان سنة ١٣١٦ هـ (الجامعة الاردنية ــ مركز الوثائق والمخطوطات) ص ٦ ــ سوف تشير اليه بسجل الوثائق .

(٩) Musil. op. Cit, p. 234.

(١٠) Chares Doughty , **travels in Arabia Deserta** (N.Y.Dover pub. 1979) Vol. 1,p. 72.

(١١) أبو اسحق ابراهيم بن محمد الفارسي الاصطخري (الكرخي) ت : ٩٥٠م **مسالك الممالك** (ازاء انتشارات كتابخانة صدر) ص ٩٥ .

(١٢) أبو الفداء عماد الدين اسماعيل بن محمد بن عمر المعروف بأبي الفداء صاحب حماة المتوفي سنة ٧٣٢هـ **تقويم البلدان** (باريس : دار السليمانية ١٨١٥م) ص ٢٢٩ .

(١٣) الشيخ نجم الدين الغزي (٩٧٧ – ١٠٦١هـ) **الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة** ج٣ تحقيق الدكتور جبرائيل سليمان جبور (بيروت : دار الافاق ١٩٧٩) ص١٥٧ . والغزي مولود بغزة في بيت علم ووجاهة وأدب ، وهاجر لدمشق .

(١٤) Karl Barbir, **Ottoman Rule in Damascus 1707 - 1758** (Princenton Univ. Press 1980) pp.99, 100, 104, 105, 126, 128.

Ibid

(١٥) وبعد ١٦٧١ جمع أمير الحج بين امارة الحج وامارة دمشق مدة قرنين .

حمد الجاسر ، **في سراة غامد وزهران** ، الرياض ،دار اليمامة ١٩٧١، ص٤٢٩–٤٣٠.

(١٦) قافلة تحمل مؤنا تخرج لملاقاة الحجاج . واذا سلك الحجاج الطريق السلطاني فان الجردة تخرج لملاقاته في معان قادمة من غزة. محمد خليل المرادي ، **سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر** م٢ (بغداد ، مكتبة المثنى) ص ٦١–٦٢ .

(١٧) الخياري المدني : ابراهيم بن عبد الرحمن الخياري المدني ، **رحلة الخياري ، تحفة الادباء وسلوة الغرباء**، تحقيق رجاء السامرائي (القاهرة : وزارة الثقافة والاعلام مديرية الثقافة العامة) ص ٨٣ – ٨٤ .

(١٨) عبد الغني النابلسي (١١٤٣هـ – ١٧٣١م) **الحقيقة والمجاز في رحلة بلاد الشام ومصر والحجاز** ، نسخة مصورة من مكتبة اسعد افندي ٢٣٧٦ يوجد صورة عنها في مركز الوثائق والمخطوطات / الجامعة الاردنية رقم ٥٧٣ ص ٣٨٣ – ٣٨٤ .

(١٩) عبد الكريم رافق ، **بلاد الشام ومصر من الفتح العثماني الى حملة نابليون بونابرت ١٥١٦ – ١٧٩٦** (دمشق ١٩٦٧) ص٣٥٣ – ٣٥٤ .

(٢٠) يوهان بيركهارت ، **رحلات بيركهارت في سورية**

(٢١) Wallin, op. cit, pp. 125-126.

الجنوبية ج٢ ترجمة انور عرفات ، عمان – دائرة الثقافة والفنون . ص ١٥٠ – ١٥١ .

(٢٢) Doughty , op. Cit , pp. 71 - 74.

(٢٣) محمد بن عثمان بن محمد السنوسي، **الرحلة الحجازية** ، تحقيق علي الشنوفي (تونس – الشركة التونسية للتوزيع ١٩٨١) ص ٢٤٨ – ٢٤٩ .

(٢٤) خير الدين الزركلي ، **عامان في عمان** (القاهرة ١٩٢٥) ص ٢١ وذكر معان في الفترة ذاتها بولس سلمان (الارشمندريت بولس سلمان، **خمسة اعوام في شرق الاردن** ، أبحاث ادبية قضائية دينية – القدس ١٩٢٩) .

(٢٥) تتردد تسميات مثل فنظو لان المصريين سموا سكان عرب جنوب الجزيرة فنظو أي سكان الفنط والفنط سكان الجنوب من الجزيرة العربية. أما عرب الشمال فهم شاسو وتتردد تسميات اخرى في سجل الوثائق مثل (فنجص). انظر سجل الوثائق وثيقة رقم (٤٢) ص٨٥ حيث يذكر السجل اسم تمام بنت داود عبد الواحد فنجص . ويعتقد أن فنجص هي أصل فناطسة ولا أرجح لذلك لان سجل الوثائق كان يكرر كلمة فناطسة وهي قد تكون تحريفا لكلمة غناطسة ، وفي الكتابة يسهل الخلط بين الفا والغين بحيث تصبح الفناطسة : الغناطسة . من عشائر الغناطسة انظر وصفي زكريا ، **عشائر بلاد الشام** (دمشق : دار الفكر ١٩٨٣ ص ٣٤٣) .

(٢٦) Alois Musil, Arabia petroea win Kaiserliche Akademie der wissenshaften 1908 p. 56.

تمت في راسون دعوة مجموعة أبناء الفناطسة الى لقاء يوم ١٧–٤–١٩٨٧م . بلغ عدد الحضور من ابناء الفناطسة في معان وراسون حوالي ٣٥٠شخصا . ألقيت كلمات الترحيب من الطرفين .

(٢٧) مقابلة مع السيد منير شويطر من مديرية تربية عجلون . اللقاء يوم ١١–٢–١٩٨٨ في

وزارة البلديات والشؤون القروية الساعة ١١ ظهرا .

بيّن السيد منير سبب الهجرة الى راسون بأنها جاءت بعد معركة تمت بين محمد بن مصلح شويطر وأهل راسون أثناء مرور محمد بهم وهو في طريقه لزيارة أخواله (آل المومني). وتزوج محمد من فتاة من راسون . ونظرا لان راسون عانت كثيرا من غزوات العبابيد فان مجيء جماعة مصلح سويطر الى راسون رجحت الكفة . قدم بنو اسماعيل لجماعة محمد شويطر أرضا . بقيت جماعة من آل شويطر في جمحا وعددهم الان (٥٠) رجلا وفي كفرنجه يوجد جزءا منهم وفي راسون عددهم ١٥٠ رجلا تقريبا .

يروي السيد منير قصة تعكس دهاء محمد شويطر في تضليل (العبابيد) الذين جاءوا لراسون في عملية استطلاع تسبق الغزو وانه أعطى البندقية الوحيدة لكل من دخل يسلم على العبابيد مما أوحى لهم انهم لديهم بنادق عديدة بعدد الشباب الذين كانوا يدخلون للسلام .

(٢٨) الشيخ سليمان عبد القادر سالم مصطفى أحمد القناطسة ٨٧ سنة يوم ٢٢-٩-١٩٨٧ الساعة الخامسة مساء منزل السيد صقر محمد سالم المعاني جبل الحسين - عمان .

(٢٩) سجل الوثائق (٢ة ص ٢٠ وفي ص ٤٧ يشير لاسم : العبد بن داود مختار عشيرة عيال داود) .

(٣٠) سجل الوثائق ص ١٠ .

(٣١) سجل الوثائق ص ٢٢ .

(٣٢) سجل الوثائق ص ٤٣ ولقد لاحظت تردد لقب (الخطيب ومعتوق) في سجلات المحاكم الشرعية لحلب في القرن السابع عشر (الشريط موجود في مركز الوثائق والمخطوطات الجامعة الاردنية رقم ١١٦ ، ١١٧) .

(٣٣) **Max Freiherr, von oppenheim Die Beduinen,** BAND II (Otto Harrassowitz leipziq , 1943 p. 290.

(٣٤) سجل الوثائق ، ص ٤٨ .

(٣٥) سجل الوثائق ، ص٦٠ .

(٣٦) سجل اعلامات معان ص ١٧ .

(٣٧) سجل حصر الارث ص ٦٣ .

(٣٨) سجل الاحكام ص ٦٢ .

(٣٩) سجل اعلامات معان ، مصدر سابق ص٦٦ .

(٤٠) نعوم شقير ، تاريخ سينا القديم والحديث وجغرافيتها (المركز العربي للبحث والنشر ١٩٧٦) ص ٦ .

(٤١) سليمان القناطسة ، مقابلة سابقة الذكر .

(٤٢) سجل الوثائق ، مصدر سابق (١٠) .

(٤٣) سجل الوثائق الشرعية يذكر حيشان البوابعة (ص٦٠) ؛ (الحيشان : جمع حوش وهو فناء الدار الواسع) .

(٤٤) المصدر نفسه ص٦ .

(٤٥) المصدر نفسه ص ٣٤ .

(٤٦) حمد الجاسر ، **في شمال غرب الجزيرة** (الرياض : اليمامة ١٩٧٠) ص‌ص٤٥ ، ١٧٩.

(٤٧) سجل الوثائق ص ١٦ يذكر حمد الجاسر الخوالدة ونسبهم الى الدحو من (البادية) من بني عمرو من حرب منازلهم تويبع شرق رابغ . حمد الجاسر ، **معجم قبائل المملكة العربية السعودية** (الرياض دار اليمامة) ص ٢١٥ .

(٤٨) انظر سليمان القوابعة ، **الطفيلة : تاريخها وجغرافيتها** ج٢ (الطفيلة ١٩٨٦) ص١١٠-١١١ . فاروق نواف السريحين ، **تاريخ مدينة الرمثا ولوائها ، دراسة تاريخية اقتصادية انثروبولوجية** . ص٢٦٠ ذكر المؤلفان عشائر الخوالدة في الطفيلة والرمثا.

(٤٩) الشيخ يونس أبو هلالة ٦٠ سنة (معان) مقابل في منزله بمعان ١-٣-١٩٨٨ .

(٥٠) سجل الوثائق ص ١٢٥ .

(٥١) سجل الوثائق ص٢ مصدر سابق ص٦ .

(٥٢) راجع سجل الوثائق ، مصدر سابق ص٢٨.

(٥٣) راجع سجل الوثائق ، ص ٣٥ .

(٥٤) المصدر نفسه ص ٣٦ .

(٥٥) مقابلة مع هارون تعسار (مدير أيتام وزارة

الاوقاف ـ اربد) في مكتبة باربد ١٠ـ٢ـ ١٩٨٨ .

(٥٦) سجل اعلامات معان ص ١٤٤ ـ ١٤٦ .

(٥٧) سجل حصر الارث ص ٥٤ .

(٥٨) سجل اعلامات معان ص ١٧٣ .

(٥٩) علي نصوح الطاهر ، **تاريخ القبائل العربية في شرق الاردن** ج١ ١٩٦٦ ، ص ٢١٨ .

(٦٠) نعوم شقير ، مصدر سابق ص ٥٨٦ .
ابن كريشان شيخ العزازمة وابن جهامة هو ترباني . وحماد يقول : حماد الصوفي . والكراشين منشرون في سيناء . وزارني في منزلي السيد عبد الرحمن حسن كريشان من صفاقس في تونس حيث أعلمني في ٢٥ـ٣ـ ١٩٨٨ أن هناك مجموعة في صفاقس من آل كريشان والجازي أيضا وانه بصدد اطلاعي على باقي المعلومات عندما تنجلي المعلومات عن هجرتهم وأسبابها .

(٦١) راجع : فؤاد حمزة ، **قلب جزيرة العرب** ، (الرياض : مكتبة النصر الحديثة ١٩٦٨) ص ٩٧ وحمد بن ابراهيم الحقيل ، **كنز الانساب ومجمع الآداب** ، ١٩٧٣ ص ٢٠٢ . وعلي نصوح الطاهر ،**جوامع النسب في قبائل العرب** (ج٢ ، ص ـ ي) . ص٥٨٠ ـ ٥٧٧.
نصوح يميز آل كريشان عن كريش والكريشان هم نصيرات من الحناجرة ويروي عارف العارف بأن النصيرات يروون بأنهم من الخزرج وانهم كانوا ثلاثة اخوة جاءوا من مكة الى ضانا وهم نصير ويسن وناصر تشاجروا مع أحد السكان فقتلوه ثم ذهبوا لكفر قدوم (نابلس) وتشتتوا بعد مشاجرة. بقي يسن في كفر قدوم وذهب ناصر لعتيل وذهب نصير الى عين الدقيق (دير البلح) وظهرت منه ذرية النصيرات .
انظر عارف العارف ، **بئر السبع وقبائلها** ، ١٩٣٤ ، ص ١٣٦ ـ ١٣٧ .

(٦٢) سجل الوثائق ص ٣٨ وفي سجل حصر الارث ص ١١٥ .

(٦٣) لقاء مع محمد الصغير كريشان (وهو من آل مرعي) ١٩٨٨/١/٢٨ م .

(٦٤) قسم الشيخ يونس الكراشين كما يلي :
١ ـ الهوارين ومنهم قاسم وولده حسين وحفيده الشيخ محمود كريشان .
٢ ـ مرعي ومنهم خليل وولده أحمد وحفيده الشيخ فارس كريشان .
٣ ـ الهلالات ومنهم هارون وأولاده حسن وحسين ومن أولاد حسن محمد ثم يونس ومن أولاد حسين علي . انظر فؤاد حمزة ، مصدر سابق ص ١٤١ .

(٦٥) الشيخ يونس أبو هلالة ـ مقابلة سابقة الذكر .

(٦٦) اشتكى الشيخ أحمد قباعة على الشيخ حسن أبو هلالة وسجن حسن في دمشق . استمر الخلاف حتى تطور لحادث قتل . أشار جورج فالن لهذه النزاعات في حديثه عن معان . بعد حادث الدم حصلت مصاهرة بين الهلالات وقباعة والهلالات هم أخوال آل الديخ من آل قباعة .

(٦٧) سجل حصر الارث ص ٦٣ .

(٦٨) المصدر نفسه ص ٤٦ ومنهم عيال الصغير .

(٦٩) سجل الوثائق ص٤٤ وص٢١ وص٣ .

(٧٠) يؤكد هذا الكلام الشيخ يونس أبو هلالة ، مقابلة شخصية الساعة ١٢ ، ١٩٨٨/٣/١ بمنزله في معان ، انظر نصوح **تاريخ القبائل** ص٢١٨ ، وانظر حمد الجاسر ، **المعجم الجغرافي** (أ ـ ض) مصدر سابق ص٥١٦ .

(٧١) انظر سجل اعلامات معان ص ١٤٩ . حصر الارث ص ٢٤ تم تغيير اسم عشيرة عيال عوض باسم عشيرة أبو درويش بتاريخ ١٩٦٣/٦/٢٦ ، انظر الجريدة الرسمية عدد ١٧٠١ تاريخ ١٩٦٣/٧/٢٥ .

(٧٢) نصوح ، **تاريخ القبائل** ، ص٢١٨ ـ سجل الوثائق الشرعية في قضاء معان ١٣١٦ ص١٠، ١٠٧ . يشير السجل للحاج خليل موسى الحاج صلاح وحامد داود يوسف صلاح .

(٧٣) سجل اعلامات معان ص ١٤٩ و ١٥١ .

(٧٤) سجل الوثائق الشرعية ص ١٤٤ .

(٧٥) يونس أبو هلالة ـ مقابلة سابقة الذكر .

(٧٦) سجل الوثائق الشرعية ص٢٦ (كان يذكر في

توقيعه علاء الدين المحتسب ــ خليلي ــ).
(٧٧) انظر الوثيقة المرفقة .
(٧٨) سجل الوثائق الشرعية ص ٢١ .
(٧٩) المصدر نفسه ص ٣ .
(٨٠) سجل الوثائق ص ٢٧ .
(٨١) (اسم العقايلة) يتردد بين عشائر المملكة العربية السعودية وفي كتاب حمود بن ضاوي القثامي ، **شمال الحجاز ج٢** ، معجم المواضع والقبائل والحكومات (جدة : دار البيسان العربي ١٩٨٥) ص٢٢٤ ــ ٢٢٦ . تتردد عشائر العقايلة في قبيلة عتيبة على هذا النحو :
أ ــ مع الجبرة من برقا من عتيبة (يتردد الاسم مع عشائر أخرى منها الدهسة والدوانية والخماش والقتمة والغشاشمة.
ب ــ مع العمرية من العصمة من عتيبة (مع الركيبات ، النباعين ، الحسنات ... الخ).
(٨٢) نصوح ، حوار مع النسب (من ص ــ ي)ص ٩٢ .
(٨٣) المصدر نفسه ص ٣٢٠ .
(٨٤) سجل الوثائق ورد في كتاب ذكر عشيرة العقايلة واضحا .
(٨٥) المصدر نفسه ص ٣٥ .
(٨٦) سجل الاعلامات الشرعية ١٩٢٩ ــ ١٩٣٠ معان ص ٨٦ .
(٨٧) المصدر نفسه .
(٨٨) القرامصة (بالصاد) انظر سجل الوثائق الشرعية في قضاء معان ١٣١٦ ص ٧٣ حيث يذكر (عبد الدايم ابن أحمد بن عبد الدايم القرمصي) يذكر نصوح القرامصة: القرامسة (بالسين)الارجح أن القرامصة بالصاد .
انظر نصوح ، تاريخ قبائل ، مصدر سابق ص ٢١٧ ويورد موزيل عيال الشليخ ضمن القرامسة .
عنزة من القبائل العدنانية ومنها ولد سليمان منازلهم شمال الحجاز غرب نجد بين شيماء وخيبر وبيضاء نشيل وأميرهم المواجي وهم ينقسمون لقسمين : الجمافرة ــ السليمانية ومن عزة الحناتش (حنتوش) من جماعة ابن مهيد . انظر سمير القطب ، **انساب العرب** (بيروت : مكتبة الجامعة) ص ٢٢١ ــ ٢٢٢.
(٨٩) مقابلة مع الشيخ حسن النسعة في منزله ١٢/١١/١٩٨٧ (الساعة ١٥ر١٢ ظهرا) .
(٩٠) نصوح ، **تاريخ القبائل العربية** ، مصدر سابق ص ٢١٨ ــ ٢١٩ .
(٩١) نصوح ، **جوامع النسب** ، مصدر سابق ص ٢١٠ . مقابلة مع الشيخ يونس أبو هلالة سابقة الذكر .
(٩٢) سجل حصر الارث ص ٧٥ ، سجل الاعلامات الشرعية ص ٨٦ .
(٩٣) مقابلة مع السيد أحمد محمد عوض الله (٦٤ عاما) يتحدث عن هجرة جماعته بعد شق قناة السويس وهذا يتناسب مع حديث داوتي . هناك هجرة الى طفس جنوب سورية وهجرة الى درعا من جماعة الخوالدة . المقابلة في ١٠/٢/١٩٨٨ م وفي اليوم نفسه مقابلة مع السيد هارون نصار الخوالدة أيضا .
(٩٤) سجل حصر الارث ١/٦/١٩٣٧ .
(٩٥) سجل الوثائق الشرعية في قضاء معان ص١٥ والادق شختورة ولا يعرف سبب اللقب .
(٩٦) سجل الوثائق ــ ص ٢٦ .
(٩٧) المصدر نفسه ــ ص٦٦ .
(٩٨) نصوح ، **تاريخ قبائل** ، ص ٢١٧ .
(٩٩) يونس أبو هلالة ، مقابلة سابقة ، حضر المقابلة الشيخ أحمد بريفيث .
(١٠٠) ذكرهم د. عبد الكريم رافق في كتابه : **غزة ، دراسة عمرانية واجتماعية واقتصادية من خلال الوثائق الشرعية ١٢٧٣ ــ ١٢٧٧ هـ / ١٨٥٧ ــ ١٨٦٠م** .
(بحث أعد للمؤتمر الدولي الثالث لتاريخ بلاد الشام فلسطين ، ١٩ ــ ٢٤ نيسان ١٩٨٠) . » وقدرت ثروة سالم الطحان ب ١٧٠٦ قرشا .. الخ » ، ص ٦٤ .
(١٠١) علي نصوح الطاهر ، **جوامع النسب** ص٥٠٩.
(١٠٢) حمد الجاسر ، **معجم قبائل المملكة العربية السعودية** (الرياض ، دار اليمامة ص١٦٥).

(١٠٣) احسان النمر ، **تاريخ جبل نابلس والبلقاء،** ج١ ط٢ (نابلس ١٩٧٥) ص٨٦ .
احسان النمر ، **تاريخ جبل نابلس والبلقاء ،** ج٢ أحوال عهد الاقطاع (نابلس ، ١٩٦١) ص ٢٠ .

(١٠٤) الشيخ حسن النسعة ، مقابلة في منزله الساعة ٢ ظهرا يوم ١٩٨٧/١١/١٢م .

(١٠٥) احسان النمر ، **جبل نابلس والبلقاء ،** (دمشق : مطبعة ابن زيدون ١٩٣٨) ص ٦٧ — ٧٦ يتحدث عن الفترة التي عم فيها الاضطراب حتى مات رضوان أمير الركب الشامي عام ١٠٦٦ هـ . رضوان جاء ليخلف الامير بهرام الفقاري في هذه الفترة التي مات فيها رضوان عم الاعراب فثارت نابلس وطردت المماليك في هذه الظروف خروج (عبد الله النمر) .

(١٠٦) W allin , op. Cil , pp. 125 - 126.

(١٠٧) علي نصوح ، **حوار مع النسب ،** ص ٦٥١ . سجل الطلاق ص ١٨٢ — من أقاربهم آل مهايني في دمشق .

(١٠٨) عبد الرحمن الانصاري ، تحفة المحبين والاصحاب في معرفة ما للمدنيين من الانساب (تحقيق محمد العروس المطوي) ، تونس نهج جامع الزيتونة ، المكتبة العتيقة ، ١٩٧٠ ص ١٤٣ .

(١٠٩) انظر عبد الرحمن بن حمد بن زيد المغيري ، **المنتخب في ذكر نسب قبائل العرب ،** ط٢ (بيروت : الكتب الاسلامي للطباعة والنشر ١٩٦٥) ص ١٣٩ ومن طي آل عبده من المحاميد . سجل الوثائق ص ١٦٣ .

(١١٠) سجل الوثائق ص ١٤ ، وبشار اليهم بخفيمان ، انظر سجل اعلامات معان ص ١٤٣ .

(١١١) علي نصوح ، مصدر سابق ، **جوامع النسب** ص ٦٥١ سجل الطلاق ص ١٨٢ .

(١١٢) المهندس محمد عطية حسين المعاني من أبناء مدينة معان .

(١١٣) سجل الوثائق ص ١٦٣ .

(١١٤) سجل الوثائق ص٦ .

(١١٥) القلقشندي ، أبو العباس احمد بن علي . قلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان (بيروت ، دار الكتاب اللبناني ١٩٨٢) ص ٨٤ — ٨٥ .
تردد ذكر الحيانة كقلعة شمال مدينه حائل انظر : حمد الجاسر ، **المعجم الجغرافي للبلاد العربية شمال امارات حائل والجوف وتبوك وعرعر والقريات .** (الرياض ، دار اليمامة ١٩٧٧) ص ٤٧٧ .

(١١٦) الشيخ يونس أبو هلال ، مقابلة سابقه الذكر .

(١١٧) سجل الوثائق ص١٦٤ ، سجل حصر الارث ص ٣٥ .

(١١٨) انظر الزركلي ، مصدر سابق ص١٠٢ . الجاسر ، **معجم القبائل** ص ٢٥٢ .

(١١٩) حسن النسعة ، مقابلة سابقة .

(١٢٠) قد يكون أفراد هذه العشائر جاءوا مع هجرة قبيلة عنزة شمالا في القرن السابع عشر ميلادي بعد اندثار قبيلة الموالي وهذه الرواية تحتاج الى أسانيد .

علم التاريخ عند المسلمين وتطوره

في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي)

د. محمد رجائي ريان
جامعة اليرموك

مقدمـة :

مما لا شك فيه أن القرن الثالث الهجري يعتبر خاتمة طور خاص بالنسبة لعلم التاريخ عند المسلمين ، وفي أواخره بلغ هذا العلم سن الرشد ، وخير من يمثله من المؤرخين الطبري (ت ٣١٠ هـ /٩٢٢م) ، ففي كتابه « تاريخ الرسل والملوك » بلغ التدوين التاريخي ذروته ، واعتمد المؤرخون عليه ، مثل مسكويه وابن الاثير وابن خلدون والذهبي .

ومن الملاحظ أن الجزء الاخير من تاريخ الطبري ينم عن ضعف في المادة وينذر بأن أساليب المحدثين لم تعد كافية وحدها لكتابة التاريخ في الاسلام ، بعد أن تعقدت النظم الحكومية واصبح الكتاب ورجال البلاط والمتصلون برجال الحكم خير مصدر لكثير من الاخبار ، وهذا ما برز بوضوح في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) .

يعد القرن الرابع الهجري من الناحية السياسية بداية عصر الاضمحلال النهائي للخلافة لكنه ، من ناحية اخرى ، عصر ازدهار الحضارة العربية الاسلامية، أو النهضة الاسلامية كما سماه ، متز (Metz)(١) . فمن الناحية السياسية ، أصبحت خارطة الارض الاسلامية في القرن الرابع الهجري تضم مجموعة كبيرة من الدول الصغيرة ، وتضعضعت التبعية لمركز الدولة في بغداد بدخول عناصر بشرية جديدة في جسم الدولة الاسلامية ، فضعفت الخلافة وتدهورت سلطة الخلفاء(٢) ، واخذت الدول الاسلامية تبرز في ظل ضعف هذه الخلافة . فدولة بني بويه سيطرت على العراق وفارس والري وهمذان وأصفهان ، وعلى بغداد نفسها في عهد معز الدولة البويهي (٣٠٣هـ/٩١٥م ـ ٣٥٦هـ / ٩٦٧م)(٣) ، وسيطر الحمدانيون على الموصل ثم حلب وبرز سيف الدولة الحمداني (٣٣٣هـ/٩٤٤م ـ ٩٦٧/٣٥٦م) بعد أن تدهورت الدولة الاخشيدية في مصر ، كما ظهرت عدة دول في المشرق الاسلامي أهمها الدولة السامانية (٢٦١هـ/ ٨٧٤م ـ ٣٨٩هـ/٩٩٩م) ، والدولة الغزنوية (٣٥١هـ/٩٦٢م ـ ٥٨٢هـ/١١٨٦م)(٤)

في الغرب سادت الدولة الاموية في الاندلس ، خاصة في عهد عبد الرحمن الثالث الناصر (٣٠٠هـ/٩١٢م–٣٥٠هـ/٩٦١م)،ودولة الآدارسة ، في أقصى الغرب الاسلامي. ثم برز الفاطميون في المهدية بتونس وتوسعوا نحو الغرب والشرق وأزاحوا الاخشيديين وضموا مصر (٣٥٨هـ/٩٦٩م) في عهد معز الدولة (٣٤١هـ/٩٥٢م – ٩٧٥/٣٦٥)(٥).

وبذلك فقدت الوحدة السياسية الاسلامية وأصبح للمسلمين في وقت من الاوقات ثلاثة خلفاء ، عباسي في بغداد ، وفاطمي في مصر ، وأموي في الاندلس ، وكان ذلك احدى السمات الرئيسة للقرن الرابع الهجري(٦) .

تأثر المؤرخون المسلمون بهذا التمزق ، وأصبح المؤرخ محدودا بافق الكيان السياسي الذي يعيش فيه ، وندر منهم من تمكن من تناول أحداث الاقاليم القاصية. كما أثر هذا التمزق في حياة المؤرخ الفكرية ، وترك بصماته على التاريخ عند المسلمين(٧) .

ومن ناحية اخرى كان علم التاريخ عند المسلمين ، ومنذ مطلع القرن الرابع الهجري ، قد بدأ مسيرته العلمية المستقلة مسجلاً طوراً خاصا في تلك المسيرة الحضارية ومتأثرا دون شك بنمو العلوم الاخرى. ففي هذا القرن تطورت المادة التاريخية وتأثرت بالنمو الحضاري وبحاجات السياسة والادارة ، واهتم الناس بالتدوين التاريخي وأصبحوا يقبلون عليه كجزء من تلك الفعالية الواسعة التي شملت جميع نواحي الحياة وجميع فروع المعارف ، وأصبح معظم المؤرخين يتجهون الى الكتابة التاريخية لتوفرهم على الدراسة ، ولم يكونوا يؤلفون تبعا لأمر القائمين بالحكم ، اذ لم يكن هناك مؤرخون رسميون متصلون بالخلفاء والامراء الا فيما ندر ، وذلك على الرغم من أن عددا من المؤرخين كانوا على صلة وثيقة بالحكومة ، ومن بينهم الوزراء والكتاب والقضاة(٨) .

وللاحاطة بعلم التاريخ عند المسلمين في القرن الرابع الهجري والتطور الذي حصل فيه يتحتم علينا التعرض لمؤرخيه من حيث أصولهم وتكوينهم العلمي واهتماماتهم الفكرية ، ومادته ، ومناهجه .

المؤرخـــون :

المفهوم القديم للتاريخ هو تسجيل اخبار الاحداث والناس ، ولذلك كان دوما بالضرورة على صلة بالاحداث السياسية واخبار الرجال ، تأثر بها أكثر من اي علم آخر . يقول ابن خلدون : « التاريخ أخبار عن الايام والدول والسوابق من القرن الاول ، وكذلك الانبياء في سيرهم ، والملوك في دولهم وسياستهم »(٩) ويقول الحافظ جلال الدين السيوطي ان موضوع التاريخ « أحوال الاشخاص الماضية ومنهم الملوك والسلاطين »(١٠) .

كان علم التاريخ عند المسلمين ، أول الامر وخلال القرون الثلاثة الهجرية الاولى في خدمة الدين . لأن البواعث الرئيسة التي شجعت المسلمين على العناية بتدوين التاريخ ، الرغبة في تزويد الخلف بتراث الاسلام ، والحماسة لاثبات صلة النسب بالرسول (عليه السلام) ثم الحرص على تمجيد الفتوح الاسلامية . لذلك اتصل التاريخ السياسي بالتاريخ الديني ولم يعن بالتاريخ الاجتماعي والاقتصادي . وتأثر المؤرخون بالظروف السياسية في القرون الهجرية الاولى . والطبري خير من يمثل المؤرخين في تلك المرحلة . فاقتصر التأريخ على رجال علوم الدين بشكل كبير أو اللغة على قلة .

ولكن منذ القرن الرابع الهجري أسهم في تدوين التاريخ مجموعات متنوعة من العلماء ضمت عمال الدواوين والكتاب ورجال البلاط والوزراء الذين أصبح لهم نتيجة لتطور النظام السياسي الاسلامي ، شأن خاص ، فاطلعوا على دخائل الاحداث ، فأصبح تدوين التاريخ السياسي في الغالب مهمة هؤلاء الموظفين والمقربين من البلاط . لهذا استبعد المفهوم الديني ، الى حد ما . وجنح التاريخ الحولي الى تركيز الاهتمام المتزايد بأعمال الحاكم والحاشية(١١) .

ومن الامثلة على هؤلاء المؤرخين الذين أعطوا القرن الرابع الهجري هذه الميزة في التحول في علم التاريخ عند المسلمين: **الصابيء ، أبو اسحق ابراهيم بن هلال بن زهرون** (ت ٣٨٤هـ/٩٩٤م) . من الصابئة(١٢) ، كان أبوه هلال طبيبا ماهرا في خدمة توزون. وشب ابراهيم على دراسة العلوم التي سبقه عليها أفراد من أسرته كانوا جميعا مهرة في الطب والفلك والرياضيات .

أصبح الصابيء كاتبا في ديوان الانشاء ، بارزا فيه ، ثم عينه معز الدولة البويهي كبيرا للكتاب في ديوان الانشاء عام ٣٤٩هـ/٩٦٠م ، واحتفظ بمنصبه في ديوان الوزارة في عهد ولده عز الدولة ، وعندما قدم عضد الدولة ثم عز الدولة الى بغداد عام ٣٦٤هـ/٩٧٤م ، كان من مهام ابراهيم تحرير اتفاق ودي يحدد مركز كل منهما ، لكن حدث أن سجن الصابيء عندما توفي عز الدولة(١٣) .

عرف عن الصابيء انه الف كتاب « **التاجي** » نسبة الى لقب عضد الدولة « تاج الملة »(١٤) . ويذكر مارجليوث **Margoliouth** انه توجد شذرات منه حفظت عند العتبي (ت ٤٢٧هـ/١٠٣٥م) في كتابه «اليميني» في تاريخ سبكتكين ومحمود الغزنوي، وعند الثعالبي (ت٤٢٩هـ/١٠٣٧م) في كتابه «يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر»(١٥)، كذلك نقل مسكويه في كتابه « تجارب الامم » كثيرا مما جاء في هذا الكتاب(١٦) .

والحقيقة ، يمكن اعتبار كتاب التاجي من أمثلة كتب التاريخ ذات الطابع

الحكومي ، على أساس أن الصابيء كان وزيرا ، وعلى صلة وثيقة بالحكومة ، على الرغم من أنه لم يكن راضيا عن ذلك بدليل ما قاله عندما دخل عليه صديق فسأله عما يفعل فقال « أباطيل أنمقها وأكاذيب ألفقها »(١٧) ، ويؤكد مارجليوث أن الصابيء وصف تاريخه هذا بأنه حزمة من الاكاذيب ، ولذلك تعرض لأنتقام عضد الدولة فاعتقله(١٨).

ومما يجدر ذكره أن أحد الباحثين(١٩) ، وجد قطعة صغيرة من التاجي مصورة في معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية ، وقد جاء في مقدمتها : « هذا ما انتزع من الكتاب المعروف بالتاجي في اخبار الدولة الديلمية الذي ألفه ابو اسحق ابراهيم بن هلال الكاتب الصابيء » ثم يذكر محقق المخطوطة أنه أضيف اليه بعض الاخبار من بعد عصر أبي هلال تتضمن الكلام على أئمة الزيدية فيطبرستان واليمن حتى القرن السادس الهجري تقريبا(٢٠) .

وتعتمد شهرة الصابيء أيضا علىالرسائل أي الخطابات الرسمية ، التي وردت نماذج كثيرة منها في « يتيمة الدهر » للثعالبي و « ارشاد الاديب » لياقوت (ت٦٢٦هـ/١٢٢٩م) و « صبح الاعشى » للقلقشندي (ت٨٢١هـ/١٤١٨م) ، وهي على جانب عظيم من الاهمية التاريخية ، تكمل معلوماتنا عن عهد ضعف الدولة(٢١) .

ويلاحظ المتتبع لأسلوبه الاثر الفارسي في كتاباته بابهامه واطنابه ، الا انه خلو من السجع ، واضح رائق اذا ما قورن بالنماذج المتأخرة من الكتابات التاريخية(٢٢)، كذلك وحسب رأي مارجليوث ، يظهر في أسلوبه الفن الادبي(٢٣) .

المسبحي ، عز الملك محمد بن عبد الله بن احمد (ت ٤٢٠هـ/١٠٢٩م) ويلقب بالامير المختار والمعروف **بالمسبحي الكاتب** ، الحراني الاصل المصري المولد . كان على زي الاجناد ، ثم تولى ديوان الترتيب واتصل بخدمة الحاكم بأمر الله ، وكان اتصاله به سنة ٣٩٨هـ/١٠٠٧م(٢٤) ، تلقى ثقافة أدبية علمية واسعة متعددة الجوانب وسمع الحديث في سنة ٣٨٠هـ/٩٩٠م ، على الحافظ عبد الغني بن سعيد الازدي ، احد ائمة الحديث ، عندما جلس بالجامع العتيق بمصر(٢٥) .

للمسبحي مصنفات كثيرة ، بلغت نحو الثلاثين ، وهذا التراث الضخم لا نكاد نظفر منه في عصرنا بأثر تام او فصل تام . وقد اشتهر بالاخص بتاريخه الكبير « **أخبار مصر** » (٢٦) ، وهو يؤرخ للخمسين سنة الاولى من خلافة الفاطميين ، ويقع في نحو أربعين مجلدا يوجد منها مجلد واحد وهو الجزء الاربعون(٢٧) .

تدور حوادث الجزء الاكبر من الجزء الاربعين في مدينة الفسطاط حيث كان يقيم المسبحي وحيث اعتنى بتسجيل الحياة اليومية . فنجده يقول « في يوم السبت لعشر

بقي فيه جلس أمير المؤمنين عليه السلام في مصر في قاع الذهب(٢٨)، بعد أن زين وبسط وعلقت فيه الستائر الديباج والستور المذهبة الحسان »(٢٩) .

وفي مكان آخر يقول « وفي يوم الاحد لليلة بقيت من صفر اخذ رجل يتصوف وقد قطع طرف سرج فضة لأحد الاتراك بمصر ، فقبض عليه سامي الدولة ابن كافي واحضره الشرطة وقرره ، فأقر انه لم يقطع من عمره غير طرفين احدهما حديد والآخر فضة وزنه خمسة دراهم »(٣٠) .

كذلك لم يقصر كتابه على الاحداث السياسية ، كعادة أقرانه من المؤرخين في ذلك العصر . بل اهتم بتسجيل جوانب الحياة كافة في عصره : الاجتماعية والاقتصادية والادبية ، وهذا يجعل لكتابه اهمية خاصة ومميزة على معاصرية وساعده على ذلك صياغته لتاريخه في صورة يوميات أتاحت له الحديث عن طرائف الناس وحرفهم وطباعهم ، والتسامح الديني الذي تمتع به المسيحيون . ويشير أيضا الى الازمات الاقتصادية التي تعرض لها المصريون بسبب عدم توافر الغلات ، وهي معلومات هامة لا نجد لها مثيلا في المصادر الاخرى ، ومن الامثلة على ذلك قوله « في يوم الجمعة لثلاث عشرة ليلة خلت منه اشتد امر الغلاء والقحط بمصر وبيع الخبز السميد رطلين بدرهم وربع والخبز الخشكار رطلين بدرهم »(٣١) .

ولم يجعل المسبحي من كتابه تاريخا محليا ، بل ذكر في مواضع متفرقة من هذا الجزء الاربعين وفق ما يقتضيه نظام التأليف الحولي ، طبيعة علاقة مصر بجيرانها وخاصة الشام والحجاز(٣٢). كذلك فان هذا الجزء من أخبار مصر قدم معلومات وافرة عن أحوال الدولة الفاطمية تنوه بقيمة كتاب المسبحي ، وتجعل منه مستقى خصبا لمؤرخي مصر الاسلامية حتى عصر متأخر جدا ، وصورة واضحة لعلاقة مصر بجيرانها.

وأهم هؤلاء المؤرخين، **مسكويه، أبو علي ،أحمد بن محمد بن يعقوب** (ت٤٢١هـ/١٠٣٠م) المؤرخ والفيلسوف ، كاتب سر المهلبي أبو محمد الحسن وزير معز الدولة البويهي ، أصبح بعد ذلك حظيا لابن العميد وابنه أبي الفتح اللذين وزرا لعضد الدولة (٣٣٨هـ/٩٤٩م – ٣٧٣/٩٨٣م) وصمصام الدولة (٣٧٢هـ/٩٨٢م – ٣٧٦هـ/٩٨٦م) البويهيين(٣٣) . فعاش في قصور الامراء والوزراء ،وخاصة بلاط عضد الدولة ، وتسلم مناصب متعددة ، منها أنه أصبح خازنا للكتب عند الوزير المهلبي ، ثم قيما على خزانة كتب ابن العميد(٣٤) . ويذكر القفطي انه كان أيضا كاتبا وخازنا للكتب عند عضد الدولة فسمي بالخازن(٣٥) .

نشر كتابه ((**تجارب الامم**)) ، اميدروز Amedroz في ثلاثة أجزاء ، الاول ويحتوي على حوادث خمس وثلاثين سنة من ٢٩٥هـ/٩٠٧م الى ٣٢٩هـ/٩٤٠م ويبدأ

بخلافة المتقي بالله ، والثاني ويحتوي على حوادث أربعين سنة من ٣٥٩هـ/٩٦٩م الى ٣٦٩هـ/٩٧٩م ، ويبدأ بخلافة المقتدر بالله ، والجزء الثالث ويحتوي على حوادث خمس وعشرين سنة من ٣٦٩هـ/٩٧٩م الى ٣٩٣هـ/١٠٠٢م ، وهو ذيل لكتاب تجارب الامم للوزير أبي شجاع محمد بن الحسن الملقب ظهير الدين الروذ راوري، من ٣٦٩هـ/٩٧٩م الى ٣٨٩هـ/٩٩٨م ، وتليه قطعة من تاريخ هلال الصابي الكاتب الى سنة ٣٩٣هـ/١٠٠٢م(٣٦) .

يعتبر مارجليوث أن الكتابة التاريخية بلغت عند مسكويه ، بالنسبة للمؤرخين المسلمين ، ذروتها في هذا الكتاب(٢٧) . اما بارنز فقد أشار الى أن مسكويه تميز في هذا الكتاب بالبصيرة التاريخية أو الحس التاريخي ، بالرغم من تأكيده بأنه لم يصل الى مستوى ابن خلدون في فلسفة التاريخ(٣٨) .

يتصف مسكويه في « تجارب الامم » كمؤرخ ، بصدق الاحكام والبعد عن الهوى والصراحة حتى فيما يقوله عن أعظم حكام المسلمين ، فهو لم يتزلف الى هؤلاء الحكام ولم يحابهم ، بل ذكر ما انتبه اليه من نقائص بعضهم ، وقد أعجب مارجليوث بموقفه هذا ، اذ لم يجد اثرا للتحيز في كتابه حيث روى أخبار مؤسسي دولة البويهيين دون أية محاولة لاخفاء جرائمهم ، ووصمهم باتهام فظيع في حالة معز الدولة ، وجعل من أبي الهيجاء ما يشبه البطل وهو من بني حمدان الذين كانوا على عداء دائم للبويهيين(٣٩) .

كذلك اعتبر كتاب « تجارب الامم » مصدرا جديرا بالثقة في أغلب الاحيان ، لأن مسكويه اعتمد فيه على الطبري الى درجة كبيرة في الحوادث التي لم يدركها ، ثم جمع باقي المعلومات من مصادرها ، لأنه كان على اتصال بتلك الشخصيات التي صحبت الاحداث ، ونتيجة لمناصبه التي تقلدها في البلاط البويهي كان أيضا على اطلاع على اساليب الحرب والادارة . وتعليقاته على المسائل الحربية ، مثل أسباب سقوط المهلبي وأخطاء بختيار في حربه مع عضد الدولة أكبر دليل على ذلك ؛ هذا في الوقت الذي اظهر أيضا عجز سيف الدولة ولم يخف هزيمته أحيانا مع البيزنطيين ، مع أن سيف الدولة كان يعتبر بطلا دينيا كبيرا يشاد به في حروبه مع البيزنطيين(٤١) . ويمكن القول ان مسكويه في كتابه قد جعل من التدابير السياسية لب التاريخ ، وأهل السياسة هم المعنيون بالتاريخ في المكان الاول .

ويظهر في القرن الرابع الهجري عدد من المؤرخين كانوا أصحاب مهن حرة أو قاموا بأعمال مهنية صغيرة . مثالنا على النوع الاول المؤرخ **سعيد بن البطريق** وهو الاسم العربي **ليوتخيوس** (Eutychius) بطريق الاسكندرية سنة (٣٢١هـ/٩٣٣م-٣٢٨هـ/٩٣٩م) . ولد سعيد في الفسطاط عام (٢٦٣هـ/٨٧٦م)(٤٢) . وكان في الاصل طبيبا نصرانيا له دراية بعلوم النصارى ومذاهبهم ، وله كتاب في الطب(٤٣) . كذلك له كتاب

« **التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق** » ، وهو تاريخ طويل مكتوب بالعربية ، بدأ فيه المؤلف من عهد آدم حتى سني الهجرة على طريقة التاريخ الحولي . والكتاب يتضمن عرضا لتواريخ ما قبل الاسلام من وجهة نظر المؤلف المسيحية ، مثل بني اسرائيل والاغريق والرومان والنصارى والروم والفرس ، وينعكس اهتمامه بالمسائل الدينية في مناقشته للمانوية والنساطرة واشاراته الى الاحداث الهامة في تاريخ الكنيسة(٤٤) ، ويذكر روزنثال أن كتاب سعيد بن البطريق يستند بعضه الى المصادر الاسلامية ، غير أنه يستمد معلوماته الهامة من المصادر البيزنطية(٤٥) .

وقد أكمل يحيى بن سعيد الانطاكي (ت ٤٥٨هـ/١٠٦٥م) كتاب ابن البطريق بعد أن مضى ما يقرب من قرن على تأليفه ووضع له عنوان « صلة كتاب سعيد بن البطريق » واتبع فيه منهجه التاريخي ، ويبدو من كتابته أكثر وعيا من سعيد بن البطريق في تفهم التاريخ العام العالمي ، وقد نشره الاب لويس شيخو في بيروت عام ١٩٠٩(٤٦) . ويذكر علي ابراهيم حسن أن الكتاب الذي أخرجه يحيى بن سعيد الانطاكي سماه « تاريخ يحيى بن سعيد الانطاكي » وهذا الكتاب هو ذيل لكتاب آخر لسعيد بن البطريق « نظم الجوهر » ، جمع فيه يحيى بطاركة الاسكندرية وبيت المقدس وأنطاكية والقسطنطينية والخلفاء والملوك والسلاطين وسيرهم ، من ٣٢٦هـ/٩٣٧م الى ٤٥هـ/١٠٥٣م(٤٧) .

وعلى النوع الثاني نأخذ **ابن النديم محمد بن اسحق الوراق البغدادي**(ت٤٣٨هـ/١٠٤٦م) في كتابه « الفهرست » وهو ابن تاجر كتب في بغداد ، صحب أباه في شؤون تتعلق بتجارة الكتب فزار الموصل مرارا(٤٨) . وفي عام ٣٧٧هـ/٩٨٧م فكر ابن النديم في وضع مصنف من أجل الوراقين ومحبي الكتب واتخذ له غاية معينة ذكرها في مقدمته فقال : « هذا فهرست كتب جميع الامم من العرب والعجم الموجود منها بلغة العرب وعلمها في أصناف العلوم وأخبار مصنفيها وطبقات مؤلفيها وأنسابهم وتاريخ مواليدهم ومبلغ أعمارهم وأوقات وفاتهم وأماكن بلدانهم ومناقبهم ومثالبهم منذ ابتداء كل علم اخترع الى عصرنا هذا وهو سنة ٣٧٧ للهجرة »(٤٩) . وبذلك يعطينا ابن النديم مفهوما للثقافة العربية الاسلامية بأنها تشتمل على كل العلوم والفنون التي ظهرت مكتوبة باللغة العربية سواء كان ذلك عن طريق النقل أم التأليف .

وبعد المقدمة ينتقل ابن النديم الى تصنيف هذه العلوم التي تجمعت عنده معلومات عنها فيجعلها في عشر مقالات ، ثم تفرع كل مقالة الى فنون يختلف عددها حسب سعة المجال الثقافي الذي يتناوله في المقالة(٥٠) ، والحقيقة فقد أحاط بما كتب في هذه الفنون والتي شملت الثقافة العربية الاسلامية في القرون الاربعة الاولى للهجرة . واذا كان ابن النديم قد أغفل بعض الفنون ، فهو لم ينس أن يذكرها من خلال عرض

التراجم ، فخلال بحثه في مقالته الثانية في النحو واللغة مثلا ، نرى اشارات لبدايات بعض العلوم كالجغرافية والنبات والحيوان ، ارتبطت بمحاولات جمع اللغة العربية ، وأسورا شبيهة بذلك في المقالات الاخرى(٥١) . كذلك فان ما خلفه لنا من تراجم الاشخاص تزر يسير اذ انه لم يلق بالا الى المؤلفين بقدر ما حصر اهتمامه في مصنفاتهم، وهو المجال الذي برزت فيه مقدرته بحق ، فلم يكن ابن النديم من أصحاب السير بل من جامعي أسماء المصنفات في فروع العلوم المختلفة(٥٢) .

وحقيقة الامر أن صاحب الفهرست كان على احاطة تامة بفروع العلوم المختلفة ، فهو يقدم لكل من مقالاته بلمحة عن نشوء العلم وأقسامه وفنونه ، لذلك يمكن القول « بأن هذا الكتاب سيبقى على الدوام المصدر الرئيسي لمعرفة الادب والعلم في القرون الاربعة الاولى للاسلام »(٥٣) .

واستكمالا لهذا الجانب من موضوع مؤرخي القرن الرابع ، فقد أصبح التاريخ عند بعض العلماء في هذا القرن هو نشاطهم الفكري الوحيد ، وبحثهم منصب على المواضيع الفكرية مثل **ابن زولاق الحسن بن ابراهيم بن الحسين**(ت٣٨٧هـ/٩٩٧م)(٥٤). وهو مؤرخ مصري ، عاش في مصر في زمن شهد فترات متعاقبة من الاضطراب وتحول السلطان ، فغلب عليها بنو الاخشيد حينا بعد أفول الدولة الطولونية ، ثم افتتحها الفاطميون وبنوا القاهرة واتخذوها مركزا لخلافتهم ودعوتهم ، وقد شهد ابن زولاق هذا الانقلاب فجعله موضعا لمباحثه ودراساته التاريخية ، وقد ساعده على هذا أيضا انه نشأ في معهد العلم والدرس ، فكان جده الحسن بن علي من مشاهير العلماء ،وكان من أسرته أيضا محمد بن زولاق أحد أقطاب العربية في عصره ، ودرس الفقه على أبي بكر بن الحداد والرواية التاريخية على أبي عمر الكندي (ت ٣٥٠هـ/٩٦١م) وهو مؤرخ مصري أيضا(٥٥) . اختار ابن زولاق أن يكون مؤرخ المرحلة التي شهدها من تاريخ مصر الاسلامية ،فاستحق أن يطلق عليه كراتشكوفسكي مؤرخ العهد الفاطمي(٥٦).

لم يصلنا كاملا من آثاره غير رسالة أدبية في أخبار سيبويه المصري لا علاقة لها بمجهوده التاريخي . على أننا تلقينا مع ذلك على يد بعض المؤرخين المتأخرين قطعا وشذورا كثيرة من آثاره التاريخية منها ما لا يقل كثيرا عن الاصل وفيها ما يكفي للاحاطة بمجهود ابن زولاق التاريخي(٥٧) . ويمكن تقسيم هذا المجهود الى قسمين ، أحدهما يتناول مصر بشكل عام ، والآخر يتعلق بتاريخ مصر بشكل خاص .

والقسم العام يشمل كتبا ثلاثة وهي : كتاب « **خطط مصر** » و « **تاريخ مصر** » وكتاب « **فضائل مصر** »(٥٨). والاخير مخطوطة موجودة بالمكتبة الاهلية بباريس تحت رقم ١٨١٧ ، استقصى فيه مؤلفه خطط الفسطاط والعسكر والقطائع ، وهو أول

مؤرخ لخطط القاهرة المصرية ، شهد قيامها قبل وفاته بنحو ثلاثين سنة . وانتهى هذا الكتاب بسنة ٣٨٦هـ/٩٩٦م . وقد أكمل هذه المخطوطة أحد الاتراك ابتداء من سنة ٣٨٧هـ/٩٩٧م وما تلاها من السنين ، ويظهر انه أدخل على الكتاب الذي وضعه ابن زولاق معلومات استقاها من المؤرخين المتأخرين أمثال القضاعي وابي الفرج وابن الجوزي والذهبي(٥٩) .

أما « **تاريخ مصر** » فتوجد منه رسالة مخطوطة في جوتا تنسب الى ابن زولاق تتناول تاريخ مصر حتى ٤٩هـ/٦٦٩م ، وقد عني المستشرق جوتهيل ببحث هذه الرسالة وتحليلها(٦٠) .

أما كتاب « **خطط مصر** » ، الذي يذكره ابن خلكان ، فقد تناول فيه ابن زولاق قيام الفسطاط وتوزيع مناطقها بين القبائل وانشاء معاهدها الاولى ، كما تناول خطط العسكر ثم خطط القطائع ، وقد ذكر هذه الخطط بالاضافة الى ابن خلكان ياقوت الحموي (ت ٦٢٦هـ/١٢٢٨م)(٦١).

أما القسم الخاص من تراث ابن زولاق ، فقد انتهى الينا منه قسم لا بأس به على يد المتأخرين ، مثل سيرة الاخشيد ، وسيرة المعز لدين الله ، وهي حلقات متصلة في أخبار العصر الذي عاش فيه ابن زولاق ، وسيرة الاخشيد محمد بن طغج كتبها ابن زولاق بطلب من ابن الاخشيد أبي الحسن علي بن الاخشيد(٦٢) . وأمدنا في الوقت نفسه بمعلومات صحيحة عن تاريخ الصدر الاول من قيام الفاطميين الى سنة ٣٨٦هـ/٩٩٦م ، وقد نقل معظم هذه السيرة في كتاب « المغرب في حلى المغرب » لابن سعيد الاندلسي المتوفي بدمشق ٦٧٣هـ/١٢٧٥م ، والذي خصت مصر فيه بقسم في منتهى الاهمية يقوم معظمه على النقل من المؤرخين المصريين انفسهم وقد تناول الجزء الرابع منه تاريخ دولة بني الاخشيد وسمي كتاب « العيون الدعج في حلى دولة بني طغج »(٦٣).

والحقيقة انه عند مراجعتنا لكتاب « المغرب في حلى المغرب » نشعر أننا حصلنا على كتاب ابن زولاق جميعه تقريبا ، من حيث الديباجة ونشأة الاخشيد وتتبع حياته مرحلة مرحلة ، وظروف تقلبه على مصر وأعماله وحروبه مفصلة حتى وفاته ، كل ذلك وعن طريق اتصال بن زولاق برجال الدولة . ويمكن اعتبار هذا الكتاب رسميا ، خص الاخشيد ببعض المديح ، ولكن عند تتبع ما جاء هذه السيرة نجد أمورا فيها تجرد ، وفيها منطق أحداث تعبر عن نقد للأخشيد . ومن ناحية أخرى فان أهمية سيرة الاخشيد لابن زولاق تعود الى أنه عرض فيه لأحداث شهدها أو عاصرها أو قريبة العهد به جدا ، مما يجعله مصدرا أصيلا يجب الاعتماد عليه ، مع مراعاة قواعد البحث العلمي من حيث المصادر والروايات .

وتبقى سيرة المعز لدين الله أهم آثار ابن زولاق التاريخية ، وهذا أمر طبيعي ، فقد شهد ابن زولاق ولادة العهد الفاطمي في مصر ، فحري به أن يكتب تاريخ هذا العهد بتغيراته وتقلباته ، وسيرة المعز لدين الله تمثل ذروة التغيير في أوضاع مصر السياسية والدينية . ونشير هنا أن هذه السيرة وصلتنا على يد المقريزي أجزاء عديدة منها(٦٤)، ومن هذه الاجزاء المتناثرة في كتب المقريزي تظهر لنا سيرة المعز المليئة بالحوادث والتفاصيل ، وما أوجده النظام الفاطمي في مصر من أنظمة ورسوم وتقاليد سياسية واقتصادية واجتماعية .

اتبع ابن زولاق في كتابه أسلوب تسلسل العنصر الزمني مرتبا على الايام والشهور ، وهو بذلك استعمل حوادث العصر مرتبة حسب تاريخها وعن طريق استقصاء كل الحوادث خلال فترات زمنية متقاربة . ويمكن أن يقال ان ابن زولاق اتجه نحو التخصص في مجهوده التاريخي فقد تناول في تاريخ مصر عبر دول العصر التي عاش فيه في توسع وبعد عن الايجاز ولذلك عد في نظر الكثيرين أول مؤرخ مصري آثر التخصيص على التعميم ، كذلك امتاز مجهوده بالتحرر من كثير من قيود الرواية والاسناد واعتمد على المشاهدة والتحقيقات الخاصة وجعلها مصادره الحقيقية : في الوقت الذي لم تظهر على كتاباته ما يفيد التشيع أو التحامل ، فهو رواية ينقل ما سمع وشاهد وحقق عن طريق صلاته وعلاقته بشخصيات مصر التي عاصرها ، فجعل الرواية التاريخية وكأنها تدخل في مرحلة جديدة من الدقة وحسن العرض .

المادة التاريخية وتطورها :

في القرن الرابع الهجري ، تنوعت المادة التاريخية وتعددت مواضيعها ويعود ذلك لتأثر التاريخ بالحاجات السياسية والادارية لهذا القرن ، ولبلوغ هذا القرن أوج تطوره وفاعليته الحضارية ؛ مما أدى الى تأثر علم التاريخ بالعلوم الاخرى وجعل له ثروة كبيرة من المعلومات ، فظهرت في هذا القرن كتب تتحدث عن الوزراء والكتاب والقضاة والولاة ، نعرض لأمثلة عنها :

كتاب ((**الوزراء والكتاب**)) للجهشياري محمد بن عبدوس بن عبد الله الكوفي (ت ٣٣١هـ/٩٤٣م) مؤرخ نشأ في بغداد وكان حاجبا بعد أبيه للوزير علي بن عيسى ، ثم للوزير حامد بن العباس في خلافة المقتدر بالله ٢٩٥هـ / ٩٠٨م ــ ٣٢٠هـ / ٩٣٢م) وولي امارة الحج العراقي(٦٥) .

يتحدث الجهشياري في كتابه(٦٦) ، عن الكتاب فيذكر أن عبد الحميد الكاتب حدد في رسالته مكانة الكتاب ، من حيث صناعتهم التي يعتاشون بها ، ومكانهم في المجتمع يأتي بعد الملوك مباشرة ، لأنهم اصحاب اشرف صناعة ، بهم ينتظم الملك وتستقيم

للملوك أمورهم وتدبيرهم وسياستهم يصلح سلطانهم وتعمر بلادهم ، كما يتحدث في الكتاب عن دواوين الخراج وعلى أساس أنها في عهد عمر بن الخطاب كانت تدون بلغات الولايات التي كانت سائدة قبل الفتح وكتابها من أبناء الولايات من غير العرب(٦٧) . ويشير الجهشياري أن عملية تعريب سجلات دواوين الخراج في العراق والشام ومصر اكتملت أيام هشام بن عبد الملك ، وكان أغلب المتدربين من أبناء الكتّاب الذين في خدمة الدولة ، فبعد تعريب الديوان في العراق على يد صالح بن عبد الرحمن كاتب الحجاج ابن يوسف الثقفي ، تتلمذ على يديه عدد من الكتاب الذين تولوا الدواوين في العراق حتى نهاية الدولة الاموية(٦٨) . اما ما جاء فيه من أخبار الوزراء فقد وقف فيه عند أبي أحمد العباس بن الحسن والذي وزر للمكتفي (٢٩٠هـ/٩٠٢م ـ ٢٩٦هـ/٩٠٨م) والمقتدر ، وقتل عام ٢٩٦هـ/٩٠٨م .

والحقيقة أن كتاب الجهشياري جاء كنمط يجمع بين التاريخ والسيرة ، واصبح يعرف بتاريخ الاشخاص . لكنه في نفس الوقت يعتبر من أهم مصادر المؤرخين عن تاريخ الكتّاب والوزراء منذ عهد النبي (صلعم) حتى السنة التي توقف عندها سنة ٢٩٦هـ/٩٠٨م ، وقد نقل عنه ياقوت والصفدي وابن خلكان ، كما استفاد منه المستشرقون في حديثهم عن المراحل التاريخية التي مرت بها وظيفة الكتّاب الوزراء من الناحية السياسية خاصة فرانز روزنثال في كتابه علم التاريخ عند المسلمين .

كتاب ((**الوزراء**)) أو ((**تحفة الامراء في تاريخ الوزراء**))(٦٩) لهلال بن المحسن بن زهرون الصابي (ت ٤٤٨هـ/١٠٥٦م) وهو حفيد أبي اسحاق الصابي صاحب كتاب التاجي والرسائل المشهورة وقد سبق ذكره . كان أبوه المحسن صابئيا على دين جده ابراهيم فأسلم هلال في آخر عمره وحسن اسلامه وكان أول من دخل الاسلام من آل زهرون(٧٠) ، تلقى العلم على أشهر العلماء وهو صغير ، وناب عن جده أبي اسحق ابراهيم بن هلال في تولي ديوان الانشاء كما تولى الكتابة لفخر الملك محمد خلف(٧١) ، وعاش فترة هامة في حياته في بغداد فعاصر أحداثها وعرف أخبارها . ومن خلال هذه الحياة الحافلة كتب كتابه السالف الذكر أو ذيل على ما كتبه ثابت بن سنان(٧٢) وهذا ما يؤكده مارجليوث أيضا(٧٣) . فأكمل بكتابه هذا ما انتهى اليه الجهشياري في تأليفه للوزراء والكتّاب اذ وقف عند نهاية العباس بن الحسن في مطلع خلافة المقتدر (٢٩٥هـ ـ ٣٢٠هـ / ٩٠٨م ـ ٩٣٢م)(٧٤) .

وكتاب « الوزراء » لهلال بن المحسن يشتمل على أسرار تاريخية نادرة وحقائق تدعو الى العظة والاعتبار توضح ما كانت عليه الحال في خلافة المقتدر وما سبقها ، ويتعرض للأنظمة التي كانت تسير عليها الدولة العباسية وأنواع الرقي في الدواوين والدقة في نظام المراسيم واثباتها والتوقيع عليها ، وحفظها في ملفات ، وما كان يتبع في

أمور المخاطبات والمكاتبات الصادرة والواردة ، والحقائق التاريخية المريرة القاسية وكيف كانت تحاك المؤامرات والدسائس وما كان ينفق في سبيل الوصول الى المناصب.

وتأتي أهمية هذا الكتاب من المصادر التي اتيحت لهلال بن المحسن في تأليفه كتابه جعلته ثقة فيما يروي . وأول ذلك صفته الرسمية في الدولة التي يسرت له الاطلاع على الوثائق الرسمية ، والامر الثاني اطلاعه على تاريخ ثابت بن سنان خال جده (أرخ ثابت في أواخر القرن الثالث الهجري الى سنة ٣٦٠هـ وهي فترة عاصرها أو لقي معاصريها) ، والامر الثالث ما رواه أو نقله عن بعض معاصريه وخاصة القاضي التنوخي أبي علي المحسن (ت ٣٨٤هـ/٩٩٤م) والاطلاع على كتاب الوزراء والكتاب للجهشياري وتلقيه عن طريق السند والرواية اخبار عن أناس اتصلوا بالدواوين ، وخالطوا الحاكمين .

وهلال لا يسير حسب التسلسل التاريخي بل يتناول الوزير الاول ثم وزارته الى أن يستوفيها ، تاركا ما تخلل عزله ، ويأتي بعد ذلك بأخبار منثورة للوزير فيها طرائف ونوادر ، فيبدأ بعلي بن محمد بن موسى الفرات فيقول في مقدمة كتابه « نحن نبدأ فيما نورده بأخبار أبي الحسن علي بن محمد بن الفرات ، لأنه تلى أبا أحمد العباس ابن الحسن ونجعل ذكر وزرائه الثلاث متصلا غير منقطع ومجتمعا غير متقطع ، ونجري على هذا المثال في الوزراء الذين تكررت ولاياتهم اذا كان العرض سياقة أخبارهم ومجاري أمورهم الى غاية مددهم وانقضاء أيامهم لا ترتيب خلفائهم وامرائهم وأوقاتهم وأزمانهم »(٧٥) .

كتاب **ولاة مصر او امرائها وتاريخ قضاة مصر** (٧٦) ، لمحمد بن يوسف بن يعقوب الكندي (ت ٣٥٠هـ/٩٦١م) . مؤرخ مصري من بني كندة ، ولد في فسطاط مصر وتوفي فيها ، نشأ في بيئة علمية فدرس الحديث والسنة على أكابر عصره ومنهم أبو عبد الرحمن النسائي(٧٧) المحدث المشهور ، وابن قديد الازدي(٧٨) . عرف بأنه كان من أعلم الناس بتاريخ مصر وأهلها وأعمالها وثغورها .

والموضوعان اللذان يشتمل عليهما الكتاب مستقلان ، يكون كل منهما بذاته كتابا خاصا ، فالكتاب الاول ، ويعرف ب « ولاة مصر » وهو العنوان الذي أثبتته المخطوطة التي وصلت الينا(٧٩) ، يتناول تعداد الولاة ، دون تمهيد ولا مقدمة ، فبدأ بولاية أبي عبد الله عمرو بن العاص مقرونة بنبذة عن فتح مصر ، ثم الوالي عبد الله بن سعد، ويستمر بذكر الولاة متعاقبين واهم أعمالهم وبخاصة الفتوح في عهودهم ، ومن ولي الشرطة في عهد كل منهم وما وقع في أيامهم من الحروب والقلاقل(٨٠) . واسلوبه يتبع الايجاز في ايراد الحوادث حتى نهاية الدولة الاموية ، الا انه يزيد في تفصيلها عندما يدخل في العهد العباسي وعهد بني طولون ، كذلك يستعمل أسلوب الرواية والاسناد

في الاجزاء الاولى من كتابه ، ثم يترك ذلك خاصة فيبداية القرن الثاني للهجرة ، فيتحرر من الاسناد ويروي الحوادث بطريق مباشر .

وجملة القول في قيمة كتاب ولاة مصر انه يمدنا بمعلومات عن تاريخ مصر لا نجدها في موسوعاتنا التاريخية كتاريخ الطبري والكامل لابن الاثير ، وتكتفي الكتب المختصة بتاريخ مصر كالنجوم الزاهرة بالاشارة العابرة اليها . كما أن المعلومات التي جاءت في الكتاب والتي تناولت مصر من ناحية معينة هي نوع من التاريخ الاداري ، انفرد الكندي في معالجته ، في وقت أهمل مؤرخون آخرون هذا الجانب من تاريخ مصر بشكل عام .

أما كتاب « **قضاة مصر** » فيتناول تاريخ القضاة الذين تولوا قضاء مصر منذ الفتح الى منتصف القرن الثالث (سنة ٢٤٦هـ) ، وله أهمية خاصة ، لا بما يورد من ذكر للقضاة الذين تعاقبوا على قضاء مصر في عصور الاسلام الاولى ، لكن بما يحتويه من تفاصيل صور ووثائق غريبة عن أحوال القضاة ونظم القضاء(٨١) . وعن نظم القضاء الاسلامي وسيره .

وبشكل عام فان تراث الكندي الذي وصل الينا يكون في مجموعه حلقة فريدة في تاريخ مصر الاسلامية ، تكاد تنفرد بالقاء الضوء على تاريخ مصر خلال القرن الثالث ولا سيما في العصر الذي أدركه الكندي حتى قيام الدولة الاخشيدية ، متناولا خواص المجتمع والتفاصيل التي تمثل روح هذا العصر ، معتمدا في ذلك علىالوثائق التاريخية، وبعضها وثائق رسمية .

ومما يجدر ذكره أن هذا التعدد في فنون التاريخ التي أحاطت بمادته ، كان نتيجة تأثيرات معينة اجتمعت مع بعضها في القرن الرابع الهجري ، كما كان للعلوم الاخرى التي تطورت تطورا هائلا في هذا القرن تأثير واضح على المادة التاريخية ، اذ وجد فيها المؤرخون ، من فلسفة ومنطق وجغرافية ، مادة جديدة يمكن الافادة منها في التاريخ. فالفلسفة كان بامكانها أن تكون أقدر من كل العلوم على الاجابة عن مشكلات التاريخ الكبرى ، غير أن المؤرخين المسلمين لم يستخدموها بشكل فقال لهذا الغرض اذ شغلت أذهانهم مسألة أساسية وهي مدى الثقة بالاخبار التاريخية وعلاقتهما بالحقيقة ، وبذلك فانهم في أبحاثهم التاريخية لم يجعلوها موضوعا لمناقشة نظرية .

غير أن أدق محاولة لاخضاع التاريخ للفلسفة من الناحية الظاهرية على الاقل هي التي قام بها **المطهر بن طاهر المقدسي** (ت٣٥٥هـ/٩٦٦م)(٨٢) في كتابه « **البدء والتاريخ** » . وكان من المعروف أن هذا الكتاب من تأليف أبي زيد أحمد بن سهل البلخي(٨٣) لكن تحقيق المستشرق كليمان هوار (Huart) دلّ على أن المقدسي هو مصنف ذلك الكتاب ، على أساس أن البلخي توفي سنة ٣٢٢هـ/٩٣٤م ، وقد وضعه

سنة ٣٥٥هـ/٩٦٥م لأحد وزراء السامانيين وحيث كان يعيش بمدينة بست بسجستان(٨٤) .

وفي طبعة هوار الذي كشف عن مخطوطة اسطنبول عام ١٨٧٧م ونشرها في الفترة بين ١٨٩٩ و ١٩١٩ مع ترجمة فرنسية في ست أجزاء ضخمة ، وفي النسخة العربية ، ينقسم الكتاب الى اثنين وعشرين فصلا تتفاوت من حيث الحجم والاهمية ، وفي كل فصل أبواب وأذكار من جنس ما يدل عليه والفصل الاول يبدأ على هيئة مقدمة تعالج مناهج المعرفة وحدودها وينتهي (الفصول ٢٠ ــ ٢٢) بتاريخ الخلافة الى عام ٣٥٠هـ/ ٩٦٠م ، أي خلافة المطيع العباسي(٨٥) .

وكتاب البدء والتاريخ هو عبارة عن بحث نظري عن المعرفة والعقل ويتجلى فيه استهداف المؤلف النظر الى الكون وتاريخه بمنظار الفلسفة ، كما يؤكد الكتاب على بعض الموضوعات كصفات الخالق والاهمية الثقافية والفلسفية للأديان القديمة والخلافات في العقائد بين مختلف الفرق الاسلامية ، ويحاول المقدسي أن يقدم في الكتاب معلومات علمية وفلسفية كلما أمكن ذلك(٨٦) . والملاحظات الفلسفية فيه متناثرة هنا وهناك ، ومع ذلك فان محاولة المقدسي ايجاد اتحاد بين الفلسفة والتاريخ كانت رغبة صحيحة قل أن نجد مثلها عند من تلاه من المؤرخين المسلمين . ويمكن القول ان كتاب البدء والتاريخ ألف من وجهة نظر فلسفية(٨٧) .

أما الجغرافية فقد أسهمت بدورها فيتطور المادة التاريخيةفيالقرن الرابعالهجري، الذي كان قرن الجغرافية كما كان قرن التاريخ . فقد بلغ عدد الرحالة في هذا القرن حدا كبيرا ، ومعلوماتهم نفذت الى المؤرخين ، فظهر جيل من المؤرخين الجغرافيين ، لأن هؤلاء الرحالة كانوا يحرصون على تدوين مشاهداتهم وتسجيل اخبار رحلاتهم وأسفارهم ويصفون ما عاينوه من مظاهر الحضارة كالمنتجات الزراعية والصناعات والتجارة ، كما أن بعضهم وصف بعض مظاهر الحياة الاجتماعية في الاقطار المختلفة التي مروا بها ، ودمجوا مشاهداتهم فيما ألفوه من كتب تاريخية أو جغرافية(٨٨) .

من هؤلاء الذين أثروا بمن جاء بعدهم من المؤرخين الجغرافيين في القرن الرابع الهجري **أحمد بن عباس بن رشيد المعروف بابن فضلان** ، الذي يحتل المكانة الاولى بين الرحالة سواء من الناحية الزمنية او الاهمية الذاتية برسالته المشهورة(٨٩) ، التي كتبها عن رحلته الى البلغار(٩٠) .

لم يكن ابن فضلان عربي الاصل ، بل من موالي فاتح مصر محمد بن سليمان ، الذي أفلح في هزيمة الدولة الطولونية واعادة مصر الى حظيرة الخلافة العباسية في ٢٩٢هـ/٩٠٥م ، ثم أصبح من موالي الخليفة المقتدر العباسي(٩١) . وكان على ثقافة

دينية وأدب رفيع وخلق ، اشتهر باشـــتراكه في تلك السفارة التي انفذهـا الخليفة المقتدر بالله العباسي في سنة ٣٠٩هـ/٩٢١م الى البلغار باقليم الفولجا ، وذلك بعد أن أسلم ملكهم وكتب الى الخليفة يسأله أن يبعث من يفقهــه في الدين ويعرفــه شرائـــع الاسلام ويبني له مسجدا وينصب له منبرا ليقيم عليه الدعوة في جميع أقطار مملكته، ويسأله بناء حصن يتحصن فيه من الملوك المخالفين لــه(٩٢) .

كانت السفارة الى بلاد البلغار برئاسة سوسن الرسي ، وبين أعضائها ابن فضلان كفقيه ذي خبرة وهب نفسه لنشر الاسلام ، أي انه كان الخبير الديني في الســـفارة بينما كان الرسي مندوب الخليفة لبحث الامور السياسية والحربية . ويحـاول ابن فضلان في رسالته أن ينسب لنفسه الدور الرئيسي(٩٣) . غادرت السفارة بغداد في الحادي عشر من المحرم عام ٣١٠هـ/١٢ أيار (مايو) ٩٢٢م ومرت في طريقها بهمدان والري ونيسابور ومرو وبخارى حيث التقى ابن فضـلان في سبتمبر (ايلول) عـام ٩٢١م/٣٠٩ هـ بوزير السامانيين والعالم الجغرافي الشهير الجيهاني(٩٤) . ثم ساروا مع نهر جيحون الى خوارزم عنـد بحر آرال ومروا بصحراء أوست أورت ثـم نهر يايقي حتى حوض الفولجا ، أما خط سـير الرجعة ، فغير معروف لأن خاتمـة الرسـالة امتدت اليها يد الضياع(٩٥) .

قدم ابن فضلان في رسالته صورة حية للظروف السياسية في العالم الاسلامي ، والعلاقات بين بلاد الاسلام والبلاد المتاخمة في آسيا الوسطى ، والاصقاع النائية مثل حوض الفولجا ، وذكر عددا من القبائل التركية البدوية القاطنة آسيا الوسطى ، فهو يصف مثالا على ذلك قبيلة من الاتراك يعرفون بالغزية « بأنهم بادية لهم بيوت شـعر يحلون ويرتحلون ، ترى منهم الابيات في مكان ، ومثلها في مكان آخر على عمل البادية وتنقلهم واذا هم في شقاء »(٩٦) . وتحدث عن الروس والخزر وأبرز بعض الجوانب الاقتصادية والاجتماعية عندهما والعلاقات بينهما . وصور العادات والتقاليد والحياة والاخلاق في ذلك العصر في مختلف المناطق التي مر بهـا .

استعمل ابن فضلان أسـلوبا قصصيا سلسا ولغة حية مصورة ، لا تخلو كمـا يقول كراتشوفسكي أحيانا من بعض الدعابة التي ربما لم تكن مقصودة . كما تميزت كتابته بالوصف الدقيق والشامل ممـا جعل لهذه الرسالة قيمة علمية جعلت صاحبها شاهد معاين ، فكان مرجعـا أساسـيا للمؤرخين الجغرافيين وخاصـة المسـعودي والاصطخري وياقوت الحموي(٩٧) .

ومن ناحية اخرى فان تأثير نمو علم الجغرافية في علم التاريخ عند المسلمين ، ترك بصماته على اثنين من مؤرخي القرن الرابع الهجري بشكل خاص وهما **الهمداني** ، **الحسن بن أحمد بن يعقوب** (ت ٣٣٤هـ/٩٤٥م) ويعرف **بابن الحائك الهمداني** ، مـن

بني همدان ، ولد ونشأ بصنعاء واقام على مقربة منها في بلدة ريدة ، طاف البلاد واستقر بمكة زمنا ، وكانت من أعظم مراكز العلم في ذلك العهد ، فتفتحت له آفاق المعرفة ثم عاد الى اليمن فأقام في مدينة صعدة وكانت قاعدة أئمة الزيدية ، واليمن في ذلك العهد تتنازعها تيارات سياسية متعددة(٩٨).

وفي المجال الذي نبحث فيه، وهو عملية المزج بين التاريخ والجغرافية في القرن الرابع الهجري ، الناجم عن تجميع المادة التاريخية والوثائق الرسمية الناتجة عن اتساع مجال الاسفار وعمق الملاحظة واخضاع المادة لصياغة منظمة ، وفي هذا المجال يهمنا الهمداني في مصنفين اشتهر بهما **«صفة جزيرة العرب»** و **« الاكليل »** . فصفة جزيرة العرب يعتبره اشبرنجر (Sprenger) الى جانب كتاب محمد بن أحمد المقدسي الذي ولد في بيت المقدس في عام ٣٣٥هـ/٩٤٨م ، «أحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم » أقيم ما أنتجه العرب في الجغرافية(٩٩) .

طبع كتاب « صفة جزيرة العرب » في مطبعة بريل في ليدن (هولندة) سنة ١٨٨٤ في مجلدين يحوي الاول الكتاب وفهارسه ، والثاني تعلقيات عليه ودراسات عن نسخه وذكر اختلافها . ومقارنة بما في معجم البلدان ومعجم ما استعجم وغيرهما ، بتحقيق د. هـ. مولر (D. H. Muller) ١٨٤٦ ـ ١٩١٢م . وقام الشيخ محمد ابن عبد الله بن بهليد باعادة طبعه في سنة ١٩٥٣م في مطبعة السعادة بمصر ، وأخيرا قام محمد بن علي الاكوع الحوالي باعادة تحقيق الكتاب ونشره(١٠٠) .

يبدأ الهمداني كتابه بمقدمة رياضية جغرافية فيها ذكر المذاهب المختلفة لتحديد الاطوال والعروض ، أما القسم الاساسي فقد كرسه لوصف جزيرة العرب ، ويضم خمسة أبواب رئيسة في وصف تهامة والحجاز ونجد والعروض واليمن . وتحتل اليمن مكان الصدارة في الكتاب ، مع تفصيلات على مساكن قبيلة همدان ، في حين لا تظفر الاقاليم الاخرى الا باشارات عابرة .

أما مصنفه الثاني « الاكليل » فيقع في عشرة اجزاء ، والى عهد قريب لم يعرف منه سوى الجزئين الثامن والتاسع والعاشر وذلك بفضل ابحاث مولر (Muller) وقد نشر الآن وترجم الجزء الثامن بفضل مجهودات العلماء العرب ببغداد وأمريكا ، اما الجزء الاول والثاني فقد كشف عنهما منذ وقت غير بعيد ببرلين المستشرق السويدي لوفجرين (Lofgren) وعثر على الجزء التاسع بمكتبة البارودي ببيروت(١٠١).

دل كتاب الاكليل على سعة معارف الهمداني ، فقد افرغ فيه جماع معرفته بالانساب والتاريخ والآثار ، بل وحتى بأدب الحميرين سكان جنوب الجزيرة في القدم، ولم يكتف بعرض المادة الاسطورية التي تجمعت في الادب العربي بعد الاسلام ، بل بذل

قصارى جهده ليقف منها موقف الناقد ، في ضوء دراسته المباشرة للنقوش التاريخية، فقد وسم صور الحروف الابجدية بالمسند مع ما يقابلها بالعربية ، وقراءة النصوص التي أوردها في الاكليل تدل على معرفته التامة في ذلك الامر(١٠٢) . وبذلك استطاع أن يفك رموز الكتابة العربية القديمة في جنوبي الجزيرة .

لم يكن الهمداني جغرافيا فحسب ، بل وخبيرا بتاريخ الجزيرة العربية بشكل عام واليمن بشكل خاص ، استطاع أن يمزج بين التاريخ والجغرافية . ويؤخذ عليه تعصبه تعصبا شديدا قد يحيد به في بعض الاحيان عن جادة الصواب. يقول محب الدين الخطيب في هذا الصدد « يثبت حقائق العلم على صحتها ما استطاع في كل ما لا يمس همدانيته ويمنيته ، فاذا لامس العلم هذا الجانب الحساس من المؤلف وجد فيه ضعفا »(١٠٣) . وفي اعتقادي ان هذا القول على قدر كبير من الصحة .

المسعودي ، أبو الحسن علي بن الحسين الهذلي (ت ٣٤٦هـ/٩٥٧م) ، حجازي الاصل من ولد عبد الله بن مسعود(١٠٤) ، من أقدر المؤلفين في القرن الرابع ، وفي طليعة المؤرخين الذين اعتمدوا على الجغرافية ، أو كما قيل من اولائك الذين يلتقي فيهم المؤرخ والجغرافي . مصنفاته كثيرة ومفقودة ، بقي منها ثلاثة **« مروج الذهب ومعادن الجوهر »** ، **« التنبيه والاشراف »** ، **« أخبار الزمان »** . وهذه المصنفات تعطينا الصورة التي تمثل المسعودي كمؤرخ وجغرافي ، كذلك فان هذه الكتب الثلاثة مثال حي على صعوبة الفصل بين المؤلفات التاريخية والجغرافية .

مروج الذهب ومعادن الجوهر . طبع عدة مرات في جزأين وطبع اخيرا في أربعة أجزاء(١٠٥) . ويقول المسعودي حول الباعث له على تأليفه « ان الناس ألفوا كتبا في التاريخ والاخبار ممن سلف وخلف فأصاب البعض واخطأ البعض وكل اجتهد بغاية امكانه » ، لذلك قام بتأليف الكتاب « ليدع فيه أخبار العالم وما مضى في أكناف الزمان من أخبار الانبياء والملوك وسيرها والامم ومساكنها »(١٠٦) . أما لماذا سماه بهذا الاسم ، يقول المسعودي « لنفاسة ما حواه وعظم خطر ما استولى عليه من طوالع بوارع ما تضمنته كتبنا السالفة في معناه وغرر مؤلفاتنا في مغزاه »(١٠٧) .

بصورة عامة يعتبر الكتاب من أهم كتب المسعودي ومن أكثر مؤلفاته التاريخية ايجازا ، وفيه أفضل تصور للحياة الثقافية والاجتماعية في عصر الخلافة ، حوى على كثير من المعرفة والمعلومات الخاصة بعلم الانساب والسلالات ، والاحداث السياسية. وقد وصفه نقولا زيادة بأنه كتاب « سياحة ومعرفة جغرافية وعمران وعلم وملاحظة واخبار وأساطير »(١٠٨) . أما سيدة اسماعيل كاشف فتقول « انه كتاب تاريخي وجغرافي عظيم القيمة ، لم يكتف فيه المؤلف ببحث الموضوعات التي اعتادها المؤرخون المسلمون ، بل تطرق الى تواريخ الهند والفرس والروم واليهود »(١٠٩) ، وعلي ابراهيم

حسن يعتبره أهم كتب المسعودي على أساس أنه دراسة تاريخية وجغرافية معا ، مع أنه ليس تاريخا متصل الحلقات بل مجموعة حوادث وأخبار(١١٠) .

التنبيه والاشراف . تم هذا الكتاب عام وفاة المسعودي(١١١) ، ويحوي لمعا من ذكر الافلاك وهيئاتها والنجوم وتأثيراتها والعناصر وتراكيبها وأقسام الازمنة وفصول السنة ومنازلها والرياح ومهابها والارض وشكلها ومساحتها والنواحي والآفاق وتأثيرها على السكان وحدود الاقاليم السبعة والعروض والاطوال ومصاب الانهار وذكر الامم السبع القديمة ولغاتها ومساكنها ثم ملوك الفرس على طبقاتهم والروم وأخبارهم وجوامع تاريخ العالم والانبياء ومعرفة السنين القمرية والشمسية وسيرة الرسول (صلعم) وغزواته وسنين هجرته وسير الخلفاء الراشدين والخلفاء من بعدهم الى سنة ٣٤٥هـ وفي السنة التي مات فيها ، وقد تعرض الى ذكر طرف عن ملوك الاندلس(١١٢).

ويبين المسعودي في مقدمة كتابه الاسباب التي جعلته يقتصر فيه على ذكر ممالك معينة فيقول « انما اقتصرنا في كتابنا هذا على ذكر هذه الممالك لعظم ملك ملوك الفرس وتقادم أمرهم واتصال ملكهم وما كانوا عليه من حسن السياسة وانتظام التدبير وعمارة البلاد والرأفة بالعباد » . وبالنسبة لمملكتي اليونانيين والروم فقد خصهما بالذكر لأنه « تتلوان مملكة فارس في العظم والعز ولما خصوا به من أنواع الحكمة والفلسفة والمهن العجيبة والصنائع البديعة لأن مملكة الروم الى وقتنا هذا ثابتة الرسوم متسقة التدبير وان كان اليونانيون قد دخلوا في جملة الروم منذ أن احتووا على ملكهم »(١١٣).

ويمكن القول أن المسعودي لخص في هذا الكتاب آرائه في فلسفة التاريخ والكون وآراء الفلاسفة في التدرج والعلاقة بين الحيوان والنبات والمعدن ، بأسلوب قصصي فيه براعة ، وبأسلوب جذاب وعبارات ممتعة .

أخبار الزمان . ويقارب ثلاثين مجلدا لا يوجد منها الا جزء واحد في مكتبة فيينا، وفي المكتبة الملكية بالقاهرة كتاب بهذا الاسم مصور عن نسخة المكتبة الاهلية بباريس في جزء واحد تام(١١٤) .

ومما يجدر ذكره أن المسعودي أكثر من الثناء على « أخبار الزمان » في مروج الذهب والتنبيه والاشراف ، وأحال عليه في مواضيع كثيرة . ولضخامته عمد المسعودي الى اختصاره مرات ، ثم بعثر تلك الثروة العلمية الهائلة في كتبه وفرقها بين مصنفاته(١١٥) ، فكثيرا ما يرى الباحث في كتب المسعودي انه يعرض الى اجمال بعض الموضوعات الطريفة والاحاديث الغريبة في مختلف العلوم والفنون في هذين الكتابين ويلم بالموضوع المامة سريعة ، ثم يذكر انه بسطه وذكره بتمامه في « أخبار الزمان » . وفي هذا الكتاب أشياء غريبة طريفة تفيدنا كثيرا في معرفة التاريخ القديم بوجه عام

ومصر بوجه خاص ، ومن يتمعن به يصل الى نتيجتين ، الاولى ان الانسان فيما مضى من الاجيال كان أقدر منه في هذه الحياة العصرية ، وان السحر والكهانة لعبا دورا كبيرا في غابر الاحقاب ، والثانية أن قدماء المؤرخين كانوا ذوي خيال واسع وقصاصين بارعين قادرين على ان يجسموا الخيال ويلبسوه ثوبا من الحقيقة .

وسيجد القارىء في هذا الكتاب ما بلغه المصريون من الصناعة وعمارة الارض والفنون والعلوم والحكمة والبصر بالكيمياء ،كما يجد فيه العجائب التيأقامها المصريون بالهندسة أو السحر . وأن الاهرام ليست وحدها التي اقامها القدماء آيات شاهدة لهم بالقوة . بل ان لقدماء المصريين آثارا أخرى جليلة اقاموها في مناطق أخرى من مصر . وفي هذا الكتاب أيضا يستطيع من يعنيه البحث عن الآثار أن يعلم بوجه التقريب مدافن ومخابىء كثيرة ملأها القدماء بالذهب والتحف وغرائب الجواهر والحلي(١١٦) .

ومن ناحية عامة لا يمكن انكار ما امتاز به المسعودي من النشاط العلمي وما اتصف به من موضوعية في الحكم على ما يتعلق بالشعوب والاديان ، فهو يسأل باهتمام ممثلي مختلف العقائد ويفحص كتبهم ويتعرف على آدابهم ويجمع المعلومات بشغف ، فبرز واحتل لنفسه مكانة خاصة بما تميز به منهجه التاريخي جعلت كتبه أشبه بكتب الادب ، فطريقته في التأليف تعتمد على العرض الادبي لا على الاسناد ، فنادرا ما يشير الى مصادره وكتبه تأخذ من كل شيء بطرف بخلاف كتب التاريخ الملتزمة بأخبار الماضي وحده ، وتميزت طريقته التاريخية بالاستجابة لتداعي الافكار والاستطراد والاستسلام للطرائف والغرائب .

أما منهجه في التبويب ، فلا يرقى الى المستوى المطلوب ، فقد كان من الصعب عليه أن يأخذ نفسه باتباع منطق صارم سواء في التفكير أو التعبير(١١٧) ، بالرغم من أنه كان يحاول وضع تبويب وتقسيم مناسبين في تآليفه ، كذلك نبذ طريقة الحوليات ورتب تاريخه وفقا لتسلسل الخلفاء والاسرات الحاكمة والموضوعات .

اهتم المستشرقون بالمسعودي وأعجبوا بما أتى به وقارنوا بينه وبين بعض المؤرخين الآخرين المشهورين . ولقبه المستشرق فون كريمر بلقب هيردوت العرب ، يجمع بين الاثنين حب المعرفة التاريخية والدأب المتصل والرحلة لجمعها وتدوينها ، والاستعداد الكلي لتسجيل الخوارق والعجائب دون تحفظ أحيانا ودون تحيز ، والاهتمام بالمعطيات الجغرافية وتنوع الشعوب والافكار . واذا كان هيردوت أكثر فنا ومنهجية في كتابته التاريخية ، فان المسعودي كان أوسع أفقا وأبعد في الرحلة والاطلاع(١١٨) . ويؤيد هاري بارنر (Barner) هذا التشبيه على أساس أن كلا منهما

له نفس القدرة على الاستطلاع والتأمل والحماسة في جمع المعرفة ، لكن المسعودي كان أسهل انقيادا من هيرودوت في تقبل الاساطير والعجائب(١١٩) .

أما المفكر رينان ، المفكر الفرنسي ، فانه في دراسة مسهبة تضمنت مقارنة ما بين المسعودي الرحالة الجغرافي المؤرخ وبين بوزانياس Pausanias الرحالة الجغرافي والمؤرخ اليوناني في القرن الثاني الميلادي ، لم يستطع أن ينكر أن المسعودي كان أشمل موسوعية وأكثر فضولا علميا واطلاعا(١٢٠) .

وفي القرن الرابع الهجري ، ونتيجة للتمزق السياسي تأثرت المادة التاريخية فظهرت تواريخ محلية عن تاريخ الوحدة السياسية الواسعة، وظهرت سير الشخصيات البارزة وتواريخ المدن . مثال ذلك كتاب « الاوراق في أخبار آل عباس وشعرائهم » **للصولي ، أبو بكر محمد بن يحيى بن عبد الله** (ت ٣٣٠هـ/٩٤١م) الذي نادم الراضي والمكتفي ثم المقتدر وتوفي بالبصرة (١٢١) . لم يكن عربي الاصل ، وفي رواية أنه تحدّر من صلب رجل يدعى صول ، ثم استعرب تماما وغدا نديما للخلفاء ، وكان على صلة وثيقة بتلميذه السابق الراضي(٣٢٢هـ/٩٣٣م-٣٢٩هـ/٩٤٠م)(١٢١ب) . وكتابه **«الاوراق في أخبار آل عباس وشعرائهم »** أشهر ما عرف به ، وقد عني بنشره ج. هيورت . دن « أخبار الراضي بالله والمتقي لله » ، أو تاريخ الدولة العباسية في ٣٢٢هـ /٩٣٣م — ٣٣٣هـ/٩٤٤م(١٢٢) . ويبدأ بذكر أخبار الراضي فيقول « قد فرغنا ولله الحمد من ذكر أخبار القاهر والاحداث في أيامه ونحن نذكر الآن بيعة الراضي بالله وما كان من أمره والاحداث في أيامه ان شاء الله»(١٢٣)ومن الذين تحدث عنهم الصولي أمر مرذاويج السلمي بأصبهان وانه وصل الراضي ما يفيد قتله اذ دخل ابنا المنجم أحمد بن يحيى وعلي بن هارون فأنشدا الراضي في يوم الخميس شعرا يهنيانه بهذا الفتح(١٢٤) .

والحقيقة أن كتاب الصولي هو سيرة الراضي بالله الشخصية وسيرة المتقي لله الشخصية . وقد ادخل الصولي ذكرياته الشخصية مع هذه السير وخاصة الجزء المتعلق بفترة حكم الراضي ، وكان معلما له وبقي نديما بعد وصوله الى الحكم(١٢٥) . وينتهي الكتاب بالسنة ٣٣٣هـ/٩٤٤م وهي آخر أمر المتقي لله ، فيذكر عماله وقت زوال أمره(١٢٦) .

وفي اعتقاد سوفاجيه (Sauvaget)أن كتاب الصولي هذا يعتبر وثيقة أصلية للعمق الانساني والمثير للشعور(١٢٧) ، في الوقت الذي اثني فيه المسعودي على الصولي وكتابه بقوله « ذكر غرائب لم تقع لغيره وأشياء تفرد بها لأنه شاهدها بنفسه ، وكان محظوظا من العلم ممدودا من المعرفة ، مرزوقا من التصنيف وحسن التاليف »(١٢٨).

والحقيقة ان الصولي كتب كتابه بطبيعة الاديب ، لأنه كان رجل ادب ، الف

كتبا ادبية ، وفي جزء كبير من كتابه أبيات شعرية (ص ٢١ـ٢٤ و ٢٧ ــ ٣٠) وهكذا، وكثير من القصائد التي يتضمنها الكتاب هي من شعر الصولي نفسه .

وطغت تواريخ المدن على غيرها في التدوين التاريخي في تلك المرحلة وأصبح اهتمام المؤرخين في القرن الرابع بالذات منصبا على فعالياتها العلمية والفكرية نتيجة لانحطاطها السياسي ، كأن هذه المدن عدت وحدات حضارية في ذلك القرن . ومثال تاريخ المدن « تاريخ بخارى » للنرشخي ، **أبي بكر محمد بن جعفر** (ت٣٤٨هـ/٩٥٩م) وكان قد قدم هذا المؤلف الى نوح بن نصر الساماني ت ٣٣٢هـ/٩٤٣م ، ثم ترجم الى الفارسية فيما بعد (القرن ٦ هـ /١٢م) وقد قدر مؤرخو تركستان قيمته وأخضعوه لدراسة منظمة . ويحتوي الكتاب بالاضافة الى تاريخ بخارى ذاتها على اخبار بلاد ما وراء النهر قبل الاسلام وفي فترة الفتوحات العربية ، ولا يخلو من المعلومات الجغرافية القيمة عن المناطق المأهولة حول بخارى والمباني والمحاصيل وأساليب الحياة المختلفة عن العهد السابق لدخول الاسلام الى تركستان(١٢٩) .

المناهج وتطورها :

لقد حدث تغير في هذه المناهج نتيجة للنضج الحضاري واكتمال الفكر التاريخي فيه وهذا التغير تم في أمرين : في تدوين المادة وفي تنظيمها .

ففي تدوين المادة حصلت التطورات التالية :

١ ــ سقوط الاسناد : ففي القرون الثلاث الاولى للتدوين التاريخي ، استخدم المؤرخون الاسناد كما في الحديث فكل واقعة يذكرونها يسندونها الى رواتها حتى يوصلوها براويها الاول الذي هو شاهد عيان ، وبذلك كانوا أمناء في نقل الاخبار ، بل انهم في كل حادثة كانوا يقدمون الروايات المختلفة حولها . ويلاحظ هذا بخاصة عند الطبري(١٣٠) .

وكان السند في البداية مرسلا ، اي ان المؤرخ يذكر أسماء رواة الخبر حتى الراوي الاول ، ومع تقدم وازدياد سلسلة الرواة في الطول للوصول الى الراوي الاول ــ حتى أصبح السند أطول من المتن ــ اكتفى المؤرخون بذكر الراوي الاخير ، ويعرف هذا السند بالسند المقطوع ، ويقال ان من استنى ذكر السند محمد بن اسحق(١٣١)، ويعتبر ذكر السند بمثابة ذكر المصادر المستقى الخبر منها ، والمصدر الاول للخبر هو المستقى من الشاهد العيان أو من اشترك في الحدث نفسه ، اي من له علم مباشر بالواقعة وعليه الاعتماد في روايته الاخبار(١٣٢) .

لكن في القرن الرابع الهجري ، بدأ الاسناد يفقد وظيفته واتجه الى الزوال ،

وفقدت الصلة بين التاريخ وعلم الحديث ، وأخذ التاريخ بهذا الشكل يعلن استقلاله بمنهجه الخاص ، أخذ العرض الادبي يبرز في الكتابة التاريخية ، وخير من يمثل ذلك في القرن الرابع الهجري هو المسعودي الذي حذف الاسناد واختصر الرواية .

٢ ـ تزايد الاعتماد بالوثائق . أدرك المؤرخون في القرن الرابع الهجري قيمة توثيق المعلومات بنصوص أصلية تؤخذ مباشرة من منابع المعلومات ومحفوظات الدواوين، فبدأت تتوطد في المنهج التاريخي الاسلامي ، ولكن دون أن تحول التاريخ مع ذلك الى تاريخ رسمي ، فالكاتب الذي يستعمل الوثائق ، لم يكن مؤرخا رسميا للدولة ، ولكن مؤرخا موثوقا ، احتفظ رغم ارتباطه الوظيفي بحريته في اختيار ما يريد من الوثائق الا في الحالات النادرة ، لأن المؤرخين الاسلاميين كانوا يهدفون الى الاستقلال في الرأي وتوخي الصدق في الرواية ، ولم يتأثروا بالحكام تأثيرا كبيرا ومن أمثلة هؤلاء المؤرخين في القرن الرابع الهجري هلال الصابي ومسكويه والمسبحي(١٢٣) .

أما في تنظيم المادة ، فقد أضيفت طرائق وتنظيمات جديدة لم تكن معروفة من قبل ، تبعا للحاجات التي كانت قد ظهرت في ذلك القرن في اطار التاريخ الاسلامي النامي باستمرار والمتعدد النواحي ، فازدهرت النظرات التاريخية العامة والعالمية في جو ثقافي خصيب ، ووضعت الغالبية العظمى في كتب التواريخ العامة التي كتبت منذ النصف الثاني من القرن الرابع على يد كبار موظفي الدول الاسلامية مما جعل المادة تنظم تنظيما جديدا(١٢٤) ، حيث اعتمد التاريخ العالمي في هذا القرن على أسلوب تاريخ السلالات الحاكمة أو الدول أو الشعوب .

وفي هذا الاطار يمكن أن نضع نماذج ظهرت في الفرن الرابع الهجري في التاريخ العام العالمي وتمثلت في كتب المسعودي التي عرضنا لها ،والتي تشكل سلسلة ضخمة، وكذلك كتاب البدء والتاريخ للمقدسي ، وكتاب تجارب الامم لمسكويه . ويمكن اضافة نموذج آخر للتاريخ العالمي في القرن الرابع الهجري وهو كتاب حمزة الاصفهاني(١٢٥)، **ابو عبد الله حمزة بن حسن الاصفهاني** (ت ٣٦٠هـ/٩٧٠م) كان مجال درسه اللغة والتاريخ مع انه حضر دروسا على ائمة محدثي عصره في خلال الرحلات التي قام بها ، وزار بغداد في زمن عضد الدولة ابن بويه ما بين سنين ٣٠٨هـ/٩٢٠م و ٣٢٣هـ/٩٣٤م(١٢٦) . وكتاب « **تاريخ سني ملوك الارض والانبياء** » وضعه سنة ٣٥٠هـ/٩٦١م ونشره المستشرق جو توالد سنة ١٨٤٤م/١٢٦٠هـ وأعيد طبعه باسم « تاريخ ملوك الارض » ثم طبع في برلين عام ١٣٤٠هـ/١٩٢١م ، جعله الاصفهاني في عشرة ابواب سرد فيها سني ملوك الفرس والروم واليونان والقبط والاسرائيليين ، ثم ساق تواريخ لخم وغسان وحمير وملوك كندة ، **ثم تواريخ قريش ملوك عرب الاسلام** وجعل له مقدمة مختصرة في توزع الامم في الارض في تقاويمها المتعددة ، وختمه بفصول سرد فيها تواريخ

النيروز بعد الهجرة ، وبعض الاحداث الطريفة المتعلقة بالنجوم والآثار والكوارث الطبيعية ،واخيرا يذكر ولاة خراسان منذ أبي مسلم حتى الحسن بن بويه وسنة ٣٢٩هـ .

والحقيقة أن هذا الكتاب رغم صغره ورغم ضيق نظر الاصفهاني في الشعوب والارض ، له أهمية كنظرة عالمية من خلال الزمن ، ولذلك وضعناه في اطار التاريخ العام العالمي ، فقد اعتمد الاصفهاني على حسابات المنجمين والازياج الفلكية ونظمها في نسق متصل ليضع الامم على أبعاد الزمن ، فتاريخه عمقي زمني ،كما أنه بسبب ثقافته العلمية الواسعة أعار النواحي الثقافية مكانا طيبا فجاء كتابه مصدرا ثمينا للأخبار الثقافية(١٣٧) .

والحقيقة ان الاصفهاني في كتابه ينظر الى تاريخ العالم نظرة رجل فارسي خراساني ، ويسهل تعليل ذلك اذا عرفنا أنه من أصل فارس ، الا أن نقده لا يتسم بالتعصب الجنسي أو التحامل على العرب ، ولا يتورع من أن ينتقد تواريخ الفرس القديمة ويتهمها كلها بأنها غير صحيحة . كما كان يتجه في كتابه الى النقد ويهتم بالدقة في اختيار مصادر معلوماته .

ومن التغيير الذي حدث في تنظيم المادة في القرن الرابع الهجري ما تم في كتب تراجم الرجال ، والاتجاه نحو تنظيمها ضمن عدد من الاسس المنهجية ، فظهرت بعض الكتب مرتبة على حروف الهجاء ، وهو الاساس الذي تعتمد عليه كتب التاريخ المحلي الديني ، ولقد ضاعت معظم الكتب التي صنفت في هذا القرن على هذا الاساس ،وأقدم تاريخ محلي ديني باق رتبت ترجمته على نظام المعاجم ، أي وفقا للترتيب الابجدي ، هو **لأبي الوليد عبد الله بن الفرضي الاندلسي ت ٤٠٣هـ/١٠١٣م** ، المولود في قرطبة عام ٣٥١هـ/٩٦٢م . درس الفقه والحديث والادب والتاريخ في مسقط رأسه على أبي زكريا يحيى بن مالك والقاضي محمد بن يحيى ، وأصبح فيها عالما في فن الحديث واجتمعت له مكتبة كبيرة في رحلاته(١٣٨) ، وخاصة في رحلته من الاندلس الى المشرق سنة ٣٨٢هـ/٩٩٢م حيث حج وأخذ عن علماء المشرق وسمع منهم وكتب عن آمالهم(١٣٩) . ومصنفه **تاريخ علماء الاندلس** (١٤٠) ، هو المصنف الذي بقي من مؤلفاته، ويذكر ابن خلكان بأن هذا المصنف هو الذي ذيل عليه ابن بشكوال بكتابه الذي سماه « الصلة »(١٤١) .

جاء في مقدمة المؤلف عن موضوعه « هذا كتاب جمعناه في فقهاء الاندلس وعلمائهم ورواتهم وأصل العناية بهم ملخصا على حروف المعجم قصدنا فيه قصد الاختصار ، اذ كانت نيتنا قديما أن نؤلف في ذلك كتابا على المدن يشتمل على الاخبار والحكايات ثم عاقت عوائقه عن بلوغ المراد ، فجمعنا هذا الكتاب مختصر(١٤٢) . والكتاب أجزاء

عشرة ، جاء ذلك في آخره بهذه العبارة « آخر الجزء العاشر وبه كمل التاريخ ، والحمد لله رب العالمين وصلواته على محمد خاتم النبيين »(١٤٣) .

مما سبق يتبين أن علم التاريخ عند المسلمين في القرن الرابع الهجري ، أصبح جزءاً من النهضة الحضارية التي شهدها هذا القرن ، وتأثر بالمؤثرات والمتغيرات التي جرت فيه ، وتطور بالمؤثرات والمتغيرات التي جرت فيه ، وتطور ضمن قواعد معينة شملت مؤرخيه ومادته ومناهجه ، ليصبح هذا العلم في حالة تختلف عما كان عليه في القرون الهجرية الثلاثة الاولى ، وضمن متغيرات معينة .

وفي هذه الدراسة رصدنا التحول الذي حصل في العناصر الثلاثة ، المؤرخ والمادة والمنهج وتبيان المتغيرات التي تم فيها هذا التطور ضمن التمزق في الوحدة السياسية الاسلامية والابتعاد عن المفهوم الديني للتاريخ .

لقد انضمت مجموعات عديدة التنوع من المؤرخين الذين اوجدوا الطابع الحكومي للكتب التاريخية في الوقت الذي لم يتميز فيها مؤلفو هذه الكتب ، وانما استفادوا من المادة التي أصبحت في متناول أيديهم ، كما قاموا بتسجيل جوانب الحياة الاقتصادية والاجتماعية والادبية ، مما جعل هذا المظهر سمة بارزة تميز بها مؤرخو القرن الرابع الهجري ، بالاضافة الى ظهور المؤرخ الموضوعي والمؤرخ المتخصص في المجهود التاريخي .

وفي المادة حدث التأثير بالحاجات السياسية والادارية والتأثر بالعلوم الاخرى فاصبحت المادة التاريخية تشتمل على أسرار تاريخية نادرة وحقائق توضح ما كانت عليه الحال واهم هذه العلوم الفلسفة والجغرافية ، فظهر المؤرخ الذي ينظر الى التاريخ نظرة فلسفية والمؤرخ الجغرافي الذي يمزج التاريخ بالجغرافية .

وفي المناهج فقد حدث التغيير نتيجة للنضج الحضاري واكتمال الفكر التاريخي فسقط الاسناد وتزايد الاعتماد على الوثائق وبرز التاريخ الموسوعي العالمي وتوطدت كتب التراجم ضمن الاسس المنهجية .



الهوامش

(١) راجع كتابه «الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري» ، ترجمة عبد الهادي أبو ريده ، م(٢) ، بيروت : دار الكتاب العربي، ١٩٦٨. والعنوان في الاصل يعني عصر الاحياء الاسلامي أو عصر النهضة الاسلامية والمترجم اول من استعمل هذا التعبير .

(٢) ظهر ذلك واضحا بعد الخليفة المتوكل على الله العباسي (ت٢٤٧هـ/٨٦١م) حيث بدا النفوذ التركي ثم مقتل الخليفة المقتدر (٣٢٠هـ/٩٣٢م) . راجع : ابن الاثير ، الكامل في التاريخ م(٨) ، بيروت : دار صادر ١٩٧٩م ، ص ٢٤١ .

(٣) المصدر ذاته ، ص ٤٩٩ .

(٤) للتوسع في ذلك راجع : حسن ابراهيم حسن ، تاريخ الاسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي ، ج(٢) ، بيروت : دار احياء التراث العربي ، ١٩٦٥ ، ص٧١-٨٣ و ١١٣ - ١٢٣ .

(٥) المرجع ذاته : ص ١٤٣ - ١٦٥ و ١٧٢ . وأيضا : ابن الاثير ، المرجع السابق ،م(٨) ص ٥٩٠ .

(٦) تلقب عبد الرحمن الثالث الناصر بالخليفة عام ٣١٦هـ/٩٢٨م ، كما بويع عبد الله المهدي بالخلافة ولقب بالمهدي امير المؤمنين عام ٢٩٧هـ/٩٠٩م في مدينة رقادة ليستمر هذا اللقب فيمن خلفه من الفاطميين . راجع : المقري نفح الطيب ج(١) ، طبعة القاهرة ١٩٤٩م ، ص ٢٧٧ . وأيضا : ابن عذارى المراكشي ، البيان المغرب في أخبار المغرب ج(١) ، تحقيق ليفي بروفنسال وكولان ، طبعة بيروت : دار صادر ١٩٥٠ ، ص٢١٠ ، ٢١٨ .

(٧) ج.هرنشو ، علم التاريخ ، ترجمه وعلق حواشيه وأضاف اليه فصلا في التاريخ عند العرب عبد الحميد العبادي ، بيروت : دار الحداثة ، ١٩٨٢ ، ص ٤٠ - ٤١ .

(٨) سيده اسماعيل كاشف ، مصادر التاريخ الاسلامي ومناهج البحث فيه ، القاهرة ، ١٩٦٠ .

(٩) ابن خلدون ، مقدمة ابن خلدون ،ج(١) تحقيق علي عبد الواقي ، القاهرة : دار نهضة مصر للطبع والنشر ، د.ت ، ص ٢٩١ .

(١٠) جلال الدين السيوطي ، الشماريخ في علم التاريخ ، حققه محمد بن ابراهيم الشيباني، الكويت : الدار السلفية ١٣٩٩هـ / ١٩٧٨م ص١ .

(١١) هاملتون جب ، دراسات في حضارة الاسلام، ترجمة احسان عباس وآخرون ، بيروت : دار العلم للملايين ، ١٩٧٩م ص ١٥٨-١٥٩ .

(١٢) وهم صابئة حران ، ويختلفون عن الصابئيين البابليين ، وصابئة حران في الواقع وثنيون يقولون بالثنوية الالهية ، وقد اتخذوا الصابئة اسما بعد مجيء الاسلام ليضمنوا لأنفسهم الامان الذي منحه الاسلام لأهل الكتاب . انظر : دائرة المعارف الاسلامية ، الترجمة العربية على الاصلين الانكليزي والفرنسي ، م(١٤) طبعة بيروت ، ص٨٩-٩١ . وأيضا : فيليب حتي وآخرون ، تاريخ العرب المطول ،ج(٢) ، بيروت : دار الكشاف ١٩٥٨ ، ص ٤٣٨ - ٤٣٩ .

(١٣) دائرة المعارف الاسلامية ، م(١٤) ، ص ٨٣. وللتوسع في ترجمة حياة الصابىء ، راجع : ابن خلكان ، وفيات الاعيان ، م(١)تح الدكتور احسان عباس ، بيروت : ١٩٦٩ - ١٩٧٢ ، ٥٤ - ٥٧ . وأيضا : كتاب حفيدة أبو الحسن الهلال بن المحسن (ت ٤٤٨هـ/١٠٥٦م) « الوزراء » تح عبد الستار أحمد فراج ، القاهرة : دار احياء الكتب العربية ١٩٥٨ ، ترجمة المؤلف .

(١٤) D.S. Margoliouth, **Iectures on Arabic Historians,** University of Calcutta, 1929, P. 134.

وحول الاسباب التي جعلت الصابيء يؤلف هذا الكتاب راجع : ابن خلكان ، المرجع السابق ، ص ٥٢ .

(١٥) Margoliouth, op. Cit. , P. 134.

ويؤيد هذا الرأي « جب » ويشير أنه مفقود، لكنه يذكر أنه لا يمنع أن تكون هذه الشذرات منه موجودة في كتب أخرى . راجع : جب، المرجع السابق ، ص ١٦٣ .

(١٦) المرجع السابق ، ص ٤٩ .

(١٧) انظر : ابن خلكان ، م(١) ، ص ٥١ .

(١٨) Margoliouth, P. 135.

(١٩) هو الدكتور محمد حسين الزبيدي ،وقام بتحقيق وشرح هذا المخطوط ، والذي كان قد وجد أصلا في آخر كتاب « الجامع الكافي في فقه الزيدية في اليمن » باسم « المنتزع من كتاب التاجي » ، ونشرته وزارة الاعلام في بغداد .

(٢٠) المنتزع من كتاب التاجي لأبي اسحق الصابيء ، المقدمة ، ص٧ .

(٢١) دائرة المعارف الاسلامية ، م(١٤)، ص٨٥ . ومما يجدر ذكره أن هذه الرسائل تم تنقيحها والتعليق على حواشيها من قبل الامير شكيب أرسلان تحت عنوان « المختار من رسائل أبي اسحق ابراهيم بن هلال بن زهرون الصابيء» ونشرته دار النهضة الحديثة . بيروت .

(٢٢) للاطلاع على نص احدى هذه الرسائل راجع: المختار من رسائل الصابيء ، ص ١٧-١٨ .

(٢٣) Margoliouth, P. 134 .

(٢٤) ابن خلكان ، م(٤) ، ص ٢٧٧ .

(٢٥) Bianpuis, th. , « La transmissio -n du Hadith en syrie à Lépo - que Fatimide » BEO , XXV (1972) , P. 88.

(٢٦) ابن خلكان ، م(٤) ، ص ٢٧٧ . وأيضا : محمد عبد الله عنان ،مؤرخو مصر الاسلامية، القاهرة ١٩٦٩ ، ص ٥٢ .

(٢٧) قام بتحقيق هذا الجزء من أخبار مصر للمسبحي وكتب مقدمته وحواشيه ووضع فهارسه أيمن فؤاد سيد وتيادي بيانكي ، ونشره المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية الشرقية بالقاهرة ،وهو صورة مكبرة لمخطوطة الاسكوريال ، ونشر في القاهرة عام ١٩٧٧ .

(٢٨) يعرف بتاعة الذهب ، أحد قصور قاعات القصر الكبير بناه العزيز بالله (٣٦٥هـ/ ٩٧٥م - ٣٨٦هـ/٩٩٦م) . راجع المقريزي ، الخطط م(١) ، طبعة بولاق ، ١٢٧٠هـ ، ص ٣٨٥ .

(٢٩) المسبحي ، أخبار مصر ، ج(٤٠) ، ص٢٨ .

(٣٠) نفس المصدر ، ص ٣٠ .

(٣١) نفس المصدر ، ص ٧٢ .

(٣٢) حول ما جاء في الكتاب عن الحجاز ، راجع : نفس المصدر ، ص ٧٢ وعن الشام ، ص٥٦ وهي أمثلة توضح العلاقات التي كانت قائمة بين مصر وهذه الاقطار سياسيا واقتصاديا .

(٣٣) عمر رضا كحالة ، معجم المؤلفين ، م(٢) ، بيروت : دار احياء التراث العربي ، ١٩٥٧، ص١٦٨ . وأيضا : دائرة المعارف الاسلامية، م(١) ، ص ٢٧٧ .

(٣٤) راجع : أمينة بيطار ، العرب والوعي التاريخي ، الفكر العربي ، عدد ٢٧ (أيار وحزيران ١٩٨٢) ، ص ١٣٥ - ١٣٦ .

(٣٥) القفطي ، جمال أبو الحسن علي بن يوسف، أخبار العلماء بأخبار الحكماء ، طبعة ليبزر ، ص ٢٢١ وحول وظيفته كخازن للكتب راجع: Margoliouth, P. 128 .

(٣٦) للاطلاع على ترجمة لحياة الروز راوري ، راجع : ابن خلكان ، م(٥) ، ص ١٢٤ - ١٣٦ .

(٣٧) Margoliouth, P. 128 .

(٣٨) هاري المر بارنز ، تاريخ الكتابة التاريخية، ترجمة محمد عبد الرحمن برج ، ج(١) القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٤ ، ص ١٣٩ .

(٣٩) Margoliouth, P. 128.

(٤٠) Ibid. , PP. 128 - 129.

وأيضا : ص ٣٦ — ٣٧ .

(٤١) للتوسع في الوصول الى قيمة مسكويه كمؤرخ راجع :

J. Sauvaget, **Historiens Arabes**, Paris ; Librairie d' Amérique et d' Orient, Adrien - Maison - neuve, 1946 , pp. 75-81 .

(٤٢) دائرة المعارف الاسلامية ، م(١١) ، ص ٤٣٤ .

(٤٣) كحالة ، م(٤) ، ص ٢٢١ .

(٤٤) السيد عبد العزيز سالم ، التاريخ والمؤرخون العرب ، بيروت: دار النهضة العربية ،١٩٨١، ص١٠٠ .

(٤٥) فرانز روزنثال ، علم التاريخ عند المسلمين، ترجمة صالح أحمد العلي ، بيروت : مؤسسة الرسالة ١٩٨٣ ، ص ١١٦ .

(٤٦) سالم ، المرجع السابق ، ص١٠٠ .

(٤٧) علي ابراهيم حسن ، استخدام المصادر وطرق البحث في التاريخ الاسلامي العام ، القاهرة : النهضة المصرية ١٩٨٠ ، ص١٣٤.

(٤٨) أغناطيوس يوليانوفتش كراتشكوفسكي ، تاريخ الادب الجغرافي العربي ،ق(١) ، ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم ، راجعه ايغور بليانيف ، الادارة الثقافية لجامعة الدول العربية ، ١٩٥٧ ، ص ٢٢٢ .

(٤٩) ابن النديم ، الفهرست ، تح رضا تجدد ، طهران ، ١٩٧١ ، ص ٣ .

(٥٠) نفس المصدر ، ص٣–٥ .

(٥١) نفس المصدر ، ص ٤٥ — ٩٧ .

(٥٢) كراتشكوفسكي ، المرجع السابق ، ق(١) ، ص ٢٣٣ .

(٥٣) نفس المرجع والصفحة .

(٥٤) ابن خلكان ، م٢ ، ص ٩١ .

(٥٥) عنان ، المرجع السابق ، ص ٣٤–٣٥ .

(٥٦) كراتشكوفسكي ، ق (١) ، ص ١٦٩ .

(٥٧) للتوسع بتراث ابن زولاق التاريخي ،راجع: عنان ، ص ٤٥ — ٤٦ .

(٥٨) جاء ذكر هذه الكتب في ابن خلكان ، م(٢)، ص٩١ . وأيضا : جلال الدين السيوطي ، حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة ،ج(١) طبعة مصر ، ١٢٩٩هـ ، ص٢٦٥ .

(٥٩) علي ابراهيم حسن ، المرجع السابق ،ص ١٤٠ .

(٦٠) عنان ، ص ٣٧ .

(٦١) ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، مصر ، ج١ ص ١٥٦ .

(٦٢) راجع : ابن سعيد الاندلسي (علي بن موسى) المغرب في حلى المغرب ، ج(١) ، القسم الخاص بمصر ، تح زكي محمد حسن وشوقي ضيف وسيده كاشف ، القاهرة : ١٩٥٣ ، ص ٥ .

(٦٣) مما يثبت أن ابن سعيد الاندلسي اعتمد على كتاب ابن زولاق ما أشار اليه المؤلف حول ذلك في الديباجة حيث قال : « والنقل في ذلك من كتاب الحسن بن زولاق » العيون الدعيسج في خلى دولة بني طغج . راجع : المغرب في حلى المغرب ، ص٤ .

(٦٤) اقتبس المقريزي في كتابه « اتعاظ الحنفا بأخبار الائمة الفاطميين الخلفا » فصلا برمته عن ابن زولاق ، ج(١) ، تح جمال الدين الشيال . القاهرة ، ١٣٦٧هـ ، ص ١٠٢ ، ١٣٤ ، ١٣٥ ، ١٧١ و ٢٢٧ — ٢٣٢ .ويقتبس من سيرة المعز في « المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار » المعروف بخطط المقريزية ج(١) ، مكتبة الثقافة الفرنسية ، القاهرة، ١٩٨٧م ، ص ٣٥١ ، ٣٥٢ ، ٣٥٣ ، ٣٥٤ ، ٣٦٠ و ٣٧٧ — ٣٧٨ .

(٦٥) جاء ذكر حامد بن العباس كوزير للمقتدر في: المسعودي ، مروج الذهب ومعادن الجوهر ج (٤) ، تح محمد محي الدين عبد الحميد ، بيروت ، ١٩٤٨ ص ١٣٢ و ٣٠٥ .

(٦٦) تم تحقيق هذا الكتاب من قبل مصطفى السقا وابراهيم الابياري وعبد الحفيظ شلبي ونشرته مطبعة مصطفى البابي الحلبي في القاهرة عام ١٩٣٨ ، وكان قد عثر على قسم منه المستشرق متريك النمسوي في مكتبة فيينا عام ١٩٢٦ .

(٦٧) الجهشياري ، الوزراء والكتاب ، تح السقا وآخرون ، القاهرة : ١٩٣٨ ، ص ٣٨ — ٤٠، ٦٧ ، ٧٤ .

(٦٨) المصدر ذاته ، ص ٣٩ .

(٦٩) قام بتحقيق الكتاب عبد الستار أحمد فراج، تحت اسم « الوزراء » أو « تحفة الامراء في تاريخ الوزراء » ، ونشرته دار احياء الكتب العربية ، ١٩٥٨م .

(٧٠) ابن خلكان ، م(٦) ، ص ١٠١ ، ص١٠٥ . وحول ما رواه المؤرخون حول اسلام هلال بعد أن تجاوز الاربعين راجع : عبد الرحمن ابن علي الجوزي ، المنتظم في تاريخ الملوك والامم ، ج(٨) طبعة بيروت ، ص ١٧٦ ، ١٧٩، وأيضا أبو منصور عبد الملك بن محمد بن الثعالبي ، يتمية الدهر في محاسن أهل العصر ج(٢) ، تح محمد محي الدين عبد الحميد ، القاهرة ، ص ٢٤٢ — ٢٦٢ .

(٧١) هلال بن المحسن ، مقدمة المحقق .

(٧٢) سميحة أبو الفضل ، ذيول مؤرخي الصابئة على تاريخ الطبري ، دراسات تاريخية ، جامعة دمشق ، السنة الثامنة ، العددان ٢٥ و ٢٦ آذار — حزيران ١٩٨٧ ، ص١٩٤ .

(٧٣) Margoliouth, P. 147.

(٧٤) هلال بن المحسن ، مقدمة المحقق .

(٧٥) نفس المصدر ، ص١٠ . وحول وزراء ابن الفرات ، نفس المصدر ، ص ١١ — ٢٨٣ .

(٧٦) وصلت الينا في مخطوط واحد ، باسم كتاب الولاة وكتاب القضاة ، وطبع مهذبا ومصححا بقلم رفن جست بمطبعة الآباء اليسوعيين في بيروت عام ١٩٠٨م وقد حصل عليه المتحف البريطاني وهو محفوظ فيه تحت رقم Add و 324 , 23 ، ويشتمل على كتابي الولاة والقضاة . راجع : علي ابراهيم حسن ، استخدام المصادر ، ص ١٣٩ .

(٧٧) هو الحافظ أبو عبد الرحمن احمد بن علي ابن شعيب النسائي (٢١٥هـ/٨٣٠م — ٣٠٢هـ / ٩١٥م) كان امام أهل عصره في الحديث ، سكن بمصر وله كتاب السنن . راجع : ابن خلكان ، م(١) ، ص ٧٧ — ٧٨ .

(٧٨) هو أبو القاسم علي بن الحسن بن قديد المصري (ت ٣١٢هـ /٩٢٤م / محدث وراوية مشهور . راجع : جلال الدين السيوطي ، حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة ،ج(١) مصر ١٢٩٩هـ ، ص١٧٣ .

(٧٩) حققه الدكتور حسين نصار بنفس العنوان « ولاة مصر » ونشرته دار صادر ببيروت ، د. ت .

(٨٠) للاطلاع على ما كتبه حول ولاية عمرو بن العاص وولاية عبد الله بن سعد راجع : محمد بن يوسف الكندي ، ولاة مصر ، ص ٢٩ — ٣٧.

(٨١) الكندي ، كتاب القضاة ، طبعه جوتهيل ، ص١٤٢ — ١٤٣ .

(٨٢) نسبته الى بيت المقدس ، راجع : خير الدين الزركلي ، الاعلام م(٧) ، بيروت : دار العلم للملايين ، الطبعة السادسة ١٩٨٤، ص٢٥٣.

(٨٣) ولد البلخي عام ٢٣٥هـ/٨٥٠م ، باحدى قرى بلخ ، وبدأ نشاطه كمعلم ، ثم اضطره الاهتمام بدراسة العلوم الشرعية الى القيام برحلة الى بغداد مركز الحضارة ، وتوفي عام ٣٢٢هـ/٩٣٣م . راجع : (كراتشكوفسكي، القسم الاول ، ص ١٩٨) .

(٨٤) للتوسع في هذا الموضوع والاثباتات التي اعتمد « هوار » ، راجع : نفس المرجع ، ص ١٩٨ و ٢٢٤ .

(٨٥) للاطلاع على هذه الفصول وما جاء فيها انظر : المطهر بن طاهر المقدسي ، البدء والتاريخ ، ج(١) طبعة هوار ، باريس ١٩١٩، ص ٨ ــ ١٧ .

(٨٦) يعتقد فرانز روزنثال أن المقدسي لم ينجح قط في ابداع صورة متماسكة بالرغم من محاولاته ، علم التاريخ عند المسلمين ، ص ١٦١ .

(٨٧) لمعرفة المزيد عن كتاب البدء والتاريخ وقيمته التاريخية راجع :
J, Sauvaget, PP. 65 - 72.

(٨٨) نقولا زيادة ، الجغرافية والرحلات عند العرب ، بيروت ، ١٩٦٢ ، ص ١٤٨ .

(٨٩) نشرت رسالته في بيروت عام ١٩٨٧ محققة من قبل الدكتور سامي الدهان وهي نسخة فراهن

(٩٠) كانت كلمة بلغار تطلق على الشعب وعلى البلاد وعلى الحاضرة التي كانت تقع شرقي نهر الفولغا ، والمعروف أن شعب البلغار أسس في بداية العصور الوسطى دولتين أقدمها التي زارها ابن فضلان وانتشر فيها الاسلام في حوض الفولغا الاوسط أو نهر اتل كما تسميه المصادر العربية .

(٩١) دائرة المعارف الاسلامية ، م(١) ، ص٢٥٥ . الزركلي م(١) ، ص١٩٦ .

(٩٢) رسالة ابن فضلان ، تحقيق الدكتور سامي الدهان ، بيروت : مكتبة الثقافة العالمية ، ١٩٨٧ ، ص ٦٨ .

(٩٣) كراتشكوفسكي ، القسم الاول ص ١٨٧ . وحول الآخرين الذين اشتركوا في السفارة : رسالة ابن فضلان ، ص ٧٦ .

(٩٤) يقول ابن فضلان في رسالته عن الجيهاني « وصرنا الى الجيهاني ، وهو كاتب أمير خراسان وهو يدعى بخراسان الشيخ العميد فتقدم بأخذ دار لنا وأقام لنا وجلا يقضي حوائجنا في كل ما نريد فأقمنا أياما » رسالة ابن فضلان ، ص ٧٦ .

(٩٥) كراتشكوفسكي ، القسم الاول ، ص ١٨٧ . ويؤيد ذلك ياقوت الحموي ، في معجم البلدان م(٢) طبعه وستنفلد في ليبسك ، ص ٤٨٥ وما بعدها . أما حول الاماكن التي مرت فيها السفارة بالتفصيل فيمكن معرفتها من : رسالة ابن فضلان ص ٧٣ وما بعدها .

(٩٦) رسالة ابن فضلان ، ص ٦١ .

(٩٧) نقولا زيادة ، الرحالة العرب ، القاهرة ، ١٩٥٦ ، ص ٤٤ .

(٩٨) الحسن بن أحمد بن يعقوب الهمداني ، صفة جزيرة العرب ، تح محمد بن علي الاكوع الحوالي ، أشرف على طبعه حمد الجاسر ، الرياض : دار اليمامة ، ١٩٧٤م ص ٩ــ١٤.

(٩٩) كراتشكوفسكي ، القسم الاول ، ص ١٧٠ ــ ١٧١ . والمعرفة المزيد حول المقدسي وكتابه انظر : نفس المرجع ، ص ٢٠٨ ــ ٢١٠ .

(١٠٠) صفة جزيرة العرب ، تح الاكوع ، ص٢١ــ٢٢

(١٠١) كراتشكوفسكي ، القسم الاول ، ص ١٧٠ ــ ١٧١ . ونشير هنا أن الجزء الثاني من كتاب الاكليل نشر في بغداد عام ١٩٨٠ محققا ومعلقا عليه من قبل محمد بن علي الاكوع الحوالي.

(١٠٢) لمعرفة المزيد حول هذا الموضوع راجع : جواد علي ، المفصل في تاريخ العرب م(١) ، بيروت ، دار العلم للملايين ١٩٦٨ ، ص ٩٠ ــ ٩٩ .

(١٠٣) صفة جزيرة العرب ، مقدمة المحقق ، ص١١.

(١٠٤) يذكر ابن النديم في الفهرست انه من أهل المغرب . راجع : الفهرست ، ص ١٧١ .

(١٠٥) طبع في بيروت بأربعة أجزاء ، وقام بتحقيقه محي الدين عبد الحميد ، ونشرته المكتبة الاسلامية سنة ١٩٤٨ .

(١٠٦) المسعودي ، مروج الذهب ج(١) ، ص١٢ .

(١٠٧) نفس المصدر ، ص ١٨ .

(١٠٨) نقولا زيادة ، المرجع السابق ، ص٤٧ .

(١٠٩) كاشف ، المرجع السابق ، ص ٣٦ .

(١١٠) علي ابراهيم حسن ، المرجع السابق ، ص ٨٥ .

(١١١) طبع كتاب التنبيه والاشراف في ليدن عام ١٨٩٤ وهو الجزء الثامن في المكتبة الجغرافية

التي عني بنشرها العلامة المستشرق دي جوجي وقد علق عليها وذيلها بملاحظات كثيرة واقتصرت على النافع منها ، وأخيرا تم تحقيقه ونشره من قبل عبد الله اسماعيل الصاوي في ترجمة عربية في القاهرة عام ١٩٣٨ .

(١١٢) المسعودي ، التنبيه والاشراف ، مقدمة المؤلف ، ص ٤-٥ .

(١١٣) نفس المصدر ، ص ٥ .

(١١٤) طبعت هذه النسخة بنفقة عبد الحميد احمد حنفي في القاهرة عام ١٩٣٨ .

(١١٥) للاطلاع على مصنفات المسعودي وهي كثيرة راجع : أخبار الزمان ، مقدمة المحقق . وأيضا : مروج الذهب ، ج(١) ، ص٤-٨ .

(١١٦) المسعودي ، أخبار الزمان ، المقدمة .

(١١٧) كراتشكوفسكي ، القسم الاول ، ص ١٨٣ .

(١١٨) شاكر مصطفى ، التاريخ العربي والمؤرخون ج(٢) ، بيروت : دار العلم للملايين ، ١٩٨٠، ص ٥٢ .

(١١٩) هاري المر بارنز ، المرجع السابق ، ج(٢) ، J. Sauvaget. op. cit, PP. 39-50. ص١٢٨ - ١٣٩ .
وللتوسع في ذلك راجع :

(١٢٠) شاكر مصطفى ، المرجع السابق ، ج(٢) ، ص٥٣ .

(١٢١) الفهرست ، ص١٦٧ . ابن خلكان ، م (٤) ، ص ٣٥٦ - ٣٦٠ .

(١٢١ ب) دائرة المعارف الاسلامية ،م(١٤) ، ص٣٨٨ وللاطلاع على علاقة الصولي بالخليفة الراضي راجع : المسعودي ، مروج الذهب ج(٤) ص ٣٢٣ - ٣٢٤ .

(١٢٢) النسخة التي عني بنشرها ج. هيورث د.ن نشرتها ثانية في بيروت دار المسيرة ١٩٧٩ .

(١٢٣) الصولي ، أخبار الراضي بالله والمتقي لله أو تاريخ الدولة العباسية من ٣٢٢هـ الى ٣٣٣ هـ من كتاب الاوراق ، عني بنشره ج. هيورث .د.ن ، بيروت : دار المسيرة ، ١٩٧٩م ، ص١ .

(١٢٤) نفس المصدر ، ص ٢١ .

(١٢٥) J. Sauvaget, Historiens Arabes, P. 33.

(١٢٦) للاطلاع على هؤلاء العمال ، راجع : الصولي ص ٢٨٤ - ٢٨٥ .

(١٢٧) J. Sauvaget, PP. 32 - 33.

(١٢٨) المسعودي ، مروج الذهب م(١) ص ١٥ .

(١٢٩) كراتشكوفسكي ، القسم الاول ، ص١٦٨ .

(١٣٠) ليلى الصباغ ، دراسة في منهجية البحث التاريخي ، جامعة دمشق ، دمشق ١٩٨٧ ، ص ٥٧ .

(١٣١) للاطلاع على ترجمة له ، راجع الفهرست ، ص ١٠٥ .

(١٣٢) حكمت أبو زيد ، التاريخ ، تعليمه وتعلمه حتى نهاية القرن التاسع عشر ، القاهرة : الانجلو المصرية ، ١٩٦١ ، ص ٣٤٢ - ٣٤٣.

(١٣٣) كاشف ، المرجع السابق ، ص ٤٩ .

(١٣٤) أمينة بيطار ، العرب والوعي التاريخي ، المرجع السابق ص ١٣٤ .

(١٣٥) للاطلاع على كتبه الاخرى ، راجع الفهرست، ص ١٥٤ .

(١٣٦) الزركلي ، م(٢) ، ص ٢٧٧ .

(١٣٧) روزنثال ، ص ١٨٩ ، شاكر مصطفى ، المرجع نفسه ، ج(١) ، ص ٤٠٦ - ٤٠٧ .

(١٣٨) انظر : ابن خلكان ، م(٤) ، ص١٢١ . وأيضا : الزركلي ، م(٤) ، ص ١٢١ .

(١٣٩) للتوسع راجع : دائرة المعارف الاسلامية ، م(١) ، ص ٢٥٤ .

(١٤٠) أصدرته المكتبة الاندلسية ، طبعة كودرا بجزئين ٧ ، ٨ ونشر في عام ١٩٨١ وأخيرا حققه وقدم له ووضع فهارسه ابراهيم الابياري في جزئين ونشر في القاهرة وبيروت، الجزء الاول عام ١٩٨٣ والجزء الثاني عام ١٩٨٤ .

(١٤١) ابن خلكان ، م(٣) ، ص ١٠٥ .

(١٤٢) ابن الفرضي ، تاريخ علماء الاندلس ، ج(١) ص ١٦ .

(١٤٣) المصدر ذاته ، ص ١٨ .

القصص والقصاص في صدر الاسلام

بين الواقع التاريخي والنظرة الفقهية

د. جمــال محمد داود جــوده

جامعة النجاح الوطنية (نابلس)

لقد تناولت بعض الدراسات الحديثة القصص الديني بالبحث ، بشكل مباشــر أو غير مباشر ، ويبدو أنها خلطت بينه وبين القصص الشــعبي ، واختلفت كذلك ، كاختلافها في كثير من القضايا ، في تحديد هوية هؤلاء القصاص ، والكشف عن دورهم في صدر الاسلام(١) . سيحاول هذا البحث سد بعض الثغرات التي لم تتطرق اليهــا هذه الدراســات .

١ ـ لقد وردت كلمة قصص ومشتقاتها في القرآن الكريم في احدى وعشرين آيــة كريمة ، أفادت غالبيتها معنى الاخبار والحديث عن الامم السابقة من خلال الحديث عن الانبياء والرسل ، وهي تحمل في مجملها ، مواعظ أو دلائل ومعجزات تفيد تذكير الناس بالماضي وتهدف الى توجيههم نحــو المنهج او الشريعة الالهية(٢) . يقول تعالى في هذا المعنى : « فاقصص القصص لعلهم يتفكرون »(٣) . ويقول تعالى ايضــا :

« وكلا نقص عليك من أنبــاء الرسل ما نثبت بــه فؤادك وجاءك في هذه الحــق وموعظة وذكرى للمؤمنين »(٤).

ويقول جل ذكره في آخر سورة يوسف : « لقد كان في قَصَصِهم عبــرةٌ لاولي الالبــاب » .

ويبدو واضحا أن الحديث عن الماضــي (التاريخ) الذي اتخذ غالبــا للعظــة والاستفادة من أحداثه(٥) حدد في القرآن بتاريخ الرسل والانبياء كما سـردتها الكتب السـماوية(٦) .

وتشعرنا بعض الآيات القرآنية ان عملية ابلاغ الرسل صلوات الله عليهم رسالات ربهم الى الناس عدّت بمثابة قصص (وعظ) ديني ، ويفهم هذا من قوله تعالى :

« يا معشر الجن والانس ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي وينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا شهدنا على أنفسنا وغرتهم الحياة الدنيا وشهدوا على أنفسهم انهم كانوا كافرين »(٧) .

ويتضح ذلك اكثر في قوله تعالى :

« وعلى الذين هادوا حرمنا ما قصصنا عليك من قبل وما ظلمانهم ولكن أنفسهم كانوا يظلمون »(٨) .

وأمام هذا يفهم ما أورده أبو داوود في السنن تحت باب القصص أيام الرسول (ص) من كونه قراءة القرآن وحفظه وتفهم معانيه(٩) ، وانطلاقا من هذا فانه لما طلب صحابة الرسول (ص) منه أن يقص عليهم نزل قوله تعالى ليبلغهم نوعية القصص الجديد :

« الر تلك آيات الكتاب المبين انا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا اليك هذا القرآن وان كنت من قبله لمن الغافلين »(١٠) .

وأكد الرسول (ص) لصحابته هذا الاتجاه والالتزام بالقصص (الوعظ) القرآني . فقد قال في خطبته فيهم قبل خروجه لتبوك :

« أيها الناس ، ان أصدق الحديث كتاب الله ، وأوثق العرى كلمة التقوى . وخير الملة ملة ابراهيم ، وخير السنن سنة محمد . وأشرف الحديث ذكر الله ، وأحسن القصص القرآن . . »(١١) .

وأمام هذا كله فان القصص (الوعظ) الديني أو الاسلامي . الذي أخذ يستمد وعظه من القرآن وإجراءات الرسول (ص) ، حل لدى الجماعة المسلمة محل القصص الجاهلي الذي كان يؤخذ من كلام الكهان والسدنة والحكام والشعراء والخطباء .

٢ — تحدثنا الروايات عن ارتباط القصص والقصاص بالذكر وأهل الذكر في القرن الهجري الاول ، يذكر الحسن البصري (ت ١١٠ هـ) عن الاسود بن سريع التميمي ، أول من قص في مسجد البصرة أيام عمر بن الخطاب ما نصه :

« وكان الاسود بن سريع يذكر في آخر المسجد »(١٢)

وروى ان علي بن ابي طالب دخل على رجل يقص في المسجد ، فقال : ما هذا ؟ فقالوا : « رجل يذكّر الناس »(١٣) ، وقال عطاء بن يسار (ت١٠٣ هـ) قاص اهل المدينة في عبيد بن عمير الليثي (ت ٦٨ هـ) اول من قص بمكة في أيام عمر بن الخطاب :

« دخلت أنا وعبيد بن عمير على عائشة رضي الله عنها ، فقالت : من هذا ؟ فقال: أنا عبيد بن عمير ، قالت : قاص أهل مكة ؟ قال : نعم ، قالت : خفف فان الذكر ثقيل »(١٤) .

ويورد الذهبي رواية تقول :

« كان عبيد بن عمير يذكّر الناس ، فيحضر ابن عمر مجلسه »(١٥) . وقال سفيان الثوري (ت.١٦٠هـ) لعبد الرحمن بن مهدي : أما لكم مذكّر ؟ قال : « بلى لنا قاص »(١٦) .

ان ارتباط كلمة « ذِكْر » بالقصص يوضح لنا تسمية مجالس القصاص بمجالس الذكر(١٧) فقد قال أنس بن مالك (ت ٩٢هـ) صاحب رسول الله (ص) موجها حديثه لاثنين من القصاص ، وواصفا لهم مجالس القصاص في بداية الاسلام ، ومفرقا بينها وبين مجالس الذكر في أواخر أيامه :

« لم تكن مجالس الذكر مثل مجالسكم هذه ، يقص أحدكم وعظه على أصحابه ويسرد الحديث سردا ، وانما كنا نقعد فنذكر الايمان ونتدبر القرآن ونتفقه في الدين »(١٨) .

هذا وقد وردت أخبار كثيرة عن الرسول (ص) وصحابته في الثناء على مجالس الذكر ، أو بمعنى آخر في الثناء على مجالس القصاص(١٩) ، واذا ما تطرقنا الى مدلول كلمة « ذِكْر » ومشتقاتها في القرآن الكريم لوجدنا أنها استعملت للدلالة على الكتب السماوية بما فيها القرآن الكريم(٢٠) واستعملت كذلك للدلالة على الصلاة ، والتسبيح ، وتمجيد الله ، وحمده ، والثناء عليه ، وقراءة القرآن ، وتفهم معانيه(٢١) واستعملت أيضا لتعطي معنى العبرة والموعظة(٢٢) وضمن هذا الواقع يمكن القول : إن الله أراد بقوله تعالى :

« فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون »(٢٣)

أي : القصاص (الوعاظ) فهم أهل الذكر أو أهل القرآن ، أو أهل الكتب السماوية كذلك ، كما دل تفسير هذه الآية الكريمة(٢٤) .

ان الروايات التي تناولت القصاص بالحديث تذكر أيضا ان القصاص كانوا من قراء القرآن ، فمن أوائل القصاص تميم الداري ، الذي استأذن عمر بن الخطاب أن يذكّر الناس في مسجد المدينة ، فأذن له عمر بذلك ، واستمر في قصصه بمسجد المدينة حتى نهاية خلافة عثمان(٢٥) فقيل عنه إنه كان من جماع القرآن على عهد رسول الله (ص)(٢٦) ، وعرف عنه قراءته للقران ، فيذكر أنه قرأ القرآن في

ركعة واحـدة(٢٧) وكان كثير التهجد ، فقد قام ليلة حتى أصبـح بآية من القـرآن الكريم ، يركـع ويسـجد ويبكي ، والآيـة هي : « أم حسـب الذين اجترحـوا السيئات .. » الى آخر الآيـة(٢٨) ، وعدّ كذلك فيمن كانوا يفتون الناس بالمدينـة المنورة أيام الراشدين(٢٩) . وقد قيل ذلك في أول قاص بمكة أيام عمر بن الخطاب، عبيد بن عمير الليثي (ت٦٨هـ)(٣٠) حيث كان من قراء القرآن ، وقد اعتمدت قراءته لدى القراء فيما بعد(٣١) كما كان لديه مصحف ، وردت فيه بعض القراءات التي تختلف عن القراءات في المصاحف الاخرى(٣٢) ، وكان يقال لابنه عبد الله (عبيد الله) سـيد القراء(٣٣) ونلحظ هذا اذا ما تعرفنـا على أول قاص بمصر ، سـليم بن عتر التجيبي (ت ٧٥ هـ) الذي تولى القصص بها من سنة ٣٨هـ ، وحتى سنة ٦٥ هـ ، حيث قيل عنـه :

« انه كان يختم القرآن في كل ليلة ثلاث مرات ، وكان يجهر ببسم الله الرحمن الرحيم ، ويسجد في المفصل ، ويسلم تسليمة واحدة ، ويقرأ في الاولى بالقصيرة، وفي الثانية بقل هو الله أحد »(٣٤) .

وقيل عن سعيد بن المسيب (ت ٩٤هـ) انه كان يجلس الى قاص يقرأ القـرآن في مسجد المدينة ، ويستمع اليه(٣٥) . ويتحدث المدائني (ت ٢١٥هـ) عن القصاص في جيش معاوية ، الذي توجه الى الكوفة لملاقاة الحسن بن علي سنة ٤٠هـ ، انهم كانـوا يقصون على الجند ، يحرضونهم ويقرؤون سور القرآن عليهـم(٣٦) ويشير عمـر بن العزيز الى قراءة قاص المدينة ، مسلم بن جندب الهذلي (ت١٠٦ هـ) بقوله :

« من سره ان يسمع القرآن غضا فليسمع قراءة مسلم بن جندب »(٣٧)

ويذكر كذلك عن عبد الرحمن بن حجيرة الخولاني (ت ٨٣ هـ) ، قاص الجماعة بمصر أيام عبد الملك بن مروان ، انه كان يقرأ القرآن في المسجد الجامع في يوم الجمعة ثم يقص ، وقد قيل مثل ذلك عن قصاص الجماعة بمصر فيما بعد(٣٨) . وكان عبد الله ابن كثير (ت١٢٣ هـ) قاص الجماعة بمكة ، من القراء السبعة(٣٩) وكان محمد بن كعب القرظي (ت ١٠٨ ــ ١١٨ هـ) من قصاص المدينة الذين درسوا القرآن دراسـة لم يدرسها احد من بعده(٤٠) . وذكر عن عطاء بن يسار (ت ١٠٣ هـ) ، قاص مكة انه كان يمتلك مصحفا ، واعتمد عليه في قراءة القرآن ، ووضع عطاء كذلك كتابا في عـدد سور القرآن الكريم وآياته (٤١) . وهناك روايـة اوردها الشعبي (ت ١٠٥ هـ) عن عائشة أم المؤمنين (ت ٥٨ هـ) ، ورواها كذلك ابن عباس (ت ٦٨ هـ) لمولاه عكرمـة (ت ١٠٥ هـ) تؤيد المعلومات الآنفة الذكر ، وهي ان القصاص كانوا قراء قرآن ، وان القصص في هذه الفترة كان مرتبطا بالقرآن الكريم ، يقول الشعبي :

« قالت عائشة لابن أبي السائب (عطاء)، قاص أهل المدينة : ثلاثا لتبايعني عليها أو لأناجزنك ، فقال ما هــن ؟ بل أنا أبايعك يا أم المؤمنين ، قالت : اجتنب السجع من الدعاء ، فاني عهدت رسول الله وأصحابه لا يفعلون ذلك . وقصّ على الناس في كل جمعة مرة ، فان أبيت فثنتين ، وان ابيت فثلاثا ، فلا تمل (الناس) هذا الكتاب (القرآن الكريم) ، ولا الفينّك تأتي القوم ، وهم في حديث من حديثهم ، فتقطع عليهم حديثهم ، ولكن اتركهم ، فان جرّؤوك عليه وأمروك ، فحدثهم(٤٢) .

كل هذه المعلومات تؤكد لنا ان القصاص كانوا من أهــل الذّكــر ، ومن قراء القرآن ، أو من أهل العلم الذين ارتبط بهم تعليم القرآن وسنة الرسول (ص) للمسلمين ونشرهما بينهم .

١/٣ — من المفروض ان يرتبط تعليم القرآن بالحديث عن آياته ، وأسباب نزولها ، وما تتضمنه هذه الآيات من مواعظ وعبر وأحكام ، ومن المفروض أن يشمل هذا أيضا سير الانبياء واتباعهم ، بما في ذلك سيرة خاتم الانبياء سيدنا محمد بن عبد الله (ص) . فقد قال الحسن البصري عن الاسود بن سريع التميمي أول قاص بالبصرة ما نصه :

« وكان أول من قص في هذا المسجد (مسجد البصرة) قال : غزوت مع رسول الله (ص) أربع غزوات »(٤٣) .

كما يُذكر عن الاسود انه روى ثمانية أحاديث عن الرسول (ص)(٤٤) . ويذكر حماد بن سلمة (ت ١٦٤ هـ) وهو من أهل الحديث ، عن عطاء بن ابي السائب (ت ١٣٦ هـ) ، قاص أهل مكة ، عن ابي البختري الطائي ما نصه :

« أتى علي عليه السلام على رجل في مسجد الكوفة وهو يقص ، فقال : من هذا؟ فقالوا : رجل يحدث ، فقال : اسألوه ، يعرف الناسخ من المنسوخ ، فسألوه ، فقال: لا ، فقال ، ان هذا يقول : اعرفوني اعرفوني انا أبو فلان ، ثم قال له : لا تحدث»(٤٥).

وهناك رواية أوردها الفسوى توضح صلة القصص بسيرة الرسول (ص) والتحديث عنه ، يقول ابو الحصين الهيثم بن شفي :

« خرجت انا وابو عامر المعافري لنصلي بايلياء ، وكان قاصهم رجلا من الازد ، يقال له ابو ريحانة (شمعون بن زيد) من الصحابة ، فسبقني صاحبي (ابو عامر)الى المسجد ، ثم ادركته ، فجلست الى جنبه ، فسألني : هل ادركت قصص ابن ريحانة؟ فقلت له : لا ، فقال : سمعته يقول : نهى رسول الله (ص) عن عشرة : عن الوشر ، والوشم ، والنتف ، وعن مكامعة الرجل بغير شعار ، ومكامعة المرأة بغير شعار ، وأن

يجعل الرجل أسفل ثيابه حريرا مثل الاعاجم ، وعن النهبي ، وركوب النمر ، ولبوس الخاتم ، الا لذي سلطان »(٤٦).

ويحدثنا الزهري (ت ١٢٤ هـ) رواية تعطي نفس المدلول للرواية السابقة حيث يقول :

« اخبرني ابو ادريس الخولاني ، عائذ بن عبد الله ، وكان قاص أهل الشام وقاضيهم في خلافة عبد الملك ، انه سمع ابا هريرة يقول عن الرسول (ص) : من توضأ فليستنثر ، ومن استجمر فليوتر »(٤٧) .

يبدو واضحا ان الحديث عن سيرة الرسول (ص) ورواية الاحاديث عنه عدّا قصصا في القرن الهجري الاول ، كما عدت علوم القرآن وتفسيره قصصا كذلك، ويذكر الجاحظ نصا يوضح هذا كله حين قال :

« ومن القصاص . . . ثم المعلى ، ثم قص في مسجده ابو علي الاسواري ، وهو عمرو بن فائد ، ستا وثلاثين سنة . فابتدأ لهم في تفسير سورة البقرة ، فما ختم القرآن حتى مات ، لانه كان حافظا للسير ولوجوه التأويلات ، فكان ربما يفسر آية واحدة في عدة اسابيع ، كأنّ الاية ذكر فيها يوم بدر ، وكان هو يحفظ ما يجوز ان يلحق في ذلك من الاحاديث الكثيرة »(٤٨) .

٢/٣ – ان الرجوع الى بعض الروايات التي رواها القصاص ، نقلا عن بعض المصادر الاسلامية ، ستزيد من معرفتنا بالقصص والقصاص في صدر الاسلام . فقد أخذ محمد بن اسحاق بن يسار (ت ١٥١ هـ) عدة روايات ترجع الى عبيد بن عمير الليثي (ت ٦٨هـ) أول من قص بمكة في عهد عمر بن الخطاب ، وقد تضمنت هذه الروايات المواضيع الآتية : – قصة نوح وقومه(٤٩) ، ودعوة ابراهيم الخليل الناس للحج الى البيت الحرام ، وتعليمه اياهم مناسك الحج وشعائره(٥٠)، الذبيح في قوله تعالى « وفديناه بذبح عظيم »(٥١)، نزول الوحي على سيدنا محمد (ص) وموقف خديجة وورقة بن نوفل من ذلك ، وبداية الدعوة الاسلامية(٥٢)، فضيلة شهر محرم(٥٣)، فضيلة يوم الجمعة(٥٤) ، سؤال ابن الكواء علي بن ابي طالب عن السواد الذي يظهر في القمر ،(٥٥) تفسير سورة الفيل(٥٦) . ويورد الواقدي رواية له عن دور الملائكة في معركة بدر ، وعدم مشاركتهم المسلمين معركة أحد(٥٧) . عذاب القبر وسؤاله(٥٨) . موقف علي بن أبي طالب من أحداث الفتنة(٥٩) وروى ابنه عبيد الله رواية ، ذكر فيها خطبة الرسول (ص) حين فتح مكة ، اكد فيها على حرمتها(٦٠) وروى عن الرسول (ص) حديث حد شارب الخمر(٦١) .

ومن مشاهير القصاص في بلاد الشام ابو ادريس الخولاني عائذ بن عبد الله (ت ٨٠ هـ) قاص الجماعة بدمشق ايام عبد الملك بن مروان ؛ فقد روى روايات

تطرقت الى المواضيع الآتية : عدد الانبياء والرسل ، وعدد الكتب المنزلة عليهم(٦٢) ، عدد الرسل من السريانيين(٦٣) عدد انبياء بني اسرائيل ، وبعض ما ورد في صحف موسى(٦٤) أحداث بيعة العقبة الاولى ونصوصها(٦٥) أحداث بيعة العقبة الثانية(٦٦) موقف الرسول (ص) من مقتل معاوية(٦٧) حديث الرسول (ص) عن أفضلية أهل الشام عن غيرهم من الامصار(٦٨) حديث عن الرسول (ص) في الوضوء(٦٩) حديث عن الرسول في الدعاء(٧٠) حديث عن الرسول (ص) في تحية المسجد وكيفية الصلاة(٧١) ، خطبة للرسول (ص) شملت الترهيب والترغيب بالنار والجنة(٧٢) .

أما عطاء بن يسار (ت ١٠٣ هـ) قاص أهل المدينة(٧٣) فقد تطرق في رواياته الى الموضوعات الآتية : حملة أبرهة على الكعبة(٧٤) ، هجرة الرسول (ص) الى المدينة ، وهدايا أسعد بن زرارة له(٧٥) ، أسباب نزول بعض الآيات القرآنية(٧٦) ، موقف عمر وعثمان من أهل بدر ، وجعلهما ابن عباس ، الذي يفتي الناس في أيامهما ، من طبقة أهل بدر(٧٧) ، العلاقة الجيدة بين العباس وابنه عبد الله وبين عمر بن الخطاب(٧٨)، فضائل أهل اليمن(٧٩) ، وصية الرسول (ص) لعلي بن أبي طالب عندما أرسله الى اليمن(٨٠) ، معاملة الرسول (ص) الحسنة لأسامة بن زيد(٨١) ، حديث للرسول (ص) في عتق جارية أسلمت(٨٢) ، حديث للرسول (ص) في الوضوء(٨٣) ، حديث للرسول (ص) في صلاة الاعياد والاستسقاء والكسوف(٨٤) ، حديث للرسول (ص) في الغسل يوم الجمعة(٨٥) ، موقف الرسول (ص) من الصلاة في الحرم(٨٦) موقف الرسول (ص) من حركة الشمس وأوقات الصلاة(٨٧) ، موقف الرسول (ص) من صلاة الصبح وصلاة العصر(٨٨) ، موقف الرسول (ص) من القُبَل في شهر رمضان(٨٩) ، موقف معاوية وأبي الدرداء من احدى أشكال البيع(٩٠) ، موقف الرسول (ص) من السلف في البيع(٩١) .

وتناول أبو حمزة محمدُ بن كعب القرظي (ت ١١٨هـ) أحدُ قصاص المدينة(٩٢) وكان ملازما لعمر بن عبد العزيز أيام خلافته(٩٣) في رواياته المواضيع الآتية : قصة قوم لوط(٩٤) ، قصة النبي شعيب وقومه(٩٥) ، قصة اليهود والنبي موسى في مصر(٩٦) ، قصة النبي سليمان ومعجزاته(٩٧) ، قصة الذبيح(٩٨) ، المسيحية ودخولها الى نجران(٩٩) ، نزول الوحي وقصة الاسراء(١٠٠) ، عرض الرسول (ص) الاسلام على القبائل العربية وبخاصة على أهل الطائف(١٠١) ، قصة الغرانيق العلى ، وموقف قريش من ذلك(١٠٢) ، ليلة هجرة الرسول (ص) من مكة الى المدينة(١٠٣) ، غزوة ذات العشيرة (١٠٤) ، معركة أحد(١٠٥) ، غزوة الخندق(١٠٦) ، كتاب صلح الحديبية(١٠٧) ، تعذيب عمار بن ياسر(١٠٨) ، زواج الرسول (ص) احدى سبايا بني قريظة(١٠٩) ، معركة بدر(١١٠) ، غزوة بني قينقاع(١١١) غزوة السويق(١١٢) ، غزوة الخندق(١١٣) ، غزوة بني النضير(١١٤) ، معركة مؤتة(١١٥)، فتح المسلمين لافريقية وصلحهم بها(١١٦)، حياة ابن عباس بعد ما أصبح ضريرا(١١٧) .

وتحدث عبد الله بن كثير (ت ١٢٣ هـ) قاص الجماعة بمكة(١١٨) عن المواضيع الآتية : حملة أبرهة على الكعبة(١١٩) ، استكتاب الرسول (ص) لمعاوية بن أبي سفيان بأمر من الوحي(١٢٠) ، تفسير آيات من القرآن الكريم(١٢١) .

وتطرق مرثد بن عبد الله اليزني (ت ٨٦هـ) قاص الجماعة بالاسكندرية ثم بمصر(١٢٢) ، في رواياته عن رؤية هلال رمضان ، كما رواها عقبة بن عامر الجهني(١٢٣)، أخبار بيعة العقبة الاولى ونصوصها(١٢٤) ، صلح المسلمين لأهل انطابلس بافريقية(١٢٥).

وتحدث معبد بن خالد الجدلي العدواني (ت ١١٨ هـ) قاص أهل الكوفة(١٢٦) وكان في جيش الكوفة الذي يحرس دار الامارة سنة ٥٤هـ(١٢٧) في رواياته عن : حديث الرسول (ص) عن يوم القيامة(١٢٨) ، ولاية المغيرة بن شعبة وزياد بن ابيه للعراق(١٢٩)، قصة الكرسي واليمانية في حركة المختار بن أبي عبيد الثقفي(١٣٠) ، دخول عبد الملك بن مروان الكوفة بعد مقتل مصعب بن الزبير(١٣١) .

اما أبو محمد ثابت بن أسلم البناني القرشي البصري (توفي في البصرة ايام ولاية خالد بن عبد الله القسري على العراق) أحد قصاص البصرة(١٣٢) وكان ممن يجلس الى الحسن البصري(١٣٣) فقد تطرق في رواياته الى : قصة المعراج(١٣٤) ، هدايا الضحاك بن سفيان الكلابي الى الرسول (ص)(١٣٥) ، معركة أحد(١٣٦) ، صفة رسول الله (ص)(١٣٧) ، موقف الرسول (ص) المؤيد للموالي ، والطعن في قضية العرق والنسب للمفاضلة(١٣٨) ، شهادة الرسول (ص) لمعاوية بن أبي سفيان بالجنة (١٣٩) ، ثم وفاة الرسول (ص)(١٤٠) .

ومن القصاص مطر الوراق أبو رجاء بن طهمان الخراساني (ت١٢٩هـ)(١٤١) فقد تناول في رواياته ابراهيم الخليل والحنفية(١٤٢) ، قصص داود وسليمان(١٤٣) وكان خالد (عبد الله) بن يزيد (زيد) الجهني قاصا في جيش مسلمة بن عبد الملك المحاصر للقسطنطينية(١٤٤) فقد روى حديثا عن الرسول (ص) في فضل الرمي في سبيل الله(١٤٥) .

ومن القصاص ايضا سعد بن عبيدة السلمي (ت١٠٥ هـ) كان قاصا بالكوفة(١٤٦) يروي قصة مقتل الحسين بن علي(١٤٧) . ومن قصاص المدينة ايضا عبد الرحمن بن أبي عمرة الانصاري (توفي في نهاية الدولة الاموية)(١٤٨) يتحدث عن موقف الانصار المؤيد لعلي بن أبي طالب وخروجهم معه الى العراق(١٤٩) وخطبة علي بن أبي طالب في صفين يحرض فيها جيشه للقتال(١٥٠) . ومن القصاص كذلك عمر بن ذر الهمذاني (ت١٣٢هـ) كان قاصا بواسط والكوفة في نهاية الدولة الاموية(١٥١) وكان على علاقة جيدة بابي حنيفة(١٥٢) فقد روى عن العمرات التي اداها رسول الله (ص) بعد نبوته(١٥٣) .

ومن القصاص كذلك الحسن البصري (ت ١١٠ هـ) وابنه سعيد(١٥٤) حتى ان أم الحسن البصري كانت تقص على النساء في مسجد البصرة(١٥٥) وقد ألف الحسن البصري كتابا في تفسير القرآن(١٥٦) وعن مواضيع الروايات التي نقلت عن الحسن البصري نلاحظ انها تضمنت المواضيع الآتية: تفسير آيات قرآنية واسباب نزولها(١٥٧)، هبوط آدم وحواء ودفنهما(١٥٨) ، نوح وابناؤه سام وحام ويافث ونسلهم (١٥٩) قصة الذبيح(١٦٠) ، قصة ابراهيم الخليل(١٦١) ، قصة النبي أيوب(١٦٢) قصة النبي يوسف(١٦٣) ، قصة النبي داود وبني اسرائيل(١٦٤) ، قصة الملك سليمان(١٦٥) ، حجة الله على كسرى في سيدنا محمد (ص)(١٦٦) ، نزول الوحي وبداية الدعوة الإسلامية ونزول القرآن(١٦٧) ، محاولات العرب قتل محمد (ص) ورعاية الله له (١٦٨) ، فتوح فارس(١٦٩) ، سيرة عمر بن الخطاب(١٧٠) ، امارة عبد الله بن عامر للعراق(١٧١)، حصار عثمان ومقتله ونتائج ذلك في انقسام الامة(١٧٢)، اجراءات عمر بن الخطاب ضد تجار قريش بعدم السماح بالانتشار في الامصار(١٧٣) ، سيرة طلحة بن عبيد الله(١٧٤) ، صفة عثمان بن عفان(١٧٥) ، بيعة الزبير بن العوام علي بن أبي طالب(١٧٦) ، معركة صفين(١٧٧)، سيرة معاوية بن أبي سفيان ،(١٧٨) الاحداث بالبصرة بعد موت يزيد ابن معاوية(١٧٩) ، موقف الحسن من ثورة يزيد بن المهلب(١٨٠) ، موقف الرسول (ص) الجيد من الموالي(١٨١) ، فتح تستر(١٨٢) ، اسلام علي بن أبي طالب(١٨٣) ، مقتل الحسين بن علي(١٨٤)، موقف الرسول (ص)من مضر وربيعة(١٨٥)، يروي أحاديث عن الرسول(ص) في قضايا كثيرة(١٨٦) ، موقف عمر بن الخطاب من تولية المستضعفين كعمار بن ياسر(١٨٧) حب الرسول (ص) لعمار بن ياسر(١٨٨) ، قصة الاسراء والمعراج(١٨٩) أحاديث الرسول (ص) في فضائل الصحابة(١٩٠) ، زواج الرسول (ص)(١٩١) ، ولاية زياد بن ابيه للعراق وسيرته فيه(١٩٢) ، دفن الرسول (ص)(١٩٣) ، مرض الرسول (ص) وموقفه من قضية الخلافة من بعده بالاشارة لأبي بكر بالصلاة بالمسلمين(١٩٤) ، موقف الرسول(ص) من معاوية(١٩٥) ، أحداث الفتنة الثانية(١٩٦) ، ولاية عبيد الله بن زياد للعراق وسيرته فيه(١٩٧) ، سيرة عثمان بن عفان وفضله(١٩٨) ، عظة الرسول (ص) لابن عباس(١٩٩) ، ولاية ابن عباس للبصرة(٢٠٠) ، موقف الرسول (ص) من أهمية العفو عن الناس(٢٠١) .

وممن ذكر انهم كانوا يقصون قتادة بن دعامة السدوسي (ت ١١٧ هـ)(٢٠٢) ، وقيل عنه انه كان يحفظ ولا يجيد الكتابة(٢٠٣) وقد سمع من الحسن البصري وجلس مكانه في العلم والحديث والتفسير حين توفي الحسن(٢٠٤) فقد تناولت روايته المواضيع الآتية : تفسير الآيات القرآنية وأسباب نزولها(٢٠٥) ، يوم القيامة(٢٠٦) ، قصة ابليس(٢٠٧) ، قصة حواء وآدم(٢٠٨) وهبوطهما على الارض ، بناء آدم للبيت الحرام(٢٠٩) ، الانبياء بين آدم ونوح(٢١٠) ، سفينة نوح(٢١١) ، أبناء نوح ونسلهم(٢١٢)، قصة ابراهيم الخليل ومناسك الحج(٢١٣) ، قصة قوم لوط(٢١٤) ، قوم شعيب(٢١٥) ،

قصة موسى وفرعون(٢١٦) ، قصة قارون(٢١٧) ، قصة داود(٢١٨) ، قصة أصحاب الكهف(٢١٩) ، من أول الناس اسلاما(٢٢٠) ، نزول الوحي والقرآن على محمد (ص) بمكة والمدينة(٢٢١) ، الصلاة نحو بيت المقدس وتحويلها الى الكعبة(٢٢٢) ، عدد من شارك بمعركة بدر من المسلمين(٢٢٣) ، قصر الصلاة(٢٢٤) ، معركة حنين (٢٢٥) ، نزول الوحي واسلام خديجة أولا(٢٢٦) ، الطلاق (٢٢٧) ، تعذيب بلال بن رباح (٢٢٨) ، قصة الاسراء(٢٢٩) ، سيرة معاوية وابن عباس ومناسك الحج(٢٣٠) ، موقف الرسول (ص) من تولية أبي بكر وعمر ، وموقف المسلمين من تولية علي بن أبي طالب(٢٣١) ، سيرة معاوية ابن أبي سفيان(٢٣٢) ، سيرة زياد بن ابيه في العراق(٢٣٣) ، مقتل حجر بن عدي(٢٣٤) ، سيرة عثمان بن عفان(٢٣٥) ، سيرة عمر بن الخطاب والشورى التي وضعها(٢٣٦) ، عثمان وأبي ذر الغفاري(٢٣٧) ، موقف الحسن بن علي من مقتل عثمان(٢٣٨) ، مقتل عثمان(٢٣٩) شخصية ابن عباس(٢٤٠) ، تاريخ معركة جلولاء(٢٤١) .

ومن بين القصاص المشهورين ، الذين كان لهم صلة باليهودية أو قراءة الكتب القديمة ، كعب الاحبار ، وتبيع ابن امرأة كعب الاحبار ، وكلاهما من حمير ، ووهب بن منبّه من الأبناء باليمن . لقد كان كعب الاحبار يهوديا قبل اسلامه ، وهاجر في خلافة عمر بن الخطاب للمدينة أولا ، ثم استقر بحمص وتوفي بها سنة ٣٢هـ ، قرأ الكتب السماوية القديمة وكان يقص أثناء امارة معاوية على الشام(٢٤٢) شارك المسلمين في غزوة جزيرة قبرص(٢٤٣) ويذكر انه التقى بعلي بن أبي طالب باليمن قبل هجرته واسلامه (٢٤٤) تناول في رواياته المواضيع الآتية : عمر الحياة الدنيا حتى يوم القيامة(٢٤٥) قصة خلق الارض(٢٤٦) ، فضيلة يوم الجمعة(٢٤٧) ، قصة الذبيح(٢٤٨)، تفسير الآيات القرآنية(٢٤٩) ، شهادته لعبد الله بن عباس بتفوقه عليه في العلم(٢٥٠)، شهادته لعبد الله ابن عمرو بن العاص بالعلم(٢٥١) ، قال : ان تسعة أعشار الشر في العراق والجزء الباقي في الغرب(٢٥٢) ، أشار على عمر بن الخطاب بزيارة الشام(٢٥٣) علاقته الجيدة بعمر بن الخطاب ، يروي عن صفته ومقتله كما جاء في التوراة ويتحدث عن شعبية عمر بين المسلمين(٢٥٤) . علاقته الجيدة بعثمان بن عفان ودفاعه عنه أمام أبي ذر الغفاري(٢٥٥)، مخالفته ابن عباس ومعاوية في قراءة بعض الآيات القرآنية(٢٥٦) ، يحدث عمر عن قصة البيت الحرام(٢٥٧) ، تنبأ بفتح الاندلس(٢٥٨) ، تنبأ بمقتل عثمان ومصير الامر من بعده لمعاوية(٢٥٩) ، تنبأ بمصير الامر بعد بني امية الى بني العباس(٢٦٠) .

أما تبيع بن عامر الحميري (ت ١٠١ هـ) وكان يقص على الصحابة بحمص ، وكان قد اسلم ايام أبي بكر(٢٦١) اخذ العلم عن كعب الاحبار ، وقرأ الكتب القديمة(٢٦٢)، شارك في فتح جزيرتي ارواد وروودس سنة ٥٣ هـ(٢٦٣)، ويذكر انه تعلم القرآن على يد مجاهد بن جبر اثناء وجوده بجزيرة ارواد(٢٦٤)، تنبأ بثورة عمرو بن سعيد الاشدق(٢٦٦)، تنبأ أيام عبد الملك بن مروان بأن الامر سيصير الى بني العباس(٢٦٧).

أما وهب بن منبه(٢٦٨) فكان من مشاهير القصاص في اليمن ، وقرأ الكتب القديمة، تناولت رواياته قصة الخلق والبدء وقصص الانبياء والرسل وقصص ملوك حمير وانتهى بسيرة الرسول (ص) حتى وفاته(٢٦٩) ، وقد عرف كل من كعب الاحبار ووهب بن منبه بتفاسيرهم للقرآن الكريم(٢٧٠) .

* * *

مما مر يمكن القول أن القصاص (الوعاظ) كانوا في صدر الاسلام علماء الامة الاسلامية ، كونهم كانوا قراء القرآن ، والمفسرين له ، أو المتحدثين عن احكامه، وقصصه ، ابتداء بقصة البدء والخلق ، ومرورا بقصص الانبياء والرسل ، وانتهاء بسيرة الرسول (ص) . ان اهتمامهم بسيرة الرسول (ص) جعلهم من اهل الحديث والمغازي ، كما اشارت لنا بذلك مواضيع رواياتهم التي وردت في الفقرات السابقة ، وقد ذكر الشافعي كذلك وهب بن منبه وعطاء بن يسار ضمن قائمة أهل الحديث في العراق في القرن الهجري الاول(٢٧١) . ويلاحظ بوضوح كذلك من روايات القصاص انهم لم يقتصروا في قصصهم أو احاديثهم على قصص القرآن بما في ذلك سيرة الرسول الكريم(ص) ومغازيه فقط بل تجاوزوا ذلك للحديث عن قصص (تاريخ) صحابته أو الفترة الراشدة والفترة السفيانية ، ولعل تناولهم أحداث التاريخ الاسلامي بعد وفاة الرسول (ص) ، وهو ما ميزهم عن غيرهم من علماء (قصاص) الامة الاخرين فيما بعد ممن التزم بمفهوم القصص الذي حدد بالقرآن واجراءات الرسول (ص) ، جعلهم بذلك مثار نقد من العلماء الاخرين الذين رفضوا الدخول او القصص في هذه الاحداث، لأن الحديث عن قصص الصحابة والتابعين سيجر الحديث عن الفتنة مما يثير الخلافات بين المسلمين ويهدد وحدة الجماعة الاسلامية .

وأمام هذا كله يمكن القول ان هناك صلة بين القصاص وظهور المدرسة التاريخية الاسلامية في القرن الهجري الاول ، حيث تحدث القصاص عن بدء الخليقة ، وتاريخ الرسل والانبياء ، وتاريخ مكة ، او العرب قبل الاسلام ، وظهور الدعوة ونجاحها ، وسيرة الرسول (ص) ثم سيرة صحابته وتابعيهم (الفترة الراشدة والفترة السفيانية) أو ربط القصاص بين التاريخ العربي الاسلامي والتاريخ العالمي ، وهذا ما جاء فعلا في القرآن الكريم ، وقد اعتمد الهيكل التاريخي لقصصهم أول من كتب عن السيرة النبوية والتاريخ العربي الاسلامي .

٤ ـ لقد عمل القصص او الوعظ الديني على توجيه المجتمع نحو الفكر الديني، وذلك بتوضيح وجهة نظر الاسلام (تعليم الناس القرآن وأحكامه ومواعظه وسنة الرسول (ص) في امور الحياة العامة للانسان المسلم(٢٧٢) وينقلنا هذا بدوره ، كما ستشير الروايات الى ذلك ، الى وجود علاقة بين القصص (القاص) والافتاء (المفتي)

والقضاء (القاضي) وعلى الاخص في القرن الهجري الاول . فقد روى عن علي بن ابي طالب اعتراضه على أحد القصاص الذي كان يفتي ويوضح وجهة نظر الاسلام في امور الناس العامة ، او يجيب عن تساؤلاتهم بالكوفة ، كونه لا يعلم الناسخ من المنسوخ:

« دخل عليّ يوما مسجد الجامع بالكوفة ، فرأى فيه رجلا يعرف بعبد الرحمن ابن دأب ، وكان صاحبا لأبي موسى الاشعري ، وقد تحلق عليه الناس يسألونه ، وهو يخلط الامر بالنهي ، والاباحة بالحظر ، فقال له علي : أتعرف الناسخ من المنسوخ ؟ قال : لا ، قال : هلكت وأهلكت ، أبو من انت ؟ قال : ابو يحيى ، فقال له علي : انت أبو اعرفوني ، وأخذ اذنه ففتلها ، وقال : لا تقصَّنَّ في مسجدنا بعد»(٢٧٣) .

وروى أبو عبد الرحمن السلمي (ت٧٥هـ) احد القراء ورواة الحديث ، الرواية السابقة على النحو التالي :

« ان علي بن ابي طالب مر بقاص فقال : هل علمت الناسخ من المنسوخ ؟ قال : لا ، قال : هلكت وأهلكت »(٢٧٤) .

ويروي الضحاك بن مزاحم (ت١٠٥هـ) الرواية نفسها لكن الحادثة مع ابن عباس حين يقول :

« مر ابن عباس بقاص يقص ، فركضه برجله وقال : تدري الناسخ من المنسوخ؟ قال : لا ، قال : هلكت وأهلكت »(٢٧٥) .

وقد وردت رواية أبي عبد الرحمن السلمي السالفة الذكر على النحو الآتي :

« ان علياً مر على قاص فقال : هل تعرف الناسخ من المنسوخ ؟ قال : لا ، قال: هلكت وأهلكت »(٢٧٦) .

وهناك آية قرآنية تقول :

« قل إني على بينة من ربي وكذبتم به ما عندي ما تستعجلون به إن الحكم الا لله يقص الحق وهو خير الفاصلين»(٢٧٧) .

وقد وردت هذه الآية في قراءات اخرى « .. ان الحكم الا لله يقضي بالحق وهو خير الفاصلين »(٢٧٨) . ويروي حذيفة بن اليمان (ت ٣٦ هـ) رواية نصها :

« انما يفتي الناس احد ثلاثة : رجل قد عرف ناسخ القرآن من منسوخه ، وامير لا يجد من ذلك بدا ، وأحمق متكلف» (٢٧٩) .

وقد وردت هذه الرواية بنص آخر :

« لا يقص على الناس الا ثلاثة : امير او مأمور ، ورجل عرف الناسخ والمنسوخ، ومتكلف احمق »(٢٨٠) .

وقد روت المدرسة الشامية بوساطة عوف بن مالك الاشجعي (ت ٧٣هـ) عن الرسول (ص) حين قال :

« القصاص ثلاثة : امير ، أو مأمور أو احمق مختال »(٢٨١).

ويروي عمرو بن شعيب عن ابيه عن جده (عبد الله بن عمرو بن العاص)المعنى نفسه حين يقول :

« لا يقص على الناس الا ثلاثة : أمير ، او مأمور ، أو متكلف »(٢٨٢) .

يبدو واضحا استعمال الرواة لكل من : يقص ، ويقضي ، ويفتي، لتعطي جميعها معنى واحدا ، وهذا ما يشعر بأن القصص والقضاء والافتاء كان يتولاها أو يقوم بها شخص واحد في القرن الهجري الاول . ونرى في روايات اخرى ما يؤكد ذلك ، فقد أطلق الرواة على مشاهير القصاص الاوائل لفظ القضاة ، فقد ذكر عن مسجد البصرة، ما نصه : « ويقال بل اختطه الاسود بن سريع التميمي ، (أول من قص بالبصرة منذ أيام عمر بن الخطاب)وهو اول من قضي فيه »(٢٨٣) . ويقول مجاهد (ت١٠٣هـ) عن أول قاص بمكة عبيد بن عمير الليثي(ت٦٨هـ) : «كنا نفتخر بفقيهنا ابن عباس، وقاضينا عبيد بن عمير »(٢٨٤) ويذكر اليعقوبي : « وكان عبد الله (عبيد) بن عمير الليثي قاضي ابن الزبير »(٢٨٥) . وتولى كذلك وهب بن منبه (ت١١٠هـ) احد مشاهير قصاص القرن الاول الهجري ، القضاء لعمر بن عبد العزيز على صنعاء ، وبقي على قضائها حتى توفي(٢٨٦) .

وتظهر لنا الروايات كذلك تولي القصاص أيام بني أمية القصص والقضاء فيذكر عن سليم بن عتر التجيبي ، أول قاص بمصر ، ما نصه :

« ان أول من قص بمصر سليمان (سليم) من عتر التجيبي سنة ثمان وثلاثين ، وجمع له القضاء الى القصص ، ثم عزل عن القضاء وأفرد بالقصص ، وكانت ولايته على القصص والقضاء سبعا وثلاثين سنة فيها سنتان قبل القضاء (اي أنه جمع له القضاء سنة ٤٠هـ حين بويع معاوية بالخلافة) »(٢٨٧) .

ونجد الشيء نفسه في رواية لعبد الرحمن بن حجيرة الخولاني (ت٨٣هـ) وهو قاص وقاضي الجماعة بمصر ، حين يقول :

« اختصم الى سليم بن عتر في ميراث ، فقضي بين الورثة ، ثم تذاكروا فعادوا

اليه ، فقضي بينهم ، وكتب كتابا بقضائه ، واشهد فيه شيوخ الجند ، فكان اول من سجل بقضائه»(٢٨٨) .

ويذكر ان عبد الرحمن بن حجيرة الخولاني ، قاص الجماعة بمصر قد تولى القضاء والقصص بمصر سنة ٧٦هـ ، وتولى المنصب نفسه بمصر ايام بني امية كل من مرشد بن عبد الله اليزني ، وتوبة بن نمر الحضرمي ، وخير بن نعيم الحضرمي(٢٨٩). وقد تولى كذلك ابو ادريس الخولاني عائذ بن عبد الله (ت ٨٠ هـ) القصص والقضاء بدمشق لمعاوية وعبد الملك بن مروان(٢٩٠) .

ان الروايات السالفة الذكر تؤكد وبدون ادنى شك ان هناك صلة بين القصص (القاص) والافتاء (المفتي) والقضاء (القاضي) ، وربما يتساءل البعض ان هذا ربما نشأ عن طريق النساخ ، واختلاف القراءات ، وان الاصل ربما يكون واحدا وهو (يقص ، يقضي ، يفتي) مثلا ، وهذا التساؤل لا يمكن قبوله من خلال المعلومات السابقة . وأمام هذا فانه لاول وهلة لا يمكن القول ان القاص كان هو القاضي وهو نفسه المفتي ، فمن الجائز ان يقص القاضي وكذلك المفتي ولكن من الصعب ان يقضي القاص بين الناس او يفتيهم ، وهذا يمكن قبوله من مفهوم هذه الوظائف في القرن الثاني للهجرة وما بعده حين اخذ يختلف بعضها عن بعض . ويشعرنا هذا البحث ان هذه الوظائف كانت في الاصل وظيفة واحدة الا وهي القصص ، فقد كان القاص ايام الرسول (ص) وفي الفترة الراشدة عالم الامة ، وقارىء القرآن ، وعارفا لسيرة الرسول الكريم (ص) فهو الشخص المؤهل للافتاء أو توضيح وجهة نظر الاسلام في امور حياة الناس العامة ، وهو المؤهل كذلك لان يتولى مهنة القضاء التي تعني غالبا فض النزاعات على اسس اسلامية وباشراف من السلطة ، والتي بدأت بالظهور ايام معاوية بن ابي سفيان(٢٩١) . واستمر القصاص بوعظ الناس او القصص عليهم او الافتاء لهم . وهكذا يبدو الخلط الذي جاء في الروايات عنهم مقبولا .

يبدو ان القضاء في الفترة الاموية ، ونتيجة انقسام الامة ، وظهور الفرق والاحزاب ، قد تأثر بالسلطة القائمة ، دع عنك أن العلماء والفقهاء في القرن الثاني للهجرة لم يأخذوا بعين الاعتبار الاجراءات الاموية كأساس او سوابق شرعية يعتمد عليها ، لذا عبّر بعض العلماء الورعين عن رغبتهم وتأييدهم للقصص (الوعظ) وكراهيتهم لتولي القضاء بين الناس ، أو بمعنى آخر أيدوا الافتاء الذي لا يتأثر بالسياسة ، وعارضوا الافتاء الذي يتأثر بالسياسة ، فقد قال عبد الله بن عمرو بن العاص (ت ٦٥ هـ) للقاص وقاضي الجماعة في مصر ، سليم بن عتر التجيبي ، عندما وعظه سليم بمبايعة يزيد بن معاوية :

« وأما انت يا سليم بن عتر فكنت قاصا ، فكان معك ملكان يعينانك ويذكرانك، ثم صرت قاضيا ، فمعك شيطانان يزيغانك عن الحق ويفتنانك »(٢٩٢) .

وقال عبد الرحمن بن حجيرة الخولاني (ت ٨٣ هـ) ، وكان قاص الجماعة بمصر وقاضيها ، ، لما علم ان ابنه تولى القصص : « الحمد لله ذكر ابني وذكّر » ، ولما عزل وتولى القضاء قال: « انا لله هلك ابني وأهلك »(٢٩٣) . ولما عزل أبو ادريس الخولاني عن القصص ، واقر على القضاء ، قال : « عزلوني عن رغبتي ، وتركوني في رهبتي »(٢٩٤) . وهكذا رفض كل من : إياس بن معاوية ابتداء(٢٩٥) ومكحول الشامي(٢٩٦) وأبو حنيفة(٢٩٧) تولي منصب القضاء عندما طلبت السلطة منهم ذلك .

٥ ــ يبدو أن هناك صلة قوية بين القصاص وامامة الصلاة، فان في ربط قضايا الذكر والوعظ والقنوت والدعاء(٢٩٨) بالقصاص تجعلنا نميل الى تأكيد هذه الصلة، وهم مؤهلون بطبيعة الحال لذلك كونهم قراء القرآن ، وعلى علم بسيرة الرسول (ص) وسنته . كما ان هناك روايات أخرى تشعرنا بهذا بشكل غير مباشر ، فيذكر عن تميم الداري ، أول من قص في مسجد الرسول (ص) بالمدينة المنورة ايام عمر وعثمان، انه أول من عمل المنبر في المسجد(٢٩٩) وان صلة المنبر بامامة الصلاة وبخطبة الجمعة أو غيرها من الايام معروفة أيضا(٣٠٠) ويقال أيضا عنه انه أول من اسرج المسجد كذلك(٣٠١) وتتحدث الروايات عن صفة صلاته وقراءته للقرآن(٣٠٢) ويشير اليعقوبي الى ما يجعلنا نميل أكثر فأكثر الى صلة تميم بامامة الصلاة حين يذكر في احداث سنة ١٤هـ ما نصه :

« وفي هذه السنة سن عمر بن الخطاب قيام شهر رمضان ، وكتب بذلك الى البلدان ، وأمر ابي بن كعب وتميما الداري ان يصليا بالناس ، فقيل له في ذلك : ان رسول الله (ص) لم يفعله ، وان ابا بكر لم يفعله ، فقال : ان تكن بدعة فما احسنها من بدعة »(٣٠٣) .

وروت مثل ذلك الشافعية والمالكية والحنفية حين قالت ان عمر بن الخطاب امر ابيا وتميما ان يقوما للناس باحدى عشرة ركعة في ليالي رمضان(٣٠٤) .

ان صلة القصاص بخطبة الجمعة تؤكد كذلك كونهم كانوا أئمة الناس في الصلاة، فيذكر الزهري (ت ١٢٤ هـ) عن تميم الداري :

« اول من قص في مسجد رسول الله (ص) تميم الداري ، استأذن عمر بن الخطاب ان يذكر الناس فأبى عليه حتى كان آخر ولايته ، فاذن له ان يذكر الناس في يوم الجمعة ، فكان تميم يقوم بذلك قبل ان يخرج عمر »(٣٠٥) .

واورد المقريزي نصا آخر عن القصص بمصر ، يشير الى صلة القاص بخطبة

الجمعة ، فبعد ذكره رفض عبد العزيز بن مزوان نسخة المصحف التي بعثها الحجاج الى مصر وكتابته نسخة اخرى يقول :

« ولما فرغ من هذا المصحف ، كان يحمل الى المسجد الجامع غداة كل جمعة من دار عبد العزيز فيقرأ فيه ثم يقص ، ثم يرد الى موضعه ، فكان أول من قرأ فيه عبد الرحمن بن حجيرة الخولاني ، لانه كان يتولى القصص والقضاء يومئذ ، وذلك في سنة ست وسبعين »(٢٠٦) .

ولما كانت خطبة الجمعة وعظا وتذكيرا وقراءة قرآن(٢٠٧) أو قصصا ، فلا شك ان تميما كان يقوم بذلك ، كما ان الخلاف في الروايات في الحديث عن القصص وخطبة الجمعة ، في تأدية ذلك قياما أو جلوسا ، يزيد من الشعور لدينا بكون القاص هو امام الصلاة ، والمتولي لخطبة الجمعة في الوقت نفسه كذلك(٢٠٨)،وفي هذا ما يوحي بأن امام المسلمين أو الخليفة وضع مكانه من ينوب عنه في امامة الصلاة ، أي وكل مهمة الوعظ أو القصص الى القصاص(٢٠٩) . وفي تولي القصاص القضاء ايام بني امية ، وان القضاة كانوا هم نواب الخلفاء والامراء في امامة الصلاة في المساجد الجامعة ، ما يؤيد ما ذهبنا اليه(٢١٠) .

وتتحدث بعض الروايات بشكل مباشر عن كون القاص امام البلد الذي يقص فيه، فيذكر الجاحظ عن مسلم بن جندب الهذلي ، قاص مسجد النبي (ص) في المدينة : « وكان امامهم وقارئهم »(٢١١) . ويفهم هذا أيضا من رواية احد التابعين ابي الحصين الهيثم بن شفي حين يقول :

« خرجت انا وابو عامر المعافري لنصلي بايلياء ، وكان قاصهم رجلا من الازد ، يقال له ابو ريحانة ، وكان من الصحابة ، فسبقني صاحبي الى المسجد ، ثم أدركته، فجلست جنبه ، فسألني : هل ادركت قصص ابي ريحانة ؟ قلت : لا ، قال : سمعته يقول : نهى رسول الله (ص) عن عشرة . . »(٢١٢) .

ويتضح هذا أيضا من كلام القضاعي عن القصص بمصر حين يذكر قائمة بأسماء القصاص بمصر في القرون الاربعة الاولى ، ويذكر قراءة القصاص القرآن في المسجد، وقصصهم في أيام الجمع ، ثم يسمي هؤلاء القصاص بالائمة فجأة ، ويكمل حديثه ليبين تماما امامة القاص للصلاة حين يقول :

« ولم تزل الائمة يقرؤن في المسجد الجامع في هذا المصحف في كل يوم جمعة ، الى ان ولي القصص ابو رجب العلاء بن عاصم الخولاني في سنة اثنتين وثمانين ومائة ، فقرأ فيه يوم الاثنين ، وكان قد جعل المطلب الخزاعي ، امير مصر من قبل المأمون، رزق ابي رجب العلاء عشرة دنانير على القصص . وهو اول من سلم في الجامع تسليمتين

بكتاب ورد من المأمون يأمر فيه ذلك ، وصلى خلفه محمد بن أدريس الشافعي ، حين قدم الى مصر ، فقال هكذا تكون الصلاة ، ما صليت خلف أحد أتم صلاة من صلاة أبي رجب ولا أحسن »(٢١٣) .

ويورد ابن عبد الحكم رواية توضح كون القاص امام المسلمين في صلاتهم ، ولو أن الفسوى اوردها بصيغة تختلف قليلا ، والرواية هي :

« وولي عبد الله بن عياش القصص ، وقد كان عقبة بن مسلم الهمداني على القصص فنحي عنه (عند مجيء بني العباس) فقال عقبة بن مسلم : والله ما أنا بصاحب خراج ولا حرب ، وانما انا قاص اصلي بالناس [وردت لدى الفسوى : اقص بالناس] فان كنت اطول واحبوا ان اقصر قصرت ، وان كنت اقصر فأحبوا ان اطول طولت»(٢١٤) .

لقد كان القصص او الوعظ الديني مسيسا ايام بني امية الى درجة كبيرة(٢١٥) كما ان تولي القصاص القضاء زاد من معارضة العلماء الورعين للقصاص والقصص، ولما جاء بنو العباس الى الحكم عملوا ، في ما يبدو ، على تخفيف حدة القصص المسيس(٢١٦) وفصلوا مهنة القضاء عن القصص والقصاص ، والزموا القصاص بامامة الصلاة او بالوعظ والارشاد الديني ، ويتضح هذا من مراقبة نص المقريزي الهام الذي تحدث فيه عن القصاص بمصر في الاربعة قرون الاولى ، فاضاف دائما وظيفتي القصص والقضاء للقصاص ايام بني امية ، لكن النص لم يذكر وظيفة القضاء عند ذكره القصاص ايام بني العباس نهائيا(٢١٧) ، ولعل بني العباس ارادوا من ذلك كسب ود أهل الحديث والسنة والفقهاء الكبار الذين اتخذوا موقفا سلبيا من القصص والقصاص منذ بداية القرن الثاني للهجرة .

٦/١ ــ لقد كان لاحداث الفتنة الاولى ونتائجها من انقسام الامة وظهور الفرق والاحزاب الاثر الكبير في استخدام الجميع للفكر الديني أو القصص الديني لخدمة توجهاتهم السياسية في مجابهة بعضهم بعضا ، وعندما تستخدم المعارضة أو الدولة الفكر الديني للدفاع عن وجهة نظرها ، وللهجوم على الطرف الاخر ، يصبح العداء قويا والتطرف والتعصب شديدا ، ولعل ما قاله الاشعري (ت.٣٣٠هـ) في كتابه (مقالات الاسلاميين واختلاف المصلين) يعبر عن هذا أصدق تعبير ، يقول الاشعري:

« اختلف الناس بعد نبيهم (ص) في اشياء كثيرة ، ضلل بعضهم بعضا ، وبرىء بعضهم من بعض ، فصاروا فرقا متباينين، واحزابا مشتتين ، الا أن الاسلام يجمعهم ويشتمل عليهم »(٢١٨) ..

بدات الامة الاسلامية الفتية تعيش مشاكل وازمات جديدة ، وذلك بعد

الانتصارات السريعة ، والهجرة الكثيفة للامصار المفتوحة ، والاستقرار ، والتنظيمات الادارية ، هذه المشاكل تمحضت عن الفتنة الاولى التي ادت بدورها الى انقسام الامة. وكان لابد للوعظ (القصص) الديني ان يتطرق الى هذه المشاكل ، ويتحدث عن أسبابها ، ومجرياتها ، وربما يتوقع بنتائجها ، كأحاديث الفتن والملاحم والتنبؤات ، وهكذا لم يعد القصص (الوعظ) يخدم وحدة الامة ويوجه فكرها نحو العدو المشترك ، كما كان الوضع ايام الرسول (ص) واثناء الفتوحات الاولى ، بل أصبح يخدم جماعة مسلمة ضد اخرى وباسم الدين . يورد المجلسي رواية شامية تحدثنا عن قصص ابي ذر الغفاري حين كان بالشام ، ويصلي بمن يجتمع اليه من الناس . تقول الرواية :

« لما سير عثمان ابا ذر الغفاري من المدينة الى الشام كان يقص علينا ، فيحمد الله ويشهد شهادة الحق ويصلي على النبي (ص) ويقول : أما بعد ، فأنا كنا في جاهليتنا قبل ان ينزل علينا الكتاب ويبعث فينا الرسول(ص) ونحن نوفي بالعهدونصدق الحديث ونحسن الجوار ونقري الضيف ونواسي الفقير ، فلما بعث الله فينا رسوله، وأنزل علينا كتابه ، كانت تلك الاخلاق يرضاها الله ورسوله وكان احق بها اهل الاسلام ، وأولى ان يحفظوها ، ولبثوا ذلك ما شاء الله ان يلبثوا ، ثم ان الولاة قد احدثوا اعمالا قباحا ما نعرفها من سنة تطفيء وبدعة تحيي ، وقائل بحق مكذب ، وأثرة لغير تقى ، وأمين مستأثر عليه من الصالحين ، اللهم ما كان عندك خيرا فاقبضني اليك غير مبدل ولا مغير ، وكان يعيد هذا الكلام ويبديه ، فأتى حبيب بن مسلمة معاوية بن أبي سفيان فقال : ان أبا ذر يفسد عليك الناس بقوله كيت وكيت ، فكتب معاوية الى عثمان بذلك فكتب عثمان : اخرجه الي فلما صار الى المدينة نفاه الى الربذة(٢١٩) .

ويورد لنا المقريزي رواية اخرى تشير الى ان القصص اصبح مجرد القنوت أثناء الصلاة من قبل طرف مسلم على طرف آخر ، تقول الرواية :

« ان علياً رضي الله عنه قنت فدعا على قوم من اهل حربه [يقول عبد الله بن المغفل : (توفي في نهاية خلافة معاوية) امنا علي رضي الله عنه في المغرب فلما رفع رأسه من الركعة الثالثة ذكر معاوية اولا وعمرو بن العاص ثانيا وابا الاعور السلمي ثالثا وكان ابو موسى الاشعري الرابع (المقريزي ، خطط ، جـ٢ ص ٢٥٣)] فبلغ ذلك معاوية ، فأمر رجلا يقص بعد الصبح وبعد المغرب ، يدعو له ولأهل الشام ، فكان ذلك اول القصص »(٢٢٠) .

ويحدثنا المقريزي عن الاتجاه نفسه ايام عبد الملك بن مروان حين يقول :

« كان عبد الملك بن مروان قد شكا الى العلماء ما انتشر عليه من أمور رعيته وتخوفه من كل وجه ، فأشار عليه أبو حبيب الحمصي القاضي بأن يستنصر عليهم

يرفع يديه الى الله تعالى، فكان عبد الملك يدعو ويرفع يديه،وكتب بذلك الى القصاص، فكانوا يرفعون أيديهم بالغداة والعشي »(٢٢١) .

وهكذا يفهم ما روى عن قاص الجماعة بمصر سليم بن عتر التجيبي كيف كان يصلي ويقرأ القرآن « ويرفع يديه في القصص اذا دعا »(٢٢٢) .

وانطلاقا من هذا يمكن فهم قصص عبيد بن عمير الليثي (ت ٦٨هـ) ، قاص أهل مكة ، والذي شارك ابن الزبير في حركته ، وكان يقص في جنده ،ويحرضهم لقتال الجند الشامي ، يقول المدائني :

« وكان عبيد بن عمر الليثي يقص أيام الموادعة ،فيقول له أهل الشام: أيها الرجل الصالح ، ارجع الى ما كنت فيه ، ولا تنتقص خليفة الله في أرضه ، فانه أعظم حرمة من البيت »(٢٢٣) .

وهنا يفهم قول عائشة حين عرفت انه قاص أهل مكة ، فقالت له : « خفف فان الذكر (القصص) ثقيل »(٢٢٤) ويوضح لنا هذا أيضا أحد معاني الذكر ، كما جاء في المعاجم اللغوية ، انه : ذكر العيوب والتحدث عنها والتشهير بها(٢٢٥) . لذا يبدو أن القصص أو الوعظ في المساجد اتخذ صبغة سياسية في القرن الهجري الاول ، فلما سئل عطاء بن يسار (ت ١٠٣ هـ) ، قاص أهل مكة ، عن خطبة الجمعة قال « انما كانت الخطبة تذكيرا »(٢٢٦) يريد بها انها كانت في بداية الاسلام للعظة والعبادة ، ولم تكن مسيسة ، كما أصبحت عليه الآن في ايامه .

وهذا التوجيه الفكري لدى مراكز الاعلام والتعليم في المساجد العامة والجامعة لم يكن مرضيا عنه لدى مجموعة من العلماء الورعين ، ويظهر هذا من رسالة نسبت الى عمر بن عبد العزيز ، هذا الخليفة الراشدي أو المهدي الخامس حيث تكشف لنا هذه الرسالة خطورة التطور او الانحراف في الوعظ الديني بعد احداث الفتنة الاولى لدى قصاص الجماعة وغيرهم ، ما حدا بعمر بن عبد العزيز الى معارضة ذلك في كتاب أرسله الى بعض عماله :

« أما بعد ، فان ناسا من الناس قد التمسوا بعمل الآخرة الدنيا ، وانما مصيرهم ومرجعهم الى الله بعد الموت ، وقد بلغني أن ناسا من القصاص قد أحدثوا الصلاة على أمرائهم عدل ما يصلون على النبي [الصلاة على النبي في صدر الاسلام كانت : اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على ابراهيم وعلى آل ابراهيم ، وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على ابراهيم وعلى آل ابراهيم انك حميد مجيد]. انظر: بخاري ، صحيح جـ٨ ، ص ٩٥ ، ٩٦ ، مالك بن أنس ، موطأ ، ص ١٠٤ ، ١٠٥ .

الشافعي ، ام ، جـ١ ، ص.١٤٠] فاذا جاءك كتابي هذا فمـر القصاص ، فليجعلـوا صلاتهم على النبي خاصة ، وليكن دعاؤهم للمؤمنين والمسلمين عامة ، وليدعوا ما سوى ذلك والسـلام »(٣٢٧) .

٢/٦ ـ وأمام الشعبية الواسعة التي كان يتمتع بها القصاص لدى العامة مـن الناس(٣٢٨) كان لا بد للسلطة مـن مراقبة الوعظ الديني (القصص) ومعارضة مـن يقص بدون اذنها ، فيذكر ابو عامر عبد الله بن الحي :

« حججنا مع معاوية ، فلما قدمنا مكة اخبر برجل قاص يقص على أهل مكة ، وكان مولى لبني مخزوم ، فقال له معاوية : امرت بالقصص ؟ فقال : لا ، قال : فمـا حملك على ان تقص بغير اذن ؟ فقال : انما ننشر علما علمناه الله . فقال : لـو كنت تقدمت اليك لقطعت طابقا منك »(٣٢٩) .

ويورد البخاري رواية في تاريخه تؤكد هذا الاتجاه لدى معاوية بن أبي سفيان ؛ منذ كان عاملا على بلاد الشام في أيـام عثمان ، حيث تذكر الروايـة ، ان ذا الكـلاع أبا شراحيل الحميري ، ابن عم كعب الاحبار (ت٣٢ هـ) قال : كان كعب يقص في امارة معاوية ، فقال عوف بن مالك الاشجعي (ت ٧٣ هـ) لذي الكـلاع : يا أبا شراحيل . ارأيت ابن عمك ، أبأمر الامير يقص ؟ فاني سمعت النبي (ص) يقول : القصاص ثلاثة : امير أو مأمور أو مختـال ، فمكث كعب لا يقص حتـى أرسل اليـه معاويـة يأمـره بالقصص(٣٣٠) . ونتيجة لهذا التوجه لدى السلطة قامت بتعيين قصاص في المساجد الجامعة . وهي المساجد التي تخضع لاشراف السلطة ، ولتزيد من تبعية هؤلاء العلماء أو القصاص أو الائمة قامت بتعيين أرزاق ورواتب شهرية لهم(٣٣١) وسمت المصادر هؤلاء القصاص بقصاص الجماعة(٣٣٢) .

وتبنت السلطة وأتباعها ، أو أهل الجماعة ، هؤلاء القصاص . ولم تعتبر القصص لغيرهم مشروعا كما أوضحنا ، وهكذا يمكن فهم الحديث الذي روته المدرسة الشامية

عن الرسول (ص) وعن طريق عبادة بن الصامت (ت٣٤ هـ) وكعب بن عياض الاشعري (ت ؟ هـ) وعوف بن مالك الاشعري (ت ٧٣ هـ) والذي يقول :

« القصاص ثلاثة : امير ، او مأمور ، او أحمق مختال »(٣٣٣) .

واكدت المدرسة العراقية كذلك على هذا الاتجاه حين روت هذا على لسان حذيفة ابن اليمان (ت٣٦هـ) ولم يرفعه حذيفة للرسول (ص) بل كان مجرد راي له ، وحذيفة هذا من الذين اعتزلوا الفتن ، وممن روى احاديث الفتن والملاحم وحذّر منها ، واكد في رواياته على ضرورة الابقاء على وحدة الجماعة ، وعدم السماح بشقها ، وقد توسع حذيفة بالحديث وزاد على رواة المدرسة الشامية بالسماح للعلماء ممن يعرفون الناسخ

والمنسوخ بممارسة القصص ، وهذا معقول اذا عرفنا ان العراق لم تعترف بالسلطة الاموية في الغالب ، يقول حذيفة :

« لا يقص (يفتي) على الناس الا أحد ثلاثة : امير او مأمور ، ومن عرف الناسخ والمنسوخ ،أو أحمق متكلف »(٢٢٤) .

وهكذا انقسم القصاص الى قصاص خاصة أو جماعة أو سلطة ، وهم ممن يتحدثون ويعظون ويعبرون عن وجهة نظر الدولة ، وقد دعي الى السماع اليهم ،والاخذ عنهم ، وقصاص العامة أو المعارضة ، وهم يمثلون الفرق والاحزاب الاخرى ، وقد نهى عنهم وعن السماع لهم كما أوضح لنا ذلك الليث بن سعد (ت ١٧٥ هـ) حيث تحدث عن القصص فقال :

« وهما قصصان ، قصص العامة (ويمثل الفرق والاحزاب المعارضة)، وقصص الخاصة (وهم أهل الجماعة) ، فأما قصص العامة ، فهو الذي يجتمع اليه النفر من الناس يعظهم ويذكرهم ، فذلك مكروه لمن فعله ، ولمن استمعه ، واما قصص الخاصة، فهو الذي جعله معاوية ، ولى رجلا على القصص ، فاذا سلم من صلاة الصبح، جلس وذكر الله عز وجل ، وحمده ، و مجده ، وصلى على النبي (ص) ودعا للخليفة، ولاهل ولايته ، ولحشمه ، وجنوده ، ودعا على أهل حربه ، وعلى المشركين كافة»(٢٢٥) .

* * *

٧ ــ وفي ختام هذا البحث يجدر بنا مناقشة الموقف من القصص والقصاص كما جاء في المصادر الاسلامية ، محاولين قدر الامكان ، مقارنة الواقع التاريخي بالنظرة الفقهيـــة .

لقد وجد القصص (الوعظ الجاهلي) في المجتمع العربي قبل الاسلام ، وكان يعتمد كلام الكهان ، والشعراء ، والخطباء ، ورواة أيام العرب ، ولما جاء الاسلام أدخل مكان هذا ، القصص الاسلامي الذي اعتمد القرآن ، واجراءات الرسول (ص) . لقد عمل القصص الاسلامي ، أيام الرسول (ص) ، وقبيل الفتوحات الاولى وأثنائها ، لخدمة الدعوة والرسالة العالمية ، وقام بتوجيه الامة نحو الفتوح لنشر هذا الدين الجديد . ولما قامت الخلافة الاسلامية بمؤسساتها بعد الفتوح ، والاستقرار الجديد في امصار ، وظهرت المشاكل على اختلاف أنواعها ، حصلت الفتنة وانقسمت الامة ، فأثر هذا بدوره أ طبيعة وأهداف القصص (الوعظ) الديني ، وبدأ القصص الديني ينحرف عن أهدافه الاولى ويتأثر بالصبغة السياسية الجديدة ، ويبدو لي أن هذه النقلة في طبيعة وأهداف القصص استقرت وتبلورت في نهاية الفترة المروانية الاولى (٦٤ هـ ــ ٩٩هـ) ، حيث ارتبط مفهوم القصص بالصبغة الجديدة التي بدأت منذ

احداث الفتنة الاولى ، الا وهي ذات البعد السياسي ، وانطلاقا من هذا يمكن فهم فهم ما روى عن عبد الله بن عمر (ت ٧٤ هـ) حين قال :

« لم يقص في زمان الرسول (ص) ولا ابي بكر ولا عمر وانما كان القصص ايام الفتنة »(٣٣٦) .

وعبّر الحسن البصري (ت.١١٠هـ) عن وجهة النظر هذه عندما سئل عن بدايات القصص فقال : « احدث القصص في خلافة عثمان بن عفان »(٣٣٧)وذكر محمد بن سيرين (ت ١١٠ هـ) نفس الموقف حين قال : « القصص أمر محدث ، أحدثه هذا الخلق من الخوارج »(٣٣٨) .

هذا الموقف من بداية القصص من هؤلاء العلماء الورعين ، وهما ممن وثقهم أهل الحديث والسنة والفقهاء ، يعبر عن وجهة النظر الفقهية في تحديد بدايات القصص ، والملاحظ أن هذه الآراء ، او من رواها عنهم ، أهملت جذور القصص من الناحية التاريخية ، وارجعوا بدايات القصص الى أحداث الفتنة الاولى ، مع أن القصص موجود قبل هذا التاريخ وترجع جذور الى فترة ما قبل الاسلام ، واستمرت في الفترة الاسلامية بصبغة دينية جديدة كما أوضحنا ، وهكذا فان رأيهم هذا ينطبق على القصص ذات البعد السياسي في الفترة الاسلامية لا القصص بشكل عام .

وأمام هذا فمن المتوقع أن يقول هؤلاء وغيرهم من أهل الحديث والفقهاء مثل : محمد بن سيرين (ت ١١٠ هـ)(٣٣٩) والحسن البصري (ت ١١٠ هـ)(٣٤٠) وأنس بن مالك (ت ١١١ هـ)(٣٤١) والاعمش (ت ١٤٨ هـ)(٣٤٢) وسفيان الثوري (ت ١٦١ هـ)(٣٤٣) ومالك بن أنس (١٧٩ هـ)(٣٤٤) والغزالي (ت.٥٠٢ هـ)(٣٤٥) وابن الجوزي (ت ٥٩٧ هـ)(٣٤٦) والسيوطي (ت ٩١١ هـ)(٣٤٧) بأن القصص بدعة وأمر محدث ، وهذا ينطبق على القصص ذات البعد السياسي لا القصص بشكل عام. ولو كان القصص بدعة ، أو مكروها ، أو ان الاسلام منعه ، لورد في الاثر النبوي ما يؤكد ذلك ، لكن المصادر ، التي اطلعت عليها ، لم تذكر البتة حديثا واحدا عن الرسول (ص) ينهي فيه عن القصص .

وبما أن الفقيه لا يهمه التطور الحاصل بقدر ما يهمه الواقع الذي تبلور في أيامه والسابقة الشرعية لذلك ، فمن المفروض أن يرجع بدايات القصص (ذات البعد السياسي) الذي ساد في أيامه الى احداث الفتنة ، وذلك ان السابقة الشرعية للقصص بالمفهوم السياسي لم توجد أيام الرسول (ص) والشيخين أبي بكر وعمر . وكذلك يمكن فهم موقف الفقيه عندما قال : ان القصص بدعة وامر محدث ، لأن المفهوم الدارج لدى الناس في أيامه للقصص يرتبط تماما بالبعد السياسي. ونتيجة لذلك فقد حبّذ الفقهاء

استعمال كلمة ذكر ، وهي مرادفة لكلمة قصص ، وتناولوا مجالس القصاص أيام الرسول (ص) وصحابته تحت اسم الذكر ، ليفرقوا بين مجالس القصص الاولى ، ومجالس القصص التي تأثرت بالبعد السياسي بعد احداث الفتنة ، والتي استمرت في أيامهم ، ورووا أحاديث عن الرسول (ص) وعن صحابته في الثناء على مجالس الذكر ، كي لا يعطوا العامة من الناس في أيامهم سوابق شرعية للقصص والقصاص واذنا بمجالستهم ، الذي يعني خدمة السياسة ، ويساعد على اشتعال الفتن ، وانقسام الامة الاسلامية .

ويبدو من هذا البحث كذلك أن علماء الامة أو قراءها أو أهل الافتاء أو الامراء والقادة ، وبخاصة قبل احداث الفتنة ونتائجها كانوا قصاصاً دينيين ، ذلك أن الوعظ او التوجيه الفكري كان يعد قصصا في هذه المرحلة المبكرة من صدر الاسلام ، كما أن القصص قبل احداث الفتنة لم يكن لينظر اليه نظرة سلبية، ولما واجه المجتمع الاسلامي بعد الفتوحات والهجرة والاستقرار مشاكل اجتماعية واقتصادية ، وبالتالي سياسية، أدت الى احداث الفتنة التيتمخضت بدورها عن انقسام الامة وظهور الفرق والاحزاب وأهل الجماعة ، وقامت السلطة في ظلهذا التطور بالتأكيد على وجهة نظرها ، وراقبت القصص ، أو الاعلام الفكري ، وعينت قصاصا يتحدثون باسمها ، ويدافعون عن وجهة نظرها السياسية باسم الدين ، وقامت كذلك بالتأكيد على عدم شرعية القصص لغير السلطة أو من ينوب عنها .

وهكذا قام قصاص الجماعة ، أو أئمة المساجد ، أيام بني أمية بالنيل من علي بن أبي طالب ، وقتلة عثمان ، كل يوم في المساجد ، وقاموا كذلك بالصلاة على خلفاء بني أمية ، الى جانب الصلاة علىالرسول (ص) ، وقاموا بالدعاء والقنوت على معارضيهم من الفرق والاحزاب الاسلامية الاخرى . ولا شك أن قصاص (علماء) الفرق الاخرى المعارضة قاموا بنفس الوعظ والتحريض ضد السلطة كما رأينا في قصص أبي ذر الغفاري وقصص عبيد بن عمير الليثي أو قصاص العامة جمعا . وهذا يعني أن قصاص السلطة والمعارضة عملوا محرضين لخدمة سياساتهم باسم الدين في وقت السلم وأثناء القتال في الفتن .

وفي هذا الواقع التاريخي الجديد الذي كان ينذر الامة بالانهيار ويزيد من امكانية اشعال الفتن بشكل مستمر ، ظهر أيام بني أمية مجموعة من العلماء (القصاص ، الورعين والغيورين على وحدة والجماعة ،ورأت هذه المجموعة محاربة هذا التوجه لدى علماء (قصاص) العامة والخاصة ، فاعتزلت الفرق والاحزاب ، ولم تقف مع السلطة في قصصها السياسي، والتزمت بالقرآن الكريم، وسنة الرسول (ص) وسيرة (قصص)

الشيخين أبي بكر وعمر ، وتحدثت عن فضائل الصحابة بما فيهم عثمان وعلي ومعاوية، ولم تتحدث عن قصص الفتنة ، ولم تدخل في تحليل مواقف الذين شاركوا في الفتنة ، كي لا يجرها ذلك الى تخطئة طرف وتبرئة آخر ، وأرجأت ذلك الى الله ، ورات أن الحديث عن ذلك سيؤدي الى الفتنة ،ويزيد الخلاف في داخل الجماعة الواحدة ،وروت أحاديث الفتن والملاحم ، التي تظهر في جوانبها عدم الدخول في الفتن أو اثارتها ، ودعت الى وحدة الجماعة المثلة بالسلطة القائمة واتباعهم ، ونادت بضرورة مبايعة الخليفة، وعدم جواز نقضها ما أقام الصلاة . وهكذا تحول هؤلاء ، وبدون قصد ، الى مناصرين أو حلفاء غير مباشرين للسلطة القائمة ضد المعارضة ، حتـى انهم وان كانوا ضـد تصرفات الخلافة فانهم لم يدعوا الى الثورة (الفتنة) ضدها . هذه الجماعة من العلماء (القصاص) هم الرعيل الاول مـن أهل الحديث والسنة ، وانتفى عنهـم بذلك لقب القصاص الذي استمر لدى علماء المعارضة وعلماء الدولة الذين سخروا الدين لخدمـة سياساتهـم .

ولما ظهر الفقهاء الكبـار في القرن الثاني للهجرة مثل مالك بن انس وأبـي حنيفة والشافعي وسفيان الثوري والاعمش وغيرهم اتبع هؤلاء وجهة نظر اهل الحديث هؤلاء في جميع الامصار ، وحددوا وعظهم الديني أو قصصهم بالقرآن وحديث الرسول (ص) واجراءات صحابته قبل أحداث الفتنة ، وحددوا موضوعات وعظهم أو قصصهم أو فتاويهم بالامور الآتية : الصلاة ، الوضوء ، الطهارة ، الزكاة (الصدقات) ، الصوم ، التجارة ، الحج ، العتاقة ، والولاء ، فضائل الصحابة ، والفتن والملاحم ، والتفسير ، ولم يتحدثوا عن القصص الديني ذي الصبغة السياسية واكتفوا بتناوله بشكل غـير مباشر تحت إبواب الحديث عن الفتن والملاحم . ورفض هؤلاء نتيجة لموقفهم هذا تولي المناصب في الدولة ، كالقضاء وغيره ، تعبيرا منهم عن عدم رضاهم عن سياسة الدولة الداخلية التي تخدم نظريا مفهوم السياسة ، الذي يؤدي الى الفرقة والاختلاف ، ولا تخدم مفهوم النبوة والخلافة الذي يؤدي الى الوحدة والائتلاف .

وامام هذا كله فمن المتوقع أن يتحدث أهل الحديث والفقهاء عن القصاص الذين سخروا الدين لخدمة سياساتهم الحزبية بأنهم يزورون أحاديث مناكير عن الصحابة(٢٤٨) وانهم من أهل البدع وممن كان يسب السلف(٢٤٩) وممـن يكذبون في احاديثهـم(٢٥٠) لذا لا يجوز أخذ الحديث عنهم(٢٥١) . ورووى كذلك أهل الحديث ان علي بن ابي طالب اعترض على قصصهم وطردهم من المساجد(٢٥٢) ، ونهم كلاً من خباب بن الارت(٢٥٣) وعبد الله بن عمر وابنه سالم(٢٥٤) وابا عبد الرحمن السلمي(٢٥٥) وسفيان الثوري(٢٥٦) من الجلوس اليهم وسماع احاديثهم . واثنى محمد بن سيرين على قرار الامير في العراق بمنعهم من القصص(٢٥٧) واعترض مالك بن انس على مواضيع قصصهم في إيامه(٢٥٨) واعترض عليهم كذلك مجالد بن مسعود السلمي(٢٥٩) وسخر منهم العبادلة : ابن عمر

وابن الزبير وابن عمرو وابن العباس(٢٦٠) ووصفهم عبد اللـه بن المبارك بالغوغاء(٢٦١). ويبدو ان اختلاف الامة ، وظهور الفرق ، وحصول التطورات ، أظهـر في نهاية القرن الهجري الاول قضايا الناسخ والمنسوخ سواء في القرآن أو السنة ، حيث انه لم يتفق على هذه القضايا بين علماء الامـة الاسلامية على اختلاف توجهاتهم (٢٦٢) لذا فقد اتهم أهل الحديث القصاص بعدم معرفتهم الناسخ والمنسوخ(٢٦٣) مما يوحي بوجهة نظر أهل الحديث بعدم اعترافهم بافتاء القصاص للناس في أمور حياتهم العامة . وقد اتخذت الدولة العباسية هذا الموقف لدى الفقهاء ، وعزلت القصاص عن مهنة القضاء نهائيا ، وحددت وظيفتهم بامامة الصلاة ، والوعظ الديني غير المسيس ، والدعـاء للخليفة ، وأهل الجماعـة .

لقد لعب القصاص أو الوعاظ ، الذين زجوا بالدين لخدمة توجهاتهم السياسية، دورا كبيرا في اثارة الفتن بين الفرق الاسلامية(٢٦٤) لذا فقـد أثنى العلماء مـن أهـل الحديث والسنة أو علماء الجماعة وعلماء السلطة على القصص الديني الذي لا يتطرق الى السياسة ، ولعل ما قاله الغزالي يعبر عن ذلك أصدق تعبير :

« أخرج علي رضي الله عنه القصاص مـن مسجد جامع البصرة ، فلما سـمع كلام الحسن البصري لم يخرجه اذ كان يتكلم في علم الآخرة ، والتفكير بالموت ، والتنبيه على عيوب النفس ، وآفات الاعمال وخواطر الشيطان ، ووجه الحذر منها ، ويذكـر بآلاء الله ونعمائه ، وتقصير العبد في شكره ، ويعرف حقارة الدنيا وعيوبها وتصرمهـا ونكث عهدها ،وخطر الآخرة وأهوالها فهذا هو التذكير (القصص) المحمود شرعا »(٢٦٥).

الهوامش

(١) انظر : أمين ، أحمد : « فجر الاسـلام » (يبحث في الحياة العقلية في صد الاسلام الى آخر الدولة الاموية) ، مكتبة النهضـة المصرية ، القاهرة ، الطبعة التاسعة سـنة ١٩٦٤ ، ص ١٥٨ — ١٦٢ . سيشار لهـذا المرجع عند وروده مرة أخرى هكذا : أمين . نجم ، وديعة طه : « تميم الداري أول قاص في الاسلام » مقال في مجلة كلية الآداب بجامعة بغداد ، السنة الخامسة عدد ٩ لسنة ١٩٦٢ ص ٢٩٤ وما بعـدها . نجـم ، وديعـة طـه : « القصـص والقصـاص فـي الادب الاسـلامي » نشـر وزارة الاعـلام في الكويت ، مطبعة حكومـة الكويت ، سـنة ١٩٧٢م ، سيشار لهذا المرجع عند وروده فيما بعد هكذا نجم . الاسد ، ناصر الدين : « مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية» دار المعارف ، القاهرة ، الطبعة الخامسة، سنة ١٩٧٨م ، ص ٢٤٥ — ٢٥٠ ، ٣٩٢ ، ٤٢٥ .

(٢) انظر : القرآن الكريم ، آل عمران : ٦٢ ، النساء : ١٦٤ ، الانعام : ٥٧ ، ١٣٠ ، الاعراف : ٧ ، ٣٥ ، ١٠١ ، ١٧٦ ، هود : ١٠٠ ، ١٢٠ ، يوسف : ٣ ، ٥ ، ١١١ . النحل : ١١٨ ، الكهف : ١٣ ، ٦٤ ، طـه: ٩٩ ، النمل : ٧٦ ، القصص : ١١ ، ٧٥ ، غافر (المؤمن) : ٧٨ . انظـر كذلك تأويل الآيات السابقة في الطبري ، محمد بن جرير (ت ٣١٠ هـ) : « جامع البيان عن تأويل

آي القرآن » (٣٠) جزءا ، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده ، الطبعة الثالثة ، سنة ١٩٦٨ ، جـ٣ ص ٢٩٨ – ٣٠٠، جـ٦ ، ص ٢٨ ، ٢٩ ، جـ٨ ، ص ٣٥ ، ١٣١ ، ١٢٢ ، ١٦٧ ، ١٦٨ ، جـ٩ ص ١٠ ، ١٢٤ – ١٢٠ ، جـ١٢ ، ص١١١ ،١١٢، ١٤٥ ، ١٥٠ ، جـ١٣ ، ص ٨٩ ، ٩٠ ، جـ١٤ ص١٨٩ ، ١٩٠ ، جـ١٥ ، ص٢٠٧ ، ٢٧٥ . جـ١٦ ص ٢٠٩ ،جـ٢٠ ، ص ١١ ، ٣٨ ، ٦٠، ٦١ ، جـ٢٤ ، ص ٨٦ . سيشار لهذا المصدر عند وروده مرة أخرى هكذا : طبري، تأويل .

(٣) القرآن الكريم ، الاعراف : ١٧٦ .

(٤) القرآن الكريم ، هود : ١٢٠ .

(٥) انظر السخاوي ، محمد بن عبد الرحمن (ت ٩٥ هـ) : « الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ » دار الكتاب العربي ، بيروت ، سنة ١٩٨٣م ، ص٥ – ٥٠ (الحكمة من كتابة التاريخ) .

(٦) ولعل هذا يفسر لنا المنهج التاريخي الذي اتبعته المدارس الاسلامية حين تناولت سيرة الرسول والتاريخ الاسلامي من خلال الحديث ابتداء من قصة البدء وقصص الانبياء والرسل .

(٧) القرآن الكريم ، الانعام : ١٣٠ . انظر طبري ، تأويل ، جـ٨ ، ص٣٥ ، القرآن الكريم ، الاعراف : آية رقم ٣٥ . طبري ، تأويل ، جـ٨ ، ص١٦٧ – ١٦٨ .

(٨) القرآن الكريم : النحل : ١١٨ ، أراد الله في قوله تعالى « وعلى الذين هادوا حرمنا ما قصصنا عليك من قبل » أي ما أنزلناه عليك يا محمد من تحريم المأكولات على اليهود في سورة الانعام – انظر طبري، تأويل ،جـ١٤ ص ١٨٩ ، ١٩٠ .

(٩) انظر أبو داود ، سليمان بن الاشعث السجستاني (ت ٢٧٥ هـ) : « السنن » (٤) أجزاء ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، القاهرة ، جـ٣ ص٣٢٣ ، ٣٢٤. سيذكر هذا المصدر عند وروده مرة أخرى هكذا : أبو داود .

(١٠) القرآن الكريم ، يوسف : ٢. انظر : طبري، تأويل ، ج١٢ ، ص ١٥٠ .

(١١) المجلسي ، جـ٧٤ ، ص ١٣٣ ، انظر موقف عمر من ذلك : السيوطي ، جلال الدين (ت ٩١١ هـ) « تحذير الخواص من أكاذيب القصاص » تحقيق محمد بن لطفي الصباغ، المكتب الاسلامي ، بيروت ودمشق ، الطبعة الثانية سنة ١٩٨٤م ، ص ٤٢٨ ، سيشار له فيما بعد : السيوطي .

(١٢) ابن سعد ، محمد (ت ٢٣٠ هـ) « الطبقات الكبرى » (٨) أجزاء ، دار صادر ودار بيروت للطباعة والنشر ، بيروت سنة ١٩٦٠م جـ٧ ، ص ٤٢ ، سيشار لهذا المصدر عند وروده مرة أخرى هكذا : ابن سعد ، سيوطي ص ٢٣٤ .

(١٣) سيوطي ، ص ٢٤١ .

(١٤) ابن سعد ، جـ٥ ، ص ٤٦٣ . الذهبي ، محمد بن أحمد بن عثمان (ت ٨٤٨هـ) « سير أعلام النبلاء » (٢٤) جزء ، تحقيق مجموعة من المحققين ، بيروت ، الطبعة الثانية سنة ١٩٨٢م ، جـ٤ ، ص ١٥٧. سيشار لهذا المصدر عند وروده مرة أخرى هكذا : ذهبي، سير . البسنوي، علاء الدين علي درة ، (ت ٩٩٨ هـ) « محاضرة الاوائل ومسامرة الاواخر » دار الكتاب العربي بيروت الطبعة الثانية سنة ١٩٧٨م ، ص ٦٩ سيشار لهذا المصدر عند وروده مرة أخرى هكذا : البسنوي . ابن تغري بردي ، يوسف (ت ٨٧٤ هـ) « النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة » (١٦) جزء ، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية سنة ١٩٦٣م ، جـ١ ، ص ١٩٧ ، سيشار لهذا المصدر عند وروده مرة أخرى هكذا : ابن تغرى بردي .

(١٥) الذهبي ، سير ، جـ٤ ، ص ١٥٧ .

(١٦) البغدادي ، أحمد بن علي (ت ٤٦٣ هـ) « تاريخ بغداد » (١٤) جزء ، دار الكتـاب العربي ، بيروت ، جـ٩، ص ٣٠٨ ، سيشار لهذا المصدر عند وروده مرة أخرى هكذا : البغدادي ، تاريخ . الجاحظ ، عمرو بن بحر (ت٢٥٥هـ) « البيان والتبيين »(٤) أجزاء ، تحقيق عبد السلام هارون ، مكتبة الخانجي ومكتبة المثنى ببغداد ، الطبعة الثانية سـنة ١٩٦١م ، جـ١ ، ص ٢٨٤ ، سيشار لهـذا المصدر عند وروده مرة أخرى هكذا : الجاحظ

(١٧) انظر الغزالي ، محمد بن محمد (ت ٥٠٥هـ) « احياء علوم الدين » دار القلم ، بيروت ، الطبعة الاولى ، جـ١ ص ٢٢ـ٣٦ . سيشـار لهذا المصدر عند وروده مرة أخرى هكذا : الغزالي .

(١٨) الغزالي ، جـ١ ، ص ٣٤ . السـيوطي ، ص ٢٢٩ ، ٢٣٠ .

(١٩) انظر مسلم بن حجاج القشيري (ت٢٦٠هـ) « صحيح » (٥) أجزاء ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ، دار الفكر للطباعة والنشـر والتوزيـع ، سـنة ١٩٨٣م ، جـ٤ ، ص ٢٠٦٩ ـ ٢٠٧٥ ، سيشار لهذا المصدر لدى وروده مرة أخرى هكذا : مسلم . البخاري، محمد بن اسماعيل بن ابراهيم (ت ٢٥٦هـ) « صحيح » (٩) أجزاء ، دار الجيل ،بيروت، جـ٨ ، ص ١٠٧ ، ١٠٨ . سيشار لهـذا المصدر عند وروده مرة أخرى هكذا : بخاري، صحيح . الغزالي، جـ١ ،ص٣٥ . أبو داود، جـ٣ ، ص ٣٢٤ .

(٢٠) انظر القرآن الكريـم ، آل عمران : ٥٨ ، الاعراف : ٦٣ ، الحجر : ٦،٩ ، النحل: ٤٤ ، الانبياء ٢ ، ٤٢ ، يس : ٦٩ ، ص : ٨ ، ٤٩ ، فصلت : ٤١ ، الزخرف : ٥ : القمر : ٢٥ ، القلـم : ٥١ ، ٥٢ ، انظـر أيضا ابن منظور ، لسان ، مادة « ذكر » .

(٢١) انظر القرآن الكريم ، المائدة: ٩١ ، يوسف: ٤٢ ، الرعد : ٢٨ ، النور : ٣٧، الفرقان: ١٨،٢٩، الشعراء : ٥ ، ١ لعنكبوت : ٤٥، الزمر : ٢٢،٢٣، الزخرف : ٣٦، القمر : ١٧،٢٢، الحديد : ١٦، الجمعة : ٦٢ ، المنافقون : ٩ ، الجن : ١٧، الاحزاب :٣٥، انظر كذلك ابن منظور ، لسان مادة «ذكر» ابن سيدة ، علي بن اسماعيل (ت٤٥٨هـ) « المخصص » (٥) مجلدات دار الفكر، بيروت، جـ١٢، ص٨٨ . سيشار اليه عند وروده مرة اخرى هكذا : ابن سيده .

(٢٢) انظر القرآن الكريم ، هود :١٢، العنكبوت: ٥١، ص:٤٣ ، الزمـر : ٢١، ق : ٣٧، الذاريات : ٥٥، الاعلى : ٩ ، طه : ٣ ، الحاقة : ١٢، المدثر: ٤٩،٥٤ .

(٢٣) القرآن الكريم ، النحـل ، ٤٣، الانبياء:٧.

(٢٤) انظر طبري ، تأويل ، جـ ١٤ ، ص١٠٧ ، ١٠٨، جـ١٧ ، ص٤ .

(٢٥) انظر المقريزي ، احمد بن عبد الله (ت٨٤٥هـ) « المواعظ والاعتبار بذكـر الخطط والاثـار المعروف بالخطط المقريزية » جزءان ، مطبعة بولاق ، القاهرة ، ١٢٩٤هـ (طبعة جديـدة بالاوفسـت ، مكتبة المثنى ، بغـداد ، سنة ١٩٧٠م) جـ٢ ، ص٢٥٢ (الزهري والحسـن البصري)، سيشار لهذا المصدر عند وروده مرة اخرى هكذا : المقريزي . السـيواطي، ص ٢٢٣،٢٢٩ .

(٢٦) انظر : ابن سعد ، جـ٢ ، ص ٣٥٥ ،٣٥٦ (محمد بن سيرين) .

(٢٧) انظر : الصيمري ، حسين بن علي (ت٤٣٦هـ) « اخبار ابي حنيفة واصحابه » طبعة مصورة عن طبعة وزارة المعارف والتحقيقات العلميـة والامور الثقافية للحكومة الهنديـة ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، الطبعة الثانية ، ١٩٧٦م، ص٤٥، ٤٦ . سيشار لهذا المصدر عند وروده مرة اخرى هكذا : الصيمري.

(٢٨) انظر : ابن الاثير ، علي بن ابي الكرم محمد ابن محمد الشيباني (ت٦٠٦هـ) « أسد الغابة في معرفة الصحابة» (٥) أجزاء ، نشر جمعية المعارف ، طهران ١٢٨٦هـ ، جـ١، ص ٢١٥ . ابن الجوزي ، عبد الرحمن بن علي بن محمد (٥٩٧هـ) « صفة الصفوة » (٤) أجزاء ، تحقيق محمود فاخوري ومحمد رواس القلعجي، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت ، الطبعة الثانية سنة ١٩٧٩م ، جـ١، ص٧٣٧. سيشار لهذا المصدر لدى وروده مرة اخرى هكذا : ابن الجوزي ، صفوة.

(٢٩) انظر : ابن سعد ، جـ٢ ، ص ٣٧٢–٣٧٤.

(٣٠) انظر : ابن سعد ، جـ٥ ، ص٤٦٣ . ابن قتيبة ، عبد الله بن مسلم (٢٧٦ هـ) « المعارف » تحقيق ثروت عكاشة ، دار المعارف بمصر الطبعة الثانية ، سنة١٩٦٩م ص٥٧ ٥، سيشار له : ابن قتيبة ، معارف. الذهبي ، سير ، جـ٤، ص ١٥٧. البسنوي، ص ٦٩ .

(٣١) ابو عبيد ، ناسخ ، ص١٣.

(٣٢) السجستاني ، عبد الله بن ابي داودسليمان ابن الاشعث (ت ٣١٦هـ) «كتاب المصاحف» تحقيق اثر جفري، المطبعة الرحمانية بمصر، الطبعة الاولى سنة ١٩٦٣م ، ص ٨٨ سيشار لهذا المصدر لدى وروده فيما بعد هكذا : السجستاني.

(٣٣) انظر : الجاحظ ، جـ١، ص ٢٨٤. ابن قتيبة ، معارف ، ص٥٨٧ .

(٣٤) المقريزي ، جـ٢، ص ٢٥٤.
انظر : ابن عبد الحكم ، عبد الرحمن بن عبد الله (ت٢٥٧هـ) « فتوح مصر واخبارها» تحقيق محمد صبيح ، مؤسسة دار التعاون للطبع والنشر ، ١٩٧٤م ص ١٥٢. (كان سليم يقوم الليل كله بقراءة القرآن)سيشار اليه هكذا : ابن عبد الحكم .

(٣٥) انظر ابن ابي شيبة ، مصنف ، جـ٢،ص٥.

(٣٦) انظر البغدادي ، تاريخ ، جـ١ ، ص٢٠٨.

(٣٧) الجاحظ ، جـ١ ، ص ٢٨٤، ٢٨٥.

(٣٨) انظر : المقريزي ، خطط ، جـ٢ ، ص٢٥٤، ٢٥٥.

(٣٩) انظر : ابن النديم ، محمد بن ابي يعقوب « كتاب الفهرست » تحقيق رضا تجدد : طهران ، سنة ١٩٧١م ، ص٣٠، ٣١ . سيشار اليه فيما بعد : ابن النديم . الذهبي،سير، جـ٥ ، ص٣١٩.

(٤٠) انظر : ابن قتيبة ، معارف ص٤٥٨،٤٥٩.

(٤١) انظر : ابن النديم ، ص٣٠،٤٠ .

(٤٢) ابن حنبل ، احمد بن محمد (ت٢٤١هـ) « كتاب المسند »(١٤) جزء، تحقيق احمد محمد شاكر ، دار المعارف بمصر ، الطبعة الثالثة سنة ١٩٤٩م – ١٩٥٥م ، جـ٦ ص ٢١٧. انظر : بخارى ، صحيح ، جـ٨ ص ٩١ (ابن عباس).

(٤٣) ابن سعد ، جـ٧ ، ص ٤٢. انظر ايضا : البخارى ، محمد بن اسماعيل بن ابراهيم الجعفي (ت ٢٥٦هـ)« كتابات التاريخ الكبير» (٤) اجزاء في ثماني مجلدات ، مطبعة دائرة المعارف العثمانية، حيدر اباد ،الدكن، الهند جـ١ ق١ ، ص ٤٤٥، سيشار لهذا المصدر فيما بعد : البخارى، تاريخ.

(٤٤) انظر : المديني، علي بن عبد الله (ت٢٣٤هـ) « علل الحديث ومعرفة الرجال » تحقيق عبد المعطي امين قلعجي، دار الوعي ، حلب . الطبعة الاولى سنة ١٩٨٠م، ص١٦٧(الهامش). سيشار اليه فيما بعد : المديني.

(٤٥) ابن الجوزي ، عبد الرحمن « نواسخ القرآن» نشر دار الكتب العلمية ، بيروت ، الطبعة الاولى سنة ١٩٨٥م ، ص٣٠ ، سيشار للمصدر فيما بعد : ابن الجوزي ، نواسخ.

(٤٦) الفسوى ، يعقوب بن سفيان (ت ٢٧٧هـ) « كتاب المعرفة والتاريخ » (٣) اجزاء، تحقيق

اكرم ضياء العمري،مؤسسة الرسالة،الطبعة الثانية سنة ١٩٨١ م ، ج٢ ، ص٥١٦،٥١٧ سيشار للمصدر فيما بعد : الفسوي .

(٤٧) الفسوي ، ج ٢ ، ص٣٢٠ .

(٤٨) الجاحظ ، ج١ ، ص ٢٨٤.

(٤٩) انظر : الطبري، محمد بن جرير (ت ٣١٠هـ) « تاريخ الانبياء والرسل والملوك » (١٠) اجزاء ، تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم، دار المعارف القاهرة، سنة ١٩٦٦ – ١٩٧٠م، ج١ ، ص ١٨٢ : سيشار اليه فيما بعد : طبري ، تاريخ.

(٥٠) انظر ، طبري ، تاريخ، ج١ ، ص٢٦١.

(٥١) انظر ، ن،م ، ص ٢٧٧ .

(٥٢) انظر : طبري، تاريخ ، ج٢ ،ص٣٠٠.

(٥٣) انظر : ن،م ، ص ٣٩٠ .

(٥٤) انظر : طبري ، تاريخ ، ج١ ،ص١١٥ .

(٥٥) انظر : ن،م ، ص ٧٦ .

(٥٦) انظر : ابن اسحق ، محمد (ت ١٥١هـ) «كتاب السير والمغازي » تحقيق سهيل زكار نشر دار الفكر ، الطبعة الاولى سنة ١٩٧٨م، ص ٦٥ سيشار اليه فيما بعد : ابن اسحاق.

(٥٧) انظر : الواقدي ، محمد بن عمر (ت٢٠٧هـ) « كتاب المغازي » (٣) اجزاء ، تحقيق مارسون جونس ، منشورات مؤسسة الاعلمي للمطبوعات ، بيروت ، ج١ ،ص٢٢٤–٢٢٥. سيشار اليه فيما بعد هكذا : الواقدي.

(٥٨) انظر : ابن قتيبة ، عبد الله بن مسلم (ت ٢٧٦ هـ) « كتاب عيون الاخبار » (٤) اجزاء، مطبعة دار الكتب المصرية،القاهرة سنة ١٩٢٥م، ج١ ، ص ٢١٨، سيشار اليه فيما بعد : ابن قتيبة ، عيون ، ابو يوسف يعقوب بن ابراهيم (ت١٨٢هـ) « الخراج » المطبعة السلفية ، الطبعة الرابعة ، القاهرة سنة ١٣٩٢هـ ، ص ٨ سيشار اليه : ابو يوسف .

(٥٩) انظر البلاذري ، احمد بن يحيى (ت٢٧٩هـ) « انساب الاشراف » ، ج١ ،ق٤ (بنو عبد شمس) ، تحقيق احسان عباس ، دارالنشر فانتس شتاينر بفيسبادن ، بيروت ١٩٧٩م، ص٢١٣، سيشار اليه فيما بعد : البلاذري انساب ، ج١ق٤ .

(٦٠) انظر : البلاذري ، احمد بن يحيى(ت٢٧٩هـ) « فتوح البلدان » تحقيق صلاح الدين المنجد، مكتبة النهضة المصرية ، مطبعة لجنة البيان العربي سنة ١٩٥٦م، ص ٤٨، سيشار اليه فيما بعد ، البلاذري، فتوح .

(٦١) انظر ابن حزم ، علي بن احمد (ت٤٥٦هـ) «الاحكام في اصول الاحكام » جزءان ، تحقيق احمد محمد شاكر ، مطبعة الامام بمصر، ج٢، ص١٠١٨ ، سيشار اليه فيما بعد هكذا : ابن حزم .

(٦٢) انظر : طبري ، تاريخ ، ج٤، ص ١٥١، ١٥٢، ٢١٢.

(٦٣) انظر : ن،م ، ص ١٧١.

(٦٤) انظر : ن،م ، ص ٤٥١.

(٦٥) انظر : طبري، تاريخ،ج٢، ص٣٥٦.

(٦٦) انظر : ابن سيد الناس ، محمد بن محمد ابن عبد الله (ت ٧٣٤ هـ) « عيون الاثر في فنون المغازي والشمائل والسير » جزءان ، تحقيق لجنة احياء التراث العربي في دار الافاق الجديدة ، بيروت ، الطبعة الثانية سنة ١٩٨٠ ، ج١ ، ص ١٩٣. سيشار اليه فيما بعد : ابن سيد الناس .

(٦٧) ابن العربي ، محمد بن عبد الله بن محمد (ت ٤٥٣ هـ) « العواصم من القواصم ، تحقيق مواقف الصحابة بعد وفاة النبي(ص)» تحقيق محب الدين الخطيب ، لجنة الشباب المسلم سنة ١٣٧١هـ ، ص ٨٣ (الهامش) سيشار اليه : ابن العربي .

(٦٨) انظر : ابن العربي ، ص ٨٣ (الهامش).

(٦٩) انظر : مالك بن انس (ت ١٧٩هـ) « الموطأ» رواية محمد بن الحسن الشيباني تحقيق عبد الوهاب عبد اللطيف « دار القلم ، بيروت ، الطبعة الثانية سنة ١٩٨٤ م، ص ٤٣. سيشار للمصدر فيما بعد : مالك .

(٧٠) انظر : مسلم ، جـ٤ ، ص ٢٠٩٦ .

(٧١) انظر : طبري ، تاريخ ، جـ١ ، ص١٥١.

(٧٢) انظر : ابو يوسف ، ص٧ .

(٧٣) انظر : بخارى ، تاريخ جـ ١ق١، ص١٧٣.

(٩٢) انظر : ابن قتيبة ، معارف ، ص٤٥٨ ، ٤٥٩ .

(٩٣) انظر : طبري ، تاريخ ، جـ١، ص ٢٧٠.

(٩٤) انظر : ن.م ، ص٣٠٦ .

(١٢٥) انظر : العصفري ، خليفة بن خياط (ت ٢٤٠هـ) « تاريخ» جزءان ، تحقيق سهيل زكار ، وزارة الثقافة والارشادالقومي، دمشق ، سنة ١٩٦٧م ، جـ١، ص١٣٨ . سيشار اليه فيما بعد : العصفري.
(١٢٦) انظر : الذهبي ،جـ٥ ، ص٢٠٥ .
(١٢٧) انظر : طبري ، تاريخ ، جـ٥ ، ص٢١٧.
(١٢٨) انظر : طبري ، تاريخ ، جـ٥،ص٢١٧.
(١٢٩) انظر : ن.م ، ص٢١٧.
(١٣٠) انظر : طبري ، تاريخ ، جـ٦ ، ص ١٦٣، ١٦٤ .
(١٣١) انظر : ن.م ، ص ١٦٣،١٦٤ .
(١٣٢) انظر : ذهبي ، سير ، جـ٥ ، ص ٢١١ ،ابن قتيبة ، معارف ، ص ٤٧٦.
(١٣٣) انظر : بلاذي ، انساب ، جـ١ ق٤،ص٣٧٨.
(١٣٤) انظر : ابن سيد الناس ، جـ١ ،ص١٧٧.
(١٣٥) انظر : بلاذري ، انساب ، جـ١ ، ص٥١٢، ٥١٣.
(١٣٦) انظر : ن.م ، ص ٣٢٧ .
(١٣٧) انظر : ن.م ، ص ٣٩٢ .
(١٣٨) انظر : ن.م ، ص٤٨٨، ٤٨٩.
(١٣٩) انظر : بلاذري ، انساب ،جـ١ق٤،ص١٢٧.
(١٤٠) انظر : بلاذري، انساب ،جـ١،ص٥٢٢ .
(١٤١) انظر : الذهبي ، سير ، جـ٥، ص٤٥٣.
(١٤٢) انظر : طبري ، تاريخ ،جـ ١،ص٢٨١.
(١٤٣) انظر : ن.م ، ص ٤٨١.
(١٤٤) انظر : البخاري ، تاريخ،جـ٢ق١، ص٩٣. ابن حجر ، أحمد بن علي الكناني (٨٥٢ هـ) « تهذيب التهذيب » (٢) جزء، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية ، حيدر ابادالدكن، الهند، عام ١٣٢٥هـ (طبعة جديدةبالاوفست، دار صادر بيروت عام ١٩٦٨م)، جـ٢ ،ص ٩٢ سيشار اليه فيما بعد هكذا : ابن حجر، تهذيب .
(١٤٥) انظر : ابن حجر ، تهذيب ، جـ٢،ص٩٢.
(١٤٦) انظر : الفسوى ، جـ٢ ، ص٧٧٥.
(١٤٧) انظر : طبري ، تاريخ ،جـ٥، ص٢٩٢،٢٩٣.
(١٤٨) انظر : بخاري ، تاريخ ، جـ٣ق١، ص٢٣٥.
(١٤٩) انظر : طبري ، تاريخ ، جـ٤،ص٤٥١.
(١٥٠) انظر : طبري ، تاريخ ، جـ٥،ص١٦،١٧ .
(١٥١) انظر : طبري ، تاريخ ، جـ٢، ص٦٢٠،جـ٦، ص٣٣٦ . ابن حجر ، تهذيب ، جـ٣،ص٩٦.
(١٥٢) انظر : الصيمي، ص ٨٢ .
(١٥٣) انظر : طبري ، تاريخ، جـ٢، ص٦٢٠ .
(١٥٤) انظر : الجاحظ ، جـ١ ، ص ٢٨٤. الغزالي جـ١ ، ص ٣٦ .
(١٥٥) انظر : وكيع ، محمد بن خلف بن حيان، (ت ٣٠٦ هـ) « اخبار القضاة » (٣) اجزاء، تحقيق عبد العزيز مصطفى المراغي، مطبعة الاستقامة ، القاهرة عام ١٩٤٧م ، جـ١،ص٥، سيشار لهذا فيما بعد : وكيع .
(١٥٦) انظر : ابن النديم، ص٢٠٢.
(١٥٧) انظر : طبري، تاريخ، جـ١، ص٩٨،١٠١، ١٠٢،١٨٥ . البلاذري، انساب ،جـ١، ص ٢٧٧ .
(١٥٨) انظر : ابن قتيبة ، معارف ، ص ٨. طبري ،تاريخ ،جـ١ ، ص١٤٤،١٤٨،١٥٠، ١٦٠ .
(١٥٩) انظر : طبري ، تاريخ ،جـ١، ص ١٨١، ١٨٦،١٩٢،٢٠٦ .
(١٦٠) انظر : طبري ، تاريخ ، جـ١، ص ٢٦٤ ، ٢٦٩،٢٦٠،٢٧٧ .
(١٦١) انظر : ن.م ، ص ٢٨٥ .
(١٦٢) انظر : ن.م ، ص ٣٢٤.
(١٦٣) انظر : ن.م، ص ٣٥٢،٣٥٧،٣٥٨،٣٦٠، ٣٦٣ .
(١٦٤) انظر : ن.م، ص ٤٨٢ .
(١٦٥) انظر : ن.م ، ص ٤٩٢ .
(١٦٦) انظر : طبري، تاريخ جـ٢ ، ص ١٩٠.
(١٦٧) انظر : ن.م ، ص ٣٢٢. البلاذري، انساب، جـ١ ، ص ١٠١.
(١٦٨) انظر : طبري ، تاريخ ، جـ٢ ، ص٥٥٧.
(١٦٩) انظر : طبري ، تاريخ، جـ٤، ص ٨٩،١٤١، ١٨٦، ٢٦٦ .
(١٧٠) انظر : ن.م ، ص ٢٠١.
(١٧١) انظر : ن.م ، ص٢٦٦ ، ٣١٤ . العصفري،

تاريخ ، جـ١ ، ص١٦٦ .

(١٧٢) انظر : العصفري ، جـ١ ص ١٨٤ ، ١٨٩ ، ١٩٢ ، ٢٢٣ . الطبري ، تاريخ ، جـ٤ ، ص ٣٥٢ ، ٣٧١ ، ٣٨٣ ، ٣٨٤ .

(١٧٣) انظر : طبري ، تاريخ ، جـ٤ ، ص ٣٩٦ ، ٣٩٧ .

(١٧٤) انظر : ن.م ، ص ٤٠٥ .

(١٧٥) انظر : ن.م ، ص ٤١٨ .

(١٧٦) انظر : ن.م ، ص ٤٢٩ .

(١٧٧) انظر : طبري ، تاريخ ، جـ٥ ، ص ٥٣ .

(١٧٨) انظر : بلاذري ، أنساب ، جـ١ ق٤ ، ص ١٢٩ ، ٢٦٥ ، ٢٦٧ . طبري ، تاريخ ، جـ٥ ، ص ٢٧٩ .

(١٧٩) انظر : طبري ، تاريخ ، جـ٥ ، ص٥٠٤ ، ٥٠٢ .

(١٨٠) انظر : طبري ، تاريخ ، جـ٦ ، ص٥٩٤ ،

(١٨١) انظر : البلاذري ، أنساب ، جـ١ ، ص١٨١ ، ١٨٦ . ابن قتيبة ، معارف ، ص ٢٦٤ .

(١٨٢) العصفري ، جـ١ ، ص١٤١ .

(١٨٣) انظر : ن.م ، ص ٢٢٧ .

(١٨٤) انظر : ن.م ، ص ٢٨٥ .

(١٨٥) انظر : البلاذري ، أنساب ، جـ١ ، ص٣١ .

(١٨٦) انظر : ن.م ، ص ١٦٠ .

(١٨٧) انظر : ن.م ، ص ١٦٣ .

(١٨٨) انظر : ن.م ، ص ١٧٤ .

(١٨٩) انظر : ن.م ، ص ٢٥٦ .

(١٩٠) انظر : ن.م ، ص ٣٨٣ .

(١٩١) انظر : ن.م ، ص٤٦٣ .

(١٩٢) انظر : ن.م ، ص٤٦٤ ، جـ١ ق٤ ، ص٢٠١ ، ٢٠٢ ، ٢١٩ ، ٢٢١ ، ٣٨٢ .

(١٩٣) انظر : بلاذري ، أنساب ، جـ١ ، ص٥٥١ ، ٥٧١ ، ٥٧٥ .

(١٩٤) انظر : ن.م ، ص ٥٥٦ ، ٥٥٨ ، ٥٦٠ ، ٥٦١ ، ٥٧٢ ، ٥٧٥ ، ٥٩٠ .

(١٩٥) انظر : بلاذري ، أنساب ، جـ١ ق٤ ، ص١٢٨

(١٩٦) انظر : ن.م ، ص ٣٥٠ ، ٤١٧ ، ٤١٨ .

(١٩٧) انظر : ن.م ، ص ٣٨٥ .

(١٩٨) انظر : ن.م ، ص٤٨٥ ، ٤٨٩ ، ٥٦١ ، ٥٨٤ ، ٥٨٥ ، ٥٩٤ ، ٥٩٧ ، ٥٩٨ .

(١٩٩) انظر : البلاذري ، أنساب ، ق٣ ، ص٣١ .

(٢٠٠) انظر : ن.م ، ص٣٤ ، ٣٧ ، ٣٨ .

(٢٠١) انظر : البلاذري ، أنساب ، ق٣ ، ص٢٦٢ .

(٢٠٢) انظر : الذهبي ، سير ، جـ٥ ، ص ٢١١ (أحمد بن حنبل) . الطبري ، تاريخ ، جـ١ ، ص١٢ .

(٢٠٣) انظر : ابن قتيبة ، معارف ، ص٤٦٢ . العصفري ، جـ٢ ، ص ٥١٤ .

(٢٠٥) انظر : بلاذري ، أنساب ، جـ١ ، ص١٢٢ ، ق٣ ، ص ٣٥ . الطبري ، تاريخ ، جـ١ ، ص٢٦ ، ٧٧ ، ٨٣ ، ١٠١ ، ٣٤٥ ، ٣٤٩ ، ٣٤٦ ، ٤٥٠ ، جـ٢ ، ص١٩ ، ٢٠ .

(٢٠٦) انظر : طبري ، تاريخ ، جـ١ ، ص١١ ، ١٤ .

(٢٠٧) انظر : ن.م ، ص ٨٣ ، ٨٦ ، ١٠١ .

(٢٠٨) انظر : ن.م ، ص ١٠٥ ، ١٢١ ، ١٤٨ .

(٢٠٩) انظر : ن.م ، ص ١٢٣ ، ١٣٢ ، ١٦٠ .

(٢١٠) انظر : ن.م ، ص ١٧٨ ، جـ٢ ، ص ٢٣٥ .

(٢١١) انظر : ن.م ، ص ١٨١ ، ١٨٨ ، ١٩٠ ، ١٩٢ .

(٢١٢) انظر : ن.م ، ص٢٠٩ .

(٢١٣) انظر : ن.م ، ص ٢٨٠ ، ٢٨٥ .

(٢١٤) انظر : ن.م ، ص ٢٩٥ ، ٢٩٨ ، ص ٣٠٢ ، ٣٠٥ .

(٢١٥) انظر : ن.م ، ص ٣٤٥ ، ٣٥١ ، ٣٥٤ ، ٣٦٠ ، ٣٦٢ .

(٢١٦) انظر : ن.م ، ص ٣٧٥ ، ٤٠٥ .

(٢١٧) انظر : ن.م ، ص ٤٤٤ ، ٤٤٥ .

(٢١٨) انظر : ن.م ، ص ٤٧٩ .

(٢١٩) انظر : طبري ، تاريخ ، جـ٢ ، ص٥ ، ٩ ، ١٠ .

(٢٢٠) انظر : ن.م ، ص ٣١٦ .

(٢٢١) انظر : ن.م ، ص ٣٨٧ .

(٢٢٢) انظر : ن.م ، ص ٤١٧ .

(٢٢٣) انظر : ن.م ، ص ٤٣٣ .

(٢٢٤) انظر : ن.م ، ص ٥٥٧ .

(٢٢٥) انظر : ن.م ، ص ٣٦٠ .

(٢٢٦) انظر : بلاذري ، أنساب ، جـ١ ص١١١ .

(٢٢٧) انظر : ن.م ، ص ١٦٥ .

(٢٢٨) انظر : ن.م ، ص ١٨٥ ، ١٨٩ .

(٢٢٩) انظر : ن.م ، ص ٢٥٦ .

(٢٣٠) انظر : ن.م ، ص ٣٧٠ ، ق٣ ، ص ٤٧ .

(٢٣١) انظر : ن.م ، ص ٥٤٢ .

(٢٣٢) انظر : بلاذري ، أنساب ، جـ١ ق٤ ، ص ٢٣ ، ص ١٠٨ ، ١١٣ .

(٢٣٣) انظر : ن.م ، ص ٢١٩ ، ٢٢٠ .

(٢٣٤) انظر : ن.م ، ص ٢٦٥ .

(٢٣٥) انظر : ن.م ، ص ٤٨٦ ، ٥٤٤ .

(٢٣٦) انظر : ن.م ، ص ٥٠٠ .

(٢٥٧) انظر : الازرقي ، محمد بن عبد الله بن أحمد « أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار » تحقيق رشدي الصالح ملحس ، دار الثقافة ، بيروت ومطابع دار الثقافة مجلة ١٣٥٢ هـ ، ص٤٠ .

(٢٥٨) انظر : طبري ، تاريخ ، جـ٤ ، ص٢٥٥ .

(٢٥٩) انظر : ن.م ، ص ٣٤٣ .

(٢٦٠) انظر : بلاذري ، أنساب ، ق٣ ، ص٨٦ .

(٢٦١) انظر : ابن حجر ، تهذيب ، جـ١ ، ص٥٠٨ .

(٢٦٢) انظر : ابن سعد ، جـ٧ ، ص٤٥٢ .

(٢٧٣) هبة الدين سلامة « الناسخ والمنسوخ »وهو بهامس كتاب أسباب النزول لابي الحسين علي بن أحمد النيسابوري ، نشر المكتبة التوفيقية ، ص٥ ، ص ٦ ، سيشار اليه هكذا : هبة الله .

(٢٧٤) أبو عبيد ، ناسخ ، جـ٢ ، انظر كذلك : ابن الجوزي، نواسخ، ص٢٩-٣١ .الهمداني محمد بن موسى الحازمي (ت ٥٨٤ هـ) « الاعتبار في الناسخ والمنسوخ من الآثار » تحقيق عبد المعطي أمين قلعجي ، دار الوعي، حلب ، الطبعة الاولى عام ١٩٨٢م . ص٦ . سيشار اليه فيما بعد : الهمداني .

(٢٧٥) أبو عبيد ، ناسخ ، ص ٤١٣ . ابن الجوزي، نواسخ ، جـ٣١ . الهمداني، جـ٧ . هبة الله جـ٦ (يضيف الى أن الحادثة حصلت مع عبد الله بن عمر أيضا) .

(٢٧٦) المجلسي ، جـ٨٩ ، ص ٩٥ ، ١١٠ .

(٢٧٧) القرآن الكريم ، سورة الانعام : ٥٧ .

(٢٧٨) انظر : طبري ، تأويل ، جـ٧ ، ص٢١٠ .

(٢٧٩) ابن الجوزي ، نواسخ ، جـ٣١ . الهمداني، جـ٧ . البغدادي ، نواسخ ، جـ٣ . الغزالي جـ١ ، ص٢١ .

(٢٨٠) هبة الله ، ص ٧ .

(٢٨١) البخاري ، تاريخ ، جـ٢ ق١ ، ص ٢٦٦ . جـ٣ ق١ ، ص ٩٣ . أبو داود ، جـ٣ ، ص ٣٢٣ ، ٣٢٤ . ابن حجر ، تهذيب ، جـ٢ ، ص٩٢ ، ابن منظور ، لسان، مادة «قصص».

(٢٨٢) الغزالي ، جـ١ ، ص٢١ (الهامش) .

(٢٨٣) البلاذري ، فتوح ، ص ٢٤٥ (المدائني) ، ص ٦٧ (الهامش) . انظر أيضا ترجمة أبي حازم بن دينار عند ابن قتيبة ، معارف ، ص ٤٧٩ .

(٢٨٤) ابن تغري بردي ، جـ١ ، ص١٩٧ .

(٢٨٥) اليعقوبي ، أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر ابن وهب (ت ٨٤ هـ) « تاريخ » جزءان ، دار بيروت ، بيروت ، عام ١٩٦٠ . جـ٢ ، ص٢٥١ ، سيشار اليه : اليعقوبي .

(٢٨٦) انظر : الجعدي ، عمر بن علي بن سمر (ت ٥٨٦ هـ) « طبقات فقهاء اليمن » تحقيق فؤاد سيد ، نشر دار الكتب العلمية بيروت، الطبعة الثانية عام ١٩٨١ ، ص ٥٧ ،سيشار اليه الجعدي . اليافعي ، عبد بن أسعد بن علي (ت ٧٦٨هـ) « مرآة الزمان وعبر اليقظان » (٣) أجزاء ، مطبعة دار المعارف العثمانية ، حيدر أباد . الدكن ، الهند ،عام ١٣٣٧هـ ، جـ٩ ، ص ٢٤٨ .

(٢٨٧) مقريزي ، جـ٢ ص ٢٢٥ . انظر أيضا : ابن عبد الحكم ، ص ١٥٢ .

(٢٨٨) الذهبي ، سير ، جـ٤ ، ص ١٣٢ .

(٢٨٩) انظر : المقريزي ، جـ٢ ، ص٢٥٤ . ابن ماكولا ، علي بن هبة الله (ت٤٨٧ هـ) «الاكمال في رفع الارتياب عن المؤتلف والمختلف في الاسماء والكني والانساب »(٧) أجزاء . دائرة المعارف العثمانية ، حيدر أباد ،الدكن، الهند ، جـ٢ ، ص ١٩١ ، جـ٥ ، ص١٣٩ ، سيشار اليه : ابن ماكولا . ابن عبد الحكم، جـ٧ ، ص ١٥ . الذهبي ، سير ، جـ٤ ، ص ١٣١ .

(٢٩٠) انظر : العسوي ، جـ٢ ، ص٣٢٠ . الذهبي « تذكرة الحفاظ »(٤) أجزاء ، دائرة المعارف العثمانية ، حيدر أباد ، الدكن ، الهند ، الطبعة الثانية عام ١٣٣٣هـ ، جـ١ ، ص٥٦، ٥٧ ، سيشار اليه : الذهبي ، تذكرة . العصفري ، جـ ١ ص ٣٩٠ .

(٢٩١) انظر : وكيع ، جـ١ ، ص ١٠٤ (قال الزهري : ان أبا بكر وعمر لم يكن لهما قاض حتى كانت الفتنة ، فاستقضى معاوية . وقال مالك بن أنس: أول من استعمل قاضيا معاوية ابن أبي سفيان) . المقريزي ، جـ١ ، ص٢٣٥ (يذكر أن سليم بن عتر التجيبي أول من قص بمصر ، تولى القصص بها عام ٣٨هـ ، وفي عام ٤٠ هـ ، وهي سنة مبايعة معاوية، أضيف اليه القضاء ، وبقي على القضاء والقصص حتى عام ٦٥هـ) .

(٢٩٢) ابن عبد الحكم ، ص ١٥٤ .

(٢٩٣) ن.م ، ص ١٥٧ .

(٢٩٤) الذهبي ، تذكرة ، جـ١ ص ٥٧ .

(٢٩٥) انظر : ابن عبد ربه ، أحمد بن محمـــد (ت ٣٢٨ هـ) « العقد الفريد » (٨) ، تحقيق محمد سعيد العريان ، مطبعـة الاستقامـة، القاهرة . الطبعة الثانية ، ١٩٥٣م ، جـ١، ص٢٠ . المبرد ، محمد بن يزيد (ت ٢٨٥هـ) « الكامل في الادب » (٤) أجزاء ، تحقيـق محمد أبو الفضل ابراهيم والسيد شحاته . مطبعة نهضة ، مصر ، القاهرة ، ١٩٥٦م . جـ٢ ، ص ٣٦ .

(٢٩٦) ابن عبد ربه ، جـ١ ، ص ٢٢ .

(٢٩٧) الصميري ، ص ٥٧ ، ٦٢ ، ٦٣ .

(٢٩٨) أوردت معاجم اللغة أن من معاني الذكـــر والدعاء والقنوت الصلاة ـ انظر ابن منظور، مواد « ذكر » و « قنت » و « دعا » . ابـن سيدة ، مخصص ، جـ٢ ، ص ٩٥ ، جـ ١٢، ص ٨٥ ـ ٨٨ .

(٢٩٩) انظـر السنوي ، ص ٩٤ .

(٣٠٠) انظر ابن خلدون ، ص ٤٧٧ .

(٣٠١) انظر : ابن الاثير ، أسد ، جـ١ ، ص ٢١٥. البسنوي ، ص ٩٣ .

(٣٠٢) انظر : ابن الاثير ، أسد ، جـ١ ، ص ٢١٥. ابن الجوزي ، صفة ، جـ١ ، ص ٧٣٧ .

(٣٠٣) اليعقوبي ، جـ٢ ، ص١٤٠ .

(٣٠٤) ابن حزم ، جـ١٠ ، ص ٢٢٣ .

(٣٠٥) المقريزي ، جـ ٢ ، ص ٢٥٣ . السيوطي ، ص ٢٣٩ .

(٣٠٦) المقريزي ، جـ٢ ، ص ٢٥٤ .

(٣٠٧) انظر : الشافعي ، محمد بـن ادريس (ت ٢٠٤ هـ) « كتاب الام » (٨) أجـزاء ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، الطبعة الثانية ، عام ١٩٨٣م جـ ١ ، ص٢٣٠ ـ ٢٣٢ ، سيشار اليه : الشافعي ، الام .

(٣٠٨) انظر عن خطبة الجمعة : الشافعي ، الام . جـ١ ، ص ٢٢٩ ـ ٢٣١ . انظ عن القصص: المقريزي ، جـ٢، ص ٢٥٣ (سليم بن عتر).

(٣٠٩) انظر : ابن منظور ، لسان ، مادة قصص.

(٣١٠) انظر عن كون الصلاة من مهمات القاضي في : ابن حيان ، حيان بن خلف بن حسين (ت ٤٢٢ هـ) « المقتبس من أبناء أهل الاندلس» تحقيق محمود علي مكي ، دار الكتاب العربي، بيروت ، عام ١٩٧٣م ، ص ٧٢ ، ٧٥ انظر كذلك : ص ٥١ ، ص ٥٧ . الشافعي ، الام، جـ١ ، ص ٣١ (كان محمد بن أبي بكر قاضي (قاص) المدينة وأمامهم في صلاتهم) .

(٣١١) الجاحظ ، جـ١ ، ص٢٨٤ .

(٣١٢) الفسوي ، جـ٢ ، ص ٥١٦ ، ٥١٧ .

(٣١٣) مقريزي ، جـ٢ ، ص ٢٥٤ .

(٣١٤) ابن عبد الحكم ، ص ١٥٩ . الفسوي ،جـ٢ ص ٤٣٦ .

(٣١٥) انظر باب رقم (٦) من هذا البحث .

(٣١٦) انظر قول الليث بـن سـعيد عن القصص ومهمته ايام بني العباس : المقريزي، جـ٢، ص٢٥٣ .

(٣١٧) انظر : المقريزي ، جـ٢ ، ص ٢٥٣،٢٥٤ .

(٣١٨) الاشعري ، علي بن اسماعيـل (ت٣٣٠هـ) « مقالات الاسلاميين واختلاف المصلين»تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، مكتبـة النهضة المصرية، الطبعة الثالثة عام ١٩٦٩م، ص ٣٤ .

(٣١٩) المجلسي ، جـ٢٢ ، ص ٢٩٥ انظر كذلـك ص٢٩٦ـ ص ٢٩٨.

(٣٢٠) المقريزي ، جـ٢،ص٢٥٣ .

(٣٢١) المقريزي ، جـ٢ ، ص ٢٥٣ ، ٢٥٤ . انظـر ايضا السيوطي ، ص ٢٥٢ .

(٣٢٢) المقريزي ، جـ٢ ، ص٢٥٣ ، ٢٥٤ . انظـر ابن خلدون ، مقدمة ، ص ٤٧٧ (فلسفـة الدعاء وتاريخه) .

(٣٢٣) البلاذري ، انساب ، جـ١ق٤، ص٣٤٥.

(٣٢٤) ابن سعد ،جـ٥، ص ٤٦٣ .

(٣٢٥) انظر :ابن منظـور ، لسان ، مـــادة «ذكر» .

(٣٢٦) الشافعي ، الام ، جـ١ ، ص٢٣٣.

(٣٢٧) ابن الجوزي ، عبد الرحمن (ت٥٩٧هـ) « سيرة ومناقب عمر بن عبد العزيز الخليفة الزاهد » تحقيق نعيم زرزور ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، الطبعة الاولى عام ١٩٨٤م ص ٢٧٣ .

(٣٢٨) انظر : البغدادي ، تاريخ ، ج١٣ ، ص ٣٦٦ (ابو حنيفة وزرعة القاص) الغزالي ، ج١ ، ص٣٦ . ابن الجوزي، جمال الدين ابي الفرج عبد الرحمن (ت ٥٩٧ هـ) « تلبيس ابليس » تحقيق مجموعة من علماء الازهر، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ص ١٢٣. سيشار اليه : ابن الجوزي، تلبيس . امين، ص١٥٩. نجم ، القصص، ص٤٣-٤٧.

(٣٢٩) البلاذري ، أنساب ، ج١ ق٤ ، ص٤٥، انظر ايضا : ج٣ ، ص ٣٨ (ابراهيم التيمي القاص وسبب اختلاف الامة). السيوطي، ص٢٢٦ . مسلم ، ج٤، ص٢٠٧٠ (انظر شكوك معاوية في جلسات اهل الذكر واهدافهم). الفسوي ، ج ٢ ص ٣٣١ .

(٣٣٠) البخاري، تاريخ ، ج٣ق١ ، ص ٢٢٦ . انظر: السيوطي ص ٢٢٥. ابن خلدون ، ص٣٨٩، ٣٩٠ (انظر موقف الدولة من الاقتناء (القصص) في المساجد الجامعة والمساجد العامة) .

(٣٣١) انظر : ابن عبد الحكم ، ص ١٥٤ . المقريزي، ج٢، ص ٢٥٤ .

(٣٣٢) انظر ، بخاري ، تاريخ ، ج٤ق١، ص١٧٣ (عطاء بن يسار) ، ج٣ ق١ ، ص ١٨١ (عبد الله بن كثير)، ج٩، ص٣٣٥٥ (عبد الرحمن بن ابي عمرة الانصاري). ابن ماكولا، ج٦ ، ص ٩٥ (ابن بلغارية)، ص ٢٩٣ (سليم بن عتر) . المقريزي، ج ٢ ، ص٢٥٣، ٢٥٤ ،(قصاص الجماعة بمصر) . الذهبي، سير ، ج ٥، ص ٣١٩ (عبد الله بن كثير).

(٣٣٣) البخاري، تاريخ، ج٢ ق١، ص ٢٦٦، ج٣ ق١ ، ص ٩٣ . ابو داوود ، ج٣، ص ٣٢٣، ٣٢٤. السيوطي، ص ٢٢٤، ٢٢٥ . ابن حجر، تهذيب ، ج٢، ص ٩٢. ابن منظور ، اللسان، مادة « قصص » .

(٣٣٤) الهذاني ، ص٧ . ابن الجوزي، نواسخ، ج٣١، هبة الله ص٧ . الغزالي ، ج١، ص ٢١.

(٣٣٥) المقريزي ، ج٢، ص ٢٥٣ .

(٣٣٦) الاصبهاني ، ذكر ، ج١ ، ص ١٣٦ . البغدادي ، تاريخ ، ج٢ ، ص ١٠١ الابشيهي ، محمد بن احمد (٨٥٠ هـ) « المستطرف في كل فن مستظرف » جزءان، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، ج١، ص ٩٩ . البسوي ، ص ٦٩، ٧٠. المقريزي ج٢ ، ص ٢٥٣. الغزالي ، ج١ ، ص٣٦. السيوطي ، ص ٢٢٢، ٢٣٥ .

(٣٣٧) المقريزي ، ج٢، ص ٢٥٣ .

(٣٣٨) ابن ابي شيبه ، ج١٤، ص١١٤.

(٣٣٩) ن.م ، ص ١١٤ .

(٣٤٠) ابن الجوزي ، تلبيس ، ص ١٧.

(٣٤١) سيوطي ، ص ٢٢٤.

(٣٤٢) ن.م ، ص ٢٢٤.

(٣٤٣) الغزالي ، ج١ ، ص ٣٦ .

(٣٤٤) سيوطي، ص ٢٦٠، ٢٦١ .

(٣٤٥) غزالي ، ج١، ص٣٦ .

(٣٤٦) ابن الجوزي ، تلبيس ، ص ١٧.

(٣٤٧) السيوطي ، ص ٢٥.

(٣٤٨) انظر : بغدادي ، تاريخ ، ج٩ ، ص٣٠٩.

(٣٤٩) انظر : مسلم ، ج١ ، ص١٥، ١٦.

(٣٥٠) انظر : الغزالي ، ج١ ، ص ٣٦، (الاعمش واحمد بن حنبل). مسلم ج١، ص٢٣، ٢٦.

(٣٥١) انظر : مسلم ، ج١، ص٢٠، ٢٣ . ابن حجر، تهذيب ، ج٣ ص ٢١٨. الفسوي ، ج٢، ص٧٧٥. ابن قتيبة ، معارف ، ص ٤٤١.

(٣٥٢) انظر : المجلسي ، ج ٦٩، ص ٢٦٥. السيوطي ، ص ٢٦٣ .

(٣٥٣) انظر : الزمخشري ، ج٣ ، ص ٢٨ .

(٣٥٤) انظر : الغزالي ، ج ، ص ٣٦ ، السيوطي، ج١ ص ٢٥٩ .

(٣٥٥) انظر : مسلم ، جـ١ ، ص ٢٢٣،٢٠. سيوطي، ص٢٢٥.

(٣٥٦) انظر : الغزالي ، جا، ص٣٦.

(٣٥٧) انظر : ن.م ، ص ٣٦ .

(٣٥٨) انظر : ن.م ، ص ٣٤.

(٣٥٩) انظر : ابو عبيد القاسم بن سلام(ت٢٢٤هـ) « غريب الحديث » (٤) اجزاء طبعة جديدة بالاوفست ، دار الكتاب العربي ، بيروت، عام ١٩٧٦، جـ٤، ص ٣٠٤ .

(٣٦٠) انظر : بغدادي ، تاريخ ، جـ٩ ، ص٤٢٥.

(٣٦١) انظر : الابشيهي ، جـ١، ص٩٦ .

(٣٦٢) قال محمد بن سيرين : جهدت أن أعلم الناسخ من المنسوخ فلم اعلمه ـ انظر : ابن الجوزي، نواسخ ، ص٢٢ . ابو عبيد ، ناسخ ، ص٤ . قال الزهري : اعيا الفقهاء واعجزهم ان يعرفوا ناسخ حديث رسول الله (ص) من منسوخه . اهتمام الشافعي بالناسخ والمنسوخ في الصيمري ، ص١٢٣.

(٣٦٣) انظر : ابو عبيد ، ناسخ، جـ٣. ابن الجوزي، نواسخ ، ص ٢٩ ـ ٣١ . المهداني، ص٦ . الاصبهاني ، ذكر ، جـ١، ص٨٩. هبة الله ، ص٦ . المجلسي ، جـ٨٩، ص٢٦٩. قال احمد بن حنبل : من لم يعرف الناسخ والمنسوخ من القرآن والسنة لم يكن عالما ـ انظر ابن الجوزي ، نواسخ، ص٣٢.

(٣٦٤) انظر : ابن كثير ، جـ١١ ، ص٦٤،٧٦، ٢٨٩ ، ٣٣٩ . المجلسي ، جـ٢٧ ، ص٣٢٧، جـ ٣٨، ص ٦٤.

(٣٦٥) الغزالي ، جـ١، ص٣٦، انظر كذلك في نفس الصفحة رأي كل من أبي ذر الغفاري وعطاء بن يسار واحمد بن حنبل . انظر كذلك : السيوطي ص١٦ (موقف مالك بن انس من القصص في ايامه وبدايته في صدر الاسلام). الذهبي ، سير ، جـ٥ ، ص٢٢٢،٢١١ (موقف حماد بن سلمة واحمد ابن حنبل من قصص ثابت بن اسلم البناني وقتادة) . ابن الجوزي، تلبيس ، ص١٢٢، ١٢٤ (موقف ابن الجوزي من القصص في بداية الاسلام).

* * *

البنية النظرية لكتاب الانيق في المناجيق(١)

لابن أرنبغا الزردكاش

المهندس آزاد علي
معهد التراث العلمي العربي

تعتبر الصناعات الحربية منذ فجر التاريخ قضية استراتيجية . لذلك نجد أن خط تطور تلك الصناعات والعلوم متصاعد دوما وبشكل خطي تقريبا . ويلمس الباحث هذا المسار بشكل واضح من دراسة الصناعات والعلوم الحربية في الحضارة العربية الاسلامية ، اذ أنها كانت تتقدم وتتطور باطراد مع الانتعاش الحضاري العام . وهي مرتبطة بشكل وثيق مع النظم الدفاعية للدول ، ومن مقومات استمرارها ووجودها ، وتكتسب أهمية كبيرة في فترة الحروب والغزوات . ومن الواضح أن العلوم العسكرية والصناعات الحربية ، طرأت عليها قفزة نوعية في العهد الايوبي بسبب الحرب الطويلة مع الغزاة الفرنجة . واحتدت نهضة الصناعات والتحصينات العسكرية طوال حكم المماليك لاعتبارات عديدة ، منها التأثر بالمراحل السابقة ، وطبيعة حكم المماليك العسكرية والصراعات الدائمة بينهم .

ولاجراء تأريخ صحيح لهذه العلوم ، لا بد من رسم خط بياني يلاحق كافة التغيرات التي طرأت عليها . ولا يمكن الوصول الى ذلك الا من خلال دراسات علمية مقارنة للمؤلفات والوثائق العلمية التاريخية ، من مخطوطات وكتب محققة ، وآثار متبقية ، لتحديد أهم سماتها وخصائصها المميزة . وما دراستنا هذه الا محاولة من هذا القبيل لتسليط الضوء على أهم سمات كتاب الانيق الذي يعود تأليفه الى فترة حكم المماليك وبشكل تقريبي الى عام (٨٣٦هـ)(٢) . ولكنه يعد حصيلة علمية متراكمة من الفترات التي سبقت تاريخ التأليف . لذلك يمكن اعتباره من أهم الوثائق العلمية، التي تعبر عن طبيعة ودرجة رقي الصناعات الحربية في عهد المماليك .

يحتوي الكتاب على موضوعات عديدة عن مجموعة متنوعة من الآلات الحربية ، وخاصة المناجيق ، والتي هي أهمها وأكبرها حجما . ولا نهدف من بحثنا هذا ، التعريف بالكتاب ، وبدرجة تطور الصناعات والعلوم الهندسية في تلك المرحلة فحسب وانما قراءة النص العلمي من الداخل ، بمنهج علمي تاريخي . وبمعنى آخر ، تحليل النص من منظور الاسس العلمية المعاصرة ، وضمن ظرفها التاريخي المحدد ، دون أن يطغى التاريخي على العلمي النظري ، أو هذا على ذاك . وغايتنا من ذلك الاحاطة بالنص والقاء الضوء على بنيته النظرية العلمية ، والكشف عن اهميته التاريخية في

تطور العلوم الهندسية ومساهمتها في وضع الاسس العلمية للصناعات الهندسية عامة، والحربية بشكل خاص .

وكتاب الانيق كغيره من الكتب العلمية القديمة ، لا يتميز بالتخصص الدقيق . فعلى الرغم من أنه يهتم بالمناجيق أساسا ، الا أنه يتطرق الى الكثير من المواضيع الاخرى ، والتي لا تخرج عن اطار الصناعات والتحصينات الحربية ، مهما تشعبت وتنوعت . فالموضوع الاول هو صناعة المنجنيق ونصبه والرمي به وخاصة نوع (قره بغري) ، الذي يستخدم لرمي الحجارة والقذائف ، وهدم القلاع والحصون . ويمكن تعريف المنجنيق باختصار : بأنه آلة كبيرة الحجم ، مصنوعة من الخشب ، فيها جزء متحرك يدعى السهم ، وهو عارضة خشبية طويلة في نهايتها ثقل معاكس ، وفي الطرف المقابل كفة توضع القذيفة فيها . ودون الخوض في شرح مفصل للمنجنيق وآلية الرمي ، نقول انه يعتمد على القوة العضلية وقوة الثقالة ، في رمي القذائف والحجارة الكبيرة الى مسافات بعيدة ، وذلك بشد السهم حتى يرتفع الثقل المعاكس (الصندوق) ، ثم توضع القذيفة في الكفة التي تكون قد هبطت الى الارض ، وتوجه نحو الهدف بترك الصندوق يهبط تحت تأثير الجاذبية الارضية مما يؤدي الى ارتفاع الكفة في الجهة الاخرى كالارجوحة ، وبتسارع كبير ، فتنطلق القذيفة بقوة بدائية ، وتتحرر من الكفة ، ومن ثم تخضع لظرف سير القذائف ، وترسم المسار المعروف نظريا ، بالقطع المكافيء ، حتى تبلغ الهدف . وثمة أنواع أخرى ، وصفها ابن أرنبغا الزردكاش ، ورسمها وأهمها المنجنيق (الزيار) والذي لا يحوي على صندق كبير ، وانما ثقل معاكس صغير . والمنجنيق (الفرنجي) ، الذي يحوي ثقلين معاكسين صغيرين ، ويستند على قاعدة أفقية وعمود قائم ، وميزيه الرمي الى مختلف الجهات، ويدور حول محوره . أما المنجنيق (السلطاني) فهو مشابه للسابق الا أنه لا يحوي ثقل معاكس بل يعتمد بدلا عنه على قوة تزيير (شد) الاوتار وتحويلها الى قوة الرمي. وفي لوحات حصار القلاع وفتحها (انظر اللوحات ١ـ٦) نجد أن المؤلف قد أعطى أهمية لسلالم الحصار وانواعها وأوضحها بالرسم . وفي الواقع تدخل هذه الفقرة ضمن العلوم العسكرية واستراتيجية الحصار ، التي لا تهم بحثنا كثيرا بقدر ما يهمنا أنواع تلك السلالم وكيفية رسمها . فهي جسور خشبية عادية (عوارض) ، تستند على جدران القلعة ويتسلقها الجنود المهاجمون . والى جانب السلم العادي المؤلف من عارضتين خشبيتين ووصلات قصيرة تربط بينهما ،هناك سلالم أخرى لها أرجل حاملة يسميها الكاتب بأرجل الجسر ، الا أن أهم تلك السلالم هو السلم البرجي الشاقولي المؤلف من أربع قوائم (اعمدة شاقولية) تنتهي بمنصة أفقية ، تربط بها سلالم من الحبال ، ويصعد اليها الجنود مؤقتا ومن ثم الى برج القلعة أو السور المحاصر (اللوحة ٧) .

اللوحة (٦)

كسكنجيل

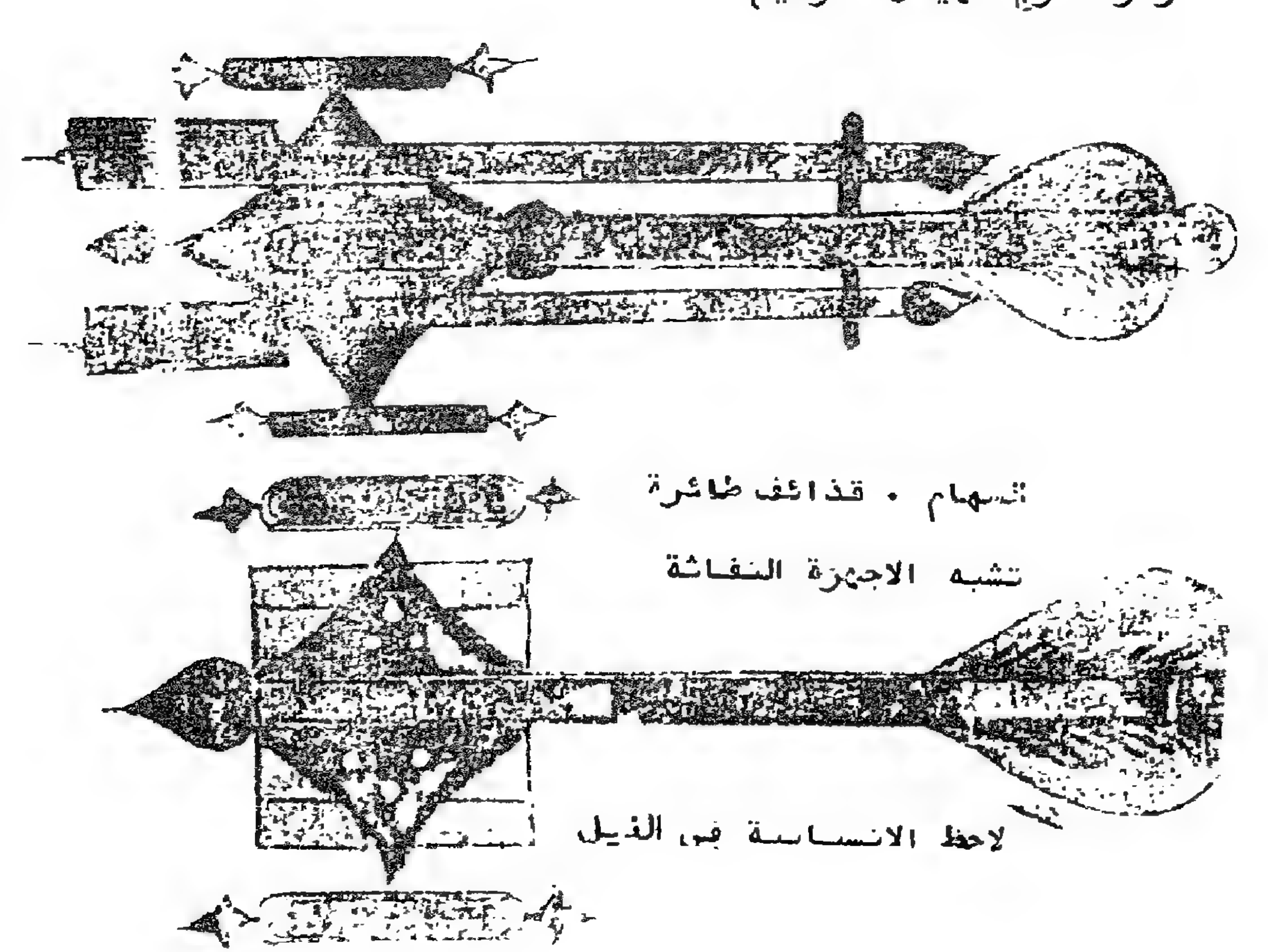
منجنيق لرمي السهام

الدولاب

يستند الى أكره لتسهيل التوجيه

والدولاب لشد الاوتار

وهو خارج الهيكل للتوضيح



السهام . قذائف طائرة

تشبه الاجهزة النفاثة

لاحظ الانسيابية في الذيل

كما نجد أن الزحافة(٣) ، وهي مـن الالات الحربية الهامـة وردت في الكتاب ، ورسمت من الجانب (مسقط جانبي) تبدو فيها جدران الغرفة التي تحوي الجنود مزخرفة ، ومتباينة الالوان ، وفي مقدمتها جسر على امتداد الجسر الطويل ، يشكل معه قاعدة وهيكل الزحافـة ، وفي الوقت ذاته امتداد وأرضية خلف الغرفة لاحتمـاء الجنود خلف الغرفة ،وللمحافظة على توازن الزحافة وزيادة عامل الامان ضد الانقلاب، لكون معظم ثقل الزحافة يتركز في المقدمة (اللوحة ٨) .

والى جانب هذه الالات الكبيرة ، يعالج المؤلف كيفية صنع القذائف واستعمالها وأهمها القدر(٤) وهي باختصار أوعية وأوانٍ مختلفة الاشكال والاحجام تحوي مـواد متفجرة وحارقة وسامة ، وذات روائح كريهة أو مسيلة للدموع (قدر الجير) ، حسب وظيفة كل قدر والالة التي تقذفها .

بالاضافة الى ذلك ثمة مواضيع أخرى متفرقة حول العديد من الاسلحة والادوات، الفردية منها والجماعية ، وأهمها : الكسكنجيل(٥) التي ترمي السهام(٦) ، والمكاحل(٧)، والقوارير(٨) ، والدبابيس(٩) ، وصناديق المخاسفة(١٠) . (انظر اللوحات المرفقة) .

* النص :

يبدأ النص الكتابي بالبسملة والحمد لله والصلاة على نبيه . ثم تتدفق التراكيب الادبية والسجع لمدح أتابك العساكر الاسلامية (منكلي ينـا الشمسي)(١١) ، الـذي أهدى المؤلف كتابه اليه . ومن الملاحظ أن المقدمة والاهداء طويلان بالنسـبة الى الحجم الكامل للنص المكتوب والذي لا يتجاوز عشر صفحات . ومـع ذلك ضمت المقدمـة بيتا من الشعر . وتبدو لغة المقدمة منمقة وسليمة ، أكثر بكثير من لغة النص العلمـي والشروحات الملحقة به ، والتي تهبط أحيانا الى مستوى الاخطـاء النحوية وضـعف التعبير وهشاشـة الجمل والمقاطع ، وكأن الذي كتب المقدمة غير الذي كتب المتن . ان نسبة الصفحات في النص المكتوب (تمييزا عـن اللوحات والرسومات والتـي نعتبرها أيضا نصا) ، الـى اللوحات ، أو بتعبير آخـر الى الصفحات التـي تحوي رسومات هندسية وشروحات مختصرة ، لا تتجاوز العُشر . وهذا مؤشر الى أن الكاتب يعتمد على الرسم بشكل رئيسي .

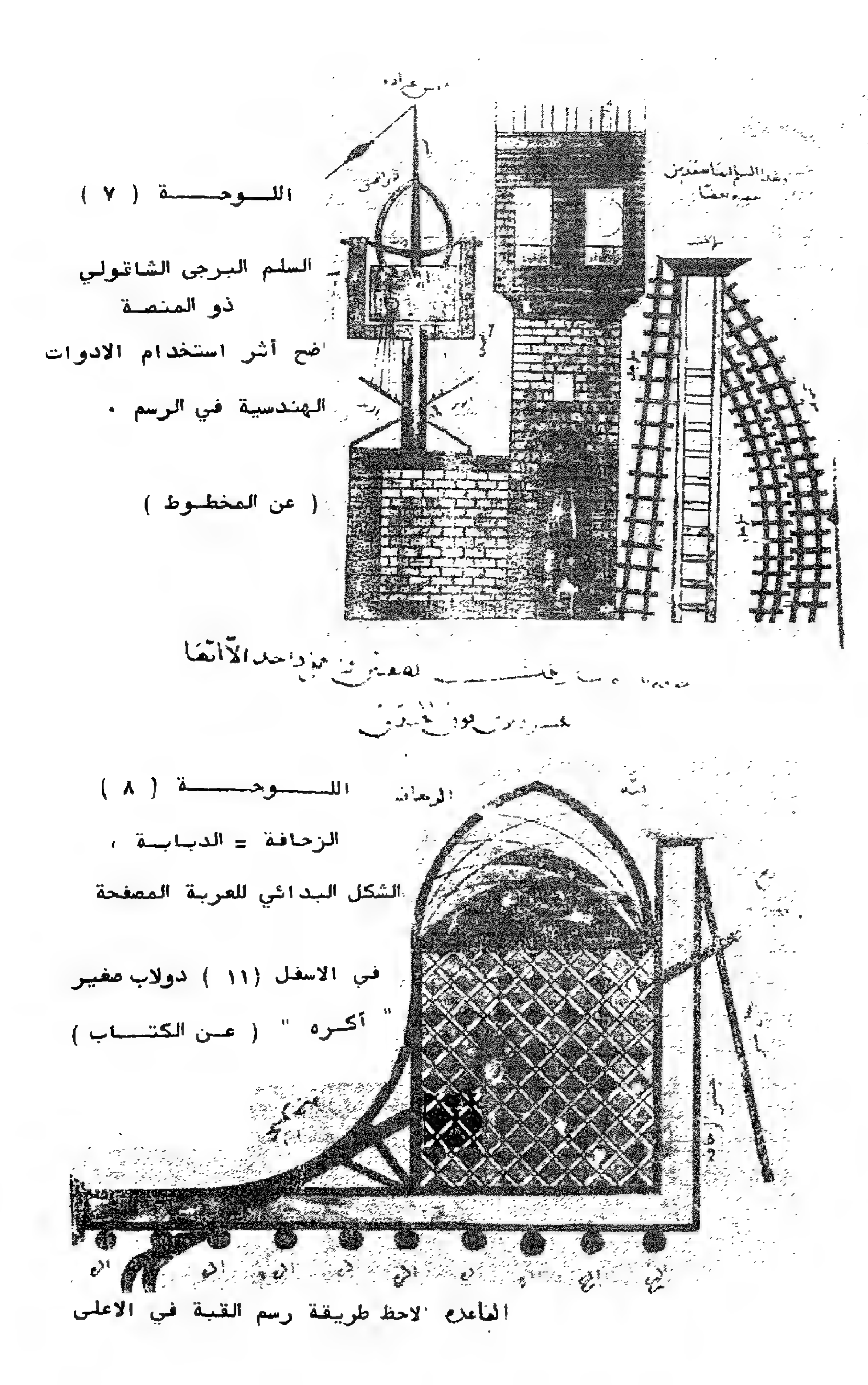
ولكن ما أهم سمات النص الكتابي في كتاب الانيق؟. اذا أمعنا النظر نجد من الوهلة الاولى أنه لا يحوي أية معادلة أو صيغة رياضية ، أو حتى رمزية . ويبدو أن النص هدف بالدرجة الاولى الى توجيه النصح والارشاد للقارىء في كيفية استعمال المنجنيق وطريقة نصبه ، وشروط الرمي ، وليس للبرهان على صحة تلك المعلومات أو تفسـير الظواهر العلمية نظريا . فالنص اذاً حلقة وصل بين اللوحـات التي هدفها الانشـاء والاستعمال الامثل في المعارك ، وبين المستعمل او الرامي : « ولا بد من ذكر وضع هذا

المنجنيق فنقول كيفية وضعه حتى يصير الرامي به مستأنسا فنذكر ما يحتاج اليـه من الاخشاب ، وهي ثمانية وعشرون قطعة من الخشب وفيها ما يزيد وما ينقص ، فاذا أردت وضعه فتنظر الى ما قد وصفته من الاخشاب في هـذا الكتاب فتعمل أمثالهـا وأعدادها والصندوق المرسوم فلا تخرج عن عمله وانظر أيضا الى طول النشاب وما هو عليه فاعمل هيأته وسفله وأعلاه ويخوش الخنزيرات وغير ذلك من الاعمال . ثم جميع المنجنيق وما يحتاج اليه » .(١٢) .

ولو حاولنا استشفاف بعض المبادىء العلمية من النص ، وخاصة الفيزيائية ، والتي تنظم آليـة عمل المنجنيق ، ومسار القذائف ، لا نجد اشارة واضحة ومتبلورة اليها ؛ باستثناء المقطع الذي يشير الى كيفية زيادة مدى القذيفة أو نقصانها ، وذلك بالقيام ببعض الترتيبات العلمية : « اذا أردت ان ترمي بعيـدا فانك تضع الحجـر في المنجنيق وترمي به الى مطلوبك فانأردت أبعد منه فانك تدهن فيالثانية أصبع المنجنيق بالزيت . . . وان أردت أبعد منه فانك تدخل في أصبع المنجنيق كعكة من حبل وترمي به فانك تبلغ مقصودك . . . »(١٣).وهي كما رأينا اجراءات عملية كزيادة عامل الاحتكاك المؤثر على دوران السهم (العارضة الحاملة للقذيفة) حول المحور الحامل لها والمرتبط مع هيكل المنجنيق ، والتلاعب بالثقل المعاكس ، وثقل القذيفـة نفسـها ، وتخفيض الارضية التي يستند عليها المنجنيق .

ومن الاهمية الاشارة الى تدريجات القنداق(١٤) ، ومدى ارتباطها بآلية الرمي ، وفهم علمي واضح لدور الفتحة (زاوية الرمي) في زيادة مدى القذيفة (منزلة) .ومن قراءة المقطع التالي نجد ان المدلول العلمي واضح في العلاقة الطردية بين المسافة الافقية وزاوية الرمي : « صفة قنداق وخاصتها أنها ترمي بها مرة بعد أخرى ، وكل مرة أبعد من الاخرى . . . والقاعدة فيه أنك تبتدىء من الخط التحتاني ثم الى الثاني ثم الـى الثالث الى حـين تفرغ الخطـوط والخط الاخـير أعلى مـن الكل »(١٥) . ومجمـوع التدريجات هي (٦٥°) ، منها (٣٥°) فوق خط الافق و (٣٠°) تحته تقريبا (اللوحة٩).

وفي الجزء المخصص لصناعة القـدور وباقي القذائف لا نجـد أيضا أي معادلـة كيميائية، أو رمز أو صيغة ، ولا أي تحليل أو شرح نظري لمسألة خلط المواد الكيميائية أو تفاعلها .وانما يوضح النص طريقة صنع المركبات الداخلة فيتركيب القذيفة ،وكيفية وضعها في أماكنها المخصصة بدقة . وأهم ما يميز الشرح هو أعطاء نسب وزن المواد الى بعضها البعض رقميا وبدقة ، وكيفية المـزج . فالنسب هـي أساس نجاح التركيب وتحقيق مفعوله ، ونوعية المواد الداخلة في التركيب اذاً ، ونسبها ، هي الاساس العلمي لصناعة القذائف . وقد تحدد الاوزان أحيانـا في بعض القدور والسـهام باستخدام واحدة الوزن (الدرهم = ٣ر٨) غرام . ومـع ذلك لا نلمس اهتماما كافيا من المؤلف



اللــوحـــــة (٧)

السلم البرجى الشاقولي ذو المنصـة

ضح أثر استخدام الادوات الهندسية في الرسم .

(عن المخطـوط)

اللــــوحـــــة (٨)

الزحافـة = الدبابــة ،

الشكل البدائي للعربة المصفحة

في الاسفل (١١) دولاب صغير " أكـره " (عـن الكتــاب)

لاحظ طريقة رسم القبة في الاعلى

رمية العرادة بالمنجنيق [illegible]

اللـــوحـــة (٢)

المنجنيق الزيار

المسقط جانبي ويظهر فيه

صف واحد من العوارض والجسور

تقع أمام السهم

اللـــوحـــة (١)

منجنيق جاهز للرمي

من نوع قره بغرى

الصندوق في الاعلى

وبهبوطه تنطلق القذيفة

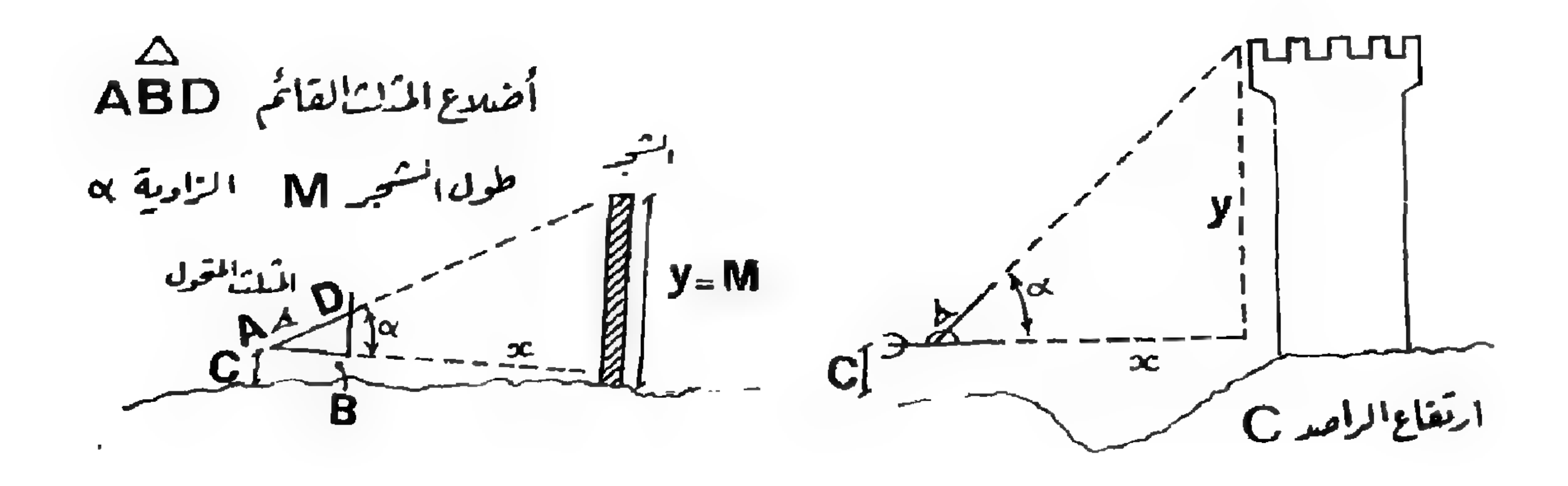
الرسم مفكك للايضاح

ارتباط الدولاب مع الهيكل

غير موضح

بالوحدات والمقاييس ، وحتى في القنداق لا يتحدث عن الدرجة كمقياس للزاوية ، ولا عن الاذرع كمقياس للمسافات الافقية . ولربما كانت قلة الشروحات الرياضية والتفسيرات الفيزيائية والكيميائية عائدة الى طبيعة المواضيع التي تعالجها ، وهي ذات طابع انشائي بحت .

ومع ذلك فقد وضع المؤلف عدة أجهزة لقياس المسافات ورصد الاماكن البعيدة ولتسوية الارض (دقق في اللوحة ١٠) . ودون مبالغة يمكن اعتبار الطريقة التي اتبعها المؤلف الشكل البدائي للرصد الطبوغرافي وأعمال المساحة الحالية بواسطة أجهزة النيفو والتيودوليت المعاصرة . وبالرغم من عدم وجود نص يشرح طريقته في ذلك ، وبالتالي الدليل القطعي على اجراء هذه الاعمال ، فقد أشار المحقق باختصار الى أنها (حسب نظرية فيثاغورث)(١٦) . الا أننا نعتقد أن الطريقة تتلخص في رصد المكان أو الهدف ، وقياس زاوية رصد أعلى نقطة مع مستوى الافق بواسطة « ميزان القريب والبعيد » والتي تحوي تدريجات من (٠ — ١٨٠°) . ويتم رصد الهدف أيضا بواسطة المثلث القائم المتغير الاضلاع فتتحدد الزاوية (α) وأبعاد المثلث القائم « زاوية لمعرفة طول الشجر ». وبطريقة تقريبية يتم حساب المسافة الافقية (X) أو الارتفاع (y) حسب طبيعة المسألة . وثمة احتمالات أخرى عديدة لن نتخيلها . لكن المهم أن الرصد عن بعد واستخدام المثلث القائم الصغير لحل مسائل تشابه المثلثات ، كذلك رصد الشاخصة « الشجر » قد استخدمت في قياس المسافات الافقية والارتفاعات العالية. وهنا شكل متخيل لعملية الرصد والحساب



وبمعرفة المعاليم المبينة اعلاه ، تحل المسائل بعد ذلك حسب عدد المجاهيل .

أخيرا ان أشكال السهام الكبيرة المبينة في الكتاب تدل على فهم علمي لمقاومة الهواء

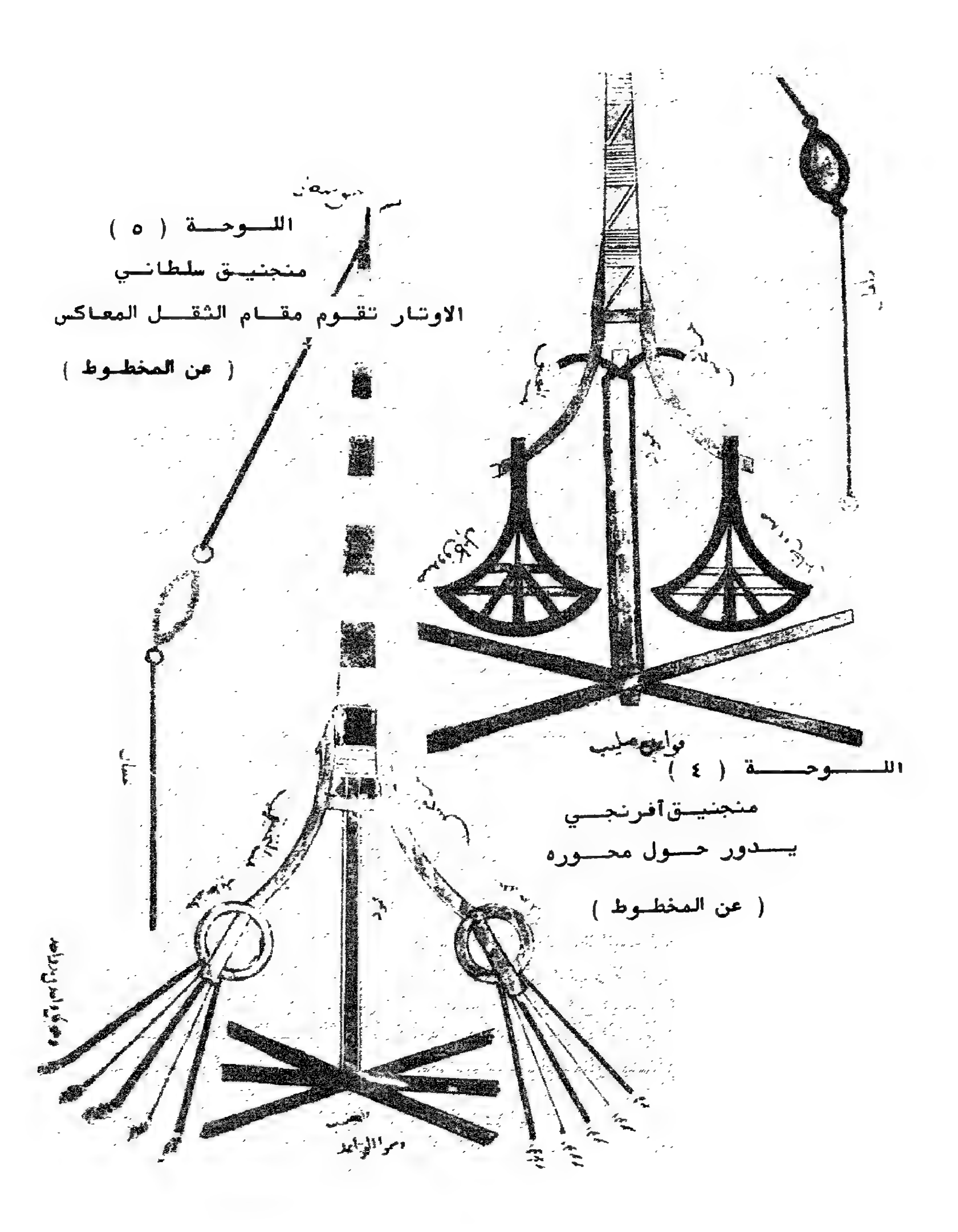
وتوازن الاجسام الطائرة . فالاسهم لها صفائح معدنية موجهة واجنحة وزوائد لحفظ توازن السهم المنطلق ورسم مسار صحيح له أثناء الاطلاق والتوجيه .

من هذه الملاحظات الاولية لنص الكتاب ،نجد أن المؤلف لم يعتمد كثيرا على الشرح النظري والتعبير اللغوي ، وانما اعتمد أساسا على الرسم ، وكأنه أراد أن يثبت مقولة أن الرسم هو لغة المهندسين . بل احيانا يشك المرء في أمره ، على اعتبار انه لم يشق بالنص فاستعان بالرسم لزيادة التوضيح ، كما في المقطع التالي وغايته اظهار طريقة لحرق الحقول والمزارع بواسطة قطة وكلب : « تأخذ قططا وكلابا وترسم في أذنابهم ـ (من الملاحظ أنه يستخدم كثيرا كلمة ترسم ويقصد هنا ربط فتيلة بأذنابهم) فيحرقوا الزرع وهذا هو المثال »(١٧) ، مشيرا الى رسم موضح في لوحة . ولهذا يمكن القول أن أهمية الكتاب الرئيسية تكمن في القدرة على جعل لغة الرسم لغة علمية تساهم في شرح المواضيع الهندسية ، وتقوم بأعباء نقل صور الاشكال ، ونسبها ، وطريقة صنعها ، بالاضافة الى تركيبها واستعمالها . فوظيفة الرسم عند الزردكاش متعددة الجوانب : للاستعانة بها أثناء انجاز وتنفيذ الالة ، واعطاء فكرة وصورة عن المنشأة ، الى جانب وظيفتها التعبيرية التي تساعد اللغة والنصوص والشروحات على توضيح الفكرة النظرية ذاتها ، وايصالها الى القارىء بأبسط واسرع الطرق .

* خصائص الرسم الهندسي :

يمكن القول أن الاساس النظري الثابت لكتاب الانيق هو الرسم ، وهو لغته العلمية وعمودها الفقري . فهل استطاع تحقيق ذلك ، وبلوغ مستوى كفيل بنقل رسالة المؤلف العلمية ، وما أهم سمات الرسم الهندسي نفسه بالمقارنة مع ما هو معاصر ؟!. الرسم كما يبدو من أول نظرة ، رسم ايضاحي بشكل عام ، وتنفيذي أحيانا ومع ذلك لا يعتمد الرسم على الترقيم ، فلا نجد أي رقم أو بعد على اللوحات ، ولا أي رمز رياضي (الاحرف الابجدية) ، وانما أسماء كاملة . فالجسر مثلا مكتوب عليه (جسر) وليس (ج) على سبيل المثال . مع العلم أن المهندسين العرب قبل عصره بفترة طويلة ،لجأوا الى الرمز والاختصار في هذا المجال ، (الجزري ــ بنو موسى ..).

ولتوضيح لوحاته وارشاد القارىء أو الحرفي الذي سينفذ هذه الالات ويصنعها، لجأ الى تركيب أجزاء الالات في صور متعاقبة ، والى أساليب ايضاحية اخرى نذكر منها ، استخدام عدة الوان ، كالاسود الفامق والرمادي والابيض ، في الرسم ، بتدرج يحدد لنا اختلاف جزء عن آخر ، مع اللجوء الى التفريد وتجزئة الاشكال ، ورسم القطع ، منفصلة او مجتمعة . أما من حيث المساقط ، فأغلب اللوحات هي عبارة عن رسم لاظهار مجسم الشكل ، أو يعتمد علي رسم مسقط



اللوحة (٥)

منجنيق سلطاني

الاوتار تقوم مقام الثقل المعاكس

(عن المخطوط)

اللوحة (٤)

منجنيق آفرنجي

يدور حول محوره

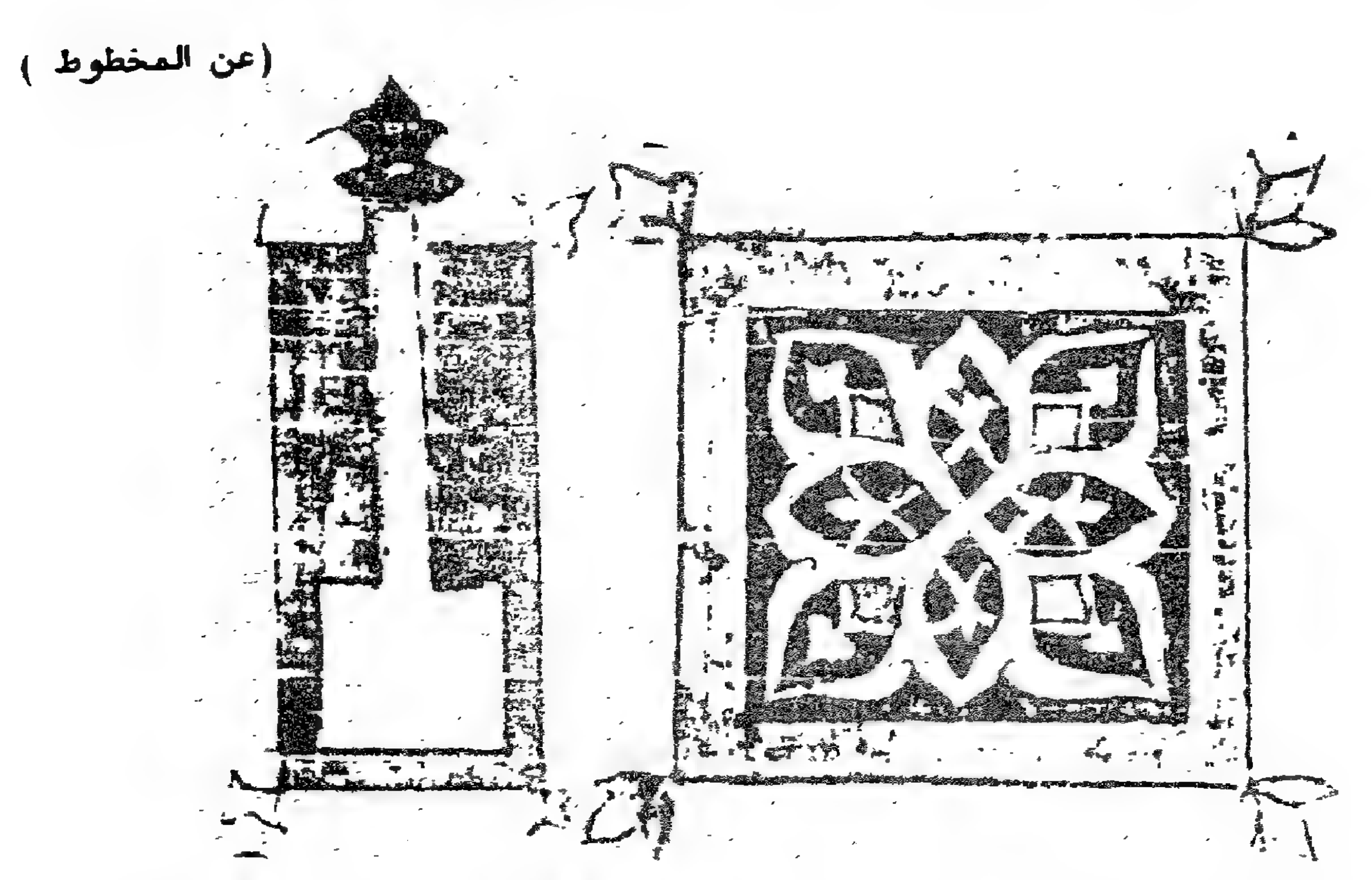
(عن المخطوط)

اللـــــوحـــــة (١٦)

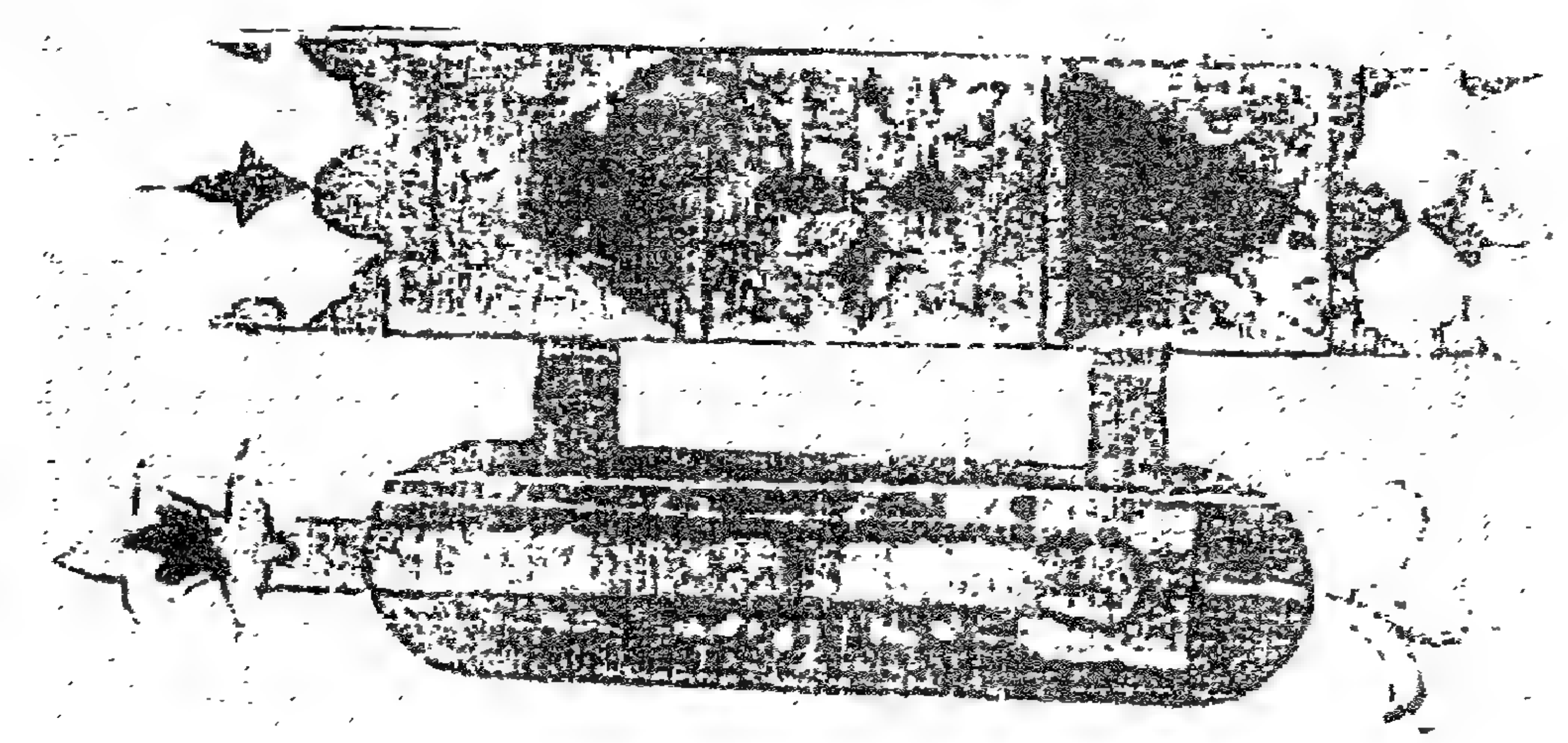
صـــندوق المخاســـفة (عن المخطـوط)

مسقط رأسي(واجهة) الى جانبها مسقط جانبي تظهر فيه الاجزاء غير المرئية (شبه مقطع) لاحظ الزخارف وهي معدة للانفجار .

(عن المخطوط)



صندوق آخر مؤلف من قسمين واحد للمواد المتفجرة والاخر للحارقة يصل بينهما انبوبان (عن الكتـــاب)



جانبي واحد ، يكون الاكثر أهمية من بين باقي المساقط ، أي تعطي الفكرة الرئيسية عن المنشأة أو الاداة ، وتحوي على مواقع أهم أجزاءها .

وأحيانا أخرى كان الرسم يجمع صفة المسقط Plan والمقطع Section أي صيغة متوسطة بين الحالتين ، والى جانبها رسم للوحة نفسها بالطريقة الحديثة لتوضيح الفروقات .

وكذلك في صندوق الخاسفة (اللوحة ١٦) ، نجد الى جانب المسقط الامامي مسقطا آخر جانبيا ، ولكنهشبيه بالمقطع العرضي (شبه مقطع)، تظهر داخله الانبوبة. أما في اللوحة (١٧) « آلية شد قوس الزيار » فمن الواضح أنه استخدم فيها مسقطين جانبيين ، لتبيان شكل الثقوب وطريقة ادخال الاوتار وامرارها .

ولكن أهم ما يلاحظ في الرسم الهندسي المذكور ، أظهار الاجزاء غير المرئية في المساقط الجانبية ، وذلك برسمها بلون مخالف للون المسقط . وتصغير الجزء غير المرئي ونقله الى داخل حدود الرسم ، كما في اللوحة (١٨) . والى جانبها رسم هندسي معاصر للقدر نفسها ، لتوضيح الفروقات وتبيان خصوصية الرسم في كتاب الانيق .

ان هذه الطريقة تؤدي الى نوع من الكثافة في مركز اللوحة ، وتضفي مسحة جمالية خاصة على الرسم الصناعي ، تجعل القارىء يتقبله بصورة أفضل ، اذ يتحول الى لوحة من طراز خاص ، بعد نقل الاجزاء الزائدة عن الاطراف الى داخل اللوحة ، وتصغير الجزء الواقع في الجهة الاخرى بشكل متناسب . ان النزوع الى الرسم المنمق وذي الطابع الجمالي واضح في كل الرسومات الصناعية عند الزردكاش ، اذ لا توجد تقاطعات حادة ولا أشكال صناعية بحتة ، على عكس المعمارية ، حيث نجد صور القلاع وواجهاتها عبارة عن كروكيات غير دقيقة ، خطوط متقاطعة ومداميك ، قلما تظهر عليها الحلي المعمارية .

وهنا نشير الى وجود احتمالين في مسألة الطابع الجمالي للرسم ، الاول أن رسم الاشكال الهندسية الصناعية بهذه الطريقة له هدف واحد ، وهو أن يخفف ويعدل شكلها الفعلي وطابعها الصناعي ، ولكي يوافق ذوق القراء الذين لم يتعودوا بعد استساغة أشكال كهذه في الكتب . وكمثال نأخذ رسم « وردة اللباد » الموجودة في أغلب اللوحات وهي في الواقع مجرد فتيلة لاشعال القذائف ، الا أنها ترسم كوردة حقيقية في اللوحات . والاحتمال الاخر ان بعض تلك الالات والادوات كانت جميلة فعلا ، ولكننا نقع في اشكال اذا اعتقدنا بصحة هذه الاخيرة ، فمن غير المنطقي أن يزخرف الصانع أو المهندس الحربي قدرا أو سهما معينا ويزينه لكي يلقيه على الاعداء ولينفجر بعدئذ!، لان المسحة الجمالية والزخرفية واردة في الادوات والاسلحة الفردية التي يحتفظ بها

المقاتل ، وليس التي يلقيها على الخصوم . ومهما يكن فعنصرا التوضيح والجمال قد اجتمعا في طريقة أرنبغا في الرسم الهندسي ، وكان التوضيح أحيانا على حساب التناسب مثل طرق نصب المناجيق والسلالم على القلاع ، وكذلك الجمال على حساب الايضاح كما في القدور والاسهم والدبابيس .

وهذا الجمع بين الجمالي والعلمي التعبيري ، يرتقي احيانا الى مستوى فني خاص لدرجة ترسخ لدينا فكرة شبه مؤكدة ، وهي أن المؤلف كان مهندسا أو حرفيا أصلا ، وليس رجلا مختصا في العلوم النظرية .

هذه الملاحظات تقودنا الى القول ان العلوم الهندسية ،الانشائية منها والصناعية، كانت قد امتصت قدرا كبيرا من الطاقة الابداعية والفنية للحرفيين والمهندسين في الحضارة العربية الاسلامية ، حتى أضفت على معظم الالات والادوات والمنشآت مسحة جمالية لم تكن بحاجة اليها ولا ترتبط بوظائفها . ورأينا كيف كان الرسم الهندسي ، والصناعي بشكل خاص، يحور من شدة الاعتناء حتى يتحول الى لوحة أو منمنمة تزين الكتاب ، وبالتالي النص ، وتحببه الى القراء . والى جانب هذه الظاهرة أو بشكل أدق قبلها كانت النصوص العلمية ذات صيغ لغوية راقية تصل الى مستوى الادب في جزالة التعابير ورصانة التراكيب . وكان الهدف من كل ذلك ليس تقريب العلم الى قلوب القراء ، والكتابة حسب القيم والاذواق السائدة فحسب ، وانما الوحدة العضوية المعرفية العامة ، والتي تبدو أكثر تماسكا وارتباطا كلما توغلنا في تاريخ الثقافة والمعارف الانسانية .

ختاما لا يمكن لنا بهذه العجالة ان نكشف عن الاسس النظرية لكتاب الانيق في المناجيق ، ومدى تقدم هذه الاسس والمرتكزات وأهميتها في السياق التاريخي العام لتقدم الصناعات الحربية ، لان معظم الكتب العلمية القديمة تعاني من أنها تقوم بعدة وظائف معا ، وفي مقدمتها طرق الاستعمال ، وخوض المعارك ... الى كيفية صناعة وتركيب الالات الحربية نفسها . ويظل السؤال الهام مطروحا في هذا المجال على كل باحث ، وهو الى اي درجة كانت الصناعات وطرق الانشاء تعتمد على العلوم الاساسية وخاصة الرياضية والفيزيائية ؟ . وما دور التجربة العملية في ذلك ، ومن أي المصدرين انبثقت أولا ؟!.

وكتابنا هذا ان لم يعط الجواب الوافي على هذا السؤال ، الا أنه يمهد بشكل ملحوظ للاجابة عليه . فالكتاب هام جدا في مجال الصناعات الحربية ،وان كان أساسه النظري ضعيف ، لانه عوّض عن هذا النقص بكثرة الرسم ، ورفع سويته الى مستوى التعبير اللغوي العلمي . فالكتاب اذن تصنيف تاريخي Catalogue للصناعات الحربية ، وظيفته الاساسية نقل المعارف وتوجيه الحرفي أثناء التنفيذ ، وتصنيع

اللـــــــوحــــــة (١٧)

آليــة شد قوس الزيـــــار .

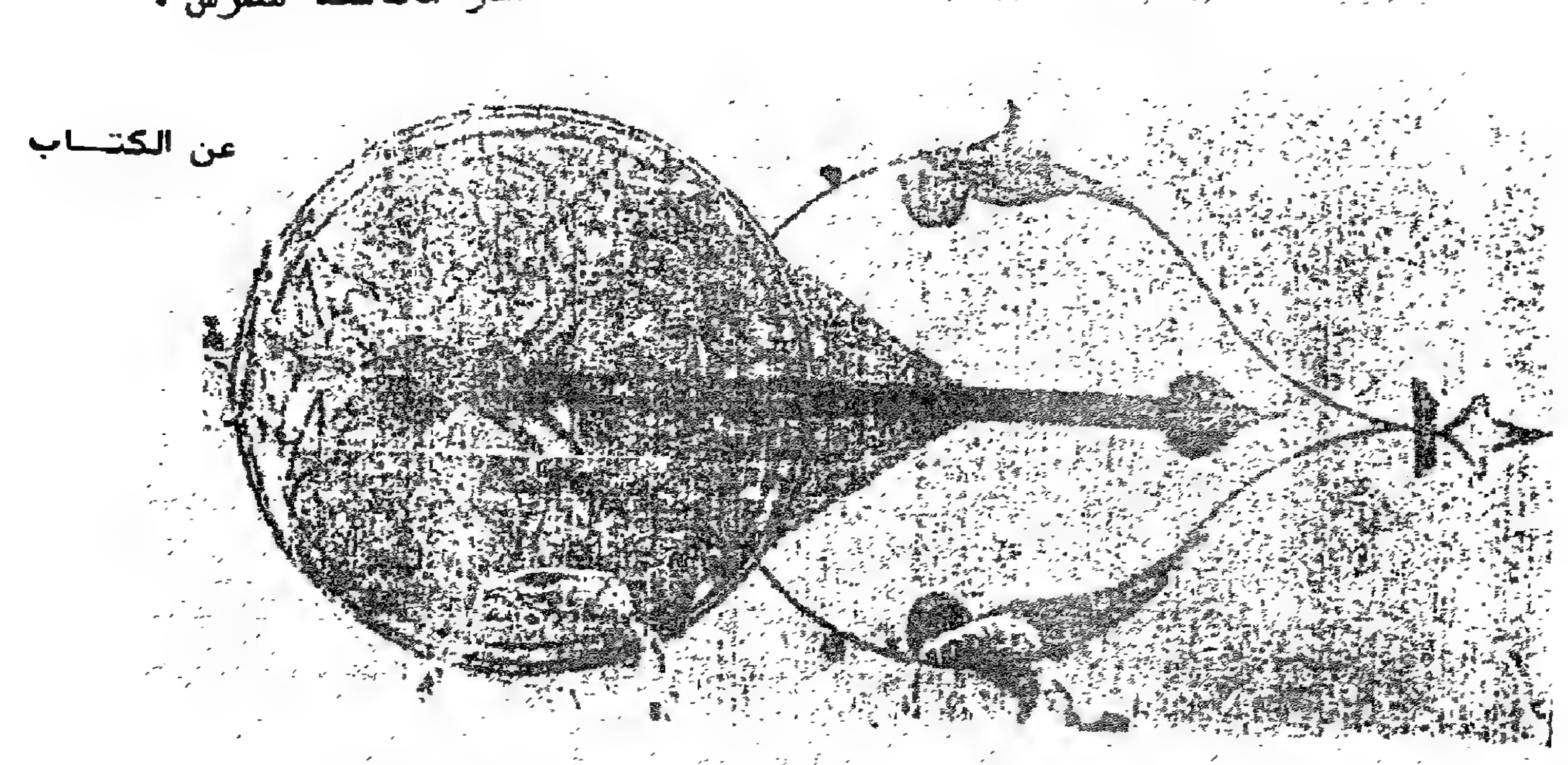
الاوتـار وكيفيـــة تزبيرها وتغييرهـــــا

(عن المخطـــوط)

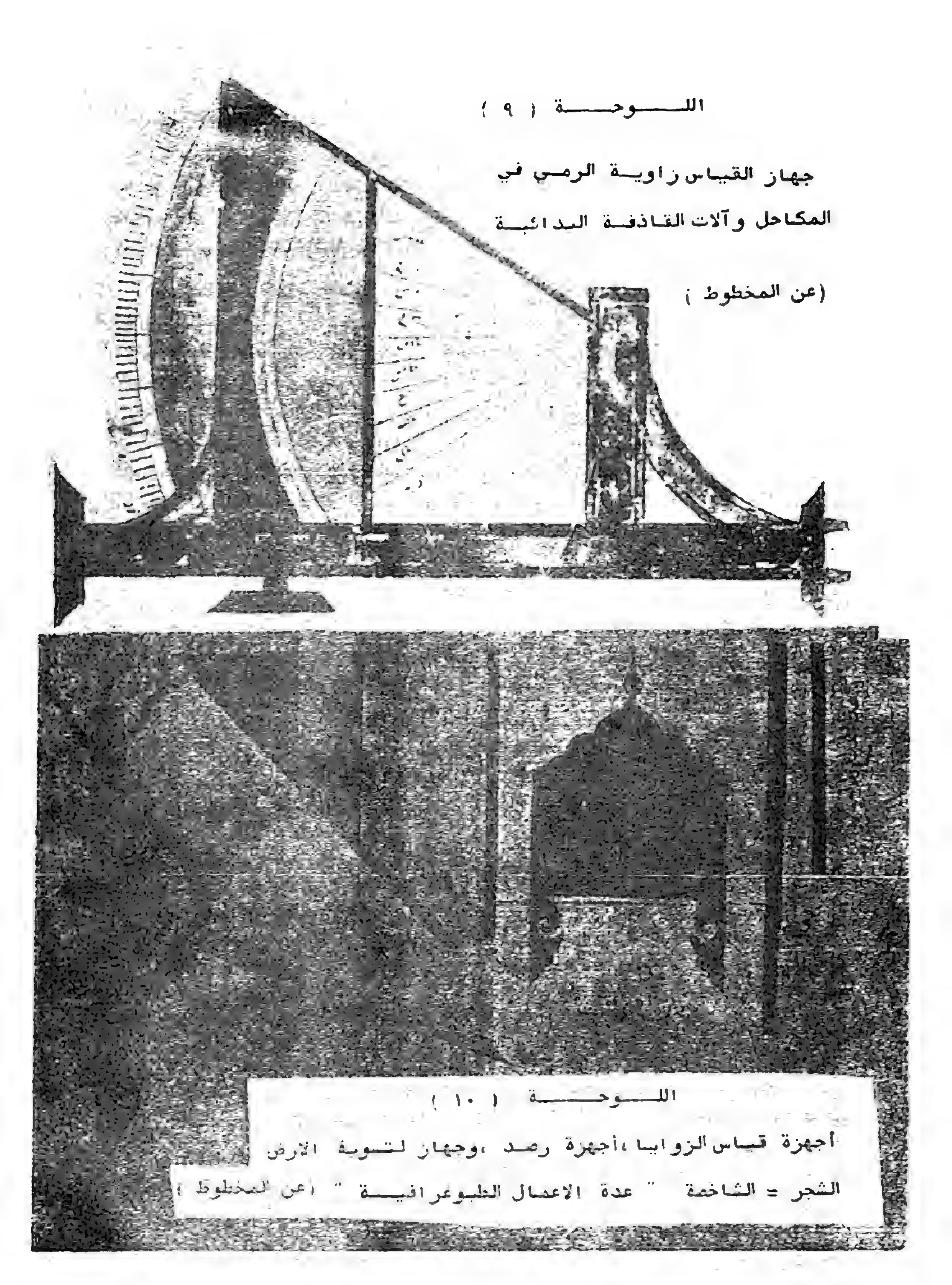
اللـــــوحــــة (١٨)

قدر مخاسفة مضرس .

عن الكتـــاب



الجزء الداخل غير مرئي ، وفي الرسم مرئي (الانبوبة) والمقبض لليد .



اللوحة (٩)

جهاز القياس زاوية الرمي في المكاحل وآلات القاذفة الدائبة

(عن المخطوط)

اللوحة (١٠)

أجهزة قياس الزوايا ،أجهزة رصد ،وجهاز لتسوية الارض

الشجر = الشاخصة " عدة الاعمال الطبوغرافية " (عن المخطوط)

تلك الالات . ومن المحتمل أن يكون نص الكتاب الاصلي (القسم اللغوي) قد ضاع أو تعرض للاختصار أثناء النسخ . ولا يستبعد أن يكون المؤلف قليل الالمام باللغة العربية، فدفعه ذلك الى الاعتماد بشكل أساسي على الرسم ، أو كانت معلوماته شفهية تجريبية فدونها على شكل مخططات للسهولة ، ولكونه يجيد الرسم بشكل أفضل .

ومهما يكن فكتاب « الانيق » بالمقارنة مع المؤلفات المماثلة التي سبقته ، وخاصة مخطوطة الطرسوسي : « تبصرة أرباب الالباب وكيفية النجاة من الحروب... » يعتبر تقدما كبيرا في مجال ادخال الرسم في الكتب العلمية ، لان مخطوطة الطرسوسي تعتمد كليا على النص اللغوي والمصطلحات العلمية والمفاهيم الفيزيائيـة ، في حين أن عـدد لوحاتها قليل جدا ، على عكس اسلوب الزردكاش الذي أدخل الرسم بهذا الاتساع في مجال الصناعات الهندسية والحربية ، وقام بوضع الاسس والقواعد الهامة للرسم الهندسي ، كالمساقط وأشباه المقاطع ،والتي ساهمت بدورها في تقدم العلوم الهندسية ونشرها بواسطة المخططات التنفيذية واللوحات ،دون الحاجة الى الترجمة أو الاسهاب في الشرح . انه كتاب مطابق حقا لعنوانه ، كتاب « أنيق » .

الهوامش

(١) الانيق في المناجيق . ابن أرنبغا الزردكاش. دراسة وتحقيق الدكتور احسان هندي . من منشورات جامعة حلب . معهد التراث العلمي العربي (١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م) . المرجع الاساسي للبحث .

(٢) المرجع السابق ، الصفحات (١٣ ـ ١٥) ، التاريخ تقريبي .

(٣) الزحافة : هي الشكل البدائي للدبابة أو العربة المصفحة . اللوحة (٨) . وقد رأينا صورة أخرى لزحافة على شكل سلحفاة في مخطوطة : العز والمنافع للمجاهدين في سبيل الله بالمدافع .لابن غانم الاندلسي (١١٩٨هـ)

(٤) القدر : هي وعاء من الفخار أو المعدن وتعتبر أصل القنابل حسب التطور من قدر ← قنبرة ← قنبلة .

(٥) كسكنجيل : هو منجنيق صغير خاص لرمي السهام بواسطة قوة شد الاوتار .اللوحة(٦).

(٦) السهام : مفردها سهم ، وهي أجسام على شكل رماح صغيرة ، عبارة عن قذائف من نوع خاص لها عدة أنواع وتحمل موادا حارقة أو متفجرة تطلق من مناجيق أو مدافع خاصة (مكاحل) .

(٧) المكاحل : الشكل الاولي للمدافع .

(٨) القوارير : أداة طويلة لها مقبض ورأس تحمل موادا قابلة للاشتعال ، وظيفتها انارة الاماكن المظلمة ، على شكل مشعل .

(٩) الدبابيس : مفردها دبوس ، وهو سلاح حربي يحوي على شكل هراوة ، للضرب ،ولها أنواع سريعة العطب تلقى على الاعداء .

(١٠) صندوق الخاسفة : صندوق متفجر ، أكثر تطورا وأكبر حجما من القدر . اللوحة (١٦)

(١١) جرت العادة أن تهدى الكتب العلمية الى أحد القادة أو الامراء ، والمؤلف أهداها الى منكلي بنا الشمسي الذي كان أتابك العساكر الاسلامية . وهو منكلي بغا الصالحي الظاهر برقوق، ويعرف بالعجمي. تزوج الاميرة خوند فاطمة ابنة الملك الاشرف شعبان ، ثم أصبح أتابكا للعساكر الاسلامية عام ٨٣٠هـ حتى مات ٨٣٦هـ . وهذا ما دفع المحقق أن يعتبر أن تأليف الكتاب تم قبل عام ٨٣٠هـ ثم

أهديت اليه أثناء توليه المنصب . وللتفصيل راجع النجوم الزاهرة ، ج١٥ ص١٤٢ و١٦٩.

(١٢) كتاب الانيق ص ٤٦ .

(١٣) المرجع السابق ص ٤١ .

(١٤) القنداق : كلمة تركية معناها أخمص البارودة ، وهنا تعني ميزان الرمي : جهاز لقياس زاوية الرمي بين محور المدفع (المكحل) والافق . اللوحة (٩) .

(١٥) كتاب الانيق ص ١٣٧ .

(١٦) التعليق على أجهزة القياس ص ٥٠ . كتاب الانيق .

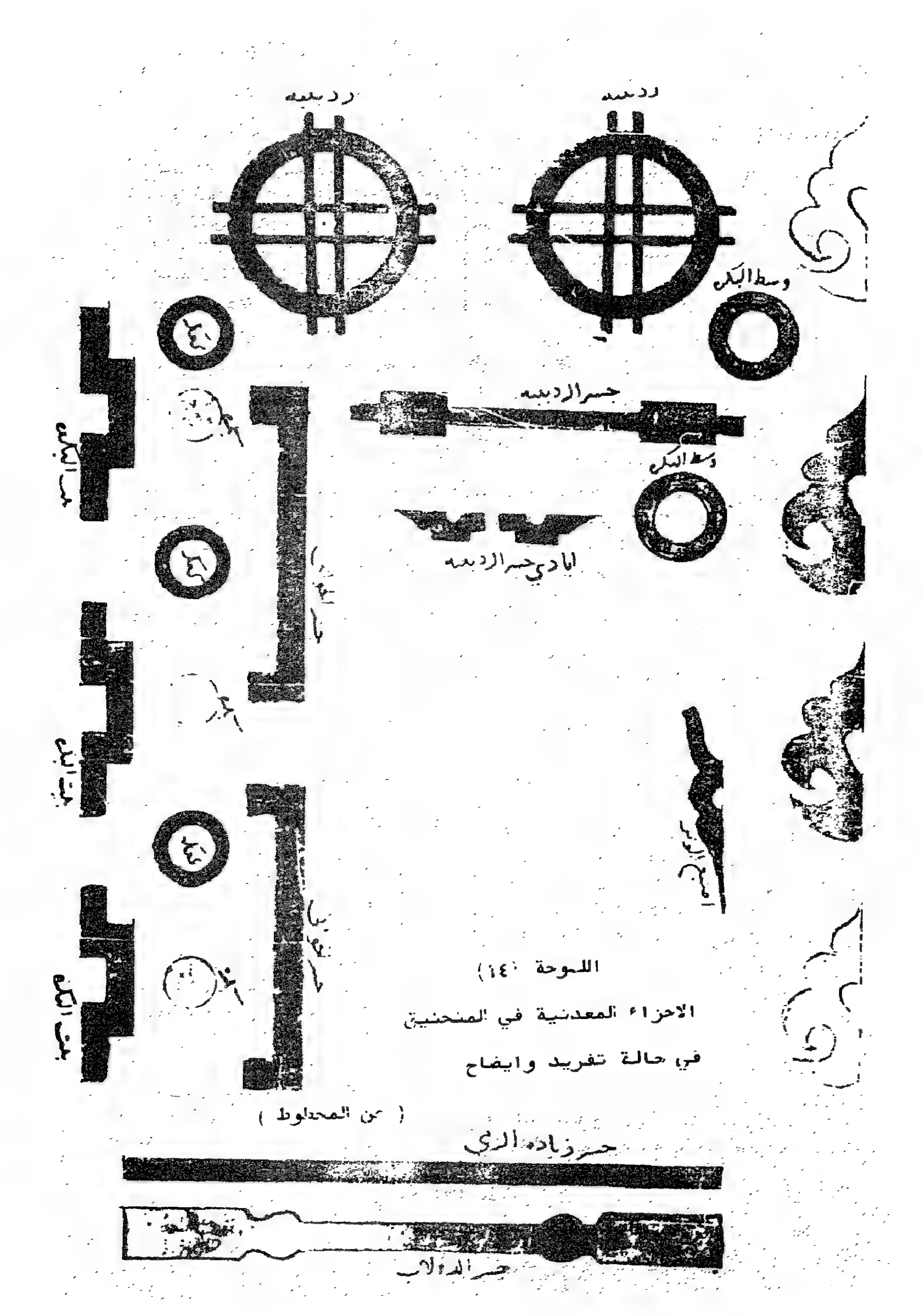
(١٧) المرجع السابق ص ١٩٩ .

* * *

المراجع الثانوية

- مخطوطة « تبصرة أرباب الالباب في كيفية النجاة في الحروب من الاسواء .. » لمرضي بن علي بن مرضي الطرسوسي . نسخة مصورة في معهد التراث تحت رقم (٥) عن نسخة المتحف الحربي بالقاهرة .
- مخطوطة الانيق في المناجيق . المصورة في معهد التراث العلمي العربي ـ جامعة حلب .
- مخطوطة «العز والمنافع للمجاهدين في سبيل الله بالمدافع » لابن غانم الاندلسي الشهير بالرياش. النسخة المصورة عن نسخة الخزانة التيمورية. بالخط المغربي . تاريخ النسخ ١١٩٨هـ تحت رقم (١١) مخطوطة في معهد التراث .
- الحياة العسكرية عند العرب ، احسان هندي، دمشق ١٩٦٤ .





اللوحة (١٤٠)

الاجزاء المعدنية في المنجنيق

في حالة تفريد وايضاح

(من المخطوط)

من تاريخ اللغـة العربيـة

د. مسعود بوبو
جامعة دمشق

مدخـل :

لم تحظ لغتنا العربية بالعناية المطلوبة في ميدان « علم اللغة التاريخي العام » إذ لم يفرد لها الباحثون ـ تاريخيا ـ دراسات عقدت على هذا الفرض وحده ، أو أفردت له واستقلت به ، أو برديفه « علم اللغة الجغرافي » ، بل لم تفرد دراسات خاصة حـول جغرافية انتشار العربية في الآفاق ، وبين الشعوب واللغات الاخرى ..

أجل ، إن كتب التراث انطوت في تضاعيفها على شيء من ذلك ، ولكنها ألمت بـه عرضا ، وفي جملة معالجتها لجوانب أخرى مـن العلم والبحث ؛ لا على غرار ما فعـل بعض الباحثين المحدثين حين خصصوا أبحاثـا خالصـة للتأريخ للغاتهـم ، أو للتأريخ للدراسات اللغوية ، محليا ، أو عالميا .. وبسـبب هذا النقص في مكتبتنا العربية كانت حصيلتنا من المعرفة التاريخية ـ اللغوية نزرة ومبعثرة لا ينتظمها منهج ، ولا يقيدهـا تصنيف . فحتى نولي هذا الجانب حقه من العنايـة والمنهجية ينبغي أن نؤسـس لـه مبدئيا بتعرّف المسار التاريخي للعربية منذ نشأتها حتى العصـر الحديث ، مركزين على توضيح سـماتها وشخصيتها العامـة وأبرز العوامل التـي عملت على إغنائهـا أو إضعافها او التي ألمت بها وأثرت فيها ، تجديداً وتطويرا .

قد يكون للعربية تاريخ خاص انفردت به ، ولكن ليس لذلك كبير أهمية من وجهة نظر علم اللغة الحديث الذي لا تعنيه المفاضلة بين لغة وأخرى ، لأنه ينزع الى البحث عن قوانين عامـة تحكم الظاهرة اللغويـة كلها ، ونحن ـ من وجهـة النظر التاريخية الصرفة ـ معنيون بأن نتثبت من انفراد العربية بهذا التاريخ الخاص المتميز بين لغات العالم وما أُطلق عليه « اللغات الساميـة » ، معنيون أن نقف على مسـالك التداخل والارتباط بين الخاص والعام في التاريخ اللغوي ، وأن نستقرىء علاقات التأثير والتأثر وطبيعة الدور الذي أسهمت به الحضارة العربية من خلال ذلك في تكوين الحضـارة الانسـانية .

ولعل أبرز قسمات الخصوصية الواضحة في تاريخ العربية قِدَمُها واستمرارها بخصائصها الأساسية المتمثلة في انساق قواعدها التي بقيت محافظـة على أصـولها

واطرّادها بصفة عامة ، الأمر الذي لم يتيّض لسواها من « الساميات » وهي ــ على الرغم من تلك المحافظة ــ لا يمكن أن ترمى بالجمود أو الاستغناء بقواعدها الناظمة عن حيوية مواكبة الزمن في تطوره ؛ بل لقد كان لها من النمو والتوليد والثراء اللغوي ما دعا بعض الدارسين الى عدّ ذلك تزيّدا او تضخما لغويا ، على حين رأى فيه بعضهم الآخر حيوية ونماء استطاعت به أن تستوعب الفكر الاسلامي ، وأن تكفل له من الذخيرة الدلالية خاصة ما يسد حاجته ويفي بمتطلباته من المسميات والمصطلحات في شؤون التنزيل والتفسير والفقه والتشريع . . كما استطاعت به أن تفي بحاجة الحكم الأموي في تعريب الدواوين ونظم الادارة والترجمة ، وأن تصلح لاستيعاب الحضارة العباسية المزدهرة وعلومها ومسمياتها . ولقد فعلت ذلك مستفيدة من تجربة الحضارات الأخرى غير رافضة لعملية التأثر ، وبذلك برهنت على أصالتها وعراقتها وإنسانيتها بغير ما تعصب ولا انغلاق .

وكان من خصائص العربية في تاريخها الانساني انتشارها في لآفاق ، وخاصة زمن الفتوحات حاملة رسالة التوحيد الاسلامية وحضارة العرب في ظروف تدعو الى الدهشة والتأمل ، وتحفز على البحث والاستقصاء بعيدا عن محاولات التضييق والتقويم المتعصب ، وبمعزل عن روح الهوى والافتآت على العلم بالآراء المتسرعة .

ويُحترَز من الخلط بين التأريخ بمفهومه العام ، وبين التأريخ للغة ، ثم بينهما وبين (علم اللغة Linguistics) إذ أن التاريخ بمفهومه العام يُعنى بتسجيل الأحداث والحالات التي تطرأ على الأفراد والمجتمعات والظواهر الطبيعية في أوقات معلومة محددة ، على حين يعني التأريخ للغة شيئا من الخصوصية التي لا تؤرخ للظاهرة اللغوية بصفة عامة ، أو بالنظر الى اللغة على أنها موضوع مادي أو طبيعي كما يراها اللغويون المحدثون ، ولكنها في الوقت نفسه خصوصية لا تعزل العربية ، او أية لغة أخرى عن هذا الاطار العام عزلا تاما ، بل تتطلب من المؤرخ اللغوي ان يمازج بين وجهتي نظر المؤرخين واللغويين مستفيدا من منهجيهما في العمل ، وهذا يعني ــ في إيجاز ــ عدم الاكتفاء هنا برصد المسار التأريخي للغة العربية والاقتصار على الأحداث التي عرضت لها وحسب ، كما يعني الى جانب ذلك الاستعانة بالتحليل اللغوي أحيانا وحيث تستدعي طبيعة البحث ، والافادة من النتائج والملاحظات والدراسات المختلفة التي أثمرتها جهود علماء اللغة وخاصة في المجال التاريخي . ويترتب على هذا الاّ يطغى منهج التحليل اللغوي بروحه التخصصية البحتة على طبيعة البحث ذاك ، حتى لا يبدو الأمر وكأنه معاودة عرض المعلومات اللغوية بزيّ جديد ، إذ أن مسلكا كهذا قد يجنح بالدراسة الى ميدان علم اللغة الخالص . ومن هنا لا ينبغي أن نجعل من الخصائص الصوتية والتركيبية والدلالية في اللغة موضوع معالجة أساسية

متقصين ما تنطوي عليه من أسرار وتفصيلات ؛ إنما الذي يعنينا من ذلك أن نستخلص ما لهذه الظواهر وأشباهها من أثر فعال في تطور العربية ، أو تعديل مجراها أو ما كوّن نقطة بارزة أو منعطفا واضحا عبر رحلتها التاريخية الطويلة .

وربما كان من المفيد هنا الالماح الى أصالة البحث اللغوي في مجمله عند العرب ، والى أصالة حوافزه وقوة الخلق والابداع فيه ، من غير أن نعزو الى الحضارات المجاورة كبير أثر وأهمية في ذلك ، كما يحلو لبعض المتطرفين أن يفعلوا او يبالغوا ، ذلك لأن البحث في اللغة ، والتأريخ لها وللحضارة العربية الاسلامية مسألة أمْلَتها بواعث العلم الأصل ، علم الدين الذي احتل المرتبة الأولى بين علوم العرب ، وأسس لها ، ومن هنا يمكن الاطمئنان بداهة الى أصالة المنطلق وسلامة المقدمات الموضوعية التي ترجّح ان العمل اللغوي والتاريخي كانا أصيلين منذ البداية ، وبعيدين عن الاقتراض والاقتباس والتقليد مما يجعلنا في مواجهة موضوع مستقل وجدير بالمدارسة والتفحص في هذا الميدان من ميادين الحضارة العربية .

اللغة العربية قبل الاسلام

١ ــ مرحلة الانتماء :

تتناقل المرويات ، ويتردد في كتب التراث والمأثورات الدينية أنه بعد طوفان نوح (عليه السلام) جاء من أولاده الثلاثة : سام وحام ويافث شعوب عمّرت الأرض . والى « سام » ينتسب الساميون (على ما جاء في الاصحاح العاشر من سفر التكوين ، من التوراة) . واللغة التي كان يتكلمها هؤلاء سميت « اللغة السامية » . وأول من أطلق عليها هذه التسمية عالم اللاهوت المستشرق الألماني النمسوي الأصل: لودفيج شلويتسر A.L. Shloester سنة ١٧٨١م ، وتبعه في هذا عالم ألماني آخر هو : آيخهورن Eichhorn منذ سنة ١٨٠٧م ، ومن هذه اللغة انحدرت أو تفرّعت العربية(١). ذلك هو الاكثر شيوعا ودورانا على الألسنة وفي كتب التاريخ واللغة في العصر الحديث. واساس هذه الفكرة هو قول شلويتسر إنه : « ... من البحر المتوسط الى الفرات ، ومن ارض الرافدين حتى بلاد العرب جنوبا سادت كما هو معروف لغة واحدة ، ولهذا كان السوريون والبابليون والعبريون شعبا واحدا ، وكان الفينيقيون « الحاميون » أيضا يتكلمون هذه اللغة ، التي أود أن أسميها اللغة السامية » .

وهذه الفكرة تنامت وتقوت حتى تحولت الى « نظرية » عند المستشرقين الأوروبيين منذ القرن التاسع عشر . ولتطوير هذه النظرية والترويج لها شرع أولئك المستشرقون يبحثون عن موطن أصلي « للساميين » ويتتبعون هجراتهم التي أطلقوا

عليها إيضا اسم الهجرات السامية ، على الرغم من الاقرار التاريخي بأن تلك الهجرات قد خرجت من قلب الجزيرة العربية، من أرض (العرب) ، ومن الموقع الذي لم يتفقوا على أنه الموطن الأصلي « للساميين » . ذلك أن المهد الاول لتلك الاقوام التي لقبوهـا بالسامية مختلف على تحديده ، فلا هو معين بدقة في المظان التراثية القديمة ، ولا هو محل اجماع وتحديد في الدراسات الحديثة ؛ انما هناك اجتهادات أو افتراضات ليست قاطعة أو معززة بوثائق وثبوتيات؛ بل ان بعض الباحثين المتحمسين في هذا الميدان ينفي امكانية تحديد مهد للساميين ، يقول اسرائيل ولفنسون مثلا : « من العسير أن نجزم برأي في المهد الأصلي للأمم السامية » .. ثم يضيف : « والذي يمكننا ان نجزم به هو أن أكثر الحركات والهجرات عند أغلب الامم السـامية التي علمنا أخبارها وأسماءها كانت من نزوح جموع سامية من ارض الجزيرة الى البلدان المعمورة الدانية والقاصية في عصور مختلفة »(٢) .

وغير خفي هنا أن ولفنسون اقتصر على قوله : « أرض الجزيرة » التي يقصد بها ــ بداهة ــ الجزيرة العربية ، كما هــو متفق عليه تاريخيا ، ولكنه فرّ مــن التسمية الكاملة كي يتملص أو يتهرب من ربط « العروبة » بتلك الهجرات ..

وبعض الباحثين يفترض تخمينا مهـدا معينا لهؤلاء « الساميين » ، مثـل كارل بروكلمان الذي يقول: « .. ولكن اذا ما تأمل المرء في أنه قد لوحظ فيالعصور التاريخية، كيف أن بلاد الحضارة في ما بين النهرين وسورية ، كانت تكتسحها دائما وأبدا موجات من القبائل البدوية القادمة من الصحراء العربيــة ، حتى غمرت احدى هذه الموجات القوية ، وهي المسماة بالموجة العربية ، كل صدر آسيا وشمالي افريقيا ــ اذا ما تأمل المرء في كل هذا ، فانه يمكنه حقا أن يعتقد أن الجزيرة العربية هي المكان الذي يصلح لأن يكون مهد الساميين الاول ، ذلك المهد الذي يرجح أن الشعب السامي الذي يقطن الحبشة ، قد خرج منه كذلك »(٣) .

والذي تعنينا ملاحظته فيكلام بروكلمان اقراره الواضح بأن تلك الموجات البشرية قدمت من « الصحراء العربية » ، وأقواها « الموجة العربية » ، وان المكان الذي يصلح لأن يكون مهد « الساميين » الاول هو « الجزيرة العربية » .. فهو بذلك يخلع الطابع العربي على كل ما يكوّن عناصر « النظرية السامية » ويكمـل اطارها . أي أنه يقـر ضمنيا ، أو يميل في دخيلة نفسه الى أن مقومات ما سمي بالنظرية السامية ذات أصول عربية من منظور الواقع العلمي التاريخي ،وتلك قضية كانت بحق موضوع جدل وتفنيد عند من لم يَنْقَدْ للأخذ بفكرة شلوتسر ، أو عند من لم يتلقوا هذه التسمية ويقبلـوا بها كحقيقة مطلقة لا تقبل المناقشة .

وممن لم يطمئنوا الى هذه « النظرية » ، أو يسلموا بما ذهب اليه شلويتسر المستشرق الالماني المعروف « تيودور نولدكه » الذي يرى أن شلويتسر هذا « بنى تقسيمه (للشعوب السامية) علىاعتبارات سياسية ، وحدود جغرافية فحسب »(٤).

أي أنه لم يبن تقسيمه اعتمادا على معطيات تاريخية أو مستند علمي .. ويقول سبتينو موسكاتي : « ... لا حاجة الى مناقشة نظرية « الجنس السامي » جنسا متميزا يشمل جميع الشعوب التيتتكلم اللغات السامية ، فهي نظرية تنتمي الى ميدان الدعاية السياسية التي عفت آثارها الآن أكثر مما تنتمي الى العلم الجاد ، وقد نبذها علماء الجنس عن حق »(٥) .. ويقول في موضع آخر :

« ليس هناك قطعا شيء اسمه الجنس السامي »(٦) .

ويحمل على هذه « النظرية » أيضا « بيير روسي » ويستنكرها قائلا :

« .. انه لمن غير المنطقي أن يفرض علماء الغرب الموسوعيون عن طريق فكرهم العلمي ميثولوجيا مؤسسة على الأساطير التوراتية »(٧) . ثم يقول في موضع آخر :

« .. انها لميزة يمتاز بها هؤلاء الخبراء (المستشرقون) الذين لا يتفقون فيما بينهم على شيء إلا على أمر واحد ـ ويا للغرابة ـ انه هذا التعبير (سامي) الذي لم يتفقوا أبدا على محتواه(٨) .

ويرى الدكتور لطفي عبد الوهاب يحيى أن « التسمية التي نادى بها شلويتسر تسمية تقريبية على أحسن الافتراضات »(٩) . ثم يقول : « الحديث عن جنس سامي أو عنصر سامي يصلح أساسا للتسمية السامية هو أمر أقل ما يقال فيه انه مستبعد علميا »(١٠) وهو « حديث غير وارد في ضوء الأدلة العلمية » .

والى مثل هذا يذهب الدكتور محمد حرب فرزات حيث يقول :

« .. من الواضح أن هذا الاصطلاح غير دقيق لأنه مبني على أساس تصور الكاتب التوراتي المصطنع للجغرافية البشرية وللقرابة بين الشعوب ولاختلاف المصادر التي اعتمد عليها في صياغة نصوص الاسفار التاريخية خلال المرحلة الطويلة التي استغرقتها كتابتها وتم فيها جمعها بين القرنين الحادي عشر والقرن الخامسق.م »(١١).

وقد أفرد الدكتور توفيق سليمان لهذا الغرض كتابا برأسه بعنوان « أسطورة النظرية السامية »(١٢) حاول فيه كشف زيف هذه النظرية وما تنطوي عليه من تكلّف أو تعصب تعوزه الدقة والادلة العلمية المقنعة .

ان أصحاب هذه الآراء ونظراءهم ممن لم يسلّموا أو يقبلوا بمقولة شلويتسر : (أود أن أسميها اللغة السامية) قد احتكموا في رفضهم لهذه التسمية الى العقل العلمي ملتمسين الحقائق والادلة ، فلما لم يقفوا عليها أطلقوا تلك الاحكام متيقنين من ان شلويتسر قد انقاد لهوى ديني او سياسي ظاهر التعصب ، ثم أطلق التسمية « السامية » استجابة لهذا الهوى واغفالا لحقائق العلم والتاريخ . ولما لم تكن تلك الحقائق معروفة للناس قبلا بالقدر الكافي فقد قبلوا تسميته واخذوا بها من غير تدقيق ثم شاعت بينهم وتناقلتها الالسنة والاقلام حتى اكتسبت قوة المصطلح وأَلِفها الناس حتى صار الاعتراض عليها مستغربا أكثر من التسليم بها . ونحن ليس في نيتنا بصورة أساسية هنا أن نتقصى الآراء التي انتصرت لفكرة شلويتسر أو رفضتها ؛ انما الذي يعنينا أصلا المضمون الذي أطلقت عليه التسمية وارتبطت به . فهذا المضمون يتلخص في أن الموجات البشرية التي خرجت من الجزيرة العربية ، وانتشرت في مختلف الاتجاهات كانت تتكلم في الغالب لغة واحدة ، ثم توزعتها الاماكن واللهجات توزعا تفاوتت ، تبعا له ، نسب الاختلاف أو الاتفاق اللغوي ، وهذا ما عبر عنه كارل بروكلمان بقوله :

« وعندما كان الساميون يكوّنون شعبا واحدا ، فلا بد انهم كانوا يتكلمون فيما بينهم ، بلغة واحدة مشتركة ، غير أنه ليست هناك بالطبع لغة واحدة عامة ، في منطقة واسعة نوعا ما ، لم تنقسم الى لهجات . فاللغات التي ظهرت لنا في العصور التاريخية في صورة لغات مستقلة ، لم تكن إلا لهجات للغة واحدة ، في الوقت الذي كان فيه الشعب الاول لا يزال أفراده يعيشون معا في منطقة واحدة ، وان كانت خصائصها لم تظهر واضحة ، إلا في وقت متأخر ، بعد انفصالها بعضها عن بعض . ومن الطبيعي أن تلك اللهجات ــ تماما كاللغات فيما بعد ــ لم ينفصل بعضها عن بعض انفصالا صارما »(١٣) .

أجل ان تلك اللهجات او اللغات « السامية » لم ينفصل بعضها عن بعض انفصالا صارما ، بل احتفظت بأوجه تشابه مؤكدة ، في الاصوات ، والتراكيب ، والدلالات ، وكثير من الخصائص التي ورثتها من اللغة الام . وغالبا ما تنسبت تلك اللهجات اصطلاحا الى متكلميها ، أو الى الارض التي استقروا عليها فترة طويلة نسبيا ، أو الى ما يمكن أن نطلق عليه اليوم اسم « عاصمة » اشتهرت بمنعتها وسعة سلطانها ، أو حضارتها المتفوقة على ما جاورها .. . ذلك هو الشائع المألوف في تسمية اللغات أو تصنيفها عبر التاريخ ، فالأسر اللغوية (كالسانسكريتية ، والصينية ــ التيبتية ، واللاتينية ، وغيرها ..) لم تنسب الى أبناء نوح الذين جاء منهم « شعوب عمرّت الارض » كما نسبت السامية والحامية ، مع أن تلك الأسر اللغوية ليست أقل قدما وعراقة في التاريخ ،

فعلى أي أساس إذن تقبل بنسبة اللغات التي خرج حاملوها من « جزيرة العرب » الى سام بن نوح ولا تقبل بنسبتها الى تلك الجزيرة ؟! أو الى « العرب » ؟!

يقول سبتينو موسكاتي : « الشعوب التي تتكلم اللغات السامية وفدت في العصور التاريخية من الجزيرة العربية »(١٤) . ويقول في موضع آخر : « فالساميون يظهرون في أقدم المصادر على أنهم بدو صحراء العرب »(١٥) .

ونحن ــ أخذاً بهذا كله ــ نود أن نسميها «العربية القُدْمَى» . ولو أن شلويتسر أو من سبقه سماها كذلك اعتماداً على ما يوافق هذه التسمية من الحقائق التاريخية التي بين أيدينا لكانت لقيت القبول والاجماع واستقرت مصطلحا بديلا من السامية أو الساميات . ولكانت تسمية أقل عرضة للنقد ، ان لم تكن أقرب الى العلم والموضوعية.

وما أَخَذْنا بمصطلح « السامية » أحيانا هنا الآن إلا تجنبا للالتباس ودفعا للاشكال الذي قد يؤدي اليه تعدد المصطلحات أو تداخلها .

وبعد ، فهذه الاسرة اللغوية تحتل مكانة عريقة ووجودا موغلا في القدم بين السلالات اللغوية في العالم ،وقد صنفها اللغويون المحدثون والمؤرخون على النحو التالي:

١ ــ الفرع الشرقي .
٢ ــ الشمالي الغربي .
٣ ــ الجنوبي الغربي .

١ ــ وواضح أن تسمية الفرع الشرقي بالنسبة الى جزيرة العرب ، لأن مسرحه كان في شرقها ، وأقدم لهجة أو لغة منه « الأكادية » التي كان موطنها بلاد الرافدين : « دجلة والفرات » في أعقاب اللغة «السومرية» التي لم يصنفها علماء اللغة بين ما أطلقوا عليها « اللغات السامية » ، وقد تأثرت بها « الأكادية » وأخذت منها كثيرا من المفردات . والأكادية نسبة الى مدينة « اكد » التي كانت تقع الى شمال المدن السومرية . وللأكادية الشرقية فرعان هما : « البابلية » و «الآشورية» .ينسب الاول الى مدينة « بابل » التاريخية ، والثاني الى مدينة « آشور » التي نقلت اليها عاصمة الدولة في بلاد الرافدين بعد بابل . وبهاتين اللغتين دُوِّن أقدم الشرائع البشرية : قانون (حمورابي) . وقد عثر على نقوش مختلفة كتبت بهما ترجع الى القرن الثامن عشر قبل الميلاد كنقوش ورُقم «ماري» وغيرها ،وذلك منذ ١٨٤٠ حين بدأ قنصل فرنسا حفرياته قرب « الموصل » ، تلك الحفريات التي كشفت عن نقوش مكتوبة على ألواح من الفخار أو الطين المشوي بالخط المسماري « الاسفيني » .

وينسب الى الفرع الشرقي أيضا اللغة « الكلدانية » بعد أن صارت السلطة الملكية بأيدي ملوك من قبيلة بني كلدان القادمين الى بابل من جوار الخليج العربي .

٢ ـ أما الفرع الشمالي الغربي فيقسم الى :

ـ كنعاني ، وآرامي .

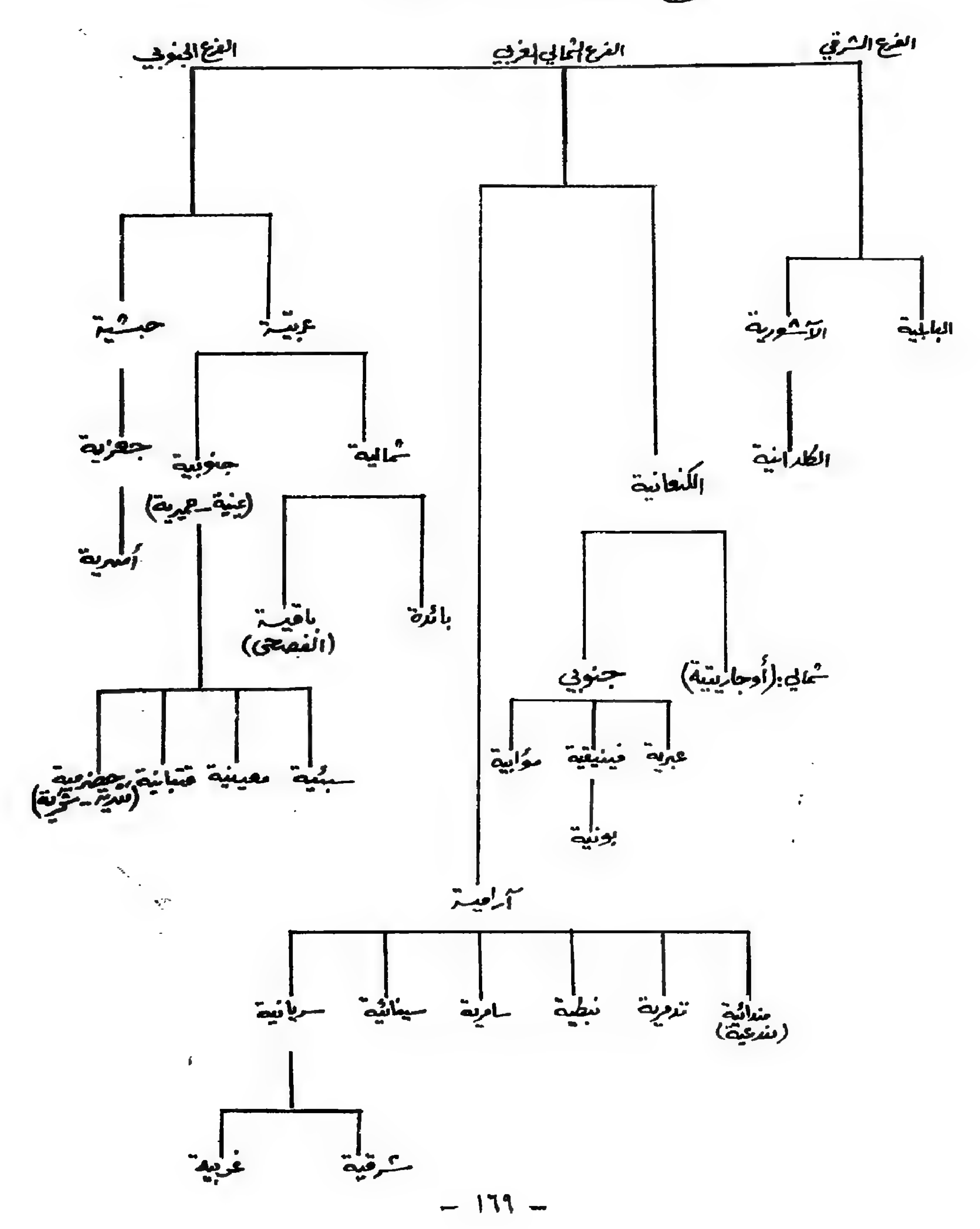
والفرع الكنعاني ينقسم الى قسمين: كنعانية شمالية تعرف باسم «الأوجاريتية» نسبة الى « أوجاريت » ، وهي مدينة أثرية على الساحل الشمالي لبلاد الشام ، قرب مدينة اللاذقية حاليا ، ويسميها السكان المحليون « رأس الشمرة » . وتمثل الأوجاريتية حضارة مزدهرة كما دلت النقوش التي كشفت فيها ، والتي كتبت على الالواح والاعمدة الحجرية الضخمة بالخط المسماري ، ولكن بالنظام الابجدي ، لا المقطعي كما كانت الحال في الاكادية .

ـ وكنعانية جنوبية ومما اكتشف من آثار مكتوبة بها ما عرفت في مصر باسم مراسلات « تل العمارنة » . وكانت منها أيضا لغة الطقوس الدينية للعشائر العبرية وأقدم ما اكتشف من آثار مكتوبة بهذه ترجع الى القرن التاسع او الثامن ، على أبعد تقدير ، قبل الميلاد(١٦) . ومنها أيضا (من الكنعانية) : « المؤابية » التي عرفت في « الاردن » نحو ٩٠٠ ق.م . ولعل أشهر فرع يمثل تمركز الكنعانية وكثافتها هو « الفينيقية » ، أو ما أطلق عليه اليونان اسم الفينيقية التي عرفت خاصة في «بيبلوس» أو « جبيل »(١٧) من الشاطىء اللبناني للبحر المتوسط ، وانتشرت الى الشمال والجنوب من جبيل، في صور ، وصيدا ، وأرواد ، حتى أوجاريت . وفي جبيل عرفت الكتابة الابجدية منذ القرن الثالث عشر قبل الميلاد ، وربما قبل هذا التاريخ ، وعن أبجديتها اقتبست أوروبا فكرة الكتابة الابجدية بعد أن أجرت على أصوات لغاتها ما يناسبها من تعديلات ، كما انتقلت هذه الابجدية الى غرب آسيا وجزء كبير من افريقيا ، في الفرع الكنعاني الذي عرف باسم« البونية » التي حملها الكنعانيون الى شمال افريقيا وتمركزت خاصة في « قرطاجة » ، في تونس حاليا .

ـ ومن هذا الفرع (الشمالي الغربي) : الآرامية . وكان الآراميون ينتشرون في سهول سورية وبوادي بلاد الشام ، وقد امتدت آثار لغتهم من شمالي انطاكية وبلاد الشام والرافدين حتى فلسطين وجزيرة « فيلة » بأسوان من بلاد مصر . ووصلت في بعض مراحل تاريخها حتى الهند ، وكانت لغة الادارة و (الدبلوماسية) لدى الفرس الأخمينيين تكتب بها الوثائق الرسمية والعقود والرسائل في كل انحاء الامبراطورية الفارسية(١٨) .. وكان الآراميون في كثير من الاحيان الوسيط في توصيل الدخيل اليوناني واللاتيني الى اللغة العربية(١٩) . وترجع الآثار المكتشفة المكتوبة بالآرامية الى القرن التاسع والثامن قبل الميلاد .

ومن فروع الآرامية الشرقية آرامية « الصابئة » التي تسمى « المندعية » او

توزع اللغات «السامية»



المندئية وقد انتشرت في جنوب بلاد الرافدين قرب البصرة وواسط . وآرامية التلمود البابلي التي بها شرح أحبار اليهود هناك كتاب « المشنا » ـ أو التي كانت لغة كتب الشريعة الشفوية ، تقابلها في الغرب « الآرامية الفلسطينية المسيحية واليهودية » التي ركزت على الجانب الديني وخدمة الكتاب المقدس . وآرامية السامرة التي بها ترجم يهود السامرة التوراة ، وكانوا لا يؤمنون الا بها . ومثلها آرامية نقوش صحراء سيناء .

ومن فروع الآرامية : « النبطية » وكانت مدينة سلع (بترا) عاصمة النبط في بادية شرقي الاردن وقد انتشرت النبطية فيها وفي « بصرى » من إقليم حوران جنوب دمشق ، وفي « العلا » أو مدائن صالح بشمال الحجاز . وعن هؤلاء أخذ العرب الكتابة، في أرجح الاقوال . . ثم الآرامية « التدمرية » التي عرفت تاريخيا بين القرن الاول قبل الميلاد وسنة ٢٧٣ بعد الميلاد عندما سقطت مدينة « تدمر » في يد الرومان(٢٠) .

بقي من هذا الفرع « اللغة السريانية » وهي لهجة آرامية قديمة نشأت وازدهرت في مدينة « الرها » قرب الحدود السورية التركية الآن ، وعرفت بالسريانية الشرقية النسطورية بعد أن دخلتها المسيحية منذ القرن الاول لانتشارها . وقد » بدات تسمى السريانية تمييزا لها عن الآراميات الوثنية أو اليهودية ، لاسيما أن لفظ « آرامي » كان قد اتخذ في أذهان العامة في هذا الاقليم مدلولا يشبه لفظة « جاهلي » عند المسلمين : أي لا يؤمن ، ويعبد الاصنام »(٢١) .

وفي مقابل لهجة « النساطرة » في الشرق تفرعت السريانية الى لهجة أخرى هي لهجة « اليعاقبة » في الغرب ، وكان ذلك الانقسام نتيجة خلاف مذهبي فرز كنيستين ولهجتين . ولا تزال آثارهما اللغوية باقية الى اليوم بجوار « الموصل » و «نصيبين» و « طور عابدين » . . في الشرق ، وفي قرى : معلولا ، جب عدين ، نجعا ، في الغرب ، قرب دمشق ، وهي من بقايا السريانية القديمة يتكلم بها المواطنون في تلك الاماكن ، ولا يستخدمونها في الكتابة .

٣ ـ الفرع الجنوبي الغربي :

وهذا الفرع يتشعب الى قسمين أساسيين هما : الحبشية ، والعربية .
وما الحبشية في الاصل إلا لغة الاقوام العربية التي عبرت البحر من مضيق باب المندب منتقلة من اليمن الى ما يعرف ببلاد الحاميين في افريقية حاملة معها هذه اللغة على موجات بشرية في فترات متباعدة لا يعرف ابتداؤها على أن ذلك يرجع الى ما قبل ميلاد السيد المسيح . وقد سميت هذه اللغة بعد ذاك « بالجعزية » نسبة الى شعب

« الجنعز » القديم ، ثم ورثتها اللهجة الامهرية . وقد توزعت الحبشة اليوم الى لهجات متعددة تنتشر هنا وهناك من بلاد الأحباش « اثيوبيا » ، وفي الصومال ، الى جانب العربية وبعض لهجات اللغة السواحلية . ومن اللهجات الحبشية « التيجرية Tigra » و « التيجرينية Tigrinna » .

ـ والقسم الثاني من هذا الفرع هو : العربية . وهو الاهم بالنسبة لموضوع بحثنا العام .

والعربية تقسم الى :

ـ عربية جنوبية .

ـ عربية شمالية .

وتعرف الأولى عند اللغويين باليمنية لأن موطنها اليمن، جنوب الجزيرة العربية، كما تعرف بـ (الحِمْيَرِيّة) وتنقسم الى لهجتين هما : «السبئية»و«المعينية»، ويرجع تاريخ اقدم آثارها المكتوبة بالخط « المسند » الى القرن الثاني عشر قبل الميلاد ، وقد بقيت الى القرن السادس الميلادي،ومن لهجاتها المشهورة : الحَضْرَمية ، والقَتَبَانية، ولهجة مَهرَة والشِّحْر .

ـ والثانية العربية الشمالية التي اتفق على تسميتها بـ«العربية الفصحى»وتقسم عند اللغويين العرب الى : عربية بائدة ، وعربية باقية ، فالبائدة هي التي اندثرت قبل الاسلام ، وأشهر لهجاتها : الثمودية ، والصفوية ، واللحيانية ، وآثار نقوشها الباقية ـ في معظمها ـ مدونة بخط مشتق من « المسند » أو من الخط الآرامي ، وهذه الآثار قريبة الشبه بالفصحى العالية التي قيل بها الشعر الجاهلي ، ونزل بها القرآن الكريم، والتي كان مهدها قلب الجزيرة العربية وشماليها .. تلك الفصحى التي بقيت وانتشرت انتشارا واسعا منذ فجر الاسلام حتى اضمحلت أمامها الفروع « السامية » الاخرى كلها بعد أن استقرت لغةَ العلم والأدب والتشريع ، بل ولغة بعض الاقوام غير العربية ممن دخل الاسلام ، أو بقي على دينه في ظل الحكم العربي الاسلامي . وهذا الانتشار الواسع للعربية الشمالية في الاصقاع وعلى الالسنة المختلفة ، تاريخيا ، وتطوريا ، ونموا ،وثراء ، واستمرارا هو ما سنعرض له بما يمكن من التفصيل والتتبع بعد ، بعون الله .

بقي أن نقول : ان الاسس والقرائن التي اعتمد عليها الباحثون لتصنيف هذه اللغات أو اللهجات في أسرة لغوية واحدة هي من الوضوح بقدر كاف يجعلنا نطمئن الى الاقرار بانحدارها من أصل لغوي واحد ، والى أن منطلقها ومسرحها الجزيرة

العربية أصلا ، وأن متكلميها هم الاقوام الذين خرجوا من تلك الجزيرة . أي أن الأطر : (الجغرافي ، والتاريخي ، والبشري ، والاجتماعي) هي الأطر التي أحاطت باللغة الأم ، وهيأت لها من التفاعل الحيوي والنشاط البشري ما جعلها تتوزع وتتطور مكوّنة كيانات شبه مستقلة ، ابتعد بعضها عن مركز الدائرة ، أو عما يمكن أن يسمى بالاطار الجغرافي خاصة حتى بدا غريبا أو معزولا (كالحبشة) . وان ترجيحنا لمثل هذا التصور مبني على حصيلة من نتائج الابحاث التاريخية واللغوية ، توصل اليها أصحابها بعد استقراء طويل متأنٍ للمكتشفات والوثائق والنقوش والدراسات اللغوية المقارنة . من ذلك مثلا ما ذكر عن ورود ألفاظ ومصطلحات في رسائل كتبت باللغة البابلية وبالخط المسماري ، وكانت مشوبة ببعض الكلمات الكنعانية ، وهي موجهة من بعض الافراد الكنعانيين الى أحد الفراعنة في القرن الرابع عشر قبل الميلاد ، وهي تشبه مادة اللغة العبرية شبها كبيرا(٢٢) . كما أن دواوين الحكومة في بابل ، في مستهل الالف الثاني قبل المسيح كانت تستعمل لغة تكاد تكون توأما للعربية الفصحى هي البابلية(٢٣) . ومما يلحظ من أوجه التقارب والتشابه في تلك اللهجات من الجانب اللغوي كثرة صيغ الجمع في الحبشية واليمنية القديمة ، والعربية الحديثة الفصحى ، وبعض هذه الصيغ جاء من الاكادية او من السريانية والارامية ، وقل مثل ذلك في أسماء الجمع وأسماء الجنس الجمعي(٢٤) .

أجل بعد استقراء طويل لخصائص تلك اللهجات وصفاتها ومقارنة بعضها ببعض لاحظ الباحثون أنها تمتاز بظواهر لغوية عامة تتشابه تشابها كبيرا ، كوجود الجملة الاسمية أو شبه الجملة الاسمية فيها ، وكاعتماد الفاظها او مشتقاتها على جذر (أصل) لغوي ثلاثي في الغالب ، وكتشابهها في تصريف الافعال بتضمّنها صيغتين اثنتين ، احداهما تدل على تمام وقوع الحدث وانقضائه وانقطاعه ، وهي التي تسمى بصيغة الفعل الماضي ، والثانية تدل على استمرار الحدث وعدم تمامه ، وهي التي تسمى المضارع(٢٥) . وتتشابه في تشكيل أواخر الكلمات ، أو وجود ظاهرة الاعراب كما في العربية والاكدية ، والاوجاريتية التي فيها ظواهر المنع من الصرف ، والتعريف بأل كالنبط (الله ، اللات ، العزى) ، ولكنها كانت تكتب بحذف الالف نحو : وهب لهي وعبدلهي(٢٦) . وبين العربية والاوجاريتية تشابه في استعمال المثنى ، وان كانت الاوجاريتية تستعمل الميم للمثنى والجمع ، والعربية تستعمل النون . وبين الساميات تشابه في أصواتها وصفات تلك الاصوات من حيث العدد والتضخيم أو (التفخيم) والترقيق والاطباق ، الى جانب طغيان السواكن فيها . وتميل كلها تقريبا الى ادغام « النون » فيما يليها مباشرة من الاصوات الصامتة . (الاّ : انلا ، مما : منما ، عما : عن ما . .) (٢٧) . ويقول بروكلمان :

« لايمكن بحسب قوانين المقاطع في اللغات السامية ان يلتقي صوتان صامتان في أول الكلمة ، ولذلك فانه اذا وجد مثل هذين الصوتين في صيغة ما، نشأت حركة جديدة قبل الصوت الاول ونادرا بعده ، وكونت معه مقطعا مستقلا .. (ابن ، اقتل)(٢٨).

ومن الخصائص العامة لهذه اللغات نبر(٢٩) أصوات الكلمة وفقا لطبيعة الدلالة اللغوية أو الغرض من الكلام في الخطاب ، « وفيما عدا (نبر الكلمة) هناك في كل اللغات السامية أيضا ، ما يسمى بـ (نبر الجملة) ذلك النبر الذي يدرج نبر الكلمات في في الجملة » (٣٠) .

أما تشابه الالفاظ في تلك اللغات فعلى قدر كبير من الوضوح والبينة ، وخاصة تلك التي تتصل بالحيوانات المعروفة في جزيرة العرب ، وبالاعداد التي هي الادوات الاولية والضرورية في تنظيم المعاملات بين الجماعات والافراد ، وبالضمائر ، وبأعضاء الجسم وأفراد الاسرة وآلة العيش والعمران .

واذا ما أمعن الباحث في تتبع التفصيلات واعتمد على منهج لغوي مقارن فانه سيقف على أوجه من التقارب اللهجي تعزز الاقتناع بأن عملية التطور الصوتي المعروفة كقانون عام في اللغات قد تركت أثرا واضحا يمكن التدليل به على حقيقة التقاء تلك اللهجات في أصل واحد كقولنا في العربية « أفعل » بصيغة التعدية الشائعة أيضا في الحبشية والسريانية ، على حين هي في العبرية والسبئية وبعض اللهجات الارامية « هفعل » ، وفي المعينية والقتبانية والحضرمية « سفعل » ، وفي الاكادية « شفعل ».

ويضيق المجال عن تتبع أمثلة اخرى وعرضها لهذا الغرض ، فضلا عن أن طبيعة هذا البحث تقتضي الا نتوفر على استقصاء تلك التفصيلات لئلا تنعطف بنا السبيل ويطول بنا الاستطراد في غير ما ننوي أن نتجه اليه أصلا . ولكن ما نخلص اليه هنا هو أن هذه الصفات المتقاربة ، والالفاظ الدالة عليها تشير الى مجتمع واحد ، أو الى مجتمعات شديدة التقارب كما تصور الالفاظ التي تؤدي معنى القرابة أو صلة الدم ، فهذه تشير الى تكوين الاسرة وهي خلية المجتمع الاولى التي تبدأ قبل أي تكوين اجتماعي آخر ، كما نجد ذلك في الالفاظ الدالة على تنظيمات الدولة والعلاقات الاجتماعية والقصائد الدينية ، وهذه كلها تتصل بالمجتمع في حدوده الواسعة(٣١).

بقي أن نشير الى حقيقة عامة أصبحت اليوم موضع ارتضاء واقتناع وهي أن هذا الفرع الذي أطلق عليه اسم العربية الفصحى هو ما قيض له البقاء والانتشار، وهو أقدم صورة حية من اللغة الأم ، وهو الذي كان النموذج والمثال للغة « القدمى» الأصل . و «المستشرقون في بحثهم للغات (السامية) ومقارنة بعضها ببعض يتخذون عادة لغتنا العربية نموذجا لأقدم صورة كانت عليها شقيقاتها الاخرى ، ويفترضون أن

العربية قد انعزلت في جزيرة العرب فاحتفظت أكثر من غيرها بظواهر سامية قديمة ، أما اللغات (السامية) الاخرى فقد طرأ عليهـا من التغير والتطور ما باعد بينهـا وبين الاصل السامي القديم »(٣٢) .

٢ ـ العربيـة والنقوش الأثرية (مرحلة القرابة) :

ان اعتماد البحث العلمي على أدلة ووثائق مادية كالنقوش الاثريـة من أفضـل السبل المنهجية للوصول الى نتائج سليمة ومقبولة في تصنيف اللغات والتأريخ لها ، وليس من المبالغة في شيء أن نقول ان أرض العرب تعد من أغنى بقاع العالم بتلك الادلة والوثائق الاثرية حتى ولو اكتفينا بما اكتشف منها الى اليوم . فلقد اكتشف في المنطقة العربية نقوش وكتابات تستعصي على الحصر ، دُوِّن بعضها على الحجر ، وبعضـها الآخر على الالواح الطينية المشوية بالنار ، وعلى المعادن ، وورق البـردي ، والجلـود وغيرها من أدوات الكتابة البدائية بمختلف أشكالها .

وتمتد خارطة تلك المكتشفات الاثريـة من جنـوب الجزيرة العربية الى قلبهـا فشمالها فشرقها حتى أقصى بلاد الرافدين وشواطىء بلاد الشـام وسيناء وصـعيد مصر .. بعضها حلت رموزه ودرست وقيل فيه ما قيـل ، وبعضها ما زال موضـع مدارسة ونقاش وتأمل(٣٢) . وجدير بالذكر هنا أن نشير الى أن الكتابة بأي شكل مـن أشكالها ،كانت رمزا أو أَمَارة على تقدم أصحابها واستقرارهم ونقطة البدايةالصحيحة للتأريخ عندهم . وربما من هنا عَزَتْ بعض الشعوب القديمة قوة الكتابة الى الآلهـة والحكماء ، واتخذ منهـا الباحثون المحدثون شاهدا وثائقيا على رقـي الفكر والتحضر وادراك أهمية اللغة . وقد مرّت الكتابة بمراحل ثلاث هي :

- التصويريـة .
- المقطعية ذات الرموز .
- الصوتية ذات السواكن والحركات ، وصولاً الى الابجديات .

والذي يعنينا من هذه النقوش والكتابات المكتشفة في بلاد العرب معرفـة مدى صلة لغتنا العربية الحالية بها ، والى أية فترة من التاريخ يمكن ان ترجع تلك الصلة؟

وتجنبا للاطالة نلتمس بغيتنا في النقوش المتأخرة التي لا تتعدى في القدم اكثر من قرنين من الزمان قبل ظهور الاسلام ، مع الاشارة الى ان الكتابات المقروءة التي تتضمن مادة علمية ومعلومات يَطْمَئِنّ اليها لا ترجع الى أبعد من القرن الرابـع أو الخامس قبـل الميـلاد .

أجل لقد اكتشفت نقوش في سيناء يمتد تاريخها الى ٢١٠ م وحتى ٢٥٣ م ، كما اكتشفت نقوش في « مدائن صالح » شمال الحجاز تاريخها نحو ٢٦٧م ، ولكن أهمية مثل هذه النقوش ضئيلة بالنسبة الى بحثنا ، فهي لا تحتوي على مادة لغوية تتصل بالعربية الحديثة أو تكفي للتحليل والمقارنة بحيث تكون أساسا للخروج بأحكام سليمة .. لذا ربما كان من المناسب أن نقف قليلا عند تلك التي عرفت بالنقوش الثمودية والصفوية المكتشفة في أماكن متفرقة من شمال الجزيرة العربية لما لخصائصها من وجوه التشابه والاتفاق مع العربية الفصحى . أما عما يتصل برموزها الكتابية « الخطية » فيقول بروكلمان :

« وقد وجدت هذه النقوش في المسافة ما بين دمشق و « العلا » في شمالي الحجاز في ثلاثة نماذج تسمى : الصفوية واللحيانية ، والثمودية ، غير أن هذه الانواع القديمة من الخطوط ، قد اكتسحها الخط الآرامي الحامل لحضارة عالية مزدهرة ، وعلى الاخص في شكله لدى النبط »(٢٣) .

ولعل أهم وجوه الاتفاق بين تلك النقوش والعربية الفصحى ما وجده المستشرق الالماني اتو ليتمان Enno Littmann وهو ان عدد الحروب الأبجدية الصفوية ثمانية وعشرون حرفا ، مثل الأبجدية العربية . وأن أصحاب تلك الكتابات كانوا من العرب ، ليس بينهم وبين قبائل العرب في الجزيرة فروق كبيرة »(٢٤) .

وقد قرر المستشرق الفرنسي رنيه ديسو أن : « اللهجة الصفوية لهجة عربية قريبة من لغة القرآن ، أو هي عربية الكتابة كما يدل على ذلك اقدم نص يرجع الى القرن الرابع الميلادي ، وهو نقش النمارة(٢٥) (الذي سنقف عنده بعد قليل) . وقرر غير « ديسو » أن لغة تلك النقوش عربية فيها حروف : الذال والثاء والغين والضاد.. كما يوجد فيها أفعل التفضيل وعلامة التنبيه التي هي من الخصائص البارزة للغة العربية .

وأما الكتابات الثمودية فانما عرفت بهذا الاسم لأن بعضها وضع بوساطة القبائل الثمودية او في بلدان كانت مواطنها في شمال الحجاز ، ولكن قد لوحظ ان هذه الخطوط كانت مستعملة عند قبائل سواها وفي مناطق غير مناطقها ،مثل بلاد نجد وهضبات شبه جزيرة سيناء(٢٦) .

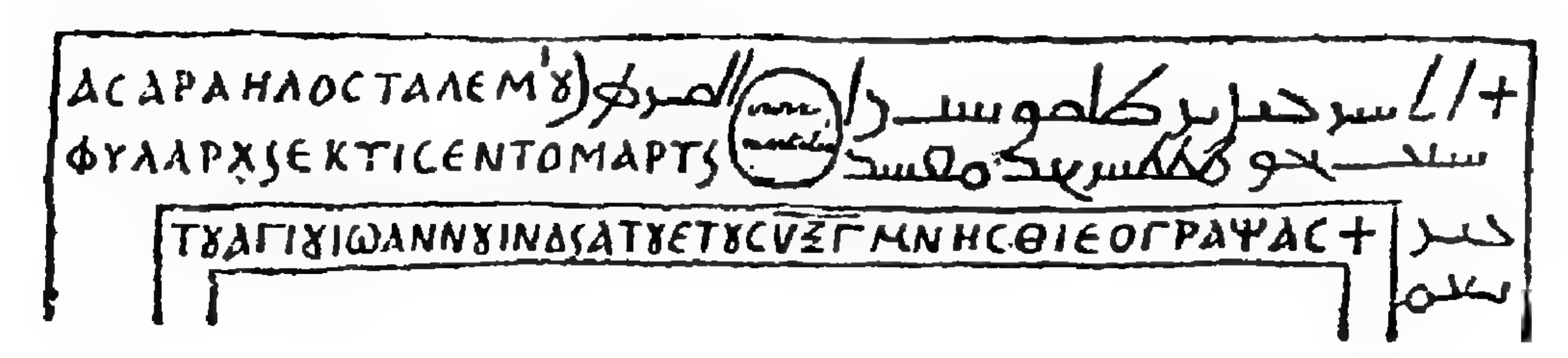
ولعل المقصود باستعمال تلك الخطوط عند قبائل أخرى هو ما ذهب اليه بعض الباحثين المحدثين من أنها تشبه خطوط اللغة الحميَرية الخالية من رموز الحركات وحروف المد واللين ، أو العلة ، نحو «مناة» التي تكتب عندهم « مَنَت » ومالك تكتب « ملك » ، وأنا تكتب « أنَ » ، كما يكتب اسم « الحارث » و « اسحاق » في العربية

من تراثنا . . ولأنها كانت تكتب غالبا من الشمال الى اليمين على هيئـة الخط المعيني والسبئي المعروف بخط المسند ، مما رجّح أن كاتبيها كانوا من عرب جنوب الجزيرة، وإن وجد فيها الكثير من الكلمات الآرامية والنبطية والعبرية . وقد تردّد مثل هـذا الرأي في مواضع كثيرة ومظان مختلفة(٢٧) .

وبوجه عام فقد انتهت مجموعة من الاثريين مثل : إتو ليتمان ، وزميله هالڤي ، وجلازر الى القول : ان اللحيانية والثمودية والصفوية تمثل فترة مبكرة من حياة اللغة العربية في الشمال سابقة لعصر نضجها وازدهارها .

ولعل أهم ما عثر عليه أربعة نقوش متأخرة نسبيا ، وهي الاقرب الى العربيـة التي نعرفها اليوم في مادتها اللغوية . وقد وجدت هذه النقوش في منطقـة قريبة مـن « الصفاة » في بلاد الشام وهي مكتوبة بالخط النبطي المتأخر الذي يشبه الخط الكوفي المستخدم في الكتابة العربية في بداية العصر الاسلامي ،وأشهرها نقش «النمّارة » الذي يرجع تاريخه الى ٣٢٨ بعد الميلاد والمكتشف في منطقة الحيرة من بلاد الشام ، ونقش « أم الجمال » الأول (نحو ٢٧٠م) ، ونقش أم الجمال الثانـي (نحـو أواخر القـرن السادس الميلادي) ، ونقش « خربة زَبَد » جنوب شرقي حلب وتاريخه نحو ٥١١ ،أو ٥١٢م ، ونقش « حرّان » نحو ٥٦٨م شمال جبل العرب ، والى الجنوب الشرقي مـن دمشق . وقد جاء هذا النقش على الصورة المثبتة أدناه منقوشا على حجر فوق باب احدى الكنائس باللغتين العربية واليونانية . وقراءته :

« انا شراحيل بن ظالم بنيت ذا المرطور سنت ٤٦٣ بعد مفسد خيبر بعام » .



نقش حرّان

وقد قرىء النقش بتغيير يسير لا يمس جوهر الاسلوب العربي مثل «أنا شرحبيل» بدلا من شراحيل ، و « ظلمو » بدلا من ظلمو أو ظالم .ولكن الغريب فيالامر أن بعضهم، بل ان الكثيرين ممن تناقلوا هذا النقش قرؤوا « ذا المرطول » باللام ، وهي واضـحة « بالراء » كما هي في الكتابة اليونانية ، وتعني في أصلها : الشاهد ، أو المستشهِد ، أو الدليل ، أو المشهد « ولعله كان بناء صغيرا للدلالة على ملكية اقليم ، أو على طريق ، أو مرحلة من طريق ؛ فقد كانت هذه على ما يبدو عادة أمراء العرب ، وقد استمرت بعـد

الاسلام ، ومن أمثلتها إذ ذاك نقشان لعبد الملك بن مروان ، أحدهما عثر عليه في باب الواد بفلسطين وصيغته :

[الطريق . . ، عبد الله عبد الملك ، أمير المؤمنين رحمة ا ، لله عليه من إيليا الى هذا ، الميل ثمانية أميال .] — (إيليا هي مدينة القدس) . والثاني عثر عليه في ديـر كزيبه اليوناني وصيغته :

[. . . عبد ، الله عبد الملك أمير ، المؤمنين رحمة ا ، لله عليه من دمشق ا ، لى هذا الميل ، . . . أميال ومابة ميل .](٣٨)

فلعل هذا النقش كان على غرار هذين النقشين ، جريا على عادة القدماء في تخليد ذكراهم . على أية حال تبقى لغة النقش عربية واضحة ومفهومة وسليمة وان تضمنت هذه الكلمة اليونانية «مرتوريون » كما تضمنت لغة الجاهليين كلمات يونانية أخـرى « كالدينار » و « السجنجل » و « الدرهم » وأمثالها ، مما لا تخلو منه لغات تجاور متكلموها وكان بينهم أي نوع من التعامل أو الاتصال .

وربما كان النقش الاكثر أهمية بين هذه النقوش نقش « النمارة » الذي اكتشفه « رنيه ديسو » في بادية الشام وتناقلته كتب التاريخ والآثار واللغة بصورته الكتابية ، وقيدت شرحه أو قراءته بشيء من الاختلاف تبعا لاختلاف وجهات النظر والآراء التى

٣ ــ بزجي في حبج نجرن مدينة شمر وملك معدو ونزل بنيـه
٤ ــ الشعوب ووكلهن فرسو لروم فلم يبلغ ملك مبلغه .
٥ ــ عكدي هلك سنة ٢٢٣ يوم ٧ بكسلول بلسعد ذو ولده

أي أن القراءة الموافقة للعربية الفصحى هي :

١ ــ تي «هذه» نفس امرىء القيس بن عمرو ملك العرب كلهم ، الذي عقد التاج.
٢ ــ وملك الأسدين ونزاراً وملوكهم وهرّب « هزم » محجاً الى اليوم وجاء .
٣ ــ بالظفر «بانتصارات»الى‌مشارف نجران،مدينة شمر وملك معداً ونزّل بنيه
٤ ــ الشعوب ، ووكلهم للفرس وللروم ، فلم يبلغ ملك مبلغه .
٥ ــ اليوم هلك سنة ٢٢٣ يوم٧ من كسلول «كانون الاول»فليسعد الذين ولدهم.

ونسوق في الاسطر التالية التعليلات التي نراها مؤيدة لهـذه القراءة ، وهـي تعليلات أو ملاحظات لا معدى عنها ، وأول ما نجده من ذلك أسم الاشارة (تي) هـو كنظائره التي للمفرد في العربية الفصيحة وهي (ذا ، ذي ، تي ، ذهِ ، تهِ) مجردة مما يلحق بها من (هاء التنبيه ، لام البعد ، كاف الخطاب) . ثم كلمة (نفس) ، وقد وضع بعضهم(٣٩) بدلا منها (قبر) أو (جسد) أو (جسمان) . . وليس ما يمنع من قراءتها وفهمها على الصورة التي رسمت بها « نفس » لأن القدماء من ذلك التاريخ لم يكن من أخبارهم وتراثهم ما ينفي اعتقادهم أن النفس ــ التي مستقرها الجسم ــ هي التـي تدفن ، أو قد تكون عندهم مرادفة للجسم ، مكونة معه (شخصية) صاحبها ، علـى غرار قولنا : « هو نفسه فعل ذلك » واضعين في البال ذلك الانسان ، نفساً وجسداً . وكلمة (بر) عمرو يلاحظ أنها كتبت باللهجة الآرامية ــ النبطية . ولم تكن هذه الصيغة غريبة على علماء العربية ، بل أشاروا اليها في مواضع متفرقة ، مرتبطة بغيرها كقولهـم « برناشا » أي ابن الانسان(٤٠) ، و (برطلّة) أي ابن الظل(٤١) ، مع التذكير بأن هـذا النقش كتبه أحد الأنباط فلا غرابة أن تجد فيه أثرا من لهجته .وكلمة (كله) غير موافقة للأسلوب العربي ، وهي إما «كلهم» سقطت منها الميم ؛ وإما « كلها » حذف منها حرف المد « الالف » كما حذف من « التج » . و (ذو) بدلا من الذي وفق استخدام لهجة طيّىء وبعض انحاء اليمن لها . (وأسر التاج) بنفس معنى عقده ، لأن الإسار ما يتقيّد به الأسير ،والأسر : القيد ،وكل ذلك من العقد والربط .وعبارة «ملك الأسدين ونزرو» تعني قبيلتي : أسد ، ونزار ، وما كتابة « نزرو » إلا اثـر آرامي ــ نبطي تلازم فيـه الواو أسماء الأعلام ، وما تزال آثارها متوارثة الى الآن ، وخاصة في شمال بلاد الشام، وقل مثل هذا في « محجو أو مذحجو » ، وفي « معدو » . . (وهرب محجو) أي هزم،

أو صدّ محجاً « قبيلة بني محج » . اما (عكدي) فمعظم الناظرين في هذا النقش من الباحثين رجّح انها تعني (حتى اليوم) أو (الى اليوم) ، وقليل منهم رأى أن معناها (بالقوة) .. و (بزجي) قيل إن الباء منها حرف جر ، والأصل (زجا) ومصدره الزجاء أي التيسير والسهولة أو الظفر والنجاح في حصار « نجران » .. أما عبارة « ووكلهن فرسو لروم » فقدر بعضهم انها تعني إنابة بنيه عنه لدى الفرس والروم ، وقيل ما قيل في تعليل مجيء النون الدالة على الجمع في « ووكلهن » ، من ذلك أنها نون النسوة ، وأنها تعود الى « الشعوب » .. ولعلها من آثار اللهجة النبطية ـ السريانية ، مما لا نزال نسمعه في بعض مناطق بلاد الشام الى اليوم بالنون وإن كان الكلام عن جمع المذكر السالم مثل « طلبهن » أو « كسبهن » والمقصود رجال .. وقد اختلفت الاقوال في تفسير عبارة « ووكلهن فرسو لروم » وإن بدت متقاربة ، من ذلك : « وندبهم لدى الفرس والرومان »(٤٢) ، أو « وجعلها فرسانا للروم »(٤٣) أو « ووكله الفرس والروم »(٤٤) ..ويبدو من المقبول أن نأخذ بفكرة جعل ابناء هذا الملك وكلاء أو مندوبين للفرس والروم حتى تكون هذه الفكرة متفقة مع عبارة « فلم يبلغ ملك مبلغه » لأن بعض ملوك العرب او امرائهم سبق أن كانوا حلفاء إما للروم ، أو للفرس ، ويبدو أن هذا الملك فاقهم جميعا حين كان ابناؤه حلفاء للطرفين .. أو نقبل بفكرة أخرى هي : « ووكلهم الفرس للروم » بحيث تكون « الفرس » فاعلا ، ويكون المعنى : ووكلهم الفرس لصد الروم كما كان يعبر القدماء نحو : هو لهذه القضية ، أو انا له يا أمير المؤمنين .. اما أن نستبعد الفرس كاسم علم ونقبل بفكرة « وجعلها فرسانا للروم » فان في ذلك اغفالا للفرس ، وهذا يعيد بقرينة أن الملك « أسر التاج » والتاج تاج الفرس ، لغة وتاريخا ، (ولا يمكن أن يكون قد تسلم تاجه إلا من الفرس)(٤٥) .

ويلخص « رنيه ديسو » حكمه على نقش « النمارة » هذا بقوله : « انه كتب بحروف نبطية في لغة عربية »(٤٦) . وهو حكم سليم لأن الرسم الكتابي المفتقر الى الدقة والمتضمن بعض الكلمات باللهجة النبطية يؤيد هذا القول ، ولا يبعد أن يكون الكاتب النبطي قد تصرف بأسلوب الكتابة ، أو بما أملي عليه تصرفا يسيرا يوافق لهجته وتعوّده ، وربما كان ذلك أيضا من عوامل التأثير والتأثر نتيجة اختلاط عرب الجزيرة المتكلمين للعربية الفصحى بالعرب الأنباط المتكلمين لبقايا اللهجة الآرامية في هذه المنطقة التي شهدت وجود الجانبين ، اقامة واتصالا .

وملامح العربية في النقش جلية واضحة : في بناء الجملة العربية ، والكلمات المفردة وفي القواعد العامة ونسق التركيب ،كالاضافة والتوكيد واسم الاشارة والاسم الموصول ، والتثنية « وملك الأسدين » والملحق بجمع المذكر السالم «ونزّل بنيه.. »، وفي التعريف على الطريقة العربية ذاتها ، ناهيك عن العبارة الواضحة : « فلم يبلغ ملك

مبلغه » . لكن لا بد من الاقرار بأنها ليست ملامح عربية خالصة ، انما ما تزال تشوبها بعض الشوائب كلغة مكتوبة . . ومن يدري فقد تكون هذه الشوائب اقل ، أو أكثر في اللغة المنطوقة !! مع الاشارة الى أن الكتابة العربية ، والنبطية لم تكن بعد قد عرفت الإعجام أو التنقيط ، مما يقلل من دقة الحكم على التفصيلات أو من ترجيح بعض الاجتهادات في القراءة .

وثمة نقوش عثر عليها في شمالي الحجاز ، في منطقة العلا « دادان » قديما ، وفي الحِجْر ، أو « مدائن صالح » ، منها ــ مثلا ــ النقش الذي يرجح أن تاريخه يرجع الى القرنين السابقين للاسلام ، وقد جاء فيه :

« اني شمعة بنت ذي مراثد ، كنك إذا وحمك اول القشم من أرض الهند بطله زاهدا أول اتى به »(٤٧) . ويعني هذا بالعربية الفصيحة :

انا شمعة بنت ذي مراثد ،كنتُ إذا وحمت آتي بالقشم « الفجل» من أرض الهند طريّاً بطلّه .

وهنا أيضا لا تخفى ملامح الاسلوب العربي المميّز في الضمير ،والاسم، والاضافة، وأداة الشرط غير الجازمة « إذا » ، وصيغة الفعل . وان اعترى نظام الجملة العربية بعض الاضطراب ، وجاء ضمير التاء في الفعلين « كنك » ، « وحمك » كافاً كما هو الى اليوم في بعض مناطق اليمن ، وهذا من بقايا خصائص اللهجة اليمنية القديمة ، او هذه طريقة صوغ الضمير المتصل بالمفرد في الحبشية على ما يرى « يوهان فك »(٤٨).

أما بالنسبة الى الخط فيمكن القول ان نقوشا يغلب عليها الطابع العربي قد كتبت بالخط الآرامي ؛ وان نقوشا اخرى عند اللحيانيين والثموديين ، يغلب عليها الطابع العربي أيضا ، ولكنها كتبت بالخط المعيني « خط المسند » غير ان الخط الآرامي هو الذي انتصر ، فقد تطورت نقوشه حتى انتهت الى الخط العربي الذي أشاعه الاسلام (٤٩) .

وعلى خطوط النقوش الصفوية واللحيانية والثمودية التي وجدت في المسافة ما بين « دمشق » و « العلا » في اعالي الحجاز يقول بروكلمان :

« غير أن هذه الانواع القديمة من الخطوط ؛ قد اكتسحها الخط الآرامي، الحامل لحضارة عالية مزدهرة ، وعلى الاخص في شكله لدى النبط»(٥٠). ويضيف « وقد اخذ العرب فيما بعد خطهم من النبط ، وأوصلوه بدورهم الى كل الشعوب التي اعتنقت الاسلام »(٥١) .

ويبدو ان نقش حرّان (٥٦٨ م) كان أقرب النقوش القديمة الى الخط العربي ،

وتجدر الاشارة هنا الى أن انواعا من الخطوط والكتابات قد نشأت وتفرعت من الكتابة الآرامية منها الكتابتان النبطية والسريانية ، والخط الحيري ، والانباري ، والرهاوي المسمى باليونانية (اسطر تكيلا) والذي شاع استعماله في بلاد الرافدين ، وبلاد الشام، ومنه ، أخذ العرب الخط الكوفي ، فالعربي المتأخر ، مـن مكي ومدنـي ، وفارسي ، ويمني . . الخ . والذين قرؤوا هذه النقوش وحللوا رموزها في مطلع القرن العشـرين مثل : إتو ليتمان ، ورنيه ديسو ، وكليرمون جانو ، وماكلـر وغيرهم من الخبـراء والمستشرقين ـ خلصوا الى استنتاج عام هو ان السمات العامة للغة العربية في الجاهلية هي الغالبة على تلك النقوش ، وان شابها من الآرامية بلهجاتها ، ومن غيرها ما لا مفرّ منه عند احتكاك اللغات أو اللهجات من تأثير وتأثر .

يقول رنيه ديسو : « ان الضبط التام الذي كتبت به الاسماء العربية في نقوشنا ليعد أمرا لا يفوت الفقيه اللغوي التنبه له . لقـد روعيت فيه أدق خصائص اللغـة العربية ؛ والتوافق الذي تقيمه هذه الخصائص بين العربية قبل الاسلام والعربية التي يتحدث بها اليوم لهو توافق يدعو الى العجب حقا »(٥٢) .

وعلى اية حال فان تلك النقوش تصور طورا من أطوار العربية الفصحى الحالية في خصائصها اللغوية العامة ، وفي أساليب الكتابة والخط ، من أواخر القرن الثالث الى أواخر القرن السادس الميلاديين .

والخلاصة ان هذا القدر من المادة اللغوية والنقوش والمعلومات لا يصلح وحـده أساسا كافيا نعتمد عليه لحكم علمي نهائي ، أو لنؤرخ بمقتضاه لنشأة اللغـة العربية الفصحى بما ينبغي من الوضوح في الاسلوب والقواعد والخصائص ؛ بل اننا نحتاج الى مادة لغوية كافية ، والى استقراء متأن ، والـى تأمل ومقارنة متسعة حتى نطمئن الى ما نقرره بشأن التأريخ لتلك المرحلة من حياة العربيـة اطمئنانا مقاما على ركائز مـن الوثائق والثبوتيات المقنعة كما ونوعا . وكل ما يمكن أن نميل اليه او نرجحه هـو ما ما ألمحنا اليـه قبلا من أن العربية الحالية ـ بسماتها العامة ـ هي وليدة « العربيـة القدمى » التي كان من الاصح والانسب ان تسمى كذلك ، اذ ليس عدها من اللغـات السامية بأدق من عدها وريثة العربية القدمى ، لان مصطلـح الساميين منسوب الى سام بن نوح ، ومصطلح « اللغات الساميـة » مأخوذة منـه ، وتسمياتها التقسيمية مرتبطة في نسبتها بالاقوام ، والامكنة ، والعواصم ، وأولئك الاقوام خرجوا بها مـن « الصحراء العربية » على رأي « بروكلمان »(٥٣) و « موسكاتي » الذي يقول :

« وثمة حقيقة تبدو لنا ثابتة الى حد كاف ، هي ان التاريخ يدلنا على ان الصحراء العربية كانت نقطة الانطلاق للهجرات السامية»(٥٤) . و « الجزيرة العربية » هي المكان

الذي يصلح لان يكون مهد الساميين الاول ، في راي بروكلمان(٥٥) . وما دام الامر كذلك فان التسميات التي أطلقت على موجات (الساميين) ولغاتهم هي تسميات لاحقة وفرعية ، أما المنطلق فعربي ، مكانا وأصلا وتاريخا بالمعايير العلمية المقبولة. ونحن في غنى عن معاودة التذكير بما سلف تقييده من رفض ونقد موجهين الى « النظرية السامية » على السنة مجموعة من العلماء والباحثين .. استئناسا بهذا كله نجد أن السمة العربية (موطنا وأصولا بشرية) هي الغالبة والطاغية في هذا الميدان ، مما يرجح ويسوغ اطلاق تسمية « العربية القدمى » على تلك الفصيلة اللغوية عوضا من (السامية) ، لان الاقوام الذين خرجوا بها متفق على تسميتهم بالعرب أو الاعاريب أو الاعراب(٥٦) .

الحواشـــي

(١) جواد علي « المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام » : ٢٢٣/١ . ط٢ بيروت ـ بغداد ١٩٧٦ .

(٢) تاريخ اللغات السامية : ٥ ط مصر ١٩٢٩ .

(٣) فقه اللغات السامية : ١٢ ترجمة د. رمضان عبد التواب . منشورات جامعة الرياض ١٣٩٧ هـ ـ ١٩٧٧ م .

(٤) اللغات السامية : ٨ ترجمة د. رمضان عبد التواب ـ القاهرة ١٩٦٣ .

(٥) الحضارات السامية القديمة : ٥٠ ترجمة د. يعقوب بكر ـ دار الرقي ـ بيروت ١٩٨٦.

(٦) نفسه : ٥١ .

(٧) مدينة ايزيس أو تاريخ العرب الحقيقي : ٤ (تعريب) : فريد جحا . دمشق ١٩٨٠ .

(٨) نفسه : ١٨

(٩) العرب في العصور القديمة : ٤٤ دار النهضة العربية ـ بيروت ١٩٧٩ .

(١٠) نفسه : ٤٩ . ويقول الدكتور محمد محفل : « هذه التسمية لا تستند الى اسس علمية» مجلة دراسات تاريخية ، العدد السادس ١٩٨١ ص٦١ .

(١١) موجز في تاريخ سورية : ٩٠ ط : جامعة دمشق .

(١٢) طبعة أولى ـ دار دمشق ١٩٨٢ . وكذا فعل أنور الجندي ، انظر كتابه : « نظرية الجنس السامي واللغة السامية » . سلسلة في دائرة الضوء رقم ١١ . مصر .

(١٣) فقه اللغات السامية : ١٤

(١٤) الحضارات السامية القديمة : ٤٩ .

(١٥) نفسه : ٢٢٥ .

(١٦) انظر : « الساميون ولغاتهم » : ٦٨ الدكتور حسن ظاظا ـ دار المعارف بمصر ١٩٧١ .

(١٧) اليونان سموها « بيبلوس » أي مدينة الكتابة أو مدينة الصحف المسطورة (بوبلس) اليونانية وتعني اصلا ورق البردي . أما « جبيل » فهي بالفينيقية ـ الكنعانية « بَعْلَتْ جِبال » أي صاحبة الحدود .

(١٨) الساميون ولغاتهم : ١١٠ .

(١٩) نفسه : ١٢٣ .

(٢٠) اسم تدمر نطق آرامي « تتمر » بالعربية، ومعناها : المدينة التي يكثر فيها التمر والنخيل ، ولذلك سميت عند الاوربيين « بلميرا » . وانظر : الساميون ولغاتهم : ١١٥ . وورد حرفيا (تتمر) في رقم عثر عليها في « قبادوقية » بآسية الصغرى من القرن الثامن عشر (ق.م) .

(٢١) الساميون ولغاتهم : ١١٩ .

(٢٢) قارن بتاريخ اللغات السامية : ٦٠ .

(٢٣) انظر كلام العرب للدكتور حسن ظاظا : ٥٨ ، ط١ ـ اسكندرية ١٩٧١ .

(٢٤) نفسه : ١٦٧ .

(٢٥) انظر : الساميون ولغاتهم : ٢١ .

(٢٦) الدكتور شوقي ضيف : العصر الجاهلي : ١٠٧ .

(٢٧) كارل بروكلمان : فقه اللغات السامية : ٦١.

(٢٨) فقه اللغات السامية : ٧٣ .

(٢٩) النَّبر Stress هو نطق الاصوات ببذل طاقة اضافية، أو جهد عضلي اضافي ،فالمقطع المنبور يحتاج عند نطقه الى جهد أعظم من المقاطع المجاورة له في الكلمة أو الجملة ، وبالتالي يخرج الصوت فيه مسموعا بوضوح وايحاء أكثر .

(٣٠) فقه اللغات السامية : ٤٦ .

(٣١) انظر : جواد علي : المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام : ٢٢٢ والحواشي ١-٣/ الجزء الاول .

(٣٢) د. ابراهيم أنيس : من أسرار اللغة : ٢١٥ ط ٦ (الانجلو المصرية) .

(٣٢)مكرر من ذلك مثلا عدد وفير من الرقم التي اكتشفت في « تل مرديخ » أو «ايبلا» قرب مدينة حلب بسورية ، وهي على جانب عظيم من الاهمية التاريخية ، ولكن نتائج استقرائها النهائي ما تزال موضع أخذ ورد ، ولم تقل فيها بعد الكلمة العلمية النهائية .

(٣٣) فقه اللغات السامية : ٢٩ .

(٣٤) انظر العرب في سوريا قبل الاسلام : ٦٢ لرنيه ديسو . ترجمة عبد الحميد الدواخلي ط٢ ـ دار الحداثة ـ بيروت ـ لبنان ١٩٨٥، وتاريخ اللغات السامية : ١٨٣ وص :١٨٨.

(٣٥) العرب في سوريا قبل الاسلام ، ٨٦ .

(٣٦) تاريخ اللغات السامية : ١٧٧ .

(٣٧) انظر من ذلك : د. لطفي عبد الوهاب يحيى: العرب في العصور القديمة : ١٤٩ ـ (بيروت ١٩٧٩) والعرب في سوريا قبل الاسلام :٦٢. والحضارات السامية القديمة لوسكاتي : ٢٠٣ ، والعصر الجاهلي . د. شوقي ضيف: ٢٨ ط ٣ . .

(٣٨) انظر : « الساميون ولغاتهم » ص: ١٧٤ للدكتور حسن ظاظا (دار المعارف بمصر١٩٧١) نقلا عن « سجل النقوش السامية »
Repertoire D'Epigraphie Sémitique , t. 1 No : 366 , P. : 300
وقد اختار هذه القراءة « المرطور » الدكتور محمد محفل (مجلة دراسات تاريخية ـ العدد السادس ،تشرين أول ١٩٨١ ـ مقال بعنوان: في أصول الكتابة العربية)، وقال ان المقصود به المزار أو المشهد الذي أقيم تكريما للقديس الشهيد يوحنا المعمدان الذي قطع رأسه هيرودوتس بناء على طلب سالومة .ا.هـ واختار الدكتور محفل نفسه قراءة « طلمو » بدلا من « ظالم » ص ١٠١ من المقال المذكور وناقش ذلك في الصفحات ٩٧ ـ ١٠٠ . ولعله الوحيد الذي اختار هاتين القراءتين مع تعليلهما من المتأخرين والسابقين فيما نعلم .

(٣٩) للوقوف على تفصيلات قراءة هذا النقش يمكن الرجوع الى : « العرب في سوريا قبل الاسلام » ص ٣٣-٣٤ والمظان التي أحال عليها . و « تاريخ اللغات السامية » ص١٩٠ و « الساميين ولغاتهم» ص ١٦٥-١٧٣ و «فقه اللغة » للدكتور علي عبد الواحد وافي ص٩٦ ـ ١٠٣ ، ومجلة «دراسات تاريخية» : مرجع سابق .

(٤٠) جاء في « المعرب من الكلام الاعجمي » لابي منصور الجواليقي(ص٣) بتحقيق أحمد محمد شاكر ط٢: البرنساء : الخلق .. وأصله بالنبطية : ابن الانسان ، وحقيقة اللفظ بالسريانية « برناشا » فعربته العرب .

(٤١) قال الجواليقي : البرطلة : كلمة نبطية وليست من كلام العرب . قال أبو حاتم : قال الاصمعي: «بَر» ابن . والنبط يجعلون الظاء طاء ، وكأنهم أرادوا « ابن الظل » لا تراهم يقولون «الناطور» وانما هو «الناظور» ـ (المرجع السابق ص ١١٦) ، وكان الاصل

أن تكتب بالألف « برطلا » مثل « برناشا » لان هذه الالف هي أداة التعريف بآخر الكلمة ، في تلك اللهجة .

(٤٢) رنيه ديسو : العرب في سوريا قبل الاسلام : ٣٤ .

(٤٣) د. حسين ظاظا : الساميون ولغاتهم : ١٦٦ .

(٤٤) اسرائيل ولفنسون : تاريخ اللغات السامية : ١٩٠ .

(٤٥) وانظر : رنيه ديسو : ٣٥ .

(٤٦) نفسه : ٣٦ .

(٤٧) انظر « الاكليل » للهمداني ١٨٢/٨ تحقيق الاب أنستاس الكرملي ـ بغداد ١٩٣١ ، و « حمير وأقيال اليمن » : ١٦٠ لنشوان ابن سعيد الحميري (المطبعة السلفية ١٩٥٦)

(٤٨) العربية : ١٣ ترجمة د. محمد علي النجار (القاهرة ١٣٧٠هـ ـ ١٩٥١م) . وقد رووا عن عبد بني الحسحاس (الشاعر) أنه كان ينطق الكاف بدل تاء المخاطب ، يقول : « أحسنكَ والله »» يريد : أحسنت والله . وانظر « الشعر والشعراء لابن قتيبة ٤٠٨/١ » ، و « البيان والتبيين » للجاحظ ٧٢/١-٧٣ .

(٤٩) د. شوقي ضيف : العصر الجاهلي : ٣١ ، وانظر « دراسات في تاريخ الخط العربي » ص ١٣ لصلاح الدين المنجد (بيروت ١٩٧٢) .

(٥٠) فقه اللغات السامية : ٢٩ .

(٥١) نفسه : ٣٧ .

(٥٢) العرب في سوريا قبل الاسلام : ١٥ . ويقول المستشرق الايطالي : اغناطيوس غويدي : « انها العربية الشمالية الحقيقية ، أو انها على وجه التحديد ، لهجات دارجة تكلم بها أهلها الى جانب اللغة التي كان النبطيون وغيرهم من العرب يتكلمون بها » . انظر « محاضرات في تاريخ اليمن والجزيرة العربية قبل الاسلام » : ١٨ ترجمة د. ابراهيم السامرائي . دار الحداثة ـ (بيروت ١٩٨٦) .

(٥٣) انظر : فقه اللغات السامية : ١٢ .

(٥٤) الحضارات السامية القديمة : ٥٣ .

(٥٥) فقه اللغات السامية : ١٢ .

(٥٦) ورد ذكر العرب في الوثائق البابلية ـ الآشورية علما على موطن وعلى شعب ، وكذا في كتابات المؤرخ اليوناني هيرودوتس (القرن الخامس ق.م) . ويقول موسكاتي (الحضارات السامية القديمة : ٢٠٢) « ولعل ما ترويه التوراة من أن اخوة يوسف باعوه لتجار عرب أقدم اشارة الى الشعب العربي » . ومنذ القرن الاول ق.م وردت لفظة « عرب » في النقوش اليمنية علما على الاعراب بمعنى البدو ، كما هي صفتهم في النصوص الاسلامية التراثية .

دراسات تاريخية

مجلة علمية فصلية محكمة

تعنى بالدراسات حول تاريخ العرب

تصدرها لجنة كتابة تاريخ العرب بجامعة دمشق

الفهرس العام

١٩٨٠ - ١٩٨٩

دراسات تاريخية

في عشر سنوات

١٩٨٠ ـ ١٩٨٩

(الفهرس العام ، الاعداد ١ ـ ٣٤)

العدد : صفر ، ١٩٧٩

ـ مشروع كتابة تاريخ العرب — اللجنة التحضيرية
١ ـ هدف المشروع
٢ ـ مبادىء العمل
٣ ـ مؤلف (تاريخ العرب) وحدوده الزمنية واقسامه
ـ وقائع ندوة كانون الاول ١٩٧٧ وتوصياتها

العدد الاول : آذار « مارس » ١٩٨٠

ـ تقديم — د. شاكر الفحام
ـ كتابة تاريخ العرب ! لماذا — د. احمد بدر
ـ انتشار الاسلام في الخليج في زمن الرسول الكريم — د . نبيه عاقل
ـ أصول تباين مواقف الدول الاوربية حيال المسألة السورية « اللبنانية » — د. أحمد طربين
ـ مظاهر من الحياة العسكرية العثمانية في بلاد الشام — د. عبد الكريم رافق
ـ الحركة العربية خلال الحرب العالمية الثانية وفي أعقابها — د. خيرية قاسمية
ـ العرب في شرق افريقية ـ جزر القمر — عبد الرحمن بدر الدين
ـ ملوك أوغاريت من خلال الوثائق — د. علي أبو عساف

العدد الثاني : حزيران « يونيه » ١٩٨٠

ـ عود على بدء — د. شاكر الفحام
ـ التدمريون في الدنيا الرحيبة خلال القرنين الثاني والثالث الميلاديين — د. عدنان البني
ـ النشاط التبشيري الالماني في فلسطين بين عامي ١٨٤١ـ١٩١٨ — د. علي محافظة

- التشريع الاقتصادي الاسلامي ودور الامام محمد بن الحسن
الشيباني في ارساء دعائمه — د. سهيل زكار
- بين التاريخ الجغرافي والجغرافية التاريخية للوطن العربي — مصطفى الحاج ابراهيم
- اضواء على العلاقات التجارية بين السلطنة الايوبية
وجمهورية البندقية ١١٧١ — ١٢٥٠ — د. عادل زيتون
- كتابة تاريخ العرب « مشروع اللجنة التحضيرية »

العدد الثالث : كانون أول « ديسمبر » ١٩٨٠

- منهجية ابن خلدون التاريخية وتأثيرها في المقدمة وكتاب العبر — د. محمد الطالبي
- التراث العربي وعناصره الصالحة لنهضة عربية حديثة — عبد العزيز بنعبد الله
- ابن خلدون والمادية التاريخية — د. احمد ماضي
- بعض ملامح الصراع الطبقي في التاريخ العربي — د. نبيه عاقل
- البصرة أول قاعدة للتوسع العثماني في الخليج العربي — د. مصطفى عبد القادر النجار
- مطالعات في تاريخ العلوم في العصر الاموي — د. أحمد سليم سعيدان
- الحياة الاقتصادية في بلاد الشام بين سنتي ١٣٢ — ٣٥٩هـ — د. أمينة بيطار
- مع المجلات العربية — مجلتان تاريخيتان — د. شاكر الفحام

العدد الرابع : نيسان « ابريل » ١٩٨١

- مع بدايات السياسة الامريكية في الشرق العربي — د. خيرية قاسمية
- مظاهر من التنظيم الحرفي في بلاد الشام في العهد العثماني — د. عبد الكريم رافق
- بعض أحداث الدولة العباسية والدور العباسي الاول
من خلال منظور عنصري واقتصادي اجتماعي — د. نبيه عاقل
- حياة الناس في مدن الثغور — مدينة طرسوس — د. مصطفى علي الحياري
- أضواء جديدة على الملك الناصر داود وتحرير بيت المقدس — د. يوسف درويش غوانمة
- التنظيم العسكري عند العرب المسلمين — فترة النشأة والتكوين — د. احمد بدر

ـ مؤتمرات تاريخية. المؤتمر الدولي الخامس عشر للعلوم التاريخية
في بوخارست والمهمات المطروحة على عاتق المؤرخين العرب د. مسعود ضاهر

العدد الخامس : تموز « يوليو » ١٩٨١

ـ المسجد وأثره في تطوير التعليم د. حسين أمين
ـ أثر صقلية في نقل الحضارة العربية الاسلامية الى الاوربيين د. محمد كامل عياد
ـ نظام ملكية الارض في المغرب الاسلامي د. الحبيب الجنحاني
ـ الواجهة العسكرية للحضارة العربية الاسلامية « فتح افريقية
جذوره السياسية وأبعاده الاستراتيجية » د. عمر السعيدي
ـ الوقف ومكانته في الحياة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية في
الجزائر في أواخر العهد العثماني وأوائل الاحتلال الفرنسي د. ناصر الدين سعيدوني
ـ الرباط والمرابطون في ساحل الشام من الفتح الاسلامي
حتى الحروب الصليبية د. عمر عبد السلام التدمري
ـ أجناد القبائل العربية في بلاد الشام في العهد المملوكي أمين النفوري
ـ بيت المقدس كما صورها ناصر خسرو في رحلته د. يوسف بكار
ـ دور الجمعيات الاصلاحية والنوادي الثقافية في مجابهة السياسة
التعليمية في عدن خلال تبعيتها للهند ١٨٣٩ـ١٩٣٧ سلطان ناجي
ـ الردة وموقف أبي بكر منها د. نجدة خماش
ـ وثائق تاريخ مصر الاقتصادي والاجتماعي في
العهد العثماني د. عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم

العدد السادس : تشرين الاول « أكتوبر » ١٩٨١

ـ قافلة الحج الشامي وأهميتها في الدولة العثمانية د. عبد الكريم رافق
ـ مروان بن الحكم والخلافة د. صالح الحمارنة
ـ في أصول الكتابة العربية محمد محفل

ـ الصورة التاريخية والحضارية للقطر العربي السوري
في العصور الشرقية القديمة — قاسم طوير

ـ حول مصادر تاريخ العرب القديم — د. مفيد رائف العابد

ـ مملكة بيت بحياني الارامية — د. علي أبو عساف

العدد السابع : كانون الثاني « يناير » ١٩٨٢

ـ معالم الحضارة العربية الاسلامية في أفريقية — د. محي الدين صابر

ـ مساهمة المغرب العربي في ازدهار الحضارة
العربيــة الاســلامية — د. عبد الحميد حاجيات

ـ محاولات الفاطميين الاستيلاء على مصر ـ الابعاد الدولية
والاســتراتيجية — د. عمر السعيدي

ـ الاسباب الاقتصادية والاجتماعية لمقاومة قريش الدعوة الى الاسلام — د. نبيه عاقل

ـ الدور التربوي للمسجد الجامع بدمشق — د. ملكة أبيض

ـ سورية في مخططات السياسة البريطانية ١٩٤٣ـ١٩٤٤ — د. رؤوف عباس

ـ صفحات من تاريخ الجمعيات في بلاد الشام ـ من الجمعيات
العلمية الى الجمعيات السياسية — د. سهيلة الريماوي

العدد الثامن : نيسان « ابريل » ١٩٨٢

ـ جوانب من التاريخ العمراني والاجتماعي والاقتصادي في غزة
القسم الاول (مظاهر عمرانية واجتماعية) — د. عبد الكريم رافق

ـ العرب والنوبة في صدر الاسلام — د. عوض محمد خليفات

ـ هجرة الثقافة من المشرق الى المغرب في القرن الثاني للهجرة — د. أحمد بــدر

ـ حول الاهمية الاثرية لمكتشفات ابلا ـ تل مرديخ — د. عدنان البني

ـ المشرق الاسلامي في القرنين الثالث والرابع الهجريين — د. نقولا زيادة

العددان التاسع والعاشر : تشرين الاول « اكتوبر » ١٩٨٢

- جوانب من التاريخ العمراني والاجتماعي والاقتصادي في غزة
القسم الثاني (مظاهر اقتصادية) — د. عبد الكريم رافق
- روسية القيصرية والمشرق العربي — د. خيرية قاسمية
- الامير حسين بن فخر الدين المعني الثاني ـ حياته وآثاره — د. محمد عدنان البخيت
- تطور علاقات الكويت بالاقطار العربية قبل الاستقلال — د. عبد المالك خلف التميمي
- صفحات من تاريخ الجمعيات في بلاد الشام ١٩٠٨ـ١٩٠٩م — د. سهيلة الريماوي
- فصل من تاريخ سورية الحديث ـ صور من حوران في
القرن التاسع عشر — د. ليندا شيلشر
- المستشرقون وبعض قضايا التاريخ العربي الاسلامي — د. نبيه عاقل

العدد الحادي عشر : كانون الثاني ١٩٨٣

- الثقافة والاتجاه الاشتراكي العلمي في الفكر العربي المعاصر — د. احمد ماضي
- الردافة ـ على ضوء بعض العلاقات القبلية في شمال شرق الجزيرة
العربية قبل الاسلام في القرن السادس ومطلع السابع الميلادي
(ملحق : قوائم ملوك الحيرة في المصادر العربية) — د. صالح درادكة
- المقاومة العربية للصهيونية أواخر العهد العثماني ١٩٠٨ ـ ١٩١٧
الاتجاهات الرئيسية — د . خيرية قاسمية
- الرصافة أيام الغساسنة — مصطفى الحسون
- مرافق الامن والتعليم والاشغال العامة في فلسطين كما يكشف
عنها موظف كبير في الادارة الانتدابية — د. أحمد طربين

العدد الثاني عشر : ايار (مايو) ١٩٨٣

- مشكلة الحكم في الاسلام بعد وفاة الرسول ـ دراسة المؤثرات
الفاعلة في مرحلة الاصول — د. نبيه عاقل
- الصراع العربي البيزنطي للسيطرة على البحر المتوسط في
القرن الثامن الميلادي — د. نعيم فرح

- معان وجوارها ـ استعراض تاريخي د. محمد عدنان البخيت
- الدولة الرستمية في تيهرت د. سهيل زكار
- الوطن العربي بين الاتجاه القومي وواقع التجزئة في الفترة بين الحربين العالميتين د. خيرية قاسمية
- بعض مظاهر الحضارة العربية الاسلامية فيجزيرةصقلية د. فائق بكر الصواف

العددان الثالث عشر والرابع عشر : تشرين اول (اكتوبر) ١٩٨٣

- فكرة المغرب العربي من خلال الوثائق الدبلوماسية د. عبد الهادي التازى
- خالد بن يزيد بن معاوية واهتماماته العلمية د.محمد عبدالقادر خريسات
- الدعوة العباسية ـ دراسة في الهويـة د. نبيـه عاقـل
- الطاعون والجفاف واثرهما على البيئة في جنوب الشـام د.يوسف درويش غوانمة
- دور اسرة آل الحنش والمهام التي اوكلت اليها في ريف دمشق الشام ـ دراسة وثائقية د.محمد عدنان البخيت
- تطور مفهوم اللامركزية عند العرب العثمانيين د. سهيلة الريماوي
- الطباعة ودورها في النهضة الاوربية وفي اليقظة العربية د.ذوقان قرقوط

العددان الخامس عشر والسادس عشر ، كانون الثاني ـ ايار ١٩٨٤

- مظاهر سكانية من دمشق في العهد العثماني د. عبد الكريم رافق
- المجتمع الاندلسي والمجتمع الاسباني في عصر ملوك الطوائف د. أحمد بـدر
- لمحات من تاريخ ايلة (العقبة) في العصر الاسلامي د. صالح درادكـة
- حدود الجزيرة الفراتية عند الاصطخري وابن حوقل (بين شمشاط وسميساط) د.عبدالمرشدعزاوي
- تعريب النقد ، واثره على العلاقات العربية ـ البيزنطية والوضع الاقتصـادي د. نجدة خماش

ـ اضواء على الصناعة والتجارة في مدن بلاد الشام ودورها في التجارة العالمية في العهد البيزنطي — د. نعيم فرح

ـ صفحات من تاريخ الجمعيات في بلاد الشام(١٩٠٨ـ١٩١٨) حزب اللامركزية الادارية العثماني — د. سهيلة الريماوي

ـ حول مؤتمر ستراسبورغ عن اقتصاديات ومجتمعات الامبراطورية العثمانيــة — زهير غـزال

العددان السابع عشر والثامن عشر : اب ـ تشرين الثاني ١٩٨٤

ـ نظرة في فهم التاريـخ — د. سليمان سعدون البدر

ـ بعض ملامح الاتجاهات الرئيسية في الاستشراق — د. احمد درغـام

ـ ايلاف قريش ـ ملاحظات حول عوامل السيادة المكية قبل الاسلام — د. صالح درادكة

ـ اوضاع الفلاحين في العراق والشام في صدر الاسلام — د. نجدة خماش

ـ ملاحظات حول نمط الحكم في ولايات التخوم — د. نبيه عاقـل

ـ الاقتصاد الدمشقي في مواجهة الاقتصاد الاوربي — د. عبدالكريم رافق

ـ من خفايا السياسة البريطانية في المشرق العربي : المكتب العربي في القاهرة ـ دراسة في الوثائق الدبلوماسية — د. خيرية قاسمية

ـ من وثائق التاريخ الاجتماعي في القطر العراقي — د. عبد النبي اصطيف

العددان التاسع عشر والعشرون : نيسان ـ تموز ١٩٨٥

ـ المؤتمر الاســلامي العام في القدســ ١٩٣١ ـ محاولة للبحث عن نصــير — د. خيرية قاسمية

ـ من تاريخ سورية الحديث ـ العلاقات السورية ـ التركية ١٩١٨ ـ ١٩٢٦ — د. عبد الكريم رافق

ـ الحياة الفكرية في الاندلس من خلال بلاط الحكم المستنصر بالله — د. احمد بـدر

ـ القبائل العربية في بلاد الشام وموقفها من حركة الفتح الاسلامي — د. محمد ضيف الله بطاينة

ـ دور جذام في الفتوح الاسلامية — د. صالح الحمارنة

ـ عوامل سياسية واقتصادية في تطور سورية في العصر الارامي القديم (حتى نهاية القرن الثامن ق.م) — د.محمدحرب فرزات

ـ الصلات التجارية بين مصر وسورية حتى نهاية الدولة القديمة (٤٠٠٠ ـ ٢٢٨٠ قم) — د. محمود عبدالحميدأحمد

ـ الموقف الدولي من احتلال محمد علي باشا لبلاد الشام من خلال الوثائق العثمانية — علي يوسف البلخي

العددان الواحد والعشرون والثاني والعشرون : آذار ـ حزيران ١٩٨٦

ـ الندوة الثانية حول مشروع كتابة تاريخ العرب

ـ بيان هام لاتحاد المؤرخين العرب

ـ النظام المالي في عهد الخلفاء الراشدين — د.محمدضيف الله بطاينة

ـ البلقاء من الفتح الاسلامي حتى نهاية القرن الثالث الهجري — د.محمدعبد القادر خريسات

ـ النظام المالي عند الحفصيين — د. صالح فياض ابو دياك

ـ استعمال العربية في الدواوين المالية — د. فالح حسين

ـ الادب في التاريخ الارامي القديم — د. محمد حرب فرزات

ـ الابلائية لغة مدونة في وثائق ملكية — د. يسرى الكجك

ـ ماردو (الاموريون) في نصوص ابلا — الفونسو اركي، ترجمة قاسم طوير

ـ وثيقة مقدسية تاريخية جديدة ـ كتاب الوقف الذي انشأه الملك الظاهر بيبرس البند قداري الصالحي المتوفى سنة ٦٧٦ هـ على مقام النبي موسى عليه السلام — د. كامل جميل العسلي

ـ الارشيف الوطني الهندي وموجوداته من وثائق العراق والخليج العربي — د.مصطفى عبدالقادر النجار

ـ كندة وعلاقتها بملوك الفرس وعمالهم ملوك الحيرة — محسن يونس

- جغرافية اليمن في القرن الاول للهجرة — محمد سعيد شكري
- لمحات عن يهود الجزائر (منذ مطلع القرن ١٨ حتى عام ١٨٣٠) — محمد دادة
- قضية الموصل وصداها في الاوساط العراقية — جعفر الحيالي

العددان الثالث والعشرون والرابع والعشرون : أيلول - كانون الاول ١٩٨٦

- عبد الرحمن الكواكبي - دراسة في فكرة السياسي — د. سهيلة الريماوي
- أوضاع الفلاحين في دمشق وصناجقها — د. يوسف نعيسة
- التجارة الدولية في مناطق شرق الاردن في العهد المملوكي — د. يوسف غوانمة
- العلاقات الاقتصادية في منطقة ما بين النهرين السورية (في القرنين الخامس والسادس (القسم الاول) — د. نعيم فرح
- التاجر ونشاطاته في العهد البابلي القديم — د. عيد مرعي
- ثورة ابن الشريف الدرقاوي ضد الاتراك في القرن التاسع عشر — الغالي الغربي
- السياسة التعليمية في منطقة القبايل — عبد القادر حلوش
- عصبة العمل القومي واسهامها في الحركة القومية في سورية (١٩٣٣ - ١٩٣٩) — مصطفى بلاوني
- بعض مظاهر التنظيم الاداري في بلاد الشام خلال حكم محمد علي باشا — فندي ابو فخر
- ملاحظات حول اللغة الابلائية وقواعدها — د. عيد مرعي

العددان الخامس والعشرون والسادس والعشرون ، اذار - حزيران ١٩٨٧

- البنية الاجتماعية والاقتصادية لمحلة باب المصلى (الميدان) بدمشق (١٨٢٧ - ١٨٧٥) — د. عبد الكريم رافق
- الادارة في الاندلس في عهد عبد الرحمن الداخل — د. نجدة خماش
- العلاقات الاقتصادية - الاجتماعية في منطقة ما بين النهرين السورية (القسم الثاني) — د. نعيم فرح

- مملكة يمحاض (حلب) — د. شوقي شعث
- سورية في عصور ما قبل التاريخ (مؤتمرات تاريخية) — د. سلطان محيسن
- حركة تدوين الانساب من العصر العباسي الاول — مريم محمد خير الدرع
- ذيول مؤرخي الصائبة على تاريخ الطبري — سميحة ابو الفضل

العددان السابع والعشرون والثامن والعشرون ، ايلول ـ كانون الاول ١٩٨٧

- الرؤية القومية لكتابة تاريخ الخليج العربي — د. مصطفى عبد القادر النجار
- السمات الاساسية للحركة القومية العربيـة في ظل تحالـف القوى البرجوازية الوطنية والصغيرة في سورية — د. نجاح محمد
- مصالح فرنسا الاقتصادية في سورية (١٥٣٥ـ١٩٢٠) — د. محمد رجائي ريان
- القطائع في صدر الاسلام (عصر الرسول والخلفاء الراشدين) — د. محمد عبد القادر خريسات
- يخدون ـ ليم ملك ماري « وثيقة تأسيس معبد اله الشمس (شماش) في مـاري » — د. عيـد مرعي
- المرأة في مملكة حلب (يمحاض) في القرن الثامن عشر قبل الميلاد — د. فيصل عبدالله
- ملـوك ابـلا العشـرة — الفونسو آركي / ترجمة قاسم طوير
- هل للعبرانيين وجود في ابـلا — و. لوريتس / ترجمة قاسم طوير
- هل جاءت التوراة من جزيرة العرب — د. محمود ابو طالب
- هل التوراة على حق .. ؟ — ترجمة قاسم طوير عن مجلة دير شبيغل
- المؤتمر الدولي الثالث والثلاثون لعلماء الاشوريات — د. فيصل عبد الله
- الهجرة الجزائريـة الى بلاد الشام في مطلـع القرن العشرين ١٩٠٩ ـ ١٩١١ — ناديا طرشـون
- رجال الادارة والسياسة والجيش من المغاربة والاندلسيين في مصر (من القرن السـابع حتى نهاية القرن التاسع للهجرة). — علي احمـد

العددان التاسع والعشرون والثلاثون ، اذار ـ حزيران ١٩٨٨

ـ الخراج والجزية في عهد الرسول (ص)	د. صالح موسى درادكة
ـ العشور ـ ضرائب التجارة في صدر الاسلام	د. فالح حسين
ـ الادارة المالية في المملكة السلوقية	د. مفيد رائف العابد
ـ مدينة حمص في العهد الروماني	عبد الحميد عز الدين
ـ ادريمي ملك الالاخ	د. عيد مرعي
ـ بعض الاسس النظرية للصناعات الحربية في العهدين الايوبي والملوكي	المهندس آزاد علي
ـ ابن فضل الله العمري وكتابة مسالك الابصار في ممالك الامصار	سيف الدين القصير
ـ نظام الحسبة في الاسلام	محمد زيود
ـ مؤسسة الطلبة في دولة الموحدين	فارس بوز
ـ من تاريخ حلب ـ حكم قسيم الدولة آق سنقر	محمد ضامن
ـ الاقطاع العسكري في العهد الايوبي	امين أبو دمعة

العددان الواحد والثلاثون والثاني والثلاثون ، آذار ـ حزيران ١٩٨٩

ـ ملكية الارض واثرها في التبدلات الاجتماعية والاقتصادية في الوطن العربي* ندوة ، ٢٨ـ٣٠/١١/١٩٨٨	
ـ مظاهر اقتصادية واجتماعية من لواء حماه (٩٤٢ ـ ٩٤٣/ ١٥٣٥ ـ ١٥٣٦)	د. عبد الكريم رافق
ـ النشاط الصهيوني في العراق خلال الانتداب البريطاني	د. هشام فوزي عبد العزيز
ـ البيروني وأسس الانتروبولوجيا الثقافية	د. أحمد الربابعة
ـ ادعياء النبوة في صدر الاسلام ـ طليحة بن خويلد الاسدي	د. احسان صدقي العمد

---

* تصدر وقائع الندوة في عدد خاص .

– خبرو – خابيرو ، مشكلة حقيقية أم مفتعلة — د. فيصل عبد الله

– الموحـــدون وبنو غانيـــة — علي أحمـــد

– الجيش عند الموحديـــن — فايزة كلاس

– تقرير اقتصادي ألماني عن سورية ولبنان (١٩٤١) — فولكر بيرتس

– مؤتمرات تاريخية : ما قبل التاريخ في المشرق — د. سلطان محيسن

– مع الكتب : دمشق القديمة ، واين بيتارد — د. عيـــد مرعي

العددان الثالث والثلاثون والرابع والثلاثون ايلول – كانون اول ١٩٨٩

– عصر النهضة العربية ونشأة الفكر القومي وتطوره (بلاد الشام) — د. أحمد برقاوي

– جانب من فعاليات محب الدين الخطيب (الجانب الصحافي) — د. سهيلة الريماوي

– نموذج في دراسة تاريخ وأصول العشائر الاردنية في الوثائـــق العثمانية (معان) — د. سعد ابو دية

– علم التاريخ وتطوره عند المسلمين (في القرن الرابع الهجري) — د.محمد رجائي ريان

– البنية النظرية لكتاب « الانيق في المناجيق » لابن ارنبغا الزردكاش — م. آزاد علي

– القصص والقصاص في صدر الاسلام
بين الواقع التاريخي والنظرية الفقهية — د. جمال جـــودة

– في تاريخ اللغـــة العربيـــة — د. مسعود بوبو

الفهـرس العـــــام

١٩٨٠ – ١٩٨٦

بحسب أسماء الباحثين

أبو دمعة ، امين : الاقطاع العسكري في العهد الايوبي ، ٢٩ و ٣٠ (١٩٨٨) ص ٢١١ – ٢٣٧ .

أبو ديـة ، سـعد : نموذج في دراسة تاريخ وأصول العشائر الاردنية في الوثائق العثمانية (معان) ٣٣ و ٣٤ (١٩٨٩) ص ٢٣ – ٤٨ .

أبو الفضل ، سميحة : ذيول مرخي الصابئة على تاريخ الطبري ، ٢٥–٢٦ (١٩٨٧) ص ١٨٩–٢٠٢ .

أبو دياك ،صالح فياض : النظـام المالي عنـد الحفصيين ، ٢١ و ٢٢ (١٩٨٦) ص ٨٧–١١٤ .

أبو عساف ، علي : ملـوك أوغاريت مـن خـلال الوثائـق ، ١ (١٩٨٠) ص ١٢٩ – ١٤١ .

أبو عساف ، علي : مملكة بيت بحياني الارامية ، ٦ (١٩٨١) ص١٤٧ – ١٥٩ .

أبو فخر ، فندي : بعض مظاهر التنظيم الاداري في بلاد الشام خلال حكم محمد علي باشـا ١٨٣١ – ١٨٤٠ ، ٢٣ و ٢٤ (١٩٨٦) ص١٩٩ – ٢١٦ .

أبو طالب ، محمـود : هل جاءت التوراة من جزيرة العرب (مراجعة كتاب) ٢٧ ٢٨ (١٩٨٧) ص ١٣١ – ١٤٤ .

أبيض ، ملكـة : الدور التربوي للمسجد الجامع بدمشق (من الفتح حتى عام ٨٦ هـ / ٧٠٥ م) ٧ (١٩٨٢) ص ٩٨–١١٤ .

احمـد ، علـي : رجال الادارة والسياسة والجيش من المغاربة والاندلسيين في مصر (من القرن السابع حتى نهاية القرن التاسع للهجرة) ٢٧ – ٢٨ (١٩٨٧) ص ١٩٠ – ٢٠٩ .

أحمـد ، علـي : الموحدون وبنو غانية ، ٣١ و ٣٢ (١٩٨٩) ص ١٨٧–١٩٦ .

احمـد ، محمـود عبـد الحميـد : الصلات التجارية بين مصر وسورية ، منذ عصور ما قبل الاسرات حتى نهاية الدولة القديمة (٤٠٠٠ – ٢٢٨٠ ق.م) ١٩ و ٢٠ (١٩٨٥) ص ١٩٣ – ١٩٩ .

آركـي ، الفونسو : ماردو ، الاموريون في نصوص ابلا (ترجمة قاسـم طوير) ٢١ و ٢٢ (١٩٨٦) .

آركـي ، الفونسو : ملوك ابلا العشرة (ترجمة قاسم طوير) ٢٧ و ٢٨ ، (١٩٨٧) ص ١١٩ – ١٢٢ .

امين ، حسـين : المسجد واثره في تطوير التعليم ، ٥ (١٩٨١) ص٥–١٣ .

بخيت ، محمد عدنان : الامير حسين بن فخر الدين المعني الثاني ـ حياته وآثاره ، ٩ و ١٠ (١٩٨٢) ص ٧٨ ـ ٩٣ .

بخيت ، محمد عدنان : معان وجوارها ـ استعراض تاريخي ، ١٢ (١٩٨٣) ص ٤٤ـ٧٣ .

بخيت ، محمد عدنان : دور أسرة آل الحنش والمهام التي أوكلت اليها في ريف دمشق الشام ٧٩٠هـ/١٣٨٨ ـ ٩٧٦هـ/١٥٦٨ (دراسة وثائقية)، ١٣ و ١٤ (١٩٨٣) ص ٨٨ ـ ١٣٧ .

بدر ، احمد : كتابة تاريخ العرب ، لماذا ؟ ، ١ (١٩٨٠) ص ٩ ـ ٣٦ .

بدر ، احمد : التنظيم العسكري عند العرب المسلمين ـ فترة النشأة والتكوين ، ٤ (١٩٨١) ص ١١٠ ـ ١٦٦ .

بدر ، احمد : هجرة الثقافة من المشرق الى المغرب في القرن الثاني للهجرة ٨ (١٩٨٢) ص ٧٧ ـ ٩٤ .

بدر ، احمد : المجتمع الاندلسي والمجتمع الاسباني في عصر ملوك الطوائف ١٥ و ١٦ (١٩٨٤) ص ٣٢ ـ ٦٦ .

بدر ، احمد : الحياة الفكرية في الاندلس من خلال النشاط الفكري في بلاط الحكم المستنصر بالله ، ١٩ و ٢٠ (١٩٨٥) .

البدر ، سليمان سعدون : نظرة في فهم التاريخ ، ١٧ و ١٨ (١٩٨٤) ص٧ـ٤٣ .

بدر الدين ،عبد الرحمن : العرب في شرق افريقية ـ جزر القمر ، ١ (١٩٨٠) ص ١١٥ ـ ٢٨ .

برقاوي ، احمد : عصر النهضة العربية ونشأة الفكر القومي وتطوره (بلاد الشام) ٣٣ ، ٣٤ (١٩٨٩) ص ٩ ـ ٢٢ .

بطاينة ، محمد : القبائل العربية في بلاد الشام وموقفها من حركة الفتح الاسلامي ١٩ و ٢٠ (١٩٨٥) ص ١٣٠ ـ ١٤٨ .

بطاينة ، محمد : النظام المالي في عهد الخلفاء الراشدين ، ٢١ و ٢٢ (١٩٨٦) ص ١١ ـ ٤٨ .

بكار ، يوسف : بيت المقدس كما صورها ناصر خسرو في رحلته ، ٥ (١٩٨١) ص ١١٧ ـ ١٢٦ .

بلاوني ، مصطفى : عصبة العمل القومي واسهامها في الحركة القومية في سورية (١٩٣٣ ـ ١٩٣٩)، (٢٣ و ٢٤) (١٩٨٦) ص١٩٠ـ١٩٨.
١٩٠ ـ ١٩٨ .

بلخـي ، علي يوسف : الموقف الدولي مـن احتلال محمد علي باشا لبـلاد الشـام ١٨٣١ ـ ١٨٤٠ من خـلال الوثائق العثمانيـة ، ١٩ و ٢٠ ١٩٨٥) ص ٢٠٠ـ٢١٨ .

بنعبد الله ، عبد العزيز : التراث العربي وعناصره الصالحة لنهضة عربية حديثة ، ٣ (١٩٨٠) ، ص ٣٩ ـ ٦٤ .

بنـي ، عدنـان : التدمريون في الدنيا الرحيبة ، ٢ (١٩٨٠) ص٣٧ـ٥٢ .

بنـي ، عدنـان : حول الاهمية الاثريـة لمكتشفات ايـلا (تـل مرديخ) ، ٨ (٩٨٢) ص ٩٥ ـ ١٠١ .

بـوّز ، فارس : مؤسسة الطلبة في دولـة الموحدين ، ٢٩ـ٣٠ (١٩٨٨) ص١٧١ ـ ١٨٧ .

بيطـار ، امينـة : الحياة الاقتصادية في بلاد الشـام بين ١٣٢ ـ ٣٥٩ هـ ، ٣ (١٩٨٠) ، ص ١٢٣ ـ ١٥٥ .

بوبو ، مسعود : في تاريخ اللغة العربية ، ٣٣ و ٣٤ (١٩٨٩) ص ١٦١ .

بيرتس ، فولكـر : سورية ولبنان في تقرير اقتصادي الماني (١٩٤١) ، ٣١ ـ ٣٢ (١٩٨٩) ص ٢١٩ ـ ٢٣٤ .

التازي ، عبد الهادي : فكرة المغرب العربي من خلال الوثائق الدبلوماسية ، ١٣ و ١٤ (١٩٨٣) ، ص ٥ ـ ٢٢ .

التدمري ، عمـر عبـد السـلام : الرباط والمرابطون في ساحل الشام من الفتح الاسلامي حتى الحروب الصليبية ، ٥ (١٩٨١) ، ص ٧٧ـ٩٨ .

تميمي،عبد الخالق خلف : تطور علاقات الكويت بالاقطـار العربيـة قبل الاسـتقلال ٩ و ١٠ (١٩٨٢) ، ص ٩٥ ـ ١١٩ .

جـودة ، جمـال : القصص والقصاص في صدر الاسلام ، بين الواقع التاريخي والنظرية الفقهية ، ٣٣ و ٣٤ (١٩٨٩) ص ١٤٣ ـ

الجنحاني ، الحبيب : نظام ملكية الارض في المغرب الاسلامي من القرن ١ـ٦هـ/ ٧ ـ ١٢م ، ٥ (١٩٨١) ، ص ٣٠ ـ ٤٤ .

حاج ابراهيم ،مصطفى : بين التاريخ الجغرافي والجغرافيا التاريخية في الوطن العربي ٢ ، (١٩٨٠) ، ص ١١٧ ـ ١٣٣ .

حاجيات ، عبد الحميد : مساهمة المغـرب العربي في ازدهـار الحضـارة العربيـة الاسلامية ، ٧ (١٩٨٢) ، ص ٣٤ ـ ٧٣ .

الحسون ، مصطفى : الرصافة أيام الغساسنة ١١ ، (١٩٨٣) ، ص ٧٩ـ٩٥.

حسـين ، فالـح : استعمال العربية في الدواوين المالية قبل عبد الملك بن مروان وبعده ٢١ و ٢٢ (١٩٨٦) ، ص ١١٥ ـ ١٣٤ .

حسين ، فالح : العشور (ضرائب التجارة في صدر الاسلام) ٢٩ و ٣٠ (١٩٨٨) ص ٣٣ — ٥٢ .

الحمارنة ، صالح : مروان بن الحكم والخلافة ، ٦ (١٩٨١) ، ص ٢٩—٥٨ .

الحمارنة ، صالح : دور جذام في الفتوح الاسلامية ، ١٩ و ٢٠ (١٩٨٥) ص١٤٩ — ١٦٩ .

حلوش ، عبد القادر : السياسة التعليمية الفرنسية في منطقة القبايل (١٨٧١ — ١٩١٤ ، ٢٣و٢٤ (١٩٨٦) ، ص ١٧٩—١٨٩ .

حيالي ، جعفر : قضية الموصل وصداها في الاوساط العراقية ، ٢١و٢٢ (١٩٨٦) ، ص ٢٣٧—٢٤٦ .

حياري، مصطفى علي : حياة الناس في مدن الثغور ، مدينة طرسوس ، ٤ (١٩٨١) ص ٨٥—٩٥ .

خريسات ، محمد عبد القادر : خالد بن يزيد بن معاوية واهتماماته العلمية ، ١٣و١٤ (١٩٨٣) ص ٢٣—٥٠ .

خريسات ، محمد عبد القادر : البلقاء من الفتح الاسلامي حتى نهاية القرن الثالث الهجري (دراسة سياسية ادارية) ٢١و٢٢ (١٩٨٦) ص٤٩—٨٦.

خريسات ، محمد عبد القادر : القطائع في صدر الاسلام (عصر الرسول والخلفاء الراشدين) ٢٧ ، ٢٨ (١٩٨٧) ص ٦٧—٩٨ .

خليفات، عوض محمد : العرب والنوبة في صدر الاسلام ٨، (١٩٨٢) ص ٥٠—٧٦.

خماش ، نجدة : الردة وموقف ابي بكر منها ٥ (١٩٨١)ص١٥١—١٦٣ .

خماش ، نجدة : تعريب النقد واثره على العلاقات العربية — البيزنطية والوضع الاقتصادي ، ١٥و١٦ (١٩٨٤) ص ١٣٣—١٤٦.

خماش ، نجدة : أوضاع الفلاحين في العراق والشام في صدر الاسلام ١٧و ١٨ (١٩٨٤) ص ٧٣—٨٧ .

خماش ، نجدة : الادارة في الاندلس في عهد عبد الرحمن الداخل ، ٢٥—٢٦ (١٩٨٧) ص٦٣—٧٩ .

دادة ، محمد : لمحات من يهود الجزائر منذ مطلع القرن الثامن عشر حتى ١٨٣٠ ، ٢١ و ٢٢ (١٩٨٦) ص ٢٢٠ — ٢٣٦ .

درغام ، احمد : بعض ملامح الاتجاهات الرئيسية في الاستشراق ١٧ و ١٨ (١٩٨٤) ص ٤٤—٥١ .

درادكة ، صالح : الردافة على ضوء بعض العلاقات القبلية في شمال شرق

الجزيرة العربية قبل الاسلام (في القرن السادس ومطلع السابع للميلاد) ١١ (١٩٨٣) ص ٢٢–٥٢ .

دراركة ، صالح : لمحات من تاريخ ايلة (العقبة) في العصر الاسلامي ١٥و١٦ (١٩٨٤) ص ٦٧–١١٠ .

دراركة ، صالح : ايلاف قريش ، ملاحظات حلول عوامل السيادة المكية قبل الاسلام ، ١٧و١٨ (١٩٨٤) ص ٥١–٧٢ .

دراركة ، صالح موسى : الخراج والجزية في عهد الرسول (ص) ، ٢٩و٣٠ (١٩٨٨) ص ٩–٣١ .

الدرع ، مريم : حركة تدوين الانساب في العصر العباسي الاول ، ٢٥و٢٦ (١٩٨٧) ص ١٦٧–١٨٨ .

رافق ، عبد الكريم : مظاهر من الحياة العسكرية العثمانية في بلاد الشام (من القرن السادس عشر حتى مطلع القرن التاسع عشر) ١ ، (١٩٨٠) ، ص ٦٦ – ٩٥ .

رافق ، عبد الكريم : مظاهر من التنظيم الحرفي في بلاد الشام في العهد العثماني ٤ ، (١٩٨١) ، ص ٣٠ – ٦٢ .

رافق ، عبد الكريم : قافلة الحج الشامي وأهميتها في الدولة العثمانية ، ٦ (١٩٨١) ، ص ٥–٢٨ .

رافق ، عبد الكريم : جوانب من التاريخ العمراني والاجتماعي والاقتصادي في غزة من خلال الوثائق الشرعية ١٢٧٣ – ١٢٧٧/١٨٥٧ – ١٨٦١ ، (القسم الاول مظاهر عمرانية واجتماعية) ٨ ، (١٩٨٢) ص ٧ – ٤٩ .

رافق ، عبد الكريم : جوانب من التاريخ العمراني والاجتماعي والاقتصادي في غزة القسم الثاني مظاهر اقتصادية ٩ و ١٠ (١٩٨٢) ، ص ٥ – ٣٩ .

رافق ، عبد الكريم : مظاهر سكانية من دمشق في العهد العثماني ١٥ و ١٦ (١٩٨٤) ص ٥ – ٢٨ .

رافق ، عبد الكريم : الاقتصاد الدمشقي في مواجهة الاقتصاد الاوربي في القرن التاسع عشر ، ١٧ و ١٨ (١٩٨٤) ، ص ١١٥ – ١٥٩ .

رافق ، عبد الكريم : من تاريخ سورية الحديث ، العلاقات السورية التركية من ١٩١٨ – ١٩٢٦ ، ١٩ و ٢٠ (١٩٨٥) ، ص ٥٦ – ١٠٥ .

رافق ، عبد الكريم : البنية الاجتماعية والاقتصادية لمحلة باب المصلى (الميدان) بدمشق (١٨٢٧ – ١٨٧٥) ، ٢٥و٢٦ (١٩٨٧) ص٧–٦٢.

رافق ، عبد الكريم : مظاهر اقتصادية واجتماعية من لواء حماة (١٩٤٢-١٩٤٣/١٥٣٥ - ١٥٤٦) ، ٣١و٣٢ (١٩٨٩) ص ١٧-٦٦ .

الربابعة ، احمد : البيروني وأسس الانتربولوجيا الثقافية ، ٤١و٤٢ (١٩٨٩) ص ٩٩-١٢٢ .

الريماوي ، سهيلة : صفحات من تاريخ الجمعيات في بلاد الشام من الجمعيات العلمية الى الجمعيات السياسية ، ٧ (١٩٨٢) ، ص ١٣٤ - ١٥٦ .

الريماوي ، سهيلة : صفحات من تاريخ الجمعيات في بلاد الشام (١٩٠٨-١٩٠٩) ٩ و ١٠ (١٩٨٢) ، ص ١٢٠ - ١٤٠ .

الريماوي ، سهيلة : تطور مفهوم اللا مركزية عند العرب العثمانيين (١٩٠٠ - ١٩١٨) ١٣ و ١٤ (١٩٨٣) ، ص ١٣٨ - ١٨٤ .

الريماوي ، سهيلة : صفحات من تاريخ الجمعيات في بلاد الشام (١٩٠٨-١٩١٨) حزب اللا مركزية الادارية العثماني ، ١٥ و ١٦ (١٩٨٤) ص١٧٣ - ٢٠٦ .

الريماوي ، سهيلة : عبد الرحمن الكواكبي ، دراسة في فكره السياسي ٠ ٢٣ و ٢٤ (١٩٨٦) ، ص ٧ - ٤٦ .

الريماوي ، سهيلة : جانب من فعاليات محب الدين الخطيب (الجانب الصحافي) ٣٣و٣٤ (١٩٨٦) ص ٢٣-٤٨ .

الريان ، محمد رجائي : مصالح فرنسا الاقتصادية في سورية (١٥٣٥-١٩٢٠) ، ٢٧و٢٨ (١٩٨٧) ص٣٣-٦٥ .

الريان ، محمد رجائي : علم التاريخ وتطوره عند المسلمين (في القرن الرابع الهجري) ٣٣و٣٤ (١٩٨٩) ص

زكار ، سهيل : التشريع الاقتصادي الاسلامي ودور الامام محمد بن الحسن الشيباني في ارساء دعائمه ، ٢ (١٩٨٠) ، ص ١٠٣-١١٦ .

زكار ، سهيل : الدولة الرستمية في تيهرت ، ١٢ (١٩٨٣) ، ص٧٤-٩٠ .

زيتون ، عادل : أضواء على العلاقات التجارية بين السلطنة الايوبية وجمهورية البندقية ١١٧١ - ١٢٥٠ ، ٢ (١٩٨٠) .

زيود ، محمد : نظام الحسبة في الاسلام ، ٢٩و٣٠ (١٩٨٨) ص١٤٩-١٧٠ .

زيادة ، نيقولا : المشرق الاسلامي في القرنين الثالث والرابع للهجرة (عصر الفارابي) ، ٨ (١٩٨٢) ص ١٠٢ - ١٤٣ .

سطيف ، عبد النبي : من وثائق التاريخ الاجتماعي في القطر العراقي خلال الحرب العالمية الاولى ، ١٧ و ١٨ (١٩٨٤) ص١٨٤ - ١٩٤ .

سعيدان ، احمد سليم : مطالعات في تاريخ العلوم في العصر الاموي ، ٣ (١٩٨٠) ص ١١٣ — ١٢٢ .

سعيدي ، عمر : الواجهة العسكرية للحضارة العربية الاسلامية — فتح افريقية ، جذوره السياسية وأبعاده الاستراتيجية ، ٥ ، (١٩٨١) ص ٤٥ — ٥٥ .

سعيدي ، عمر : محاولات الفاطميين الاستيلاء على مصر — الابعاد الدولية والاستراتيجية ، ٧ (١٩٨٢) ، ص ٧٤—٨٢ .

سعيدوني ، ناصرالدين : الوقف ومكانته في الحياة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية في الجزائر في أواخر العهد العثماني وأوائل الاحتلال الفرنسي ، ٥ (١٩٨١) ، ص ٥٦ — ٧٦ .

شعث ، شوقي : مملكة يمحاض (حلب) ، ٢٥و٢٦ (١٩٨٧) ص١١٢—١٣٠ .

شكري ، محمد سعيد : جغرافية اليمن في القرن الاول للهجرة ، ٢١ و ٢٢ (١٩٨٦)، ص ٢٠٥ — ٢١٩ .

شلشر ، ليندا : فصل من تاريخ سورية الحديث — صور من حوران في القرن التاسع عشر (ترجمة) ٩ و ١٠ ، (١٩٨٢) ، ص ١٤١ — ١٦٧ .

صابر ، محي الدين : معالم الحضارة العربية الاسلامية في افريقية ، ٧ ، (١٩٨٢) ص٧ — ٣٣ .

الصواف ، فائق بكر : بعض مظاهر الحضارة العربية الاسلامية في جزيرة صقلية، ١٢ ، (١٩٨٣) ص ١٢١ — ١٤٤ .

ضامن : محمد : من تاريخ حلب— حكم قسيم الدولة آقسنقر (٤٧٩—٤٨٧هـ /١٠٨٦ — ١٠٩٤م) ٢٩و٣٠ (١٩٨٨) ص ١٨٩—٢٣٧ .

ضاهر ، مسعود : المؤتمر الدولي الخامس عشر للعلوم التاريخية والمهمات المطروحة على عاتق المؤرخين العرب ، ٤ ، (١٩٨١) ، ص ١٦٧ — ١٨١ .

طالبي ، محمد : منهجية ابن خلدون التاريخية وتأثيرها في المقدمة وكتاب العبر ، ٣ (١٩٨٠) ، ص ٥ — ٣٨ .

طربين ، احمد : أصول تباين مواقف الدول الاوربية حيال المسألة السورية — اللبنانية ١٨٦٠ — ١٨٦١ ، ١ (١٩٨٠) ، ص ٥٣—٦٥ .

طربين ، احمد : مرافق الامن والتعليم والاشغال العامة في فلسطين كما يكشف عنها موظف كبير في الادارة الانتدابية ،١١، (١٩٨٣) ص ٩٦ — ١١٩ .

طرشون ، ناديا : الهجرة الجزائرية الى بلاد الشام في مطلع القرن العشرين (١٩٠٩–١٩١١) ، ٢٧ و ٢٨ (١٩٨٧) ص ١٦١ – ١٨٩ .

طوير ، قاسم : الصورة التاريخية والحضارية للقطر العربي السوري في العصور الشرقية القديمة ، ٦ (١٩٨١) ص ١١٣–١٢٨ .

طوير ، قاسم : هل التوراة على حق ، ٢٧ و ٢٨ (١٩٨٧) ص ١٤٥ – ١٥٤ (ترجمة عن مجلة دير شبيغل) .

عابد ، مفيد رائف : حول مصادر تاريخ العرب القديم ، ٦ ، (١٩٨١) . ص ١٢٩ – ١٤٦ .

عابد ، مفيد رائف : الادارة المالية في المملكة السورية السلوقية ، ٢٩و٣٠ (١٩٨٨) ص ٥٣–٨٤ .

عاقل ، نبيه : انتشار الاسلام في الخليج زمن الرسول الكريم ، ملاحظات ومنطلقات للدراسة ، ١ ، (١٩٨٠) ، ص٢٧–٥٢ .

عاقل ، نبيه : بعض من ملامح الصراع الطبقي في التاريخ العربي ، ٣ ، (١٩٨٠) ، ص ٧٦ – ٩٧ .

عاقل ، نبيه : بعض أحداث الدولة العباسية والدور العباسي الاول من منظور عنصري واقتصادي واجتماعي ، ٤ (١٩٨١) ، ص ٦٣ – ٨٤ .

عاقل ، نبيه : الاسباب الاقتصادية والاجتماعية لمقاومة قريش الدعوة الى الاسلام ، ٧ ، (١٩٨٢) ، ص ٨٣ – ٩٧ .

عاقل ، نبيه : المستشرقون وبعض قضايا التاريخ العربي الاسلامي، ٩و١٠ (١٩٨٢) ، ص ١٦٨ – ١٩٩ .

عاقل ، نبيه : مشكلة الحكم في الاسلام بعد وفاة الرسول ، دراسة للمؤشرات الفاعلة في مرحلة الاصول ، ١٢ (١٩٨٣) ، ص ٧ – ٢٧ .

عاقل ، نبيه : الدعوة العباسية ، دراسة في الهوية من خلال المصادر الجديدة والاراء المتضاربة ، ١٣ و ١٤ (١٩٨٣) ، ص ٥١–٧٣ .

عاقل ، نبيه : ملاحظات حول نمط الحكم في ولايات التخوم في الدور العباسي الاول ، ١٧ و ١٨ (١٩٨٤) ، ص ٨٨–١١٤ .

عباس ، رؤوف : سورية في مخططات السياسة البريطانية ١٩٤٣ – ١٩٤٤ ، ٧ (١٩٨٢) ، ص ١١٥–١٣٣ .

عبد الرحيم، عبد الرحمن عبد الرحيم : وثائق تاريخ مصر الاقتصادي والاجتماعي في العهد العثماني، ٥ ، (١٩٨١) ، ص ١٦٤–١٨٤ .

عبد العزيز ، هشام فوزي : النشاط الصهيوني في العراق خلال فترة الانتداب البريطاني ، ٣١و٣٢ (١٩٨٩) ص ٦٧–٩٧ .

عبد الله ، فيصل : المرأة في مملكة حلب (يمحاض) في القرن الثامن عشر ق.م ، ٢٧و٢٨ (١٩٨٧) ص١١١–١١٨ ، بحث قدم للمؤتمر الدولي الثالث والثلاثين لعلماء الاشوريات ، باريس ٧–١٠ تموز ١٩٨٦ « المرأة في الشرق الادنى في العصور القديمة » .

عبد الله ، فيصل : خبرو (خا – بي – رو) مشكلة حقيقية أم مفتعلة ؟ ٣١و٣٢ (١٩٨٩) ص ١٥٥ – ١٦٨ .

عزالدين عبد الحميد : مدينة حمص في العهد الروماني ، ٢٩و٣٠ (١٩٨٨) ص ٨٥ – ١٠١ .

عزاوي ، عبد المرشد : حدود الجزيرة الفراتية عند الاصطخري وابن حوقل ، بين شمشاط ، وسميساط ، ١٥ و ١٦ (١٩٨٤) ص ١١١ – ١٣٢ .

العسلي ، كامل جميل : وثيقة مقدسية تاريخية جديدة : كتاب الوقف الذي أنشأه الملك الظاهر بيبرس بن عبد الله البندقداري الصالحي المتوفى سنة ٦٧٦هـ على مقام النبي موسى عليه السلام ، ٢١ و ٢٢ (١٩٨٦) ص ١٨١–١٨٦ .

علي ، آزاد : بعض الاسس النظرية للصناعات الحربية في العهدين الايوبي والمملوكي ، ٢٩ و ٣٠ (١٩٨٨) ص ١٢٧ – ١٣٦ .

علي ، آزاد : البنية النظرية لكتاب الانيق في المناجيق (لابن ارنبغا الزردكاش) ٣٣ و ٣٤ (١٩٨٩) ص ١٤٣ – ١٦٠ .

العمد ، احسان صدقي : ادعياء النبوة في صدر الاسلام (طليحة بن خويلد الاسدي) ٣١ و ٣٢ (١٩٨٩) ص ١٢٣–١٥٣ .

عياد ، محمد كامل : أثر صقلية في نقل الحضارة العربية الاسلامية الى الاوربيين ، ٥ ، (١٩٨١) ، ص ١٤ – ٢٩ .

الغربي ، الغالي : ثورة ابن الشريف الدرقاوي ضد الاتراك في مطلع القرن التاسع عشر ، ٢٣ و ٢٤ (١٩٨٦) ، ص١٦٤–١٧٨ .

غزال ، زهير : حول مؤتمر ستراسبورغ عن اقتصاد ومجتمعات الامبراطورية العثمانية ، ١٥ و ١٦ (١٩٨٤) ، ص ٢٠٧ – ٢١٧ .

غوانمة ، يوسف درويش : اضواء جديدة ، على الملك الناصر داود وتحرير بيت المقدس ٤ ، (١٩٨١) ، ص ٩٦ – ١٠٩ .

غوانمة ، يوسف درويش : الطاعون والجفاف واثرهما على البيئة في جنوب الشام

(الاردن وفلسطين) في العصر المملوكي ، ١٣ و ١٤ (١٩٨٣)، ص ٧٤ — ٨٧ .

غوانمة ، يوسف درويش: التجارة الدولية في مناطق شرق الاردن (من جنوب الشام) في العصر المملوكي ٢٣ و ٢٤ (١٩٨٦) ، ص٨٦—١٠٢ .

فحام ، شاكر : عود على بدء ، ٢ (١٩٨٠) ص ٣ — ٣٦ .

فحام ، شاكر : مجلتان تاريخيتان ، ٣ (١٩٨٠) ص ١٥٦ — ١٦٦ .

فرح ، نعيم : الصراع العربي البيزنطي للسيطرة على البحر الابيض المتوسط في القرن الثامن الميلادي ، ١٢ (١٩٨٣) ، ص ٢٨—٤٣ .

فرح ، نعيم : أضواء على الصناعة والتجارة في مدن بلاد الشام ودورها في التجارة العالمية في العهد البيزنطي ، من خلال المصادر اليونانية واللاتينية المعاصرة ، ١٥ و ١٦ (١٩٨٤) ، ص ١٤٧—١٧٢ .

فرح ، نعيم : العلاقات الاقتصادية والاجتماعية في منطقة ما بين النهرين السورية في القرنين الخامس والسادس (القسم الاول) ٢٣ و ٢٤ ، (١٩٨٦) ص ١٠٣ — ١٣٧ .

فرح ، نعيم : العلاقات الاقتصادية — الاجتماعية في منطقة ما بين النهرين السورية في القرنين الخامس والسادس ، (القسم الثاني) ٢٥ و ٢٦ (١٩٨٧) ص ٨٠ — ١١١ .

فرزات ، محمد حرب : عوامل سياسية واقتصادية في تطور سورية في العصر الارامي القديم حتى أواخر القرن الثامن ق.م ، ١٩ و ٢٠ (١٩٨٥) ص ١٧٠ — ١٩٢ .

فرزات ، محمد حرب : الادب في التاريخ الآرامي القديم ، ٢١ و ٢٢ (١٩٨٦) ، ص ١٣٥ — ١٦١ .

قاسمية ، خيرية : الحركة العربية خلال الحرب العالمية الثانية وفي اعقابها ١٩٣٩ — ١٩٥٢ ، ١ (١٩٨٠) ، ص ٩٦—١١٤ .

قاسمية ، خيرية : مع بدايات السياسة الامريكية في المشرق العربي، ٤ (١٩٨١) ص ٥ — ٢٩ .

قاسمية ، خيرية : روسيا القيصرية والمشرق العربي ، ٩و١٠ (١٩٨٢) ص ٤٠—٧٧ .

قاسمية ، خيرية : المقاومة العربية للصهيونية أواخر العهد العثماني (١٩٠٨—١٩١٧) الاتجاهات الرئيسية ، ١١، (١٩٨٣) ص٥٣—٦٨ .

قاسمية ، خيرية : الوطن العربي بين الاتجاه القومي وواقع التجزئة في الفترة بين الحربين العالميتين ، ١٢ (١٩٨٣) ص ٩١ — ١٢٠ .

قاسمية ، خيرية : من خفايا السياسة البريطانية في المشرق العربي خلال الحرب العالمية الاولى ، المكتب العربي في القاهرة ـ قراءة في الوثائق البريطانية ، ١٧و١٨ (١٩٨٤) ، ص ١٦٠ـ١٨٣ .

قاسمية ، خيرية : المؤتمر الاسلامي في القدس ١٩٣١ ـ محاولة للبحث عن نصير ، ١٩ و ٢٠ (١٩٨٥) ، ص ١٧ـ٥٥ .

قرقوط ، ذوقان : الطباعة ودورها في النهضة الاوربية وفي اليقظة العربية ، ١٣ و ١٤ (١٩٨٣) ، ص ١٨٥ـ١٩٦ .

كجك ، يسرى : الابلائية لغة مدونة في وثائق ملكية ، ٢١ و ٢٢ ، (١٩٨٦) ص ١٦٢ـ١٧٦ .

القصير ، سيف الدين : ابن فضل الله العمري وكتابه مسالك الابصار في ممالك الامصار ، ٢٩ و ٣٠ (١٩٨٨) ص ١٣٧ـ١٤٧ .

كلاس ، فايزة : الجيش عند الموحدين ، ٣١ـ٣٢ (١٩٨٩) ص ١٩٧ـ٢١٨ .

ماضي ، أحمد : ابن خلدون والمادية التاريخية ، ٣ ، (١٩٨٠) ، ص٦٥ـ٧٥ .

ماضي ، أحمد : الثقافة والاتجاه الاشتراكي العلمي في الفكر العربي المعاصر ١١ ، (١٩٨٣) ، ص ٧ـ٢١ .

محافظة ، علي : النشاط التبشيري الالماني في فلسطين ، ٢ ، (١٩٨٠) ، ص ٥٣ـ١٠٢ .

محيسن ، سلطان : سورية في عصور ما قبل التاريخ ، ٢٥ و ٢٦ (١٩٨٧) ص ١٢١ـ١٦٦ .

محيسن ، سلطان : ما قبل التاريخ في المشرق، ٣١و٣٢ (١٩٨٩) ص١٧٩ـ١٨٥ .

محفل ، محمد : في أصول الكتابة العربية ، ٦ ، (١٩٨١) ص ٥٩ـ١١٢ .

محمد ، نجاح : السمات الاساسية للحركة القومية العربية في ظل تحالف القوى البرجوازية الوطنية والصغيرة في سورية ، ٢٧و٢٨ ١٩٨٧) ص ١١ ـ ٣٢ .

مرعي ، عيد : التاجر ونشاطاته في العصر البابلي القديم ، ٢٣ و ٢٤ (١٩٨٦) ، ص ١٣٨ـ١٦٣ .

مرعي ، عيد : ملاحظات حول اللغة الابلائية وقواعدها (مراجعة) ٢٣و٢٤ (١٩٨٦) ، ص ١٥٨ـ١٦٢ .

مرعي ، عيد : يخدون ـ ليم ملك ماري ـ وثيقة تأسيس معبد اله الشمس (شماش) في ماري ، ٢٧و٢٨ (١٩٨٧) ص ٩٩ ـ ١١٠ .

مرعي ، عيد : أدريمي ملك الالاخ ، ٢٩و٣٠ (١٩٨٨) ص ١٠٣ـ١٢٦ .

مرعي ، عيد : دمشق القديمة، ٣١و٣٢ (١٩٨٩) ص١٦٩ـ١٧٨ (مراجعة).

ناجي ، سلطان	:	دور الجمعيات الاصلاحية والنوادي الثقافية في مجابهة السياسة التعليمية في عدن خلال تبعيتها للهند (١٨٣٩ ـ ١٩٣٧) ٥ ، (١٩٨١) ، ص١٣٧ــ١٥٠ .
نجار ، مصطفى عبد القادر	:	البصرة أول قاعدة بحرية للتوسع العثماني في الخليج العربي ، ١٥٤٦ ــ ١٨٦٩ ، ٣ ، (١٩٨٠) ، ص٩٨ــ١٠٢.
نجار ، مصطفى عبد القادر	:	الارشيف الوطني الهندي في نيودلهي وموجوداته من وثائق العراق والخليج العربي ٢١و٢٢ (١٩٨٦) ،ص ١٨٧ــ١٩٢.
نجار ، مصطفى عبد القادر	:	الرؤية القومية لكتابة تاريخ الخليج العربي ،٢٧و٢٨ (١٩٨٧) ص ٧ــ١٠ .
نعيسة ، يوسف	:	أوضاع الفلاحين في دمشق وصناجقها ١١٨٦ ــ ١٢٥٦هـ/ ١٧٧٢/١٨٤٠ ، ٢٣ و ٢٤ (١٩٨٦) .
نغوري ، أمين	:	اجناد القبائل العربية في بلاد الشام في العهد المملوكي ، ٥ (١٩٨١) ، ص ٩٩ ــ ١١٦ .
و . لورينس	:	هل للعبرانيين وجود في ابلا ..؟ ، ٢٧ و ٢٨ (١٩٨٧) ص ١١٩ ــ ١٢٢ . (ترجمة قاسم طوير) .
يونس ، محسن	:	علاقة كندة بدولة الفرس وعمالهم ملوك الحيرة ، ٢١ و ٢٢ (١٩٨٦) ، ص ١٩٥ ــ ٢٠٤ .

DIRASAT TARIKHIYYAH

Revue historique trimestrielle

S'interesse a L'histoire des Arabes

Pubiée par la Commission de Redaction de l'Histoire des Arabes

Index general

1980 — 1989